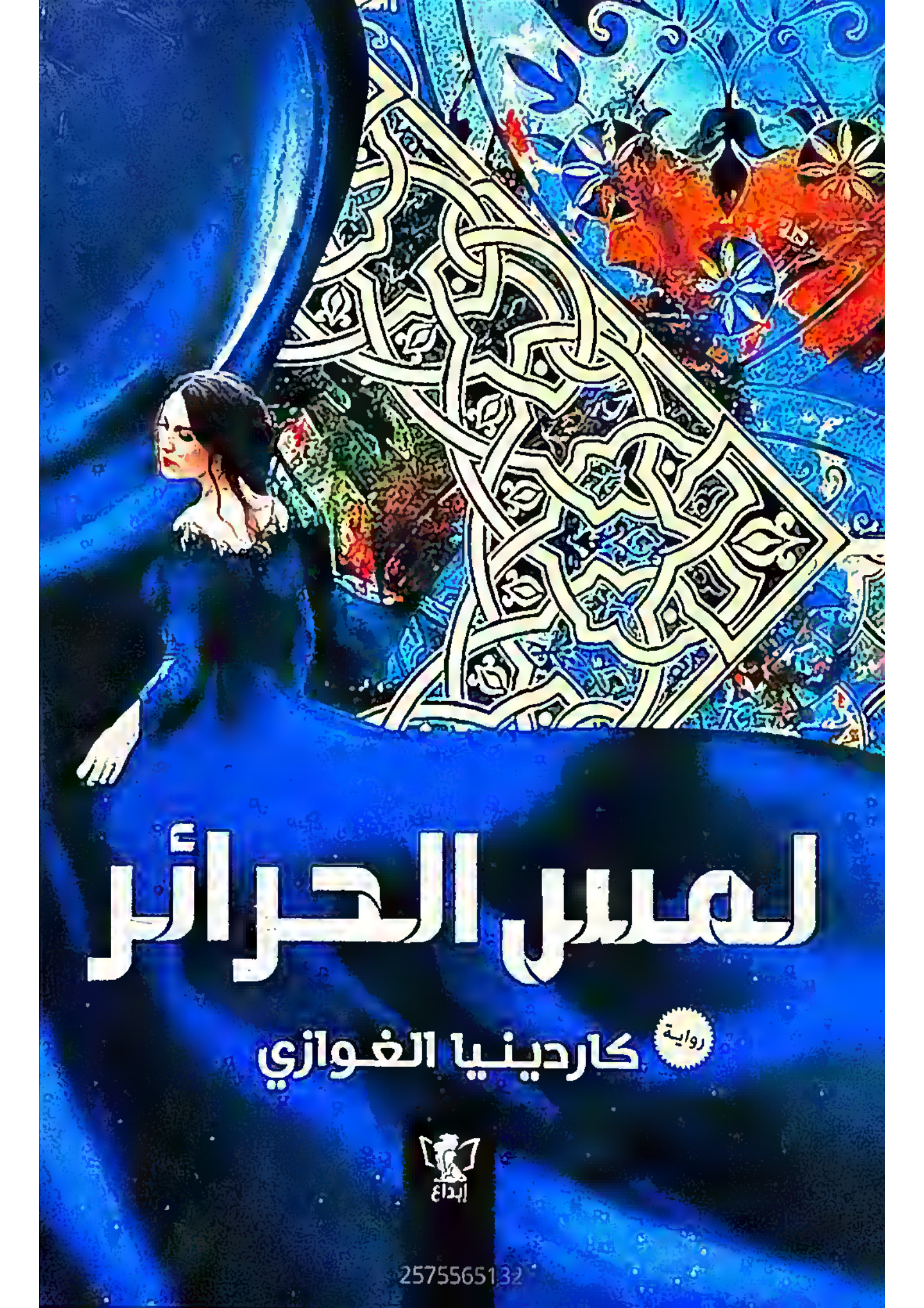


The book cover features a vibrant blue background with a large, intricate, golden-yellow geometric pattern resembling a stylized star or a complex knotwork design. A woman with dark hair, wearing a blue dress, is depicted in a dynamic pose, appearing to be part of the pattern or emerging from it. The overall aesthetic is modern and artistic.

لمس الحرائر

رواية
كاردينيا الغوازي



2575565132

الكتاب: لمس الحرائر
اسم المؤلف: كاردينيا الغوازي
تصميم الغلاف: ريهام البلتاجي
التدقيق اللغوي: ريهام محمد
الطبعة: ديسمبر 2021
رقم الإيداع: 2021 / 1970
الترقيم الدولي: 3 - 348 - 779 - 977 - 978
الموقع: www.ibda3eg.com

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

dreidibrahim@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

للتواصل بخصوص النشر:
info@ibda3eg.com
publishing@ibda3eg.com
للتواصل بخصوص المبيعات
00201004022774

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو
نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض
صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء
والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية
بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 10 ش هدى شعراوي، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0223909119 - موبايل: 01001631173

البريد الإلكتروني: info@ibda3eg.com



dar_ibda3



ibda3-tp



dar_ibda3

لمس الحرائر

رواية عراقية الهوى

تنويه مهم: أسماء العوائل (إن وردت) مجرد تسميات لا ترتبط بأسماء عوائل حقيقية
مشابهة، إنما اخترتها حسب الحكمة التي أريدها والمعاني التي أقصدها.

كيف بدأت حكاية القماشين

بعبوس تسلقت نورجان حافلة نقل الركاب الحمراء ذات الطابقين، وتدافعت قليلاً وسط زحام بشري لتحاول إيجاد ولو بقعة صغيرة خالية تقف فيها، دون أن تُحشر ملتصقة بأحد، تملكها الغيظ لتأخر تصليح سيارتها الصغيرة كما تضايقت من نفسها؛ لأنها تعاند في كل مرة وتستقل الحافلة ذات الطابقين بدلاً من إيقاف سيارة أجرة، دوماً كانت ضعيفة أمام هذه الحافلة (الحلوة) منذ طفولتها عندما كانت تأتي للعاصمة مع والديها لزيارة الأقارب، كانت تجلس في المقعد الخلفي لسيارة أبيها تلتصق بزجاج النافذة كلما اقتربت هذه الحافلة العملاقة، فتتنظر إليها بلهفة وتمنٍ وكأنها مصنع حلويات وسكاكر تود دخوله، زفرت نورجان بقوة والحر يخنقها أكثر داخل هذا الزحام.

«تفضلي يا آنسة».

تنبعت نورجان للجملة وشاب بزي جندي كان جالساً
للتو على أحد المقاعد، ليقف متخلياً عن مقعده لأجلها،
تبسمت بامتنان حقيقي فأطرق الشاب بحياء وهو يُخلي
لها المكان ويبتعد مختلطاً بين جموع الواقفين.

كادت أن تصل الحافلة إلى الموقف القريب من
جامعتها، لم يتبقَ إلا محطتين وينتهي الأمر، لحسن
الحظ الزحام داخل الحافلة خف كثيراً ولم يعد هناك إلا
عدداً قليلاً من الواقفين، ما بين صعود ونزول للراكبين
لم تكن نورجان تهتم بمراقبتهم، وبينما تملّس بيدها على
تنورتها الجامعية الرمادية أجفلت بصدمة وهي تشعر بما
يشبه (القرصة) من الخلف! لم تدم صدمتها إلا ثانيتين
فقط ليثور طبعها الناري الغاضب، وهي تلتفت برأسها
في حدة عنيفة ليطالعها وجه شاب سفيه يبتسم بسماجة

منفرة، وعيناه دون حياء تخبرانها أنه هو من قرصها من
الخلف، مستغلاً الشق السفلي في كراسي الحافلة ما
بين القاعدة والظهر، ثم يرفع حاجبه بطريقة مستفزة
وكأنه يتحداها أن تفعل شيئاً، لم يكن يدري كم أخطأ
التصرف مع الفتاة الخطأ وفي صباح خطأ. وقفت نورجان
على قدميها وعلقت حقيبتها على كتفها ثم واجهت
الشاب النحيل بالقول الأمر: «قم وقف على قدميك».
يدّعي الشاب الاستغراب والتضجر وهو يقول بتأفف:
«عفواً ماذا تريدان؟!».

لكن كل ادعاءاته تهاوت لتغمره الصدمة ونورجان تمد
يدها لياقة قميصه، تسحبه بقوة غير متوقعة من فتاة
شابة تبدو رقيقة من الخارج، فتوقفه رغم إرادته وهي
تزمجر: «قلت لك قم على قدميك لأعلمك بعض
الرجولة».

كان محرّجاً للغاية وكل من حوله بات يتفرّج بصدمة لا
تقل عن صدمته، بينما الحافلة تتوقف فيحاول تخلص
نفسه من قبضتها وهو يهتف بها: «تأدبي يا هذه!».

كانت (جملته) القشة التي قصمت ظهر البعير ليفلت
غضب نورجان الذي يعرفه كل المقربين منها ومع القوة
البدنية التي تتمتع بها منذ صغرها، خاصة وهي تمارس
كل الرياضات (الولادية) من لعب كرة القدم وركوب
الدراجات لمسافات طويلة وغيرها،

كانت تجره جراً لتنزل به من الحافلة وسط ذهول
الجميع وهي تهدر بالقول: «أتأدب يا معدوم الأدب؟!
قسماً بالله لن يعلمك غيري الادب».

ووسط الشارع كانت نورجان (حرفياً) تضرب الشاب
النحيل بقبضتها وحقيبتها وحتى تركله بقدميها، والشاب
عاجز تماماً وقد تجمع بعض الرجال في البداية تأخذهم

الحمية للموقف كي يأخذوا بثأرها، ثم تحول الأمر
لفكاهة وفخر وهم يشجعونها بحماسة بجمل قصيرة
متفرقة (سلمت يداك اضربه أكثر.. بنت رجال بحق..
يسلم الرجل الذي رباك سلمت البطن التي أنجبتك).

تقطعت أزرار قميص الشاب وهو يلهث ولم يعد يدري
كيف يتصرف حتى، ما بين قوة الفتاة غير المتوقعة
وتجمهر الرجال الذين سيأكلونه حياً إن حاول الرد عليها
بالمثل، هذا إن استطاع الرد من الأصل، أوشك أن
يتهاوى أرضاً حين شعر بالإنقاذ إخيلاً وأحدهم يسحبه
سحباً من بين ضربات هذه الفتاة المتوحشة.

كانت نورجان تتنفس سريعاً وكأنها تنفث اللهب، بينما
تتطلع للرجل الأسمر الذي وقف حائلاً بينها وبين ذاك
الشاب السمج، حاولت تجاوزه لتكمل انتقامها؛ لكن
الرجل الأسمر يمنعها فتصرخ به: «ماذا تفعل أنت يا

هذا؟!». «.

في لحظة عجيبة كانت تنظر لعينييه وبكل غباء كانت تفكر كم هما جذابتان بلونهما الداكن العميق، لتهرب من قلبها خفقات متسارعة عندما انفجرت شفتاه عن ابتسامة غاية في الجاذبية، بل إنها لم تر أجمل من ابتسامته هذه وهو يرد على سؤالها بخفوت كأنه يسرها بسر خطير: «أحاول إنقاذ ما تبقى من عمر هذا الشاب».

شرارة من نوع ما انفجرت بينهما وهما يحدقان ببعض، شرارة جعلتها تتراجع عفويًا كأنها تحمي نفسها وخدّاتها يتوردان، أما هو فابتلع ريقه وهو يراها تبتعد أكثر لتقصفه بنظرات غاضبة كالسهام النارية، قبل أن تشمخ بذقنها وتترك ساحة القتال منتصرة.

بعد أسبوع عند بوابة الجامعة

تخرج نورجان برفقة صديقاتها ليتفرقن كلٌ لوجهتها،
بينما تتحرك هي لتعبر الشارع الرئيسي فما زال أمامها
ما يقارب المئة متر حتى تصل مكان ركن سيارتها في
أحد الفروع الضيقة القريبة، لقد تأخرت صباحاً في
الحضور ولم تستطع إيجاد مكان أقرب لبوابة الجامعة،
في طريقها مرت بمحل صغير للمرطبات فقررت أن
تشتري عصيراً بارداً ربما خمس دقائق تأخير ستزيد من
زحام الشوارع وهي عائدة إلى بيت أقارب أبيها، حيث
تسكن في العاصمة؛ لكنها حقاً بحاجة لشيء ينعشها.

بعد دقائق كانت تقف جانباً خارج محل المرطبات
الضيق وهي تطرق برأسها للأسفل في استرخاء، بينما
ترتشف باستمتاع عبر القصبة البلاستيكية عصير
المشمش المثلج، عصير يذكرها بأمها الحبيبة كم
اشتقت لها، كما اشتقت لأبيها، متى تأتي نهاية
الأسبوع لتذهب إليهما وتمتلئ بالطاقة وهي قربهما وسط

مدينتها الشمالية الحبيبة.

رغم أن أباهَا غاضب منها ويخاصمها بعد أن حكّت له
عما فعلته قبل أيام بذاك الشاب في الحافلة؛ لكنها
ليست نادمة ولو عاد بها الزمن ستلقن ذاك المتحرش
الحقير الدرس نفسه.

ارتبكت فجأة وأخذ قلبها يخفق بحماسة، تذكرت ذاك
الرجل الأسمر، شاب في أواخر العشرين ربما يقض
مضجعها كل ليلة بتلك النظرة والابتسامة التي حفرت
موقعاً لها في مخيلتها وتأبى إخفاء الأثر، خيال خُيم
عليها وصوت غريب أُرْعش قلبها بألفة، خاصة في
توقيت عجيب: «مرحباً».

كانت تعرف حتى دون أن ترفع نظراتها إليه كانت
تعرف ما ستراه وما ستشعره؛ لكنها أبت بطبعها العنيد
أن تعترف، ببطء رفعت نظراتها اللامعة العسلية المائلة

لبعض الخضرة فتنظر إليه مدعية الجهل، فتتساءل
ببرود: «عفواً هل تعرفني؟».

تصارع قلبها الخافق وعيناها تواجهان عينيه للمرة
الثانية، الشرارة نفسها انفجرت في وجهيهما معاً، وهو
يبتسم تلك الابتسامة ويرد: «أعرف شاباً عرفك».

أصابعها تقلصت حول قدح العصير البلاستيكي، بينما
تواصل الادعاء وتأبى إظهار التأثير: «شاب عرفني؟!».

لا تعرف لما انحدرت عيناها في انجذاب عفوي
لرقبته، شامة سوداء داكنة عند (تفاحة آدم) بينما هو
يقول بصوت خافت ضاحك: «نعم عرفك عن قرب
شديد، وتعلم أن لا يركب حافلة لآخر عمره».

رفعت عينيها بحدة وانفعال فوري لعينيه لتسأله
بضراوة: «ماذا تريد؟».

قابل عنفها الطبيعي وضراوتها الأنثوية الغاضبة

بنظرات ثابتة، غابت الفكاهة من صوته وهو يقول بعمق وإقرار حقيقة راسخة: «أريد إنقاذ ما تبقى من حياة أخرى». تقلصت أصابعها أكثر حول القدح حتى طقطق صوت تجعده، بينما تساءل بصوت مبحوح: «أي حياة أخرى؟».

رد بشموخ وفي عينيه حكايات كثيرة: «حياة رجل جنوبي لا ينام منذ قرابة الأسبوع، كان يمر في طريقه أمام إحدى جامعات العاصمة. عندما اصطدم بلبوة تزمجر، شعرها النحاسي منشور باهتياج كأنه يزمجر معها، وعيناها العسليتان تحترق الشمس فيهما».

وقع قدح العصير منها أرضاً فأيقظها من الحالة التي هي فيها، لقد كانت تلهث! ثم تحقق فيه وتراه هو الآخر يلهث، همست بعنفوان في مقاومة فطرية: «قد تظن نفسك قوي البنية وستخيفني لأمتنع عن تلقينك درساً

كذاك الشاب الذي أنقذته مني!».».

رد عليها بخشونة وهو يواجهها بما لا يستطيع كلاهما فعله: «وهل أنت تظنين أنك قادرة على تلقين القدر درساً؟! الأمر وقع ولن أكون ابن الجنوب إن لم أحظ بك».».

بعد تسعة أشهر

تقدح عينا زيدون الوندي بنظرات نارية من خلف زجاج نظارته الطبية، يعقد حاجبيه المميزين بلون أحمر نحاسي يماثل لون شعر رأسه، الذي خطه الشيب كثيراً في الأعوام الأخيرة وقد ناهز الخمسين، كانت قبضته متشنجتين إلى جانبي جسده وهو يشعر بانفلات الأمور منه، وعاجز عن جمعها من جديد، زوجته باكية إلى جواره تؤيده بصمت وكلاهما يواجهان الإعصار الناري

الذي أنجباه! ابنتهما الوحيدة نورجان، في المواجهة
تشمخ نورجان بعنادها الموروث وإصرارها وقد تربت
على تحقيق رغباتها مع مزاج عصبي فائر، جعل الجميع
يشبهها بجدها لأبيها التي أصرت على التعلم حتى
اكتسبت المعرفة الصحيحة في توليد النسوة وفق
الضوابط الطبية، فكانت أول قابلة مأذونة في هذه
المدينة شمال العاصمة، ولم تكن عنيدة في تحقيق
مطالبها فقط بل في تحقيق مطالب نسوة المدينة أيضاً،
فكانت تتصدى لهن لتدافع عن حقوقهن مع أزواجهن
وإثارة الزوابع حتى أقلقت مضاجع الرجال من تأثيرها في
نسائهم، والمشاكل التي تثيرها لهم في عقر بيوتهم.

وها هي الحفيدة العشرينية تسلك ذات المنهج بالعناد
وتقلق مضجع أبيها وأمها، وهي تصر على نيل حقها
فيمن تختاره شريكاً لحياتها حتى وإن خالف كل طموح
لوالديها.

في محاولة يائسة جديدة يزمجر الأب في ابنته: «هل هذا المستوى الذي يليق بك يا نورجان؟! أنت أجمل بنات مدينتنا وصاحبة شهادة جامعية بسن أصغر من قريناتك، وابنة الطبيب الجراح زيدون الوندي تريد الزواج من قماش لم يحصل إلا على دبلوم صناعة! شاب جاهل غير مثقف من إحدى قرى الجنوب!». «

حركت نورجان رأسها بعنف للخلف وكأن والدها أهانها للثو وهو يصف حبيبها سليم بهذا الشكل المجحف، فترد عليه ومزاجها العصبي يكاد يفلت منها: «لا يعيبه أن يكون أصله من قرية جنوبية، ويبدو أنك نسيت نسبه، أبي إنه ينتمي للشيخ تاج الدين جده الأكبر قبل مئتي عام علامة في الدين، فطحل في العلوم، صاحب مدرسة فقهية».

للحظة يشعر الأب ببعض الانهزام فيقر بالقول مع

إبداء الحجة لكلامه: «لا أنكر هذا لكن هو نفسه من يستخدم لقب القماش بدلاً من لقب تاج الدين».

لكن نورجان لم تتنازل وهي ترد الحجة بالحجة: «لأنه يحترم هذا النسب الأصيل، ولم يضعه حتى على لافتة دكان أبيه وجده، الذين امتهنوا بيع الأقمشة ومنها كان لقب المهنة الذي يحملونه (القماش)».

عندها هتفت الأم باستهجان: «أهذا ما تريدينه لأولادك؟! أن يبيعوا القماش وسط سوق العاصمة الكبير بين عشرات الدكاكين الصغيرة؟!».

ترد نورجان بعصبية ودفاع مستميت: «سليم طموح للغاية وسيطور نفسه ويوسع من عمله، لن يكون كأبيه وجده، لن يكون مجرد بيع في دكان صغير».

ساد الصمت بين الثلاثة للحظات، لتضيف نورجان والقرار يطل من عينيها العسليتين: «أنا لن أتزوج بغير

سليم، عهد قطعته على نفسي قبل أن أقطعه له».

أخذ الأب يحرك رأسه يميناً وشمالاً في إحباط يائس وهو يتمتم كمن يعض أصابع الندم: «لا فائدة.. لا فائدة.. كانت غلطة كبرى أن أرسلتك لتُهيّ تعليمك الجامعي في العاصمة، لم تكوني ستلتقيه هناك».

اقترب الأب ورفع كفيه ليمسك كتفي ابنته بتشبت كأنه يتوسل إليها التراجع وهو يقول: «فكري من جديد يا ابنتي.. سليم لا ينفك».

ترفع نورجان ذقنها عالياً وهي ترد على أبيها: «أنا لن ينفعني إلا سليم، سواء اختار لنفسه سليم تاج الدين أم سليم القماش كلاهما واحد عندي».

نفض الأب كفيه عن كتفيها بحنق وهو يرد على عنادها وتشبثها بالقول: «إن أصررت على موقفك هذا فاعلمي أنني لن أساعدك بشيء، واذهبي وعيشي مع أمه

في ذاك البيت الصغير في حي مغمور من أحياء
العاصمة، وأريني كيف ستحتملين العيش هناك».

ردت نورجان بشجاعة وربما بعض التهور: «سترى
كيف سأفاجئك بما أستطيع فعله وتحمله».

ثم تحركت خطوة للخلف وهي تنظر لوالديها بعاطفة
وتضيف: «سأثبت لكما أنكما كنتما مخطئين بالحكم
عليه، ستعرفان هذا الأسمر الجنوبي ما يحمله من أحلام
سيحققها ويدهشكما بها».

عرس سليم ونورجان

زغاريد أم سليم ما زالت تلاحق خطوات ولدها وعروسه
وهما يعبران باب الغرفة، غصة في قلب نورجان أن
زغردة حماتها لا تختلط بزغردة أمها.. أمها التي
حضرت العرس كغريبة أتت مجبرة لتبارك، فتكون أول

المغادرات، أما والدها فلم يحضر العرس في بيت عائلة القماش بعد عقد القران الذي تم في مدينتها التي تبعد ساعة عن العاصمة، فرفض السفر بسيارة الزفاف مدعياً التشبث بتلك التقاليد التي تقضي أن لا يحضر الأب زفاف ابنته إلى بيت عريسها، فكان وداعه لابنته بارداً عند باب الدار الذي قضت فيه كل حياتها، ونظراته إليها تحمّلها عتاباً وخيبة، ربما لم يكن عرساً فخماً كما حلم لها والدها منذ طفولتها؛ لكنها تؤكد هي أكثر العرائس فخراً بعريسها.

استند سليم بظهره للباب حالما اغلقه، عيناه الجميلتان لا تحيدان بعيداً عن عروسه التي تقف على بعد مترين فقط وسط الغرفة، يرفع كفه الأسمر ليرخي رابطة عنقه وهو يبتسم تلك الابتسامة التي سحرت نورجان من الوهلة الأولى عندما جمعهما القدر، ثم اقترب منها وهو يقول بصوته خشن النبرات: «ماذا غنى العندليب

المصري عبد الحلیم».

تبتلع نورجان ريقها وقلبها يخفق بجنون ومع كل خفقة
تزداد يقيناً بصحة قرارها، فتتهاوى كل المعارضات
لزواجهما ولا يبقى راسخاً إلا هذا الأساس الذي تكاتفا
لوضع لبنته الأولى، أرادت أن تهزم خجلها الليلة فرفعت
يدها المرتعشة لرأسها كي تخلع عنها طرحة العروس،
فيضحك سليم بارتعاش وهو يفك رابطة عنقه تماماً
ويسحبها من ياقة قميصه الأبيض، شمخت بذقنها في
دلال أنثوي عندما وصل إليها يقف قبالتها، لم يكن
طويل القامة كما لم تكن هي ومع كعب حذاءها العالي
تكاد تماثله طولاً، وجهها قبالة وجهه خفقات قلبها
بمواجهة خفقات قلبه ترد على سؤاله العالق بأنفاس
متسارعة وصوت مرتعش: «عبد الحلیم غنى الكثير يا
ابن تاج الدين».

كفه الأيمن يمتد لخصلات شعرها النحاسي ينثره
ببعض الخشونة العاطفية، بينما كفه الأيسر يفتح أزرار
قميصه وهو يُدللها بصوت مبحوح: «واحدة فقط تعنينا
الليلة يا نونة».

ارتعشت كلها وفمه يهبط بغتة لفمها في أول قبلة
ولمسة عشق بينهما، كلاهما كان يرتعش بعنف وشفثاها
تتعلمان من شفثيه معنى القبل بتعثر مشير ما زالت تهزم
خجلها بنفسها وهي تضم نفسها إليه، فلم ترض لليلتهما
الأولى بأقل من اندفاعها هذا نحوه، حتى وهي جاهلة
تماماً وتتعثر هكذا كمبتدئة إلا أنها أرادت أن تُريه إلى
أي درجة هي سعيدة، إلى أي درجة هي فخورة وواثقة،
لم تعد تشعر بما حولها وطين في أذنيها يشعرها بدوار
لذيد فتهمس بجرأة: «أخبرني أي أغنية يا عيون نونة».

كفاه تمران بشغف فوق قماش فستان العرس الحريري

الأبيض، قماش اختاره بنفسه ولمسته يداه تتأكدان من
جودته قبل نعومته، ثم أرسله للخياطة التي خاطت
الفستان، عيناه الداكنتان تلمعان بحرارة رجل أصيل ثم
أخذ يدندن مكرراً جملة واحدة من الأغنية فاختلطت
اللهجة المصرية للكلمات بلهجة عراقية جنوبية، تشق
القلب حناناً وحرارة وذوباناً في هوى المحبوب: «واللي
شبكنا يخلصنا وللي شبكنا يخلصنا للي شبكنا
يخلصنا».

ومع حروف الكلمات يُشبك شفثيه بشفثيها من جديد
وكفاه تفتحان أزرار الثوب.

بعد عام ونصف العام

تدخل نورجان للبيت وتقف وسط غرفة الجلوس كزويعة
هائجة ومن خلفها زوجها يزمجر بغضب مهول، طفلها

الأول الرضيع «عليّ» على كتفها تربت عفويّاً على ظهره
بينما ترد على زوجها بطبعها الغاضب العنيف: «أنا لم
أخطئ البائع غشني وأنا لا أطيق أن يستغفني أحد».

دخلت حماتها بوشاحها الأسود الذي تلفه حول وجهها
وهي تتساءل بضجر كمن اعتاد الوضع: «ماذا حصل
اليوم؟! هل ضربت أحدهم بحقيبتك أم حقيبة رضيعك».
لم ترد عليها نورجان واكتفت أن سلمت عليّ لجدته،
بينما تضع يدها عفويّاً على بطنها المنتفخة بطفلها
الثاني وهي تواجه زوجها بتمرد: «أنت نفسك لكمته
فلماذا تلومني؟!».

حاول سليم أن يعاملها ببعض التعقل وهو يكظم غيظه
قائلاً: «نحتاجين أن تلجمي طبعك المجنون هذا! أنت
امرأة حامل لو كنتِ نسيتِ هذا وكان معك طفلك الرضيع
أيضاً لم أتركك إلا لبضع دقائق في السوق الكبير لأعود

على جمهرة الناس وأنت تضربين الرجل على أم رأسه
بحقيبتك! لولا أنهم يعرفونني بالسوق لكان الرجل فقد
أعصابه وتعدى عليك».

ردت بعناد ومزيد من التمرد: «لقد استحق هذا كما
استحق قبضتك في وجهه».

هدر صوت سليم بشكل مخيف وهو يعنفها بالقول:
«كفى نورجان.. كفاك.. لقد لكمته لأنه شتمك وليس
لأنك كنتِ محقة بضربه، أنت تختبرين صبري بشكل
يفوق احتمالي، إن كنتِ أدلك وأتسامح مع نوبات
غضبك مع الناس لا يعني أنني أؤيدك في كل شيء
والوضع بات متفاقماً بشكل لا يُحتمل».

تدمع عيناها بقهر وهي ترد عليه: «أنت لم
تعد تحبني».

ثم انفجرت باكية وهي تهوّل مغادرة لغرفتهما في

الطابق العلوي، يتخصر سليم وهو يزفر أنفاسه بقوة فتقترب أمه منه تربت على ذراعه وتقول: «اصبر يا سليم نونة تفتقد والديها».

ينظر سليم لأمه قائلاً بإحباط: «أتظنين أنني لا أعرف! أماه لقد بات كل همي أن أوسع عملي فقط لأجلها، لأجل أن أرفع رأسها أمام الجميع وأولهم والديها، عسى أن يُغيرا رأيهما ويعودان لسابق عهدهما معها».

علقت الأم بامتعاض: «إنهما مغروران! هل يعيننا أننا لسنا بالمستوى الرفيع ذاته؟!».

يعترف سليم بما يجول في خاطره ويكتمه عن نورجان: «لقد توقعا فشل زواجي من نونة يا أمي، توقعا وترقباه لأشهر، وعندما لم يحصل عاملها بجفاء أكبر جعلها تتألم أكثر».

ثم مد كفيه ليأخذ من أمه ولده علي فيضمه لصدره

وبيضيف: «ظننت أن ولادة علي سترقق قلوبهما؛ لكن يبدو واضحاً أن العناد الذي أراه في نونة موروث منهما».

ثم لثم رقبة ولده بشفتيه قبل أن يُعيده إلى جدته قائلاً: «سأذهب إليها هذا الانفعال يضر بها».

لم تعلق الأم بشيء وراقبت ولدها بصمت وهو يتوجه إلى السلم ليرتقي الدرجات وهو يحمل الهم. أم سليم لا تُنكر أن نورجان تعشق سليم كما يعشقها، كما لا تنكر أن كنتها لم تتذمر يوماً بضيق الحال وتغير المستوى الذي اعتادت العيش فيه في بيت والدها، بل إنها فتاة أصيلة وقوية وتدعم زوجها في عمله رغم كل هذا لا يعجب أم سليم هذا التبدل منها، وتحميل زوجها مشقات إضافية.

نظرت الجدة لحفيدها وأخذت تهمس له: «ربما أكون

أظلم والدتك يا صغيري فليغفر لي الله إن فعلت».

ثم ذابت عيناها حناناً فطرباً وهي تلثم الرضيع في عنقه
كما فعل أبوه قبل دقيقة وتهمس له: «ستكون رجلاً
رائعاً كأبيك أنت تشبهه رغم أنك أخذت خضرة عينيك
من أهل والدتك؛ لكن سمرة أهل الجنوب هي الغالبة».

لم يكن سليم يحتاج لأكثر من أن يجلس على طرف
السريـر جوارها وهي مستلقية على بطنها وتغمر وجهها
في الوسادة فيناديها همساً رجولياً: «نونة أنت تخنقين
جنينك هكذا، تعالي في حضني أفضل لك وله ولي
أنا».

هذا كل ما فعله ليحصل على استجابة فورية حارة
وهي ترفع جسدها بحركة متهورة حادة وترمي بنفسها في
حضنه، يضمها ويجد لفمه مساراً حاراً فوق وجنتيها

الرطبتين لتبادر هي بشفتيها سعيًا للقاء شفتيه، كانا
عاشقين حتى النخاع كل ما يواجهان معاً يهون ويذوب
أمام لحظات كهذه، لم يكن مجرد حضن وقبلة، كان
تشبثاً وإصراراً أنهما لبعض وسيظلان هكذا للممات.

من بين شفتيها تهمس لشفتيه: «ابنك سيكون شقياً يا
ابن تاج الدين».

يبتسم تلك الابتسامة التي تجعل قلبها يرفرف ثم
يقول: «شقياً لأمه نونة».

ترفع كفها تحاوط خده تلامس لحيته هامسة بهيام: «يا
روح نونة أنت، سامحني لأنني أغضبك إنه طبع أحرق
موروث من جبل عنيد شربت من نبع ماء شق قساوته
فسقاني عناده وغباوته».

ضحك سليم من كلماتها حتى اهتز صدره العريض
بضحكاته، بينما يضمها إليه أكثر وتمتد يده لتفك أزرار

ثوبها وهو يهمس بخشونة: «دعينا نحل أمر ما سقاك
ذاك الجبل وعلى مهل».

بعد أربع سنوات

يميل سليم ليلثم خد نورجان وهي نائمة جوار طفلهما
الرضيع ثالث أولادهما، فبعد عليّ وعامر رزقهما الله
بعمر، لم يعرف أيشفق عليها أم يضحك وشخيرها يعلو
هكذا، ملّس على شعرها النحاسي الذي قصته قصيراً
قبل الولادة بقليل، فقد عانت بعد ولادة عامر من تساقط
شعرها كثيراً وذبوله، وقد أخبرتها النسوة أن هذا بسبب
الرضاعة، لم يكن يفهم هذه الأمور فكل ما يعرفه أنه لا
يحب شعرها قصيراً وسينتظر لأشهر قبل أن يعود طويلاً
من جديد، عيناه طالعتا بحنان ولده الثالث الرضيع، كان
حنطيّ البشرة وتبدو وسامة وبشراً على وجهه، يتسم في

نومه فيشعر سليم أن هذا الصغير يخلب لبه دوناً
عن شقيقه.

تحرك منسحباً بهدوء من الغرفة مغلقاً الباب خلفه،
اليوم هو يوم مختلف، أخذ ينزل درجات السلم وهو يترحم
على والده، كان يتمنى أن يكون معه اليوم ويشهد افتتاح
المحل الكبير الذي سعى جاهداً لتجميع المال اللازم
لشرائه منذ سنوات، والده كان راضياً بالقليل زاهداً محباً
للعطاء أكثر من سعيه للأخذ، مع هذا ففي قلب سليم
حسرة أنه لم يشهد أولى خطوات ولده الوحيد بالنجاح،
لقد كانت أولى الثمرات، وسيسعى للمزيد.

وجد والدته بانتظاره والمبخرة في يدها وهي تقرأ
القرآن، وقد جهزت الولدين عليّ وعامر ليذهبا مع
والديها ويحضرا افتتاح المحل، عليّ الذي يكاد يبلغ
الخامسة وعامر الذي احتفلوا بعيد ميلاده الرابع قبل

شهر، عامر يحاول مشاكسة شقيقه وهو يجر ياقة قميصه
فيلتفت إليه علي ويوشك أن يلكمه بقبضته الصغيرة،
فيسارع الأب للتدخل ويمسك قبضة علي يحاوطها بكفه
وهو يميل إليه وينظر في عينيه الخضراوين المتمردتين
قائلاً: «قبضتك لا تستخدمها إلا للدفاع عن أخيك
وعائلتك يا علي».

لكن علي عابس وغير راضٍ فبدا كأمة نونة في حالات
تمرد لها وجنونها، تتمم سليم ضاحكاً: «اللي شبكنا
يخلصنا».

قلب سليم يقرع مرتعباً وهو ما زال يبحث عن ولده
عامر، كل من في السوق يبحثون عنه في لحظة واحدة
اختفى عن ناظريه وسط زحمة الزبائن في المحل، شعر
بالندم يأكله لأنه عاند نورجان وأصر على اصطحاب

الصغيرين إلى هنا، كل السوق يبحثون عن عامر وينادون
باسمه وأوشك سليم أن ينهار جزعاً على ولده، عندما
صرخ عليّ فجأة وهو يفلت يده من كف أبيه: «إنه
هناك».

أفلته سليم عفوياً بينما يتبع خطواته الراكضة وهو يتجه
لإحدى زوايا المحل الخفية، حيث تتكدس لفائف
الأقمشة الضخمة، لم يصدق سليم عينيه وهو يلمح طرف
حذاء عامر من خلف إحدى اللفائف وعليّ يصل إليه.

وصل سليم هو الآخر وهو يشعر بتراخي ساقيه، بينما
يرى هذا المشاغب الصغير جالساً على الأرض فارداً
ساقيه بزاوية حادة، بينما يضم بين يديه طرف قطعة
قماش حرير، بدا الصغير منبهراً وهو يلامس القماش بين
كفيه ويغمر وجهه فيه مستمتعاً بلمسه.

جلس عليّ جوار شقيقه وأخذ يلامس الحرير مثله

ويغمره بوجهه أيضاً ثم يضحكان معاً كأنهما يلعبان
لعبة، وكل ما فعله سليم أن جلس متربعاً على الأرض
قبالتهم في المكان الضيق ثم نادى لأحد الصبيان الذين
يعملون في المحل، وهو يطلب منه أن يذهب للمقهى
الشعبي المجاور ويحضر (الترجيلة) الخاصة به إلى هنا
لأن الجلسة ستطول.

بعد سبع سنوات

كانت أم سليم تجول في الدار الجديدة وعيناها دامعتان
من الفرحة، لسانها يلهج بالحمد لله ويدها تحرك
المبخرة لترقي الدار وهي تعيد قراءة المعوذات وآيات
قرآنية للحفظ ودفع الحسد، رغم أنها اعتادت على
الحي القديم وألفت البيت الصغير المتواضع فإنها لا
تملك إلا أن تفرح وتفخر بولدها الوحيد، رزقه يتوسع في

المحل وقرر أن يبيع الدار القديمة ويستبدلها بدار أكبر
في حي أفضل، هذا الحي الذي تم توزيع أغلب أراضيه
على أصحاب الشهادات العليا منذ بضع سنوات قليلة،
وقد كانت أرضاً خالية جرداء فشهدت إعماراً فيها لبيوت
جديدة حديثة الطراز، ولدها سليم كان محظوظاً عندما
قرر أحد المالكين بيع داره لشراء دار جديدة في حي
آخر، فسارع سليم لاغتنام الفرصة وباع القديمة واستطاع
جمع المال المتبقي ليدفع الثمن المطلوب لم تعد أم سليم
تهتم إلا أن تكون مع ولدها وأولاده الصبيان، قرة عينها
هؤلاء الصبية الثلاث حتى نورجان باتت تعتبرها كابنة،
وقد تعودت على طباعها الصعبة أحياناً.

لم تمر لحظات على تفكيرها بكنتها الغضوب إلا وقد
سمعت صوتها يُجلجل عالياً قادماً من باحة الدار
الخارجية، فأسرعت أم سليم الخطى بين أكوام الصناديق
التي تم نقلها ولم تُفتح بعد، ووأشكت أن تتعثر وهي

تصل لشباك المطبخ فتشهق وهي ترى نورجان تتشاجر مع صاحب سيارة النقل وترميه بكل ما يقع في يدها من الصناديق التي ما زالت في الباحة.

دون شعورها هرولت أم سليم متحاملة على سنها ووجع مفاصلها لتصرخ تنادي الصبيان من الطابق العلوي وهم يثيرون ضجة بلعبهم الصاخب في غرفهم الجديدة، فلم يصلهم صوت أمهم وهي تتشاجر، أخذت أم سليم تلطم على خدها وهي توبخ كنتها ضمناً: «يا فضيحتنا منذ اليوم الأول يا نورجان انكشف صوتنا للجيران».

ترتقي الجدة أولى الدرجات وهي تنادي أكبر أحفادها: «يا علي يا علي أدرك أمك يا علي إنها تتشاجر مع صاحب سيارة النقل ووالدك خرج ليحضر باقي الأغراض بسيارته.. علي عامر أين أنتما».

كان سائق سيارة النقل في الشارع قبالة بوابة الدار الخارجية وهو يتصدى بكفه لأحد الأغراض التي رمتها هذه المرأة المجنونة في وجهه وهو يصرخ فيها: «أنت امرأة لا تطاق فليعن الله زوجك على مجنونة مثلك».

ما إن قالها ونورجان ترمي بغرض جديد حتى علا صوت ولدها البكر عليّ: «أتشتم أمي!».

كان علي يركض وهو يصرخ هكذا ويزمجر، وفي لحظة رمى بجسده فوق الرجل فأوقعه أرضاً واللحظة التالية هجم عامر هو الآخر مسانداً شقيقه ليطحاً الرجل وهما يكيلان إليه القبضات في وجهه وبطنه بشراسة وعنف، بينما الصغير عمر ذو السبعة أعوام كان يعض الرجل من ذراعه ويشده من شعره، الجدة تقف مذهولة عاجزة تنظر لأحفادها كيف يأخذون بثأر أمهم، ونورجان متخصرة بفخر وقد تركت لأولادها المهمة في تأديب هذا الرجل،

تجمع الجيران وهم لا يستوعبون ما يحصل مع مالكي
الدار الجدد، بينما نورجان تشتت الرجل وتقول له: «كي
تتعلم أن لا تحاول سرقة شيء من زبائنك مرة أخرى، أم
ظننت لأن زوجي ائتمنك وتركك تكمل نقل الأغراض
فظننت أن لا رقيب عليك».

استطاع الرجل دفع الصبيان الشرسين أخيراً عنه وأفلت
منهم وهو يهرول لسيارته فيستقلها وينفذ بجلده، تضرب
الجرة كفاً بكف ويتفرق من تجمهر من الجيران، بينما
الأولاد الثلاثة يقتربون من أمهم يحتضنونها وهم
يسألونها إن كانت بخير، أمالت نورجان جذعها لتحمل
أصغر أولادها دون أن تبالي بثقل وزنه وقد بلغ السابعة،
فيتعلق بها عمر كحيوان الكوالا ثم تميل ثانية لتقبل
وجنتي كل من عليّ وعامر، وكأنها تكافئهم جميعاً
وتفخر بنصرهم.

رفعت نورجان رأسها عالياً لتطالع الدار بفرح وانتصار
خاص بها هي وحدها، لم تكن مخطئة عندما اختارت
سليم والأمر لا يتعلق بالمال فقط، مع سليم عرفت
السعادة حتى مع ضيق ذات اليد، كم مرت من سنوات
قترت على نفسها بالكثير مما اعتادت عليه من رفاهية
في دار والدها؛ لكنها لم تشعر بالحرمان أبداً، نظرة من
عيني سليم وحضن منه كان يهون عليها الكثير، أما
انتصارها اليوم فهو لكل من ينظر للظاهر وينتظر النتائج
فليروا ما وصل إليه هذا الجنوبي بسيط الحال ابن تاج
الدين، فليروا أن (القماش) الذي استكثروها عليه
واستهانوا به وبقدره إنما هو أكثرهم معرفة بقيمة ما
يجني وكيف يجنيه، كما يعرف التمييز بلمسة من راحة
يده بين قماش أصلي النسيج وآخر صناعي مقلد.

الفصل الأول

ومرت ثلاث عشرة سنة

محل القماش - الفرع الثاني

يراقب عامر أخاه الأصغر بطرف عينه، بينما يدّعي الانشغال بإعادة ترتيب لفّة قماش، عمر كان متوتراً بل متحيراً لفته فقط يستمع إليه ويفهم حقيقة الفتاة التي تشغل عقله وقلبه، حاول عمر إشعال سيجارة فنهره عامر بصوت خافت: «لا تُشعلها الحاج سليم على وصول وسيؤبخني أنا مرتين، مرة لأنك أخي الأصغر وواجب عليّ منعك مما يؤذيكَ، ومرة لأننا لا نسمح بالتدخين داخل محل أقمشة».

تأفف عمر وأعاد السيجارة إلى مكانها داخل العلبة، بينما يتمتم متسائلاً بنزق: أين عليّ؟». فرد عامر وعيناه تطرفان لدخول فتاة جميلة عبر بوابة المحل الزجاجية:

«عليّ اليوم إجازة خاصة مع زوجته، فاتركه بحاله ودعنا نتابع أشغالنا التي تهل علينا».

يضحك عمر بخفة وهو يتتبع مسار نظرات أخيه أما عامر فلم يخطئ التخمين وعينا الفتاة تدوران في المحل الواسع بحثاً ورصداً أنثوياً مألوفاً له، حتى وقعت ببحثها عليه فابتسم لها تلقائياً وهو يعرف تأثير ابتسامته على الجنس اللطيف، فردت له الفتاة ابتسامته وتقدمت نحوه لتؤكد له أنه كان مقصدها.

حوار مكرر قد سمعه عمر مراراً وشهد ما يحصل تكراراً، فيهرز رأسه مخفياً ابتسامته متلعبة على فمه، ويدعي أنه مشغول بالعمل فيحمل لفافتين مستأذناً وهو يسحب نفسه من سماع هذا الحوار المتوقع بين أخيه و(زبونة)، ألقت الفتاة تحيتها بميوعة: «مرحباً».

فيرد عامر وعيناه في عينيها: «مرحباً».

مدت الفتاة يدها التي تحلّت أصابعها بخواتم مغربية
للنظر، فتلامس قطعة قماش موضوعة على طاولة
العرض التي تفصل بينهما ثم تقول بهمس مغربي: «أبحث
عن قماش حريري ينفع لثوب سهرة».

عينا عامر تتابعان حركة كفها فوق القماش فلا يُخفي
استمتاعاً باللعبة وهو يرد عليها بمغزى خاص: «لكن
الحرير غال».

فتتوقف حركة يدها فوق القماش لتقول بثقة وعيناها
الجميلتان موحيتان بالكثير من المعاني والوعود: «وأنت
ستخفض سعره لي أليس كذلك؟».

يد عامر امتدت بثقة تعادل ثقتها بل وتزيد ليلمس
ظاهر يدها في حركة تبدو عفوية، وهو يقول بنبرة
اختلفت بين بيع محترف ومغازل لا يقل احترافاً:
«نأمريني.. لن تغادرينا إلا وأنت مرّضية، هل أختار لك

لونا يناسب بشرتك السمراء؟ أظن الزهري سيجعلها أكثر
تميزاً مما أراه الآن».

لم تسحب الفتاة يدها من لمسة يده بل تركته يتجراً
أكثر، وأصابعه تمتد لمعصمها بينما هي تتساءل
بخفوت: «هل ترى سمرتي مميزة؟».

يرفع عامر حاجبيه قليلاً وهو يرد بمعانٍ مزدوجة:
«مؤكد أنا خير في تقدير كل لون وميزته».

عندها فقط قررت الفتاة أن تسحب يدها من بين
أصابعه لتقول بنبرة أكثر خفوتاً وجراًة: «إذن صح ما
سمعته عنك يا عامر».

استهانة خفية في نفسه وهي تناديه باسمه هكذا دون
سابق معرفة، بينما يكمل (اللعبة) متصنعاً البراءة
بفكاهة متسائلاً: «أني خير؟».

فترد بابتسامة واسعة شيقة جعلته يفكر في المرة

الأولى التي سيقبل فيها هذا الفم: «بل إنك تقدر كل لون وميزته».

ما زال كلاهما يتبادلان الحديث الخافت فيعلق وعينه
لا تبارحان شفتيها: «أنا أقدر كل شيء ليس الألوان
فحسب».

تضحك ضحكة معبرة عما يحصل بينهما فيتنبه عامر
للهاتف الذي تحمله بيدها الأخرى ليسأل بجرأة: «هذا
هاتفك؟».

فترد بتدلل ومراوغة: «أجل.. هل يعجبك؟».

دون مقدمات ينحني كي يأخذه منها وببساطة فتحه
وهو يقول: «يعجبني إضافة رقمي فيه».

لم تقل شيئاً وهي ترخي أهدابها وعامر يعيد الهاتف
إليها بعد أن رن على هاتفه ليسجل الرقم، انتظرت الفتاة
بضع لحظات وكأنها أرادت المزيد منه؛ لكن عامر لم

يمنحها إلا ما أراد منحه فغلبها الغيظ لتسأله: «ألن تسألني عن اسمي؟».

فيرد عامر غامزاً بابتسامة: «ستخبريني به الليلة عندما تتصلين».

عندها ارتفعت ضحكتها عالياً قبل أن تستدير مغادرة، كان عمال المحل يخفون ضحكاتهم وهم يراقبون المشهد منذ دخول الفتاة حتى خروجها، يعود عمر لأخيه وهو يقول له: «أنا لا أصدق كيف تفعلها بسلاسة هكذا».

يرد عامر وهو ينظر لعمر ببعض الجدية: «هن من يفعلنها لا أنا».

ثم صمت للحظات قليلة قبل أن يضيف: «كما تفعلها صاحبك معك بأسلوبها الخاص وأنت غافل».

عقد عمر حاجبيه وهو يغضب بالقول: «لا تقل عنها هذا يا عامر».

سخر عامر قائلاً وهو يعيد ترتيب القماش: «وماذا تريدني أن أقول عنها وقد سمحت لك باحتضانها! بل أكاد أقسم أنها أثارتك كفاية لتفعلها».

يكز عمر على أسنانه وهو يقترب من أخيه جداً ليقول بصوت خافت: «أخفض صوتك أنت تسيء إلى عندما تسيء إليها.. نعم أنا الذي حضنتها لكنها لم تسمح لي ولم تشجعني أنا الذي لم أتمالك نفسي».

نظر عامر لوجه أخيه فيرى فيه براءة شاب في العشرين يمر بتجربة أولى يظنها (الحب) ليخفض نظراته إلى القماش في يده، ويقول له بخفوت: «المهم النتيجة يا ابن والدي وخذها مني حكمة تريد أن تتزوج فاحضن بعد الزواج لا قبله».

ضحك عمر قليلاً مستجيباً لفكاهة أخيه كي يخفف من توتره، وشعوره القاتم بوجود خطأ ما فيرد الفكاهة له:

«ألهذا أنت لا تتزوج؟!». تتسع ابتسامة عامر وهو يرد
بمرح شقيّ: «أحسنّت.. لهذا أنا لا أتزوج أنا أحضن
فقط».

فاجأهما صوت شقيقهما الأكبر عليّ وهو يتساءل
ساخراً: «أي حضن هذا؟ ماذا تحشو رأس الأصغر».
يلتفت عامر لعليّ وهو يغمز بعينه قائلاً: «بعض
دروس الحياة في عالم الحرائر».

قال عمر ببعض الحماسة: «أريد أن أكلّمك يا عليّ
فأخونا عامر لا تنفعني دروسه هذه».

تمتم عليّ وقد بدا في مزاج سيئ: «ليس الليلة.. تعال
لي غداً صباحاً في المحل الأول إن لم يكن لديك
محاضرات».

فhez عمر رأسه موافقاً ثم ابتعد منشغلاً مع طلبات
بعض الزبائن، قال عليّ بسخرية لا تخلو من الإحباط:

«اشملني بحكمك ودروسك أنا لا أمانع».

بابتسامة عريضة يرد عامر: «أنت خارج الملعب هذا منذ عامين ولن ينفع أن تعود شبلاً يتعلم من جديد يا محترف».

ضحك عليّ ثم قال: «والله لا محترف إلا أنت».

ثم حرك يده وهو يحث أخاه بالقول: «هيا اترك ما في يديك تعال لنشرب الشاي في المقهى المجاور، أحتاج أن أدخن سيجارة أيضاً».

في مقهى عصري يطل على شارع تجاري هو عصب الحياة، في جانب الكرخ من العاصمة طلب الشقيقان الشاي، وأضاف عامر النرجيلة بينما اكتفى عليّ بإشعال سيجارة، رغم أنه كان قد زهد التدخين منذ عامين وأكثر، ابتداءً عليّ الكلام بالقول وهو ينفث الدخان من فمه:

«أبي يشتكي منك».

يرد عامر مدعياً الجهل: «يشتكي مني؟! ماذا فعلت؟».

يبتسم عليّ بتسامح؛ لكن عيناه تطرفان ناحية رجل وامرأة يجلسان على مائدة في الزاوية، وقد بدا الرجل -الذي يرجح أنه زوجها- غاضباً وبعنفها، بينما هي تطأطي رأسها في خزي من رواد المقهى، تابع عليّ كلامه وهو يشرح بصبر لشقيقه: «أنت تغازل الزبونات وقد حذرك الحاج سليم من هذا مراراً».

يهز عامر كتفيه وهو يرد ببساطة وشقاوة: «أنا لا أغازل إلا من تطلب الغزل، أليس الواجب أن أرضي الزبونات؟! ألا تفعل هذا أنت بمعسول اللسان؟!».

رد عليّ وعيناه الخضراوان تحذران عامر من التماذي بهذا النوع من الفكاهة: «أنا لا أغازل وأنت تعرف هذا

فلا تلبسني التهم».

لكن عامر يشاكسه بخبث قائلاً: «أنت فقط ترضي
غرورهن وتجعل عيونهن تلمع كالنجوم البراقة».

عينا علي طرفتا نحو ذاك الرجل من جديد، وقد بدأ
يشعر بالانزعاج منه، بينما يتمتم ببعض الشرود: «هل
أفعل هذا حقاً؟!».

يرد عامر ضاحكاً: «أعترف أنني بالغت قليلاً؛ لكن لا
تنكر أنه كان لك صولاتك الخاصة قبل أن تقع في غرام
هيام وتتزوجها».

ما إن قال أخوه اسم (هيام) حتى حن قلبه لذاك
الماضي، وعلى قدر الحنين كان شعور عليّ بالفقد،
تمتم بما بات يفتقده فيها الآن: «كانت مشعة في
الجامعة.. مشعة بالثقة والأنفة هذا ما أحبته فيها
وميزها عن الأخريات».

تنهد عامر قبل أن يقول بجديّة: «من نبرة صوتك
أستطيع التنبؤ بشجار جديد».

يكتفي عليّ بهز رأسه فيسأل عامر ببعض الملل من
هذا التكرار: «من المعنية هذه المرة؟ زبونة جديدة أم
زميلة قديمة؟».

رد عليّ بتشنج: «بل فتاة في الشارع كانت تسأل عن
متجر معين، لم أفعل شيئاً إلا وصفت لها المكان،
ليتحول كل شيء إلى جحيم وصراخ».

يعبس عامر وهو يقول بصراحة: «حالة
زوجتك تتفاقم».

يرفع عليّ يده ليدلك بسبابته وإبهامه أعلى أنفه وما
بين العينين يحاول الاسترخاء، بينما يرد ببؤس: «أعلم..
لقد عجزت أنا ونونة وأمها من كثرة الكلام معها».

يتساءل عامر بهدوء: «لم تكن هكذا فماذا

يجري لها؟!». .

صوت الرجل ذاك يرتفع وهو يصرخ في زوجته، فيوقف عليّ تدليك تلك المنطقة من وجهه ليرفع نظراته نحو تلك الزاوية، وقد بدأ الأمر يغضبه ويجعل دمائه تفور، يلتفت عامر هو الآخر لينظر إلى ذاك الرجل، يحاول عليّ التركيز بمشكلته فيرد عليّ سؤال أخيه بالقول: «أنا لا أفهم بهذه الأمور كثيراً لكن أظنها بسبب عقار جديد تأخذه.. أظنه لا يناسبها».

يعود عامر باهتمامه إلى عليّ ويتساءل بدهشة: «أي عقار؟!».

لم يكن عليّ يشعر بأي حرج وهو يرد بصراحة: «حبوب منع الحمل».

قال له عامر: «لا أريد التدخل بخصوصياتكما؛ لكن ناقشها يا علي بالموضوع أخبرها أن تراجع الطبيبة أو

حتى تسأل صيدلانية، لي صديقة صيدلانية سـ..».

رفع علي كفه مقاطعاً ببعض الفكاهة: «بالله عليك
أبعدنا عن صديقاتك».

يبتسم عامر قائلاً: «صديقة بريئة».

يهز علي رأسه رفضاً ثم يقول ساخراً من الوضع برمته:
«لا بريئة ولا غيرها، أبعد عني جنس الإناث من كل نوع
لم أعد أستطيع التعامل بحكمة مع هيام عندما تنتابها
هذه الشكوك الخائفة، لا أصدق أنى أصبحت من هؤلاء
الأزواج».

فجأة صرخ الرجل في الزاوية بشتيمة قذرة قبل أن يقف
على قدميه، ويلحظة صادمة صفع زوجته أمام ذهول
جميع من في المقهى وهو يواصل الصراخ فيها، ثم
يسحبها من ذراعها لتقف، لم يحتمل علي أكثر والشرر
يقدح في عينيه ليهب واقفاً على قدميه يدفع كرسيه

بعنف للخلف فأوقعه، ثم توجه نحو ذاك الحقيير وفي إثره
عامر الذي يتمتم: «ليس الليلة يا علي».

لكن خلال لحظات كان الشجار العنيف قائماً على
أوجه مع ذاك الرجل، فأفرغ فيه عليّ كل إحباطه وغضبه
من الدوامة الكريهة التي يعيش فيها مع زوجته، لم تكن
دوامة فحسب بل أشبه بمتاهة داخل كابوس لا يعلم كيف
سيفيق منه.

دار علي تاج الدين

دخل علي بيته المؤلف من طابق واحد، وحالما عبر
عتبة الباب وجد هيام بانتظاره وكالعادة بعد كل شجار
من هذا النوع تكون متوترة متشنجة، ووجهها الحلو
شابه الإرهاق والاستنزاف وبعض الشحوب، عيناها
الواسعتان دامعتان تحملان الكثير من القلق والشكوك

حتى الاتهام.

ألقى السلام بهدوء وهو يغلق الباب خلفه، بينما تشبك
هيام أصابعها بتوتر متفاقم وهي تسأله بحدة دون أن ترد
تحيته حتى: «أين كنت؟».

أخذ نفساً عميقاً يحاول أن يستعيد هدوءه وهو يرد
عليها بصبر: «كنت مع عامر».

تحرك ليتجاوز وقفتهما في طريقه وهو يراها ما زالت
ببنطالها الجينز والبلوزة القطنية الملونة، التي خرجت
بها معه قبل أن تفسد الأمور بينهما، هذا أمر آخر لقد
عجز عن جعلها تعود للاهتمام بما تلبس كما كانت تفعل
في أول زواجهما، لقد كره هذا البنطال القديم وكره
شعرها المعقود كذيل حصان طوال الوقت، لاختته
بالسؤال وهو يتوجه للمطبخ: «لوحدهما؟».

استدار إليها يواجهها بغضب تتجدد نيرانه: «بالله

عليك يا هيام لم أعد أحتمل».

فتصرخ هي بانفعال منفلت: «وماذا عني أنا؟! هل تظن
أني أستمتع؟! أخوك المحترم عامر الكل يعرف
بمغامراته مع الفتيات، ربما يقرر أن يسري عنك باقتراح
صحبة لإحدى صديقاته الرخيصات».

قدحت عينا علي بغضب من نوع مختلف جعلها تدرك
أنها تخطت الحدود، فيقول لها بهدوء يغلي بالإحباط:
«هل تسمعين نفسك يا هيام؟! إلى أين نصل بكل هذا».

عيناها تركزتا للحظة على فمه عندما همست دون
شعورها: «شفتك عليها آثار دم!».

شعر أنه سينفجر ليهدر ساخراً: «لا تخافي لم أكن أقبل
إحداهن بعنف لتدمي شفتي».

مرة واحدة انفجرت هيام بالبكاء بهستيرية باتت مألوفة
معهما في الآونة الأخيرة، فزفر علي أنفاسه بقوة قبل أن

يمد ذراعيه ليضمها إلى صدره بقوة، ثم يميل لرأسها
المغمور فيه يقول بصوت مترقق: «كان شجاراً مع رجل
أحمق».

زادت حدة بكائها بينما هو يفك رباط شعرها ويرميه بعيداً بعنف كأنه يعبر عن كرهه لهذا الرباط السخيف، يمرر أصابعه بين خصل شعرها البني المجعد الكثيف يحاول أن يجعلها تهدأ وتسترخي وقد نجح في هذا، وتوقفت عن البكاء لتدير وجهها وتستند بخدها على صدره مكان قلبه، ذراعاها تطوقان جذعه بتعلق فتشير في قلبه تلك المشاعر العاطفية القوية، التي حركتها فيه منذ رآها ووقع بغرامها في الجامعة، حاول مجدداً أن يكلمها بالموضوع قائلاً: «هيام

أرجوك يجب أن تذهبي للطبيبة».

ترفض بحزم وعناد وهي تقول له: «لن أذهب، ستطلب

مني التوقف عن أخذ الحبوب وأنا لا أستطيع أن أجازف
الآن يجب أن أنهي رسالة الماجستير».

حاورها بمنطق: «ربما أنا لا أفهم بهذه الأمور؛ لكنني
متيقن من وجود بدائل أفضل».

لكنها أبت الاقتناع وهي ترد عليه: «الحبوب أفضل
وأضمن أنا مقتنعة بهذا، أرجوك فقط تحملني لبضعة
أشهر أخرى».

تمتم علي بصدق: «أنا أتحملك العمر كله؛ لكن يجب
أن نبحث عن الحل عند حصول مشكلة أريد أن نعيش
بسعادة يا هيام، لا تعلمين كم أحبك وأشتاق إلى روحك
التي أعرفها وأهواها».

تضمنه أكثر إليها بينما يسترخي علي قليلاً رغم عدم
قناعته، في داخله يشعر أن المشكلة ليس الحبوب فقط
ولا ضغط الدراسات العليا بل فيها هي، منذ أيام

الخطبة اكتشف أنها لا تثق بنفسها عندما يتعلق الأمر به
وتغار عليه في أنفه المواقف، الفرق أنها كانت سابقاً
تتحكم بنفسها أكثر؛ لكن مع هذه الحبوب اللعينة خرج
الأمر عن السيطرة والمنطق.

أضافت هيام وكأنها تحاول إقناعه أكثر: «بعد أن أنهى
رسالة الماجستير سأتوقف عن أخذها وسنبداً مباشرة
بإنجاب الأطفال.. الكثير منهم يا علي سأعوضك عن
كل ما تحملته لأجلي».

رفعت وجهها المحمر إليه فبدت مشرقة بابتسامة
افتقدتها منها، عيناها البنيتان كلون شعرها فجأة شعنا
بالإغراء ثم رفعت نفسها قليلاً لتصل شفتاه في قبلة
مغوية ودعوة صريحة، كان قلبه يقرع بالشوق لتلك
الروح التي تكاد تضيع منه، أبعدت فمها عن فمه ثم
همست له بجرأة المعنى: «سأعوضك الليلة.. الآن

تحديداً».

ابتلع ريقه وهي تدفع نفسها بعيداً عنه وأمام ناظريه
تخلع بلوزتها ثم تتبعها بخلع بنطالها، أخذت بعدها
تراجع للخلف وابتسامتها تتسع وعيناها تناديانه بصمت،
يستجيب علي وهو يتقدم بتمهل كتمهل خطواتها
المتراجعة وعيناه تمران على جسدها شبه العاري
وشعرها الطويل بتجعيداته الشقية المحببة، يحتضن
كتفيها الأبيضين، ورغم شدة الإغراء لا يعرف لما شعر
أنها تحاول التصرف كمحنة أكثر مما يليق بها، أو ربما
أكثر مما يريده منها.

في غرفة النوم كانت ليلة مثالية للجسد؛ لكن حاجزاً
شفافاً كستارة خبيثة منعت قلبه أن يدق غراماً مع رضا
الجسد، تتنهد هيام وهي تريح رأسها فوق صدره وكأنها
أدت المهمة، برود انتاب علي قبل أن تنسحب منه هيام

متوجهة للحمام، سؤال لم يكف عن مراودته والتضييق عليه: «ماذا يحدث معك؟ ما الذي تريده يا علي؟ ما الذي يتغير؟!».

دار سليم تاج الدين القماش

دخل سليم إلى غرفة النوم، بينما نورجان تتكلم بتوتر عبر الهاتف، عاد مجهداً وفي صدره ضيق من عدة أمور تعكر مزاجه الرائق، بالعادة كان يفكر أن يلتقي بصديقه شاعر الليلة ليروح عن نفسه، ارتفع حاجبا سليم من الجانبين في حركة توجس وتوتر وهو يسمع زوجته تقول بنبرة حانقة محبطة: «أبي لا أفهم عنادك! لماذا تظل وحدك وترفض حتى زيارتي لبضعة أيام؟! ألا زلت لا تعتبر بيتي هو بيتك أيضاً؟! بقاؤك بمفردك هناك يصيبني بالقلق والتوتر طوال الوقت، أرجوك أبي لم يعد

لديك حجة العيادة والمستشفى وقد قررت التقاعد».

يخلع سليم سترته ذات القماش الكتاني الربيعي
ليعلقها بوجه متجههم، وهو يكاد يخمن رد حماه الدكتور
زيدون الوندي، بينما نورجان الغافلة عن دخول زوجها
كان قلبها يقطر ألماً وهي تسمع رد أبيها المتعنت مع
لمحة عجرفة: «أنا لن أترك الدار التي جمعتني بأمك
ولن أبيت ليلة واحدة خارجها، بل لن أترك مدينتنا وفيها
كل ذكرياتي وأهلي وناسي، لن أستطيع العيش دونهم
حتى لبضعة أيام».

كانت تعرف بل موقنة أنه يبالغ فتقول له بحشجة وجع
دون أن تتنبه لمراقبة زوجها لها: «وتستطيع العيش دوني
أليس كذلك؟! وحتى إن صدقت أنك متعلق بمدينتنا
هكذا لكنك في الواقع تتخذ من هذا الكلام العاطفي
عذراً وحجة لترفض».

تخنقها غصة مريرة وهي تضعيف: «ما زلت لا تسامح،
بل أشعر أنك كنت تتمنى فشلي في حياتي الزوجية كي
تثبت أنني كنتُ مخطئة باختيارى».

صمت الأب للحظات ودمعت عينا نورجان؛ لكنها أبت
أن تطلق سراح الدموع حتى وهي تظن نفسها بمفردها
ولا يراها أحد، مرت لحظات قبل أن يقول الدكتور زيدون
بهدهوء: «لا يوجد أب يتمنى الفشل لابنته الوحيدة».

ثم تلكأت كلماته وهو يضعيف معترفاً: «لكني لم
أستطع نسيان عصيانك».

اتسعت عينا نورجان وهي تهتف: «عصيانى! أتقولها
لي وأولادي غدوا رجالاً، وربما سأصبح جدة في أي
وقت؟!».

يتوتر سليم ويفور الدم الجنوبي في عروقه، لم يعد
يشعر بأي تسامح مع حماه، لقد فاق الأمر كل الحدود،

ما هذه العجرفة والقسوة والعناد لسنوات، تجاهل سليم
بشق الأنفس ازدراء حماه الخفيّ له ولأصله وتلميحاته
السخيفة عن (مُحدثي النعمة) وطوال هذه السنوات
تجنب أي تماس معه، وأعطاه ألف عذر وعذر، تغافل
عن نظرات منه ملؤها التعالي والكبر كلما التقيا في
المناسبات والأعياد.

تقدم سليم بضع خطوات وأوشك أن يسحب الهاتف من
زوجته كي يقول لحماه (اضرب رأسك العنيد في أقرب
حائط)؛ لكن وجه نورجان المتألم أوقفه، يزم سليم شفتيه
بينما يرى نورجان تجلس على حافة سريرهما وجسدها
كله منكمش على نفسه، كأنها ليست امرأة ناضجة وأم
في السابعة والأربعين بل فتاة صغيرة مرتبكة وحزينة لا
تعرف كيف ترضي أباهما الغاضب!

على الطرف الآخر كان الأب يحاول إثبات حجته أمام

ابنته، بمقارنة يعقدها ويظنها مثالا لوجهة نظره: «تخيلي لو أن علياً تزوج هيام رغم رفضك لاختياره، هل كنت ستسامحين؟».

ترد نورجان بانفعال: «ومن قال لك إني راضية بهيام؟! من قال إني أراها مناسبة؟! بل أشك أني سأرى أي فتاة مناسبة لعلّي لو كنت قريباً منا كفاية لعلمت هذا، أبي لعلمك أني أم عنصرية نحو أولادها وتراهم بعين أمومتها نجوماً عالية في السماء، لو كنت تعرف علاقتي بعلي لكنت عرفت أنه مميز عندي للغاية؛ لأنه يشبهني ويشبهك! أخذ منا أنا وأنت كل الطبائع كما أخذ لون عينيك الخضراوين.. إنه عنيد صلب مثلك وانفعالي يثور كالمجنون، فلا يرى من حوله عندما يغضب مثلي أنا؛ لكن لله الحمد أن له قلب جنوبي حار ينبض بالعواطف الجياشة كأبيه سليم تاج الدين القمّاش».

صمت الدكتور زيدون والجليد الذي يكسو به قلبه ما
زال صامداً، يغلبه العناد المتأصل فيه وهو يقول بنبرة
ثابتة راسخة: «ما تقولينه مجرد غيرة أم على ولدها لا
أكثر، أنت ليس لديك اعتراض حقيقي على هيام لو كنت
رافضة بجدية مثلما أنا كنت رافضاً لمنعت الزواج كما
حاولت أنا أن أمنعه؛ لكنني لم أستطع».

هتفت نورجان وهي تهب واقفة على قدميها: «يا إلهي
يا أبي! أبعد ست وعشرين سنة وما زلت تكرر الكلام
نفسه؟! أمي رحمها الله رضيت وأنت كما أنت لم تتغير
شعرة من قناعاتك».

شاب صوت زيدون بعض الألم وهو يرد بخشونة باردة:
«دعي باكية مرتاحة في قبرها».

لكن نورجان فقدت كل رغبة أو محاولة للصبر
لتواصل نوبتها الانفعالية العاطفية وهي تناطح عناد

من لا يريحها في قبرها أنت من تقاطع ابنتكما
الوحيدة.. تقاطعها مع زوجها وأولادها».

يحاول الأب الدفاع عن نفسه بالقول: «أنا لست
مقطوعاً عنكم».

لكن تقاطعه نورجان وصوتها يعلو كثيراً وأنفاسها
تتسارع انفعالاً مجنوناً وسخرية مريرة: «آه آه نسيت..
نراك كل بضعة أشهر أو الأصح نزورك كل بضعة أشهر
فتعاملنا كزوار غرباء عنك وغير مرغوب فيهم، زوار لا
يرتقون لمقام الدكتور زيدون الوندي».

فجأة شعرت باليد السمراء لزوجها تأخذ منها الهاتف،
فترفع نورجان وجهها مجفلة ثم ترى زوجها سليم بملامح
صلبة منحوتة كالصخر وهو يضع الهاتف على أذنه
ويكلم والدها مباشرة قائلاً له بنبرات ترتعش بالغضب
المكبوت: «في يوم ما يا دكتور زيدون ستشعر بالندم

لأنك تعاليت وتكبرت علينا؛ لأنك عاندت الواقع
وخسرت علاقتك بأحفادك من ابنتك الوحيدة، دوماً
احترمتك لأنك والد نونة.. دوماً أشفقت عليك وعلى
وحدتك التي صنعتها بتجبرك وعجرفتك وعنادك
وتعاليك وكل هذا احتملته منك لأجلها هي؛ لكن أن
تذلها وتهينها وتهين أبناءها بالتقليل من أصلهم المرتبط
بأصلي فهذا لن أتسامح به أبداً».

بدا الدكتور مرتبك الصوت بعض الشيء وهو يرد
التهمة عن نفسه: «أنا لم أعاير أحداً بأصله يا سليم، هذه
تهمة باطلة تلصقها بي».

حاولت نورجان أن تأخذ الهاتف من زوجها وهي في
وضع عاصف؛ لكن سليم منعها وهو يناور بجسده
ليتفادى محاولاتها، بينما يرد بالانفعال نفسه على حماه:
«أي تهمة باطلة؟! قد لا تقولها بلسانك في وجهي؛

لكني رأيتهَا عشرات المرات في عينيك، تغاضيت كثيراً
عن كلمات تدسها بين جملك المنمقة كما يُدس السم في
العسل، تواضع لله يا دكتور، كلنا لآدم، وآدم من
تراب».

ثم ألقى تحية وداع عابرة قبل أن يقطع الخط،
صرخت نورجان بعنف: «من سمح لك أن تكلم أبي
هكذا؟! من سمح لك أن تأخذ هاتفي مني».

عينا سليم ترعدان بغضب نازي ليقول بنبرة قاطعة:
«اخفضي صوتك نورجان وأنت تكلميني.. أنت تعرفين
جيداً تلك الخطوط الحمراء».

لكن نورجان لم تستطع السيطرة على ثورتها لتواصل
الصراخ في وجهه: «لا تهددني سليم.. لا يحق لك
أن... آآه».

أمسك ذراعها بخشونة أوجعتها ورأت في وجهه غضباً

حقيقياً أخرس لسانها وهي تحقق في عينيه الداكنتين
كلون (تمر مجهول)، بينما صوته خرج خافتاً ثقيلًا:
«الخط الأحمر يا نورجان.. الخط الأحمر الذي يعرفه
كلانا الابتعاد عنه هو ما يبقى زواجنا ثابتاً راسخاً كذاك
الجبل الذي تفاخرين به في مدينتك، فاحذري ما يدك
الجبل دكاً ويحيله ركاماً».

لم يكن تهديداً منه إنما تحذيراً يقرع الأجراس ليوقفها
عن التماذي، منذ تزوجته تعلمت معه معنى اللجام
يعاملها كقطعة قماش نادرة يترك لها الدلال بين
أصابعه؛ لكنه أبداً لا يتركها تسرح من يده وتفلت من
قبضته وسيطرته، كان يلجم تفجر طبائعها الشائنة ووضع
لها تلك الحدود التي يتحدث عنها الآن، طبعها العنيد
يكاد يغلبها وثورات من عمق جذورها الشمالية تصرخ
لتهب؛ لكن ذاك التراخي في لمسة يده وتغير نبرة صوته
وهو يضيف بصوت خافت متعب: «لقد كبرنا على شجار

كهذا وأنا متعب الليلة للغاية نونة».

كما هبت ثورتها فجأة خمدت فجأة وهذه إحدى طباعها أيضاً التي يعرفها سليم جيداً، جالت نظراتها بشيب رأسه ولحيته لتقول بعبوس: «متعب الليلة أتفهم هذا؛ لكن قولك إننا كبرنا على الشجار فلا أتفهمه ولن أفعل».

بصعوبة وجدت ابتسامته الحلوة طريقها لفمه فذابت نظراتها بطريقة أمومية فخورة وهي تقول بعفوية: «عامر المحظوظ سرق جينات هذه الابتسامة القاتلة منك».

لم يملك إلا أن يضحك الآن وهو يضمها إلى صدره لتستكين هناك وتهداً زوابعها وثوراتها تماماً، وكأنها لم تهب من الأساس، كان يمسد على شعرها وهو يقول بنبرة عميقة: «ربما بعض جيناتي تسلفت للأولاد؛ لكن ما زرعت أنتِ فيهم يطغى! كثوراتك المجنونة هذه التي تهب دون مقدمات وتنتهي دون إعلان، لقد باتت

سمعتهم تسبقهم في أنحاء العاصمة، إنهم كثيرون الشجار
سريع الانتقام لا يصبرون ساعة على أخذ حقهم».

تهز نونة كتفيها بلا مبالاة قائلة بفخر: «دمهم حام ولا
يرتضون الأعوج كما أن كرامتهم فوق كل شيء».

تحركت أصابعه لتحت ذقنها فرفع وجهها كي ينظر إليها
بجدية ويقول: «نونة يجب أن نزوج عامر كي يعقل
ويستقر، ما يصلني من تصرفاته لا يعجبني، وما خفي
الله أعلم به فأخواه يغطيان عليه بإحكام».

ردت نورجان بصدق: «لقد حاولت إقناعه صدقني،
حتى أن فكرت بإحدى بنات شاكر ثم هداني تفكيري أن
سجى تناسبه أكثر».

يتساءل سليم وهو يضيق عينيه: «تقصدين ابنة
خالة هيام؟».

ردت نورجان وهي تعتدل بوقفاتها لتواكب حديثه

بالأمر: «أجل.. هي جميلة وجذابة ولها رونق خاص
يميزها، تعجبني حقاً كما أنها تتمتع بثقة النفس اللازمة
لتعامل مع عامر بنديّة».

يرخي سليم أهدابه قائلاً بمعنى خاص: «عامر لا
يحتاج لنديّة».

لكن نورجان تعاند بالقول: «عامر يحتاج لفتاة قوية».
يصمت سليم ولا يرد فتسأل نورجان ببعض العجب:
«ألا تعجبك سجي؟!».

ينظر سليم إلى زوجته لبضع لحظات قبل أن يواجهها
بما تحاول التلاعب حوله: «بل تعجبني؛ لكن أظن
علاقتها بهيام ليست جيدة ولا أريد مزيداً من المشاكل
لعلّي أو سبباً للتباعد بين ولدَيْنا».

عقدت نورجان حاجبيها لتقول بغيرة أم من كنتها: «كل
هذا لأن هيام تغار منها».

يهز سليم رأسه مع ابتسامة جانبية ليسأل بهدوء:
«ولماذا تغار؟! ليس هناك ميزة زيادة في سجي تتفوق
بها عليها».

ردت نورجان بنظرة معبرة وكلمات حملت وجهة نظر
تستحق التمعن فيها: «رغم أنني أخالفك الرأي؛ لكن
باختصار هيام تغار من أي فتاة يا سليم ألم تفهم بعد؟!
أي فتاة لا تريد لها قريبة من محيط علي، وهذا ما يشير
جنونها وأساء لعلاقاتها حتى مع صديقاتها وليس ابنة
خالتها فحسب، وما يقض مضجعها أنها لا تحتل عمل
علي الذي يدور حول النساء.. حول ما يجعلهن جميلات
لا تحتل أنه قد يجامل زبونة بأن يحببها في قماش وهو
يصف لها جماله عليها لو سمعت ربع أسباب الشجارات
المتواصلة بينهما لأصابك الدهول».

زفر سليم بانزعاج وهو يقول: «ما هذا الكلام

السخيف؟! علي لم يتجاوز حدوده يوماً مع أي امرأة دوماً
يجيد التعامل معهن وهو يضع الحدود اللائقة، وهذا
حتى قبل زواجه بهيام».

ثم استدار وهو يفتح أزرار قميصه بنزق، يشعر بالضيق
الليلة يريد أن يحل مشكلة عامر وشقاوته مع الفتيات
قبل أن يتمادى أكثر مما يفعل، كما يريد لعلّي أن يعيش
مرتاحاً مع زوجته ليركز بعمله، تتمم وكأنه يكلم نفسه:
«أظني سأغير ملابسني وألتقي بشاكر في المقهى
القديم».

شعر بكف نورجان على ظهره حالما خلع قميصه
وهمسها الشقيّ الجريء وهي تصبه بحلاوة في أذنه:
«إنس شاكر.. حمام دافئ أدلك به وستسترخي اسمع
كلام نونة وأنت تكسب».

التفت برأسه والتمعت عيناه ففتسع ابتسامته وهو يقول

بصوت أجش متعب: «لا يرد الكريم إلا اللئيم..
دعوتك مقبولة».

لم يكن عامر يظن أن ليلته ستكون مملة هكذا فبعد
الشجار في المقهى كان يمني نفسه أن السمرء ستسري
عنه؛ لكن (السمرء) التي نسي اسمها بعد عشر دقائق
من بدء المكالمة كانت أكثر تفاهة وطمعاً وغباءً مما
اعتقد، أتظنه مراهقاً ستبتزّه بالوعود المتوارية أنها
ستمُنحه بعض القبل مقابل أن يهديها الأقمشة التي
تريدها؟! ليته لم يمنحها الرقم سريعاً ويسببها تلقي
محاضرة طويلة من الحاج سليم حول أخلاقيات المهنة،
تتسع ابتسامة عامر وهو يفكر (وهل هناك أجمل من هذه
الأخلاقيات؟! يرضي الزبائن حتى في غير أوقات العمل)
أتاه صوت السمرء متذمراً معاتباً بتلك الطريقة الأنثوية

المألوفة لديه من بنات جنسها ونوعها: «عامر أين اختفيت؟!». .

حاول أن يجر الحوار لناحية مشوقة أكثر وهو يناغشها بالرد على سؤالها المُعَاتِب: «تحت الغطاء.. هلا تختفين بصحبتني؟». .

تضحك وهي تقول له: «أنت شقي.. ما سمعته عنك لا يوفيك حَقك». .

يطوي ذراعه تحت رأسه وهو مستلقٍ على السرير قائلاً بجذل ونبرة خاصة خافتة تليق بمستوى (الحوار) الدائر بينهما: «وما الذي سمعته؟». .

ردت بنبرة خافتة كخفوت نبرته كأنها تجاربه: «في الواقع سمعت عنكم الكثير يا أبناء القمّاش». .

رغم أن الحوار والنبرات الخافتة تسير في وجهة مألوفة لديه؛ لكن حدسه القوي يرسل إشارات خفيفة

بوجود أمر ما خفي عن إدراكه، تجاهل الحدس وهو
يواصل شقاوته قائلاً: «أنا أيضاً سمعت الكثير (عنا)
أخبرني بما سمعته وأخبرك بما سمعت».

تضحك عالياً ثم تقول بنبرة أنثوية ناعمة تفيض تدلاً
وتصنعاً: «يقال إنكم (صانعي مشاكل) بامتياز ولا يمر
أسبوع إلا ودخلتم مشاجرة وعراكاً».

ما زال يتجاهل حدسه وهو يتساءل بالنبرة نفسها:
«فقط؟!».

لترد السمراء بتأنٍ: «وأنكم تحبون النساء».

يضيق عامر عينيه بتركيز ولم يعد لديه شك بوجود أمر
ما تسعى له هذه الفتاة؛ لكنه يستدرجها وهو يواصل
الرد بأسلوبه الشقي الساخر: «وهل هناك رجل -لا سمح
الله- لا يحب؟! سيكون عيبة كبرى في حق رجولته».

أخذت السمراء تضحك من قلبها ثم هدأت ضحكاتها

لتفجر قنبلتها وهي تسأل: «إذن هل صحيح أن أخاك عليّ يخون زوجته؟».

في لحظة اتسعت عينا عامر وشعنا بالغضب في لحظة فهم الحكاية ومن دس السمراء في طريقه، أخذت الفتاة تناديه بقلق تحاول جهدها أن تخفيه من نبراتها الأنثوية المتصنعة: «عامر عامر! أين اختفيت مرة أخرى؟».

رفع عامر جذعه واعتدل بجسده وهو ينزل قدميه أرضاً ليجلس على حافة السرير، ما زال الغضب الناري متأججاً مشعاً من عينيه البنيتين؛ لكنه بمنتهى ضبط النفس سأل: «من أين سمعتِ هذا الكلام عن أخي؟».

يبدو أن حدسها هي الأخرى يعمل بشكل صحيح فتحاول إخفاء ارتباكها وهي ترد بلا مبالاة: «لا أذكر من هنا أو هناك».

هَبَّ عامر ليقف على قدميه وهو يقول بخفوت تهديدي

وتصريح مباشر: «إذن أخبرني (هنا وهناك) أن ليس علي
تاج الدين القمّاش من يُسأل عنه».

حاولت ادعاء الجهل وهي تتمتم: «لم أفهم».

بنبرة جافة قاسية قالها ببرود جليدي: «بل تفهمين
فأوصلي الرسالة».

كانت تتمتم: «أنا آسفة.. لم أقصد أن..».

لكنه قطع الاتصال ووضعها بالحظر وهو يتمتم بانفعال
مشحون: «غبية حمقاء».

دخل عليه عمر وهو يتساءل بعجب: «من هي
الغبية الحمقاء؟».

رمى عامر هاتفه على الفراش بينما ينظر لأخيه الأصغر
لبضع لحظات، فعرف أن عمر يعيش أسوأ تخبطاته، زفر
عامر بقوة بينما يقول ببعض السخرية: «هل ابتليت بكما
أنت وأخيك لتعكرا صفو حياتي؟! ماذا تريد أنت

الآخر؟!».

بدا عمر كمن اتخذ قراراً دون أن يراجعه؛ لكنه يريد به بكل قواه فقالها دفعة واحدة لعامر: «أريد أن أتزوج».

تنهد عامر بينما يعاود الجلوس على حافة سريريه ويميل بظهره للخلف فيستند على راحتيّ كفيه في جلسته وهو ينظر إلى عمر نظرة عميقة قبل أن يتساءل بما يشبه الفكاهة: «تتزوج (من) يا ابن والدي هذا هو المهم».

يعبس عمر فيبدو وجهه الوسيم أكثر وسامة وأكثر خشونة، دوماً كانت ابتسامة عمر تمنحه هيئة بريئة طفولية للغاية؛ لكن عندما يعبس هكذا يتغير الانطباع تماماً عنه، سأل عمر بخشونة وغيظ: «ماذا تقصد من؟! مؤكداً نهاوند».

رفع عامر نظراته للسقف وهو يقول بخفوت كأنه يكلم نفسه: «حسبي الله ونعم الوكيل في هذه الليلة الطويلة

التي تأبى أن تتلحف بغطاء وتنام وتهجع!». .

ثم عاود النظر لشقيقه مضيفاً: «وَحَدَّ الله يا رجل أي زواج من نهاوند هذه؟!». .

تقبضت يدا عمر وبدا جاداً في غضبه هذه المرة وهو يقول لأخيه: «أنا المخطئ لأنني أخبرتك عن تلك الغلطة». .

لم يتأثر عامر بغضب أخيه لو كان بيده لضرب رأس عمر المتهور الأعمى بعواطفه برأس هيام الغبية العمياء بغيرتها، عسى أن يفيق الإثنان ويتوقفا عن فعل الحماقات! لكن عامر اكتفى برفع حاجبيه قليلاً وهو يتساءل بكلمات حملت معانٍ مبطنة: «أي غلطة؟ تقصد احتضانك لها؟ إنها أهون الغلطات». .

ما زال عمر عابساً وهو يتساءل: «أنا لا أفهمك». .

فرد عامر وهو يرخي أجفانه للنصف وينظر إلى شقيقه

المتوتر العابس بتركيز: «الغلطة الأهم أن تظن أنك
تحبها كفاية لتتزوجها.. نونة سترميك من أقرب شباك
إلى أعرض شارع».

عاند عمر وهو يبرر بما يراه حجة: «صحيح أن نونة
تغار علينا؛ لكنها في النهاية لن تعارض ألا تذكر كيف
أنها لم تكن راضية عن هيام ومع هذا لم ترفض».

تراخى عامر ليلقي بظهره للخلف على السرير فيحرق
في سقف غرفته وهو يقول بنعوض الضيق: «هيام شيء
ونهاوند شيء آخر يا عمر.. والمصيبة أنك لا تدرك
الفارق».

تقدم عمر خطوة وتوتره يتصاعد فيعبر بإحباط: «أنت
حقاً لا تحبها.. الموضوع ليس في تلك الغلطة مني
فحسب».

يضع عامر كفه تحت رأسه ويحرك نظراته من السقف

ليسلطها على أخيه الواقف قريباً من السرير فيقرر أن يراوغ معه كي يمنحه فرصة التفكير مجدداً، عسى أن يكتشف ما يأبى أن يراه، عمر ما زال صغيراً ونهاوند جميلة للغاية ومتلاعبة للغاية أيضاً لا يتفاجأ من تعلق عمر بها لكان هو نفسه تعلق بنهاوند لو التقى بها وهو في سن عمر وحاكت خيوطها الناعمة حوله قال عامر وكأنه يتفاوض بحنكة على سعر قماش في السوق: «أريدك فقط أن تصبر ولا تتعجل اترك موضوع الزواج الآن وتعرف عليها أكثر.. لنقل بضعة أشهر فقط».

ثم غمز مضيفاً: «ودون أحضان».

يعبس عمر أكثر وهو يزبح نظراته بعيداً ويقول بخفوت: «لا تعاود ذكر هذا، يكفيني شعور الذنب لأنني فعلتها معها ولأنني أخبرتك وأساءتُ لصورتها أمامك».

استقام عامر بجذعه من جديد وهو يقول بهدوء: «انس

هذا الأمر وكأنك لم تقله لي، فقط ركز أن تعرفها أكثر
يا عمر».

ثم وقف على قدميه مضيفاً: «أنت ما زلت في
العشرين وأمامك عامان آخران حتى التخرج».

باندفاع حار قال عمر: «لا أستطيع الصبر لعامين أنا
أحبها.. أريدها زوجتي بالحلال».

تطلع عامر لشقيقه وهو يخفي قلقه عليه؛ لكنه تبسم
لوجهه قائلاً بنبرة إقناع: «لا بأس فقط بضعة أشهر».

أطرق عمر برأسه كأنه يحاول الاقتناع فيمد عامر كفه
وبسبابته أخذ ينقر على رأس أخيه قائلاً: «بضعة أشهر
أريد لهذا العقل هو من يعمل وليس القلب يا ابن تاج
الدين القماش، نحن أبناء سوق ومهنتنا علمتنا الصبر
وتقييم البضاعة على مهل دون تسرع كما علمتنا معنى
التوقيت المناسب لشرائها وبيعها».

فهرز عمر رأسه موافقاً؛ لكن عامر لم يرتح تماماً
للوضع برمته.

بعد يومين على العشاء بيت سليم تاج الدين

يرتفع صوت سليم عالياً بضحكات رجولية تمازجت مع
ضحكات صديقه شاكر، بينما انسجم عليّ وعمر
بالحديث مع أحمد ذاك الشاب اليافع المتحمس والولد
الوحيد للعم شاكر بعد ثلاث فتيات زرق بهن، ودخلت
في الحوار أنغام وهي الابنة الوسطى من بنات العم
شاكر، التي تكبر شقيقها أحمد بثلاثة أعوام، نورجان في
الظاهر منشغلة في حوار شيق مع عفاف زوجة شاكر؛
لكن في الباطن تتابع بقلق وانزعاج تصرفات كتنّها التي
عزلت نفسها عن المشاركة بأي حوار وتبدو مكشوفة
بشكل بشع وهي ترمق أنغام ابنة شاكر بنظرات مسمومة

تفيض غيرة ورغبة بالأذى، لحسن الحظ أن صغرى بنات شاكر وأكثرهن جمالاً لم تحضر الليلة لانشغالها بالتحضير لامتحان، وإلا لكان عيار غيرة هيام أفلت وافتعلت تصرفاً مُحرجاً للجميع بمن فيهم لها هي، عادت بتركيزها إلى ضيقتها التي قالت لها وكأنها توبخها: «لقد طالت إجازتك يا نورجان أربعة أشهر كثير ألن تعودى للعمل؟».

نورجان دوماً رأت في عفاف صديقة ناصحة أمينة ربما ليست مقربة تماماً؛ لكنها تثق فيها لأبعد حد كما تعترف أنها معجبة بمسيرتها العملية وهي ترتقي السلم الوظيفي لتبلغ مناصب مهمة في إحدى أهم وزارات الدولة.

التمعت عينا نورجان بذاك العناد الشقي وهي ترد معترفة: «ليست إجازة يا عفاف بل أصبحت رسمياً استقالة».

اتسعت عينا صديقتها وهي تقول بإحباط: «هل
استقلت؟! مرة جديدة يا نورجان؟!».

تعقد نورجان حاجبيها وهي تقول بإصرار على مواقفها:
«تقولينها وكأنني السبب، لقد قصصت عليك كل ما
حصل وتعرفين التفاصيل، فكرت كثيراً خلال الإجازة
وقررت أنني لن أعود فقدمت استقالي قبل أسبوع
وليجدوا بديلاً عني يقوم ولو بنصف عملي».

هزت عفاف رأسها وهو تضارحها بالقول: «نونة أنت
عصبية للغاية رغم مهارتك ونشاطك واتقائك الطبيعي
في كل عمل تلتحقين به؛ لكن حالما يحصل أمر لا
يعجبك تتحولين لكتلة عناد وشعلة غضب».

هزت نورجان كتفيها بلا مبالاة وهي تعبر بصدق عن
نفسها: «لا يهمني ما لا يعجبني لن أسكت عليه هذه
طبيعتي ولن أغيرها بل فخورة بها».

كان لعفاف التي تعانق الخمسين تلك اللمسة الخاصة
من الهيبة والأنوثة معاً، امرأة جميلة حتى مع امتلاء
جسدها الأقرب للسمنة والترهل، لها ملامح قوية تمثل
الجمال العراقي في أقوى صورهِ رغم أنها لا تهتم كثيراً
بنفسها وقد شغلها عملها وعنايتها بأولادها وزوجها،
تبدو مرهقة الوجه في بعض الأحيان؛ لكن دوماً نظراتها
واثقة وصفة الهيبة تضي على وجهها ألقاً من كبرياء
شامخ هادئ، تأخذ وظيفتها على محمل الجد وتعتبرها
ذات أهمية تعادل أهمية عائلتها، وفي هذا تختلف معها
نورجان بالتأكيد وهو سر عدم اهتمامها ببلوغ أي مركز
وظيفي كاهتمام عفاف، فعائلتها تأتي قبل شيء، قالت
عفاف ببعض الخيبة معقبةً على كلام نورجان: «لا فائدة
ستظلين هكذا خسارة في كل مكان عملت فيه ولم
تكملي المسيرة كنتِ ستصلين إلى مركز مهم لو أنك
تحملتِ وضبطتِ أعصابك قليلاً».

اعترفت نورجان بالقول: «أبي محبط مني يقول إنني بلا طموح وضيعة عمري دون تحقيق أي هدف أو مستقبل عملي».

ردت عفاف بمنطق عقلاني: «مع احترامي للدكتور زيدون لكنه مخطئ، أنت طموحة وقوية لكن طبعك صعب وهو ما عرقل مسيرتك وسامحيني لقولي هذا».

تبتسم نورجان بإشراق قائلة بتحب لصديقتها: «أنت الوحيدة التي أسامحها عندما تصارحني بحقيقتي».

تضحك عفاف بينما عينا نورجان تطرفان إلى كنتها من جديد فتراها تنزوي في غرفة الضيوف، تفور بالغضب وعلي منشغل عنها يستمع بإنصات كامل لكلام أنغام المسهب عن التطورات الحاصلة في جامعتها، بينما عمر بدا سارحاً بأفكاره الخاصة وأحمد ترك الجمع ليشارك أباه وعمه سليم الحوار، أوشكت نورجان أن

تشتتم هيام أو تصرخ بها كي تذهب وتشارك زوجها
الكلام بدل انزوائها المخزي هذا كمن تشتكي من عقدة
نقص!

تحركت عينا نورجان باستنجاد عفوي ناحية الباب
بانتظار عودة عامر بفارغ الصبر، تريده أن يمضي بعض
الوقت مع أنغام بدلاً من أخيه، فمن جهة ربما يحصل
تجاذب بينهما ويكون نصيبه معها ومن جهة أخرى
يخفف عن أخيه غيرة هيام التي ستقلب إلى شجار
جديد، وكأن ولدها عامر استجاب للنجدة ليدخل
بابتسامته المائلة الحلوة ونظراتها الضاحكة بشقاوة دوماً
وهو يعتذر عن التأخر مع الجدة، سألته نورجان: «هل
نامت جدتك؟».

رد عامر وهو يقف قريباً من مجلسها على الأريكة مع
عفاف: «نعم.. نونة تركتها شبه غافية انتظرتها حتى

أنهت الصلاة وساعدتها لتأوي إلى سريرها بعد أخذ دوائها».

ثم ابتعد عامر نحو أبيه الذي ناداه ليسأله عن أمر ما لتقول نورجان بعاطفة: «أتمنى أن يزول ألمها في الغد ويتعافى كاحلها سريعاً، إنها بركة بيتنا ولا أحب أن أراها هكذا».

ردت عفاف لتخفف عنها: «الحمد لله أن السقطة لم تتسبب بأكثر من لي كاحلها يا نورجان».

تنهدت نورجان وهي تقول: «كان يوماً مريعاً بالأمس لا أعرف كيف التوى كاحلها هكذا وهي تقف أمامي في المطبخ، الحمد لله قدر الله ولطف بها وبنا لحسن الحظ عامر كان موجوداً فحملها بين ذراعيه ونقلها بسيارته للمستشفى، كان مجنوناً من القلق عليها إنه متعلق بها جداً كشقيقه».

ارتفعت ضحكة عامر فلفتت انتباه عفاف لتقول
بكلمات ذات معنى واضح لنورجان: «عامر حنون للغاية
وصاحب نخوة، ليته فقط يتعقل ويجد ابنة الحلال كأخيه
علي، شقاوته زادت وهذا ليس بمصلحته».

شعرت نورجان ببعض الانزعاج ربما عفاف صديقتها
وهم كالأهل وتسبق معرفتهما ببعض انتقالهما لهذا
الحي، الذي سكنه شاكر وعائلته قبلهم فشاكر صديق
قديم لسليم وقد توطدت الصلات بين العائلتين عندما
سكنوا الحي ذاته ولو على الطرف الآخر فباتوا أقرب
للجيران؛ لكن نورجان لا تحتل أن ينتقد أي شخص
أولادها مهما كان، تبسمت نورجان لتقول بفخر: «عامر
قلبه كقلب أبيه جنوبي حتى النخاع أصيل وعاطفي أي
فتاة ستكون محظوظة به».

شعرت عفاف بانقلاب مزاج نورجان فأثرت أن لا تشير

حفيظتها، وهي تعرف مدى انحيازها لأولادها فأدارت الحوار بذكاء لتنقله إلى ابنتها وهي تقول بابتسامة واسعة: «يبدو أن بناتي يتسرين من بين يدي، فبعد زواج الكبرى جاء نصيب الوسطى أنغام، تقدم لها عريس أحد أقارب شاكر، شاب طيب وأنغام مرتاحة له؛ لكن لا تقولي لأحد الآن، ننتظر حتى تحديد (يوم الشربة)» (1)».

للملحظة شعرت نورجان بالضيق لضياح تلك الفتاة من بين يدي ولدها عامر؛ لكنها أخفت مشاعرهما وهي تفكر أن صبا الصغرى ما زالت غير مرتبطة وهي أجمل من أختيها وأيضاً هناك سجي ابنة خالة هيام تعجبها للغاية، تجاوزت نورجان أفكارها هذه لتبارك لصديقتها بأمنيات صادقة: «ما شاء الله ألف مبارك يا عفاف فليتم لها الله بألف خير.. أنغام فتاة رائعة يكفي أنها ابنتكما أنت وشاكر».

كأس العصير في يد هيام لم تشرب منه إلا رشفة صغيرة، نار تمزق أحشاءها وتشعر بالدم ساخناً يجري في عروقها يحرقها حرقاً، تحاول بكل طاقتها السيطرة على نفسها والتصرف بشكل طبيعي كما وعدت عليّ الليلة وهما يغادران بيتهما؛ لكنها لم تنجح كل ما استطاعت فعله هو الانعزال عن الجميع ورفض كل محاولات عليّ لتشاركهم الحديث، رأت في عينيه الخضراوين خيبةً كما رأت في عينيه إعجاباً واضحاً بأنغام، شعرت بصداع شديد في رأسها وهي تحاول مقاومة الفكرة: «كفى.. هيام كفى أنه في رأسك فقط ليس هناك أي نظرات إعجاب في عينيه إنها فقط عينا عليّ ونظراتهما الطبيعية تشع جمالاً خلافاً يحرق روحك غيره عليه».

«لماذا تجلسين بمفردك؟».

كأس العصير في يد هيام لم تشرب منه إلا رشفة صغيرة، نار تمزق أحشاءها وتشعر بالدم ساخناً يجري في عروقها يحرقها حرقاً، تحاول بكل طاقتها السيطرة على نفسها والتصرف بشكل طبيعي كما وعدت عليّ الليلة وهما يغادران بيتهما؛ لكنها لم تنجح كل ما استطاعت فعله هو الانعزال عن الجميع ورفض كل محاولات عليّ لتشاركهم الحديث، رأت في عينيه الخضراوين خيبةً كما رأت في عينيه إعجاباً واضحاً بأنغام، شعرت بصداع شديد في رأسها وهي تحاول مقاومة الفكرة: «كفى.. هيام كفى أنه في رأسك فقط ليس هناك أي نظرات إعجاب في عينيه إنها فقط عينا عليّ ونظراتهما الطبيعية تشع جمالا خلافاً يحرق روحك غيرة عليه».

«لماذا تجلسين بمفردك؟».

رفعت عينيها بحدة تلقائية فتنظر إلى وجه عامر الذي
اقترب منها ليقف جوار كرسيها المنعزل عن الآخرين
وبسألها سؤاله السخيف! لا تعلم لماذا تكرهه هكذا؟!
هو لم يفعل يوماً لها أي شيء لكن دوماً سكنتها الأفكار
السيئة حوله، أنه سيجر عليّ معه في لهوه العابث مع
الفتيات، لم تستطع أبداً محو هذه الفكرة وهذا ما جعلها
تفعل ما فعلت، فهل يا ترى عامر كشفها فعلاً؟! منذ
يومين وهي تتساءل بقلق يؤرقها وانعكس سلباً على
أعصابها أكثر، وجدت نفسها ترد بفضاظة عليه: «ومع
من أجلس؟!».

تنظر في عينيهِ وتتمنى أن تعرف الحقيقة؛ لكنه يرد
بنبرة هادئة خافتة: «مع زوجك».

ردت من جديد بفضاظة أكبر وجملة مجحفة بحق عليّ:
«زوجي مشغول عني لديه ما يتناقش فيه مع أنغام».

رأت في عيني عامر لمعة غضب سرعان ما انطفأت ثم
قال: «زوجك يكرم ضيوفنا بالاهتمام كما يفترض أن
تفعلي أنت».

اعترفت هيام للحظة أنها تكرهه تكرهه بطريقة لا
تستطيع وصفها، كم تريد إبلامه فلم تجد إلا نظرة
مشمئزة رمقته بها وهي تقول بنبرة لاذعة ساخرة: «هل
هذا انتقاد ومنك أنت؟!».

لم تؤثر به بل رد ببساطة: «أنا مليء بالعيوب لانتقد
غيري؛ لكني لا أخشى عيوبي كما لا أنكرها».

شعرت وكأنه ينتقص منها أو يتهمها فتد عليه بتوتر
وانفعال: «مؤكد أنت تجاهر بكل أفعالك ولا يهملك أحد
وكيف لا ونحن في مجتمع بائس يمنح الذكور حرية
الفساد والإفساد بينما يقع اللوم كل اللوم على الفتيات
وكانهن الشياطين!».

تبسم عامر ابتسامة لا معنى لها وهو يقول بخفوت:
«اخفضي صوتك هيام، لا أريد لعلّي أن يتوتر أكثر وهو
يظن أن شجاراً يدور بيننا اللحظة».

عينا هيام تحركتا بقلق ناحية علي فرأته ينظر إليها من
مسافة لا يسمع حوارهما؛ لكن مؤكداً شعر بالتوتر
المتفجر بينهما فابتسمت لوجه زوجها ليرد لها ابتسامة
صغيرة لم تصل عينيه، وهذا أحبطها لأقصى حد فقالت
لعامر بصوت مرهق وهي تمرر أصابعها بتوتر فوق حافة
تنورتها البنية: «ماذا تريد مني يا عامر أنا بمزاج سيئ
ولا أحتمل س...».

قاطعها عامر ليقول بصوت منخفض للغاية ونبرة حادة
قاطعة كالسكين لم يكلمها بها من قبل: «هل وصلتك
الرسالة؟».

شعرت هيام بقلبها سينفجر رعباً في صدرها فرفعت

عينيها إليه وبوجه شاحب تسأله مدعية الجهل: «أي رسالة لا أفهم».

بدا عامر اللحظة غاضباً بشكل أخافها وهو يقول من بين أسنانه ورغم ابتسامته الصغيرة العالقة على شفثيه: «علي أكبر من أن ترسلي فتاة رخيصة كي تؤكد أو تنفي شكوك المريضة».

شعرت أنها ستموت اللحظة، عيناها كانتا تتوسلان الستر على أفعالها حتى وهي تنكرها بلسانها: «لا أعرف عن أي شيء تتكلم».

فواجهها بما جعل لسانها يعترف أيضاً: «إن علم علي فلن يغفر أبداً هذا».

شعرت أنها تود صفعه اللحظة، كفاها تشبثا بذراعي الكرسي الذي تجلس عليه بينما تهمس بحدة وعيناها تبثان كراهيتها له: «وأنت تريده أن لا يغفر أليس

كذلك؟».

رد بقسوة تجاوزت كرهها له: «أنا أريده سعيداً فهل أنت تريدين؟».

في لحظة تلاشت كل مشاعر الكراهية التي تكنها لعامر.. في لحظة علمت أنها لا تكرهه بالفعل بل تخاف منه تخاف من أي شخص قد يهدد بقاء عليّ معها، أن يحبها هي وحدها ولا تغري قلبه أنثى أخرى، همست بصوت مرتعش: «إنه كل حياتي».

أشفق عليها عامر رغم غضبه منها؛ لكنه أكتفى بالرد بحزم: «إذن حافظي على (حياتك) يا هيام».

ثم أضاف قبل أن ينسحب مبتعداً عنها: «ولا تعاودي التواصل مع تلك الرخيصة، ليست من مقامك على الإطلاق ما فعلته كله ليس من مقامك ولا مقام عليّ».

بيت عليّ تاج الدين

رحلة العودة كانت صامتة للغاية، علي لم يتفوه بشيء
وهيام كانت قد فقدت طاقتها بالكامل، الخزي الذي
شعرته وعامر يواجهها بما فعلته قبل يومين كان أكبر
مما تحتمله، لا تعرف كيف فعلت وأرسلت له تلك الفتاة
كي تتقصى عن عليّ من خلاله، ما الذي يجري لها؟!
كيف وصلت لهذا الحال؟! لماذا تشك بعليّ دوماً؟! هل
فيها العلة أم في تصرفات زوجها؟ تقاوم الصداق الرهيب
الذي تشعره وهي تفكر كيف تعرفت بعلي في الجامعة
واحبه، كان يكبرها بعام واحد منذ دخولها الجامعة وهو
أشهر من النار على العلم، هل هذا هو السبب؟ أنه كان
مشهوراً زيادة عن اللزوم؟ أن الفتيات كن يتوددن إليه
ويقعن بغرامه طوعاً ويتغزلن بلون عينيه.. بلحيته..
بسمرته.. بدمه الحار، وقد عرف عنه سرعة الغضب ولا
يطيق أن يرى الخطأ ويسكت عنه بأسلوبه الخاص في

الكلام مع الإناث وهو يجاملهن بطريقة تبدو صادقة
للغاية مؤثرة للغاية؛ لكن لا خصوصية شخصية فيها،
كل شيء فيه كان يسطع بالجازبية، ورغم أنه لم يُقم أي
علاقة مع أي فتاة عداها في الجامعة لكن صيته لم يخلُ
من بعض المغامرات خارجها، وقبل أن يرتبطا دوماً
سمعت تلك المغامرات ودوماً تساءلت عن مداها عن
عددها وهل أثرت به إحداهن؟ في البداية كان يرد على
أسئلتها هذه بالضحك وهو ينفي أن تكون لديه مغامرات
حقيقية ولا يعدو الأمر مبالغات وشائعات حاوطته بسبب
مهنته ومهنة عائلته، وأكد لها مراراً أنها كانت شقاوة
بريئة وتجارب معدودة؛ لكنها لم تقتنع وظلت تعاود
تكرار طرح الأسئلة نفسها، فبات الأمر يزعجه ثم تطور
الحال بينهما لشكوك تقتلها ليل نهار وشجارات لا تطاق
تنخر في علاقتهما الزوجية، فهل هي السبب أم هو؟

«هيام لقد وصلنا».

تفاجأت هيام وهي تنظر فيما حولها لتجد نفسها وسط
باحة الدار الأمامية وعلي يطفئ محرك السيارة وبتطلع
إليها بصمت، سأل وعيناه ترمقانها بنظرة حميمة: «هل
تذكرت الأغنية؟».

ردت بارتباك وتيه والصمت من حولها لا يعينها لتعرف
الإجابة: «أي أغنية».

كان في مزاج رائع وواضح أنه يتجاوز أموراً كثيرة
حصلت الليلة، ولا يريد حتى معرفتها أو السؤال عنها
فابتسم وعيناه تشعان أكثر بمشاعر حلوة للغاية: «كنت
أشغل تلك الأغنية للتو.. أغنيتنا أنا وأنت عندما رأيتك
للمرة الأولى في مقهى الجامعة، ألم تكوني تنصتين
معي؟!».

أخذ يميل إليها وهي ترتعش بالإجابة: «لم أنتبه
أسفة.. كنت سارحة».

ذراعاه حضنتاهما بقوة لصدره فشعرت بكل جسدها
يذوب عشقاً به فتلف ذراعيها حول جذعه، بينما تشعر
بفمه عند أذنها وهمسه الرجولي يطرب مسامع أنوثتها:
«أريد أن أحضنك الليلة وأنا أسمعها معك مراراً يا إلهي
وكأنني عدت أربع سنوات للوراء، كنتِ تجلسين هناك
وسط المقهى مع ابنة خالتك سجي تضحكين وشعرك
المجعد الطويل يضحك معك، عيناك تشعان قوة
وجمالاً.. أووووف يا هيام قلبي لن ينسى تلك اللحظة ما
حييت لقد قلت في نفسي (هي هذه من أريد)».

همست اسمه بحنين ورغبة ملحة أن ينعزلا عن العالم
بأسره الذي يسرق علياً منها: «علي».

يمد إحدى يديه ويشغل الأغنية من جديد وفي ظلمة
السيارة يهمس مُدندناً كلماتها في أذن هيام مع صوت
المغني باللهجة العراقية الدافئة، تلك الليلة كانت حالة

خاصة للغاية شعرت أنها تتشبث بعلي وهو يبادلها
التشبث فيعطيهما بكرم ما يجعل هواجسها تذبل وتتقهقر،
وكأن لا وجود لها، الهواجس قد تهدأ لكن هيام تعرف
عن خبرة أنها ستعصف من جديد كريح عاتية.

بعد أسبوع

يتمدد عامر مضطجعا بظهره تحت سيارته وهو يحاول
إصلاح العطل الذي فيها، وجهة ملطخ بسخام أسود كما
تلطخت بلوزته يدندن بأغنية شعبية غير مبالٍ للحالة
المزرية التي هو فيها، الواقع أنه كان يجد متعة في
مراقبة السيقان التي تمر في الشارع فيراها عبر بوابة
البيت المفتوحة على مصراعيها، وهذا وقت العصر
وحركة سكان الحي في الشارع تبلغ الذروة عادة، كلما
مر زوج من السيقان يخمن لمن تعود، تأفف وهو يشعر

بالغباء لأنه لم يستطع حل المشكلة ولا بد أن يلجأ
لورشة تصليح، وبينما هو يستلقي هكذا يشعر بغبائه
التفت بحدس مفاجئ فتمر أمام ناظره ساقان رفيعتان
لأنثى تنورتها البنية تصل لما تحت الركبتين بشبر؛ لكن
منظر ساقها كان مبهجاً وكافياً لرفع روحه المعنوية،
ضحك من أفكاره السخيفة ثم كتم ضحكته وهو يستمع
لصوتها تتكلم عبر الهاتف كما يبدو: «أجل أُمي
سأشتريها أيضاً لا تقلقي لن أتأخر».

صوتها كان حلواً ولم يرن بأذنيه من قبل فانتابه
الفضول الشديد ليسحب نفسه من تحت السيارة، وحالما
فعل كانت الفتاة قد اختفت من أمام البوابة، تحرك عامر
بحماسة عجيبة وهو يلتقط قطعة قماش من داخل سيارته
وأخذ يمسح بها يديه ووجهه ثم سارع باتجاه البوابة
المفتوحة يحاول اللحاق بها لرؤيتها.

وقف على الرصيف وهو يراها من الخلف فقط تبتعد
بخطوات واسعة رشيقة؛ لكن جديّة وكأنّها تتعمد
مشيتها هذه دون أن تبدي أي أنوثة ملفتة، نحيلة
متوسطة الطول وشعرها الأسود الطويل معقود برباط
للخلف.

كان سيدخل الدار آسفاً لأنّه لم يجد ما يثير الاهتمام
أكثر عندما مرت به سيارة حمراء فيها ثلاثة شبان غرباء
عن الحي لا يعرف لماذا لم تطاوعاه قدماه ليدخل الدار
من جديد، ووجد نفسه متسماً مكانه يراقب وصول تلك
السيارة قريباً من الفتاة التي كانت قد قطعت مسافة
طويلة نسبياً؛ لكن عامر ما زال يراها بوضوح، يضيق
عينيه بتوجس تلقائي وتلك السيارة تخفف من سرعتها
شيئاً فشيئاً لتساير خطوات الفتاة التي أخذت تسرع
بخطواتها، عندها فقط تحركت قدما عامر لا ليدخل
الدار لكن ليلحق وجهة الفتاة، تسارعت خطواته مع

تسارع المشهد أمامه، فقد ترجل أحد الشبان من السيارة والفتاة تسرع بخطاها أكثر حتى أوشكت الهرولة وهو يضحك ويسرع خطواته معها وسيارة أصحابه تسيرهما، لم يكن عامر يسمع ما يقول ذاك الشاب للفتاة لكن انكماشها ومحاولتها الابتعاد بجسدها عن ملامسته كان يعطيه الإجابة المطلوبة النهائية، لا يطيق من يفرض نفسه بهذا التحرش السافر بفتاة ليست مهتمة على الإطلاق، أي غباء يصور له أنها ستغير رأيها وهي بهذه الحالة من الخوف والانكماش؟! ثم في لحظة عجيبة وجد عامر نفسه يركض تلقائياً عندما دفعها ذاك الشاب الحقير فجأة لتقع على الرصيف وتنطوي ساقاها النحيلتان أسفلها، فقد عامر سيطرته ليهاجم ثائراً مشتبكاً مع الشاب في عراكٍ دامٍ وعندما ترجل صاحبها الشاب ليسانداه ضد عامر كان قد تجمع بعض شباب الحي مساندين لعامر، فحصل اشتباك جماعي قصير

الأمَد وسرعان ما لاذ الشبان الثلاثة بالفرار وقد تجمع
ضدهم شباب كثير، يمسح عامر فمه من أثر الدم ودون أي
تفكير توجه مباشرة لتلك الفتاة التي ما زالت على
الرصيف تدلك كاحلها الأيمن وهي منكمشة بعجز،
اقترب منها عامر وهو يسأل لاهثاً: «هل أنت بخير؟».

كان قد مال بجذعه ليصل إلى مستوى رأسها لكنها لم
ترفع وجهها فقط تهمس بصوت شديد الرقة وينبرة
باكية: «كاحلي التوى لا أستطيع الوقوف».

بطيب خاطر يمد يده بعفوية ليمسك كفها ينوي
مساعدها فقط وهو يقول: «استندي علي».

كانت لحظة مرت خطفاً كشهاب يتعجل الاحتراق
فحالما أمسك يدها النحيلة الناعمة سحبتها بسرعة
البرق، وكأنها قطعة حريرة تسربت من بين أصابعه،
اقشعر جلده من تلك النعومة المتسربة اعتصر أصابعه

في باطن كفه كأنه يحتفظ بلمس خامة متفردة لا تتكرر
دوماً يده كانت حساسة باللمس دوماً، أخبره والده أنه
(قمّاش) بالفطرة ابتلع ريقه بينما تهمس هي بتحفظ:
«أنا بخير اتصلت بأهلي سيأتون لمساعدتي».

ثم تجمد تماماً وهي ترفع وجهها إليه تهمس بكلمة
واحدة يخنقها البكاء: «شكراً».

تاht كلمة شكراً من إدراكه، اتسعت عيناه وحدث
غير مسبوق يحصل معه، وجهها هناك أمر مستحيل لا
يوصف في وجهها لا بل عيناها.. عيناها ذابلتان من
الطرفين كأنهما تبغيان النوم بدلال، دموع تعلقت
بأهدابها السوداء الكثيفة ومع النظرة البريئة من تلكما
العينين الداكنتين الناعستين شلت قدرته على التفكير
ليتنبه متأخراً جداً أن قلبه يخفق بتسارع كأنه أصيب
بمس جنون، كفه الذي لمسها عفويّاً قبل لحظات ارتفع

لمكان صدره وأصابعه تربت بخفة مرتعشة هناك.

«حرير.. حرير يا ابنتي ماذا حصل؟!».

صوت امرأة ينادي من بعيد جعل عامر يتشوش فيعتدل في وقفته، وببلاهة غريبة عنه يحدق في امرأة قادمة من بعيد تبدو ملهوفة وهي تنادي (حرير)، لم ينطق عامر بحرف بينما الـ(حرير) الذي لمسَه خطفاً يرد على المرأة الملهوفة: «أنا بخير أُمي لا تقلقي».

الفصل الثاني

بعد ثلاثة أيام في إحدى جامعات العاصمة

في الممشى الواسع لمدخل الجامعة تحت ظلال أحد الأشجار تجلس نهاوند برفقة صديقتها على مصطبة خشبية، تراقبان كل من يمر بهما وتتسليان بالكلام عنه لقتل الوقت والضجر، (أصابع نهاوند تتلاعب بأطراف خصل شعرها الطويل المصفف على أحدث طراز قصة عصرية، وخصل متفرقة بصبغة شقراء تمنح شعرها الكستنائي الطبيعي مزيداً من الألق،) كانت تعرف أنها جميلة للغاية وأنها مثار حسد بنات كثيرات في الجامعة، خاصة بعدما امتلكت قلب عمر القماش؛ لكن الأهم من الجمال أنها تمتلك عقلاً يجيد استخدامه، يخفق قلبها بنبضات مشيرة وهي تتذكر حزن عمر، لم تكن تظن أنه يحزن برجولة مؤثرة هكذا، هو يعجبها

كثيراً رغم أنه ما زال يافعاً في نظرها، ومؤكداً أن الارتباط بعمر يحقق طموحاتها بزواج مريح من الناحية المادية؛ لكن بعد هذا الحزن اكتشفت أن فيه الكثير ليجذبها إليه ولا تمنع أبداً إن عاود احتضانها من جديد بل تعترف في داخلها تتمنى لو يتمادى أكثر وتتذوق طعم قبلة من شفتيه، إنها مستعدة للتنازل معه بما لم تتنازله مع غيره أبداً؛ لكن يبدو أنها لن تحصل على شيء منه قريباً بعد ندمه على تلك اللحظة بينهما، عندما اختلى بها في سيارته وأخذها في حضنه بشوق ووصفه (اللحظة) بغلطة لا يرتضيها لها.

غارت أصابعها أكثر في خصل شعرها وهي تسرح أبعد من هذا، وجه عمر فيه شيء ساحر للغاية وتستطيع تخيل كيف سيصبح بعد بضعة سنوات، سيتفوق على أخويه عليّ وعامر في جاذبيته، ومع كل هذا تشعر بوجود نقص ربما لأنها تكبره بعام واحد وتشعره أحياناً أصغر من أن

يليق بها .

«أليس هذا عامر القمّاش يا نهاوند؟» .

جملة قالتها صاحبته جعلتها تخرج من أفكارها حول
عمر لتنتقل إلى أخيه عامر الذي تراه الآن وهو يسير في
الممشى العريض وسط الطلبة، ابتسامة صغيرة مرت
على شفتي نهاوند وهي تمعن فيه النظر وكأنها وجدت
الإجابة لتساؤلاتها السابقة.. الإجابة هنا في عامر وهو
يسير هكذا بثقة ونظارته الشمسية السوداء تمنحه مزيداً
من النضج والغموض والثقة، تمتت نهاوند رداً على
صاحبته: «أجل هو» .

تساءلت صديقتها بفضول: «ماذا يفعل بجامعةتنا؟ هو
ليس من النوع الذي يزور أخاه هنا، لم أره من قبل هنا
لكنني أعرفه من وجوده الدائم في محل القمّاش» .

مر بهما عامر ولم يلتفت إليهما بل لم يلتفت لأحد

وكأنه كان محدد الهدف ويعرف أين تريد عيناه النظر،
كما تعرف خطواته أين تقوده.

ردت نهاوند بهدوء: «كلا ليس من هذا النوع الذي
يتسكع في الجامعات، عمر نفسه لا يتواجد في الجامعة
إلا لأجل المحاضرات أو لأجل البقاء معي، إنهم أولاد
سوق ويأخذون عملهم بجدية».

قالت صديقتها ممازحة: «يجب أن أقول إن عمر أوسم
منه، أنت محظوظة لأن أصغر أولاد القماش وآخر
العنقود قد اختارك أنت».

اعترفت نهاوند بالقول: «عمر فعلاً أكثر وسامة لكن
عامر فيه شيء مختلف عنه ربما لأنه أنضج منه، فعمر
ما زال في العشرين».

التقطت صديقتها تلك النبذة المتحسرة فتهمس لها
بخبث الإناث: «تبدين معجبة بعامر يا نهاوند حذاري

من الإعجاب بحميك، خاصة إن كان معروفاً
بمغامراته النسائية».

لكن نهاوند كانت بعيدة عن تلك الممازحة الخبيثة
وتلاحق طيف عامر المبتعد وهي تتساءل بفضول شديد:
«ترى ما الذي أتى به إلى هنا اليوم؟».

خرج عمر من محاضرتة بعد الرسالة التي أرسلها له
عامر عبر الهاتف أنه بانتظاره خارج قسم إدارة الأعمال،
منذ يومين وهو يشعر بعامر مشغولاً بأمر ما

خرج من باب القسم فرأى عامر يقف هناك مرتدياً
نظارتة الشمسية السوداء؛ لكن سرعان ما خلعها وهو
يبتسم لأخيه.

عبس عمر وهو يسرع خطاه متوجهاً نحو أخيه وحالما
وصل إليه قال محذراً: «أرجو أن يكون لك سبباً وجيهاً

لإخراجي من المحاضرة.. الأستاذ لم يكن سعيداً وأنا
أطلب المغادرة خاصة أن ساعات غيابي عنده توشك أن
تصل الحد الأعلى».

يرفع عامر حاجبيه وهو يقول بنظرة ذات معنى: «لا
أريد أن أسأل كيف قاربت على الحد الأعلى من ساعات
التغيب؛ لكن يمكنني التخمين ولا أظن الحاج سليم
سيكون متساهلاً معك كعادته».

تأفف عمر وهو يتخصر ويسأل بنزق: «ماذا تريد؟».
يعاود عامر ارتداء نظارته وهو يخطو قائلاً: «أريدك أن
ترافقني إلى قسم اللغة الإنجليزية».

يعقد عمر حاجبيه وهو يساير خطوات أخيه متسائلاً:
«ماذا لديك في قسم اللغة الإنجليزية؟!».

بصوت خافت لكن جدي للغاية رد عامر: «أريدك أن
تعرف لي كل صغيرة وكبيرة عن فتاة اسمها حبيب

الجنابي.. حرير أسعد إبراهيم الجنابي مرحلة رابعة قسم
اللغة الإنجليزية».

قال تلك الجملة وأصابع يده ترتفع لا شعورياً لتربت
مكان قلبه الخافق، منذ يومين وهو بهذه الحالة تحصل
معه كلما ذكر اسمها على شفثيه أو داهمت مخيلته
بوجهها أو صعقت حاسة اللمس عنده بذكرى حريها.

أمسك عمر بذراع أخيه ليوقف خطواته وسط الساحة
متسائلاً بدهشة أقرب للذهول: «لا أذكر أنك يوماً سعيت
لتعرف شيئاً عن فتاة».

تقلصت أصابع عامر وهو يقول بنبرة هادئة للغاية:
«إنها ليس أي فتاة.. إنها من ستكون زوجتي».

تسمرت خطوات عمر مكانها وهو يتمتم بذهول تام هذه
المرة: «زوجتك؟!».

التفت عامر بوجهه ناحية أخيه يكاد يرى بوضوح حجم

المفاجأة على وجهه، بينما عمر يتساءل مضيفاً بهذر:
«متى وأين عرفتُها؟!».

سرحت عينا عامر بعيداً خلف نظارته الشمسية ودوي قلبه يحطم جدران صموذه ليقول بصوت أجش: «قبل ثلاثة أيام رأيتها في شارع بيتنا ومنذ ذلك الحين وأنا أسأل عنها.. انتقلوا قبل أسبوعين تقريباً إلى حينا والدها موظف مرموق متقاعد ووالدتها ربة بيت، حرير هي الكبرى ولها اخت متوفاة قبل سنوات واخت أخرى بعمر الثانية عشرة واخ بعمر التاسعة»

يرتفع حاجبا عمر عالياً وهو يهمس بالسؤال المصعوق
«هل عرفت عنها كل هذا في يومين؟!»

أطرق عامر ب رأسه قليلا وهو يعترف قائلا بتفكير
«منذ يومين لا شاغل لي إلا السؤال عنها»

صمت عمر للحظات ثم قال «وان قلت لك

إني أعرفها»

رفع عامر وجهه بحدة وهو يسأل بتشنج « كيف تعرفها؟ أهي معروفة في الجامعة هكذا ام إنك تعرفها بشكل شخصي؟! »

رد عمر وهو يستوعب حالة أخيه العجيبة». كلا ليست
معروفة على الإطلاق إنها فتاة في حالها، صديق لي
أعجبته وحاول التقرب منها لكنها صدته أنا تورطت
بالذهاب معه دون رغبتى».

تساءل عامر بلهفة مفضوحة صادمة لعمر: «ماذا بعد؟
قل لي المزيد عنها».

لم ييخل عليه عمر بكل ما يعرفه ليقوله دفعة واحدة:
«ليس هناك الكثير يا عامر.. فتاة بين مئات الفتيات في
الجامعة.. محتشمة الملابس لا تضع أي تبرج حتى
شعرها تربطه دوماً للخلف، لن أقول إنها منطوية لكن

كما أخبرتك في حالها هادئة لم أرها إلا بصحبة فتاتين لا
تشارك في أي ضجة أو نشاطات طلابية تكاد تكون غير
مرئية».

قلب عامر كان يقرع بجنون اللحظة كل هذا يعجبه..
يعجبه للغاية ويؤكد أن نظرتة في محلها همس بصوت
مبحوح: «غير مرئية لأمثالك ممن يدهش عيونهم البريق
الزائف».

لكن عمر رد متجاهلاً إشارة أخيه لمن يعني بالبريق
الزائف: «أنا لست كمثلي غيري بدليل أنني أراها بالفعل
لكنني أحترم خصوصيتها وأنها لا تبغي إلا الدراسة».

خطواتهما عاودت المسير فيسير عمر محاذياً لأخيه
ليسأل بخفوت: «أنت جاد؟!».

ليرد عامر بتصميم قاطع كما لم يره عمر مصمماً من
قبل: «أقول لك حرير ستصبح زوجتي».

رغمًا عنه ضحك عمر ضحكة رقيقة وهو يهز رأسه
ويقول بخفوت: «عامر تاج الدين القماش ستكسر قلوباً
كثيرة بفعلتك هذه».

خرجت حرير مع صديقتها وفاء وبسمة من قسم اللغة
الإنجليزية لتجلس على أول مصطبة وتضع محاضراتها
جوارها وحقيبتها بسمة قالت ستعود إليهما خلال دقائق
وذهبت لشأنها، بينما وفاء تقول بحماسة: «عندما تعود
بسمة دعينا نذهب لذاك المحل الجديد للمأكولات
نجرب فطائره الكل يمتدحها».

بحركة عفوية تسحب حرير شعرها المعقود برباط
للخلف وتضعه مستريحاً فوق كتفها الأيسر ثم تمرر
أناملها بين خصله الناعمة قائلة بهدوء: «لا أستطيع..
والدي لا يرضى».

تنهدت وفاء بإحباط وهي تجلس جوارها على
المصطبة ثم قالت بجديّة: «سنتخرج خلال أشهر يا حرير
لا يعقل أن يظل على معاملته هذه لك وتقييده المبالغ
فيه لتحركات.. أنت لم تعودى فتاة ثانوية بل بنتاً
ناضجة الكل يشهد بعقلها واتزانها وطيب أخلاقها».

لم يتغير شيء في تعابير حرير وقد اعتادت تلميحات
وفاء في هذا الموضوع تحديداً، بينما ترد عليها ببساطة:
«لقد اعتدت طبعه هو يخاف علينا كثيراً، خاصة بعد
وفاة أختي رحمها الله».

ثم تبتسم حرير مضيفة: «كما أنك تصورينني كفتاة
كئيبة مغلوبة على أمرها وأنا لست كذلك».

ردت وفاء: «مؤكد لست كئيبة على العكس أنت
خفيفة الظل ومحبوبة للغاية وهذه ليست مجاملة لك بل
هي الحقيقة؛ لكن هذا كله من الداخل الذي لا تسمحين

لأحد بسهولة الاقتراب منك ليكتشفه، تشدد والدك يؤثر
في شخصيتك ويجعلك حذرة أكثر من اللزوم مع الآخرين
سامحيني حرير لقول هذا لا أقصد الإساءة إليه أو لك،
أنت صديقة غالية علي كثيراً».

اتسعت ابتسامة حانية على فم حرير وهي ترد على
صديقتها بالقول: «إذن اسمعيني أخبرك المزيد عنه، أبي
رجل طيب القلب رغم شدته المبالغ فيها وتحكمه الصارم
بنا؛ لكننا في البيت اعتدنا عليه اعتدنا طباعه
ونتفهمها؛ لأننا نعلم أن ما مر به يجعله هكذا، شديد
الحرص علينا ولا هدف له في الحياة إلا أن يطمئن
لمستقبلنا وأنا لا أريد أن أحمله ما لا يطيق بالقلق عليّ
هو فقط يعبر عن قلقه بطريقة متشددة، هل تعلمين أننا
أخفينا عليه أنا وأمي تحرش أولئك الشبان بي قبل أيام؟
أعلم أنه يصعب التعامل معه لكن أبي له وضع خاص».

بتردد تساءلت وفاء: «هناك أمر سمعته منذ فترة ولم
أسألك عنه احتراماً لخصوصيتك، خطر في بالي اللحظة
وأنت تتكلمين عما مر به والدك إن أزعجك سؤالي فلا
تردي وانسيه.. هل حقاً كان متزوجاً قبل والدتك؟».

هبت ربح رقيقة جعلت خصل شعرها تتطاير فوق كتفها
وهي تغلق عينيها الناعستين لبرهة بينما شفتاها تتحركان
برد على السؤال: «لا يزعجني السؤال يا وفاء على
العكس، ربما ستقدرين أكثر أسباب شدة أبي».

عندما فتحت حرير عينيها كانت تبتسم وقبل أن تحكي
لصديقتها قصة أبيها رأت عيناها منظراً غريباً.

شاب بنظارة شمسية سوداء يبدو مألوفاً لها بشكل
غامض يقف على بعد بضعة أمتار، كان يقف هكذا
متسماً مكانه وأصابع يده اليمنى على جانب صدره
كأنها تربّت مكان قلبه! والأغرب أنها بحدسها كانت

تعرف أنه يحدق فيها رغم أن عينيه مخفيتان بسواد نظارته، عفويًا كانت تحكي الحكاية لصديقتها وعيناها ما زالتا تنظران لذاك الشاب الغريب في وقفته المُحيرة: «ما وصلك صحيح أبي كان متزوجاً من إحدى قريباته؛ لكن حصلت بينهما مشاكل كثيرة وعدم توافق في الشخصيات والطباع فكانت النتيجة الطبيعية هي الانفصال، ثم مرت بضع سنوات قبل أن يتقدم لأمي ويتزوجها لذلك هو».

تلكأت كلمات حرير وهي تعبس تلقائياً عندما تنبهت أن ذاك الشاب الغريب لم يكن يقف هكذا وحده، بل كان برفقته شاب آخر يصغره بالعمر وتعرفه جيداً أحد طلاب قسم إدارة الأعمال عمر القمّاش!

أدارت حرير وجهها بعيداً ببعض الحدة، بينما وفاء تتساءل في دهشة: «ماذا هناك يا حرير لماذا تعبسين وتبدين متوترة هكذا؟! هل أزعجك الكلام عن الموضوع

أنا آسفة».

لكن حبر فاجأتها وهي تسألها بتوتر ملحوظ: «ماذا تعرفين عن عمر القماش؟».

ارتفع حاجبا وفاء قليلاً وهي تتساءل بعجب: «عمر القماش؟! ما الذي ذكرك به اللحظة؟!».

ردت حبر موضحة بخفوت: «لا تبعدي نظراتك عن وجهي، لا أريد أن يبدو علينا الاهتمام، عمر يقف أمامنا على بعد أمتار وبرفقتة شاب غريب يحدق بي لا أفهم ما يجري هل سيُحضر لي كل يوم شاب يود التعارف؟!».

عبست وفاء هي الأخرى وهي ترد على صديقتها بخفوت مماثل: «غريب هذا! أنا لا أعرف الكثير عنه؛ لكنني لم أظنه من هذا النوع أقصد أن يكون طرفاً في أمور كهذه سبق وزرت محلهم في الفرع الثاني أكثر من مرة مع أمي، وقد كان في منتهى الخلق في التعامل

حتى أخيه عامر رغم أن له سمعة مع الفتيات لكن لم
يبدر منه أي تصرف مريب أو تجاوز للحدود».

حاولت حرير أن تفهم لماذا يبدو الشاب ذو النظارة
مألوفاً أين رآته؟! فضول وفاء غلبها لتخطف نظرة في
الاتجاه الذي ذكرته حرير فهتفت شاهقة: «هذا عامر
معه! أنا واثقة أنه هو».

بدأت حرير تشعر بالقلق وهي تتساءل: «عامر؟!
تقصدين أن صاحب النظارة الشمسية هو أخوه عامر?!».
ردت وفاء ببعض الحماسة: «أجل هو عامر القماش أنا
أعرفه جيداً».

شعرت حرير بالضيق بل حتى الغضب فحركت رأسها
لتنظر إليهما مباشرة وهي عاقدة الحاجبين، فرأت عمر
يحاول سحب أخيه من ذراعه، بينما عامر كتمثال من
رخام لا يتزحزح ثم فاجأها وهو يخلع نظارته ليكشف عن

تحديقہ فیہا دون حاجر أو ساتر، فی لحظة عرفته
وعرفت لماذا بدا مألوفاً لها، إنه ذاك الشاب فی الحي
الجديد الذي دافع عنها وتشاجر لأجلها، سؤال خطر
ببالها هل يسكن الحي ذاته أم كان هناك بالصدفة؟
ثم تلاه سؤال مُقلق أكثر هل رآها اليوم بالصدفة أم
جاء لأجلها؟

«كفى عامر بالله عليك».

كلمات أخيه عمر لم تستطع اختراق نبض الخافق فی
صدره لا يمكن أن تكون حقيقية! إنها كخيال يختبئ فی
رأسه وحده فلا يرى جمالها سواه، هذه المرة الأولى التي
يراها بعد ذاك الحادث لا زال صوتها فی أذنه وهي تكلم
أمها، تطمئنُها أنها بخير بينما تستند إليها لتسير معها
عائدة برفقتها للبيت، حبر فیها الكثير مشع قوي وناغم

ومخفي عن الكل إلا هو ببساطة يراه ولا يشبع من رؤياه
لمسه ولن ينسى ملمسه.

«عامر أرجوك الفتاة تنظر إلينا بعبوس لا أريدها أن
تظن أنني أفتعل مواقف مشابهة معها».

كان يشعر بيد عمر وهي تسحبه من ذراعه فتترنح
ابتسامة على فمه وهو يساير أخاه الأصغر بالابتعاد؛
لكن عينا عامر لا تبتعدان عن وجهها كانت رسالة
مقصودة ولتفهمها شاءت أم غسبت.

عصراً محل القماش / الفرع الأول

ابتسامة المرأة التي تقارب الستين عريضة وهي تنظر
إلى عليّ كأنه كويكب مضيء تتدلل عليه وهو يفتح لفة
قماش أمامها لتشير للفة أخرى مرصوفة جنب باقي
اللفات خلف ظهره.

«بُنِيَّ عَلِيٍّ أَرِيدُ أَرْبَعَةَ أَمْتَارٍ مِنْ ذَاكَ اللَّوْنِ
سَامِحَنِي سَأَتَعْبُكَ».

بابتسامة حلوة يترك اللفة في يده ودون كلمة يكتفي
بالتعبير الدافئ وهو يرفع يده السمراء ليشير بسبابته
اليمنى أسفل عينه اليمين ثم يحركها إلى أسفل عينه
الشمال، حركة لا تنطق الحروف لكن تنطق بالإحساس
وكانه يقولها بلسانه (من عيوني الاثنين).

لتردها المرأة بلسانها وهي تقول بمحبة غامرة وكلمات
عفوية: «سلم الله عينيك يا ولدي انفقات عيون الناس
التي تراك ولا تصلي على النبي لولا أنك متزوج
لخطبتك لابنتي هذه».

تغرق ابنتها التي تقف جوارها في الخجل ورغم
معرفتها بطبع أمها فإنها لم تستطع تقبله حتى كمزاح
محبة لتهمس بحرج فظيع: «أمي!».

ما زالت ابتسامة عليّ مشعة لكنه يقلل من حرج الفتاة
بذكاء وهو يستدير كي يحضر من خلفه لفة القماش التي
طلبتها المرأة، بينما يسمعها ترد على ابنتها بالقول
المحبيب وقد فاضت كلماتها بالطيبة وحسن النوايا:
«ماذا بك؟! هو يفهمني ويفهم ما أعنيه».

ثم تنتظره حتى يعاود الالتفات إليهما لتؤكد بالسؤال:
«أليس كذلك بني؟».

يرد عليّ ببشاشة وحلاوة لسان: «مؤكد يا خالة أفهم
ما تعنيه والقلوب سواقي».

فتلتفت المرأة إلى ابنتها لتثبت حجتها وهي تمر على
صفات علي بفخر وكأنه يخصها: «أرايته من رجل! عقل
كبير ولسانه يقطر عسلاً مصفى ووسامة أهل الجنوب
في وجهه، أما النخوة فلن أمل تكرار القصة وأنا أتذكره
اسم الله يحفظه كان كالأسد يهجم على ذاك اللعين

الذي سرق مني محفظتي وسط السوق فأمسكه من
تلايبيه قبل أن يفلت».

بدت الفتاة الشابة لا تعرف كيف توقف أمها عن هذا
الاسترسال المخرج، بينما علي يرد بالابتسامة نفسها:
«لم أفعل إلا الواجب يا خالة».

تنجرف المرأة في انفعالها العاطفي ومحبتها لهذا
الشاب فتقول باندفاع دون أي شعور بالخرج: «قسماً
بالله لو كنت ترتضي زوجة ثانية لزوّجتك هذه العبوس
الليلة، ليس لأجلها إنما لأجلي كي أصبح حماتك وأمّا
ثانية لك».

تحمر الفتاة غاضبة بينما علي يقهقه ضاحكاً رغماً
عنه، تشد الفتاة المسكينة بأصابعها على ذراع أمها
وهي عابسة محمرة الخدين فتقول لها همساً: «كفى
بالله عليك لن أنزل معك مرة أخرى وسأنتظرك في

السيارة».

لكن الأم لا تشعر بأي خطأ فيما قالت له لتوبخ ابنتها بالقول: «لا تكوني عبوساً غضوباً هكذا تعلمي البشاشة والضحك بدلا من النكد والتعقيد الذي أنت فيه».

تتأفف الفتاة وهي ما زالت محمرة الوجه لتقول لأمها بعينين غاضبتين: «أنا ذاهبة للسيارة أنتظر هناك».

ثم تغادر الفتاة بخطوات واسعة تعبر عن حنقها من أفعال أمها بينما الأم تتساءل ببراءة: «ماذا فعلت لها؟! أنا كنت أتكلم عن نفسي وليس عنها!».

يطرق عليّ برأسه قليلا ووجهه الوسيم ضاحكاً فيزول عبوس المرأة تلقائياً وتعاود الابتسام بانشراح وهي تتدلل عليه من جديد: «يا جنوبي يا أسمر هات تلك اللفة أيضاً».

فيستمر عليّ في حوارهِ معها بينما الحاج سليم يراقب

من بعيد وابتسامة أبوية رقيقة على فمه، فجأة لمح
وجهاً مألوفاً عبر زجاج المحل، وقف سليم على قدميه
وهو يحاول أن يدقق لكن الوجه سرعان ما اختفى!

عاود الجلوس ببطء وبدت تعابير وجهه قد حملت همماً!
نظراته اتجهت صوب ولده مرة أخرى وهو يبيع لتلك
الطيبة العفوية مزيداً من الأقمشة بينما يفكر بذاك الوجه
الذي تعرف عليه قبل اختفائه ولم يكن إلا وجه هيام!

هل وصل بها الحال أن تأتي إلى المحل وتراقب
زوجها؟! لقد جنت هذه الفتاة بالفعل جنت.

تجلس هيام في سيارتها تنحني فوق المقود الذي
تضمه بذراعيها وهي ترتجف، تشعر أنها تختنق، رعب..
غضب.. هاجس مدمر.. لا تعرف أيها يغلب! ربما كلهم
معاً اجتمعوا عليها، ذاكرتها تسترجع ما رآته عيناها قبل

صوب ولده مرة أخرى وهو يبيع لتلك الطيبة العفوية مزيداً من الأقمشة
بينما يفكر بذاك الوجه الذي تعرف عليه قبل اختفائه ولم يكن إلا وجه هيام!
هل وصل بها الحال أن تأتي إلى المحل وتراقب زوجها؟! لقد جنت هذه
الفتاة بالفعل جنت.

تجلس هيام في سيارتها تنحني فوق المقود الذي تضمه بذراعيها وهي
ترتجف، تشعر أنها تختنق، رعب.. غضب.. هاجس مدمر.. لا تعرف أيها
يغلب! ربما كلهم معاً اجتمعوا عليها، ذاكرتها تسترجع ما رآته عيناها قبل
قليل ومخيلتها تعيد رسمه بشكل آخر لم تكن قد سمعت بل رأت وحسب،
تلك المرأة مع الفتاة التي تشبهها إلى حد كبير فيخبر ذاك الشبه كل من
يراهما أنهما أم وابنتها، المرأة تنظر إلى علي بطمع وعرض واضح وهي
تشير إلى ابنتها بين الفينة والأخرى أما الابنة الشابة فتحمر خجلاً وهي تنظر
من خلف غمام الحياء المتصنع ساعة إلى أمها وساعة إلى علي، وعلي..
آه منه تلك الحركة وهو يشير بسبابته لعينية كانت كافية لتوقع قلوب من
حوله وضحكاته بشاشة. وجهه التي تشي بفرحه بما يحصل، هل غازل الفتاة

مستجيباً للعرض الرخيص الذي تقدمه أمها؟! ألهذا السبب خرجت الفتاة بخطوات مسرعة تداري خجلها منه؟ قلبها يتمرغ بالألم لا تحتمل لا تحتمل هذا، ترتجف يدها وهي تتحرك بحثاً عن حقيبتها لتخرج منها هاتفها النقال، للحظة أرادت الاتصال بأمها لكن دمعة انحدرت على خدها وهي تفكر أن أمها ستوبخها لا أكثر وتصفها بالموهومة! أخذت هيام تجهش بالبكاء وتقاطرت دموعها فوق الهاتف الذي تشبث به ولا تعرف لمن تلجأ، فجأة خطر لها خاطر جعلها تستجيب له وكأنها غريقة تتعلق بقشة ولم تكن تلك (القشة) إلا من (كانت) صديقتها الوحيدة، من اعتبرتها طوال حياتها كأخت لها تربتا سوية في بيت واحد ابنة خالتها سجي، ضغطت على الرقم المطلوب ودموعها تجري.. تفكر أنها لا بد مجنونة لتعذب نفسها هكذا! لماذا قررت أن تأتي الآن إلى محل القماش وتراقب علي من بعيد؟! أي غباء وتهور دفعها لتوقع نفسها أكثر في هاوية مدمرة لا قرارة لها، طال الرنين وابنة خالتها لا تستجيب، أخذت هيام تشهق بالبكاء وهي تتمتم بصوت مخنوق: «سجي كلميني ردي علي».

وأخيراً انفتح الخط وجاء صوت سجي لا حرارة فيه وهي تقول بنبرة شبه رسمية: «مرحباً هيام».

أخذت هيام تمسح وجهها من الدموع الغزيرة وصوتها يرتجف بالبكاء والمشاعر الرهيبة التي تسيطر عليها: «سجي.. سجي أنا أحتاجك».

لم يأت الرد من ابنة خالتها، كان صمتاً للحظات فقط لكنه حمل أبلغ

المعاني ولأن هيام تفهمها جيداً وقد عرفت بعض كأقرب من أختين فتقول لها بحشجة: «أعلم أنك ترينني سيئة وربما خائنة لصداقتنا لأخوتنا لكن لكن...».

خانتها مشاعرها فعادت للبكاء المرير، وصلتها تنهيدة سجي قبل أن تقول بصوتها الحلو الرخيم: «أخبريني ما يؤلمك».

كم كانت جملة مختصرة وتصف بدقة شعورها اللحظة، هذه هي سجي سكون الليل وغموضه وجاذبيته.. سجي رفيقة الطفولة ثم أختاً لهيام منذ توفيت عائلة سجي بالكامل في حادث مربع نجت منه سجي وحدها، فأخذتها خالتها عندها لتربيتها مع ابنتها المدللة الوحيدة، سجي الأقوى والأكثر سحراً وجمالاً وتوقف خيال هيام عند هذا الحد هل حقاً سجي كل هذا؟! لقد سألت مرة علي عن رأيه في ابنة خالتها فلم يبد أي اهتمام عميق قال فقط إنها فتاة طيبة حتى إنها ألحت عليه إن كان كرجل شاب يرى في سجي شيئاً مميزاً فاكتفى علي بالنظر إليها باستغراب ثم قال إنه يراها فتاة لطيفة عادية؛ لكنه لمح بإعجاب عامر بها في ذلك الوقت كما أنه أوضح ذلك الإعجاب من أخيه أنه لا يعدو إعجاباً ذكورياً بهيئة سجي الجذابة دون أن يحمل خصوصية أو تفرداً، إذن لماذا هيام تشعر هكذا حيال سجي وأنها تجذب الرجال أينما حلت أهو خيالها الأرعن أم هذيانها الذي يصور لها أموراً تجعلها تتصرف بطريقة غريبة مريضة فتبعد عنها من تحبهم ويحبونها عن غير قصد أو ربما عن قصد!

تأتأت هيام وكأنها لم تعد تعرف ما تقول: «أنا أأق...».

الثقة التي نبض بها صوت سجي كانت كسهم يصيب مقتلاً في روح هيام الهشة الضعيفة: «أهدئي هيام وخذي وقتك حتى تسترخي وتخبريني أنا دوماً سأكون معك».

انكمشت هيام ويدها التي كانت متوترة فوق المقود ارتفعت إلى مقدمة قميصها الربيعي المجعد تشد عند فتحة القميص وتتلاعب بأزراره في حركة حادة مألوفة منها عندما تشعر بالنقص! أجل تشعر بالنقص.. تشعر بالغيرة من سجي رغم كل الحب والتعلق بينهما فإن سجي كانت هاجسها، الأمر لا يتعلق بإعجاب شبان بها فعلى العكس هيام كانت تحصل على إعجاب أكبر، إنه أمر خاص ومخفيّ بعناية وهذا الأمر ليس في الماضي فقط إنما يرافقها في حاضرها أيضاً أمور كثيرة فعلتها هيام وما زالت تفعلها فقط كي تشعر أنها أفضل منها، ومن هذه الأمور رغبتها أن تحصل على الماجستير لا أحد يعلم لا أحد يدري أنها أرادت هذا فقط كي تجاري طموح سجي في المقابل، غلبها شعورها القديم فلم تستطع البوح!

قالت هيام وهي تخذل نفسها: «لا بأس سجي أنا كنت متضايقة فقط من ضغط الدراسة.. أسفة لإزعاجك».

ثم ألقت تحية سريعة وأغلقت الخط بل أغلقت الهاتف تماماً حتى لا يتصل بها أحد لنتهار فوق المقود من جديد، عشر دقائق أخرى أو ربع ساعة

وكانت هيام بوجهها الشاحب المتيبس من أثر الدموع التي جفت تقود
سيارتها الصغيرة عائدة إلى البيت وهي تخبئ نفسها عن نفسها.

امرأة في عقدها الثلاثيني لها نصيب كبير من جمال خاص ذاك النوع
الذي يحمل لهفة الإغراء وسحر الدعوة، يقف علي أمامها بالابتسامة نفسها
التي يمنحها لكل الزبائن بينما يستمع إليها باهتمام وهي تشير بيدها
البيضاء المشعة إلى الأقمشة المفرودة بينهما قائلة بنظرات تخص علياً
بلمعة خاصة ومغزى لا يعرف إلا معنى واحداً: «أريد من كل لون ثلاثة
أمتار ولو أنني أظن أن ثلاثة أمتار كثير على تصميم قميص النوم الذي
اخترته».

لم تتغير تعابير علي ولم تتغير تلك الابتسامة الودودة منه وهو يرد: «لا
بأس الزيادة أفضل من النقصان».

تنظر إليه وتشتهيه! تريده أن يفهم لا بل تريده أن يستجيب هذا الشاب
الأسمر الذي يصغرها بسنوات كان أول رجل يجذبها بهذه الطريقة منذ
طلاقها، ابتلعت ريقها عفواً مع أفكارها الحارة حوله فتتنظر لشفتيه وتقول
بصوت أنثوي يحمل شوقاً: «ربما الأفضل أن أحضر لك نموذجاً لتراه وتقدر
ما احتاجه فما رأيك؟».

يغیظها بتلك الابتسامة اللطيفة التي لا تتغير وكأنها ابتسامة تنعكس

على حلقة الزواج الفضية في بنصره الأيسر، قال معتذراً بالنبرة نفسها دون زيادة في البسمة ولا نقصان فيها: «أنا لا أفهم للأسف في الخياطة الأفضل أن تسألني الخياطة كم متراً تحتاجين».

يدها تسترخي فوق الأقمشة الحريرية؛ لكن قلبها يقرع وهي لا تياس من دحر أسلوبه في التهرب الذكي: «هل تظن الألوان ستليق بي؟».

يرفع حاجبيه قليلاً وكأنه يشاركها فكرة بريئة للغاية فيقول بحماسة وهو يرفع المقص بيده: «أظنها ممتازة هل نقتطع الآن؟».

كادت تجن منه فسألته بإصرار: «أخبرني يا علي أي لون هو الأجمل في نظرك؟».

تتسع ابتسامته قليلاً وتتغير نبرته وهو يقول بنبرة هادئة: «الأجمل هو ما تختارينه أنت».

لم تعد تهتم إن كانت مفضوحة هكذا أمامه لتقول له بأنفاس تتسارع رغماً عنها: «أنت لا تخطئي باختيار حرف واحد لا يمكنني أن أغلبك في الكلام».

فيرد وعيناه الخضراوان باردتان دون أن تفارق وجهه بشاشة المحيا: «المهم أن تغلبي بالحصول على القماش الذي تتمنيه هذه دوماً غايتنا».

أوشك أن يغلبها اليأس فتقاوم بالقول الأرعن المتهور: «وإن أردت الحصول على ما هو أكثر من القماش؟!».

لم يكن هناك أي شك في مقصد الكلام وصراحة العرض لمعة من غضب جليدي مر في عينيه وكأن خضرتهما الدافئة انقلبت للون قمم جبال الشمال المثلجة أيام الشتاء، وكان رده انعكاساً لهذا التغير في لون عينيه: «ليت الأمر بيدنا نحن قماشون نبيع بضاعة واحدة لا غير».

يقول هذا ويده تمر فوق الأقمشة في دلالة واضحة كوضوح الشمس، أخيراً أعلنت تلك المرأة الهزيمة وهي تنادي اسمه كأنها تودعه: «علي».

تعود الابتسامة الأولى ذاتها إلى محياه وكأنه قرأ استسلامها وبأسها من إغوائه ليكمل عليها بالقول: «أؤمريني أختاه».

كانت القاصمة حقاً وهو يناديها (أختاه) لتقول بصوت خافت: «زوجتك محظوظة بك».

لم يستجب حتى لهذا منها بل رفع المقص من جديد وبدا قليل الصبر بعض الشيء وهو يقول: «أكرم الله أصلك وأنا محظوظ بها هل نقتطع الآن؟».

تنهدت قائلة وهي تكتفي أن تتملى فيه: «نعم اقطع على مهلك».

سمي باسم الله وشق المقص بحرفية والمرأة تراقب يديه بشغف مبتور لكنه غير مستور.

دخل عامر المحل فيبتسم بشقاوة وهو يلح تلك المرأة التي تأكل أخاه علي بنظراتها وهو غير مبالي يقطع لها القماش، تتمم عامر في سره: «انتهى

كل هذا حتى بالنسبة إليك يا عامر يا ابن القماش هو حريرها الذي لمستته ولم يعد لغيرها ملمساً».

«ما الذي أتى بك في هذه الساعة؟! كيف تترك المحل!».

التفت عامر لأبيه فيراه يتقدم إليه وبعد أن ألقى تساؤله العابس، يرد عامر بابتسامة عريضة: «المحل تركته في عهدة عمر أما أنا فلم أستطع الانتظار حتى عودتنا مساءً للبيت».

رفع سليم حاجبيه قليلاً ثم أرخى جفنيه وهو يحرك خرزات المسبحة المذهبة في يده ليسأل بنبرة ممازحة والابتسامة الأبوية الصغيرة على فمه: «ماذا وراءك يا متعب ولا يحتمل الصبر هكذا؟!».

أياً كان ما توقعه سليم من ولده الأوسط فمؤكد لم يكن هذا: «لقد قررت الزواج».

توقفت أصابع سليم عن تحريك الخرزات بينما يرفع نظراته لولده كي يقرأ وجهه، لم يتوقع على الإطلاق أنه سيشهد هذا من عامر يوماً لكن الأقدار تفاجئنا دوماً وها هو أكثر أولاده شقاوة يقع في الغرام، ولم يكن غراماً عادياً لقد أعاده للخلف لأكثر من سبعة وشعرين عاماً عندما وقع الجنوبي في عشق الشمالية من النظرة الأولى ليؤكد لها عامر بالقول الثابت والعزم الذي لا يلين: «ولن أتزوج إلا إياها حرير».

يتمتم سليم وابتسامته تتسع: «حرير؟! أمم الدنيا دوارة يا ابن القماش».

بتلهف يتخذ من الانتظار عدواً قالها عامر: «أنا جاد أبي وأريدك الليلة أن تكلم والدها وتطلب موعداً للزيارة».

محل القماش / الفرع الثاني

يقلب عمر القماش بين أصابعه بشرود وهو عاقد الجبين، هناك ما يضايقه بل ويوتره حاول أن يركز أكثر ليعرف مصدر ضيقه فلم يفلح، هل ربما بسبب نهاوند وكلامها اليوم عن عامر؟

هل أخطأ عندما أخبرها عن إعجاب عامر بحريز الجنابي ونيته الزواج بها؟

لقد بدت نهاوند غيورة.. غيورة جداً ولم تخف امتعاضها من اختيار عامر واصفة الفتاة بالعادية وليست ذات مستوى كمستواها! ولا يعرف كيف انتقل الموضوع لمقارنات بينها وبين حريز!

للمرة الأولى يشعر عمر بنوع من البعد عنها إن لم يستخدم كلمة أشد إلا وهي (النفور)

للمرة الأولى يرى فيها هذا الغرور أو الكبر هل حقاً هي المرة الأولى أم أنه لم يكن يراها من الأصل؟! جعد القماش بين أصابعه وهو يعبس أكثر مفكراً إن حالته هذه كلها بسبب عامر والأفكار السخيفة التي أدخلها في رأسي حول نهاوند وسببه تعامل مع ردة فعل نهاوند الأنثوية المبالغ فيها

حول حرير ببرود شديد حتى إنه تركها وادعى انشغاله اليوم بأعمال المحل.

رن هاتفه في تلك اللحظة وكان اسم نهاوند المضيء على الشاشة كأن قلبه يضيء معها، فتح الخط وهو يتحرك ليترك مكانه من خلف منضدة العرض متوجهاً إلى المخزن السفلي الخاص بالمحل، وبينما ينزل أول درجة جاء صوتها الحبيب هامساً بنعومة تذيب قلبه: «عمر».

يبتسم بحنو وهو يرد همساً: «قلب عمر».

بدت وكأنها طفلة توشك على البكاء فأوجعت قلبه المتيّم: «أنا آسفة».

وقف عند نهاية الدرج مستنداً بظهره للحائط وهو يتساءل بذويان: «لماذا تقولين هذا؟».

ردت وهي ما زالت تمسك بتلابيب تأثره: «كنت سخيفة اليوم وربما غيورة أيضاً».

شعر ببعض التوتر أو إحساس مبهم لا يفقه مصدره فيسأل بهدوء: «ولماذا غيورة؟».

ردت ونبرات صوتها بدت صادقة للغاية وهي تحمل مشاعر تخصه: «شعرت.. شعرت أنك معجب بحرير تلك بدوت متحمساً لقرار عامر بالزواج هكذا فجأة وكأنه وجد كنزاً!».

نحى جانباً كل أفكار سلبية وحاول أن يراعي غيرتها قائلاً بصدق مشاعره

نحو أخيه: «نهاوند أنا سعيد من أجله، عامر رغم عبثه فإنه شاب رائع ويستحق فتاة مميزة».

هتفت بحقن أفلت منها: «أرأيت؟! ها قد عدت لمدحها من تكون هذه الباهتة لتراها أنت الآخر وكأن لا فتاة مثلها؟!».

شعر بالضيق من كلامها وتذكر أفعال هيام مع علي فتضيق أكثر، عبر عن ضيقه بنبرة حادة بعض الشيء: «نهاوند أريدك أن تسيطر علي غيرتك أنا لا أريد أن أكرر تجربة علي مع هيام هذا سيكون جحيماً».

ساد صمت من جانبها للحظات طويلة، بينما عمر تداهمه صور من بعض مشاجرات علي وهيام التي شهدتها بالصدفة، حتى جاء صوت نهاوند مختلفاً للغاية وهي تحول مسار الحديث ببراعة لتتشدد رقة تفيض اهتماماً به ويعائلته: «هل ما زالت كما هي؟!».

زفر عمر أنفاسه بقوة وهو يرد بعبوس: «بل أظنها تزيد، أعان الله علي عليها في اجتماع عائلي في دارنا مع عائلة صديق والدي اعتزلتنا في زاوية وظلت ترمق علي بنظرات سخيفة وهو يكلم ابنة صديق أبي».

ردت نهاوند بنبرة واثقة: «إنها لا تثق بنفسها».

تمتم عمر: «ربما».

لتشير بالقول العاطفي: «وربما لا تحب علي كما أحبك أنت».

يضحك عمر بخفة وهو يرد برقة ممازحة: «وهذا أيضاً ربما».

نادته بصوت مبحوح: «عمر».

يرخي رأسه ليستند على الحائط وهو يهمس: «أممم».

ردت بصوت مرتعش: «أنا مشتاقة إليك».

أغمض عينيهِ ورغماً عنه تذكرها وهي في حضنه، جسدها كله مضموماً إليه فيشتعل جسده شوقاً ورغبة للمزيد؛ لكنه يقاوم وهو يتنهد اسمها بحرارة: «نهاوند».

بدت وكأنها تتذكر مثله وهي ترد عليه بحشجة عاطفية: «يا روح نهاوند».

شعر بعقله تخدر تماماً فيحكم قلبه أنه السلطان فينطقها لسانه: «أنا أحبك».

بيت علي تاج الدين آخر المساء

كانت ترتجف وهي تقرأ الرسالة التي وصلتها للتو، ثم شعرت بجسدها كله يتشجج، هذه المرة الأولى التي تتلقى فيها رسالة من هذا النوع، المرة الأولى منذ زواجهما لكن قبلها كانت قد تلقت الكثير منذ أن شاع ارتباطها بعلي وهجوم ضارٍ برسائل بشعة، وقد كشف علي بعض مرسلاتها وتشاجر

بعنف معهم ما بين شاب حاقد عليه وبين شابة غيورة لم تحتمل أن يرتبط (علي القماش) بشابة غيرها! وظل البعض الآخر في حكم المجهول؛ لكن ردة فعله العنيفة كانت كفيلة بإخراستهم، وهكذا ومنذ زواجهما تقريباً قبل عامين توقفت تماماً تلك الرسائل حتى كادت هيام أن تنساها أو ربما الأصح أن تقول تناستها، والتناسي مخادع لا يصل بصاحبه إلى مرحلة النسيان الحقيقي فيرحمه من شقائه ووساوسه ولا يمنح الشجاعة للتذكر الصريح كي يواجه الإنسان علقته وما يخشاه، وهذا كان حال هيام اللحظة، رسالة واحدة أثبتت أن التناسي ليس علاجاً ناجعاً على المدى الطويل إنه يصلح كمخدر يساعد على الاسترخاء وطلب الشفاء؛ لكن المخدر وحده لا يكفي.

أجفلت وهاتف علي الذي تركه على المنضدة قبل دخوله للغرفة يرن من جديد، هذه ثاني مرة يرن خلال ربع ساعة فقط تقدمت هيام بوجهها الشاحب ويدها المرتعشة تمتد قبلها حتى تصل ذاك الهاتف الملقى مع صوت وصول رسالة نصية.

خرج علي من غرفة النوم وهو يلبس ساعة يده ويصفر لبيتسم تلقائياً وهو ينظر إلى هيام بشعرها المجعد المنثور تجلس في تلك الزاوية من غرفة المعيشة المفتوحة وسط البيت، حيث اتخذتها هيام كمكان لدراستها تضع فيه منضدة جميلة الطراز وكروسي مريح، تقدم علي منها وعيناه تبحثان هنا وهناك عن هاتفه وهو يقول ببشاشة: «حبيبتي لن أغيب أكثر من ساعة

توقفت كلمات علي وهيام ترفع وجهاً شديد الشحوب وبدت بحالة هستيرية على وشك الانفجار، وهي تشير بإصبعها نحو المنضدة امامها وتهمس بارتجاف: «من آلاء؟!». للحظة لم يستوعب علي السؤال بينما عيناه تنحدران عفواً إلى ما يشير أصبعها فيرى هاتفه! لسانه يتمتم وعقله يعمل ببطء فلا يستوعب ما يحدث: «آلاء!».

ردت وهي تهب واقفة على قدميها وتحمل هاتفه في يدها لتصرخ بهستيرية وعيناها تتسعان بانفعالها الرهيب هذا: «اتصلت بك ثلاث مرات وأنت في الحمام أرسلت رسالة تقول فيها إنها بانتظارك وهديتك جاهزة».

خلال لحظة شعر علي بدمائه تغلي كالبحيم في رأسه ذاك الغضب الذي ابتلي به بالوراثة من أمه كان يصل القمة وعلي يعافر كي لا يفلت الزمام منه خرج صوته خافتاً وهادراً في الوقت ذاته: «أفتتشين في هاتفك؟!».

تتقدم هيام وهي لا تدرك حالة زوجها كما كان هو لا يدرك حالتها، لم يدرك كم كان يومها مريعاً لأنه ببساطة لم يعرف بحضورها للمحل كي تراقبه من خلف الزجاج لم يعرف خيالها ماذا صور لها.

خرج صوت هيام متحشرجاً وهي تصل إلى علي وتمد يدها بالهاتف كأنها تواجهه بالجرم المشهود: «من هي يا علي من هي؟! هل تحبها؟».

التمعت حبات العرق على جبين علي وهو يكتنم لأبعد حد ما يغلي داخله

يشعر أن ضغطه ارتفع اللحظة، بينما هيام ترمي هاتفه للأريكة القريبة ثم تخرج من جيبها (دليلها الثاني) ولم يكن إلا هاتفها هي لتعرض بحركات هستيرية عنيفة الرسالة التي وصلتها أمام ناظري زوجها: «انظر.. انظر ماذا أرسلت لي هي نفسها لا غير أرسلتها لي البارحة».

عينا علي تمران فوق تلك الكلمات المسمومة التي أرسلت إليها (هل تظنين أن علي القماش مخلصاً لك؟! تفكري بهذا السؤال كلما خرج من البيت هل تريدين قائمة الأسماء أم تكتفين باسم واحد؟).

أوقعت هاتفها أرضاً بحركة منهارة ثم رفعت كفيها لتضرب بها على صدر علي في حركات عشوائية هستيرية ضعيفة: «هي مؤكد هي حتى لو لم يكن الرقم نفسه رخيصة حقيرة عاهرة منذ متى تعرفها؟! منذ متى تعاشرها?».

اقصى ما استطاع علي ضبطه وهو بهذه الحالة الرهيبة هو أن يمنع نفسه من فعل ما لم يفعله طيلة حياته أن يفلت غضبه الجسدي نحو امرأة ولو حتى بصفعة فهذا كان خطه الأحمر الذي لا يتعداه مهما كان الثمن؛ لكن هيام أثبتت له كم تختبر قدرته هذه أوشكت قبضتها أن تطال وجهه عندما أمسكها بعنف ليوقفها وهو يقول بصوت مشحون: «أنت فقدت السيطرة وأنا لم أعد أدري ما يحصل بيننا وكيف يحصل!».

كان يجب أن يخرج اللحظة لم يحتمل البقاء رغم كل الألم الذي يشعرها تكابده؛ لكن ألمه الشخصي طغى عليه أبعداها بعنف عنه ثم تحرك للأريكة

ليلتقط هاتفه وهيام تلاحقه بهستيريتها هادرة: «لن تخرج من هنا قبل أن تخبرني من هي وبعدها أنا التي سأخرج من حياتك سأعود إلى بيت أبي». .

للمرة الأولى يشعر أنه لا يهتم لرحيلها، للمرة الأولى يشعر أنه يريد لها حقاً أن تباعد عنه ولو لبضعة أيام، عسى أن يهدأ ويجد حلاً لحياتهما الكارثية، التفت إليها قائلاً بوجه ينضح بالغضب الذي يكبته: «لك مطلق الحرية أن تذهبي إلى حيث تريدين أما أنا فسأخرج لموعدي صديقي الصائغ (علاء) بانتظاري وقد أوصيته هدية لنونة في عيد الربيع الأسبوع المقبل».

تجمدت هيام مكانها وهي تحقق في وجه علي الذي بات أكثر شحوباً من وجهها، بينما تتمتم بكلمة واحدة: «علاء؟!». .

عندها فقط استوعبت علي يكتب كل الأسماء باللغة الإنجليزية واسما (آلاء) و(علاء) يكتبان بالأحرف نفسها، أخذت الدنيا تلف من حولها وتشعر أنها تتهاوى وهي تدرك فداحة ما فعلته، صوت علي يأتيها مضخماً مع طنين في أذنيها: «أنا لن أعود للبيت الليلة وأنا جاد بقولي أن تذهبي لبيت أهلِكَ حتى نجد حلاً لحياتنا».

كان يبتعد وهي تناديه بصوت خافت كأنها تتلاشى من الوجود: «علي عد أنا آسفة».

لكن صوته جاء بنبرة قاسية لم تختبرها فيه من قبل: «لقد طفح الكيل أقسم بالله لا أقوى الليلة حتى على تحمل النوم منفرداً على فرشتك».

ثم غادرها وغادر البيت تاركاً إياها تصارع أشباحاً قاتمة تكاد تعصر
روحها من جسدها.

بعد منتصف الليل

تقوده خطواته في ظلام الليل، يجول عامر وحيداً على قدميه في هذا
الجزء من الحي نسمات الريح الباردة في الليل ترفرف حول روحه الحارة
وتشدو لقلبه المتأجج هياماً

عيناه تمران على البيت المتواضع الذي تسكنه تلك الحرية الروح فيكاد
يلامس جدرانها الخارجية بحثاً عن رائحة ملمسها! أجل لملمسها رائحة
وطعم أيضاً أصابعه ارتفعت لتربت مرتعشة فوق موضع القلب الخافق.

صباح اليوم في الجامعة وهي تجلس مع صاحبته تحت ظل الشجرة
كانت غير عادية، كيف ترخي أهدابها في إغمضة ناعسة، كيف تبتسم
بشفيتها للمرة الأولى، ترى عيناه حياءً كهذا في ابتسامة شفيتين، أناملها
وهي تتلاعب بخصل شعرها المربوط كأنها تعزف قيثارة تغويه كي يموت
فداء للمسة منها.

أرخی يده إلى جانبه ثم أخذ نفساً عميقاً ليتمتم في سكون الليل: «ماذا
دهاك يا عامر.. اصبر بالله عليك».

تذكر كلام والده قبل بضع ساعات وهو ينصحه الصبر، طلب منه أن

يمنحه فرصة ليتصرف حسب الأصول والعادات ويسأل عن أهلها وعائلتها قبل أن يخبرها نونة عنها، عينا عامر تناظران النوافذ في الطابق العلوي ثم رفعهما عالياً للسماء العالية المرصعة بالنجوم هامساً: «منك الصبر يا صاحب الصبر».

ابتلع ريقه وهو يجبر خطواته على العودة فيشعر كمترنح في سكرة الهوى الذي صعقه بغتة ودون ميعاد، بعد عشر دقائق كاد يصل إلى بيتهم عندما لمح سيارة علي يركنها إلى جانب الرصيف ثم يترجل منها، عبس عامر بقلق ويحث خطاه وهو ينظر لساعة هاتفه التي تشير للواحدة بعد منتصف الليل، وصل لأخيه الذي كان يغلق أبواب السيارة فيسأله دون سلام حتى: «ماذا هناك يا علي؟».

ناظره علي بصمت وبدت تعابيره مقلقة أكثر وهو يرد عليه بالقول: «كنت سأتصل بك كي تفتح لي الباب لا أريد أن أقلق نونة».

سار الاثنان نحو البوابة أولاً فدخلا الباحة سوياً وعامر يعاود سؤاله بصوت منخفض: «أنت أقلقتنني أنا بالله عليك ماذا هناك؟! هل هيام بخير؟».

شع جسد علي بشحنات الغضب الذي يكتمه بينما يلتفت ناحية أخيه وهو يقول من بين أسنانه: «لا أريد أن أتكلم عنها الآن، فقط افتح لي الباب ودعني آوي لسريري القديم».

التزم عامر الصمت ولم يثقل عليه بالمزيد ورافقه دخوله الصامت ولحق به في صعوده الدرجات، لم يكن هناك ما يقال الليلة وقد بدا علي في وضع صعب للغاية، دخل علي غرفته القديمة التي غادرها قبل عامين ليبدأ حياة جديدة مع هيام، لم يكن يظن للحظة أنه سيعاود المبيت فيها وفي داخله كل هذه المشاعر الغاضبة نحو حب عمره.

خلع بلوزته ورمها ثم فتح حزام بنطاله وسحبه ليرميهِ أرضاً وأخيراً رمى جسده على السرير منبطحاً على بطنه، أغمض عينيه تظللهمَا خصل من شعره تبعثرت على جبينه، قال بصوت خافت لعامر الذي ما زال واقفاً عند باب الغرفة: «أطفئ النور واغلق الباب أحتاج لنوم عميق طويل».

صباح اليوم التالي

يشرب عمر ما تبقى من شايه بينما يسأل أخاه قائلاً بصوت منخفض: «هل ما زال علي نائماً؟».

يرد عامر وهو يتحرك عبر المطبخ وقد أنهى قضم آخر جزء من شطيرة الجبن: «أجل والحمد لله أبي خرج دون أن يعلم ونونة لم تتنبه له حتى الآن».

بعد دقيقة كان الشقيقان يغادران عبر باب المطبخ إلى الباحة الأمامية، بينما يتساءل عمر بضيق: «ماذا سنفعل يا عامر علي تعيس للغاية».

تمتم عامر وهو يصعد لسيارته: «الغبية! كم هي غبية ستهدم بيتهما بيديها».

أرجع عامر السيارة للخلف ليخرج بها من المرأب باتجاه الشارع وانتظر حتى يغلق عمر البوابة بعد خروجهما، ثم خطا عمر ليجلس جوار أخيه في السيارة وقبل أن يكمل عامر خروج سيارته للشارع قال عمر فجأة: «هل العم إدريس يتشاجر مع هذين الشابين أم أنا مخطئ؟!».

التفت عامر يساراً فيرى جارهم الخمسيني الذي يبعد بيتين فقط عنهم وهو يصرخ في وجهيَّ شابين وقد كانا بدوريهما يبادلانه الصراخ والتلويح بانفعال بكفيهما وكأنهما يتحديانه، عبس عامر ولم يعجبه ما يراه خاصة أن العم إدريس رجل مسالم للغاية قصير ضئيل، تكاد لا تشعر بوجوده، ترجل عامر من السيارة ليتبعه عمر، اقترب عامر بخطواته من الجمع الذي بدأ صياحهم يعلو فبادر للكلام: «السلام عليكم.. خيراً؟!».

التفت أحد الشابين قائلاً بوجه حانق غاضب ودون أن يرد السلام: «ما دخلك أنت؟!».

تجاهل عامر رد الشاب الثلاثيني ليوجه السؤال للعم إدريس: «ماذا هناك يا عم؟ لم أرك يوماً تتشاجر مع أحد».

كان العم إدريس منفعلاً بشكل غير مسبوق وهو يقول لعامر: «وأنا يا ولدي لم أصادف وقاحة كهذه؟! قلت لهما فقط إن لا يركنا سيارتهما أمام

عامر من السيارة ليتبعه عمر، اقترب عامر بخطواته من الجمع الذي بدا صياحهم يعلو فبادر للكلام: «السلام عليكم.. خيراً؟!». .

التفت أحد الشابين قائلاً بوجه حائق غاضب ودون أن يرد السلام: «ما دخلك أنت؟!». .

تجاهل عامر رد الشاب الثلاثيني ليوجه السؤال للعم إدريس: «ماذا هناك يا عم؟ لم أرك يوماً تتشاجر مع أحد». .

كان العم إدريس منفِعلاً بشكل غير مسبوق وهو يقول لعامر: «وأنا يا ولدي لم أصادف وقاحة كهذه؟! قلت لهما فقط إن لا يركنا سيارتهما أمام بيتي؛ لأن ابنتي ستغادر خلال عشر دقائق وهي مبتدئة في القيادة ولن تستطيع إخراج السيارة بسهولة، فهل أخطأت؟!». .

ابتسم عامر وهو يقول بهدوء: «حاشاك يا عم من الخطأ، ربما هما أساءا الفهم لكنهما سيحركان السيارة في الحال». .

ليعاود الشاب الثلاثيني وقاحته وهو يوجه كلامه لعامر بانفعال: «أنت لا تتدخل واذهب لشأنك أفضل لك أنا أركن سيارتي حيثما أريد هذا ملك الدولة وليس ملك أحد». .

تواجه عامر معه بينما عمر يتحفز من خلفه ورفيق الشاب الآخر يتحفز أيضاً، ما زال عامر يتكلم بأسلوب هادئ للغاية وهو يرد عليه: «مؤكد الشارع ملك الدولة لكن الأخلاق والاحترام ملك صاحبها، فأرنا ما تملك منها».

بدا الشاب الثلاثيني مُستَفْزاً للغاية من هدوء عامر وبروده فرفع يده وبسبابته اليمنى نكز عامر في كتفه بخشونة وهو يقول مهدداً: «عد من حيث أتيت واسلم على نفسك، صبري على تفاهاتك نضب».

أنزل عامر نظراته إلى سبابة الشاب ثم عاود رفعها إلى وجهه قائلاً بابتسامة خطيرة: «هل نكزتني في كتفي أم أنني توهمت؟!».

رد الشاب بتحفز للتحدي والعراك: «وسأفعل المزيد إن لم ترحل حالاً».

اتسعت ابتسامة عامر وهو يرد بالقول: «وأنا أظنك أخطأت».

وما إن قالها حتى رفع قبضته في لكمة مباشرة لوجه الشاب، كان شجاراً عنيفاً بين الأربعة ضرباً ولكماً وركلاً، والعم إدريس يصرخ وزوجته التي خرجت على الأصوات كانت تولول وهي تأمرهم التوقف، بينما تجمع بعض الجيران وعلى حين غرة وجد عامر وعمر نفسيهما في موقف لا يحسدان عليه عندما صدما بوجود أمهما معهما تشارك بضرب الشابين وشتمهما! أمسك بعض الجيران الشابين ليفرقا بينهما وبين عامر وعمر بينما نورجان في حالة هستيرية ولولا إمساك عامر بها لكانت تهاجم الشابين من جديد،

يحاولها عامر بذراعيه وهو يحاول السيطرة على مزاجها المألوف لديه
بالقول: «نونه اهذئي بالله عليك».

لكنها فقدت السيطرة وهي تصرخ في أحد الشابين: «أيها الوضع الحقيق
إن لمست أحد أولادي مرة أخرى سأفقد عينيك بأظفري».

ولم يكن أمام عامر وقد تجمهر الجيران من كل مكان ينظرون لما يحدث
ما بين ذهول وضحك حتى الشابين كانا مصدومين من هذه المرأة المجنونة
فلم يكن أمام عامر إلا أن يرفع جسد أمه من خصرها لتتعلق بكتفيه وهي ما
زالت تتوعد ليسلمها إلى عمر قائلاً: «خذها للبيت».

ففعل عمر والدم يتقاطر من شفته فيستلم أمه من أخيه بالوضعية نفسها
ويسير بها وهي تستند بكفيها على كتفيه وترفع نفسها فوق مستوى رأسه
لتواصل هجومها الكلامي الشرس دفاعاً عن ولديها، وما إن التفت عامر
لينهي الشجار العنيف حتى وقعت عيناه عليها، من علمت قلبه أبجدية
جديدة للخفكان «حرير» وبكل غباء كان ينظر إليها بقلبه المجنون الخافق
غير مستوعب لذهولها وصدمتها وهي تقف مع جمهرة الجيران المراقبين
للشجار، تلقائياً أراد الاقتراب منها عندما رأى الرجل العابس جوارها
يسحبها من ذراعها، كان عامر يتساءل في سره (هل هذا الرجل والدها؟)
عندما أته لكمة غادرة مباغطة على جانب وجهه أيقظته من حالته الهائمة.

الفصل الثالث

دخل أسعد إبراهيم الجنابي إلى داره والاستياء بادٍ على وجهه تتبعه خطوات ابنته التي كانت هي الأخرى ما بين استياء مماثل لأبيها وبين قلق لا تعرف مصدره بالضبط، هرعت الأم لتأخذ أكياس البقالة من زوجها بينما الأب يتمتم: «لم أظن أن في هذا الحي الراقي الهادئ نموذجاً من البشر كهذا!».

نظرات الأم تتساءل قبل لسانها: «خيراً يا أبا خلدون ماذا حصل؟». بحاجبين أشيبين معقودين بصرامة رد أسعد على زوجته: «في طريق عودتنا من السوق أنا وحرير صادفنا شبان يتشاجرون في الشارع بعضهم من سكان الحي بشكل مؤكد لم يعجبونني جميعهم والأسوأ من هذا شاركت والدّة أحد الشباب في العراك والشتم! كان مشهداً يندى له الجبين!».

شهقت الأم وهي تضرب براحة كفها على خدها قائلة: «شاركت في العراك والشتم؟! ما هذا؟! وكأننا في أحد تلك الأحياء الشعبية».

رد الأب بتوتر: «يبدو أنني أخطأت اختيار هذا الحي لنسكن فيه أحياء العاصمة تتغير».

حاولت حرير تخفيف توتر والدها وقلق أمها بالقول: «الحي بمجمله هادئ يا أبي وأنت لم تخطئ الاختيار، هي مجرد حالة فردية لشباب متهورين لا

أكثر».

بالعبوس نفسه التفت الأب لابنته وقال بنبرة حازمة: «منذ اليوم لا أريدك أن تمرى بذاك الشارع على الإطلاق لقد رأيت البيت الذي خرجت منه تلك المرأة المجنونة؛ لكن الشارع كله لا يعجبني فإذا ذهبت للسوق القريب فاسلكي درياً آخر وخذي معك أخاك خلدون.. مفهوم؟».

بابتسامة راضية ومطمئنة قالت حريز: «لن يكون إلا ما تريد ويربح بالك يا أبي».

انشرحت أسارير الأب قليلاً رغم أن التوتر لم يغادر نظراته ثم رفع كفه ويريت على خد ابنته قائلاً: «بارك الله فيك يا حريز، نعم الابنة أنت».

تميل حريز بفمها لتلثم باطن كف أبيها ثم تقول ببشاشة محاولة تغيير مزاجه الذي تعكر: «سأعد لك الإفطار بنفسي».

تشعر الأم ببعض الراحة لأن حريز استطاعت تليين مزاج الأب الذي تبسم وهو يرد على ابنته: «وأنا سأنتظر إفطارك، متى تبدأ محاضراتك؟».

ترد حريز وهي تخرج البيض من أحد الأكياس: «في الساعة الثانية ظهراً يا أبي، محاضرة واحدة لا غير سأستقل الحافلة».

تعود نظرات التوتر والقلق إلى الأب وهو يقول: «سيارتنا أصبحت بلا نفع، فأيام عطلة أصبحت أكثر من أيام تشغيلها، لا أحب أن تركبي

الحافلة».

تعاود حرير محاولة طمأنته بالقول: «لا بأس أبي لا تقلق الحافلات في هذا الوقت لا تكون مزدحمة».

يصمت الأب ثم تمضي خطواته لتغادر المطبخ تلحقه خطوات زوجته، بينما حرير تبدأ بإعداد البيض المقلي وهي تعبس بتفكير، تتذكر وجه عامر القماش وتعابيره، نظرات عينيه التي يوجهها نحوها وكأنها تخصه!

إنه مُقلق.. مُقلق للغاية ما الذي يريده منها؟! سواء أكان جاداً أم لا ففي كلا الحالتين الأمر مرفوض، لا هي ولا والدها يرضيان بشاب مثله.

علاقات نسائية طيش عنف و(أُم) مخيفة عنيفة في غضبها بل أقرب لامرأة هستيرية مجنونة!

بعبوس أشد همست حرير بنبرة قاطعة: «إذا حاول مجدداً الاقتراب مني فسوف أوقفه عند حده وليجد فتاة أخرى من نوعيته يلهو معها أو حتى يتزوجها، فقط فليبتعد عني».

يثبت عامر كيس الثلج بيده اليسرى على وجهه بينما نورجان تعقم جرح عمر (المعترض): «نونة بالله عليك دعيني! جرح فمي لا يحتاج لأي تعقيم إنه جرح صغير».

يبتسم عامر لأخيه الأصغر بمشاكسة؛ لكنه يتوجع في خده ليعاود العبوس ويضغط بكيس الثلج، تسرح عيناه ومخيلته تجسد له صورة حرير من جديد، لا يهمه اللكمة التي تلقاها غدرًا على خده وهو مسمر أمامها وقد نسي للحظة الشجار والمتشاجرين فداها ألف لكمة ما دامت عيناه تراها، يعاود قلبه ذاك الخفقان المجنون فترتفع يده اليمنى لترت في حالة لا توصف من الذوبان والارتعاش، يجب أن يحث والده الإسراع، لقد بات يشعر أن الوقت عدوه ويخشى ما يخشاه أن يتقدم إليها أحدهم في هذين اليومين قبل أن يسبق هو ليخطبها.

«أعتقد أن عامر يحتاج إليك أكثر مني.. اذهبي إليه لأنني أرى الغيرة في عينيه».

تلتفت نورجان إلى ولدها الأوسط فتعقد حاجبيها وهي تنظر إليه بتدقيق كأنها جهاز معاينة للأشعة فوق الصوتية لتتمتع بعدها: «إنه بخير كما أنه يجيد الاعتناء بنفسه أما أنت فما زلت صغيراً لتفعل».

يقهقه عامر ضاحكاً بقوة وهو يتوجع بالوقت نفسه، بينما عمر يغلي من الغيظ فأبعد يد أمه عن فمه وهو يقف على قدميه ويقول بعبوس غاضب: «أظن أننا نحتاج للتكلم حول خرقك لبعض الاتفاقيات القديمة معك يا نونة أليس كذلك يا عامر؟».

نظرة متبادلة بين الأخوين ليهز عامر رأسه بتأييد بينما ترتبك نظرات

لكنها تزم فمها بمقاومة وعناد.

يتقدم عامر ليأخذ مكان مجلس عمر على الكرسي قبالة أمه ثم ينظر في عينيها الجميلتين ويسألها بحزم: «هل تذكرين اتفاقنا يا نونة؟ ماذا تفعلين عندما نتشاجر مع أحدهم؟ أخبريني».

تنقل نورجان نظراتها بين عامر الجالس قبالتها وبين عمر الذي يقف جواره، كلاهما يوجهان إليها توبيخاً ضمنياً بل حتى خيبة من فعلتها، ردت وهي تعبس: «اتفاقنا أن لا أ تدخل؛ لكن..» يقاطع عمر تبريرها وهو يسأل بحزم أخيه عامر نفسه كأنهما اتفقا عليها: «وماذا أيضاً يا نونة؟».

ترمي نورجان الشاش الطبي من يدها كأنها طفلة غير راضية عن توبيخها لتتكتف وهي ترد بالعبوس المعاند نفسه: «ألا أخرج للشارع إن كنت في البيت، ولا يعلو صوتي حتى لا أخرجكم وأقلل من شأنكم».

سألها عامر هذه المرة ليثبت المواقف: «هذا الاتفاق كم عمره؟ ومتى حصل بالضبط؟».

مطت نورجان شفتها جانباً وهي ترد بخفوت المذنبين: «عشر سنوات مذ كان علياً بالخامسة عشرة وشاركت معه في شجار وتسببت له بمشكلة أكبر مع أقرانه في المدرسة».

فقال عامر وهو يرفع سبابته في وجهها: «ووعدتنا أنك لن تفعلها أبداً ونحن أخفينا الأمر عن أبي هل تذكرين؟ حافظنا على عهدنا معك وطالبناك

المثل».

زفرت نورجان بعنف وهي تقف على قدميها وتهدر: «عامر كفاك
تقريباً لي!».»

يقف عامر هو الآخر على قدميه وينبرة أقرب للأبوية الحازمة وكأنه
يتعامل مع ابنة صعبة المراس: «نونة لقد تعاهدنا ولا ينفع الآن بعد إن
غدونا رجالاً أن تشتركي معنا في شجار عنيف كهذا، كما لا يليق بزوجة
الحاج سليم القماش أن يراها الناس وهي فاقدة السيطرة هكذا أنت أكبر من
هذا بكثير يا أمي».»

في العادة ينادونها بـ(نونة) إلا إذا كان الحديث جديّ ومهم فتقفز كلمة
(أمي) إلى أفواههم كأنها جرس ينبهها لأهمية الأمر عندهم، لم ينقذ نورجان
من هذا التقريع إلا دخول علي للمطبخ وهو بينطاله الجينز عاري الصدر
شعره مبعثر ويفرك عينيه ليطرده النعاس، صُدمت نورجان بابنها البكر في
البيت فتتمتم بدهشة: «علي! ماذا تفعل هنا؟!».»

يمرر عليّ أصابع يده في شعره المبعثر قائلاً بتذمر وضيق: «ما هذه
الضجة منذ الصباح الباكر ألا يستطيع أحد النوم في هذا البيت؟!».»

يتبادل عامر وعمر النظرات بينما تتقدم نورجان من علي لتقول بحاجبين
معقودين: «أي صباح باكر هذا؟! إنها الحادية عشرة».»

ثم تضيف وهي تنقل نظراتها بين الأولاد الثلاثة: «يبدو واضحاً أن

شقيقك يعرفان بمبيتك هنا ليلة الأمس، وأشعر بحدس غريب أنك بت بمفردك دون زوجتك».

يتهرب علي بنظراته من أمه ويمر بتلك النظرات لأخويه كأنه يطلب المساعدة فيسارع عامر لمحاولة إنقاذه: «كان متعباً ليلة الأمس وبيتنا أقرب فقرر المبيت عندنا خاصة أن هيام تبيت في بيت أهلها».

يصمت علي بينما تشعر نورجان بوجود خطأ ما لتتساءل بتوجس: «ولماذا تبيت في بيت أهلها؟! لم تفعلها سابقاً منذ زواجها بعلي».

لا يعلم علي من أين أتته الفكرة ليقولها: «لا أعلم التفاصيل يا نونة لكن أمها طلبت هذا ربما هو عريس تقدم لسجى».

استطاع علي تشويش أمه بالكذبة التي قالها عفويّاً لتتمتم نورجان: «سجى؟!». «سجى؟!».

ثم فجأة تفجرت كقنبلة موقوتة وهي تلتفت إلى عامر وتهذر فيه: «أيها الغبي أضعت سجى الأخرى من بين يديك.. علي أن أتصرف بنفسي فالفتيات الجيدات (يطرن) سريعاً وفي نهاية الأسبوع لن نجد فتاة تستحق كي تتزوجها».

تتسع عينا عامر قليلاً وهو يتساءل بدهشة لا تخلو من الشقاوة: «منذ متى وكانت سجى من قائمة المرشحات لي؟! هل أنا آخر من يعلم في هذا البيت؟! كان عليكم إخباري سابقاً لأبذل مجهوداً أنا الآخر».

تضربه نونة على رأسه فيضحك عمر بينما يتبسم علي بلا روح وهو يتقدم من دلة القهوة ليصنع فنجاناً له، فجأة هتفت نورجان: «لكن أين سيارتك؟».

يتمتم علي وهو يملأ الدلة بالماء: «مركونة في الخارج أمي».

لكن نورجان ترد: «لا ليست بالخارج».

التفت علي عابساً ليوضح عامر قائلاً بنظرة ذات معنى: «لا ليست بالخارج، خشيت أن تتعرض للسرقة فاستأذنت جارنا أبا كوركيس لأدخلها في مرأب بيته».

منحه علي نظرة شكر خفية وقد أدرك أن عامر أخفى وجوده لأطول فترة ممكنة حتى لا يثقل عليه والداه بالأسئلة، وكم هو ممتن لهذا، لقد احتاج إلى النوم العميق هذه الوحدة مع النفس كي يستعيد صفاء عقله ويبدأ من جديد في البحث عن حل.

دخلت سجي المطبخ وهي تعلق حقيبتها على كتفها وقد استعدت للخروج والذهاب للجامعة حيث تعمل كمعيدة هناك، ملابسها بسيطة وأنيقة وشعرها البني الداكن المتموج تعقده للخلف برباط من وشاح شفاف يضيف أنوثة على مظهرها الجدي، تنظر للساعة فتراها تشير للحادية عشرة فتطمئن أنها

لم تتأخر، تسألها خالتها وهي تصب لها الشاي: «هل استيقظت هيام؟».

أرخت سجي أجفانها وتمد يدها لتأخذ الكوب من خالتها وهي ترد بنبرة هادئة: «لا أعلم خالتي لم أدخل غرفتها».

ظهر على وجه الخالة نبراس تعابير الخجل ورغبة المراضاة، قالت لها بعاطفة أمومية: «لا أريدك أن تتضايقي من كلماتها بالأمس كانت منهاراً فقط يا ابنتي».

توترت سجي قليلاً وهي تتذكر انهيار هيام ليلة الأمس عندما دخلت عليهم بوضع مزرٍ تبكي وتصرخ أن علياً سيهجرها! وعندما حاولت هي التدخل لتفهم منها ما جرى أخذت هيام تصرخ في وجهها وهي تتهمها أنها تتشفى فيها! كان الاتهام مربعاً بشعاً ولم تستطع سجي إلا الانسحاب لغرفتها تاركة لخالتها وزوج خالتها التصرف مع انهيار ابنتهما، أكملت سجي شرب شايتها بهدوء قبل أن تبرئ ذمتها وتقول: «خالتي يجب أن نواجه الواقع».

بدت الخالة نبراس وكأنها تتهرب من مواجهة كهذه فتقول مدعية الجهل رغم فهمها للمقصد: «ماذا تقصدين يا سجي؟».

ردت سجي بصوت منخفض: «هيام تحتاج لعلاج خالتي الموضوع تفاقم معها وستخسر زوجها وحياتها».

يوجع قلب سجي أن ترى خالتها متألّمة هكذا وعاجزة عن إيجاد الحل

تعرفين من يذهب لهذا النوع من الأطباء يتهمونه بالجنون أو الاختلال
سياسيٍّ إليها هذا ويجعل حالتها أسوأ كما أنها فقط غيورة بدرجة أكثر قليلاً
من العادي لكنها طيبة وسرعان ما تعترف بخطئها وتصلح ألا تذكرين عندما
كنتما أطفالاً؟».

اكتفت سجي بابتسامة باهتة ثم استأذنت لتترك الحوار الذي لن يجدي
نفعاً، بسيارتها الصغيرة غادرت سجي بيت خالتها وما تعتبره بيتاً لها
لتنتقل إلى عملها والأفكار تختلط بالذكريات، لم تستطع سجي أن تجرح
مشاعر خالتها التي ربتها واحتضنتها وعاملتها كأبنة، لم تستطع أن تقول لها
إن هيام منذ الطفولة وهي غيورة بشكل مرضي، لم تستطع أن تخبرها كم
مرة افتعلت لها المشاكل والمواقف لتجعلها تبدو مذنبه أمام خالتها وزوج
خالتها؛ لأنها كانت تغار من إشفاقهما على الطفلة اليتيمة التي آوياها في
بيتهما، فوحيدة والديها لم تحتل المشاركة فيهما وقد اعتادت الاستئثار
بهما وحدها، خالتها وزوج خالتها من أطيب الناس ولن تنسى أبداً ما فعلاه
لأجلها لكن للأسف لم يُحسنّا تربية ابنتهما الوحيدة، لم يفظنا أنهما
بتدليلهما الزائد لتلك الابنة وتلبية كل رغباتها والإغداق عليها بشكل مفرط
أنهما جعلها أنانية غيورة، الآن وسجي تستذكر الماضي وطفولتها
المشتركة مع هيام فعقلها الناضج يفسر لها أين ومتى وكيف بدأ الخلل
وتعمقت العلة، تلك الطفلة المدللة في البيت حتى ظنت أنها أفضل فتاة في
الكون اصطدمت بالواقع عند التحاقها بالمدرسة لا زالت سجي تذكرها

بوضوح كانت طفلة حلوة تجتذب الأنظار بشعرها المجعد الطويل وعينيها الجميلتين لكنها عادية الذكاء ليست بشخصية مميزة بطريقة ملفتة، أو على الأقل هيام رأت نفسها هكذا ربما لأنها لم تحظ بالتركيز نفسه الذي حصلت عليه من والديها في البيت، وهذا خلق داخلها مشاعر سلبية نوع من الغضب والخيبة ثم الحقد حتى تحولت غيرتها إلى نوع مؤذٍ غيرة تؤذيها قبل أن تؤذي غيرها ولولا أنها من أصل طيب لكانت هيام تحولت لشخصية شريرة تنتقم من كل من تشعره أفضل منها أو يبرز أكثر منها فلم تكن تحب الأضواء بعيدة عنها فتشعر بالنقص، لا زالت سجي تذكر أحد تصرفاتها الغريبة في المدرسة وهما بعمر الرابعة عشرة في ذلك الوقت كان فريق كرة السلة الخاص بمدرستهما متألقاً ناجحاً على مستوى باقي المدارس، وكانت الفتيات نجوماً يشار لهن بالبنان، سعت هيام بكل طاقتها كي تشترك بذاك الفريق ورغم أن سجي أفضل منها في اللعبة لكن سجي لم تهتم كثيراً بالانضمام وفضلت الاهتمام بدراستها فقط، وقد كانت هي الأخرى لها سعيها الخاص بأن تفرح خالتها وزوج خالتها اللذين تكفلاها وتجعلهما فخورين بها، هيام شاركت بكل التمارين بلا هوادة حتى أقنعت معلمة التربية الرياضية والمدربة الخاصة لفريق كرة السلة أن تجعلها تنضم للفريق ولو حتى للاحتياط وتعترف سجي أن هيام كانت مثابرة للغاية، وقد حصلت على ما ابتغت وباتت ضمن فريق النجوم، تلك الفترة كانت الأكثر انتعاشاً لهيام أصبحت نجمة! ربما ليست نجمة مميزة وسط باقي نجومات الفريق

لكنها ارتضت أن تكون حاملة لقب (نجمة) بل إنها كانت تتفاخر أمام سجي وتلمح كم أن ابنة خالتها اليتيمة باهتة على عكسها هي المشرقة.

ربما في وقتها أحزنتها وجرحتها كلمات هيام المؤذية وقد كانتا بسن المراهقة الحرج حيث الفتيات يصبحن في فترة عدم ثقة بأنفسهن وهن يتأرجحن بين الطفولة والنضوج كإناث؛ لكن اليوم لا تشعر سجي إلا بالإشفاق عليها وهي تستوعب حالة هيام خاصة وهي تتذكر ندم ابنة خالتها فيما بعد فتأتيها ملاطفة محبة دون اعتذار صريح، لقد كان أمراً يفوق طاقة هيام وما زال، وما حصل في تلك الفترة يوضح هذه الحقيقة أكثر.

فبعد أشهر من التألق والنجومية خسر الفريق جولتين لبطولة كرة السلة على مستوى المدارس ليخرج من التنافس على الكأس ووصول المرحلة النهائية، وكما عادة البشر التي عرفت سجي أكثر بالكبر فإنهم لا يرحمون الخاسرين، انطفأت هالة النجومية المشعة لبنات الفريق رغم أنهن لم ييأسن والتزمن الصمت إزاء سخرية البعض منهن أو تراجع شعبيتهن ثم جاء تصرف هيام العجيب وهي تنسحب من الفريق تماماً مدعية حاجتها للتركيز في الدراسة.

سجي نفسها أصابتها الصدمة من تصرف ابنة خالتها بل حتى شعرت بالخزي من تخليها عنهن، ومرت الأيام والأشهر وبدأ العام الدراسي الجديد واستعاد الفريق نجوميته وتألقه بجولات جديدة لتحاول هيام الانضمام إليهن

من جديد لكنهم رفضوها! لن تنسى سجي هذا ما حيت لقد عادت هيام
منهارة تبكي لوالديها وأصرت أن ينقلها إلى مدرسة أخرى بل أصرت أن
ينقلا سجي معها!

ونفذ الوالدان مطلب ابنتهما المنهارة، وما أشبه انهيار هيام بعمر الرابعة
عشرة بانهارها وهي بعمر الرابعة والعشرين! فهل سيجد لها والداها
الحل؟! أم ستثبت لها هيام للمرة الأولى أنها ستنضج وتواجه مشكلتها
وتعالجها؟

عينا سجي الواسعتان الداكنتان أظلمتا أكثر وهي تغرق بأفكارها
أكثر وأكثر.

وسط أمواج شعرها المجعد المنثور الذي يغرق رأسها وكتفيها حشرت
هيام وجهها بين ركبتيها بينما ساقاها مطويتان إلى صدرها، البارحة انهارت
بما فيه الكفاية لتجد نفسها في الصباح في حالة سكون وقد استنزفت
قدرتها على الانهيار أكثر مما فعلت، شعرت بألم حاد في صدرها ولا تعرف
السييل لتخفيفهما الذي تفعله بنفسها؟! ما الذي تفعله مع أحب الناس
لقلبها ليس علي فحسب بل حتى والديها

عينا والداها التي دمعتا بالأمس ولم ترهما هكذا إلا يوم عرسها وهو
يسلمها لعلي! لكن شتان ما بين دمعة أب ترفل بسعادة زواج ابنته

وافترقادهاء وهى ففادر لبيت زوجهاء ويين ذمعة أب مكسور عاجز عن إيقاف
ألم ابنته؁ عاجز عن مساعذتها لتحصل على السعادة التى يتمناها لها؁ أما
أمها فكانت تبكى معها وتضمها لصدرها بقوة وهى تعدها الوعود التى
تعرف كلاهما أنها غير قادرة على تحقيقها؛ لكنها مع هذا تعدها أن ستحل
لها المشكلة مهما كانت؁ وأخيراً سجدى الأخت التى أنجبتها لها خالتها قبل
أن ترحل عن الدنيا وكأنها أنجبتها خصيصاً لأجل هيام لا تصدق كيف اتهمت
سجدى بالأمس أنها تتشفى بها! تكورت قبضة هيام وهى تضرب بها على
السرير جوارها أنها تؤذى الجميع دون استثناء؁ ورغم كل ظنهم عنها أنها
فتاة أنانية لا تهتم إلا بنفسها لكنها تتألم لأجلهم؁ ولا تعرف كيف تخرج من
كل هذه الفوضى وتخرج أحباءها معها.

رفعت رأسها أخيراً ليظهر وجهها المحمر من بين خصل شعرها المجدعة
همست برعشة: «ساعدنى يا رب لا أريد أن أستمربهذا العذاب».

جفت مآقيها فلم تجد دموعاً تواسيها كما جفت منابع شجاعتها لتواجه
حالتها الميؤوس منها

لتعترف لنفسها أنها منذ البداية كانت تخسر!

منذ أول نظرة حب من على إليها ثم تقارب عشق لفهما برباط لا يقهر
وبدلاً من أن يقويها هذا زادها ضعفاً؁ أجل لتعترف أكثر أنها أبعدت عنها
سجدى بطريقة مخجلة لأنها كانت خائفة.. خائفة أن على ربما إذا عرف

سجى أكثر سيفضلها عليها سينبهر بها وبجدها تفوقها في كل شيء، هيام فعلت المثل مع كل صديقاتها مدعية غيرتهن منها بعد ارتباطها بعلي كي تبرر لنفسها تصرفاتها؛ لكن إبعاد سجى جرحها هي أكثر مما جرح سجى، رياه أتبعد أختها؟! أتخاف منها بهذه الطريقة المخجلة؟! لماذا هي من الإساس تخاف؟! ما الذي ينقصها؟ إنها جميلة بشكل محبب ملفت لديها شهادة جامعية محترمة، لم تكن يوماً محرومة من شيء، والداها منحاه كل ما تشتهييه حتى إنهما منحاه (أختاً) في عمر الثامنة عندما قررا أن يكفلا سجى كأبنة لهما

إذن لماذا؟! ما الخطأ؟ هل هي ضعيفة الشخصية بالولادة؟ أم لديها مركب نقص جيني! أم أنها ببساطة حصلت على كل شيء بسهولة دون أن تسعى إليه دون أن تفكر حتى بمدى احتياجها (لكل هذه الأشياء).

أمالت جسدها جانباً لتضطجع على سريرها وتغمض عينيها تفكر بعلي حبيبها ومعشوقها الذي تحاوطه الإناث من كل جانب فيزيدها هذا جنوناً ويقتل ثقته بنفسها أكثر وأكثر، أخذت تناجيه ولا يسمع مناجاتها إلا (هي) «سامحني علي سامحني لأنني لا أعرف كيف أكبح نفسي وأكون أفضل لأجلك.. سامحني لأنني في داخلي أؤمن أنني لست كفاية لك وهذا هو مكن عذابي».

بيت سليم تاج الدين

يضع رأسه على صدر جدته وهو يجلس على السرير يغمض عينيه
وأصابعها الريانة اللينة تتغلغل بين خصل شعره القصير بلطف روحها
البسيطة الدافئة، كم أحتاج لهذا الحزن من جدته إنها امرأة تبث الحنان
بتلقائية كلمس جدران ما تبقى من مدينة آور الأثرية عاصمة الدولة
السومرية قبل آلاف السنين فتشعر بالدفء والألفة، تلك المدينة حيث ولد
نبي الله إبراهيم عليه السلام فكان أبو الأنبياء وكأنه بأبوته تلك أضفى على
المدينة السومرية دفئا عاطفياً تغلغل لأديم أرضها هذه هي جدته بالنسبة
إليه الجنوبية البسيطة؛ لكنها تحمل بالفطرة ذاك الدفء العفوي والحنان
الممتد منذ الحضارات الإنسانية الأولى على الأرض وكأنها الروح نفسها
تعود لتتجسد في رجال ونساء بلاد الرافدين من جيل إلى جيل.

رفعت الجدة وجه حفيدها لتنظر إلى عينيه وتقول: «ما بك يا
قرة عيني؟».

مسته حتى العمق تلك الطيبة والبساطة المشعة من عينيها القلقتين فيرد
عليها وهو يتهرب من نظراتها: «أنا بخير لماذا تسألين يا جدة؟».

تراه كيف يتهرب منها فتزد عليه بالحنان نفسه: «عينا الجدة لا ترينان
أنك بخير أنت مهموم يا ولدي؟».

لم يستطع علي إخفاء شعور الهم ففضحتها تعابير وجهه سألته بما فاجأه:

«هل تحن للأولاد؟».

أعاد نظراته إليها وخرج الرد على لسانه دون أن يفكر فيه: «لا ليس هذا، بل بثُّ أفكر أن تأخير الحمل أفضل».

اغتم قلبه حين أتم جملة لا يعلم كيف خرجت الكلمات بعفوية هكذا، بينما جدته تهلع قليلاً وهي تقول: «علي! أنت البكر لماذا تقول هذا ونحن كلنا نحلم باليوم الذي سنحمل فيه ولدك».

فجأة وجد نفسه يريد أن يثرثر مع جدته لا يعلم لماذا انتابته هذه الرغبة فيقول وكأنه يرتب أفكاره: «مذ كبرت ووعيت للعالم وأنا أشعر بتلك الفورة من الغضب في داخلي جزء لا يتجزأ مني الكل كان يقول لي إنني كوالدي ورثت عنها هذه الشرارة».

يسحب نفسه من جدته ليقف على قدميه ثم يبدأ بتحريك قدميه ذهاباً وإياباً والأفكار تتزاحم في رأسه بينما جدته تطالعه ببعض الحيرة والحزن لتقول له تعقياً على كلامه عن نفسه: «هذا صحيح بني لكنك تربية سليم وقد رباك لتلجم فورتك في نفسك، وتحسن إخمادها عند ضرورة».

توقفت قدما علي وسط الغرفة لينظر إلى جدته وقد بدا أكثر حيرة منها وهو يقول: «ربما لا أثور مثل نونة وأحكم سيطرتي تماماً؛ لكنني بدأت أشعر أنني قليل الصبر ربما؟!».

كانت الجدة سترد عندما سبقها هو بالإضافة وكأنه يكلم نفسه: «ربما

هيام تحتاج لصبر أكثر، صبرٍ قد لا أملكه، رغم كل محاولاتني لإثبات العكس».

لتنصحه الجدة بحكمة بسيطة: «ربما زوجتك لا تحتاج للصبر إنما تحتاج أن تعطيهها درساً عن الحياة».

يعقد علي حاجبيه وهو يتساءل باهتمام كبير: «كيف يا جدة؟! أن أبتعد عنها فترة مثلاً؟».

ردت الجدة بحنو: «أجل أعلم أنكما متعلقان ببعض لكن هذا سيخفف الضغط عليك أنت الآخر وسيجعلها تعيد التفكير».

ما زال علي عاقد الحاجبين يفكر، بينما الجدة تضيف: «أمك رغم طبعها الصعب لكنها دوماً تحت طوع أبيك وفي ظهره تسنده لم تحمله الهم وصبرت على المرة وشاركتة الحلوة أمك امرأة تشيد بها البيوت قوة وصلابة ووقفة (رجال) عند المحن».

تلاشى عبوس علي شيئاً فشيئاً وهو ينظر إلى جدته التي بادلتها النظرة لتقول ببساطتها المعهودة نفسها: «زوجتك تحتاج أن تقوي عودها وثقتها بنفسها بني يجب أن تثق بنفسها قبل أن تثق بك».

تفاجأ علي قليلاً وهو يتساءل ببعض الحرج: «أتعلمين بالأمر؟! هل أخبرك أحد بشيء؟!».

تبسمت الجدة وهي ترد: «لم يخبرني أحد بشيء ولا أحتاج أظن الجدة غبية عمياء؟! قد لا أقرأ ولا أكتب كما تفعلون لكن الحياة علمتني الكثير».

يعاود علي الاقتراب ليجلس على طرف السرير جوار ساقها الممددتين ليسأل بحيرة وانفعال: «إذن ما بالها يا جدة؟! هل فعلت شيئاً خاطئاً معها يجعلها تتنفس الشك كتنفسها الهواء!..».

تنهدت الجدة وتقول بحمائية نحوه: «لا أظنك فعلت بني.. اسم الله يحميك الكل يحلف برأسك ويمتدح أخلاقك».

بدا أكثر حيرة وأشد انفعالاً وهو يتساءل بالحاح كأنه منصم على إيجاد الإجابات: «هل لأنها وحيدة والديها وقد عوداها على الدلال فتحتاج للاهتمام المفرط نفسه مني؟ هل هذا ما ينقصها؟! رباها!! لكنني أفعل أقسم بالله! وأفعله لأنني أحبها وأراعيها، ماذا أفعل أكثر؟!».

ردت الجدة بفطنة القرويات اللواتي خبرن الحياة والبشر جيداً: «نونة أيضاً وحيدة والديها بنت حسب ونسب وتربت على العز والدلال ليست غايتي أن تقارن لكن لا أظن الخطأ منك بني».

نظر علي في عيني جدته فيرى فيهما تلك الفطنة وبعض من حمائية النسوة على أولادهن وأحفادهن فلا يتحملن أن يمسهم أذى من أي نوع يبتسم دون إرادته قائلاً: «أنت تأخذين صفي يا جدة ظالماً أو مظلوماً».

فتعترف الجدة بالقول: «إن لم آخذ صفك فصف من أختار».

ثم تضيف بحنان وهي ترفع يدها لقلبها تربت عليه قائلة: «أنت وشقيقاك قطع من قلبي هذا».

تتسع ابتسامة حلوة على فم علي وهو يدللها بالقول: «وأنت القلب كله يا جدة».

ترتاح لابتسامته فينشرح وجهها وتناغشه بالقول: «وهل الجدة بوسع قلبك يا معسول اللسان؟!».

يضحك علي قبل أن يميل إلى قدم جدته حيث الرباط الذي ما زال ملفوفاً حول كاحلها ليقبله وهو يسأل بمنبع الحنان نفسه الذي تملكه هي: «كيف هو كاحلك الآن؟».

تفيض عيناها محبة له وهي ترد عليه: «بخير يا قرّة عيني».

ثم مدت ذراعيها نحوه تدعوه إلى حضنها من جديد: «تعال أرقيك فمثلك يلاحقه الحسد كظله فأعوذ بكلمات الله التامات».

استجاب عليّ مقترباً ليستكين فوق صدر جدته من جديد مستسلماً لتلك النعمة المتمثلة بوجودها في حياتهم، تقرأ عليه أدعيتها وآيات الحفظ وهو يدعو من قلبه بالمثل لمن ملكت هذا القلب هيام حب عمره، وسبب سعادته وشقائه.

الجامعة الساعة الرابعة عصراً

خرجت حرير بصحبة صديقتيها بسمة ووفاء كانت ساهمة بعض الشيء لا تعرف لماذا لازمها شعور الضيق مع ثقل في الصدر، وحالما خرجت من القسم إلى الساحة وجدته أمامها من جديد كالقدر المباغت عامر القماش وهذه المرة لم يكن يلبس نظارته الشمسية وعيناه محددتان نحوها دون أي حواجز أو ظلال تخفيهما فزاد انقباضها لأمر مبهم.

ومرة جديدة تلمح أصابعه ترتفع بشكل خاطف لتربت مكان قلبه كانت مجرد لحظة خاطفة للغاية وقد شعرت حرير عن يقين أنه يفعلها دون إدراك منه! عاد السؤال يلح عليها ماذا يريد منها؟! أخفضت رأسها عابسة وتجاهلته وهي تستعد لمواجهته بأسلوبها، كي توقفه عند حده وتقطع رجاءه في أي شيء يبتغيه منها، تسير مع صديقتيها وإحداهما تهمس للأخرى باسمه في عجب لكنها لم تهتم ولم تعلق على همسهما وهي تحثهما الإسراع كي يلحقن بالحافلة؛ لكن ابن القماش خطواته أسرع بكثير بل تكاد تسبقها لتسمع صوته موجهاً إليها للمرة الثانية في حياتها؛ لكن مؤكداً بنبرة مختلفة عن الأولى مختلفة جداً هذه المرة فاضت بحميمية يرفضها حياؤها: «مرحباً».

أوقف خطواتهن جميعاً لكن حرير لم ترفع نظراتها وللحظة عيناها ثبتتا باتجاه حذائه الرياضي الأبيض، بينما عم الصمت من جانب صديقتيها وقد

أدركت كلتاها أن هذه التحية المعتادة بين أهل البلد قد حملت خصوصية
تشمل حرير فقط،

ببطء رفعت وجهها لتنظر إليه مباشرة وداخلها انكمش مباشرة من نظرة
عينيه إليها لقد كانت أسوأ من الصباح أكثر كثافة وتركيزاً توهج غضب
دفاعي داخلها لا يحق له النظر إليها نظرة تملكية مخيفة كهذه يا إلهي هل
اختارت كلمة (تملكية)؟! هذا العايب العنيف الطباع دوناً عن باقي البشر
يسمح لنفسه بهذا معها؟!

على ما يبدو لم يهتم على الإطلاق أنها لم ترد السلام ليقول بنبرة الأمر
الواقع: «أريد أن أكلمك».

تبادلت وفاء وبسمة النظرات قبل أن تقرر وفاء الكلام لتقول لحرير بنبرة
عادية: «حسن حرير سننتظرك قرب البوا...».

لكن حرير قاطعتها وهي ترفع كفها أمام ناظري عامر المسحورين لتأمر
صديقتها بالقول الحازم: «لا... ستظلان معي».

نظرات عامر لكفها جعلها تقشعر وبطريقة ما كان يذكرها بتلك اللحظة
التي لمس يدها وكأنه ينقل إحساسه إليها كفتيل نار اشتعل! كل هذا كان
كثيراً عليها وغير مقبول منه تحديداً لتخفض يدها بحدة وتقول ببعض
الفاظظة: «إن كنت تريد قول شيء فيمكنك قوله أمامهما وإلا لا تضع
وقتي».

كانت حرير تستعد للتحرك وكأنها قالت ما سيجعله يتراجع أو يلح للانفراد بها وفي كلا الحالتين ستتركه وتمضي لكنه فاجأها وهو يقول بنبرة جريئة للغاية: «هل تظنين أن ما أشعره نحوك سأخفيه عن أحد أو أخجل قوله أمام أحد؟».

صدمها وهي تنظر في عينيه تتذكر كلمة أخرى اختارتها مع كلمة (تملكية) لقد اختارت بعفوية كلمة (مخيفة) أيضاً ما تراه اللحظة من عامر القماش نسف فكرتها الأولى عنه هو ليس عابثاً تقليدياً ولا عنيف الطباع بشكل أهوج مجنون، إنه يدرك ما يفعل، وكيف يفعله، ولا يهتم لشيء، إنه جدي للغاية فيما يريد منها.

اقترب قليلاً فتراجعت حرير وهي تعقد حاجبيها وتقول: «اختصر لو سمحت فوقونا هكذا في هذا الوقت ليس مناسباً».

ابتسم ابتسامة ربما هي أجمل ابتسامة رأتها من رجل في حياتها فترتفع دفاعاتها بشراسة ليقول عامر بعدها: «إذن نختصر ونقول (عن بعد) ولتشهد صديقتاك على هذا يا حرير».

عندما نطق اسمها شعرت بقلبها في حلقها! كأنه ينقبض ويتقلص هناك ما زالت دفاعاتها شرسة للغاية نحوه فترى في عينيه إعجاباً بصمودها ليقول عندها بنبرة ممازحة في عذوبة وبالابتسامة الفتاكة نفسها: «معك عامر القماش يطلب الرضا في لمس الحرير».

هواء الريح يحرك خصل رقيقة أفلتت من رباط شعرها وهي مشدوّهة
العينين تحاول استيعاب كلماته الأكثر جرأة رغم تخفيفها بالمزح أما عامر
فعيناه تتوهجان وهو ينظر إلى كل شيء في وجهها بتدقيق لا يغرفه إلا من
سقط سقطته، همسة واحدة خرجت منها: «ماذا تريد؟».

فيرد بقوة وهدوء الثقة: «أنتِ ولن يكون لي في الحياة هدف آخر حتى
تكوني حلالتي».

كان هذا كثيراً عليها؛ إلى درجة لا يستوعبها هو كثير أن يكلمها شاب
بهذا الشكل دون مراعاة لطبيعتها الحساسة ربما وفاء محقة بوصفها
منطوية.. أجل هي منطوية لكنها منطوية على أنوثتها وتعتبره حياء ولا
تحب ما يفعله عامر القماش ليلعب بتلك المنطقة الخاصة للغاية أنه لا
يعجبها على الإطلاق.

تراجعت للخلف ولعجبها تراجع هو الآخر، بينما يحيي صديقتها
المشدوهتين بحركة من رأسه ثم عاد بنظراته إلى حرير وهو يقول بوعد لا
يقبل التشكيك بحصوله: «قريباً جداً سأطلب الرضا كما تقول الأصول
والأعراف ومنذ اللحظة وحتى ذلك الحين أنا السباق بالطلب».

لم تستطع حرير النطق بينما هو يمنحها تلك الابتسامة الآسرة مرة أخيرة
قبل أن يستدير ويرحل، لم تفق حرير من حالتها إلا على صوت بسمه وهي
تصفر بنغمة طويلة بينما وفاء تقول بانشداه ضاحك: «كل ما أعرفه وسمعته

سابقاً عن عامر القماش في كفة وما جعلني أشهده خلال العشر دقائق الماضية في كفة أخرى تماماً، هذه شهادة سيسجلها لي التاريخ».

التفتت حرير بحدة إلى صديقتيها ترمقهما بارتباك حائق، بينما تضيف وفاء بشقاوة وهي ترفع كفها قائلة: «امنحاني عشر دقائق أخرى لو سمحتما كي أستعيد أنفاسي!».

زمت حرير فمها بينما تخطو أمامهما بانفعال واضح لتلحقا بها بسمه ووفاء وهما تناديانها، لكن حرير لا تستجيب للنداء فعقلها كقلبها ينبضان سوية بخوف قابض غير مسبوق، فكرة واحدة رسخت في رأسها أن والدها سيعيش وقتاً صعباً من القلق والتوتر حالما يعرف أن عامر القماش يريد ابنته زوجة.

أخذت تلوم نفسها لأن أسلوب عامر الجريء أربكها كان يجب أن تمنع وصوله إلى أبيها؛ لكن لا بأس مؤكداً سيأتي مرة أخرى للجامعة ويحاول مكالمتها وعندها ستوصلها صريحة للغاية إليه إنه مرفوض منها قبل أن يكون مرفوضاً من عائلتها.

بعد يومين الجامعة

بينما بسمه تتناول شطيرتها بشهية مفتوحة كانت وفاء تحاول التخفيف من حنق وتوتر حرير وهي تقول لها: «اهدئي يا حرير لم يحصل شيء».

تتوسط حرير الجلوس على المصطبة الخشبية بين صديقتها وعيناها
تموجان بالغضب، حتى اللحظة ترتجف حنقاً وهي تتذكر حديث القسم كله
عن إعلان (عامر القماش) وتصريحه لحرير قبل يومين بل الأمر امتد بطريقة
سخيفة إلى الأقسام المجاورة.

كان الأمر صادماً بشكل مروع لحرير لأربع سنوات دراسية في الجامعة
لم تتعرض لأي موقف سخيّف أو مخرج من أي نوع ودوماً ابتعدت عن
الشائعات ومراسد القصص الغرامية وحتى غير الغرامية تكاد تجزم أنها
شخص مجهول تماماً للغالبية العظمى من طلاب وطالبات هذه الجامعة،
فجأة تحولت لمركز اهتمامهم وشائعاتهم وحكاويهم بل وفضولهم وتقييمهم!

تمرر أصابعها فوق جبينها وهي تقول بعبوس وذهول: «كيف لم يحصل
شيء يا وفاء؟! الجامعة كلها تتكلم عني وعن عامر القماش».

تشارك بسمّة الحوار وفمها مملوء بالطعام وهي تقول بتبسيط للأمور:
«أنت تبالغين هي فقط بعض الأخبار التي تناقلتها الألسن وليس فيها شيء
يعيب أخلاقك، كل ما هنالك أن المعني بالأمر هو (عامر القماش) وقد تقدم
لخطبتك رسمياً لنقل بإعلان رومانسي جريء».

تلثفت حريّر إلى بسمّة وهي تعقد حاجبيها لتقول بواقعية تناسب مفهومها
عن الخطبة: «لكن هذا غير صحيح هو لم يتقدم لخطبتي».

تعترض وفاء وهي تقول: «كيف غير صحيح؟! لقد قالها أمامنا يا حريّر

وأشهدنا عليها».

لتصر حرير قائلة ببعض التشكك: «لكنه لم يتقدم رسمياً لوالدي ولم يتصل بنا أي طرف من عائلته أشعر أنه هو وأخوه من نشرا الأمر ليربكاني ما أدراني أنها ليست لعبة منهما؟!».

تهز بسمه كتفيها لتعاود الاهتمام بشطيرتها بينما تقول وفاء بتحليل أكثر منطقية: «من ناحية أنها لعبة فهذا مؤكد غير صحيح فلن يفضح نفسه بطلب زواج علني هكذا إن كان يلعب أما عن تعمد عامر وعمر نشر الموضوع لإرباكك فحتى لو كان كلامك صحيحاً عنهما رغم أنني لا أصدقه لكن ما هو الخطأ فيه؟! لم يقولوا عنك شيئاً سيئاً القصة كلها أنه شاب أعجب بك وتقدم لخطبتك».

تحني حرير رأسها وتثبت نظراتها على الأرض الأسفلتية للممر المشترك لأقسام الجامعة أنها تعلم في سريرتها أن ما تقوله وفاء وبسمه صحيح؛ لكن الأمر لا يعجبها لا تحب أن تكون طرفاً في قصة كهذه خاصة أن الخطبة من الأساس مرفوضة بالنسبة إليها منذ يومين وهي تفكر بعقلانية ودوماً تصل إلى النتيجة نفسها القليل الذي عرفته عن عامر القماش يؤكد حقيقة أنه لا يناسبها ناهيك عن والدها الذي أخذ نظرة سيئة عن عامر القماش وعائلته وهي تعرف والدها جيداً إذا وصل لقناعة ما لن يغيرها حتى لو ثبت له خطأ انطباعه الأولي ستظل الفكرة متشبثة في عقله لا تبارحه،

توترت وهي تفكر بكل هذا اللغظ الذي انتشر في الجامعة عنها، قد يصل إلى والدها بطريقة ما، لم تشعر إلا وهي تتمتم مع نفسها بقلق: «رباه أبي سيجن إن وصله الخبر بهذا الشكل! ليت عامر يظهر اليوم لأنهي هذه المسألة السخيفة قبل أن تتسع أكثر من هذا».

صوت أنثوي يتصنع البشاشة في تحية باردة: «مرحباً».

رفعت حريز رأسها لترى فتاة تقف أمامهن جميلة للغاية من ذاك النوع الذي يهتم بأدق التفاصيل فتختار بعناية ما ترتديه والتبرج الذي يلائمه، وجهها مألوف وواضح أنها من طالبات الجامعة لكن مجهولة الهوية لحريز، شعرت حريز ببعض الدهشة وهي ترد التحية بعفوية بينما وفاء التزمت الصمت ولتزيد دهشة حريز من نبرة بسمه الباردة وهي ترد بتعريف لاسم الفتاة: «مرحباً نهاوند».

ترد نهاوند بأسلوب مستفز يميل إلى سخرية مبطنة: «كيف حالك يا أممم... ابتسام أليس هذا اسمك؟ كلما رأيتهك صدفة في الجامعة تذكرت تلك الأيام الحلوة في المدرسة ما زلت كما أنت لم تتغيري منذ أيام الثانوية حتى طريقة أكلك للشطائر هي ذاتها».

للحظة شعرت بسمه ببعض الحرج من تعليق نهاوند على طريقة أكلها، عادة سيئة لم تستطع تغييرها أنها تتعجل قضم الطعام حتى يمتلئ فمها بشكل مضحك بعض الشيء؛ لكنها سيطرت على شعورها السلبي لترد

بيروود وهي تقضم قضة جديد من الشطيرة كأنها تقول لها (لا أبالي): «أما أنت فتغيرت من الخارج فقط، بالمناسبة أنا اسمي بسمة، وليس ابتسام».

رفعت نهاوند كتفيها بطريقة أنثوية ناعمة وهي تقول بلا مبالاة كأنها تردّها لها: «المعنى واحد بسمة أو ابتسام».

تعبس وفاء وهي ما زالت تلتزم الصمت كأنها تنتظر بتوجس أن تدلي نهاوند بالسبب الحقيقي لمجيئها إليهن اللحظة دون سابق معرفة، ولم يطل انتظار وفاء لتركز نظرات نهاوند على حرير فتقول لها وهي تستعيد البشاشة الباردة نفسها التي أطلت عليهن بها: «أنت حرير أليس كذلك؟».

باستغراب قالت حرير: «هل تعرفيني؟».

أخذت نهاوند تتطلع إليها بتدقيق مبالغ فيه أشعر حرير بعدم الارتياح خاصة وهي تجهل تماماً سبب هذا الحوار من الأصل حتى أعطتها نهاوند مفتاح المعرفة وهي تقول بنبرة تفاخر وتعالٍ: «سمعت عنك من عمر.. عمر القماش تعرفينه طبعاً أنا وهو تقريباً مخطوبان».

شعرت حرير أنها محاصرة بشكل خائق؛ لكنها سيطرت على إحساسها هذا لتضع تعابير هادئة وحازمة على وجهها بالوقت نفسه انعكست تماماً في نبذة صوتها وهي ترد: «هنيئاً لكما لكن ما دخلي أنا مع خطيبك عمر القماش؟».

إحساس بالنفور الشديد انتاب حرير من نظرات نهاوند التي ردت بنبرة

غامضة في ظاهرها متسلية: «عمر يخبرني بكل شيء عن عائلته وقد أخبرني عن إعجاب شقيقه عامر بك ونيته التقدم لخطبتك لذلك وددت التعرف إليك».

ثم تلكأت كلماتها عن عمد وهي تميل برأسها قليلاً للجانب بحركة تعترف
حرير أنها ملفتة جذابة لتضيف نهاوند بالنبرة نفسها: «رغم أنني مشفقة».
ودت حرير لو تستطيع أن تصرخ في وجه هذه الفتاة التافهة لتقول لها
(اغربي عن وجهي أنت وشفقتك وكل عائلة القماش معك) لكنها بدلاً من
هذا رفعت حاجبيها قليلاً لتساءل بالهدوء والحزم نفسها: «مشفقة؟!».

بسمة توقفت عن إنهاء ما تبقى من شطيرتها وهي ترفع وجهاً عابساً
مغتاظاً إلى زميلتها القديمة في المدرسة، بينما وفاء بدت وكأنها ستفقد
سيطرتها وتلقن نهاوند درساً أما نهاوند تتطلع إليهن بنظرات أشبه بالتحدي
والاستهانة ثم تعيد تركيزها إلى حرير لتميل إليها قليلاً وكأنها تكشف لها
الأسرار الخفية: «لأكن صديقة معك عامر ليس كعمر؛ فعمر مخلص للغاية،
ولا يرى فتاة غيري، أما عامر فالإخلاص مشطوب من قاموسه إنه يصاحب
أكثر من فتاة في وقت واحد، لديه علاقات كثيرة في الواقع منذ كان في
الثامنة عشرة وربما أصغر، سمعته سيئة للغاية وهذا يسبب له مشاكل
عديدة في العمل ويزعج والده الحاج سليم أنت تعرفين مهنّتهم تفرض عليهم
تعاملاً يومياً مع النساء وأي تصرفات كهذه تسيء لسمعتهم».

تنظر حرير في عيني نهاوند وما تراه لا يصيبها بالنفور وحسب بل حتى القرف، وكأن نهاوند شعرت بهذا من حرير فالتهمت عيناها بالغضب للحظة قبل أن تشمخ بذقنها وتضيف بنظرة مستهينة: «أظنه وجدك مختلفة أو لنقل رافضة لطريقته ولهذا سعى إليك بطريقة جديدة مقبولة من طرفك فيا ترا كم سيدوم زواجكما لو حصل؟».

للمرة الأولى تفتح وفاء فمها لتعلق ببرود جليدي: «غريب أنك لا تعرفين أخ (خطيبك) جيداً لأن مؤكد ما تقولينه مبالغ فيه بشكل مضحك فنحن نعيش بالعاصمة نفسها ولسنا من عاصمة المريح، وبالتالي نحن أيضاً نعرف عائلة القماش الذين تطعين بولدهم الآن ثم ألا ترين يا نهاوند أن عليك الاهتمام بـ(كم سيدوم زواجك المرتقب من عمر لو حصل)؟».

ظهر الاستفزاز على وجه نهاوند لكنها اكتفت بأن رفعت حاجباً واحداً، ثم قالت بثقة خالصة: «سيحصل وسيدوم لآخر العمر».

كانت حرير لا تصدق كل هذا الذي تتعرض له بضعة أيام قلبت وتيرة حياتها الهادئة وفجأة أصبحت ضجة كريهة تعلو من حولها.

تجاهلت نهاوند استفزاز وفاء لها بينما تراقب حرير بانتصار ثم تتساءل بنبرة خبيثة: «يبدو أنني أزعجتك بثررتي وصراحتي يا حرير أكثر من إزعاجي لصديقتك؟».

فترد حرير بخشونة: «أنا لم أعد أعرف ما يال الناس فجأة

مهتمين بي؟!». «

فتعلق نهاوند بمزيد من الخبث: «ربما هم مهتمين بعامر القماش
ألا تظنين؟».

فتحت وفاء فمها توشك على الانفجار بالشتائم لهذه المغرورة الخبيثة
عندما فاجأتهن بسمة جميعاً وهي توجه سؤالاً غريباً إلى نهاوند: «بالمناسبة
كيف حال رأفت؟ أظن كان اسمه رأفت».

حرير ووفاء التفتا بدهشة إلى صديقتيهما فغفلا عن الارتباك الذي كسا
محيا نهاوند وهي ترد بتعثر مدعية الجهل للحظة: «أي رأفت؟».

فتواجهها بسمة بالماضي وهي تقول لها متصنعة الدهشة: «هل يعقل
هذا؟! أنتسين ابن خالتك؟ ألا تذكرين عندما رأك حارس المدرسة مع شاب
بسيارته ثم سارع لإخبار المديرية عنك ما زلت أذكر تلك الحادثة كما أذكر أن
الطالبات تناقلن كلاماً على لسانك أن الشاب لم يكن إلا ابن خالتك رأفت
الذي عرض عليك إيصالك إلى المدرسة لأنك لم تلحقي بالحافلة
المدرسية».

لم تستطع نهاوند إخفاء صدمتها من تذكر بسمة لكل هذه التفاصيل
حاولت استدراك الأمر وتبرير ردة فعلها الأولى بالقول: «آآ أجل! رأفت.. هو
ليس ابن خالتي بل ابن بنت خال أمي؛ قريب من بعيد؛ لكن علاقات الأهل
تباعدت بعض الشيء معهم منذ سنتين لذلك نسيت».

تبتسم بسمة في وجه نهاوند ابتسامة صبيانية تلائم وجهها المدور ثم تقول مدعية البراءة والتأثر: «يؤسفني هذا لأنني أظن (العلاقة) كانت وطيدة بالثانوية.. وطيدة جداً».

شعرت نهاوند بالانزعاج الشديد من هذه المتطفلة الشرهة للطعام فردت عليها ببعض الخشونة: «كل شيء يتغير في الدنيا».

ما زالت الابتسامة نفسها على وجه بسمة، ثم أحنّت وجهها قليلاً لتخرج منديلًا من حقيبتها وتلف به ما تبقى من شطيرتها وهي تقول لنهاوند كأنما تثرثر: «أجل يتغير، وبمناسبة التغيير لقد رأيت حازم قبل أسبوع في شارع (...). سبحان الله لم يتغير كثيراً هل تذكرين حازم؛ ذاك الشاب الأشقر الذي لم يترك بنتًا في مدرستنا دون أن يحاول مصاحبتها».

ثم رفعت عينيها مرة أخرى إلى نهاوند فتراها كيف تحقق فيها بعينين متسعيتين تفيضان انفعالاً مكبوتاً لتكمل بسمة مضيئة بنظرة حملت معانٍ صريحة لم تحملها كلماتها: «واذكر مرة كنتُ عائدة إلى البيت مشياً على الأقدام ورأيت فتاة تشبهك جداً تجلس إلى جواره في سيارته الرياضية الحمراء».

احمر وجه نهاوند من شدة الانفعال الذي تفاقم بينما حرير ترفع يدها لتغطي فمها في صدمة أما وفاء فشعرت بالتشفي والرضا لما تعانیه هذه الحقيرة ليخرج صوت نهاوند كالفحيح السام تنفي تلميحات بسمة: «مؤكد

لست أنا».

فاكتفت بسمه بأن برمت شفتيها وحركت كتفيها لتبتعد نهاوند قليلاً وهي تقول بجفاف: «عن إذنك! أردت أن أبارك لحرير فقط، وأرضي ضميري بالتحذير».

لتجد وفاء أخيراً ما تقوله لها فتزد عليها بالجفاف نفسه: «وصل الاثنان منك ولك منا المثل».

بحركة حادة استدارت نهاوند دون أن تلقي التحية لتتركهن خلفها وهي تسير شامخة وهواء الربيع يتلاعب بشعرها الجميل تمتمت بسمه عندها: «حقيرة سافلة وستظل هكذا لآخر عمرها كم أتمنى لو لدي الشجاعة كي أذهب اللحظة إلى عمر القماش لأكشف له حقيقة من يريد لها زوجة».

بضيق متفاقم قالت حرير: «لا تفعلي هذا بالله عليك رب العالمين أمر بالستر كما لم يكن يجدر بك إحراجها أمامنا هكذا يا بسمه».

لكن بسمه ردت بانفعال: «بل تستحق وهي تحاول إيذاؤك فلتمثل دور الشريفة العفيفة على عمر القماش، لكن لتعرف أنني لم أكن غافلة عن مغامراتها وتاريخها المخزي في المدرسة».

سألت وفاء بفضول: «هل كنت معها بالصف نفسه؟».

زفرت حرير أنفاسها بقوة بينما بسمه ترد: «لا هي تصغرنني بعام واحد».

لكنها كانت معروفة لمن يملك عينين وأذنين وعقلاً، تجيد إخفاء الأمور لكن ليس علينا جميعاً ومعاونة المديرية كانت قريبة والدتها وتداري عليها». هتفت حرير دون شعورها: «ما هذه الوساخة وهذا القرف؟! أي عائلة هذه التي تشجعاني للانضمام إليها؟! أيعقل أنني أتساوى مع فتاة كنهاوند بهذا المستوى الأخلاقي الضحل؟ وعامر نفسه وسمعته التي تسبقه في كل مكان».

تبادلت وفاء وبسمة النظرات وكأن بسمة تقول لوفاء (حرير معها حق) لكن وفاء حاولت أن تكون منصفة وصادقة فتقول لحرير: «لا تكوني متسرعة نهاوند! هذه فقط غيرة منك ولا تريد الخير لغيرها، رغم أنني أشعر أن ارتباطها بعمر لن يكتمل بالزواج هو ليس بمغفل صدقيني عائلة القماش ليست كما تظنين إنهم أصل طيب ونخوة وشهامة، أبي يعرف تاريخها وكان يكلمنا عن العلامة الشيخ تاج الدين جدهم الأكبر».

لكن حرير كانت في حالة انفعالية لا تسمح لها التفكير بكلام صديقتها لترد: «أرجوك وفاء! لقد مللت من كل هذا، لا يهمني أصلهم ولا نخوتهم التوتريكاد يخنقني لم يتبق إلا ثلاثة أشهر للتخرج وأريد التركيز بالدراسة». عندها قالت وفاء ببعض الإلحاح: «إن أكثر ما يوترك هو والدك يا حرير، ووثيقة أيضاً أن نصف رفضك لعامر بسببه هو، وخوفك من ردة فعله».

وجع اعتصر حرير وهي تفكر بأبيها تذكرته مفاجئاً بوفاة أختها هدير بعد

معاناة من الفشل الكلوي، انهيار لم تره فيه قط عندها فقط أدركت حرير كم يحب هذا الرجل أبناءه خلف شدته وتزمته يفيض قلب الأب فيه حناناً وتعلقاً شديداً حتى اللحظة لم تنس تعبير وجهه في المستشفى، لقد بدا تائهاً بشكل يحطم القلب، بل هو من تحطم قلبه، فلم يحتمل فقدان فلذة كبده.

دمعت عينا حرير لتلك الذكرى بل انحدرت بضع دمعات ليختلط بالوجع كله الذي تحملته لفقدان هدير أختها الرقيقة الذابلة، كانت كنسمة كريشة كفراشة أي وصف يجعلها ليست من أهل الدنيا بل زائر خفيف رحل في أول ربيع عمره دمعت عينا بسمة لدموع صديقتها دون أن تعرف السبب أما وفاء فارتبكت وهي تهمس بالاعتذار: «أنا آسفة لم أقصد».

قاطعتها حرير وهي تمسح دمعاتها وتقول بحشجة: «أبي تعرض لجلطة قبل عامين وكانت ثاني جلطة يا وفاء، الأولى قبل ست سنوات عندما توفيت أختي هدير رحمها الله».

رغم تأثر وفاء بهذه المعلومة التي تعرفها للمرة الأولى فإنها ما زالت تشعر أن حرير تحتاج التحرر من تلك القيود التي ترهقها فقالت برفق ولين: «حرير لا أعرف ما أقول لك أنا مقدره لمخاوفك على أبيك لكن فقط...».

قاطعتها حرير للمرة الثانية وهي تقف على قدميها مستعيدة نبرتها القوية الحازمة التي لم تخل من الضيق لكل ما حدث اليوم: «لكن فقط فليدعني

عامر القماش وكل أفراد أسرته الكريمة في حالي».

تطلعت وفاء وبسمة لبعض ثم وقفتا كحريير التي كانت تلملم محاضراتها وتعلق حزام حقيبتها فوق كتفها سألتها بسمة: «ما زال الوقت باكراً للمحاضرة».

فردت حريير دون أن تنظر إليهما: «لن أحضرها أشعر بصداع شديد سأغادر الآن للبيت».

ألقت السلام وتحركت خطواتها في الممر العريض باتجاه بوابة الجامعة الكبيرة لتغيب بعد دقيقة بين جموع الطلبة المتناثرين هنا وهناك، تنهدت وفاء ببعض الشعور بالذنب وهي تتساءل: «هل ضغطت عليها يا بسمة؟».

فترد بسمة وعيناها تنظران بعيداً إلى تلك (الخبیثة) التي ما زالت تراقب وتتبع خطوات حريير المغادرة: «ألا ترين غيرة نهاوند من حريير وتكبتها عناء المجيء إلينا لتبث سمومها ألا ترين كل هذا غريب».

عقدت وفاء حاجبها وهي تطرح تساؤلاً جديداً: «ماذا تقصدين يا بسمة؟!».

عاودت بسمة الجلوس على المصطبة وهي تطرح تساؤلاتها الخاصة بعبوس التفكير: «ماذا يهم نهاوند إذا تزوج عامر من حريير أو غيرها؟! أنت لا تعرفينها مثلي هي فتاة تافهة ولا تحشر نفسها بشيء لا يهمها بشكل شخصي».

فعلت وفاء المثل وهي تعاود الجلوس جوار بسمة فتسألها بتركيز: «ماذا تعنين بكلامك؟ اوضحي أكثر».

صمتت بسمة للحظات ولم ترد ثم قالت أخيراً: «لا أعرف لماذا شعرت أنها ربما معجبة بعامر».

شهقت وفاء واتسعت عيناها وهي تقول بهمس خافت: «رباه أتعنين تحب الشقيقين معاً؟!».

ردت بسمة ببعض التردد: «لا أقصد الحب إنما شعرت أنها معجبة بعامر بشكل خاص رغم مشاعرها المفترضة لأخيه عمر لا أدري وفاء لكنها فتاة غير محترمة ويبدو منها أي شيء».

أمسكت وفاء بذراع بسمة لتحثها بحزم: «لا تقولي هذا الكلام أمام حرير يكفي ما حصل حتى الآن».

هزت بسمة رأسها بموافقة ثم ابتسمت فجأة لتقول غامزة لوفاء: «بدأت أشك أن عامر القماش جندك لتدفعي حرير كي توافق عليه».

تضحك وفاء وهي ترد على صديقتها: «أقسم بالله لم يفعل هذا المسكين يكفيه التهم التي يحملها على كاهله لتضيفي لها تهمة رشوتي وتجنيدته لي».

ثم خفت ضحكتها وهي تضيف: «كل ما في الأمر أشعر أنه يناسب حرير

وأراه بعين لا تراه هي بها؛ إنه شاب جيد يا بسمة وكل ما يقال ويشاع عنه مبالغ فيه، والواقع أرى جرأته ستحرر حرير من تزمثها».

علقت بسمة بتعاطف عميق: «لقد أوجعت قلبي بكلامها عن أختها وأبيها رغم كل شيء أنا أحبها لأنها تهتم بوالدها هكذا».

تنهدت وفاء ثم قالت بصدق: «ومن لا يحب فتاة كحرير؟! لذلك أريد لها السعادة التي تستحقها».

بمِلَل تقلب هيام بين صفحات الفيسبوك كانت في الواقع شاردة الذهن عاجزة عن إيجاد بداية الخيط، علي لا يتصل وهي أيضاً لم تفعل كأن كلاهما أتفق دون اتفاق.

اعتزلت والديها وطلبت منهما تركها بمفردها في الغرفة، أما سجي فهي من انسحبت تماماً وتركته رغم أنها الوحيدة التي أرادتها هيام أن تقتحم عليها اعتزالها بل أوشكت ليلة الأمس أن تذهب بنفسها إلى غرفة سجي كي تستشيرها في حل يساعدها؛ لكن كرامتها غلبتها ومنعتها لا تحتل أن تكون في موقف ضعف كهذا أمام أي إنسان حتى والديها ليتها فقط تستطيع التخفي ولبس قناع يخفي شخصيتها وعندها لن تخجل من السؤال.

فجأة تجمدت وتوقف أصبعها عن الحركة الرتيبة فوق شاشة هاتفها النقال لتهمس شفتاها: «قناع تخفي!».

ثم في اللحظة التالية أضاءت الفكرة أكثر في رأسها لتقفز من سريرها نحو حقيبة حاسوبها السوداء المكونة في الزاوية، التي لم تفتحها منذ يومين وبقلب يخفق أخرجت حاسوبها وبدأت في تنفيذ فكرتها.

كان الأمر أسهل من الحاسوب ففتحت المتصفح على صفحة الفيسبوك ومباشرة شرعت بفتح حساب جديد باسم مستعار (نور علي)

وعندما تم الأمر كانت أول جملة وضعتها في محرك البحث الخاص بالفيسبوك هو (مشاكل الغيرة الزوجية) ولم تشعر بعدها بالوقت لقد غرقت تماماً بين صفحات ومجاميع بعضها نسائية وبعضها مختلط، مضت بها ساعات النهار وهي تلهث في بحثها المضني وتتعرف على حكاوي وقضايا لا تحصى، تقرأ وتقرأ حتى إنها لم تشعر بدخول أمها وهي تضع لها صينية طعام على السرير، وعندما أرادت أن تكلمها ردت عليها هيام وعيناها لا تفارقان شاشة الحاسوب: «أرجوك أُمي ليس الآن أنا مشغولة».

فتركتها أمها لحالها وهي تحمد الله لأن ابنتها تبدو أفضل حالاً من الأمس، أخذت تأتيها طلبات إضافة في مجاميع جديدة فتدخلها دون تردد، الأمر بات أشبه بحلقة داخل حلقة وهي تعوم بين تلك الحلقات ساعة تتوه وساعة تجد إشارة تهمها وساعة تشعر بتفاهة المحتوى فتغادر المجموعة غير آسفة وأحياناً تكون مجموعة ذات محتوى إباحي غير صريح فتغادر مع وضعهم بالحظر، اندمجت بإحدى المجاميع وأخذت تتابع المنشورات

باهتمام شديد ونساء يشرحن مشاكلهن الزوجية، شعرت ببعض الحرج من كلامهن المنفتح لكنها تغاضت رغم شعورها بعدم الارتياح لم تشارك حتى اللحظة إلا بإعطاء إشارة إعجاب لما تجده محتوى جيد فتقرأ أيضاً التعليقات عليه، حتى وقعت عينها على تعليق لإحدى العضوات في إحدى المنشورات وهي تروج للانضمام إلى مجموعة جديدة للنساء فقط، وعلى حد تعبيرها (مختلف عن سابقه) وكان اسم المجموعة (كيف تعرفين زوجك الخائن)

ارتعشت أصابع هيام وهي تمر بالمؤشر فوق الرابط الذي تضعه العضوة للمجموعة، تتنازعها رغبة المعرفة والخوف منها، حاولت المقاومة بل أغلقت الحاسوب لفترة لكنها لم تستطع الصمود لأكثر من نصف ساعة لتعاود فتح الحاسوب ومباشرة إلى ذلك التعليق لتضغط الرابط وتنضم للمجموعة.

الفصل الرابع

يحاول عامر امتصاص نقمة أمه وهو يهادئها عبر الهاتف بالقول: «نونة اهدئي أنا في الطريق، أقسم لك دقائق وأكون عندك».

لكن نورجان تصرخ وتكاد شرارات طبعها المتفجر تخترق الهاتف لتصل إليه: «لن أسامحك يا عامر.. لن أسامحك أبداً» أعرف من سليم وليس منك؟! تتفقان علي وتخفيان الأمر عني؟! أخبرني هل الجدة تعرف أيضاً أم أنها تخذعني بنفي معرفتها؟».

يسمع عامر صوت جدته المسكينة وهي تقول بعتب ولوم لأمه: «لا حول ولا قوة إلا بالله أتتهميني بالكذب يا نورجان؟!».

يتنهد عامر بعجز بينما يسمع أمه ترد على جدته بغیظ: «أنا لا أقصد خالتي وأنت تعلمين فلا تحاولي ادعاء الزعل مني لتنقذي ابنك وحفيدك من غضبي».

صوت الجدة تحوّل من جديد بينما عامر يكتّم ضحكة شقية ويكاد يتخيل والده سليم يقف هناك قريباً من أمه وجدته مكتفياً بالمراقبة الصامتة فقط، فيصبر عليها كي تفجر كل انفعالاتها كما تشاء في تلك المساحة التي يخصصها لها من تسامحه على خصالها الصعبة، منذ صغره اعتاد عامر على أسلوب والده هذا، كما اعتاده شقيقاه وقد أدركوا جميعاً أن أهمهم حالة خاصة للغاية، قال عامر مدافعاً عن جدته ليبرئ ساحتها وهو يدخل

بسيارته الشارع المؤدي للحي: «الجدة لا تعرف شيئاً يا نونة، إنه فقط
الحاج سليم من أخبرته لكنه قال دعنا نسأل عن عائلة حرير أولاً قبل أن
نخبر نونة».

يستلذ بلفظ اسم (الحرير) على لسانه وأصابه تجد طريقها لقلبه
الخافق، بينما أمه تهتف عبر الهاتف بغيرة أمومية جنونية لاهبة؛ لكن تبقى
محببة: «لا تلفظ اسمها أمامي».

يشاكسها بالقول بنبرة خافتة مستفزة: «أتغارين يا نونة؟».

على الجانب الآخر كانت نورجان تغلي غيرة وغيظاً وهي تهتف بولدها
قائلة بزمجرة تهديد: «قسماً بالله يا عامر إن لم تكن أمامي خلال...».

قاطعها صوت عامر الضاحك: «عُدّي حتى المئتين لا الثلاث مئة
وستجدينني أمامك يا روح عامر».

رغم قلبها الذي يذوب لتدليل أولادها لها كما فعل عامر للتو لكنها حانقة
غاضبة ولم تستسلم فأغلقت الخط في وجهه على صوت ضحكته!

تحرك سليم من وقفته عند باب المطبخ ليقترّب من زوجته التي نال نصيبه
من غضبها قبل أن تشمل به ابنهما فيقول سليم بنبرته الحازمة التي تشي
أنه وصل أقصاه: «هل ارتحت الآن؟! اتركك مع ولدك فقد أخذت كفايتي
ويجب أن أعود لعلي تركته وحده بالمحل وهو عقله ليس في رأسه».

ترفع نونة نظراتها إلى زوجها فتُطفئ جذوة فورتها العاصفة تعابير وجهه
المحذرة فلا تجد إلا أن تنفس عن الباقي من فورانها ذاك بأن تلقيه على
ولدها البكر قائلة بغيظ: «لا يقاوم مفارقة الأميرة هيام».

الجدّة في جلستها على كرسي المطبخ تراقب دون تدخل لكنها تعوج فمها
جانباً بغير رضا بينما يهتف سليم في زوجته وهو عاقد الجبين: «يا امرأة
إنها زوجته ويحبها أم أنك المرأة الوحيدة التي يجب أن تتدخل؟!».

تخصرت نورجان لترد بعناد: «لكنها لا تحبه.. على الأقل ليس كمثله
حبه لها وهذا يغيظني».

حدجها بنظرة جعلتها تحيد بنظراتها بعيداً وهي تزفر أنفاسها بقوة كثورة
عناد موءودة لكن تأبى أن تلفظ أنفاسه الأخيرة، تنهد سليم واقترب أكثر
ليقف جوارها ويناديها بنبرة رجولية مؤثر: «نونة».

كانت تعرف أسلوبه الناعم المخادع هذا ولما يتبعه فاكتفت بالنظر إليه
وهي تقول من بين أسنانها: «اذهب سليم».

لكنه يبتسم لوجهها تلك الابتسامة التي أوقعتها في شرك عشقه قبل
سبعة وعشرين عاماً ثم يقول بخفوت: «لا تقسي على عامر إنه عاشق وإللي
شبكة يخلصنا يا نونة».

رغماً عن أنف عنادها ودحراً لثورة غيظها كانت تتراخى تلقائياً أمام سحر
هذا الأسمر الجنوبي وهي تقول بغباء تدركه: «لن أقسو».

تتسع ابتسامته بالرضا ثم يغمز لها قبل أن يتحرك ناحية أمه فيقبل رأسها وهو يودعها قبل خروجه وأمّه تتمتم خفية عن كُنْتها الغضوب: «أغانك الله على ما ابتلاك!».

لا يعلق سليم بشيء بل يكتفي أن يبتسم لوجه أمه ابتسامة صغيرة قبل أن يغادر تاركاً لولده مواجهة عواصف نونة بمفرده.

يوشك عامر أن يدخل بسيارته إلى الشارع الفرعي حيث بيتهم عندما لمح هيئتها وهي تسير تحت ظلال الأشجار تتقي شمس الظهيرة، خفق القلب منادياً إياها وارتجفت أصابعه وهو يدير مقود السيارة تلقائياً بعكس وجهته الأولى منجذباً لوجهة حرير.

نظر لساعة السيارة تلقائياً فعقد حاجبيه قليلاً وهي يتساءل بعجب: «لماذا عادت الآن؟».

منذ أن كلمها في الجامعة قبل يومين ولم يعاود الذهاب هناك حتى لا يخرجها؛ لكنه بات يعرف عنها كل شيء بما فيه جدول محاضراتها وأجبر نفسه أن يظل بعيداً ينتظر بفارغ الصبر كلمة والده بعد أن يسأل عن عائلة حرير ثم إخبار نونة ليصبح الأمر رسمياً اليوم تحديداً ستوضع أولى النقاط على الحروف.

وصل قريباً منها فيركن سيارته جانباً ثم يترجل ليلحق بها في خطوات متعجلة يناديها لاهث القلب متلهف الروح: «حرير».

توقفت خطواتها دون أن تستدير إليه لكنه لم ينتظرها تفعل بل تجاوزها ليقف أمامها معترضا طريقها هل سيعتاد يوماً رؤية وجهها دون أن يخفق قلبه بهذا الجنون العجيب حتى بعبوسها تكاد تسبب له نوبة قلبية! تنبه لعينيها وهما تهبطان من وجهه إلى صدره موضع قلبه ليدرك أنه يربت بأصابعه هناك! ارتسمت ابتسامة صغيرة مرحة شقية على شفثيه وهو يرخي يده إلى جانبه ويسأل بألفة لا يعرف من أين مصدرها وكأنه عرف حرير طوال حياته: «ما زال لديك محاضرة لماذا عدت باكراً؟».

كانت قد رفعت عينيها مجدداً إلى وجهه لكن هذه المرة أظهرت غضباً واضحاً وقوة لا يستهان بها وهي تواجهه بخشونة: «من تحسب نفسك.. ها؟ بأي جرأة توقفني في الشارع هكذا وتتكلم معي كأننا على معرفة وثيقة؟!».

تتسع ابتسامته وعيناه تمران ببطء فوق تقاطيع وجهها ليرد بصوت خافت: «سنكون على معرفة وثيقة أوثق كثيراً مما تتخيلين أما سؤالك من أحسب نفسي فأنا طالب رضا لا أكثر».

كلماته لم تزدها إلا غضباً فتدرد عليه بقوة وعيناها الناعستان في عينيهِ لتحديانه: «والرضا لن تناله أبداً».

يعترف أن قلبه انعصر في صدره لكن ابتسامته لم تتزحزح وهو يناغشها بالقول: «حسناً.. رفقا بي وأنت تقولينها فريما أصدقها أخبريني الآن وبعض الرحمة لماذا لن أناله؟».

لن تكون أنثى إن لم تتأثر وقد كانت أكثر أنوثة من كل من رآهن في حياته ورغم تأثرها العفوي فإنه كان يدرك صلابتها فتعبر عن تلك الصلابة بالقول الصريح: «أنا لا أمزح معك بل أعطيك الرد على طلبك أما (لماذا) فلأننا لسنا من نفس العينة لا ننتمي لذات الصنف باختصار أنا لا أنفك وأنت لا تنفعني».

كان يبذل جهداً خارقاً كي لا يتألم أجل هو هذا الألم الذي لم يذق له طعماً في حياته ها هو يختبره على أطراف قلبه الذي تولع بالحرير، سألها ببساطة وهو ينظر لعمق عينيها: «وبعد؟».

هذه المرة ظهر انفعال مختلف على وجهها انفعال أقلقه قليلاً، لقد رأى بوضوح نفوراً منها نحوه، هذا النفور ضجت به كلماتها وهي ترميها في وجهه: «أنت سمعتك تسبقك وأنت أعرف بها وأنا لن أرتضي زوجاً لي بعلاقات نسائية مريبة».

صمت للحظات طويلة وهو يتملى بالنظر إلى خديها المتوهجين يشعر أن هناك ما هو أكثر، يكاد يراه كظل يقف خلفها تساءل بهدوء ظاهري: «علاقات نسائية مريبة؟! هل هذا اعتراضك الوحيد أم هناك المزيد؟».

اتسعت عيناها في ذهول صادق وهي تتمتم من بين شفتيها الجميلتين:
«اعتراضي الوحيد؟! تتكلم وكأن الأمر بسيط وهين».

عيناه تتعلقان بشفتيها رغماً عنه وخفقات قلبه تصل عنان السماء فيبتلع
ريقه بصعوبة وهو يقول بصوت مبحوح: «لأنها مبالغات سخيفة وسيكون
هيناً إن أردته أنتِ هكذا».

عاد ذاك الظل ليخيم ويكاد يمد يده ليلمسه وهي ترد عليه بقوة وإصرار:
«وأنا لا أريده هيناً ولا أظنها مبالغات سخيفة على الإطلاق».

بحدس قوي سأل مباشرة: «أخبريني بما أزعجك اليوم تحديداً وجعلك
تعودين باكراً؟».

تصلب وجهها وأدرك أن حدسه أصاب لتقولها له دون أن تطيل انتظاره:
«سأخبرك فقط لتعرف أنك السبب أنا منزعة وعدت باكراً لأن الجامعة
بأسرها تتحدث عنك وعني ثم ما دخل خطيبة أخيك لتسمح لنفسها أن تأتي
إلى دون سابق معرفة تدعي خوفها علي وتحذرني منك وتتدخل
بخصوصياتي».

للحظة لم يستوعب فيتساءل: «خطيبة أخي؟! من تقصدين».

نطق التساؤل واسم (نهاوند) قفز لرأسه وقبل أن يتأكد من حرير أن نهاوند
هي المعنية فعلاً كانت حرير ترد على تساؤله بانفعال: «لا يهمني من تكون
كل ما يهمني أن تبتعد هي وكل من يخصك ويخص عائلتك عن طريقي

وطريق عائلتي وكن على ثقة أن أبي لن يوافق، حتى لو وافقت أنا هو لن يفعل وما يريده أبي أنفذه مهما كان ولو على رقبتني هل هذا الكلام يكفيك لتقتنع وتبتعد وتنسى أمر الخطبة والزواج نهائياً؟!».

نظرة عينيها وهي تتكلم عن أبيها جعلت عامر يدرك هوية (الظل) هكذا ببساطة عقله ربط هذا بذاك لم يكن يحتاج لذكاء كبير كي يفهم.

تذكر فجأة كومضة أضاءت في عقله ما شهدده والد حرير قبل يومين من ذاك الشجار بينه وبين الشابين وتدخل نونة فيه، حسناً سيعالج كل هذه الفوضى ليعبر عن أفكاره بالقول: «إن كانت مشكلتك مع موافقة أبيك فقط فأنا سأتكفل بها».

برفض قاطع قالت وهي تهز رأسها: «لا لا أريدك أن تكلمه».

قرر أن يأخذها باللين والمهادنة أجل التفكير حالياً بفعلة نهاوند وكيف سيتعامل معها ليركز اللحظة مع العقبة الأساسية التي تواجهه حماه المستقبلي أسعد الجنابي في سره يلوم نونة للموقف الذي أوقعتهم فيه لتزيد الوضع سوءاً دون قصد منها؛ لكن لا بأس بحسن التصرف وتعمق المعرفة بين العائلتين ستتحسن صورته وصورة أمه أمام والد حرير، فكر عامر أنه تاجر كأبيه وبجيد إرضاء الناس وإقناعهم على اختلاف شخصياتهم وطباعهم فلن يصعب عليه والد حرير خاصة أن الحاج سليم في ظهره، شعر بالثقة والاطمئنان لأفكاره هذه ليختار أن يتجاهل رفضها القاطع، بينما يرد

بابتسامة واسعة: «لن أكلمه أنا بل والذي الحاج سليم سيفعل اليوم ووالدتي أيضاً قد تتصل بوالدتك هكذا تقول الأصول».

بدت قلقة أكثر منها حائقة وهي تقول بتوتر واضح: «أي أصول؟! عامر ألا تسمعي؟!».

عاد قلبه لذاك الخفقان صدره يعلو ويهبط وهو يهمس لها بنظرات باحت بكل خفقة: «سلم لي الصوت الذي ينطق اسمي».

لم يزد لها غزله إلا حنقاً فتتورد مجدداً وهي تواجهه بقوة هادرة: «هل هذا أسلوبك مع الفتيات؟ الغزل والكلام الذي لا رد له؟!».

خرجت الكلمات من فمه دون أن يفكر فيها بل شعرها وحسب: «ما أقوله لك لم أقله لفتاة قبلك ولن أقوله لغيرك أبداً أنا أكلم زوجتي هل تعرفين الفرق؟!».

خرجها اللذيد يخلب لبه بينما تزيج نظراتها بعيداً وهي تقول بهمس غاضب: «أنا لست زوجتك ولا خطيبتك حتى ولن أكون أبداً».

ثم بعزيمة عادت لتنظر في عينيه وتقولها في وجهه بشجاعة ونظرة شامخة صامدة رغم التورد الذي يأبى مفارقة خديها: «إن كنت تعتقد أنك تخرجني بأسلوبك هذا في الكلام أو تؤثر بي فأنت لا تعرفني أو ربما لا تعرف معنى المرأة الحرة التي لا تميل مع كل هبة غزل ونسمة مديح».

كان الأمر مستنزفاً لها وهي تقف في مواجهة عامر القماش فيه شيء قوي تلمسه؛ لكنها تنفر منه في الوقت نفسه ربما لأنها تربط بين قوة تأثيره وبين فساد الأخلاقي وطباعه العنيفة، عليه أن يعرف أن أسلوبه هذا معها لن يوصله لهدفه حتى لو كان هدفه شريفاً، وجه أبيها تجسد أمامها من جديد، وجه يمنحها القوة كي تعرف الطريق الصحيح، أجل! إنها ليست مخطئة كما تتصور وفاء، عامر القماش لا ينفعها بالفعل شعرت فجأة بالقلق وهي تنظر حولها لترى الشارع خالياً تماماً، والدها في هذا الوقت يأخذ قيلولته فاطمأنت قليلاً وأرادت أن تنهي هذا الحوار الذي طال عندما سبقها عامر بالقول: «أنت من لا تعرفيني أنا من عائلة القماش أباً عن جد ولنا سرنا».

للحظة تاهت نظراتها هنا وهناك تخشى مرور أحدهم وهي تتساءل دون تركيز: «سر كم؟!».

رفع كفه اليمنى أمام وجهها فجذب عينيها إليه ثم رآته كيف يرفع اليسرى الآن وبأصابع اليسرى يمر فوق راحة اليمنى على مهل قائلاً بصوت أجش عميق: «أتودين معرفة سر عائلة القماش؟ إنه هنا في راحة الكف موهبة أو خبرة لتكون كاشفة باللمس! لو لمست «قماش» امرأة سأميز إن كانت عفيفة حرة كما أميز قطعة الحريرة والنفس لا تتوق إلا للمس الحرائر».

رمشت مرتين وهي تنظر لعينيها، كانت مأخوذة بالوصف أكثر من

الواصف! ثم أرخى كفيه إلى جانبيه بينما تهبط نظراته إلى كفها هي مضيقاً
بنبرة خافتة حملت لوعة: «هي لمسة واحدة يا حرير وعرفت أنها أنت».

شعرت أن أذنيها تطنان وهي تنظر في عينيه وترى فيهما بوضوح أثر
ذكرى تلك اللمسة اليتيمة العفوية بين كفيهما أيعقل هذا؟!

وبلحظة خاطفة توهجت كالبرق كانت عيناه تشعان إصراراً كأنه يحاربها
بل يريد تجريبها من أسلحتها وهو يقول بالنبرة نفسها: «قسماً بالله لم
يحصل لي هذا من قبل ولن يحصل لي مع غيرك لباقي حياتي».

إنه يعتمد محاصرتها هكذا يعتمد قول كلمات يعرف أنها لن تجيد الرد
عليها لا ظاهراً ولا باطناً كل هذا خطأ ويجب إيقافه؛ لكن أحنث رأسها قليلاً
مطربة بتفكير مختلف إنها تجزم بيقين أن عامر لن يردعه شيء عن المضي
قدماً بطلب يدها بشكل رسمي من والدها لذا ما تريد تجنبه بات لا مفر
منه.

احتاجت العودة للبيت اللحظة احتاجت أن تواجه القادم مع والدها قبل أن
يكون مع عامر.. عامر القماش لا يفهم ربما لم تستطع التحدث معه بحرية
وتفصيل أكثر ليستوعب استحالة مطلبه لكنه سيفهم قريباً قريباً جداً، قالت
بهذوء وهي تشد بيدها فوق حقيبتها في حركة استعداد واضحة: «دعني
أمضي عامر وقفنا هذه لن توصلنا لنتيجة كما يبدو إن كنت مصراً على
تلقي رفض رسمي مني ومن والدي فهذا خيارك.. عن إذنك».

قالتها وهي تخطو فعلياً لتتجاوزه وقد تركها تفعل دون أن يمانع أو يرد بكلمة لكنها علمت أنه ما زال خلفها وسيظل خلفها، داهمها إحساس خانق أن طريقها سيكون صعباً صعباً للغاية.

محل القماش / الفرع الأول

يشرد علي عن كلام الزبونة التي تطلب منه نوع قماش محدد فيجد نفسه يحدق بالفراغ وفي داخله خواء موجع، لم يظن أن ابتعاده عن هيام ليومين سيؤذيه هكذا اشتاق صوتها وتراقص خصلات شعرها المجددة حول وجهها كلما تحركت يميناً أو شمالاً، اشتاق عينيها ونظرة الضعف فيهما التي تحاول دوماً أن تداريها عنه اشتاق لمس شففتيها الرقيقتين وثرثرتها حول أي شيء وكل شيء، اشتاق ضحكاتها عطرها وفرشة يتشاركان النوم عليها؛ لكن كل هذا الاشتياق يقف صامداً على عتبة باب غيرتها المرضية وشكوكها الخائفة لم يظن يوماً أنه سيكره غيرة امرأته عليه كما كرهها في هيام.

«يا بني من فضلك أنا أنتظر.. الوقوف طويلاً يؤذي قدمي وما زال علي أن أختار المزيد لجهاز عرس ابنتي».

تنبه علي من شروده على صوت الزبونة غير الراضية فسارع لمراضاتها وهو يقول بابتسامة معذرة: «عذراً منك يا خالة.. حالاً سأقصر لك القماش الذي تبغين وأنت جالسة على أفضل كرسي بالمحل».

ثم أشار بحركة من يده إلى أحد العمال ليحضر كرسيًا وقدح عصير خلال أقل من دقيقة كانت المرأة الستينية جالسة على كرسي مريح تلوح على شفيتها ابتسامة رضا وهي تدعو لعلّي بالعافية، بالابتسامة نفسها سأل عليّ وهو يرفع المقص: «كم متراً تحتاجين من هذا يا خالة؟».

ردت عليه وهي تأخذ كأس العصير من يد العامل: «أربعة أمتار ومن ذاك القماش الذي أريتني إياه في البداية أريد خمسة».

يشير بسبابته لعينيه الاثنتين على التوالي في حركة مألوفة محبة منه كناية القول (من عيني الاثنتين).

يُراضي ويُرضي يجامل ويهادن يصبر ويحسن مراعاة الكل بالرفق واللين مهما كانت طباعهم صعبة وإرضاءهم أصعب فلا يغادرون المحل إلا وهم قانعين مكتفين نجح في هذا دوماً لكنه لم ينجح مع زوجته إلا قليلاً، هل يا ترى تركه لها ومجافاتها ستجعلها تعيد الحسابات؟ ثم وجد قلبه يتساءل بعيداً عن تساؤلات عقله هل تشتاقه كما يشتاها؟

عند العصر

أحلام مزعجة تخنقها، رسائل في رأسها تضج من أناس كثيرين أشبه بوساوس وهمسات شيطانية! حاولت صمّ أذنيها لكن الهمس عالٍ! ولا تعرف كيف يمكن لهمس خافت أن يجاري الصراخ في قوته؟!

لم تجد إلا اسم عليّ تناديه كأنها تطلب مساعدته؛ لكن صوتها خذلها فلم ينطلق سالت دموعها وشعرت بالضيق والاختناق أكثر حتى أنجذتها كف رحوم تسحبها من غياهب حلم مشوش غير واضح المعالم، رمشت هيام بعينيها قبل أن تفتحهما كاملاً وصوت سجي القريب الحاني ككفها يلامس روحها بالاطمئنان: «حبيبتى استيقظي مجرد حلم مزعج».

عقل هيام لم يعمل سريعاً وهي تستوعب ببطء نومها على بطنها فوق السرير كيفما اتفق وخدها مستريح على فرشتها، بينما حاسوبها مفتوح أمام وجهها لتطالعها صورة علي، سجي تلمس فوق شعرها وهي تقول لها بتعاطف رقيق: «إن كنت تشاقين له لهذه الدرجة لماذا لا تتصلين به؟».

في لحظة تذكرت هيام ما كانت تفعله قبل أن تغلبها غفوة تذكرت بهلع ما أوشكت أن تتماهى فيه، هبت من استلقائها بحركة حادة سريعة جعلت سجي تجفل منها في ذهول بينما هيام تسارع لإغلاق الحاسوب المحمول وصورة علي المفتوحة ما زالت تملأ معظم الشاشة فتخفي خلفها المتصفح المفتوح على الفيسبوك، التزمت سجي الصمت وهي جالسة على حافة السرير بينما تراقب حركات هيام بذهول واضح كانت هيام ترتعش قليلاً وهي تدس أصابعها بين خصل شعرها المجدد لتعيد ترتيبه بحركات مهزوزة، سألت سجي بهدوء لا يخلو من بعض القلق: «ماذا هناك يا هيام؟».

شعرت هيام بالرعب! عقلها يسترجع الساعات الطوال التي قضتها طيلة

النهار وهي تقرأ على الفيسبوك وتتنقل باسمها المستعار الجديد بين
المجاميع حتى دخلت تلك المجموعة، ربااه لا يمكن أن تشارك بما يحدث
هناك، لا يمكنها أن تضعف لهذه الدرجة.

عينا سجي تراقبانها فشعرت هيام كأنها محاصرة فقالت بفظاظة لتخفي
ارتعابها: «من سمح لك بالدخول إلى غرفتي والتجسس على حاسوبي؟»
لكن ابنة خالتها ومن هي أخت لها كانت تعرفها أكثر من نفسها فسألتها
باختصار دون مقدمات: «ماذا تخفين؟».

كانت هيام تتجنب النظر مباشرة في عيني سجي وهي ترد عليها بالفظاظة
والانفعال نفسيهما: «أنا لا أخفي شيئاً إنها صورة زوجي ولا أريد المشاركة
مع أحد، ما دخلك أنت؟!».

كانت تعلم أنها تؤلم سجي؛ لكن لم تستطع الدفاع عن نفسها إلا بكلمات
مسمومة حقيرة كالتي قالتها للتو، ورغم هذا سجي لم تتراجع وبدت جادة
وحازمة وهي تواجهها بالقول: «الأمر لا يتعلق بصورة علي وأنت تعرفين
لماذا أغلقت الحاسوب هكذا حالما استوعبت وجودي أنا أعرفك كما أعرف
نفسي أنت كنت خائفة ولست متضايقه».

لم تجد هيام بُدّاً من التهرب لتحرك جسمها وتغادر السرير من الجهة
الأخرى وهي تقول بالنبرة الحانقة المتعالية نفسها التي تتصنعها أمام
سجي: «لا تبدئي بتحليلي ولعب دور الأخت الكبرى رغم أنني أكبرك بستة

أشهر إلا أنك دوماً اعتقدت أنك تكبرينني بست سنوات على الأقل!». .

كانت توشك أن تتحرك نحو خزانة الملابس لتدعي حاجتها لأخذ حمام عندما قالت لها سجي بنبرة قاطعة: «أنت غبية».

استدارت هيام بقوة وهي تقاوم الانهيار أمام سجي التي ما زالت على جلستها على حافة السرير، كانت سجي بملابس بيئية حمراء حلوة تجعلها جذابة للغاية بشعرها المموج الذي تتركه في البيت حراً طليقاً على طبيعته البسيطة عكس اعتنائها به خارج البيت بتسريحات متنوعة غير متكلفة تثير إعجاب من حولها دوماً، سجي هي الأنثى المتكاملة قلباً وقالباً، أكملت سجي وهي تقف على قدميها لتقول بحاجبين معقودين يعبر عن استيائها: «أجل غبية تضيعين كل شيء بأفعالك هذه».

شعرت هيام أنها لا تحتمل وجود سجي اللحظة فصرخت فيها دون أي رادع: «لا دخل لك بأفعالي أنا حرة وأفعل ما أريد».

لكن سجي لم تتراجع لتواصل تلك المواجهة مع هيام: «أنت مغرورة ضعيفة مهزوزة لا تتحملين مواجهة نفسك وإصلاح علّتك كل ما يهملك أن لا يعرف أحد بمدى ضعفك هذا».

أصابت سجي مقتلها! هذا ما فكرت به هيام وهي تتوجع أيّما توجع وكأن ألمها أرخى شدة سجي معها لتقول ببعض اللين والرفق دون أن تفقد نبرة الحزم: «أنت بحاجة لعلاج نفسي.. افهمي هذا يا هيام لن يفيدك أحد إذا

خسرت نفسك وخسرت من تحبين دعيني أساعدك أنا على استعداد لأخذك
بنفسي إلى عيادة محترمة وطبيبة أثق تماماً بقدراتها ومهنتها».

جن جنون هيام وفقدت السيطرة فأخذت تصرخ تلقي الاتهامات جزافاً
وبكلمات جارحة أرادتها كدرع يحميها: «وكم ستفرحين إن انتشر عني أنني
أعالج عند طبيب المجانين ستشعرين عندها بالتفوق وترتاحين لتوجيه
الإشفاق نحوي بعد أن كنت أنت طوال حياتك مركز الإشفاق».

رغم الجرح الظاهر في عيني سجي فإنها قالت بصوت متحشرج بعض
الشيء كأنها تتحامل على ألم: «كلما زدت في تجريحي كلما قلقت مما
تخفينه لم تعد تنطلي علي تلك الخدعة.. هيام لقد تجاوزتها منذ سنوات
ولم أعد أقع في شركها».

ذابت دروع الفظاظاة والتجريح لم تعد هيام تشعر برغبة في الدفاع أكثر
عن نفسها، أرادت فقط أن تنهي الأمر وتجعل سجي تغادر غرفتها وتتركها
فيما هي فيه، أحنت هيام رأسها وهي تقول بإرهاق حقيقي وعناد أقوى من
الإرهاق: «لن أذهب لأي اختصاصي هل فهمت يا سجي؟ لن أهين نفسي
أمام الناس لينظروا إلى نظرة إشفاق أو سخرية أو استهانة، لا أهل علي
سيرحمونني، ولا علي نفسه سينظر إلى بالنظرة نفسها التي جمعتني به، لذا
أنا سأجد الحلول بنفسني ولوحدني دون مساعدتك ولا مساعدة غيرك، حتى
والداي لن أطلب منهما شيئاً، سأتدبر أمري بمفردي، الآن غادري غرفتي لو

سمحت، أريد أخذ حماماً منعشاً؛ فقد كان نهاراً سخيماً بليداً قضيته على صفحات الإنترنت».

لم تكن تنظر إلى سجي بينما تسمع صوتها كأنه ناقوس الخطر الأخير لها: «آمل أنك ستجدين الحلول الصحيحة قريباً، فرغم حب عليّ الكبير لك لكن ستدفعينه لـ...». رفعت هيام رأسها بعنف وهي تشعر بكل انفعالاتها ومخاوفها وعقدها كقنبلة توشك على الانفجار في وجهها: «(ل) ماذا؟ خيانتني؟».

نظرت إليها سجي مطولاً قبل أن تقول لها بصوت خافت مؤثر: «هناك ما يوجع أكثر من الخيانة».

كانت هيام تلهث ووجع قلبها يصرخ بينما تسأل بنظرة مرتعبة: «ما هو؟!».

ردت سجي بإشفاق حقيقي كأنها تعرف ما سيؤولم هيام أكثر من هيام نفسها: «بل أنت تدفعينه ليتوقف عن حبك.. أن ينضب الرصيد وإذا نضب سترين عالمك مع عليّ ينهار في غمضة عين».

شعرت هيام بالتجمد لفترة طويلة حتى إنها لم تشعر بمغادرة سجي للغرفة، كلمتان ترنان في أذنيها (ينضب الرصيد)، عيناها تحركتا نحو الحاسوب المغلق فتتذكر ما أقحمت نفسها فيه؛ لكنها عادت وطمأنت نفسها أنها لم تنهور بوضع صورة عليّ هناك كما فعلت عدة زوجات أخريات

في المجموعة، أغمضت عينيها وهي تتذكر المنشورات التي قرأتها وصور رجال لا تعرفهم وكل امرأة تنشر صورة رجل هدفها معرفة رد لسؤال واحد مطروح (هل تعرفين زوجي) كان الأمر جنونياً في بادئ الأمر وهي تقرأ كل هذا، خيانات تم كشفها وصدمات وانهيارات وبيوت تُهدم وأركان عائلة تنهار؛ لكن في المقابل بعضهن تأكدن أن أزواجهن مخلصين، بعضهن حصلن على النتيجة التي تحلم بها كل زوجة لكن هل حقاً حصلن على الإجابة الصحيحة؟ وهل الإجابة ستمنعهن من طرح السؤال مراراً وتكراراً من باب التأكد؟!

عذاب هذا ما تشعره هيام اللحظة.. عذاب أن تمنع نفسها لما تدرك في أعماقها أنه خطأ شنيع وفخ لا خروج منه وعذاب أن تفكر بنيل إجابة عن سؤال قاتل كهذا، ما هذه النار التي أشعلتها بيدها لتحرقها وحدها؟!

بيت سليم القماش

أغلقت نورجان الهاتف ثم التفتت إلى ابنها القلق المتلهف فتنظر إليه بنصف أجفان مغلقة وهي تدعي البرود ثم تقول: «هل ارتحت الآن؟ اتصلت بأمها واتفقنا مساء الغد الخميس».

بدلاً من أن يشعره هذا بالارتياح كما توقعت نورجان أدهشها أن القلق لم يفارق محياه بل طغى على تلهفه وهذه حاله منذ عاد ظهراً، بعد لحظات

طويلة من الصمت فجأة تساءل عامر بنظرة غريبة بعض الشيء: «ألم تقل شيئاً؟ ألم تلمح لشيء؟».

تحركت أمومتها بعنف لتعبس وهي تسأله بحمائية: «هل أنت خائف أن لا يقبلوا بك؟! قسماً بالله إن لم...».

قاطعها عامر سريعاً وهو يستحلفها برجاء: «بالله عليك نونة أريدك رائقة وهادئة للغاية وأنت تتعاملين معهم مساء الغد، إنهم من النوع الذي يفضل الهدوء والتحفظ».

ضيق نورجان عينيها قليلاً لتسأله بفطنة وحنس أم: «أخبرني بما يقلقك حقاً لأعرف كيف أتصرف».

تحاشى عامر النظر إليها وهو يرد: «لا أدري نونة بالضبط مدى سوء الأمر لكن والدها كان شاهداً على الشجار الذي حصل قبل أيام و...».

ترك الجملة معلقة لتفهمها نورجان، ففهمتها مباشرة وشعرت تلقائياً بالغضب من نفسها لقد أخرجته أمام حماه المستقبلي، كم هي غبية وطبعها الغاضب السخيف يوقعها ويوقع أولادها في مواقف أسخف، انحنى برأسها لتتوسد صدر ولدها وهي تعتذر منه قائلة: «آسفة يا روح نونة لكني أعدك سأصلح الأمر معهم في الغد».

يحاول عامر أمه بذراعيه وهو يتمتم بنظرة شاردة: «لا بأس نونة لم يحصل شيء خطير كما أن الأمر ليس فيما شهده الأب فحسب».

لتلوح قسوة على وجهه وهو يضيف: «هناك من ينقل كلاماً لحرير
ويظهرني كشاب مستهتر».

رفعت نورجان رأسها بحدة لتسأل بحنق: «من فعل هذا؟!».

رد عامر بالنظرة الشاردة المفكرة نفسها والتعابير القاسية: «رغم أنني
أعرف كثيرون سيتبرعون بلعب هذا الدور لكن شخصاً محدداً أنا واثق من
قذارته كما واثق أنه نقل كلاماً مسيئاً عني وسأؤكد».

أخذت نورجان تلح بالسؤال والشرر يتطاير من عينيها: «من هو؟ أخبرني
يا عامر وسترى كيف أتصرف معه بنفسى».

أمسكها عامر من كتفيها ليذكرها بالقول: «ماذا اتفقنا يا نونة؟ (لا
تدخل) و(منتهى اللطف والكراسة).. أرجوك».

قال كلمته الأخيرة برجاء شع من قلبه فذاب قلب أمه لأجله لتقول له
بابتسامة حلوة: «أحبها لهذا الحد يا ابن نورجان؟».

تنهد ثم ابتسم وهو يسبل أهدابه فمدت نورجان يدها لخدّه لتقرصه
بأصابعها ثم تقول ممازحة: «بما أن أمرك في يدي الآن فاستغلك سأكون
بالضبط كما تريد وسأمحو بطريقتي كل أثر سيئ تركه ذاك الشجار في نفس
والد حرير! لكن في المقابل أريدك أن تخبرني عما حصل بين علي وهيام
ليجعلهما متفرقين هكذا».

ابتعد عامر من ملامسة أمه ليقول بجدية: «نونة. هذا شأن يخص علي وحده حتى لو كنت أعرف لم أكن لأخبرك».

تأففت نورجان بينما يلتقط عامر هاتفه النقال ليقراً الساعة ويقول بعدها: «أنا عائد للمحل عمر بمفرده هناك وهذا موعد استلام البضاعة الجديدة».

يتحرك نحو الباب ليغادر بينما نورجان تسأله: «لماذا لم يذهب عمر للجامعة اليوم». رد عامر وهو يلوح بيده مودعاً: «قال محاضرة واحدة لديه والأستاذ اعتذر من الأمس.. سلام نونة».

في غرف نومها تجلس حرير على السرير بينما والدها يجلس جوارها وأمها تقف على مقربة والدها يبدو مستبشراً بتحفظ بينما أمها كان واضحاً أنها تمنع نفسها إطلاق الزغاريد، كانت حرير تعرف ما وراءهما بل تعرف بما لا يعرفانه حتى اللحظة، وقد قررت ترك الأمور تسير بطبيعتها وتنكشف التفاصيل بوقتها وهي تعرف كيف سيكون ختامها، أزاحت صورة عامر القماش من رأسها وتولي أباه كل الاهتمام وتمنحه كل الإصغاء وهو يقول: «لقد اتصل الحاج سليم القماش يريد زيارتنا مساء الغد أنا أسمع عنه كل الخير وسيرته لا غبار عليها كتاجر في السوق وصاحب أشهر محلات الأقمشة في العاصمة».

علقت أمها بفرح واستبشار: «وزوجته أيضاً امرأة لطيفة ومحبة لقد

أحببتهم والله قبل أن أراهم».

حدجها زوجها أسعد بنظرة كأنه يقول لها (امسكي لهفتك) فأمسكتها لتكتم ابتسامته فرحتها بابنتها وقد جاءها نصيب زواج جيد كهذا، أخذت ملامح أسعد الجنابي طابع الجدية وهو يكلم ابنته: «الحاج سليم لمّح أنها زيارة تعارف ونسب إن شاء الله كما لمّح لولده عامر أظنه الأوسط أو الأصغر لأنه عرّف نفسه بكنية (أبا علي)».

أفلت لسان أم حرير مرة أخرى وهي تقول بحماسة: «إنه الأوسط يا أبا خلدون أم علي زوجة الحاج سليم قالت إن ولدها البكر علي متزوج وإن حان الوقت لابنها الأوسط عامر».

هذه المرة عقد أسعد حاجبيه الأسيبين في صرامة جعلت زوجته ترفع يدها لتغطي فمها كأنها تحبس كلماتها المنفلتة ثم عاد لوجه ابنته الصامتة فيسألها: «لماذا لا تقولين شيئاً يا ابنتي».

ردت حرير وهي تخفي الكثير: «لا قول بعد قولك أبي انظر الصالح وأنا أوافق عليه».

يتبسم الأب بانسراح وهو يقول بحنانه الحازم: «بارك الله فيك ورضي عنك هذا ما أريده منك».

اكتفت حرير بإجبار نفسها على الابتسام بينما يضيف الأب: «كل هذا سابق لأوانه علينا أن نعرف بالتفصيل أصلهم وحسن سيرتهم والأهم أن

الشباب نفسه كيف هي سيرته وأخلاقه».

تجمد وجه حرير وشعرت بمعدتها تنقلص اضطراباً لا تعلم لماذا تشعر أن المشاكل قادمة أما والدها فيكلم نفسه بصوت مسموع: «لقد وصف لي الحاج سليم بيته في الحي لكني لم أعرف أين بالضبط لا بأس سأسأل واستقصي صباح الغد».

ثم وضع يده فوق يد ابنته ليقول لها بنصيحة تنبع من تجربته السابقة: «أهم شيء في الزواج يا ابنتي هو التوافق يجب أن يكون من نفس نوعك وموافقاً لطبيعتك وخصالك وإلا ستحدث مشاكل كثيرة بينكما».

تكتفي حرير بهز رأسها وهي تفكر أن عامر آخر من يمكن أن يراه والدها متوائماً معها كزوج، منذ عودتها للبيت ظهر اليوم وهي تستعيد كل كلمة قالها عامر في الشارع، نعم هو جاد وكلامه مؤثر في أي فتاة حتى هي ستكون من حجر إن لم تتأثر بل حتى تشعر بكامل أنوثتها على نحو مخيف لم يحصل لها من قبل، لكنها والحمد لله تملك من العقل والمعرفة لتدرك أنها لم تتعرض لتجربة كهذه، فمن الطبيعي أن تتأثر بها كما أنه شاب جيد دغدغة تلك المشاعر عند أي فتاة حتى لو صدق ورآها مميزة، حتى لو صدق في وصفه الرهيب لمعنى (المرأة الحرة) عنده إلا أنه لن يغير شيئاً كلما رآته وسمعت منه وعنه كلما زادت قناعتها إنه هو وعائلته مختلفون تماماً عنها وعن عائلتها جملة وتفصيلاً.

محل القماش/الفرع الثاني

دخل عامر إلى المحل وباله مشغول لم يكن قلقاً تماماً لكن ليعترف أنه متوتر سيعد الساعات حتى مساء الغد ليرى كيف ستجري الأمور العقبه الحقيقية التي توتره هي والد حرير بيده هو مفتاح الرضا، لقد قرأ حرير تماماً وفهمها.

تباطأت خطواته وهو يرى نهاوند تقف عند طاولة العرض تقلب ببعض الأقمشة بين أصابعها لم يكن من عاداتها الحضور هنا، أشار عامر بيده لأحد العمال يسأل عن عمر فرد العامل بإشارة نحو المخزن الخلفي، فهز عامر رأسه واقترب حتى وقف جوارها، بل تعمد الاقتراب أكثر مما تسمح به الأعراف في اختبار صريح ليتأكد مما يكاد يعرفه يقيناً، شعت عيناه قسوة ونفوراً لكنه سرعان ما أخفى كل شيء ليرسم ابتسامة، ألقى التحية بنبرة صوت مدروسة يستخدمها مع الفتيات عندما يشاء مشاغلتهن: «مرحباً».

رفعت نهاوند وجهها إليه ببعض الدهشة والقلق، لكن تأثير ابتسامته جعلها تستعيد ثقتها وهي ترددها له: «مرحباً عامر!».

تعمد أن يطيل النظر لوجهها وهو يسأل بصوت خافت ونظرات جذلي: «أين عمر؟».

كما توقع حتى اللحظة لم تحاول الابتعاد للمسافة المتعارف عليها كما لم

يغيب عن عينيه تألق عينيها وهي تنظر في عينيه بينما ترد: «نزل للمخزن».

غمز لها وهو يلقي بجملة غزل مبطن مغلفة بدعابة بريئة: «غبي! كيف ينزل ويتركك وحيدة هنا».

حقاً تضاعف نفوره منها وهي تستجيب لما يفعله، لغة جسدها تفضحها نظرة عينيها تكشفها، لقد برهنت له اللحظة أنها أسوأ مما ظنه فيها هي على استعداد لبيع عمر ما دام الأخ الأكبر والأكثر نضجاً يبدي اهتماماً وهي لن تحب لا الأكبر ولا الأصغر!

عينه رخيصة من الفتيات تلبس رداء الغلاء، لمح عينيها تطرفان ناحية باب المخزن البعيد فأدرك بسهولة ما تفعله الحقيبة تراقب عودة عمر، إنها ذكية كفاية فلا تدع عصفوراً يفلت قبل أن تتأكد من اصطياذ غيره، سأل بنبرة لا مبالية: «أنت تعرفين حرير صح؟».

ظهر الارتباك عليها وهي تقول ببعض التلعثم: «أخبرني عمر عنها».

يكاد يرى في عينيها ما قالته لحرير اليوم متى يراها عمر بعيني عقله وليس قلبه، سأل بالنبرة نفسها: «ما رأيك بها؟ هل تعرفينها؟».

عندها شعرت نهاوند بالثقة التي انعكست في عينيها وهي تقول باندفاع أعماه الطمع والغيرة معاً: «بصراحة يا عامر إنها لا تليق بك ولا بعائلة القماش سامحني لصراحتي اليوم ذهبت إليها لأتقرب منها لأجلك! لكنها صدتني وقالت عنك وعن عائلتك كلاماً أخجل أن أكرره أمامك حتى إنني لم

أخبر عمر بشيء، حاولت تصحيح أفكارها عنكم لكنها ردتني بفضافة وقلة تهذيب هي وصديقتها فانسحبت».

كان يغلي في داخله وهو ما زال يبتسم لها لا يمكن أن يرى كذباً مفصوحاً أكثر مما يراه اللحظة فيها قرر المضي قدماً بما يفعله ليعود للنظر بتدقيق لوجهها وهو يقول بخفوت: «هل تعلمين هذه المرة الأولى التي أراك فيها عن هذا القرب أنت جميلة للغاية».

أخذها على حين غرة وهو ينتقل من حرير إلى مدحها هي فتمتعت بابتسامة أنثوية: «شكراً».

طرفت عيناها مجدداً في اتجاه المخزن ليقول لها بالخفوت نفسه: «عمر سيتأخر أنا أعرفه عندما يدخل المخزن يضيع بين الأقمشة حتى يصنفها هذا دأبه كل أسبوع عندما تصلنا شحنة جديدة».

ظهر الارتياح جلياً على قسماات وجهها لتمنحه اهتماماً واضحاً وكاملاً فسأل بجرأة وعيناه في عينيها: «هل أستطيع أخذ رقم هاتفك إن كنت تمانعين فلا».

سارعت لتقاطعه وهي تقول بترحاب: «لست أمانع سجله عندك فربما تحتاجه لتكلمني أو أكلّمك نتكلم عن عمر ربما».

أخرج هاتفه من جيبه ووضع أمامها على الطاولة بحركة استهانة وهو يتمتم: «ربما». كان الأمر بشعاً ومقززاً وهو يراها كيف تسارع لأخذ الهاتف

وتفتحه وهي تكتب رقمها بلهفة وعيناها ترنوان بين اللحظة والاخرى باتجاه
المخزن، أكملت مهمتها وهي تمد يدها بالهاتف إليه وتمنحها غمزة من
عينيها الجميلتين، تغيرت سحنة وجهه وهو يقول لها بتعابير قاسية: «ضعيه
على الطاولة مكانه».

فعلت ما قال وهي مندهشة من أسلوبه المفاجئ لتصدم من كلماته
المهينة وهو يقول لها بقرف كتمه طويلاً: «لم أظنك رخيصة لهذا الحد».

أخذت نهاوند ترمش بعينيها والصدمة جعلت وجهها يشحب قليلاً وهي
تهمس: «ما.. ماذا تعني؟».

رد عامر وهو يقترب بوجهه أكثر من وجهها: «ارحلي نهاوند ليس من
المحل فحسب بل من كل حياة عائلة القماش.. ابتعدي عن أخي لأنني قسماً
بالله سأفضحك في كل مكان إن لم تبتعدي عنه».

ارتدت للخلف وهي تستوعب ما حصل عقلها أخيراً بات يعمل بشكل
صحيح لتفهم ما فعله عامر القماش للتو، شحوبها تضاعف وبدت في حالة
صدمة لم تواجه مثيلاً لها من قبل ثم أخذت تنقل نظراتها من عامر للعمال
المتناثرين لبعض الزبائن دون أن تعرف لماذا تفعل هذا كأنها تبحث عما
ينقذها من ورطتها وموقفها المهين هذا؛ لكنها لم تجد منقذاً والكل مشغول
بنفسه عن متابعة حوارهما الخافت أو هذا ما ظنته، هتف بها عامر بهمس
حاد: «غادري الآن وإلا رميتك خارج المحل أمام كل هؤلاء».

باضطراب شديد استدارت نهاوند دون أي كلمة لتسرع بخطوات متعثرة
مغادرة محل القماش.

بعد عشر دقائق خرج عمر وقد بدا مثلهفاً بشكل ضايق أخاه عامر للغاية،
عيناً عمر تبحثن وهو يسأل بعجب: «أين نهاوند؟».

رد عامر وهو يلف القماش بين كفيه المحترفين: «غادرت».

عقد عمر حاجبيه قائلاً بإحساس ذنب: «لقد تأخرت عليها لا بد أنها
حائقة الآن؛ لكن ماذا أفعل؟! لقد جاءت دون أن تخبرني وفي توقيت خاطئ
تماماً، حاولت الاتصال بها من المخزن كي أعتذر منها لكن الشبكة تقطع
هناك».

لا ينظر إليه عامر بينما يسأله بنبرة عادية: «ما الذي أتى بها؟ ظننتها لا
تزورك هنا».

رد عمر بضيق: «لا أدري أنا الآخر بدت ضجرة أو ربما أمر ما يضايقها».

اكتفى عامر بهز رأسه بينما يقول بهدوء: «دعنا لأشغالنا الآن. كلمها
فيما بعد».

لكن عمر كان يحاول الاتصال فعلاً بها فيعبس وهو يقول متأففاً: «إنها لا
ترد لا بد إنها غاضبة».

هذه المرة قال عامر بحزم: «كفاك الآن الحاج سليم سيتصل ويسأل عن

البضاعة الجديدة.. اترك نهاوند الآن».

رد عمر بـ(نعم) وهو يعود للمخزن مرة أخرى، بينما حمل وجه عامر تعبيراً غاضباً ليهمس من بين أسنانه: «استحقت تلك الحقيرة ما نالت».

مساءً بيت القماش

كان العرق يتصبب من جبين عمر وهو يهمس بقلب يعاني وجعاً لا يُحتمل: «ماذا تقولين؟! عامر عامر!».

لم يستطع نطقها، لم يستطع استيعابها، صوت بكاء نهاوند يقطعه إرباً، على الطرف الآخر كانت نهاوند تبكي بكاء حقيقياً هستيرياً لكن لأسباب مختلفة عما جعلت عمر يظنه، لقد استغلت حرقة قلبها وسحق كرامتها كي تنتقم من ذاك الحقيير، لم تعد تهمها النتائج، بل عقلها توقف عن التفكير المنطقي، وقضت الساعات تحبس نفسها بين أربعة جدران تكسر وتمزق ولا تسمح لأحد بالدخول، لتأتي مكالمة عمر هذه بعد عشرات سبقتها، فتقرر الرد والشيطان يهمس لها بالأفكار الرعناء لتشفي غليلها من عامر.

في حياتها كلها لم تتعرض لامتهان كهذا، بل لم تذق إذلالاً كالذي جعلها عامر تتجرعه حتى آخره، عاودت الصراخ ودموع القهر تجري على خديها ونيران الغضب الأعمى تشع من عينيها: «أجل أخوك المحترم كان يعرض علي علاقة من خلف ظهرك، بل حاول ملامستي أيضاً وتغزل بجمالي، لا

أصدق قبحه وجرائته، لقد أرادني أن أشارك معه بخيانتك يا عمر، هل تتصور مدى بشاعته؟! يقول لي دعينا نتكلم سراً ونلتقي سراً دون معرفة أحد حتى لا يصلك الخبر».

كان صراخها هستيرياً منهاراً لدرجة صدقها عمر في تلك اللحظة ومن شدة غضبه لم يحتمل سماع الكلمات فضرب الهاتف بعنف في الحائط ليتحطم إلى أشلاء، يحدق في الحطام وعيناه محمرتان تكادان تخرجان من محجريهما، أنفاسه العنيفة تضج في صدره وقد فقد كل عقله فقد قلبه!

يستلقي علي جوار أخيه عامر على السرير يقلب في هاتفه بلا تركيز، ساعة يقرأ في صفحات الفيسبوك وساعة يتابع التغريدات؛ لكنه شعر بالملل، ويعترف أن جزءاً من أسبابه للدخول إلى الفيسبوك الآن كي يرى هيام إن كانت موجودة لكن صفحتها على الفيسبوك تؤثر أنها لم تدخل منذ أيام، وضع هاتفه جانباً وطوى ذراعه أسفل رأسه ليحدق بالسقف كما يفعل أخوه الصامت، تنهد علي تنهيدة طويلة ثم أغمض عينيه قبل أن يسأل: «ما بك يا عامر؟ لماذا أنت صامت هكذا؟».

جاءه صوت أخيه بنبرة ممازحة: «مجرد قلق عريس أحب أن أعيش الدور بالكامل».

يضحك علي بخفة ليفاجئه عامر بالسؤال: «هل تظن أن سمعتي كشاب

سيئة للغاية؟».

يفتح علي عينيه ويلتفت جانباً نحو عامر فيراه ينظر إليه بالمقابل ولم يستطع التكهن إن كان جاداً بالسؤال أم مماًزحاً، أعاد علي نظراته للسقف وهو يرد على السؤال بالقول المشاكس وإن حمل بعض الصدق: «في الواقع نعم ليست سيئة للغاية، لكن سيئة بما يكفي لتكون أكثر أبناء الحاج سليم شهرة».

يأتيه صوت أخيه عامر أجش وهو يقول: «جاملني أخي ولو من باب الدعم والمناصرة وصدقني أحتاج الكثير منها للأيام المقبلة».

يعاود علي الضحك ليقول بعدها بالمشاكسة نفسها: «يبدو أن حرير ستجعلك تقضي كل ديونك السابقة واللاحقة».

تنهيدة عامر الطويلة عبرت عن حالته وهو يرد بقلق: «تظني أتلاعب بها حتى اللحظة، لا أظنها تصدق أنني جاد، وأني منذ رأيتها لم أعد أنا».

أوشك علي أن يضحك مجدداً عندما دخل عليهما شقيقهما الأصغر عمر في حالة غير مسبوقة وهو يعتصر روحه مع كل كلمة ألقاها دون مقدمات: «هل تحرشت بنهاوند؟ هل عرضت عليها علاقة سرية؟!».

السؤال كان موجهاً لعامر بلا شك، ونظرات عمر تقدح بشظايا الغضب الذي يحاول السيطرة عليه، اعتدل كل من علي وعامر بجذعيهما ليتساءل علي المصدوم بحاجبين معقودين: «ما هذا الكلام؟!».

أما عامر فتحرك، ليغادر السرير ويقف على قدميه، ثم يتحرك حول السرير مقترباً من عمر ليقف على بعد متر واحد مواجهاً له بهدوء يحسد عليه وهو يرد ببعض الاستهانة: «تحرشت؟! عرضت علاقة! هل هذا ما أخبرتك به؟ لكنني لا أستغرب هذا منها، بل توقعته، وقد أثبتت أنها أغبي مما توقعته».

وقف علي هو الآخر وقد شعر بخطورة ما يدور ليقترّب من شقيقه ويقول بحزم: «اهدئا وافهماني ما يجري».

لكن عمر كان يردد وهو يرد على أخيه الأكبر وعيناه لا تفارقان وجه عامر وسؤاله القاتل يؤلمه في الصميم: «لا تتدخل علي! رد أنت يا عامر قل لي إنك كنت تريد اختبارها فقط أليس كذلك؟».

بالهدوء والتماسك نفسيهما رد عامر: «نعم أردت اختبارها؛ لكن مؤكّد هي أخبرتك حكاية تلائمها كي تلقي بالإثم علي».

جن جنون عمر ليمسك بتلابيب قميص أخيه يهزه بعنف وهو يصرخ: «لن أسامحك! لن أسامحك! قلت لك إنها ليست رخيصة كما تظنها، لقد جرحتها وجرحتنني معها هل ارتحت الآن؟! هل تأكدت أنها تليق بشقيقك المنفعل؟!».

كان علي يحاول الفكّك بينهما، بينما عامر لا يبدي أي ردة فعل متهورة فقط سأله بثبات: «ما الذي قالته لك بالضبط؟».

ما زال علي يحاول فصلهما بجسده ولف ذراعيه حول شقيقه الأصغر وهو يقول له بحزم: «عمر توقف».

لكن عمر يهدر وهو يرد على سؤال عامر وعروق جبينه تنبض بوضوح للعيان: «نهاوند منهارة بالكاد استطاعت إخباري بكلامك الوسخ معها، لا أعرف كيف سأصلح الأمر بعد فعلتك الدنيئة، لقد أهنتها وأهنتني».

عندها فقط ظهر الغضب على وجه عامر وهو يعقد حاجبيه ويقول بنبرة حادة: «تصلح معها؟! هل جننت؟! لقد كتبت لي رقمها في هاتفي بملء إرادتها بل كانت سعيدة للغاية وعيناها تراقبان عودتك من المخزن».

تجمد عمر كما تجمدت ذراعا علي التي تحاولان تثبيته ومنعه من التصرف بعنف مع عامر، ساد الصمت للحظة بين الثلاثة، عمر جاحظ العينين لا يستوعب الصدمة وعلي مصدوم لصدمة أما عامر فتعابيرهِ حملت الكثير من الغضب البارد تمتمت شفتا عمر الشاحبتان، وعيناها تبثان عدم التصديق اللحظي: «أنت كاذب!».

يزداد عبوس عامر ليتحرك بحثاً عن هاتفه فيعود به وهو يفتحه ويقول: «كاذب؟! انظر لقائمة الاتصال في هاتفي أنظر للرقم المسجل وساعة وتاريخ التسجيل أليس هذا رقمها؟!».

وضع الهاتف أمام وجه عمر ليقرأ بنفسه فتجري عينا عمر على ما يراه ويقرأه ويأبى قلبه تصديق ما تقرأه عيناها، أما عامر فيكمل وهو يسحب يده

بالحاتف ليرمي الجهاز على السرير بحركة غاضبة ثم يضيف: «يمكنك في الغد سؤال كل عمال المحل الذين يراقبونني دوماً كلما تكلمت مع فتاة من نوعها ومؤكد هم لا يعرفون قيمتها عندك تأكد منهم كيف رأوها تلتقط هاتفني من الطاولة بنفسها وتسجل الرقم بسرعة خشية عودتك».

ما زال عمر متخشباً مكانه وعلي ينظر إليه بإشفاق وغضب في الوقت نفسه، فعمر أكثرهم طيبة وذكاء ولا يحق لتلك اللعينة أن تتلاعب به هكذا فتهين رجولته وذكاءه معاً، أما عامر فأضاف أخيراً ببعض الخيبة: «رغم أنك لا يفترض أن تشكك بما أقول فمن هذه التي أتت لتفرق بيننا وتطعن بصدقنا لبعض».

أخذ عمر يحرك رأسه بلا معنى وهو يهمس بتحطم: «مستحيل هذا مستحيل لماذا.. لماذا؟!».

رد عامر بانفعال: «لأنها تريد ضمان أي (عصفور) أيها الأحمق لا تمانع إن كان أنت أو أنا أو حتى علي بل لا تمانع إن كان الحاج سليم بذات نفسه».

عاود عامر الاقتراب وهو يضيف مشيراً لرأس عمر بسبابته: «الحقيقة موجودة في عقلك لكنك ترفضها يا ابن والدي نهاوند ليست إلا فتاة رخيصة ولم تتوان عن مسائرتي وأنا أرمي لها أبخس اهتمام مجرد نظرة وكلمتي مديح».

لم يستطع عمر منع نفسه كما فاجأ علي بحركته المباغثة وهو يلکم عامر
بقبضة حملت كل ألمه ليوقع أخاه أرضاً وهو يصرخ فيه: «أنت حقير سافل».

فقد عمر سيطرته تماماً وأراد أن يهاجم عامر من جديد بينما علي يحاوط
جسده بكلتي ذراعيه يمنعه بكل ما أوتي من قوة وهو يصرخ فيه هادراً:
«توقف عمر إنه شقيقك هل جنت؟».

بهذوء ينهض عامر من الأرض وهو يقول بصمود: «أتركه علي فليضربني
مجدداً فربما يفيق من وهمه».

دمعت عينا عمر وهو يهتف بألم وغضب أشتل فيه كالنار في الهشيم
«لماذا فعلت هذا؟ لماذا؟»

ما زال علي يطوق شقيقه الأصغر بينما عامر يرد: «كي تعرف أن من
تخدع نفسك بحبها ما هي إلا حفنة قذارة».

رغماً عن إرادته وهو ما زال في صدمته المروعة صرخ عمر وهو يحاول
الفكاك من تطويق علي: «أخرس أيها الحقير أيها النذل».

صوت صعود علي الدرجات تنبه له علي فقط بينما عامر يرد على شقيقه
الأصغر بتأكيد دون أن يهتم بشتائمه: «هذه الحثالة تبيعنا أنا وأنت وكل
عائلة القماش بفلس واحد إذا وجدت (أحمقاً مهتماً) يحمل مميزات أكثر».

دخلت نورجان هلعة وهي ترى أولادها الثلاثة بهذه الحال، ففتجمد مكانها

وهي تتساءل: «ماذا يحصل هنا؟! في البداية ظننتكم تمزحون مزاحكم
الخشن مع بعض كعادتكم لكن بعدها».

توقفت كلمات نورجان وهي تتابع وجوه الثلاثة ليسارع علي لطمأنتها وهو
ما زال يطوق عمر أسراً حركة جسده: «لا تقلقي نونة مجرد شجار بسيط
وسوء فهم».

لكن عمر هدر باتهام انفعالي مبعثه شدة ألمه وعمق خذلانه وتشتته
اللحظي بسبب الصدمة الرهيبة: «ليس سوء فهم لقد طعنني في ظهري
آذاني كما لم يؤذني أحداً من قبل».

ثم زمجر: «دعني علي.. دعني لأذهب».

فعل علي ليتحرك عمر كعاصفة لا تجد ملجأ لها ولا منها، بينما نورجان
تلاحقه وهي تناديه بنبرة أمومية قلقة: «عمر.. عمر».

يصل صوت عمر إلى شقيقه وهو يرد على نداء أمهم: «أنا لن أسامحه
أمي، لن أفعل لآخر حياتي».

أطرق عامر بينما يصله صوت نونه الآن وهي تحاول مكالمته: «عمر
انتظر بني لا تغلق باب غرفتك».

بعدها عم الصمت وقد أدرك كل من علي وعامر أن نونة استطاعت إقناع
عمر أن تدخل معه غرفته قبل أن يغلق الباب، اقترب علي من أخيه ليحاول

أن يخفف عنه بالقول: «سيأخذ وقته ويدرك عقله الحقيقة.. لا تقلق عمر ذكي لكنه ما زال شاباً يافعاً مشاعره الثائرة تحركه أكثر من عقله كما تنقصه الخبرة الكافية كلنا كنا هكذا في سنه».

تمتم عامر بالسؤال وقد بدأ يشعر بالذنب والندم: «هل أخطأت بما فعلت يا علي؟».

رد علي بصدق: «ربما بالغت قليلاً فعمر ليس بغبي وكان سيدرك حقيقة هذه البنت عاجلاً أم آجلاً لماذا تسرعت يا عامر؟!».

زفر عامر بقوة وهو ينظر لشقيقه الأكبر ويقول بغیظ: «لأنها تنشر أخباراً كاذبة عن خطبتهما وتتجبح أمام الناس بهذا، لقد كانت تريد إحراجه ووضعها في موقف الإجبار ليتم خطبتهما، إنها حقيرة وليست سهلة وأنا متأكد لو بحثنا قليلاً في تاريخها الذي تخفيه سنكتشف علاقات سابقة لها تجعلها خبرة في التلاعب بشباب بريء كعمر لم يمر بتجربة حب من قبل».

رد علي يحاججه: «حتى لو كان الأمر صحيحاً ف...».

لكن توقف ولم يكمل شعر أن عامر نال كفايته وهو لم يرد إلا مصلحة أخيهما الأصغر مد علي كفه ليربت على كتف عامر مواسياً وهو يقول: «لا بأس ما حصل قد حصل اترك عمر يهدأ من نفسه صدقني بضعة أيام وستجده عندك يعتذر على ما بدر منه».

يهز عامر رأسه بينما يخالف في سره توقعات علي فعمر مجروح وهو دون

قصد أسهم بطريقة أو بأخرى في هذا الجرح العميق.

وقف كل من شاكر وسليم جوار بعض وقد تلطخت ملابسهما بالصباغ ككفيهما، بينما يحدق كل منهما عبر زجاج نظارته الطبية ليقوما عملهما المشترك بنظرة غير مقتنعة تماماً بجودته، ما زال سليم يحدق في الحائط بتقييم على ضوء الإنارة الوحيدة التي أبقياها مكانها معلقة على أحد جدران الغرفة ليقول بعدها وهو يلتفت لصديق عمره: «انتصف الليل ولم ننجز إلا حائطين في غرفة واحدة يا أبا أحمد».

عبس شاكر من خلف نظارته ليرد على سليم بالقول المعاند: «كم مرة قلت لك أنا (أبا سمر) أولى ذريتي من أكنى بها لن أغيرها لأن الله رزقني بولد ذكر بعد ثلاث فتيات».

يضحك سليم وهو يلوح بفرشاة الصبغ في يده: «عجيب أمرك يا رجل هذا عرف بلدنا الذي كبرنا عليه نحن وأجدادنا، إذا رزقنا بالولد فنكنى باسمه».

باعتداد يرد شاكر وهو يشمخ بأنفه الملطخ بالصبغ ويشير بفرشاته لرأسه: «أنا خارج الأعراف عرفي هو عقلي هذا وعقلي أكثر تحجراً من عقل حماك».

يهز سليم رأسه ضاحكاً بخفة بينما يعلق: «لا تذكرني به علي تحمل عجرفته ليشارك في خطبة عامر المرتقبة إن شاء الله، عسى أن يتفضل

علينا ويرضى الدكتور زيدون بتشريفنا الحضور والمشاركة».

يتساءل شاكر ببعض الاستهجان: «أما زال ذاك العجوز العنيد على طباعه نفسها؟».

يرفع سليم حاجبيه للأعلى ويرد بيأس من حماه: «ولن يغيرها ما زال يعيش الماضي ولا يراني إلا مجرد صعلوك جنوبي سرق وحيدته المدللة».

يمزح شاكر صديقه وهو يدعمه ضمناً بالقول: «قل له هناك صعلوك غربي يكتني نفسه باسم كبرى بناته وهذا الصعلوك سيأتيك بعشيرته وعشائر أهل الغرب كلهم طلباً للفصل والدية».

يضحك سليم وهو يعاود النظر إلى الحائط ويشعر بوجود الخطأ ثم يقول فجأة: «شاكر أظننا بحاجة لتبديل النظارة».

يعبس شاكر لينظر إلى الحائط كصديقه ثم يتساءل: «لماذا؟! هل هناك خطأ؟!».

يرد سليم وهو يكتم ضحكته: «أظننا نصبغ الحائط بلونين مختلفين يا أبا سمر».

يقرب شاكر رأسه ليحديق بتمعن في الحائط وهو يتساءل بتشكك: «هل تعتقد هذا؟!».

رد سليم وهو يشير بالفرشاة للحائط: «انظر يا رجل! لقد أفسدنا الحائط

تماماً أنت كنت تصبغ بالأبيض وأنا أصبغ بالرمادي الفاتح ألم أقل لك دعني أقرأ وأتأكد أولاً؟! سمر لن تكون راضية عندما تعود من سفرها وترى ما فعلناه ببيتها ونحن ندعي تجديد صباغ جدرانها».

يهز شاكر رأسه وهو يزعم شفتيه ثم يقول بنبرة الأمر الواقع لا محالة: «ابنتي ستقتلني».

يرد سليم ضاحكاً موبخاً: «لقد قالت لك المسكينة دع الأمر للمحترفين لكنك أصريت أن تقوم بهذا بنفسك وتجبرني معك فيه حتى ولدك أحمد تهرب من مسؤولية المشاركة في هذه الجريمة».

ما زال شاكر على التعبير نفسه ويكرر الجملة نفسها وهزة الرأس نفسها: «ابنتي ستقتلني».

يرمي سليم الفرشاة في سطل الصبغ بينما يقول مدعياً الإحباط بفكاهة: «فوضت أمري لله في ضياع الساعات هنا».

فما كان من شاكر إلا أن قال: «وأنا فوضت أمري لله لأن ابنتي ستقتلني».

لينفجر كلاهما في ضحك متواصل حتى اختنقت أنفاسها ونزلت دموعهما معاً من شدة الضحك.

بعد منتصف الليل

دوماً كان نومها خفيفاً وما إن يقترب منها أحد حتى تصحو تماماً مهما كانت غارقة مستغرقة في النوم فتحت سجي عينيها حالما شعرت بمن يندس جوارها على السرير لتمد يدها تلقائياً إلى الإنارة الجانبية فتشغلها، لتصدم بوجه هيام الباكي وهي تبادلها التحديق، كانت في حالة يرثى لها فتتساءل سجي في قلق شديد وصوت خافت: «هيام... هيام ماذا هناك؟».

حشرت هيام نفسها بابتنة خالتها لتضم جسدها المرتجف إليها تطلب طمأنينة وهي تقول بارتجاف: «أنا خائفة يا سجي.. خائفة حلمت أحلاماً بشعة مروعة.. علي علي.. آه يا وجع قلبي علي ما قاله».

تلقائياً كانت سجي تحاوطها بذراعيها تضمها بقوة وهي تهمس بإحباط: «بالله عليك ماذا تفعلين بنفسك؟!».

كطفلة صغيرة تثير الحمية نحوها وهي تحشر نفسها أكثر لتهمس بمزيد من الارتجاف: «ضميني إليك أختي ضميني ولا تتركيني أنام لوحدي الليلة».

دخلت عليهما (أمهما) فأشارت لها سجي بالصمت فعضت الأم شفتها في قهر وانسحبت دون أن تشعر بها هيام، أخذت سجي تملس فوق شعر هيام المجدد وهي تحاول طمأننتها بالقول الداعم: «إنه فقط عقلك الباطن من يجعلك تحلمين بهذا، فلا تقلقي ستكون الأمور كلها بألف خير لا

تجزعي أنت قوية وصاحبة إرادة دوماً تحققين ما تريدن».

همست هيام ودموعها تجري بعجز: «لا أعرف كيف أفعل هذه المرة لا أعرف كيف أفكر حتى!».

بألم وإشفاق من صميم القلب همست لها سجي برقة وحنان: «عودي إليه إذن، أنت تتألمين بدونه، اطلبي مسامحته أخبريه كم تحبيه وكم تثقين به وأنتك لأجل حبه ستفعلين المستحيل كي تسعديه، علي يستحق منك هذا يا هيام يستحق لا تخسري حبه بشكوكك بل اجعلي هذا الحب الكبير دافعاً كي تدحري أوهامك مخاوفك وأسوأ كوابيسك».

لم ترد هيام بشيء بل اكتفت بالاختفاء في ظل سجي التي دوماً اعتبرتتها مصدر قوة حتى وإن كانت سجي لا تعرف هذا، أما سجي فالأمر بات يقلقها كثيراً، هيام تدور في حلقات متداخلة مع بعض وكلما أرادت الخروج من إحداها دخلت في حلقة جديدة أضيق، كم هي تائهة وعنيدة، ما الحل؟! كيف تقنعها بالعلاج؟ أو الاستشارة على الأقل.

أطفأت سجي الإنارة وعادت لتملس على شعر هيام وتدعو لها بالهداية والراحة.

صباح اليوم التالي

في نومه العميق يتقلب ضيق أصابه وأحلام ثقيلة تراوده، شقيقاه يتشاجران ووالداه غاضبان من بعض، والجدة تنظر إليهم جميعاً في حزن صامت، شعر بالاختناق وهو يبحث عن هيام لتخفف عنه ولا يجدها، أرادها بقوة ليأنس إليها ويضمها بالشوق الذي أضناه كم يحتاجها.

«علي»

هذا صوتها همسها يفتح علي عينيه وهو يشعر في اللحظة نفسها بجسدها فوق جسده وقبلاتها تتناثر فوق شفثيه ولحيته، للحظة شعر بالعذاب وهو يفكر أن هذا مجرد حلم حتى أطلت بعينيها وخصل شعرها المجددة تتراقص حول وجهها المتعب وتتدلى لتلامس وجهه تدغدغه، تحركت شفثاها بالهمس العاطفي الحار: «اشتقت إليك».

عندها أدرك أنها واقع وشمس الصباح تشرق مع وجهها الحبيب، يقبلها وهو يقلب جسده ليصبح فوقها مباشرة وهو يقول بخفوت: «وأنا أموت بالشوق».

لم يفكر في أي شيء، نصائح الجدة تناثرت وتشتت حتى تلاشت وقبلاته تسابق كلماته المتلهفة المشتاقة: «كنت سأتي إليك اليوم، أقسم بالله لم أعد أحتمل».

لتبادلته القبل باللهفة والاشتياق نفسيهما وهي تردد بأنفاس لاهثة ونظرات زائغة: «وأنا أيضاً لم أعد أحتمل».

وما بين احتمال واحتمال فروق معان ومقاصد فذاك لا يحتمل فراق
الحبيبة فينسى النصيحة، وتلك لا تحتمل تركه وحيداً وبعيداً عن ناظرها
فتدخل حلقة جديدة أكثر تيهاً.

الفصل الخامس

ينام على بطنه وعيناه بأجفان مرخية للنصف يراقب عودة زوجته إلى الغرفة فيسألها بصوته الناعس: «من الذي أأنا هكذا منذ الصباح الباكر؟!». «الباكر؟!».

ردت نونة على زوجها وهي تعود للانضمام إليه في السرير: «إنها هيام». ينقلب سليم على ظهره وهو يحدق في نورجان بتعجب فيتساءل ببعض القلق: «هيام؟!». «القلق: «هيام؟!».

بدت نورجان ساهمة في تفكير وهي ترخي رأسها على الوسادة وتحقق في السقف، بينما ترد على زوجها بالقول: «لا تقلق أتت لتتصلح زوجها». بيتسم سليم باطمئنان ثم ينقلب على جانبه لينظر إليها هامساً بالسؤال المشاكس: «هل يزعجك أن يتصالحا؟!». «هل يزعجك أن يتصالحا؟!».

علقت نورجان بجديّة: «أنا منزعة من أمور لا تحصى يا سليم». يمد يده ليداعب خصلة نحاسية من شعرها وهو يقول بنبرة توحى بالإلصاق التام: «عديها لي». «عديها لي».

ردت نورجان وهي ما زالت تحديق في السقف كأنها تقرأ أفكارها مكتوبة هناك: «هيام تخرب بيتها بيدها وعلي طفح كيله من أفعالها وأخشى ما أخشاه أن صلحهما الآن لن يكون ذا فائدة». «أخشاه أن صلحهما الآن لن يكون ذا فائدة».

تحركت يده إلى أسفل ذقنها فيدير وجهها إليه، نظر في عينيها مطولاً قبل أن يقول: «وبعد؟ أرى في عينيك الكثير لتخبريني به».

حانت منها نظرة معاتبة وهي تقول: «انتظرتك مطولاً ليلة الأمس لم أظن أنك ستتأخر إلى هذا الحد مع شاكر، لم أعلم حتى متى عدت للبيت، استيقظت فزعة قرابة الساعة الثالثة قبيل الفجر لأراك نائماً جوارى».

قال سليم معتذراً: «آسف شاكر ورطني معه بمشروعه الفاشل لصبح جدران بيت ابنته سمر قبل عودتها من السفر، فأفسدنا أكثر مما أصلحنا».

ذهن نورجان المشغول جعلها لا تركز كثيراً باعتذاره لتفصح عما يقلقها: «هناك أمر جرى بين عمر وعامر، لقد تشاجرا ليلة الأمس».

تنهت حواس سليم ليفتح عينيه بتركيز وهو يشعر بأهمية الأمر وأنه ليس شجاراً عابراً عادياً فيقول بهدوء: «إحكي لي ما جرى».

تنهدت نورجان وهي تنقلب على جانبها مثله كي تواجهه ثم تقول بملامح تعكس قلق الأم على أولادها: «سأحكي ما استطعت معرفته وفهمه، أنت تعرف أولادك أحياناً يصبحون عنيديين صامتين كالحجر».

تنهيدة قصيرة أخرى منها قبل أن تضيف: «يبدو أن عمر يحب فتاة تدعى...».

قاطعها سليم ليقول الاسم بنفسه: «نهاوند».

ارتفع حاجبا نورجان بدهشة وقبل أن تتحول دهشتها إلى حنق من مبدأ أنها (آخر من يعلم) كان سليم يفسر: «أنا أعرف أكثر مما يظنه أولادك، الآن أخبريني ماذا بها نهاوند؟».

تغضب تعابير نورجان لأسباب مختلفة وهي تقول بتوتر: «فتاة غير محترمة يا سليم، تصور أنها تشاغل الولدين معاً! سافلة منحطة».

كان واضحاً أن سليم لم يعرف بهذه التفصيـلة فهبّ مستقيماً بجذعه ليتخذ وضع الجلوس وهو يتساءل بحاجبين معقودين استهجاناً: «ماذا تقصدين تشاغل الولدين معاً؟! هل عامر على علاقة بها أيضاً؟!».

رفعت نورجان جذعها لتستقيم به ثم تجلس متربعة على السرير أمام زوجها وهي ترد بدفاع تلقائي عن ولديها: «هي من تفعل لا هما، الحقيرة تشاغل عمر من جهة وحاولت مع عامر من جهة ثانية».

هتف سليم بعينين متسعيتين صدمة: «الله أكبر».

تقبضت يدا نورجان فوق حجرها كأنها تتمنى لو كانت تلك الفتاة الحقيرة أمامها لتوسع وجهها لكماً، بينما تنطق بالكلمات الصعبة على لسانها كأـم مجنونة بحب أولادها: «عمر غاضب من عامر لم أـره غاضباً هكذا منذ ولادته، كان يرتجف بالغضب وعيناه متحجرتان بدمعة أبت النزول على خده، مزق قلبي يا سليم تلك الفتاة أوقعت بين الأخوين وكسرت قلب صغيري، ليتني فقط أصل إليها لأعلمها الأدب الذي لم تتعلمه في بيت

أبيها .. رخيصة مبتذلة».

سأل سليم بصرامة وهو يستعيد ثباته: «نورجان أفهميني بالضبط ما حصل بالأمس بين الولدين؟».

ردت نورجان وهي تنظر لزوجها بضيق شديد وحنق ضمني: «لم أفهم بالضبط ما حصل بالأمس قمت فقط بتهدئة عمر الذي لم يمنحني إلا مقتطفات متفرقة يهذر بها بحرقة قلب وأنا كل ما استطعت فعله محاولة تركيبها على بعض كي أحلها كالكلمات المتقاطعة».

سأل سليم بصبر: «لكن ألم تسألني عامر؟».

بحنق متزايد قالت نورجان: «سألته ولم يقل الكثير وتدخل علي ليمنعني الإلحاح بالأسئلة أكثر، وطمأنني أن الأمور لا تستدعي القلق لكنني قلقة، لن يستطيعوا خداعي بتهوين المسألة كأنه مجرد شجار عادي، وكيف يكون وعمر للمرة الأولى في حياته يمد يده ليضرب أخاه».

يتصلب فك سليم وهو عاقد الحاجبين بينما يتمتم: «ما كل هذا؟! أحصل كله بالأمس فقط؟!».

كانت نورجان شديدة التوتر وهي ترد على زوجها بكلمة واحدة: «أجل».

نظر سليم لزوجته وشعر أن عليه سرعة التصرف لاحتواء ما يجري في بيته، احتوى بكفيه قبضتي نورجان يشد عليهما وهو يقول بنبرة تبثها القوة:

«الأمور ستكون بخير لا تقلقي هكذا، الأخوة يحصل بينهم أكثر من هذا ويتصالحون، وأولادنا ربيناهم على محبة ودعم بعض في أي ظرف فلا تخافي ولا تحزني، غمة خفيفة كسحابة صيف بإذن الله».

أطلقت نورجان بعض أنفاس الاسترخاء بينما تتمتم: «إن شاء الله».

لم تكن استعادت صفاءها بعد فيحثها سليم بالقول الرقيق: «اهدئي واسترخي يا نونة لا تنسي اليوم لدينا زيارة التعارف مع أهل حرير ويجب أن نكون بأفضل مزاج لإعطائهم انطباعاً جيداً عنا».

نظرت نورجان في عيني سليم بتنبه من نوع آخر لتقول ببعض التردد: «هناك أمر آخر أخبرك به يخص هذا الموضوع أيضاً».

كمن تعب من تلقي الصدمات الصباحية الباكّة تساءل سليم بإحباط: «أي أمر آخر بالله عليك؟!».

عقدت حاجبيها بطريقة خاصة يعرفها لتؤكد حدسه وهي تقول بإصرار: «عدني لن تغضب مني».

فكر سليم أنها المقصودة هذه المرة فحدجها بنظرة حازمة وهو يقول: «نورجان أفصحي».

ترقق عبوسها وهي تلجأ لمكر النساء الرقيق كي تستدر عفو زوجها وتفهمه: «حسن سأعتبر أنني حصلت على الوعد، الأمر هو».

تلكؤ نظراتها جعل عيني سليم تبرقان بنفاد صبره لتسارع إلى قولها دفعة واحدة: «قبل أيام والد حرير رأي في شارعنا وأنا أشارك عامر وعمر شجارهما مع بعض الشباب الوقحين».

قالتها وهي تغلق عينيها بقوة كأنها تنتظر زوبعة تقتلع جذورها؛ لكن بعد لحظات صمت فتحت عينيها لترى سليم ينظر إليها برباطة جأش تحكم غضبه الذي تأجج ليطلب بلهجة أمرة ونبرة خافتة: «احكي لي ما رآه الرجل بالتفصيل».

ثم صمت للحظة واحدة قبل أن يضيف: «ولنا حساب آخر فيما بعد يا نونة».

انتظر عمر لربع ساعة بعد دخول أمه إلى غرفتها قبل أن يعاود مغادرة غرفته، لقد رآها تخرج من غرفتها على عجل لتهبط إلى الطابق الأرضي على صوت جرس الباب فانتظر عودتها بصبر نافذ، ليتفاجأ أنها عادت برفقة هيام! لكن سرعان ما تفارقا بهدوء بعد همس خافت بينهما لتدخل هيام غرفة أخيه علي وتعود أمه إلى غرفتها، بينما هو يراقب من باب غرفته الموارب، بخطوات مكتومة كان يهبط درجات السلم إلى الطابق الأرضي ومنه إلى المرأب ليغادر البيت دون أن يشعر به أحد، يقود السيارة بوجه متجههم وتعابير قاسية، عيناه محمرتان قليلاً لأنه قضى الليل دون نوم تقريباً، فبعد

أن أجبر أمه على تركه بمفرده أغلق عليه باب الغرفة ولم يستجب حتى لمحاولات علي فيما بعد كي يفتح له الباب.

قضى ليلة لا يظن سينساها يوماً ستبقى مختومة في ذاكرته بختم أبدي، قلبه الذي تمزق وإحساسه بالخيانة والتشوش، ثم الأهم عقله الذي لم يتوقف عن التفكير.

بعد أقل من ساعة كان عمر يكتب لعلي رسالة قصيرة يطمئنه أنه بخير وأنه احتاج إلى خلوة مع نفسه وطلب منه أن يتوقف الجميع عن محاولات الاتصال؛ لأنه لن يرد وفي اللحظة التي أرسل فيها الرسالة كانت نهاوند تدخل للمقهى بخطوات متعثرة مرتبكة بوضوح، يمج من سيجارته وهو يحرق فيها عبر الدخان والألم يجعل يده التي تمسك بالسيجارة ترتعش، تذكر ذلك الحزن الذي حظي به منها حتى اللحظة ما زال جسده يتذكر تفاصيل جسدها، حتى اللحظة يشعر بذاك الارتجاف رغبة بالمزيد؛ لكنه ارتجاف اختلط بالقرف هذه المرة بعد أن كان مختلطاً بعاطفة الحب فيما سبق، ابتسمت له ابتسامة حزينة حالما رآته ثم تقدمت إليه بلهفة لتجلس على الكرسي القريب منه بحركة انهيار ودموعها تهطل على خديها وهي تداريها عن أعين رواد المقهى القليلين، بينما تهمس لعمر بانكسار: «شكراً لأنك جعلتنا نلتقي باكراً، كنت بحاجة لرؤيتك لم أنم ليلة الأمس».

لم يقل شيئاً وهو يدخن بصمت لتنظر إليه ببعض الاستغراب والعتب:
«كلمني عمر البارحة ظلمت أتصل بك كثيراً دون رد منك».

رد أخيراً بهدوء: «هاتفي تحطم؛ لكنني اشتريت هاتفاً جديداً قبل أقل
من ساعة».

عينا نهاوند التقتنا هاتفه الجديد على الطاولة أمامه جوار منفضة
السجائر وقبل أن تتفوه بكلمة تعليق كان عمر يباغتها بالسؤال: «لماذا
كتبت رقم هاتفك لعامر؟».

هتفت نهاوند شاهقة باستنكار (يدمي قلب من يراها ويصدقها): «هل هو
من أخبرك؟ هذا كاذب كبير نذل حقير ولا أخلاق له».

لم يشعر عمر بأي رغبة لوقف سيل شتائمها لأخيه؛ فعقله يعمل باتجاه
واحد فقط قال بهدوء شديد وهو يأخذ نفساً جديداً من سيجارته: «لكنني
رأيت الرقم مسجلاً بتاريخ الأمس في الساعة التي كنت فيها في المحل
عندنا».

بدت مستعدة وغير مستعدة بالوقت نفسه كأنها لم تتوقعه سيسألها عن
هذا بهذه السرعة، فردت بتعابير متألّمة تظهر الحقد والبغض لعامر: «لا بد
أنه فعلها بعد مغادرتي مباشرة، وليس صعباً أن يحصل على رقم هاتفي، بل
أعتقد أنه يملكه من قبل، لا بد أنه أخذه من هاتفك يا عمر، أخوك لا يتورع
عن فعل شيء».

كان يجب أن يجد القوة ليستمر بما يفعل، الأكم والغضب في داخله عظيم بشكل يخيفه هو شخصياً، وكلما نظر لوجه نهاوند تكالبت عليها طعنات الأكم وشبّت في قلبه نيران الغضب أكثر وأكثر، ورغم هذا استمر في حوار عاهد نفسه أن يمضي فيه للنهاية وهو يواجه عيني نهاوند المترقبتين لردود أفعاله بخوف وقلق مستتر فقال ما لم تتوقعه نهاوند: «لقد سألت عمال المحل بنفسي قبل أن آتي إلى هنا، أنت أخذت هاتفه بعد أن وضعه على الطاولة أمامك، وسجلت بنفسك الرقم».

لحظة خاطفة أفلتت منها لتظهر الإجابة جلية في عينيها.. إجابة كانت كالخنجر المنقوع بالسّم ليقّتل قلبه كطعنة أخيرة بعد أن سبقتها طعنات من خناجر الغدر والخيانة والكذب والادعاء والاستغفال، لا يعرف كيف وجد القوة للصمود بالواجهة نفسها، بينما هي تجد القوة لتستعيد واجهة (المظلومة المتألّمة) فتدافع عن نفسها بالقول الذي يدمي قلوب المغفلين ممن كان عمر ينتمي إليهم! هتفت بهستيرية وهي تبرع بتمثيل الدور: «كذب.. كذب.. كلهم كاذبون.. هو من فعلها الحقير، مؤكّد جعلهم يؤكّدون كلامه، لقد حاك مؤامرة كاملة ضدي».

بنظرة صارمة مخيفة أمرها بالقول: «اخفضي صوتك».

رمشت نهاوند بعينيها، ثم نقلت نظراتها فيما حولها بحرج وبعض الوجوه تنظر ناحيتهما لتتمتم باعتذار، بينما عمر يدعس ما تبقى من سيجارته في

المنفضة قبل أن يقول ببرود جليدي وهو يحرق بسيجارته التي تحولت لفتات يشبه فتات قلبه: «في هذه الحالة أنا مضطر أن أخبرك بما لا تعرفينه».

تساءلت بتوجس وهو تشبك أصابع كفيها فوق الطاولة باضطراب واضح: «ما هو؟!».

رد وهو يرفع نظراته الجليدية لوجهها الجميل الذي عشقه: «هناك كاميرات مراقبة في كل زاوية من المحل وإحدى تلك الكاميرات كانت مسلطة عليكما».

لم يكن هناك أدنى شك أو تراجع فيما رآه على وجهها؛ لقد كذب عليها في هذا كما كذب بكلامه عن استفساره من العمال وصدقت هي الكذبتين، فهو لم يذهب صباح اليوم للمحل ولم يتصل بأي عامل كما لا يوجد إلا كاميرتين؛ إحداهما تصور من يدخل ويخرج من بوابة المحل والأخرى في زاوية تحصيل النقود من الزبائن وجزء من طاولة العرض التي تمتد على طول محيط المحل الداخلي، كم هو أمر مضحك هزلي! كذبات صغيرة تفضح أكاذيب عظيمة، وتجلي آخر الأقنعة لتظهر البشاعة التي خلفها، أكمل عمر كذبه الحالية وهو يضيف محدقاً بوجهها الشاحب صدمة: «وقد شاهدت بأم عيني كل شيء، كل ما جرى بينك وبين عامر».

بدت محطمة عاجزة وهو يقول لها أخيراً أمراً صادقاً بالفعل: «كنت سأحترمك قليلاً لو صدقتني القول واعترفت برخصك وقذارتك».

تحركت شفتاها بهمس اسمه: «عمر».

لكنه لم يمنحها الفرصة لتتكلم بل قال بتعابير مشمئزة قاسية بشكل غير مسبوق له: «لا أصدق أنك واحدة من هؤلاء الرخيصات اللواتي نراهن كل يوم يتمسحن بنا ليأخذن ما يستطعن، بائعات الهوى أشرف منكن! على الأقل يعرضن بضاعة معلومة لا يخدعن فيها المشتري».

بدت على وشك الإغماء من شدة اضطرابها، لكنها لم تيأس وهي تحاول التبرير بأسلوب جديد وأكاذيب مضحكة أكثر من سابقاتها: «عمر أتوسل إليك دعني أشرح لك، أنا خفت، أنا لم أقصد، الأمر كان مزحة، مجرد مزحة سخيفة مني، أردت أن أشاكس معه، ظننت أنني أعمل مقلباً طريفاً فيه، ثم ندمت بعدها، ولم أعرف فداحة عملي حتى عدت للبيت، كنت مرتبكة للغاية عندما اتصلت بي وخفت أن تغضب مني فتصرفت بسخافة وأنا أتهم عامر، أنا آسفة أرجوك سامحني».

ينظر إليها يكاد لا يصدق قدرتها على قلب الحقائق في لحظات! فيقول محقراً إياها أكثر: «هل تسمعين نفسك؟! أنت تنتقلين من مستوى ضحل إلى آخر أكثر ضحالة».

بدت نهاوند تصارع لتتغلب على انكسارها أمام إهاناته، وبالوقت نفسه تلاحق اللحظات لتكسب جولة معه كي لا تخسره للأبد تمد يدها عبر الطاولة لتلامس يده وهي تهمس باسمه في توسل: «عمر».

سحب يده بعنف حالما لامسته وهو يقول لها بقسوة: «انظري لوجهي وأنا أقولها، انتهى كل شيء منذ اللحظة أنا من طريق وأنت من طريق»..

تجمعت الدموع في عينيها ولم يتوقف للحظة كي يتساءل أكانت دموع الخسارة أم الغيظ أم جلد الذات ليضيف بوجع عميق وجرح غائر: «المرء لا يختار أخاه أو أخته لا يختار أمه أو أباه؛ لكنه يختار زوجته وأنا أنظر إليك الآن وقد زال كل تبرج براق يخفي حقيقتك، فإني أنظر إلى بشاعة اختياري كأنه مرآة لغبائي».

همست مجدداً ودموعها تنسكب على خديها وصوتها يخرج بحشجة البكاء: «عمر».

هتف بها بصرامة والتهديدات الجادة تنطلق من فمه: «اسمي لا تنطقه على لسانك مرة أخرى هذا آخر حوار لي معك إياك أن تحاولي الاقتراب مني ولو بنظرة، لأنك سترين مني ما يذلك ويهينك وأمام الجميع وإذا رأيتني مصادفة في الجامعة أو أي مكان آخر فكأنك لا تعرفيني ولم تلتقي بي يوماً».

ثم يقف على قدميه وهو يقول منهيًا هذا الحوار البشع ليتصرف كما رياه أبوه سليم تاج الدين القماش مهما حصل فيجب أن يحمي عائلته حتى لو آذوه فقالها لنهاوند بتهديد أخير صريح: «وحذاري يا نهاوند لأنني بت أعرفك.. حذاري محاولة المساس بأي فرد من عائلتي إن سمعت أنك

تتفوهين بأي كلمة تخصهم نسفتك نفساً قسماً بالله لن أرحمك».

تهزنهاوند رأسها يميناً وشمالاً وبدا واضحاً أنها مصدومة بصدق من هذا الذي تراه في عمر القماش ولم تتوقعه فيه قالت بحشجة: «لا أصدق قسوتك هذه! أكل هذا موجود فيك؟! أقادر على أذيتي هكذا؟!».

رد وهو يلتقط هاتفه ومفاتيح سيارته: «كما لم أعرفك جيداً أنت أيضاً لم تعرفيني وأعتقد أننا اكتفينا من المعرفة عند هذا الحد لتتفارق طرقتنا بعدها فلا أنت الزوجة والحبيبة التي حلمت أن أرتبط بها ولا أنا المغفل الذي تسعين لنيل الزواج به كي تحظي بمستوى راقٍ من العيش والترف المادي».

ثم تركها ومضى تاركاً إياها كلوح ثلج والصدمة تشل حركتها وتفكيرها، لا تصدق أنها خسرت كل شيء! لا تصدق أنها خسرت عمر إلى الأبد كم كانت غبية.. غبية كل تصرفاتها كانت غباء مطلقاً.

كانت هيام تشرب الشاي بينما تراقب باهتمام شديد ما يحصل حولها قال علي لأمه وأبيه وهو يلوح أمام وجهيهما القلقين بهاتفه الذي يحمله بيده: «إنه بخير لا تقلقا أرسل رسالة يقول فيها إنه يريد أن يكون بمفرده قليلاً».

فضول ينتاب هيام منذ أن طرقت حماتها باب الغرفة لتفسد على هيام خلوتها مع علي قبل نصف ساعة، لقد كانت نورجان قلقة على ولدها الأصغر عمر الذي لم تجده في غرفته ولا يرد على اتصالاتها، الكل انشغل

عن هيام ووجودها الصباحي هنا يبحثون عن عمر أو يحاولون الوصول إليه
بينما هيام تراقبهم وتحاول معرفة ما يخفونه عنها بحرص يغيظها كأنها
ليست من أهل الدار!

كلمات متناثرة جعلتها تفهم أن هناك خلافاً كبيراً حصل بين عامر وعمر
ليلة الأمس لكن ماذا جرى بالضبط فلا تعرف!

عامر نفسه بدا في حالة لم تره فيها من قبل، كأنه يشعر بالذنب والغضب
معاً ثم اختفى قبل قليل مدعياً أنه ذاهب ليعين الجدة بدخول الحمام، تعترف
أنها في داخلها لم تهتم كثيراً رغم القلق الساري بينهم في الواقع هي
منزعجة لإفساد صلحها مع علي وقد كانت تخطط لأخذه مباشرة كي يعودا
ليبيتهما، وفي النهاية لم يكن قلقهم يستوجب كل ما حصل فعمر ليس بطفل!
لا بد أنه منزعج من أحد تصرفات عامر السخيفة ليتخذ هذا الموقف.

تنظر إلى زوجها وهو يتهامس بالكلام مع أبيه بينما نونة تعد القهوة،
فكرت هيام وهي تنظر لشفتي زوجها أنها ربما كانت جريئة اليوم بما فعلت
لكنها لم تستطع منع نفسها أو الانتظار أكثر، شعرت بتشوش كبير من أشياء
لا تحصى دأبت على قراءتها منذ أيام وآخرها فجر اليوم، بعضها رهيب
وموجع وخائق وبعضها أثار لديها أفكار كثيرة لتنفيذها مع علي، ومع اكتمال
شروق شمس اليوم شعرت أن رأسها تعباً بالكثير وتحتاج لتفريغه؛ لكن
الخوف الشديد هو ما حركها فعلياً لتركب سيارتها وتأتي إلى زوجها

بنفسها، خاصة بعد الحلم المفزع الذي انتابها ليلة الأمس أوجعها قلبها مجدداً وهي تتذكر ذاك الحلم ثم أخذت تعاند الوجد وتمحو صور الحلم من رأسها وهي تذكر نفسها أنه فقط عقلها الباطن الذي تلاعب بخيالها أثناء النوم ليجد متنفساً في رسم حلم كهذا يجسد أبشع مخاوفها أن يتركها علي.. أن يتوقف عن حبها، وهذا مؤكد طبيعي بعد دخولها تلك المجموعة والقصص الرهيبة التي قرأتها في منشورات العضوات فيه، جعلت هيام تشعر بالرعب الخائق كأنها تعيش التجربة مع كل امرأة بل إنها في أحد المنشورات أخذت تبكي بحرقة وهي تتخيل نفسها تكتشف خيانة زوجها مع أقرب صديقاتها كتلك المرأة المسكينة؛ لكن عند الفجر عادت لتقرأ بذهن مختلف ركزت في المنشورات أكثر وفي التعليقات لتتعلم كيف تفهم الإشارات الدالة للخيانة، وأهم ما تعلمته ألا تترك زوجها وحيداً ولا لليلة واحدة، أن تراقبه دون أن يشعر بها ودون أن تخنقه بغيرتها وشكوكها، تعلمت أن تبحث بصمت في الأماكن الصحيحة، أن تبحث في ملابسه، في عطر بشرته، في أثر متروك على جسده، تعلمت كل هذا في ساعات قليلة وحفظتها عن ظهر غيب بل نفذتها صباح اليوم وهي تعاشر علي وعيناها تطوفان بجسده بحثاً عن أي إشارة أو أثر، وكم ارتاحت لأنها لم تجد شيئاً مريباً، فكانت خلوتهما العاطفية من أجمل ما حصل بينهما منذ زواجهما، خاصة مع لهفة علي وشوقه الواضح؛ لكنها لن تأخذها الغفلة؛ فبعد كل ما قرأته من قصص في تلك المجموعة وصلت هيام لنتيجة واحدة أن كل

الرجال يخونون إن أُنْتهم الفرصة، وأنها في الواقع حرب بين النساء في فرقتين، فرقة تسعى لسرقة الرجال وفرقة تسعى للحفاظ على أزواجهن وبيوتهن، وهي مع هذه الفرقة ستقاتل.. ستقاتلهن جميعاً ستقاتل حتى رغبات زوجها إن حادت بعيداً عنها، علي ملكها.. ملكها وحدها.

«هل أنت بخير يا هيام؟ ما بك تحديقين بغرابة هكذا؟!».

تنبعت هيام لوقوف علي قبالتها ونظراته المندهشة لوجهها وسؤاله الخافت المطروح بنبرة عجب، ابتسمت له، بل شعت ابتسامتها، منذ اليوم لن يكون هناك إلا الابتسام لن تخسر علي مهما كان الثمن؛ لكن ابتسامتها لم تعطِ الأثر الذي أرادته وقد بالغت فيها ليعبس علي وينبهاها بالقول الهامس: «ما بالك يا هيام تبتسمين بابتهاج مبالغ فيه هكذا؟! ألا ترين نونة منزعة وعلى وشك البكاء؟!».

توردت قليلاً من هذا التأنيب وهي تنقل نظراتها ناحية الموقد، حيث تقف نونة مع العم سليم الذي يخفف عنها بهمهمات غير مسموعة بينما حمايتها تبدو فعلاً متوترة وتوشك على البكاء، سارعت هيام للاعتذار وهي تقول بهمس خافت: «آسفة حبيبي سرحت رغماً عني كنت أفكر فقط بصباحنا كيف ابتداءً».

ازداد عبوس علي فأدركت أنها أخفقت بالتعبير مجدداً لتحاول الإصلاح وهي تبدي اهتماماً متصنعاً وتتساءل: «ماذا حصل بين عمر وعامر؟ ربما

يجب أن يعتذر له عامر كي يعود للبيت».

تدخل الجدة للمطبخ في هذه اللحظة مستندة على ذراع عامر لتسمع جملة هيام الأخيرة لتقول الجدة ببعض الصرامة الموجهة إلى زوجة حفيدها: «إنه أمر يخص الأشقاء يا ابنتي والنساء لا يتدخلن فيه».

زمت هيام فمها لتلتزم الصمت بغير رضا، بينما تبادل علي النظرات مع جدته ليتورد قليلاً وهو يقرأ عدم رضاها هي الأخرى.

لقد كان يعرف أسباب جدته كأنها تقول له (لماذا تعجلت الصلح يا ولدي) حتى دون نظرات الجدة هو في داخله يشعر ببعض الندم لما حصل صباح اليوم، لم يكن يفترض أن يضعف وينساق خلف مشاعره بهذا الشكل، على الأقل كان يجب أن يوقفها ويتكلما أولاً في أسلوب حياة آخر بينهما؛ حيث لا مكان للشكوك والغيرة المرضية ورغم أن هيام تبدو مختلفة بطريقة لا يفهمها فإنه يملك من العقل ليفهم أن ثلاثة أيام فراق ليست الحل للمشكلة بينه وبين زوجته، وليست كافية كي تجعل هيام تتخذ قراراً جدياً بالتغيير، فمن الأمور التي عرفها عن هيام بل وتعودها هي سرعة اتخاذ القرارات ثم سرعة التراجع عنها.

رن هاتف هيام فجأة لتشهق باستدراك وهي تقول بحرج: «نسيت أن أخبر أمي أنني هنا! لقد غادرت صباحاً دون أن أعلم أحداً هناك».

تتحرك هيام متعجلة لتغادر المطبخ وهي تفتح الخط مع أمها، بينما

الجدة تعوج فمها يمينا وشمالاً ثم تقول لعامر: «أجلسني على الأريكة بُني قلبي يوجعني على عمر ليتني فقط أسمع صوته».

يفعل عامر ما طلبته الجدة وتعايير وجهه جامدة، رفعت وجهها إليه وهي تستقر على الأريكة فتحنو بالكلمات وهي تمد كفها لوجهه وتقول له: «أنا لا أعرف لماذا تشاجرت معه لكنني أعرف قلبك سيحنو على أخيك».

يهز عامر رأسه ثم يقول: «أنا ذاهب للمحل فربما يكون هناك».

جاءه صوت والده قائلاً بحزم: «لا أريد مشاكل بالمحل يا عامر إنه مكان رزقنا، أعتمد عليك لتجيد احتواء شقيقك».

تمتم عامر بالجمود نفسه: «لا تقلق يا حاج سأصرف بما يرضيك».

ليعلق سليم بمعانٍ مبطنة: «أنا لست قلقاً من هذا لأنني أعرف أن بإمكانني الاعتماد عليك فيه بل قلق مما حصل بينكما من الأساس ليجعلكما تتشاجران هكذا أنت وشقيقك».

قال عامر باقتضاب: «دعني أتصرف أبي لقد كبرنا كفاية لنحل مشاكلنا مع بعض بأنفسنا».

اكتفى سليم بنظرة ممعنة في ولده، بينما يتحرك عامر ليغادر بصمت والعيون تلاحقه، حتى سارعت أمه لتهرول خلفه وهو يخرج للمرأب فتقول له ممازحة كي تسري عنه: «لا تتأخر يا عريس سأكون بمزاج رائق مخصوص

لأجلك الليلة».

كان يفتح باب سيارته بينما يسدل أجفانه ليقول لأمه بخفوت وابتسامة صغيرة تعلو ثغره: «المهم أن لا تغاري كثيراً يا نونة». تميل برأسها وترفع شفيتها لتطبع قبلة على خده وهي تقول له: «الآخر عمري سأظل أغار منهن جميعاً أولئك الخاطفات القاسيات كيف يجرؤن ويخطفن قلوبكم من حجري».

يضحك عامر ثم يصعد لسيارته كي ينطلق بها ومقصده محل القماش الفرع الثاني، كان واثقاً أن عمر سيكون هناك عاجلاً أم آجلاً.

على رأس الشارع رآها عامر تسير كما الأمس؛ لكن في الاتجاه المعاكس لا بد أنها في طريقها للجامعة، خرجت تنهيدة طويلة من صدره وهو ينظر إليها بعينين مرخيتي الأجفان تتدفق خفقات قلبه وتعزف على وقعها أطراف أصابعه، لم يتحرك بسيارته وانتظرها حتى وصلت قريبة من مقدمة سيارته ثم عبرته دون أن تلتفت إليه، جادة في تعابير وجهها ومشيتها، جادة في ملبسها البسيط المحتشم، جادة حتى في عقدة شعرها، وبدت اليوم تحديداً أكثر جدية من أي يوم رآها فيه يراها تبتعد لآخر الشارع الفرعي حتى تصل منه إلى الشارع العام فتمتم بصوت أجش حمل ذبذبات قلق: «إياك يا حبيب أن تكوني جادة في رفضي أيضاً».

إنه واثق أنها رائته كما هو واثق أنها ترسل له رسالة خفية أن (أبقى بعيداً)!

في الحافلة الصغيرة تجلس حرير ساهمة شاردة بتفكير عميق صوت المذياع يعلو بإحدى الأغاني الريفية للمطرب الجنوبي (داخل حسن) بشجن دافئ وشمس منتصف الزبيع الصباحية تدغدغ صفحة وجهها كأنها تحاول فك تعابير الجدية التي تلبست ملامحها، لقد رآته رأت حتى عينيه كيف تنظران إليها، تطوفان حولها بإلحاح الطلب وجدية المقصد، عبست من استجابة داعبت قلبها وتلاعبت ببعض خفقاته رغماً عنها؛ لكن عقلها أبى الاستجابة.. أبى إقرار هذا التأثير من القلب، يكفيها رؤية وجه أبيها صباح اليوم لتدرك أن الاستجابة بعقلها خط أحمر، تذكرت تعابير وجهه وقد تغيرت ما بين مساء البارحة إلى صباح اليوم، ليسود التوجس والتفكير القلق مكان الاستبشار وتتعكر الفرحة المحتملة بزواج ابنته فتصبح مصدراً للهواجس والمخاوف والحسابات المعقدة التي تناسب طبيعة شخصيته غير المرنة التي تميل للسوداوية، لقد كانت تعرف هذا وأكثر أنها تعرف القادم من أبيها وكيف سيكون تكاد تراه وتسمعه؛ لكن المجهول لها حقاً هو القادم من عامر هذا الدخيل الجريء المقتحم لعالمها الهادئ، عالم لا يحتمل اختلالاً بتوازنه وعامر القماش يخل بتوازن أي عالم يدخله.

محل القماش / الفرع الثاني

دخل عامر المخزن وعيناه تبحثان عن أخيه ليجده في أحد الأركان يصف لفات القماش لم يلتفت إليه عمر رغم يقين عامر أنه علم بدخوله المخزن، تنهد عامر بإحساس الذنب ثم تقدم من شقيقه الذي يتجاهله حتى وقد بات قريباً منه، مرت دقيقة كاملة وعامر يقف مكانه يراقب عمر بصمت بينما عمر لا يبدي أي استعداد حتى للنظر إليه، سأل عامر أخيراً: «ألن تكلمني؟».

رد عمر بوجه جامد دون أن يرف نظره ناحية عامر: «أنا مشغول بالعمل».

يزمّ عامر فمه ثم يقول بحزم: «عمر يجب أن نتكلم».

يحمل عمر لفة كبيرة فوق كتفه ليرصصها جوار لفة أخرى وهو يرد: «انتهى كل شيء ولا أريد الكلام فيه، نهاوند انتهت بالنسبة لي أما أنت».

يعقد عامر حاجبيه بينما يكمل عمر جملته بالأسلوب الجامد البارد نفسه: «فمنذ اليوم كلامنا في العمل فقط».

لم يحتمل عامر أكثر فيمد يده ليمسك ذراع شقيقه الأصغر ويقول بانفعال: «لماذا؟! أكل هذا لأجل تلك التافهة الرخيصة».

للحظات كان عمر مطرقاً يحدق بكف أخيه التي تتشبث بذراعه ثم أخيراً

قال بصوت فاح بالآلم وهو يرفع عينيه لعامر: «بل لأنك صغرتني وكسرتني
لقد تعديت كل الخطوط لم يكن يحق لك هذا».

تلك النظرة في عيني عمر أوجعت قلب عامر ليأكله الندم ويعترف معتذراً
من صميم وجدانه: «أنا آسف أعترف أنني ربما بالغت؛ لكنني لم أقصد
كسرك أو تصغيرك».

ثم سحبه بقوة ليأخذه بين أحضانه لكن عمر دفعه بحركة عنيفة وهو يهتف
بنبرة مشحونة: «اتركني لا أطيق حتى ندمك واعتذارك». دخل سليم ليرى
ويسمع ما يجري بين ولديه فالتزم الصمت وهو يرى عمر يدفع عامر ويرفض
اعتذاره فيرد عليه عامر بصبر: «أنا سأتركك تأخذ الوقت الذي تحتاجه حتى
تسامحني حتى تنسى».

في اللحظة التي أوشك فيها عمر على الرد بقسوة تنبه لدخول والده
فأطرق في صمت وقبضته تتشنجان إلى جانبي جسده، التفت عامر بينما
الأب يقول بهدوء: «أمامكما خياران إما أن تحلا هذه المشكلة بينكما
كناضجين أو أنني سأدخل».

زاد توتر عمر وهو يشعر بالضغط يفوق قدرته اللحظة فسارع عامر
لإسناده وهو يقول لأبيه بوعده: «لا تقلق يا حاج ولن يكون إلا ما يرضيك».

راقبت عينا سليم كلتي ولديه لتركز على عمر المطرق الصامت فيحثه
بالقول: «أنتظر ردك على كلامي يا عمر».

مرت لحظات طوال وسليم يشعر بالضعف أمام أصغر أولاده عمر يود لو يذهب إليه ويطبّط عليه ليخبره أنه يستحق أفضل فتاة في البلد، لا يعرف سليم سر ضعفه نحو عمر بالذات هل لأنه الأصغر أم لأن فيه شيء من الولادة يخلب لبه كأب هل ربما شبهه بأبيه رحمه الله؟!

قال عمر أخيراً: «فقط دعوني أحل شؤوني بطريقتي هل هذا كثير؟! أريد الانفراد بنفسي أعيد حساباتي».

صمت سليم بتفكير يقيم رد ولده ثم قال أخيراً وهو يستدير ليغادر: «خذ وقتك لكن تذكر هنا في هذا المحل وأمام الناس أنت سب أخيك عامر فلا تدع أي شيء مهما كان يكسر شوكتكما».

لم يقل عمر شيئاً بينما يغادر سليم مودعاً وبعد لحظات عم الصمت من جديد ليتحرك عامر هو الآخر كي يغادر المخزن وهو يلقي بضع كلمات لشقيقه: «أعلم أنك لن تأتي اليوم للتعرف على عائلة حرير لكنني أردت أن تعلم أن وجودك سيحدث فرقاً كبيراً عندي».

آخر المساء

دخل عامر إلى غرفته يكتنفه شعور كئيب خيم على مزاجه واعتصر قلبه للتو فقط عادوا من بيت حرير بعد جلسة تعارف (مفترضة) بين العائلتين، ولم تكن كذلك بالفعل، فوالد حرير كما يبدو جلياً قد أجرى تحرياته عنهم،

ولم تعجبه النتائج التي وصل إليها تلك النظرة في عيني والد حرير لم تكن رفضاً وحسب بل قلقاً واستعداداً شرساً للدفاع وكأن عامر أتى ليؤذي ابنته حرير، الأمر صعب كما توقعه وقدره بل عليه الاعتراف أنه أصعب مما ظن، منذ أن استقبلهم أسعد الجنبابي مع زوجته عند باب البيت الخارجي وقد شعر عامر تلقائياً بالرفض يشع من الرجل لم يغفل عن عيني والد حرير من خلف نظارته الطبية كيف انصبتا أولاً بنظراتهما المتفحصة ببعض التوجس العدائي الخفي على عامر، ثم انتقلتا إلى نونة وكأنه كان يتأكد من معلومة في رأسه فيحصل على ذاك التأكيد ويتخذ من لحظتها موقفاً منكمشاً وترحيباً متحفظاً، أخذ عامر يفك أزرار قميصه وهو ساهم عاقد الحاجبين يفكر كيف دارت تلك الجلسة في حوار عفوي للتعارف بين العائلتين؛ لكن في باطنه شعر عامر أنه يسير على خيط رفيع وما زالت عينا والد حرير تترصان به في تيقظ دفاعي!

خلع عامر قميصه ببعض العنف فهو لم ير حرير على الإطلاق الليلة، لقد اجتمع الرجال في غرفة الضيوف والنساء في غرفة أخرى يظنها غرفة المعيشة، والده الحاج سليم كان دمثاً حلو الكلام وقد وجد أسعد الجنبابي صعوبة في عدم مجاراته بالحوار الدافئ ليتبادل معه الكلام ببعض الأريحية حتى إنه انسجم مع علي وتبادلا آراء عن أحوال البلد؛ لكن حالما يصل إلى عامر يعود إلى وضعية الدفاع المبطن نفسها والتحفظ الظاهر، ولم يكتفِ والد حرير بهذا بل كانت له إشارات التي لا تخطئ لقد أوصل الرسالة قبل

إعلانها الرسمي وعامر واثق أن الإعلان لن يطول أكثر من يوم واحد.

تحرك عامر ناحية سريره ليلقي جسده عليه ثم يغمض عينيه يحاول البحث عن بعض الاسترخاء ليفكر ويعيد ترتيب الأمور في ذهنه من جديد.

كانت نورجان تخلع عنها إكسسواراتها وهي تقول ببعض الحنق: «هيام لم تعجبني البتة الليلة كانت ضامته ساهمة ولم تتكلم إلا بضع كلمات مقتضبة مع حرير.. الحمد لله الجدة كانت خير معين لي».

نظرت نورجان عبر المرأة إلى زوجها وهو يخلع سترته الخفيفة وقد بدا غارقاً في تفكير عميق ولم يركز بشرثرة زوجته الحانقة، شعرت نورجان بالقلق فهذا كان حاله منذ مغادرتهم بيت عائلة حرير حتى عامر فضل العودة مشياً على الأقدام مدعياً أن الجو الربيعي منعش له، استدارت نورجان بجسدها وتساءلت ببعض القلق: «ما بك يا سليم؟ هل الأمور كانت سيئة؟».

باختصار صادم قال سليم وهو يلتفت بوجهه إليها: «والد حرير لن يوافق».

احمرت نورجان تلقائياً وطبعها الغاضب يفور كالمرجل وهي تهتف: «ماذا؟! لكن لماذا! لا تقل بسببي لا يعقل أن يرفض عامر لأنه رأيي أشاجر في الشارع!».

كان سليم يعتقد حاجبيه الآن وهو يرد بتفكير: «لا أظن هذا تحديداً ربما له

تأثير وقتي عليه لكن لا أظن هذا ما يقلق الرجل، لقد لمح تلميحات كثيرة توحى بالرفض لشخص عامر، كما أن النظرة في عينيه قالت الكثير أنا تاجر وأعرف نظرة الرفض».

عقدت نورجان حاجيها وهي تتساءل: «لكن عن أي شيء لمح بالضبط؟».

رد سليم ببعض الضيق: «لمح عن سمعة الشاب وكم هي مهمة كسمعة البنت وأن العائلات المحافظة لا ترضي لبناتها شباناً لهم مغامرات لا أخلاقية».

هتفت نورجان بحمائية: «لكن.. لكن ما هذا الكلام؟! عامر ليس بهذا السوء!».

بهذوء ومواجهة للواقع صرّح سليم: «أسعد الجنابي لن يوافق يا نورجان إنه رجل ليس بمرن الطباع ولا سهل الإقناع رأيت وتعاملت مع أمثاله كثيراً في حياتي، الليلة كانت نظراته متشككة متوجسة وحواراته مقتضبة كأنه يمنحني مساحة محددة ضيقة كضيف في بيته لا أكثر، لم يكن هكذا عندما كلمته عبر الهاتف بالأمس فقد كان مرحباً ودوداً».

تتقبض يدا نورجان إلى جانبها وهي تزم شفثيها بحلق ليضيف سليم بتوبيخ ضمنى إلى عامر: «لا بد أنه سأل واستقصى كله بسبب ولدك وشقاوته حذرته مراراً مما يفعل بينما هو يكتفي بالمرأوغة والمزاح معي وهذه هي

النتيجة فليتحملها ويواجه الصعاب الجمّة التي ستقف بوجه رغبته الزواج بالفتاة التي أحبها».

شعرت نورجان بالقهر وألم في قلبها لأجل ولدها فتقول بعنفوان: «سأزوجها له رغماً عن أنف والدها، لن أسمح لأحد بكسر قلب ولدي».

فحذرها سليم بالقول الصارم: «إياك أن تفعلي أي تصرف متهور طائش يا نورجان يكفي ما فعلته ولم أحاسبك عليه حتى اللحظة».

تكتفت نورجان وحادت بوجهها جانباً في حق، بينما يضيف سليم بالنبرة نفسها: «أي تصرف غير مسؤول منك لن يكون في صالح عامر: حرير لها أب صعب ويده أمر ولدك فبدلاً من التناطح معه يجب إقناعه باللين والصبر».

ثم تركها ومضى ليخلع ملابسه بينما نورجان يأكلها الندم عما فعلت ويوجعها عجز التصحيح، كم هي غبية وأوقعت عامر في مأزق بسوء طباعها غير المنضبطة!

كانت تجلس على حافة سريرها تمشط شعر أختها الصغرى سدير عندما دخل عليهما والديهما، المشط ما زال في يدها وعيناها تنظران تلقائياً وباهتمام وتركيز إلى عيني أبيها تحديداً، وكما توقعت.. هو الرفض لعامر القماش، نخزة صغيرة في صدرها لكن شفيتها منحنا أباهما ابتسامة طمأنينة

وثقة، لقد كانت تنتظره وأقنعت أختها الصغرى كي تمشط لها شعرها الطويل وفي داخلها كانت تبحث عما يمنحها استرخاء قبل دخول أبيها عليها، رغم أن الجلسة النسائية في غرفة المعيشة كانت ناجحة ومحبة لكن عين حرير كانت تطرف على الدوام ناحية باب غرفة الضيوف المغلقة، لقد كانت تشعر أن ما يجري هناك مختلفاً، تعترف حرير أنها غيرت من نظرتها لوالدة عامر واكتشفت كم هي امرأة ساحرة جذابة، ربما تجاوزت منتصف الأربعين لكنها محتفظة بألقها وجمالها كما أن لها كاريزما خاص يصعب وصفها لكنك لا تملك إلا أن تعجب بها وتنجذب إليها، أما الجدة فقد كانت أقرب لنوعية أمها امرأة عادية طيبة لا تهتم إلا براحة وسعادة أبنائها، وأخيراً هيام زوجة أخي عامر الأكبر فلم تستطع حرير فهمها بالضبط شابة غريبة بعض الشيء وقد بدت في ملكوت آخر بعيدة عما يحصل من حولها، بل بدت وكأنها نسيت أنها وسط أناس تتعرف عليهم للمرة الأولى لتسرح بعيداً عنهم ولا تكلمهم إلا لمأماً.

انتقلت نظرات حرير إلى أمها فابتأست لفرحتها البسيطة التي لن تتم، بدا جلياً أن أمها كانت سعيدة للغاية وتتأمل الكثير بعد لقاء الليلة ولم تفتن إلى ما وراء حالة زوجها الذي عاد عصر اليوم بوجه متجههم وحاجبين معقودين، وطلب تركه بمفرده حتى يحين موعد لقاء الضيوف.

خرجت حرير من أفكارها الصامتة على صوت أبيها وهو يأمر أختها الصغرى بالقول: «اذهبي إلى غرفة أخيك خلدون شاركه اللعب بتلك

الألعاب الإلكترونية المجنونة التي تستهويكما ولا تعودني حتى آذن لك أريد أن أكلّم أختك».

أشفقت حرير على أختها الصغرى التي هزّت رأسها في طاعة (خوف) ما زالت صغيرة لتستوعب شخصية أبيهم وتستبدل الخوف بالاحترام والتفهم، حال مغادرة سدير جلس والدها جوارها على السرير، بينما ظلت أمها على وقوفها قريباً تنتظر كلمة زوجها أولاً ليبدأ أسعد الجنابي كلامه بالقول: «الحاج سليم ذكر أن ولده الأصغر عمر معك في الجامعة ذاتها.. فهل تعرفينه؟».

ردت حرير بهدوء وحذر خفي حتى لا تقول أكثر مما يتحمّله الموقف الآن مع أبيها: «أعرفه بالشكل والاسم فقط يا أبي ليس لي علاقة معه إنه في قسم آخر».

يعقد والدها حاجبيه بتفكير بينما يقول كأنه يكلم نفسه ويفسر بعض النقاط برأسه: «إذن هكذا رأيك شقيقه عامر أم هل ربما لمحك في الحي؟! حسن لا يهم».

ثم عاد باهتمامه ليوجه كلامه إلى ابنته بحزم مخفف: «المهم الآن هو طلب عامر كي يتزوجك وأقولها لك دون ذرة شك إن هذا الشاب لا ينفعك لقد قضيت النهار أسأل عنه وعرفت الكثير ولم يعجبني ما وصلني، صحيح هناك من مدح به بل مدح بعائلة القماش أنهم أولاد أصول ونخوة لا أستطيع

نكران هذا، لكن عامر تحديداً دوناً عن شقيقه له سمعته مع النساء». .

قال الكلمة الأخيرة وكأنه يتحرج ويتحفظ على كلامه بأمور مشابهة مع ابنته فتطرق حرير قليلاً بينما يتنحج الأب ليكمل بحزم أشد وقلق أكبر: «في الواقع أنا غير مرتاح البتة لنوعية العمل الذي يزاولونه من الأساس يتعاملون مع النساء دوماً وهذا يفتح أبواب الشيطان ويضعهم في الفتنة دوماً».

المشط في يدها ولا شعوراً تمرر سبابتها فوق أسنانه المستوية بينما يكمل والدها بصرامة هذه المرة ونبرة قاطعة: «كل من قال عنه إنه ابن أصول وشهم لم ينكر أنه شاب مستهتر مع الفتيات وهذا يكفي لرفضه هذا الصنف لا ينفعك هداه الله وأبعده عن طريقك».

رغم أن والده حرير حذرة دوماً كي لا تثير حنق زوجها عليها فلا تخالفه في رأي؛ لكنها لم تستطع منع كلماتها وهي تقول بدفاع: «لكن يا ابا خلدون الشباب لهم شقاوتهم و...».

قاطعها أسعد بنظرة نارية ونبرة حانقة: «ابنتي أنا لا تتزوج ممن لديه (شقاوة) كما أن الأشقاء الثلاثة لا يعجبونني معروفون بالعنف ويحبون المشاكل والشجارات ولا أستغرب هذا منهم! أمهم رأيتها بأم عيني تتشاجر مع الشباب إنها المرأة نفسها التي حكينا لك عنها أتذكرين قبل فترة؟ ماذا سيجري إن اختلفت مع ابنتك؟! أستلکمها على وجهها أم ستطرحها

أرضاً؟!».

بدت والدة حرير مصدومة لاكتشافها هذا من زوجها لكن حماسها أكبر من صدمة كهذه وقد وجدت في عامر (عريساً مميزاً) لابنتها فتحاول الدفاع مجدداً بالقول: «لكن يا حاج المرأة الليلة كانت لطيفة وهادئة جميلة وراقية والجدة كالبلسم امرأة جنوبية أصيلة طيبة وبسطة وروح حلوة أحببتها للغاية و...». عاود أسعد مقاطعة زوجته وهو يرفع كفه قائلاً: «انتهى لا أريد جدالاً ولا كلاماً زائداً أنا قررت وانتهينا سأبلغ الحاج سليم في الغد أن ليس لابنه قسمة ونصيب بالارتباط بحرير».

سبابة حرير جمدت فوق أسنان المشط ووجه عامر يتمثل لها اللحظة وهو يخبرها عن سر عائلة القماش في لمس الحرائر، حاولت الأم وهي لم تفقد الأمل بعد من إقناع زوجها: «يا أبا خلدون أرجوك: «لكن انزعاج أسعد من زوجته تفاقم فنهرا بخشونة هادراً بصوت مرتفع: «صمتاً قلت انتهى الجدل اتركيني لوحدي مع ابنتي».

تنهدت الأم بإحباط قبل أن تنفذ أمر زوجها فتسحب وهي تتمتم بطاعة: «حاضر».

غادرت الأم مخدولة بل بدت مقهورة لضياح فرصة كهذه، فرصة تحلم بها أي أم لابنتها، حالما خرجت وأغلقت باب الغرفة خلفها قال الأب بنبرة مختلفة أفشت عن الكثير مما يدور برأسه: «أريدك أن تعرفي أمراً مهماً يا

حرير التوافق شيء في غاية الأهمية للزواج، بل الأهم وأساس النجاح أن يكون زوجك من نفس بيئتك وطباعك، دون هذا التوافق فالزواج سيتحول إلى كارثة».

رفعت حبيب عينيها إليه فرأت في عينيه قلقاً عظيماً جعل قلبها يذوب حباً له رغم ملامحه الصارمة وتعابير الحازمة ونبرة صوته الجافة فإنها تكاد ترى خوفه عليها بل عليهم جميعاً، كل كلمة قالها اللحظة كانت تعرفها وكأنها كررتها هي قبل أن ينطقها أبوها لم يكن يدرك أنها تحفظها عن ظهر غيب لسنوات كان يعيد على مسامع أولاده الكلام نفسه حول أهمية التوافق حتى إنها في داخلها كانت تشعر أحياناً أنه يقنع نفسه أو ربما يعذبها فتساءل إن كان والدها ما زال يحب زوجته الأولى طليقته؛ لقد تزوجا بشكل تقليدي، لكنه أحبها كثيراً، ورغم هذا فإن الحب لم يكن كافياً ليزيد فوارق الطباع المتنافرة بينهما، حتى وقع الطلاق حلاً وشرّاً لا بد منه، حزن غريب شاب روحها وهي تقولها بطاعة كي تريحه من بعض مخاوفه في الحياة: «افعل ما تراه صحيحاً أبي».

فكانت مكافأتها استرخاء جسده المشدود وانفراج أساريره ونظرة رضا منه وهو يقول كأنهما وانزاح عن كاهله: «بارك الله فيك يا ابنتي وجعل الأفضل من نصيبك».

يقود علي سيارته على مهل وقد كان منزعجاً من أمور شتى جعلته يلتزم الصمت طوال الطريق، فمن جهة أزعجه غياب عمر عن جلسة التعارف مع عائلة حرير مفضلاً الخروج برفقة أصحابه (كما ادّعى) ومن جهة كان منزعجاً من سير الأمور في بيت أسعد الجنابي، تلميحات ذاك الرجل أغضبته، لقد كان يقصد عامر بكلامه عن الشباب (سيئ السمعة) وهذا لم يعجب علي حتى لو كان حقيقياً عن أخيه، لم يكن يفترض برجل مثل مقام أسعد الجنابي وعمره أن يسيء لضيوفه ولو بشكل غير مباشر أو كلمات مبطنة توحى أنها عمومية ولا تخص أحداً بعينه، التفت علي إلى زوجته الساهمة ليسألها فجأة دون مقدمات: «أخبريني هيام كيف كانت حرير؟ أنا لم أرها حتى».

جاء رد هيام عليه غريباً ومستفزاً بطريقة يجهل أسبابها: «في الواقع لم أظن أن عامر سيتزوج فتاة كحرير».

رغم استفزازه من أشياء كثيرة اليوم ويعترف اللحظة أن زوجته إحدى هذه (الأشياء) إلا أنه لم يظهر ما يعتمل داخله ويكتمه بشق الأنفس ليسأل هيام باختصار: «لماذا؟».

ردت هيام وهي تتلاعب بخصل شعرها المجددة التي تتركها حرة طليقة منذ حضورها الباكر إليه في الصباح: «لا أعلم هي جميلة؛ لكن بطريقة ناعمة هادئة إلى حد الغموض والغيظ، دوماً تخيلت عامر مع فتاة وقحة لا

مبالية مبهرة الجمال لترضي ذوقه وغروره».

هل يشعر بالندم لأنه سألها؟! أجل يشعر كذلك وأكثر بطريقة ما شعر أنها تصف عامر ضمناً بالسطحية والتفاهة! قال بهدوء ظاهري وهو يدخل بالسيارة إلى الشارع الفرعي حيث بيتهما: «أنت إذن لا تعرفين عامر».

ثم التفت إليها بنظرة ذات معنى توبيخي مبطن: «حرير خطفته من النظرة الأولى لا بد أنها شديدة التميز لتخطف عامر تحديداً بهذا الشكل غير العادي».

شعر بغيرتها تشتعل في عينيها لأنه يمتدح من يرغبها أخوه كزوجة فأوشك على أن ينفجر من غيظه لكن سرعان ما تغيرت نظرتها إلى شيء مختلف لم يفهمه ثم ابتسمت، يضيق علي عينية بتفكير غير مريح وهو يعود بنظراته للشارع أمامه اليوم بدت هيام وكأنها على غير ما يعرفه فيها كأنها تمثل دوراً جديداً عليه وعليها هي أيضاً!

أدخل مقدمة السيارة عمودية على بوابة البيت ليوقفها بشكل مؤقت أمام البوابة المغلقة قبل أن يترجل كي يفتحها ثم عاد ليقود السيارة ويدخل بها إلى عمق المرأب، فجأة علقت هيام بصوت خافت كأنها تتسلى: «حقاً عجيب ما قلته عن عامر أنا لا أفهم الرجال».

تساءل بنبرة ساخرة بعض الشيء وهو يطفئ محرك السيارة تماماً: «حقاً؟ تعبير غريب من امرأة متزوجة منذ سنتين!».

التمعت عيناها وهي ترد بحاجبين مقوسين بطريقة استفزازية دون أن تشعر: «تخيل! سنتا زواج من رجل مثلك ولا زلت أجهل تفكير الرجال لكنني سأظل أحاول وأبحث وأتعلم لأجلك أنت» .

ينظر إليها وما زال شعور الغرابة يسيطر عليه ويغيظه بشكل كبير لتقترب هيام بوجهها منه كثيراً حتى كادت أن تلامس شفتيه بشفتيها وهي تهمس: «وقد بدأت فهم بعض الدروس المهمة التي تهكمكم يا معشر الرجال» .

ينظر لوجهها ويشعر بضيق، كلامها منفر والمعاني المبطنة يشعرها فجأة كأنها مأخوذة من تلك الروايات الرخيصة، لم يعد يعرف ما يجري معها على الإطلاق؟! تساءل وهو يحاول الوصول لكنها: «أي دروس؟» .

ابتسمت وهي تهمس بنبرة إغواء: «أنتم لا تشبعون من ال...» .

ثم أطبقت شفتيها فوق فمه في قبلة حميمة عميقة للغاية ذكرته بقبلاتها الحارة وحماستها في الفراش صباح اليوم ثم ابتعدت لاهثة من الإثارة وهي تكمل بلمعة شديدة في عينيها: «وأنت منذ أيام دوني» .

حشجة صوتها جعلته يتوه معها ولم يعد يعرف هل هي تغويه بطريقة جريئة جديدة في علاقتهما أم أنها تختبره وتراه إن كان سيستجيب بعد فراقهما لأيام، عادت لتقبله بتلك الحرارة اللاهبة ودون إرادته كان يستجيب كرجل؛ لكن في داخله كان قلبه ينفر مما تفعله معه هناك أمر خاطئ للغاية، كأنها تنفذ خطة عمل؛ لقد أخطأ باستسلامه لها صباحاً بل أخطأ لأنه استسلم

لشوقه وحبها لها، ثم فاجأته وهي تفك أزرار قميصه لتدس أصابعها تلامس صدره وفي الوقت نفسه تنبه لحركة يدها الأخرى وهي تفك أزرار قميصها الحريري الجذاب فهاله ما تفعله ليبعد فمه عن فمها بحدة ثم يقول لاهثاً مزمجرأً بعبوس شديد: «هيام هل جنت؟! البوابة ما زالت مفتوحة وقد يرانا الجيران من الأسطح، أغلقي أزرار قميصك».

كانت ترتعش وبدت للحظة على وشك التراجع والانكماش لكنها فاجأته مجدداً وهي تلامس أزرار قميصها دون أن تغلقها؛ لتهمس له بصوت مبحوح ودعوة أكثر جرأة وبطريقة غير مسبقة طوال علاقتهما الزوجية: «أغلق البوابة وعد إليّ ولن يرانا أحد من الأسطح في هذا الليل، أريد أن نجرب الحب في السيارة، لم نفعلها من قبل، سيكون أمراً مثيراً لك هذا التغيير؛ أليس كذلك؟!». «

لا يعرف إن كان غاضباً أكثر أم مصدوماً؟! بذل مجهوداً مضاعفاً وهو يلجم انفعاله ويقول ببرود جليدي: «بل سندخل للبيت ونؤجل مشاريعك الغريبة لإثارتي الآن، يجب أن نتكلم».

لكنها لم تكن تفهم! أو لا تريد أن تفهم، فاجأته وهي تقفز لحضنه تحاول فك ما تبقى من أزرار قميصه وهي تهمس بإلحاح قد يوحي بالنشوى؛ لكنه في الواقع كان إلحاحاً يائساً مثيراً للشفقة: «لا بل الآن! سنفعل هذا قبل الكلام، وهنا تحديداً في السيارة، أنا مشتاقة لك، وأظنك تحتاج لهذا أكثر

مني».

لم يستطع كبح غضبه أكثر، فأمسك معصميهما بخشونة أوجعتها فيوقفها عنوة عما تفعله وهو يزجرها بالقول: «هيام كفى! لا أريد هذا وأنت أيضاً لا تريدنه هكذا».

كانت تلهث وهي تحشر نفسها بينه وبين المقود وقد ظهر على وجهها انفعال شبه هستيري، يعقد حاجبيه وهو يتساءل بجدية وانفعال منفلت: «ماذا يجري معك؟! أنت لست أنت! هل كنت تتفرجين على أفلام مخلة أو شيء من هذا القبيل؟! أجيبني! لا يعقل كل هذا الذي تفعلينه لأننا تخاصمنا لأيام».

دمعت عيناها وهي تهز رأسها نفيًا هامسة بصدق: «أنت تعرف أنني لا أفعل هذا كيف تظن أنني أتفرج على أمور مشابهة».

ما زال يمسك معصميهما وعيناها الغاضبتان تدرسان صدق إجابتها، ثم بحركة خشنة بعض الشيء رفعها ليعيدها إلى مقعدها وهو يقول بنبرة خافتة تشع بالغضب: «انزلي».

بعد دقائق كانت هيام تقف وسط غرفة المعيشة تحاوط جسدها بذراعيها، بينما تراقب علي بخوف يقتلها منذ دخولهما وهو يتحرك ذهاباً وإياباً ثم فجأة ضرب بكفه إحدى الزهريات ليوقعها أرضاً ففتهشم، كل هذا تراقبه هيام بصمت وهي تؤنب نفسها على أفعالها الطائشة، تشعر بالتشوش لقد ظنت

أنها تفعل الشيء الصحيح معه، أليس هذا ما أتى بها منذ الصباح الباكر؟! إنها مستيقظة منذ الفجر بعد أن انسحبت من جوار سجي لتعود إلى غرفتها وفي داخلها قرار العودة، فتحت حاسوبها ودخلت الفيسبوك من حساب (نور علي) وكالمهووسة أخذت تعيد قراءة كل المنشورات، كل القصص كل النصائح لقد قررت أن تتعلم من أخطاء غيرها بدلاً من أن تستسلم للخوف من وقوعها، كل النسوة هناك كانوا يتحدثون على أهمية إشباع حاجة الرجل الجسدية إذا أنهكت زوجته بمعاشرة يومية فلن تجذبه غيرها (أتعبيه بغريزته أنهكيه بجسده تفنني باختيار أماكن مختلفة غير تقليدية كي لا يمل منك) هذه هي النصائح التي تكررت من نساء خبيرات أو هكذا تظنهن، أما الآن وهي ترى نتائج تنفيذ نصائحهن فتكتشف بشكل مشوش أنها بالغت أنها أخطأت التنفيذ، ما فعلته لا يناسب علي ولا يتلاءم مع شخصيته، أخذت ترتجف وهي توشك على الانهيار من شدة الضغط والتشوش، فجأة توقفت خطوات علي ليواجهها بقميصه الذي ما زال مفتوح الأزرار قائلاً: «الجدّة محقة عودتنا لبعض بهذا الشكل خطأ».

ثارت ثائرتها وهي تشعر بفقدان السيطرة ليطفو على السطح ما يعتمل داخلها: «حتى الجدّة ضدي؟! الكل يريدك أن تبعد عني لقد طلبوا منك أن تطلقني أنا واثقة، كما واثقة أنهم اختاروا العروس البديلة، فبعد ارتباط أنعام ابنة العم شاكر لا بد أنهم اختاروا شقيقتها الصغرى صبا أليس كذلك؟! إنها أجملهن وفي العشرين».

أخذ علي يصرخ بشكل غير مسبوق وأخذ يضرب بكفيه تحفاً وزهريات مختلفة الأحجام متفرقة هنا وهناك: «كفى كفى كفاك من هذا الكلام المجنون».

شعرت هيام بالضياح التام والتشوش الكامل وعلي يكسر كل ما تصله يداه حتى فقدت رشاها هي الأخرى فأخذت تكسر وتصرخ وتبكي بجنون ولم يوقفها إلا صفة مدوية من علي جعلتها تنهار للأرض مغشياً عليها، بعد وقت لا تعلم كم طال فتحت عينيها وعلي يحتضنها ويقبل وجهها وصوته يتحشرج بتأثر كبير وهو يعتذر منها، في تلك اللحظة لم تفكر إلا في بطريقة واحدة أن لا يهم! لم يعد يهم ما جرى المهم أنه الآن يحتضنها ويعتذر منها، غداً ستصلح كل شيء وتبدأ من جديد، استسلمت لذراعيه وهما تحملانها برقة شديدة وصوته الأجلش الرجولي ما زال يعتذر حتى وصل بها لسريهما، فوضعها بحرص وانضم إليها بعد أن خلع حذاءه ثم احتضنها بقوة ليعتذر مجدداً وهو يقبل جبينها وبملايس الخروج ناما في أحضان بعض هي مرتاحة لما وصل إلىه وهو يقتله شعور الذنب لأنه فقد السيطرة وصفعها، غفت في حضنه هائلة بينما هو يتعذب ويغمره إحساس الذنب أكثر لسكونها هكذا مطمئنة بين ذراعيه، كل شيء خاطئ وكلما أراد إصلاحه يفسد أكثر!

صباح اليوم التالي

جالس بسيارته والهاتف في يده يحدق أمامه بتفكير ووجهه المرهق يحمل الهموم، شعور قاتم يقبض قلب علي وهو يفكر بما يجري بحياته، يشعر أن كل شيء يتضعضع وتهتز أركانه بشكل يخيفه عندما استيقظ فجراً ليصلي هاله وصدمه رؤية ما خلفه شجار الأمس في غرفة الجلوس، تلك القطع الفنية الجميلة التي اختارها هو وهيام معاً وهما يجهزان البيت أصبحت هشيماً كثيباً كزواجهما، نقض الفكرة البائسة من رأسه وعقد حاجبيه بعزم وهو ينظر لشاشة هاتفه التي تشير للثامنة صباحاً، كان يوم جمعة ومؤكد هي نائمة الآن لكنه لا يستطيع التأخر بالعودة فقد تستيقظ في أية لحظة تبحث بهلع عنه، تحركت سبابته فوق الشاشة ليطلب رقم سجي لم يهده عقله إلا للاتصال بها اللحظة.

رن طويلاً حتى أوشك علي أن ييأس من الرد عندما أتاها صوت سجي ناعساً: «نعم».

قال علي بهدوء: «صباح الخير سجي».

صوتها الناعس تحول للهفة قلقلة وهي تقول دون مقدمات: «علي؟! هل هيام بخير؟!».

رد مطمئناً إياها: «لا تقلقي إنها بخير».

تنهيدتها وصلت أذنه قبل أن تقول سجي براحة مع اعتذار: «أسفة.. لم أرد تحية الصباح؛ لكنك لا تتصل بي في العادة وكنت نائمة فلم أتبين اسم

المتصل على الشاشة، لذلك صدمت من اتصالك الآن خوفاً وقلقاً على هيام».

أرعى علي رأسه للخلف وهو يقول بنظرة شاردة وفكر منهك: «في الواقع لا أعلم إن كانت هيام بخير أم لا».

سألت سجي باهتمام وتركيز: «ماذا هناك يا علي؟ ألم تتصالحا بالأمس؟».

لا يعلم كيف وجد نفسه يثرثر دون تكلف مع سجي رغم أن علاقتهما محدودة للغاية: «سجي أنا أحتاج أن أفهم ما يجري معها، هيام تزداد غرابة كل يوم والبارحة بلا شك كانت الأغرب على الإطلاق تتصرف بطريقة لا تلائمها وكأنها ليست هي كأي لا أعرفها!».

جاء صوت سجي بنبرة متعاطفة: «إنها مشوشة وتائهة.. أرجوك علي اصبر عليها».

قبضته اليسرى تضرب فوق مقود السيارة بينما يدها اليمنى تعتصر الهاتف وهو يرد بتوتر: «أنا أصبر أقسم بالله سأصبر؛ لكنني أحتاج أن أفهم، أريد أن أعرف هل كلمها أحد؟».

أتى صوت سجي ببعض الاستغراب: «ماذا تقصد كلمها أحد!».

رد وهو لا يعرف كيف يرتب أفكاره: «لا أدري، مجرد خاطر أنها تسمع

لشخص ما يجعلها تتصرف بغرابة هكذا لولا أنني أعرف والدتها وكيف تفكر
لكنك قلت هي من تملأ رأسها بأفكار عجيبة».

مرت لحظتان أو ثلاث قبل أن ترد سجي بتفكير: «كل ما أعرفه أنها
قضت الأيام السابقة تحبس نفسها في الغرفة، كانت تنهار أحياناً فتبكي
و...».

ثم صمتت وكأنها شردت بأفكارها منه، أو ربما ترددت بالإفصاح، فحثها
علي ببعض الانفعال: «لماذا سكت؟! أرجوك إن كنت تعرفين شيئاً
أخبريني، الموضوع لا يحتمل أي إخفاء».

بدت سجي وكأنها هي الأخرى تحاول ربط الأمور فتقول له بصدق: «أنا
لا أعرف أقسم لك، لكنني تذكرت أنها أصبحت تلازم الحاسوب في اليومين
الآخرين، حتى خالتي اشتكت من جلوسها كثيراً في غرفتها معتكفة مع
حاسوبها، وأنا متأكدة لم تكن تدرس أظنها ربما تبحث عن حلول في
الأمكن الخطأ».

يضيق علي عينيه وهي يتساءل: «هل تعنين تبحث عن نصائح لحل
مشاكلنا عبر صفحات الإنترنت مثلاً؟».

فتؤكد سجي ما يدور برأسه ورأسها وهي ترد عليه: «أرجح هذا، هيام تريد
أن تصلح الأمور على طريقته».

ثم سارعت لتضيف: «أرجوك لا تخبرها شيئاً مما قلته لك الآن... ستتأزم

أكثر، إنها ترفض أن تظهر ضعيفة أمام أحد، ولذلك كما يبدو تبحث بنفسها».

شعر علي بالعجز وتخبط أفكاره وهو يتمتم: «ماذا سأفعل؟! لا أدري أقسم بالله».

أتى صوت سجي عاطفياً رقيقاً داعماً وهي تحته بالقول: «كن معها ووجهها بنفسك يا علي إنها متعلقة بك كثيراً ولا تريد أن تفقدك».

رد بيأس: «حاولت كثيراً هل تظنين أنني لم أفعل؟! لكنها لا تثق بي».

عندها قالت سجي كلمات وجد صداها يتردد في نفسه منذ مدة: «ربما هي تحتاج لتثق بنفسها معك، ألا تظن هذا؟».

أجل هذا هو! إنها لا تثق بنفسها، لكن لماذا؟! ما الذي ينقصها؟ أيعقل أنه لم يعرف حبيبته جيداً؟! لم يعرف زوجته ومن اختارها أما لأبنائه؟! ثم جاءت نصيحة قيّمة من سجي وهي تضيف بحنان: «هيام طفلة، دوماً ستظل طفلة؛ تكسبها إذا هادنتها وتعاملت مع أخطائها بحكمة؛ ساعة ترخي وساعة تشد».

أجل هي طفلة؛ طفلة غير واثقة، ربما مدللة وغيورة بشكل يفوق التحمل؛ لكنها طفلة تريد من يسترضيها، تذكرها ليلة الأمس بعد أن صفعها وأغشي عليها، انعصر قلبه للذكرى كيف فتحت عينيها الجميلتين وهو يقبلها معذراً، وكيف استكانت في حضنه راضية!

عليه أن يتعامل معها بحرص أكبر، أن يعرف متى يزخي ومتى يشد، متى يؤنب ويحاسب، ومتى يتغاضى ويتسامح، قال علي أخيراً ببعض الارتياح: «شكراً لك سجي كنت عوناً لي لم أجد غيرك لأكلمه أنت أكثر من أخت لها وقد تربيتما معاً والداها طيبان لكني أشعر أنهما لا يفهمان عمق مشكلتها».

فعلقت سجي بنبرة محايدة: «إنها ابنتهما الوحيدة ويريدان رؤيتها في أفضل صورة».

قال علي أخيراً وهو ينظر لساعة سيارته: «أنا ممتن لك عذراً منك يجب أن أعود للبيت لقد تركت هيام نائمة بمفردها في البيت وخرجت لأشتري بعض الإفطار واستغللت الأمر كي أكلمك، لم أجد شخصاً مناسباً أكثر منك وقد كنت محقاً أن أهتدي تفكيري إليك». أتاها صوت سجي بنغمة حلوة صادقة: «على الرحب والسعة».

ابتسم عفويّاً ثم استدرك أمراً ليقوله مباشرة رغم حرجه من الطلب: «لي رجاء عندك أن لا تخبريها بأني...».

لكنها قاطعته وهي تقول بتفهم: «لا داعٍ لتوصيني بهذا أنا أعرفه أكثر مما تتصور، بل كنت سأوصيك بنفسي ألا تخبرها باتصالك بي».

شكرها مجدداً لكل شيء قبل أن ينهي الاتصال ويترجل من السيارة ليذهب إلى الأسواق كي يشتري ما يريده وهو يشعر أنه أفضل حالاً بعد

شعرت بشكشكة لحيته مع قبلاته فتبسمت تلقائياً، بينما صوته يداعب أذنها: «صباح الخير إنها الحادية عشرة إلا ربع، قومي يا كسولة».

رفعت ذراعيها للأعلى تتمطى ثم لفتها حول رقبته وهي ما زالت مغمضة العينين وتهمس له بانسراح كأن شيئاً لم يحصل ليلة أمس بينهما: «صباح الخير».

شعرت بذراعيه تلتفان حولها لتحضنها بحنان يذيب القلب كأنه يدلها بمحبة خاصة هذا الصباح، وهذه المحبة منه منحها طاقات إيجابية تمت أن يظلا هكذا بمفردهما دون أن ينغص عليهما وجود أحد، فقط هما لوحدهما إلى الأبد، فتحت عينيها أخيراً فتنظر لوجهه الأسمر الوسيم عن هذا القرب وتشبع نظرها من التحديق في خضرة عينيهِ، تنبتهت فجأة لملبسه فقالت بحاجبين معقودين بتساؤل مرتاب بعض الشيء: «ما هذا؟! أ كنت خارج البيت؟».

شعرت بسخافتها وأنها ستفسد صباحهما الحلو لكن علي كما يبدو تجاهل طريقة سؤالها المرتابة ليقول بابتسامة واسعة فخورة: «فعلت أشياء كثيرة وأنت نائمة، رتبت البيت، ورميت الأزبال، ثم ذهبت لأشتري إفطاراً.. الشلاجة فارغة تماماً».

شعرت قلبها يوجعها من فيض حبها له، التمعت عيناها بالدموع وهي تحرك كفها لتلامس لحيته بامتنان وتهمس باعتذار تتمنى أن يجُب ما قبله: «آسفة لكل شيء».

يشدها أكثر لتلتصق به وهو يبادلها الهمس المعتذر والنية العازمة: «وأنا أيضاً آسف كنت متوتراً بالأمس سنبدأ من جديد».

هزت رأسها إيجاباً وهي تؤكد على نيته بنية مشابهة لها: «سنبدأ من جديد».

اتسعت ابتسامته ثم طبع قبلة خاطفة على فمها، قبل أن يبتعد بجسده عنها ليقف على قدميه ويسأل بنبرة رائقة حلوة: «بيض أم جين؟». ترد بدلال وابتهاج وهي تتمطى في السرير كقطعة: «بيض مقلي».

يضحك من تدللها الطفولي قبل أن يغادر الغرفة وحالما أولاها ظهره مُحيت ابتسامته واكتست ملامحه بالجدية، طريقه طويل معها الإصلاح لا يأتي بحسن النوايا بل بصحة اختيار الطريق وتفعيل السير فيه.

بعد بضعة أيام الجامعة

تتوتر نهاوند بكليتها وهي ترى عمر يمر من أمامها بوجهه الجامد دون أن ترف عيناه حتى نحوها، تتقلص أصابعها حول حافة المصطبة التي تجلس

عليها بمفردها، بينما ترتعش شفتاها برغبة حقيقية للبكاء، عيناها ترنوان لخطوات عمر الثابتة وهي تبتعد عنها فتشعر بحجم الخسارة التي منيت بها بسبب غيابها وطمعها وحمقتها للمرة الأولى تشعر بأهمية عمر ربما كانت تراه (عريساً لقطة) كانت تراه في متناول يدها فبطرت النعمة، عيناها الجشعتان زاغتا إلى أخيه الأكبر وقد ظنته (لقطة) أكثر فلا حظيت بهذا ولا ذاك، كزت على أسنانها وهي تلمح إحدى صديقاتها المتملقات تقترب منها وعلى وجهها ذاك التعبير السخيف المتصنع بالتعاطف.

بقوة إرادة رسمت نهاوند تعابير اللامبالاة بل أخذت تترنم بأغنية وهي تتلاعب بأطراف شعرها مع وصول صديقتها وجلسها جوارها وهي تقول بخفوت: «قلبي معك يا نهاوند، لا أصدق أن هذا عمر الذي كان ينتظر النظرة منك».

اكتفت نهاوند بهز كتفيها مدعية عدم الاهتمام بينما تكتم آهة وجع للإذلال الذي تتحمله وستتحمله للشهر المقبل قبل انتهاء العام الدراسي ولا تستطيع ادعاء أي كذبة لتحفظ كرامتها خوفاً من وصولها لمسامع عمر وعندها سيؤذيها أكثر بل ربما يفضحها، لذلك اكتفت أن قالت إنهما افترقا بعد خلافات جادة بينهما واتفقا على الانفصال دون تدخل أحد هذا أقصى ما استطاعت تنميقة لتنقذ المتبقي من كرامتها.

سألت صديقتها بفضول: «أليس هناك فرصة للصلح؟».

ردت نهاوند بالنفي وهي تبرم شفيتها بدلال أنثوي تكبدها كثيراً من الطاقة لتصنعها، ثم دون سابق إنذار أطل عامر وكأنه كان يتتبع خطوات أخيه، ليمر بهما وهو يرتدي نظارته الشمسية فتسارع صديقتها للقول بصوت خافت: «هل علمت أن تلك الباهتة حرير قد رفضت عامر القماش؟!».

لذة بالتشفي غمرت نهاوند وهي تتساءل بلهفة: «حقاً؟! احلفي».

تضحك صديقتها وهي تحرك حاجبيها بمكر وتقول: «لا داعٍ للحلف أأست معنا في الجامعة؟! الكل بات يعرف، والد حرير اتصل بالحاج سليم القماش وأبلغه أن ولده مرفوض لـ (سوء سلوكه)».

انتشى قلب نهاوند بل ضحكت ضحكة عالية وشعت عيناها برضا انتقامي ثم تمتمت: «تستحقها وزيادة يا عامر، ليت قلبك يحترق مراراً وتكراراً بمزيد من الرفض يا ابن القماش».

عقدت صديقتها حاجبيها ببعض الدهشة لتسأل بفضول: «ما سر انقلابك هكذا ضد عامر كنت أظنك معجبة به».

أظهرت نهاوند الاشمئزاز وهي ترد بانفعال: «أنا أعجب بهذا؟! إنه حقير لا يساوي حتى ظفر عمر».

قالتها والندم يقتلها كم كانت غبية؟! كم هي غبية؟! هل فات الأوان حقاً؟!

رأها عامر من بعيد وهي تترك المصطبة القريبة من قسم اللغة الإنجليزية لتتحرك مع صديقتها وفاء وبسمة كي يدخلن القسم سوية، رغم خفقان قلبه فإنه شعر بالإحباط وهو ينظر لساعة يده التي تشير للعاشرة إلا خمس دقائق، لقد تأخر زحام الطريق عانده سبتاً أكد من جدولها؛ لكن يفترض أن هذه المحاضرة لساعة واحدة لا أكثر، تقدم عامر على مهل حتى وصل للمصطبة التي كانت تجلس عليها قبل لحظات، شعر برعشة أن يكون في مكانها يلمس لمسها للأشياء.

تنبه لوجود كتاب على المصطبة متروك سهواً كما يظن، رفع نظارته فوق رأسه ثم التقط الكتاب وفتحه، خطف قلبه مباشرة رؤية اسم حرير مسجلاً على الصفحة الداخلية الأولى يمد أطراف أنامله يلامس حروف اسمها ويتذكر لمسة الحرير، تبسم حتى شعت ابتسامته وهو يخرج قلماً من جيبه ويكتب سطرين تحت اسمها بالضبط، أعاد القلم لجيبه وأغلق الكتاب ثم استرخى بجلسته وهو يلامس الكتاب بأصابع كفه، أرجع رأسه للخلف ثم أغمض عينيه مواجهاً الشمس بذقن شامخ، منذ بضعة أيام لم يتفاجأ هو كما لم يتفاجأ والده باتصال هاتفي من (أسعد الجنابي) كي يبلغهم بالرفض حاول الحاج سليم أن يعرف الأسباب فاكتفى والد حرير أن برر (لا يوجد نصيب)، يعترف عامر رغم عدم المفاجأة فإن القلق استبد به لحظتها؛ لكن سرعان ما استعاد ثقته وقرر المضي قدماً بتنفيذ ما خطط وفكر به، لن يتوقف عن

طلب حرير حتى ينال كلمة الرضا وسيثبت لها ولوالدها، كم هو متمسك بها
لآخر نفس لقد أيقن عامر أو هداه تفكيره أن المسألة مسألة وقت، سيأتي
اليوم الذي يقتنع فيه أسعد الجنابي أنه لن يجد رجلاً يحب ابنته كما يحبها
عامر ولن يسعدها غيره، يبتسم وهو يراها بعيني خياله ترفل بالحرير الأبيض
يده ترتعش وهي ترتفع لجانب صدره الأيسر تطبطب على قلبه الذي يدوي
هناك كم يحتاج للصبر، يحتاج أن يصبر عليها كي تثق به وتمنحه ولو نظرة
رضا خجول، يحتاج أن يصبر على والدها أسعد الجنابي كي يمنحه مفتاح
رضاها فلا رضا لحرير دون رضا أبيها، ويحتاج أن يصبر على نفسه التي
تهواها حد العشق وتشتاق ضمها حد الالتحام والذوبان معاً.

تنهيدة عميقة خرجت من صدره ثم تمت ساخراً من نفسه: «ما كمية الصبر
هذه يا ابن القماش؟! تُحَسِّد عليها أقسم بالله».

طرق على باب القاعة جعل الأستاذة شيرين تعبس من خلف نظارتها
الطبية وهي كانت منهمكة في الشرح ومستغرقة فيه للغاية، التفتت برأسها
ناحية الباب وهو تأذن للطارق: «أدخل».

أطل من الباب وجه عامر بابتسامته المتميزة الجذابة وهو يلقي التحية
بثقة للأستاذة شيرين: «صباح الخير».

فعلت ابتسامته التأثير المطلوب لتجعل الأستاذة شيرين تتراخى وهي ترد

بلطف: «صباح الخير.. تفضل».

عينا عامر أخذتا مسحاً سريعاً شاملاً للطلاب الموجودين حتى وقعت عيناه على (الحرير) وقد بدا وجهها الصافي بتعابير مصدومة لوجوده، شفتاها الجميلتان انفرجتا وهي تحقق فيه ملء عينيها، يتمتم وأصابعه تصل قلبه: «دوم.. دوم.. دوم».

«أيها المبتسم دون مناسبة هلا شرحت لماذا أنت هنا!».

عيناه تأبيان الانصياع كي تفارقا وجه حرير المتورد المرتبك لكنه أجبر نفسه ليعود للأستاذة التي تراقبه بفضول فيرد عليها بنسؤال جدي: «يا أستاذة شيرين كم الساعة؟».

عقدت حاجبيها وهي ترد على سؤاله بسؤال الدهشة: «نعم؟!».

فيرد بابتسامته الخلابة: «عفواً كنت أسأل فقط كم الساعة؟».

أمالت الأستاذة شيرين عينيها لساعة يدها ثم قالت: «إنها الحادية عشرة وعشر دقائق».

ثم أضافت وهي تتكتف: «الآن هلا أخبرتني من أنت بالضبط؟».

رد وكأنه مندهش أنها لا تعرفه: «أنا عامر».

يضحك الطلبة بينما حرير تخفض رأسها وهي تهمس بحرج: «يا إلهي!».

أما الأستاذة شيرين فقد بدت مستمتعة بلعبته وهي ترفع حاجبيها لتسأله بنبرة جمعت الحزم والتسلية: «وماذا تريد يا عامر؟».

رد وكأنه يقول أمراً بغاية الجدية: «أردت أولاً أن أقول المحاضرة انتهت منذ عشر دقائق».

انفجر الطلبة ضاحكين هذه المرة، بينما الأستاذة شيرين تتوعده بالقول وابتسامة صغيرة على ثغرها: «وأنت ستطرد خارج الحرم الجامعي خلال عشر دقائق».

يهز كتفيه ليقول ببراعة: «أنا فقط مرسال أحمل للآنسة كتابها».

ثم رفع كفه بالكتاب الذي يحمله في اللحظة نفسها التي رفعت حرير رأسها ووفاء جوارها تقرصها من ذراعها لتنبه هامسة لها بممازحة شقية: «هذا كتابك يا (آنسة)».

عبست حرير وهي تحدج وفاء وبسمة بتوبيخ وقد غرقت كلاهما بالضحك، أما الأستاذة شيرين التي تقارب منتصف الأربعينيات ما زالت مبتسمة من شقاوة هذا الشاب الغريب لتأمره بلهجة حازمة لم تخل من الفكاهة: «ضع الكتاب على الطاولة وغادر أيها المرسال».

فعل ما أمرته ليضع الكتاب على طاولة قريبة ثم يقول شاكياً: «أنا مضطر للمغادرة لأن الحاج سليم يطلبني للأسف؛ لكن هذا لا يمنع أن المحاضرة انتهت منذ عشر دقائق، وأنا أجلس في الشمس منذ أكثر من ساعة».

يعاود الطلبة الضحك؛ بينما الأستاذة تكتم ضحكتها، وهي تشير له برأسها في أمر صامت أن يغادر؛ فيفعل وهو يحيي الجميع بانحناء مسرحية، والتمعت عيناه للحظة وهما تحدجان حرير بنظرة جريئة حملت شوقاً صريحاً صاعقاً قبل أن يستدير ويغادر، بعد دقائق كانت حرير تفتح كتابها وقد علمت بحدس أنه كتب لها شيئاً، ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تقرأ خط يده.

(والنفس لا تتوق إلا للمس الحرائر... طالب رضا سيظل واقفاً على باب أسعد الجنابي حتى ينال الحرير).

أغلقت حرير الكتاب، بينما وفاء وبسمة تصفران وقد قرأتا المکتوب، لم تلقِ لهما بالاً، كما لم تعد تهتم بهمسات الطلبة من حولها، وما سيقال لأيام قادمة، كأنها اعتادت الأمر، وتفضل مواجهته بالتقبل والتجاهل حتى يضمحل من نفسه، ليس بيدها فعل شيء آخر، أما اللحظة فكانت تفكر كيف استطاع عامر أن يسحر الأستاذة شيرين ذات الطباع الجدية فهل سيكون له هذا التأثير على والدها؟ أم ربما تأثيره على النساء فقط؟!

وماذا عنها هي؟ هل الرفض منها ومن والدها حقاً أم أنه من والدها فحسب؟ وإن حصلت المعجزة واستطاع عامر التأثير بوالدها وكان لها خيار القبول أو الرفض فهل (عامر القماش) حقاً يناسبها؟! قفزت كلمات والدها لرأسها كلماته ونصائحه عن التوافق بين الزوجين ومدى أهميته تجربة أبيها

الصعبة بزواجه الأول من امرأة مختلفة جداً عنه فما الفرق الآن وهي ترى عامر مختلفاً للغاية عنها ليس كطبعها ولا تشعر ميوله كميولها

هذا عدا إحساسها بعدم الاطمئنان له، كانت تستمع لثرثرة صديقتها حول (عامر) لكن ذهنها مغيب عنهما، تشعر أنهما لا تفهمانها بشكل صحيح أو ربما يريانها تبالغ في رفضه، في مطلق الأحوال هي لن تخالف أباهما مهما حصل ولكل حادث حديث.

بعد أسبوع

على رنين الجرس مساء خرج أسعد الجنابي ليرى الطارق، يعترف أنه لم يتوقع على الإطلاق أن يكون الطارق هو عامر القماش، يعبس في وجه الشاب تلقائياً، بينما عامر يلقي تحيته بجدية: «مرحباً عمي».

رد أسعد بأسلوب بارد: «مرحباً يا عامر خيراً بني؟ لا بد أنه أمر مهم وعاجل لتأتي في هذه الساعة دون إعلامي قبلها».

لم يتأثر عامر على الإطلاق من أسلوب والد حرير الذي يظهر الانزعاج لمقدمه خاصة دون موعد مسبق ليرد بأدب: «أعتذر لحضوري دون اتصال لكنني أريد أن أتكلم معك لو سمحت؟».

بصرامة التمعت في عينيه وعكستها تعابير وجهه قال أسعد بكلام

صريح: «إن كان يخص موضوع ابنتي فقد أوصلت الرد النهائي لوالدك
الحاج سليم ولن يكون هناك رد آخر مختلف» .

ابتسم عامر بلطف وهو يقول بمهادنة: «ألن تستضيفني في بيتك يا عم أم
ستركني أتكلم معك على الباب؟» .

بدا أسعد الجنابي غير راضٍ على الإطلاق لكن لم يستطع رفض دخول
ضيف يقف على باب بيته حتى لو كان ضيفاً غير مرغوب به ومرفوض
طلبه، قال أخيراً وهو يوسع لعامر في دعوة كي يدخل: «تفضل» .

دخل علي للبيت من بعض الوقت وها هو يقف عند باب غرفة المعيشة
يراقب زوجته كيف تقرأ بتركيز ونظرات لامعة فضولاً وتأثراً حتى إنها لم
تشعر بدخوله!

مضى قرابة العشرة أيام منذ تعاذهما لبعض بالبدء من جديد ويعترف
أنها في اليومين الأولين كانت رائعة وشعر أنه ربما سيسترجع هيام التي
أحبها إن استمرت هكذا، فكان يشجعها ويستجيب بقوة لخطواتها لكن
بدأت تشرد منه وكأنها مستغرقة بالتفكير في أمور يجهلها، بدت أكثر
صمتاً وتحفظاً تحاول أن تستمر بما تعاهدا عليه لكن فكرها مشغول
وأصبحت تدمن الجلوس على الإنترنت أكثر مما تعودت منها قبل مشكلتهما
الآخيرة، وكلما سألها ممازحاً بم هي مشغولة عنه ردت بابتسامة زائفة أنها

مشغولة بدراستها ورسالة الماجستير، الآن وهو ينظر إليها ينتابه إحساس أنها مشغولة حتى عن دراستها هل عليه أن يكون أكثر صراحة بالسؤال أم يكتفي بمراقبتها عن بعد أنه يخشى عليها مما تقرأ وتتابع يشعر أن حالتها لا تحتمل المجازفة بأمور مجهولة المصدر معدومة الثقة، تحرك بخطواته جانباً ليأتيها من الخلف دون أن تراه فتقع عيناه خطفاً على الشاشة ليراها تقرأ في تعليقات كثيرة على منشور ما في صفحة الفيسبوك، وقبل أن يقرأ كانت هيام قد شعرت به لحظتها لتستدير بحركة حادة وهي تغلق الحاسوب بينما وجهها يشحب!

يضيق علي عينيه وهو ينظر لابتسامتها الركيكة ثم يسأل بهدوء: «لماذا أغلقت الحاسوب هكذا؟».

ردت بارتباك تحاول مداراته بابتسامة أوسع: «لا شيء؛ لكنك أجفلتني فقط فكانت حركة عفوية من يدي».

يسألها بالهدوء نفسه: «هل كنت تتسلين على الفيسبوك؟».

تبتلع ريقها بوضوح وقد أدرك هذا وعيناه تنجذبان للحركة في عنقها، بينما ترد بصوت مبحوح: «أجل كنت أتسلى مللت من الدراسة».

يعقد علي حاجبيه وهو لا يصدقها هناك أمر تخفيه؛ لكنه سيكتشفه تحرك وهو يقول: «سأخذ حماماً الجو حار اليوم هلا أعددت العشاء رجاءً».

تمتمت وهو يبتعد مختفياً: «حاضر».

دخل علي إلى الغرفة وهو يفتح هاتفه ليفتح تطبيق الفيسبوك ومنه مباشرة ذهب لصفحة هيام وهناك كانت المفاجأة التي (توقعها)، هيام لم تدخل حسابها الشخصي على الفيسبوك منذ أسبوعين.

في غرفة المعيشة هيام لم تقاوم أن تفتح الحاسوب مرة أخرى أقنعت نفسها ستنظر فقط بضع تعليقات أخرى قبل أن تغلق كل شيء وتعد العشاء لعللي، فقط كي تتأكد، كانت ترتجف وهي تعود للتعليقات وما بين راحة أن ولا واحدة تعرفت على صاحب الصورة كانت مرعوبة لأنها أقدمت على هذه الخطوة، لم تستطع أن تقاوم لم تستطع أن توقف رغبتها بمعرفة الرد، فالرد فيه مفتاح سعادتها واطمئنانها هذا ما كانت تفكر به لأيام وهي في خضم صراع المقاومة، أيام منهكة لأعصابها وهي تراقب نساء يهللن بالفرح والفخر، ونساء يتحطمن بالمعرفة والخذلان وكسر الخاطر والقلب؛ لكنهن على الأقل علمن... على الأقل تأكدن... أليس كذلك؟

لقد ترددت هيام طوال تلك الأيام لأن علي قد يكون معروفاً في العاصمة؛ لكنها أقنعت نفسها اليوم أن لا أحد سيعرف أنها هي (هيام) من تسأل وحتى لو انكشفت هويتها، إنها لا تفعل أمراً خاطئاً، كل هؤلاء النسوة فعلنه، فمؤكد ليس بخاطئ.

حركت هيام المؤشر على الشاشة بثقة مهزوزة من أفكارها هذه لتصعد فوق التعليقات وتصل إلى محتوى المنشور الذي نشرته باسم (نور علي)

فتبرز صورة (علي القماش) وسؤال مقتضب مبهم بعض الشيء مرفق معها
(هل هناك من أقامت أو تقيم علاقة مع صاحب الصورة؟).

الفصل السادس

متوترة تدور في غرفتها وقلبها منقبض منذ أن دخلت عليها سدير. لتبلغها سرّاً أن عامر يجلس مع والدهما في غرفة الضيوف، وهي تشعر بخوف حقيقي مما يمكن أن يحصل بينهما، عامر لا يفهم أن جرأته هذه ستزيد من عناد أبيها وخشونته معه ورفضه لطلبه، ربما كانت تفكر سابقاً أن تترك الأمور تجري بطبيعتها فتدع السجال لهما دون تدخل فيه؛ لكنها اللحظة وهي تختبر هذا الانتظار لا تفكر إلا أنها لا تريد أن يحدث تصادم بينهما، تريد فقط أن ينتهي الأمر وينساها عامر إلى الأبد، همس خافت شديد الخفوت يداعب قلبها ساخراً (هل حقاً تتمنين أن ينسأك ويبتعد؟).

مر وقت ليس بالطويل حقاً عندما أجفلها بقوة طرق على باب غرفتها فتشعر حرير بجفاف فمها وهي تقول بعفوية: «تفضل أبي».

لا تعرف كيف خمنت أنه هو ربما قلبها أعلمها أو ربما كانت تتمنى أن يكون هو لينتهي انتظارها القلق، دخل والدها ومباشرة عيناها وجدت طريقها لتفحص تعابير وجهه، بدا مُحيراً لها! كان يبتسم وكأنه يحمل البشارة وفي الوقت ذاته متوتراً بل غاضباً!

سألت حرير بصوت منخفض: «هل هناك شيء أبي؟».

ما زالت تعابيره كما هي لتنتقل من عينيه نظرات أقرب للرجاء فيتلهف قلب الابنة فيها لتبلي رجاءه مهما كان حتى وهي لا تعرف ما يدور بخلده

اللحظة؛ لكن يكفيها أن تراه قلقاً غير مرتاح وهو يعافر ليرسم الابتسامة

قال أخيراً بنبرة توحى بالفرح: «ابنتي لدي خبر جميل».

نبضة قلب باغتتها لكن حالة أبيها جعلتها تتجاهل بحزم، أي نبضة غير محسوبة العواقب إنها حتى لا تعرف عم سيكلمها اللحظة، هل يعقل أن عامر استطاع تغيير رأيه وأن والدها سترك لها الخيار؟! لم يكن أمامها إلا المضي قدماً بهذا الحوار لتقول بتقرب قلق: «خيراً إن شاء الله».

أياً كان ما يمكن أن تتوقعه فلم يخطر ببالها رد أبيها على الإطلاق عندما اقترب منها قائلاً بجدية وتركيز: «اليوم اتصل بي ابن عم أبي الحاج أنيس الجنابي أتذكرينه؟».

للحظة تشتت! وببطء استوعبت ثم احتارت وهي لا تعرف ما مناسبة ذكر عمها أنيس اللحظة، ردت على أبيها ببعض الدهشة: «نعم.. مؤكداً ذكره مرت بضعة أعوام فقط على آخر لقاء معه عندما زرناه في البلدة». دون مقدمات ألقى أسعد الجنابي قبلته: «أنيس يطلبك لابنه نوفل».

فغرت حرير فاهها عفويًا وارتفع حاجباها عالياً بينما عيناها تتوسعان في دهشة أقرب للصدمة أما والدها فأضاف: «إنه يكبرك بعامين مؤكداً تذكرينه أيضاً، شاب طيب لديه صيدلية وحالته مقبولة هادئ دمث الخلق يكاد يماثلك طباعاً وسلوكاً، يكفي أنه من دمناء، أظنني لن أجد رجلاً مناسباً لك أكثر منه».

أخيراً تحرك فمها وشفثاها تهمسان: «أبي أنا...».

لكنها عجزت عن تشكيل جملة شعرت أنها مصدومة لا اللحظة لا تشعر بالصدمة بل تشعر بشيء آخر تماماً، شيء لا تعرف كيف تصوغه لنفسها بشكل تتقبله، لقد كانت مستعدة لأي كلام سيقال بخصوص عامر رفضاً أو إيجاباً؛ لكنها لم تكن مستعدة على الإطلاق لظهور عريس جديد (مرحب به) من قبل والدها، والدها كان ما زال يراقب توتره يرتفع وغضبه يتصاعد من أين أتاه (عامر القماش) هذا؟! تتمم الأب من بين شفتين ترتعشان بالغضب: «لا أريد أن أفكر أنك تأثرت بعامر القماش».

سارعت حرير لتطفئ غضبه وهي ترد بصدق إلى حد ما: «لا أبي ليس هذا أنا فقط، تشوشت لأنني علمت من سدير أن عامر كان هنا معك في غرفة الضيوف».

هدأت نظرات الأب بعض الشيء ليصب غضبه على من يعكر صفو حياته هذه الأيام قائلاً بنفور: «أجل كان هنا وهو السبب لتعجلي بإخبارك بموضوع نوفل.. البارحة اتصل أنيس ليعلمني برغبته ورغبة ولده؛ لكنني طلبت منه الانتظار حتى إنهائك للامتحانات خلال ثلاثة أسابيع، كانت الأمور ستسير بشكل طبيعي لولا هذا الشاب اللجوج الجريء».

تتقبض يدها بتوتر شديد وهو يضيف بحدة شديدة: «عامر حاول بكل الوسائل إقناعي بالقبول ولو بخطبة مؤقتة كي يثبت لي خطأ حكمي عليه لا

أصدق كيف أنه يرفض الفهم ويصر على تكرار المحاولة دون يأس؟!». .

خدا حرير يحمران أذناها تطنان وقلبها ينبض كالألعاب النارية التي انفجرت دفعة واحدة، تداري ما يحصل لها عن أبيها وهي تسأل بصوت منخفض: «هل أخبرته عن نوفل؟».

لا تعلم لماذا سألته هذا السؤال فجاء رد أبيها أكثر عنفاً ونفوراً: «ومن هو لأخبره؟! هو مجرد غريب تقدم ليطلب يدك ونحن رفضنا إصراره هذا لن يغير مكانته عندي».

ثم اتسعت عينا الأب بشكل مباغت ليسأل ابنته بصوت مرتفع صارم التبرات: «هل يزورك عامر القماش في الجامعة؟».

تقدم أسعد ليمسك ذراع ابنته اليسرى ببعض الخشونة وقد انعقد لسانها وهي تحديق فيه بقلق شديد، جعل احمرار وجهها يتلاشى ليكسو الشحوب وجهها بينما يهزها أبوها أمراً: «ردي يا حرير».

ردت بتلعثم: «أتى مرتين أو ثلاث».

شع الغضب من عينيه، ولمحت حرير بضع قطرات عرق تتجمع على صدفيه، بينما وجهه يحمر في إشارة خطيرة لانفعال شديد، بينما يسأل بنبرة حادة: «هل كلمك؟».

شعرت بالخوف عليه كما لم يحصل لها سابقاً، رفعت يدها اليمنى لتربت

على صدره بأصابعها تحاول تهدئته هامسة بارتجاف: «بالله عليك أبي! اهدأ، أنت تخيفني عليك، هذا الانفعال يضر بك، أتوسل إليك».

لكن انفعاله يزداد وهو يصرخ فيها: «ردي على سؤالي هل كلمك؟».

تجمعت الدموع في عينيها وهي تقول بحسرة: «نعم.. لكن ليس بمفردي بل مع صديقاتي كان يريد فقط توضيح موقفه ثم ذهب».

كانت تدرك أنها تخفي عنه تلك المرة عندما كلمها لوحدها في الشارع؛ لكنها لم تستطع إخباره وهو بهذه الحالة لا يهمها أن يغضب منها فليفعل بها ما يشاء لكن يهمها إلا تثير انفعاله أكثر، كان صدر الأب يعلو ويهبط بقوة ليقول بعدها وهو يترك ذراع ابنته: «أنا سأكلم والده كي يتصرف معه ويعلمه الأدب هذا الشاب لا يرتدع ولا يفهم معنى كلمة لا».

رفع سبابته محذراً بلهجة صارمة للغاية انعكست في عينيها: «إن حاول أن يكلمك مرة أخرى فإني بفسوة وأوقفه عند حده لا تسمح له بالكلام معك مجدداً حتى لو كانت معك صديقاتك.. مفهوم؟».

جمد الدمع في عينيها وهي ترخي أجفانها وتتمتم: «حاضر أبي».

قال وهو يتطلع لوجهها الشاحب: «سننتظر حتى انتهاء امتحاناتك لتقرري بشأن نوفل لديك ثلاثة أسابيع لتفكري ملياً».

تهز رأسها ولم تستطع النطق بشيء لأنها أوشكت أن تبكي، احتاجت بضع

لحظات لاستعادة بعض هدوئها وتماسكها، وكأن الأب أشفق عليها قليلاً فتشعر بيده أسفل ذقنها ثم رفع وجهها إليه، أخذ ينظر إليها وخوف الأب يطغى فيقول ناصحاً بما يراه كل الخير لها: «فكري بعقلك يا ابنتي قد يكون أمثال عامر جذابين للفتيات؛ لكن كأزواج ستعانين الأمرين لا يوجد شيء واحد يربطكما، زهوة الانجذاب ستخفت وتتحول حياتكما لشقاء ستتوجعين وأنت تعيسة وستُظلمين كأنثى إذا انفصلت عنه بعد فشل زواجكما المتوقع».

لتلتمع عيناه بطريقة شعرت حرير معها وكأن قلبها يتمزق لأجله فيضيف بنبرة خافتة وكأن صوته لا يُعِينه: «وأنا لن أحتمل أبداً أن أراك شقية أفضل الموت على أن أراك أنت أو إخوتك تعساء مكسورين».

كل هذا الذي تراه وتسمعه من والدها جعلها تستعيد كل قوتها وهدوئها وثباتها في لحظة أمالت رأسها لتتوسد حضنه وتلف ذراعيها حوله بتشبث وهي تقول له: «سلمك الله من كل سوء وأطال عمرك لا تكرر قول هذا أبداً أتوسل إليك».

لم يكن والدها من النوع الذي يحضن وربما هذا العناق بين الأب وابنته كان من النوادر؛ لكن حرير أكثر من تعرفه تعرفه كإنسان قبل أن يكون كآب، رفع كفه ليمسد على شعرها ويقول بحشرجة: «إذن أريحني والدك واستمعي لصوت شيبته».

يصعد عامر درجات السلم وهو هادئ المحيا غامض الأفكار، بينما أمه تلاحقه وهي تسأل بانفعالات متقلبة متتابعة: «عامر ما بالك صامت هكذا؟! انتظرك منذ ساعة سليم أخبرني بذهابك لوالد حرير ورغم أنني سأجن منكما وأنتما تتفقان من خلف ظهري كالعادة؛ لكني الآن لا أهتم إلا بنتيجة اللقاء.. تكلم بالله عليك ماذا حصل؟».

أكمل صعود آخر درجة من السلم وبينما يذهب يميناً باتجاه غرفته رد بالتعابير نفسها: «رفض مجدداً حتى إنه طردني بشكل غير صريح».

اتسعت عينا نورجان وهي تهتف بشهقة استنكار: «طردك! ذاك الحقير المغرور كيف يجروء؟!».

دخل عامر غرفته دون أن يهتم بشتائم أمه لمن يتمناه (حَمَى) له، رمى بنفسه على السرير مستلقياً على ظهره ليحدق بالسقف في حركة يفعلها عندما يريد التفكير بعمق، ثم قال معبراً عن بعض أفكاره: «لم أر رجلاً عنيداً مثله، كلما حاولت أن أقرب المسافات أجده يبتعد الضعف، إنه لا يستمع حتى لما أقول، أغلق أذنيه وجملة واحدة يعيد تكرارها بصرامة (ليس لك نصيب في ابنتي)».

تنحصر نورجان وهي تقف وسط الغرفة تطلق أصوات زمجرة غاضبة لا تطيق ما يحصل مع عامر، أوشكت أن تنهال بسيل شتائم جديدة للأسعد

الجنابي هذا؛ لكن أوقفتها حالة عامر وهو يحدق هكذا في السقف كأنه يحاول إيجاد منفذ جديد ليحقق رغبته، أشفق قلبها وتلاشى حنقها لتجلس على حافة السرير جوار ولدها وهي تقول له بدعم أمومي: «سأجعل سليم يكلمه مرة أخرى».

هز عامر رأسه رافضاً وهو يقول بحاجبين معقودين: «لا نونة لن أرتضي لأبي أن ينزل قدره أنا أتحمل هذا لأجل حرير لكن الحاج سليم لا».

كم تحب أولادها وولائهم لأبيهم وولائهم لبعض تميل بفمها لتقبل خده ثم تسأله بعاطفية أمومية متدفقة كشلالات الشمال الهادرة: «أخبرني ماذا قلت له؟».

رد وهو يرخي أجفانه قليلاً: «أمي أنا متعب وأحتاج لخلوة كي أجد طاقتي لو سمحت».

كلمة (أمي) منه تعني أن ما فيه اللحظة جدي للغاية، تحاوط نونة كفه بكلتي كفيها ثم ترفع تلك الكف لفمها تلثم باطنها بحنان لا يقاوم وتسأله: «فقط قل لـ (نونة) وأنا أعدك أنني سأجبرها بعدها على تركك لخلوتك».

يضحك عامر بخفة وهو يبادل أمه ما فعلته ليسحب كفها ويلثمه قبل أن يتنهّد ويخبرها بالقول: «قلت له أن يمنحني الفرصة لأثبت له أنني استحق ابنته طلبت منه ولو خطبة غير رسمية نتزاور فيها كعائلتين ونوطد معرفتنا ببعض، لنذوب أي اختلافات يراها هو تمنع الزواج؛ لكنه كان يرفض حتى

قبل أن أتم الجمل».

تعقد نورجان حاجبيها وهي تقول باستياء لا يخلو من العجب: «غريب هذا الرجل».

نظر إليها نظرة متعبة ليقول بابتسامة صغيرة تخفي دخيلة نفسه: «الآن دعيني لخلوتي وخذي (نونة) معك».

تبتسم له وقلبها يتوجع لابتسامته الحزينة فتميل لتقبل خده قبلات كثيرة قبل أن تتركه بمفرده، كانت تنوي الذهاب إلى سليم والتكلم معه بخصوص عامر وموضوعه الذي يتعقد، عندما غيرت رأيها وقررت الذهاب إلى عمر في غرفته.

شعرت أن عامر يحتاج لدعم أخويه ومواساتهما وربما حان الوقت لعمر كي يخرج من اعتزاله وتباعده، دخلت عليه الغرفة بعد طرقات استئذان لتجد الغرفة تعم بالظلمة فنادت همساً: «عمر هل أنت نائم؟ ما زلنا في أول الليل».

شغل عمر الإضاءة الجانبية جوار سريره وهو يقول بصوت هادئ: «كنت أرتاح قليلاً يا نونة».

تقدمت إليه مبتسمة لتجلس على حافة السرير جواره كما فعلت قبل دقائق مع أخيه لتمد كفها وتداعب شعره بحنان ثم تقول بنبرة حنونة عسى أن تؤثر فيه: «أخوك عامر مُحَبَط للغاية».

تصلبت ملامح وجه عمر تلقائياً ليقول ببرود: «وما دخلي أنا».

تبتئس نورجان وهي تقول بوجعة قلب أم: «هذا شقيقك كيف تقول ما دخلك؟! أنتم الثلاثة أرواحكم في بعض».

أغلق عمر عينيه كأنه يحمي نفسه من تأثير نونة عليه ليقول بصوت منخفض: «عامر سيتدبر أمره لا تخشي عليه».

لم تفقد الأمل وهي تسأله برجاء: «ألن تذهب إليه؟ تكلمه تشد أزره».

بكلمة واحدة نطقها وهو ما زال مغمض العينين: «لا».

هتفت به: «عمر!».

لكنه اكتفى بالقول: «أرجوك نونة قضيت اليوم بطوله في عمل شاق في المحل أحتاج أن أنام باكراً لأصحو نشيطاً صباح الغد».

مدت نورجان يدها لتطفئ الإنارة وهي تقول بتدليل أمومي حلو: «سأطفئ الإنارة لكن لن أتركك سأظل أناغيك حتى تغفو كما كنت تحب أن أفعل لك وأنت طفل».

استسلم عمر لتدليل أمه وفي داخله كان يعترف بحاجته لهذا، يحتاج العودة لتلك المنطقة النظيفة من أعماقه لتعيّنه كي يتجاوز شعوره بالبشاعة والنفور والغضب.

بعد نصف ساعة دخلت نورجان الغرفة لتجد زوجها ما زال على سجادة الصلاة؛ لكنه وضع المصحف جانباً والهاتف على أذنه وهو يودع أحدهم ببرود، تساءلت نورجان: «مع من كنت تتكلم؟! تبدو منزعجاً».

ألقي سليم الهاتف على السجادة وهو يقول بعبوس: «كنت أقرأ القرآن في أمان الله ليفسد علي اندماجي اتصال هاتفي من أسعد الجنابي».

تقدمت نورجان لتحنني وتجلس على السجادة قبالة زوجها وهي تتساءل بضيق متفاقم: «ماذا يريد هذا الرجل ألا يكفي ما فعله مع عامر الليلة؟».

رد سليم متجهماً: «لأجل هذا اتصل يشتكي من عامر أنه يلح بطلب ابنته ويلاحقها في الجامعة يحاول التأثير عليها وإقناعها، ويسألني التدخل لمنع عامر من الإلحاح أكثر بطلب الزواج».

اتسعت عينا نورجان في انفعال لتسأل من بين أسنانها: «وهل ستفعل؟».

رد سليم بنظرة عنيدة نادرة منه وتعرفها جيداً: «في الواقع كنت سأفعل؛ لكن أسلوب الرجل الجاف العدائي استفزني، فقلت له ببساطة إن ولدي لم يتعد الأصول ومن حقه أن يكرر المحاولة لنيل طلبه أكثر من مرة ما دام يدخل البيت من بابه لذلك لن أتدخل ولن أكلمه، كما أخبرته أنني ربيت أولادي الثلاثة ليكونوا رجالاً يسعون بأنفسهم ويتحملون مسؤولية أفعالهم».

ارتاحت نورجان قليلاً لتعبر عن رضاها بالقول: «هذا جيد.. دع عامر يفعل ما يشاء».

التقط سليم المصحف وهو يقول بنبرة غامضة: «سأدع عامر ليمشي طريقه ويتعلم من أخطائه وعلى قدر إشفاعي عليه على قدر رضاي لما يحصل معه».

لم تنتبه نورجان لمعنى كلمات زوجها فقد استغرقها التفكير لتجد طريقة تعين بها ولدها فسألت زوجها: «هل أتصل بأمها؟ ما رأيك؟».

بحزم حذرهما سليم بالقول: «لا تتدخل يا نورجان هذا الزجل صعب للغاية وكثرة الضغط من عدة اتجاهات قد يجعله يتطرف كما أن أمي لمحت أموراً عن شخصية والدة حرير، قالت لي وهي متعاطفة مع تلك المرأة كيف أنها مسكينة وتهاب زوجها بوضوح».

وافقت نورجان كلام حماتها وهي تقول: «أجل لاحظت هذا نوعاً ما».

فقال سليم مؤكداً على وجهة نظره: إذن لا فائدة من التواصل معها».

عندها قالت نورجان ببعض الحماسة: «ماذا عن حرير؟! صحيح كانت متحفظة في الجلسة إذا جاءت سيرة عامر؛ لكنني أنثى وأشعر بالأنثى مثلي في قلبها ميل نحوه أؤكد لك ربما ليس حباً كما يطمح عامر منها لكن الميل موجود».

ما زال المصحف في يد سليم لم يفتحه وهو يرد على زوجته بكلام منطقي: «ربما ما تقولينه صحيحاً لكن واضح أن العائلة تأتمر بأمر الأب أسعد الجنايني».

تأففت نورجان وهي تقول محبطة حانقة: «أبي أيضاً صارم وكان يرفضك هو أُمي رحمها الله لكنني أصرت ولم أترجع حتى جعلتهما يوافقان ولو على مضض وكراهة».

رد سليم بحكمة: «لا الشخصيات متشابهة ولا الظروف؛ يا نورة كل عائلة لها أسلوب لتعامل أفرادها مع بعض، لكل بيت باب يحفظ خصوصيته التي لا يفهمها إلا أصحابها».

بقناعة عن صحة كلام زوجها عبرت نورجان: «أنت محق، لكن يغيظني أن يرفض ذاك الرجل ولدي بهذا الإصرار ولا يمنحه الفرصة ليصحح نظرتي إليه، قلبي يوجعني على عامر يا سليم».

فتح سليم المصحف ليستأنف القراءة وهو يقول: «ليت الأمر بيدي هو طريقه ومرسوم على جبينه منذ ولادته وسيمشي به لآخره».

بعد أيام ظهراً

(انظري لهذا الشاب والواو أنا مستعدة أن يخونني، المهم أن يكون

معي قبلها).

(هل هو زوجك أم...؟).

(يا ابنتي حرام أن تنشري صورة زوجك أو خطيبك وتكشفي سركما
هكذا، هداك الله أنا سأغادر هذه المجموعة، إنه خراب بيوت).

(إن كذبتُ وقلتُ إنني أقيم معه علاقة فهل يمكن أن تتحقق الكذبة؟).

(لم يسبق لي معرفته، لكنني أشبه عليه، أين رأيته يا ترى؟ إن تذكرت
أخبرتكَ بكل التفاصيل).

(شاب وسيم ما شاء الله من حقك الغيرة عليه).

(لا أعرفه).

(وإن اكتشفتِ خيانتَه ماذا سيتغير؟! صدقيني لا شيء أنا أعرف بكل
خيانات زوجي وما زلت مستمرة معه وأدعي أنه لا يفعل فقط أتمنى لنفسي
الموت كل يوم كل ساعة ولحظة).

(أعطني عنوانه وسأراقبه لك).

(لا أراه وسيماً لهذه الدرجة يذكرني بممثل تركي ثقيل الدم).

تقرأ هيام التعليقات على المنشور نفسه والعرق يتصبب بغزارة من كل
جسدها، عرق بارد مع تباطؤ في نبضات القلب، منذ أن أنزلت المنشور قبل

أيام لا تذكر عددها وهي تقضي الساعات لا تفارق الشاشة تستغل غياب علي بالعمل، بينما هو يتصل بأوقات متقاربة ليطمئن عليها؛ لكنها باتت تشعر أن ذهنها مغيب يطفو فوق غمامة سوداء قاتمة من عذاب متفاقم لا يحتمل وليس بيدها إنهاؤه أحياناً تصحو بعد منتصف الليل ودون تفكير تنسحب من جوار علي وهو نائم لتتسلل إلى حاسوبها كي تقرأ مزيداً من التعليقات، حتى اللحظة لم يأتها تعليق جدي واحدة فقط من قالت إنها (تشبه عليه) لكنها لم تعد إليها بإجابة واضحة، حتى إن هيام فكرت جدياً بمراسلتها لتسألها؛ لكنها تراجعته وهابت السؤال كما تهاب أجابته.

رنين هاتفها يأتي من بعيد فيشوش عليها أفكارها المشوشة من الأساس، تشعر ببعض الخدر وكسل فظيع أن تدفع نفسها لمغادرة الكرسي كي تذهب إلى حيث تركت هاتفها على الشاحن في زاوية غرفة المعيشة، بضعة أمتار تفصلها عنه ولا تجد في نفسها قوة أو رغبة، عادت لتحقق في شاشة الحاسوب وعيناها تنتظران بلهفة مريضة تعليقاً جديداً يمنحها أملاً أو ربما ألماً، لقد ولّت رهبة تنزيلها لصورة زوجها فلم يحصل شيء حتى الآن يشير مخاوفها من أن تنكشف فعلتها، فلا أحد تعرف على زوجها كما أن الخبر لم يصل لعللي وهذا جعلها تتخدر وتغرق فيما هي فيه أكثر، شعرت وكأنها محاطة بفقاعة أمان كاذبة تمنحها كل الحرية لتسأل بوضوح عما يقض مضجعها منذ ارتباطها بعلي، باتت تكره نفسها وهي تجلس هكذا كمن ينتظر جرعة عالية مباغتة من السعادة؛ لكن أي سعادة هذه التي تنتظرها؟!

ماذا تريد؟ وأي (تعليق) قد يقنع وساوسها أن لا أساس لها فترتاح! هل سيأتي ذاك اليوم الذي سترتاح فيه؟!

تشعر برائحة جسدها ليست محبة وشعرها معقود بعشوائية أعلى رأسها، ملابسها لم تغيرها منذ يومين ماذا يجري لها؟! حتى دراستها أهملتها ولم يعد لها شاغل إلا هذه المجموعة، بل إنها باتت تشعر بتبلد عاطفي حتى نحو علي حالما يدخل الدار تسارع للانسحاب مدعية حاجتها للنوم لإرهاقها بالدراسة، وترفض كل محاولاته للكلام عاجزة عن أي تواصل كأنها محبوسة في زجاجة عنقها ضيق للغاية، فلا تستطيع الخروج منها، وعلي يكلمها ينظر إليها يطالبها الخروج وهي لا تسمع ولا تستجيب ولا ترغب حتى، لا تفهم نفسها لا تفهم نفسها على الإطلاق كيف تريد مغادرة تلك الزجاجة لتصل إلى حبيبها المنادي، وفي الوقت ذاته تأبى محاولة الخروج وتستكين في القاع؟!

إنه الفخ الشرك الذي وقعت فيه ومستسلمة له، لم تنتبه أن الهاتف توقف عن الرنين إلا عندما أجفلت على صوت رنينه مرة أخرى، أدركت أو توقعت أنه علي يجب أن ترد وإلا التساؤلات التي تتزايد في عينيه سيزيدها تساؤلاً. جديداً إنها بشق الأنفس تقنعه أنها طبيعية وإنما تعبها بسبب ضغط الدراسة التي تريد إنهاؤها، عندما وصلت لهاتفها أخيراً كانت تلهث كأنها قطعت مسافة طويلة.. طويلة للغاية، فتحت الخط وهي ترد بنبرة باهتة رغماً عنها كأنها لا تريد محادثته: «مرحباً علي».

جاء صوته مكتوماً بالقلق وربما بعض الحنق والتوتر: «أين كنت؟
قلقت عليك».

ردت وعيناها تنجذبان إلى ناحية حاسوبها المفتوح على منصتها:
«أدرس».

مرت لحظات صمت قبل أن يقول علي بنبرة حلوة كأنه يهادن طفلة:
«تبدلين مستنزفة منذ يومين بسبب الدراسة، ما رأيك أن نأخذ استراحة من
دراستك ومن عملي لبضعة أيام أو حتى أسبوع ونذهب سوية للشمال الجو
هناك أجمل بكثير من العاصمة ونحن على أبواب الصيف».

شعرت بالرفض التلقائي يفوق قدرتها على كتمانها لتقولها بنبرة جافة
موتخة: «علي أقول لك أدرس وأنت تقول نذهب للشمال!».

ساد صمت آخر أطول من الأول. كان كافياً لتشعر هيام بسخافة أسلوبها
وخشونة كلماتها ولسبب ما يتحملها علي ولا يظهر غضبه، قال أخيراً بنبرة
غريبة: «لكنك تأخذين بعض الراحة لتدخلي الفيسبوك أليس كذلك؟!».

أخذ قلبها ينبض بتعب حقيقي في صدرها بينما ترد بتلعثم تداريه بكلمات
مضللة غير صادقة، حتى كادت أن تخدع نفسها!: «نعم أحياناً لكن لدقائق
قليلة ثم أشعر بالملل ومضيعة الوقت فأعود للدراسة».

بيحة خاصة عاد علي للدعوة فيقول: «وإن قلت سأختطفك رغماً عنك

وأخذك عنوة في تلك السفرة التي أخطط لها، جدي زيدون لديه بيت صغير بين الغابات لسفريات كهذه».

دمعت عيناها وهي تتمتم بضياح: «علي!».

لكنه يواصل محاولات إقناعه بأسلوبه الساحر وصوته الرجولي الأجش: «حيث الطبيعة الرائعة والمياه العذبة والهواء العليل والوجه الحسن كم أعشق الوجه الحسن».

دون تفكير همست: «وأنا أيضاً أعشقتك».

شع الرضا من صوته وهو يقول بنبرة انتصار: «إذن اتفقنا سأتصل بجدي لأستأذن منه استخدام البيت سنكون أنا وأنت فقط حيث لا حاسوب يفسد علينا».

وكأنه ضغط على الزر الخطأ لتهتف: «لا».

لم يكن قلبها فقط ينبض بل كل خلية فيها شعرتها تنبض بإحساس يخيفها وهي تحقق باتجاه الحاسوب، في لحظة شعرت أنها لا تستطيع لا تستطيع قبل أن تجد مرسى طمأنينة، كان جنوناً وهي في داخلها تعرف أنه جنون؛ لكن حاجتها لتعرف أكثر جنوناً وسلطاناً، كل تلك القصص التي تقرأها تضغط عليها، تلح عليها كي تعرف، لم تعد تستطيع التراجع الآن، كان يجب أن تعرف، شعرت بجفاف فمها وهي تبرر لزوجها حالتها: «أقصد لا ينفع، يجب أن أبقى، لا أستطيع دون الحاسوب، بل لا أستطيع السفر ولو

حتى ليوم واحد، دراستي مهمة للغاية، أنا آسفة».

بعد لحظتين جاء صوت علي بارداً: «بل أنا آسف لأن ما أقدمه ليس كفاية ليخرجك مما أنت فيه».

همست بضعف: «ماذا تقصد؟».

رد منهيأ المكالمة: «لا شيء يا هيام سأذهب الآن لدي عمل والحاج سليم يناديني أراك مساءً».

أغلق الخط وهيام تقف مكانها وكأنها لا تشعر بشيء، أعادت الهاتف لتربطه بالشاحن بحركة آلية ثم خطت عائدة إلى حاسوبها وتنتظر، وبينما هي تنتظر كانت تقرأ منشوراً جديداً لانهيار زوجة وقد صارتها إحداهن للتو أنها تعرفت على صورة زوجها وأن الفتاة أقامت علاقة مع زوجها لعامين كاملين كانت شفتا هيام ترتجفان ودموعها تهطل وألم حاد في صدرها وكأنها هي المطعونة بأفكار مشوشة أخذت تتمم هيام وهي تشهق بالبكاء: آه يا علي لو تعرف كم أتألم!».

سأل سليم ولده الأكبر وهو يراه يلف القماش بحركات خشنة منفعلة بعد إنهائه للمكالمة الهاتفية مع زوجته، اقترب منه ليسأله بصوت خفيض: «ماذا هناك؟ هل هناك مشكلة جديدة مع هيام؟».

أصابع علي تقلصت حتى جعدت القماش وهو يرد على أبيه: «أنا قلق على هيام فيها شيء يتعبها يمتص طاقتها».

أشار له والده كي يرافقه للمخزن ففعل علي وهو يتنهد، في هدوء المخزن وخلوته سأل سليم باختصار: «كنت تقول إنك قلق على هيام وإن هناك ما يمتص طاقتها ربما هي الدراسة يا علي ليس أكثر».

رد علي بتوتر وانفعال: «هذا ما تدعيه هيام لكني لا أصدقها بل بدأت أشك أنها تهمل دراستها».

يعقد سليم حاجبيه بتساؤل بينما يضيف علي مفصلاً عما يدور برأسه منذ أيام: «أظنها لا تفارق صفحات الفيسبوك والأدهى أنا واثق أنها تدخل من حساب وهمي».

تساءل سليم: «ماذا تقصد حساباً وهمياً؟! أنا لا أفهم بهذه الأمور كثيراً».

تنهد علي وهو يشرح لأبيه باختصار: «أنا وهيام كل منا لديه حساب شخصي على الفيسبوك باسمنا المعروفين به غالباً ندخل إليه من تطبيق الفيسبوك في الهاتف، أظن هيام بل واثق أنها سجلت بحساب جديد وتحت اسم مستعار تدخله سراً من حاسوبها».

ارتفع حاجبا سليم قليلاً وهو يسأل بعجب: «لكن لماذا تفعل هذا؟!».

رد علي وهو محرج من أبيه والموقف برمته: «هيام مهووسة بفكرة أنني

أخونها أو سأخونها ليس لدي تفسير لموضوع الحساب المزيف إلا أنها ستحاول التودد إليّ تحت اسمها المستعار مدعية أنها فتاة غريبة تسعى لإقامة علاقة، تفعل هذا لتتأكد من وفائي لها».

تمتم سليم مذهولاً: «يا إلهي!».

كان علي مضغوطاً للغاية وهو يقول بانفعال: «كل يوم بل كل ساعة أراقب حسابي على الفيسبوك أنتظر منها هذه الخطوة، وفي الوقت ذاته أراها مشتتة تائهة كأنها تصارع نفسها، ولم أعد أعرف تصارع ماذا بالضبط؟! أتراها تقاوم إكمال التمثيلية معي؟ أم أن هناك شيئاً آخر لا أعرفه».

يعقد سليم حاجبيه وهو يقول لولده: «عليك مواجهتها بكل هذا».

ضحك علي ضحكة قصيرة ساخرة تفيض بالغضب والألم والحيرة وهو يرد على أبيه: «أواجه هيام؟! أنت تحلم أبي لن نصل إلا إلى شجار وانهيار كامل وفقدان السيطرة، ستنكر كل شيء وسندخل بمتاهات جديدة ليتني كنت أستطيع فقط الدخول لحاسوبها لأعرف ما تفعله بالضبط رباة لا أصدق أنني أفكر حتى بفعل هذا معها! وكأننا زوجان يتبادلان شعور عدم الثقة والتخوين».

بدأ سليم يشعر بغضب مماثل لغضب ولده فيقول ببعض العصبية:

«أجبرها أن تريك حاسوبها بنفسها، قل لها اثبتي لي أنني مخطئ».

فرد علي بيأس وهو يمرر يده في خصل شعره: «إن طلبت منها هذا أو حاولت إجبارها لتفتح لي حاسوبها لن أتفأجا أنها سترميها أمامي على الأرض وتحطمه بيد الهاون!».

تمتم سليم وقد بدا يقلق جداً: «ألهذه الدرجة؟! هل تصل هيام إلى هذه الدرجة؟!».

رد علي وهو مرهق من التفكير: «أنت لا تعرف هيام يا أبي أنا نفسي أشعر أنني لم أعرفها لأن (هيام) التي أعيش معها مؤخراً ليست هي ذاتها هيام التي أحببتها وتزوجتها، إنها غريبة عني أكاد لا أعرفها».

أخذ علي يتحرك في مساحة ضيقة وكأنه أسد غاضب محبوس في قفص، وهو يضيف لاهث الأنفاس مشئت الأفكار: «لأشهر ظننت تعكر مزاجها الدائم وزيادة شكوكها وغيرتها بسبب حبوب منع الحمل؛ لكن لا حبوب منع الحمل كانت سبباً لإظهار ما تخفيه وها أنا أدخل دوامتها ونكاد نغرق معاً لقد لجأت لكل الحلول، لكل شخص له تأثير عليها قدمت لها الدعم والتفهم والدلال بذلت كل ما أستطيع لمنحها إحساس الأمان صبرت وتجاهلت وأنا في داخلي أغلي، غضبت وتشاجرت وهجرتها عسى أن تعي إلي أي درك نهبط، كله لم ينفع أبي إنها لا تثق بي كما لا تثق في نفسها وربما تعاني مشكلة أكبر لا أعرفها».

يراقب سليم ولده وهو لا يعرف ما يقوله له هو الآخر، لقد بدأ يفكر جداً

أن هيام ربما تحتاج لمساعدة مختصين؛ لكن فتاة مثلها بإحساس النقص الذي تعانيه هل سترضى؟!

قال سليم أخيراً: «ماذا تنوي أن تفعل؟».

توقفت خطوات علي الثائرة لينظر إلى أبيه ويقول: «سأنتظر للأسبوع آخر، إن فعلتها وحاولت التواصل معي بهوية مزيفة سأواجهها وإن لم تفعل ولم تتحسن حالتها لن يكون أمامي إلا دفعها لتراجع أخصائية نفسية».

قال سليم وهو يواسي ابنه: «ليس هناك شيء آخر تفعله أعانك الله بني».

في اليوم التالي صباحاً

كانت حريز توشك الوصول إلى القسم عندما رأت من بعيد هيئة عامر وهو يقف بصحبة صديقتها وفاء ويسمة، شعرت بالغضب.. بكثير من الغضب؛ لكنها لا تعرف مما هي غاضبة بالتحديد، ودون أن تفكر وخارجاً عن طباعها الهادئة المتأنية وجدت نفسها تحت خطاها لتوجه كل غضبها نحو ذاك (العابث) عابث بسكينتها، بدت بسمة عابسة بتركيز وهي تستمع للحوار بين عامر ووفاء التي تصدرت الكلام معه فيقول عامر برجاء: «أريد أن أتقرب منها فقط».

ردت وفاء ببعض الإحباط: «حرير صعب التقارب معها».

لكن العزم في عينيه لم ينثن وهو يقول: «أنا أريد المساعدة فقط منكما لأنني لن أتوقف كل ما أريده ترتيب فرصة مع حرير لأكلمها دون ضغط مخاوفها من أبيها».

الآن بسمة كانت مترددة وهي تنقل نظراتها لوفاء وكأنها تقول لها (هذا لا يمكن)، بينما وفاء صمتت بتفكير ليحثها عامر بالقول اللين المقنع: «أرجوك وفاء ولو حتى في الشارع».

للتو كانت وفاء ترد: «أنا».

عندما قاطعتها حرير وهي تهدر من بين أسنانها: «ماذا تفعل هنا؟».

ارتفع حاجبا بسمة في عجب وهي تحقق في وجه صديقتها التي لم ترها بتعابير غاضبة هكذا من قبل أما وفاء فتتنقل نظراتها من حرير الغاضبة إلى عامر الذي ابتسم فمه تلك الابتسامة ذات التأثير وأصابعه ترتفع ملازمة مكان قلبه ثم يداعبها بكل برود وهو يقول مدعياً الدهشة: «هل تكلميني يا آنسة؟! عفواً هل أعرفك؟!».

تسحق حرير أسنانها وتلك الابتسامة منه مع أسلوبه الخاص بالشقاوة يجعلها تغضب أكثر لترد عليه بعينين تبرقان: «غادر الجامعة ولا تحم حولي ابتعد عني عامر هل تفهم؟! فقط ابتعد عني ودعني لشأني».

تلاشت تعابير الشقاوة من وجهه لتظل الابتسامة عالقة على شفثيه وهو ينظر بجذل إليها كأنه غارق في السعادة لمجرد النظر ثم يرد بهدوء شديد مستفز: «هذا لن يحصل».

رفعت سبابة مرتجفة في وجهه وهي تقول بالغضب نفسه: «قد لا أستطيع إجبارك ويبدو أنك لا تملك لياقة أخلاقية لتفعلها من نفسك لكن...».

يقاطعها وهو يهز كتفيه ببساطة قائلاً بمزحة مشاكسة: «لكني أملك لياقة بدنية عالية وأستطيع ملاحقتك مهرولاً لآخر العمر، لن تجاريني في هذا».

انفجرت بسمة أولاً في الضحك لتتبعها وفاء ولم تستطع الصمود أكثر فتزمجر حرير وهي تشعر بحرارة تخرج من أذنيها: «على ماذا تضحكان أنتما الاثنان؟!».

كلتاها رفعتا كفيهما لتغطيا فمهما وتكتما ضحكتهما، بينما تعود حرير لعامر وهي توجه له تهديداً صريحاً: «قسماً بالله يا عامر القماش إن رأيتك ثانية في الجامعة سأبلغ الحرس الجامعي أنك تتحرش بي».

هذه المرة كان عامر من ينفجر ضاحكاً بينما حرير تشعر أنها على وشك فعل أمر لم تفعله في حياتها إن تصفعه مثلاً، هالها منحى العنف والجرأة الذي تتجه نحوه بينما تحرق في ضحكة عامر التي تزيده جاذبية ثم بدأت تلاحظ بعض العيون (الأنثوية) انجذبت إليه من هنا وهناك، احمرت وهي تتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعها فتطرق بنظراتها العابسة بينما تسمع عامر

يقول برقة عذبة: «هذا الأسبوع الأخير قبل بدأ إجازة الأسبوع التي تسبق الامتحانات وأنا أتيت فقط لأتمنى لك التوفيق لذلك لن تربني حتى انتهاء الامتحانات، رغم أنني قد أنتحر قبلها من شدة الاشتياق».

اللعنة قلبها يعاود هذا الخفقان الأبله! فجأة شعرت بشيء غريب فرفعت وجهها لتجد نفسها بمفردها معه! همست بعينين متسعيتين صدمة: «أين وفاء وبسمة؟!».

رد بهمس مبحوح وهو يتابع حركة شفيتها: «مَنْحَتَانَا بعض الخصوصية بالحوار». ابتعدت تلقائياً نصف خطوة للخلف وهي تأمره بصمود: «ارحل ولا تعد».

لكنه ابتسم ثم قال بإصرار: «أنا سأرحل وسأعود وسأتزوجك وسأجعلك تحبينني قسماً بالله سأفعل هناك (س) كثيرة أعدها لك».

عصراً

تترجل وفاء من سيارتها الصغيرة لتتبعها كل من صديقتها بسمة وأختها الصغرى رونا هي، وفاء تحرق بعبوس فيهما معاً وهي تراهما تلتهمان شطيرة (الفلافل) بشهية عجيبة، تمت وفاء حانقة: «يا إلهي كيف سأدخل بكما أنت ورونا إلى المحل وكل واحدة منكما تحمل شطيرتين! شطيرة تلتهمها وشطيرة تحملها بحرص كأنها كنز، والأدهى الرائحة التي تفوح قبلكما بمر،

لا أصدق أنني طاوعتكما لتجبراني التوقف أمام مطعم الفلافل».

عبست الفتاة ذات السادسة عشرة وهي تقضم من شطيرتها وتدفع نظارتها الطبية أعلى أنفها ثم تقول مصححة بنزق المراهقات: «اسمي رونا هي».

تهز وفاء رأسها بإحباط فكا هي وهي تحت الخطى قبلهما، بينما تلحق بها بسمه وهي توبخها همساً: «كم مرة قلنا لك إنها فخورة باسم جدة أُمي ذات الأصول الكردية متى ستتوقفين عن مناداتها اختصاراً بـ (رونا)؟!». .

نظرة من وفاء للخلف لترى المراهقة تتباطأ خطواتها وقد جذبت نظراتها بعض الملابس المعروضة في إحدى المحلات التجارية التي تملأ الشارع ذهاباً وإياباً فتسأل بسمه همساً أيضاً: «لماذا أحضرتها معك؟!». .

ردت بسمه وهي تمسح جانب فمها بالمنديل الورقي: «أُمي أصرت أن أخذها لتغير الجو قليلاً في فترة الامتحانات بدلاً من جلوسها على الهاتف وهي تأكل باستمرار». .

علقت وفاء بأريحية فعلاقتها قوية بسمه وعائلتها: «وكأنها توقفت عن الأكل وهي خارج البيت! على الأقل أنت رشيقة! لكن رونا تحتاج على الأقل خسارة خمس كيلوغرامات لتقارب رشاقة الفتيات في سنها». .

أشارت بسمه بسبابتها على فمها في علامة (السكوت) فصمتت وفاء وأكملت خطاها التي تقودهن هن الثلاثة إلى محل (القماش/الفرع الثاني).

بعد ربع ساعة أو أقل بقليل كانت رونا هي تشعر بالضيق وقد انشغلت عنها أختها بسمة مع صديقتها وفاء لتتكلم مع صاحب المحل عامر القماش.

اختلط الضجر بالحنق بمزاج المراهقات المتقلب لم تهتم لتوصيات وفاء الصارمة أن لا تفتح شطيرتها الثانية في المحل وبعناد كانت تخرجها من الكيس وتمزق لفافة الورق من حولها فتشعر تلقائياً بالتحسن، أخذت تقضم وتتلذذ بسعادة لا يهمها وزنها الزائد وعجزها عن ارتداء ملابس كثيرة يرتدينها الفتيات في سنها، لا يهم أنها لا تملك من مواصفات الجمال إلا شقرة شعرها التي ورثتها من جدة أمها، كما لا يهمها تلك الإشارات البغيضة حول ارتدائها النظارات الطبية التي تقلل من جمالها، أخذت تقضم من شطيرتها وشعورها يتحسن أكثر وأكثر بينما تسخر بطفولية من كل الفتيات الرشيقات الموجودات من حولها الآن وكأنهن تجمعن كلهن هنا في موعد مسبق كمؤامرة كي يحاولن إثارة نقمتها على نفسها؛ لكن أبداً لن ينجحن وبعناد كانت تحشو فمها بقضمتين دفعة واحدة وهي ترمقهن بتحدٍ.

خرج عمر من المخزن ليناوّل أحد العمال لفافة قماش كي يحملها لمكانها، عندما وصلته رائحة (الفلافل بالمخلل) عقد حاجبيه وهو يبحث عن مصدر هذه الرائحة فيرى فتاة مراهقة شقراء تميل للسمنة تقف وسط المحل تقريباً لا تبالي بأحد وهي تلتهم شطيرتها حتى امتلأ فمها بشكل مضحك، بينما تنظر من خلف زجاج نظارتها الطبية إلى من حولها بنوع من

العدائية والتحدي، اقترب أحد العمال وهو يشتكي: «الفتاة ملأت المحل
برائحة الفلافل هل أذهب إليها وأطلب منها الخروج يا عمر؟».

رد عمر ببعض العبوس: «ليس هكذا نعامل الزبائن ثم إنها فتاة صغيرة».

ليخطو عمر باتجاهها وهو يضيف: «أنا سأصرف معها».

اقترب حتى وصل إليها وابتسامة مراعية كلمها: «مرحباً هل تحتاجين
للمساعدة في شيء يا آنسة؟».

الفتاة استدارت بحركة حادة مجفلة وحالما وقعت عيناها عليه تلاشى
العبوس وفغرت فمها الممتلئ بالطعام ليكتمل إحراج الموقف والشطيرة تقع
من يدها وهي ما زالت تحقق في عمر بانبهار، ضحك بعض العمال فزجرهم
عمر بصرامة أن يصمتوا وأمر أحدهم كي يحضر للـ(آنسة) شطيرة أخرى ثم
انحنى بنفسه كي يللم الشطيرة التي تناثر بعض محتواها على الأرض وقبل
أن يقف كانت الفتاة تهوّل مبتعدة هاربة.

يقترب عامل بكيس ليضع فيه عمر باقي الشطيرة، بينما يراقب تلك
المراهة تتجنب النظر إليه وهي تقف بارتباك جوار شابتين يعرفهما جيداً.
أنهما وفاء وسمّة صديقتا حرير، وقد كانت كلتاهما تتحاوران بجدية مع
شقيقه عامر يعبس عمر وينسحب للحمام كي يغسل يديه، بينما يفكر
بتباعده هذا عن شقيقه؛ لكن قلبه لم يسامح بعد.

عندما خرجت وفاء مع بسمة، كانت الأخيرة تقول ببعض الشعور بالذنب:
«لا أعلم وفاء أظن هذا لن يعجب حرير، يفترض أن ولاءنا لها وليس لعامر
أظن أنني أخطأت بموافقتك المجيء إلى هنا كي نساعدته».

ردت وفاء وهي تسير مع صديقتها لتصل لمكان ركن السيارة قائلة:
«نحن نفعل هذا لأجل حرير يا بسمة، كما أنني لا أحاول جمعهما بمكان
بمفردهما بل ستيكون معهما عشرات البشر».

ما زالت بسمة غير مقتنعة تماماً، بينما انشغلت الاثنتان عن رونا هي التي
تجر جر خطواتهما جراً، بينما تشعر بإذلال لن تنساه لآخر الغمر كما لن تنسى
كلمة (آنسة) من ذاك الشاب.

بعد أيام

ثلاث فتيات اجتمعن للدراسة معاً في بيت إحداهن وبعد بضع ساعات
شعرن بالملل والتعب فيتركن تحضيرهن للامتحانات النهائية ليدخلن إلى
العالم الافتراضي الأزرق

قالت الأولى بابتسامة متسلية وهي ممددة بكسل على سريرها: «لم
أخبركما عن هذه المجموعة التي انضمت لها قبل يومين».

تساءلت الثانية بفضول وهي تجلس على كرسي الدراسة الخاص

بصديقتها: «أي مجموعة؟».

ترفع الأولى وجهها لترد بتعابير شريفة مضحكة: «مجموعة اسمها (كيف تعرفين زوجك الخائن) لقد دخلتها من حسابي الآخر حتى لا يعرف أهلي ويوبخونني».

هزت الثالثة رأسها وهي تغرق بالكرسي الملون الجلدي المنفوخ في زاوية الغرفة ثم قالت: «سمعت عنها من أمي كانت مستاءة كثيراً مما يحصل في تلك المجموعة وتخبر أبي عن المنشورات التي تنزل هناك وكيف أنها لا تصدق مقدرة أي امرأة على الإفصاح عن أسرار بيتها بهذه البساطة ومع أناس غرباء لا تعرفهم، كما لا تستوعب موضوع إنزال الصور كي تسأل صاحبة المنشور (من تعرف زوجي)!».

هتفت الأولى ولم تهتم بكلام الثالثة الجدّي (الممل): «وااااا يا له من شاب وسيم».

تحفزت الثانية بينما الثالثة لم تبال كثيراً، غادرت الثانية كرسي الدراسة لتضطجع جوار الأولى على السرير وتشاركها ما تراه على شاشة هاتفها النقال، أخذت الثانية تصفر ثم فجأة توقفت لتقرب الشاشة من وجهها تحقق ملياً في وجه الشاب فتقول بعدها ببعض التشكك: «أليس هذا علي القماش؟ أظنه هو، لديه وعائلته محلات الأقمشة المشهورة».

أخذت الأولى تحقق أيضاً ثم تقول: «لا أدري أمي دائماً من تشتري

الأقمشة أنا أفضل الجاهز».

تساءلت الثانية بفضول: «من تظنين (نور علي) هذه؟ صديقتة؟ أم زوجته؟ أم ربما خطيبته».

هزت الأولى كتفها ويرمت شفيتها علامة (لا أعرف) ثم فجأة التمعت عيناها بفكرة تظنها مسلية فتستقيم بجذعها لتجلس متربعة فوق سريرها قائلة بابتسامة متحفزة: «سأرسل لها رسالة أسألها ماذا تكون لعلي القماش».

عبست الثالثة وهي تسمع حوار صديقتيها بينما الثانية تعتدل جالسة هي الأخرى لتشارك الأولى المغامرة، بسهولة أرسلت الأولى لصاحبة المنشور (نور علي) رسالة خاصة كتبت فيها (مرحباً هل يهمك علي القماش في شيء؟).

تفاجأت كلتاها بسرعة الرد من (نور علي)

(هل تعرفينه؟)

كانت الأولى والثانية بقمة الاستمتاع وكل واحدة منهما تحفز الأخرى لاختيار الردود وكلما كان الرد فجاً بمحتواه كلما زادت متعتهما (أجل أنا معه منذ أشهر).

انتظرتا بترقب ردة فعل (نور علي) مرت لحظات بدت طويلة حتى جاء

ردها (هل تقيمين علاقة معه؟).

انفجرت كليهما بالضحك الهستيري بينما بدت الثالثة عابسة غير راضية، تقرأ الأولى بصوت مسموع الكلمات التي تكتبها إلى (نور علي) (أجل هل أنت أيضاً صديقتة؟).

أوشكت الثانية أن يغمر عليها من الضحك ثم فجأة شهقت الأولى لتقول باستنكار قائلة: «إنها تشتمني!».

نظرت الثانية للشاشة كي تقرأ الرد من (نور علي) (أيتها السافلة الحقيرة الرخيصة).

عقدت الثانية حاجبها بحنق لتقول بتحفز: «انتظري لا تردي عليها سأدخل لها من حسابي الخاص باسمي المستعار».

قفزت من السرير ناحية حاسوبها النقال الذي أحضرته معها لبيت صديقتها كي تقرأ، فأخذته وعادت للسرير وفتحت المتصفح على الفيسبوك ثم غيرت لحسابها المستعار ودخلت مباشرة إلى صفحة المدعوة (نور علي) وبفكرة شيطانية مكرة كانت تراسلها وهي تنتحل صفة ومهنة لا تعرف عنها شيئاً.

(مرحباً أنا الدكتورة مريم لقد قرأت منشورك وأظنك بحاجة لعلاج نفسي، لقد عالجت معظم النسوة في المجموعة ممن تعرضن للخيانة وأود مساعدتك إن كنت مهتمة بالعلاج عبر الإنترنت).

سألت الأولى: «ماذا تنوين يا مجنونة؟!».

أشارت الثانية بيدها بتحفز ورغبة انتقام طفولي وتلاعب لقتل الوقت الممل: «انتظري وسترين دوماً كنت بارعة في التمثيل وكم هو سهل أن لا أضطر لتغيير تعابير وجهي، فقط أحتاج لاختراع الحوار المناسب».

هتفت الأولى بإثارة: «لقد ردت عليك».

قرأت الثانية الرد بصوت مسموع (هل أنت طبيبة حقاً أم تخدعيني؟).

ضحكت الثانية لتكمل اللعبة المسلية فتكتب وهي تقرأ الكلمات التي تكتبها وكأنها مستمتعة بانتحال صفة الطبيبة (يا ابنتي أنا طبيبة مجازة منذ سنوات ولي مكant العلمية، أفعل هذا لوجه الله).

تنفجر الأولى ضاحكة بينما تقف الثالثة على قدميها وهي تقول بعبوس قلق: «أظنكما تماديتما هذه المرة».

لم تهتم لا الأولى والثانية لاعتراض الثالثة بينما تقرأن معاً سؤال (نور علي) للطبيبة المفترضة (هل لديك صفحة موثقة أو موقع إلكتروني؟).

التفتت الثانية للأولى لتسأل بالتحفز نفسه: «ماذا أقول لها؟! ستشك إذا لم تجد لي صفحة موثقة بما أدعيه».

لكن الأولى أسعفتها بالحل فقالت وهي تأخذ منها الحاسوب: «دعيني أرد أنا».

ثم بدأت بالكتابة وبأسلوب مقنع كانت تصوغ الكلمات بعناية (أنا لا أكشف هويتي وأستخدم اسماً مستعاراً كي أحمي نفسي كما تحمي النسوة أنفسهن في تلك المجموعة؛ لكن أسبابي مختلفة أنا أسكن في بلد أوروبي وهنا يأخذون ضريبة عمل وكل شيء يسجل إن اكتشفوا أنني أعمل سيعتبرونني متهربة من الضرائب وسأتعرض لمساءلة قانونية عقوبتها صارمة).

صفقت الثانية بإعجاب وهي تقول: «أنت رهيبة! من أين لك هذه الأفكار؟».

تهز الأولى كتفيها بحركة فخر وهي تقول: «لا أعلم من أين بالضبط؛ لكن مؤكد من الأفلام الأمريكية».

هتفت بهما الثالثة تحاول ردهما: «كفى لا تبالغا اتركها لشأنها».

الثانية هتفت للأولى وكلتاها لا تستمعان لصوت الثالثة التي تحاول إيقافهما عن لعبتهما الممتعة: «انتظري إنها ترد».

(أنا أيضاً استخدم اسماً مستعاراً؛ أنا أشك بزوجي، لا أتوقف عن الشك به، قبل قليل فتاة حقيرة قالت إنها على علاقة به، ولا أدري هل أصدقها أم لا! هل تستطيعين مساعدتي؟ أرجوك أنا محطمة، علاقتي تنهار به وصلت للحضيض أشعر أنه لا يطيقني).

كانت الأولى تقرأ رد (نور علي) فتهتف الثالثة وقد شعرت أن الموضوع سيزداد سوءاً: «قلت لكما اتركاها إنها امرأة تتألم ألا تشعران بها؟!».

عبست الثانية بانزعاج وهي تحقق في الثالثة وتوبخها بالقول: «لماذا أنت جادة بكل شيء هكذا؟! لا تكوني مملة نحن نلهو لا أكثر».

لتؤيدها الأولى بالقول الساخر الذي يحمل قسوة لا تدركها: «لا تقلقي عليها ستجدينها تلهو معنا على الجانب الآخر، بل ربما نفعل بها ونزوجهها خيراً بأن نشغلها قليلاً عن النكد».

أشارت الثالثة بسبابتها لكليهما وهي تقول بصرامة: «إن حصل لها مكروه هل ستسامحان نفسيكما؟!».

تأففت الثانية وهي تعود للتوبيخ: «بالله عليك صدعت رأسي، جديتك هذه ستحولك لامرأة كئيبة قبل أن تصلي الثلاثين».

لكن الثالثة لم تيأس وهي تحاول تنبيههما إلى ما تغفلان عنه فتقول بنضوج يسبق سنّها الذي لم يتعد السبعة عشر ربيعاً: «أنتما تستهينان بعذاب إنسانة من لحم ودم إنسانة لا تعلمان عنها شيئاً، قد تكون مريضة نفسية قد تكون مريضة بالوهم أو الفصام وقد تكون تتعرض لسوء معاملة، هل فكرتما أنها ربما مصابة بالقلب أو ارتفاع ضغط الدم أو حتى مرض السكري فماذا سيحصل لها وأنتما تتلاعبان بها بهذا الشكل؟! أنتما لا تعرفان شيئاً، لا شيء على الإطلاق».

بدأت الأولى والثانية وكأنهما شعرتا ببعض التردد وهما تتفكران في قول
الثالثة ثم طنين رسالة جديدة جعل الثانية تنتبه قبل الأولى لتقرأ تلقائياً كلام
(نور علي)

(أرجوك ردي عليّ أنا سأقتل نفسي لم أعد أحتمل الحياة بهذه الطريقة،
لم أعد أجيد التمثيل على زوجي لأوحي له أنني بخير أنا لست بخير).

ارتجفت الأولى وهي تضع يدها على فمها في وجل من هول الكلام وهي
تتخيله حقيقة، بينما تبتلع الثانية ريقها مع وصول رسالة جديدة أسوأ فتقرأها
على مسامع صديقتها

(اكتشفت بالأمس ظهور طفح جلدي ينتشر على طول ظهري، بدا جسدي
قبيحاً مثيراً للقرف أنا كلي قبيحة ربما إن أحرقت نفسي سيختفي كل هذا
القبح).

هتفت الأولى دون شعورها: «يا إلهي!».

عندها قررت الثالثة أن عليها إجبار صديقتها على التوقف فتقدمت نحو
السريـر وأخذت الحاسوب منهما وهي تقول بتجهم: «يجب أن تخجلا من
نفسيكما جدياً لم أظنكما بلا إحساس ولا أي شعور إنساني لهذه الدرجة أنا
أشعر بالخزي من صحبتكما».

لم تنطق أياً من الأولى ولا الثانية بكلمة بينما تكتب الثالثة رداً
(نور علي)

(أنا آسفة من قلبي لمعاناتك وآسفة لأن صديقتي تلاعبنا بك لأجل المزاح ولم تقدرنا معاناتك، صديقتي الأولى كلمتك باسم مستعار قبل قليل من حساب آخر تدعي معرفتها بعلي القماش، وفي الواقع لا أحد منا يعرفه بشكل شخصي؛ بل إحدانا فقط رآته في محل الأقمشة وعرفت شكله، أما الثانية فظنتها مزحة ولعبة وهي تكلمك من حساب آخر باسم مستعار أيضاً مدعية أنها طبيبة نفسية، في الواقع نحن لسنا إلا ثلاث فتيات بعمر السابعة عشرة نحضر للامتحانات النهائية ونشعر بالضجر، أعتذر مجدداً نيابة عنهما فلم يكن من حقهما التلاعب بك هكذا، وأرجوك لا تصدقي أحداً على الإنترنت).

تحقق هيام في هذا الرد المطول وهي تشعر بالجمود الكامل، الدموع التي ذرفت منها مدراراً حتى تبلل قميص نومها القطني قد تجمدت على خديها الشاحبين، أعادت قراءة الكلمات ببطء شديد كأنها تتأكد من قدرتها على القراءة وفهم المعاني، غابت صاحبة الحساب التي ادعت أنها طبيبة وألغى الحساب بينما هيام مكانها بحالة تجمد، جفت شففتها وغارت عيناها وشعرت أنها ذوت خلال لحظات أكثر مما يمكن لعشرين سنة أن تذويها.

بعد ساعة كانت تحت رشاش الماء تقف في حوض الاستحمام تحتضن جسدها العاري وتبكي بانهياء، ينتفض جسدها كله بالبكاء

تطرف عيناها لانعكاس جسدها في المرأة المربعة فوق المغسلة مقابل الحوض البيضاءوي، فيرتفع صوت بكائها عالياً وهي ترى الطفح انتشر أكثر من الأمس، فجأة دخل عليها زوجها مصدوماً من صوت بكائها وقد دخل البيت للتو، فسارعت هيام لتصرخ باكية: «أخرج أرجوك لا تراني هكذا».

لكنه لم يخرج ولم يبتعد بل تقدم منها واحتضنها بقوة حتى تبللت ملابسها ولم يبتعد حتى هدأ بكائها قليلاً، ابتعد قليلاً وأغلق رشاش الماء ثم رفع وجهها المنكس قائلاً بهمس حازم: «هيام انظري إلي».

تهز رأسها وهي تقول بحشجة: «لا أريدك أن ترى وجهي بشعاً هكذا يكفي أنك رأيت بشاعة ظهري وأنا أخفيه عنك منذ يومين».

حاوط رأسها المبلل بكفيه ورفع وجهها لتنظر إليه عنوة وهو يقول لها: «سأخذك غداً السبت للطبيب، هذا مجرد تحسس ربما أكلت شيئاً وربما هو ضغط عصبي لا تخافي هكذا».

شعرت بطمأنينة وكأنها طفلة تريد تصديق كذبة فتلهث وهي تهز رأسها مؤيدة: «أجل هو ضغط ضغط لم أعد أتحملة».

يتحامل على نفسه وهو يرسم ابتسامة بالغضب ليقول لها بقرار سينفذه ولو بالقوة: «غداً بعد الذهاب للطبيب سأجهز الأمور كي نسافر خلال يومين».

يعترف علي أنها صدمته بسرعة موافقتها وقد انتظر مقاومة عنيفة رافضة

فسارعت لتحتضنه وهي تهمس بلهات غريب: «أجل علي دعنا نبعد عن
العاصمة كل شيء أراه بشعاً هنا أنا نفسي بشعة».

أخذ يمسد على شعرها المبلل وهو يقول بنبرة ثابتة: «اهدئي حبيبتى كل
شيء سيكون بخير».

يمد إحدى ذراعيه بعيداً دون أن يفلتها بالذراع الأخرى فالتقط المنشفة
ولفها حولها وهو يضيف: «بعد هذه السفرة بإذن الله سيصفو ذهنك
وترتاحين».

علي يعاند إحساسه القاتم بفوات الأوان ويجبر مشاعره على الاستبشار
خيراً بموافقتها السفر، وبعد السفر سيقدر كيف سيجبرها على الذهاب
لأخصائية نفسية سيحاول الإقناع أولاً بالتأكيد؛ لكنه يعلم يقيناً أن هيام لن
تقتنع بل سترفض بشراسة ولذلك لن يبقى أمامه إلا الإجبار فكيف سيفعلها
لا يعرف!

الفصل السابع

مساء حفلة عرس

تركت حرير شعرها الطويل حراً كثيفاً مسترسلاً على طبيعته الناعمة، بينما ثوبها الفيروزي محتشم بتفصيل بسيط لاعم نحافتها، كانت تجلس في آخر القاعة تقريباً لحسن الحظ حيث أهدأ منطقة ممكنة وسط هذا الضجيج، بينما ينتابها بعض الحرج كأنها دخيلة متطفلة بينما غالبية الحضور يصفقون وبعضهم يرقصون قريباً من العريسين اللذين لا تعرف حرير اسميهما حتى! وما زاد الوضع سوءاً ذاك الشاب الصفيق الذي ينظر إليها بنظرات سمجة ولا يرتدع من تجاهلها له، أخذت تنظر بغیظ إلى وفاء التي كانت تجلس جوارها وتشارك التصفیق والابتهاج مع الأغنية وهي في قمة الاستمتاع، لا تعرف حرير هل مجيئها للحفل اليوم مفيد لها أم لا؟! تنهدت وهي تتذكر تلك الرسالة النصية التي وصلتها اليوم وعلى قدر إحساسها أنها رسالة مدموسة من فتاة ما على قدر ما أشاعت في نفسها مزيداً من الاضطراب والتساؤلات والشكوك وأيضاً النفور.

توقف الغناء أخيراً عند التاسعة ليتم الإعلان عن افتتاح مأدبة الطعام في الباحة الخارجية للقاعة، بدت وفاء منشغلة بالهاتف بينما والدها يقول: «هيا بنا يا بنات حان وقت إرضاء المعدة».

تبسمت حرير في وجهه وشعرت بالغبطة نحو وفاء؛ لأنها تملك أباً سلساً

محباً للضحك بل أقرب لشاب مرح وليس رجلاً تجاوز منتصف
الخمسينيات، وبينما والد وفاء يتقدمهما وهو ينطلق بحوار مبهج مع ثلة من
أصدقائه القدامى الذين حضروا العرس كانت حريز توبخ وفاء همساً: «لماذا
وافقتك لحضور عرس أناس لا أعرفهم؟!».

تهز وفاء كتفيها وهي تقول بابتسامة واسعة: «أنت لا تفهمين أن حالي
من حالك! إنه عرس ابنة جار قديم لعائلة أبي لم يسبق لي رؤيته ولا رؤية
ابنته، وأنت حضرت معي لأنك أشفت علي من شعور الملل هل يرضيك أن
يجرني معه هذا الشاب الذي يلعب دور أبي الليلة إلى عرس مجهول تهريت
منه أُمي شخصياً، دون أن تأتي معي وتؤازريني؟!».

تضحك حريز لفكاهة وفاء وقد شعرت أنها تحاول التخفيف من توترها،
ومع هذا وبختها بالقول: «ما دام جميع من هنا مجهولون تقريباً فكان يجب
أن نبقي بالبيت نحضر لامتحانات الأسبوع المقبل أفضل لي ولك».

غمزت لها وفاء بطريقة غريبة وهي ترد: «بعض الأعراس قد
تكون مفيدة».

عند المأدبة المفتوحة التقطت كل منهما صحناً ثم أخذتا تضيفان من
أصناف الطعام ما يعجبهما، رن هاتف حريز فسارعت لإخراجه من الحقيبة
وهي تتوقع المكالمة هذه من والدها، وقد كان هو بالفعل يوصيها بحزمه
المعهود على المغادرة مع حلول التاسعة والنصف، قبل أن تقول حريز شيئاً

طمأنتها وفاء تلقائياً وقد أدركت فحوى المكالمة: «لا تقلقي أنا وأبي سنعيدك في الوقت المطلوب».

أقنعتها وفاء بالذهاب للحديقة التابعة للقاعة وأن الجو لطيف الليلة فسأيرتها حرير وهي ساهمة بعض الشيء، جلستا على إحدى الموائد الخاصة بالحدائق والمتناثرة بشكل عشوائي، وبينما تأكلان بصمت سألت وفاء: «ما الذي يقلبك ويشغل بالك أشعر أن هناك أمراً تخفيه عني».

أخذت حرير تمضغ طعامها دون شهية وهي تقول: «عدة أمور وليس أمراً واحداً».

بابتسامة حثتها وفاء: «قولي أولها».

وضعت حرير ملعقتها جانباً ثم أخرجت هاتفها لترى صديقتها تلك الرسالة وهي تفسر لها: «هذه الرسالة جاءتني عصر اليوم».

(عامر سيخونك كما علي يخون هيام إن لم تصدقيني بخصوص علي وزوجته يمكنك السؤال عنهما القاصي والداني، شجارهما مستمر والمسكينة تقضي أيامها تقتفي آثار خياناته هؤلاء هم أولاد القماش لا وفاء ولا عهد لهم).

أخذت وفاء تقرأ بتركيز؛ لكن لم يظهر على وجهها أي ردة فعل وعندما انتهت قالت ببساطة وتسفيه للموضوع: «هل تصدقين الكلام؟! أنا لم أسمع به من قبل رغم أنني أعرف محيط عائلة القماش، علي زينة الشباب ولا

يفعل هذا».

علقت حرير وهي تشعر بتخبط شديد في حكمها على عامر أولاً وعائلته
ثانياً: «لا أدري يا وفاء أنا قابلت هيام مرة واحدة عندما حضرت مع والدته
عامر وجدته لخطبتي، بدت لي الفتاة ساهمة شاردة كأنها في عالم آخر».

تنهدت وفاء ثم قالت: «اسمعيني حرير الفتاة التي أرسلت لك هذه الرسالة
فتاة حاقدة بل أجزم أنني أعرفها».

تساءلت حرير بدهشة: «تعرفينها؟!». .

ردت وفاء وهي تهز رأسها: «نعم أجزم أنها تلك الحقيرة نهاوند، أنت لم
تربنها قبل أيام عندما أتى عامر لرؤيتك في الجامعة، كنت مشغولة بصب
جام غضبك على ذاك المسكين ولم تر كيف كانت تراقبكما بحقد».

احمرت حرير قليلاً وهي تتنحّح وتقول: «ولماذا تحقد عليّ أنا لا أفهم».

وضحت وفاء وهي تعاود الأكل: «لأن عمر القماش تركها تخلى عن فكرة
الزواج منها، إن كانت هناك فكرة من الأصل الجامعة كلها تقول إنه هو من
تخلى عنها وليس كما تدعي هي أنهما اختلفا وقررا سوياً عدم إتمام
الزواج».

شعرت حرير بالضيق ثم قالت: «ألم أقل لك إن عامر وعائلته لا تنفعني».

هتفت بها وفاء بعبوس: «يا ربي! كفي عن كلامك هذا أنت لم تر نفسك

في لقاءك الأخير مع عامر قبل أيام أنا للمرة الأولى أراك مفعمة بالحياة هكذا».

أطرقت حرير وبدت وكأنها تعاني ضغطاً ما سألتها وفاء: «حرير ماذا هناك؟ أشعر أن الأمور الأخرى التي تخفيها أشد أهمية من هذه الرسالة التافهة».

رفعت حرير رأسها ولسبب ما أجلت إطلاع صديقتها على موضوع نوفل ابن العم أنيس لا تعرف هل هي تتهرب من صديقتها أم تتهرب من التفكير في الموضوع فعلاً ومدى جدية والدها فيه، قالت حرير أخيراً وهي تشتد بنظراتها ناحية رجل ما قادم من جهة القاعة تخفي هويته الظلمة: «سأحكي لك فيما بعد هو أمر يجب أن أقرره وأبي ينتظر قراري فيه».

تساءلت وفاء ببعض القلق: «هل الأمر يخص عامر؟».

رجفة هزت قلب حرير وهي تهمس اسمه بينما صورة القادم تتشكل بملامحه: «عامر؟!».

وقفت حرير على قدميها تلقائياً تستوعب صدمة وجوده غير المتوقع بينما تلتفت ناحية صديقتها لتسألها بعبوس: «ما الذي أتى به للعرس؟!».

وقفت وفاء وهي الأخرى لتحمل صحنها وتستعد للمغادرة قائلة بهدوء: «اسأليه كوني شجاعة ولا تخذليني».

تزم حرير فمها وهي تنظر إلى وفاء كيف تركتها هكذا فتمتم: «لن
أسامحك يا وفاء».

وقف أمامها أنيقاً للغاية ببذلة رمادية داكنة جذاباً بشكل يخطف أنفاس
أي فتاة، بينما يبتسم تلك الابتسامة التي تصنفها كسلاح سري لا يخطئ
ليقول لها وعيناه ثمران فوق خصل شعرها: «قلت لك لياقتي البدنية عالية
وأستطيع اللحاق بك بسهولة».

كانت ترتجف وهي تضرب بقبضتها فوق المائدة المستديرة وتقول
بانفعال: «ماذا تريد مني ها؟! ماذا تريد؟! حذرتك وقلت لك أبي سيرفضك
وقد حصل ولم يرفضك مرة واحدة بل مرتين».

يبتلع ريقه ويده ترتفع لموضع قلبه تربت هناك بحركة باتت تستنزف
طاقاتها لتقاوم الوقوع فيه بينما يهمس بوعده: «مرتين ثلاث أربع عشر أنا لن
أتوقف».

حركت جسدها بانفعال وشعرها الناعم يسرح يمينا وشمالاً وهي تهتف
بصوت منخفض: «لن يوافق وأنا أيضاً لن أوافق».

يتأوه وعيناه تسرحان يمينا وشمالاً مع حركة شعرها بينما حرير تحاول
تجاوزه فيناور معها ليقف في طريقها ممانعاً حتى رفعت نظراتها الحانقة
إليه وعندها قال بهمس أجش: «قسماً بالله لأجعلن جهاز العروس كله
مصنوعاً من الحرير، من أول فستان العرس حتى أصغر قطعة ترتدينها».

فورة في كل جسدها لجزأته الوقحة هذه لتفعل ما تخيلت أنها لا يمكن أن تفعله مع إنسان قبله، كانت صفة مدوية أوجعت يدها، يبتسم عامر وهو يعيد وجهه إليها ليقول باستفزاز رقيق: «الحرير يصفع أيضاً».

كانت تنهت وهي تقول بانفعال لاهث: «قليل الأدب معدوم الأخلاق».

لا يتأثر بحالتها وقد بدا أنه هو نفسه يعاني حالة أشد وطأة بكثير، إنه غارق وهي لا تدرك أنه وصل القاع، مال برأسه جانباً وهو يبتسم ثم يطرق بنظراته للأرض بينما يضع يده في جيبه ويقول بشقاوة: «سألجم لساني وأحتفظ بأفكاري لنفسي فيما يخص ليلة عرسنا».

بدت منهكة فجأة وهي تقول له بإصرار كأنها تتوسل إليه أن يفهم الحقيقة: «أنت تحلم يا عامر.. تحلم».

لا يبالي بإصرارها لأنها لم تختبر إصراره ليعاود النظر إليها؛ لكن هذه المرة كانت تلك القوة المؤثرة فيه تشع إشعاعاً وهو يقول بخفوت: «أنت لا تعرفين شيئاً عن الحلم يا حرير، تبدين أرق وأنعم من أن تحتلمي حلمي الليلة».

احمرت بشدة وشعرت أنه يعتمد إيقاعها بتأثيره، قررت أن تبتعد أن تهرب قبل أن يحقق بغيته وقبل أن تتحرك كان هو يتساءل بجديّة: «لماذا لا تعطينني فرصة لأثبت لك أنت مخطئة بحكمك عليّ».

أخذت نفساً عميقاً تحاول أن تهدأ ففكرت أن الهروب ليس يحل ربما إن

تكلّمت معه بهدوء وعقلانية دون انفعالات فعندها سيدرك أن الأمر ليس بيدها ليورطها في إيقاع قلبها دون فائدة، ستتألم وستتألم هو إن صدق بمشاعره نحوها، بدأت الكلام بنطق اسمه: «عامر».

يوقفها بجملة خرجت منه دون شعوره: «كلما تنطقين اسمي أشعر أنني أريد رمي نفسي من مرتفع قسماً بالله».

ارتعشت لكنها واجهت وهي تقول بهدوء رغم الارتعاش في صوتها الذي يفضحها: «هلا نتكلم بجدية».

رد وهو يتقدم مقترباً أكثر: «نتكلم في أي شيء.. المهم أننا نتكلم».

مدت كفها لتوقفه مكانه بينما تدخل في صلب الموضوع كي لا تتوه مع جملة العاطفية وأفعاله الجريئة المجنونة: «يجب أن تعرف أن ما تحاول فعله معي لن ينجح لن يحقق بغيتك ليس لأنني منيعة وفتاة خارقة؛ لكن لأن أبي حتى لو قلت له (أريد الزواج بك) وهذا لن يحصل لكن إن حصلت المعجزة وقتلتها لأبي فهو لن يوافق».

ينظر إليها بهدوء شديد كأنه يستوعب كلامها بينما تضيف حرير بنبرة خاصة كأنها تكلم نفسها قبله: «أبي صعب عنيد وقراره لا يتراجع عنه أنا أعرفه».

سألها مباشرة: «وماذا عنك يا حرير؟».

بصلابة ردت ما تؤمن به: «أنا لن أخرج عن طوع أبي مهما كانت النتائج».

مرت لحظات صمت ثقيلة قبل أن يسألها عامر سؤالاً محدداً: «إن أقنعت والدك ومنحك الخيار هل ستوافقين؟».

شعرت أنه كان يعرف.. يعرف بما دار في خلدتها في ذاك اليوم الذي أتى إلى قاعة الطلبة ومازح الأستاذة شيرين، لم تعرف بما ترد لأنها حقاً لا تعرف، وقد صدقته القول لترد عليه: «لا أعرف إن كنت ستصدقني إن أجبت بأني لا أعرف».

ابتسم لها وهو يقول: «هذا أفضل على الأقل أعرف أن كلمة (نعم) تتأرجح في رأسك وتلاعب ال (لا) يا لهف قلبي لأسمع الأولى».

أطرقت في حياء ثم قالت بارتباك: «أظن هذا يكفي يجب أن أعود لوفاء».

تركها تتخطاه لكن بضع خطوات وناداه بنبرة صوت تغلغلت لعمق الذاكرة: «حرير».

التفتت إليه وقد علمت أنها لن تنسى هذا أبداً لن تنسى كيف يقف هناك وسط إنارة الحديقة الخافتة وصمت المكان كأن الكون كله بحالة انشده مسحور قالها شامخاً غيوراً مجازفاً: «أنا أحبك».

ارتعدت أوصالها وهي تنظر إليه بذاك الانشده الذي تشعره من حولهما،
غمرها شعور جمع الانكماش الغريزي الأثوي مع ضعف مخيف ونبض قلب
مسروق؛ لكن العقل غلاب وهو يقتحم ما تغلغل للذاكرة بهذا السحر،
تيقظت ودقت أجراسها ولم يكن أمامها اللحظة لتفعله إلا الابتعاد، استدارت
مرتجفة لتحملها خطواتها بعيداً عنه؛ لكن قلبها انقبض بقوة ولا تعرف
السبب.

بعد ربع ساعة كانت حرير تتململ جوار وفاء ولم تكف عن حثها كي
يغادروا، فوعدها وفاء أنهم سيخرجون في تمام الساعة التاسعة والنصف،
فيشتد غيظ حرير من تجاهل وفاء لما فعلته بها الليلة، من جانبه عامر لم
يغادر كان يكتفي بالوقوف في آخر القاعة ويشرب كأس عصير، بينما عيناه
لا تبعدان عنها، شعرت بالضيق فقررت الذهاب للحمام عسى أن تقضي
باقي الوقت هناك، انسحبت بالفعل وهي تدعو الله ألا يلحق بها عامر وقد
استجاب الله لها فذهبت في أمان؛ لكنها لم تستطع البقاء إلا لدقائق
معدودة وقد كان الحمام مزدحماً، عندما عادت وبينما هي تدخل القاعة
وقف أمامها الشاب السمج نفسه الذي كان يلاحقها بنظراته من أول الحفل
فحاول مكالمتها بالقول: «هل نستطيع أن نتكلم قليلاً؟».

ردت بـ(لا) وهي تحاول تجاوزه لكنه تحرك ليمنعها بخفة وهو يتواقع

أكثر: «تعالى لنرقص على الأقل».

هتفت به: «ابتعد عن طريقي وإلا أثرت لك المشاكل».

فتركها وهو يرفع كفيه باستسلام، كانت تعود إلى طاولتها مع وفاء وقد رأتها تشير لها أنهم سيغادرون الآن؛ لكن وبينما هي تهز رأسها براحة كان عامر يوقف ذاك الشاب وهو يرتطم به كتفاً بكتف، تتمم الشاب ببعض الدهشة وهو يتطلع لعامر: «آسف».

لكن عامر ابتسم بشراسة وهو يرد: «وأنا لست بآسف».

عقد الشاب حاجبيه وهو يتساءل بانزعاج: «عفواً!».

فيرد عامر: «لا يزعجني أكثر من شاب سفيه يظن نفسه لا يقاوم وهو يفرض نفسه على النساء فيبيع لنفسه التحرش بهن كأى صفيق».

رفع الشاب يده ليشير بسباته محذراً: «احترم نفسك! من أنت؟! وعما تتحدث؟».

يرد عامر وابتسامته الشرسة تتسع: «لا يهم ما أتحدث عنه المهم ما أفعله».

وفي لحظة خاطفة كان ينطح الشاب برأسه ليترنح الشاب دائخاً ويجهز عليه عامر باللكمات وخلال دقائق تحول الأمر لعراك جماعي رهيب بين عدة شباب وعامر وسطهم يشبع ذاك الشاب ضرباً.

لم تعد حرير للبيت إلا قرابة العاشرة والنصف، والدها لم يتوقف عن الاتصال منذ ربع ساعة وهو غاضب جداً حتى إن والد وفاء أشفق عليها وشعر بضغط أبيها كيف يوترها لأبعد حد، تجلس حرير بالمقعد الخلفي وهي مرعوبة من زدة فعل أبيها عندما يعرف! رياه كيف ستخبره أن حفل العرس فسد تماماً بسببها، للمرة الأولى منذ وفاة أختها تشعر بهذا الرعب من أبيها، لقد كادت أن تنسى هذا الشعور، شعرت بوفاء تحاوط كفها تحاول شد أزرها لكن بطريقة ما كانت حرير حانقة عليها؛ لأنها تسببت بكل هذا بتلاعبها لإدخال عامر العرس، سحبت حرير يدها من يد وفاء وهي تزم شفيتها وتدعو الله في سرها أن تمر هذه الليلة على خير بينما وفاء تشعر بالذنب الشديد لكل ما جرى وتحمل بدورها ذاك المجنون عامر المسؤولية.

لم تغير ملابسها وهي تتحرك بقلق في غرفتها تنتظر صعود أبيها المحتم، لقد تركته يتكلم مع والد وفاء الذي ظل يبرر له سبب التأخير لحصول عراك بين الشبان في العرس أدى لتأخيرهم بالمغادرة؛ لكن والد وفاء أخطأ وهو يذكر الشاب الذي تحرش بها ليدافع عنها شاب آخر، همست حرير: «يا رب دع الليلة تمر بخير يا رب».

لم يطرق والدها الباب وهو يدخل مباشرة والتجهم الغاضب يكسو محياه،

بنبرة آمرة قال: «أخبريني عما يعنيه والد صديقتك باعتذاره عما حصل في العرس؟ من تحرش بك؟ ومن دافع عنك؟».

تحجرت الكلمات على فمها ولم تستطع النطق بينما يقترب أبوها وكأنه يقرأ ما حصل على وجهها، لقد كانت مكشوفة.. مكشوفة للغاية قال وهو يقف أمامها مهيمناً بغضبه الساكن على حواسها وهو يسأل سؤالاً آخر فيه العلة التي تؤرقه: «والد صديقتك قال بوضوح إن شاباً غريباً لا يعرفه أحد من الحضور هو من ابتداءً هذا الشجار فأصدقيني القول وأخبريني هل عامر القماش من تشاجر لأجلك؟».

لم تستطع حرير النطق حتى اللحظة لتكتفي بهز رأسها بـ(نعم) وعندها انفجر البركان وأخذ أسعد الجنابي يصرخ بشكل مخيف مرعب، تجمع أهل الدار الأم تحاول تهدئته فيصرخ فيها، سدير وخلدون يلتصقان ببعض ووجهيهما يشحبان، بينما حرير التصقت بالحائط وفي أسوأ كوابيسها لم تتوقع أن ترى غضباً مهولاً كهذا من أبيها، ظل أسعد الجنابي يصرخ ويزمجر: «هذه فضيحة! فضيحة ابنتي أنا تلوكها الألسن!».

حاولت حرير أن تجد القوة كي تستعيد قوتها، حاولت أن تذكر نفسها بتلك العلاقة المتوازنة التي صنعتها مع أبيها منذ سنوات ومنحتها مساحة من الاستقرار النفسي، حتى نجحت أخيراً وهي ترى أمها مرتعبة وتبكي وأختها وأخيها يرتجفان لتتقدم خطوة من أبيها وهي تقول له بارتجاف: «أرجوك أبي

اهدأ الأمر لم يكن هكذا صدقني».

شعت عينا أسعد ورفع كفه يوشك على صفع حرير وهو يصرخ بها:
«أخربي».

تجمدت حرير وهي تحرق مصعوقة بكف والدها الذي يوشك أن يهبط
لوجهها، شعرت لحظتها بالانكسار شعرت أنها فقدت شيئاً من عزة نفسها،
حتى لو لم تلمس كفه بشرتها، همست دون شعورها وكأنها تبحث عن معنى
آخر للأبوة تظنه فيه، «أبي!».

وكان نظرتها تلك وهمستها باسمه خفت من حدة بركانه ليصرخ بزوجته
وابنته وابنه: «اخرجوا جميعاً».

لم يكن بإمكانهم إلا الخروج وحالما فعلوا سأل الأب بنبرة جافة باردة
كالجليد القاسي: «هل كنت تعلمين بحضور عامر للحفل؟».

ردت وهي تقاوم البكاء: «أنا تفاجأت به هناك كما أنه لم يحضر إلا
في النهاية».

أخذ الأب يهز رأسه ويدت عيناه غامضتين وهو يردد: «لم يعد أمامي
خيار آخر».

بعد يومين

كانت ترتب ملابسها وملابس علي في الحقيبة بجهد جهيد، شعرت أن كل فعل تفعله ثقيل للغاية لا شيء له طعم، ترى علي يجري من حولها ليوفق بين عمله وبين وجوده بقربها وحرصه على فحص طفحها الجلدي بنفسه ليضع لها الكريم الذي وصفه الطبيب، وكما توقع علي كان تشخيص الطبيب أن السبب غالباً بسبب الضغط النفسي وقد ذكرت هيام أنها مضغوطة بسبب الدراسة بينما علي التزم الصمت، شعرت بالتعب رغم أنها لم تنجز كل شيء، تحركت ناحية الهاتف الذي رن فترد على أمها ببرود غير مقصود، كانت تخبرها فقط أنها مرهقة بينما أمها تكتم قلقها وتدعو لها بالعافية تحاول أن تُسري عنها وتخبرها أن رحلة الشمال هذه ستغيرها مزاجها كلياً، أمها كانت تلازمها منذ يومين بطلب من علي كي لا يتركها وحدها أثناء غيابه بالعمل، ليومين كاملين لا تفعل هيام شيئاً إلا تركهما يقودان مسار حياتها تراقبهما دون تفاعل كيف يتفقان مع عاملين لتنظيف بيت جده زيدون وتحضيره كما أوصى علي أحد أقاربهم بالشمال أن يشتري لهما بعض المستلزمات وقائمة طويلة من الطعام ليكفيهما لأسبوع، وفي الليل وبعد أن يغرق علي بالنوم كانت هيام تشمه وتبحث خفية في رقبته وما يظهر من جسده عن أي أثر، لقد أصبح هذا من طقوسها اليومية التي تفعلها دون تفكير أو تخطيط، أغلقت الهاتف مع أمها ووقفت للحظات مكانها وهي تقاوم مجدداً النظر لتلك الزاوية من غرفة المعيشة، أخذت أنفاسها تتسارع ولهات أصبح مألوفاً يسيطر عليها وهمس.. همس يتحدثها استمرار

مقاومتها، وجود أمها معها اليوميين الماضيين كان رادعاً (مؤقتاً) قوياً كي لا تفتح حاسوبها نهائياً، وربما كانت ما زالت متأثرة مما حصل من تلك الفتيات تحركت أخيراً لتسير بخط مستقيم كأنها تسير على جبل رفيع إن نظرت يميناً أو شمالاً اختل توازنها ووقعت، خاصة ناحية اليمين حيث ركنها الخاص في غرفة المعيشة، تترنح بالنظر كأنها تقاوم وهجاً براقاً يحاول جاهداً خداع بصرها كي تنظر إليه، نظرت إلى ساعة الحائط فرأتها تشير للثامنة مساءً ففكرت أن علي علي وشك الحضور، حسن هذا رادع ممتاز لن تستطيع البقاء أكثر من عشر دقائق أجل عشر دقائق ربما ستفكر جدياً بإيقاف الحساب أجل ستكون تجربة جيدة لها، لهاثها يتصاعد والهمس يتحول لوسواس خناس يقنعها بضعف الحيلة أن هذا قمة المنطق، ترنحت كلها يميناً فسقطت عن الخط المستقيم لتنحدر إلى هاوية ذاك الجهاز الذي تحول لعنة لا غنى عنها في حياتها، بيدين غير ثابتتين تفتح الحاسوب ثم بدأت تتصبب عرقاً من جديد وهي تفتح حسابها المستعار على الفيسبوك، اطمأنت قليلاً عندما لم تجد أي رسالة؛ لكنها وجدت إشعارات من ذاك المنشور اليتيم الذي أنزلته بوجل يكاد يصيبها بالإغماء انتقلت إلى هناك لتقرأ، هالها التعليق الأخير من امرأة كتبت (أليس هذا عامر القماش؟).

وما هالها ليس ذكر عامر القماش فحسب بل لأنها وجدت ردوداً كثيرة على تعليق المرأة تحديداً، أخذ نبض هيام يتزايد وهي تقرأ الردود لقد كانت امرأة واحدة تتبادل الرد مع صاحبة التعليق (لا هذا علي شقيقه الأكبر).

(نعم صحيح أنا لا أفرق بين أسمائهم كنت دائماً أشتري القماش من الفرع الأصلي في وسط العاصمة).

(علي دوماً تجدينه هناك مع أبيه الحاج سليم أما الفرع الثاني في حي المنصور) جانب الكرخ فيديره الشقيقان اللذان يصغران علي عامر وعمر).

(أنا لا أذهب لفرع المنصور فبيتي في جانب الرصافة).

(لقد أخذنا الكلام عن فروع القماش ولم نتناقش في المنشور ما رأيك فيه؟).

(منشور سخييف يا أختي أنا على وشك مغادرة هذه المجموعة، ظننتها مجموعة تساعد الزوجات لكنها لا تفعل إلا هدم البيوت وإثارة الجنون).

(معك حق سأغادر أنا أيضاً لا بد أنها فتاة قليلة الأدب لتأخذ صورة رجل وتنشرها هكذا لا أظن أن زوجته تفعل هذا).

(بالمناسبة ما اسم زوجة علي؟ دوماً أنسى الأسماء وتختلط بذهني؛ لكنني أتذكر من وقت الزفاف عندما علق الحاج سليم إعلاناً أنيقاً عن حفل زفاف ولده البكر قبل عامين تقريباً أو ربما عام لا أذكر بصراحة).

(اسمها هيام أنا أعرفهم جيداً وذاكرتي حديد تزوجا قبل عامين كانت زميلته في الجامعة وأحبا بعض لذلك أقول لك لا أظنها هي من تنزل منشوراً سفيهاً كهذا).

وبينما تلتهم هيام الكلمات وهي تنتظر أي إشارة أي شيء يكشف لها
هوسها المرضي كي تعرف، شعرت أنها عادت للذة نفسها.. لذة عذاب
تسعى لطعم النجاة فلا تتذوقه.

فجأة أتها رسالة من حساب آخر باسم (أم يوسف) (من أنت؟).

دون تفكير أخذت هيام ترد وقد استعادت كل حيويتها فجأة! حيوية معلولة
خادعة تققات من صحة بدنها وصحة روحها (أنا نور علي ماذا تعنين من
أنا؟).

كتبت أم يوسف (لماذا أنزلت صورة علي القماش على المجموعة؟!).

ردت هيام بغضب (وما دخلك أنت؟!).

لتفاجئها أم يوسف بالقول (أنا أعرفه شخصياً وأعرف أنه متزوج من امرأة
اسمها هيام لماذا تحاولين الإضرار بهما ألا تخجلين؟!).

ترتجف أصابع هيام وهستيرية هلع مباغت تسيطر عليها بينما تعاود أم
يوسف الكتابة مضيفة بتهديد صريح (أنا سأبلغ علي بنفسي).

كانت هيام تختض وهي تكتب على عجالي (لا أرجوك لا تفعلني).

لكن من الواضح أن أم يوسف كانت غاضبة للغاية وهي ترد عليها (أنت
بلا احترام ولا أخلاق ألا تتوقفن عن إيذاء الرجل بهذه الأساليب الرخيصة؟!
لكنه سيصل إليك ويعرفك كما وصل لغيرك وجعلهن يندمن على أفعالهن

وبينما هيام عاجزة عن الرد تفاجأت بأم يوسف أن أغلقت سماحية الحوار بينهما، لم يعد هناك أي وقت للتردد كانت تلهث مجدداً لكنه ليس لهاث الإدمان إنما لهاث الرعب الحقيقي، تسابق اللحظات للذهاب إلى صفحة تلك المجموعة تبحث عن المنشور وما إن وجدته حتى حذفته دون تردد ثم انتقلت لصفحتهما؛ لكن هذه المرة ترددت لحظات طويلة أمام خيار (إيقاف الحساب) ولم يدحر ترددها إلا صوت دخول علي للبيت فجعلها تضغط الخيار وتؤكد فيتوقف حساب (نور علي) على الفيسبوك وكأنه لم يكن.

الآن اطمأنت قليلاً لا يمكن لأحد أن يوصل شيئاً لعلي فلا إثبات ولا

حساب ولا منشور

تقنع نفسها بهذا وهي تقف على قدميها مغلقة الحاسوب مع دخول علي من باب غرفة المعيشة، عيناه تنتقلان بينها وبين الحاسوب فيلقي التحية بنبرة غامضة فتسارع لرد التحية تقاوم نبرة الاضطراب في صوتها وهي تتقدم إليه بخطوات منهكة قائلة: «أنا حضرت الحقائق بقيت أشياء بسيطة لأضيفها».

سأل علي وهو يشير برأسه للحاسوب جوارها حيث تقف: «لماذا فتحته؟

هل تريدني أخذه؟».

هزت رأسها نفيًا ثم قالت بحشركة: «يجب أن تعديني أنك.. أنك..».

تقدم منها وهو يراقبها ببعض التوتر: «أني ماذا؟».

داهمتها رغبة رهيبة كي تستحوذ عليه أن تسرق حتى روحه من جسده! فتعبر عنها بكلمات قد تبدو طبيعية في ظاهرها: «أريدك لي وحدي بهذا الأسبوع لا هاتف ولا إنترنت لا أهل ولا أصدقاء فقط أنا وأنت».

يضيق علي عينيه كأنه يحاول فهمها فيقول بهدوء: «هذا يعني لا حاسوب».

فترد بتأكيد وهي تقترب منه تترنح يعاودها شعور الإنهاك: «نعم لا حاسوب».

تلتقاها ذراعاً علي فيضمها إلى صدره لتستكين هناك، تتنهد براحة بينما علي يعرف أن هذه الرحلة ليست إلا البداية؛ لأن هيام يجب أن تبدأ بالعلاج حال عودتهما من رحلة الشمال سيكون هذا آخر ما يمكن أن يفعله لينقذها.

بعد أسبوعين محل القماش / الفرع الأول

ظهراً

جلس شاكر قبالة صديق عمره سليم وقد ظهر جلياً على وجهه الرد ليقوله سليم نيابة عنه: «لقد رفض مجدداً».

هز شاكر رأسه مؤكداً بأسف ثم قال: «عنيد للغاية رغم أنني أحضرت معي

صديق شخصي له ليكون واسطة خير لنا وعوناً لي بإقناعه بخطبة فقط؛ لكنه رفض تماماً حتى الكلام بالموضوع لا أظنه سيوافق أبداً يا سليم».

صمت سليم بينما يضيف شاكر بانزعاج شديد: «لقد قال لي بالحرف ليس عندي ابنة أزوجها لابنكم فليختار لنفسه أخرى».

ثم نظر لسليم مضيقاً المزاج: «كما لمح أنها مخطوبة وعلى وشك الزواج قريباً جداً أقرب مما نظن!».

يعقد سليم حاجبيه وهو يقول: «يكذب الفتاة ليست مخطوبة لم نسمع في الحي بهذا».

قال شاكر بنظرة متفكرة: «سليم لا أظنه يكذب بل شعرت».

توقف قليلاً فحشه سليم: «شعرت بماذا؟».

رد شاكر عاقد الجبين: «لا أدري عيناه لم تريحاني وكأنه يضرمر أمراً».

ضرب سليم بكفه على فخذه بينما يلوح بكفيه بانفعال وهو يتكلم: «لقد ضقت ذرعاً بهذا الرجل حاولنا أكثر من مرة دون فائدة والمشكلة أن غامر لن يتوقف أنا أعرفه».

تمتم شاكر قائلاً بحكمة: «دعه سليم ستعلمه الحياة أنه أحياناً عليه التوقف».

وقت الغروب

علي في جانب المحل يلف القماش ببعض الشرود، لقد عادا فجر اليوم، الرحلة كانت ناجحة نوعاً ما وقد عاد لهيام بعض ألقها القديم أو ربما (الألق) من كان يعافر معها كي تدعه يبرز من جديد، وقد امتدت الرحلة لأسبوعين بدلاً من أسبوع واحد، في الأسبوع الأول أظهرت هيام هدوءاً واطمئناناً لانعزالهما هناك كانا يمرحان أو يمثلان أنهما يمرحان وبما يسمح به مزاجها وقد فعل المستحيل كي يجعلها تشعر ببعض التحسن كانا يمشيان في الطبيعة يطبخان معاً يكلمها عن الأيام الجميلة عن الأحلام الحلوة عن البقاء معاً حتى يشيبا وأحفادهما حولهما فتكتفي هي بالابتسام؛ لكن نظراتها تسرح بعيداً كأنها شردت بأفكارها في منطقة أخرى يجهلها هو، وكأنها تتلاشى خلف سحب قاتمة تحجبها؛ لكن كفها ممدودة نحوه تتشبث به بل تكاد تجره معها، عانى هو الآخر إحباطاً شديداً يخفيه.. إحباط وقلق وتوتر في الواقع لم يكن يحتاج لإخفائه عنها؛ لأنها كانت لا تشعر بما يجري معه بل تكتفي أنها تستحوذ عليه لوحدها في ذاك المكان المنعزل لم يكن يحتاج لذكاء كبير حتى يفهم هذا الجزء منها تحديداً ليته فقط يفهم الباقي؛ لكن الانعزال معها هناك عزز قناعته وبما لا يقبل الشك أن هيام تحتاج للعلاج دون إبطاء وأن ما اتفق عليه مع والديها قبل السفر ليكونا معه بالصورة والتصرف هو ما يجب أن يكون.

عندما انتهى الأسبوع الأول طالبت بل توسلت إليه البقاء للأسبوع ثانٍ حاول إقناعها أن عليهما العودة؛ لكنها أبت وظلت تتوسل بإلحاح فامتثل لرغبتها؛ لكنه طلب على الأقل أن يفتح هاتفه المغلق كي لا يقلق الأهل في العاصمة، وافقت شرط أن يغلقه مجدداً، لم يفهم حتى اللحظة لماذا كانت تلح بهذه الطريقة أن يبقى الهاتف مغلقاً؛ لكنه لم يتعب نفسه بالتساؤل فهيام باتت كتلة من العقد التي يصعب حلها، يتمنى فقط أن تكون الأخصائية التي اختارها جيدة كفاية لتعالجها، فالأمر تجاوز قدرته.

الأسبوع الثاني كان خانقاً بالنسبة إليه جنحت فيه هيام إلى عزلة أشد، فلم يفارقا البيت الريفي شبه المنعزل عن البشر، وكلما حاول إقناعها ليتمشيا على الأقل في الأرجاء قالت له إنها ملت المناظر الطبيعية وتفضل البقاء معه في الداخل وهذا ما كان أسبوعاً كاملاً لا تفعل شيئاً إلا البقاء في البيت دون حراك يتفرجان التلفاز حتى تنام على صدره وتتشبث بملابسه خلال النوم، وإذا تحرك فزعت ثم تظل تلك النظرة من عينيها (لا تتركني) يقسم بالله أنه يشعر هو نفسه بحاجة لعلاج نفسي بعد الأسبوع المريع هذا.

بعبوس يعيد لفة القماش مكانها وهو يفكر أن الليلة سيحسم الأمر سيأخذها من بيت عائلتها مساء ويكلمها على انفراد، هذا ما توصل إليه بعد نقاش طويل مع والديها وقد اعترفا أنهما لا يملكان القوة وسيضعفان أمامها إذا رفضت، أخبراه أن وجودهما سيكون عبأ عليه بدلاً من أن يكونا سنداً.

«مرحباً علي».

التفت علي استجابة لتحية من صوت مألوف فيبتسم تلقائياً وهو يرحب بدفء بمن كانت زميلة دراسة لأربع سنوات في الجامعة فيقول بابتسامة واسعة من القلب: «سميرة! ألف أهلاً وسهلاً وكأن مضي وقت طويل للغاية منذ حفل تخرجنا».

ابتسمت سميرة في وجهه وهي تبادلته حنين أيام الجامعة: «ثلاثة أعوام حصل فيهما الكثير يا علي بالنسبة إلي زواج وحمل وطفل شقي وضع تحت كلمة (شقي) ثلاثة خطوط حمراء».

يضحك علي بخفة ثم يقول: «ما شاء الله ما اسمه؟».

فترد سميرة بفخر أمومي: «يوسف وأجمل يوسف».

يمتلأ قلبه بالحنين ليرزق بطفل هو الآخر فيبتلع غصة ألم قائلاً لسميرة: «حفظه الله لك يا أم يوسف».

فتسأل سميرة باهتمام ودود: «وكيف هيام؟». فيرد علي يخفي معاناته مضطراً للكذب: «إنها بخير مشغولة للغاية برسالة الماجستير».

تبتسم سميرة بلطف وهي تقول: «أعانها الله ووفقها».

أشار علي لأحد العمال وهو يطلب لضيافته العصير عندما قالت سميرة بتعابير جادة: «علي أنا انتظرت أمي حتى تفرغت لأترك ولدي معها وأتيك

خصيصاً في أمر مستعجل».

علق علي بعفوية وقد ظنّها تحتاج لشيء منه: «أؤمريني سميرة أي شيء تحتاجينه أنا رهن طلبك».

ردت سميرة بمحبة أخوية: «دوماً ستظل هكذا يا علي عنوان النخوة والشهامة ولأجل هذا أنا هنا اليوم لأنك تستحق كل الخير».

صمت علي للحظات ثم قال: «لماذا أشعر من كلامك أنك أتيت اليوم في أمر يخصني أنا». هزت سميرة رأسها وهي تؤيد تخمينه: «نعم علي أنت إنسان عزيز علي ولا يرضيني أن يحاول أحد إيذاك دون أن أنبهك لقد أتيت مرتين قبلها المرة الأولى قبل عشرة أيام فقبل لي إنك كنت مسافراً برحلة وستعود خلال أيام ثم حضرت قبل يومين وأيضاً لم أجذك قالوا لي إنك مددت سفرك وستعود اليوم فأتيت وأنا كلي أمل أن أجذك».

رد علي وقد بدأ يشعر بالقلق لأن من الواضح جدية الأمر الذي جعلها تحضر لثلاث مرات: «أجل ذهبت برحلة للشمال مع هيام أنا آسف لم يخبرني أحد لحضورك مرتين من قبل».

قالت سميرة بتفهم: «لا عليك يا علي أنا لم أخبرهم بما أريد ولم أوصيهم شيئاً».

نظرت سميرة فيما حولها للزبائن لتقول بصوت خفيض: «آسفة لأنني أزعجك في مكان عملك؛ لكن رقم هاتفك ليس معي أظن أنك غيرته أليس

كذلك».

رد علي: «نعم بعد التخرج والزواج إذا كنت تذكرين المشاكل التي حصلت مع هيام وتلك الرسائل السخيفة المزعجة التي كانت تصلها وتصلني».

وكأنها أمسكت بداية الخيط لتقول له الجملة نفسها لكن بمعنى محدد أكثر يطل من عينيها بوضوح: «لأجل هذا أنا هنا اليوم».

تساءل علي: «لم أفهم ماذا تقصدين؟!».

طلبت منه بجدية: «ألا يوجد مكان أهدأ ولو في زاوية محل فارغة أنا لن أؤخر».

هز رأسه وهو يشير بيده: «تفضلي قريباً من باب المخزن لا أحد من العمال يذهب هناك دون إذن مني أو من الحاج سليم».

في تلك العزلة البسيطة وبعيداً عن مسامع الآخرين دخلت سميرة في صلب الموضوع وهي تعطي لمحات سريعة ممهدة: «انظر علي إحدى صديقتي أدخلتني لمجموعة سخيفة بشعة للغاية على الفيسبوك».

تلقائياً تنشج علي وشعر أن القادم لن يكون بعيداً عن هيام بينما تكمل سميرة بتعابير جدية: «أنا لم أحب ما فعلته صديقتي؛ لكنها دعنتني الدخول لتريني ما يحدث هناك من عجائب المجموعة اسمها (كيف تغرفين زوجك

الخائن».

شعر علي بالدماء تصعد لرأسه بتكاثف، كان عاجزاً عن إبداء أي ملاحظة وهو يغلي من الداخل لتكمل سميرة باستياء: «لا تتصور ما يحصل هناك يا علي بيوت تخرب وإشاعات وطلاقات منشورات كاذبة رجال يدخلون بصفة إناث ليقعن الإناث الحقيقيات في حبائلهم، أشياء يندى لها الجبين وما خفي كان أعظم».

ابتلع علي ريقه بصعوبة ليخرج صوته متحشرجاً رغماً عنه وهو يسأل: «ماذا يفعلون هناك؟».

بعبوس ردت سميرة: «تأتي امرأة وتنشر صورة زوجها أو خطيبها ثم تلقي بالسؤال القنبلة (هل تعرفينه؟)».

هتف علي مصعوقاً: «ماذا؟!».

كانت سميرة مندمجة بالشرح بينما علي يحل الخيوط بشكل أسرع بكثير مما تخيلته هي أو حتى تعرفه: «أجل يا علي الدنيا أصابها الجنون».

لم يبال اللحظة بما يحصل بالعالم أجمع كل ما يريد معرفته هو ما فعلته هيام ليسأل بتوتر: «هل وجدتِ صورتي هناك؟».

ردت بتعاطف: «أجل للأسف بنت حقيرة اسمها (نور علي) أنزلت صورتك هناك وهي تسأل».

تمتم علي وكأنه يكلم نفسه: «نور علي».

غارقاً في صدمته وسميرة بعيدة تماماً عن كنه الموضوع فتقول: «مؤكد فتاة سخيفة معجبة بك ولا تعلم الغيبة أنك رجل متزوج أو حتى تعلم وتريد إثارة المشاكل لك».

رأته بتعابير جامدة فتتساءل بقلق: «علي هل أنت بخير؟».

بذل المستحيل ليحاول أن يبدو طبيعياً وهو يرد: «نعم نعم أنا آسف صُدمت فقط».

ثم ضغط على نفسه أكثر ليسأل: «هل تستطيعين أن تربني تلك المجموعة وحساب الفتاة».

ردت سميرة وهي تخرج هاتفها من الحقيبة وتقول له: «الفتاة أوقفت الحساب ولم يعد يظهر، ظننت بالبداية أنها حظرتني لذلك اختفى حسابها؛ لكنني تأكدت عندما طلبت من صديقتي أن تدخل على حسابها لقد حذفت المنشور وأوقفت حسابها مباشرة بعد أن كلمتها وهددتها بنفسي؛ لكنني أخذت صورة للمنشور قبل أن أكلمها».

ببؤس معجون بالغضب كان علي ينظر لنسخة من المنشور وقد احتوى على صورة له يعرفها جيداً لأن هيام تحبها بشكل خاص وتحتفظ بها في حاسوبها صورته في المنشور مع جملة واحدة (هل هناك من أقامت أو تقيم علاقة مع صاحب الصورة؟).

بينما هو يحدد كانت سميرة تخفف عنه وتنبيهه بصفاء نية: «لا تقلق علي
أنا أردت تحذيرك لأنني أعلم ما عانيته أنت وهيام سابقاً فخفت أن تصل
لهيام بطريقة أو بأخرى الأفضل أن تبلغها بنفسك».

يتمتع علي بمعنى مختلف عما تظنه سميرة: «نعم يجب أن
أبلغها بنفسني».

بيت عائلة هيام

تجلس بتوتر على الأريكة التي تحبها منذ طفولتها، تتمدد وهي ترفع
ساقها وحاسوبها على حجرها، ما إن عادت للعاصمة فجر اليوم بعد
أسبوعين من الاعتزال الكامل مع علي حتى عاد الهمس يغويها، أتراها
مدمنة؟! وكأنها أدمنت فعل هذا، أتراها انتكاسة بعد أن استطاعت الابتعاد
لأسبوعين كاملين؟ أم أن الاعتزال هناك مع علي هذه المدة بعيداً عن كل
البشر لم يكن كافياً لتخليصها من إدمانها لم يكن كافياً ليمنحها الطمأنينة،
علي لم يعرف أنها أخذت الحاسوب معها اليوم لأن والدها من أتى صباحاً
ليأخذها من بيتها إلى بيت العائلة كي تقضي اليوم معهم، لا تعرف لما
أخذته لكنها فعلت دون تفكير، ثم قضت اليوم الطويل بين كر وفر تحوم
حوله وتحاول تجاهل وجوده، لقد عانت كثيراً وهي تتجاهل هكذا لكن ما إن
غفلت عنها أمها لتذهب كي تصلي العشاء حتى وجدت هيام نفسها تسحب

الحاسوب من الحقيبة السوداء الخاصة به ثم تجلس على الأريكة هكذا تتنازعها الرغبات والمخاوف معاً، تفتح الحاسوب وتحقق في الشاشة وهي تقاوم، يدها ترتعش بالتردد وهي تتقدم وتراجع، تفتح المتصفح ثم تتراجع عن اختيار صفحة الفيسبوك تختار صفحة الفيسبوك ثم تتراجع عن الدخول، تريد إعادة تفعيل حساب (نور علي) لكنها تتراجع قبل أن تفعل، تشعر بجفاف فمها إنها تريد العودة هناك تريد المجازفة من جديد فربما ستعرف!

مؤكد تلك المرأة أم يوسف نسيتهما بعد مضي هذه المدة، وربما اطمأنت منها بعد حذفها للمنشور وإيقاف حسابها، عاودها التشوش وهذه المرة بضوضاء عالية شعرت وكأنها تسمع صوتاً حقيقياً عالي النبرات يحفزها بثقة في تأثيره عليها «ادخلي لن يعرف أحد ادخلي واكشفي خيانتة ربما هو يداري عليها ويلهيك بتلك السفرة إلى الشمال ألم تقرئي عن كل أولئك الزوجات اللواتي خدعن من أزواجهن وهم يغرقونهن بالهدايا كي يداروا على الخيانة؟!». «

لم تشعر كيف تحركت يدها لتعيد تفعيل الحساب وقد جحظت عينيها بنظرة غير طبيعية جمعت الخوف واللذة معاً، ثم فجأة أفسد عليها شعورها. الرهيب هذا صوت سجي وهي تكلمها بقلق: «ما بك يا هيام؟ نظرات عينيك تخيفني».

تجمدت للحظة وهي تنظر إلى سجي تقف عند باب غرفة المعيشة شيئاً فشيئاً خفت (ظاهرياً) صوت الإغواء لتستقر مؤقتاً على أرض الواقع وهي

تحقق في ابنة خالتها، لا تعرف كيف خرجت الجملة من فمها وهي تسأل:
«هل تظنين أنني مجنونة يا سجي؟».

تقدمت منها سجي وهي تقول بنبرة قلق: «بالله عليك لا تقولي هذا».

يد هيام أغلقت الحاسوب تلقائياً مع اقتراب سجي؛ لكن ابنة خالتها تجاهلت تلك الحركة واقتربت لتجلس جوار هيام التي أنزلت ساقها وهي تضع الحاسوب جانباً على المنضدة الوسطية، قالت لها سجي بتشجيع وهي تبتسم: «هيام لقد عدت بحال أفضل أليس كذلك؟ فكري بإيجابية أن تكون بداية حلوة مشرقة».

ردت هيام بنظرة غريبة: «ومن لا تكون بخير مع علي لقد فعل المستحيل لإسعادي».

سألها سجي بجدية: «وهل نجح؟».

ردت هيام وقد بدا كأنها انعزلت (جزئياً) عن وجود سجي: «الخلل مني لا أنكر أنني تخسنت قليلاً هناك؛ لكنني أعرف لماذا شعرت بهذا التحسن الوقتي».

سألت سجي لكن السؤال أتى في أذن هيام كأنه نابع من داخلها:
«لماذا؟».

ردت علي (نفسها) وهي ترد علي هيام: «لأننا كنا بمفردنا هناك منعزلين

عن الجميع. شعرت أخيراً بالأمان».

صوت سجي جاءها بنبرة مضخمة: «هذا ليس شعوراً صحيحاً يا هيام نحن نعيش بين البشر وعلي...».

قاطعتها هيام بشراسة ونظرتها تشع عنفاً: «علي ملكي ملكي ولا أطيع أن ينظر لملكي أجد فما بالك أن يأخذه مني».

حاولت سجي أن تتكلم معها ببعض المنطق وهي تقول لها: «اهدئي هيام علي زوجك وحبيبك فمن سيأخذه؟!».

هتفت ونظراتها تبرق أكثر: «أي امرأة تطمع بعلي أي امرأة تريد علي كلهن يردنه».

همست سجي اسمها بخوف شديد عليها: «هيام!».

لكن هيام اهتمت لتمسك بكتفي سجي تهزها وهي تقول: «أنت أيضاً تريد علي أليس كذلك؟! كلكن حقيرات لكني سأدمركن وسأدمر كل من تريد تخريب ما بيني وبين زوجي».

دمعت عينا سجي وقلبها يتمزق لحالة هيام لم تستطع إلا احتضانها بالقوة وهي تهمس لها: «علي يحبك ثقي بهذا لا امرأة ستأخذه منك أبداً».

ما زالت هيام تتشبث بكتفي سجي بتشنج لكن رأسها استكان بعض الشيء على صدر ابنة خالتها فتغمض عينيها وتهمس بلهاث مرهق: «نعم

لن تأخذه امرأة مني».

تمسد سجي فوق رأس هيام وظهرها تحاول أن تجعلها تسترخي قبل وصول علي، لم يعد هناك مفر يجب أن تتعالج هيام، نظرات سجي امتدت للحاسوب اللعين على المنضدة قد لا تعرف ما فعلته هيام لكنها واثقة أن حالتها لم تكن ستصل هذا السوء لولا هذا العالم الافتراضي المخادع بات بؤرة للأمراض النفسية من كل نوع.

بعد نصف ساعة كانت هيام استعادت استقرارها لتبدو هادئة للغاية من الخارج، دخل علي إلى غرفة المعيشة في بيت حماه ليراها تجلس على الأريكة تحتسي الشاي بالحليب الذي تحبه، كان يعرف أن والداها تركا له المجال ليكلّمها منفرداً؛ لكنه لم يخبرهما عن موضوع (نور علي) رغم أنه بات مدركاً ومعتزفاً بمرض هيام فإنه لم يستطع إلا الشعور بالخيانة! إنه يتألم بقوة غاضب، ألقى التحية وهي تستدير بوجهها إليه باسمه كأنها طفلة بريئة: «مرحباً».

ردت وعيناها تمران فوقه كأنها تتفحصه: «مرحباً علي أُمي تعد العشاء».

حاول رسم ابتسامة فلم يستطع لكنه ترقق بصوته إلى أقصى حد يستطيع فعل هذا يخفي غليانه في الداخل: «قالت ستتأخر لنصف ساعة أخرى تعالي

معي الآن نلف في السيارة قليلاً على طريق البساتين الذي تحببته».

هزت رأسها موافقة لتضع كوب الشاي بالحليب الذي لم تنتهيه جوار الحاسوب ثم قفزت بنشاط كي تبحث عن حذائها لتلبسه، ظل علي يحدق بمنظر الكوب جوار الحاسوب ولا يعلم لماذا انتابه إحساس سيئ.

في السيارة التزم علي الصمت لعشر دقائق كان يحاول استجماع أفكاره التي تشتت بسبب ما عرفه اليوم، إنه إنسان مجرد إنسان لا يملك إلا أن يشعر بالغضب والنفور.

«لماذا أنت صامت هكذا يا علي؟».

التفت إليها ينظر لوجهها الشاحب شعرها معقود للخلف فبدت ضعيفة جداً هشة هزيلة وشاحبة وكئيبة؛ لكن لمعة في عينيها لا يعلم لماذا أشعلت فيه الغضب كأنها تسخر من جهله بما فعلته! نفخ رأسه وهو يستعيز بالله من الشيطان الرجيم يذكر نفسه أنها مريضة مريضة لو لم تكن مريضة لما تصرف بهذا الغباء، لما خانت ثقته لما خانت حرمة علاقتهما وأسرارهما لما شكت فيه من الأساس، فكرة خطرت له فجأة لماذا لا يستغل ما عرفه اليوم كي يجبرها على قبول العلاج؟! لقد كان محتاراً بالأسلوب الذي سيقنعها به لكن إن جعلها تشعر بالذنب وواجهها بفعلتها ستدرك خطورة ما وصلت إليه.

مد يده ليلتقط هاتفه الموضوع في الوسط بين المقعدين ثم فتحه وهيام
تراقب بتوجس وخلال لحظات أخرج لها النسخة المصورة من المنشور التي
أخذها من سميرة وقال بهدوء: «لم أكن أتصور أنك ستصلين إلى هذا
الحد».

أخذت هيام تحديق في شاشة هاتفه بعينين جاحظتين وأنفاسها تتسارع
بينما علي يكمل بنبرة حادة: «أتفصحينا هكذا يا هيام؟! أأستحق منك
هذا؟! أنا لم أعد احتمل تجعليني أشعر أن كل ما جمعني بك وحملته في
قلبي قد انتهى أو يوشك على الانتهاء».

همست بارتجاف دون أن تستطيع الإنكار: «علي لا تقل هذا أرجوك
أنا كنت...».

أوقفها علي عن هذرها الضعيف وهو يقول بحزم مشوحاً بيده: «كفى لقد
انتهينا من الاعتذارات حياتنا لن تستمر بهذا الشكل أمامك خياران لا ثالث
لهما، إما أن تذهبي إلى أخصائية نفسية أو...».

قبل أن ينهي جملته تفاجأ بهيام وهي تهتاج بعنف يشع من عينيها وتتحول
لمهاجمة بدلاً من موقف المدافعة: «أخصائية؟! إذن تكلم سجي من وراء
ظهري أليس كذلك؟! هذا اقتراحها، أنا أعلم، وقد كشفتما نفسيكما، ماذا
بينك وبينها؟!».

ذهل علي من كلامها فينقل نظراته المصدومة ما بينها وبين الطريق وهو

يقول: «أجننت لهذه الدرجة؟».

تميل نحوه لتغرز أصابع كفيها في ذراعه الممتد حتى المقود لتقول له بنظراته أربكته نظرات أقرب للجنون: «أرح نفسك وأخبر سجي أن تريح نفسها هي الأخرى أنا لن أذهب لأي طبيببة نفسية، لن أذهب لأنني لست بمجنونة لن تتخلصا مني أبداً».

ثم أخذت تهذي بكلمات مشتتة متلاحقة: «تريد تركي، تريد هجري، تريد رميي خارج حياتك».

ثم فجأة ازدادت حركاتها هياجاً وعلي يحاول تهدئتها: «توقفي هيام من أين لك كل هذا الكلام».

لكنها لم تعد تستمع إليه أخذت تضربه بقبضتيها ضربات عشوائية جنونية: «لا لا... هذا ما حلمت به لا لا حلمت أنك تتركني على قارعة الطريق طريق مظلم بأنوار مخيفة كالأشباح وأشجار النخيل من الجانبين تلتف بسعفها حول عنقي».

جنونها يتضاعف وعلي يكاد يفقد السيطرة على السيارة وأبواق السيارات تنبهه لخطورة الوضع، بينما يحاول أن يجد طريقة لإيقاف السيارة دون التعرض لحادث: «هيام توقفي هياااااااااا».

لكن هياجها يتضاعف لتفقد السيطرة تماماً وهي تضربه بقوة جنونية وما زالت تصرخ ببكاء هستيري: «هذا ما حلمت به هذا ما حلمت به».

حاول مجدداً وهو يمسك المقود بيد بينما يحاول السيطرة على جسدها
باليد الأخرى وهو يصرخ: «هيام هيام توقفي سأفقد السيطرة على
السيارة».

لكنها في عالم آخر حيث إشعاعات الوهم تحاوطها بل تنغرز تلك الأوهام
حادة في جسدها كالخناجر تقتلها ألماً: «لا لا أحتمل لا تتركني علي..
علي.. علي».

كانت تجره بعنف إليها تكاد تمزق قميصه وفي لحظة فقد علي السيطرة
لتنحرف منه السيارة وترتطم بعدة سيارات أخرى قبل أن تنقلب رأساً على
عقب لترتطم بعنف بأحد أسوار البساتين.

تجلس نورجان بصحبة ولدها عامر حول مائدة المطبخ الصغيرة يحتسيان
الشاي معاً بينما تنظر للساعة التي تشير للعاشرة فتعيد الاتصال بزوجها
دون أن تتلقى رداً، ترمي هاتفها بخنق وهي تتذمر بالقول: «هذا الرجل يثير
جنوني ما فائدة الهاتف الخلوي إن لم يكن ينتبه له من الأساس؟! يتأخر
هكذا ويجعلني أقلق عليه».

يتبسم عامر رغم شرود ذهنه وهو يداعب أمه بالقول: «قولي إنك من
الزوجات الغيورات يا نونة أخبريني هل تبحثين في هاتفه بعد أن ينام؟».

تضربه على رأسه وهو يضحك؛ لكن ضحكته ليست من القلب ولا يوجد مثل (نونة) لتشعر به، تأخذه كفه بين كفيها وتلثمها كما كانت تفعل معه ومع شقيقه وهما أطفال صغار، كانت مهووسة بأكفهم الصغيرة وما زالت حتى اللحظة تشعر بالعاطفة الأمومية نفسها وهي تفعل المثل بهذه الأكف التي اكتسبت خشونة الرجولة، سألته: «لم ترها منذ أسبوعين أليس كذلك؟».

يهز رأسها وهو يطرق بنظراته ليقول: «رأيتها من بعيد فقط لقد أخطأت نونة أغضبته كثيراً لكنني أغار عليها وذاك الحقير تحرش بها أمام ناظري فماذا يفترض بي أن أفعل».

ردت نونة بولاء كامل: «تضربه بالطبع حتى لا يعود بقادر على التعرف على ملامح وجهه في المرأة».

يضحك عامر عالياً بينما تنادي الجدة فيوشك عامر على الاستجابة لندائها لتسبقه أمه وهي تقول له: «اذهب وارتاح في غرفتك أنا سأبني نداء الجدة».

تحركت نونة لتغادر المطبخ وهي تقول له باستبشار: «اليوم سمعت أبواق زفة في حين دعوت الله من قلبي أن تكون زفتك على حبيبك».

لم يعلق عامر بشيء بل تحرك كئيباً بعض الشيء ليغادر المطبخ هو الآخر باتجاه السلم، يرتقي الدرجات ببطء ويفكر أن يقتحم غرفة عمر الذي ما زال

يخاصمه ليجبره على الاستماع إليه لكنه عاهد نفسه ألا يفعل ويترك لعمر
تحديد الوقت الذي يحتاجه كي يسامحه.

دخل عامر غرفته وهاتفه في يده أسبوعان كاملان لم يرها من قريب لم
يسمع صوتها أسبوع الإجازة قبل الامتحانات ثم تلاها أسبوع الامتحانات
وقد حاول منع نفسه بالقوة أن لا يذهب لكنه لم يحتمل من عند بوابة
الجامعة كان يتربص خروجها يراها من بعيد دون أن تلمحه حتى، شيء ما في
وجهها أقلقته بعض الشيء لا يعلم ما هو لكنه لم يستطع الاقتراب أكثر
خاصة ووالدها دوماً كان بانتظارها بوجه متجههم، الأغرب أنه في إحدى
المرات وبعد ذهاب حرير مع والدها لمح وفاء تسير مع بسمة فسارع ليترجل
من سيارته كي يذهب إليهما ويسأل عن حرير لكن وفاء أبدت حنقاً منه
لفعلته في ذاك العرس وطلبت منه أن لا يكلمها، ورغم شدتها معه فإنه
أصر أن تأخذ رقم هاتفه وأن تكلمه فقط لتطمئنه على حرير في آخر يوم
للامتحانات نهاية الأسبوع، لم يكن في كل هذا أمر غريب إنما الغرابة كانت
في النظرة التي حملتها وفاء إليه قبل أن تبتعد وليس هي فحسب إنما بسمة
أيضاً التي التزمت الصمت، لقد كانت نظرة غريبة للغاية كأنهما متعاطفتان
معه كأنهما تخفيان أمراً لا يعرفه، وها قد مر يوم كامل على انتهاء
الامتحانات انتهى الخميس وحلت الجمعة وتوشك على الانتهاء أيضاً ووفاء
لم تتصل، رمى هاتفه على الفراش وأخذ يفتح أزرار قميصه وهو يفكر بإيجاد
طريقة عندما رن هاتفه، توقفت يده عن فتح باقي الأزرار وهو يرى رقماً

غريباً انحنى سريعاً ليلتقط هاتفه بلهفة ويفتح الخط. فيتعرف مباشرة على صوت وفاء رغم الضجة جوارها: «مرحباً عامر معك...».

سارع ليقول مقاطعاً: «مرحباً وفاء في وقتك بالضبط للتو كنت أفكر بك شكراً لأنك اتصلت كنت أنتظر اتصالك منذ الأمس لكن...».

صوت زغاريد جعله يتوقف للحظة ثم قال ببعض التعجب: «أنت في حفل ما؟ أسمع الزغاريد».

في هذه الأثناء تنبه لاتصال ثانٍ يَرده فأبعد الهاتف عن أذنه ليرى اسم والده؛ لكنه قرر سيكلمه فيما بعد ليركز مع وفاء الآن التي يبدو وكأنها تحركت من مكانها لتبتعد عن الضجة التي خفتت فيأتيه صوت وفاء واضحاً بنبرة متأثرة أشاعت القلق في نفسه: «أنا آسفة عامر لأنني أنقل لك هذا؛ لكن كان يجب أن أخبرك هذا حقك لتعرف».

أخذ صدره يعلو ويهبط وهو يتساءل: «أعرف بماذا؟».

بهمسة تردد: «أنا».

هتف بها دون شعوره: «ماذا هناك؟».

ردت بهذر متواصل وهي في غاية التأثر: «أنا آسفة من صميم قلبي يا عامر لقد حذرتني بل هددتني قالت ستقطع علاقتها بي إن أخبرتك وقالت حتى إن أخبرتك فلن يتغير شيء لأن أباهما حكم وأمر».

لم يكن بقادر على تخيل مقصد وفاء لأن قلبه يأبى تصديق الإشارات الواضحة فيتمتم: «أخبريني فقط أخبريني».

قالت وفاء بحشرجة: «أنا في مدينة (...) أحضر عرسها».

وكان قلبه انسلخ عن جسده وهو يتساءل ببطء: «عرس من؟!».

لم يكن أمام وفاء إلا أن تقولها واضحة ليستوعبها: «عرس حرير يا عامر ألم تسمع أصواتاً في الحي عصر اليوم؟ لقد عقد القران في بيت والدها ثم خرجنا بالسيارات في (زفة العرس) انطلاقاً من بيت العروس وجئنا لهذه المدينة حيث يقطن العريس ويقام حفل العرس بحضور أهالي البلدة».

الهاتف وقع من يده لكن هي لحظة ليزأر بالرفض فيخرج من غرفته كالمجنون سيذهب إليها هناك سيقلب عاليها سافلها، سيثير فضيحة إن لم الأمر لمنعهم من سرقة حرير منه، وبينما هو يهبط الدرج لاهثاً كان عمر في إثره فأمسكه بقوة عند المنتصف ليوقفه بصوت مرتجف: «عامر».

التفت عامر بحالته هذه فيرى أخاه دامع العينين فيقول له بأنفاس مزمجرة: «ليس هذا وقته لتقرر أن تكلمني بعد أسابيع خصام».

أراد إكمال النزول لكن عمر تشبث به أكثر وهو يقول بصوت مخنوق: «أبي اتصل». وسط احتياج قلبه أدرك عقله أن الأمر خطير فأمسك بذراعي شقيقه الأصغر وهو يسأله لاهث الأنفاس: «هل أبي بخير؟! لقد كان يتصل بي ولم أستطع الرد.. أجبني هل هو بخير؟».

امتلاّت عينا عمر بالدموع فيشعر عامر أنه سيتهاوى وهو يتوقع الأسوأ،
بينما يتمتم بصدمة: «أنت تبكي!».

رد عمر: «إنه علي يا عامر تعرض هو وهيام لحادث سيارة مربع حالته
خطيرة وهيام هيام...».

قرأ عامر الباقي قبل أن ينطقها عمر فيهمس مفجوعاً: «ربااه».

بينما عمر يؤكدّها بألم: «هيام ماتت».

الفصل الثامن

بعد ست سنوات

يتململ علي في فراشه وقد استيقظ قبل دقائق وأول ما فعله عندما قرر التوقف عن تمللمه إن استقام بجذعه ببطء كي يأخذ وضع الجلوس، ثم التقط علبة سجائره وكحة صباحية لازمته لعشر ثوان قبل أن يشعل السيجارة ثم يرخي رأسه للخلف يدور بعينه ناظراً بلا مبالاة لمحيط غرفته عبر الدخان هي الغرفة ذاتها التي كانت له منذ انتقلوا إلى هذا البيت عندما كان في الثانية عشرة ما اختلف هو الأثاث، قست ملامحة بجمود وشحوب غضب يزحف لبشرته السمراء بينما يده عفواً ترتفع إلى جبهته تمر فوق أثر جرح هناك، تذكر ما فعلته يداه بالأثاث القديم قبل خمسة أعوام لم يكن حتى مر على الحادث عام كامل في ليلة ثقيلة من لياليه الطويلة البشعة استيقظ لاهثاً وقد حلم بهيام مجدداً، هذه المرة حلم بها بتفاصيل علاقتهما الجسدية عندما أتت تصالحه في غرفته الحلم جعله يتذكر تفاصيل غفل عنها، كيف كانت تبحث في جسده تبحث بعينيها بلمسات يديها تبحث حتى بقبلااتها المحمومة وهي تمر فوق رقبتة وصدره كانت تبحث عن أثر امرأة أخرى لم تكن إلا بخيالها هي فقط، دون شعوره اعتصر علي السيجارة في يده لذكريات مزدوجة ما بين ذاك الصباح وهيام تتلف لمصالحته وبين صباح آخر كهذا الصباح يكون قاتماً رغم نور الشمس وهو لا يملك إلا

يحرق رماد السيجارة باطن كفه ولا يشعر أنه فقط يتعذب يتذكر كيف جن عندما استيقظ من ذاك الحلم وخرج لاهثاً من غرفته لينزل إلى الطابق السفلي ومنه للمخزن الخلفي كي يأخذ فأساً ويعود به إلى غرفته ويعذاب مجنون كان يضرب بالفأس فوق السرير حتى حطمه قبل أن يستطيع أبوه وشقيقاه إيقافه، توارت الذكرى لكن عذابها لا يتوارى، ببساطة حرك علي يده ليوقع في المنفضة على المنضدة الجانبية بقايا السيجارة التي طحنها للتو ثم التقط سيجارة أخرى ليشعلها، سيجارة تتبعها أخرى حتى وصل إلى أربع سجائر صباحية متعاقبة ليستكفي بها قبل أن يغادر سريره والكحة تثقل عليه، بينما يتوجه إلى الحمام كي يستحم.

بعد نصف ساعة كان ينزل درجات السلم بأناقة من نوع خاص أناقة تناسب مزاجه الثائر المهتاج، قميص من قماش كحلي فاخر بأزرار مفتوحة إلى ما قبل النصف بزرين سلسلة فضية معلقة برقبتة تدلت منها ميدالية منقوش عليه (آية الكرسي) استحلفته جدته بعد نجاته من الحادث أن لا يغادر البيت إلا وهي معلقة في رقبته، بنطال كتاني بلون القميص يبرز رشاقتة التي باتت تميل للنحول، اليوم حلق لحيته ولم يبق إلا جزء منها حول ذقنه فيما يسمى بـ(سكسوكة)، شعره طويل بعض الشي فوضوي في جاذبية مموجة، عطره يسبقه عطر تشعر بكنه صاحبه وأنت تشمه قاتم قوي صادم وقد هجر علي عطوره الدافئة القديمة التي تميل للعود والمسك،

السيجارة عالقة بطرف فمه وهو يشعلها بدخوله إلى المطبخ وهناك يواجه أمه بنظراتها التي أخفت وجعها عليه وأظهرت غضبها منه وهي تهتف به متخصرة: «كم سيجارة افتتحت بها يومك اليوم؟».

أخذ نفساً عميقاً قبل أن يرد بابتسامة لا حياة فيها: «لم أعد».

عابسة من الخارج وتنزف ألماً على بكرها من الداخل يقترب علي منها وهو ينفث الدخان جانباً بعيداً عن اتجاهها ثم يميل إليها ليقبل خدها لكن نورجان تبتعد بوجهها وهي تقول متصنعة النفور: «ابتعد عني لا أحب رائحة الدخان».

يحاول خصرها بذراعه ليسحبها إليه مجبراً أمه على قبول قبلته على خدها ثم يقول بهمس خافت حمل معانٍ أعمق من ظاهرها المتدلل: «لا تقسي علي نونة أنا حبيبك علي».

تلجم ضعف قلبها وهي تنظر لولدها فتتحامل على نفسها كي تستمر بإظهار وتمثيل الحنق الأمومي قائلة: «على الأقل امتنع عن التدخين أمامي كما تمتنع أمام أبيك أم إني لا أستحق احتراماً كهذا؟».

ما زال يراوغ بالكلام كما تراوغ هي فيقول بنظرة شقية وهو يميل ليقبل خدها مرة أخرى: «أنت صديقتي المفضلة نونة وتشاركينني دوماً كل أفعالي الشائنة».

نظرت إليه ويدها ترتفع إلى خده كي تلامس سكسوكته دون أن تعلق

عليها، لا تحبها عليه كما لا تحب شعره الطويل ورغم أنه في قمة الجاذبية اليوم لكنها لا تحب ما تراه لأنه ببساطة هذا ليس ولدها (علي) نطقت اسمه بنبرة أمومية خاصة وكأنها تنادي روحه القديمة: «علي».

اشتعل وميض عينيه بما ألجم لسانها عن قول المزيد، بينما ينسلخ عن تقاربه معها ثم يرخي أهدابه قائلاً: «يجب أن ألحق بالحاج سليم قبل أن يؤنبني علي التأخير كالعادة، الفرع الجديد في حي الكرادة سيفتح خلال يومين ويجب أن أكون هناك اللحظة».

يده التي تحمل السيارة ارتعشت قليلاً وهو يرفعها إلى فمه فيأخذ نفساً بينما يتحرك خطوة ليتجاوز أمه لكن نورجان تشبثت بذراعه وهي تطلب منه بابتسامة مُحايِلة: «اذهب للجدة قبل خروجك».

التفت بوجهه جانباً لينظر إلى وجه أمه عاصفة هوجاء من الألم مرت على محياه وهو يرد بالقول الخافت: «سأألم لأجلها وليس لي طاقة كي أتحمّل المزيد».

تبتلع نورجان غصتها وترتجف ابتسامتها وهي تحاول إقناعه: «إنها تحبك».

يكتسح الجمود تعابير الألم على وجهه ليقول بهدوء وظلال ابتسامة على فمه: «وأنا أعشقها لكنها لا تجيد التمثيل أمامي وإخفاء ألمها كما تفعلين أنت».

حاول التحرك من جديد لكن أصابع نورجان تشبثت بذراعه أكثر وقد فاق
ألمها قدرتها على الصبر والتمثيل لتقول له بلوعة أم لا تحتمل رؤية ولدها
بهذا الحال أكثر من هذا: «علي مضت ست سنوات! لقد ناهزت الحادية
والثلاثين وحان الوقت كي...».

قاطعها وهو يخرر ذراعه قائلاً بالجمود نفسه والظلال نفسه لابتسامة
تؤلم من يراها ويفهمها: «أراك مساء نونة».

بعد دقائق كانت نورجان في غرفة الجدة حيث اعتادت حماتها في هذا
الوقت الجلوس على كرسي مريح كي تقرأ القرآن والأدعية الصباحية، تطوي
نورجان ساقها أسفل منها وهي تجلس على الأرض وتضع رأسها على حجر
والدة زوجها ومن تعتبرها أمّاً لها تشكوها ما لا تشكوه لأحد، على الأقل
ليس بالطريقة نفسها وكأنها احتاجت لقلب (أم) كي تفهم قلبها: «ماذا أفعل
يا خالة علي يبعد وكأنه ليس هنا ليس معنا ليس مع أحد على الإطلاق
وعامر لهف قلبي عليه لم يعد كما هو ضحكته الأجمل ما فيه لم تعد
تلامس فمه إلا على استحياء كأنه يحاول طمأنتنا، صامت كتوم لا شيء يثير
فيه رغبة الفرح، قلبه لم يعرف نسيان عشقه لحرير لم يعد يهتم بشيء إلا
العمل العمل ولا غيره يدفن نفسه فيه ليل نهار».

أخذت الجدة تملس على شعر كنتها وهي تقول بنظرة متألّمة على أحفادها

كألم والدتهم: «أولادك جنوبيون يا نورجان الجنوبيون عاطفيون للغاية،
حزنهم يخسف بهم إلى أسفل الأرض وفرحهم يعانقون به أعالي السماء وما
بين طلوعهم السماء وهبوطهم تحت الأرض لهم رب يحن عليهم بين بلاء
وبلاء».

تدمع عينا نورجان لوصف الجدة أجل أولادها الثلاثة جنوبيون عاطفيون
بشكل لا يوصف كيف تساعدهم؟ كيف؟ أخذت نورجان تفضفض بالقول:
«علي غاضب على نفسه يحملها ذنباً لم يرتكبها، هو غير مسؤول عن
موت هيام ليس مسؤولاً عن مرضها، وعامر الذي لم يجد حتى فرصة لينطق
ال(آه) وسط ما حصل لأخيه فاكتفى أن أقفل الباب واعتزل مع قلبه يكتم
حزنه كما يكتم غضبه، إنه غاضب يا خالة غاضب بجنون لكنه يكتم كل هذا
ولا يظهره».

تحولت الجدة وتدمع عيناها هي الأخرى بينما نورجان تواصل فضفضتها
وينبرة مختنقة بعاطفة الأمومة: «حتى عمر لا يعجبني يبدو أفضلهم حالاً
لكنه لا يعيش شبابه جاد للغاية ماذا جرى لأولادي؟! أين بشاشة عمر التي
تحيل أي حزن رماداً! أين مشاكسات عامر التي تحفر في الصخور الجافة
العنيدة لتجري فيها أنهاراً من الضحك! أين دفء علي الذي يجعل الدنيا
تنير مصابيحها مقابل نظرة من خضرة عينيه».

تنهدت الجدة تنهيدة عميقة ثم قالت ببعض التأنيب لنفسها: «أولاد سليم

أصابتهم سهام عين الحسد اللهم صل على محمد وآل محمد منذ ولادتهم وأنا أرقهم لكني لا بد سهوت يوماً فلم أرقهم كما يجب أو ربما أراد الله أمراً كان مفعولاً فلا الرقية تنفع ولا الدعاء يدفعه ما شاء سبحانه لا اعترض على حكمك يا رب».

رفعت نورجان رأسها لتنظر إلى حماتها وتسألها: «هل نبخر الدار يا خالة؟».

تهز الجدة رأسها وهي ترد: «عند صلاة المغرب سأفعل بنفسى».

ثم أخذت الجدة تربت بيدها على خد نورجان تشجعها بالقول: «أنت قوية يا نورجان دوماً كنت أساس هذا البيت المتين وأركانه الصلبة، سليم يحتاجك لتعبرا بأولادكما بر الأمان اصبري وكوني سنداً لزوجك».

تعقد نورجان حاجبيها قليلاً وهي تقول بحيرة وعدم قناعة: «سليم يريد دفعهم للزواج خاصة عامر وعمر يقول إن علي ليس مؤهلاً بعد لإعادة التجربة حتى الآن لكني على عكسه أريد لعلي أن يتزوج أولاً حاله يزداد سوءاً ولا يتغير رغم مرور ست سنوات».

تؤيدها الجدة بالقول: «وأنا معك في هذا علي يجب أن يجد امرأة أخرى إنه عاطفي أكثر من أخويه لذلك يحاسب نفسه بقساوة على ما جرى للمرحومة هيام».

تمتت نورجان بالرحمة ثم قالت: «سأحاول أن أقنع سليم بهذا عامر وعمر

وضعهما أفضل لكن علي يحتاج وقفة جدية كي يطفئ نار الشعور بالذنب التي تفتك به».

من المطبخ تنادي الخالة نبراس: «هياااام».

تستجيب سجي لهذا النداء الذي اعتادت عليه منذ ست سنوات وتنفذ تعليمات الطبيب الذي استشارته في حالة خالتها، فتكتفي بالرد عليها بما يذكرها دوماً أنها ابنة أختها لا ابنتها (هيام): «نعم خالتي».

وتظل سجي على أعصابها تنتظر ردة فعل خالتها في كل مرة لتتأكد أنها واعية فتتنفس الصعداء وخالتها تقول لها بنبرة عادية ودودة وكأنها تغفل عن مناداة سجي باسم هيام: «قبل خروجك لعملك نادي عمك من الطابق العلوي يا ابنتي كي ينزل ويفطر».

تبتسم سجي بارتياح تام لأن خالتها ما زالت تميز، بينما تقف بملابس الخروج عند باب المطبخ فترد ببشاشة: «حاضر».

تتحرك سجي ناحية السلم ومنه ترتقي الدرجات إلى الطابق الثاني حيث ثلاث غرف غرفتها وغرفة الكراكيب وغرفة المصلى التي كانت قبل ست سنوات فقط غرفة هيام الأثيرة، خلعت سجي حذاءها عند الباب ودخلت للمصلى الخالي من أي قطعة أثاث عدا مكتبة صغيرة اشتراها زوج عمها كي يضع فيها مصاحف وكتب أدعية وأخرى دينية، أرضية الغرفة تم كسوها

بالكامل بالسجاد الوثير لا يرفع صيفاً ولا شتاءً وأما الجدران فعُلقت عليها لوحات لآيات قرآنية لا غير واختفت صور هيام التي كانت معلقة هنا كما اختفت شهادات التخرج المؤطرة من الثانوية والجامعة، هذه الغرفة أو المصلى يكاد زوج خالتها العم رياض لا يفارقها، ساعة تظنه سجي أفضل حالاً من الخالة نبراس وأكثر صموداً وتقبلاً لقضاء الله، وساعة تراه في وحدته في هذه الغرفة يبكي بحرقة تدمي القلب ويناجي همساً اسم ابنته الوحيدة يطلب سماحها فتشعر سجي أن من رباها كأبيها يقاوم الاستسلام للانهيـار. رسمت سجي ابتسامة حلوة وهي تناديه بدعوة الإفطار: «عمي رياض تعال وأفطر الخالة نبراس تناديك».

يغلق العم رياض المصحف ثم يناديها بإشارة من يده كي تأتي وتجلس قريباً منه على سجادة الصلاة التي يفرشها فوق السجاد الوثير للغرفة، تتقدم سجي ملبية الدعوة فتتنظر إليه وتقيم عفويّاً كم غيّرته السنوات الست، عمها رياض الأنيق العصري بات لا يلبس إلا الجلباب الأبيض والطاقيـة التي أحضرها معه من مكة المكرمة عندما ذهب للحج مع الخالة نبراس قبل ثلاثة أعوام، هزيللاً بلحية طويلة ويبدو أكبر بكثير من سني عمره التي لم تتجاوز الستين.

جلست على الأرض وطوت ساقها تحتها وهي تبتسم لوجهه الطيب وتقول بمحبة ابنة حقيقية: «أأمرني عماه».

التقط مسبحته التي يضعها جواره وأبتدأ يسبح. وهو يحرك الخرزات الرمادية بتمهل، هذا كان من ضمن ما تعودت عليه سجي من أفعاله كأنه يسرح في ملكوت الله لبضع ثوان قبل أن يعود إلى واقعه، قال وأصابعه تتوقف عن تحريك الخرزات فجأة: «عيد ميلادك الثلاثون بعد ثلاثة أشهر أليس كذلك أم ذاكرة عمك رياض هزلت؟!».

لم تتوقع هذا منه! شعرت ببعض القلق والضيق من ذكره للموضوع لكنها تجاهلت انفعالها الداخلي لترد بلطف: «هو كذلك عماه».

أخذ يهز رأسه وكأنه يتحسر على مرور السنوات فيطرق ويعود لتحريك الخرزات بضع ثوان آخر قبل أن يتوقف ليقول بنبرة شرود في الماضي البعيد: «ثلاثون عاماً! كأنه البارحة فقط عندما أخذتك نبراس في حضنها في بيت والديك رحمهما الله وأنت مولودة حديثة وقد أصرت خالتك أن ترضعك من صدرها، فأعطتني هيام لأجلسها في حضني لقد كانت هيام بعمر الستة أشهر وقد انشغلنا عنها بك في تلك اللحظات فلم أتنبه لغيرتها مما يحصل حتى أخذت تخرج قميصي وهي تصرخ بالبكاء».

رمشت سجي عدة مرات وهي تنظر للعم رياض المطرق برأسه ولوهلة ظنت أنه ربما اختلطت عليه الذكريات أو ربما بدأ يبتدع ذكريات من صنع خياله المحض! تساءلت بتشكك وهي تشعر بالقلق عليه: «خالتي نبراس أَرْضَعْتَنِي! هذه المرة الأولى التي أعرف بهذا، هل أنت متأكد عماه؟».

رفع وجهه إليها والتمعت عيناه بنظرة أكدت لها أنه واعٍ تماماً لما يقول
بينما يرد عليها: «هل تظنين أنني كبرت وخرفت يا سجي؟! لقد أرضعتك
نبراس عدة مرات أكاد لا أحصيها».

شعرت سجي بألم موجع في صدرها ألم استجلب دمعة لعينيها لا تعرف
لماذا شعرت بالألم هكذا! تساءلت بحشجة وهي تكاد لا تصدق: «لكن
كيف لم تذكر هذا من قبل؟! هل هذا يعني أنكما والدائي بالرضاعة
عماه؟!».

رد العم رياض وهو يهز رأسه: «لم نفكر بالأمر كثيراً في وقتها يا ابنتي
ولم نسأل في حكمه شرعاً بل لم يخطر ببالي من الأصل حتى سمعت خطبة
شيخ الجامع قبل أيام فقط وتطرق فيها عن الموضوع نفسه وعندها حكيت
له عنك وسألته فأكد لي أنك ابنتنا بالرضاعة، ثم رفع كفأً حانية ليلا مس خد
سجي وهو يضيف بصدق: «لكنك في عرفي أنت دوماً كنتِ وستظلين
ابنتي».

كتمت سجي وجعة قلب وهي تلثم يده وتهمس بتساؤل مبحوح: «لماذا لم
تخبراني على الأقل؟! حتى والدائي رحمهما الله لا أذكر على الإطلاق أنهما
قالا شيئاً كهذا أمامي».

تراخت يده النحيلة عن خدها وعاد ليطلق ليرد بنبرة غريبة: «لقد اتفقنا
جميعنا على هذا أنا ونبراس ووالداك رحمهما الله وقد كانت لنا أسبابنا كي

لا نذكره».

تساءلت سجي بدهشة: «أسباب؟!».

ثم دون شعورها أضافت بعفوية تساؤلاً كأن فيه الإجابة: «هل هيام كانت تعرف؟!».

فاح صوت العم رياض برائحة الألم وهو يقول بصوت خافت كأنه جرح ينزف بصمت: «أظنها لم تنس أبداً رغم ادعائها النسيان، الحادثة ظلت محفورة في ذهنها رغم صغر سنها عندما حصلت».

شعرت سجي بالتشوش فسألت: «أي حادثة عماه؟ هل تقصد حادث السيارة لعائتي؟».

أخذ العم رياض يهز رأسه نفياً ثم قال: «بل حادث صغير يخص هيام وحدها عندما كانت في الخامسة، وهذا كان قبل حادثة السيارة التي أودت بحياة عائلتك رحمهم الله بعامين أو ثلاثة».

ثم رفع وجهه ليعود إلى تلك النظرة السارحة في الماضي وإن كانت هذه المرة نظرة إدراك وعمق لذلك الحدث الذي يرويهِ: «كنا نناغشها أنا ونبراس كيف أنك أختها لأنك شاركتها الرضاعة».

توترت ملامح وجهه وهو يضيف بخفوت كأنه يكلم نفسه موبخاً إياها: «كان يجب أن أتنبه، كان يجب أن أفهم، كم كنت غيباً».

مدت سجي يدها لتحاول كفه وهي تحاول التخفيف عنه دون أن تعلم
سبب توتره: «عمي لا داعٍ للكلام عن هذا الآن».

لكنه لم يكن يستمع إليها بل أكمل الحكاية وكأنه يراها اللحظة متجسدة
من الماضي أمام عينيه فيصفها بتفاصيلها: «ردة فعلها كانت مبالغاً فيها
جداً أخذت تصرخ بل تشد شعر نبراس وتضرب على صدرها بهستيرية،
وعندما حاولت إيقافها كان جسدها الصغير الرقيق كله يتشنج من الانفعال
حتى وقعت منا أرضاً وهي بحالة انقطاع نفس وتشنج كامل! هل تتخيلين
طفلة في الخامسة ويحدث لها هذا ووالداها لا يتنبهان لوجود خلل».

أخذ يضرب بقبضته على فخذه وشعور بالذنب اختلط بالندم! حاولت
سجي إيقافه وهي تمنع دموعها بكل ما أوتيت من قوة بينما العم رياض
يكمل وأنفاسه تتهدج: «أخذت أنفخ في فمها وأنا أرى شفيتها تزرقان
وأوشكت أن أنقلها للمستشفى عندما استردت أنفاسها، بعد لحظات كنا
هلعين عليها وبعد أن استعادت لونها الطبيعي عادت لتبكي وهي تتشبث
بحضن أمها، فكذبنا عليها اعتذرنا منها وقلنا لها إننا كنا نلعب معها ولم
نقصد إزعاجها وإن أمها لم ترضع أي طفل آخر عداها هي أخبرناها أنها
ستظل ابنتنا الوحيدة أميرتنا ملكتنا».

لم تستغرب سجي ما قاله هذا هو ما اعتادت عليه من ردود أفعالهما مع
هيام! لكن ما قاله أثار انتباهها لأمر لم تأخذه بهذه الجدية من قبل فسألته

ببعض التردد: «ألم تأخذها لطبيب؟».

كما خمنت رد العم رياض بهزة نفي من رأسه ثم قال: «اكتفيت وقتها بمكالمة هاتفية مع طبيب أطفال صديق لي رغم معارضة نبراس وإصرارها أن ابنتنا لا تعاني أي مشكلة وجاء كلام الطبيب مقارباً لرأي نبراس، قال إن لا داعٍ لأي فحوص وإنها فقط طفلة حساسة أكثر من المعتاد ثم طمأنني بأن هذه الحالات تحدث لبعض الأطفال دون أي ضرر وستختفي من تلقاء ذاتها خلال أعوام قليلة».

عقدت سجي حاجبيها قليلاً وهي تسأل: «وهل اختفت؟».

أوضح العم رياض: «تكررت مرة أو اثنتين ثم اختفت تماماً تجنبنا لأي شيء يتسبب بانفعالها قدر الإمكان».

وكانه تحصيل حاصل قالت سجي: «فاتفتما مع والدي أيضاً أنكما لن تذكرنا موضوع الرضاعة مجدداً».

هز العم رأسه موافقاً وهو يقول: «أجل كما أننا لم نكن نأخذ موضوع الرضاعة على محمل الجد ففكرنا أن لا أهمية لذكره خاصة وهو يتسبب بمشكلة حساسة لهيام».

صمتت سجي ولم تستطع قول شيء، ربما حقيقة أنهما والداها بالرضاعة لن يغير الكثير لكنها لم تستطع منع شعورها بـ(الأذى) إنه أحد الأشياء الكثيرة التي سُلبت منها لأجل هيام، والغريب أنها ورغم ما تشعره من

(أذى) فإنها تشفق على تلك الراحلة التي لا تُطوى صفحات وجودها في الدنيا كأنها ما زالت تتنفس معهم وتمنع عنهم فضيلة النسيان.

جاءها صوت عمها رياض وهو يقول أخيراً بسخرية مريرة واعتراف ضمني بالذنب والتقصير: «نحن أسوأ والدين أليس كذلك؟! كل الدلائل كانت تشير لوجود مشكلة أعمق مما شخّصه الطبيب لكننا اخترنا التجاهل والتغاضي، كنت أعلم دوماً في قرارة نفسي أن ابنتي فيها خطأ ما لكنني رفضت الاعتراف به واكتفيت بالضعف أمامها وأمام تحقيق رغباتها».

«لماذا لم تنزلا حتى الآن؟! هيا لنفطر سوية قبل أن يبرد الشاي».

التفت الاثنان ناحية الباب لينظرا إلى وقفة نبراس هناك، لم يكن لدى سجي أي شك أن خالتها سمعت كل الحوار؛ لكنها كانت أضعف من أن تصرح بهذا، نظرت سجي إليها نظرت في عينيها فرأت فيهما رجاء صامتاً أن تسامحها أن لا تسأل، منحتها سجي نظرة دامعة رغماً عنها، جاهدت سجي لترسم ابتسامة وهي تقول لخالتها بحشركة: «سننزل حالاً خالتي».

أخذت الخالة نبراس تلوح بيدها قبل أن تنسحب سريعاً؛ فأدركت سجي أن غصة خنقتها فلم تستطع قول المزيد، حاولت سجي الوقوف لكن العم رياض أمسك بها وقال بجدية: «لقد أخذنا الكلام لأمر جانبيه من الماضي فتهدت عن المقصد الذي أريده».

فتساءلت سجي بدهشة وبعض التوجس: «أي مقصد عماه؟».

رد العم رياض بجديّة: «إنك ستبلغين الثلاثين يا ابنتي ويقاؤك دون زواج ورفضك للعرسان غير صحيح».

شعرت سجي بالتوتر الشديد يجتاح كل جسدها دفعة واحدة، ردت وهي تحاول غلق هذا الباب: «أنا لا أريد الزواج عماه سعيدة بعلمي وحياتي المستقلة، كما أنني لن أترككما أبداً».

يعقد العم رياض حاجبيه ليقول بجديّة: «إنها سنة الحياة يا سجي ونحن لن ندوم لك يا ابنتي».

حاولت سجي الرد باعتراض عندما أوقفها وهو يضيف: «هناك عريس تقدم لخطبتك فقط أريدك أن تلتقيه وبعدها قرري ولن تكسري كلمتي في هذا أليس كذلك؟».

أطرقت سجي وهي تقول بمهادنة: «حاضر عماه سألتقيه لأجلك لكن لا تطلب مني أكثر من هذا أرجوك».

أخذ العم رياض يربت على رأسها راضياً بينما سجي في عمقها تكتم صوت القلب المكبوم.

بعد نصف ساعة كانت سجي تقود سيارتها وسط الزحام وهواء التكييف يضرب وجهها ليخفف من حر شمس منتصف الصيف، سيكون هذا آخر يوم

تذهب إلى عملها في الجامعة لتبدأ إجازتها الحقيقية قبل مجيء شهر أيلول
وبداية عام دراسي جديد بداية عام بعد عام من عمرها وهي داخل حلقة
لا فكاك منها، حلقة هيام تشعر أن كل حياتها مسجونة في تلك القبضة
المنحكمة من رغبات ابنة خالتها، ابتسمت سجي ابتسامة مريرة وهي
تهمس: «ابنة خالتي.. اكتشفت اليوم فقط وبعد ثلاثين عاماً أنها كانت
أختي بالرضاعة».

(ضميني إليك أختي ضميني ولا تتركني أنام لوحدي الليلة).

تذكرت سجي تلك الجملة من هيام عندما انضمت إليها في السرير تطلب
الأمان، طوال ست سنوات كانت سجي تهرب من تذكر الليلة فالذكرى تؤلم!
تؤلم لأنها كانت تشعرها بالذنب وجلد الذات بالتفكير أنها كان يجب أن تفعل
أكثر أن تحاول أكثر لإنقاذ هيام وإجبارها بأي وسيلة على العلاج النفسي؛
لكن اللحظة تذكرتها سجي وهي تتألم من أمر آخر، ليس لدى سجي أي شك
أن هيام كانت تعرف كانت تتذكر في عمقها أن سجي (أختها بالرضاعة)
لكنها رفضتها وبخلت عليها بالاعتراف بهذه المكانة، هل هو إحساس
سخيف أن تشعر سجي بالخيانة؟! بالغدر! بسلب الحقوق، تجمعت الدموع
في عيني سجي وهي تهمس لنفسها بتأنيب: «هل جنت؟! لقد كانت هيام
مريضة كانت ضحية جهل وتجاهل لحالتها من أقرب الناس إليها والديها
وبدلاً من علاجها كانا يعمقان المشكلة أكثر وأنت أكثر من الجميع مطلعة
على ما عانته دون أن تبوح به لأحد».

أبواق السيارات الغاضبة من الزحام جعلها تمسح ذموعها التي انحدرت
لتركز في الطريق، بينما تقرأ الفاتحة لروح ابنة خالتها وأختها.

ابتسامة رقيقة حزينه جعلت شفيتها الممثلةتين تنفرجان قليلاً وهي تتذكر
هيام طفلة تتقاذف بشعرها المجعد تحاول إثبات نفسها بجذب انتباه الجميع
إليها، كانت هذه وسيلتها الوحيدة التي تعلمتها من والديها.

محل القماش / الفرع الثاني

قُرابة الظهر

ينادي عامر من مكانه في المحل على أحد العمال كي يحضر لفافة
قماش من المخزن وهو يتجاهل نظرات نوال إليه، التقت عيناه بعيني أخيه
عمر في تلك اللحظة وقد كان عمر على بعد بضعة أمتار يهتم بإحدى
الزبونات، نظرة عمر متسائلة بينما نظرة عامر ترد (أن صبره يكاد ينفد).

نوال إحدى صديقات عامر السابقات ولا يعلم ما الذي ذكرها به بعد مرور
أكثر من سبع سنوات على انتهاء علاقتهما القصيرة، علاقة عابرة لم تدم إلا
شهرين وانتهت حالها كحال غيرها، ومن بعدها لم يرها خلال هذه السنوات
إلا بضع مرات في أماكن عامة وبصحبة زوجها وقد تصرف عامر وكأنه لا
يعرفها على الإطلاق لأجلها هي؛ لكن منذ أسبوع تفاجأ عامر وهي تدخل

عليه المحل للمرة الأولى منذ انتهاء علاقتهما وزواجها من رجل آخر، ثم باتت تأتي إليه يومياً تقريباً تدعي رغبته بشراء أقمشة من الواضح أنها لا تحتاجها لقد تصرف معها وكأنها زبونة عادية لا معرفة خاصة بينهما متجاهلاً كل المحاولات المستترة منها لذكر ماضٍ قديم بينهما.

أخذت نوال تنظر إليه وهو يتجاهلها مجدداً ويكلم أحد العمال ورغماً عنها عيناها تتعلقان بفمه، تبتلع ريقها دون إرادتها وهي تتذكر قبلات شفثيه التي لم تنسها يوماً بل تجددت ذكراها بشكل سافر في الآونة الأخيرة، زوجها بات يسافر كثيراً في العامين الأخيرين إلى الصين لأغراض التجارة فيغيب عنها بالأسابيع لم تعد تحتمل وحدتها وتحملها لمسؤولية طفلين بمفردها، وها هو غائب عنها منذ أكثر من شهرين وتكاد تجن من الوحدة ووحدتها هذه وطول افتراق عن زوجها جعلتها تتذكر قبلات عامر القماش وتحن إليها، فأقدمت على زيارته في المحل بدافع الفضول أو ربما إغواء شيطان وسوس بأذنها أن تذهب إليه وتراه كيف غيرته السنون وحالما رأته وقد بدا أكثر جاذبية ونضجاً دق قلبها بعنف الذكرى وتمكنت منها رغبة ملحة كي تكون معه من جديد، وهذه المرة لا تتخيل أنها ستكتفي بقبلات وأحضان فهي لم تعد مجرد فتاة بل امرأة متزوجة عرفت معنى العلاقة الجسدية الكاملة وهو أيضاً مؤكداً لم يعد يكتفي بشقاوة عابرة رجل مثله بلغ الثلاثين وتاريخه الحافل لا بد أن له الآن علاقات أشد عمقاً مما سبق، خاصة وقد تأكدت بنفسها أنه لم يتزوج وليس مرتبطاً بخطبة لا بد أنه يسرح ويمرح على هواه.

صوت شعور بالذنب لما تفكر فيه حاول ردعها لكن شيطاناً موسوساً كتم شعور الذنب وهو يزرع أفكاراً برأسها أن زوجها نفسه قد يكون الآن بحضن امرأة، فهل يعقل أنه يمتنع عن النساء وهو بعيد عن زوجته؟! إذا كانت هي نفسها تشعر بالوحدة ورغبة الوصال فكيف به والرجل يحتاج هذا أكثر من المرأة؟! لا بد أن زوجها صاحب الكثيرات هناك وهي المغفلة هنا يتركها بمفردها تعاني.

عادت عينا عامر إليها فقفز قلبها وطلت نظرة رغبة من عينيها لم تشعر بها، كان عامر يحاول جاهداً أن يبدو مؤدباً معها وهو يسألها بهدوء بارد: «هل هناك قماش آخر تودين رؤيته؟».

غاضها ما يفعله! هل هذا أسلوبه الجديد؟ أن يتبع البرود والتجاهل؟ إنها ليست مغرورة لكنها جميلة للغاية والكل يشهد أنها في أوج أنوثتها وتفتح جمالها، فلماذا لا يستجيب لمحاولاتها للتقرب؟!

فتحت فمها لتقول جملة صريحة المعنى عسى أن تصدع بروده المتصنع هذا لكن رن هاتفه فاستأذن أن يرد، كانت تسحق أسنانها غيظاً ما الذي جرى له؟! منذ أسبوع وهي تحاول لفت انتباهه أنها تحن لأيامهما معاً؛ لكنه يصدها حسن يجب أن تعترف أن هناك أمراً ما تشعره مختلفاً مع عامر القماش هناك تغيير ما في عينيه في البداية ظنته يفعل معها هذا على وجه الخصوص، وأنه لا يرغب بالتورط مع امرأة متزوجة؛ لكنها راقبته عن كثب

نظرته باهتة للغاية لا تلمع بشقاوة كانت متوهجة في الماضي، لقد بات غامضاً أو أنها لا تفهم معنى تعابيره ولا يزيد لها صده إلا انجذاباً إليه، أخذت تنقر بأصابعها على حافة طاولة العرض التي تفصلها عنه، بينما تسمعه يكلم أخاه الأكبر علي حول بضاعة ما، أنهى المكالمة أخيراً فلم تمهله نوال وهي تقولها دفعة واحدة وبصوت خافت للغاية: «أريد أن نلتقي بمفردنا يا عامر اليوم وفي أي مكان منعزل تحدده، أنا أريد أن أكون معك».

لا تصدق أنها قالتها أخيراً شعرت بالخوف للحظة من جرأتها ثم شعرت بالإثارة في اللحظة التالية، وكأنها مقدمة على مغامرة تقطع الأنفاس؛ لكن كل هذا تغير مع اتساع عيني عامر لبضع ثوانٍ ثم كساهما جمود قاسٍ وهو يرد عليها بسؤال غريب: «ألك أولاد؟».

هزت نوال رأسها بنعم وهي لا تفهم مغزى سؤاله ليقول بنبرة جارحة: «إن كانت لك مشاكل مع زوجك تجعلك ترخصين نفسك هكذا مع أي رجل فما ذنب أولادك كي تحمليهم معك وزراً ثقيلاً كهذا؟!».

برود صقيع وخزي فظيع جعلها تتسمر مكانها عاجزة عن الإتيان بحركة أو النطق برد وهي تستوعب ما قاله وكأنه صفعها بكفه لعلها تفيق؛ ليقولها لها عامر صريحة وكأنه يسمع ما يدور برأسها فجاءها صوته خافتاً باهت النبرات: «أفيقي من غفلتك وعودي لأولادك ستر الله عرضك».

كلماته أعادتها للواقع أذناها تطنان بينما عيناها تدوران في المكان خشية

(متأخرة) أن يكون سمعها أحد، لقد اختارت هذا الوقت من النهار لأنها تعرف أن محل الأقمشة يقل رواده في هذه الساعة فتركت أولادها عند الجيران يشاركونهم اللعب وأتت متلهفة لعمار القماش، أطرقت وهي تتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعها، تستعيد كلمات عمار الأخيرة ببطء وهي تشعر بكل حرف من كلمة (رخص) ما الذي دهاها؟! ما الذي تفعله هنا؟! يا إلهي كيف تعود بالزمن للأسبوع وتمحو مجيئها هنا من الأساس، رفع عمار صوته قليلاً بنبرة عادية وابتسامة مجاملة قائلاً: «أرئنا أختي تحياتي لزوجك وحفظ أولادك».

لقد كان يسترها بجملته تلك فرفعت وجهها لتلتقط نظرة فضولية من أحد العمال نحوها فشعرت بالهلع فجأة، وكأنها كانت مغيبة تماماً عن إدراك ما تفعله وكيف تفضح نفسها دون اعتبار لسمعتها وسمعة زوجها وأولادها، تراجعت للخلف فارتطمت بأحدهم التفتت بنظرة الهلع تلك لتراها شابة من سنها تقريباً وتحمل طفلة بعمر الأشهر وقد كانت الشابة تنظر إليها نظرة عجيبة وكأنها تعرف بكل ما دار بينها وبين عمار، انسحبت نوال وهي تتمتم بالسلام والشكر لعمار وغادرت بخطوات متعجلة كأن الشياطين تسخر ضاحكة منها، بينما تقسم في سرها أنها لن تدخل محل القماش ما بقي من حياتها.

تتبع وفاء بنظراتها تلك المرأة الشابة المغادرة وهي تهز رأسها أسفاً، بينما تلقي السلام على عمار ببعض الفكاهة: «ظهر الخير يا عمار

يبتسم عامر لفكاهتها وقد فهم إشارتها لنوال فلم يعلق وهو ينظر لطفلتها
شهد قائلاً: «كيف حالك يا وفاء».

وبينما وفاء ترد: «بخير الحمد لله كيف حالك أنت؟».

كان عامر يمد كفه للطفلة فيمرر أطراف أصابعه بحركة سريعة من أعلى
ذراع الصغيرة حتى نهاية كفها الممتلئ، ثم يجمع أصابعه التي لامستها
ليرفعها إلى فمه وكأنه يقبل ملمسها رد بعدها وعيناه تغمزان للصغيرة:
«بخير الحمد لله فقط قتلنا الشوق للآنسة شهد».

تضحك وفاء بينما تشاركها شهودة الضحك وكأنها تستجيب لدعابة فلا
يقاوم عامر كي يمد كفيه الاثنين نحوها ليلتقط الصغيرة من أمها فيضمها
إلى صدره مُقبلاً خدها ثم يعض شفته السفلى ويقول: «ماذا لو سرقتك من
والديك يا قطعة الكنافة بالقشطة».

تكشر الصغيرة عن ابتسامة مضحكة وهي تهذر بكلماتها غير المفهومة
كأنها ترد عليه، عاود تقبيلها وهو يسأل بعفوية: «ما أخبار بسمة؟ لم أرها
منذ أشهر».

في هذه اللحظة دخلت فتاتان إحداها عابسة من خلف نظارتها الطبية
والثانية تبدو متلهفة، أشارت وفاء للفتاتين وهي تقول: «أنا هنا تعاليا لتريا
الأقمشة».

أوشكت رونا هي أن تتحرك نحو وفاء؛ لكن صديقتها سحبتها من ذراعها
للجانب الآخر ووجهتها (عمر القماش)، هزت وفاء كتفيها بلا اكتراث بينما
عاودت الالتفات إلى عامر وهي ترد على سؤاله: «بسمة رزقت بوليد لقد
أصبحوا زمرة مجرمين من ثلاثة ذكور أعان الله بسمة عليهم لو كنت
مكانها لفررت إلى الصحراء اعتزل البشر».

يضحك عامر وهو يقول: «سلمي لي عليها وأبلغها تهاني».

ثم يعود باهتمامه إلى الصغيرة شهد فيسأل: «هل الآنسة ترغب
بقماش محدد؟».

ردت وفاء بفكاهة عفوية: «أُمُّ (الآنسة) من ترغب بالحرير».

حرير اسم ومعنى وملمس ورجة كهربائية موجهة إلى قلبه الميت فلا هي
تحبيه ولا هي تتركه بحاله.

شعرت وفاء بذاك الجمود الذي اعتراه فأشفقت عليه أنه لم ينس، ورغم
توطد علاقتها به خلال السنوات الماضية فإن كلاهما كانا حريصين دون
اتفاق على الامتناع عن ذكر كل ما يتعلق بحرير؛ لكنها تشعر فيه بشيء
تغير للغاية تغير للأبد ليته فقط ينسى فربما يبدأ عندها من جديد أنه شاب
جيد خاصة وقد انضبط سلوكه مع الفتيات ولم تعد سمعته تشوبها شائبة،
سرحت وفاء أكثر وهي تفكر أن أولاد القماش خانهم الحظ! فالأكبر علي
ليس بأفضل حالاً من عامر بل تظنه أسوأ بكثير، فبعد الحادث الشنيع الذي

أودى بحياة زوجته هيام ومرور أشهر عصيبة على عائلة القماش حتى تعافى ولدهم من إصابته البليغة، باتت تصرفات علي القماش حديث الكثيرين البعض يقول إنه انقلب لمستهتر والبعض الآخر يقول تغيرت أخلاقه وصفاته ولم يعد ذم الخلق حلو للسان كما كان بل شعلة نار يثير الزوابع أينما حل؛ لكن زوجها سيف الذي يعمل في تجارة العطور في السوق الكبير وسط العاصمة حيث الفرغ الأول لمحل القماش يؤكد لها أن الناس تبالغ وكل ما في الأمر أن الرجل المفجوع لم يستطع استعادة توازنه رغم مرور ست سنوات فيبدو غريباً عما عهدوه منه لا أكثر.

أعادها عامر للواقع وهو يعيد إليها صغيرتها شهد مُظهراً تلك الابتسامة التي لا روح فيها التي لازمته في السنوات الأخيرة، بينما يقول بهدوء: «أي ألوان الحرير تفضلين يا وفاء هل نبدأ بالأزرق السماوي؟ أظنك تحبينه وهو يليق بلون بشرتك».

هزت وفاء رأسها بنعم بينما يستدير عامر كي يحضر المطلوب من الرفوف خلف ظهره، أخذت وفاء تنظر إليه لتنحى أفكارها منحى ربما فيه بعض الجنون.

عاقدة الحاجبين مزمومة الشفتين وهي تتابع كلمات صديقتها إسراء المتدفقة مع عمر القماش، إسراء كالمدفع الرشاش عندما يسيطر عليها

هدف وهدفها اليوم إيجاد قماش غير تقليدي للفستان الذي تريد خياطته لعرس أخيها، تكز رونا هي على أسنانها وهي ترى صبر عمر القماش وأسلوبه الهادئ في مواجهة (المدفع)، هل يجب أن يكون صبوراً لهذا الحد ومتفهماً لطبيعة صديقتها المربكة؟! أم يجب أن يكون صوته رخيماً هكذا كأنه (كاظم الساهر) في أحد اللقاءات على التلفاز والمذاعة تكاد تقفز في حضنه من فرط تأثرها بنبرة صوته وكلماته.

الحمد لله إسرائ أعقل وأكثر تشبهاً من أن ترغب بالقفز في حضن عمر هذا، تساءلت رونا هي في سرها للمرة الثلاثين: «ما الذي جعلني أرافق هذه الحمقاء إلى هنا؟! لا أريد أن أخيط فستاناً جديداً من الأساس هل هو عرس أخي أم عرس أخيها؟!». «

ثم التفتت إلى الناحية الأخرى وهي تتأفف لتنظر إلى وفاء وهي تتعامل مع عامر القماش حول الأقمشة، تمتمت لنفسها: «على الأقل وفاء أحضرتنا معها بدل أن نتحمل سخافة سائق أجرة».

أجفلت وصوت (كاظم الساهر) يوجه إليها الكلام: «بماذا أخدمك يا آنسة رونا هي؟!». «

تبتلع رونا هي ريقها وهي تحاول بغيط السيطرة على ردة فعل جسدها المنتفضة من كلمة (آنسة) ماذا هناك في صوت هذا المزعج (الساھري) كي يجعل كلمة (آنسة) مربكة لها بهذا الشكل، هل ربما لأنها ترتبط

بالمرة الأولى التي سمعتها منه وهي بكل غباء أوقعت شطيرة الفلافل أرضاً؟! أم لأنه طوال هذه السنوات ترى في عينيه (الجميلتين) ما يذكرها دوماً بالحادث السخيف؟! ردت بخشونة وهي تلتفت إلى عمر القماش: «من طلب منك خدمة؟».

بدا متسلياً كأنه يكلم طفلة صغيرة مزعجة وهو يرد عليها بصبر: «دخولك للمحل يعني أنك تحتاجين لشيء مني».

تتوتر وهي تعدل وضعية نظارتها الطبية لترد عليه بوقاحة وتهور غبي: «وقد أكون مجبرة على الدخول».

يرخي أهدابه وهو يبتسم بل يكاد يضحك فتشعر رونا هي برغبة لصفعه ليقول عمر بتلك النبوة المربكة: «كيف حال بسمه؟ أوصلي إليها سلامي وأخبريها أن القماش الذي سألتني عن مدى توفره بالعاصمة سيكون خلال شهر في الأفرع الثلاثة للقماش».

هل يتعمد استباق اسمها بكلمة (آنسة) بينما لا يفعل المثل مع أختها بسمه ولا حتى وفاء؟

أحياناً تشعر أنه يفعل هذا ليغيظها فقط! وكما يحصل في كل مرة ينجح تماماً بفعلته لترد عليه بوقاحة وسلطة لسان: «أخبرها أنت أنا لست مرسالاً لأحد».

ثم تحركت لتغادر وهي تقول لصديقتها إسراء المنشغلة مع عامل يفتح لها

لفافة قماش: «أنا بالخارج أشعر بالجوع».

تشوح لها إسرائ بيدها وهي مستغرقة بتقليب الأقمشة فتكز رونا هي على أسنانها؛ بينما يأتيها صوت عمر: «إن كنت جائعة يا آنسة أستطيع أن أطلب من أحد العمال شراء شطيرة فلافل لك».

نظرت لعينييه البضا حكتين فأدركت بألم غريب تتجاهله منذ سنوات أنه يناكفها كالعادة كأنها أخته الصغرى، هتفت قبل أن تترك المكان: «شطيرة الفلافل اطلبها لنفسك».

ثم تحركت بخطوات واسعة وفستانها الصيفي يهفهف حول جسدها المغربي الذي يميل للامتلاء، لقد كان مجهوداً مضنياً أن تصل لهذا الوزن لكنها تشعر اللحظة كأنها شِوال رز ممتلئ فتقرر الانتقام بدس المزيد في هذا (الشِوال).

دخلت حريز على أبيها وشعرها القصير الذي قصته لها أختها سدير للتو يتراقص حول كتفيها بانفعال تكبته، كان يقرأ في الجريدة على كرسيه المنجد بقماش زيتوني قديم الطراز هو كرسيه المفضل منذ أكثر من خمس وعشرين عاماً، أنفاسها لاهثة من فرط انفعالها الذي تحاول السيطرة عليه ودموع أختها سدير كأنها خناجر غرزت في صدرها.

رفع أسعد وجهه إلى ابنته الكبرى لينظر إليها ببعض الاستغراب وهو

يتساءل: «ماذا هناك يا ابنتي؟ هل حضر نوفل لأسلم عليه؟».

وكأنه ضغط على زر انفجار لتقول بنظرات حملت الكثير ما بين ماضٍ وحاضر: «أبي دع سدير تختار التخصص الذي ترغبه لا تجبرها».

للحظات ظل أسعد الجنابي يقرأ في عيني ابنته ذاك اللوم والغضب نفسه غير المعلن بكلمات أثقل قلبه وأوجعه الهم، آه لو تعرف حرير كم يشعر بالذنب نحوها رغم أنه قضاء الله وقدره، ولم يكن له يد في نصيبها من الدنيا صوت هامس في أذنه يسأله (لو لم تجبرها لكانت تقبلت قدرها).

تهرب من النظر إليها وهو يحاول استعادة صورة الأب الصارم الذي يحكم بيته بما فيه المصلحة للجميع، ألا يعرفون كم يحبهم ويريد لهم الخير؟! قال وهو يرفع جريدته ليذعي معاودة القراءة: «مجموعها يؤهلها لدخول الطب فلا أرى سبباً واحداً لإصرارها على الهندسة».

اقتريت حرير منه وكفاها يتقبضان لتقول بقوة: «سبب واحد يكفي، أنها لا تحب العلوم الحياتية على الإطلاق وليس لديها ميل نحوها أضعف درجة لديها كانت في مادة الأحياء».

قبل سنوات لو ردت عليه حرير بهذا الشكل أو خالفته رأياً لهزّ صوته كل أركان البيت؛ لكن الأمور تغيرت منذ زواجها وربما هو كبر ولم يعد بقادر أن يفرض حزمه كالسابق، حاول أن يتشبث بصورة متلاشية للأب الصارم وهو يرد: «كثيرون مثلها دخلوا الطب وهم كارهون؛ لكن ينجحون بتفوق

ويصبحون أطباء مشهورين أنا أختار لها ما سيسعدها لاحقاً
وستشكرني عليه».

كانت أنفاس حرير في صدرها كأسواط نار تجلد رئتيها وتحرقها، الجملة
نفسها قالها لها ليلة عرسها بعد عقد القران (أنا أفعل ما سيسعدك يا حرير
وستشكريني عليه يوماً).

أفلتت منها كلمات قاسية هادرة بالألم طال كتمانها: «وربما أنت تختار
لسدير ما يتعسها! فهل ستتحمل مسؤولية تعاستها أبي؟!».

ببطء كان الأب يرخي الجريدة في يده وهو ينظر إلى ابنته لتكمل حرير
بالنبرة نفسها لكنها اللحظة كانت تصف نفسها: «وربما تعيش ما هو أسوأ
من التعاسة! حالة غير معرفة حيث لا سعادة لا تعاسة، مُسيرة في درب
حياتها دون أن تختاره فتجد نفسها دون هدف أو انتظار لشيء، ترتدي ثوباً
لا يناسبها لكنها مجبورة على ارتدائه كل يوم كما أجبرت على قبوله منذ
البداية باسم الطاعة».

بصوت متحشرج هتف الأب متألماً: «حرير!»

تلاقت نظراتهما ليعود كلاهما إلى تلك الليلة قبل ست سنوات عندما
خيرها بين طاعته في الزواج من نوفل بتلك السرعة وبين عصيانه وعقوقه
ليطردها من (أبوته) لآخر العمر، فكان ردها الذي لن ينساه وينخر في قلبه
عاماً بعد عام والذنب بحمله الثقيل يتضاعف.

(أنا سأطيعك لكن تذكر أبي أنك كسرتني بهذه الطاعة وأي شيء سيحدث في هذا الزواج سأحملك مسؤوليته لآخر عمري؛ لأنك لم تمنحني حق الرضا والقناعة التامة كي أتحمل مسؤولية اختياري وأرضى بقسمتي ونضيبتي).

ينظر إلى ابنته اليوم ويقرأ في عينيها تكراراً للكلام نفسه لكن بمرارة أشد وأقسى كانت المرة الأولى منذ زواجها بنوفل التي يتواجهان فيها بهذا الشكل شبه الصريح قبلها اكتفى الأب أن يتباعد ويدّعي أن الأمور طبيعية؛ لكنها لم تكن كذلك على الإطلاق رغم صمت ابنته المطبق.

خرجت الكلمات منه على استحياء كي يبرر لها كلمات كان يجب أن يقولها ويناقشها فيها قبل أن يفرض عليها الزواج بتلك الطريقة غير المنصفة: «أنا خفت عليك من الفتنة عامر القماش كان قد بدأ يؤثر فيك ويفتنك وأنت كنت مجرد فتاة بريئة قليلة الخبرة فهل كان يجب أن أنتظر إلى أن يوقعك في غرامه ويؤذيك؟ ربما أجبرتك على القبول لكنني اخترت لك رجلاً طيباً كنوفل فهل تنكرين هذا على زوجك؟!«.

جمود كسا محياها للحظتين فقط قبل أن تتراخي تعابيرها لتقول بشرود وعينين فارغتين من الإحساس: «وأنا تصرفت بأصلي لأنه رجل طيب».

ثم التفتت مولية إياه ظهرها لتضيف بصوت خافت لكن حازم النبرات: «سأخبر سدير أنك موافق على اختيار الهندسة ولن تعارضه».

تحركت خطوة مبتعدة فنادها أبوها وقلبه مكلوم لحالها: «حرير تعالى يا ابنتي».

تعالى صوت رنين هاتفها النقال من خارج الغرفة لتقول بصوت باهت: «آسفة أبي مؤكد هذا نوفل من يتصل لا بد أنه أنهى زيارة صديقه وحن موعد عودتنا للبلدة عن إذنك».

غادرت وتزكته جالساً على الكرسي نفسه والجريدة في حجره وعيناه هامتا بعيداً، ليته يخبرها.. ليته يحكي لها ماذا يحصل للقلب إذا عشق وهوى الشخص الخطأ، القلب لا يميز هذا يناسبنا أم لا القلب يخدع وبني قصوراً من أوهام فتأتي أمواج الواقع لتهدمه، تمتم أسعد دون شعوره: «قد تهدمه لكنها لا تمحو أثره كأنه وشم!».

خلع نظارته وأخذ يحدق فيها للحظات قبل أن يغمض عينيه بوهن، لقد أدرك حقيقة وجود هذا (الوشم) عندما رأى أشواق قبل أسبوعين في محل بصريات، وقد كان هناك يغير نظارته القدر جمعه بها بعد كل هذه السنوات! لا يعلم كيف ساقه قدره لهذا اللقاء وقد أرسله محل البصريات الذي يتعامل معه في العادة إلى محل بصريات آخر بعد تعذر إيجاد الإطار الذي يبتغيه، واعتاد عليه منذ سنوات وهناك رآها في الواقع سمعها أولاً قبل أن يراها.

سمع ضحكتها التي نفضت الغبار عن خديعة نسيانها، التفت لمصدر الضحكة فرآها تقف هناك بصحبة رجلين أحدهما من سنه والآخر شاب من

سن ابنته حرير، أول ما جذب عينيه فيها هو لون شعرها الأحمر الذي ظهر جزء منه من تحت وشاح أزرق فيروزي شبه شفاف، دوماً أحببت أشواق هذا اللون لشعرها بينما هو كرهه! ليس لأنه لا يليق بها على العكس بل لأن هذا اللون الصارخ كان يعكس شخصيتها التي لا تناسبه، شخصية أنثى متوهجة بالفطرة تجذب الأنظار مغناج بعفوية متمردة متدللة عنيدة ومجادلة في نعومة مستفزة، وها هي ما زالت تملك الغنج نفسه الطبيعي رغم كبر السن، أنيقة بشكل مختلف عن النساء في سنها، بدت شبابية الاختيار بملابسها وألوانها لكن وبشكل عجيب كان يليق بها فلا تشعر بالنفور منها بل تشعر فقط بالاستفزاز لأنها تبدو هكذا ولا تملك إلا أن يعجبك ما تبدو عليه حتى وأنت ترفضه.

دوماً كانت تثير فيه هذه المشاعر المتناقضة عندما كانت زوجته، كثر الشجار بينهما حتى تحولت حياتهما جحيماً وما لم يخبر به أحد من قبل أنها كانت هي من طلبت الطلاق لا هو، ثم غادرت أشواق محل البصریات وضحكاتھا تترك آثارھا كبصمات على جدران المكان كأنھا امتصت وهج ضحكاتھا، لقد بدا (زوجھا وابنھا) كما خمنھا أسعد في غاية الانسراح وھما يدلّانھا بالأقوال والأفعال، لیبقي أسعد هناك وسط محل البصریات وھو یكاد یسمع صدى ضحكاتھا تتردد من الجدران، غادرت أشواق ولم تتعرف علیہ حتی! لم تره ولم تلمح فیہ شیئاً من ماضٍ جمعھما، توتر أسعد علی كرسيه القديم وھو یضغط بأجفانه المطبقة، ثم قال بخفوت كأنه یكلم

ابنته حرير: «لأجل هذا يا ابنتي كنت أنقذك قبل أن تقعي لقد رأيت في
عينيك هاوية الخطر التي وقعت فيها فلا تلومي أباك قسوته وهو يسحبك
بقسوة للخلف ويمنعك الوقوع مثله».

فتح عينيه ببطء ليسترد إيمانه بقناعاته مضيفاً بإصرار عنيد: «عامر
القماش لم يكن سينفك أنا واثق من هذا.. واثق».

الفصل التاسع

جلست حرير على حافة سريرها القديم والهاتف على أذنها بينما تسمع صوت زوجها بطيء النبرات وهو يسأل بلطف: «هل قصصتِ شعرك؟».

ردت حرير وهي ترفع يدها الحرة عفواً لتلامس أطراف شعرها القصير: «نعم سدير قصته لي كالمعتاد إنها بارعة».

صمت للحظات ثم قال جملة يكررها في كل مرة تقص فيها شعرها: «القصير يناسبك في الجو الحار أليس كذلك؟».

ردت حرير بفتور وأصابعها تتراخي عن شعرها لتهبط يدها إلى حجرها: «نعم».

ثم قال متسائلاً برتابة الصوت نفسها: «صديقي فؤاد دعانا لعرس أخيه الأسبوع المقبل هل لديك مانع؟».

توترت حرير ففؤاد في العاصمة وهذا يعني أن العرس سيقام فيها، لا تعلم لماذا تتوتر من البقاء في العاصمة هكذا حتى عندما تزور بيت والدها فتفضل دوماً النهار ولا تغادر البيت طيلة فترة الزيارة حتى يأتي زوجها لاصطحابها كي يعودا معاً للبلدة، طال صمتها فتساءل نوفل ببعض الحيرة: «هل هناك شيء يا حرير؟!».

ردت حرير وهي تئد توترها ولو ظاهرياً: «آسفة كنت أفكر فقط متى

سيكون موعد العرس؟».

فقال نوفل عندها: «بعد عشرة أيام يصادف يوم خميس تحديداً».

وقبل أن تقول حرير أي كلمة أضاف نوفل باستدراك: «هل هناك مانع أن نبني في دار والدك في تلك الليلة؟ لا أحب القيادة ليلاً خاصة على طريق خارجي».

تفاقم توترها وشعرت بجفاف غير مبرر في فمها وهي تحاول ثنيه عن الفكرة قائلة باقتراح مضاد: «يمكنني أن أقود أنا».

لكن نوفل رفض بمنطق وعقلانية: «لا أظنها فكرة جيدة.. أنت لم تجري القيادة على طريق خارجي من قبل».

عينها تعلقتا بخزانة ملابسها القديمة بينما تقول باستسلام: «كما تشاء».

جاء صوت نوفل متردداً وهو يتساءل: «هل هناك إزعاج لعائلتك أو إحراج؟».

ردت وعيناها ما زالتا معلقتين على باب تلك الخزانة: «لا إزعاج أبداً وليس هناك أي إحراج فقط إنها المرة الأولى التي سنبني فيها في بيت عائلتي بل إنها المرة الأولى لي منذ زواجنا».

وقفت على قدميها وهي تتحرك نحو تلك الخزانة التي لم تفتحها منذ

أغلقتها قبل ست سنوات، بينما تسمع نوفل يقول ببعض الدهشة: «تبدين وكأنك كنت ترغبين بهذا.. آسف لم أكن أعرف كان عليك إخباري».

لا تعلم كيف فسر نوفل أنها ترغب بهذا! كم هو بعيد بل على النقيض تماماً من تخمين رغباتها، لم تشأ أن تخبره عن خطأ تخمينه أو في الواقع لم يعد مهماً أن تخبره عن دواخلها

حواراتها مع نوفل دوماً كخطوط اتصالات هاتفية متشابكة بالخطأ بين غرباء! باردة لطيفة رتيبة، وقفت أمام الخزانة وهي تعرف ما فيها لتقول لزوجها تجاربه في تخمينه: «لا بأس يكفي أنني أزورهم بالشهر مرة أو مرتين».

يدها الحرة امتدت إلى القبضة المعدنية لدُرْفَة محددة من الخزانة ذات الدُرَفَات الثلاث، بينما صوت نوفل يأتيها بعرض جديد: «مستقبلاً يمكنك أن تبיתי عند أهلك ليلة أو ليلتين كلما ذهبت لزيارتهم».

تجمدت يدها حول المقبض وهي ترد ببعض الحدة: «لا».

ثم استدركت حديثها غير المفهومة لنوفل فتضيف: «أقصد خالتي ربما ستتضايق إن كررتها كثيراً».

قالت هذا وهي تحاول أن تجد مبرراً مقنعاً لعل طباع حماتها المزاجية ما بين صعوبة وليونة حجة كافية؛ لكن نوفل قال بهدوء وربما بعض الإصرار: «سنتدبر الأمر كي لا تنزعج».

ثم صمت فصمتت وطال الصمت كأنهما عجوزان فرغت جعبتهما من حديث يجمعهما.

لم تشعر حتى بسلامه الباهت قبل أن ينهي المكالمة وهو يقول إنه سيكون عندها خلال نصف ساعة كي يعودا للبلدة، ملل.. فتور.. خواء هذه هي أيامها مع نوفل دائماً منذ الليلة الأولى، ألقت هاتفها بعيداً وتشنجت أصابعها حول المقبض الرفيع وهي تتذكر ليلتها الأولى كعروس، لا تذكر إلا أنها كانت ترتجف وهي تهمس له بتوسل أن يدعها تمضي ليلتها منفردة؛ لكن نوفل اكتفى بالقول أن أمه تنتظر!

طلب منها فقط الاسترخاء وهو (يؤدي) المهمة ولا تذكر حرير إلا أنها أغمضت عينيها تتجاهل الأمر برمته كأنها تخدع نفسها أنه لا يحصل إنه مجرد حلم أو كابوس وسينتهي، تتذكر قبلات نوفل على وجهها وفمها وهي كلوح ثلج لا تستجيب لم تكن قبلات حقيقية بل بدت أقرب لطبقة تطمين كي لا ترفض ما يحصل، تذكر كلمة (أرجوك) منه وسط (طببطاته) غير المجدية وكأنه يحثها كي تعينه لأداء المهمة على أكمل وجه، وقد أذاها بالطف ما يسمح به الوضع وسالت دموعها مع صرخة مدوية وشهقات بكاء تمزق قلبها كلما تذكرتها، لن تنسى تلك الليلة أبداً لقد نامت مباشرة بعد صرختها.. نامت بفستان عرسها وخصلات شعرها اختلطت بدموعها.. نامت وكأنها تهرب من كابوس إلى حلم فريما تجد في حلمها طمأنة حقيقية، لا

تعرف ما فعله نوفل بالضبط بعد أن (أدّى مهمته) دوماً ظل هذا التفصيل مغيباً من ذهنها؛ لكنها تذكر أنها حلمت ليلتها بأختها المرحومة هدير.. حلمت بها وهما تلعبان سوية في الطفولة، ثم استيقظت قرابة فجر اليوم التالي على صوت من بات (زوجها) فعلياً وهو يحاول جاهداً أن يكون رقيقاً مراعيّاً ويطلب منها أن تستحم ليصليا الفجر معاً، ظلت لأيام مشدوّهة من حياتها الجديدة وتعترف أن نوفل أصبح أكثر مراعاة لها بالعلاقة الزوجية، وقد حاولت أن تتأقلم جسدياً معه كما حاولت أن تتأقلم نفسياً وجهودها نجحت كي تصل لمستوى مقبول، خاصة وهي ترى نوفل راضياً سعيداً واعتاد الحياة الزوجية معها كأنهما متزوجان منذ عشر سنوات، علاقتهما تشبه شخصيته عادية مجرد عادية ولا تعرف وصفاً آخر لها، كانت تتجاهل الإحباط تتجاهل الرتبة المبكرة الفتور تتجاهل تدخلات حمايتها وقد شاركتها السكن بالبيت نفسه وتشغل غرفة في الطابق العلوي؛ لكن حرير لم تشعر يوماً أنه بيتها، لحسن الحظ أن أخوة نوفل كلهم متزوجون وانفصلوا ببيوتهم فلم يكن هناك غيرها هي ونوفل في البيت، حماها العم أنيس كان يشبه نوفل للغاية هادئاً قليل الكلام فاطر الطباع، وقد ترك قيادة البيت لزوجته المزاجية، ومر شهر واثنان وثلاث بدأت العمل كمعلمة لغة إنجليزية في إحدى ثانويات البلدة للبنات وهي توسع دائرة تأقلمها مع الواقع الذي فُرض عليها، لم تكن تفكر إلا بيومها لا ماضي ولا مستقبل؛ لكن حمايتها لم تكن كذلك فالمستقبل يهتمها ونسل الأحفاد طال انتظارها لبشاراته، وكانت

حرير من طلبت الذهاب للطبيبة قبل أن تطلبه حماتها ونوفل يأخذ دور المنفذ.

لم تشعر حرير بيدها إلا وهي تفتح باب الخزانة كأنها تمنح نفسها فرصة التمرد، كانت تعرف ما ستره قبل أن تبصره عيناها، إنه ذاك الثوب الفيروزي المحتشم ذاك الذي شهد على أول كلمة حب صريحة تلققتها في حياتها كما شهد على انكسارها يوم سلب منها حقها، تطلعت لذاك الفستان المعلق في وحدته وسط الخزانة لقد أبت أخذه معه لبيت الزوجية وقد كرهته وكرهت كل ما يحمله من شهادات، بتصلب تمنع حرير عينيها أن تذرفا دمعة.

كلمات الطبيبة بعد إجراء الفحوصات اللازمة للطرفين ما زالت ترن في أذنيها عندما أخبرتها عن عقم نوفل واستحالة الإنجاب فاختلط مع رنين صوت أبيها الذي خيّرهما بين نارين الطاعة أو النبذ.. رنين ممهور بكلمة (أحبك) وذكرى فستان فيروزي، كأنها دوامة أوشكت أن تبتلعها لكن حرير صمدت بشموخ وهي تحرق في ذاك الفستان، قالت بنبرة حازمة وهي تكلم نفسها: «حان الوقت لأنهي تأثير ذكريات هذا الفستان لن أقضي باقي حياتي وأنا أهرب من مواجهة قطعة قماش».

مدت يدها لتلامس الفستان بتعابير متحجرة فتواجه دواخلها بما كانت ترفض الاعتراف به وكأنها أجبرت نفسها على فقدان الذاكرة عن سابق

إصرار وتعمد؛ فعاشت لسنوات في حيرة مشاعر تسبب لها التوتر والاضطراب؛ لكنها حيرة مفتعلة ترضي بها قناعاتها المثالية.. كفى مثالية.. كفى تهرياً مما حصل كفى مراعاة للجميع على حساب نفسها.

يدها قبضت على الفستان وهي تقول بقرار ومواجهة نفس: «لن أهرب من مواجهة عامر في أي مكان ست سنوات وأنا أكتم أنفاسي توتراً كلما دخلت الحي أو خرجت منه خشيّة أن تجمعنا صدفة؛ لكن كفى لا عامر ولا أبي ولا أي إنسان سيبتز مشاعري أنا لم أذنب بحق عامر كما لم أذنب بحق أبي بل أذنبت بحق نفسي فقط، عندما تصرفت بمثالية فتاة بريئة كانت تظن أن الحياة إما أبيض أو أسود».

أخرجت حرير الفستان من الخزانة وهي تشعر بالبرود التام وهذا أراحها ومحا توترتها بل حتى شعرت بسخافة تهريبها من فتح الخزانة طوال هذه السنوات فهو لا يعدو أن يكون فستاناً حاله كحال عشرات الفساتين.

أخذت تقلب فيه وهي تفكر بطريقة عملية أنه لا يزال على رونقه وتجزم أنه لا يزال يناسبها وهي على النحافة نفسها وهكذا وبكل حزم قررت أنها ستلبسه في عرس أخ فؤاد، دخلت عليها سدير في تلك اللحظة وقد بدت شاحبة متوترة للغاية وهي تسألها: «هل كلمته يا حرير؟! هل رفض؟!».

ردت حرير بابتسامة حانية لأختها الصغرى محت الجمود والبرود من وجهها: «لا تقلقي حبيبتي كنت سأتي إليك للتو وأفرحك أقنعت أبي أن

تدخلي الهندسة حسب رغبتك».

هلت سدير وانشرح وجهها الجميل وهي تهوول نحو حرير لتحتضنها بقوة، فتشكرها بكلمات مكتومة تخنقها العبرة.

الفيستان الفيروزي تدعك بين احتضان الأختين لبعض لكن حرير لم تبال ستكويه وترتديه بعد عشرة أيام، انخرطت سدير ببكاء الفرح الذي تخللته الضحكات لتمسك حرير بوجه أختها بين كفيها وتنظر في عينيها هامسة: «أنا التي أشكرك كنت أحتاج أنا الأخرى لانتصار حقيقي كهذا».

شاب نظرات سدير نظرة حزنة نحو أختها الكبرى وأوشكت أن تقول شيئاً لكنها تراجعته.

في مقهى عصري في حي المنصور

حول طاولة مستدير صغيرة يشغل الشقيقان كرسيين منها وهما يرتشفان القهوة، فجأة تساءل عامر وهو ينظر لأخيه عمر نظرة جانبية: «ما الذي يجعل أخت بسمة كلما دخلت إلينا المحل خرجت منه والشرر يتطاير منها! تذكرني بنونة عندما تغضب».

يبتسم عمر وهو يرتشف من فنجان قهوته ثم قال: «إنها طفلة غريبة الأطوار وعصبية للغاية لكنها مسلية».

يرفع عامر حاجبيه باستغراب ليقول مصححاً لعمر ما يبدو أنه لا يتنبه له:
«طفلة! لقد أنهت دراستها الجامعية للتو يا رجل».

يعقد عمر حاجبيه وبدا مندهشاً وهو يحاول حساب السنوات منذ المرة الأولى رأى فيه تلك الفتاة ليقول بعدها مستغرباً في نفسه مرور السنين:
«حقاً! تصورتها ما زالت بالمرحلة الجامعية الأولى أو شيء من هذا القبيل
لم أركز بهذا من قبل لكن كيف تعرف أنت؟».

رد عامر باختصار: «من وفاء».

فجأة قطع عليهما الحوار صوت أبيهما وهو يلقي التحية: «مرحباً».

وقف الاثنان معاً احتراماً عفويّاً بينما يتساءل عامر بدهشة وبعض القلق:
«الحاج سليم! هل أنت بخير؟».

يعبس سليم وهو يرد: «مؤكد بخير».

ليأتي دور عمر بالسؤال: «إذن ماذا تفعل هنا يا حاج؟!».

حرك سليم جسده ليجلس على أحد كراسي حول مائدتهما وهو يوبخ ولديه
بالقول: «ماذا جرى لكما لتبدوا كأهبلين هكذا؟! اجلسا».

جلس الاثنان بعد جلوس أبيهما وهما يتطلعان ببعض وواحدتهما يرمي
بالسؤال الصامت للآخر حول سبب هذه الزيارة الغريبة، فلا يجد كلاهما
الإجابة ابتداءً عامر السؤال: «نحن مندهشان من حضورك فقط يا حاج ليس

عادتكَ أن تترك المحل الكبير خاصة في هذه الساعة».

يرد سليم وهو يشير بسباته إليهما: «أنتما أيضاً تتركان محلكما في هذه الساعة».

فيوضح عامر: «لكن هذا وقت استراحتنا».

صمت سليم للحظة وهو ينظر إليهما بتمعن ثم قال بنظرة غامضة: «وأنا أردت أن أكلكما هنا بعيداً عن نونة حتى لا تتحججان بطبعها العصبي كي تتهربا».

كان عمر من وقف فجأة على قدميه وهو يدعي خدمة أبيه قائلاً: «سأطلب لك القهوة أبي».

كلمة (أبي) منه جعلت سليم يفهمه ليقول بابتسامة ذكية تليق بتاجر ذكي لمّاح: «لن تهرب يا صغير».

شعر عامر بالغباء وهو يرى أخاه يتهرب تاركاً الساحة خالية له ليتساءل: «ماذا يجري؟».

رد سليم وهو يرفع حاجبيه قليلاً: «لا شيء لكن يبدو أن عمر فهمها أسرع منك».

هذه المرة شعر عامر بالغيظ لأنه الأبله الوحيد هنا كما يبدو فيسأل: «ماذا فهم؟». تتحول نظرات سليم من الهدوء والليونة والفكاهة إلى الجدية

الساخرة وهو يرد على ولده: «فهم أن طفح كيلى منكم. أنتم الثلاثة».

ما زال عامر لا يلتقط مغزى الكلام وكل تفكيره ينحصر بالعمل فقط
ليقول مندهشاً من غضب أبيه عليهم: «لكن ماذا فعلنا؟! أنا وعمر نعمل
ليل نهار في المحل أما علي...».

يوقفه سليم بالقول: «اترك علي جانباً الآن».

وقبل أن يستفهم عامر أضاف والده بجدية: «ما رأيك بصبا ابنة عمك
شاكر؟ إنها من سن عمر جميلة جداً وتعمل بشركة هندسية مرموقة».

حادث نظرات عامر نحو أخيه الذي يبعد بضعة أمتار وهو يحمل بنفسه
القهوة التي طلبها لأبيهما فيتوعده عامر بصمت لأنه تركه يواجه الأمر أولاً
بينما يرد على أبيه بكلمتين لا أكثر: «لست مهتماً».

فيعلق الأب بإصرار جاد: «لكنني مهتم».

وضع عمر الصينية على الطاولة ليقول عامر بخبث وهو يشير لأخيه
الأصغر: «لماذا لا تحول اهتمامك لعمر أظنها تناسبه أكثر».

يدعي عمر الجهل وهو يتساءل ببراءة مغيظة: «ما الذي يناسبني؟! أشعر
أنك تورطني بمقلب».

يجلس عمر على كرسيه بينما يقرر عامر مجاراته بلعبة البراءة ليقول
مبتسماً بشقاوة: «يا أخي مقلب بهذا الحسن هناك الكثيرون يرغبون

بالتورط فيه».

يندمج عمر بما يفعل عامر ليسأل بلهفة مصطنعة: «جميلة لهذه الدرجة؟!».

يرد عامر مؤكداً بطريقة مسرحية: «حسنااء وهل هناك في حسننها؟! إنها صبا ابنة العم شاكر أنت تعرفها».

يدّعي عمر التفكير وهو يقول: «اممم أنا لم أرها منذ عامين تقريباً لكنني أتذكرها حسناً بالفعل».

يرفع عامر كفه ليربت على كتف أخيه مباركاً بالقول: «تليق بالقماش الصغير».

بابتسامة عريضة يرد عمر: «لا تغلى عليك يا أخي خذها والقلب يدعوك».

ثم يتصافح الاثنان ويقبل أحدهما خد الآخر وهما يباركان لبعض!

كان سليم طوال وقت هذرهما صامتاً وهو يشرب قهوته بتلذذ حتى قرر وقف عبثهما مع آخر جملة وهو يتساءل بهدوء: «هل انتهيتما؟».

يضحك عمر من قلبه بينما يرد على الحاج سليم بأسلوبه المحايل الذي يؤثر في قلب أبيه: «عفواً يا حاج كنا نلهو معك فقط».

لكن سليم أنهى شرب قهوته فيضع الفنجان الفارغ مكانه قبل أن يرفع

نظراته ليشمل بها الاثنين معاً مُحدداً بالقول ذي المعنيين: «والله وانتهى».

ما زالا يدعيان الشقاوة البريئة بالابتسامات العالقة على الشفاه بينما يقف سليم على قدميه وهو يقول بمعنى شبه صريح: «إما تجدان ما يناسبكما أو تتركان لي المهمة وأنا أكثر من مُرجب لأتولاها».

يرخي عامر نظراته للأرض بصمت بينما يعترض عمر بشقاوة: «هذا ليس عدلاً ولماذا تستثني علياً؟! هو الأكبر ويجب أن تبدأ به».

يتحرك سليم وسبابته تهتز بالتهديد (الأبوي) نحوهما قائلاً قبل أن يغادر: «أمامكما شهر صعب يا أبناء تاج الدين».

كان عامر ما زال مطرق النظرات ليسأل دون مقدمات: «لماذا لا تتزوج يا عمر؟».

يضحك عمر وهو يتساءل: «هل تريد توريطي لإرضاء الحاج سليم حتى يتركك بحالك؟».

رفع عامر نظراته لأخيه وشعور بالذنب القديم يكاد يطل من عينيه فيلجمه وهو يقول: «أنا اتكلم جدياً».

تغيرت تعابير عمر من الهزل إلى الجد ليقول بصدق: «لا أعلم؛ لكن لا أشعر برغبة الزواج حتى اللحظة».

لم يستطع عامر منع نفسه من السؤال: «هل ما زلت متأثراً من

حكاية نهاوند؟».

يركز عامر في رد أخيه فيرتاح قليلاً عندما قال عمر: «ليس بالطريقة التي تظنها لكنني لا أعرف لا أشعر بالشغف لفكرة الزواج؛ خاصة بعد ما جرى مع علي».

ثم يسرح عمر قليلاً كأنه يبحث عن عمق أسبابه ليضيف: «هل تصدق أن تجربة علي مع هيام أثرت بي أكثر من تجربتي مع نهاوند».

يعبس عامر وهو يقول: «علي ضحية ويعتقد أنه الجاني».

فيتحمس عمر للرد مؤكداً وجهة نظره وسبب تأثره: «بالضبط لقد جعلني أشعر بمسؤولية مضاعفة للزواج من كان يصدق أن هيام بكل حيويتها إنسانة مريضة بهذا الشكل».

رد عامر: «المظاهر تخدع لكن وضعها بدأ ينكشف سريعاً، علي لم يعيش معها إلا عامين والعام الثاني كان الأسوأ على الإطلاق». مجدداً يتفاعل عمر حول هذه النقطة تحديداً فيقول كأنه يرتب الأمور مع تساؤلات محيرة لكن منطقية: «أرأيت! وأضف عليها عام آخر سبق الزواج بارتباط عاطفي هل تتخيل أن يضع من عمرك ثلاثة أعوام حتى تكتشف حقيقة شريكة حياتك التي اخترتها بنفسك بل بقلبك».

تجمد عامر بينما تفلت من شفثيه جملة حملت الكثير: «هناك من تكتشفهم من اللحظة الأولى.. اللمسة الأولى».

ساد الصمت للحظات طوال، عمر يحدق في عامر ولا يعرف حقاً كيف يمكن لست سنوات أن تكون غير كافية لأخيه كي يتجاوز موضوع حبيب ربما يتفهم علي أكثر لأن هيام كانت زوجته وحصلت أمور كثيرة تؤثر فيه؛ لكن حالة عامر يحاول جهده تفهمها ولا يعرف كيف فقال عمر أخيراً يحاول دفعه للكلام: «تحيّرني يا عامر! ماذا كان فيها لتعجز عن نسيانها هكذا؟!». «

يقف عامر على قدميه فجأة ليغلق الموضوع بالقول: «ها لقد تأخرنا على المحل».

تكاد الشمس تغرب وهما على أبواب البلدة.

رحلة ساكنة كأن السيارة لا تتحرك بك تنقلك دون شعورك بالتغيير، الفستان الفيروزي في الكيس على المقعد الخلفي أخذته معها فهي لن تتراجع عن فكرة ارتدائه، لقد قررت أن تواجه الأمور دون تهرب، التفتت جانباً إلى زوجها فتعترف له بالوسامة؛ لكن وسامته ببشرته الحنطية وعينييه العسليتين لا تؤثر فيها ولا تجذبها لا تعرف بالضبط هل هو ذوقها أو شخصيته الباهتة التي طغت على شكله وحجبت تأثيراً محتملاً لوسامته، تعقد حاجبيها بتفكير مندهش ساخر أنها المرة الأولى التي يخطر ببالها أمر كهذا، كيف مضت ست سنوات من حياتها وهي تتقبل رتابة حياتها مع نوفل

دون تفكير بأي تفاصيل، عاودت النظر للطريق أمامها وبدها عفويًا تلامس بطنها حتى شعور الألم الطبيعي لأنها محرومة من الإنجاب كان رتيباً بشكل مغيظ، لا يتفاعل داخلها بقوة إلا عند رؤيتها لأبيها فيتأجج! رغباً عنها تشعر بهذا مهما حاولت كبته وإخفائه إلا أن فورة غضب تنتابها تجعلها ترفع أصابعها العشرة في اتهام صريح لأبيها أنه السبب وتظل كلمة (الإجبار) تترصدها وتستنزف طاقتها، يا لها من كلمة بشعة شنيعة تمقتها، لقد وضع والدها بيده أول طوب في جدار ارتفع بنيانه ليفصل بين مشاعرها وبين زوجها، لم تستطع أن تحبه كما لم تكرهه فمثل نوفل لا يثير فيها مشاعر قوية كهذه، إنه رجل عادي للغاية لا يرغب بأكثر مما تعطيه لذلك لم يهتم بالمزيد الذي لم يرغبه حتى عند اكتشافه العقم تأثر بالبداية فقط؛ لكنه تناسى الموضوع كما تناسته هي جملة واحدة قالها (هذا نصيبنا) وكررتها من بعده حماتها ثم حماها ثم إخوانه وإخوانه وكأنهم اتفقوا عليها كي تسير الأمور كما هي.

لم يفكر أحد حتى بمواساتها الكل تجنب النظر إليها ثم تحول الأمر لتجاهل تام للموضوع، وهي لم تخرجه ولم تخرجه فليس ذنبه أنه عقيم كما لم يكن ذنبه أن والدها أجبرها على الزواج به.

«ما رأيك أن نذهب في رحلة؟ إلى تركيا مثلاً دوماً أحببت السفر إليها».

الاقتراح قفز على شفيتها دون تفكير، التفت إليها زوجها للحظة وقد بدا

مندهشاً للغاية وبينما هي تتقرب أي رد فعل منه على اقتراحه المندفع جاءت كلماته محبطة وهو يقول بتردد واضح: «لا أعلم يا حرير لا أستطيع ترك الصيدلية».

لم يكن يعرف أن طاقات داخلها تتفجر هذا اليوم، عاود الاهتمام بالقيادة وكأن الأمر انتهى عند هذا الحد، ولا تلومه لأن طبيعتها تؤثر الآخرين على نفسها خاصة من يعنوها وهو رغم كل شيء زوجها؛ لكن اليوم مختلف فوجدت نفسها تتمرد وهي تقول: «لكنك تركتها اليوم لأجل زيارة صديقك في العاصمة».

التفت مجدداً بالدهشة نفسها ليبرر قائلاً: «إنه مجرد نهار واحد وقد وجدت بديلاً لي في الصيدلية».

لم تتنازل وشعرت براحة عجيبة وهي تصر بالقول: «إذن حاول أن تجد بديلاً لبضعة أيام».

يضيق نوفل عينيه وهو ينقل نظراته بينها وبين الطريق ليتساءل بعجب: «ما بك يا حرير تبدين غريبة بعض الشيء، لست على طبيعتك».

ردت بصدق: «أحتاج لسفرة كهذه يا نوفل أنا أشعر بالملل الفظيع».

يعبس الآن وعيناه على الطريق بينما يقول ببعض الضيق: «للمرة الأولى أسمع منك كلمة (ملل) حسن سأفكر بالسفر إلى تركيا، أعدك بهذا أمهليني أسبوعين أو ثلاثة لأحاول ترتيب الأمور».

لم تتأثر بعبوسه وضيقه، كان عليها فعل أي شيء لتحاول تغيير حياتها،
لم تعد تحتل فأكدت عليه مذكرة إياه: «تذكر أن العام الدراسي سيبدأ بعد
أقل من شهرين».

يهز رأسه وهو يتمتم: «إن شاء الله».

بينما يدخلان باحة الدار بالسيارة.

حالما دخلت حرير الدار وجدت إيناس ابنة خالة نوفل موجودة هناك مع
ابنتيها التوأم تجالس حماتها، بعفوية ابتسمت حرير لتتقدم من قريبة زوجها
كي تسلم عليها: «مرحباً إيناس سعيدة أني رأيته».

برود من جهة إيناس وهي تتبادل القبلات مع حرير وترد عليها: «أهلاً
حرير كيف حالك».

لم تنبه حرير للأمر في أوله وهي تقول: «بخير الحمد لله».

ثم التفت للصغيرتين ذواتي الأربعة أعوام لتحنني نحوهما تريد تقبيلهما
وهي تقول: «مرحباً يا جميلات».

حركة حادة غير متوقعة من إيناس وهي تسحب ابنتيها إلى ما خلفها كأن
حرير مصابة بوباء لتقول بعدها بعبوس: «عفواً حرير لكنك دخلت للتو من
الخارج و أنا أخاف على البنيتين من الجراثيم إنهما ضعيفتي البنية».

تطلعت حرير إليها باستغراب شديد ثم تتسع عينيها وهي تتنبه لحركة شفتي إيناس وكأنها تقرأ المعوذات بصوت خافت للغاية، شعرت بالصدمة وقد كانت هذه المرة الأولى التي تفعلها إيناس معها، تراجعت حرير للخلف وهي تنقل نظراتها إلى حماتها التي حاولت تغيير الحوار وهي تنادي ولدها قائلة: «تعال بني وسلم على ابنة خالتك».

تجههم وجه حرير الناعم وقد شعرت بالنفور منهم جميعاً فتنحرك مبتعدة وهي تقول: «عن إذنكم أنا متعبة من الطريق».

مرت نصف ساعة كاملة وحرير تذرع غرفتها ذهاباً وإياباً لا تصدق ما حصل هل وصلت لهذه المرحلة والنساء سيبدأن الخشية منها على أولادهن؟!!

في تلك اللحظة دخل نوفل وكان على وجهه تعابير غير مفهومة؛ لكن حرير لم تكن في حال لتستوعبه، هدرت بألم وهو يغلق الباب خلفه: «إن كانت إيناس تخشى على بنتيها مني فلماذا تحضر إلى هنا؟!».

تقدم منها نوفل وعيناه تمران فوقها وهو يقول بهدوء: «إنها ابنة خالتي يا حرير».

هتفت به والدموع تحرق أجفانها: «وأنا زوجتك ويجب أن تحترمني

وتحترم كرامتي ومشاعري أنا لن أحسدها على بنتيها».

صمت وكأنه لا يعرف إجابة مرضية لتضيف حرير بغليان: «ثم لماذا تخاف مني ولا تخاف منك؟».

تجمد للحظة وكأن ملاحظتها العادية أنه (لا ينبغي) جرحته، ثم تراخى وهو يقول بابتسامة لا تناسب حالتها: «أنت تعرفين عقول النساء».

كفاه بطريقة ما وجدا السبيل لإمساكها من أعلى ذراعيها فشعرت أنه يحاول الاهتمام بها خاصة وهو يمسد بحنو وصبر مضيئاً: «تبدلين متوترة للغاية حتى العم أسعد بدا غريباً هل حصل شيء؟».

نظرت إليه ببعض الاستغراب، تراجع غضبها من فعلة ابنة خالته السخيفة وانحصر تفكيرها بنوفل وما يفعله اللحظة، هناك شي يحصل معه وكأنه يسعى لوصالها، حاولت جاهدة أن تخلق تفاعلاً في داخلها أرادت من قلبها أن تجد طريقة، ردت عليه وهي تنظر في عينيه تجاريه: «لا تقلق فقط موضوع يخص قبول سدير في الجامعات وحصل بعض الجدل لكننا أنهينا الأمر على خير».

رباه تبحث في عينيه في شفتيه عن أي طرف للخيوط تمسكه فلا تجده؛ لكنه هو نفسه لم يكن طبيعياً اللحظة هل تأثر بموقف إيناس معها؟ لكنها لا تشعر بتأثره هذا حقيقة اكتفى نوفل بالتمتمة: «هذا جيد».

وكما توقعت مال إليها ليقبلها لكنها لم تكن مستعدة، ابتعدت برأسها

قبل أن تلامس شفتاه فمها وهي تقول بتوتر: «انتظر لحظة كي أستحم وأغير ملابسى أولاً».

رده جمّد استجابتها الميته من الأساس: «لا داع الأمر لا يستوجب».

الأمر لا يستوجب! لا يستوجب؟!

حاولت أن تبعد يده كي تفرض رغبتها بوجوب الاستعداد للمعاشرة؛ لكنه بدا راغباً جداً كرجل والأمر (لا يستوجب) الانتظار، ولم يطل (الأمر) لأكثر من عشر دقائق قبل أن ينفصل جسده عنها ليتركها في السرير ويذهب للحمام كي يغتسل دون أي كلمة.

ممددة حريز على السرير المزدوج وجسدها بارد كدموعها التي هطلت حال سماعها لباب الحمام يغلق، كانت أحد اللقاءات الكثيرة العابرة بينهما بل الأسوأ لأنها أدركت في لحظة ما أنه فعل هذا بعد رؤيته لبنات إيناس، لقد كان يواسي رجولته يرضي كبرياءه بهذه المعاشرة كي يعاند العيب الذي فيه؛ لكن ماذا عنها هي وعن أنوثتها.. عن كرامتها؟! لقد تحملت أنوثتها عيباً ليس فيها ويا ليتها تحملته بإرادتها.

لماذا لا يشعر بحقوقها أحد؟! هل ذنبها أنها تراعي وتهتم وتتنازل كي لا تؤذيهم؟! هل هذا جزاء بر الأب ومراعاة الله في الزوج؟!

غضب يعتمل في صدرها حتى بات يخنقها وتشعره كصرخة تريد أن تطلقها لتشق حنجرتها.

عندما خرج نوفل من الحمام كانت دموعها قد جفت وعلى عجل أخذ يرتدي ملابس البيت القطنية المريحة وهو يقول بالتعجل نفسه: «الحمام لك أنا سأنزل لأجالس أبي».

ثم غادر بالفعل وهو يتجنب النظر ناحيتها كأنه يشعر بالأنانية التي تصرف بها معها.

حاوطت حرير جسدها بذراعيها وشعرت بنفسها باهتة للغاية وكأنها متلاشية كحبات رمل في عاصفة، أخذت تنشج بالبكاء بقوة هذه المرة وجسدها يختض مع نشيجها.

«هناك من تكتشفهم من اللحظة الأولى.. اللمسة الأولى».

أصابع يده اليسرى تلامس راحة اليمنى، ذكرى لمس الحرير محفورة هنا كأنه محفور على شاهد قبر.. قلبه الذي مات مقبوراً في صدره ونقش لمسة الحرير عنوانه، تطلع عامر إلى سماء الليل المظلمة ترصعها نجوم مبهرة ويفكر أية نجمة تعرف دار الحرير لتواسي من مات عشقاً وهوى في ملمسه، من على سطح بيتهم يتكئ بظهره على السور وعيناه هائمتان بالنظر للأعلى وما زالت أصابع اليسرى تلامس (المكتوب) على راحة اليمنى، كل يوم الفكرة نفسها تطوف حول روحه التي لا تنسى (هل يلمسها زوجها اللحظة).

فتتمزق من الفكرة ألف فكرة وتتمزق معها روحه ألف ألف مرة، وما زال قلبه هامداً لا يستجيب، هل يتعذب أكثر أم هو غاضب أكثر؟! أم ربما الاثنين معاً أكثر وأكثر، لم يعد يُهملم يُعد يفكر في الوصف، يناجي وهو يحدق في السماء: «إن كنت يا ربي تعاقبني فحرمتني منها ثم منعت عني نعمة نسيانها فلا أطلب منك إلا أن تمنع عني أي شيء يخصها فلا أراها ولا أسمع صوتها ولا أعرف أخبارها، لن أحتمل حقيقة أنها سعيدة مع زوجها وأطفالها».

لتمزق روحه مع الفكرة وهو يهمس كأنها النيران تلتهمه حياً: «كم طفلاً أنجبت من رجل غيري يا حبيب».

تلمع نجوم الغضب في عينيه وصورتها التي لا تبرح ذهنه نابضة أمامه بشوبها الفيروزي وشعرها الحالك الطويل يتمايل معها وكلمة (احبك) التي خرجت من قلبه لينطقها لسانه وهو يظن بها عهداً يربطهما معاً؛ لكنه كان يخدع نفسه فالعهد كان ملزماً لطرف واحد لا طرفين، حتى لم يكن لديها الشجاعة الكافية كي تخبره أنها ستتزوج غيره، تركته يتخبط كالمجنون وهي تزف إلى عريسها الذي اختاره والدها.

«بدأت تعجبني عادتك هذه؟».

ظهر علي من وسط الظلمة وهو يقترب من أخيه يسبقه عطره القوي بينما عامر يتساءل بصوت مبحوح يحاول ابتلاع غصته: «أي عادة أخي؟».

يقف علي جواره متكئاً على السور ليرفع عينيه هو الآخر فتعانق
بخضرتهما السماء المظلمة ثم يقول: «عادة مناجاة النجوم من على سطح
الدار في ظلمة الليل».

أطرق عامر قليلاً متبسماً ثم يلح أخاه مرتدياً ملابس الخروج فيسأله
بهدهوء: «هل ستخرج الليلة أيضاً؟».

يتأفف علي وهو يستدير بجسده ليتكئ بكوعيه على حافة السور قائلاً
بنزق: «لا تبدأ أنت الآخر».

يميل عامر إليه قليلاً وهو يسأل بجدية: «متى ستسمح لنا بالكلام
معك عنها؟».

فيخرج علي علبة السجائر ليلتقط واحدة وقبل أن يضعها في فمه يرد
السؤال بسؤال: «وهل ستسمح لي أنت بالكلام معك عنها؟».

عقد عامر حاجبيه متسائلاً: «من تقصد؟».

أشعل علي سيجارته ليأخذ نفساً عميقاً إلى صدره قبل أن ينفث الدخان
قائلاً بمزحة ساخرة: «من تعد النجوم لأجلها ولا تريد أن تنساها».

يصمت عامر وهو يستدير كأخيه ليتكئ بكفيه على السور محدقاً ببيوت
الحي شبه المظلمة الساكنة في رضا أو على الأقل هذا ما تبدو عليه.

يأخذ علي مزبداً من الأنفاس وينفث الدخان مراراً قبل أن يقول كلاماً

للمرة الأولى ينطقه منذ الحادث: «هل تعلم يا عامر أنا مستعد أن أدفع عمري كله مقابل أن تكون هيام حية حتى ولو باتت ملكاً لرجل آخر غيري فلن أبالي».

لا يعرف عامر لماذا شعر أن أي تعاطف مع علي اللحظة أو إظهار المواساة سيكون تأثيره خطأ؛ لكن كلمات أخيه نبهته لأمر خالجه أكثر من مرة والآن هو مقتنع به أكثر.

قرر أن يجازف بالقول الهادئ: «لن يعجبك ردي».

ببعض العصبية دعك علي السجارة بالسور ليطفئها ثم قال بتوتر: «إذن لا تقله».

بحاجبين معقودين قال عامر: «المهم أنك تدركه في قرارة نفسك يا علي».

أدار علي وجهه لأخيه فينظر إليه مباشرة حتى يقرأ عامر الرد في عينيه قبل أن يقولها بلسانه: «وربما هذا ما يعذبني أكثر».

ثم ابتعد علي بجسده عن السور في حركة حادة بعض الشيء وعندما استدار قال ساخراً وهو ينظر لمن شاركهما ظلمة وقفة السطح هذه: «ها قد أتى الصغير ليعدّ معك».

تحرك علي فيمر بعمر وهو يلقي السلام مغادراً، بينما يتقدم عمر ليقف

جوار عامر ويسأل: «هل يمكنني أن أسمع الرد... أقصد الرد الذي لن يعجب علي».

قال عامر ما يجول في خاطره وتأكد الليلة من صحته: «علي في الأشهر الأخيرة قبل الحادث لم يعد يحب هيام كما كان يحبها بأول علاقتهما وزواجهما».

صمت عمر كأنه يقلب الكلام في رأسه وهو ينظر من فوق السور إلى بيوت الحي وأيا كان ما توقعه عامر فمؤكد لم يتوقع رد شقيقه الأصغر كأنه فاجأه بضربة مباغتة: «وأنا أعتقد أنه لم يحبها كما ما زلت تحب حبيب حتى اللحظة».

تشنج عامر وهمس بحدة من بين أسنانه: «لا تنطق اسمها أمامي».

يرفع عمر كفه ليلا مس كتف أخيه ويقول بتأثر لحالته: «أيؤلمك لهذه الدرجة؟!».

يجبر عامر نفسه على التراخي ثم يتجاهل سؤال عمر ليقول بدلاً من ذلك كأنهما يستأنفان حديثهما عن شقيقتهما الأكبر: «هل تعرف ما يعذب علي هو شعور المسؤولية نحوها؛ لأنه لم يتنبه باكراً لمرضها فلم يستطع تدارك تفاقم حالتها بالإضافة طبعاً لشعوره بالمسؤولية عن وقوع الحادث لأنه من كان يقود السيارة».

أخذ عمر يهز رأسه وهو يعلق بأسلوب فكاهي ساخر: «أنتما الاثنان

أصبحتما مصدر كآبة لي».

يستعيد عامر ولو للحظات روحه الشقية المشاكسة فيقول بخبث: «اذهب واشتري لفة فلافل ربما تبهجك».

يبتسم عمر وهو يرد: «كثرت تلميحاتك الغريبة يا عامر».

بنظرة جانبية يقول عامر بمزيد من المشاكسة: «تعجبني الفتاة».

تتسع ابتسامة عمر ليقول مختصراً: «إنها طفلة ولا تطيقني».

يتمادى عامر وهو يلمح لمشاعر الفتاة بشكل مراوغ: «أنت تعرف أن الغضب غير المبرر هو إحدى العلامات».

لكن عمر أغلق الباب في وجهه وهو يقول ببساطة: «انس يا عامر هذه الصغيرة ذات النظارة لا تجذبني لا أشعرها بأكثر من مراهة بردات فعل طفولية».

يضحك عامر ضحكة قصيرة ساخرة ثم يقول: «أظن الحاج سليم سيتبرأ منا نحن الثلاثة في النهاية، إننا خيبة أمل وعار على رجال عائلة تاج الدين منذ أول تكوينها».

تتردد ضحكات عمر في ظلام الليل ثم ينحني قليلاً لينظر للأسفل من فوق سور السطح حيث بعض الدخان بدأ يرتفع من حديقة الدار، قال عمر بفكاهة: «انظر للحاج سليم كيف يستلقي في الحديقة أمام النار التي أوقدها

في المنقلة النحاسية القديمة كأنه شهريار زمانه».

انحنى عامر لينظر للأسفل من فوق السور كما يفعل عمر ثم قال بصوت
عمل مزاحاً ساخراً يخفي شعوراً كئيباً: «ألم أقل لك للتو إنه سيثبراً منا! ومع
استلقائه كشهريار هكذا أظنه يفكر بنسل جديد يعوضه عن خيبته بنا! لكن
السؤال هل تظن نونة ستقطعه أولاً أم ستكتفي بإضرار النار فيه قطعة واحدة
وهو نائم؟!».

ترتفع ضحكات عمر عالياً حتى وصلت لمسامع (شهريار).

ضحكات عمر تصل إلى سليم وهو مستلق على جانبه رافعاً جذعه بزاوية
حادة مستنداً بكوعه على وسادات مربعة حمراء تشابه نقش البساط الأحمر
عربي الطراز الذي يفرشه في الحديقة ويستلقي عليه قريباً من النار التي
أوقدها، يرفع رأسه إلى أعلى باسم الشفتين ليلمح خيال ولديه عند السور
يقفان جوار بعض ليخرج في اللحظة ذاتها من باب المطبخ إلى الباحة
الأمامية المطلّة على الحديقة ولده البكر علي تلاحقه خطوات نونة إلى
بوابة الدار الخارجية فيفتحها علي ونونة تعاتبه لخروجه الدائم، الذي أصبح
شبه يومي، يتابعهما سليم بنظراته دون أن يتدخل ولو بكلمة يرى علي وهو
يعود أدراجه إلى سيارته كي يركبها ونونة تقف متخصرة حائقة لكن عاجزة،
وهذا يغضبها أكثر التقت عينا سليم بعيني ولده لكن سرعان ما تهرب منه

علي كالعادة وهو يرفع ذراعه ملوحاً لأبيه من شباك السيارة، بعد مغادرة علي تغلق نونة درفتي البوابة ثم تتحرك ساهمة عابسة لتدخل الحديقة متوجهة ناحية زوجها المستلقي، دون كلمة انحنت لتجلس جواره طاوية ساقها تحتها يرفع سليم عينيه إليها قائلاً: «أين أمي؟».

ردت نونة بعد تنهيدة: «إنها تُرقي البيت».

أسبل سليم أهدابه قليلاً وهو يحدق في النار المشتعلة ليقول بدعابة: «ولداك يتسامران على السطح هذان الشقيان سيتعبانني حتى يأتيا برغبتهما إلى الطريق الذي أريده لهما».

ثم اعتدل في جلسته لينحني جانباً كي يأخذ (عدة الشاي) ويبدأ بتحضير الإبريق بصمت، الجو كان حاراً ولا يحتمل وجود النار لكن مكيف الهواء الخارجي كان يخفف من تلك الحرارة فتجعله يستمتع بصنع الشاي بهذه الطريقة التي يحبها، لم تهتم بكلامه عن عامر وعمر لتقول بحرقة قلب أم بينما هو يتحرك خطوتين كي يضع الإبريق المعدني على النار في المنقلة: «إلى متى سنترك علي هكذا يا سليم؟».

عاد سليم مكانه ليعاود الاستلقاء بشكل جانبي كما كان يفعل قبل دقيقة ثم قال يرد على زوجته: «عليه أن يدرك مشكلته بنفسه إنه ليس بطفل علي رجل مكتمل النضوج».

باعترض أمومي قالت نونة: «لكنه سيظل طفلي ولا أحتمل رؤيته يتعذب

أكثر من هذا».

يحدث سليم في النار بينما يقول: «عامر وعمر يجب أن يتزوجا بالتحديد عامر لم يعد صغيراً الزواج عصمة للشباب خاصة ونحن نتعامل مع المغريات بشكل يومي في عملنا».

عقدت نونة حاجبيها بينما تقول ببعض النزق: «وأنا لا أعترض لكن ما علاقة هذا بعلي؟! كيف سنساعده؟».

وضح سليم ما يفكر فيه قائلاً: «استقرار عامر وعمر سيؤثر إيجابياً بعلي، سيرى فيهما حياة جديدة تدفعه كي يجد هو الآخر حياة له مشابهة بدل التي ضاعت».

لم تقتنع نونة وهي تقول رأيها: «لكني ما زلت مصرة أنني أريده أن يتزوج قبلهما يا سليم لا تنس أنه جرب الزواج وبقاؤه أعزباً هكذا سيعرضه للوقوع بالخطأ أكثر من أخويه».

رفع سليم نظراته إليها فيقول بهدوء: «في هذا أنت محقة؛ لكن وضع عليّ الحالي لا يسمح».

غلبها طبعها الانفعالي وهي تقول ببعض الحدة «لماذا تصر على قول (وضعه لا يسمح)؟! إنه عاطفي ويحتاج لدفع امرأة تطبطب عليه تنقذه مما هو فيه».

يعقد سليم حاجبيه وهو يرد على كلامها ومنطقها بالقول: «وما ذنب المرأة التي تريد توريطها بتعقيدات ولدك وهو بهذه الحالة؟! أنت تقحمين طرفاً جديداً لا ذنب له في المشكلة وتتأملين فيه الحل».

تحتاجه نونة بالقول: «لكن هناك كثير من الحالات ينجح الزواج على هذا الأساس من التألف».

فيرد حجتها: «وهناك حالات تفشل».

زفرت نورجان بقوة ثم تساءلت بتوتر: «إذن ما الحل؟! لقد فاتحناه أن يذهب لطبيب نفسي يساعده لكنه يرفض كأنه يعاقب نفسه حتى بهذا!».

عاود سليم النظر للنار وهو يقول: «لا حل أمامي حالياً إلا أن أجعله يتأثر باستقرار شقيقه ليبدأ حياته مثلهما، إنه يرفض الكلام معي حول الموضوع ولا نستطيع إجباره على شيء».

لكن نورجان لم تيأس لتعود لفكرتها الأولى قائلة: «وقد يكون هناك حل ثالث امرأة تحبه وهي تعرف كل ظروفه وترضى أن تقف بجانبه.. امرأة تجبره أن يتعافى».

هز سليم رأسه ثم انقلب على ظهره مستلقياً يحدق في السماء ويتمتم: «ها قد عدنا لنفس الاسطوانة».

هتفت به نورجان: «ما الخطأ فيما أقوله الآن؟! أنا أقول فقط ربما إن

أحبته امرأة و...».

قاطعها سليم ساخراً برقّة: «النساء لا فائدة في تغيير تفكيرهن العاطفي».

ثم أغمض عينيه ونورجان تشتعل جواره أشد من اشتعال النار في المنقلة لتقول بانفعال: «توقف عن تسفيه آرائي نحن النساء لنا نظرة حساسة عميقة أهم بكثير من واقعيتكم الذكورية الجافة، ما الذي يمنع أن يجد علي امرأة يحبها وتحبه».

لم يرد عليها فاغتازت أكثر وهي تهتف به مجدداً: «سليم أنا أكلّمك لا تدعي النوم الآن وإلا قلبت الشاي فوق المنقلة أقسم بالله».

رد وهو ما زال مغمض العينين: «رأسي مثقل بمئة فكرة فلا متسع عندي لأفكارك الأنثوية الحساسة».

فأخذت تتحرك نورجان لتقف وهو تقول بعصبية: «وأنا سأنام جوار أمك الليلة».

وقبل أن تقف كان سليم يمد كفه ليمسك معصمها قائلاً بهمس عاتب: «فقط لو تتركين هذه (الجنونة الشمالية)».

ثم التفت إليها برأسه وهو يفتح عينيه مضيقاً بنظرة متعبة: «لكنني راض بك الليلة بأي حالة كنت فيها ولن أعترض فقط احتاجك جواري».

تتبخر عصبيتها في لحظة وهي تراه يحتاجها حقاً بينما كفه تتحرك من معصمها إلى راحة كفها فتتشابك أصابعهما معاً في رغبة متبادلة مفهومة دون كلمات ثم يعود بوجهه ناحية السماء فيغمض عينيه مدندناً بصوته الجنوبي: «إلى شبكنا يخلصنا إلى شبكنا يخلصنا».

مطعم ومقهى للرجيلة على ضفاف نهر دجلة

بانزعاج شديد تنظر سجي إلى ساعة يدها التي تشير لقرابة التاسعة، بينما تدير وجهها جانباً ناحية النهر المحاذي للمطعم وهي تلتزم الصمت ولا تشارك الحديث الدائر بين المجموعة الكبيرة نسبياً التي تشاركهم المائدة، تميل إليها صديقتها شيماء وهي تهمس قرب أذنها كي لا يسمعها أحد: «اهدئي سجي بالله عليك لقد بدأ الجميع يلاحظ توترك تشعريني وكأنني أحضرتك إلى ملهى ليلي».

ردت سجي بحاجبين معقودين وصوت خافت: «أنت تعرفين أنني لا أحب أماكن فيها تجمعات من هذا النوع يغلب عليها الرجال لا أشعر بالراحة على الإطلاق لماذا اخترتم هذا المقهى وليس مطعم عائلي معروف؟!».

ثم رانت نظرة منها للشابين المشاركين بالمائدة التي غلب عليها الإناث: «ثم إنك لم تخبريني بحضور رجال لهذه السهرة، ظننتها للإناث فقط».

ردت شيماء مبررة: «بيداء هي صاحبة عيد الميلاد يا سجي وهي من

دعتهما أنهما قريباً أنا حتى لا أعرفهما».

لم ترد سجي بشيء فلا نفع من نقاش كهذا تشعر فقط أنها في ورطة وتريد المغادرة لتنظر مجدداً لساعتها وهي تتساءل همساً: «أرجوك متى سنرحل؟».

ردت شيماء تحاول استرضاءها: «فقط نصف ساعة أخرى».

أدارت سجي رأسها من جديد للنهر وشعرها الطويل المتموج تتلاعب به نسيمات الهواء البارد القادم من المكيف، بينما تتمتم كأنها تكلم نفسها: «كان يجب أن أحضر بسيارتي».

علقت شيماء بشعور بائس: «أنت تشعرينني بالذنب أقسم بالله».

لم ترد سجي وهي تحديق بصفحة المياه بينما تفكر أنها أخطأت قبول دعوة صديقة الثانوية القديمة وهي لا تعرف من ستدعو بالضبط، كله بسبب عمها رياض الذي أصر على أن تخرج وتلتقي بالناس خارج محيط الجامعة، شجعها أن تلتقي بصديقاتها القدامى من الثانوية وأن تقوي علاقتها بهن من جديد؛ لكن الحياة لا تستمر بالتوجهات نفسها مع الجميع.

عينا مؤيد عفويًا تلمعان بالإعجاب كلما مرتا على صاحبة الشعر الطويل المتموج، بينما يحاول ثني صديق له عن فعل حماقة مع (علي القماش)

فيقول له: «لا تفعل هذا يا قصي فعلي القماش ليس من هذا النوع».

قالها مؤيد وعيناه تشيران ضمناً إلى الفتاة التي تقف جوار قصي متململة ومن هيئتها وتبرجها وملبسها يتضح نوعية عملها بالضبط؛ لكن قصي يصصر بالقول: «لماذا ليس من هذا النوع انظر إليه وستعرف أنه هكذا وأكثر».

تحرك رأس مؤيد للجانب الآخر من المقهى حيث يجلس عليّ بمفرده في خيمة مصممة كجلسة عربية مفروشة بالسجاد العربي وبعض الأرائك المنجدة دون قوائم، بدا علي بشعره الطويل وقميصه المفتوح والسلسلة اللامعة متدلّية على صدره كأنه شاب مستهتر، خاصة وهو يدخن النرجيلة بيد بينما يده الأخرى ترتفع عالياً فوق رأسه يهزها في حركات متتابعة متناغمة مع أغنية (حسام رسام) المائلة للأغنية الشعبية التي تصدح في أرجاء المطعم، من يراه للوهلة الأولى يظنه عابثاً لكن إذا راقبه جيداً سيراه منعزلاً تماماً ولا يختلط بأحد وكأنه مع نفسه فقط، قال مؤيد يحذر قصي للمرة الأخيرة: «لا يغرنك ما ترى إنه فقط خارجي في الداخل ليس كما تظن أنا أعرفه من السوق منذ أكثر من عشر سنوات وأؤكد لك هو ليس كما تعتقد».

لم يقتنع قصي وفي باله خطط كثيرة لعلي القماش كي يجذبه لـ(عالم الليل والملاهي) شيئاً فشيئاً إنه غنيمة ممتازة لمن يعرف كيف يستغلها،

قال قصي وهو يدفع مؤيد قائلاً: «أنت فقط لا تعترض عندما تأتي أنا وسوسو كي نجلس معكما، هو يعرفني لن أكون غريباً تماماً عليه لكن معرفتي به ليست إلى درجة أن أفرض نفسي عليه في جلسة».

هز مؤيد كتفيه بلا مبالاة ثم قال وهو يتحرك عائداً لرفيق جلسته: «أنا حذرتك وليس لي علاقة بما تخطط له».

توجه مؤيد إلى آخر المقهى حيث يجلس علي وقد شاركه الجلسة منذ وصوله لم يكن صديقاً له لكنه مجرد رفيق ومعرفة من السوق الكبير حيث عملهما كتاجري قماش، تساءل علي وهو يسحب نفساً من خرطوم النرجيلة: «لقد تأخرت ظننتك رحلت».

رد مؤيد غامزاً وهو يجلس جواره على الأريكة المنخفضة: «ذهبت للحمام لكن في طريق عودتي رأيت فتاة بشعر طويل مموج أعجبتني للغاية حقاً جذابة».

ثم أشار مؤيد بيده إلى الموائد البعيدة نسبياً والمطلّة مباشرة على النهر ليضيف: «انظر إليها إنها هناك، صاحبة الشعر الطويل والقميص الأخضر تدير لنا ظهرها».

عينا علي دون اكتراث تحركتا ناحية إشارة مؤيد فرأى شعر الفتاة الطويل؛ لكنه سرعان ما عاد بنظراته غير المبالية لرفيقه كي يقول له: «لا يعجبني

أن تأتي فتياتنا إلى هنا لا أراه مكاناً مناسباً لهن هناك أماكن أفضل للعوائل».

رد مؤيد وهو يميل بجسده ليتكئ على كوعه: «الأمور تغيرت يا علي».

فعلق علي وهو يحرك جمرة النرجيلة بالملقط الحديدي الخاص: «أعرف أنها تغيرت لكن لكل شيء حدود وهذا المكان لا يناسب بناتنا».

«مساء الخير».

رفع علي نظراته للقادم ومن بصحبته!

فلم يرد السلام رغم معرفته السطحية بقصي، ثم عاد بنظراته إلى النرجيلة بينما مؤيد يرد على تحية قصي ببعض الإحراج من تجاهل علي له: «مساء الخير قصي».

دون دعوة انحنى قصي ليجلس إلى جانب علي وإلى جوراه أجلس صاحبه (سوسو) التي كانت تتراقص وتتمايل مع الأغنية، شعر مؤيد بالتوتر من تجاهل علي التام للصحبة التي فرضت نفسها بينما قصي لا ييأس وهو يقول بابتسامة تاجر يفتتح عرضاً لطرح بضاعته: «كيف حالك يا علي».

رد علي باقتضاب وهو يجر نفساً من النرجيلة ودون أن ينظر إليه: «نحمده».

لف قصي ذراعه حول كتفي (سوسو) وهو يقول بابتسامة النحاسيين:

«سوسو طوال الليل لم تتوقف عن الإلحاح تريد التعرف بك».

صمت عم الجلسة كأن الجميع يترقب نظرات عليّ مطرقة للأرض لكن تستطيع الشعور بتلك الشحنات التي باتت تشع منه حاول مؤيد أن يغمز لقصي كي يأخذ الفتاة ويرحل؛ لكن قصي أبي وهو ينتظر يظن صمت علي نوعاً من التفكير أو ربما إعادة النظر هو ليس بغبي ربما علي القماش ليس من هذا الصنف من الرجال لكنه خطأ في عالمهم وعليه أن يتغير وفق مُعطيات هذا العالم، رفع علي يده وأخذ يحرك الجمر مجدداً بالملقط ليوجه كلامه لمؤيد متجاهلاً قصي تماماً: «قل لصاحبك أن يأخذ سوسو ويغادر».

ثم التفت علي جانباً إلى مؤيد كي يضيف بنظرات حادة: «مرة أخرى لا تتفق على شيء من وراء ظهري لقد رأيتك تقف معه قبل أن تعود إلي».

ارتبك مؤيد وهو يحاول إصلاح الأمور: «أنا آسف علي لم أقصد سوءاً وقصي أراد إبهاجك، فقط نعتذر منك نحن الاثنين».

عبس قصي واغتاظ من تعامل علي المهين معه ليقول بانفعال موجهاً كلامه لمؤيد: «لماذا تعتذر منه؟! إنه مغرور من يحسب نفسه».

تجمدت حركة يد علي وهو يرفع نظراته أخيراً ليووجهها مباشرة إلى قصي فيسأله بهدوء أشبه بالهدوء الذي يسبق إعصاراً: «ومن تحسب نفسك أنت؟».

يعقد قصي حاجبيه ليبدأ بالقول الوقح: «أنا يعرفني القاصي والداني

واسأل عني وستعرف أنا قصي ال...».

قاطعہ علي وعیناه تزمجران بالإعصار القادم وهو يقول: «أنت ذکر في الهوية ومهنتك باللغة الفصيحة تاجر ووكيل معتمد لنصف بائعات الهوى في العاصمة وباللهجة المحلية أنت (...).».

هَبْ قصي بجلسته وسوسو تتوتر رعباً جواره ليعلو صوته وهو يرد علي علي بالقول: «وأنت لست برجل من الأساس بينما تدعي الحداد علي زوجتك التي قتلها بيديك».

جملة هَبْ الإعصار بعدها عاتياً رهيباً رفع علي النرجيلة ليحطمها فوق رأس قصي وابتدأ شجار رهيب دام تجمع حوله كل رواد المطعم، وبينما سجي تغادر مسرعة مع باقي البنات حال بدء العراك بين رجلين في المقهى تسمرت قدماها مكانها وهي تحقق مصدومة في علي وقد كان أحد المتشاجرين، هالها أن ترى عنفه والدم ينزف من فمه وقد تقطعت أزرار قميصه وهو يكيل اللكمات للرجل الآخر الضخم الذي يبادل اللكمات في عنف مخيف، حاولت صديقتها شيماء أن تحثها على الخروج لكن سجي لم تستطع المغادرة ببساطة وهي تقول لها بخفوت ووجه شاحب: «هذا قريب لا أستطيع ترك المكان قبل الاطمئنان عليه».

تدخل الرجال في المقهى ليوقفوا الشجار وإبعاد الرجلين عن بعض وبعد محاولات عديدة تم الفصل بينهما وإبعاد قصي إلى الجهة الأخرى وهو ما

زال يصرخ ويشتم

أخذ علي يحاول مسح فمه بمنديل أحضره إليه صاحب المقهى عندما وقعت عيناه على وجه يعرفه، تجمدت الحياة حوله وهو ينظر إلى سجي كأنه عاد بالسنوات للخلف وللحظة أوشك أن يسألها (أين هيام)، نادته وهي تتقدم خطوة: «علي هل أنت بخير؟».

عاد علي للواقع ومؤيد يقف جواره يسأله بخفوت: «هل تعرف هذه الفتاة؟!». «

لم يبال بسؤال مؤيد بينما يعبس بحمائية عفوية ليتقدم قريباً من سجي مقابلاً لها وهو يقول ببعض الحدة: «ماذا تفعلين هنا؟».

ردت وهي تشير لصديقاتها على مقربة: «أنا مع صديقاتي في عيد ميلاد».

ثم فجأة اتسعت عينا سجي وهي تنظر لما خلفه وتصرخ: «انتبه علي».

لكن قبل أن يلتفت كان قصي قد غافل الجميع بعودته ليضرب علي بكرسي على رأسه، أظلم ما حوله وفقد الوعي لوهلة ليخر أرضاً على ركبتيه وسجي تصرخ، بينما الرجال يمسكون بقصي لكنه أفلت منهم وركض هارباً، تجلس سجي على ركبتيها أمام علي وتشعر بنبض قلبها سيتوقف وهي تراد يترنح محني قليلاً للأمام ويده خلف رأسه يتحسس مكان الإصابة ثم تلمح بعض الدم بيده فتناديه بهلع: «علي هل أنت بخير.. علي».

يرفع وجهه وقد كان مغمض العينين وبدأ وكأنه يعاقر ليسترد وعيه الكامل فقالت وصوتها يرتجف: «هناك دم على يدك ماذا تشعر؟ إن كنت تشعر بالدوار فيجب أن نذهب للمستشفى حالاً».

أخذ يفتح عينيه ببطء ثم يعاود غلقهما وهو يعتصر جفنيه ليحاول مجدداً حتى فتحهما كاملاً على اتساعهما فتبرز خضرتهما بوضوح تام أخذ قلبها ينبض بجنون وهي تحقق في عينيه هكذا حتى جاء صوت صاحبه وهو يقول بنبرة ممازحة: «قم يا رجل جرح رأسك سطحي لا ينزف أفزعتنا وأفزعنا الآنسة عليك».

رفع علي وجهه عابساً إلى صاحبه الذي أسنده كي يقف وقد سبقته سجي للوقوف، وبينما صاحب المطعم يعتذر ويعاتب في الوقت نفسه وقد بدا على معرفة خاصة بعلي بينما علي ينقل نظراته بالعبوس نفسه إلى سجي لتتركز على قميصها الأخضر وشعرها الطويل المتموج، لم تفهم سجي لم هو عابس هكذا ثم فجأة نفخ عنه صاحبه الذي لم يكف عن النظر إلى سجي ليوجه علي كلامه إليها متجاهلاً الباقيين قائلاً بنبرة خافتة حازمة: «أين سيارتك؟».

ردت سجي وهي تشير لصديقتها التي تقف جانباً بشعور عدم الارتياح والانزعاج: «جئت مع صديقتي وسأعود معها؛ لكن ليس قبل أن نذهب للمستشفى ونطمئن عليك».

رفض علي وهو يهز رأسه وقبل أن يقول شيئاً كان يتوجع وهو يرفع يده
مجدداً لرأسه من الخلف عاودت الاقتراب منه وهي تسأل بقلق بالغ: «هل
أنت بخير أرجوك دعني آخذك للمستشفى».

ليعلق صاحبه بابتسامة غير مريحة: «الآنسة معها حق يا علي دعنا
نأخذك للمستشفى».

متحاملاً على ألم رأسه التفت إليه علي ليزجره بنظرة نارية، بينما يقول:
«لا أحتاج إليك، ابنة خالتي ستأخذني».

عندما قال (ابنة خالتي) انكمش مؤيد ليتنحى وهو يتمتم: «بالطبع».

ثم تحرك علي قائلاً لسجى بنبرة قاطعة: «هيا لنرحل».

هزت سجى رأسها ثم تحركت معه وهي تخشى أن يفقد توازنه بينما تمر
بصديقتها وهي تعتذر وتقول إنها سترافقه للمستشفى فاكثفت شيماء أن
هزت كتفها ثم ودعتها وغادرت.

عندما وصلت معه إلى سيارته المركونة على جانب الطريق مال بجسده
ليستند بجبينه على حافة السقف وسجى إلى جواره تتساءل بقلق شديد:
«كيف تشعر؟ أخبرني فقط؟».

فاجأها بالسؤال وهو ما زال على الوضعية نفسها: «ما الذي تفعليه في
هذا المقهى؟! إنه لا يناسبك المنطقة كلها هنا لا تناسب الفتيات».

احمر خذاها وشعرت بالحرّج الشديد بينما تطلع فيما حولها لترى وجوه
من حولها غير مزينة تقريباً ردت مبررة: «هذه المرة الأولى التي آتي بها
إلى هنا ولم أكن أدري طبيعته حتى وصلت مع صديقتي».

تمتم: «هيا».

ثم أخذ يبحث في جيبه عن المفتاح ليشتم بخفوت وهو يضيف باستنزاف
قوي: «لم أحضر مفتاحي ولا هاتفي».

فجأة جاء من بعيد صبي في الرابعة عشرة ممن يعملون في المطعم
لتحضير النرجيلات للزبائن أخذ يلوح وينادي: «يا علي هذا هاتفك
ومفتاحك».

رفع علي وجهه ليتبسم للصبي شاكراً، ثم يخرج بعض النقود من جيبه،
ويمنحها له، أخذها الصبي راضياً وقد بدا على معرفة بعلي أيضاً ثم هرول
عائداً للمطعم، علقت سجي: «يبدو أنك زبون دائم هنا الكل يعرفك».

اكتفى علي أن فتح قفل أبواب السيارة وبينما يفتح لها باب المقعد
المجاور للسائق قالت سجي بنبرة حازمة: «اجلس أنت هنا أنا من ستقود».

عاقد الحاجبين وهو يلتفت إليها وينظر في وجهها قائلاً:
«أستطيع القيادة».

تفاجأ بذاك الإصرار في عينيها وهي تمد كفها وتقول: «اعطني المفتاح

من فضلك على الأقل أطمئن حتى وصولنا للمستشفى».

اتسعت عيناه للحظة وتوهجت خضرتها كلهب مشتعل قبل أن تنطفئ وهو يقول بخفوت: «لا تخافي! لن اقتلك أنت الأخرى».

ألم انعكس بعينيها قبل أن تمد يدها لتأخذ المفتاح منه قائلة بهدوء: «أنت لم تقتل فيما مضى لأكون أنا (الأخرى)».

ساعده كي يجلس وقد التزم الصمت وبدا عليه الشحوب والتعب بشكل واضح ثم تحركت حول السيارة إلى مقعد السائق لتشغل السيارة وتقودها بسلاسة، وبينما علي يستسلم مسترخياً على الكرسي مغمض العينين كانت سجي تستعيد ألم الماضي كله دفعة واحدة.

بعد الاطمئنان بأخذ الأشعة في المستشفى ومعالجتهم للجرح السطحي في رأسه أرادت سجي مجدداً أن تقود السيارة في طريق الذهاب إلى بيتها؛ لكن علي هذه المرة كان قد استعاد قوته فلم يمنحها ما تريد، في البداية كان يقود بهدوء وسلاسة وصمت وهو يرخي رأسه قليلاً للخلف بينما سجي بدأت تشعر بالتوتر لوجودها معه، لم يكن بإمكانها تركه يذهب للمستشفى وحده وقد كانت قلقة عليه للغاية؛ لكن منذ خروجهما من موقف السيارات في المستشفى تشعر بهذا التوتر ولم تستطيع التملص بإيجاد أي حجة لتقنعه أن يدعها تعود بمفردها إلى البيت في سيارة أجرة، قال فجأة كاسراً

الصمت: «أنت سائقة ماهرة مريحة، كدت أغفو تماماً في طريقنا للمستشفى لولا الأكم الشديد الذي لازم رأسي».

التفتت إليه لكنه كان يحدق أمامه انجذبت عيناها لقميصه الذي لحسن الحظ ما زال فيه بعض الأزرار المتفرقة كي يغلقه ولو جزئياً، إنه لا يبدو نفسه علي كم تغير وأصبح غريباً بهيئة عجيبة، ورغم هذا تشعر سجي أن كل هذا التغير ليس عميقاً كفاية ليطال روحه القديمة التي تعرفها، تمتمت رداً على كلامه: «شكراً وكيف حال رأسك الآن؟».

التفت إليها للحظة قائلاً: «المسكن الذي أعطوه لي فعّال».

ثم عاد ليحدق في الطريق وفعلت هي المثل تنظر أمامها وأصابعها تتقلص حول حقيبتها وهي تدعو الله أن تهدأ نبضات قلبها، رياه بعد كل هذه السنوات وبعد كل ما حصل وما زالت عاجزة عن إيقاف تأثيرها به.

أوشكت دمعة أن تهرب من عينيها؛ لكنها قاومت ولم يكن صعباً أن تقاوم ألم تقاوم لعشر سنوات؟!

كانت في العشرين خجولة مع الشبان نسبة إلى البنات جيلها رغم ثققتها بنفسها وقوة شخصيتها لكنها لم تستطع مجاراة باقي الفتيات في هذا المضمار، هيام كانت تضحك منها أحياناً لارتباكها الشديد إذا كلمها زميل دراسة فتميل للجدية الشديدة والحزم المبالغ فيه كي تداري على خجلها وارتباكها.

حتى رأت علي القماش للمرة الأولى خطف قلبها وهو يجلس متربعا على الأرض في إحدى زوايا ساحة الجامعة الكبرى إلى جوار عاملة النظافة المخضمة (أم لؤي)

كانت امرأة كبيرة بالسن ضئيلة ترتدي ملابس الفلاحات التي تفتخر بها وتفتخر بأصلها القروي، لن تنسى أبداً ضحكته الصافية وهو يناغش المرأة العجوز في ساعة راحتها في هذا الركن، لم تعرف سجي اسمه ولا حتى من أي قسم هو وظلت لأشهر طويلة إذا رآته صدفة فرت مذعورة من المكان! كانت مذعورة من نبض قلبها المتسارع في حضوره.

مر عام كامل وهي بهذا الحال وتتجاهل تأثيره عليها خاصة وهو لم يلتفت إليها قط، حتى حصل ما لم تتوقعه، كانت هيام متضايقة من امتحان ما فأصرت عليها أن تذهباً معاً لنادي الجامعة حيث يجتمع الطلبة، ما زالت سجي تذكر تلك اللحظة التي فكت بها هيام رباط شعرها المجدد لتشره وهي تعاني صداً عندما دخل علي لحظتها وانجذبت عيناه ناحيتهما لا بل ناحية هيام فقط.

كان إعجاباً فورياً صاعقاً بين علي وهيام بينما سجي تنكمش بإحساس مؤلم قابض وصوت أغنية عاطفية يصدح في الأجواء ما زال يرن في أذني سجي حتى الآن، ومنذ تلك اللحظة ابتداءً مرحلة جديدة في حياة سجي مرحلة حملت أطناناً من الألم والتمزق؛ لكنها مرحلة مهمة خلقت منها (سجي)

أقوى مجاهدة النفس يعلم الكثير من الصبر والحكمة ورباطة الجأش في
المواقف الصعبة، يفرض نضوجاً عاطفياً مبكراً وحياة سجي بمجملها كانت
دروساً في النضوج، ربما استمر الألم معها وقلبها لم يستطع تجاوز علي
لكنها ليست ناقمة، فهي فخورة بنفسها وبكل ما حققته وتقبلت قدرها أن
الرجل الوحيد الذي أحبته لن يكون لها أبداً.

«من هذا الرجل؟!».

تنبهت سجي من شرودها على صوت تساؤل علي المشدود فتنظر حولها
لتجد أنهما يوشكان الوصول للبيت وظهر أمامها عمها رياض يقف أمام
البيت قلقاً وإنارة الشارع تظهر هيئته بالجلباب الأبيض والذقن الطويل
فتذكرت هاتفها النقال الذي انطفأ، تمتمت سجي وهي ترد على سؤال علي:
«إنه عمي رياض».

أشفقت على علي وهي تراه مصدوماً هكذا يحدق في هذا الرجل الذي
كان يوماً حماه.

أوقف السيارة على الجانب الطريق لتفتح سجي الباب وتترجل من السيارة
وهي تلقي التحية لعمها: «مساء الخير عماه آسفة لإقلاقك لكن شحن
هاتفي انتهى».

رد العم رياض وهو يقترب منها وعيناه في ذات الوقت تحدقان بالشخص
الذي عادت بصحبته في سيارة غريبة: «لقد تأخرت كثيراً يا ابنتي و..».

تجمد العم رياض وهو يتعرف على علي الذي كان يترجل ببطء من
سيارته، تنقل سجي نظراتها بين الاثنين بقلق ولا تعرف من يستحق الشفقة
أكثر؟!

همس عمها رياض بصوت خافت: «علي!».

بينما علي يلقي التحية بصوت مبحوح: «مرحباً عمي».

سارعت سجي لتقف جوار عمها وتقول مفسرة الموقف: «علي كان
بالصدفة في المطعم حيث عيد ميلاد بيداء وحصل شجار واحد منهم غافل علي
من الخلف فضربه بالكروسي على رأسه».

هذرها السريع وتفسيرها الذي أدلت به دفعة واحدة جعل عمها رياض يفيق
من صدمة رؤية علي بينما تضيف سجي المزيد: «لم أستطع تركه يذهب
للمستشفى بمفرده الحمد لله طمأنونا عنه هناك وعالجوا جرحه».

أطرق العم رياض وهو يقول أخيراً: «خيراً فعلت».

بدا علي بوضع صعب وهو يحاول أن يبدو متماسكاً ليقول وهو يسحب
نفسه: «شكراً لك سجي وآسف عمي لأنها تأخرت بسببي تصبحان علي
خير».

وبينما يوشك علي على العودة لمقعده ناداه العم رياض بصوت حازم:
«لحظة لا يفترض أن تصل هنا ولا تدخل لتسلم علي خالتك».

تجمد علي كما تجمدت سجي ليضيف العم رياض وهو يرفع وجهه:
«اقفل سيارتك وتعال».

حاول علي أن يرفض وهو يهز رأسه ويقول بحشجة: «عمي لا
داع أرجوك».

لكن العم رياض كان أصلب منه فقال بنبرة أمرة: «قلت لك تعال ألا
يكفي أنك لم تزرن منذ ست سنوات؟! نحن أيضاً والداك وواجب عليك
برُّنا».

ثم رفع كفه ليلوح به مضيفاً: «هيا بنّي خالتك نبراس تركتها مرتبكة قلقاً
على سجي».

نظرت سجي إلى عمها ولا تعلم إلى ماذا يسعى؟! بينما علي يأخذ
لحظات طويلة بوجهه الجامد قبل أن يقول بهدوء: «حاضر»

في المطبخ حيث كانت نبراس تعد الشاي لمحت دخول سجي أولاً وفي
إثرها رياض فتنهدت بارتياح وهي تعيد نظراتها إلى إبريق الشاي لتضيف
بعض حبات الهيل وهي تقول بتوبيخ أمومي: «لماذا تأخرت هكذا يا ابنتي؟!
أنا وعمك قتلنا القلق عليك هذه المرة الثالثة التي أعد فيها الشاي من شدة
توتري كان يجب أن تتركي رقم صديقتك لنطمئن أنك بخير بدلاً من».

تلاشت كلماتها عندما التفتت لتحقق بالشخص الثالث الذي دخل بعد زوجها وابنة اختها.

شعرت سجي أن أنفاسها تسلب منها وهي تراقب اللقاء بين الاثنين، علي شاحب بشكل مخيف وقد بدا بحالة مزرية بالإصابات التي نالت منه الليلة، بينما خالتها بدت كمن صعقتها صاعقة مميتة.

الجو توتر بالشحنات المتضاربة والصمت المطبق ظلل بثقله على الجميع.

بادر العم رياض ليقول بصوت هادئ: «تعالى يا نبراس وسلمي على علي لقد أوصل سجي بنفسه إلى البيت».

ثم أضاف بنبرة ممازحة فضحتها رعشة هول الموقف عليهم: «تصوري لم يكن يريد الدخول».

نطق علي أخيراً وهو يقول بصوت خافت: «مرحباً خالتي».

أيضاً لم تنطق نبراس وهي تحقق بعينين جاحظتين ثم فجأة أخذت تخطو ببطء نحوه وعيناها تشعان انفعالاً حاداً مهتاجاً وحالماً وصلت قبالتها فاجأت الجميع وهي ترفع كفها وتصفعه.

شهقت سجي وترنح علي للحظة بينما يزم العم رياض شفثيه كأنه يمنع نفسه البكاء، أما علي الشاحب فقد كان يحدق في الخالة نبراس وبدا

راضياً بل مُرحباً بأيّ عقاب تنزله فيه، تجمعت الدموع الفائرة في عيني
الخالة نبراس ثم وقعت على صدره تنشج بالبكاء المرير وهي تحتضنه بكل
ما أوتيت من قوة.

الفصل العاشر

لم تر سجي خالتها نبراس تبكي مفجوعة على ابنتها كما رأتها تبكي الليلة في حضن علي، ظلت تتشبث بقميصه وتهذر بكلمات مُعاتبة ساعة تناديه باسمه وساعة تنادي فيه روح هيام كأنها تشم عطر ابنتها في جلده، ورغم وجع سجي على خالتها فإنها توجعت لأجل علي أكثر وودت لو تجره بعيداً عنها لترحمه مما هو فيه، عيناه تسكبان الدمع بنظرات تفيض بالآلم المبرح والذنب العظيم، يحتضن الخالة نبراس بين ذراعيه يتلقى عقاباً أشد وأقسى مما ناله طوال ست سنوات، إنه يحمل نفسه فجيعة (قلب أم) تبكي على صدر قاتل وحيدتها.

التفتت سجي إلى عمها رياض فتراه محني الرأس والظهر وكتفاه يهتران بالبكاء المخنوق، لم تعد تحتمل ليس ذنب علي ليس ذنبه، زمت سجي فمها بعزم قبل أن تقول بوجه شاحب: «علي مصاب لقد تلقى ضربة قوية على رأسه والطبيب في المستشفى أوصى أن يرتاح ويتناول شيئاً من الطعام».

لا تعلم من أين أتت سجي بكلامها عن الطعام، لقد ارتجلت كلاماً لم يقله الطبيب فقط كي تجعل الخالة نبراس والعم رياض يتنبهان لحالة علي، كان العم رياض أول من استعاد ثباته وهو يرفع رأسه يمسح الدموع التي بللت لحيته ليتقدم ثم يحاول جر علي من كتفيه كي يفصله عن نبراس قائلاً:

«كفى إنه مصاب».

كان انتزاع علي من نبراس أصعب مما ظنه رياض، لقد تشبثت به ولا تستوعب ما يقوله لها زوجها انحنى رياض قريباً من وجه نبراس الملتصق بصدر علي فيهمس بصبر: «هوني عليك دعي علياً بالله عليك، إنه يتألم يا نبراس».

بعد محاولة واثنتين استطاع رياض أن يرخي تشبث نبراس بعلي بينما علي نفسه مستسلم لإرادتهما راض بما يقرانه وفمه المجروح من أثر الشجار لم ينطق بحرف، قال العم رياض وهو يلف ذراعه حول كتفي زوجته المحنيين: «اجلس بني سجي ستعد لك شيئاً تأكله».

أخذ علي يهز رأسه ثم التقت عيناه بعيني سجي فتمزق قلبها عليه وهو يستنجد بها من عذابه، كان استنجاداً غريزياً دون تفكير منه فروحه لم تعد تطيق الألم استنجاد غلب شعوره بالذنب، فما هو فيه اللحظة لا يُحتمل

تقدمت منه ونظرت في وجهه الشاحب لتقول بنظرات قوية وإرادة صلبة: «أنت يجب أن تعود للبيت يا علي ستقود سيارتك على مهل وتصل بأمان إن شاء الله».

غامت خضرة عينيه وأثر الدموع التي ذرفها يلامس أهدابه الداكنة أضافت بصوت خافت: «إن عاودك الصداع في الليل خذ حبة مسكن أخرى سأتصل بك صباحاً للاطمئنان عليك».

جاء صوت الخالة نبراس مخنوقاً في الرمق الأخير من قواها التي استنزفت: «علي لا ترحل أرجوك بني لا تتركنا مجدداً».

لكن سجي كانت أصليهم وأشجعهم لتتخذ القرار بأن هذا اللقاء الذي تأخر سنوات بعد وفاة هيام قد آن الأوان لينتهي على الأقل هذه الليلة يجب أن ينتهي عند هذا الحد رحمة بهم جميعاً، فقالت وهي تلتفت لخالتها: «علي سيحضر لزيارتنا فيما بعد خالتي إنه مرهق ويجب إن يرتاح الوقت تأخر وما زال أمامه طريق العودة إلى بيته».

نظرة متبادلة بين سجي والعم رياض ليهز زوج خالتها رأسه بموافقة صامتة قبل أن يأخذ زوجته بالرفق ولين الكلام كي تغادر المطبخ وترتاح في غرفتها.

غادرا ولم يودع أياً منهما علماً وكأنهما يبقيان ذاك الخيط الرفيع من الوصل الذي استعاداه الليلة معه فلم ينطقا حتى بكلمة وداع خوفاً أن ينقطع، تنفست سجي الصعداء وهي تعود بعينيها إلى علي فتراه يحدق فيها ثم قال بصوت مجروح النبرات: «أنا لم أقتل هيام وحسب في ذاك الحادث بل قتلت روحين معها أمها وأباها».

تعقد سجي حاجبيها لترد عليه بالقول الصاعق: «أنت لم تقتل هيام ومؤكد لم تفعل مع والديها؛ لكنك قتلت روحاً بالفعل! لقد قتلت روحك يا علي».

تتسع عينا علي بغضب فوري استعر في خضرة عينيه كأنها مست وقرأ

حساساً للغاية لتضيف سجي غير مبالية بردة فعله: «هذا هو ذنبك الحقيقي فاصح من غفلتك وواجه الواقع كما هو».

ثم قربت وجهها منه تنظر في عينيه بعينيها الواسعتين السوداوين وتكمل: «ورغم هذا ما زلت أرى روحك تقاوم تأبى الموت فاستمع لنداء روحك قبل أن تفقدها إلى الأبد».

كان صدره ينتفض يعلو ويهبط وعيناه تزاران بالغضب؛ لكن سجي لم تتراجع وهي تنظر إليه بمواجهة هكذا، فكانت أكثر جرأة وهي تضيف أخيراً: «قد تطيل شعرك وتغير هيئتك لكنك لن تخفي روحك الحقيقية المستغيثة التي تنكرها يا علي».

ثم ارتعش صوتها رغماً عنها وهي تقول أخيراً: «اذهب لبيتك يكفيك ما نلته منا الليلة».

ما زالت خضرة عينيه تشتعل حتى أخفاها خلف أجفانه التي أرخاها قائلاً بخفوت: «لولا أنني في بيتك لكان لي رد آخر على تدخلك السافر وأنت لا تعرفين شيئاً على الإطلاق».

ارتعد جسدها ببرودة قارصة بينما علي يتراجع للخلف نحو الباب الذي دخل منه فيقول بنبرة صارمة قبل المغادرة: «لا تعودى لذاك المطعم مرة أخرى وإن صادفت الرجل الذي كان برفقتي في أي مكان فلا تعطيه فرصة حتى ليلقي السلام».

تجمدت للحظة وهي تستوعب توصياته الغريبة وأوشكت أن تقول له
(إنها لا تذكر وجه رفيقه من الأساس) لكنه رفع كفه ملوحاً بوداع صامت
وأغلق الباب خلفه.

شابت سجي ذراعيها أمام صدرها في حركة دفاعية تلقائية ليتها تدافع
عن (قلبها) بحركة مماثلة.

وجد علي نفسه يقود على مهل، وعينا سجي الواسعتان تنطقان في
مخيلته ويرن صوتها في أذنه (ستقود سيارتك على مهل وتصل بأمان إن
شاء الله) أراد التمرد وأن يقود سيارته برعونة لكنه اعترف لنفسه أن سجي
محقة، هو أضعف تركيزاً من مجازفة كهذه قد تؤدي إلى حادث يدفع ثمنه
الأبرياء ولا ينقصه مزيداً من الذنوب، يلف في شوارع العاصمة الخالية
تقريباً وهو يشعر بالتيه والضياح ولا ملجأ له مما يعذبه، يكاد لا يصدق ما
آل إليه حال والدي هيام، جسد الخالة نبراس وهي تحتضنه بتلك القوة بدا
هشاً للغاية ضعيفاً كأنه يوشك على الانكسار، أما العم رياض فلم يعرفه
للهولة الأولى بهيئته ولحيته الطويلة البيضاء، لقد رآه الليلة كهلاً وليس
رجلاً عاتق الستين، رجلاً كان يعتني بهندامه كشاب حليق الوجه ويصبغ
شيب شعره على الدوام، أخذ علي يضرب بقبضته على المقود حتى عاوده
صوت سجي (أنت لم تقتل هيام ومؤكد لم تفعل مع والديها لكنك قتلت

روحاً بالفعل! لقد قتلت روحك يا علي).

أرعى علي رأسه للخلف وهذه الجملة من سجي سيطرت على تفكيره فجأة، نعم هو قتل روحه ووأدھا حية نعم هو دفنھا تحت التراب لأنه لا يحتمل ذنوبھا ویا لیتہ نفع!

تمتم علي وهو يضرب على المقود مجدداً: «لم ينفع يا سجي حتى قتل روعي لم ينفع أي عقاب أنزله في نفسي واجد فيه راحة؟!».

عند وصوله للبيت أخيراً وجد والده بانتظاره في باحة الدار تنهد علي وهو يترجل من سيارته ليستعد لتوبيخ متوقع من أبيه، لقد تأخر الوقت ولم يكن يرد على اتصالاتهم، اتسعت عينا سليم وهو يرى حالة ولده المزرية ليسأل بحاجبين معقودين: «هل تشاجرت مجدداً؟».

خرج في تلك اللحظة أخوه عامر متوتراً وإلى جواره نورجان التي قالت بارتعاش: «لماذا لم تكن ترد على اتصالاتنا.. لقد قتلنا القلق عليك».

تمتم علي باعتذار وهو عاجز عن شرح تفاصيل هذه الليلة المنهكة، بينما تقدم سليم من ولده البكر ليقف قبالته ويهدر ثائراً: «لقد نفذ صبري عليك يا علي منحتك الأعذار لكن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر أكثر».

حاول عامر تهدئة والده وهو يمسك بذراعه قائلاً: «دعنا نتكلم غداً

صباحاً أبي علي مرهق للغاية».

تقاوم نونة دموع الأم فتقترب من ولدها وتقول بحسرة على شبابه الذي يفنيه في ضياع ومتاهات الأم: «تعال يا علي سأبقى جوارك حتى تنام».

لكن علي أطرق وهو ثابت مكانه ليقول بعدها بلحظة: «أنا مسافر عند الفجر إلى جدي زيدون ربما سأغيب أسبوعاً أو أسبوعين وربما شهراً أعرف».

زَمَّ سليم شفتيه وهو يمعن النظر في ولده ثم قال: «قبل خمس سنوات فعلتها وقضيت شهراً هناك مع جدك وقلنا فترة نقاهة اختجتها بعد رحلة علاجك؛ لكنك عدت من الشمال معافى بجسدك دون روحك».

رفع علي عينيه لأبيه فبدا مرهقاً أكثر مما تخيله سليم فيضيف وقلبه من الداخل يتوجع على حال بكره: «الاختباء من العذاب لا يمحوه أنت تأخذ منه هدنة كي تلتقط أنفاسك ثم تعود إليه مجدداً وقد استعدت بعض طاقتك لتحمله».

ثم رفع سليم يده لينقر بسبابته على صدر علي ويقول بنبرة أبوية حازمة: «الحل أن تواجهه اقتله قبل أن يقتلك أخرج الأكم من داخلك ألفظه من جذوره، لقد طال الأمد يا علي حتى بت أشك أنك تستعذب عذابك».

فرد علي على أبيه منتفضاً: «لو كنت تشعر بعذابي حقاً أبي لم اتهمتي أنني استعذبه؟!».

لم يرد عليه والده بل التفت إلى عامر وقال بهدوء: «محل الكرامة افتتاحه غداً أنت المسؤول عنه حتى عودة أخيك من رحلته».

تمتم عامر مطمئناً أباه: «لا تقلق يا حاج كل الأمور ستكون كما يرضيك».

لفت نورجان ذراعها حول ذراع علي تخنقها الغصة بينما تسير معه ليدخلا عبر باب المطبخ وهي تهمس له بصوت يفيض عاطفة بينما تدعي المشاغبة معه: «أحكى لي عن مشاجرة اليوم.. هل ضربت بقوة؟».

يكاد يبتسم وقد بدأ يترنح من فرط التعب والإجهاد واستنزاف قوى جسده وروحه ليلف ذراعه حول أمه ويهمس معترفاً وكأن لا قدرة له ليكتمها في نفسه: «لقد ذهبت إلى دار العم رياض الليلة».

تجمدت نورجان ثم التفتت للخلف لترى سليم ما زال في الباحة الخارجية مشغولاً بالكلام الجدي مع عامر، تجاوزت صدمتها لتسأل بخفوت تخفي هلعها وهما يتوجهان ببطء للسلم: «هل تشاجرت هناك؟».

رد علي بنزق وترنحه يزداد: «لا نونة وهل سأدخل في عراك مع العم رياض مثلاً؟! لقد كنت في مطعم وحصل شجار مع رجل سافل فضربنا بعض وبالصدفة التقيت بسجى.. قصة طويلة المهم أنني أعدتها للبيت وقابلت عمي رياض وخالتي نبراس».

خفت صوته للغاية مع آخر كلمتين ثم تنهد تنهيدة من أعماقه ونورجان تسنده ليرتقيا الدرجات وهي تسترسل معه بالكلام بنبرة أمومية تفيض حناناً وتفهماً: «وبعد؟ ماذا حصل هناك؟ ماذا قال لك؟ وماذا قلت لهما؟».

يرد علي بثثرة منفلتة كأنه يكاد ينام على نفسه ربما قبل سفري أو لا أدري! المهم ليس الليلة».

يصعد علي باقي الدرجات برفقة نورجان بينما يدخل سليم وعامر إلى المطبخ لينضم إليهما عمر قادماً من غرفة الجدة في الطابق الأرضي وهو يسأل: «سمعت صوت علي لقد عاد أليس كذلك؟».

يهز عامر رأسه بنعم بينما تشرذ نظرات سليم، يتساءل عامر: «هل نامت الجدة؟».

يرد عمر: «نعم.. لم أتركها حتى غفت ظلت تنتظر علي طويلاً حتى كذبت عليها مدعياً أنه عاد وكان متعباً للغاية لينام من فوره».

قال سليم عندها: «شقيقكما متعب للغاية فعلاً ويجب أن تعيناه».

تساءل عمر بتركيز واهتمام: «كيف نعينه؟». التفت لهما سليم قائلاً بنظرة جدية: «يجب أن تتزوجا، أن تنجبا الأطفال، أن تخلقا حياة جديدة في دارنا تجذب علي بعيداً عن حلقة العذاب والذنب التي أقحم نفسه فيها».

انكمش عامر صامتاً بينما يقول عمر بتردد: «لكن أبي الزواج مسؤولية».

فعلق سليم وهو يتحرك ليغادر المطبخ: «وقد حان وقت تحملكما لهذه المسؤولية».

في سريره ينام كطفل يتوسد صدر أمه ويلف ذراعيه حول جذعها بتشبث رغم وجع قلبها فإنها سعيدة للجوئه لحضنها من جديد، تنحني نونة بوجهها لتقبل أعلى رأسه وأصابعها تعبت بخصل شعره، تقرأ عليه المعوذات وآيات الحفظ وتدعو له من قلبها أن يجد ملجأ يرسو إليه ليهجر بحر العذاب الذي يغرق فيه، تتمم وهو يستسلم لسلطان النوم: «ما أدفأ حضنك نونة اشتقت إليه».

دمعت عيناها وخنقتها العبرة بينما تتسع ابتسامتها لتعاود تقبيل رأسه وهي تشدد من احتضانها لفلذة كبدها، ثم ترخي أجفانها هي الأخرى لتغفو جواره وفمها لم يتوقف عن همس الدعاء من عمق قلب الأم ليصل همسها السماوات العلا، ابتسم عمر وهو ينظر لأمه غافية وتحتضن علي بتشدد كأنها تحميه من مجهول، أغلق الباب على مهل حتى لا يزعج نومهما وبدلاً من أن يعود إلى غرفته قرر الذهاب لغرفة عامر، دخل عمر على أخيه عامر الغرفة فوجدتها خالية، تنهد مغادراً ليتوجه إلى السلم العلوي الذي يؤدي للسطح، حدسه أنباء أنه سيكون هناك وقد أصاب تخمينه وصدق حدسه رآه يقف قرب السور مجدداً كما حصل قبل ساعات؛ لكن هذه المرة كان متوتراً

للغاية، اقترب منه وهو يناديه: «عامر لماذا عدت للسطح؟».

دون أن يلتفت عامر لأخيه قال بوجوم: «أبي يحملني ما لا أطيق».

زفر عمر نفساً وهو يقف جوار عامر قائلاً: «لكن ما يقوله فيه منطق لقد فشلنا كلنا بإعادة علي إلى وضع متوازن أو مساعدته ليعود بإرادته، ربما إن رآنا أنا وأنت متزوجين ولدينا أطفال...».

قاطع عامر بحدة وهو يلتفت إليه: «أنت نعم أنا لا».

صمت عمر بينما يعود عامر بنظراته ليحرق في البيوت الساكنة مضيئاً: «تزوج أنت يا عمر ربما لتعين علي كي يطوي صفحة الماضي وتعينني كي يخف ضغط أبي علي وهو يطالبني بما لا أستطيع تنفيذه».

عندها قرر عمر فرض المواجهة على شقيقه فيقول بجدية وهدوء: «أشرح لي فقط يا عامر ماذا تنوي أن تفعل بحياتك؟! لا يعقل أن تستمر بحب امرأة باتت في ذمة رجل منذ سنوات ومؤكد أنها مستقرة معه ولها عائلة وأطفال».

هاله أن يستدير عامر بعنف ليمسك بتلابيب بلوزته القطنية الصيفية وعيناه تفيضان بالعنف الرهيب وهو يقول بهمس مجروح: «لا تذكر هذا أمامي لا أطيق سماعه حتى وأنا أعيش التفكير فيه كل لحظة».

يعقد عمر حاجبيه ليقول بنبرة إصرار: «حسن لن أذكره؛ لكن أخبرني ماذا

تنوي لحياتك كي أساعدك كما تشاء أريد أن أفهم ماذا يدور برأسك للمستقبل؟ صمتك ومراوغتك وادعائك الهدوء والانشغال الدائم بالعمل ليس كافياً لندعك وشأنك على الأقل علي واضح لنا، أما أنت فغامض من حق أبي أن يفهم وكذلك أمي والجدة أنت تؤذينا جميعاً قلقاً عليك كما علي يؤذينا ونحن عاجزون عن مساعدته».

أقلت عامر أخاه ليتكئ بكفيه على السور تتقلص أصابعه وهو يحني ظهره هامساً بحشرجة: «هل تذكر ليلة الحادث لعلي وهيام هل تذكر عندما أوقفتني على الدرج لتخبرني عن مكالمة أبي».

يرد عمر ببعض الحيرة: «بالطبع أذكر ماذا بشأنها؟».

رفع عامر وجهه ليديره ناحية اليسار يحدق في بيوت الحي المتوارية بالظلمة وهو يعلم أنه اتجاه بيت عائلة حرير فيتخيله حتى ومدى بصره لا يصل إليه، قال أخيراً: «تلك كانت ليلة عرسها».

اتسعت عينا عمر قليلاً وقد كانت هذه المرة الأولى التي يعرف بها هذه المعلومة، فوقت حادث علي المفجع كان عصيباً للغاية، هيام ماتت وعلي بين الحياة والموت ثم مضت أشهر قبل أن يستعيد عافيته لتتبعها موجات غضبه وجنونه وأشياء كثيرة لا تحصى شغلتهم جميعاً عن عامر، كل ما عرفه عمر بعدها أن حرير تزوجت لكن متى بالضبط لم يخطر بباله أن يسأل، أخذ عامر يضرب بقبضته على السور وهو يقول بحرقة: «لقد فقدت عقلي

ليلتها، كنت أوشك على ارتكاب حماقة أكبر بأن أذهب إليها في بلدة عريسها لأهدّ العرس على من فيه، فأوقفتني أنت على الدرج وما حملته إلى من أخبار مفاجئة أوقف حماقتي وتهوري»

يزم شفّتيه قبل أن يضيف بثورة على النفس: «العقل والمنطق يقولان إن عدم ذهابي كان هو التصرف الصحيح فعلي أن أكون شاكراً للظروف من هذه الناحية، العقل والمنطق يقولان إن سوء سمعتي عن علاقاتي مع الفتيات وتصرفاتي المتهورة كانت السبب في خسارتي لها، فعلي تقبل النتائج، العقل والمنطق يقولان يجب أن أتوقف عن التفكير فيها».

يضرب مجدداً بقبضته على السور وكأنه يوجه اللكمات لنفسه وهو يكمل: «لكن ليس بيدي ليس بيدي أن أفكر لولا حادثة علي لكنت انسقت لتهوري وأفسدت العرس لأمنع رجلاً آخر من أخذها مني، ليس بيدي أن أفكر بأن والدها ظلمني وكان يستطيع منحي فرصة على الأقل كي أحسن صورتني وأثبت له أنني سأحفظ ابنته في عيني ليس بيدي أن.. أن..».

تقطعت كلمات والألم يعتصره فتألم عمر لأجله ليمد يده إلى كتف عامر يضغطها وهو ينطق اسمه بمواساة: «عامر».

التفت عامر لأخيه ينظر في عينيه ويفرج أخيراً عن كل مكنونات قلبه فيطلق سراحها للمرة الأولى منذ ست سنوات: «ليس بيدي أن أتوقف عن التفكير فيها، قسماً بالله ليس بيدي، أجاهد نفسي وأستعيذ بالله من

الشیطان أريد أن احترم حرمة رجل في أهل بيته؛ لكنني غاضب غاضب».

كان عامر يشع بالغضب فيسأله عمر ببعض الحيرة: «ما الذي يغضبك بالضبط؟».

يرد عامر هادراً ليطلق سراح ما تبقى: «غاضب من كل شيء.. غاضب من نفسي.. غاضب من خسارتي لها.. غاضب منها لأنها لم تخبرني حتى إنها ستتزوج، لقد صارحتها أنني أحبها.. أخبرتها مدى أهميتها عندي وأناي سأحارب لأجل أن أقنع أباه كيف لم تخبرني؟ كيف؟! لقد منعت حتى صديقتها وفاء من إخباري حتى تم كل شيء».

يعقد عمر حاجبيه بتركيز بينما يعلق بحيادية: «ربما لأنها كانت تدرك مدى تهورك يا عامر وأنتك ستتسبب بفضيحة ألم توشك أن تفعل؟!».

اتسعت عينا عامر قليلاً كأنه يرى تلك الزاوية للمرة الأولى كأن قلبه المجرّوح أغفل هذا عن إدراك عقله المتوقّد، لكن هي لحظات ليهت تأثير (الرؤية للزاوية الجديدة) فيقول عامر وعيناه تشردان مجدداً نحو الاتجاه نفسه حيث البيوت البعيدة: «قد يكون ما تقوله صحيحاً؛ لكن مجدداً العقل والمنطق لهما حسابات جامدة لا تدخل العواطف من ضمنها».

ليفسر عمر وكأنما استوعب أخاه ووجد الرد الذي انتظره على تساؤلاته: «وهكذا العقل والمنطق يقولان إنك يجب أن تتزوج وتبني حياتك مع امرأة أخرى لكن..».

يلتفت عامر فيكمل الجملة بكآبة: «لكن لا عقل ولا أي منطق في هذا على الإطلاق».

صمت عمر وهو يفكر في هذه المعضلة التي لا يجد لها حلاً منطقياً واحداً.

تقلب رونا هي قطع (البسطرمة) في المقلاة المسطحة فتفوح رائحة توابلها لتأخذ نفساً عميقاً وهي تشمها بتلذذ تبتسم ابتسامة طفولية راضية، بينما تستعد لفقس أربع بيضات فوق القطع البيضاوية الشهية، مضت دقائق بعد أن أخفضت النار تحت المقلاة وغطتها بغطاء محكم كي يتماسك البيض، وعندما تم أخذت تدندن بأغنية (عاطفية رومانسية) بينما تضع اللمسة الأخيرة برشة من الجبن الأصفر المبروش، تكشف الغطاء لتنظر إلى النتيجة بعين (العشق) فتطفئ النار وكل حواسها تتلهف لمذاق ما أعدت، ما إن وضعت مقلاة البسطرمة بالبيض على المائدة المدورة الصغيرة في المطبخ وجلست على الكرسي حتى تبدأ بالتهام وجبتها السرية حتى أجفلت على صوت أمها وهي تهتف بها: «ماذا تفعلين في المطبخ عند منتصف الليل؟!».

التفت رونا هي عابسة إلى أمها وهي تقول بتذمر: «أفزعني أمي».

ثم اقتسمت قطعة من الخبز لتبدأ الأكل وهي لا تبالي بردة فعلها أمها

(المألوفة) التي أخذت تضرب كفاً بكف وتقول شبه مولولة: «عوضني على الله فيما أنجبت! أتأكلين بسطرمة بالبيض في هذه الساعة؟!».

تحشو روناهاي فمها بلقمة وهي ترد بطريقة مغيظة: «وهل هناك قانون يمنع؟!».

تتقدم الأم منها وهي تزمجر: «أنت تريدين التسبب لي بالشلل أو نوبة قلبية».

تعبس روناهاي بينما تضع لقمة جديدة في فمها وهي تقول بانزعاج طفولي: «أمي أرجوك لا تفسدي علي شهيتي».

تقف الأم جوار ابنتها لتقول بحق فكاهي ساخر: «وهل هناك شيء يفسدها؟! بالله عليك دليني عليه».

لم ترد روناهاي واستمرت تأكل رافضة محاولات أمها لإفساد تمتعها بالوجبة، جلست الأم على الكرسي الآخر وهي تمسك أعصابها لتسأل ببعض الهدوء: «يا ابنتي ألم تكوني ملتزمة بالريجيم؟».

عدلت روناهاي نظارتها بطرف كفها ثم قالت ببرود يغيظ الحجر: «الليلة قررت أن أمنح نفسي إجازة من الريجيم».

ضربت الأم بيدها على فخذهما وهي تتمتم بقلّة صبر وإحباط: «فوضت أمري لله».

ثم أخذت نفساً وهي تحاول العودة للهدوء قائلة بتأن وجدية: «روناهي يا ابنتي يجب أن تعتني بنفسك أكثر، أنت جميلة الملامح وتملكين شقرة شعر طبيعية تحسندك عليها كل الفتيات؛ لكن يجب أن تخفصي وزنك أو على الأقل حافظي على ما أنجزته حتى الآن».

تهز رونا هي كتفها وهي تواصل الأكل بينما ترد بتساؤل ساخر: «وما الغاية من كل هذا؟! أن يُعجب بي شاب ما ويتزوجني؟».

تساءلت الأم وهي في سرها تطلب من الله الصبر: «ولما لا؟! إظهار جمالك والسعي للرشاقة ليس عيباً».

رفعت رونا هي عينيها ببعض الحدة كي تنظر عبر نظارتها إلى وجه أمها ثم تقول بقناعة راسخة: «سيكون عيباً أن أصبح الهدف هو (العريس)».

نظارتها انحدرت قليلاً للأمام فأعادتها لمكانها وهي تنظر لأمها بإصرار بينما الأم ترد عليها بتساؤل محبط وهي تشير لنظارتها: «متى ستغيرين رأيك بارتداء العدسات اللاصقة».

ردت رونا هي متأففة: «أنت تعرفين أنها تتسبب لي بالحساسية، كما أنني اعتدت النظارة مريحة لي أكثر».

حاولت الأم إقناعها بالقول: «جربي مرة أخرى ربما تحتاجين فقط التعود عليها».

تعقد رونا هي حاجبيها بتمرد لتقول بقوة: «نصف سكان الأرض يرتدون النظارات اليوم أُمي لم يعد هذا الأمر معيباً للفتيات ويقلل فرص زواجهن كما كان في وقتك ثم من يريدني زوجة فليقبلني سمينه شبه عمياء دون نظارتي».

هتفت الأم مدافعة عن ابنتها بردة فعل حمائية غريزية: «لا تقولي مرة أخرى تعبير (شبه عمياء) ثم إنك لست بسمينة، كنتِ كذلك بعض الشيء في مراهقتك؛ لكنك اليوم ممتلئة فقط».

تحرك رونا هي كتفها ثم تبرم شفيتها قبل أن تقول: «أنا لا أبالي أحب نفسي كثيراً فلا (أزعجها) برفض ما فيها بل (أدللها) بمنحها ما تشتهي ومن لا يعجبه نتائج دلالي لنفسي فليرمي نفسه لنهر دجلة، هناك عشرة جسور يستطيع اختيار واحد منها ليفعل».

ثم أمالت رأسها لتساءل بتفكير مفاجئ: «هل هي عشرة جسور أم كم بالضبط؟».

الغيظ يكاد يقتل أمها وهي تتمتم: «فقط لو أعرف من أين لك هذا اللسان الطويل؟ أختك بسمة ينطق الجبل قبل أن تنطق هي».

ردت رونا هي وهي ترفع حاجبيها تتصنع الدهشة: «تقصدين (تهز الجبل حالما تنطق!) يا أُمي أرجوك كوني منصفة، الجيران يوشكون على ارتداء سدادات الأذن حالما يلمحون طيفها تهل علينا مع الجلاوزة الثلاث الذين

أنجبتهم».

تعض الأم شفتها السفلى غيظاً بينما روناها تمسح المقللة الفارغة بآخر
قطعة خبر

أمسكت الأم بكف ابنتها وقالت متحاملة على غيظها وهي مصرة إلى
تصل إلى نتيجة الليلة: «اتركينا من بسمة الآن وردي علي أليس هناك
معجب؟».

زفرت روناها قبل أن تنظر في عيني أمها وتقول بنوع من السخرية:
«أمي يفترض أن تسألني (هل يعجبك أحدهم؟)».

هذه المرة ترفع الأم سبابته لتعضها غيظاً وهي تقول: «من سيعجبك لن
نستطيع الذهاب لخطبته يا ابنة بطني فالشاب هو من يخطب وليس
الشابة».

رفعت روناها نظراتها للسقف وهي تهز رأسها دلالة (لا فائدة) ثم تقف
على قدميها لترفع المقللة فتنازلت الأم لتسألها وهي تركز على أسنانها:
«حسن رضىت أخبريني هل يعجبك أحدهم؟ أو على الأقل أخبريني
بمواصفات من يعجبك».

ردت روناها ببساطة وهي تضع المقللة في حوض غسيل الصحون: «هو
أمر واحد أريده لا غير ما قاله القيصر كاظم إن الرجل الذي يريد امتلاك قلب
أنثى يجب أن يكون (رجلاً)».

هبت الأم على قدميها وهي تكاد تقطع شعرها غيظاً وتقول: «حسبي الله ونعم الوكيل وهل هناك رجل (رجل) وآخر رجل (امرأة)؟ اذهبي للنوم رونا هي قبل أن أرتكب جناية الليلة».

تنظر إليها رونا هي بدهشة وكأنها تتساءل (فيما أخطأت) ثم تهز كتفيها لتبدأ غسل المقللة، بينما أمها تغادر المطبخ وهي تدعو على كل القنوات الفضائية ووسائل التواصل الاجتماعي التي أفسدت عقول الفتيات.

سرحت رونا هي عابسة وهي تفرك المقللة بالإسفنجة ببطء وتفكر بصوت عال: «لا يهمني أن أتزوج فليذهب أشباه الرجال إلى قعر نهر دجلة».

ثم تملكها الغيظ وحرارة تشع من خديها الممتلئين وصورة عمر القماش تغيظها بابتسامته الرجولية الممازحة ونبرة صوته الكاظمية المترفقة وهو يناديها (آنسة).

رمت رونا هي المقللة في الحوض بحدة وأبت أن تنهي تنظيفها لتركها هكذا فتغسل يديها ثم تغادر المطبخ بحاجبين معقودين وقلب سخيف متأثر.

صباح اليوم التالي

على الطريق الخارجي مغادراً العاصمة متجهاً نحو الشمال يشرب قهوته التي أعدتها له نونة مع وجبة طعام كان يود الخروج قبل شروق الشمس

ليراقب انبلاج الفجر وهو على الطريق الخارجي؛ لكنه نام عميقاً في حضن أمه ولم يشعر إلا والنور يملأ غرفته، فكرة غريبة راودته للمرة الأولى يتنبه أنه يحب الفجر بينما هيام كانت تحب الغروب، رن هاتفه ففتح الاتصال عبر سماعة الهاتف في أذنه ليأتيه صوت أنثوي يميزه: «صباح الخير علي».

رد علي وهو يتعرف على صوت سجي: «صباح الخير».

سألته وكأنها مخرجة من المكالمات: «كيف أصبحت اليوم؟».

فرد مُخفياً توتره بجهد جهيد: «بخير الحمد لله».

فقالت فجأة: «عمي رياض يود مكالمتك».

ارتفع معدل توتره عالياً فهدأ سرعته ثم حاد بالمقود يمينا ليوقف السيارة على جانب الطريق، أخذ يستجمع شتات نفسه بينما يتلقى صوت عمه رياض الذي تغيرت نبراته كما تغيرت هيئته: «مرحباً بني كيف حالك؟».

رد علي وهو يبتلع ريقه مغمضاً عينيه: «بخير عماه نحمد الله».

قال العم رياض في دعوة مرحة: «ليلة الأمس لا تحتسب يجب أن تزورنا الليلة وتشاركنا العشاء».

انسحب الدم بالكامل من وجه علي بينما يتمتم مخنوقاً: «أنا مسافر».

تساءل العم رياض بدهشة: «مسافر؟!».

رد علي موضحاً وجهته: «أنا في طريقي للشمال عند جدي زيدون».

صمت العم رياض ثم سأل: «وكم ستغيب؟». أصابع علي تقلصت حول كوب القهوة الذي ما زال في يده ليرد: «لا أعلم ربما بضعة أسابيع أرتاح فيها».

فقال العم رياض بتلك النبرة المختلفة التي لم يعتدها علي منه: «كما تشاء بني أراحك الله من كل هم».

تمتم علي: «شكراً»

حينها قال العم رياض بهدوء: «علي نحن نحتاج إليك كما بدا لي جلياً أنك تحتاج إلينا، حان الوقت لنعبر كلنا حاجز الماضي المؤلم».

يبتلع علي ريقه مجدداً بينما يضيف العم رياض بتأكيد على أهمية الأمر: «عندما تعود بالسلامة إلى العاصمة سننتظرك فلا تخيب رجائي».

لم يكن علي بقادر على الرد بأكثر من جملة لا وعود فيها: «بإذن الله».

شعر العم رياض بمحاولة علي أن لا يعطي وعداً فقال: «خالتك نبراس تحتاج إليك أكثر مني».

صمت علي لحظة وهو يتذكر خالته نبراس ليلة الأمس فقال عفويّاً: «حاضر».

وكان العم رياض ارتاح قليلاً لينسحب وهو يقول: «معك سجي في رعاية

الله.. بلغ سلامي للدكتور زيدون».

عاد إليه صوت سجي لكن بدت أقل توتراً وهي تسأله بهدوء: «هل أنت من تقود سيارتك في السفر؟ وهل أنت بمفردك؟».

فرد علي وهو يتحرك بسيارته من جديد مراقباً الطريق: «نعم أنا مسافر لوحدي».

فاجأته بنبرة صوتها التي حملت توبيخاً في حزم ناعم لكن مؤثر: «لكن هذا غير صحيح، لقد تلقيت ضربة على رأسك ليلة الأمس و..».

قاطعها بنبرة متعبة فيها بعض الهزل: «أنت كثيرة التفكير والقلق».

ردت تدافع عن نفسها بحجة مقنعة: «أنا لست موسوسة بل أتبع المنطق والعقل لو كنت أنا من تعرضت لضربة كهذه هل كنت ستجده منطقياً سفري بمفردي في طريق خارجي وأنا السائقة؟».

تذكر قيادتها المريحة ليلة الأمس ثم فكر أن سجي إنسانة لديها القدرة أن تنشر جواً من الراحة دون مجهود، اكتفى بالقول وهو يستغرب الحوار كله من أوله: «غلبتني».

صمت للحظة قبل أن يضيف: «في الواقع يجب أن أقول أيضاً شكراً لكل ما فعلته بالأمس وما قلته بالطبع».

لماذا قال لها هذا لا يعرف! لقد أخرجها فظهر إحراجها جلياً وهي تقول

باعتذار: «آسفة إن تجاوزت حدودي».

ابتسم بعفوية وهو يقول: «لا بأس.. أستطيع تحمل بعض التوبيخ منك بين فترة وأخرى، نونة عودتنا على هذا».

بدت فجأة وكأنها متعجلة لإنهاء المكالمة فتقول له: «حسناً بلغ سلامي للخالة نورجان عندما تتصل بها، تصل بالسلامة إلى جدك في حفظ الله».

لم يقل علي إلا كلمة شكر قبل أن تغلق سجي الخط مباشرة، ارتفع حاجبا علي قليلاً وهو يشعر بالدهشة.

على الجانب الآخر كان العم رياض قد ترك سجي بمفردها تنهي المكالمة مع علي وذهب كي يطمئن على الخالة نبراس، كان شعوراً عصبياً للغاية يمتلك سجي تلك اللحظة وهي تقف وسط المطبخ والهاتف في يدها تستعيد كلمات علي الأخيرة عندما تكلم عن اعتياده التوبيخ من أمه نونة وتكاد تشعر بابتسامته بل تتخيلها فيفلت قلبها من السيطرة، أغمضت عينيها وهي تتمتم بخوف: «ليس مجدداً يا ربي ليس مجدداً».

بعد أسبوع

تهبط حبر درجات السلم على مهل بثوبها الفيروزي، تشعر بالثقة وقد أكملت تبرجها ليليق بالشوب وثبتت خصلة واحدة من شعرها القصير للخلف

بمشط صغير لامع، تشعر براحة غريبة تلك الراحة التي تمنح القوة، سكينه تمنحها القدرة على الاستمرار والسعي، الأيام السابقة كانت من الأيام الجيدة في حياتها مع نوفل تلك الأيام التي تشعر فيها بطيبته فتخفف عنها الكثير من شعورها بفتور العلاقة بينهما، ربما مراعاته لها لا تتسم بالعاطفة التي تحتاجها الزوجة وقد أدركت حرير أهميتها بالسنين الأخيرة لكن على الأقل تحمد الله على طيب خلقه، من جانبها تناست ما حصل يوم عودتهما من العاصمة وبعد لقاءها السخيف بإيناس كيف تصرف نوفل معها بأنانية، كما حاولت أن تذكر نفسها أنه لا يتصرف دوماً بهذا الشكل في علاقتهما الحميمة، فربما يكون طبعه فاتراً غير مدرك لطبيعتها كأنشى لكن ليس أنانياً لهذه الدرجة، في مطلق الأحوال هي قررت أن تحاول تغيير حياتهما ومنحها بعض الحيوية، ربما كل شيء حولها يقف ضد محاولاتها ابتداءً من طبيعة أهله الذين تشاركهم السكن وانتهاءً بطبيعته هو الميالة لنمط ممل لا يحب التغيير عليها الارتجال من حدسها كأنشى لأنها تخجل أن تسأل وفي الواقع ليس لديها أحد تثق فيه يستطيع إعانتها، أمها لا تجيد لعب دور الإرشاد وليس لديها أي ثقة في كلام كثير تقرأه على الإنترنت تشعر بالتخبط في تلك النصائح المتدفقة في فضاء إلكتروني متناقض.

رسمت ابتسامة حلوة على شفتيها المطليتين بلمع أحمر وتكاد تصل نهاية السلم حيث يجلس نوفل مع أمه بانتظارها عندما أتاها صوت حماتها من غرفة المعيشة وهي تقول لولدها بحماسة علّت نبراته: «صدقني بني

هو الحل».

استمرت حرير بخطواتها الطبيعية الهادئة بينما تسمع باقي الحوار وزوجها يقول: «لكن أمي أنا لم يخطر لي هذا الموضوع من قبل». تكاد تصل إليهما عندما قالت حماتها بإصرار: «أنا خطر لي ولديك أيام لتفكر به جيداً بنّي».

حتى اللحظة لم تهتم حرير كثيراً بما يدور بين الاثنين لكن تسمرت قدمها مكانها حالما ورد اسمها في الحوار وعلى لسان نوفل الذي تساءل بارتباك واضح: «وماذا عن حرير؟».

في اللحظة نفسها سمعت حرير صوت عمها أنيس من الجهة الأخرى وهو يكبر ويستعد للوضوء قبل دخول الحمام، شعرت بالخرج وأن من يراها سيظن أنها تتنصت وهي أبداً لم تكن يوماً من هذا النوع من النساء، ولن تكون ومن جهة أخرى لن تتقبل الاستمرار بالتغاضي عن أمور تخصها أو كلام عنها، فتقدمت بثقة لتقف عند باب غرفة المعيشة تبتسم متسائلة بهدوء: «ماذا عني؟».

احمر وجه زوجها! بينما حماتها ارتبكت للحظة واحدة قبل أن تقول بابتسامة مراعية: «كنا نفكر أنا وعمك أنيس بعمل تجديدات في المنزل؛ لكن نوفل قلق على راحتك يظنك ستزعجين من العمال، هل سيزعجك هذا يا ابنتي؟».

شعرت حرير بغرابة حماتها بعض الشيء، بينما نوفل ينظر نحوها وقد خف احمرار وجهه، وقف على قدميه ونظرته لا تعبر عن شيء بينما حرير ترد ونظراتها موجهة لزوجها: «أنا سأكون بخير لا تقلق علي يا نوفل دع والديك يفعلان ما يشاءان».

اكتفى نوفل أن تقدم منها وهو يقول بلطف: «ما دمت جاهزة عزيزتي هيا لننطلق للعاصمة حتى لا نتأخر على حفل العرس».

هزت حرير رأسها وما زالت تشعر ببعض الغرابة، وبينما تسير برفقة زوجها كانت أمه خلفهما وهي تتساءل: «هل ستبيتان في بيت أبي خلدون؟».

التفت إليها نوفل قائلاً: «نعم أمي».

ثم لوح لها وهو يفتح الباب أمام حرير لتتقدمه، بينما الأم تقول بنبرة عادية مجاملة: «أبلغا سلامي لهم جميعاً».

مرت ربع ساعة كاملة من الصمت وهما على الطريق الخارجي إلى العاصمة عندما قال نوفل فجأة: «تبدین جميلة بهذا الثوب لم أراه سابقاً».

كانت حرير مستغرقة بالتفكير في كلام حماتها الليلة وتشعر أنها لم تقل الحقيقة أو ربما أخفت شيئاً منها لكن حالما علق زوجها على الفستان قررت

أن تعيد تركيزها إليه لترد بلطفه نفسه وهي تتجاهل انقباض قلبها: «إنه من ثيابي القديمة وجدته في خزانتي آخر مرة كنت في بيت عائلتي».

ثم أضافت وهي تنظر إليه: «سعيدة أنه أعجبك ربما هي المرة الأولى التي تمتدح فيها ثوباً أو ملابساً».

رد نوفل وهو يهز كتفيه وعيناه على الطريق أمامه: «آسف لأنني لا أتنبه للأمور النساء هذه».

ما زالت تنظر إليه ثم قالت كأنها تجس نبضه: «لا بأس ربما أعلمك أنا».

كانت جملتها غامضة لكن كافية لتعرف مدى استعداده فالتفت إليها ببعض العبوس ليقول بدفاع عن النفس: «تعليميني؟! أجده تعبيراً غريباً يا حرير إنها طبيعتي فقط».

فتقول بهدوء: «وإن قلت لك إنني أحتاج منك اهتماماً كهذا؟».

هذه المرة كان ينظر إليها بغرابة قبل أن يعيد نظره مجدداً للطريق وهو يقول: «لقد تغيرت حرير في الآونة الأخيرة أشعرك أكثر تطلباً».

كان ينتقدها بوضوح فشعرت بالضيق وهي ترد عليه: «تطلباً؟! لكن نوفل هذا حقي عليك».

تبادل معها النظرات للحظة لكنه لم يقل شيئاً مدت يدها لتمسك ذراعه

نعتني ببعض لأننا ليس لنا ولن يكون إلا بعضنا البعض».

فجأة شعرت بتوتره ليلتفت إليها ويسأل ببعض الحدة: «هل تلمحين لعجزي عن الإنجاب!».

ارتفع حاجبا حريير وهي تستغرب تفسيره لكلامها لكنها ردت بعقلانية وهي ما زالت تمسك بذراعه: «أنا لا ألمح ومؤكد لا أحاول جرحك أنا أذكر الحقائق، نحن زوجان حرمهما الله من نعمة الذرية فرضينا بحكمه كل ما أطلبه أن نعتني ببعض أكثر نتواصل.. نتكلم.. نتقارب».

لكن نوفل بدا نزقاً على غير طبيعته ليقول ببعض الاستهجان: «نحن متزوجان منذ ست سنوات غريب أن تقولي هذا الآن!».

كانت شجاعة وهي تمضي بهذا الحوار قدماً لتكون معه صريحة قدر المستطاع: «ربما لأنني كنت أخجل أن أطلب وربما لأنني راعيتك كثيراً حتى لا أثقل عليك».

تمثلت لها صورة أبيها فأضافت في سرها (وربما كان هناك حاجز نفسي يمنعني وما زال! لكنني أسعى لتحطيمه).

نوفل استاء أكثر بدلاً من أن يتفهم ليقول برجولة مجروحة: «تشعرينني كأني مقصر بحقك وأنت صبرت علي!».

كانت تفعل المستحيل لتحارب نفورها من سلبيته فلا تترك ذراعه،

صبرت على هذا الحوار الخائق وهي مصممة أن تصل معه إلى نقطة مشتركة كبداية لهما، فقالت وهي تشدد عفويًا من ضغط أصابعها على ذراعه: «نوفل أرجوك افهمني الأمر ليس تقصيراً منك أو مني، كلانا مسؤولان؛ أنا أيضاً لي دور في هذا لذلك أحاول التقرب إليك أكثر وكل ما أطلبه اهتماماً بي وداً أكبر هل هذا كثير علي؟».

عادت تلك النظرة الغريبة في عينيه فتسأله حريراً: «لماذا تنظر إلى هكذا؟!».

يرد نوفل وعيناه تعودان للطريق: «لا شيء أفكر بكلام أُمي عن التغييرات في البيت».

تركت ذراعه أخيراً لم تعرف حريراً هل شعورها بشيء غريب هو حقيقي أم مجرد أوهام برأسها فقالت بحيادية: «شعرت أنها تخفي أمراً ما عني لكن لا بأس ربما هي تخشى العين».

فجأة تغيرت نبرة صوته وهو يقول بتردد ملحوظ: «حريراً أنت.. أقصد..».

عقدت حاجبيها متسائلة بعد صمت منه: «ماذا هناك؟ تبدو متوتراً هل هناك ما تود إخباري به يا نوفل؟».

عاد نوفل لهدوء تعابيره وهو يقول: «لا شيء فقط أريد أن أقول إن أُمي امرأة طيبة تهتمها سعادتي فتحملها».

تمتت حرير: «مؤكد لا تقلق من هذه الناحية».

كلاهما غرق بأفكاره الخاصة فساد الصمت التام باقي الطريق.

تأكدت حرير أن هناك أمراً مخفياً، خطر ببالها خاطر هل تسعى حماتها لإجراء تعديلات في البيت من أجل ابنتها (تغريد)؟ فأخت نوفل الصغرى دوماً تشتكي من عائلة زوجها وأنها ليست مرتاحة بالسكن معهم ودوماً لمحت تغريد أن الطابق العلوي يبدو مهجوراً فلا يشغل نوفل وحرير إلا غرفة واحدة من غرفه الثلاث فهل استجابوا لتلميحات تغريد ورغبتها غير المعلنة للعيش في بيت والدها مع زوجها وأطفالها؟ ورغم هذا الاحتمال القائم تشعر حرير بوجود شيء خاطئ.

كان سليم يزرر قميصه الأبيض الأنيق عندما اتصل علي، راقبت نرجان تعابير وجه زوجها بينما كانت تلبس الأساور الذهبية في معصمها بدا عابساً غير راضٍ بعد دقائق فقط من المكالمة، عاودها التساؤل هل يجب أن تخبر سليم عن لقاء علي بوالدي هيام قبل ليلة من سفره؟ لقد أوصاها ولدها أن لا تخبر أحداً قبل أن يعود ويكون مستعداً للكلام فلا تستطيع نكث عهدها له وقد ترجاها بالبحاح، حاولت أن تفهم أسبابه لكن علي اكتفى بالقول إنه مرهق ويحتاج لاستراحة من كل شيء وإنه عندما يعود سيخبر أباه بنفسه، وبينما نرجان تحاور نفسها كان سليم يستمع لصوت ولده البكر وهو يعتذر

مجدداً: «أرجوك أبي لا تتضايق حقاً لم أستطع العودة الآن اعتذر لي من الحاج عجيل لتخلفي عن حضور عرس ابنته».

قال سليم أخيراً: «لا بأس فقط أخبرني كيف تشعر بعد أكثر من أسبوع؟».

أمعن سليم التركيز في صوت ولده وهو يرد عليه بنبرة عادية: «أفضل الحمد لله».

علم أن لا فائدة من استشفاف شيء الآن ولم يكن أمامه إلا الصبر حتى عودة علي من الشمال اكتفى بالقول: «سلم لي على جدك واشكره نيابة عني لاستضافته لك».

تمتم علي: «حاضر».

ثم ألقى السلام مودعاً وأنهى المكالمة.

استدار علي في غرفة المكتبة الصغيرة الخاصة بجده، الذي كان جالساً على كرسي جلدي قديم وفي يده كتاب في الطب منغمس بقراءته، قال علي وهو يضع هاتفه النقال جانبا: «أبي يقرؤك السلام جدي ويشكرك على استضافتك لي».

رفع زيدون الوندي وجهه عن الكتاب ليخلع نظارته ينظر ملياً إلى حفيده، لم يرد على كلام علي بل قال: «تعال علي واجلس على كرسي جدتك».

امتلأ علي لدعوة جده ليقتررب ويبجلس على الكرسي الجلدي المواجهة
بدرجة مائلة منحرفة لكرسي جده، دوماً أحب هذين الكرسيين منذ كان طفلاً
وكلما حضروا للزيارة كان جده زيدون يحب الجلوس ولو لساعة على كرسيه
نفسه وجدته باكية رحمة الله تجلس على الكرسي الآخر تطرز أو تحيك
بالسنارة، لامس علي ذراع الكرسي الجلدي وهو يفكر أن ربما جده زيدون
لم يكن مرحباً بهم عندما كانوا أطفالاً لكن جدته كان أكثر ليناً وتسامحاً
ومؤكد أقل عناداً قال الجد: «أنت عنيد مثلي».

تبسم علي وهو يرد على جده: «من الغريب أنني كنت أفكر بهذا توماً
يا جدي».

ما زال الجد يمعن النظر في حفيده ويدقق وكأنه يشخص حالة طبية
مستعصية ليقول بعدها بنبرة غريبة: «ولا تسامح بسهولة مثلي أيضاً».

شعر علي بالدهشة وهو يتمتم: «لا أسامح!».

يهز الجد زيدون رأسه ثم يضع كتابه على الطاولة الصغيرة التي تفضل
الكرسيين ويضع فوقها نظارته الطبية ثم يتناول عكازه ليقف على قدميه
بينما يقف علي في اللحظة نفسها؛ لكنه لا يحاول مساعدته فجده زيدون
استقلالي للغاية ولا يحب شعور الضعف أبداً يوشك بلوغ الثمانين وصحته
جيدة ولا يشتكي إلا من ذاك العرج الخفيف في ساقه الذي يتعبه فيستند
لعكازه، تحرك الجد وهو يقول بنبرته الأمرة الطبيعية: «تعال لنخرج مغيب

الشمس قريب وأحب أن أراقبه أحياناً من الحديقة الخلفية».

امتثل علي لرغبة جده وتتبع خطاه للباحة الخلفية حيث الحديقة الصغيرة التي يعتني بها جده بنفسه، وقف زيدون هناك شامخاً كالجبل متكئاً على عكازه وهو يحدق بمغيب الشمس الموشك يرخي علي أهدابه وهو يستنشق بعمق هواء الصيف الشمالي، هواء بنسمات باردة نقية تعاند حر الصيف وتكسره عندما جاء للنقاها هنا قبل سنوات كانت قد انقضت أشهر الصيف بعد الحادث وقد لاءم جو الخريف مزاج علي، تعلم نعمة مراقبة الغروب من جده وكم تمنح من سكينة كان أمراً غريباً كيف تواءما في تلك الفترة ولم تكن بينهما علاقة مقربة كهذه على العكس كان علي وشقيقاه لا يحبون السفر لبيت الجد زيدون خاصة بعد وفاة جدتهم باكية؛ لكن في فترة نقاهته تقارب مع جده على نحو غير مسبوق وغير مقصود وغير واضح!

صمت جده وقلة كلامه أراحه كمسكن نصائحه الطبية عجلت بتعافي جسده، كان يحتاج للعزلة عن الناس والابتعاد عما حصل، وجده وفر له تلك العزلة دون أن يحاصره بال(طبطة) والإشفاق

قال جده وهو يحدق في المغيب: «أنا لم أسامح نورجان عن إدراك وعناد لأنني اعتقدت أنني لا أستطيع تقبل اختيارها وأنت لم تسامح نفسك لأنك تعتقد أنك المسؤول عن موت هيام كلانا يجد الأعذار كي لا نسامح».

رأى علي بضعة غيوم متنافرة تتلامس أحياناً تتلألأ ألوانها ما بين البني

وصفرة باهتة تميل للاحمرار في بعضها، ينظر للغيوم ويرى فيها شعر هيام
المجعد، وجعة قلب فضحتها بحة صوته وهو يتساءل دون تساؤل فعلي:
«أأستُ مسؤولاً؟».

رد الجد بنبرة صارمة تعكس طبعه الجبلي الجاف: «مؤكد لا».

ثم أخذ الجد يهز رأسه يميناً وشمالاً وهو ما زال عابساً ويتمتم: «ما هذا
الغباء الذي أورثته لك؟!».

وضع علي يديه في جيبي بنطاله والهواء يداعب صدره من فتحة قميصه،
بدا شامخاً كشموخ جده، يفكر أن جده كأبيه كأمه كشقيقة كسجى! كلهم لا
يعرفون تفاصيل كثيرة تعذبه ليل نهار.

صوت سجى في أذنه (لقد قتلت روحك) وصوت أبيه (الحل أن تواجهه
اقتله قبل أن يقتلك) وجد الكلمات غريبة على لسانه وهو يفضض بها مع
جده: «أنا خذلتها من كل النواحي وأول الخذلان كان من قلبي الذي نأى
عنها، ثم خذلتها يوم عجزت عن استيعاب جدية مرضها لا أتوقف عن
التفكير لو كنت أشد حزمًا في دفعها للعلاج أكثر تنبهاً لتدهور حالتها
السريع».

بدت جملة مشتتة متداخلة مع بعض وهو يضيف بموجة ألم عاصفة شحب
وجهه بسببها: «أقل غباء كي لا أواجهها بموضوع المنشور على الفيسبوك
ونحن في السيارة على طريق مفتوح لقد خذلتها في يوم مماتها فلم أحمها

من نفسها كما يفترض أن يفعل الرجال مع زوجاتهم».

يعقد الجد حاجبيه المشعثين وهو يتساءل: «أي منشور؟ أنا أعلم فقط أنك كنت تكلمها عن موضوع احتياجها للمعالجة النفسية وباتفاق مسبق مع والديها؛ لكنها فقدت سيطرتها على نفسها وأصبحت هستيرية لتسبب بالحادث لكليكما».

أطرق علي والشمس تغيب تماماً فلا يبق إلا أثر دامٍ حزين يطمره ظلام الليل الذي أرخى سدوله، قال علي بحسرة: «إنه أمر لا يعرفه أحد سواي لم أستطع البوح به لأحد، ليس لأجلي إنما لأجلها لم أطق أن يضاف لصفحتها المزيد، الكل في المستشفى كان يتكلم عنها همساً أنها امرأة (مجنونة) خاصة بعد شهادة شهود عيان وقت الحادث كيف كانت هستيرية في السيارة، همسهم كان يصل مسامعي وكنت أرى صداه في عيون كل من حولي أقرب الناس إلي والداي وشقيقي أعلم أن هذا ليس عدلاً لهم وأنهم لم يقصدوه لكنني أخبرك بما أشعر فقط».

الظلمة لم تعد تظهر ملامح الوجه فيقول الجد بصوته المهيّب: «ولا يهمني أن أعرف موضوع المنشور ما يهمني أن تستوعب أن أخطاءك التي تصفها ليست إلا من طبيعة البشر، وسنظل نرتكبها بعناد غبي حتى الممات الأخطاء من جهة والقصور بالإدراك لسبب أو لآخر من جهة أخرى».

ثم تحرك الجد عائداً للدار وهو يتمتم بحلق: «ما هذا الغباء؟!».

وعلي يتبعه بتوتر صامت يتفكر في كلمات جده، بينما يشغل علي الإنارة في غرفة المعيشة قال الجد وهو يجلس على الأريكة: «ألم تفكر يا علي ما هو المنطق في أنك تحمّل نفسك مسؤولية حالة هيام ومصيرها القاسي وأنت لم تعرفها إلا لثلاث سنوات بينما والداها عرفاها العمر كله؟! فمن هو الأولى بالتنبه أنت أم هما؟».

يواجه علي نظرات جده ليقول بحشركة: «لقد أخذنا هما أيضاً نصيبهما من العذاب إنهما محطمان تماماً ليتك تراها كيف غدوا! وليتني لم أرهما وهما بهذه الحالة».

يعقد الجد حاجبيه ثم قال بإصرار: «بل كان يجب أن تراهما لتعرف أنك لا تتحمل هذا وحدك؛ لكن الفرق أنك ما زلت شاباً في فورة رجولتك يجب أن تفيق من شعور الذنب يا علي هذه حماقة! وحفيدي لن يكون أحقماً سواء أكنت تتحمل كل المسؤولية أو جزءاً منها يجب أن تفيق».

تقدم علي ليجلس على كرسي جوار الأريكة فيرخي رأسه للخلف ويغمض عينيه قائلاً: «ليت الأمر بيدي جدي».

يضرب الجد بكفه على عكازه ليقول بإصرار: «بل بيدك لا تكن عنيداً غيباً هكذا العمر يضيع منك وسيأتي يوم الندم الحقيقي لتتساءل لماذا أفنيته هباء في كل هذا؟!».

قاعة العرس.. العاصمة

يقف عامر جوار عمر يبتسمان كأهبلين في وجوه المدعوين بعد (توصية مشددة) من الحاج سليم بهذا وبهذه التكشيرة البلهاء كان يتمازحان بشقاوة ليتسليا قال عمر: «أشعر أننا مقبلان على موسم صيف حافل نقضيها بالتنقل بين الأعراس».

ليرد عامر على مزحته بالقول: «وأنا أشعر أن الحاج سليم صار يدلل علينا كالفتيات البائرات».

ينفجر عمر ضاحكاً بينما يأتيهما صوت أمهما نورجان وقد اقتربت منهما وسمعت جملة عامر الأخيرة فتقول عابسة بحمائية: «أولادي أرض ثائرة بالعطاء ولا تبور أبداً».

ثم حاوطة كف عامر بيد وكف عمر باليد الأخرى لتتحرك بصحبتهما بين موائد المدعوين التي أخذت تمتلئ بالحضور ونظرة فخر تطل من عينيها، عامر حاول بكل طاقته مجاراة ما يحصل بصبر ويشغل نفسه بالمزاح والفكاهة؛ لكنه من الداخل كان يحسب الدقائق لموعد المغادرة، لم يكن قد مر نصف الساعة على حضورهم وقد بدأ يشعر بالضيق لولا وجود عمر معه لما كان سيحتمل البقاء لأكثر من هذا تمتم بخفوت شديد يتكلم مع نفسه: «ليتني فعلت كعلي ولجأت إلى بيت جدي في الشمال».

استدارت نورجان لتميل وتطبع قبلة على خد ولدها ثم تسأله: «ماذا كنت

تتمتم يا ولد؟».

ابتسم عامر تلك الابتسامة الحلوة منه ثم يغمز لها قائلاً: «كنت أقول إن الحاج سليم يبدو ملفتاً للأنظار الليلة أكثر من ولديه (البائرين) راقبي صاحبة الشعر الأسود الطويل يا نونة إنها تبتسم له بين الفينة والأخرى لا ينقص إلا أن تطلب إضافته كصديق على حساب الفيسبوك».

تعقد نورجان حاجبيها وهي تتمايل يميناً ويساراً هادرة بخفوت: «أي واحدة؟! قسماً بالله أحلق لها شعرها وسط المدعوين لأجعلها عبرة ثم أنشر صورها بنفسي على كل صفحات الفيسبوك وهي حليقة».

بينما عمر يضحك ونورجان تبحث بضراوة بعينيها تسمر عامر وجفت ابتسامته الشقية حتى انحسرت عن شفتيه عندما لمحت عيناه ثوباً فيروزيّاً يحفظه، كانت نورجان ما زالت تتحرك وكأنها ستارة تحجب وتُظهر الثوب مع كل حركة، لم يشعر عامر إلا ويده تمسك ذراع أمه ليثبتها مكانها ويحدق في صاحبة الثوب الفيروزي التي دخلت للتو بصحبة رجل، أمه التي تكلمه، أخوه الذي يناديه الحضور بكل ضوضائهم حوله كل شيء يتلاشى أمام ناظريه عداها هي حتى لم تعد عيناه فقط من تبصرانها بل كل حواسه تختبر نعمة الإبصار، يشعر بحرقة في عينيه يقاومها غريزياً دون تفكير وهو يراها تجلس على كرسي ويجلس الرجل الذي دخل بصحبتها في الكرسي المجاور، عيناه الناعستان تدوران بين الحضور ببراءة شقت صدر الذكريات

«عامر بالله عليك لا تفعل».

كمن صفعه أحدهم ليفيق كان عمر من يكلمه بنبرة خافتة جادة، وهو
يمسك بكلتي ذراعيه يهزه ويمنعه الحركة في الوقت ذاته، حالما أفاق عامر
التقت عيناه بعينيها لبضع لحظات ليتلقى الصفة الثانية عندما نأت عنه
والتفتت للرجل جوارها تميل إليه كأنها تحتمي به!

كانت عيناه متسعتان وقد تحجرت نظراتهما ورغماً عن أنف أي منطق لا
يشعر عامر إلا بالخيانة!

«اقتلني يا عمر.. الأكم لا يُحتمل».

ما زال عمر يشبهه مكانه بإحكام بينما صوت أمه يأتيه متضرعاً: «أتوسل
إليك بني لا تفعل هذا بنفسك رياه أما زلت تحبها هكذا؟!».

لم يعد عامر يطيق ليحاول الإفلات من أخيه وهو يقول ثائراً يكاد يصرخ
بآهة ألم: «دعني.. أفلتني».

«إلى أين تريد الذهاب بني؟».

كان هذا صوت والده الذي خيم عليهم بوجوده فالتقت عيناه بعيني عامر
ليرد عامر بالثورة نفسها: «لا تقف في طريقي أبي».

هدر به الأب بصوت خافت صارم حمل بعض القسوة: «كف عن تهورك

هذا ما جعلك تخسرها قبل سنوات ظننتك تعلمت الدرس».

رد عامر وهو يواجه نظرات أبيه قائلاً: «تعلمته وما زلت حتى اللحظة أدفع ثمن ذاك الدرس وسأثبت لك أنني تعلمت وأرحل على الفور».

أفلته عمر تلقائياً وقد بدأ يشعر بتنبه الحضور لهم فيتحرك عامر مرفوع الهامة قاسي المحيا لتحمله خطواته خارج القاعة دون أن تطرف عيناه مجدداً لصاحبة الفستان الفيروزي.

في مرأب القاعة وبينما يفتح عامر قفل السيارة لحق به أبوه وهو ينادي بأمر: «عامر توقف».

تسمر عامر مكانه جوار باب سيارته وهو يسمع خطوات أبيه تقترب فالتفت إليه ليووجهه بتساؤل صريح دون مقدمات له: «فقط رد على سؤال واحد أبي ماذا كنت ستفعل لو خسرت أمي؟ ماذا لو لم تقف نونة بوجه أبيها وأمها لتصر على الزواج منك هل كنت ستنساها؟».

تفاجأ سليم من هجوم ولده المباغت لكن الحياة علمته الكثير ليعرف كيف يتدارك مواجهات أقسى من هذه بكثير ويرد بحكمة، قال سليم وهو ينظر في عيني أكثر أولاده شبعاً بطباعه وخصاله ليقول: «ربما لم أكن سأنساها حتى الممات لكني كنت سأؤمن أن هذا قدر في الحياة وأرضى به وكنت سأزوج امرأة طيبة تعصمني وتصون اسمي، أكون معها عائلة بيت وأولاد يميل قلبي إليها بالسكن والمودة وهذا ما يجب أن تفعله أنت

إنها سنة الحياة لست بالأول ولا الأخير».

كان عامر يهز رأسه رفضاً مع كل جملة من أبيه ثم قال بقناعة راسخة:
«ما تقوله لن يجدي نفعاً معي كما أخذي إلى أعراس ولقاءات لن يغير شيئاً
كل يوم أرى عشرات الفتيات في المحل وكلهن سواء، وقلبي لن يميل ولو
رأيت والتقيت أضعافهن هل تعلم لماذا أبي؟».

ثم أشار بيده إلى صدره ليجذب نظرة الحاج سليم ثم يضيف عامر بجمود
بارد: «لأن قلبي مات وما يموت لا يمكن إحيائه حتى بالود».

ظل سليم صامتاً ينظر لولده ويخفي دهشته هل يخبئ كل هذا في جوفه؟!
فتح عامر باب السيارة وقبل أن يصعد قال لوالده وهو يعود لحالة جمود:
«أنا لن أظلم فتاة معي لا أستطيع منحها ما تحلم به كل أنثى أن تملك قلب
زوجها وتملاً عقله فلا قلب لدي لتملكه ولا عقل مهتم لتشاغله وتشغله».

تنهد سليم بقوة وعامر يغادر المكان ليقف وحيداً وصوت الأغاني من
قاعة العرس يصله خافتاً رفع عينيه للسماء ويهمس بمناجاة: «يا مُحيي
القلوب والأرواح أرسل فيض رحمتك لأولادي».

آخر الليل بيت أسعد الجنابي

بمنتهى التماسك الذي مارسه لساعات كانت حرير تكلم زوجها بلطف

وهي تدخل معه غرفتها القديمة قائلة: «سأنام جوار سدير! هل عندك مانع؟».

تثاءب نوفل وهو يخلع سترته قائلاً: «كما تشائين عزيزتي أنا نعان جداً وسأنام من فوري، صخب العرس تسبب لي بصداع». وضعت كيساً على الأرض وهي تقول بالتماسك نفسه والنبرة اللطيفة نفسها: «هنا تجد منامتك هل تريد أن أحضر لك حبة مسكن؟».

تمتم نوفل وهو يخلع قميصه: «لا شكراً عزيزتي سأنام مباشرة».

استدارت حرير لتغادر وهي تتمتم: «تصبح على خير».

تسمع رده قبل أن تغلق الباب خلفها: «تصبحين على خير».

وبدلاً من أن تسير إلى غرفة أختها سدير كانت تهبط درجات السلم وهي تستسلم للإطلاق العنان لجسدها كي يخلي سبيل انفعالاتها حتى ابتداء يختض وهي في منتصف السلم.

البيت كان ساكناً شبه مظلم والكل نيام؛ لكنها لم تطق البقاء بين الجدران فخرجت إلى الحديقة بهدوء وهاتفها في يدها يرتجف بارتجاف جسدها، وفي مكان خلفي من حديقة الدار كانت حرير تتصل بصديقتها وفاء لتوقظها من النوم وتخبرها بانفعال كيف رأت الليلة عامر القماش في حفلة عرس، تحاول وفاء احتواء غضب حرير وانفعالها فتقول لها برفق وتفهم: «حرير اهدئي حبيبتي».

أخذت حرير تمسد على جبينها وهي تشعر بصداق فظيع بينما تقول
لصديقتها بالانفعال نفسه: «ليس من حقه أن ينظر إلى هكذا وكأنني..
وكانني خائنة!».

ردت وفاء: «عامر مؤكد لا يفكر بك هكذا».

تستعيد حرير تلك اللحظات القليلة التي تلاقت بها نظراتهما الليلة
وأشاعت في نفسها غضباً ورعباً في آن واحد غضباً لأنه كان يتهمها ورعباً
أن يفتعل فضيحة في العرس، لم تكف عن الدعاء خاصة وهي تلمح بطرف
عينها كيف كان يتصرف وعائلته من حوله ولم ترتاح حتى غادر القاعة ولم
يعد، عقدت حرير حاجبها في الظلمة وهي تستعيد الآن كل الماضي القديم
الذي ركنته على رف الذاكرة فتقول بصلاية: «لم يكن بيننا شيء وأنا قلتها
له أكثر من مرة قبل سنوات أن أبي لن يوافقوه وهو من لم يستمع ولم
يصدق».

كان قلبها يخفق بقوة وهي تتذكر كل ما عانتها دون ذنب لتضيف بما لم
تنطق به أمام أحد من قبل: «في الواقع أنا التي يجب أن أغضب منه بسببه
أبي أجبرني على الزواج السريع من نوفل».

جاء رد وفاء عادلاً حيادياً وهي تقول: «لا تحملي عامر خطأ أبيك أيضاً
يا حرير».

هتفت حرير وأنفاسها تلهث: «لا تدافعي عنه وفاء».

لكن صديقتها لم تتراجع وهي تقول بهدوء: «أنا أقول الحق عامر تحمل سوء تصرفاته الماضية التي أساءت لسمعته وأنت تحملت سوء تقديرك لكيفية طاعة الأب».

وكان وفاء ضغطت على موضع جرح غائر، إنه ليس الماضي فقط بل ممتد حتى اللحظة في حاضرها، دمعت عيناها رغماً عنها وهي تهمس بحسرة تعتب عليها: «تلوميني لأنني تصرفت بأخلاقياتي وقناعاتي ببر والدي! أنت أكثر من تعرفين كيف كانت حياتي وما آلت إليه الآن، وما زلت أعافر كي أجد موطن قدم لسعادة أنشدها بينما عامر حر طليق ولا أحد أجبره على الزواج من فتاة أخرى كما حصل معي».

للتهور وفاء وهي تقول: «لكن عامر ليس مثلك أنت لم تحبيه بينما هو لم ينسك أبداً ويعاني ألم خسارتك حتى اللحظة».

اتسعت عينا حبيب بصدمة فقالت باستياء بالغ: «لا يحق لك قول هذا، لا تنسي أنني متزوجة يا وفاء لا يصح ولا يجوز على الإطلاق تفوهك بهذا».

شعرت وفاء بخطأ ما قالته لتعتذر بالقول: «أنا آسفة أنت محقة لم يكن يجدر بي قولها، أفلتت مني دون تفكير اعذريني».

نحت حبيب جانباً فلتت لسان وفاء لتقول بتعب تشكو لصديقتها الأقرب إليها إحساساً تكتمه عن الكل: «أنا مرهقة وفاء أشعر أنني أختنق لم أعد أتحمل ضغطة إصبع».

علقت وفاء بحذر: «أنا أعلم أنك لا تحبين الكلام عن حياتك الخاصة مع زوجك! لكن إن كنت بحاجة لنصيحة في أي شيء أنا دوماً موجودة».

تفتح حرير فمها فلا تجد كلمات تسعفها تنهدت وعيناها تدمعان إنها لا تجيد التعبير عما يؤذيها، تجيد التحمل الصبر تجيد التفهم حد الغباء! تجيد الكتمان فالصمت أبسط وأقل تعقيداً من الكلمات.

على الجانب الآخر كانت وفاء تهز رأسها بأسف، حرير من أرق الفتيات روحاً وأكثرهن براءة! لكن قدرها أن تمر بتجربة كهذه ما زالت كثير من الفتيات يمررن بها الإجبار على الزواج، كم سمعت وفاء وما زالت تسمع حالات بشعة كهذه بل ربما حرير أكثر منهن حظاً فوالدها لم يعنفها جسدياً وإن كان استغلها نفسياً وابتز فيها عاطفتها كابنة كما ابتز مبادئها التي اعتنقتها دوماً وترسخت في أعماقها ربما أهدافه كانت خيراً وخوفاً على مصلحتها! لكنه آذاها للغاية وحطم عزة نفسها وكسر شيئاً داخلها.

ست سنوات راقبت وفاء كيف تذبل حرير بصمت لم تقل يوماً كلمة واحدة سيئة بحق زوجها كما كان واضحاً أنه لم يحرك فيها شيئاً، حرمانها من الأطفال بسبب عقم زوجها لم يحطمها بل تقبلت قدرها بصبر وصمت.

شعرت وفاء بالغضب تأثير نوفل على حرير كان سيئاً في نواح أخرى غير مرئية لحرير نفسها، لقد حولها لامرأة باهتة مثله وربما هذا سر تعاستها تمتعت وفاء في سرها: «لا أحد يعرفك يا حرير مثلي ولا أكف عن التخيل

المجنون ماذا لو؟!».

«أنا آسفة وفاء لا بد أنك ستنامين على نفسك، لقد نسيت أن لديك طفلة صغيرة وتحتاجين لطاقتك».

صوت حرير وكلماتها المعتذرة أخرج وفاء من دائرة أفكارها وافتراضاتها المجنونة لتقول لها ببشاشة: «لا تقلقي علي أجيد استغلال سيف عند الحاجة ليلعب دور (الأم) بضع ساعات».

صمتت حرير للحظات فاستغربتها وفاء قليلاً ثم تساءلت بتوتر ملحوظ: «أصدقيني القول يا وفاء هل.. هل تخافين مني؟! أقصد هل تخافين أن أحسدك لأنني لن يكون لي أطفال أبداً».

عقدت وفاء حاجبيها باستهجان وهي ترد بقوة ودمها يغلي: «من الغبي الأحمق الذي منحك شعوراً كهذا لتشكي بوجوده من ناحيتي أيضاً؟».

سمعت وفاء صوت شهقة بكاء مكتوم من حرير قبل أن ترد همساً مخنوقاً: «لا تبالي بهذا أنا متعبة وفاء متعبة للغاية أحاول استجماع قوتي لمواجهة كل شيء أنا.. أنا..». خنقت العبرة كلماتها قبل أن تجد القدرة لتكمل: «أنا وحيدة للغاية.. وحدة روحية تقتلني».

دمعت عينا وفاء لأجل حرير وشعرت بالعجز عن مساعدتها؛ لكنها قدمت ما تستطيع وهي تقول: «ربما لن أملاً يوماً هذا الفراغ الذي تعانينه لكنني سأكون دوماً نعم الصديقة والأخت لك».

همست حرير: «شكراً».

لتضيف وفاء ببعض العتب الرقيق: «فقط عودي كما السابق وكيف كنا
نخبر بعضنا بمشاكلنا وهمومنا».

فردت حرير بتنهيده عميقة: «ليتني حقاً أستطيع العودة لكنت
غيرت الكثير».

ثم أضافت دون أن تمنح وفاء فرصة التعليق على جملتها: «أظن أنني
استغلّيتك كثيراً الليلة شكراً لأنك استمعت إلي لم أكن بقادرة على الكتمان
أكثر».

ردت وفاء بمحبة صادقة: «وأنا أشكرك على استغلالك لأنك منحتني
شعوراً جميلاً افتقدته منك المشاركة والثقة».

علقت حرير بروحها القديمة: «وأنا افتقدتك وافتقدت نفسي».

ثم صمتت لحظة قبل أن تضيف بطلب: «ادعي لي من قلبك يا وفاء ادعي
لي أن يمدني الله بالقوة وأن أنجح فيما أسعى إليه».

فدعت لها وفاء من قلبها قبل أن ينهيا المكالمة وكلتاها ينتابهما شعور
أفضل، عادت حرير إلى داخل الدار وكلها عزم وتصميم أن تكمل المشوار
الذي تسعى لنجاحه مع زوجها وستنسى تماماً نظرة عامر إليها بل ستشطبها
من الذاكرة.

هبطت حرير درجات السلم لتتوجه ناحية المطبخ كي تساعد حماتها بطبخ الغداء، اليوم هو الجمعة والعائلة ستجتمع، قلبها مقبوض للغاية رغم أن هذا الأسبوع كان (ظاهرياً) هو الأفضل في علاقتها بزوجها لكن لا تعرف لماذا هي ليست مرتاحة، نوفل أصبح أكثر اهتماماً أكثر تدليلاً وأكثر سؤالاً عنها ومراعاة أيضاً أصبح أكثر عاطفية في علاقتها الزوجية؛ لكن كل هذا لا تشعره!

في البداية ظنت لأن الحاجز النفسي ما زال موجوداً؛ لكن فيما بعد تأكدت أن السبب في نوفل نفسه إنه ببساطة يمثل.. يمثل كل شيء.. يمثل الاهتمام الزائد المراعاة المبالغ فيها.. يمثل حتى إرضائها عاطفياً في السرير وكأنه يؤدي مهمة، هناك شيء خاطئ وتدور في حلقة مفرغة، كل هذا يتزامن مع تعامل ألطف من المعتاد من ناحية حماتها وأخوات نوفل والأغرب من كل هذا هو عمها أنيس! كان على العكس منهما والأصح كانت تشعر أنه يتهرب من الوجود منفرداً معها كأنه يخشاها، وصلت لآخر السلم وشعرت البيت هادئاً للغاية، عبست قليلاً وهي تتساءل في سرها هل خرج نوفل مع عمها أنيس لصلاة الجمعة باكراً لهذه الدرجة؟! تحركت بخطواتها الهادئة حتى وصلت باب المطبخ لتأتيها أصوات همهمات مكتومة جعلها غريزياً تتوقف ولا تصدر صوتاً، هناك أمر مريب يحدث ويجب أن تفهمه كان صوت العم أنيس من وصل إليها وهو يتساءل بخفوت: «ماذا

سأقول لأبيها؟! والله لن أستطيع النظر في وجهه مجدداً».

لترد حماتها موبخة: «اسكت أنت ولا تتدخل يا أنيس والدها من الأساس زوجها لولدنا دون شروط وكأنه لم يصدق تخلصه من عبئه، البنات حملهن ثقیل وهو سيبلعها ويسكت».

الإهانات التي تسمعها حرير لم تجعلها تفقد أعصابها على العكس زادها قوة لتواجه ستعرف ما يحصل مهما تطلب الأمر من احتمال قالت حماتها وهي توجه كلامها لنوفل: «الوقت مناسب الآن يا ولدي وحرير لن تعترض وضعها أمام الأمر الواقع».

يرد نوفل باضطراب واضح: «لا أدري أُمي منذ أسبوع وأنا أحاول جهدي تخفيف وطأة الأمر عندما تعرف! لكن كلما فكرت جدياً بالأمر وجدته صعباً للغاية».

كلام نوفل أكد لها أنها لم تكن تتوهم هناك أمر عظيم يحدث، أغمضت عينيها وهي تدعو الله من قلبها أن لا يجعلها تنكسر أمام أحد حتى جاءها صوت حماتها ليجلي لها الحقيقة الغائبة وقد كانت تحت ولدها بالقول: «هذه فرصتك الأخيرة يا نوفل إيناس ابنة خالتك لحمك ودمك وبناتها تحملان الدم نفسه ستكونان ابنتيك».

رغم انجلاء الحقيقة شعرت حرير بالغباء واسم إيناس يتردد داخلها في صدمة وتشوش؛ لكن كيف؟! إيناس متزوجة! ما معنى هذا؟

ثم فجأة توهج ضوء في رأسها إيناس منذ أشهر في بيت والدها لقد أخبروها أن زوجها سافر إلى خارج الوطن طلباً للعمل وأنها ستلحق به مع بنتيها حالما تستقر الأمور، لم تنتظر حرير المزيد فتقدمت لتدخل المطبخ وتواجه ثلاثة أزواج من العيون المرتبكة فتسأل بهدوء وثبات: «ماذا يحصل هنا؟». كانت حماتها أول من استعادت نظرة الثقة بل حتى تجاوزتها إلى الترفع على حرير واتهامها ضمناً: «ألن تتوقفي عن عاداتك بالتنصت؟!».

لم تتأثر حرير على الإطلاق وقد فهمت محاولة حماتها لإثارة غضبها كي تخطئ التصرف فالتفتت حرير لزوجها تسأله بالهدوء نفسه: «ماذا يحصل نوفل؟».

وقف نوفل على قدميه وقد بدا مضغوطاً للغاية؛ لكنه حاول التماسك ليقول شارحاً بداية الموقف: «هناك أمر يجب أن تعرفيه ولم نخبرك عنه من قبل».

تساءلت حرير وهي تظهر الجمود لكن داخلها يغلي: «أي أمر؟».

رد نوفل: «لم نخبرك أن إيناس طلقها زوجها منذ أربعة أشهر».

لم تتغير نبرة حرير وهي تتساءل: «لماذا لم تخبروني؟».

فبرر نوفل بارتباك واضح: «كنا نأمل أن زوجها سيعيدها لعصمته؛ لكن النذل لم يفعل يقول لا يريد إيناس ولا البنيتين».

سألت وعيناها تدوران بين الثلاثة: «وما علاقة هذا بنوفل؟».

تدير حماتها وجهها بمزيد من الترفع وقد أدركت حرير أن تصرفات والدة زوجها تهدف أن تكسر شوكتها حتى لا تثير المشاكل رد نوفل على سؤال حرير بتلعثم: «أمي تقترح.. إنها ترى إيناس ابنة خالتي...».

صمت نوفل ولم تسعفه شجاعته لتعلق حرير بسخرية: «وأنا أعلم أنها ابنة خالتك».

فجأة قالت حماتها ببرود جليدي: «إنها لحمه ودمه ويجب أن يسترد».

نظرت حرير لحماتها تسألها بصمود: «وما هو الستر المطلوب؟».

فردت الحماة وعيناها في عيني كنتها كأنها تتحداها الاعتراض: «نوفل سيتزوج إيناس ويرعى ابنتيها».

هتف نوفل بضيق: «أنا لم أوافق حتى الآن أمي».

هذه كانت القشة التي قصمت ظهر (الصبر) إنها القشة التي تعري حقيقة، إن الصبر ليس فضيلة دائماً عندما يُبذل لمن لا يستحقه!

أظهرت حرير ابتسامة ساخرة وهي تتمم مرددة كلمتين من جملة زوجها: «حتى الآن؟!».

فاجأها عمها أنيس وهو يتخذ موقفاً مؤيداً لزوجته فيقول: «لا تكوني أنانية.. حرير ولدي لن يعيش لآخر عمره وحيداً».

رفعت حرير حاجبيها وهي تتساءل بالثبات نفسه في مواجهتهم جميعاً:
«وماذا عني أنا؟ أم أن المخطط لا يشملني؟».

الأمر كان محسوماً داخلها لكنها أرادت أن تظهر لهم أنهم لم يكسروها،
إن كانت حمايتها تنتظر منها بكاء ودموعاً أو حتى كسرة خاطر وإحساس
بهدر كرامة فقد أخطأت التقدير، كان زوجها من رد هذه المرة ليحاول رآب
صدع في جدار تهدم: «كيف تقولين هذا يا حرير أنت زوجتي وستبقين
كذلك».

ثم يعلق والده في محاولة مضحكة لإقناعها: «وينتاه نستكونان كابنتيك
أنت أيضاً».

برود غريب سيطر على حرير ثم شعرت فجأة بالراحة بابتسامة واسعة قالت
بهزل: «إذن فقد أصبحتا بنتيه الآن».

ثم بالابتسامة نفسها قالت لزوجها: «طلقني نوفل».

هتف نوفل بعبوس: «حرير!».

بينما توتر العم أنيس للغاية وهو ينظر لزوجته فتبادر حمايتها لمهاجمتها:
«أنت تسيئين لسمعتك ولكرامتك الأفضل لك أن تتقبلي قدرك، لا تزرعي
بتهورك وغيره النساء شقاقاً في العائلة، لا تنسي أن عمك أنيس ابن عم
والدك».

ضحكت بخفة جعلتهم جميعاً مرتبكين متحيرين. ثم تمتمت وهي تهز رأسها: «غيرة؟! أضحكتني».

ثم بهدوء شديد استأذنت بكل أدب قائلة: «عن إذنكم سألملم ملابسي كي أغادر إلى العاصمة إلى بيت والدي».

اغتاظت حماتها من برودها وتعاملها الهادئ مع الموضوع، وكأن حرير هي المنتصرة فهدرت بكلمات متهورة تعبر عن بعض شعورها بالنقص: «ولدي لن يطلقك سبقيك علة هكذا، ما هذا التعالي والأنفة؟!».

ثم تضيف وهي تقلد صوت حرير وتتهمها في الوقت ذاته: «(أغادر إلى العاصمة) وكأنها ترفع علينا بانتمائها للعاصمة».

كان نوفل من هتف ليوقف تمادي أمه وقد أصبح الموضوع خارج نطاق السيطرة: «أمي كفى لم أعد أحتمل».

اكتفت حرير بالقول بكل بساطة قبل أن تترك المطبخ: «أحضر لي سيارة أجرة لو سمحت يا نوفل».

في غرفة نومها التي شاركت نوفل فيها لست سنوات كانت حرير تلملم ملابسها وأغراضها، ما زالت نعمة الهدوء والبرود تمنحها قوة الصمود وتمنع الانهيار، دخل عليها نوفل فينظر إليها قائلاً بتوتر شديد: «حرير بالله

عليك انتظري لتتفاهم».

لم تتوقف حريز عما تفعله بل ترد عليه وهي تطوي ملابسها بعناية: «في قرارة نفسك أنت تعرف هذا الذي سيجري».

بدا نوفل مضحكاً وهو يصصر على أمر يعلم جيداً أنه مستحيل: «نستطيع أن نعيش كلنا معاً».

توقفت عن طي المزيد فالتفتت إليه تسأله (فضولاً): «لماذا؟! لماذا تظن أنني سأقبل بهذا الوضع؟».

رد نوفل بصدق: «لا أريد أن أؤذيك بلقب مطلقة الناس لا ترحم».

على قدر احترامها لصدقه وأنه يحاول مراعاتها بالطريقة التي يظنها صحيحة على قدر إحساسها بالنفور منه ومن افتراضه أنها سترضى بهذا الهوان كي لا تحصل على لقب مطلقة، قالت له بصدق أيضاً: «لم أعد أبالي بالناس يا نوفل دوماً كنت أهتم لما يقوله الناس ليس لأجلي بل لأجل من يهتمونني لأجل أبي عائلتي لأجلك أنت عائلتك لكن كل هذا انتهى لقد دفعت أثماناً باهظة وأنا أظن أنني أحسن صنعا!».

نظر إليها نوفل مطولاً وبدا عليه حيرة شديدة فيسألها بتردد: «بدأت أشعر مؤخراً أنك لم تكوني سعيدة معي أبداً هل شعوري صحيح؟».

فاجأها حقاً لترد عليه وهي تعود لطي ملابسها: «من الغريب أن تطرح

سؤالاً كهذا ونحن على وشك الطلاق».

اقترب منها وهو يسأل بالحاح: «لكن لماذا؟! لماذا لم تكوني سعيدة؟!».

ردت حرير وعيناها تشردان تستعرض ست سنوات من حياتها: «ربما لأنك

لم تطرح السؤال سابقاً لتعرف الإجابة».

ثم عادت بنظراتها إليه لتضيف: «الآن صارت الإجابة بلا قيمة».

وكأنها زادت حيرة ليعبر عن حيرته بالقول: «لم أشعر يوماً بوجود خطأ إلا

في الآونة الأخيرة عندما بدأت أشعر بتغيرك، ظننت أنك راضية لأنني كنت

راضياً، ظننت أن حياتنا حلوة ومستقرة».

فردت عليه وهي تتجه صوب منضدة الزينة لتلم الباقي: «لكنك بتّ غير

راضٍ أيضاً ولم تعد ترى حلاوة حياتنا واستقرارها كافياً لك فحالما داعبت

والدتك خيالك بسد النقص في حياتك وافقتها وقررت أن تتزوج إيناس

وتتخذ بنتيها كابنتين لك».

أكملت حزم أغراضها وهو صامت وعاجز عن منعها وحالما أغلقت

حقيبتها الممتلئة رفعت وجهها إليه وقالت بشجاعة: «طلقني نوفل ست

سنوات ضاعت من حياتي لأنني أخطأت التقدير، ظننت أنني أفعل الصحيح

ظننت أنني أحفظ مقام أبي وكرامة زوجي بصبري وتجلدي؛ لكنني كنت مجرد

فتاة مثالية مغفلة ينقصها النضوج لتفهم أن بعضاً مما نظنه توضحيات ما هو

إلا غباء مطلق».

زم نوفل فمه وهو ينظر إليها فجأة شعر بعظم الأمر الذي تطالبه بتحقيقه ليس عليها فقط بل عليه أيضاً ربما هو ليس رجلاً عاطفياً لكنه تعلق بحريير ست سنوات ليست بالقليلة، ثم طلبت حريير طلباً آخر كأنها تنشد فيه حسن خلقه فقالت: «كل ما أريده منك أن تحفظ سيرتي بين الناس أنت وأهلك فأنا لم أؤذكم في شيء».

ثم تحشرج صوتها وهي تقولها مجدداً وبإصرار: «ارم عليّ اليمين قبل أن أخرج من دارك».

شعرت بتردده شعرت أنه يوشك على تغيير كل الأمور؛ لكن انتهى بالنسبة إليها حتى لو تراجع عن زواجه بإيناس فهي لن تستطيع البقاء في هذا البيت، طال صمته فقالت بنبرة تنخى فيه رجولته: «لو سمحت نوفل إن حملت لي أيّ ود إن كنت تراني صنتك كزوجة صالحة فامنحني حقي بحفظ كرامتي كما حفظت دوماً كرامتك».

تساءل فجأة وهو ينظر إليها: «هل تكرهينني؟».

فردت بمنتهى الصدق وكي تقطع ذاك الخيط الواهي الذي يحاول التمسك به: «لا ولم أحبك أيضاً وطوال ست سنوات حاولت ولم أستطع».

ربما جرحه صدقها لكنه كان كافياً ليعطيها مطلبها قالها بتأثر: «أنت طالق يا حريير».

أنهى عامر مكالمة هاتفية مع شقيقه علي الذي أخبره أنه في طريق العودة إلى العاصمة، وأنه سيكون في البيت خلال أقل من ساعة كما أوصاه أن لا يخبر أحداً ليفاجئهم بعودته وحتى لا يقلقون بانتظار ساعة وصوله، بدا صوت علي أكثر ارتياحاً وهو يكلمه عن رحلته ومكوته لأسابيع بصحبة الجد زيدون، صوته المستريح طمأن عامر رغم أن علي كان يشرد بين الجمل وكأن فكره مشتت، وبينما أنهى عامر المكالمة كان يدخل بسيارته للمرأب، لقد عاد قبل أخيه عمر تاركاً له مهمة إغلاق المحل مع العمال وحالما أطفالاً المحرك خرجت له أمه بتعابير وجه لم ترحه

منذ العرس وهو لا يتكلم إلا نادراً خاصة مع والديه اليوم وهو يكلم علياً كان أطول حوار يجريه مع إنسان منذ أسابيع، تقدمت والدته للباحة بينما عامر يترجل وهو يحاول فهم تعابيرها فلا يفهم منها إلا التوجس، شعر بالتوتر وهو يتساءل: «ماذا هناك أمي؟».

ثم انخطف قلبه ليسأل بقلق: «هل الجدة بخير؟».

حاولت نورجان أن تبتسم لتخفف عنه وهي تقول: «بخير لا تقلق هكذا كلنا بخير؛ لكن هناك خبر علمته للتو من عفاف».

يعقد عامر حاجبيه وهو يتساءل: «أي خبر؟ ماذا قالت الخالة عفاف؟».

ردت نورجان: «حسن في الواقع هو خبر وإشاعة».

بابتسامة ساخرة أغلق عامر باب السيارة وهو يقول: «لا تقولي لي إن
الحاج سليم طلب من الخالة عفاف يد ابنتها صبا من أجلي! والإشاعة أن
عرسنا الأسبوع المقبل».

أخذت نورجان تهز رأسها نفيًا دون أن تجاريه بفكاهته المريرة لتقول
بحذر: «الخبر هو أسعد الجنابي أصيب بنوبة قلبية قبل أيام ونقلوه
للمستشفى».

للحظة تجمد عامر ثم سرعان ما تراخى وهو يتحرك كي يدخل المطبخ
قائلًا: «شافاه الله! لكن ما دخلي أنا بهذا؟!».

أمسكت نورجان ذراع ولدها لتوقفه وهي تقول له بتأن: «هناك إشاعة
سمعتها عفاف في الحي ونقلتها إليّ الإشاعة أنه أصيب بنوبة قلبية متأثرًا
بطلاق ابنته حرير».

قريبًا من ضواحي العاصمة وقبل أن يدخلها أجرى علي مكالمة جديدة
بعد مكالمته لشقيقه عامر مباشرة، هذه المكالمة كان يفكر فيها منذ
أسبوع، استمر الرنين لفترة قبل أن يفتح الخط فبادر علي للتحية: « مساء
الخير سجي».

جاءه صوت سجي الرخيم وهي ترد تحيته: «مساء الخير علي

كيف حالك».

بدت طبيعية وغير طبيعية في الوقت ذاته، رد علي وهو يركز على هدفه أكثر: «الحمد لله بخير أنا في طريق العودة للعاصمة، أوشك أن أصل ضواحيها».

علقت سجي بنبرة عادية هذه المرة: «تصل بالسلامة إن شاء الله».

قال ببعض الدهشة: «غريب أن تكوني الشخص الذي يودعني وأنا أغادر أطراف العاصمة وأول شخص يستقبلني على ضواحيها».

قالت سجي بنبرة دافئة: «أتمنى أن تكون رحلتك جيدة هل استمتعت بها؟».

بدلاً من أن يرد علي سؤالها العادي قال لها: «أريد أن أسألك عن أمر».

صمتت للحظتين قبل أن تقول: «تفضل».

فسأل وهو يدخل شوارع العاصمة: «هل ما زلت تحتفظين بحاسوب هيام؟».

الفصل الحادي عشر

أمسكت نورجان ذراع ولدها لتوقفه وهي تقول له بتأن: «هناك إشاعة سمعتها عفاف في الحي ونقلتها إليّ الإشاعة أنه أصيب بنوبة قلبية متأثراً بطلاق ابنته حرير».

للحظات طوال كان عامر يحدق في وجه أمه القلق ولا يستوعب ما سمعته أذناه منها، فتهبط عيناه لفم أمه يبحث عن قراءة الكلمات من شفيتها وهو يتساءل بنبرة خافتة مشحونة بشكل مخيف: «ماذا قلت؟».

عيناه لا تفارقان فم أمه فيقرأ ردها للمرة الثانية من حركة شفيتها وهذه المرة بتأكيد صريح يقطع احتماليات (الإشاعة): «قلت إن حرير تطلقت من زوجها».

أنفاسه تتسارع وبراكين من المشاعر العجيبة أخذت تقذف حممها في كل أنحاء جسده، بينما يتشبث بقشة تعقل وهو يهز رأسه هامساً بالنبرة نفسها: «لا لا يمكن هذا كذب».

صورة حرير بشعرها القصير وهي تميل لزوجها في قاعة العرس كأنها تأنس بوجوده جعلته يلهث ويتخبط أكثر فيحرك ذراعيه بعنف ليقبض بكفيه على أعلى ذراعي أمه هامساً باختناق: «قبل شهر كانت في العرس معه ألم تريها مثلي؟!».

تعض نونة طرف شفتها تمنع نفسها البكاء وهي ترى عيني ولدها تنطقان بالألم المبرح وعدم التصديق لما يسمعه منها اللحظة، أخذت تهز رأسها بـ(نعم) رداً على سؤاله الذي باح بصميم وجعه؛ لكنها وجدت القدرة لتضارحه بالحقيقة التي مهدتها له.

رفعت كفها لتلامس وجهه بحنان واحتواء فتخبره بما تأكدت منه بنفسها بعد مكالمة عفاف لها: «في الواقع عفاف اتصلت قبل ساعتين لتخبرني وأنا بدوري تأكدت، أجريت اتصالاً مع أم محمود وهي جارة لهم، بيتها ملاصق لبيت أسعد الجنابي ولي علاقة حسنة معها منذ سنوات، كما أنها على علاقة وطيدة بأم حرير لقد أكدت لي أم محمود صحة هذه الإشاعة، حرير عادت بالفعل بعد أسبوع واحد من ذاك العرس الذي رأيناها فيه، عادت إلى بيت أبيها مُطلقة ويبدو أنهم كتموا الخبر عسى أن يحصل صلحاً لكن يبدو أن زوج حرير أعني طليقها سيتزوج ابنة خالته الخميس المقبل».

ما زالت كف أمه تحاوط خده الأيسر، بينما يدها تتشبثان بأعلى ذراعيها وعينيها على اتساعهما يحاول استيعاب ما يسمعه، انتفض كله ونظراته تتجمد ثم نفذ يديه عن أمه ليتحرك بعنف لا لكي يدخل البيت بل لكي يغادره، تلاحقه أمه حتى البوابة وهي تناديه بتوسل وخوف: «إلى أين تذهب عامر.. بني بالله عليك توقف».

كان قد سبقها بخطوات واسعة وهو يسير في الشارع مبتعداً عن أمه

ليقول بتشوش وانتفاضات متعاقبة تهز جسده هزاً: «فقط دعيني أُمي..
فقط دعيني».

لكن أمه مرعوبة ولا تتخيل ما الذي قد يفعله وهو يسير على غير هدى
هكذا في شوارع الحي، يكاد جسده ينفجر انفعالاً فتناديه مجدداً بنبرة
شديدة التوتر: «عامر بُني عد والدك سيصل قريباً، تكلم معه لا تفعل شيئاً
تندم عليه».

عندها استدار إليها وسط الشارع الخالي وهي تبعد عنه قرابة ستة أمتار
ليقول بنبرة غريبة أشاعت توتراً فيها: «لا ندم لا تخافي أُمي».

ثم استدار عائداً لوجهته كي يكمل طريقه سيراً على الأقدام فيختفي مع
ظلمة الحي التي لا تبددها الإضاءات المتفرقة الخافتة لشوارعه، ترفع
نورجان عينيها للسماء هامسة بقلب أم خائفة: «احم أولادي يا رب وخذ
بيدهم».

ذهاباً وإياباً يمر أمام عتبة دار هجر مناجاته منذ ست سنوات ذهاباً وإياباً
يطوف بنيرانه التي تحرق أضلعه، ساعة كاملة مضت وهو يفعل هذا على
طول الشارع الفرعي لبيت أسعد الجنابي وبين نهايتي الشارع من الجانبين
كان يستدير ويعاود الطواف، مع كل خطوة كان يعيد فتح الصفحات من أول
الحكاية دفتر ذكريات صفحاته من حرير ابتدأت صفحته الأولى بلمسة

وانتهت بصدمة، بعينين مفتوحتين كان يقرأ من ذاك الدفتر ما كان يريد
لست سنوات نسيان المكتوب فيه، وآاه من الصفحة الأولى العينان
الناعستان النظرة البريئة المشعة جمالاً نقياً وحياء ربانياً، ينظر ليده اليمنى
ولا يسيطر على ارتجافها أمام عينيه وهو يقرأ ذكرى اللمسة.. لمسة عفوية
منه أراد مساعدتها لتنهض لكنها رفضتها بثبات رغم إصابة كاحلها التي
منعتها الوقوف دون سند، تشنج كله وهو يضم قبضته بقوة لصدره فيجد
نفسه واقفاً مباشرة أمام بوابة البيت المظلم وتتعاقب الصفحات في ذاك
الدفتر بتوهج سريع جنوني حتى وصل لآخر صفحة، لقد انتهى الطواف..
انتهى.

عقد حاجبيه بعزيمة تشتعل في عينيه وهو يحدق في دار أسعد الجنابي
حتى اكتفى ثم مضى سائراً حتى آخر الشارع؛ لكن هذه المرة لم يعد بل قرر
الخروج للشارع العام والاستمرار بالمشي إلى ما شاء الله.

الصباح الباكر في اليوم التالي

خرج عامر من الحمام يلف منشفة حوله وسطه ويجفف شعره بمنشفة
أخرى حول كتفيه، البيت ساكن في هذه الساعة مع الإشراق الأول لشمس
الصباح، الكل نيام وبالنسبة إليه لم ينم إلا ثلاث ساعات فقد عاد في
الساعة الثالثة بعد منتصف الليل فرمى نفسه منهكاً على سريره مغمض

العينين يدّعي أنه لم يشعر بدخول أمه عليه الغرفة لتطمئن عليه، وبعد قبلة ولمسة حانية منها تركته كي يغرق في نوم مظلم خال من أي أحلام، كأن الأحلام لم تجد منفذاً عبر أفكاره المزدحمة المتيقظة، ثلاث ساعات هو كل ما سمح به عقله كي يستسلم جسده لسلطان النوم، استيقظ في السادسة وقرر أن يأخذ حماماً بارداً منعشاً فيومه سيكون طويلاً طويلاً جداً، دخل غرفته وارتدى ملابسه على مهل وعيناه المحمرتان قليلاً متيقظتان تماماً وهو يمشط شعره وينظر لانعكاس وجهه الهادئ في المرآة، انتظر بصبر حتى تمام الساعة ليجري اتصالاً هو بداية المشوار، طال الرنين وهو ينتظر رداً حتى جاءه صوت سيف بنبرة ناعسة فيها بعض التعجب: «مرحباً عامر».

رد عامر بهدوء: «صباح الخير.. سيف أعتذر للاتصال باكراً هكذا؛ لكن هناك أمر يهمني وأريد التحدث مع وفاء حوله لو سمحت قبل خروجي من البيت هل هي مستيقظة؟».

بدا سيف قلقاً وقد تيقظت نبراته وزال أثر النوم فيسأل: «نعم هي تستيقظ باكراً دوماً؛ لكن خيراً إن شاء الله؟! أقلقتنني يا عامر».

رد عامر بهدوء: «عذراً منك يا أبا شهد لا تقلق هو فقط موضوع يهمني معرفة تفاصيله دون انتظار، أنت تعرف أن أم شهد كأخت لي لكن الأصول أن أستأذنك أولاً كي أكلمها خاصة في هذه الساعة».

قال سيف ويبدو أنه يتحرك من مكانه باحثاً عن زوجته: «هي أختك وأكثر سأناديها لك أظنها في المطبخ».

تمتم عامر بالشكر وهو يسمع صوت سيف ينادي زوجته، كان صبوراً لأبعد حد وهو يسمع صوت وفاء تستفسر من المتصل فيوضح لها سيف أن الاتصال من عامر ويريدها في موضوع مهم لا يحتمل التأجيل، مرت لحظات وصبر عامر كأنه فوق رجل يكاد يحترق حتى جاءه صوت وفاء وقد بدت مرتبكة بعض الشيء وهي تلقي التحية بنبرة إرادتها بشوشة: «صباح الخير عامر».

رد بالنبرة الثابتة نفسها: «صباح الخير».

قالت بتوجس واضح: «أقلقتني ماذا..».

لكنه قاطعها ليسأل مباشرة: «متى تطلقت حرير؟».

لا يصدق أنه قالها هكذا ببساطة، نطقها وسألها وصدقها أخيراً بعد ساعات عصيبة مر بها منذ ليلة الأمس، دام صمت وفاء بضع لحظات قبل أن تسأل: «متى علمت؟».

أجابها بثبات أشد: «ليلة الأمس.. ردي على سؤالي لو سمحت».

بدت وفاء مترددة وهي تجيب على سؤاله: «تطلقت منذ شهر».

صورة حرير بشعرها القصير وهي تميل لزوجها كانت حاضرة؛ لكن ثوبها

الفيروزي القديم الذي شهد اعترافه لها بالحب قبل سنوات أخذ يطغى على الصورة فيسأل باختصار وهو ما زال مسيطراً تماماً على نفسه: «لماذا؟».

حاولت وفاء التهرب من الرد فتقول: «عامر ليس من...».

قاطعها عامر مجدداً وبنبرة مصرة قال بمنطقية: «رددي علي وفاء أنا سأعرف في كل الأحوال وقد عرفت الكثير فقط أخبريني الباقي.. لماذا؟».

زفرت وفاء بقوة قبل أن تقول بانفعال متهور: «لأن زوجها النذل قرر أن يتزوج ابنة خالته المطلقة ليربي ابنتيها كابنتين له».

يعقد عامر حاجبيه وهو يتساءل بحثاً عن إجابة أهم: «هل فُرض عليه الزواج منها بضغط من عائلته؟».

فردت وفاء بالانفعال نفسه: «بل هو وعائلته الأنذال من حاولوا فرض الزواج كي تتقبله حرير».

تصلب عامر وهو يقول بصوت مبحوح: «أنت لا تعطين الإجابة التي أريدها أخبريني لماذا حصل لها هذا؟ ألا يوجد رجل آخر في عائلة زوجها كي يتولى أمر المطلقة وابنتيها؟!».

عندها أخبرته وفاء بما لم يخطر بباله على الإطلاق: «زوجها عقيم يا عامر هذه الحقيقة التي أجزم أنك لا تعرفها حتى اللحظة».

اتسعت عينا عامر وهو يتمتم: «عقيم؟!».

ثم يتساءل والضباب ينقشع عن خيالات كثيرة لطالما عذبتة فيجلوها معه: «حرير ليس لديها أطفال؟!».

تنهدت وفاء وهي تؤكد له: «لا ولا أعرف إن كان هذا لسوء الحظ أم لحسنه كي تتخلص من ذاك البارد».

لكن فجأة ثارت ثورة غيرة رعناء شوشت عليه وهو يهتف دون شعوره: «طوال ست سنوات تعيش معه دون أطفال؟! أتجبه لهذه الدرجة؟!».

كان ينهت بينما يسمع رد وفاء الذي أطفاً بعض نيرانه: «بل هي أصيلة لهذه الدرجة».

أجل حرير أصيلة.. أصيلة للغاية! ألا يكفي أنها آذته هكذا فقط كي تكون طوع أبيها؟!

جاء صوت وفاء محملاً ببعض الندم وهي تقول له: «رجاء لا تسألني المزيد أشعر بالذنب لأنني أخبرتك بكل هذا».

فعاتبها عامر بالقول الانفعالي: «ألا تشعرين بالذنب لأنك لم تخبريني منذ شهر كامل أنها تطلقت؟!».

ردت وفاء مبررة: «عامر أرجوك أنت تعرف حرير لا تحب أحداً أن يتكلم بخصوصياتها».

فعلق بسخرية مبررة: «خاصة معي أنا لا تريدني أن أعرف شيئاً عنها».

دافعت وفاء عن صديقتها بالقول: «حاول أن تقدر موقفها إنها في محنة لكنها صلبة وتمضي قدماً».

تمايلت صورتها في مخيلته بثوب فيروزي وشعر طويل طويل يحكي قصة عشق في كل ما امتلك نعومة الحرير، عاد له ثباته وشعت عزيمته الخفية ليسأل بهدوء: «متى سيخرج والدها من المستشفى؟».

ردت وفاء: «يومان وسيغادر لقد خرج من العناية المركزة ليلة أمس؛ لكنه تحت الملاحظة».

فسأل بنبرة غريبة: «هل هي معه؟».

بدت وفاء متوجسة وهي ترد: «نعم لماذا تسأل؟!».

صمت لحظة قبل أن يسأل باختصار: «أي مستشفى؟».

تنهدت وهي تقول اسمه بتوتر: «غامر».

لكنه أصر قائلاً: «أي مستشفى وفاء أنا أستطيع الوصول إليها دون مساعدتك؛ لكن اختصري عليّ الوقت رجاءً».

عندها ذكرته وفاء بأمر شديد الأهمية: «إنها في فترة عدة يا عامر».

فرد عامر ساخراً: «وهل تظنين أنني أخطط للذهاب إليها كي أجراها من يدها إلى المأذون؟».

فتتساءل وفاء: «إذن ما الغاية من ذهابك إلى هناك؟!».

لم يعطها رداً بل عاود السؤال: «اسم المستشفى رجاء».

لكن وفاء لم تمنحه ما أراد بل قالت بتصميم: «أنا لن أخبرك
اعرفه بنفسك».

تقبلها منها عامر بهدوء فأنهى المكالمة قائلاً: «حسناً وفاء.. شكراً لكل
شيء في أمان الله».

حالما أغلق الهاتف رماه على السرير، وبينما يتحرك ليُخرج حذاءه من
أسفل الخزانة دخل عليه أحدهم فيطل عامر من خلف الخزانة ليرى من القادم
ولم يكن إلا أخوه علياً، كان شقيقه الأكبر أقرب لصورته الماضية.

حلق شغره الطويل وأعاد لحيته كاملة لكن مشدبة بأناقة كسابق عهدها،
يلبس منامته القطنية الرمادية البسيطة بعيداً عن ملابس الخروج الداكنة
التي بات يرتديها بالسنوات الأخيرة، التي تُظهره بهيئة لا تشبهه، لولا أثر
ذلك الجرح في جبهته لكان هو علي بنفسه القديمة؛ لكن يؤكد كل هذا في
الظاهر فما زال باطنه يموج بالكثير، ابتسم علي وهو ينظر لشقيقه ويقول:
«أنت أيضاً صحتوا باكراً».

تقدم عامر من علي ليحضنا بعض باشتياق وقد مضى شهر ونصف الشهر
على فراقهما، ثم علق عامر بابتسامة عابرة وهو يبتعد عن أخيه قائلاً:
«تعجبني حلاقة شعرك تليق بك». ابتسم علي وعيناه الخضراوان تلمعان

ببعض الشقاوة: «قلت في نفسي لا بأس من أن أعطيكم بعضاً من (علي) القديم الذي تبحثون عنه كلما نظرتهم في وجهي».

أحنى عامر رأسه ثم أخذ يتحرك في غرفته لبحث عن مفتاح سيارته وهو يقول: «مساءً سنتكلم مطولاً عن علي (القديم) الآن يجب أن أخرج».

تقدم علي وسط الغرفة وعامر ما زال يبحث ليسأله بهدوء ودون مقدمات: «ماذا تنوي أن تفعل؟».

التفت عامر إليه ليقراً المعرفة في عيني أخيه ويقول: «هل أخبرتك نونة؟».

حاول علي أن يجعل رده فكاهياً قائلاً: «أخبرتني؟! بل قل إننا عقدنا مؤتمر قمة لعائلة القماش بل واستدعينا أرواح أجدادنا من سلالة تاج الدين كي نناقش المستجدات الطارئة».

أطرق عامر قليلاً ثم عاد لبحث بين الأغذية المتناثرة عن سلسلة مفاتيحه، بينما يضيف علي بفكاهة طعمها مريراً بعض الشيء: «أعترف أنني كنت سعيداً لتخفيف الإضاءات الكاشفة المسلطة نحوي على الدوام».

أخيراً وجد عامر ما يبحث عنه وبينما يلتقط هاتفه أيضاً سأله علي بجدية: «ماذا تنوي أن تفعل؟».

نظر عامر إليه وهو يرفع حاجبيه قليلاً مدعياً الجهل بمقصد أخيه

فيتساءل: «بماذا؟».

ابتسامة صغيرة من علي قبل أن يقول: «هل تراوغ الآن!».

لم يرد عامر هذه المرة بل تحرك نحو باب الغرفة وقبل أن يغادر كان علي قد قاطع طريقه وأمسك ذراعه قائلاً بتحذير وهو ينظر في عيني عامر الغامضتين: «عامر فكر جيداً قبل أن تخطو أي خطوة، الوضع كله تغير حرير اليوم ليست ذاتها حرير الأمس ست سنوات تفعل الكثير يا أخي».

لم يمنحه عامر فرصة ليتكلم أكثر بالموضوع فاكتمى بالقول: «أنا مستعجل».

لكن علي لم يتركه فيسأله بحاجبين معقودين: «لكن إلى أين ستذهب بهذا الوقت الباكر؟». رد عامر بطريقة مبهمّة: «عندي مشاوير كثيرة أنجزها قبل أن أذهب للمحل».

ثم أفلت ذراعه من إمساك أخيه ويغادر الغرفة؛ لكن علي كان خلفه فيتوجه معه للسلم وهو يسأل: «ستذهب لمحل الكرازة أليس كذلك؟».

رد عامر وهو ينزل أولى الدرجات: «أجل». ثم التفت لعلي يسأله: «هل ستلحق بي لتستلمه مني؟».

هز علي رأسه وهو يرد: «نعم.. لكن أنا أيضاً عندي مشوار.. مشوار واحد قبل أن أذهب للمحل».

علق عامر نهاية الدرج وهو يمضي بخطوات أسرع كي يغادر البيت قبل استيقاظ أحد: «اتفقنا إذن نلتقي لاحقاً».

راقبه علي يغادر ثم اتجه يمينا إلى حيث غرفة جدته فاض بقلبه العاطفي الحنين لرائحتها وعبق كلماتها الأصيلّة الدافئة، ليلة الأمس قبل رأسها بحذر وهي نائمة فلم يُقلق منامها، دخل غرفة جدته فوجدها جالسة على الكرسي الذي تكاد لا تفارقه فتتهلل تعابير وجهها الجنوبي الحلو وتمد ذراعيها نحوه لتبرز تلك (الدقات الزرقاء) وشوم الجمال منذ الصبا على معصميهما، الاشتياق يكاد يوقفها على قدميهما لتهرع إلى حفيدها؛ لكنه يصل إليها قبل أن تقف ليغرق في حضنها والعبرة تخنقه كما تخنقها.

تلثم رأسه بقبلات متلهفة وهي تهمس بحشجة: «علي يا أغلى الأسامي فداك روح جدتك».

يقبل ظاهر يديها ومعصميهما والجدة تشم فيه كأنها تبحث عن عطره الذي أخفاه لسنوات وما زالت تبحث علّها تصل لشمه من جديد، علي يا أغلى الأسامي أصلك يناديك.

من شباك الغرفة في الطابق العلوي المطل على الباحة الأمامية يراقب سليم خروج عامر بسيارته، اقتربت نورجان منه وقد استيقظت للتو فتساءل: «من خرج بهذا الوقت الباكر؟!».

يرد سليم وسيارة عامر تختفي عن ناظريه: «إنه عامر».

فتتخصر نورجان وسط الغرفة وتزم شفيتها باستياء قبل أن تقول: «كيف تتركه يخرج هكذا قبل أن تكلمه؟».

أرعى سليم الستارة على الشباك ثم التفت لزوجته قائلاً بهدوء: «وهل سيسمع مني أو يحاورني؟ من المبكر الاستماع الآن».

تعقد حاجبها وتصر: «على الأقل حاول».

تحرك سليم متوجهاً لباب الغرفة وهو يقول بتفكير عملي: «لا فائدة فليعينه الله على ما هو فيه، أنا ذاهب لأصبح على الحاجة أم سليم». أوقفته نورجان وهي تحت خطاها نحوه تستبق خطواته لتبدو مضطربة بعض الشيء وهي تبوح لزوجها ببعض الأفكار التي أقلقته منامها ليلة أمس: «سليم أعلم أنني أستبق الأمور؛ لكن ماذا إذا أراد عامر الزواج من حرير؟ هل ستوافق؟».

ارتفع حاجبا سليم قليلاً ليسألها بدورها: «وهل ستفرضين؟».

تعبس في وجهه وهي تقول حانقة: «لماذا ترد على السؤال بسؤال؟!».

بنظرة لمّاحة رد عليها: «كلا السؤالين وجهان لعملة واحدة».

تبادلا النظر للحظة قبل أن تقول نورجان بنوع من الحيرة التي تعكس أفكارها كأم: «لكنها مطلقة يا سليم، ولا أعني التقليل من شأنها لكن

تجربتها قاسية كما أتصور، فلماذا يتورط عامر بتعقيدات كهذه؟!».

فرد ببداهة: «لأنه متورط من الأساس متشبع بورطته حتى جذوره».

ثم تبسم مضيفاً: «ثم أظنك كنت تقترحين قبل أيام (توريط) فتاة مع علي كي تعيد إليه روحه».

بدت اللحظة حائقة منه مرتبكة من صحة منطقه وقد خذلتها الحجة أمامه: «أنا.. أنا..».

يرفع كفه ليربت على خدها ضاحكاً بطريقة تغيظها ثم قال مشاكساً: «أعلم ما أنت فيه يا نونة تحبين أولادك بجنون وقد اقتبسوا من جنونك هذا كأني أنجبت نسخاً ذكورية منك يحملون لهيب عواطفك».

دفعت كفه بعيداً عن خدها وبدت عيناها تشعان وهي ترد على مشاكسته بقوة: «لا ترمي بالذنب علي أمك تقول إنهم جنوبيون عاطفيون، إنها جيناتكم يا آل تاج الدين، شمس الجنوب الحارقة أذابت عقولكم».

يمنحها تلك الابتسامة الخلافة التي أوقعتها في هواه منذ ثلاثة وثلاثين عاماً ثم قال: «مقبول منك الوصف يا شمالية».

مد يده كي يفتح الباب فتوقفه مجدداً وهذه المرة شعث عيناها بلوعة قلب الأم فيها لتقول له بنبرة عتاب: «هل ستذهب هكذا وتتركني مع قلقي على أولادي؟».

رد سليم بحكمة: «الحياة لا تتوقف عند أولادك يا نونة».

فهمت بانفعال: «حياتي أنا تتوقف عندهم». يتبسم مجدداً ثم يميل ليلثم خدها مداعباً بمشاكسة جديدة: «هل أنت متأكدة أنك لا تنتمين للجنوب؟».

ابتعدت خطوة حادة للخلف تعبر عن استيائها منه فتتخير وهي ترد عليه بحق: «اذهب لأمك يا سليم.. اليوم تبدو رائعاً وأنا مزاجي متوتر للغاية».

فتح الباب أخيراً لكنه قال قبل أن يغادر: «كما قلت لك الحياة مستمرة رغم ما يحصل مع أولادنا دعيهم يسبحوا ضد التيار ما فاز إلا المقاوم، وأولادك رجال بحق».

ثم رمقها بنظرة حلوة قبل أن يضيف مداعباً: «رغم ضربة الشمس الجنوبية».

في المستشفى

على كرسي بلاستيكي أزرق ضيق مرصوص ضمن مجموعة كراس متشابهة تجلس حير وهي تراقب الحركة القليلة في المستشفى هذا الصباح، عامل النظافة يمسح الأرضية أطباء مجهدون يغادرون وقد انتهت خفارتهم الليلية، ممرضة على كرسي بعيد أخذتها غفوة، موظفة الاستقبال تجلس وهي ترتشف قهوتها قبل أن يبدأ نهار العمل الحقيقي، آه كم تحتاج

لفنجان قهوة ثقيل علّه يخفف من صداعها هذا، مالت بجذعها للأمام وهي تطوي ذراعيها فوق ركبتيها فتتخذهما كوسادة ترتكز عليها بجبينها وهي تغمض عينيها.

منذ أيام وهي ترافق أباه في المستشفى لا تفارقه، لم تستطع العودة للبيت على الإطلاق حتى يخرج من الإنعاش وحتى بعد خروجه ليلة الأمس لم تستطع تركه رغم إلحاح أمها بينما أخويها سدير وخلدون لا يبدون أي قدرة على تحمل مسؤولية! هذه المحنة التي مرت بها كشفت لها الصدع الكبير الذي يحدث في عائلتها، صدع كانت بعيدة عنه لست سنوات

ربما تتفهم سدير وطبيعتها شديدة الرقة والتأثر؛ لكن ما صدمها هو خلدون هذا الفتى الذي بلغ الخامسة عشرة لا يملك أدنى ثقة بنفسه مهزوز يتجنب أي موقف يحتاج منه لإبداء رأي أو التصرف كم أوجعها ارتبأكه كم أوجعها رؤيته يشعر بالذنب لأنه يخاف فعل أي شيء، همست في سرها: «سامحك الله يا أبي».

عليها أن تساعدهم يكفيها تخاذل أمها ولن تستطيع تغييرها وقد اعتادت هذا الدور السلبي؛ لكن سدير وخلدون ما زالا صغيرين وما زالت هناك فرصة لتحاول مساعدتهما وتقويتهما، الأسابيع التي قضتها مع عائلتها بعد طلاقها كشفت لها نوع الحياة المتوترة تحت حكم أب صارم مسح شخصية أبنائه وسلبهم الثقة بالنفس والقدرة على التعاطي بإيجابية في المواقف

الصعبة، حتى عندما عادت إليهم مطلقة لم يتفاعلوا معها، ربما أمها ظلت تلطم الخدين لكن سرعان ما نهرها الأب وزجرها بعنف أن تتوقف ثم ببساطة مغيظة اعتبر الأمر مجرد خصام زوجين سيعودان لبعضهما بكل تأكيد عندما تصفو النفوس، لأسابيع وهو يتخذ موقف المتجاهل لجدية الحدث لأسابيع وهو لا يفعل شيئاً على الإطلاق إلا التكلم عن نوفل بطريقة طبيعية كأن شيئاً لم يحدث؛ لكنه لم يخدعها منذ اللحظة الأولى عندما أخبرتهم باختصار أنها تطلقت من نوفل؛ لأنه قرر الزواج من إيناس ليحظى منها بنعمة الأولاد لم يقل أباهما إلا بضع كلمات (هو خصام وسيُحل بإذن الله) لكن فضحته تلك الكسرة في عينيه ويداريها عنها، تلك الحسرة وهو يراها شابة ابنة الثامنة والعشرين وقد عادت لبيت أبيها خالية الوفاض، كلما رن الهاتف كان يسارع مستبشراً ثم يبتئس في صمت عندما تخذله هوية المتصل فلا يكون نوفل أو والده أنيس كما تأمل هو، كم أشفقت عليه حرير أرادت أن تخبزه أنها لن تعود لنوفل حتى لو ألغى مشروع زواجه من إيناس؛ لكنه ظل يتبع أسلوب التجاهل، حتى جاء الأسبوع الأخير وقد مضى شهر كامل ولم يتصل به أحد لا نوفل ولا أحد من أهله، أصبح عصبياً للغاية متوتراً ويسلط كل توتره على حرير وكأنها هي السبب! لم تكن تغادر الدار وتكتفي بمساعدة أختها في قبول الجامعات، كما كانت تحضر بضمنت كي تستقر حالها في بيت أبيها مجدداً وبدأت بنقل أوراقها إلى مدرسة ثانوية قريبة على أطراف حيهم وهذا ما فجر توتر أبيها عندما خرجت في يوم دون

أن تستشيرَه لتكمل أوراق اعتمادها في تلك المدرسة، وعند عودتها وجدت البيت كله وكأنه على فوهة بركان كان خامداً لأسابيع وها قد حان وقت انفجاره، كان والدها يصرخ بعنف حتى اهتزت أركان البيت: «أستغفليني يا حبيبتي! هل تظنين أنني أصبحت عجوزاً أم تظنين أنك كبرت عليّ؟!».

كانت المواجهة التي انتظرتها منذ لحظة عودتها مطلقة، وتحمد الله أنها تأخرت لتلك الأسابيع كي تستعيد استقرارها وتتقبل الوضع الجديد الذي هي فيه، في البداية حاولت أن تكون هادئة وهي ترد عليه: «هلا شرحت لي ماذا فعلت كي تغضب هكذا يا أبي؟!».

فقال باهتياج وهو ينظر لملف الأوراق الذي ما زالت تحمله منذ دخولها للبيت: «هل صحيح أنك نقلت أوراق تعيينك إلى المدرسة الثانوية في الحي؟!».

ردت بالهدوء والثبات نفسيهما: «أجل أبي.. صحيح والد وفاء ساعدني كثيراً ببعض علاقاته في وزارة التربية».

فصرخ مجدداً: «وأنا آخر من يعلم!».

لمحت أختها سدير ملتصقة بالحائط رعباً، بينما خلدون شاحب إلى درجة مخيفة وهو متسمر مكانه، أما أمها فكعادتها تكتفي بالطم بكمها على خدها ولا يتجرأ فمها على النطق، حتى تلك اللحظة كانت حبيب تبذل كل طاقتها للاحتواء غضب أبيها، موقف عجيب أن تكون هي أحوجهم للاحتواء

لكنها لا تملك إلا أن تمنحه لهم! قالت بثبات: «لم أعتقد أنني يجب أن أخبرك بأمر متوقع كهذا، المدارس ستستأنف خلال أسبوعين ومن الطبيعي أن أنتقل لمدرسة جديدة في العاصمة».

كانت العروق في صدغي والدها بارزة ووجهه محتقن انفعالاً، بينما يده ترتجف وهو يشوح ناحيتها وقد كان في حالة تجاهل للوضع الحقيقي وإصرار على فكرته الخيالية: «أنت تعجلت كثيراً لكننا نستطيع إصلاح الأمر».

لم تستوعب مقصد والدها حتى وعقلها يفهم ما يرمي إليه فتساءل بانفعال مكبوت: «أي أمر؟».

بتلك الحالة الرهيبة التي كان بها أسعد الجنابي يكابر ويعاند بالقول الصارم: «أن تعود لمدرستك القديمة».

كانت مشدوهة وهي تتساءل: «عفواً أبي يبدو أن عقلي أصابه التبدل، لماذا أعود لمدرستي القديمة في البلدة وأنا أسكن هنا في العاصمة؟!».

فرد وأنفاسه تتسارع انفعالاً لاهثاً: «لأنك ستعودين لبيتك لزوجك».

ثم يشوح بكلمتي كفيه بعنف مضيفاً وكأنه يلقي باللائمة عليها فيما يحصل: «أنا تركتك لأسابيع حتى تترتاحي وتنسي ما حصل؛ لكن يبدو أنك ما زلت غير ناضجة كي تتصرفي بحكمة».

ثم تحرك بعنف أشد نحو الهاتف هادراً: «أنا سأكلّم نوفل وأطلب منه إلغاء فكرة زواجه السخيفة من ابنة خالته وأن يعيدك لعصمته كفى من لعب الأطفال هذا».

شعرت حرير أن عينيها توشكان على الخروج من محجريهما وهي تراقب أباهما يرفع الهاتف ولسانها يتمتم بانفجار وشيك: «لعب أطفال؟!».

تعترف حرير أنها هي نفسها فقدت قدرتها على التمييز فلم تتنبه لحالة والدها المتفاقمة وقد فقدت كل هدوئها لتهدر بانفعال منفلت غير مسبوق: «دعني أخبرك عن بعض (لعب الأطفال) أخت نوفل اتصلت بي بالأمس وهي تظن أنها ستقهرني وتذلني عندما توصل إلى خبر عرس أخيها يوم الخميس أي بعد أسبوع بالضبط وليس هذا فحسب بل توصل إليّ أن باقي أغراضي ستصلني مع سائق شاحنة! ما رأيك بهذا الإذلال لابنتك؟! هل يكفيك أم تريد المحاولة مجدداً كي تذلني أكثر».

دمعت غينا حرير وهي تتذكر وجه أبيها تلك اللحظة قبل أن يميل ليقع بجسده مغشياً عليه، تعاير وجهه نفسها يوم وفاة أختها هدير، أخذت حرير تبكي بصمت وهي محنية هكذا تخفي وجهها عن أعين رواد وعاملي المستشفى القليلين من حولها، لم تشعر بمن جلس جوارها قبل أقل من دقيقة.. لم تشعر بمن يحدق فيها في انحنائها الكسير هذا، بدت لعينيها هزيلة مرهقة وعندما بدأت البكاء بتلك الطريقة التي تبدو غير مكشوفة إلا

لمن يراقب عن كثب مثله، شعر عامر بروحه تهوي للقاع، أي إحساس لعين متناقض ينتابه اللحظة، تقبضت يداه في جلسته المتشنجة جوارها وهو يعيش تناقضاته لا يريد حتى أن يفكر بما يشعر اللحظة فينتصر على ذاته ليتمتم في سره: «الصبر.. الصبر يا عامر». فجأة أخذت تتحرك من جلستها المحنية هذه فتتسارع أنفاسه رغماً عنه وهي تستقيم بجذعها ببطء، بينما تمتد يدها لتفك عقال شعرها المعقود كذيل حصان، تنهيدة أخفاها بإحكام وحرير شعرها يغطي وجهها ويبدو أن هذا كان مقصدها لتخفي بكاءها الصامت الذي لم يشعر به أحد سواه، تمالك ورسم الهدوء بعناية على وجهه قبل أن يقول بنبرة عادية: «هل والدك بخير اليوم؟».

أجفلت بعنف شاهقة وهي تستدير بجسدها جانباً إليه تحقق فيه بعينيها الناعستين فينبض قلبه نبضة بطيئة قاتلة؛ لكنه يقتل تلك النبضة المنفلتة قبل أن تقتله.

طال تحديقها فيه وكأنها تشك أنها في حلم رؤيته جالساً جوارها مباشرة أم ربما تظنه كابوساً! كان صلباً كي يظل ناظراً إليها بهدوء هكذا ويتشبث بتلك الحدود التي تمنعه عنها، عندما تأكدت أنها في واقع قالت دون مقدمات: «ما الذي تفعله هنا؟!».

رد بالنبرة العادية نفسها: «أؤدي واجباً نحو جار آسف لم أعرف بالخبر إلا ليلة الأمس من بعض سكان الحي».

هبت واقفة على قدميها وهي تقول بخشونة: «شكراً لك أبي سيكون بألف خير، نوبة خفيفة ومرت بسلام يمكنك المغادرة الآن».

لم يتحرك من جلسته بل استرخى أكثر وهو يرفع رأسه لينظر إليها قائلاً: «متى سيخرج؟».

تعقد حاجبيها وينظرة صاعقة واجهته بالقول: «عامر ما نوع اللعبة التي تلعبها الآن؟!».

نطقها باسمه جعل عينيه تلمعان تراجعت للخلف كأنها تصده لأبعد من الحدود التي تفصلهما، وقف على قدميه ليقول بنظرة خفت التماعها: «أنا لم أَلعب معك قبل ست سنوات لألعب معك اليوم وأنت تعرفيني في هذا». عيناها عدائيتان تدفعانه وعيناه هادئتان تخفيان الكثير، أضاف بعد لحظات: «جئت فقط لأرى إن كنت بحاجة لشيء، صدقي هذا أو لا تصدقي».

تعقد حاجبيها وهي تسأله: «لا أحد من الجيران يعرف في أي مستشفى نقلنا أبي فمن أخبرك؟».

يرخي أهدابه قليلاً ثم يقول ببساطة: «بحثت في ثلاث مستشفيات هي الأقرب لحينا قبل أن أجذك جالسة هنا فلم أحتج لسؤال موظفة الاستقبال إن كان والدك مريضاً عندهم».

تقدمت منه لتواجهه وقد قرأت معرفته بطلاقها في عينيه، لم يكن سيحضر لو لم يعرف قالت بوجهها المتعب رغم صلابتها في محاولة ردعه:

«أتركني في حالي يا عامر يكفي ما حصل في المرة السابقة».

تذكر جملة وفاء عنها صباح ليوم (إنها في محنة لكنها صلبة وتمضي قدماً) لكنه اكتفى بالقول: «سيأتي وقت أنسب وبتكلم ونتحاسب».

تعقد حاجبيها ويتجدد جبينها الناعم ترد عليه بقوة وصمود وهي تشير بسبابتها نحوه: «أنت لا تحاسبني على شيء لم يكن بيننا شيء لتحاسبني».

لن يكون بشراً إن منع نفسه اللحظة من الإحساس بجمالها، تلك النعومة الساحرة في قوة خفية مبهرة إنه الحرير، لحظات فقط أفلتت منه قبل أن يحكم سيطرته ليقول بصوت خافت: «كم أنت مخطئة».

ثم التقط نظارته الشمسية المعلقة بجيب قميصه فيلبسها ويضيف: «حمداً لله على سلامة والدك ومهما ظننت بي فأنا موجود لأي خدمة».

تبسم أخيراً ببرود ثم مضى مغادراً تاركاً إياها خلفه، تركها تحديق بظهره حتى اختفى وباختفائه عن ناظريها اكتشفت حرير كم كان جسدها متوتراً متشنجاً حد الألم، أجبرت نفسها على التراخي ثم عادت للجلوس على الكرسي نفسه وهي تحديق أمامها في الفراغ فجأة اكتشفت أن صداعها تلاشى!

في المرأب العمومي القريب من المستشفى ووسط ضوضاء الناس من حوله يجلس عامر في سيارته منعزلاً عن كل شيء يحاول السيطرة على تضارب مشاعره العنيفة، أصابعه ترتفع تكاد تصل مكان قلبه تتلمس نبضاً لم يكن ولن يكون إلا لها؛ لكنه يمتنع ويضم أصابعه لباطن كفه يمنعها التماذي، شغل محرك السيارة وغادر المرأب وأفكار كثيرة تدور في رأسه.

(«هل ما زلت تحتفظين بحاسوب هيام؟»).

الحاسوب على الكرسي المجاور لها في سيارتها وأصابعها تنقر برتابة فوق المقود بانتظار وصول علي، سؤاله البارحة ظلت كلماته تدور في رأسها وقضت مضجعها طوال الليل، لوقت طويل ظلت سجي تحضر نفسها لهذا الموقف كانت تعلم أن أحدهم سيطلب حاسوب هيام عاجلاً أم آجلاً، وعلي كان الأكثر ترشيحاً ليطالب به؛ لكنها تعترف بعد مرور ست سنوات ظنت أن علي لن يفعلها بل رجحت أنه نسي الأمر برمته لذلك صدمها حين فاجأها ليلة الأمس بطلبه فلم يكن أمامها إلا أن تتفق معه على هذا الموعد في الصباح كي تسلمه له بعيداً عن مرأى عمها رياض وخالتها نبراس.

نظرت للحاسوب المغلق وعاودها إحساس الغضب نفسه ورغبة الثأر تذكرت سجي كيف أنها بعد عام كامل من وفاة ابنة خالتها قررت فتح هذا الحاسوب الذي كان آخر ما لمستته هيام قبل رحلتها الأخيرة إلى حتفها، لا

تعرف كيف تذكرته في ذاك الوقت ربما كان شوقاً منها وربما كانت مواجهة لتقبل رحيلها المؤلم وغيابها الأبدى عن الدنيا، وأول الألم كان في كلمة السر التي اختارتها هيام للحاسوب فبعد عدة محاولات جربت فيها سجي أسماء وتواريخ متنوعة نجحت في النهاية بمعرفة كلمة السر التي كانت آخر تخميناتها على الإطلاق، نقرات على زجاج نافذتها جعلتها تجفل لتلتفت وترى عن قرب وجهه الأسمر الباسم وتصطدم بخضرة عينيه، شعره الحليق ولحيته المشذبة، قميصه الأبيض الناصع أبرز سمرته الجنوبية أكثر فتذكرته أيام الجامعة، في لحظة وهي تتطلع إليه مخطوفة القلب والروح تسربت همسة دعاء من بين شفثيها أن يعينها الله على وأد هذه المشاعر التي ظنتها اضمحلت أو على الأقل باتت تحت سيطرة محكمة مدفونة في القاع، استحضرت صورة هيام من مخيلتها لعلها تتقوى بها بل وتمنت لو تظهر هيام من العدم لتقصيها عن الاقتراب من علي كما فعلت دوماً وهي حية ليتها تفعل المثل وهي ميتة، ما يهون على سجي أن هيام لم تكتشف يوماً مشاعر ابنة خالتها لعل، كانت تغار عليه من كل النساء وسجي واحدة منهن مجرد واحدة ليس أكثر فهيام كانت أقل قدرة على الإحساس بمشاعر الآخرين.

لوح علي بيده بابتسامة هادئة عبر زجاج الشباك ثم بسلاسة فتح لها الباب قائلاً بهدوء: «صباح الخير».

تجاهلت دعوته الواضحة كي تترجل وبدلاً من ذلك تميل جانباً لتلتقط

الحاسوب وهي تقول بهذر: «صباح الخير علي أحضرت لك الحاسوب كما طلبت مني».

هي في جلستها على مقعد السائق تمد كفيها بالحاسوب نحوه، بينما علي يقف عند بابها المفتوح ينظر للجهاز الرمادي وقد جفت ابتسامته، بعد لحظات طالت كانت سجي تسمع دقات قلبها كالطبل يقرع في أذنيها وهي تراقب جموده المؤلم أوشكت أن تقول له أي كلام يشجعه عندما رفع نظراته لعينيها فجأة وسأل بهدوء: «هل تناولت الإفطار؟».

لم تتوقع ما قاله فارتبكت وهي ترد: «لا أقصد.. نعم في الواقع أنا لا أفطر فقط فنجان شاي وقطعة بسكويت».

أشار بكفه في دعوة وهو يبعد نظراته عنها وعن الحاسوب: «تعالى هناك مقهى قريب». حاولت الرفض وكل نداء داخلها يأمرها الابتعاد: «لكن يجب أن أعود».

التفت إليها بوجهه ليقول بنبرة مؤثرة جعلتها تشعر وكأنه مد كفه ليمسك قلبها بقبضته: «وأنا يجب أن أفطر ولن أفطر بمفردي، جدي عودني مشاركته الإفطار يومياً».

لقد فعلها مجدداً وسدد كلمات يظنها هو عشوائية، بينما في واقع الحال تصيب قلبها وتجعله ينتفض في صدرها من الدفء الذي تحمله، لديه قدرة أن يكون طفلاً يطلب الدلال بقمة نضوج الرجل فيه هذا ما أوقعها فيه من

البداية، طريقته الخاصة في الكلام مع الناس وكأنه يتفاعل بحميمية عالية ليضفي دفئاً حناناً مودةً تعلقاً عطاءً، ظنّها مترددة حرجاً من الجلوس معه في مكان عام فحثّها بالقول: «هيا سجي أنت كأخت لي وقد أحتاج لسؤالك عن بعض الأشياء وأنا أفتح الحاسوب أعدك لن أؤخرك كثيراً».

هزت رأسها وهي تتمتم: «حاضر».

وبينما تميل لتأخذ حقيبتها قال لها: «ناوليني الحاسوب من فضلك لأحمله».

أعطته له وهذه المرة أخذه دون جمود أو تردد وعندما ترجلت من السيارة عيناه وقعتا عفويّاً على قميصها الأزرق بلون سماء الصيف الصافية فيعقد حاجبيه قليلاً وينظرة محترفة مُقيمة قال بإعجاب مهنيّ: «درجة الزرقة في قميصك نادرة في الأقمشة تليق بك كما أن خامة القماش ممتازة، ليست لدينا منها في محلاتنا هل اشتريتِ القميص جاهزاً؟».

توترت للغاية وشعرت أنها تختنق بينما تتحرك لتستدير كي تغلق الباب وهي تقول بنبرة ثابتة باردة بعض الشيء: «لا القماش هدية وأنا من فصلته وخيطته».

ارتفع حاجبا علي قليلاً وللمرة الثانية يشعر بالغرابة من سجي فيتساءل في نفسه: «لماذا تتوتر مني هكذا أحياناً؟».

في المقهى قررت سجي أن تتصرف بتماسك أكبر وتتجاوز سخافة توترها الذي يكاد يفضحها أمامه، تقبلت بهدوء تام وابتهامة مجاملة أن يطلب طعام الإفطار له ولها إفطار بسيط لا يتعد الشاي وشطائر باردة، ارتاحت للغاية وهي تعود لطبيعتها الهادئة المتأنية، وأن تتعامل مع علي كما تتعامل مع الجميع بثقة ولطف وحدود فاصلة، أما علي فقد اندمج بكلامه عن رحلته للشمال ورفقته لجده العجوز هناك، بينما تستمع له سجي بقدرة مميزة على الفصل بين المشاعر قالت بصدق وهو يطلب فنجان قهوة له ولها: «تبدو أفضل بكثير».

هز رأسه وهو يلتقط غلبة السجائر التي وضعها على الطاولة عند جلوسهم: «شكراً». ثم أخرج سيجارة وهو يستأذنها عفويًا: «هل تمانعين إذا دخنت سيجارة؟».

وضع السيجارة في فمه وكان يبحث عن قداحته في جيبه عندما فاجأته بالرد: «نعم أمانع».

نظر إليها متفاجئًا والسيجارة معلقة بشفتيه لتضيف بتلك النبرة التي تميزها ولها سحر الطاعة لمن يسمعها: «لا أحب رائحتها كما أنها تضر بك».

أبعد السيجارة عن فمه لكنه أبقاها بين إصبعيه دون أن يشعلها ليقول بابتسامة صغيرة ونظرة شاردة: «الآن بدأت أفهم لماذا كانت هيام تمنحك

للمرة الأولى يتنبه علي لجمال عينيها وتلك النظرة الملوكية فيها وهي ترد بابتسامة متسامحة: «كانت تراني مملة».

تهل عليه الذكريات لتفتح أبواباً جديدة، حواراته القديمة مع هيام يبحث بينها عن كلام محدد يخص سجي فلا يجد إلا القليل؛ لكن القليل أحياناً يفصح عن الكثير، قال وكأنه يستكشف الأمر مع سجي: «لم تكن تتحدث عنك كثيراً؛ لكن مؤكد لم تعطني انطباعاً مملأً لكن على العكس عندما أفكر الآن أراه إعجاباً خفياً بشخصك ب...».

صمت فجأة وصوت هيام يرن في أذنيه من الماضي بذاك السؤال المباشر الذي طرحته عليه يوماً وأثارت دهشته وعدم ارتياحه.

(ما رأيك كرجل بسجي؟ هل تراها جميلة؟)

لا يعلم لماذا شعر وقتها أن السؤال من هيام كان جدياً ملحاً بطريقة مزعجة، والآن يفكر أنها كانت بالفعل تريد أن تعرف كيف ينظر لسجي من باب الغيرة وليس باب الفضول كأبي حوار عادي بين زوجين يفترض تربطهما علاقة صداقة وحب وثقة، سألته سجي ببعض القلق: «هل أنت بخير؟».

وجد نفسه دون تفكير ينظر (نظرة رجل) إلى سجي! حنطية البشرة تميل للبياض واسعة العينين للغاية بكحل يكاد يقسم أنه رباني حاجبها مقوسان كجناحين يحتضنان رسمة عينيها الواسعتين وقوة نظرتها وثقتها بنفسها، فم

كبير بعض الشيء بشفتين ممتلئتين، شعرها الطويل المربوط للخلف يبرز استدارة وجهها البياضوي وارتفاع وجنتيها، شعرها لوحده فتنة حالك السواد كظلام ليل بهيم استعاد رؤيته تلك الليلة حين حصل الشجار في المطعم ووصف مؤيد في أذنيه (شعرها طويل متموج) وكأن الأمواج ترسمها مخيلته اللحظة دون أن يعتمد التخيل، دفء يتدفق في أوصاله وهو ينظر إليها كامرأة جميلة جذابة للغاية.. جذابة كمغناطيس.

«علي! بالله عليك ماذا هناك؟! تبدو مصدوماً تكلم معي أرجوك».

نفض رأسه بقوة وأتب نفسه مذهولاً لتماديه الغريب، شعر بعدم الارتياح وهو يجلس معها هكذا وأفكاره ذهبت باتجاهات مُعيبة في حق أخلاقه ومبادئه، إنها بمثابة أخت وهي تجلس باطمئنان معه وكأنه يخون ثقته بتفصيله لجمالها ومواضع جاذبيتها كامرأة، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم بينما يبحث مجدداً عن قداحته حتى وجدها ليشعل السيجارة وهو يعتذر دون أن ينظر لسجى: «آسف أحتاج إليها اللحظة».

ثم أبقى السيجارة المشتعلة بين شفتيه ليمد يديه ويسحب الحاسوب الملقى على كرسي ثالث جوارهما قائلاً بنبرة متوترة: «هلا نفتح الحاسوب الآن؟ لقد أخرتك بما يكفي».

سمع صوتها متعاطفاً وهي ترد عليه: «مؤكد هل تريد أن أضع كلمة السر؟».

أغاظته لأنها فسرت تصرفه الأخير توتراً بسبب ذكرى هيام فتبدي هذا التعاطف بنبرة صوتها الرخيم، رفع نظراته إليها وهو يبعد سيجارته عن فمه بعد أن أخذ نفساً لينفث الدخان باتجاه بعيد عنها ثم عاد إليها قائلاً بجمود رداً على عرضها: «بل أريدك أن تخبريني بكلمة السر لأضعها بنفسي».

ردت بهدوء ونظرة مبهمة غير مفهومة: «سجى ١٨١٠».

يعقد حاجبته متسائلاً بدهشة عفوية: «اختارت اسمك؟».

لتقول سجى: «وتاريخ ميلادي».

رغماً عنه تبسم ثم استرخى وهو يعود للحوار الأول: «ألم أقل لك إنها معجبة بك». فتهاز كتفيها وترخي أهدابها قائلة: «أو اختارت آخر ما يمكن تخمينه ككلمة سر، فأنا لم أكن يوماً من أولوياتها».

راقبها للحظة قبل أن يعيد تركيزه للحاسوب ليضع كلمة السر وهو يسأل بعفوية: «هل مسحت شيئاً؟».

نبرة صوتها كان فيها بعض التوتر وهي ترد بنوع من المراوغة: «بخوثها وملفاتنا كلها موجودة كما هي».

تطلع علي لخلفية شاشة الحاسوب كانت الخلفية نفسها التي يذكرها.. مشهد الغروب، حدق للحظات طوال في الشاشة وعيناه تجربان على ما فيها وكأنه يلقي السلام على روح رحلت ولم تورث أحباءها إلا ذكرى الأكنم،

ابتلع ريقه وأصابه تتحرك كي يضغط ليفتح المتصفح الأول الذي كانت تستخدمه هيام ويجرب البحث فيه وفتح صفحة الفيسبوك فيعبس! ثم يفتح متصفحاً آخر ليزداد عبوسه وهو يجرب فيه أيضاً لكن لا شيء، رفع نظراته لسجى فيراها تنظر إليه مستعدة للسؤال في عينيه فينطق لسانه ذاك السؤال بنبرة منفعة: «هل أجريت تنظيفاً للحاسوب؟».

ردت بشجاعة ومواجهة: «نعم».

برقت عيناه وهو يغلق الحاسوب ويسأل: «لماذا؟».

لم ترد عليه فأضاف بانفعال متزايد: «لقد حذفت كل التاريخ للمتصفحات التي كانت تستخدمها ومن ضمنها حسابات الفيسبوك وبياناتها المحفوظة، لن نستطيع الدخول إليها من جديد لماذا فعلت هذا؟!».

سألت بشبات استفزه أكثر: «ماذا تريد بالضبط يا علي؟».

أطفاً السيجارة بعنف في المنفضة قبل أن يقول بعصبية واضحة: «أريد أن أعرف كل ما تعرفينه أنت ومسحته من حاسوبها لئلا تمنعي أي إنسان آخر معرفته».

ما زالت تحافظ على هدوئها ورباطة جأشها وكأنها تفعل هذا دون مجهود يذكر! لتسأل بمواجهة وعيناها في عينيه: «هل تبحث عن مخرج من شعورك بالذنب أم تبحث عما يعمق هذا الشعور؟!».

تذكر كلاهما في اللحظة نفسها الحوار القديم بينهما في حياة هيام عندما اتصل علي بسجى يسألها عما إذا كانت تعرف شيئاً عن هيام ومع من تتواصل عبر الإنترنت ويؤثر فيها، رد بانفعال وهو يعود للحاضر: «لا أدري ربما لو وجدت ما أردت معرفته في هذا الحاسوب اللعين لكنت استطعت الإجابة؛ لكنك سلبت مني هذا الحق واحتفظت به لنفسك فقط».

شابكت كفيها على الطاولة أمامها لتسأل باستعداد كامل: «ماذا تريد أن تعرف؟».

زم شفتيه قبل أن يقول باختصار: «نور علي».

تذكرت سجى إحدى المحادثات التي قرأتها وكانت تهدد هيام بفضحها من امرأة نسبت اسمها، فهل نفذت تلك المرأة تهديدها؟ وإلى أي حد يعرف علي؟ وماذا أخبروه؟ وهل صارحته هيام؟

كانت المواجهة مع علي صعبة؛ لكن سجى متماسكة لقد تحملت المسؤولية بحذف هذا التاريخ المهين لهيام ولم تكن سجى لتسمح لأي إنسان أن يطلع على عذابات ابنة خالتها أو أن يعرف تصرفاتها المخزية، لا أحد سيقدر حالتها ويستوعب مرضها، يكفي هيام ما عانتته وهي حية لقد فقدت حياتها في سبيل أن لا ينظر إليها أي إنسان يعرفها بانتقاص، ولأجل ذلك فسجى ليست نادمة على الإطلاق لحذفها كل هذا إلى غير رجعة، بالطبع لم تحذف إلا بعد أن أخذت بثأر هيام منهم جميعاً كل الذين يقبعون

خلف الشابات يستقوون بأقنعتهم التي تخفيهم ويستهيئون بمشاعر البشر وأرواحهم، بهذه الإرادة ردت سجي على علي: «نور علي فتاة مريضة أسيء إليها بكل الطريق الممكنة على مواقع التواصل، مجموعات على الفيسبوك في ظاهرها (تحالف نسوي) كالسم في العسل لعبن علي الوتر الحساس وغذّين شكوكها المرضية حولك أنت لا تعرف ما يحصل هناك ولا أريد أن أصف لك الدور الحقيقي والحقير الذي يلعبه في تدمير راحة بال أي إنسان».

خرجت الكلمات من فمه صعبة محملة بكثير من الألم: «أنا أعرف أنها أنزلت منشوراً عني هناك أنزلت صورتي تسأل إن كنت أخونها مع إحداهن».

كان يجب أن تجد سجي طريقة لتفصل مشاعرهما عن علي وهيام معاً، أن تكون حيادية تماماً بينهما وكأنها تحضر مواجهة بينهما حتى وهيام غائبة عن هذه المواجهة لكنها حاضرة بأفعالها، قالت سجي بتحكم كامل بالنفس وصدق حقيقي: «لم أقرأ منشورها هذا فيبدو أنها حذفته؛ لكنني علمت به وخمنت فحواه من المراسلات التي كانت تردها».

شحب علي وهو يسأل بخفوت: «هل راسلها الكثيرون؟».

ردت وهي تقاوم أن تدمع عيناها: «بما يكفي ليشيروا جنون أكبر عاقل!».

هتف بعنف: «هل خدعوها؟ هل آذوها؟».

بعض رواد المقهى القليلين التفتوا إليهما فمالت سجي قليلاً للأمام لتقول

بنبرة احتواء: «اهدأ علي أنت تريد المعرفة فيجب أن تهدأ لتتحملها وتتقبلها
كما تقبلتها أنا».

نظر في عينيها ليعيد السؤال بنظرات ثابتة قوية: «هل آذوها؟».

ردت وهي تعود لتستقيم بجذعها: «نعم آذوها كثيراً وقد لا تصدق أن أكثر
من آذاها فتيات مراهقات في السابعة عشرة تلاعبن بأعصابها فمنحتهن
أسرارها وهي تتوسل العلاج متخفية بهويتها المزيفة، بينما تظن الطرف
الآخر (طبيبة متخصصة) ! أخبرتهم تفاصيل مؤلمة عن معاناتها نفسياً وحتى
جسدياً».

اتسعت عينا علي مصدوماً وهو يهمس مفجوعاً: «رباه! لكن كيف عرفت
أنهن فتيات مراهقات يخدعنها؟!».

قسوة أطلت من عينيها وهي تقول بغضب متجدد لم تظهره يوماً لأحد منذ
وفاة هيام: «إحداهن أشفقت عليها وصارحتها بالحقيقة، أخبرتها أنهن مجرد
ثلاث فتيات في السابعة عشرة ضجن من الدراسة فتسلين على حسابها
وهن يتناوين الحوار معها من حسابات مختلفة وهمية! وددت لو أعرف
أسماءهن الحقيقية لأطرق أبواب بيوتهن واحدة تلو الأخرى لأعلمهن دروساً
قاسية في الحياة! لكن يكفيهن ما نلن مني على الفيسبوك».

ينظر إليها علي ويشعر بانعكاس غضبه في عينيها، للمرة الأولى ينتابه
هذا الغضب ليس من نفسه ليس من هيام بل من كل من دفع حالتها لتسوء

عن استهانة رعناء أو تعمد مريض.

رن هاتف سجي فقطع ذاك الجو المشترك بالغضب الذي جمعهما لتفتح
سجي الخط وترد ببعض الارتباك وهي تنظر لعلي: «صباح الخير عماه لا
تقلق أنا بخير سأعود بعد قليل التقيت بصديقة فقط وأفطرنا سوية».

ثم ودعت العم رياض لتقف على قدميها وتلتقط حقيبتها قائلة لعلي
باعتذار: «أسفة علي يجب أن أرحل الآن».

أشار لها بهدوء وهو يقف أيضاً: «خذي الحاسوب معك».

فاستغربت وهي تنظر إليه باستفهام لتتساءل: «ألن تحتفظ به؟!».

رد وهو ينظر إليها مطولاً: «احتفظي به أنت لأجلي».

انتقلت نظراتها إلى الحاسوب على الطاولة فأخذته بصمت وتحركت برفقة
علي ليغادرا المقهى بعد أن دفع الحساب، أوصلها حتى سيارتها وبينما
يغلق لها الباب بعد جلوسها في مقعد السائق قال لها: «قد أتصل بك فيما
بعد هل يضايقك هذا؟».

تطلعت إليه تجذبها للحظة خاطفة لمعة السلسلة الفضية في رقبته
فيعاودها التوتر العاطفي لتدير وجهها بعيداً وهي ترد على عجل: «مؤكد لن
يضايقني فقط...».

تساءل علي بعد صمتها «فقط ماذا؟» عادت لتنظر إليه وتقول برجاء:

«عدني أنك لن تخبر عمي رياض وخالتي نبراس عن موضوع (نور علي)».

أرخی أجفانه ليقول كأنه يقايضها: «إذا وعدتني أنك ستردين دوماً على أسئلتني مهما كانت».

دون تردد منحه الوعد: «أعدك أقسم لك سأرد على أي شيء ولن أكذب عليك».

اكتفى بأن يطرق قليلاً برأسه مع ابتسامة باهتة وهو يهمس: «سأذكرك بهذا دوماً في أمان الله».

ثم ابتعد عن سيارتها ليمنحها حرية الذهاب أخيراً فلوحت بيدها ثم حركت سيارتها بسلاسة وعينا علي تراقبان قيادتها بإعجاب عفوي، سار على مهل متجهاً إلى المكان الذي أوقف فيه سيارته بينما يشعر أن طريقه ما زال طويلاً ليصل.

منتصف النهار

محل القماش.. الفرع الثاني.. المنصور

انتظر عمر أن يفرغ عامر من الزبونة التي يتعامل معها قبل أن يقترب منه ليقول بنظرة تفحص: «لماذا لا تأخذ استراحة؟».

أخذ عامر يلف القماش بحركة شبه حادة، بينما يرد على أخيه الأصغر

ببعض الخشونة: «وهل سمعتني أشتكي من التعب؟».

تجاوز عمر فظاظة أخيه معه ليقول: «بل أراك بنصف تركيزك مع الزبائن، عقلك مجهود بشكل واضح لتخطئ أكثر من مرة بفهم طلب الزبونات وهذا لم يحصل معك من قبل».

رفع عامر نظراته يتطلع لأخيه للحظات قبل أن يعود لترتيب باقي لفات القماش، ماذا يقول له؟! أيخبره أن يده ترتجف كلما لامست قماش (حرير) تطلبه زبونة؟ أيقول له إن قلبه كغريق انتشلوه للتو من عرض البحر فوجدوا أن ما زال فيه بعض النفس؟! أيقول له إنه صباح اليوم لم يكن عادياً ولا يمر مرور الكرام بين الصباحات الأخرى في حياته، إنه الصباح الذي اقترب منها كثيراً جلس جوارها كلمها وكلمته، ورغم ألمه المبرح ورغم تصديها له فإن الألفة بينهما لا تصدق، لقد شعر وكأنه تركها فقط لساعة من الزمن وعاد إليها لا فارقها لست سنوات قلبت سنين عمره الثلاثين من أولها لآخرها، أيقول له إنه خائف! مرعوب فما زال هناك شهران آخران من الانتظار.

«بالله عليك ماذا يدور برأسك؟!».

صوت عمر القلق جعله يزيح هذه الأفكار المجنونة ليقول بمراوغة: «لا داعٍ لكل هذا القلق أنا فقط مشغول بأمور العمل، الحاج سليم يخطط لإنشاء مصنع الألبسة الجاهزة، كما أفكر بعلي هل تظن أنه سيُجيد إدارة محل الكرازة أشعر أنه...».

قاطعه عمر قائلاً بفكاهة: «دع علي لشأنه مؤكد هو عاد من الشمال بتركيز أفضل مما أراه فيك حالياً، يبدو أننا آل القماش مبتلون بالتناوب بينكما أنت وعلي، فمتى سيأتي دوري أنا؟!». «

يضحك عامر بخفة وهو يرخي نظراته للفة القماش في يده يعيد ترتيبها، وعندما انتهى رفع رأسه ليقول فجأة: «تعال لنأكل بعض المثلجات».

ابتسم عمر وهو يحرك حاجبيه قائلاً: «هيا».

تحتاج لكثير من السكر حتى ترفع مستوى طاقتها، مقابلة العمل في المصرف كانت مزربة حقاً، ستستغرب إن قبلوها كموظفة هناك؛ لكن لا يهم.

نظرت رونا هي إلى عامل المثلجات لتطلب منه إضافة المزيد من الشكولاتة البسائحة وكأنها تقدم على عملية انتحارية وكيف لا تكون عملية انتحارية بالسعرات الحرارية التي ستضيفها بكامل إرادتها إلى جسدها الذي ينعم بالكثير منها، قدمها العامل لها فأخذتها بسعادة تلقائية لتخرج من المحل بفرحتها نفسها عندما كان والدها رحمه الله يشتري لها المثلجات وهي طفلة، كل ذكرياتها عن والدها الحبيب تضج بسعادة الأطفال لقد كان يحقق لهما هي وبسمة كل ما تشتهيانه دون أن يُفُرط بإفسادهما، له طريقة عجيبة ليشعرهما بلذة امتلاك أبسط الأمور وهو يمنع عنهما أموراً أخرى.

على الرصيف قبالة محل المثلجات الشهير دفعت نظارتها للخلف وهي تنظر لللافتة العصرية التي تثبت اسم المحل، تخرج لسانها لتلتهم من المثلجات فتלטخ أنفها دون أن تشعر أو تهتم، بينما تتذكر تعلقها الطفولي باللافتة القديمة لارتباطها بذكريات لا يخبو جمالها، تنهدت وهي تتمنى من قلبها: «ليتهم يقبلونني في ذاك المصرف التعس فقط كي آتي كل يوم لأكل المثلجات من هنا»

من حيث لا تدري دفعها من الخلف ولدان يركضان وينطحان كأنهما ثورين هائجين، وكان جل اهتمامها لحظتها أن تمسك مثلجاتها الغالية كي لا تقع أرضاً فلم تحسب حساب نظارتها التي طارت لتقع منها في مكان ما، فجأة اختفت معالم المكان من حولها، هلع تلقائي جعلها تفقد سيطرتها وهي تتلفت يميناً وشمالاً تبحث بعجز عن نظارتها، كان هذا أسوأ كوابيسها، كل شيء حولها غير واضح لا حدود ولا تفاصيل تدلها، شعرت بالجزع وهي تهتف: «نظارتي.. نظارتي».

تضيّق عينيها تحاول أن تحدد أي هيئة على الأرض تشبه هيئة نظارتها، فجأة شعرت بالغضب والناس تسير ذهاباً وإياباً دون أن يفكر أحد بمساعدتها، استعادت السيطرة لتمسك بمثلجاتها بإحكام كأنها مشعل أولمبياد وترفع يدها الأخرى للأعلى كأنها ستدلي ببيان مهم وهي تفتح عينيها على وسعهما تأبى تضيقهما بتركيز في محاولة فاشلة لتمييز الوجوه من حولها ثم قالت بنبرة مهددة: «الكل يقف مكانه ولا يتحرك قسماً بالله

إن كسر أجلكم نظارتي قبل أن أجدها أو تجدني سأرتكب جناية».

تسمع صوت ضحك لكنها تقف شامخة وتنتظر الفرج وقد شعرت بتحرك البعض لبحث لها عن النظارة، وأخيراً اقترب منها وجه لم تميز فيه بالبداية إلا أنه رجل لكن باقترابه الشديد منها عرفت هويته وصوته الكاظمي يقول لها: «تفضلي نظارتك يا آنسة.. إنها سليمة معافاة وكفى الله الناس شر من يرتكبون جناية».

هل يمكن أن تطلب من الجميع غلق أذانهم كي تشتم كما تشتهي؟! بإحباط كلي وقلب جبان يقرع في صدرها عاجزاً عن المواجهة بانتظام نبض طبيعي كباقي البشر وضعت روناها النظارة على وجهها لتظهر لها معالم وجه عمر القماش وهو ينظر إليها مبتسماً، تمتمت بتكشيرة وهي تركز على أسنانها غيظاً منه ومن نفسها ومن الموقف برمته: «لحسن حظك أنها سليمة معافاة».

ثم تحركت بخطواتها النارية وتنورتها السوداء الضيقة تحدد مدى اتساع تلك الخطوات لتزيد غيظها أكثر وأكثر، انفجر عامر ضاحكاً من قلبه حتى دمعت عيناه، بينما عمر يضحك بخفة وهو يراقب ابتعاد الفتاة المجنونة، قال عامر منفرج الأسارير وهو يمسح طرف عينه: «أقسم بالله هذه الفتاة قنبلة ضحك متحركة، تنفجر في وجهك دون أي سابق توقيت سألاحقها أينما تذهب ومعني دبوس وكلما شعرت بحاجة للضحك الحقيقي سأنفزها

كي تنفجر هكذا، هل رأيت لطخة الشكولاتة على أنفها؟».

رد عمر بخفوت وكأنه يكلم نفسه: «انشغلت برؤية عينيها».

مساء

يقشر سليم التفاحة بالسكين وهو يرمي بنظرات جانبية إلى زوجته التي تجلس جواره على الأريكة ويحاول تخمين ما يدور برأسها ويجعلها تحقق هكذا في التلفاز بذهن مغيب، فلا تتابع حقاً أحداث حلقة اليوم من مسلسلها المفضل، قطع التفاحة إلى نصفين فيمد يده بصمت أمام وجهها ليقدم لها نصفها، تنبهت له فأخذت نصف التفاحة والتفت إليه تنظر في عينيه بصمت ليقول سليم: «لا أحب صمتك أفضلك ترعدين وتكادين تحطمين الجدران فوق رؤوسنا».

للحظة التمعت الشرارة المألوفة في عينيها لكن سرعان ما خبت وهي تقول بتهيدة: «أنا لا أكف عن التفكير يا سليم منذ حوارنا في الصباح وأنا أحاول أن أفكر بشكل منطقي ومنصف».

قضم سليم من النصف الذي عنده وهو يسأل بهدوء: «والى ماذا توصلت؟».

ردت بتركيز وهي عفواً تقضم من نصف التفاحة: «المرأة ليست كالرجل

إنها حساسة أكثر بكثير، خاصة في مجتمعنا المحافظ الذي يحاوط الفتيات بالحماية، لذلك أي فتاة تتزوج تتعلق تلقائياً برجلها الأول ولا أقصد الحب أقصد ذاك الترابط الخفي وهي تجرب معنى التقارب الحميمي لأول مرة مع رجل وحرير كانت متزوجة لست سنوات».

قضم سليم مجدداً وهو يقول بهدوء: «تكلمي وماذا بعد».

أكملت وهي تبوح بكل ما يجول بخاطرهما: «في الصباح قلت لي إني كنت أريد توريط فتاة لتخرج علي مما هو فيه، بينما لا أقبل المثل لحرير وبغض النظر أننا لا نعرف شيئاً عن حكاية حرير مع زوجها، أعني طليقها لكنني كلما فكرت في المقارنة مع علي وجدت الأمر مختلفاً ولا يتسق، الرجل يستطيع تقبل امرأة جديدة في حياته بسهولة نوعاً ما ليس لديه حاجز نفسي؛ لأنه يميل لغريزته أما المرأة فيتكون لديها حاجز يصعب عليها أن تتقبل رجلاً جديداً في حياتها لأنها تميل بمشاعرها وجزء من هذه المشاعر هو ما تعودت عليه في مجتمعنا، أن المرأة يجب أن تكون لرجل واحد».

ظل سليم صامتاً كأنه يقلب كلمات زوجته في رأسه لتضيف نورجان: «أنا طبعاً لا أنكر على النساء أن يُعدن تجربة الزواج من رجل آخر بعد فشل تجربتهن الأولى أنا أقول فقط إن الأمر أصعب على المرأة مما هو على الرجل».

وضع سليم ما تبقى من نصف تفاحته في فمه ليقول بتفكير وهو يمضغ

بتأنٍ: «لو كان لديك فتاة وتقدم لها رجل كعلي لكنت عقدت مقارنة معكوسة يا نورجان ولكن حوارنا هذا انقلبت أدواره هل كنت ستقولين الرجل هو قائد البيت وإذا كان معتلاً في روحه سيفسد البنيان وإن رجلاً سبق له الزواج سيظل يعقد المقارنات بين زوجته الأولى والثانية؟».

ثم نظر إليها وهي تقضم من تفاحتها بشرود ليضيف: «وبلغة مجتمعنا كنت سترفضينه ولن تتقبلينه زوجاً لابنتك التي لم يسبق لها الزواج لأنك تريدنها الأولى في حياة رجلها».

ثم يوسع دائرة الافتراضات قائلاً: «ولو كان لديك فتاة كحريز وكان نصيبها الطلاق بعد ست سنوات لكنت تمنيت لها زوجاً كعامر يصونها ولوجدت الأمر منطقياً للغاية كتعويض لها تستحقه بعد تجربة فاشلة».

ثم يضيف ما يمثل خلاصة الأمر لكل شيء يحدث في الحياة ويحدد آراء البشر واتجاه أفكارهم: «الأمر كله يتعلق بهوى أنفسنا أنانيتنا مخاوفنا، هذا المثلث هو منبع تصرفاتنا».

عبست في وجهه فيمد يده ليأخذ منها ما تبقى من نصف تفاحتها السارح في يدها ليقربه من شفيتها في دعوة رقيقة لتأكل وهو يقول معترفاً: «هل تظنين أنني لا أفكر مثلك؟! ينتابني كل هذا وأكثر لكنني أتأني وأصبر لأقيم الأمور من كل أوجهها، أنتظر المشاعر الأولية تهدأ وتأخذ وقتها لتستقر، فترة العدة لحريز ستكون أكثر من كافية لنستقر جميعاً بأفكارنا ومشاعرنا،

ومن يدري ماذا سيحدث فنحن لا نعرف حقاً ما يجري مع الفتاة، فربما تعود لزوجها قبل انقضاء عدتها، وأظن عامر أكثر من مدرك لهذه النقطة فيحتاج هو الآخر الصبر وتوقع كل شيء».

منحها ابتسامته التي تذيب جليد عنادها فتلتقط بفمها باقي التفاحة من بين أصابعه ليضيف سليم بنبرة خاصة: «مؤخراً فقط أدركت مشاعر عامر بالضبط أعترف أنني انشغلت عنه بحال علي، ولم أقيّم مشاعره بشكل صحيح نحو حرير خاصة وهو لا يفصح لا قولاً ولا فعلاً».

تخايل لسليم وجه ولده عامر في مرأب قاعة العرس قبل أكثر من شهر فأضاف بلهجته الجنوبية: «عامر عاشق يا نورجان ذاك العشق قديم العهد قبل حضارة البشرية وتمدنهم ليبحثوا عن الأسباب والمعطيات عشق لا يقرأ ولا يكتب، أمي جاهل لا يعرف أبجدية المنطق عشق لا يحتاج لعشر سنوات كي يبني الارتباط المتين إنه تألف فوري من قلب نحو قلب، عطية من رب القلوب لبعض البشر، قد يكون فيه سعادتهم وقد يكون فيه ابتلاؤهم».

سالت دمة على خد نورجان تأثراً من كلام زوجها وأوجعها قلبها أيما وجع على فلذة كبدها لتقول بحسرة: «لا أريده أن يكون مبتلى أريده سعيداً يا سليم».

مد سليم يده ليمسح دمعته ويقول بصوت عذب: «عامر سألني قبل شهر ماذا لو أنك لم تُصيري على الزواج مني وزوجك من غيري فأخبرته أنني كنت

رضيت بقسمتي وكونت عائلة مع امرأة أخرى اكتفي معها بالسكن والمودة؛
لكني أخفيت عنه أنني كنت سأحمل عذاب خسارتك إلى قبري».

مالت إليه نورجان فيحتضنها سليم بين ذراعيه ثم فجأة تأوه متوجعاً وهي
تقرصه في صدره بخشونة وتقول بعصبية: «إذن كنت ستتزوج امرأة أخرى
وتنجب منها أيها الخائن المدعي، كم طفلاً مثل أولادي كنت تنوي؟! قسماً
بالله لن أسامحك».

أخذ سليم يضحك بينما نورجان تحاول التملص من حضنه وهو
يأبى إفلاتها.

المستشفى

دخلت حرير على أبيها الغرفة فوجدته نائماً، قبل ساعتين غادرت أمها مع
أخويها وقد أصرت حرير مجدداً أنها من ستبقى برفقة أبيها ولن تغادر
المستشفى إلا معه، أمها بدت مجهدة أكثر منها ربما هي ليست أمّاً مثالية
لكنها تؤكد زوجة مثالية حسب مقاييس (أسعد الجنابي)، ومن ضمن هذه
المقاييس الصعبة أن تُبدي السمع والطاعة على الدوام ولا تخرج عن المسار
المحدد، وهذا كلفها الكثير... كلفها أن لا تأخذ إلا دوراً سلبيّاً في حياة
أولادها وربما ببساطة هذه قناعتها بإعطاء حرية التصرف المطلق للزوج دون
إبداء رأي أو سعي لنقاش أو حتى محاولة لإسناد أولادها ولو بنصيحة سرية

خوفاً أن لا تأتي النصيحة على هوى الأب.

تنهدت حرير وهي تتقدم من سرير والدها المستكين في إغفائه، جلست على الكرسي المجاور لسريره ثم مدت يدها لتحتضن كفه وترفعه لفمها تلثمه وأخيراً ضمت الكف لصدرها بحذر كي لا تزعج نومه، بينما تنظر لوجهه المرهق وتهمس له: «لماذا أنت صامت هكذا أبي حتى عندما فتحت عينيك نظرت إليّ نظرة أوجعت قلبي عليك قبل أن تخبئها مني وتدعي رغبتك بالعودة للنوم». تحشرج همسها وهي تناجيه: «هل تظنني لا أحبك؟! أنت مخطئ أنا أحبك جداً وعندي كلام كثير أقوله لك لا تحزن لأجلي أو تتحسر على حظي من الدنيا فهذا يؤذيني أكثر، ليتني فقط أستطيع أن أجد وسيلة كي أجعلك تفهم أنني بحاجة لتسندني كي أقف لتدعمني كي أواجه أحتاجك أن تتركني أقرر حياتي وأحدد دروبي وقد أضعت سنوات أسير في درب حياة لم يكن لي».

تميل حرير لتعيد كف والدها إلى جانبه ثم تتوسد بخدها ظاهر ذاك الكف الهزيل، شعرت بالتعب وبحاجة ماسة للنوم فغفت من فورها ولم تسمع صوت الباب يفتح قليلاً ليطل منه وجه عامر فتخطف أنفاسه بوجهها النائم على كف أبيها، ثم انقبض قلبه وهو يراها تتشبث بكف والدها هكذا كأنها تطلب عفوه، هل يمكن لحرير أن تعود لطليقها فقط كي ترضي أباهما أتفعلها من جديد؟!

خوفاً أن لا تأتي النصيحة على هوى الأب.

تنهدت حريز وهي تتقدم من سرير والدها المستكين في إغفائه، جلست على الكرسي المجاور لسريره ثم مدت يدها لتحتضن كفه وترفعه لفمها تلثمه وأخيراً ضمت الكف لصدرها بحذر كي لا تزعج نومه، بينما تنظر لوجهه المرهق وتهمس له: «لماذا أنت صامت هكذا أبي حتى عندما فتحت عينيك نظرت إليّ نظرة أوجعت قلبي عليك قبل أن تخبئها مني وتدعي رغبتك بالعودة للنوم». تحشرج همسها وهي تناجيه: «هل تظنني لا أحبك؟! أنت مخطئ أنا أحبك جداً وعندي كلام كثير أقوله لك لا تحزن لأجلي أو تتحسر على حظي من الدنيا فهذا يؤذيني أكثر، ليتني فقط أستطيع أن أجد وسيلة كي أجعلك تفهم أنني بحاجتك لتسندني كي أقف لتدعمني كي أواجه أحتاجك أن تتركني أقرر حياتي وأحدد دروبي وقد أضعت سنوات أسير في درب حياة لم يكن لي».

تميل حريز لتعيد كف والدها إلى جانبه ثم تتوسد بخدها ظاهر ذاك الكف الهزيل، شعرت بالتعب وبحاجة ماسة للنوم فغفت من فورها ولم تسمع صوت الباب يفتح قليلاً ليطل منه وجه عامر فتخطف أنفاسه بوجهها النائم على كف أبيها، ثم انقبض قلبه وهو يراها تتشبث بكف والدها هكذا كأنها تطلب عفوه، هل يمكن لحريز أن تعود لطليقها فقط كي ترضي أباهاً أتفعلها

من جديد؟!

أعاد غلق الباب دون إصدار صوت ثم انسحب من المستشفى دون أن يشعر به أحد، سيظل هكذا يحوم في صمت ويراقب في وجل فليقولوا عنه معتوهاً مجنوناً أو حتى غبي أحمق؛ لكنه لن يستطيع التوقف.

أغلق العم رياض الهاتف ليلتفت ناحية سجي فتخفي قلق قلبها وارتجافه بين أضلعها، بينما تحاول الابتسام لوجه عمها قائلة: «هل سيأتي للعشاء؟».

يهز العم رياض رأسه وهو يقول ببعض الشرود: «نعم سيأتي غداً في الساعة الثامنة».

ثم نظر إليها بتوتر مضيفاً بصوت خافت: «أنا قلق على نبراس ومنها! قلق من تعلقها الشديد بضرورة رؤية علي والتواصل معه أن يجعلها تحمّل المسكين فوق طاقته، هل تظنين أنني أحسن صنعاً بهذا التقارب الذي أسعى إليه؟».

كم ودت أن تخبره أنك تحسن صنعاً للجميع إلا إياها، ربما هذا سيساعد خالتها ويساعد علي أيضاً لكن هي سجي من سيساعدها كي تحتمل التعامل معه بشكل طبيعي؟! كل هذا أخفته بسلاسة كما اعتادت طيلة حياتها أن تخفي مشاعرها ولا تثقل بها على أحد منذ لحظة يتمها وهي ابنة السابعة، قد اعتادت هذا الإخفاء وتقبلته كقدر، رسمت ابتسامة حانية وهي

تطمئن من تعتبره أباً حقيقياً لها قائلة: «أنت تفعل خيراً بخالتي وبعلي هو أيضاً يحتاج أن يشارك المقربين من هيام حزنهم عليها، فربما هذه المشاركة تحرر الآلام وتترك أصحابها يستعيدون راحة أنفسهم». وكأنها وجدت هي الأخرى بعضاً يسيراً من (راحة النفس) لأنها خفت عن عمها رياض الذي تبسم لها بحنو ثم ربت على خدها قبل أن يتحرك للسلم كي يذهب لغرفة اعتكافه.

تلاشت الابتسامات من على وجهها لترتبك عيناها الواسعتان وهي تنثر نظراتهما المتوترة فيما حولها، لسنوات كانت راضية بحياتها وقسمتها، لقد استقرت وكانت سعيدة بعملها ومستقبلها المهني ورغم فاجعة موت هيام استطاعت أن تظل قوية وتسند العم رياض والخالة نبراس وتكون لهما عوضاً، كل هذا كان مريحاً جداً لها كي تشعر أنها تبذل طاقتها في المكان الصحيح بل في مكانين أساسيين في حياتها، في بر من تعتبرهما والدين وفي عملها الذي تفخر به، لذلك كانت ترفض الزواج ربما جزء مهم من رفضها لأنها لم تلتقِ برجل يحرك عاطفتها بعد علي، ولم تكن تستطيع الزواج بطريقة تقليدية؛ لكن حقاً هي سعيدة راضية بحياتها هكذا أو كانت سعيدة! فمنذ عودة علي للصورة واكتشافها المقلق أنها ما زالت تتأثر به وهي تترجح تحت ضغط لا يُوصف، زعزع راحة نفسها وخلخل من استقرار حياتها التي ارتضتها.

أغمضت عينيها ورفعت يدها لفمها كأنها تكتم آهة عاطفية وهي تتذكر

نظرة علي العابرة لقميمصها عندما وصفه بعين (قماش) محترف؛ لكن
كلمتين علقتا برأسها أو ربما بقلبها (يليق بك).

كان إطرأ عفوياً قد يقوله عشرات المرات لعشرات النساء من زبونات
في المحل؛ لكنه لا يعني شيئاً على الإطلاق فكيف تقنع قلبها بهذا كي لا
يتأثر؟! كيف؟!

الفصل الثاني عشر

آخر الليل

في غرفة عامر يتمدد علي جوار أخيه علي السرير وكلاهما يحدقان بالسقف، صمت تأمل قلق هواجس، قال علي فجأة: «سأذهب غداً إلى بيت العم رياض مدعو عندهم للعشاء».

بصدمة أخرجت عامر من هواجسه التفت لينظر إلى علي ويقول: «بيت العم رياض؟! متى أتت هذه الدعوة؟! ظننتك منقطع عنهم منذ الحادث».

رد علي وهو يطوي ذراعه أسفل رأسه وما زال يحدق في السقف: «نعم كنت منقطعاً لكن حصلت صدفة قدرية لاألتقي بسجى في تلك الليلة قبل سفري للشمال وأوصلتها للبيت». يعقد عامر حاجبيه وهو يتساءل: «لم تتكلم عن هذا بوقتها هل حصل الشجار بسبب ذهابك إلى هناك؟!».

رد علي ضاحكاً بخفة: «ذكرتني بنونة عندما أخبرتها ما بالكم تتخيلون أنني سأدخل عراكاً مع رجل عجوز كالعم رياض؟!».

يعلق عامر باستغراب: «حسن هو ليس عجوزاً كما تصفه إنه من عمر الحاج سليم تقريباً ولا أظن الحاج سيكون سعيداً بوصفك له كـ(عجوز)».

غامت خضرة عيني علي وهو يقول: «ليتك تراه كيف غداً اليوم عجوزاً نحيلاً بجلباب أبيض ولحية مלאها الشيب عيناه اختفى منهما بريق الدنيا

وكان زهد في كل شيء».

ارتفع حاجبا عامر وهو يتمتم بعجب: «العم رياض بجلباب أبيض ولحية مشيبة؟! كان متأنقا للغاية عصري المظهر كأنه يملك روح شاب مقبل على الحياة».

نبض من شعور الذنب يتسلل إلى قلب علي فيكافح ضده كأنه يقاوم تياراً عنيفاً ثم يرد على أخيه ببعض التماسك: «يبدو أن فقدان هيام سلبه هذا الإقبال الذي تصفه».

يضيق عامر عينيه ليقول بصلافة: «إياك أن تفكر الآن أنك السبب فيما آلت إليه حالته يكفيك ما تحمل نفسك لتحملها المزيد».

رد علي ببعض التشتت: «لا أدري حتى اللحظة كيف يجب أن أتعامل معهم العم رياض يصر على إعادة الوصل بيننا وأنا...».

سرحت كلمات علي عندما سرحت أفكاره

(«أو اختارت آخر ما يمكن تخمينه ككلمة سرفانا لم أكن يوماً من أولوياتها»).

كلمات سجي بصوتها الرخيم تسلفت بغرابة إلى أفكاره الحالية المشتتة وجد نفسه يفكر فيها ويستغرب جملتها.

«بماذا سرحت يا علي؟!».

سؤال شقيقه أعاد له تركيزه بالحاضر ليلتفت إليه ويدير دفعة الحديث لمنطقة أخرى فيسأل وهو ينظر لوجه عامر بجدية: «هل فكرت بما قلته لك صباحاً عن وضع حرير الجديد؟».

بهدهوء قال عامر: «هل تظن أن أي وضع جديد لحرير سيجعل جوهرها يتغير؟».

رد علي بسؤال فضتولي: «وما جوهرها؟».

ارتعشت ابتسامة على فم عامر وشعت عيناه وصورة وجهها تتجلى أمامه ملفوفاً بالحرير: «ما زلت أذكر كلمات أبي عن الحرير وأنا ابن الحادية عشرة يصف الأقمشة لنا كأنه يتغزل قماش الحرير لا ينكمش ولديه قوة التحمل رغم رقيقته؛ لكنه يحتاج لعناية خاصة بالتعامل كي لا يفسد نسيجه ولا ينطفئ بهاؤه وسيظل دوماً غالي الثمن».

يطوي عامر أصابع يده اليمنى يضغط بها بخفة في باطن كفه مضيفاً برجفة صوت: «هذا هو جوهر حريرتي الذي لن يتغير اسم على مسمى امرأة حرة أبية وناعمة قوية كالحرير».

رغم تأثر علي بحالة أخيه فإنه لم يملك إلا أن يقول بتوجس: «عامر لا تنس أنها ما زالت في فترة عدة وأنت لا تعلم فيما تعود لزوجها».

تصلبت ملامح عامر وتلاشى ضغط أصابعه في راحة كفه ليقول وهو يواجه هذا الاحتمال القائم: «لم أنس يا علي أنا لم أنس شيئاً على الإطلاق

ولا أدري إن كنت أتمنى النسيان». يعقد علي حاجبيه قليلاً وهو يتساءل:
«ما الذي قد تتمنى نسيانه؟ هل تقصد أن تنساها؟».

رد عامر وعيناه تشعان بالغضب هذه المرة: «بل أنسى الألم الذي عشته
لست سنوات كل ليلة يا علي كان يهاجمني بلا أي رحمة ويقطع أوصالي
حتى أكاد أفقد أنفاسي».

ثم أغمض عامر عينيه ولم يصف الميزيد بينما علي يتطلع إليه بانبهار ثم
يقول بتهيدة ليعاود التحديق للسقف: «يبدو أن ست سنوات من حياتنا مرت
وكل واحد منا يقف وحيداً على جبل من الألم جبل مقفر لا ونيس ولا
أنيس».

ثم يعقد حاجبيه ويضيف: «لكننا اخترنا هذا أليس كذلك؟ حتى ونحن
نشعر أننا مجبورون عليه لكننا اخترناه».

فيتمتم عامر وهو مغمض العينين: «نعم اخترناه حيث لا منطق
في الخيار».

يقلّب عمر في المنشورات على الفيسبوك تارة ثم على الانستغرام تارة
أخرى شارد التركيز لكن بذهن مندهش وابتسامة سارحة على شفثيه لا يفتأ
يتذكر عينا حلوتان وأنف ملطخ بالشكولاتة شغلت عقله هذه الطفلة
الغاضبة بشعلة الأولمبياد المتقدة التي تحملها على الدوام يضحك بخفة

ويسترخي على سريريه وهو ما زال يقلّب بإصبعه في ضجر، تمر أمامه صور وتسجيلات مصورة لفتيات جميلات من كل صنف ولون فلا يشعر بأدنى انجذاب لإحداهن بل يشعرهن جميعاً سواء أمامه كأنه يعاين أصناف الأقمشة في مخزن المحل فيراها كلها جميلة متنوعة تسر الناظر إليها لكن لا روح فيها تجذبه، دوماً اختلف مع أخويه في نظرتهم للأقمشة، فعلى يرى في كل امرأة خامة قماش تناسبها عيناه محترفتان مستكشفتان، بينما عامر فيرى القماش نفسه ينطق كأن فيه حياة قلبٌ وشفتان تهمسان! يسمع همسه باللمس ليروح القماش بمكنون نسيجه عامر قماش بالفطرة كما يصفه الحاج سليم، أما عمر فلم يعطِ الأقمشة هذا البعد العميق، أي نعم هو يحب حرفة القماشين يحب التعامل بالبيع والشراء إرضاء الزبون مراعاة أذواقهم الصبر عليهم يحب الأقمشة والنظر إليها وشم رائحة نسيجها؛ لكنه لا ينبهر، لا يتعلق، لا تتحرك عاطفته.

ألقي الهاتف بعيداً دون اكتراث ثم عاد للعينين الجلوتين لا يعرف لما أحبهما هكذا كأنه أحب قطعة شكولاتة مرت أمام ناظره ففتحت شهيته عياناً فيهما حياة نابضة لم يسبق أن لمحها في عيني فتاة من قبل وهذا سر حلأوتهما، فجأة خطر له خاطر غريب فيعقد حاجبيه ويحرك رأسه جانباً إلى اليمين ثم اليسار ثم التمغت عيناه وهمس بابتسامة: «ولم لا؟!».

صباح اليوم التالي

ابتسمت حرير لأحد عاملي النظافة الذي كان يمسح الرواق فألقت التحية بينما يسمح لها بالمرور اضمحلت ابتسامتها بينما تكمل طريقها إلى مقدمة المستشفى وهناك التقت بموظفة الاستقبال التي وصلت للتو فتكلمت معها قليلاً حول إجراءات خروج والدها اليوم وعندما انتهت أخبرتها أنها ستخرج لبضع دقائق فقط كي تشتري الشاي من آخر الشارع، خرجت عبر البوابة إلى الخارج حيث الشارع العام وأوائل الزحام المروري الصباحي، بنطال جينز عادي يعلوه قميص طويل واسع أبيض وشعر معقود كذيل حصان فبدت نحيفة وأبرزت إجهادها أكثر، رغم هذا خطواتها واسعة ثابتة كأنها تقارع استنزاف قواها فلا تستسلم، وصلت إلى مقهى صغير شعبي اعتادت أن تشتري منه الشاي (المُهيل) منذ يومين صاحب المقهى رجل خمسيني طيب حالما يراها يسارع ليطلب منها البقاء خارجاً ثم يعد لها الشاي قبل باقي الزبائن الذين بمجملهم من الرجال ليخرج إليها بنفسه ويعفيها من الدخول، يسألها بشكل خاطف متعجل عن حال أبيها اليوم فتزد عليه أنه سيخرج ظهراً فيبارك لها ويدعو له بالصحة ثم يصرفها بطريقة أبوية حمائية كي تعود للمستشفى ولا تطيل البقاء هنا، وأعين بعض زبائنه ترمقها بالنظرات هذه المرة الخامسة أو ربما السادسة التي تشتري منه وفي كل مرة يفعل المثل، شكرته حرير ممتنة لتقدير كي تعود أدراجها ولا تعلم هل ستري هذا الرجل الطيب مرة أخرى أم لا إنها حتى لم تسأله عن اسمه أو بماذا يُكنى،

ارتج الكوب في يدها عندما استدارت لتواجه عامر وهو يقف قبالتها مباشرة ويرتدي نظارة شمسية داكنة، لم يقل شيئاً بينما يزم شفثيه فأدركت أنه غير راضٍ لسبب ما بل تكاد تصفه بالغضب.

طاقة دبّت في أوصالها ووجهها يتجههم لتتحرك بخطواتها الواسعة تتجاهله عائدة إلى المستشفى، طوال الطريق كانت تشعر به خلفها كأن أنفاسه تصل إليها وترافقها بل تجاوطها، حتى سمعت صوته قريباً للغاية وهي تدخل عبر بوابة المستشفى: «ألا يوجد شاي في هذه المستشفى؟!».

استدارت إليه وهي تعقد حاجبيها وترد بثورة: «لا أفهم بأي حق تفرض وجودك هنا؟».

خلع نظارته وبدأ للحظة بعينين تبرقان بالغضب ثم سرعان ما هدأ ليعلق نظارته بجيب قميصه ثم قال متجاهلاً كلماتها: «موظفة الاستقبال قالت إن والدك سيخرج اليوم».

ازداد عبوسها وهي تعلق بسؤال ساخر: «وهل ستأتي كل يوم كي تسأل موظفة الاستقبال عني؟!».

بهدهوء عجيب يثير الغيظ ويأجج داخلها مزيداً من الثورات: «أنا آتي وأسأل لأنك قد تحتاجين لمساعدة أنت بمفردك».

ردت عليه بنظرات راعدة: «أنا أتدبر أمري ولا أحتاج لأحد».

ثم استدارت لتدخل عمق المستشفى وهي لا تزال تشعر به خلفها لا تصدق ولا تستوعب حتى اللحظة كيف أن عامر يعيد نفسه بهذه السلسلة إلى حياتها وكأنه لم يغادرها من الأساس، لقد أخذت وقتها لأسابيع كي تتعامل بواقعية مع انفصالها عن نوفل بتلك الظروف المهينة وظهور عامر بالصورة الآن يجهدا ويغضبا، رغم أنها تصدق بالفعل أنه ليس هنا الآن إلا ليقدم دعمه لها على الأقل بالوقت الراهن؛ لكنها لا تريد دعمه ولا دعم غيره.

استدارت إليه مجدداً لكن هذه المرة كانت نظراتها أهدأ وأصلب حدثت فيه وكأنها تواجه السنوات الست التي مضت بطريقة ما كان عامر جزءاً من حصيلة تلك الأعوام، دخوله لحياتها كان أحد العوامل فيما آلت إليه الأمور ليس تحميراً له للذنب لكنه واقع حال؛ كما هو وجوده اللحظة أمامها هو واقع حال، قال لها بنبرة مبسوطة: «لماذا تنظرين إليّ هكذا؟!».

ردت بصدق وهي تنظر في عينيه بشجاعة: «عامر أنا متعبة».

صمت للحظة قبل أن يقول: «أعلم».

فقالت وكوب الشاي يهتز في يدها انفعالاً أقرب للشكوى منه إليه: «إذن اتركني لشأني دعني أرمم ما تصدع انساني لماذا لا تنسى؟!».

حدق فيها مطولاً قبل أن يقول مكرراً جملتها السابقة بنبرة غريبة كأنه يكتّم انفعالاً ما يؤزقه: «أنت متعبة».

ثم أحنى رأسه قليلاً وهو يرفع يده ليسحب نظارته من جيبه مضيفاً: «أنا سأبني مطبلاً واحداً سأدعك ترممين».

لبس نظارته الشمسية وأنهى حوارهما بهدوء عجيب: «حمداً لله على سلامة والدك تذكري مهما حصل في الماضي فأنا موجود لأعينك في أي شيء اعتبريني كأخ وجار فلا تترددي بالطلب».

ثم تمت بتحية خافتة قبل أن يستدير ويغادر تشيعه حرير بنظراتها ولا تعرف حتى كيف تشعر اللحظة، هل هي غاضبة منه ومن وجوده أم ممتنة لأنه يعرض مساعدته دون غرض شخصي، أم أنها نافرة من كل أنواع المشاعر على الإطلاق رافضة لكل من يحاول فرض شيء أي شيء عليها.

«أخ وجار؟! أيا يا صبر جِدْ لي ملجأً عندك قبل أن أجد ملجأً بنفسي في مستشفى المجانين!».

كان يتمم بهذا ساخراً من كلماته الأخيرة مع حرير بينما يفتح باب سيارته ليجلس في مقعد السائق يهز رأسها وهو يشغل المحرك ويقول كمن أصيب بحمى تجعله يهذي: «لا لا الكلام معها انتحار، النظر إليها عن قرب انتحار، نظرتها المباشرة إلى دون أن يرف جفنها الناعس هي جريمة قتل عن عمد!».

ضرب على المقود بعنف ليحرك سيارته كي ينضم لسير الشارع وكلمة

(انسني) التي رمتها في وجهه بذاك الثبات تحيل الدماء في عروقه إلى سيول براكين، بعد عشر دقائق كان وسط الزحام وهو شبه تائه! أخذ يشتم وهو ينظر ما حوله ويقول محدثاً نفسه: «أيها الغبي الأبله! ما الذي أتى بك إلى هذا الشارع؟!». «

زفر بقوة وأجبر نفسه على الاسترخاء مستسلماً لقدره هذا الزحام سيؤخره لساعة كاملة حتى يعود للطريق الصحيح كي يصل المحل، اتصل بأخيه عمر وأبلغه أنه سيتأخر فرد عمر أنه هو الآخر سيتأخر فليده مشوار يقضيه.

أنهى عمر المكالمة مع أخيه عامر ثم وضع هاتفه في جيبه بينما يدخل إلى محل القماش بفرعه الأول حيث كانت أولى بذرات أبيه الحقيقية لينشأ اسماً لامعاً له في السوق، وجد أباه يكلم عاملاً في المحل فينظر إليه بفخر تلاقئ هذا الرجل بتعليمه المتوسط تعلم منه الكثير وما زال يتعلم، أكثر ما يدهشه في أبيه ثباته الانفعالي وقدرته على استيعاب التغيرات والتأقلم معها، منذ أن التقط تغييرات السوق وتراجع الإقبال على الأقمشة حتى بدأ يفكر في بدائل وخطط إقامة مصنع للألبسة الجاهزة تفكير جدي في تغيير نشاط فرع المنصور من أقمشة الملابس إلى أقمشة الستائر بل توسيعها إلى كل أنواع الستائر الحديثة وتركيبها، فيما يختبر بتأن مدى نجاح فرع الكراة الجديد ويبقى الفرع الأول وسط العاصمة محافظاً على هويته فما

زال هناك أناس يعشقون شراء الأقمشة وتفصيلها وخياطتها، سليم تاج الدين القماش موسوعة حياة وعمل.

تقدم عمر من أبيه وهو يلقي التحية: «السلام عليكم يا حاج».

صرف سليم العامل كي يكمل رص لفات القماش بينما يرد على ولده الأصغر ببعض الدهشة: «وعليكم السلام ورحمة الله ما الذي أتى بك بني؟ لماذا لم تذهب لمحلِكَ؟».

رد عمر بنظرة عازمة هادئة: «وددت أن أكلمك في موضوع يخصني بعيداً عن الجميع وأريده أن يبقى بيننا حتى أحسم قراري بشكل نهائي».

أشار سليم بيده لولده كي يلحق به لآخر المحل حيث طاولة مكتب خشبية بسيطة يجلس سليم على كرسي خلفها بالعادة سحب عمر كرسيّاً ليقربه من كرسي أبيه، بينما كان سليم يجلس وهو يوجه بعض العمال بصوت مرتفع كي يؤدوا أعمالاً ثانوية في المحل قبل دخول الزبائن ثم عاد بكل تركيزه لولده الأصغر ينظر إليه قائلاً بابتسامة: «خيراً إن شاء الله هل وجدت عروساً؟».

كانت مزحة من سليم ليفاجئه أصغر أولاده بالرد الهادئ المتأنّي: «نعم أو أظن هذا».

يعقد سليم حاجبيه قليلاً ببعض الدهشة ليقول كأنه يتشكك مازحاً: «هل تتكلم جدياً؟! ظننت أن لا رجاء فيكم أنتم الثلاثة على الأقل أنكم كنتم

ستبذلون جهداً أكبر في المقاومة والرفض».

رد عمر بالنظرة الساكنة نفسها والنبرة الهادئة: «وأنا فكرت ملياً بكلامك واقتنعت به، في الواقع وجدت فيه دافعاً وإلهاماً».

دهشة سليم تزيد بينما يقول وهو يساير ولده في مجرى الحوار: «إذن نويت الاستقرار وتحمل مسؤولية عائلة».

فيضيف عمر على كلام أبيه بتوكيد: «ومساعدة أخوي أيضاً».

للحظات يمعن سليم النظر في ولده يحاول أن يستشف ما وراء تغيير رأيه ثم يسأله: «بما أنك كنت غير متحمس للزواج قبلاً فهذا يعني أن لا فتاة مميزة في حياتك فهل تنوي الزواج بطريقة تقليدية؟».

رد عمر بالرم نفسه: «شيء من هذا القبيل».

يضيق سليم عينيه ويدقق أكثر في ولده وهو يسأله: «هل هي صبا ابنة عمك شاكر؟».

هز عمر رأسه نفيًا وهو يقول بسلاسة: لا بل فتاة أخرى أجدها مناسبة لي أكثر».

عندها لم يستطع سليم الاستمرار في هذا الحوار مع شعوره بوجود خطأ فيسأل ولده يفاجئه ويواجهه: «ما بك يا عمر؟».

ارتفع حاجبا عمر وقد تبادل دور الدهشة مع أبيه ليقول معبراً عن دهشته:

«ظننتك ستسألني عن الفتاة».

فقال الأب موضحاً بشكل مباشر: «سأسأل بالطبع لكن هددوك بطرح الموضوع يشير اهتمامي أكثر».

تراخت دهشة عمر ليناقش أباه بالقول: «هل ترى الزواج بعقلانية أمر خاطئ؟».

لم يكن سؤالاً قدر ما كانت بحاجة ليرد سليم بحكمة: «ليس تماماً الزواج العقلاني أثبت أساساً لكن يجب أن يكون هناك ميل على الأقل بعض من شرارة شغف حماسة تعلق».

عندها التقط سليم شرارة خافتة في عيني عمر وخيال ابتسامة تمر بشفتيه وهو يقول: «أراها مختلفة».

فتساءل سليم باهتمام: «كيف مختلفة؟».

تتابعت الشرارات وبدأ عمر سارحاً بعض الشيء وكأنه يرى الفتاة أمامه فيصفها لأبيه بعين متفحصة: «طبيعية للغاية ليس فيها ذرة تصنع ولا تهتم بنظرة الناس لها، عصبية المزاج تشعرها تنبض شرارات على الدوام تذكرني بنونة عندما تغضب تراها مجنونة أحياناً ومُحيرة أغلب الأحيان. كما أنها تحب الفلافل».

الآن علم سليم من أين أتت تلك الشرارات المشجعة في عيني ولده

فارتاح قليلاً وابتسم ابتسامة واسعة وهو يقول: «تعجبني الفتاة التي تحب الفلافل».

يضحك عمر فيأخذ قلب أبيه بضحكته، يفكر كم أن أصغر أولاده بات يشبه جده أكثر يوماً بعد يوم ترخّم سليم لوالده، بينما يسترخي قليلاً في كرسيه ليناور مع ولده أكثر قائلاً بمزاج رائع: «عرفنا طباعها ماذا عن شكلها؟».

هز عمر كتفيه كأنه لا يهتم حقيقة بمظهر الفتاة ليقول ببساطة: «شقراء بنظارة طبية ممتلئة الجسد».

يعقد سليم حاجبيه ويتساءل بنبرة خاصة: «فقط؟!».

عادت تلك الشرارات لعيني ولده الذي رد على سؤال أبيه بابتسامة عابثة: «لها عينان حلوتان».

يغمز سليم وهو يقترب من ولده ويسأل بخفوت مرح: «وما اسمها صاحبة العينين الحلوتين؟».

رد عمر: «روناهي».

يتساءل سليم: «روناهي؟ هل هي كردية أو تركمانية؟».

يهز عمر رأسه قائلاً: «لا أدري بعد».

اكتفى سليم من اختبار مشاعر ولده ووصل لنتيجة أن ربما عمر لا يحب

الفتاة ولا يُكُن لها مشاعر عميقة وربما فعلاً اختياره عقلاني تناسب نقاط محددة في رأسه؛ لكن على الأقل الفتاة تشير إعجابه على نحو ممتع، سأل سليم بنبرة عملية: «كم عمرها ومن أين تعرفت بها؟».

رد عمر موضحاً: «هي في الثانية والعشرين كما أظن فقد تخرجت للتو من الجامعة عرفتُها من سنوات كزبونة في المحل هي وعائلتها وهناك صلات أخرى».

قال الجملة الأخيرة بنبرة خاصة أثارت اهتمام سليم فيسأله: «أي صلات؟».

نظر عمر لأبيه بضع لحظات قبل أن يفصح عن تلك الصلة بالقول: «لديها أخت واحدة اسمها بسمة تكبرني بعامين كانت معي بنفس الجامعة لكن قسم لغة إنجليزية».

بنهاة فطرية التقط سليم الصلة فيقول باستدراك: «قسم لغة إنجليزية؟! هل تقصد أنها كانت مع حرير؟».

رد عمر وهو نفسه لم يفكر بهذه الصلة وتأثيرها إلا صباح اليوم فقط وهو في طريقه لأبيه: «أجل أبي بسمة هي صديقة مقربة لحرير».

بيت أسعد الجنابي عصرًا

تتوجه حرير نحو غرفة والديها بالطابق الأرضي وهي ترتشف على مهل من كوب الشاي الذي أعدته لها أختها سدير كم ستفتقد شاي ذاك المقهى الصغير والعم الطيب الذي كان يعده بنكهة مميزة، لقد نامت لساعتين كاملتين حال عودتها مع أبيها للبيت فاستعادت بعض قوتها المستنفدة، باب الغرفة مفتوح فيصلها صوت أمها وهي تتوسل من أبيها أخذ دوائه فيصدها الأب بزجرة مقتضبة! تنهدت حرير وهي تدخل لترى وقفة أمها اليائسة جوار السرير الذي يتمدد عليه والدها الذي حالما وقعت عليها عيناه فارقه تجهمه ثم أغمض عينيه، تبادلت مع أمها النظرات فأشارت لها أمها بالدواء الذي ما زال بيدها فتقدمت حرير لتضع في طريقها كوب الشاي على منضدة الزينة القديمة الخاصة بأمها منذ سنوات، ثم تتقدم أكثر لتجلس على حافة السرير جوار أبيها وتأخذ الدواء من يد أمها لتقول لأبيها بلطف وصبر: «لماذا لا تأخذ دواءك أبي».

رد أسعد الجنابي وهو ما زال مغمض العينين سباكن المحيا: «لقد مللت الدواء».

بمزيد من الصبر قالت حرير: «دواءك هو ما أنقذ حياتك ألا تذكر كلام الطبيب؟».

شعرت به يتوتر وطال صمته دون رد فحاولت من جديد: «لماذا تصمت أبي؟ كلمني أرجوك».

عندها جاء رده مقتضياً: «أريد النوم».

ببعض الحزم قالت حرير: «بعد الدواء تستطيع النوم مباشرة».

ثم مالت إليه لتقبل كتفه وتهمس له ترجوه بمحبتها في قلبه: «أرجوك أبي إن كنت غالية عندك».

شعرت بأنفاسه تختنق في صدره وهو يرد همسها بهمس كأنه يخجل أن يفصح بضعفه: «أنت وأختك وأخوك أغلى عليّ من نفسي أغلى من كنوز الأرض وإن تجمعت على باب بيتي لن أكلها ولو بظفر أحدكم».

حتى اللحظة لم يفتح عينيه فتميل حرير لثلم كتفه هامسة بتأثر وثقة: «أعلم هذا».

عندها فقط فتح عينيه ليطل منهما عظيم الذنب والألم وهو ينظر لوجه ابنته الشاحب النحيل تساءل بعذاب يكتمه بشق الأنفس: «أو تعلمين حقاً؟».

تدمع عيناها ويشفق قلبها عليه ليس بيده أنه هكذا ببساطة متعنت صارم متسلط ديكتاتوري ظالم حتى بحبه المهول لأولاده لا يعرف إلا أن يكون هكذا ولن يتغير لو شاء التغيير قالت رداً على سؤاله المتشكك الذي أدمى قلبها بينما تقرب الدواء من فمه: «ليس لدي أي شك».

أخيراً أخذ دواءه واستقر في سريره ليغفو وأما تجلس جواره تقرأ القرآن

دون إصدار صوت، غادرت حرير الغرفة وهي ترتشف الباقي من شايتها الذي برد فوجدت في غرفة المعيشة أخاها زيدون وهو يجلس هناك وعيناه غارقتان بتفحص شيء ما في هاتفه النقال، قالت بابتسامة رائقة: «أنت يا فتى لماذا لا تخرج مع أصحابك في الحي».

رد خلدون وهو ما زال منشغلاً عنها بهاتفه: «ليس لي أصحاب وأبي لا يحب خروجي للتسكع في الحي».

عقدت حرير حاجبيها وهي تتمتم: «تسكع؟!».

لم يرد عليها خلدون فاقتربت منه بعزم ومدت يدها لتخطف الهاتف منه فيهب خلدون معترضاً: «لا حرير أرجعيه إليّ».

ثم يخفض صوته طوعاً مضيئاً بتوتر: «أرجوك أرجعيه».

يده تحاول مناورة حرير ليستعيد هاتفه منها بينما عيناه ترنوان باتجاه باب الغرفة وبدأ واضحاً انه يخشى بل يخاف غضب أبيهما، مدت ذراعها لتلفه حوله تحتضنه وتقبل جبهته تخفي ما يعتمل داخلها وهي ترى أخاها هكذا ثم قالت بفكاهة: «سأعيده لكن بشرط أن تأتي معي للسوق القريب كما كنت تفعل قبل سنوات هل تذكر؟».

رفع خلدون وجهه وهو يقول بتردد وقلق: «لكن أبي قد يغضب من خروجك يقول إن المطلب... أقصد من هي مثلك لا يجب أن تخرج أمام الناس».

لم تغضب ولم تنزعج حتى بل قبّلت خده هذه المرة وهي ترد: «إن كان معي أنت فلن يغضبه يا خلدون أشتهي أكل المثلجات».

تمتم خلدون باستسلام: «حاضر».

كانا عائدين ضاحكين وهما يلتهمان المثلجات وقد حلت حرير شعرها الذي استطال لما تحت الكتفين بقليل ما زال صداد خفيف يلزمها من الإجهاد لكن خروجها برفقة خلدون خفف عنها وعنه أيضاً إنه فتى طيب مسالم لكن شخصية أبيهما الطاغية جعلته يجنح للتخضع كي يتجنب المشاكل، فرعان آخران وسيصلان للشارع الفرعي الذي يقع فيه بيتهما يسيران على الرصيف وقد لفت حرير ذراعها اليسرى حول ذراع أخيها الذي يماثلها طولاً، بينما تمسك مثلجاتها بيدها اليمنى لتقول بتدلل وهي تسند بعضاً من ثقل جسدها عليه عن عمد: «أنا متعبة ليتك تستطيع حملي حتى وصولنا للبيت؛ لكن أظن سكان الحي سيعتبرونها فضيحة وقلة أدب».

فشعرته يتوتر وهو يرد: «حتى لو كان الأمر عادياً أنا أضعف من أن أحملك أختي».

كانت سترد عليه عندما رأت سيارة مألوفة تقف على جانب الرصيف تبعد بضع أمتار عنهما

عينها في عيني السائق وقد توضحت صورته وعرفت هويته، أسوار وأسوار تزاومت لتفصل بينها وبينه أبت أن تبعد عينيها عن عينيه وهي تنطقها مجدداً بنظراتها إليه (انسني).

كان عامر من أبعد نظراته أولاً ثم فتح باب سيارته ليترجل بتعابير هادئة وبينما تقترب حرير تكاد تحاذيه هي وأخوها خلدون تحرك ناحية الصندوق الخلفي ليفتحه ويستخرج علبة كبيرة مغلقة من الورق المقوى حملها وأغلق الصندوق ثم تحرك مجدداً، في اللحظة التي مرت به حرير وهي تستند لأخيها المرتبك، ألقى عامر تحية عابرة (مساء الخير) ثم مضى متجاوزاً إياهما بالاتجاه المعاكس ودون أن ينتظر الرد؛ لكن خلدون الذي بدا متحيراً وهو ينقل نظراته بين أخته وعامر قرر الرد بتحية مبتورة بينما التزمت حرير الصمت، كانت تخفي توتراً عظيماً ظناً منها أنه ترجل ليكلمها ثم استدركت بعد أن تجاوزهما أنه يقصد بيت العم شاكر صديق والده ومن توسط قبل سنوات ليقنع أباهما بقبول عامر، أكملت طريقها ثابتة الخطى بينما تمسد طوعاً على ذراع أخيها تحاول تخفيف ارتباكها، تناست عامر وهي تفكر بخلدون يجب أن تدفعه ليخرج من البيت أكثر يتعامل مع الناس أن تشعره بحاجتهم إليه كي يعتمدوا عليه ببعض شؤون البيت، كثير من الخطط تدور برأسها حول شقيقها المراهق كانت كافية لإزاحة عامر عن تفكيرها قسراً.

على باب بيت العم شاكر كان يقف عامر يؤخر قرع الجرس جهده بينما عيناه تسترقان النظر إليها وهي تختفي مع أخيها في الفرع التالي لست

سنوات كان يتجنب الحضور إلى بيت العم شاكراً إلا فيما ندر كي لا يقع في صدفة كهذه، فبيت العم شاكراً هو الأقرب لبيت أسعد الجنابي واحتمالية رؤيتها كانت أعلى فكر في نفسه لولا أنه يعرف الحاج سليم جيداً لشك أنه تعمد اليوم إخراجه من المحل باكراً كي يوصل هذا الصندوق بنفسه إلى العم شاكراً دون تأخير؛ لكن ليس الحاج سليم من يفعلها ويتجاوز حداً كهذا يهمس عامراً وأصابعه تتقلص حول الصندوق: «حدود تمنعني عنك يا حرير لكن شهران فقط شهران ونتحاسب لا تظني أنني أنسى».

قرع الجرس وللقلب همس آخر فالقلب الذي ما زال يتأرجح بين موت وحياة له عينان لا تبصران إلا إياها رغماً عن إرادة البشر فيهمس اسمها نبضاً كأنه سر الأسرار ومفتاح الأقدار فنبضة مع خصلة شعر تلامس ابتسامتها ونبضة مع لمسة يدها التي تسند بها أياها ونبضة مع تحدي عينيها وهي تقارعه بسيف النسيان، سمع صوت القادم من خلف الباب فحجب كل شيء خلف ألف باب وباب، سيأتي يوم يجاهر، لكن دون ندم.

بابتسامة هادئة تلقى ترحيب العم شاكراً وشكره على إيصال الأمانة التي أرسلها والده؛ لكن عامراً رفض دعوة الدخول بأدب وانصرف عائداً للمحل.

مساء

استقبلته سجي على الباب فشعر بتوتره يخفت ثم يلقي تحية السلام

قائلاً: «مساء الخير» تبسم له بود وهي ترد عليه بترحاب: «مساء الخير علي تفضل».

سلمها علبة الحلويات التي أحضرها بينما عيناه تسرحان منه بعفوية لتمران بهيئتها وهي تشكره ثم تقوده إلى غرفة المعيشة، تربط شعرها للخلف كما رآها البارحة لكن الليلة تضع قرطين كحلقتين دائريتين كبيرتين تدليتا من أذنيها، جلبابها طويل للكاحلين وبكمين طويلين يغطي المعصمين وجزءاً من كفيها، جلباب أنيق أسود من الاثواب الفلكلورية الفلسطينية مطرز بخيوط فيروزية بنقشات عربية جميلة، أناقتها كجاذبية عطرها الفواح السهل الممتنع فلا هي تبالغ ولا تميل للبساطة حقاً، إنه خليط مزدوج سهل ممتنع، وكأن عيناه وجدتاً فيها إلهاء شدته بعيداً عن غرابة دخوله لبيت اعتاد دخوله قبل ست سنوات كفرد من العائلة، فيدخله اليوم غريباً مدعواً إلى بيت خلا من أصحابه، أشارت له في دعوة جلوس وهي تقول بنظرة شعرها علي (مشجعة داعمة): «تفضل بالجلوس علي سينزل عمي رياض حالاً إنه ينهي صلاته وخالتي قادمة».

يكتفي بهز رأسه ثم يجلس على الأريكة ليعقد حاجبيه باستغراب ويتساءل وهو يتطلع حوله: «لقد غيرتم الأثاث بالكامل غرفة المعيشة لا تمت بصلة للغرفة القديمة التي أعرفها».

لم تتغير ابتسامتها الودودة وكأنها كانت مستعدة لردة فعله فتد بنبرة

عادية: «أنا أقنعت عمي رياض وخالتي نبراس بالتغيير واستغلّيت ذهابهما للحج قبل ثلاثة أعوام لأفعل كل هذا بمفردي، ما رأيك؟ هل أحسنت الاختيار؟».

هل أحسنت الاختيار؟

قماش الأرائك القديمة كان يميل للألوان العصرية ممتزج كلوحة سريالية تدرجت تداخلاتها المعقدة باللونين الأصفر الفاقع والرمادي، أما الآن فالقماش بلون البيج الفاتح لا لون آخر متداخل معه لكن ما أحيا اللون هو تناثر مخدات مربعة مطبّعة بلوحات فنية تمثل التراث العراقي، فكانت لكل وسادة تفرد لها كلوحات فنية معروضة على خلفية بلون البيج تنتقل عينا علي من وسادة لأخرى أو من لوحة لأخرى، لوحة أولى بتدرجات اللون البني لامرأة عجوز قروية تخبز أمام تنور طيني وحولها أحفادها ينتظرون بلهفة لوحة ثانية بألوان التمر والبرتقال تمثل البيوت البغدادية القديمة وحولها خضرة البساتين وأشجار النخيل الباسقات البهية وثالثة بتدرجات ذهبية لدكان في سوق الصفاير الشهير حيث صناعة التحف النحاسية ورجل عجوز يلبس طاقية بيضاء جالسا على الأرض ويحمل الأداة الخاصة بيده يطرق بها على قطعة نحاس يصنعها ومن حوله تناثرت بعرض جذاب مصنوعات نحاسية مكتملة غاية في الجمال صوان وأباريق وأواني مزخرفة من كل حجم وشكل، أما أكثر ما جذب عيني علي لوحة رابعة بألوان زرقاء وفيروزية ووجه امرأة شابة جميلة بعينين واسعتين بارزتين وشعر طويل حالك

جمعته على كتف واحد تبتسم بدفء وهي تحمل بين كفيها (حجر السبع العيون).

«تشبه الفنانة التشكيلية ليلي العطار رحمها الله أليس كذلك؟ أيقونة الجمال العراقي».

يسمع صوت سجي تقول هذا بينما هو لا يرى في وجه الفتاة المرسومة إلا وجه سجي نفسها! عيناها وشعرها واستدارة خديها ورسم شفيتها الممتلئتين عاوده شعور الدفء فينفضه بقوة وحزم وهو يرد بنبرة عادية: «لا أراها تشبه ليلي العطار على وجه الخصوص بل تمثل الجمال العراقي بشكل عام».

جلست سجي على أريكة مقابلة لأريكته وهي تقول بحماسة وبعض الفخر المحبب: «كنت سعيدة للغاية وأنا أقتنيهم من عدة محلات انظر لقد اشتريت بعض المصنوعات النحاسية من سوق الصفاير أيضاً».

تتبع إشارتها إلى زاوية في غرفة المعيشة حيث طاولة خشبية مزخرفة بالحفر وفوقها تجمعت بشكل منسق طقم نحاسي مكون من مبخرة وإبريق شاي وإبريق آخر للقهوة العربية مع فناجين صغيرة مرصوفة في صينية صغيرة دائرية.

يعاود النظر في أرجاء غرفة المعيشة بنظرة شمولية يستوعب هيئتها الجديدة تماماً فيشعر بالاسترخاء، ولا يعرف هل منبع استرخائه التغيير نفسه

الذي يبعد عنه ألم الذكريات أم ذاك الذوق البسيط الدافئ الذي تتمتع به
سجى ويجعل ما يراه أقرب لنفسه، ومجدداً تتردد في داخله كلمتان السهل
الممتنع.

«مرحباً علي كيف حالك بني».

تبدد بعض استرخاء علي وهو يقف على قدميه احتراماً لدخول حماته أو
من كانت حماته، هذه المرة كان مستعداً لرؤيتها مستعداً لينظر في عينيها
ويرى بعضاً من انعكاس عذابه دون أن يهاب المواجهة تقدم من حماته التي
تقف مكانها متسمة تعاني وهي تحاول رسم ابتسامة وتتألم وهي تمثل
الصمود، لثم علي أعلى رأسها ثم انحنى بفمه ليلثم ظاهر كفها الأيمن وهو
يقول بحشجة: «الحمد لله كيف حالك أنتِ خالتي؟».

كان سؤالاً لا معنى له ولا جواب وهذه المرة مالت برأسها في صمت
لتتوسد صدره بهدوء باكٍ بدت مستسلمة بشكل لا يوصف وكأنها استوعبت
للتو فقط أن ابنتها وحيدتها رحلت، تراقبهما سجى وهي تمنع نفسها بشق
الأنف من البكاء تتمنى من قلبها أن يجد كلاهما راحة النفس يتقطع قلب
سجى على خالتها نبراس للمرة الأولى ترى حزنها ساكناً هكذا، كأن هيام
تجسدت في علي لتخبرها أن ترضى برحيلها وتتقبل غيابها عن الدنيا وما
فيها، أما علي فقد بدا أقل ألماً وأكثر سيطرة وتماسكاً من المرة السابقة
كأنه باحتضانه للخالة نبراس يجد متنفساً هو الآخر كأنه يقول للخالة نبراس

بصمت (آسف لأنني لم أستطع إنقاذها) ليته فقط ينجح بإنقاذ نفسه وبدء حياته من جديد.

انعصر قلب سجي وهي تدير وجهها بعيداً عيناها تعلقتا بالمخدة ذات لوحة الفتاة الجميلة، غامت عيناها البنيتان وهي تفكر أن علي حالما يخرج من حالته ويتجاوز الماضي سيجد فتاة يحبها ولن يكون صعباً على الإطلاق أن يوقعها في غرامه، فتمنت سجي من قلبها لو تستطيع أن تفعل المثل للمرة الأولى تتمناها! أرادت بقوة أن تنجح هي الأخرى بالزواج من رجل يغرم بها وتبادلته الغرام بالغرام والمودة بالسكن والحنان بالدفء، أخرجها من أفكارها صوت العم رياض وهو ينضم إليهم ويرحب بعلي معتذراً عن تأخره.

بعد شهر صباح الجمعة

في الطابق الثاني من البيت الذي تم تحويله منذ بضع سنوات إلى ما يشبه الشقة بسلم خارجي كانت قد استأجرته عائلة عربية من بلد شقيق؛ لكنهم قرروا العودة إلى بلادهم فأخلوا المكان، رمت رونا هي قطعة القماش التي تمسح بها الأرضية لتتخصر بثورة تمرد قائلة: «لماذا علي أنا أن أمسح وأنظف الشقة بينما من ستسكنها تفرح مع زوجها في بيت أقاربه؟».

تتمم أمها بالاستغفار وهي تواصل التنظيف في المطبخ ثم تدعو في

سرّها: «أزح هذا الحجر الثقيل من بيتي يا رب ابعث لها نصيبها وكن في عون من سيبتلي بها، استجب لدعائي في هذه الجمعة يا رب أن أراها عروساً قبل أن تقتلني كمداً وغيظاً». تعاود رونا هي المسح وهي تواصل تدمرها وشكواها: «ألا يكفي أنها ستحتل سقف بيتنا ليحيلوا ليلنا نهاراً هي وجللاوزتها الأشرار بل تركت لنا التنظيف والترتيب أيضاً ثم ألم تقولي لي دوماً (هذه شقتك يا رونا هي تزوجي وكوني جنبي يا رونا هي أنا لن أستطيع العيش وأنت بعيدة عني يا رونا هي) فأين وعودك وعهودك؟!».

عضت الأم شفيتها في غيظ ثم تخرج رأسها من باب المطبخ لترد على تدمر ابنتها الطفولي: «كم مرة قلت لك إنه وضع مؤقت». تدفع رونا هي نظاراتها للخلف لتقول ساخرة: «وضع مؤقت؟! ستلتصق هي وجللاوزتها كالجراد أو القمل».

أوشكت الأم أن تشد شعرها لكنها عادت لعملها في المطبخ وهي تقول: «كفاك هذراً يجب علينا أن ننهي كل هذا قبل الظهر لتأخذي حماماً وتستعدي للخروج مع أختك ووفاء».

عبست رونا هي وهي تعصر قطعة القماش قائلة: «إنهما لا تأخذان رأيي في شيء من قال لهما إني أريد الخروج؟! ثم لماذا تريد بسمة ترك جللاوزتها في عنقك؟!».

ردت الأم وقد عيل صبرها على هذه الفتاة المتعبة: «يا ابنتي أنا راضية

برعاية أحفادي مهما كانت شقاوتهم فقط رافقي أختك لأجل حرير
المسكينة، كم تكسر قلبي هذه الفتاة حظها سخام أسود كسواد وجه ذاك
الأغبر طليقها».

رفعت رونا هي عينيها للسقف وهي تهز رأسها وتقول: «أنا لا أفهم لماذا
تلطخين حظها بالسخام؟! ذهب نوفل يأتي بعده عشر نوفلون أو نوفلين أو
ما شئت من اختيار كلمة جمع أنا سيئة للغاية في اللغة العربية والتاريخ وإن
لم يأتوا أيضاً لا يهم خير وبركة تعيش حرة نفسها مثلي أنا».

تعض أمها سبابتها غيظاً ثم تقترب من شباك المطبخ وتكشف أعلى
صدرها للسماء كأنها تجهر بالدعاء بعلو صوتها لعلها تكون ساعة استجابة
وينزاح (الحجر).

عصراً

في الشارع التجاري في حي المنصور تقضم رونا هي من شطيرة الفلافل
بعبوس وهي تسير بين أختها بسمه من جهة اليسار ووفاء من جهة اليمين
كلتاهما تحاولان استرضائها بشراء المزيد من شطائر الفلافل أو ربما لتبقيا
فمها مشغولاً عن التذمر، بينما هي تشعر بالضجر الفظيع في الواقع هو
ليس الضجر؛ لكن تلك اللافتة التي تحمل اسم (محلات القماش / الفرع
الثاني) تستفزها عن بعد عشرة أمتار وكلما اقتربن منها تحججت بأي حجة

البشر على كوكب الأرض!

اكتفت بابتسامة جامدة، بينما تتلقى منه نظرة غريبة وهو يحدق فيها ويبتسم، عبست في وجهه تلقائياً فقال بلطف بالغ يذيب الحجر: «آنسة رونا هي هناك أمر يخصنا أنا وأنت فهلا نتكلم على انفراد؟».

شعرت أن الهواء سكن والزمن توقف وعقلها ذاته قد توقف وكأن كلمة (انفراد) كضوء إشارة مرور حمراء أجبرت الجميع أن يتوقفوا مكانهم ولم تكن حالة بسمة ووفاء بأفضل منها الذهول كان مسيطراً على نحو غبي للغاية فتساءلت بسمة بهمس مسموع: «هل قال نتكلم على انفراد؟!».

لترد وفاء وكأنها تستدرك (الحدث): «لقد قالها يا بسمة (نتكلم على انفراد)».

كرت رونا هي على أسنانها ودمها يفور فجأة ليوقظها من حالة الذهول الجماعي الذي كُنَّ فيه لتسأل بشموخ وهي تعيد نظاراتها للخلف: «لماذا تريد مكالمتي على انفراد؟».

كل هذا يحدث لهن و(الأخ) عمر يقف رزناً هادئاً وعيناه لا تفارقان وجه رونا هي حتى كاد قلبها الخافق يخرج من صدرها إليه ليصفعه على وجهه الوسيم هذا رد عليها ببساطة شديدة وهو يشاركهن فكاهة ضمنية عن كلمة (انفراد): «ستعرفين عندما نكون على انفراد».

تضيق وفاء عينيها وهي تتمتم بسؤال لصديقتها: «هل هذا سجع من

نوع ما؟».

تهز بسمه رأسها بلا معنى، بينما عمر يقول بالبساطة والسلاسة: «هناك مقهى قريب، هلا جلسنا كلنا هناك؟ الأمر مهم، لكنني لن أؤخركن أو أفسد عليكن متعة الخروج، نصف ساعة لا أكثر».

كانت رونا هي أثبتهن وهي تقول بصلاية: «خمس وعشرون دقيقة لا غير».

ثم خطت لتسير قبلهم جميعاً تتقدمهن نحو المقهى وكأنها تؤدي مهمة عسكرية انتحارية يريد أن يمثل دور الرزين الساحر فليتلقي عاصفة الجليد الهادر.

انحشرت بسمه جالسة جوار وفاء حول مائدة منفصلة عن مائدة عمر ورونا هي وهذا كان مطلب عمر الذي تقبلته رونا هي بالصمت، تحديق بسمه عبر نظارتها الطبية وهي لا تصدق لتهمس: «أمي سيغمى عليها إذا كان ما نراه حقيقة هل هناك مجال للشك فيما فهمناه؟».

علقت وفاء وعيناها تنتقلان بين الاثنين أمامها: «عمر لا يمكن أن يقول كلاماً كالذي قاله لرونا هي وهو ينظر لها بتلك الطريقة دون أن يعني موضوعاً آخر غير الزواج».

ما زالت الدهشة تسيطر على بسمه وهي تسأل وفاء بصوت خافت: «هل

لاحظت شيئاً من عمر سابقاً؟».

ردت وفاء بينما تخرج هاتفها لترسل لحريز رسالة: «أبدأ على الإطلاق! وهذا سر دهشتي رونا هي دوماً كانت تحضر بصحبتني إلى محل القماش فمتى قرر عمر أن يبدي اهتماماً ليحسم قراره بطلب الزواج بهذا الشكل المفاجئ؟!».

أرسلت وفاء الرسالة لحريز كي تخبرها مكانهم بالمقهى ثم تضع الهاتف جانباً لتضيف بحيرة: «آخر فتاة رأيناه واقعاً بغرامها هي نهاوند فضعي نهاوند جنب رونا هي وقولي لي ما الذي يجمعهما؟! والجواب سيكون...».

أكملت بسملة جملة صديقتها بعوس: «صفر». ثم شعرت أن الموضوع لا يريحها وهي تضيف بتفكير: «ليس قليلاً من شأن رونا هي لكنها ببساطة فتاة مختلفة تماماً عن بريق نهاوند حقاً أمر عجيب هل تظنين أن عمر تغير لهذه الدرجة؟!».

ردت وفاء: «بصراحة كنت أعرف أنه ليس بتافه وينبهر بسهولة لكن مع هذا لا أعلم أستغرب الأمر».

قالت وفاء هذا بينما تتجه نظراتها إلى باب المقهى وتفكر بحريز التي ستنضم إليهما خلال ربع ساعة فيراود وفاء بعض القلق من ردة فعل حريز على ما يجري.

تتقلص يد رونا هي اليمنى حول شطيرة الفلافل التي ما زالت تتشبث بها بقوة فوق الطاولة دون أن تشعر بينما تجلس قبالة عمر القماش باعتداد دفاعي وصلابة خارجية؛ لكن من الداخل كانت في حالة فوضى عارمة ولم تكن تحب هذا الشعور على الإطلاق، سألتها عمر بلطف: «هل أطلب لك عصير أو أي شيء تحبينه؟».

ردت ببعض الخشونة: «لا فقط قل ما عندك لأعود إلى بسمة ووفاء». يتسم فترد له الابتسامة بعبوس فيقول بصوته المؤثر المغيظ: «عبوسك في وجهي لا يسهل علي الكلام لماذا أنت عدائية معي هكذا؟!». ترد والشطيرة تكاد تتهشم بين أصابعها: «أنا لست عدائية لكنك تضيع الوقت بالنظر إلى وأنا وقتي محدود وأريد أن...».

في لحظة خطف التصريح المهاجم من فمها ليحوطه إلى عرض صريح مباشر: «أريد أن أتزوجك رونا هي هل توافقين؟».

الشطيرة تهمشت وقطع الفلافل تناثرت على الطاولة وفاحت رائحتها أكثر بينما تشعر رونا هي برغبة مفاجئة كي تقف وتغادر!

كم كرهت نفسها ولسانها (الطويل بالعادة) معقود أمام عمروما زاد الطين بلة ابتسامته المراعية!

مراعية؟! ثارت في داخلها تهدير في جوفها بالكلمات التي لم تجد طريقها للسانها (هل يظنني ابنة السادسة عشرة التي أوقعت شطيرة الفلافل أمامه

متأثرة بصوته وهو ينطق كلمة (آنسة) ١٢ أم يظنني معجبة ولهانة تنتظره
على باب البيت بحقيبة ملابسها ١٣).

فجأة تراخت تعايزه اللطيفة وانحسرت ابتسامته (المراعية) وبدأ حقيقياً
أكثر وهو يقول بهدوء: «أظن أنني فاجأتك دون مقدمات».

ثم أرخى أجفانه مضيئاً: «أنا آسف لهذا لكنني منذ أسابيع وأنا
أفكر بالموضوع».

بصدمة تتمم رونا هي: «منذ أسابيع؟!».

رد عمر وهو يرفع نظراته لها: «أجل وفاتحت الحاج سليم أيضاً
أعني والدي».

ثم ابتسم هذه المرة ابتسامة حلوة شقية وهو يضيف: «وقد أحبك الحاج
من وصفي لك».

قلبها بات خارج نطاق تغطية عقلها حالياً فتركته في ضوضائه النابضة
على أمل أنه سيصاب بال(صداع) ويصمت بعد دقائق.

وقفت على قدميها وهي تخلي أخيراً سبيل الشطيرة المهشمة فتتركها
فتاتاً على الطاولة، بينما يقف عمر في المقابل لكن لم يقل شيئاً بينما
رونا هي تنفض كفيها ببعض، كانت تحتاج لهذه الثواني مع نفسها قبل أن
تتمكن من القول بنبرة عادية: «سأفكر وأبلغك بردي».

كانت فخورة للغاية لأنها قالت هذه الجملة المقتضبة وبتلك النبرة التي كلفتها الكثير من التحكم بالنفس، ثم رفعت نظراتها إليه لتضيف بذقن مرفوعة وهي تدفع نظراتها للخلف بطارف يدها: «أعتقد انتهى هذا الحوار أحتاج لغسل يدي».

كان ينظر إليها بطريقة غير مسبقة جعلتها تقاوم حالة إغماء فوري ليسألها بجدية: «كم ستحتاجين من وقت لتفكري؟».

ردت وهي ترفع حاجبيها: «لا أدري ربما لأسابيع!».

ثم تركته ومضت شامخة إلى حمام المقهى تداري بشق الأنف رجفتها الكارثية وصداع قلبها المدوي.

نادى عمر لأحد العاملين في المقهى كي ينظف الطاولة، بينما يعاود الجلوس على المائدة نفسها بانتظار مجيء عامر ليتشاركا جلستهما اليومية المعتادة كاستراحة من العمل، أخذ العامل يللمم بقطعة قماش نظيفة فتات الشطيرة، بينما يراقب عمر (آثار العدوان على الفلاف) بإحساس منعش حلو للغاية بل يكاد يضحك من قلبه هل خطر في باله يوماً أن سيعرض الزواج على فتاة وشطيرة فلاف تُسحق في يدها؟!

لم يكن متأكداً من اختياره كما هو متأكد اللحظة رونا هي فتاة مفعمة بالطاقة حتى عدائيتها محبة وأهم ما فيها أنها لا تعرف معنى التصنع لا

تضع قشوراً تخبئ حقيقتها، هي كما يراها كما يشعرها وهذا يعجبه
والأسابيع الماضية التي قضاها بالسؤال عنها بتأن وتدقيق منحتة الثقة أكثر
فيما هو مقدم عليه، لقد سأل عنها في الجامعة في الحي الذي تقطنه حتى
وجد طريقة ليسأل عنها عندما كانت طالبة ثانوية، سمعتها كفتاة كانت
الأفضل عصبية ربما تحب الأكل هذا مؤكد؛ لكنها طبيعية وتضع حدوداً مع
الجميع لا تسمح بتجاوزها.

وعلى الصعيد الشخصي يعترف أنه تأثر لمعرفة حقيقة يتمها ووفاء والدها
المبكرة، تخيلها بشكلها الحالي نفسه أو ربما حتى أكثر امتلاء وطفولية لا
تتجاوز العاشرة وتواجه خسارة فادحة كهذه، منذ يومين وهو يفكر بطريقة
للتواصل معها على نحو مقبول أراد أن يفتح عامر اليوم تحديداً فهو على
علاقة جيدة بوفاء وزوجها وله علاقة ببسمة أيضاً وإن كانت أقل درجة من
وفاء.

ابتسم عمر وهو يفكر أن شقيقه سيغضبان منه لأنه أخفى عنهما كل هذا
حتى نونة لا تعرف لقد كان سره الذي أفضى به لشخصين فقط والده
والجدة، نونة لن تسامحه على الإطلاق لكن ماذا يفعل وهي تتحمس زيادة
في هذه الأمور وهو كان يحتاج للتأني، كان يحتاج لهدوء جدته واحتوائها
لاستماعها إلى مخاوفه التي تنبع من تجربة علي وهيام وقد كانت خير معين
حين نصحته بصلاة الاستخارة وعلمته كيف يؤديها وعندما فعل شعر باليقين
ويعني التوكل على الله.

يرفع عمر نظراته للباب بانتظار دخول عامر لقد أخبره أنه سيلحق به عندما ينتهي مع الزبونة، يبدو أن الأمر طال أكثر مما توقع فكر أنه ترتيب رباني ليخرج بمفرده وأن يرى رونا هي أمامه في الشارع كل هذا يزيده يقيناً في هذه اللحظة عادت رونا هي من الحمام، وكما توقع تتجاهل النظر إليه وكأنها لا تراه يبتسم عفواً ثم يتذكر سؤال الحاج سليم وهو يتساءل عن شكلها (فقط؟!) فيجد عمر نفسه يمعن فيها النظر كما لم يفعل من قبل.

كانت ترفع شعرها الأشقر كذيل حصان ولا تضع على وجهها أي تبرج على الإطلاق، ملابسها بسيطة للغاية قميص أبيض صيفي وتنورة زرقاء طويلة بطبعات ورد بيضاء مع حذاء رياضة أبيض، وخلف ملابسها التي لا تشير أي جاذبية كان عمر يتعمق بنظرته أكثر فيرى في امتلاء جسدها إغراءً وفي بياض بشرتها الشديد نقاء وفي شقرتها الطبيعية تميزاً اتسعت عيناه وهو يفكر أنها تعجبه تعجبه للغاية.

ابتسمت حرير لشقيقتها تحاول رفع معنوياتها وهما تسيران معاً على عجل كي تصلا المقهى أخيراً: «لا تتضايقي هكذا يا سدير عليك أن تجدي طريقة لتقبل أبانا دون أن يؤثر في نفسك سيتقبل التغيير بالصبر».

ردت سدير وما زال التوتر يؤذيها: «لا أحتمل صراخه يا حرير كلما غضب هكذا اشعر بالشلل في أطرافي بالرعب يقبض قلبي».

زفرت حريز بقوة قبل أن تميل إليها وشعرها الناعم يتأرجح حول وجهها:
«جربي طريقة الأنفاس العميقة التي علمتك إياها إنها مفيدة للغاية كي
تسترخي فكري دوماً أن أبي لن يؤذينا وخلف غضبه وصراخه هو يحبنا
ويخاف علينا».

نظرة سدير إليها كانت عميقة متألمة وهي ترد: «لكنه آذاك».

كانتا قد وصلتا لباب المقهى فتوقفت خطوات حريز لتتوقف معها خطوات
أختها الصغرى نظرت إليها حريز لبضع لحظات قبل أن تقول: «وربما أنا
شريكته بالتسبب بهذا الأذى لنفسى».

ثم مالت لتقبل خدها وتضيف بابتسامة كي توقفا هذا الحوار الثقيل:
«أنت صغيرة حلوة وأمامك حياة جميلة بإذن الله أريدك قوية وواثقة يا
سدير».

أخذت سدير تهز رأسها بينما تتسع ابتسامة حريز برضا لتلتفت وهي تمد
يدها عفويًا كي تفتح باب المقهى عندما سبقتها يد رجل فيخيم وجوده
المألوف وهو يلقي تحية عابرة: «مساء الخير».

تسمرت حريز مكانها بينما يفتح عامر الباب ودون أن ينظر إليها كان يشير
بيده الأخرى كي تسبقه هي وأختها الدخول، فلم تشعر حريز إلا بكفها
يمسك كف أختها ثم تجرها جراً لتدخلها معاً قبله، شعرت بضيق شديد
وتوجس أشد وهي تبحث بعينيها في المقهى وما زالت كف سدير في كفها

تضغطها بتشنج لا إرادي، التقطت عيناها صديقتها بسمة ووفاء بينما ترى رونا هي تسحب كرسيًا لتجلس معهما وعلى اليسار بعد مائتين كان يجلس عمر القماش بمفرده، للحظة أوشكت حرير أن تعود من حيث أتت لكنها أبت لن تمنح غامر فرصة أن يفكر أنها تهرب منه بل العكس ربما عندما يراها تتصرف بشكل طبيعي متجاهل له، سيعيد التفكير بما ينوي عليه معها، هاتف من داخلها يتساءل (وما الذي ينوي عليه بالضبط؟! حتى الآن ليس لديك أدنى فكرة يا حرير).

«حرير هيا بنا صديقاتك ينظرن إلينا».

هزت حرير رأسها بينما تلتقي عينيها بعيني وفاء التي كانت تنظر إليها باستفهام ودهشة لوقوفهما هكذا قريباً من باب المقهى لكن سرعان ما أدركت وفاء السبب عندما تبعهما دخول عامر القماش فبدت عينا وفاء قلقتين هذه المرة، تقدمت حرير وهي تجبر نفسها على التراخي بينما أختها سدير تلاحق بنظراتها المتوترة حركة عامر يساراً التي تجاوزتهما ليصل إلى أخيه عمر قبلهما فتهمس لحرير بخفوت: «هل يجب أن نغادر؟! ربما أبي...».

قاطعتها حرير قائلة بعزم: «لن نغادرياً سدير نحن في مكان عام وبصحبة صديقات وليس لنا دخل بمن يرتاد هذا المقهى».

هزت سدير رأسها بصمت بينما تقتربان من صحبة الفتيات لتلقي حرير

التحية بثقة: «مساء الخير».

جلس عامر مطرق النظرات بينما شقيقه عمر يراقبه عن كثب بالتأكيد. عمر رأى دخول حرير مع تلك الفتاة التي يظنها أختها فالشبه واضح بينهما يميل عمر قليلاً للأمام قائلاً: «هل ترغب أن تغادر؟».

رفع عامر وجهه بحدة ليقول رافضاً بانفعال عاطفي: «أنت مجنون إن ظننت أنني قد أغادر اللحظة!».

اهتاجت المشاعر في عينيه وهو يضيف بخفوت: «مرت أسابيع لم أرها فيها إلا مرة واحدة بالصدفة وهي ذاهبة مشياً على الأقدام إلى المدرسة الثانوية أنا أتعذب حرفياً بهذا السجن الذي أنا فيه».

يتساءل عمر بدهشة: «أي سجن؟! ماذا تقصد؟».

رد عامر وعذابه يطل من عينيه: «ما زالت في العدة يا عمر لا أستطيع الاقتراب ولا أستطيع البعد ولا أستطيع التوقف عن التفكير وحساب الأيام ولا أستطيع التوقف عن حبها عشقها رغبتني أن أن أصرخ فيها».

يبتلع عامر ريقه وعيناه تطرفان رغماً عنه نحوها فيراها تتكلم مع صديقاتها بهدوء وابتسامة باردة كأنها سهم جليد في قلبه، يعرف عن يقين أنها توصل إليه رسالة تجاهل فكم هي واهمة وتضيع طاقتها بما تفعل، قال عمر ببعض الحرج: «عامر توقف عن النظر إليها هكذا بالله عليك».

أدار عامر وجهه بعنف بعيداً عنها بينما يتمتم: «إنها في رأسي طوال

الوقت ورغم هذا تشتاقيها عيناى طوال الوقت».

تلك القبلة التي منحتها لأختها عند باب المقهى صَدَّعت جدار مقاومته المتصدع من الأساس حاول أن يفكر بأي شيء بعيداً عنها عن ثوبها الأبيض عن شعرها الناعم الذي استطال حتى منتصف ظهرها عن وجهها الذي يستعيد عافيته عن عينيها الناعستين وألق المحبة فيهما وهي تمنح أختها تلك النظرة الحلوة عن شفتيها المبتسمتين، تأوه في قلبه فيهرب وهو ينظر لأخيه مستنجداً بصوت مبحوح: «أحتاج لأي شيء يشغل عقلي أخبرني أي شيء يا عمر».

فجأة ابتسم عمر ليميل برأسه ويقول: «إن أخبرتك أنني خطبت للتو فتاة فهل سيشغلك هذا كفاية؟».

رد عامر بنزق: «أرجوك جد موضوعاً آخر قابلاً للتصديق أكثر».

بالابتسامة نفسها قال عمر ببساطة: «لكن هذا ما حصل بالفعل قبل ربع ساعة من دخولك تقريباً كنت قد طلبت يد روناى للزواج وقد طلبت مدة للتفكير».

فتح عامر فمه للحظة وهو يعقد حاجبيه وينظر لأخيه بتشكك لكنه لم ينطق فتنقل نظراته مجدداً لجمع الفتيات لكن هذه المرة كان ينظر لقبلة الضحك ذات النظارات وكأنها كانت بانتظار نظرتة فيحمر خذاها؛ لكنها تعبس وهي تحيد بنظراتها للجهة الأخرى عاد عامر بنظراته إلى أخيه ليقول

أخيراً: «أظنك نجحت تماماً بإلهائي احكي لي من البداية.. من البداية تماماً».

أشعل علي سيجارة بينما يتخذ مكاناً خالياً بعض الشيء من الشارع الرئيسي العام في حي الكراة يدخن وهو يفكر مجدداً بالاتصال بها، مرت به بضعة فتيات شابات إحداهن رmqته بنظرة معجبة في العادة يغض الطرف ببساطة؛ لكن لا يعرف لماذا لم يزح عينيه عنها حتى تألقت عينها وتلكأت خطواتها وبدت وكأنها تنتظر خطوة منه وهي تشجعه بنظراتها المتلهفة وعندها فقط تيقظ وتنبه عقله لما يفعله ولا يدري لماذا يفعله؟!

أحنى رأسه وتشاغل بسيجارته ليتجاهل الفتاة كلياً حتى مضت لسبيلها، شعر بالضيق أكثر فأوقع ما تبقى من السيجارة أرضاً وسحقها بحذائه قبل أن يخرج هاتفه ليتصل، شعر بالغيط والرنين يطول حتى فتحت الخط أخيراً أبتعد أكثر لمنطقة أكثر هدوء بعيداً عن زحام المارة بينما يقول: «مساء الخير».

جاء صوتها الرخيم ليوتره وبطريقة ما أزعجه إن لم يبالغ بالقول (أغضبه): «مساء الخير علي كيف حالك».

لماذا يشعر أنها تتهرب منه؟! لقد زار بيت العم رياض مرتين أخريين بناءً على إلحاح الخالة نبراس فيلبي الدعوة بطيب خاطر، يواجه بشجاعة فكرة

الاعتقاد على غياب هيام من ذاك البيت، بالمرة الأولى كان العشاء صعباً للغاية والتوتر سائد لكن في الثانية والثالثة شعر باسترخائه يزيد بل والألفة تتسلل مع العم رياض وهما يتكلمان في مواضيع عامة؛ لكن من ناحية الخالة نبراس كان يشعر أحياناً بالغربة فيتجاهل نظراتها أحياناً التي تحرق فيه وكأنها ترى هيام من خلاله كل هذا وسجى غائبة غير موجودة وهذا أثار استغرابه بالبداية ليتحول إلى هاجس ليعرف السبب وقد شعر عن يقين في المرة الأخيرة أن سجى تتهرب من الوجود وتنسحب لغرفتها معذرة لأن لديها عمل كثير على الحاسوب يخص عملها كأستاذة جامعية، ببعض الجفاف قال لها: «أردت أن أطلب منك إيصال اعتذاري للعم رياض والخالة نبراس لن أستطيع الحضور هذا المساء لدي عمل كثير بالمحل والحاج سليم يريد مني جرداً عاجلاً، ربما سأبيت في المحل حتى الفجر».

كان صادقاً في هذا لكن بالتأكيد كان يستطيع الاتصال بالعم رياض وإخباره، فيأتيه رد سجى بتلك النبوة الدافئة: «قواك الله سأخبر خالتي وعمي لا تقلق».

لم يستطع التحكم في نفسه وهو يسألها بحاجبين معقودين: «هل كنت ستشاركيننا العشاء الليلة أم أنك مشغولة مجدداً؟».

بدت بوضوح في محاولة مستميتة لإخفاء تلعثمها وهي تعتذر بالقول: «أنا آسفة لم أستطع أن أشاركك جلسة العشاء المرة السابقة».

دمه يفور في عروقه وقد تأكد دون أدنى شك أنها تتهرّب! أفلت منه طبعه
الغاضب ليحرجها أكثر بالقول: «والتي سبقتها أيضاً».

تحاول التبرير بحجج تظنها تنطلي عليه: «أنت تعلم بداية عام دراسي
وضغط تنظيم الطلبة و...».

قاطعها بالقول الساخر وصدره يعلو ويهبط انفعالاً غير مفهوم: «صحيح
ضغط العمل! حتى إني عندما اتصلت بك قبل أيام لأكلمك اعتذرت
ووعدتني أنك ستتصلين لاحقاً لأنك مشغولة! لكن لم تكلفي نفسك عناء
الاتصال فيما بعد».

كان حوارهما غريباً وجنونياً ومشاعر كثيرة مختلطة وغير واضحة حاولت
سجى مجدداً التبرير والاعتذار: «علي أنا آسفة جداً لك حق الغضب مني
في هذا تقبل مني اعتذاري».

لطفها الناعم واعتذارها الذي شعره نابعاً من قلبها جعله يهدأ ليسري فيه
ببطء دفء ورغبة للكلام معها أكثر نادى اسمها: «سجى».

ردت ببساطة: «نعم».

تنهد وهو يلوم نفسه لانفلات أعصابه دون سبب حقيقي، لم يكن من حقه
محاسبتها لكنه يريد أن يعرف لماذا تفعل هذا؟ حاول أن يكون هادئاً عقلاً
منصفاً وهو يعترف بالقول: «أنا اتصلت بك ليس فقط لتوصلي اعتذاري
لكن لأسألك».

ردت: «تفضل».

عاوده الشعور أنها غير مرتاحة بل متوترة ليسألها برغبة ملحة أن يفهم:
«هل يضايقك حضوري إلى بيت العم رياض؟».

ردها كان مجاملة وبطريقة ما مراوفاً: «كيف تقول هذا يا علي! على
العكس نحن سعداء بك وخالتي نبراس تحسنت نفسيته كثيراً بوجودك وهذا
انعكس على عمي رياض إيجابياً أيضاً».

يضيق عينيه ليقول بتركيز وكأنه يحاصرها: «لكنه انعكس سلباً عليك
أنت، أشعر أنك تتوترين مني وسأبالغ بالقول إنك لا ترحبين بي».

سارعت للنفي: «أبداً هذا غير صحيح كيف لا أرحب بك أنت أخ غالٍ
علي كثيراً».

ذاك الحدس اللعين في داخله كرجل كان يتوهج وكلمة (كثيراً) التي
قالتها بصدق تدق على باب مغلق مهجور، دون تفكير وجد نفسه يقول:
«أريد أن نتناول طعام الإفطار غداً معاً».

الفصل الثالث عشر

«أريد أن نتناول طعام الإفطار غداً معاً».

شعّت حرارة من وجه سجي وهي تتلمس الإصرار في صوته تلامس خدها وهي تتلعثم بالكلمات تحاول التملص: «علي لكن...».

قاطعها بتلك النبذة الخاصة به وحده عندما يطلب فيُشعر المقابل أنه لا يرغب إلا بتحقيق رغبته: «أريد أن أتكلم معك بعيداً عن عمي رياض وخالتي نبراس ما زال هناك المزيد الذي أود معرفته منك».

أصابع يدها تطرق بارتعاش فوق وهج خدها ولسانها يأبى طاعة عقلها كي تكون أكثر حزمًا في رفض مطلبه، كانت تقاوم مع قلبها بعنف فينتصر العقل للحظة وهي تقول: «لا أستطيع علي أنا آسفة».

أغمضت عينيها بقوة بينما يسود الصمت من الجانب الآخر، مرت لحظات طويلة وهي لا تعرف ما يجري بالضبط بينهما، لولا صوت المارة الذي يأتيها من جهة علي لكانت ظنت أنه أغلق الخط، عندما طال الصمت فتحت عينيها ببطء ثم أجلت حنجرتها تحاول أن تقول شيئاً لتنتهي المكالمة عندما سبقها علي قائلاً بنبرة متحيرة للغاية: «لماذا؟ أعطيني سبباً واحداً».

وكأنها وقعت في شرك هي صنعتها وأعدّته بيديها ثم وضعتة مُخبئاً في طريقها كي يصطادها وهي غافلة! بماذا ترد عليه؟ لماذا من الأساس يجري بينهما هذا الحوار؟! لماذا اتصل بها؟ ولماذا تشعره يحاسبها؟!

لأسابيع تهربت من الوجود معه عندما يحضر لزيارتهم كانت تعاني وهي تسمع صوته الذي يصلها حتى غرفتها بالطابق العلوي فتغلق الباب كحصن يحميها فتتسلل ضحكته العالية التي تخترق مسام الباب لتتسرب إلى مسام قلبها فتكون كشرارة تستهدف موطن عذابها وتقود ثورة بعد سبات السنين، لقد أوشكت أن تنسى تأثيره فلماذا عاد؟! لم تيأس لتقول ببعض الحزم في محاولة (ردع) لتواجه تلك الثورة: «هما سببان يا علي الأول أنني لا أستطيع الجلوس معك في مكان عام بهذا الشكل هذا لا يناسبني، والثاني لأنني فعلاً أحتاج الذهاب باكراً في الغد إلى العمل الساعة الثامنة يجب أن أكون في الجامعة لحضور اجتماع للأستاذة مع رئيس القسم». رده مزق حزمها إرباً وهو يقول بمنطقية: «إذن مشكلتك بالمكان والزمان أنا سأحلها لك بالنسبة للمكان هل تذكرين محل أبي جاسم الذي كنا نذهب إليه جميعاً كطلبة؟ إنه يبعد شارعين فقط عن الجامعة ما زال كما هو يبيع الفطائر والسنبوسك والشاي ليس فيه أماكن جلوس ونستطيع تناول الإفطار ونحن واقفين بشكل طبيعي في الشارع كما يفعل باقي الزبائن أو حتى نقف قرب سيارتك مثلاً أما الوقت فأنا سأنتهي عملي في الجرد عند الفجر وبذلك نستطيع اللقاء باكراً جداً قبل ذهابك لعملك».

لم يعد هناك ما يقال إن استمرت بالرفض فستزيد فضول علي وحيرته ليعرف ما بها، إنه رجل لَمّاح وابن سوق كما يقال وعمله يعتمد على فهم الزبون خاصة وزبائنه من النساء، وكأن علي أدرك أنها على الحافة دون أن

يعرف ماهية تلك الحافة، فأضاف بما لا قبل لها على نكرانه: «أحتاج الكلام معك لقد وعدتني أنك ستسمعيني في كل شيء وستردن علي أسئلتني بصدق مهما كانت وأنا أريد معرفة المزيد».

كانت تحتاج شجاعته قوة شخصيتها التي يشهد لها بها الجميع، كانت تحتاج قناعتها بأن التهرب من لقائه لن يحل المسألة ولأجل هذا عليها أن تكلمه مجدداً: «موافقة علي أراك غداً في السابعة».

دخلت سجي المطبخ وهي تخفي توترها بإتقان بينما تبتسم لخالتها التي بدأت للتو بإعداد العشاء التفتت إليها الخالة نبراس للحظة ثم عادت لما تفعله وهي تقول بنبرة غريبة بعض الشيء: «تعالى وساعديني بتحضير العشاء يا سجي أظنك ستكونين مشغولة الليلة فلن تكوني معي عند وصول علي مؤكداً لديك الكثير لتعدينه للطلبة هذا الأسبوع».

نقطتان التقطتهما سجي بوضوح الأولى تصفها بالإيجابية لأن خالتها أصبحت لا تناديهما إلا بسجي منذ عودة علي للتواصل معهم وياتت خالتها لا تخطط الأمور وأشد تركيزاً؛ لكن ما يمكن أن تصفه بالسلبى حدس سجي الذي يلتقط للمرة الأولى رغبة خالتها لدفعها بعيداً عن الوجود في العشاء المفترض! حاولت سجي أن لا تفكر كثيراً بهذا وتتجاهله لتركز فيما نزلت لأجله فتقول للخالة نبراس بمودة: «حبيبتي لا داعٍ لتحضري شيئاً خاصاً

الليلة ولا تحسبي حساب قدوم علي لأنه اتصل بي قبل قليل وطلب مني أن أوصل اعتذاره لك ولعمي رياض لأنه لن يتمكن من الحضور الليلة فلديهم جرد طارئ بالمحل وسيظل هناك حتى فجر الغد».

توقفت يدا الخالة نبراس عما تفعل لترفع رأسها وتدير وجهها تنظر إلى ابنة أختها قائلة بنظرة باردة: «ولماذا يتصل بك أنت؟ كان يستطيع الاتصال بهاتف عمك رياض». ارتبكت سجي للحظة واقشعر جلدتها من برودة النظرة فردت على خالتها بهدوء ظاهري: «لا أعلم».

تعقد الخالة نبراس حاجبيها وهي تمعن النظر في سجي حاولت سجي أن تتصرف بطبيعتها وهي تبتسم وتقول: «هل تحتاجين مساعدة بإعداد عشاءنا؟».

بخشونة واضحة ردت الخالة نبراس: «لا».

ثم تجاهلت ابنة أختها تماماً وهي تعيد كيس اللحم إلى الثلاجة بعصبية واضحة.

بينما رونا هي مندمجة هي وسممة مع سدير تشرحان لها بعض الأمور عن الجامعة تسرح نظرات حريز في أفكارها الخاصة التي تغلق عليها تراقبها وفاء بفضول وتشعر بالحيرة من ردة فعلها الهائلة جداً لموضوع عمر ورونا هي، فلم تبد أي توتر أو عدم ارتياح عندما أخبرتها عن سر جلوسهن هنا

ولقائهن صدفة بعمر، في الواقع تعترف وفاء أنها تشعر أيضاً بالغيظ من حرير لأنها لا تلقي بالاً ولا أدنى اهتماماً بنظرات عامر الخفية لها هل حقاً لا تشعر بأي شيء لهذا الاهتمام منه الذي استمر لسنوات أم أنها تعاقبه وربما تحمله بعض المسؤولية بضياح ست سنوات من حياتها مع ذاك الأبله نوفل، حسن لقد وعدت نفسها كما وعدت بسمة أنها لن تدخل بينهما قط؛ لكن على الأقل كصديقة لحرير يجب أن تفهم ماذا يدور برأسها مالت وفاء ناحية صديقتها وهي تسألها بهمس: «لماذا تصمتين هكذا يا حرير؟».

فاجأتها حرير وهي تلتفت إليها بوجهها وتقول بهمس خافت: «كنت أفكر بنهاوند».

شعرت وفاء بمزيد من الإحباط! يبدو أن زوجها سيف محق! أنها تحب أن تلعب دور (الخاطبة) و(جامعة القلوب الضالة) كما يحب أن يغيظها بالتسمية أحياناً، نأت وفاء جانباً إحباطها الرومانسي وأفكارها المجنونة التي كانت تراودها منذ أشهر حول عامر وحرير لتركز بموضوع رونا هي وعمر فتزد على همس حرير بهمس مماثل: «أنا وبسمة أيضاً تذكرناها قبلك».

وودت لو تتكلم أكثر مع حرير عن عمر ورغبته المفاجئة بالزواج من رونا هي؛ لكنها شعرت أن التوسع الآن بالكلام ليس مناسباً خاصة ورونا هي أثبتت أن لها (أذن فأرة) حقاً لتلقط كل الحوارات، غمرت وفاء لحرير تنبهها كي تغير مسار الحديث إلى نقطة أخرى فالتقطت حرير الغمزة بينما تواصل وفاء الكلام عن نهاوند بشكل طبيعي: «هل تعلمين أنها تطلقت».

ارتفع حاجبا حرير قليلاً وهي تقول: «حقاً؟!».

هزت وفاء رأسها وهي تؤكد الخبر وتضيف عليه: «أجل ولديها ابنة واحدة».

تبسمت حرير بشجن حقيقي وهي تشعر أنها كبرت كثيراً منذ إتمامها سنتها الأخيرة بالجامعة؛ لكنها حاولت أن تخرج من نطاق هذا الشعور الكئيب لتقول لوفاء: «هل تعلمين أنني منقطعة تماماً منذ تزوجت ولا أعرف أي شيء عمن كانوا معنا بالقسم! حتى إنني لم ألتق بأي منهم».

ردت وفاء بنبرة متحمسة لنقل الأخبار: «أنا أيضاً انقطعت تقريباً ولا أتواصل بشكل دائم إلا معك ومع بسمة؛ لكنني أعرف أخبار الكثيرين منهم، أسماء تلك البنت القصيرة التي تحب لبس الأحذية ذات الكعب العالي هذه تزوجت قبل عامين رجلاً طويلاً للغاية وسافرت معه لإحدى دول الخليج أما صديقتها المقربة بان الرشيقة فهذه استقرت في السويد وأنجبت توعماً ولداً وبنثاً».

تهز حرير رأسها وعيناها بالصدفة تصطدمان بعيني غامر فتعيد بهما بعيداً وهي تغلق الأبواب في وجهه بينما تواصل وفاء حماسها قائلة: «واثق الأشقر القصير هل تذكرينه؟ لقد تزوج ميساء من قسم إدارة الأعمال بعد عامين من التخرج ويعيشان الآن مع بنتيهما في الشمال».

هل تستطيع حرير أن تمنع (قرصة ألم) في قلبها ووفاء تذكر كل هؤلاء

وقد حظوا بنعمة الأولاد؟! منذ طلاقها وهي تفكر كثيراً بالأطفال شعور أقوى منها يجعلها تلامس بطنها باشتياق لم تشعره بهذه القوة طيلة ست سنوات زواج، بل البارحة تحديداً خطرت ببالها فكرة أنها ربما لو خرجت من هذا الزواج الفاشل ولو بطفل فلربما كان ونيساً لها ومبعث فرحها ومنبع إحساس أجمل لم تعرفه يوماً؛ لكنها سرعان ما استعادت بالله من الشيطان الرجيم وعادت التعوذ اللحظة وهي تحاول الابتسام في وجه صديقتها وتسال: «كيف تعرفين كل هذه الأخبار؟».

ترد وفاء بابتسامة عريضة: «من هنا وهناك أُمي دوماً تحب جلسات (المولود) وتجمعات النسوة تعشق صوت (المُلاية) التي تقرأ أناشيد الذكر في محبة الرسول».

ثم تضيف ضاحكة: «بالنسبة إليّ ورغم أنني أحب هذه الأناشيد إلا أنك تعرفين هذه الجلسات هي وسيلة أيضاً لتناقل الأخبار والنميمة والبحث عن مشاريع زواج فأمهات الأولاد يبحثن بين الحاضرات الشابات عن عرائس يناسبن أذواق أولادهن وأمهات البنات يتبارين بعرض بناتهن في أفضل صورة».

هزت حنجرها كنفية بلا اكتراث: «لهذا لا أحب هذه الأجواء تفقدها الروحانية المفترضة وثواب المحبة في الرسول».

لكن وفاء تعلق ببساطة: «أنا أستمتع بما يجري حتى بسمه تحضرها معي

أحياناً ونظل نضحك طوال الوقت للتنافس الحاصل والعروض والمكائد».

على غفلة علقت رونا هي دون سابق إنذار: «أنا أكرهها! تفاهة ما بعدها تفاهة.. أُمي لا تكف عن جري من يدي لأحضرها وكأنني نعجة ضالة تبحث عن صاحبها».

تبتسم سدير وهي تكتفي بالإنصات بوجه خجول متورد بينما تنكاف بسمه أختها وهي تقول بصوت خافت: «اليوم أُمي سترگرد وقد وجدنا صاحب النعجة في مقهى».

عبست رونا هي وهي تحرك نظراتها عفوياً نحو عمر فتجده لاهٍ تماماً بحواره مع أخيه عامر بل إن عامر هو من تنبه لها فيغمز وهو يمنحها ابتسامة عريضة مشاكسة نفخت رونا هي بقوة وهي تقول بتمرد: «أنا لست نعجة! ومؤكد لم أوافق ليكون عمر القماش هذا (صاحبها)».

تحرك وفاء حاجبها صعوداً ونزولاً وهي تغيظها قولاً وفعلاً: «سنرى كيف ستوقفين والدتك عن تزويجك له خلال شهرين لا أكثر».

ينفجرن بالضحك حتى سدير الخجول بينما تتورد رونا هي وهي تطلق أصوات الزمجرة الحانقة لكن حرير لم تشاركهن الضحك بل نظرت بتمعن لرونا هي ثم مالت إليها عبر الطاولة وسألتهما بجدية: «بماذا تفكرين يا رونا هي؟ هل هناك ما يجعلك ترفضينه؟».

فردت رونا هي باندفاع وهي تشير برأسها للأخوين (القماش) قائلة:

«ظننتك لن تحبني أن أقبله»

توقف الضحك وقلب حرير يقرع كالطبل بينما تشعر بعيني عامر تنصب نحوها هذه اللحظة وكأنه سمع جملة رونا هي وينتظر رد حرير عليها، هتفت بسمه بتوبيخ: «رونا هي! ما هذه السخافة؟!».

بدت رونا هي متحرجة للحظة لكنها سرعان ما استعادت ثقتها بنفسها وبأسلوبها المباشر الصريح قالت: «آسفة لم أقصد؛ لكن لماذا نتخرج الكلام وكلنا نعرف أن عامر كان يريد الزواج بحرير ومن نظراته إليها منذ دخوله المقهى أظنه ما زال يريد».

لقد قالت رونا هي لحرير ما لم تستطع صديقتيها المقربتين قوله وكأنها أنارت الضوء حول حقيقة يحومون حولها ويتجاهلون وجودها وإن كان لكل منهم أسبابه، بدت بسمه اللحظة غاضبة بالفعل فتدفع نظارتها للخلف بتوتر وهي توبخ أختها الصغرى مجدداً: «تجاوزت حدودك رونا هي».

نقلت رونا هي نظراتها بينهن بينما حرير تسبل أهدابها وهي تجمع أغراضها استعداداً للمغادرة فتتمتم رونا هي ببعض شعور الندم لتهورها وصراحتها المزعجة: «أنا آسفة حرير».

وقفت حرير على قدميها وفعلت أختها سدير المثل ثم قالت بهدوء: «لا بأس أظن الأفضل أن نغادرها سدير».

وقفت رونا هي ومعها وفاء وبسمه وقد تزايد شعور الذنب لتعاود

الاعتذار: «أنا آسفة حرير لم أقصد إزعاجك».

ردت حرير بابتسامة صغيرة للغاية: «لم تزعجيني أبداً لكننا لا نستطيع التأخر أكثر من هذا».

أوشكت حرير أن تتحرك عندما أوقفتها رونا هي لتقول بعبوس جدي: «رداً على سؤالك أظن من حقي أن أفكر ملياً بمن سيكون شريك العمر حتى لو كان عمر القماش الذي قد تهواه كل فتيات العاصمة ويتمينه سيظل هذا حقي».

اتسعت ابتسامة حرير لتقول بإعجاب: «أحسننت رونا هي هذا ما كنت أحب سماعه منك».

ثم ودعن بعض لتغادر حرير بصحبة أختها وما زالت عينا عامر تتبعانها حتى غابت، ولم تمض دقائق حتى غادر البقية تلوح كل من بسمة ووفاء إلى عامر وعمر بينما تمضي رونا هي للأمام كأنها في عرض عسكري ليضحك عامر خفية وهو ينظر لرونا هي كيف تسير قائلاً بمشاكسة: «عروسك تغادر شامخة الأنف كأنها جندي مكلف».

يبتسم عمر وعيناها تعلقان على حذاءها الرياضي قائلاً: «لماذا أظن أنها ستتعبني؟».

يضحك عامر ويشاكس أخاه هذه المرة بالقول: «تظن؟! كن على ثقة ستجعلك تلف حول نفسك».

كان عامر يضحك من قلبه عندما سأله عمر فجأة: «هل تنوي طلب حريـر
للزواج حال انتهاء عدتها؟».

فتلاشت ضحكات عامر وأطرق برأسه وبدأ غامضاً قليلاً في إجابته وهو
يقول بخفوت: «أنا أنوي العودة لحياتها».

فسأله شقيقه الأصغر ببعض التردد والفضول: «اصدقني القول يا عامر
ألا يهمك أنها كانت مع رجل آخر.. أقصد أنت في داخلك ألا يهمك هذا؟
ولو قليلاً».

يبتسم عامر وهو يهز رأسه وأجفانه مُسدلة، تساءل عمر بحيرة وبعض
الغيظ: «لماذا تبتسم هكذا؟!».

فلا يرد عامر ليضيف عمر بفطنة واستفزاز يدفع أخاه كي يفصح أكثر
وربما يتفكر أكثر: «إن كنت لا تبالي فربما هي تبالي.. أقصد ربما ما زال
داخلها شيء لمن كان زوجها».

أشار عامر للنادل يطلب الحساب ثم قال لأخيه الأصغر بمراوغة: «اترك
هذا الموضوع أخي ما زال الوقت باكراً له».

فطرح عمر تساؤلاً بطريقة لم تخطر ببال عامر: «من قال إنه باكراً؟ ربما
أنهت عدتها بالفعل».

تجمدت تعابير عامر وهو يقول بصوت خافت متوتر كأنه يخشى التصديق:
«كيف؟! لقد مضى شهران وبضعة أيام ما زال هناك شهر ثالث أليست العدة

ثلاثة أشهر؟».

يهز عمر رأسه وهو يقول بقلّة ثقة: «لا أعرف كثيراً بهذه الأمور؛ لكن ما أعرفه أن العدة ثلاثة قروء للنساء اللاتي في عمر الإنجاب».

يهز عامر رأسه بجهل ويسأل بقلب خافق: «ماذا يعني ثلاثة قروء؟!».

يتنحى عمر مفسراً: «حسن هي أمور نسائية أقصد الدورة الشهرية أنا لست متأكداً من الشرع في هذا، كما لست مطلعاً على قوانين الأحوال المدنية».

في لحظة كان عامر يخرج هاتفه وبأنفاس لاهثة كان يبحث عبر الإنترنت عن (عدة المطلقة) فتتسع عيناه وهو يقرأ الرد ومن أكثر من مصدر.

«أخيراً عدتما».

هدر صوت أسعد الجنابي حال دخول ابنتيه الدار، تتجمد سدير مكانها بينما تتصدر حبر المواجهة بصبر وهي تقول: «لم يؤذن حتى المغرب أبي».

تقدم أسعد ومن خلفه تقف زوجته التي تبتذو في حالة اضطراب شديد يخرسها الخوف الذي اعتادت عليه لسنوات مع زوج دكتاتوري بالفطرة، يشوح أسعد بيده وسط الرواق وهو يواصل هديره: «وهل كنت تنتظرين الآذان؟!».

في آخر الرواق يقف خلدون المراهق متوتراً وللمرة الأولى ترى حرير في عينيه نظرة كره! كان يجب أن تتصرف خاصة أن صحة أبيها لا تحتل كل هذا، لامست ذراع أختها المتخشبة وهي تقول لها: «اذهبي لغرفتك حبيبتي».

ما إن تحركت سدير نصف خطوة حتى صرخ الأب: «لا تتحركي من مكانك يا سدير لا تهربي الآن».

عقدت حرير حاجبيها وهي ترد على أبيها بالقول: لماذا تقول لها (لا تهربي)؟! هي لم تفعل ذنباً لتهرب منه، أنا المعنية بالأمر كانت برفقتي مع صديقتي أنا وإذا كنت ترانا قد تأخرنا فأنا وحدي المسؤولة».

ينظر أسعد الجنابي في عيني ابنته الكبرى ويرتعد داخله من فقدائه للسيطرة بينما يتمم من بين شفتيه: «لذلك لم أكن أريدكما أن تخرجا».

ردت حرير بالصبر نفسه الذي يكلفها الكثير من الضغط على نفسها: «لكنك وافقت».

فعلق الأب وهو ما زال ينظر في عيني حرير وكأنه يبحث عن سلطة له عليها كي يجعلها تخافه وتهابه كما السابق فيرد وهو يشعر بالضعف: «لم أوافق أنت جعلت الأمر وكأنني وافقت».

أشفقت عليه وهو يؤذي نفسه ويؤذيهم هكذا ويمتد أثر أذاه عميقاً ومؤلماً، تقدمت لتقف قريباً منه تمنحه بعض ما يريد وهي تكلمه كأنها تسترضيه:

«اهدأ أبى اهدأ أرجوك».

يزم الأب شفتيه كأنه يعترف بضعفه بينما تشير حرير لامها فتسحب الأم إلى غرفة المعيشة ومعها خلدون بينما تقول حرير لأختها الصغرى: «دعينا بمفردنا يا سدير».

تهز سدير رأسها ثم تسارع بخطاها المتعثرة كي تهرب وهي تتجه نحو السلم وتتسابق ساقاها لتسلق درجاته إلى الطابق الثاني، قال الأب وعيناه تفيضان بفحوى كلماته وقد خلا المكان اللحظة إلا منهما: «ماذا تريدان أن تفعلين بعد يا حرير.. تريدان الانتقام مني واستغلال مرضي لتكسري شوكتي أمام أختك وأخيك؟!».

اتسعت عينا حرير صدمة وهي ترد عليه مصعوقة: «أنتقم وأكبر شوكتك؟! أنا لا أصدق كيف تُحلل الأمور بهذا الشكل».

فيبدو أسعد الجنابي تائهاً وقد ضاعت حكمته التي كان يراها في نفسه مع ضياع سلطته كما مارسها بديكتاتورية ليقول وهو بهذه الحالة من الضياع والتأويل غير المنطقي وغير المنصف: «إذن ماذا تفعلين؟! منذ طلاقك وأكاد لا أعرفك، تشجعين سدير كي تخرج هنا وهناك وتتسكع كأني فتاة متحررة لا ضوابط لها! وخذلون سجلته دون علمي في ناد رياضي وجعلته يلتحق بدروس ملاكمة ولا أعرف بمن يلتقي هناك وماذا يفعل بصحبته! أنت تحرضينهما على كسر هييتي والخروج على طاعتي».

تتسع عينا حزين أكثر ويشتغل غضبها وهو يصف سدير وخذون بهذه الأوصاف المجحفة، ثم يتفاهم غضبها مع آخر جملة ودون شعور تلمع عيناها بكل القهر وهي ترد عليه بانفعال: «بالله عليك أبي كفا كلاماً عن الطاعة وكأنها عبودية ومن خرج عنها فهو كافراً».

لكن أسعد ما زال يقاوم ليسترد سيطرته التي يراها أهم من أي شيء آخر فيرد عليها بتعنت وتشبث: «أنا أبوكم طاعتكم لي واجبة».

كانت مواجهة حتمية وقد صبرت كثيراً منذ خروجه من المستشفى؛ لكن لم يعد هناك مجال لتأجيلها، تشعر وكأنها بمفردها تحارب وهي ذاتها تحتاج لمن يحارب عنها، تجمعت الدموع في عينيها وهي ترد عليه تحاول أن تجعله يرى ما يجب أن يراه كأب: «ونحن أبناؤك دعمنا وتقويتنا أوجب أن تمنحنا حق الخيار في حياتنا أوجب أن تمنحنا حبك وحنانك هو الأكثر وجوباً أبي».

كلماتها ألجمت لسانه وهو يحدق فيها كأنه يحارب هو الآخر؛ لكن في معركة أخرى بينما تلوح حرير بيدها ودموعها تهطل رغماً عنها وهي تقول بقوة وصمود لكن بنبرة مكتومة حتى لا يسمعها أحد: «خذون مهزوز ليس لديه أي ثقة بنفسه.. شخصيته منطوية يتجنب حتى إبداء الرأي في أي أمر هل تظنه سيغدو فجأة رجلاً يتحمل مسؤولية عائلة؟! سيصبح نسخة شبيهة من نوفل بل أسوأ بكثير، حبسه بين أربعة جدران لن يحميه كما تظن أنت تربي داخله وحش البلادة والضعف إنه يحتاج الخروج ويصاحب الشباب

المراهقين من سنه ويشاركهم بما يفعلون من نشاطات إيجابية، يحتاج أن يفرغ طاقاته وهو بهذه المرحلة العمرية من تأجج الهورمونات، يحتاج أن يخطئ ويصيب ويتعلم أن الحياة ليست مثالية بل الحياة مجحفة وتحتاج لمن يقارعها وإلا ستكسره».

تتقبض كفاه إلى جانبيه وهو ما زال يقاوم سحبها له لمنطقة أخرى يرفض الاعتراف بوجودها بينما تكمل حرير وصوتها يترقق مع ذكرها لأختها: «سذير فتاة ضعيفة خائفة مرتعبة على الدوام، خجولة حد الانطواء على النفس وقلة الثقة تكبت كل مشاعرها، ليس لديها أي خبرة فكيف ستواجه عالم الجامعة المفتوح، يجب أن تلتقي بأناس وتتعلم التعامل، يجب أن تملك الثقة والدعم منا بدلاً من أن يتلاعب بها ذوو النفوس الوسخة».

يزم الأب فمه يرفض الاعتراف ثم يصر بالقول: «إذن تريدان أن ترييهما على طريقتك، أن تكوني أباً بديلاً لهما أليس كذلك؟! تريدان محو تأثيري عليهما».

تهز حرير رأسها بيأس وهي تمسح وجهها وتقول بتعب: «أنا أحاول تصحيح وضع خاطئ أبي ويشهد الله لم أسيء لصورتك في ذهنيهما أبداً على العكس أحاول زرع التفهم لشخصك وطباعك».

يهدر الأب من جديد باستهجان وسخط: «وهل أنا مختل عقلياً ليتفهما حالتي؟!».

شعرت حرير أنها مستنزفة اللحظة لتقول برجاء حقيقي: «اهدأ أبي أرجوك
ألا يمكننا أن نكف ليوم واحد عن هذا التشنج والتوتر».

لكنه كان أقرب لطفل عنيد وهو يرد عليها متهماً إياها: «كيف أهدأ وأنت
مصدر هذا التشنج والتوتر».

همست حرير وهي تنظر لعينه بيأس: «أنا؟!».

في منطقة عناده وكبريائه يقارع الحقائق بتجاهلها ليتشبث بالحقيقة
الوحيدة التي تمثل الأمان له، منطقة تحكمه وسيطرته التامة فيقول: «أجل
أنت أنت لست حرير التي ربيتها! دوماً كنت تحسبين حساب رأيي وتمثلين
لأوامري التي تصب في مصلحتك كم مرة قلت لك أن تخففي من خروجك
هذا أنت مُطلقة ومن مثلك عليها العيون مفتوحة والألسن تلوك الحديث
عنها».

رغم استنزافها لم تستطع أن تسكت فتزد بقوة: «من مثلي عليها أن تكسر
نظرة هذه العيون المفتوحة التي تريد تمزيقها كمدأ وقهراً وتسد الأفواه
النمّامة من مثلي وقد ضاعت أحلى سنوات عمرها في زواج بائس نهايته
أكثر بؤساً لن تضيع يوماً واحداً كي ترضي تلك العيون الفضولية».

صمتت لاهثة مقهورة وصمت هو محطم الفؤاد لما آل إليه مصير ابنته،
كل يوم يراها ويشعر بالقهر في قلبه عقله لا يفهم إلا أن الحل بعودتها
لزوجها، لا يريد أن يتقبل حلاً آخر، لا يريد حتى التفكير بوجود حل آخر،

دون شعوره وجد نفسه يحاول وصل خيوط مهترئة تمزقت فيسأل: «هل يرسل إليك زوجك نفقتك؟».

كان الأمر لا يطاق، شعرت حرير أنها على وشك الصراخ لكنها كتمت وهي تتحرك ناحية السلم قائلة: «إنه طليقي وليس زوجي ورداً على سؤالك نعم أبي يرسل النفقة».

خطوته تتبع خطواتها وما زال يحاول تجميع تلك الخيوط فيقول: «لكن عدتك لم تنته وربما سيُعيد التفكير ويرد...».

قاطعته وهي على الدريازين تتقلص بتشنج لا يوصف: «عدتي انتهت أبي شرعاً وقانوناً انتهت اليوم تحديداً انتهت كل علاقة لي بنوفل إلى الأبد، لن يستطيع ردي ولن أعود إليه مهما فعل».

شحب لون الأب وقهرته على ابنته مزقت نياط قلبه بينما تتسلق حرير درجات السلم وهي تقول بتعب: «عن إذنك أبي أحتاج للراحة فقط قليل من الراحة».

بفستانها الأبيض الذي اختارته اليوم تلقي حرير جسدها النحيل على السرير وتخبيء وجهها في الوسادة، كانت تبكي بصمت ولا تعرف أسباباً واضحة لبكائها هذا، الفترة الماضية كانت تجد لنفسها أهدافاً تشغلها عن الشعور بالقهر، أجل إنها مقهورة مقهورة رغم كل محاولاتها لإقناع نفسها

أنها تصرفت كما يُملي عليها ضميرها وأخلاقها، أضاعت ست سنوات بالصبر على زواج فاطر عقيم كعقم نوفل ذاته، صبرت على استخفاف أهله بها وتجاوزهم عليها كل هذا لأجل ماذا؟! كي تكون (الفتاة المثالية) التي لا تخطئ؟! لم تخطئ في عيونهم؛ لكنها أجمت بحق نفسها، في المدرسة تسمع همس بعض المعلمات حولها وترى تصرفات البعض الآخر الذي لا يكلف نفسه عناء الإخفاء، معلمة تخشى على زوجها منها وأخرى تقدمها لأخيها المطلق الأربعيني وثالثة قدمتها لأبيها الأرملة الذي عانق الستين! وبعضهن ينظرن إليها بحسرة كاذبة على شبابها وكأنها أصيبت بالعوق أو مرض الجذام، يدها تلامس بطنها فيقتلها الشوق لطفل تحمله لا تعلم ما سر هذا الإحساس المتفاقم لديها أن تحن لطفل إنها لا تفكر بالزواج على الإطلاق لكن يقتلها شوق عجيب لإحساس الأمومة، ربما لأنها تشعر أنها حرمت نفسها كثيراً وتريد استعادة حقوقها كلها، لم تعد تدري سبب احتياج هذا الشعور منذ طلاقها، وربما هذا ما يجعلها تتصرف بـ(أمومة) فياضة مع سدير وخلدون، تنبهت لدخول أحدهم للغرفة وعندما التفتت رأت أمها تدخل وتغلق الباب وهي تقول بوجه مهموم: «أريد أن أكلمك يا ابنتي».

استقامت حرير بجذعها تنظر لأمها وتقرأ في عينيها موضوعاً واحداً لا يتغير فتقول لها بتوقع ساخر: «هل ستحاولين إقناعي بالعودة إلى نوفل والقبول بالعيش كزوجة ثانية؟!».

بدت الأم متحيرة وفي عينيها كلام كثير مترددة في قوله فتمهد له بتردد:

«يا ابنتي أريد أن أقول لك كلاماً عليك مواجهته».

فردت حرير وقد بلغت قدرتها على التحمل أدنى مستوياتها: «أرجوك أُمي لا تبدأي بالكلام عن المطلقة ويجب أن تحبس نفسها بالبيت».

ردت الأم وهي تنظر لابنتها بحسرة توجع قلب حرير أكثر: «بل سأتكلم عن المطلقة التي يقل حظها بزواج ثانٍ حتى لو كانت بعمر الثامنة والعشرين خاصة إن لم تحظ بأولاد».

ترفع حرير كفيها لتدلك رأسها بين خصل شعرها الناعمة عسى أن تخفف من صداد التوتر بينما تقول بتهكم: «ظننتها فائدة!».

عندها قالت الأم: «أُم حسام كلمتني عن ولدها حسام إنه أرمل ولديه ثلاثة أولاد».

رفعت حرير كفها تتوسل: «أُمي أرجوك لا تخبريني عن عريس الآن خاصة...».

قاطعتها الأم بالقول: «فقط اسمعيني».

شيء ما في نبرة الأم جعل حرير ترفع وجهه لتنظر إلى أمها بينما تضيف الأم: «أُم حسام أرادتك لولدها كي تربي أولاده وقد ظنتك عاقراً».

شعرت حرير بالصدمة وهي تتمتم: «أنا عاقر؟!».

دمعت عينا الأم وهي تقول لابنتها: «الألسن لا تكف والناس تلقي اللوم

على المرأة دوماً».

شعرت حريـر بالاختناق لتقول لأمها: «أمي أرجوك لا أريد أن أعرف حتى...».

لكن أمها أضرت بالقول: «عليك أن تعرفي أن أم حسام حالما أوضحت لها أنك لست بعاهر تراجعت».

لم تعد حريـر تفهم إلى أين يقود هذا الحوار حتى أوضحت الأم مقصدها بالقول: «ولدها يريد امرأة عاقراً لا تنجب أولاداً آخرين كي لا تميز بالمعاملة بينهم وبين أولاده».

حقاً ليس هناك كلمات تسعف حريـر اللحظة بينما أمها في واد آخر تحاول تحذيرها وهي تضيف: «الأمر ليس في أم حسام يا حريـر بل بما يقال عنك يا ابنتي أن ينتشر عنك أنك عاقر فهذا يبعد عنك الفرص أكثر وأكثر أم حسام كانت تظن أن هذا سبب الطلاق، أن العيب منك وليس منه ولا أدري أن صدقتني تماماً أم لا».

قالت حريـر بتبلد: «وماذا تريدني مني يا أمي؟ أن أنشر إعلاناً في كل مكان أنني لست عاقراً وطلريقي من كان عقيماً؟!».

فردت الأم: «بل أريدك أن تفكري ملياً يا ابنتي في اقتناص أي فرصة زواج وفي أسرع وقت، وأن تضعي في بالك أي رجل شاب يفضل فتاة لم يسبق لها الزواج حتى ولو كانت في الثلاثينيات على امرأة لها تجربة حتى

وإن كانت في أوائل العشرين».

أخذت حرير نفساً عميقاً قبل أن تنظر لأمها وتقول بألم: «هل تظنين أنني آلة مجردة من الإحساس أنتقل من رجل لرجل هكذا! ومن أجل ماذا؟! من أجل أن أقتنص الفرصة قبل فوات الأوان وانحسار الفرص عني؟!».

شعرت الأم بالضيم ولم تعرف ما ترد بينما حرير تطلب منها: «أرجوك أُمي دعيني قليلاً بمفردي».

تعض الأم شفرتها السفلى حسرة ثم تهز رأسها وتنسحب تاركة ابنتها لوحدها في الغرفة، حدقت حرير بجدران غرفتها وشعرت بالبرد فجأة برد ووحدة وفراغ، جملة أمها (أي رجل شاب يفضل فتاة لم يسبق لها الزواج) تدور في رأسها فلا يخطر ببالها إلا عامر مرادفاً لهذا الجملة، تُرا كيف ستكون ردة فعله إذا عرف بانقضاء عدتها؟ هل سيسعى إليها بقوة أم سيحاول التقليل من شأنها كي يثأر لنفسه.

تعض الأم على سبابتها وهي تكاد تلطم على خدها بينما تقول بغضب: «هل رآك المسكين بحذاء الرياضة هذا؟! حسبي الله ونعم الوكيل».

ترفع رونها عينيها للسقف بملل وتضجر بينما بسمه ترضع أصغر أولادها وهي تشاكس بإضافة المزيد: «وشطيرة الفلافل في يدها أُمي».

هذه المرة لطمت الأم على خدها وهي تولول: «يا ربي! وكيف لم تمنعها

ثم تواصل ولولتها وهي تتطلع لملابس ابنتها بانتقاد صريح: «لماذا لم أصر عليك لتبديل ملابسك السخيفة قبل خروجك».

تأففت رونا هي بقوة وهي تعدل نظارتها وترد بانفعال: «كفى أُمي لقد رأيته هكذا وخطبني هكذا على طبيعتي وإن لم يستطع تقبلي كما أنا فـ...».

مدت الأم كفها لتغلق فم ابنتها بالقوة وهي تقول بصرامة تثير الضحك: «قسماً بالله إن لم تغلقي فمك من الآن وحتى موعد زفافك فسأكمنك بالشريط اللاصق».

تعقد رونا هي حاجبيها وما زالت كف أمها تكلم فمها بينما تضيف الأم: «اسمعي يا بنت بطني بضعة أيام وستبلغين الشاب المسكين أنك موافقة، وقلبي عليه ماذا فعل في حياته ليبتلي بمثلك».

هذه المرة دفعت رونا هي كف أمها لتخرج كلماتها كمدفع رشاش: «أنا أخبرته أحتاج لأسابيع كي أفكر، من يحسب نفسه لأعطيه موافقتي خلال أيام؟! ثم ألا يفترض أن نسأل عنه وعن عائلته؟! كما سأل هو عني لأسابيع! من يدري لعله ارتكب جريمة وأهله داروا عليه أو ربما مريض عقلي كان بمصغ وفر منها! وقد يكون سكيراً عربيداً يقضي ليلاته في الأماكن المشبوهة».

تدخلت بسمه وهي تساعد رضيعها على التجشؤ: «عمر القماش وعائلته من أفضل العوائل سمعتهم نظيفة يعرفهم القاصي والداني، وعمر أعرفه منذ الجامعة وقد كان...».

تلكأت بسمه قليلاً فتساءلت رونا هي وهي تتخصر: «كان ماذا؟! أفصحي؟».

أكملت بسمه بمرأوغة: «كان شاباً طيب الأخلاق».

تضيّق رونا هي عينيها وهي تنظر لأختها الكبرى بتمعن عندما أجفلت بقوة على صوت زغاريد أمها التي رجّت أركان البيت، تقبضت يدا رونا هي ثم زمجرت كأنها وحش صغير غاضب قبل أن تترك أمها لزغاريدها وتغادر غرفة المعيشة بخطوات واسعة حانقة نحو غرفتها وتغلق بابها خلفها بعنف.

في غرفتها ما زالت عابسة حانقة ومتوردة الخدين قد تجيد إظهار قوتها أمام الجميع؛ لكن أمام نفسها تعترف تعترف بتأثرها بالأحمق، وقفت أمام مرآة منضدة الزينة تنظر لملابسها البسيطة نظارتها الطبية وشعرها القصير المعقود كذيل حصان، تقدمت من المرأة فأخذت نفساً عميقاً قبل أن ترفع يدها لشعرها وتفك رباطه، تساقطت خصله الشقراء حول وجهها فيخفف من امتلاء خديها، تنظر لجسدها الذي يميل للامتلاء ليتناسب مع وجهها ويعطيها هذه السمة السائدة أنها فتاة ممثلة وتبدو حتى أكبر من سني عمرها الثانية والعشرين، بتردد تخلع نظارتها التي لا تخلعها إلا عند النوم

فتختفي معالم الغرفة من حولها إلا ما كان قريباً للغاية، فتميل للأمام مستندة بكفيها على منضدة الزينة لتحقق في انعكاس وجهها في المرآة عن قرب شديد حتى تتبين ملامحها دون نظارات تضيق روناها عينيها ثم تهمس: «لماذا اختارني أنا؟ أريد أن أعرف يكفيه صوت كاظم الذي يمتلكه ليذيب قلب أي معتوهة أجمل مني بكثير».

ابتعدت عن المرآة وأعدت وضع نظارتها لتحقق في صورتها المنعكسة وتقول بإباء: «حسن يا ابن القماش فلتزغرد أُمي حتى الصباح؛ لكن موافقتي لن تنالها حتى أقرر أنا هذا».

بدأت خلع ملابسها وهي تفكر عفوياً بنظام تخسيس جديد تتبعه.

مساء

أغلقت نورجان عليها باب الغرفة وهي تغلي بينما تكلم علي على الهاتف وهي تهدر بعصبية: «قل ولا تكذب هل أنت أيضاً تعرف؟!».

رد علي ضاحكاً: «أقسم بالله يا نونة هذان الخائن لم يخبراني بشيء أنا غارق هنا وسط جرد الأقمشة ولا أعرف شيئاً».

لكن نورجان تزمجر بغضبها الناري المنفلت: «كلكم لا تخبروني الحقيقة وسليم يتآمر معكم وينحاز لأمه، يشجعكم على إطلاعها فقط على أسراركم».

فيدللها علي بالقول الرقيق المؤازر: «كيف تقولين هذا وتجمعينني معهم؟! أنا خبيك علي قسماً بالله أي سر جديد عندي ستكونين أول من يطلع عليه حالماً أجد ابنة حلال تتحملني وأتحملها سأطلعك قبل الجميع نونة هل أنت راضية؟».

للحظة تبخر غضب نورجان تماماً وهي تستوعب كلمات علي (حالماً أجد ابنة حلال تتحملني وأتحملها سأطلعك قبل الجميع) ربما قالها بعفوية مازحة وهو يحاول أن يسترضيها؛ لكن السلسلة التي نطقها بها جعلت عينيها تدمعان ليته يفعلها حتى لو تزوج من وراء ظهرها فلن تعاتبه فقط تريده أن ينسى هيام، ويجد امرأة يكمل معها حياته بهناء.

أمسكت لسانها بتعقل ولم تعلق بشيء عندما فتح باب الغرفة ليطل منه زوجها فتعبس في وجهه، بينما تقول لعلي الذي ما زال على الخط: «اذهب لجردك ودعني أجرد الأسرار التي تختبئ في بيتي وأنا ساهية عنها».

تأتيها ضحكة علي الرنانة ثم يرسل لها قبلة عبر الهاتف قبل أن يودعها عائداً لعمله.

بابتسامته الخلافة المغيظة يقف سليم مكتئباً ويستند بظهره على الباب وهو ينظر بترقق لزوجته المجنونة، إنها هي لا تتغير منذ رآها للمرة الأولى تضرب شاباً تحرش بها، العنفوان نفسه والعصبية والجاذبية، سألها وهو يرخي ذراعيه ويتقدم إليها متسائلاً ببعض المشاكسة: «هل ما زلت غاضبة

علينا؟».

تتباعده عنه وهي ترفع سبابتها في وجهه وتقول: «أتركني وحدي يا سليم هورموناتي تشتعل في جسدي وأنت تعرف حالتي التي شرحتها لك عن النساء في سني ورغم هذا لا تراعينني».

يمسكها من كتفيها عنوة وهي تقاومه بينما يميل ليطبع قبلة على خدها عنوة أيضاً ثم يهمس لأذنها كأنه يبوح بسرهما الخاص: «لا تتعللي بالهورمونات ومسائل النساء يا شمالية أنا استلمتك هكذا من أهلك قبل أكثر من ثلاثين عاماً».

تدفعه في كتفيه وهي تهتف به تتهمه: «للمرة الثالثة تفعلها بي هل تذكر عندما تعرف علي على هيام ووقع في هواها وهو في السنة الأخيرة من الجامعة؟ أيضاً أخبرك أنت أولاً ووضع سره عند جدته».

حاول أن يهدئها وهو يناديها برقة: «نونة».

قاطعته وهي تكمل قائمة اتهاماتها: «وعامر ابن أبيه كتمتما الأمر عني أيضاً».

تنجح في الإفلات منه لتتخصر وسط الغرفة وتختم لائحة الغضب: «والآن صغيري عمر يطلب الفتاة للزواج بمباركتكما أنت وأمك وما أنا إلا...».

هذه المرة كان أكثر حزمًا وهو يشدها بالقوة مقاطعاً الهدير الغاضب

فيسترضئها بحلو الكلام والابتسام: «أنت نونة عمود هذا البيت من نستند إليه جميعاً يا مدلة دار تاج الدين القماش».

ربما أثرت بها ابتسامته وتدليله لكنها لم تتنازل تماماً وهو يميل لشفتيها لتبعد وجهها وتقول بخفوت: «لماذا لا يخبرونني عن قلوبهم».

رد سليم بالخفوت نفسه: «ربما لأنهم يعرفون أنك معهم تفكرين بقلب نونة وليس عقلها وهذا خطر خطر جداً سأليني أنا عن مدى خطورته».

تفلت ضحكة منها رغماً عنها ثم تميل لصدره تتوسده فيضمها سليم يمسد على شعرها ويقول: «ادعي لعمر أن يكون حظه مع رونا هي أفضل من حظ أخويه».

همست وهي تربت بأصابع كفها على مكان قلب زوجها: «بإذن الله كل حظوظ أولادي هي الأفضل».

ليفسرها سليم على طريقته قائلاً بعمق: «في هذا أنت محقة الخير فيما يختاره الله دوماً، مهما كان ما نالوه من حظوظ الدنيا فهو خير لهم»

قال هذا وفكره مشغول بعامر الليلة بدا شارداً بعيداً رغم ادعائه المرح والضحك لخطبة عمر.

صباح اليوم التالي الساعة السابعة

تنورة طويلة محتشمة تكاد تصل للكاحلين مع قميص أبيض كلاسيكي،
لتضيف لمستها من وشاح حريري تلفه حول رقبتها وتشده بعقدة أنيقة، ألوان
الوشاح تعددت بين الأسود والأبيض والأحمر وبعض الخيوط الذهبية،
شعرها الطويل المموج مصفف ببساطة والواقع لم يكن يحتاج للكثير، ابتلع
علي ريقه وهو يبعد نظراته الخفية عنها ليستدير بكل جسده كي يستلم
الطلبات من المحل ثم يحملها بصينية بلاستيكية إلى حيث تقف سجي
مستندة بأناقة فطرية إلى سيارتها، كانت ملفتة بأناقته هذه تشعر أنك تغار
عليها من الأعين عفواً دون تفكير ربما طبيعته الحمائية ما تدفعه لرغبة
في إحاطتها بعازل من نوع ما، يخفف من جاذبية مرآها لا يحب أن يرى أي
امرأة مطمئناً للنفوس، دون أن ينظر إليها وضع الصينية فوق سقف السيارة
ثم التقط كوب الشاي ليقدمه لها وأخذ لنفسه كوباً وقطعة فطائر، كان يعلم
أنه يبدو بحالة مزربة ملابسه مدعكة وعيناه محمرتان فعلق ضاحكاً وهو
يقضم من الفطيرة: «أبدو كمتشرد جوار أناقتك الصباحية هذه».

مرة جديدة يشعر بشحنات توتر منها تحاول كتمانها عنه؛ لكنها لا تدري
بمحاولتها تلك فإنها توتره هو شخصياً لم يعد يفكر أو لا يريد أن يفكر بتلك
الشحنات بينهما، ربما هو مخطئ فيما يلتقط هو سيكون مغفلاً بالتفكير
فيه الآن، أخذ منديلاً ورقياً من مجموعة وضعها صاحب المحل في الصينية
مع الطلبات فمسح فمه ثم قال: «أنا مدين لك باعتذار لأنني لا بد قد
أزعجتك بالأمس بكلامي ولم أقدر انشغالك بعملك، أشعر أنني كنت

ابتهمت له وهي تقول بتسامح: «لا بأس علي أنا أيضاً كان يجب أن أكون أكثر ترحيباً ولطفاً معك من حقك العتاب علي في هذا؛ لكنني ظننت الأفضل تركك مع عمي رياض وخالتي نبراس كي تجدوا في بعض راحة تنشدونها أسأت التقدير».

نظر إليها مطولاً ويشعر أنها حفظت التبرير قبل حضورها لكنه تجاوز الأمر وهو يقول: «حسن بما أني لا أريد تأخيرك سأدخل في صلب الموضوع أريد أن أعرف ماذا فعلت لتأخذي ثأر هيام ممن آذاها في تلك المجموعات وأيضاً أولئك الفتيات اللواتي خدعنها؟».

تلاشت شحنات التوتر منها لتظهر بشخصيتها النابضة بالقوة قائلة بثقة ونبرة عملية كأنها تشرح محاضرة مهمة بأسلوب سلس سهل الاستيعاب: «أنزلت منشوراً على الصفحة الرئيسية لحساب (نور علي) وذكرت فيها أنني أختها وأن صاحبة الحساب ماتت في حادث بعد نوبة عصبية أصابتها، بسبب الضغط النفسي والتنمر الذي تعرضت له وقد كانت تعاني الكثير الذي تم استغلاله وذكرت أسماء الفتيات والدور الحقيق الذي لعبته بالتسلي على حساب امرأة شابة مريضة تعاني».

يضيق علي عينيه قليلاً وهو ينصت لباقي كلامها بتركيز بينما تضيف سجي: «أرسلت المنشور في رسائل خاصة لكل من تعامل مع هيام ومنها رسالة قاسية لأولئك الفتيات كما أنزلت المنشور في كل المجاميع التي

كانت (نور علي): «مشاركة فيها».

تساءل علي ببعض التشنج: «كم مجموعة كانت هيام مشاركة فيها؟!».

ردت سجي بهدوء: «عدة مجاميع لا أذكر العدد ولم تكن كلها سيئة يا علي، بعضها كان عادياً مقبولاً وبعضها مضللاً؛ لكن الأسوأ هو الذي أثار هستيريتها بعد أن أنزلت المنشور عنك وهذه المجموعة تحديداً لم أنشر فيها منشوري».

تساءل علي: «إذن ماذا فعلت؟».

عيناها الواسعتان شغتا بالغضب القديم ذاته الذي شعرته قبل سنوات، عندما اكتشفت أسرار هيام لتخبر علي بانتقامها: «قدت حملة بلاغات وشكاوى قدمتها للفيسبوك مع أدلة وبراهين، الموضوع كلفني أشهر من البحث والتقصي وجمع نساء تأثرن سلباً، منهن من تطلقت عندما علم زوجها بالمنشور وأخرى تعرضت لأزمة قلبية لم تحتمل الضغط وقد كانت تعاني قصوراً، وثالثة أجهضت بسبب التوتر الشديد وفي النهاية وبعد ثمانية أشهر أوقفت إدارة الفيسبوك تلك المجموعة نهائياً لأنها تنتهك المعايير».

كان ينظر إليها يكاد يلمس براحة كفيه ثققتها العالية بنفسها، صلابتها وهي تهاجم دفاعاً وانتقاماً لمن آذوا من تحب، ارتبكت نظراتها وهي تتساءل بحرج «لماذا تنظر إلي هكذا؟».

رد عفويّاً: «أفكر بك».

انكششت وهي تتمتم: «تفكر بي؟!».

لم يبال بانكماشها اللحظة وقد جرفه تيار من الماضي يتصل بالحاضر
فيقول: «أجل أنت يا سجي نصف هيام الآخر مثلها الأعلى الذي طالما كانت
تخبئ انبهارها بك».

هذه المرة بدت سجي مصدومة وقد تخلت عن انكماشها ثم غامت عيناها
لتقول: «انبهارها بي أنا؟! أظنك مخطئ».

لكن علي كان شديد الوثوق وهو يضع كل التفاصيل مجتمعة تحت عدسة
مكبرة ليقول بدقة: «لا لست مخطئاً ربما لم أهتم كثيراً بانبهارها هذا في
وقته؛ لكن بعد عزلتي لشهر مع جدي في الشمال ثم لقاءنا أنا وأنت قبل
أسابيع كان كافياً لأستعيد كل شيء حتى أفهم هيام أكثر، فوجدت أنك كنت
دوماً حاضرة أراك في عينيها وهي تتحدث عن النجاح في الحياة عن أهمية
طموحها عن أهدافها، حتى عن معايير الجمال بالإناث كنت مرجعيتها،
وفجأة بدوت لي لغزاً محيراً أكثر من هيام».

ترفع سجي يدها لتلامس شعرها بعدم ارتياح واضح بينما تقول: «أنا
بسيطة للغاية يا علي».

فخالفها علي مجدداً وقد كان غارقاً تماماً في ذاك التيار الذي يجذبه:
«لا لست كذلك على الإطلاق».

سألته سجي بتوتر: «ما الذي تبحث عنه؟». فقال بجدية: «حالياً وفي

هذه اللحظة أبحث عن إجابة لسؤال واحد لا غير، لماذا كانت هيام تلجأ
لغيرنا ونحن بهذه الأهمية لها؟ كيف تلجأ لغيري أنا تحديداً؟».

التمعت عيناها دون أن تشعر وهي تصدقه القول: «ببساطة لأنها لم تكن
تحتمل نظرة أدنى من أي شخص تحبه خاصة أنت».

يعقد علي حاجبيه بقوة وهو يتمتم باستهجان ورفض: «أدنى؟!».

ردت سجي مؤكدة: «أجل انكشاف حقيقة أنها مصابة بـ(مرض نفسي)
يعني النقص والنقص يعني أنها أدنى».

يشوح علي بكفيه في انفعال: «لكن كلنا فينا نواقص ليس بالضرورة
مرض نفسي».

فقالت تختصر الكثير: «وهي لم يعلمها أحد كيف تتعامل مع
نواقصها وتتقبلها».

ظل علي ينظر لسجي وانفاسه لاهثة فيقولها بصوت مبحوح وكلمات
صادقة: «لكني أحببتها ملكت قلبي بكل ما فيها، نواقص ومحاسن ألم
يكن كافياً لتثق بي؟».

أطرقت سجي فجأة ثم قالت بنبرة خافتة كأنها تجد صعوبة بالكلام:
«علي هل نحن متفقان أن هيام كانت تحتاج لعلاج نفسي؟».

رد وهو يضرب بقبضته على حافة السيارة: «أجل».

عندها رفعت عينيها إليه وسأله بنظرة صافية مباشرة: «هل كنت تستطيع إجبارها على العلاج؟».

رد بانفعال: «كنت أستطيع حثها أكثر لتذهب للطبيب».

عاودت السؤال بتأن: «أنا سألتك هل كنت تستطيع إجبارها على العلاج؟».

ظلا هكذا يتبادلان النظر وعلي يستوعب مغزى سؤالها لتكمل سجي بمنطقية: «أنت تستطيع أخذها عنوة إلى عيادة الطبيب أو تهديدها كي تذهب بالإجبار؛ لكن الرضوخ للعلاج خاصة في حالة المرض النفسي يجب أن ينبع منها هي ولو كتفتها وحملتها حملاً على كتفك لن ينفع».

شعر علي بقوته تخور وهو يتذكر ابتسامة هيام تلك الليلة عندما أخذها من بيت والدها وقاد بها السيارة في طريق بساتين النخيل، همس في سره بما لم يستطع لسانه البوح به (لكني حملتها إلى حتفها لم أتصرف بحكمة ذلك اليوم الأسود).

جاء صوت سجي لينتشله وهي تسأله بقلق: «بماذا تفكر؟ لقد شحبت للغاية أنت مجهد يجب أن تعود للبيت وتنام».

نظر إليها مطولاً وهو يستعيد توازنه ود لو يبقى معها لساعات ولا يعرف لماذا يرغب بهذا، فقط يريد الكلام معها هي، قال وهو يطرق: «ربما سأخبرك يوماً عندما أكون مستعداً للاعتراف».

تساءلت سجي باهتمام مؤثر: «الاعتراف بماذا؟!».

رد وهو يتحاشى النظر في عينيها: «بذنب اقترفته بحق هيام ولم أخبر به أحداً».

فقالت له بأسلوبها العجيب كأنه البلمس: « وأنا دوماً مستعدة لسماعك فقط خفف عن نفسك يا علي».

نظر إليها اللحظة وصورة هيام تبتعد عن أفكاره لتسيطر على عقله جملة واحدة قالتها سجي في مقابلة سابقة ومنذ أن قالتها وهي تدور برأسه («أو اختارت آخر ما يمكن تخمينه ككلمة سر فأنا لم أكن يوماً من أولوياتها»).

بدت كأنها تريد المغادرة وهي تنظر لساعة يدها فسأل بتهور متجاهلاً بأنانية حاجتها للذهاب: «لماذا قلت إنك لم تكوني من أولوياتها؟».

تعقد سجي حاجبيها قليلاً وهي تتساءل: «ماذا؟!».

فوضح لها علي وهو يراقب تعابيرها بتلف عجيب. لمعرفة الرد: «في ذاك اليوم بالمقهى قبل أسابيع قلت إنها اختارت كلمة السر المكونة من اسمك وتاريخ ميلادك لأنك لم تكوني يوماً من أولوياتها».

سكن محياها الجذاب ليبدو في أوج جاذبيته حثها لترد: «أخبريني سجي أشعر أنني كنت أجهل الكثير عن هيام ولا يهمني إن كانت قلة إدراك مني أو لقصر المدة ما يهمني أن أعرفها، فردي علي يهمني أن أعرف لماذا تشعرين هكذا».

شعر أنها كانت حذرة جداً بالإجابة: «لأنها الحقيقة ولا تظن أنها لا تحبني على العكس كانت تعتبرني ملجأ لها، من تعتمد عليها لتحميها عند الضرورة؛ لكنها...».

صمت ولم يعرف علي بما دار في خلدها تلك اللحظة، قالتها سجي في سرها وهي تخفيها عنه، احتاجت أن تعتقد أنها تخبر أحداً ما عن هذا سواء علي أو غيره («لكنها لم تذكرني يوماً أمام أحد بقيمتي الحقيقية عندها لم تفكر يوماً كيف أشعر وماذا أحتاج منها بالمقابل لم تعطني أي أهمية أو أولوية بحياتها، رغم ما تحمله نحوي من مشاعر إلا أنها لم تظهرها لي يوماً ولا أعرف أيها يؤلم أكثر، أبنى الوحيدة في عقلها الباطن التي تستأمنها على أسرارها أم لأنها تعرف أن لا أحد سيخمن اختيارها اسم وتاريخ ميلاد ابنة خالتها التي لا تتكلم عنها مع أحد»).

طال حوار الروح وصمت اللسان فتساءل علي باستغراب: «لماذا صمت يا سجي؟ لم تكلمي كلامك».

نظرت في خضرة عينيه ثم قالت: «لا شيء فقط هي لم تكن تجيد التعبير عن مشاعرها». لحظتان أو ثلاث من النظر في عيني بعض هكذا قبل أن يقول علي: «عينك تقولان أكثر مما يفصح لسانك يا سجي».

وفي سره كان له حوار أيضاً (لم أر عينين غامضتين ومعبرتين مثلهما قط، مرأتان من السحر) ثم ينطق لسانه بحوار آخر: «هل تعلمين أنك

الشخص الوحيد الذي أستطيع التحدث معه عن هيام دون توتر».

عاودت النظر لساعة يدها وهي تقول: «ربما لأنني أختها».

شعر أنها تدفعه فجأة بينما تضيف على عجل: «آسفة يجب أن أذهب الآن».

خلال أقل من دقيقة كانت تبتعد بسيارتها عنه وهو يقف على الرصيف حاملاً الصينية ويتابع أثرها بنظراته، ثم وجد نفسه يتذكرها بصعوبة أيام الجامعة، لا يذكر أنه رآها تلك الفترة وما تلاها إلا عندما تكون بصحبة هيام ولم يفكر مرة أن ينظر ناحية سجي حتى من باب الفضول، كأنها كانت مخفية بعناية في ظل هيام بل حتى ربما تسرب لعقله الباطن أنها منطقية متباعدة لا تحب الاختلاط ولا تهتم إلا بدراساتها؛ لكن سجي التي يراها الآن تمحو الصورة المظلمة المضيئة؛ إنه يرى اليوم امرأة لا يمكن لأي ظل حجبها.

عند الساعة العاشرة كانت حرير تدخل بالسيارة إلى الشوارع الداخلية للحي لقد أوصلت شقيقها خلدون للنادي الرياضي بنفسها رغم إصراره كي يذهب بمفرده بالحافلات العامة؛ لكنها شعرت به متوتراً ومنزعجاً بشكل انفعالي فأرادت أن تتكلم معه على انفراد وادعت حاجتها للخروج وتغيير الجو، لم يتكلما عما حصل بالأمس من والدهما لكنها استطاعت أن تمتص

انفعاله المكبوت وهي تضحكه بحكاوى الفتيات في المدرسة التي تدرس فيها، تشاءبت وهي تشعر بالنعاس لم تنم جيداً ليلة الأمس؛ لكنها شعرت أنها أفضل مع الفجر، أدت الصلاة وقرأت القرآن ثم جلست وحيدة في المطبخ تحتسي كوب شاي، لو كان بيدها لجعلت أسبوع الدراسة مستمراً لسبعة أيام وليس خمسة فقط! لا تحب البقاء في البيت خاصة مع تدمير والدها الدائم وإشاعة جو مشحون، ليت هناك طريقة لجعل سدير أيضاً تلتحق بشيء يلهيها يوم السبت بدلاً من التأثير بشحنات أبيهم السالبة، وبينما تسلك حريز طريقها المألوف للوصول للشارع الفرعي المؤدي لبيتهم تحركت سيارة مألوفة كانت تركن على جانب الرصيف لتقطع طريقها.

تشنجت أصابع حريز حول المقود عندما ترجل عامر من سيارته وهو بنظارته الشمسية الداكنة، انفعال دب في جسدها يجعل الأدرينالين عالياً فتأهب لهجوم تلقائي كي تواجه هجوماً محتملاً منه، وصل إليها وبهدوء نقر على شباكها فكزت على أسنانها وهي تفتح الشباك عابسة لتقول له بفضاضة: «لماذا قطعت طريقتي؟ ماذا تريد؟».

لا ترى عينيه لتخمن ما يدور في رأسه بينما تحركت شفتاه قائلاً بصوت منخفض: «أنا أنتظرك منذ ساعات على أمل أن ألتقيك بأي شكل؟».

هذه المرة كان قلبها يخفق بقوة ليس تأثراً به إنما تلك الطاقة التي استطاع عامر دوماً إثارتها فيها وكأنها عادت ابنة الثانية والعشرين في لحظة، قالت بعبوس أشد: «ماذا تريد؟».

عندها قال بل منح نفسه حق السؤال: «هل انتهت عدتك؟».

للحظات شكت حرير بما سمعته أذناها لتقول وهي تستوعب جرأته: «هل أنت مجنون؟! توقفني وسط الطريق لتسألني عن عدتي!».

قال عامر بهدوء مستفز: «أنا سألتك سؤالاً طبيعياً يا حرير لا أظن سؤالاً فيه أي جنون بل إن بقاؤنا هكذا وسط الشارع هو الجنون بعينه لمن سيرانا، فأرجو منك الرد سريعاً. لا تركك تمرين».

تزم شفيتها وهي تقول له بمقاومة: «أتقايضني؟».

رد بلا خجل: «شيء من هذا القبيل».

عندها قالت بعناد وعينيها تقدحان غضباً: «أستطيع ترك سيارتي حيث هي والعودة مشياً على الأقدام».

بالهدوء المغيظ نفسه يرد: «وسأرافقك مشياً أيضاً ولن أكف عن ترديد السؤال نفسه فلا تكوني طفولية هكذا وردي ببساطة نعم أم لا؟ أنا لا أحاول إزعاجك إنما أريد إن أعرف منك حتى لا يكون هناك أي شك».

في تلك اللحظة رن هاتفها فالتقطته حرير لترى أن المتصل لم يكن إلا أباه، زفرت بقوة ثم التفتت لعامر وقالت بحدة: «نعم انتهت، حرك سيارتك في الحال يجب أن أعود».

هل شعرت بشبح ابتسامة يطوف مدغداً شفيتها المرتعشتين؟ ارتبكت

وغيضت في الوقت ذاته، بينما عامر يخرج من جيبه ورقة مطوية ليقول بصوت مبحوح وهو يمد يده كي يضع الورقة بمحاذاة النافذة الأمامية من الداخل: «أتصلي بي حرير نستطيع التكلم كراشدين».

مدت يدها بحدة وأوشكت أن تلتقط الورقة لتمزقها لكنه قال بهدوء: «لا تفعل هذا لأنك إذا لم تتصلي سأعاود اعتراض طريقك، ليس بيدي حل آخر يجب أن نتكلم وليس لي أي فرصة للقاءك على انفراد».

ثم استدار ومضى ناحية سيارته ليحركها، بينما أحد المارة من أبناء الحي يسأل إن كان يحتاج لشيء، فبرر عامر ببساطة أن (الأخت) كان لديها عطل بسيط في السيارة وأصلحه.

الفصل الرابع عشر

الساعة العاشرة مساءً

كل جسدها ينبض بالتوتر وهي تقف جانباً تحاول إظهار الهدوء دون محاولة التدخل، بينما تراقب أباهما يقف مستنفراً وسط المطبخ يستقبل دخول خلدون بصراخه الهادر: «أخيراً عدت للبيت! حمداً لله على السلامة، ولماذا لم تكمل ليلتك في الخارج حتى الفجر».

يقف خلدون عند باب المطبخ الذي دخل منه للتو بملابسه الرياضية الصيفية المتسخة وشعره المشعث وعرقه الذي ما زال لامعاً على جبهته، بدا متفاجئاً باحتياج أبيه فينقل نظراته بين أبيه وأمه التي تقف في ظهره من جهة وبين أخته حير التي تقف جانباً ملتزمة الصمت من جهة أخرى، أشفقت حير على أخيها وقد تحولت مفاجأته إلى التوتر وهو يقول مبرراً بثقة وليدة: «كنا نلعب كرة القدم في الشارع أنا حتى لم أكمل باقي الشوط معهم وعدت باكراً».

وكان كلمة (باكراً) استفزت الأب أكثر ليصرخ وهو يتقدم منه بعنف: «باكراً؟! هل تسمي منتصف الليل باكراً؟! هل تظنني غيباً لأصدق كذبة كرة القدم هذه، اقترب مني أيها الفاسد المنحل لأشم فمك».

كان أسعد يريد تشمم رائحة ولده الذي ابتعد عنه بعنف مماثل وهو يرد على أبيه بغضب: «أنا لست بفاسد ولا منحل لماذا لا تصدقني أنني كنت

أَلْعَبَ ثُمَّ إِنَّهَا لَمْ تَتَجَاوَزِ الْعَاشِرَةَ».

تقدمت حرير وتوترها يبلغ أقصاه وحاولت إمساك ذراع والدها؛ لكنه نفض يدها وهو يواصل صراخه بمواجهة خلدون: «لا ترد علي يا قليل الأدب.. يا عاق.. سأرييك من جديد».

تصاعد العنف والأب يتحرك يشوح بذراعيه في عشوائية يحاول الوصول لولده، بينما تقف في وجهه كل من زوجته وابنته الكبرى، أما خلدون فيصرخ هو الآخر وعينه تغليان بالغضب: «أنا لست قليل الأدب ولست بكاذب».

حاولت حرير إمساك ذراعي أبيها من جديد وهي تقول له بأنفاس مخنوقة من شدة التوتر والقلق: «أتوسل إليك أبي يكفي هذا انظر لملابسه ووجهه إنه صادق».

دفعها أسعد بعنف حتى تأوهت وهي ترتطم بظهرها في حافة إحدى خزانات المطبخ، بينما يصرخ بصوت جهوري: «اخرسي أنت سأريكم جميعاً من جديد».

كان هستيرياً في غضبه وحرير تعاود الوقوف بينه وبين خلدون لتمنعه من ضربه وأمها تبكي وتساعد ابنتها لتحاول إيقاف زوجها عن انفعاله العنيف، بينما تقف سدير على بعد بضعة أمتار تسد لأذنيها بكفيها وتطبق أجفانها بقوة، كان أسعد ينهت وهو يقاوم محاولات حرير وزوجته لتطويقه وإبعاده

وعيناه في عيني ولده خلدون الذي يقارعه النظرة بالنظرة فيستفزه أكثر،
هادراً بمزيد من الوعيد: «أقسم بالله سأجلدك بالحزام إن لم الأمر هل تظن
أنك كبرت وخرجت عن طوعي».

الأم لا تكف عن البكاء وهي تتوسل لزوجها أن يتوقف بينما حرير صامدة
تنته من التعب وهي تحاول مجدداً امتصاص غضب أبيها غير المبرر:
«اهداً أبي.. خلدون ولد طيب».

لكن الأب لم يعد يستمع لأحد في هياجه هذا حتى جاء صوت خلدون
كالسيف الذي قطع ضوضاء العنف فأسكتها: «أنا أكرهك».
تجمد الجميع وخلدون يكررها: «أكرهك».

يحدق أسعد في ولده ويكاد لا يستوعب ما سمعه للتو منه، ثم فجأة
انعصر وجهه وبانت شيبته! استدارت حرير لأخيها وهي تهتف به بلا تصديق:
«خلدون!».

فانفجر خلدون ليهاجم بكل ما يعتل في نفسه منذ صغره ويكتمه دون أن
يجرؤ على البوح به لأحد: «أنت أيضاً تكرهينه حرير وسدير وحتى أمي كلنا
نكرهه ولا نطيعه».

إن هي إلا صفة وكلمة وجهتها حرير لخلدون دون تفكير: «كفى!».

الأب تمايل قليلاً لتسنده زوجته بالخفاء وسدير لم تحتل أكثر لتركض
مهولة نحو السلم تتسلق درجاته هرباً من كل هذا، أما حرير فتقف بعينين

متسعتين ذهولاً كذهول أخيها، للمرة الأولى في حياتها تصفعه كما كانت
المرة الأولى لخلدون المراهق كي يفصح عن دواخله المكبوتة، اغرورقت
عيناه بالدموع حتى فاضت وسالت على خديه لثمتزج بعرقه واتساخ وجهه
من أثر اللعب، هتف باختناق وهو ينظر لأخته بأذى عميق: «أنا لم أفعل شيئاً
كي تؤذونني هكذا.. لم أفعل».

ثم ركض باكياً ليلحق بطريق أخته سديراً متسلقاً درجات السلم.

في اليوم التالي الساعة السادسة صباحاً

عيناه تراقبان إشراقة الشمس البهية من الشباك لم يستطع النوم إلا
بشكل متقطع، اليوم لديه عمل كثير استعداداً لدراسة شاملة لسوق الستائر
الذي ينوي والده الدخول فيه؛ لكن ليس هذا ما جعله يعاني صعوبة بالتركيز
طيلة يوم الأمس ثم أبقاه صاحياً أغلب الليل إن هو إلا جهاز لعين لم يكف
عن النظر إليه كل خمس دقائق ليضعه جوار وسادته وهو يخلد للنوم ينتظره
أن يرن ولا يرن!

زفر عامر بقوة ثم تحرك ليغادر سريره، يكلم نفسه موبخاً وهو يفتح خزانة
ملابسه ثم ينزع عنه بلوزته القطنية: «ماذا كنت تتوقع؟! طوال ساعات يوم
الأمس وأنت تنتظر كل حواسك.. تنتظر هل توقعت أنها ستتصل بك
وتبادللك الأشواق! أم تخبرك ببساطة أنها موافقة على البدء من جديد! أحمق

لم يكمل جملته عندما رن هاتفه اللحظة، بلهفة عاد لسريره حيث ما زال هاتفه جوار وسادته فتشبع عيناه وقلبه ينبض كأنه يهز أركان حياته كلها بهذا النبض، ابتلع ريقه وهو ينظر للرقم الغريب ولا يحتمل فكرة أنها قد (لا تكون) هي فتح الخط وهو يتماسك بنبرة صوته ليقول متسائلاً: «من معي؟».

الصمت من الطرف الآخر جعل نبضه يرتفع في أقصاه فيستند بكفه الحر على الحائط القريب وهو يغمض عينيه معاوداً طرح السؤال بصوت مبحوح: «من معي؟».

لكن لحظة! هناك أصوات سيارات أم أنه يتوهم؟! أبعد الهاتف عن أذنه وفتح عينيه كي ينظر إلى الشاشة ويقرأ الساعة التي تشير السادسة وتسع دقائق! حدسه كان قوياً ليؤكد له أنها هي! لكن قلق انتابه فجأة من الوقت المبكر الذي تتصل به وصوت السيارات الذي يخبره أنها في شارع عام تدب فيه الحياة الصباحية باكراً، هل يعقل أنها تخرج للشارع العام في هذه الساعة كي تكلمه فقط؟! هذه المرة قالها بثقة والقلق استبد به: «حرير ردي علي».

أيا ما توقعه فمؤكد ليس هذا الصوت المنهك والنبرة الباكية شبه الهستيرية: «ماذا تريد مني يا عامر؟».

لم يهتم بالسؤال وكل اهتمامه الآن في حالتها الغريبة ولماذا تتصل به
باكراً هكذا.

سألها بخديبة وهو يتحرك تلقائياً ناحية الخزانة: «أين أنت؟».

كان يخرج سرواله الجينز وقميصاً كي يرتديهما، بينما ترد عليه بانهيار
باكٍ وكلمات مبعثرة: «في الشارع أجلس بسيارتي ولا أعلم لماذا أتيت إلى
هنا».

يسألها وهو يزرر قميصه: «أي شارع؟». ردودها كانت تقلقه أكثر لأنها
بدت غير واعية تماماً: «عند محل بيع الشاي قرب المستشفى».

عرف مقصدها دون أن يتأكد ضغط الهاتف بين خده وكتفه بينما يلبس
سرواله قائلاً: «سأتيك على الفور عشر دقائق وسأكون عندك إنها قريبة».
هتفت به: «لا إياك أن تفعل».

ثم أخذت تشهق بالبكاء المرير وتعاود السؤال بهستيرية: «رد عليّ فقط
ماذا تريد مني؟ عما تبحث لتأخذه؟! هل تظنني ما زلت نفسها حرير؟ أم أنك
تريد الانتقام لأنني ألمت قلبك يوماً؟ حسن يا عامر أنا لست نفسي (حرير)
وانتقامك أخذته وزيادة أؤكد لك».

بدت إلى جانب هستيريتها وبكائها في حالة غضب غضب عشوائي
وكانها تتخبط بين أتونه وتتألم، كان يغادر غرفته وهو يستمر بالكلام معها
بصوت خافت حتى لا يوقظ أهله: «حرير فقط دعيني أطمئن عليك..»

صوتك غريب ويقلقني».

لكنها كانت في أشد حالات غضبها اللحظة وهي تهدر فيه: «قلت لك رد علي ألم تطلب مني الاتصال لتتكم كراشدين؟! إذن رد.. رد لماذا نظرت إلى تلك الليلة وكأنني خنتك؟!».

كان يخرج للمرأب فيتوجه للبوابة كي يفتحها وهو يتساءل ببعض التشوش: «أي ليلة؟! عم تتكلمين؟!».

يفعل كل هذا لاهثاً ما بين الإسراع بالخروج وبين متابعة كلماتها ومقاصدها ليفك لغز حالتها المنهارة هذه ترد عليه بانفعال: «لا تنكرها لقد أشعلت النيران بحروفها كي أراها وأنت تصمني بالخيانة».

كان يخرج بالسيارة الآن يقودها على عجل وهو يهادنها بالكلام ويحاول التركيز: «فقط قل لي متى؟ اهبطي حرير وسنتكلم في كل ما تريدين».

لكنها في حالتها الغريبة تلك لم تكن تبحث عما يهدئها، لقد أدرك اللحظة أنها انفجرت وكانت تحتاج لهذا الانفجار، تهتف به: «أُتسأل متى يا عامر؟! في العرس عندما رأيتني مع نوفل».

زم شفتيه ولم يستطع الرد فتهتف به مجدداً بإصرار أشد: «أخبرني قلت لك أخبرني.. أريد أن أعرف لماذا نظرت إليّ هكذا؟!».

رد بجمود وإشارة مرور توقفه: «لقد خنت كلمة قالها لك قلبي هل تذكرينها حرير كنت تلبسين ذات الثوب الفيروزي الذي شهد تلك الكلمة

لم يستطع منع نبذة اتهام أن تتسلل لكلماته هل يلام عاشق مجنون مثله لا يعرف منطقاً ولا تحييداً لمشاعره فتأتيه حجة حرير لتدحض (اللامنطقية):
«أنا لم أعدك بشيء... لم أقبل بها لتحملني مسؤوليتها».

فيردها عليها ولسان العاشق يغلبه وألم السنوات الست يجد متنفساً
ليجهر بالآه: «ولم ترفضها كنت على الأقل تستطيعين التحلي بالشجاعة
وإخباري بنفسك أنك ستزوجين غيري هذا كان حقي عليك يا حرير».

لم ترد مباشرة بل صمتت للحظات قبل أن تقول بنبرة قوية ثائرة: «لقد
سئمت.. سئمت منكم جميعاً وأنتم تنظرون إلى كجبانة متخاذلة».

تمتم اسمها: «حرير...».

فقاطعت أي جملة كان سيقولها لتغلي الكلمات المتدفقة المتفجرة على
فمها فتبدأها بتهكم مرير تتوسطها مواجهة واقعية لما كان سيحدث وتنتهي
باعتراف لم تقله سابقاً إلا لنفسها.

«هل تألم قلبك يا عامر لأنني تزوجت ولم أخبرك؟ وماذا كنت ستفعل وقتها
لو أخبرتك؟ كنت ستزيد الوضع سوءاً أستطيع تخيل كل فعل متهور كنت
ستقدم عليه وقد كان يكفيني ما حصل تلك الليلة عندما تشاجرت لأجلي
وأثرت فضيحة في العرس وبسبب هذا أصر أبي على إتمام زواجي من نوفل
حال إنهائي الامتحانات هل رأيت يا عامر؟ أنت شريك بهذا دون أن تعلم،

تحولت حياتي لجحيم منذ تلك الليلة، أبي خيرني بين طاعته ومعصيته،
حبسني بين جدران سلطته وطوقني بحدود الجنة والنار إن خطوت للجنة
بإرضائه خسرت نفسي، وإن خطوت النار بعصيانه خسرت كل شيء، كم
كنت ساذجة باعتقاد سخيف كهذا أبيض وأسود!«.

لم يستطع عامر النطق بكلمة ربما سبق لأخيه عمر أن نوّه أمامه مؤخراً
لأسباب حرير كي تخفي أمر زواجها عنه؛ لكنه لم يتصور أبداً أن يكون
والدها أجبرها بالطريقة التي تعبر عنها حرير اللحظة! غلى الدم في عروقه
بينما يسمع صوت حرير مرتجفاً بالتعب الواضح: «إن كان قلبك انكسر يا
عامر فأنا التي روحها انكسرت، وجدت فمي مكمّماً برباط مخادع اسمه
(طاعة الأب) رباط واسع مطاطي ولم أدرك مدى مطاطيته إلا عندما
استخدمه أبي بلا رحمة.. ست سنوات مخنوقة والرباط يتسع ويتسع بأيادٍ
كثيرة أخرى، بينما أشعر بحياتي تتسرب مني».

فجأة عاودت البكاء لكن هذه المرة كانت تبكي بطريقة رقيقة للغاية
تناسب نعومتها وشفافية روحها، كاد يصل للشارع العام حيث المستشفى
بينما تخرج الكلمات تلقائية من فمه: «حريرتي لا تبكي بالله عليك».

لم تنتبه لاسم التدليل الذي أفلت من لسانه بينما تتنهد وتشهق ببقايا
البكاء وهي تهمس كأنها تكلم نفسها: «أنا تعبت.. تعبت».

قالها بجدية وهو يعنيها: «دعيني أعينك».

ردت عليه ببؤس كأنه هو الآخر مصدر تعب لها: «أنت لا تريد إلا الزواج من فتاة أردتها يوماً ولم تحصل عليها».

رغم تألمه من (اتهامها) الذي يعترف أنه (كان) يقارب الحقيقة فإنه اللحظة وبعد كل ما سمعه منها لا يريد إلا أن يكون عوناً وسنداً حقيقياً في حياتها، فعبر عن صدق نواياه بالقول: «انسي ما أريده أنت مجهدة فقط دعيني أدخل حياتك لأسندك».

بدت مشوشة ومرهقة للغاية وهي ترد عليه: «أنا متعبة عامر ولا أدري ما أريد اللحظة يكفي ما حصل ليلة الأمس».

سألها وهو يركن سيارته على جانب الطريق ويترجل منها: «هل تشاجرت مع أبيك ليلة الأمس؟ ألهذا أنت بهذه الحالة؟».

لكنها اكتفت بالرد وكأنها توشك على النوم: «أرجوك دعني الآن».

لم يستغرب أنها أغلقت الخط وهو لم يعاود الاتصال بل تحرك سريعاً وعيناه تبحثان يميناً وشمالاً بحثاً عن سيارتها حتى وجدها، خطواته الواسعة تهوّل نحوها وقلبه يهدر بعزيمة وكلما اقترب ميّز هيئتها المنحنية بكليتها فوق المقود كأنها نامت بالفعل أو ربما أغمي عليها!

يده كانت ترتجف وهو يفتح باب السيارة للمقعد المجاور ولم يطمئن إلا عندما رآها تهب مجفلة بخوف تحديق فيه بغريزة الدفاع عن النفس، ثم تلاشى خوفها حالما ميزته ليزر الحلق وسط إجهاد وجهها المحمر من

البكاء: «ما الذي أتى بك؟! ألم أقل لك ألا تأتي؟!».

يحدق في وجهها وكلماتها ترن في أذنيه وكأنه يقرأها مجدداً في حزن وجهها، أجل إنها حزينة حزينة حتى العمق خلف كل القوة والشجاعة ستبقى قطعة حريرة تحتاج للعناية كي يستمر بهاؤها، لا يعلم لماذا اتصلت به تحديداً ربما احتاجت لطاقة من نوع ما أو ربما احتاجت لمن يستفزها لتنفجر! لكن لا يهمه أسبابها الآن كل ما يهمه أنها تذوي أمامه اللحظة، وتحتاج لمن يتلقفها بين يديه باحتراس كي لا تقع منه وتنطفئ، همس وعيناه تتعلقان بعينيها: «يا إلهي جفناك متورمان هل كنت تبكين طوال الليل؟!».

ما زالت تقاوم حاجتها لتتكلم عما يؤذيها حقيقة وجعلها تخرج في هذا الوقت الباكر تهيم دون هدى فتصرخ به: «لا شأن لك! انزل من سيارتي، لا أريد العودة للبيت».

كل ما تقذفه به لتدفعه لا ينجح بل يرميه بدوره خلف ظهره وهو يسألها بصبر: «فقط قل لي ماذا حصل ليلة الأمس؟».

تزمّ شفتيها وترتعش نظرة ضعف في عينيها وكأنها غرزت شوكة في قلبه يبتلع ريقه وهو يقاوم آهة قلب متيم ليسألها بتخمين في نبرة صوت هادئة خافتة: «هل تشاجرت مع أبيك؟».

أخذت دموعها تنسكب فتمسح وجهها بظاهر كفها وهي تشهق بالبكاء

بتقطع وتقول: «لست أنا هذه المرة بل تشاجر مع خلدون ويتهمني أنني أعصيه عليه».

عيس عامر وهو يقول بنبرة حازمة: «حرير اهدئي احكي لي ما جرى».

مد يده ليسحب بعض المناديل الورقية من علبة صغيرة تضعها بين الكرسيين ليعطيها لها يحثها أن تمسح وجهها وتهداً قليلاً، استجابت له عفواً فأخذت المناديل لتمسح وجهها وهي تقول باضطراب وألم: «خلدون قال له (أكزهك) وأنا.. أنا صفعت خلدون لم أستطع تحملها منه رياه أنا أسوأ من أبي!». قالتها ثم عاودت البكاء من جديد ذابت نظراته وهو يلمس هذه النعومة الداخلية منها يحاول فصل مشاعره وهو يقول بقناعة وعقلانية: «لم تخطئي في غضبك منه على خلدون أن يحترم مكانة أبيه مهما قسا عليه».

كانت مشوشة وبدا جلياً أن الأمر ليس شجاراً عائلياً عادياً هناك ما يؤذيها ويؤلمها بشدة، أخذت تهذر وفي هذرها يجد بعض الإجابات: «أدعي أمام نفسي أنني أريد مساعدة خلدون وسدير كي يخرجوا من الحلقة الخانقة التي يطوقنا بها أبي لكنني لست إلا نسخة منه كيف صفعته هكذا؟! كيف؟! خلدون الحبيب الطيب لا يستحق منا كل هذا الضغط والإهانة، لو رأيت نظرتة إلى ليلة الأمس لقد مزق قلبي أشلاء ليت قلبي يموت! لقد خذلته وأنا أكثر من يعرف مرارة الخذلان».

في ذاك الحيز الصغير نسبياً من السيارة وهي تبوح بكل هذا لم يفكر إلا باحتضانها وكأن رغبته المحرمة عليه وجدت طريقة للتحقق بشكل آخر، ارتجف رغماً عنه وهو يقول لها بخفوت: «أحضنيه».

أخيراً استطاع الحصول على نظرة واضحة من عينيها نظرة حملت تساؤلاً رقيقاً كرد صامت على كلمته (حقاً؟ هل سيسامحني؟) فيبتسم مخفياً رعشته قائلاً: «أحضنيه وأخبريه أنك أخطأت بصفعه وقد بات رجلاً لكن أخبريه أيضاً أنه أخطأ أكثر منك عندما تجاوز على أبيه».

مسحت وجهها تماماً ويدت وكأنها تفكر بكلماته وتزنها في رأسها ثم نظرت إليه ملء عينيها الناعستين وهي تطرح السؤال صراحة: «هل تظنه سيسامحني إن فعلت؟». يبتلع ريقه وفي قلبه صدى آخر لنظرتها تلك (لا بشر على الإطلاق يستطيع مقاومة طلب الغفران من عينيك)، أخفض عينييه بصعوبة وهو يرد مؤكداً: «سيسامح ويتفهم».

سمع تنهيدة مختلطة بشهقة بكاء متلاشية ففتح الباب يهرب من نبض قلبه بالابتعاد، بينما يقول ببشاشة: «سأحضر لك الشاي الذي تحببته».

نادته وهي تقول بحرج كأنها عادت لأرض الواقع: «عامر لا داعٍ أنا يجب أن أعود لدي عمل سأأخر».

ترجل من السيارة ليقف منحنيًا ينظر إلى وجهها الحبيب قائلاً بصوت مبحوح: «ما زال هناك متسع من الوقت لتشربي الشاي وتستعيدي هدوءك

وتركيزك قبل معاودة القيادة».

ثم أضاف غامزاً بشقاوة: «ولا تقلقي لن أخرجك بمشاركتك شرب الشاي اليوم».

ارتبكت ثم احتارت ليضيف عامر يحاول التخفيف عنها وتوجيهها لتصرف: «يجب أن تعودى للبيت يا حبيب قبل ذهابك لعملك في المدرسة، تحتاجين لغسل وجهك مع بعض كمادات الشاي لتخفيف تورم أجفانك ومؤكد ترتيب شعرك وهندامك».

عيناه مرتا سريعاً بنظرة معبرة فوق هيئتها العامة بوجهها الباكي المحمر وأجفانها المتورمة، شعرها المربوط للخلف دون ترتيب وقد سرحت بعض خصله من الرباط، قميصها الأبيض المدّعك الذي يحتاج لإعادة كيّ بدت محرّجة للغاية، بينما تحرك عامر مغلقاً الباب وهو يقول: «دقائق وأعود لك بالشاي».

عندما عاد إليها بالشاي مدت يدها من شباكه كي تأخذ الكوب، كأنها تمنع أي فرصة له كي يعاود الجلوس جوارها داخل السيارة، بدت لذينة للغاية وهي تظهر الصمود أمامه وتبدي طريقته بصدده وإبعاده؛ لكن تلك الراحة التي شغّت من ملامح وجهها كانت بالنسبة إليه كهدية من الجنة.

سلمها كوب الشاي الورقي وهي تتمتم بالشكر لترتشف منه ببعض التعجل، بينما ابتعد عامر نصف خطوة يراقبها بسعادة تنسيه يومه كله لم

يقولاً كلمة حتى أكملت الشاي على عجالى فاقترب مجدداً ليمد يده كي يأخذ الكوب منها قائلاً بنبرة شقية قبل أن تشغل السيارة: «ما زلت أنتظر الاتصال».

شغلت السيارة وهي تتحاشى النظر إليه كما تتحاشى فهمها لمقصده فتسأل بعناد طفولي: «أي اتصال؟».

رد بسلاسة: «اتصال الراشدين حرير، لديك أسبوع كامل لتختاري يوماً يناسبك كي تتصلي وإلا سترينني في طريقك مجدداً».

لم يقل أكثر من هذا بل استدار وتركها ليسير مبتعداً عائداً إلى سيارته وكوبها الفارغ ما زال في يده.

تحركت حرير بالسيارة وهي تشعر بغضب من نفسها هذه المرة، تقود سيارتها ببعض التعجل تريد الخروج من هذا الشارع الحيوي قبل أن يبدأ الزحام الصباحي الحقيقي، عضت طرف شفرتها وهي توبخ نفسها: «لماذا اتصلت به؟! أيتها الغبية المتهورة! لماذا لم تتصلي بوفاء بدلاً منه؟! هل كنتِ تبحثين عن تفرغين فيه ألك فلم تجدي غيره كي تهاجميه؟!».

ورغم هذا التوبيخ فإن طاقة في داخلها تتفاعل إيجابياً، هواء الصباح يضرب وجهها ويحرك خصل شعرها السارحة فتشعر بمزيد من التحسن، أجل إنه هواء الصباح ما يجعلها تشعر بشعور أفضل، الهواء وليس شيئاً آخر.

بعد أيام المصرف ظهراً

تسير روناهي عابسة الوجه وتنورتها الضيقة تصيبها بالغيط وهي تقيد خطواتها الواسعة في الواقع غيظها الحقيقي محدد بذاك الذي يقف هناك على جانب مدخل مرور عملاء المصرف، وقد أرسل بطلبها بكل وقاحة! من يحسب نفسه ليرسل إليها العم عبد الودود الذي يعد القهوة والشاي كمرسال يطلبها بالاسم؟! تدفع نظارتها للخلف وقلبها يخفق مع ابتسامته الموجهة إليها، بينما تتذكر تنبه أعين الموظفين وتوقفهم عن الثرثرة المزعجة حالما تردد اسم (الأستاذ) عمر القماش على لسان العم عبد الودود وهو يبلغها الرسالة، هذا اليوم الثالث لها في المصرف وابن القماش جاء ليطلبها كأنه ولي أمر طالبة في مدرسة، وقفت أمامه شامخة لكن يهتز ذاك الشموخ برائحة فتاكة تصدر من كيس ورقي يحمله في يده، يسيل لعابها فتبتلع ريقها وعيناها تلقطان اسم المطعم المطبوع على الكيس، تحارب عقلها الذي يخبرها بسر محتوى الكيس، بينما يتضاعف غيظها منه ويطنها تنعصر جوعاً! سألت بحقد طفولي دون أن تسلم عليه حتى: «ماذا تفعل هنا؟».

تتسع ابتسامته ويخيل لعقلها الغبي أنه يطيل النظر لعينيها ثم يقول بذاك الصوت الذي بات بالنسبة إليها كتعذيب بنخز الدبابيس: «اشتقت لرؤيتك».

كم تتمنى أن تصفعه، لا يحق له أن يفعل بها هذا كلما تراه وتسمع صوته
لا تفكر إلا بصفعها وربما صفع نفسها لتستفيق من حالة تخدير مستفزة، ألا
يكفي إلحاح أمها ليل نهار كي تعلن موافقتها؟! إنها حتى تتصل بها في
ساعات العمل لتسألها إن كانت استقرت على الموافقة! ولا تدري هل
الاستقرار باتجاه واحد أم اتجاهين؟! لكن أمها كما يبدو لا ترى إلا استقراراً
وحيد الاتجاه ولا تعترف باستقرار الاتجاه الآخر (الرفض)، حسنٌ عليها أن
تعترف بأن خالها بذل جهوداً جبارة بضغط من والدتها بالطبع ليجمع كل
المعلومات عن (عمر القماش) خلال يوم واحد ليشير غيظها هو الآخر، بما
يحمل من شهادة (حسن سير وسلوك) بحق أصغر أولاد القماش.

ومنذ تلك اللحظة وأمها لم تتوقف على الإلحاح وممارسة سحر الكلام
الأمومي لتدفعها للرضوخ للخطبة والزواج ولم يتبق إلا أن تدخل أحلامها
أيضاً كي تحثها على النطق بكلمة (نعم)، فجأة وجدت روناها نفسها تقول
بتمرد: «لا».

ارتفع حاجبا عمر قليلاً بينما تتدارك روناها سخافة كلمتها لتقول بتساؤل
وهي تدفع نظارتها: «أقصد كيف عرفت أنني بدأت العمل هنا؟».

لماذا يصر على النظر لعينيها بهذه الطريقة؟! ثم قال رداً على سؤالها
بسؤال يوحى أن أجابته بديهية: «ألا يفترض أن أعرف هذه الأمور عن
خطيبتني؟!».

هذا ما كان ينقصها! هل يا ترى أمها زارت أحلام عمر القماش بعد أن
يئست من اقتحام أحلامها؟! احمر خذاها وهي تفكر بخزي أن أحلامها
تتمحور منذ أيام حول هذا المغرور الذي يقف أمامها، ولحسن الحظ أن أمها
لا تملك وسيلة لتعرف وإلا كانت بنفسها أبلغته موافقة ابنتها؛ لكن لا لن
تسمح لأحد بإشعارها أن (عمر القماش) هبة السماء إليها ستقول (نعم) أو
(لا لا لا) متى ما شاءت وقررت أنه الوقت المناسب لقولها، ومن هذا
المنطلق قالت بثقة: «أنا لم أوافق حتى الآن».

يضيق عينيه وكأنه يتفكر ثم يقول بسلاسة وهو يرفع الكيس الذي في
يده: «اممم إذن هل ستأخذين وجبة الغداء التي أحضرتها لك أم يجب أن
أنتظر موافقتك على الخطبة قبلها؟».

في تلك اللحظة مرت إحدى موظفات المصرف لتبتسم لعمر متجاهلة
روناهي ثم تقول بصوت متصنع للأنوثة المائعة ككل شيء متصنع فيها وهي
تسأله: «هل تحتاج لخدمة سيد عمر؟».

فرد عمر بابتسامة أظهرت بياض أسنانه تحت أنظار روناهي الحاقدة:
«شكراً لك آنسة تارا كنت أكلم الآنسة روناهي».

لتبادلها تلك (الرقیعة) الابتسام وهي تقول له كأنها على معرفة وثيقة
بالعائلة: «سلامي للحاج سليم».

حالما ابتعدت (الرقیعة) مالت إليه روناهي عفويّاً لتنظر في عينيه بتحد

وتقول من بين أسنانها: «إن كنت تظن أنني سأقضي باقي حياتي في إبعاد التافهات عنك فأنت واهم لدي ما هو أهم لأفعله، ثم يكفيني نفسي لأتحمل مسؤولية إبعاد التافهين (عنها) بشق الأنفس».

يصدق فيها عمر عن هذا القرب فقفزت نبضة من قلبه، ربما هو ليس واقعاً في الغرام لكن هذه المجنونة أمامه هي ألد عاقلة رآها في حياته، لم يلتق بشخصية كهذه من قبل كما يعترف لنفسه لم يظنها شخصية مثيرة لهذا الحد، لم تدرك (المجنونة العاقلة) أنها للتو صرحت بموافقتها وهي تعلمه أنها لن تقضي باقي حياتها بإبعاد التافهات عنه، وبدلاً من أن يستغل جملتها وجد نفسه يتساءل بصوت خافت وهو يبحث عن عينيها من خلف النظارة: «هل هناك تافهون؟».

لا أجمل من احمرار مباغت لتفاحتي وجهها وهي تتراجع نصف خطوة وترد بعبوس: «لم أقصد يتحرشون بي، التفاهة لها أوجه مختلفة».

نبضة أخرى يسجلها قلبه بينما تهتف به في خجل تحاول مداراته: «لماذا أتيت؟».

عاود رفع الكيس وهو يقول كأنه يوبخ طفلة: «الغدااااا هل نسيت؟».

مدت يدها اليسرى نحوه بينما ترفع اليمنى لتدفع نظارتها بحركة باتت مألوفة منها: «حسنٌ أعطني إياه وارحل».

أوشك أن ينفجر بالضحك وهو يرى اشتهاها الطعام المفضوح في عينيها

فيطيل عذابها الحلو هذا بالقول المشاكس: «لا يجوز أن تأخذي طعاماً من شاب ليس بخطيبك».

ثم يرفع الكيس قريباً من فمه ويضيف كثيراً شهيتها أكثر ومضعفاً إرادتها أكثر وأكثر: «فلافل حارة تقرمش بالفم مع صلصة الطحينة والمخلل الأحمر».

تبتلع ريقها بوضوح أمام عينيه وهي ما زالت عابسة وتمد يدها بطلب ملح مع تنازل صغير: «هاتها وأعدك أن أرد بعد أسبوع». يهز عمر رأسه رافضاً وهو يناورها بحنكة وعقلية التاجر الذي يسعى لصفقة رابحة: «أمامك خمس دقائق لتحدي الرد، إما هذا أو سأخرج بكيس الفلافل هذا ولن تتذوقي منه أي شيء».

قاطعها صوت أنثوي جديد وهي تلقي التحية على عمر ومجدداً تتجاهل روناها التي تقف معه: «مرحباً أستاذ عمر».

فيرد عمر بالابتسامة نفسها: «مرحباً آنسة بيدا».

لكن (الآنسة بيدا) لم تبدُ على معرفة وثيقة بالعائلة لترسل للحاج سليم تحياتها!

هتفت روناها وقد بلغ غيظها أقصاه: «ألن ينتهي استعراض آنسات التفاهة هذا؟!».

فيبرر عمر وقد بدا بريئاً بشكل مغيظ: «أبي عميل مستديم هنا، كل

تعاملاتنا من خلال هذا المصرف».

ثم يشوح بالكيس مرة أخرى ليعودا للنقطة نفسها قائلاً:
«الفلافل ستبرد».

تنقل نظراتها بين الكيس المغربي ووجهه الوسيم المستفز فتزفر بقوة لتقدم
صفقتها هي الأخرى: «الفلافل مقابل تعارف الأسرتين مجرد تعارف».

تتسبع ابتسامته وتلتمع عيناه وهو يقول بصوته الكاظمي: «موافق».

خطفت الكيس من يده ببعض الخشونة لدرجة شك عمر أنها أرادت
صفعه! أم هل ربما يتوهم؟! لم يبال وقد كان سعيداً بالصفقة ومستمتعاً كل
الاستمتاع بصاحبة الصفقة ليقول: «نونة ستتصل الليلة بوالدتك».

بدت عدائية وهي تتساءل: «من نونة؟!».

ليرد بغموض المنتصرين: «إنها أهم امرأة في حياة أولاد القماش».

ثم حرك يده في تحية إلى جانب جبينه قبل أن يستذير مغادراً وروناهي
تمسك الكيس ولا تعرف هل يفترض أن تشعر بالنصر أم تكتفي بأكل
الفلافل؟!

نهاية الأسبوع الجمعة صباحاً

تنفست حزير الصعداء عندما وجدت باب غرفة خلدون ليس مقفلاً فدخلت

غرفة أخيها وهي عازمة هذه المرة أن لا تتركه حتى يستمع إليها وتحضنه، أغلقت الباب خلفها بحرص على أن لا تصدر صوتاً ثم تقدمت من سريره بهدوء وعيناها تذويبان حباً له وتعلقاً به لم تشعر كم هو عزيز وغال عليها هكذا إلا عندما خاصمها وقاطعها منذ أيام وهو يتهرب منهم جميعاً، يخرج باكراً للمدرسة ثم يعود معتكفاً في غرفته ومغلقاً الباب بالمفتاح رافضاً كل محاولات أمها كي يأكل؛ لكن حرير تعلم أنه يتسلل آخر الليل والكل نيام ليأكل ما يجده مُعداً له ومحفوظاً بانتظاره، البيت كله في حالة صمت كثيب منذ تلك الليلة حتى والدها انكمش في غرفته ولا تعرف هل يعاقبهم أم أنه يعتزلهم، حاولت حرير أن تكلم أباها لكنه رفض الرد عليها ونظراته تنطق بالغضب والتعنت فتركته لشأنه وبالحا مشغول بشقيقتها الأصغر أكثر من أبيها، تقدمت حرير لترى عن قرب كيف ينام خلدون كطفل! أجل هو طفل حتى بالشارب الخفيف الذي يخط فوق فمه.

(«احضنيه وأخبريه أنك أخطأت بصفعه وقد بات رجلاً؛ لكن أخبريه أيضاً أنه أخطأ أكثر منك عندما تجاوز على أبيه»).

كلمات عامر وجدت طريقها لتتشابك بأفكارها عن خلدون فنحت جانباً أي تفكير أمومي لتعد نفسها كي تعامله كـ(رجل)، جلست جواره برفق على حافة السرير حتى لا تفزع في نومه ثم مدت يدها لتلامس شعره الأسود الناعم وهي تحاول إيقاظه على مهل: «خلدون حبيبي خلدون».

ثم تميل لتقبل أرنبة أذنه وهي تبتسم عفويّاً، كانت هذه طريقتها السرية

لتوقظه من نومه وهو طفل صغير بعمر عامين، بينما هي مراهقة في الخامسة عشرة تستمتع باللعب معه وكما كان يفعل وهو طفل صغير ينطق للتو الكلمات المبتورة فعلها الآن، فيرفع كفه بانزعاج ليدعك أذنه في خشونة أوشكت أن تدمع عينا حريز وهي تفكر متى آخر مرة فعلتها معه؟! كأن دهوراً مرت، عاودت تكرار الحركة وكما كانت تنتظر منه انقلب على ظهره عابس الوجه ليفتح عينيه ببطء وهو يحك أذنه هذه المرة كأن حشرة قرصته، ابتسمت لعينه فتلاشى عبوسه فوراً وأطلت من عينيه نظرة فرح طفولي مشابه لذاك الفرح الذي كان يطل منهما عندما كانت توقظه طفلاً؛ لكن سرعان ما تعكر صفو نظراته ليعاود العبوس ويدير وجهه جانباً، قالت له بحنان: «صباح الخير».

فلم يرد بل يزمّ شفثيه وهو يواصل النظر بعيداً بوجهه العابس!
(احضنيه) ودون تفكير فعلت تميل لصدره وتحتضن جذعه بما تستطيع وهي تهمس له بندم حقيقي: «سامحني يا خلدون.. سامحني أنا أخطأت».
في البداية كان متشنجاً رافضاً لكن حالما قالت كلمة (أخطأت) تراخى جسده قليلاً ليهمس بقهر: «لم تصفعيني يوماً».

تتجمع الدموع في عينيه وهي تشدد من احتضانه قائلة: «ولن أفعلها مجدداً لآخر حياتي».

ثم عاودتها كلمات عامر لتضيف بتأكيد: «لا يحق لي ولا لأحد على

الإطلاق صفحك، خاصة وقد غدوت رجلاً كانت غلطة من أختك الكبرى».

شعرته تأثر للغاية بكلماتها فحاطوها بذراعيه في صمت ليحتضنها هو الآخر دون أن يتمكن من قول كلمة، بقيا للحظات طوال هكذا متعانقين وقد تعمدت حرير إطلتها لتقول بعدها بتأن: «لكنني أعتب عليك يا خلدون لم أظنك ستقول يوماً كلاماً جارحاً كهذا لأبينا، إنه أبانا يا خلدون ويجب أن نحتمله ونصبر عليه».

تشنج خلدون قليلاً وهو يقول بتوتر: «أنا لم أقصد قولها له ولا أعنيها؛ لكن.. لكن إنه يؤذينا كثيراً لماذا يفعل هذا؟! أنا لا أفهم لماذا؟!».

ردت حرير بقناعة تتمنى أن تصل لسدير وخلدون كما وصلت إليها: «لأنه لا يعرف كيف يعبر عن حبه إلا بقساوته علينا وتحكمه فينا، لا يستوعب مهما كبرنا أننا كبرنا».

تحرك خلدون من رقدته على السرير معتدلاً بجذعه وحرير تفعل المثل، ينظر لأخته الكبرى عاجزاً عن استيعاب منطق تفسيرها لأبيهما: «كيف يمكن أن أحب إنساناً وأقسو عليه؟! ربما أقسو مرة مرتين عشر؛ لكن لا يعقل أن أقسو عليه طوال الوقت».

حاولت حرير أن تشرح له أكثر: «هو يظن بقساوته علينا يحمينا، يظن أو يؤمن أنه يعرف مصلحتنا أكثر منا».

فيعقد خلدون حاجبيه برفض عنيف ليقول: «لكنه لم يحميك من ظلم نوفل

وأهله لك، على العكس وكأنه يعاقبك أنتِ ولا يكف عن محاولة حبسك
وخنقك كأنك ارتكبتِ جرماً!». حاولت حرير الكلام مجدداً لكن خلدون لم
يمنحها الفرصة وهو يضيف بثورة متجددة: «أنا لا أفهم كيف يمكن لأب أن
يكون هكذا، إنه يشك فينا على الدوام هل تعلمين أنه يتنصت علينا أيضاً؟!
رأيتَه يتنصت على سدير وهي تكلم صديقتها الجديدة في الجامعة لا أطيع
ما يفعله إنه يربعها».

تنهدت حرير لكن ما زالت طاقتها الإيجابية عالية، منذ أيام وهي تشعر
هكذا وتحمد الله على تلك الطاقة، مدت يدها لتحاط كفه بخشونة الرجال
الوليدة فيه فتقول بصبر: «كما قلت لك يا خلدون إنه لا يعرف كيف يعبر
عن محبته بشكل صحيح ولن أطلب منك تفهمه بالكامل الآن؛ لكن أريدك
أن تحترمه، والدنا لا يستحق منا الأذى وقد كبر وأتعبه المرض قد نرفض
منطقه وأفعاله؛ لكن لا نؤذيه بل نصبر ونحتسب عند الله هذا الصبر (بر
والدين) واجب علينا».

ما زال خلدون عابساً غير مقتنع لتضيف حرير الآية القرآنية: « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الْوَالِدِينَ إِحْسَانًا ۚ إِنَّمَا يَبُلِّغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ».

احمر وجه خلدون وبدا كأنه يصارع في داخله يريد إيجاد حل يرضيه ولا
يؤذيه، حل لا يوقعه في معصية يشعر بالضغط عليه يزداد ولا يفهم كيف
يجبر مشاعره على تقبل أذى أبيه له بل لهم جميعاً، تركته حرير ليفكر مع

نفسه وقد خفت عنه قليلاً ببعض المزاح لتغادر غرفته وهي تشعر بحمل ثقيل انزاح عن قلبها، ذهبت لغرفتها وأغلقت الباب ثم توجهت نحو المنضدة الجانبية للسريّر لتأخذ هاتفها النقال تحقق فيه بتردد قبل أن تحسم أمرها.

في الحمام يقف عامر تحت المياه المنهمرة يحاول أن يبحث عن استرخاء ليعاود النوم، الأيام الماضية كانت منهكة بالعمل والتغيرات على قدم وساق، ورغم كل التعب فإن فكره مشدود مع الهاتف، ينتظر «مكالمة الراشدين» من حرير حتى يكاد يئأس من حصولها، فيصبر نفسه بكوب شاي ورقي فارغ لامس شفتيها وهي ترتشف منه فاحتفظ به في سيارته يلامس حافته كل صباح فيذوب وجداً، رآها مرتين صباحاً وهي في طريقها سيراً على الأقدام إلى المدرسة الثانوية في أطراف الحي؛ لكنها لم تلتفت إليه بل تمضي بنظرات محددة للأمام فلا تميل يميناً أو شمالاً، كان يعلم أن وضعها بات صعباً كـ«مطلقة» والعيون المراقبة تنتظر «سقطه» حتى من دون «سقطه»، لذلك لم يجازف بالاقتراب منها ليكلمها يكفيها ما تتعرض له من ضغوط والدها ومشاكل عائلتها.

أغلق صنبور الماء ملتقطاً منشفته وهو يفكر بدعوة اليوم فيبتسم تلقائياً مفكراً على الأقل سيلتقي بقبله الضحك لتسري عنه ابتسامة شريرة لاحت على فمه وهو يغادر الحمام متوجهاً لغرفته، عندما دخل من باب الغرفة اقترب مباشرة من هاتفه وهو يخمن الساعة مقدراً أنها لن تتجاوز الثامنة

والنصف، عقله يفكر أنه يستطيع النوم لساعتين ثم يلحق بعمر في المحل
فيما بعد، تقلصت أصابعه حول الهاتف وهو يقرأ رسالة واردة إنها منها كما
سجل اسمها منذ أيام «حبرتي»

«صباح الخير هل أستطيع الاتصال الآن؟»

جلس على السرير وهو يقرأ توقيت الرسالة، قلبه يقرع بقوة ويشوش
عليه؛ لكنه أجبر على التركيز الساعة الآن هي الثامنة وخمس وعشرون
دقيقة وهي أرسلت الرسالة في الثامنة وتسعة عشرة دقيقة، كانت يده
ترتجف إثارة وتلهفاً وهو يكتب لها الرد سريعاً ويدعو الله أن لا تكون عادت
للنوم أو انشغلت بشيء مع عائلتها «أنا بانتظارك».

يحسب الثواني ببطء حتى تجمعت في دقائق منهكة لأعصابه ومستنزفة
لطاقته صبره لا يستطيع التهور والاتصال بنفسه، يجب أن يلجم نفسه مهما
كلفه الأمر، مرت سبع دقائق كاملة وهو يشغل نفسه بارتداء ملابسه حتى
رنّ الهاتف ورنّ معه قلبه، فتح الخط وهو يعاود الجلوس على السرير
يستمتع لصوتها للمرة الأولى عبر الهاتف: «صباح الخير».

أجل إنها الأولى فاتصالها السابق لا يحسب فلم تكن واعية ولم تقل
(صباح الخير) بهذه النبرة التي تضرب قلبه بصاعقة ارتباكها انكماشها
رقتها كلها ذكرته بلمسة يدها في المرة الأولى التي التقاها فيها، إنها هي
ذاتها.

رد: «صباح الخير».

ويذه الحرة ترتفع لمكان قلبه تربت هناك في عفوية كأن أصابعه تستعيد الذاكرة.. تستعيد الإحساس بملامسة مزار قلبه النابض في عشق الحرير، مرت لحظات صمت فأدرك أنها تواجه صعوبة لبدأ الكلام معه فحاول التخفيف عنها بالقول الرقيق: «هل تستيقظين باكراً في العادة؟».

ردت بارتباك شديد جعل إجابتها تحتل كل الإجابات: «نعم.. أقصد أحياناً.. لا أدري عامر».

يرتعش جسده بالكامل لكنه ينأى بنفسه عن مشاعره ليهب نفسه لأجلها هي، يخفف عنها وهو يحاول جرّها لموضوع آخر: «حرير لا ترتبكي هكذا استرخي قليلاً وأخبريني أولاً هل تصالحت مع خلدون؟».

لقد أحسن دفع الحوار ناحية أخرى جمعتهما قبل أيام لتجمعهما اليوم من جديد، فتخفف عليها وطأة الاتصال الحقيقي الأول بينهما، فترد حرير بارتياح واضح واندفاع عاطفي نحو أخيها: «نعم قبل قليل أيقظته من النوم وصالحته، الفتى عنيد كان يخاصمنا كلنا لأيام فلا نراه، أظنه عناد المراهقين لأنه بطبيعته طيب بسيط لا يجنح للتعقيد».

تتكلم بهذه العاطفة الجياشة نحو أخيها وكيف أيقظته لتصالحه فيشعر عامر بغيرة صبيانية وهو يتخيلها تفعل هذا، بينما تضيف حرير بامتنان واضح: «أردت أن أشكرك، نصائحك أفادتني».

كتم تنهيدة حسرة وغامر يتخيلها نفذت نصيحته بالحضن فيفكر كم هو
محظوظ ذاك الفتى، إنه حظي صباحاً بهذا الدلال من حرير

يحاول أن يغطي على حالته العاطفية بالقول الممازح الرقيق: «أنا
موسوعة نصائح افتتاحها وقرئي فيها متى شئت صباحاً مساءً منتصف
الظهيرة، غامر القماش دوماً في الخدمة».

صمتت للحظات قبل أن ترد بنبرة صوت وكلمات لم ترجمه: «ما زلت كما
أنت تجيد محاكاة مشاعر أي أنثى».

عقد حاجبيه ثم قال بجدية: «أنت تهاجمين دون بينة! تحاولين القول إنني
أشغل الإناث كما أشغلك».

ردت بالنبرة نفسها وتلك الدفاعات التي تصده بها منذ طلاقها قد عادت
وارتفعت عالياً، وهي تقول له بهدوء: «لا أهاجمك لكني أقول واقع حال
ولأجل واقعي الخاص أريدك أن تخبرني صراحة ودون مراوغة كلمات ماذا
تريد مني؟ حتى ننهي الأمور العالقة».

كان مستعداً لهذا وأكثر فقال كي يواجه دفاعاتها بمواجهة مباشرة: «ننهي
الأمور؟! هل هذا ما يخبرك به حدسك ولن أقول مشاعرك؟ حسن حرير أنا
أريد بداية لا نهاية».

لم يزعجه على الإطلاق برود صوتها وهي ترد عليه: «أي بداية؟! حدّد
لأنني لم أعد أصدق النحس ولا بوصلة المشاعر».

في تلك اللحظة دخل عليه أخوه عمر فأشار إليه بصمت أن يخرج، فرمقه عمر بنظرة متمعنة قبل أن يغادر ويغلق الباب خلفه، تقدم عامر من الباب ليقفله بالمفتاح، بينما يرد على حرير بالقول الصريح: «قبل ست سنوات طلبت الرضا وما زلت أطلبه، أريدك حرير وسأدق باب أبيك مجدداً حتى يرضى؛ لكن هذه المرة أريد منك كلمة «نعم» واضحة صريحة وأريد وعداً أيضاً، وعدٌ أنك لن تكوني لغيري مرة أخرى».

قالها وقد كانت تدور في رأسه منذ طلاقها هذه المرة لن يخطئ، لقد فكر طويلاً ليل نهار حتى وصل لهذا، اكتشف أنه ربما عرف جوهر حرير من اللمسة الأولى؛ لكنه لا يعرف إلا القليل عما يحصل في تفاصيل حياتها لا يعرف كيف هي عائلتها بالضبط، كيف يتعاملون مع بعض كيف هي علاقتها الحقيقية مع والدها ومدى تأثيره في قراراتها، لقد أفلتت منها كلمات سابقة عبرت عن ندمها لطاعتها لأبيها، هناك أمور خفية عليه يكاد يلمسها ويشعر بوجودها دون أن يتبين ملامحها كاملة.

كلماتها الغاضبة المنهارة عندما التقيا في السيارة يوم الأحد كانت تحمل الكثير الذي جعله يعيد حساباته في خطواته المقبلة معها، ليس هذا فحسب بل يعيد حساباته في كل ما وقف بينه وبينها قبل سنوات وجعلها ترضى بذلك الزواج مُرغمة، ربما نضجه الحالي هو ما جعله يلتفت لأشياء لم تلفت انتباهه بهذا العمق وربما عاطفته القوية في السابق هي ما كانت تحجب عنه التمعن، ردها لم يفاجئه وهي تقول في مقاومة: «هذه المرة أنا التي لا تفكر

وقد كان مستعداً فيسأل بصلابة وإصرار على المعرفة والمناقشة:
«لماذا؟ قل لي سبباً أو حتى أسباباً».

ما زالت ترفع الدفاعات والصد وهي ترد بما يشبه الحقيقة: «عامر إن كنت تتناسى الأمر فأذكرك به، لم تمضِ ثلاثة أشهر كاملة منذ كنت في عصمة رجل، في بيته أشاركه كل شيء، نوفل كان...».

قاطعها بهجوم مباغت هي نفسها لم تتوقعه: «هل تحاولين دفعي مجدداً؟».

وقد أصاب حدسه وأصاب هجومه الهدف وهي تتمتم: «دفعك مجدداً؟!».

فجأة أخذت تتشكل أولى ملامح الصورة المبهمة له، تلك التفاصيل الجانبية من كل إنسان التي تشكل شخصه وأبعاده وردود أفعاله، فسار في الدرب ذاته يلتمس المزيد من الإيضاح ولا يحمل في يده إلا مشعل حدسه ليرشده، قال بهدوء أعصاب: «في المرة الأولى كنت تدفينيني بسبب أبيك وهذه المرة تحاولين دفعي بإثارة غيرتي عليك كرجل بتذكيري أنك كنت زوجة لرجل آخر».

نعم الأمر يؤلمه؛ لكن أنانية الرجل لا تغلب رغبة العاشق، ألمه أنها كانت لغيره ولو لبضع سنين لا يعادل نقطة في بحر ألمه إذا لم تكن له لباقي

سنين عمره، ردت وهي تدافع عن نفسها: «أنا لا أحاول اختلاق الحجج».

ما زال مشعله متوقداً بل يزداد توهجاً وهو يرد: «بل تفعلين أنت خائفة مني منذ البداية كنت خائفة».

تتلاعب لتشوش عليه حتى دون أن تقصد التلاعب فتقول بنبرة هجومية: «وهل تلومني؟! الكل يعلم سمعتك مع...».

قاطعها ليقول ما بات واضحاً أمامه كأنه يراه: «إنها ليست سمعتي مع الفتيات كما تسمينها، ربما كانت قبل ست سنوات عاملاً مساعداً وقد دفعتُ غالباً ثمن هذه السمعة؛ لكنها ليست الأساس ولا حتى رفض والدك إنه أنت يا حرير، حتى اللحظة أنت خائفة أن تحبينني تمنعين نفسك بمقاومة عجيبة، في البداية ظننتها حياءً وطهراً وعفة وكلها موجودة فيك بالفعل؛ لكن هناك شيء أساسي في العمق يوترك أبصره الآن بوضوح، منبعه ليس من شخصي أنا إنما من الحب ذاته، وكأنه خطيئة حتى وأنا أطلبه منك في الحلال».

على الطرف الآخر كانت حرير تقف وسط غرفتها متسعة العينين وقد توقفت عن الدوران فيها بانفعال وعامر يهاجمها بهذا الشكل المبالغ والدقيق! الحب خطيئة حتى في الحلال خطيئة!

هل هذا صحيح؟! ألهذا كانت تقاوم عامر منذ البداية؟! هل عزز والدها داخلها هذا الشعور وقد كبرت على الحكاية نفسها.. حكاية الحب والزواج

غير المتكافئ، لتعلق كلمة (الحب) في عقلها الباطن برهافة الأنثى فيها وتقترن الكلمة بالخوف؟! لقد كانت وما زالت تخاف عامر إنه مُحق ربما قبل سنوات كانت تخاف منه لأسباب ظاهرية وجيهة؛ لكن اليوم ما الذي يخيفها منه ويجعلها تدفعه وتصده؟!

في البداية كانت تقنع نفسها أنه يسعى للانتقام ومع كل ما تمر به من مصاعب بعد طلاقها فلم تفكر بعمق أكبر حتى هذه اللحظة التي واجه فيها عامر ذاك الخزين في عقلها الباطن، وجع أبيها الصارم وهو يتكلم عن (الحب) لسنوات جعل الكلمة مرادفة لوحش مخيف شخبطته يد طفلة على جدرانها البيضاء الأولى.

أغمضت حرير عينيها وشعرت فجأة وكأنها مريضة بينما يأتيها صوت عامر متسائلاً: «حرير لماذا تصمتين؟».

ردت بتوتر شديد: «أظن يجب أن ننهي هذه المكالمة».

لكنه لم يكن مستعداً لإنهاء الحوار اللحظة فيرد بقوة: «لا لن تفعلي بل واجهيني إن كنتُ مخطئاً فاثبتني لي».

أغضبها وهو يثير بواطنها هكذا فتهاجمه بالقول المنفعل: «أنت لا تعرف عني شيئاً لتحاول تحليلي بهذا الشكل».

فيحجم انفعالها بالقول العملي المنطقي: «إذن دعيني أعرفك، أخبرني أباك أنك موافقة ويمكننا أن نتعرف ببعض في فترة خطبة طويلة أنا أيضاً أريدك

أن تعرفيني عن قرب دون موانع وهذا لن يحدث إلا إذا عقدنا
خطبة رسمية».

فجأة شعرت حرير بالتشوش أكثر وكلمات أبيها عن المطلقة تتداخل مع
كلمات أمها عن جارتهم (أم حسام) مع وجوه المعلمات في المدرسة
وهمزهم ولمزهم حولها فتطبق أجفانها بقوة وهي تشعر آنيًا بالضعف هامسة
بصعوبة كأنها تكلم نفسها: «سيقولون إنها ترد اعتبارها بالقبول بهذا الزواج
السريع، وهذا سيجرحني، أنت لا تعرف ما أسمع كل يوم وأتجاهله أمر به
فأنكر وجوده، سيقولون هذه المرة ما هو أبشع سيقولون...».

قاطعها بصوت مبحوح: «سيقولون هذه المرة عامر القماش لم يستطع
نسيانها لست سنوات مسكين مهبول قلبه مات من بعدها ونبض حيًا
بعودتها إليه».

دمعة تكاد تفلت من إطباق أجفانها للمرة الثانية يفعلها وبعيدها
لإحساسها الأول معه في الثانية والعشرين من العمر تتذوق الميل الأول
لشباب يسعى بكل ما أوتي لينال قلبها؛ لكن الأصوات التي تواجهها كل
يوم ترتفع اللحظة في ضراوة الصراخ لتقول له بهمس: «ألا تخاف أن أكون
عاقراً؟ ألا يساورك الشك».

رد بثقة تفقأ عين الشك: «أنا أعرف أنك لست كذلك ولا يهمني حتى لو
كان صحيحاً ما زلت أريدك».

تفتح عينيها ببطء وتنحدر تلك الدمعة المحبوسة، بينما تتمم شفتاها:
«ألهذه الدرجة؟!».

بمزيد من الثقة والإقدام قال: «وأكثر.. اشربي عليّ ما
تشائين وسأنفذه».

يحمر خذاها وهي تهمس: «شروط؟!».

ليضرب ضربته الأقوى عندما صدمها بالقول الجدي: «سأجري فحوصاً
أيضاً لأتأكد من قدرتي على الإنجاب إن تزوجنا لا أريدك أن تحرمي مجدداً
من نعمة الأطفال».

يدها الحرة تلامس بطنها وهذه المرة دموعها انحدرت دون رادع همست
اسمه ولا تصدق إحساسه العالي بها أتراه يعرف بذاك التوق الذي تكتمه
عن الجميع؟! كيف يعرف؟!!

أفلتت لهفته من عقالها ولم يخفيها عنها وهو يقول بتلك النارية التي تميزه
وتهز إحساس أي انثى: «حرير عليك إعطائي أي بارقة أمل الآن حالاً قبل أن
يخرج حديث الراشدين هذا عن حدود العقل».

ما زالت يدها تلامس موضع الأمومة فيها تتخيل بارتعاش جينياً يكبر
هناك حتى تتلقفه بين ذراعيها، ورغم كل هذا الذي تمر به كان عقلها حاضراً
لينقذ مشاعرهما المحتدمة اللحظة ويعفيها من الرد، قالت حرير وهي تمسح
دموعها: «أريد وقتاً».

فحفر عامر كلماته على تلك الجدران الداخلية المشوهة بصورة الوحش:
«وأنا أريد قلباً، قلب من حرير أريده في الحلال».

مع الغروب

كان علي يترجل من سيارته في مرأب البيت على عجل بينما يكلم سجي عبر الهاتف: «مساء الخير».

ترد سجي بنبرة ضايقته بجديتها: «مساء الخير علي كيف حالك؟».

فتح باب البيت الخالي بالمفتاح وهو يرد عليها: «أهروول حرفياً!».

تتساءل بتعجب: «تهروول؟!».

يتحرك في الدار ناحية الدرج وهو يفتح أزرار قميصه قائلاً: «يجب أن آخذ حماماً وأغير ملابسي سريعاً؛ لأنني تأخرت على الدعوة».

بدت سجي متحيرة بعض الشيء وهي تقول له: «لا داعٍ لتضغط على نفسك بهذا الشكل إنها ليست دعوة رسمية، إنه فقط عشاء عائلي خالتي نبراس وعمي رياض لا يلزمانك بساعة محددة».

خلع قميصه وهو يكاد يصل غرفته قائلاً بابتسامة: «آسف لأنني لا أشرح بشكل جيد، فعقلي مشوش بسبب ضغط العمل والتحويلات التي نجريها أنا لن أحضر الليلة إلى داركم بل يجب أن ألحق بعائلي في دعوة تعارف مع

عائلة رونا هي. التي سيخطبها عمر بإذن الله، أعتذر مرة أخرى لم أعلموني بموعد الليلة إلا منذ ساعة وأنا وسط زحام العمل، حرفياً أنا أبيت بالمحل منذ أيام. وأكاد لا أرى عائلتي».

يأتيه صوت سجي الرخيم مفعماً بصدق الأمنيات: «مبارك لكم الفرح يا علي وليتمم الله لعمر على ألف خير».

لكن صوته تغير ليحمل معنى الإحراج وهي تقول: «أنا أعلم أنك مضغوط جداً اللحظة؛ لكن هل يمكنني أن أطلب منك الاتصال بعمي رياض وإخباره اعتذارك عن القدوم بنفسك؟».

توقف عما يفعل وهو يشعر بوجود خطأ ما في كلامها ليقول موضحاً: «لقد اتصلت به بالفعل قبلك وأنا في طريق عودتي من المحل؛ لكنه لم يرد على اتصالي».

فيدهشه إصرارها وهي تقول بلطف: «مؤكد هو يصلي المغرب أتمنى منك أن تعاود الاتصال به وتخبره بنفسك رغم لطفها ورقة أسلوبها بالطلب فإنه يستشعر وجود شيء غير مريح فيسألها بشكل مباشر: «هل هناك مشكلة؟».

لتبدو سجي محيرة أكثر وهي تتساءل: «ماذا تقصد؟».

لم يهتم لضيق وقته وأن عائلته وصلت بالفعل إلى دار خطيبة عمر، اللحظة كان يشعر بكل طاقته موجهة ليفهم ما يلتقطه منها فيقول بتساؤل:

«لماذا تكررين عليّ أن أتصل بنفسي بالعم رياض؟».

فترد بنبرة غامضة: «لا شيء فقط الأفضل أن تتواصل معهما مباشرة وليس من خلالي».

ضايقة لأبعد حد شعوره أنها مقصية عنهما فوجد نفسه كأنه يدافع عنها بحمائية عفوية قائلاً: «أنا أتواصل معك وليس من خلالك أنت جزء من العائلة».

صمتت للحظات قبل أن تقول بهدوء: «فقط أرحن بهذا يا علي».

رد وهو ينظر لساعة يده قبل أن يخلعها: «سأفعل لا تقلقي».

ثم أضاف بنبرة دافئة ورغبة مفاجئة: «هل تسهرين بالعادة؟».

بدت مختارة عندما ردت: «أحياناً لماذا تسأل؟».

ودّ لو يقول بصراحة دون قيود أنه اشتاق للكلام معها؛ لكنه صاغ رغبته بشكل آخر: «أريد مكالمتك عندما تنتهي سهرة الليلة».

هذه المرة كانت متوترة وهي تسأل: «لماذا؟».

(لماذا؟) من الأشياء التي عرفها عن سجي أنها تتمتع بغموض غريب، فساعة ينجلي غموضها بمقدار فيظهر سحر شخصيتها الواضحة المحددة وساعة تزداد سحراً باحتجابها برداء أثوي خاص يكاد يقتلك فضولاً لتكشف ما خلفه، بكل سلاسة رد بصدق على سؤالها المتوتر: «لأنني أحب أن

أَكَلَمَكَ».

الفصل الخامس عشر

بيت روناھي

غرفة ضيوف واسعة نسبياً؛ لكن متواضعة قديمة الطراز بأثاثها بعض الشيء، الأرائك والطاولات الخشبية الصغيرة تحتفظ برونقها باهتمام واضح من أهل الدار، في جانب تقريباً تجمع الرجال ليجلس سليم مع خال روناھي، بينما عامر وعمرز إلى جوار زوج بسمه يتبادلون الحوار وفي الجانب المقابل تجلس والدّة روناھي مع الجدة ونورجان، وعلى مقربة منهن تجلس بسمه وروناھي في كراس منجّدة منفصلة، وبينما والدّة روناھي تندمج بحديث الجدة عن جمال الجنوب وحنينها إليه كانت نورجان تتطلع إلى روناھي بفضول من نوع خاص ثم تتبسم وهي تقول لها: «اسمك جميل يا روناھي».

تدفع روناھي نظارتها للخلف وهي تحاول تشجيع نفسها كي لا تشعر بنقص طبيعي للغاية أمام هذه المرأة الخلابة! رشاقة دون نحافة.. جمال راقٍ زاهٍ دون تبرج زائد.. أناقة دون إفراط بثوب بلون البيج مع إكسسوارات مناسبة.. تألق لا يضاھي، والدّة عمر أنثى لا تعرف الزمن إنها الأنوثة المستمرة لآخر العمر ومهما امتلأ وجهها بالتجاعيد، نغزتها أختها بسمه في وركها فسارعت روناھي للرد: «إنه اسم جدّة أمي».

تمسّد روناھي على الثوب الأرجواني الذي لبسته الليلة رغم اعتراض أمها أنه بسيط وعادي؛ لكنها تحبه تحبه كثيراً وتشعر أنه يظهرها أرشق كما

يبرز بياض بشرتها وشقرتها الطبيعية، وهذا فعلته إرضاءً لنفسها لا غيراً
لقد رفضت الذهاب لمزينة الشعر وأنها تصرخ فيها طيلة النهار كي تحاول
إجبارها على الذهاب ولم تتوقف عن الصراخ حتى اقترحت بسمه أن تصففه
لها بنفسها وقد كان، لا شعورياً لامست روناها في فرحة طفولية أطراف
شعرها الكثيف القصير وقد أحببت شقرته التي شعت لامعة كالشمس بعد
تسريحه بالمجفف، تساءلت نورجان بلطف: «هل جدة والدتك كردية؟».

تشعر روناها بعيني عمر تتابعانها فتدرد روناها بوجه متورد وهي تدفع
نظارتها مجدداً: «نعم».

علقت والدته روناها بفخر وكأنها تريد مدح ابنتها: «روناها تعتر
جداً باسمها».

تبتسم نورجان للأم في مجاملة بينما تركز مع روناها أكثر التي التمعت
عينها وهي تقول بنبرة دافئة تشع فقداً وافتقاراً: «أبي اختاره لي رغم أنه
اسم جدة أُمي وليس جدته».

نظرة تأثر عاطفي حقيقي تجلّى في عيني نورجان وهي تقول بحنو: «رحمه
الله أراه يناسبك أنت مضيئة كاسمك».

فجأة شعرت روناها بافتقاد شديد لوالدها وعيناها دون إرادتها دارت في
وجوه الرجال كأنها تبحث عن مكان شاغر ملأه هو بوجوده، عيناها التقتا
للحظة بعيني عمر وقد كان شديد الانتباه والتركيز فسارعت لتبعد نظراتها

عنه لتقع أرضاً عند قدميها، فتحدق في صندلها الأبيض (المُخزي) كما وصفته أمها، والدها كان يحب قدميها بهذه الصنادل يقول لها تبدو كقطعة جينة شهية.

ابتلعت رونا هي ريقها وهي تشعر فجأة برغبة البكاء! ماذا جرى لها لم تكن يوماً من الذين يعانون فقد الأب، لقد ترك لها ذخيرة من الذكريات الحلوة والسعادة المبهجة والثقة العالية ورغم ألمها لفقده فإنها دوماً تشعر بوجوده حولها حتى تكاد تراه يومياً بتفاصيل حياتها كلما وقفت أمام المرأة تذكرت كيف كان يقرص خديها بل أحياناً يفقد سيطرته ليعضهما وهي تضحك، تنحنح وهي ترفض الاستسلام لنوبة حزن سخيفة بينما ترفع وجهها مجدداً وهي ترد على والدتها عمر بثقة وابتسامة عريضة: «شكراً هو أيضاً كان يراه يناسبني وأحياناً كان يدللني باسم (ضي القمر)».

تتسع ابتسامة نورجان ثم يرن جرس الباب لتقول نورجان بابتهاج أمومي عفوي: «ها قد وصل علي».

كانت المرة الأولى التي ترى رونا هي فيها علي القماش في الواقع هذا الرجل الشاب الأنيق فيه شيء جعلها تنكمش تلقائياً على نفسها، كأنها تصد هجوماً مباغتاً إنه مختلف عن عامر وعمر، ليس وسيماً بشكل خاص عنهما لكنه فقط مختلف ربما سمرة ولون عينيهِ المميزتين أو الحرارة التي تشع منه بإفراط في كل ابتسامة ونظرة وحركة يسلم على الجميع بدفء يقتحم أي غربة حتى هي سلم عليها وكأنه يعرفها من سنوات، وحالما وصل

لجذته ينخني نحوها ليلثم كفيها تقبيلاً حانياً وهي تقبل أعلى رأسه ثم انتقل
لأمه أخيراً وكأنه يخبئ لها الأفضل فذاب قلب رونا هي طوعاً وشكل
عجيب وهي تراه يميل بكليته إليها يقبل خديها ثم ظاهر كفها في تدليل يشع
جاذبية كأنه يدل (أميرة)!

الآن فهمت رونا هي معنى جملة عمر عن أمه (إنها أهم امرأة في حياة
أولاد القماش)، وعندما التفتت جانباً وجدت أختها بسمة في حالة مشابهة
لحالتها فأوشكت رونا هي أن تنفجر بالضحك لكنها عضت شفتيها تكتم
الضحكة.

بينما عمر كان يراقب مستمتعاً شقاوتها دون أن يعرف بالضبط ما تفكر
به؛ لكن اللمعة بالعينين من خلف النظارات والضحكة المكتومة تأسرهما
الشفقتان المضغوطتان ببعض كانت تسرق من قلبه النبضات.

في الحديقة بعد ساعة

في الهواء الطلق ونسمات أوائل الخريف ترفرف أعدت والدته رونا هي
مائدة عامرة وقد أجادت ترتيب الكراسي للجلوس براحة، قالت بابتسامة
عريضة: «أرجو أن لا تمانعون في تناول العشاء هنا، أحب أجواء الحديقة
في الليل».

رد سليم بلطف صادق: «على العكس إنه الجو المفضل عندي».

فثبتسم نورجان مؤكدةً كلام زوجها: «سليم يحبه بالفعل لكن لم يكن يفترض أن تتعبي نفسك بكل هذا يا أم بسمّة».

فردت الأم بفرحة واضحة تطل من عينيها قبل شفيتها: «هذه زيارتكم الأولى لنا ويجب أن نحتفي بكم وليجعلها الله زيارات فرح دوماً».

تعقد رونا هي حاجبيها وقد بدأت تشعر أن الأمر يفلت منها، والدتها تضعها أمام الأمر الواقع وتوحي لهم أن الموافقة تمت بالفعل.

التفتت حولها فتراهم جميعاً سعيدين بالنتائج حتى خطيبها العتيد يبدو راضياً منفوش الريش.

تحركت بخطى حانقة وعندما نادتها أمها ردت عليها وهي تركز على أسنانها: «سأحضر العصير من الداخل».

مرت نصف ساعة وهي تتهرب من البقاء في الحديقة وكلما حاولت أمها حشرها لتقف أو تجلس جوار عمر كانت رونا هي تجد طريقة لتبتعد وتفلت، يتبعها عمر وهي تدخل المطبخ (مجدداً) لتحضر أمراً ما تتخذه ذريعة للهرب، بينما يسمع أخاه عامر الذي يقف جواره وييده ضحن الطعام يأكل منه: «أظن هناك من أشاع عنك إصابتك بمرض معد».

ينظر إليه عمر جانباً وهو يسأل: «لماذا تقول هذا؟».

يرد عامر بابتسامة واسعة مشاكسة: «عروسك بحذاء صندل الأطفال هذا الذي تلبسه الليلة تحرص على التحرك سريعاً لإبقاء مسافة مترين على

الأقل منك في أي موقع تنتقل إليه إنها حتى لم تأكل! وهذه سابقة تسجل لمحبة الفلافل».

اقترب علي منهما وفي يده صحنه وهو يتساءل: «بماذا تتهامسان؟!».

يرد عامر وهو يزيد من جرعة مشاكسته: «نناقش حالة شقيقنا الأصغر من الناحية الجسدية وأنه يجب أن يحصل على شهادة طبية تثبت خلوه من الأمراض السارية والمعدية».

ينفجر علي ضاحكاً بينما يتأهب عمر حالماً رأى رونا هي تخرج من المطبخ إلى الحديقة وفي يدها صينية فارغة وهي تستمع بعبوس لكلمات خافتة من أمها التي تسير معها، يتقدم عمر خطوة ليقف بوجهيهما وهو يوجه كلامه لمن يرجو أن تكون (حماته المستقبلية) قائلاً بنبرة رخيمة ساحرة: «أطلب إذنك خالتي لآخذ رقم هاتف رونا هي كي أكلمها».

سارعت الأم لرسم الابتسامة العريضة المرحبة وهي تقول برضا تام وتشجيع واضح: «مؤكد بني».

ثم تلتفت الأم لابنتها وهي تقول كأى أم (الطيفة): «أعطه رقمك يا رونا».

زمجرت رونا هي وهي تلتفت لأمها وتقول: «اسمي رونا هي أمي هل نسيت أنني لا أحب اختصاره برونا؟!».

ردت الأم بتبرير بريء: «لكن قد يكون اسمك صعباً».

فتشير رونا هي نحو عمر وهي ترد عليها: «ليس صعباً عليه خاصة واسم والدته نورجان».

كان عمر سيستدير اللحظة ويلكم عامر وصوت ضحكته الخافتة تصل مسامعه لكنه ركز كل جهده لهذه المتمرده اللذيذة فقال بحلو النبرات: «هل تعطيني رقم هاتفك رونا هي». أخيراً نظرت إليه مباشرة وبدت أشد حلاوة بارتباكها وهي ترد عليه بكذبة طفولية مفضوحة: «رقم هاتفي صعب لا أحفظه وهاتفي في الداخل لا أذكر أين وضعته».

هبت أمها لتقول: «أنا أحفظه.. سجله بني». احمرت رونا هي بحق واضح وهي تقول لأمها بخفوت: «لماذا لا تعطينه رقم هاتفك انت وتتبادلين الحوار معه نيابة عني».

أخذت الأم تغمز بعينها وهي تهمس: «رونا هي!».

يطرق عمر للأرض وهو يخفي ابتسامته بينما رونا هي تقول بغیظ: «لا داعي لتغمزي

أمي عمر أمامنا مباشرة ويراك بوضوح كما أراك حتى لو كان يدعي العكس!».

يختنق عامر في لقمته وضحكته تفلت منه فيضربه علي على ظهره وتكاد دموعه تسيل من شدة الضحك، بينما أم رونا هي تتمتم بحرج وحنق: «حسبي الله ونعم الوكيل».

ثم تأخذ الصينية من يد ابنتها بخشونة وتكرر جملتها بينما رونا هي تتساءل بغیظ: «ماذا فعلت الآن؟!».

كانت ستتحرک مبتعدة خلف أمها عندما سارع عمر ليمنعها وهو يقف بطريقها ويقول مباشرة: «ماذا علي أن أفعل لأجعلك أقل عدائية معي».

كلاهما نسيا تماماً وجود عامر وعلي قريبين ويستمعان للحوار كلاهما ينظر للآخر وكأنه في ساحة معركة لا جلسة خطبة غير رسمية، نظرت إليه بتحدٍ وقد أبت الهروب هذه المرة لتقول له وعيناها في عينيه: «أن تكون صريحاً معي».

فيرد عمر بدهشة: «ومن قال إنني لست صريحاً!».

فتعقد حاجبها وتساءل بصراحة: «لماذا تريد الزواج مني؟».

ينظر إليها عمر مطولاً قبل أن يرد: «لأنك تعجبيني».

فتشوح بكفيها وهي تتساءل ساخرة بخفوت فلا يصل صوتها إلا لعامر وعلي اللذين يستمتعان بكل لحظة: «هكذا فجأة! بعد ست سنوات صحت من النوم فقلت في نفسك هذه الفتاة تعجبني وأريد الزواج بها!».

فيغیظها رد عمر عندما قال: «في الواقع كنت أوشك على النوم عندما فكرت في هذا بالضبط».

بدت قوية للغاية وهي تواجه بسؤال أكثر تحديداً وأكثر أهمية بالنسبة

إليها: «لماذا أنا؟».

لكنه كان خبيثاً لئيماً وهو يثير فضولها قائلاً: «لماذا لا تكتشفين هذا بنفسك؟».

عيناه تمران عفوياً فوق شعرها الأشقر اللامع فتسأله بحدة: «لماذا تنظر لشعري هكذا؟».

لم يقاوم عامر فيعلق: «ثلاث (لماذا) في أقل من دقيقة ودون إجابات كثير علي لأستوعبها».

كاد علي يغمر عليه من الضحك حتى جذب أنظار البقية في الحديقة فيقول عمر وهو يلتفت لشقيقه: «أذهب بعيداً عنا يا عامر وخذ معك علي تبدو ان كمراهقين متلصحين لا رجلين تعديا الثلاثين».

يرفع علي كفيه في استسلام وكان هو من جر عامر جراً لابتعدا تاركين عمر وروناهي بمفردهما في تلك الزاوية، علق عمر مفسراً بأريحية: «شقيقياي يحبان مشاكستي لأنني الأصغر؛ لكنني أعترف أن عامر يبدو مبتهجاً زيادة عن اللزوم هذه الليلة وهذه طبيعته كلما زاد ابتهاجه زادت مشاكسته».

بدت روناهي فجأة مهتمة بعامر وهي تنظر إليه يبتعد مع علي فتدفع نظارتها لتقول بفضول لعمر وقد نسيت لحظياً جدالهما السابق: «هل تظن أن حريـر سـ...».

لكنها سرعان ما أدركت تماديها لتقطع جملتها وهي تنظر لعمر الذي قال لها مشجعاً بنظرة حلوة: «أكملي لماذا سكّتي؟ ما بها حرير».

تعبس وهي تصارحه بالقول كأنه بات حليفها في لحظة: «لا شيء بسمة ستغضب لأنني أتكلم فيما لا يعنيني إنها مزعجة».

فيقول بصوت خافت فائض الحلاوة كأنه يتآمر معها: «أنا لن أغضب ولن أخبرها أنك أخبرتني وعد».

نظرت إليه تضيق عينيها من خلف زجاج نظارتها ثم قالت بحزم: «عمر القماش».

رد بالنبرة نفسها وهو مستمتع لآخر نفس: «نعم».

فقالت وهي تعبس في وجهه تويخه دون رادع يمسك لسانها الطويل المنفلت: «احتفظ بتأثيرات صوت (كاظم الساهر) التي تملكها لتستفيد منها وأنت تكلم زبونة (ركيكة) الإحساس مرهفة المشاعر».

حقاً لم يعد يحسب دقات القلب المسروقة فيترك نفسه على سجيتها معها فيسألها وهو يناغشها: «ألن يزعجك أن أستفيد من (مؤثراتي) الصوتية مع غيرك؟».

ارتبكت نظراتها وتورد خذاها لكن تحتمي بمزيد من العبوس وهي ترد عليه: «لا أبالي».

ثم استدارت لتتركه وكلمته الخافتة الضاحكة تلاحقها «كاذبة».

بعد توديع العائلتين لبعض عند بوابة البيت

بود كبير وقبول واضح التفت سليم لنورجان وهي تساعد الجدة لتجلس في المقعد الأمامي لسيارته فيقول لها: «أنا سأعود مع علي».

ثم يحرك نظراته نحو عمر الذي كان يستعد ليركب السيارة الثانية جوار عامر فيشير له بكفه قائلاً: «تعال يا عمر وقُدْ سيارتي أنت».

يهز عمر رأسه وهو يتحرك نحو سيارة أبيه بينما ينطلق عامر بسيارته وهو يخرج ذراعه من الشباك ملوحاً: «أراكم في البيت».

يركب علي سيارته وهو يتثائب بينما يقترب عمر من والده كي يأخذ المفتاح فأوصاه الأب بصوت خافت وهو يغمز له: «قُدْ على مهلك فجدتك لا تحب السرعة كما تحبها نونة».

يبتسم عمر وهو يطمئن به خفوت أيضاً كي لا تسمعهما نونة: «سأشغلها بالكلام عن العروس كي أرضيهما معاً».

بعينين لامعتين همس سليم لولده في سرية خاصة بينهما: «لقد أحببت رونا هي اختيار شقي منك لم أتوقعه هل تميل للمماتات أم للشقراوات؟».

رد عمر وهو يسبل أجفانه ضاحكاً: «أميل إليها».

يضحك سليم وهو يقول بالخفوت نفسه: «جواب جيد يا ابن تاج الدين القماش».

عبست نونة من الجهة الأخرى للسيارة وهي تتساءل قبل أن تصعد للمقعد الخلفي: «بماذا تتهاamanan؟!».

ينكشها سليم بالقول: «حديث رجال لا يخصك يا نونة».

لكنها ترد بعناد: «ما دام ولدي فيه فيخصني معه أي حديث».

يحرك سليم حاجبيه وهو يقول لعمر: «أظننا يجب أن نغادر ولا نعطي أفكاراً مخيفة لنسبائنا الجدد بإطالة مدة وقوفنا أمام دارهم».

يتشارك عمر ووالده الضحكة وهما يفترقان ليتوجه سليم لسيارة علي بينما يمر بركب مقعد السائق مكان أبيه وعيناه تسرحان جانباً نحو البيت المتواضع الذي تعيش فيه رونا هي لقد أحب البيت وكل من فيه.

يقود علي بسرعة معتدلة وهو يعاود التثاؤب لكن سليم لمحّه ينظر للساعة أكثر من مرة وشعر كأنه متعجل الوصول للبيت، سأله بنبرة عادية: «كيف هي زيارتك لبيت عمك رياض».

رد علي: «جيدة اقضيها غالباً بالكلام مع العم رياض».

هذه المرة سأله بجدية والمقصد لا يُؤارى: «هل تشعر أنك أفضل بهذه

التفت علي للحظة نحو أبيه ثم رد يطمئنه: «أجل يا حاج لا تقلق علي زيارتي هذه جعلتني أرى أموراً كثيرة وأتقبل أخرى».

يعترف سليم أنه يشعر بالارتياح لم يكن يريد التدخل قبل أن يرى أثر تلك الزيارات على علي والأثر الإيجابي كان واضحاً ويظن أن حان الوقت لزيارة مؤجلة من سنوات فقال لعلي معلناً عن نيته: «سأتصل برياض غداً أنا ونونة يجب أن نوزهم أيضاً منذ الحادث ولم نفعل، كان الأمر صعباً للغاية».

قالها سليم وهو يراقب ولده عن كثب فرآه ساكناً كأن باله سرح لمكان ما، أراد أن يتكلم معه أكثر ليعرف كيف باتت الأمور هناك في بيت عائلة هيام فسأل بعفوية قائلاً: «وكيف هي سجي؟ أظنها متزوجة الآن».

تفاجأ سليم بحركة حادة بعض الشيء من علي وهو يلتفت إليه ليقول بنبرة قاطعة: «لا».

ثم تخفت حدته قليلاً وهو يضيف جازماً: «إنها ليست مرتبطة بأحد».

يتساءل سليم بتنبه لردة فعل علي: «وكيف تعرف أنها ليست مرتبطة بأحد؟ ربما توشك علي».

يقاطعه علي هذه المرة ليبتتر الفكرة من منبعها وقد بدا منزعجاً بوضوح: «أنا أعرف فقط».

بدهاء تاجر سلك سليم طريقاً آخر كي يجس نبض ولده فيسأله: «ما رأيك
بخطيبة أخيك؟».

ابتهجت ملامح علي تلقائياً وهو يقول: «أعجبتني للغاية فيها شيء يشد
ويفتح الشهية للحياة».

ابتسامة خاصة على فم سليم وهو يسأل بكثرة: «وهل فتحت شهيتك؟».
بنظرة جانبية من علي لأبيه ثم رد بدهاء التجار نفسه: «كنت أظن أننا
نتكلم عن شهية أخي لا شهيتي أنا».

اكتفى سليم بأن ضحك وهو يمد كفه يربت به على خد علي، بينما عينا
علي تقرأن الساعة مجدداً فيكاد لا يطيق صبراً للوصول للبيت ثم مباشرة
لغرفته.

دخل سليم ونورجان غرفتهما سوية وقد وصلوا جميعاً في الوقت نفسه
عدا عامر بدت نورجان لعينيه شاردة الذهن وكأنها غارقة بالأفكار سألها
وهو يغلق باب الغرفة: «أين عامر؟ لم أرَ سيارته!».

ردت وهي تتجه لمنضدة الزينة في الزاوية: «لقد وصل قبلنا لكنه قال إنه
سيدور قليلاً في شوارع العاصمة، فلا رغبة له للعودة للبيت الآن».

لم يخمن ما يقلقها أو يشغل تفكيرها هل ربما تغار لأن الأصغر المدلل

من أولادها سيتزوج؟ ابتسم ابتسامة صغيرة وهو يسألها برفق: «هل أعجبتك رونا هي؟».

كانت تخلع إكستواراتها ببطء عند منضدة الزينة عندما شد انتباهها بسؤاله فترد عليه برضا حقيقي وابتسامة رائقة: «جداً ستعيد لعمر حيويته أظنها معجبة به، لكنها تجيد تحجيم غروره بعفوية دون افتعال».

شعر بالارتياح لكلامها وردة فعلها ارتياح من جهتين من جهتها هي ومن جهة رونا هي نفسها ومدى ملاءمتها لعمرانه يثق بنظرة نورجان، اقترب من الخزانة وهو يخلع سترته ويتساءل ببعض العجب: «إذن لماذا تبدين ساهمة هكذا؟ ظننتك تفكرين بعمر ورونا هي».

قالها وعقله يخمن أنها ربما قلقة على عامر بينما تتوقف نورجان عن خلع أساورها لترد على سؤال زوجها بحيرة: «أفكر بعلي».

أثارت اهتمامه بحيرتها خاصة وهو لم يلحظ في الجلسة أي شيء غريب بعلي فقط حديثهما في السيارة جعله يفكر ببعض الأمور.

علق سترته وهو يقول معبراً عن أفكار أخرى راودته أثناء الجلسة: «ظننتك ستقولين عامر فقد كان مبتهجاً بشكل خاص الليلة».

ردت نورجان ببعض الغيظ وهي تكمل خلع باقي أساورها: «عامر ابن أبيه يتصرف بصمت وتكتم ونحن نستلم النتائج؛ لكنني لا أخشى عليه».

فسألها سليم بحيرة وهو يشعر أن هناك أموراً كثيرة تدور حول بكره

يكتشفها اليوم: «وهل تخشين علي؟».

اقتربت نورجان من زوجها حتى وصلت إليه وبحركة تعبر عن توترها أخذت تفتح له أزرار قميصه بينما تنقل إليه الأفكار المُنيرة: «لا أدري يا سليم يبدو لي وكأنه في دوامة جديدة، لا أعرف كيف أصف شعوري لكن قلبي يخبرني أن هناك شيئاً».

ثم تتوقف أصابعها عما تفعل لتسرح نظراتها مضيئة كأنها تكلم نفسها: «فيه شيء تغير أو يتغير!».

ثم رفعت عينيها لزوجها فتسأله فجأة: «ألم يخبرك بشيء؟».

رد سليم ببعض الغموض: «ربما».

تعبس نورجان وهي ترخي يديها عن قميصه وتسأله: «ماذا تقصد ربما؟ هل قال شيئاً أم لم يقل؟!».

رد سليم وهو يكمل فتح أزرار قميصه بنفسه: «بعض الأشياء تقال دون كلمات لكنها تظل غير واضحة المعنى وقابلة للتخمين والتكهن وأنا بطبيعتي لا أتسرع انتظرها تفك لغزها بنفسها».

خلع قميصه فيما تحركت نورجان نحو خزانة لتخلع ثوبها الأبيض وتعلقه، وبينما هي تفعل قال سليم ليبلغها بما نوى على فعله: «أخبرت علي أننا سنزور رياض ونبراس».

بثوبها الداخلي الرقيق هتفت نورجان في وجل ورفض للفكرة: «لا سليم أرجوك ليس لي قلب لأواجه نبراس بل لا قلب لي لأدخل ذاك الدار وهيام غير موجودة فيه أعان الله والديها على خسارتهما المفجعة».

اقترب منها سليم ليقول بجدية وهو يؤكد بنظراته على أهمية الموضوع: «ما دام ولدنا بات على تواصل جديد معهما فيجب أن نفعل نحن أيضاً إن كان علي قادر على فعل هذا فمؤكد نحن نستطيع، هيام ماتت وكما نقول (خبزتها في الحياة انتهت) رحمها الله».

تتمتم نورجان بالرحمة لهيام بينما يرتدي سليم منامته لتفعل هي المثل، كانت تتجه للحمام بينما سليم يتوجه بدوره لباب الغرفة كي ينزل للطابق السفلي ويطمئن على نوم الجدة؛ لكن قبل أن يصل باب الغرفة التفت إليها وهو يوصيها مذكراً: «لا تنسي أن تتصلي بأبيك غداً وتخبريه عن عمر».

تقف نورجان عند باب الحمام الداخلي للغرفة وهي تقول: «لا أظنه سيحضر الخطبة الرسمية ولا حتى الزفاف بات تحركه من داره أثقل على نفسه».

فأكد عليها سليم: «في كل الأحوال يجب أن تخبريه أنه جدهم».

علقت نورجان ببعض الغصة: «علي فقط مقرب منه أتمنى لو يفعل المثل مع عامر وعمر».

بواقعية قال سليم: «علي بات مقرباً لأسباب وأنت تعرفين منذ الحادث

المشؤوم وفترة النقاها التي قضاها علي عند جده وعلاقتهما توطدت».

سارعت نورجان لتهرب من ألم الذكرى وهي لا تطيق التفكير أن يصيب
أياً من أولادها شيء فتقول برجاء إلى زوجها: «لا تذكرني بالله عليك بتلك
الأيام والشهور العصيبة اليوم يوم فرح سأذهب لأصلي ركعتي شكر لله».
يبتسم لها بتفهم قبل أن يكمل طريقه ليغادر الغرفة ونورجان تغسل وجهها
ثم تتوضأ.

تأكد علي من إقفال باب غرفته حالما دخل بينما هاتفه في يده ليجري
الاتصال الذي يتلهف إليه، تلهف يرويه دون أن يسأل نفسه عن أسبابه،
حالما أتى صوت سجي الرخيم بتحية مسائية ابتسم علي وهو يسأل: «هل
تأخرت عليك؟».

في داخلها تهمس باعتراف خطير موجه (كثيراً) لكنها تغمض عينيها
وتخرس مشاعرها التي بات أنينها عالياً فتدعي الهدوء قائلة: «لا ما زال
أمامي سهرة طويلة أمام الحاسوب».

كادت تضحك أو ربما تبكي! منذ ساعة كاملة لا تفعل شيئاً إلا النظر
لهاتفها بانتظار اتصاله، تعرف أنه خطأ.. تعرف أنه غير مقبول.. تعرف أنه
خطر.. خطر عليها وحدها وعلي في وادٍ آخر لا يشعر بها ولا يهرك عذابها،
كيف أقحمت نفسها في هذا قبل سنوات كان من الأسهل التواري والابتعاد،

وجود هيام كان درعها الذي تحتمي به أحياناً العيش في الظل يمنح سكينته
الأمان أنك لا تبذل جهداً لتخفي ما يعتمل في قلبك ما دام لا يرى مشاعرك
أخذ.

على الجانب الآخر يستلقي علي بملابسه على السرير ينظر للسقف بفرح
يملاؤه ولا يبحث له عن تفسير مضت سنوات كثيرة جداً لم يشعر هكذا
توترها يكاد يصله عبر أمواج الهاتف هذا التوتر المحيز بات يشغله كثيراً
سألها: «ألن تخبريني؟».

صوتها الهادئ الواصل رغم التوتر المحسوس يستفزه وهي ترد السؤال
بسؤال: «بماذا؟».

رد وهو يحدق في السقف: «لا أعلم».

فتسأله بصبر: «ما الذي لا تعلمه علي؟».

تخيلها أمامه بشعرها الطويل وعينيها الواسعتين رياه كم هما واسعتان
عميقتان مليئتان بالأسرار تثيران الاضطراب في النفس تثيران الحيرة
والتساؤلات قال: «فيك شيء يحيرني».

تسأله بنغمة تثير الشجن: «لماذا تتعب نفسك بالتفكير؟».

يبتسم دون أن يشعر ليعترف قائلًا: «أنا لا أتعب معك على العكس».

سألته بلطف: «أليس لديك أصدقاء يا علي؟». رد علي بصدق: «عامر

هو أقرب أصدقائي».

فجاءت كلماتها تغبطه على النعمة التي يمتلكها: «كم أنت محظوظ أن يكون أخوك أقرب أصدقائك».

أوشك أن يسأل (لماذا لم تكن هيام أقرب صديقاتك) لكنه تراجع برفض غريزي لا يعلم لماذا لم يُرد لاسم (هيام) أن يتردد بينهما اللحظة ما الذي يجري له؟!!

سألته وكأنها تجيد اخراجه من باب شائك لتدخله عبر باب آخر أكثر أمناً: «كيف كانت عروسكم الليلة؟».

تتسع ابتسامته بل يكاد يضحك وهو يصف عروس عمر بالكلمات المفعمة بالإعجاب: «ممتعة فكاهية على نحو جدي ولا أعرف كيف! معتدة مقاومة وغالباً ستحطم ثقة عمر بنفسه».

تشنج جسده بالكامل، وضحكتها الرنانة ترفرف عند أذنه، ما هذه الضحكة، وجد نفسه يعبر بالقول الصريح: «ضحكتك حلوة».

فيعود بها لدائرة التوتر فتتمتم بصوت خافت: «شكراً».

ثم يفور الدم في عروقه وهو يفكر بكلام أبيه وسؤاله عن سجي، هل هو أناني لهذه الدرجة ولا يريد لسجي أن ترتبط بأحد فيخسر هذه الفسحة الخاصة جداً بينهما؟! خوف قبض قلبه فيقول بتهور: «هل أستطيع السؤال في أمر شخصي؟».

ردت بمستوى توتر أعلى: «أجل».

لكن توترها لم يوقفه أن يسألها صراحة: «كيف لفتاة مثلك لم تتزوج حتى اللحظة؟».

مرت لحظات ثقيلة للغاية وشعر أنه يتوه أكثر وأكثر في لغز اسمه (سجى) ليُقفَل اللغز أمامه بمفتاح جديد وقد اختارت إجابة عامة تحتمل كل أنواع الإجابات: «قسمة ونصيب».

شعر بالغیظ منها وكأنها تتوه منه عن عمد! ثم نادى اسمه بجديّة: «علي».

رد نداءها: «نعم».

قالت بالجديّة نفسها: «أنت كأخ لي لكني لا أستطيع التواصل معك بهذا الشكل أراه غير مقبول».

بعض من شعور رقيق بالذنب سيطر عليه للحظة خاصة وهي تضيف عليه صفة (أخ) ليعترف قائلاً: «وأنا أيضاً أراه غير مقبول».

فتسأله كأنها تعاتبه: «إذن لماذا تفعله وتطلبه مني؟».

رد وهو يشعر بدمه يجري سعيداً حراً منطلقاً في شرايينه: «لأنني أحب الكلام معك ولا أعرف كيف أحقق رغبتى».

كان يعلم أنه يتدلل عليها لكن يحب هذا الشعور معها ليتها كانت

بمحيطه دوماً يراها كل يوم يجد طريقة ليتواصل دون شعور بالذنب وكأنها
تسمع رغباته وتحاول بقلبها الكبير تحقيق أمنياته فتقول له: «يمكننا أن
نلتقي في محيط العائلة بشكل عادي نتكلم ما شئت الكلام».

يتمادى بشعور التدلل عليها قائلاً بصوت خافت وهو يتشاءب: «لكنك لا
تكونين دائماً موجودة».

كان مرهقاً للغاية نعساناً جداً لكنه يأبى الاستسلام قبل أن يطمئن أنها
ستكون معه فيحصل على ما يريد وهي تقول له: «أعدك سأتواجد دوماً
لأجلك».

كله استرخى مع هذا الوعد بل ملأ روحه الابتسام هاجمه سلطان النوم
بجنوده فشعر أنه قادر اللحظة على الاستسلام فيقول لها بخفوت النعاس
قبل أن يرفع الراية: «وأنا ألزمك بهذا الوعد».

ثم يضيف وعينه تكادان تغلقان: «سأنام على نفسي من شدة التعب».

فتحته برفق: «إذن اذهب للنوم يا علي».

يتمتم رداً عليها وهو يغلق عينيه: «تصبحين على خير».

فيكون صوتها كترنيمة جنوبية يعزف لحنها سعف النخيل ترافقه أحلامه
تطمئنه أنها معه: «تصبح على خير».

يقف سليم عند باب غرفة الجدة وهو يبتسم بقلب متأثر لم يتوقع أن يجد عمر بصحبته يتسامر معها بالكلام، كان يعينها لتستلقي على سريرها وهو يقول بابتسامة حلوة: «إذن فقد أعجبتك رونا هي يا جدة».

توقفت خطوات سليم عند الباب وابتسامة ولده الأصغر معدية فتنتقل إليه، بينما يسمع رد الجدة الذي أكدته برضا تام: «يجب أن أقول إنني أحب الفتاة ممتلئة قوة وصحة وعافية لا نحيفة كقصبة بالية».

تتسع ابتسامة سليم بينما عمر يضحك لتضيف الجدة باستنكار: «اضحك على كلام جدتك كما تشاء لكني لا أحب النحيفات ولا أقتنع بهن كأمهات بالله عليك كيف ستطعم جنيماً في رحمها وهي تجوع نفسها؟!».

يجلس عمر على حافة السرير قبالة جدته وظهره للباب فلا يرى أباه المستمتع بحوارهما فيتساءل عمر ببعض الحيرة: «الحمد لله أعجبتك فنظرتك مهمة لي، خشيت أنها لم تحظَ برضاكِ لأنك كنتِ قليلة الكلام بجلسة الليلة».

كان يحاوط كفها وهي ترد عليه بطيبة: «جدتك كبرت يا عمر زهدت الكلام مع الناس كما زهدت الخروج والحركة أنا في محطتي الأخيرة يا قرة عين جدتك».

يميل عمر وهو يقول بخفوت: «لا تقولي هذا أطال الله بعمركِ وتحملين أبنائي على حرك وتدللينهم كما دللتنا».

ترفع كفها لتربت على خده وتقول بحنان: «إنها الحقيقة يا ولدي».

ثم تنهدت بحسرة وهي تضيف: «يحز في نفسي فقط أنني بت متعبة هكذا لا أتحمل الخروج ولا حتى الحركة في البيت».

سرحت عينا الجدة بنظرات شجن وحنين لتقول بنبرة أهل الجنوب: «لو بقيت هناك في بساتين الجنوب لرأيتني اليوم والفأس في يدي أحرث الأرض كشابة في العشرين لكن العاصمة حرمتني من هذا فتحولت للكسل والخمول».

ثم أضافت وعيناها تدمعان: «هل تعلم أن جدتي رحمها الله عمّرت حتى قاربت المئة لم تغادر بيئتها ولم تترك بستانها أبداً وماتت هناك وفأسها في يدها».

تأثر عمر للغاية بكلام جدته فيقترب منها ويلثم رأسها وهو يترحم لجدتها، بينما تكمل الجدة منغمسة أكثر في كلام عاطفي يمس القلوب: «روناهي الليلة وهي تتذكر المرحوم أباه وتحدث عنه مع نونة بذاك الإحساس بالفقد ذكرتني بالماضي البعيد من فقدتهم وأوجعني قلبي عليهم رحمهم الله أمي ماتت صغيرة بالحمى النزفية التي ظهرت في ذلك الوقت أخذت العدوى من أخي الصغير الذي مات معها لم يبق لي إلا جدتي لأعيش معها وقد فقدت أبي قبلهما في اقتتال عشائري».

سالت دمة على خدها فمسحها عمر وهو يقول بحسرة: «دموعك غالية

يا جدة.. غالية جداً».

فترد الجدة: «آه يا بُني عروسك أعادتني لتلك الذكرى وكنت قد نسيتها».

لتحوّل همساً قبل أن تضيف: «لقد كانت في العاشرة عندما فقدته يا لها من طفلة مسكينة أمها أخبرتني كم كانت متعلقة به».

شردت نظرات عمر ثم تجذب انتباهه الجدة مجدداً وهي توصيه بحكمة: «كن لها أباً وأخاً فتجدها نعم الزوجة التي تقف بظهرك لآخر العمر».

تلتصع عينا عمر بينما تمسح الجدة تعابير الشجن عن وجهها لتبتسم لوجه حفيدها الحبيب وهي تقول له بمداعبة: «أظنها الليلة لن تنام وهي تفكر فيك ستناجي نجوم الليل تسألها عنك».

يضحك عمر وهو يرخي أجفانه ويقول بصوته الحلو الرخيم: «ليتها كما تصفين لكني أظنها ستتدل علي كثيراً يا جدة».

يضحك قلب الجدة قبل فمها ثم تمد ذراعيها نحوه في دعوة فيستجيب عمر لينعم بحنان صدرها يتوسده وتقبل أعلى رأسه وهي تقول له: «يا روح الجدة قلبك أخضر يبحث عن وليفه ويليق بالوليف العزيز بكل الدلال».

ثم أخذت تشدو بأغنية قديمة لياس خضر تذكرها بأهلها في الجنوب:

عزاز (أعزاء) عدنا عزاز

مدللين مدللين ويلوق (يليق) لأحبابي الدلال

وشوقهم نسمة جنوب وسيرت (سارت) لأهل الشمال

والعتب بشفاهم ود وحنين مدللين أحباب قلبي مدللين

عزاز حق الله عزاز

عزاز عندي عزاز

ينسحب سليم تاركاً عمر لتدليل الجدة، بينما يعود إلى (الشمالية) وعيناه
تلمعان وشوق جنوبي دافئ هبّ في صدره ولسانه يردد بخفوت: «وشوقهم
نسمة جنوب وسيرت لأهل الشمال».

يصعد سليم درجات السلم بمزاج رائق والشوق يجعل خطواته خفيفة
ودماء الشباب تجري في عروقه الخمسينية، وجدها للتو تخلع عنها إزار
الصلاة فتنظر إليه بدهشة وهي تسأله: «هل الجدة نامت بهذه السرعة؟
ظننتها ستحب التحدث معك مطولاً عن خطبة عمر».

يغلق سليم الباب خلفه مقترباً منها وعيناه تسرحان لتفاصيل قميص نومها
الحريري بلون الورد، تعقد حاجبيها قليلاً وهي تبتسم بمكر الأنثى العارفة
بنظرات رجلها ثم تهمس: «أتركت أمك وفي عينيك هذه النظرات فضحتنا يا
ابن تاج الدين».

حاوط خصرها بذراعه بينما يده الحرة ترتفع لتلامس حمالات قميص

نومها الرقيقة ليغني لها بخفوت: «وشوقهم نسمة جنوب وسيرت
لأهل الشمال».

تميل إليه وهي تهمس له أمام شفتيه: «وأهل الشمال يردون لك نسائم
الأشواق يا جنوبي».

تسمع روناها صوت قرقرة معدتها فترمي بالذنب على عمر وهي تتجنى
عليه بالقول: «كله بسنبك وترتني طوال الليل فلم آكل شيئاً».

تذكرت كيف لاحقها بعد العشاء فلم تهناً حتى بأكل البقلاوة
التي تعشقها.

(«كم قطعة بقلاوة أكلت دون أن تشكريني؟ هذا ليس عدلاً منك وأنا
الذي قطعت الطريق وسط الزحام كي أحضر لك ما تحبين» تزمجر بغضب
وتكذب بعناد: «أنا لا أحب البقلاوة!»).

فيرد بتأن كأنه يقنع طفلة صعبة المراس: «بل تعشقينها منذ طفولتك
ونسمة أكدت لي هذا»).

أخذت روناها تشتم أختها بسمة التي تتحالف مع أمها لكشف كل نقاط
ضعفها أمام عمر، تتقلب على الجنبيين وهي تستعيذ بالله من الشيطان

الرجيم وتمنع نفسها مغادرة سريرها والتوجه للمطبخ لاختطاف (بضع لقيمات) من البراد؛ لكن شيطان الطعام أبى أن يفارقها ليحثها على النشاط وإرضاء معدتها الفارغة (المتوترة) بسبب الجوع، وانتصر الشيطان اللعين لتدفع عنها غطائها وتمد يدها لتلتقط نظارتها وتغادر سريرها وهي تقنع نفسها أنها لن تأكل إلا القليل القليل فقط ولن تقترب من البقلاوة بكل تأكيد، وبينما تبحث عن خفيها وقد ضاع منها تحت السرير ترضي نفسها بالقول: «حسنٌ التوتر يجعلني أجوع أكثر وهذه الليلة لن تنتهي على خير إذا بقيت بهذا الجوع».

أخيراً وجدت الخفين فتلبسهما وتغادر الغرفة بهدوء شديد، مؤكد لا تريد إقلاق أمها والواقع هي تهرب منها وادعت حاجتها للنوم مباشرة بعد مغادرة الجميع ولم تستمع لإلحاح أمها وهي تلاحقها تريد أن تعرف رأيها النهائي.

عقدت رونا هي حاجبيها وهي تلمح النور المتسرب من تحت عقب باب غرفة أمها أيعقل أنها مستيقظة حتى هذا الوقت بعد هذا اليوم المتعب؟! كانت مضطرة لتمر من أمام باب غرفة أمها كي تصل للمطبخ، فخلعت خفيها وحملتتهما تحت إبطها وأخذت تسير على رؤوس أصابعها؛ لكن عندما باتت بمحاذاة الباب تفاجأت بسماع صوت أختها بسممة وهي تقول بتذمر: «أمي أرجوك لم أعد أستطيع البقاء صاحبة ألا نؤجل الكلام للغد؟ الوقت تأخر للغاية وأريد الصعود لبيتي هذا إن أبقى زوجي الباب مفتوحاً لي ولم ينس أن زوجته ما زالت في الخارج».

بتركيز تنصت رونا هي وأمها تحت أختها كأنها يائسة: «تكلمي معها مجدداً يا بسمه هذا الشاب لن يظل ينتظر ويحتمل منها سلاطة لسانها».

عبست رونا هي بينما تسمع أختها ترد بما أثلج صدر رونا هي: «أمي أرجوك صحيح عمر شاب ممتاز تتمناه أي بنت لكن لا تضغطي عليها دعيها ترتاح للاختيار بنفسها، انظري لحرير زوجها لم يكن سيئاً لكن والدها أجبرها ولم تستطع الانسجام معه طيلة ست سنوات».

وللمرة الأولى تسمع رونا هي كلاماً من أمها لم تسمعه من قبل: «أنا أخاف عليها يا بسمه أريد أن أطمئن عليها قبل أن أرحل وألحق بوالدك».

لا إرادياً ترفع رونا هي يدها لقلبها في توجع بينما ينعكس التوجع نفسه في صوت أختها بسمه وهي ترد على أمها بالقول: «حفظك الله أمي وأطال عمرك لماذا تقولين هذا الكلام الموجه».

فيزداد وجع رونا هي وأمها تقول بالنبرة نفسها التي لم تسمعها منها سابقاً: «إنها الحياة يا ابنتي والأعمار بيد الله وأنا حملي كان ثقيل جداً لإثني عشرة سنة منذ وفاة أبيكما رحمه الله وأنا أتحمل مسؤوليتكما وحدي ولا أريد من هذه الدنيا إلا أن أطمئن عليكما».

جاء صوت بسمه بنبرة عقلانية وهي تحاول تهدئة مخاوف أمها: «رونا هي ما زالت صغيرة أمي إنها في الثانية والعشرين فقط وإن لم يكن لها نصيب مع عمر يأتي غيره».

لكن الأم ردت بكلمات مست رونا هي وهي تسمعها بهذه الصراحة:
«صغر سنها هذا يمنحها فرصاً أكثر وكلما مرت سنة من عمرها ستتناقص،
ورونا هي ليست كباقي الفتيات يا بسمه إنها لا تهتم بنفسها كفاية بنظارتها
الطبية وملابسها غير الجذابة وامتلاء جسدها وهي لا تبذل أي مجهود
لإظهار أي مواطن جمال فيها، يكفي طباعها العنيدة كما أنها طويلة اللسان
والرجال لا يحبون هذا».

تدفع رونا هي نظارتها للخلف وهي تزم شفيتها وخداها متوردان في شعور
غريب بالإهانة لشخصها، ربما لم تقل أمها إلا الحقيقة المجردة؛ لكن
رونا هي تألمت من هذا التقييم ولا تعرف لماذا ليخفف عنها قول أختها بسمه
وهي ترد: «لكنها قوية الشخصية وتتمتع بخفة دم عفوية ومع قليل من
الاهتمام تستطيع أن تصبح جذابة فهي لا تفتقر للجمال».

فتسند الأم وهي تقول بإحباط: «ومن يقنعها بهذا؟! إنها تعاند».

فجاءت كلمات بسمه مجدداً بما أَرْضَى رونا هي وجعلها ممتنة لأختها
الكبرى وهي ترد عنها وتدافع: «إنها لا تعاند لكنها تدافع عن نفسها أُمِّي
تدافع عن هويتها».

حقاً لم تتوقع رونا هي أن بسمه تفهمها لهذه الدرجة، بينما تسمع أمها ترد
بغيط وقد استعادت نبرتها التي تألفها رونا هي ومعتادة عليها: «لا تشجيعيها
بالله عليك كل ما أريده منك أن تقنعيها أن تتصرف مع عمر بلطف على
الأقل، أقسم بالله سأموت قهراً إن ضاع منها».

تنهدت بسمه وهي تعدها بالقول: «لا تقلقي أُمي سأكلمها».

ثم سمعت رونا هي صوت حركة فأدركت أن أختها ستغادر وأوشكت أن تنسحب سريعاً عندما هتفت أمها فجأة: «يا إلهي!».

تسمرت قدما رونا هي الحافيتان مكانهما بينما تسمع أختها بسمه تسأل بقلق: «ماذا؟!».

ردت الأم بما جعل رونا هي تركز على أسنانها غيظاً: «نسيت أن أعطي عمر رقم هاتفها».

ثم تحركت رونا هي عائدة لغرفتها مع قرقرة معدتها وهي تشتم عمر واليوم الذي أوقعت فيه شطيرة الفلافل أمام عمر، بينما تصل مسامعها كلمات أمها لتلاحقها حتى باب الغرفة: «حسبي الله ونعم الوكيل».

(تصبحين على خير) كتبها وأرسلها وفي قلبه ممهورة باسمها (حريرتي).

في جنح الظلام تنهد عامر وهو يضع هاتفه في الحافظة البلاستيكية الخاصة بالسيارات المثبتة أمامه ثم يتحرك بسيارته من أمام بيت حرير تاركاً قلبه هناك معها، يعلم أن ما زال أمامه كثير من العراقيل قبل أن يصل لحرير؛ لكن يكفيه أنه بدأ اليوم الخطوة الأولى الصحيحة وهي تستجيب

رغم تهربها من الاعتراف بهذا تستجيب حتى وهي تحاول دفعه وكأنها تناديه
دون إدراكها وتطلب منه أن لا يستسلم وهو لن يستسلم فقط يريد منها كلمة
(نعم) كوعد صريح أنها لن تكون لغيره.

خرج للشارع العام وهو يبتسم بشقاوة مسترخياً بجسده في المقعد المريح
ثم قال بهمس خافت وهو يرفع أصابعه لموضع قلبه يربت هناك يواسي تلك
الخفقات التي طال انتظارها: «متى تضعين أصابع الحرير هنا فقط كي
تعرفني بما فعلته في قلبي؟! متى أنال لمسك بالحلال يا حرّة فتكوني لي
لآخر عمري؟!».

غادرت حرير غرفتها على مهل حتى لا تصدر صوتاً وتوقظ من في الدار،
لقد نامت قبل ساعة ثم استيقظت على شعور غريب بالقلق غير المُفسر
حاولت العودة للنوم لكنها لم تستطع ثم تحول قلقها لإحساس أعمق تأثيراً
شعرت أنها خائفة، حتى بات قلبها يرتجف في صدرها من شدة الخوف،
وعندما استلمت الرسالة من عامر (تصبحين على خير) شعرت أنها لن
تستطيع البقاء بمفردها أكثر، ولم تفكر إلا باللجوء للنوم إلى جوار شقيقتها
الصغرى تتلمس منها دعماً صامتاً حتى لو لم تطلبه صراحة، دخلت غرفة
سدير وهي تنادي اسم أختها الصغرى بخفوت حتى لا تفرعها وهي تعلم كم
نومها خفيف: «سدير حبيبتني».

على الفور كانت سدير قد تنبهت لترفع رأسها عن المخدة وتفتح الإضاءة الجانبية وهي تنظر لشقيقتها بقلق يطرد النوم من أجفانها: «هل أنت بخير حبيبتي؟».

ابتسمت لها حبيبتي مطمئنة وهي تتقدم من السرير وتقول: «لا تقلقي فقط أحببت النوم جوارك الليلة».

ارتفع حاجبا سدير بدهشة وهي تنظر لأختها الكبرى تنضم إليها في السرير بالفعل وتشاركها الغطاء ثم تغمض عينيها وتقول: «أطفئي النور لو سمحت».

فعلت سدير ما طلبته أختها فأطفأت النور ورقدت جوارها بينما حبيبتي تمسك بكف أختها كأنها تطلب منها شعوراً بالأمان، تفكر حبيبتي أن ليتها تستطيع إخبار أختها أنها خائفة، ليتها تستطيع قولها ببساطة هكذا دون اعتبارات للعمر والخبرة والتجارب التي تفرض على حبيبتي موقفاً معاكساً مع أختها الصغرى ذات الثمانية عشرة ربيعاً، كانت توشك حبيبتي على الإغفاء عندما جاءها صوت سدير كأنه صدى لصوتها هي: «أنا خائفة حبيبتي».

فتحت حبيبتي عينيها لتنظر لوجه أختها القريب تتبين تعابيرها في إضاءة القمر الخافتة القادمة من الشباك، لقد كانت خائفة بالفعل، نحت حبيبتي خوفها الذي جعلها تبحث عن رفقة جانباً لتواجه خوف أختها فتسألها: «مما خائفة؟! من أبي؟».

ردت سدير بصوت مرتجف خافت والكلمات تتدفق من فمها في الظلمة:
«من كل شيء... خائفة من أبي.. خائفة أن يجبرني على شيء لا أريده..
خائفة أن أفسل.. خائفة أن أصبح تعيسة.. خائفة أن أصبح..».

كآبة وحزن خيما على قلب حرير وهي تقطع كلمات شقيقتها الصغرى
لتسألها بهدوء: «مثلي أنا؟».

مرت لحظتان قبل أن ترد سدير بتلعثم: «لا أقصد هذا».

إن هما إلا لحظتان من التردد لكنهما كانتا كافيتان لحرير كي تتأكد،
يؤلمها كم يؤلمها أن تكون ذاك المثال السيئ الذي حظيت به أختها الصغيرة
المسكينة.. كم يمزقها أن توضع رغماً عنها في هذا التصنيف غير
المنصف.

أشفقت على سدير دون أن تشفق على نفسها، فهي لا تريد الإشفاق لن
تسمح حتى لنفسها أن تعيش إشفاقاً على الذات؛ لكن أختها الرقيقة الناعمة
تحتاج أن ترى الوجه الآخر مما وصفته مدت حرير يدها لتنير الإضاءة
الجانبية مجدداً، ثم تنظر بتركيز لوجه أختها المرتبك فتبتسم لها لتخفف
عنها وطأة الارتباك قبل أن تقول لها بهدوء: «لكنك تقصدين دون إدراكك
ربما لقد كنتِ تصفين ما (تعتقدينه) حياتي».

شدت حرير على كلمة (تعتقدينه) لتجعل أختها تنبه معها، وقد تنبهت
سدير فتنسأل بحيرة: «أعتقده؟!».

تمد حريز يدها وتشير بسبابتها إلى رأس سدير قائلة بتأكيد: «أجل إنه هنا في رأسك يا سدير، الأمور كلها مشوشة هنا ما بين اعتقادات وحقائق مشوهة وهذا ما يخيفك».

بدت سدير متحيرة أكثر فتعبر حريز بتوضيح أكبر للحقائق: «أبي لم يجبرني يا سدير ضغط عليّ هذا صحيح؛ لكنني اخترت طاعته بملء إرادتي وقد كنت أظن أنني أفعل خيراً لكنني أخطأت».

اتسعت عينا سدير الجميلتين بينما تُكمل حريز بتركيز شديد: «أنا لست فاشلة لكنني فشلت في زواجي. أن نفشل مرة لا يعني أننا فاشلون بالمجمل، الفشل كلمة كبيرة جداً يا سدير لربطها بتجربة فاشلة واحدة».

ثم أكملت بشجاعة وقوة: «لستُ تعيسة بل كنت تعيسة واتخذت القرار لأوقف تعاستي حتى لو تأخرت، ثم قررت أن تكون تعاستي ماضياً وليست حاضراً ولن أسمح بها مستقبلاً ودوماً سأمضي قدماً».

شعت عينا سدير إعجاباً وأضاءتا أملًا ثم قالت بحسرة: «ليتني كنت قوية مثلك».

ابتسمت لها حريز بحنان واعترفت لها برقة: «أنا أيضاً خائفة خائفة من أشياء ربما لن تتصورها ولن تستطيعي تفهمها مهما شرحتها لك؛ لكن المهم أن تعرفي أنني لن أستسلم».

فاجأتها سدير بالقول المتحمس: «لماذا لا تحيين عامر؟ إنه وسيم ويحبك

لم يكف عن استراق النظر إليك طوال مدة جلوسنا في المقهى ذلك اليوم».

الحرارة شَعَّت من حرير رغماً عنها وصوت عامر في أذنها تتذكره وهو يخبرها أنه سيجري فحوصاً ليتأكد من قدرته على الإنجاب لو يدري أنه لم يؤثر بها من قبل كتأثيره وهو يمنحها هذا بطيب خاطر دون أن تطلبه، أو حتى تشكو له شوقها للأُمومة دون حتى أن تعدّه بالموافقة على الزواج، ما إن خطرت ببالها كلمة (زواج) حتى أبعدتها لا تستطيع التفكير بها الليلة وهي بهذه المشاعر المتخبطة، نظرت لأختها بابتسامة شقية وقد أخفت خلف تلك الابتسامة كل شيء كبئر عميق لا يرى محتواه أحد لتمازح سدير بالقول: «إذن ترين عامر وسيماً ها؟».

لا تعرف كيف قالتها بشقاوة هكذا؛ لكنها أحبت أن تتقرب من سدير أكثر وقد نجحت عندما ضحكت سدير ضحكة صغيرة تكتمها بكفها كطفلة ثم تثرثر بخفوت شديد كأنها تفصح عن أسرارها بحماسة وارتياح حلو: «كل من تراه تصفه بالوسيم أنا أراه كشاب شقيّ جذاب، هل تعلمين أن فتيات معي بالجامعة يعرفنه يتمنين نظرة منه ويشعرن بالبؤس لأن فرع القماش الذي يديره مع أخيه عمر قد أغلق ويتم تحويله حالياً إلى بيع وتركيب الستائر».

تتسع ابتسامة حرير وهي تسأل بعث بريء: «أتعرفين كل هذا منهن؟! إنه كبير عليكم لتحدثن عنه بهذا الإسهاب».

تعاود سدير كتم ضحكتها الطفولية بكفها بينما حرير رغماً عنها تشعر

بالانتعاش لذكر عامر وستنكر نبضات متسارعة تراوغ قلبها وابتسامته
الخلابة تقتحم بعناد مخيلتها.

مدت حرير يدها لتمسد فوق شعر أختها وتسألها بقرار لحظي أن تقترب
من عالم أختها أكثر وتفعل مع سدير ما لم يفعله أحد معها عندما كانت في
سنها: «ألا يوجد وسيم معك أنت؟».

تحمر أختها للغاية وهي تهز رأسها بـ(لا) فتنبسم في وجهها تطمئننها كي
لا تقلق ثم تقول ببعض الجدية والحكمة: «لا يغرنك وسامة شاب يا سدير،
قد لا يحظى بالوسامة لكن المهم أن يحظى بالرجولة الرجل أفعال وليس
أقوال حب وغزل ووعود في الهواء».

بدت سدير متنبهة للغاية وكعادة الفتيات في سنها يجذبها هذا الموضوع
أكثر من غيره لتضيف حرير بمزحة: «وإن كان يجمع الاثنين معاً فأنت
محظوظة بالتأكيد».

هذه المرة كانت ضحكة سدير لا تتخفى بكفها بل تنطلق ضحكتها بحرية
ووجهها الحلو يتورد ثم فجأة يتراجع انطلاقها لتصارح حرير بارتباك:
«الفتيات معي أحياناً يصفنني بالتعقيد والانطواء، يقلن عني إني لا أفهم
ولا أعرف أموراً كثيرة عن الأولاد أقصد الرجال».

لم تتفاجأ حرير بهذا فسدير منطوية بالفعل، قليلة الاطلاع محاطة بصرامة
قوانين أبيهم وحصونه المغلقة، حصون بأسوار عالية لكنها لم تعد فعالة وقد

فتحت بواباته رغماً عنه لتخرج سدير للعالم العجيب الذي نعيشه في ظل تكنولوجيا مخيفة، تغزو خصوصياتنا عقولنا أفكارنا، تجعل البشر يتلقون منذ المهد معرفة مشوشة بتدفق غزير عشوائي دون ضابط أو رابط دون تنقيح أو مصادر موثوقة، قالت حرير لتخفف الضغط على أختها: «لا تهتمي لهذا الكلام منهن أنا أيضاً كنّ يسخرن مني بالكلمات نفسها».

قالت هذا وهي غير مقتنعة به تماماً، فهي رغم كونها فتاة متحفظة لكنها لم تكن منطوية أبداً لم تكن بهذا الضعف والسلبية والجبن الذي يطغى على صفات أختها الصغرى، لا تعلم لماذا هي كانت مختلفة رغم أنها تربت بالطريقة نفسها وفي الأجواء نفسها التي تعيشها سدير؛ لكن ربما لأن حرير واجهت محنة فقدان هدير واقتربها من فهم شخصية والدها وتسامحها معه، هذا منحها ثقة بالنفس وقوة وإدراكاً، قالت حرير أخيراً وهي تنظر في عيني شقيقتها: «كوني كما تحبين أن تكوني وكما يربح نفسك ويرضي ضميرك ويحفظ كرامتك لا تدعي شخصاً يفرض عليك أمراً يعاكس قناعاتك، أنا لم أبال بكلام أحد لأنني كنت مقتنعة بمبادئ وأخلاقي، كوني قوية سدير وواجهي هذا العالم دون أن تخافيه فلا مكان للخوف ولا حياة للجبناء».

قالتها حرير وكأنها تقولها لنفسها أولاً بينما تعلق سدير كأنها تبحث عن الثقة فيما تقوله أختها الكبرى: «وعامر أحبك وأرادك وأنت هكذا أليس كذلك؟».

كانت لحظة صمت بين الأختين لتعود حرير للماضي لملاحقة عامر لها

كانه أمسك جوهرها في يده ورفض التخلي عنه، تمتعت حرير: «نعم».

شع تأثر المراهقات من وجه سدير فضحكت حرير رغماً عنها بينما تمد يدها لتطفئ الإنارة وهي تقول: «ألا يكفي حديثاً عن عامر الليلة».

تسمع صوت ضحكة سدير في الظلمة فتمد حرير ذراعيها لتحتضن أختها وهي تنعم براحة لا توصف، فتغفو وهي ما زالت تحتضنها.

عصر اليوم التالي

محل القماش / الفرع الثاني / المنصور

دخل عامر من الباب المؤقت للمحل بعد إغلاقه حتى ينتهي العمل فيه وتحويله لتجارة الستائر، يشرف عمر على عمل العمال ويساعدهم أحياناً وعندما رأى عامر قادماً نحوه عبس في وجهه وهو يقول له: «أين تأخرت كل هذا! قلت ساعتان ومضت خمس ساعات وهاتفك طوال الوقت مغلق، الحاج سليم يتصل كل نصف ساعة».

بدا عامر غامضاً وربما قلقاً بينما يعتذر بالقول: «أسف لم يكن بيدي هذا التأخير».

ما زال عمر عابساً وهو يتساءل: «أين ذهبت؟!».

رد عامر وعيناه تسرحان بأفكار مجهولة: «أمر يهمني للغاية».

وقبل أن يعلق عمر بشيء قال عامر بنبرة متعجلة: «هذا ليس وقته الآن هناك من ينتظرك عند الباب».

ثم يغمز عامر بعينه مع طيف ابتسامة شقية تخفف من تعبير القلق على محياه، تحرك عمر بتلهف عفوي وقلبه يعلمه أنها رونا هي وقد كانت هي بالفعل تقف على الرصيف على بعد مترين من الباب بدت بلامح جدية وتفكير عميق، ولم تتنبه لخروجه إليها حتى بات أمامها مباشرة فرفعت عينيها إليه وهي تدفع نظارتها للخلف لتنظر إليه في صمت، لم يظن أبداً أنه سيكون سعيداً برؤيتها لهذه الدرجة، كان يبتسم كأبله بينما هي تلتزم الصمت مطولاً، عيناه مرتا بقميصها الأبيض المخطط طويلاً بخيوط رمادية ثم إلى سروال الجينز البسيط الذي تلبسه فبدت له مغربة فجأة ليقول بتساؤل حلو رقيق: «ألا يوجد مساء الخير على الأقل؟».

ردت وهي تدفع نظارتها مجدداً وهواء الخريف يتلاعب بشعرها الأشقر القصير: «مساء الخير».

كانت هادئة بشكل غريب فقال لها مداعباً وربما مستفزاً لها عن عمد: «بدأت أشعر بالقلق».

فتتساءل ببعض العبوس: «لماذا؟!».

رد وعيناه تلمحان زهرة بيضاء صغيرة عالقة بين خصل شعرها: «هادئة كثيرة ولا تعاندين كعادتك».

توردت قليلاً بينما عمر يضيف برجاء ألا تخذله: «هل أستطيع استغلال حالتك لنجلس سوية في المقهى القريب؟».

لتفاجئه بالقول الحازم وكأنها عقدت العزم على أمر مهم: «كنت سأدعوك بنفسي».

ارتفع حاجبا عمر قليلاً؛ لكنه تجاوز دهشته ليقول بابتسامة: «وأنا قبلت الدعوة».

عاد عمر للمحل كني يأخذ هاتفه بينما يقول لعامر على عجل: «أنا لن أتأخر كل الأقمشة التي كانت متبقية هنا قد وصلت إلى محل الكرازة واستلمها علي بنفسه».

يهز عامر رأسه وهو يساعد العمال بحمل بعض الاشياء قائلًا: «جيد».

ثم غادر عمر وباله مشغول مع عامر بعض الشيء.

في المقهى

كان هناك صمت آخر ينتظره من رونا هي، طلب لها الشاي بناء على رغبتها لكنها رفضت أي طعام ليكتفي هو الآخر بفنجان القهوة الذي يحبه، فجأة قالت له وهي تنظر إليه مباشرة: «عمر أنا لا أحاول التدلل عليك».

رد بترو وهو يبتسم تلقائياً متذكراً غناء جدته ليلة الأمس: «وإن تدللت

يحق لك هذا».

تدفع نظارتها ويحمر خذاها الممتلئان يحاوطهما خصل شغرها الأشقر
الذي تركته حراً دون رباط ليجعلها تبدو حلوة منعشة، سألت بصوت واضح
وكلمات محددة الهدف: «ما الذي يعجبك بي يا عمر وجعلك تطلبني أنا
تحديداً للزواج؟».

رد بصدق: «أشياء كثيرة».

فتسأله بالنبرة نفسها: «مثل ماذا؟ عدد ثلاثة أشياء منها».

للحظة تلكأت عيناه عند شفيتها المطليتين بلمع فقط ليقول لها بصوت
مبحوح: «أستطيع أن أعدد أكثر من ثلاثة بكثير».

ثم رفع نظراته لعينيها وهو يفسر ويفصل: «أنت طبيعية للغاية لا تفتعين
التصرفات، صريحة كمدفع رشاش لكنك طيبة بالمجمل، عنيدة مشاكسة
أحياناً، تتمتعين بحس فكاهة خاص بك وحدك».

تطرق بنظراتها فضايقه هذا ليضيف وهو يريد رؤية عينيها مجدداً: «لك
عينان سوداوان جميلتان تناقضان شقرة شعرك المشعة وبياض بشرتك
الصابي بشكل ملفت وجذاب للغاية، منذ رأيتهما ذاك اليوم عند محل
المثلجات ولم تبرحاً مخيلتي».

أصابعها ارتعشت قليلاً وهي تلتف حول كوب الشاي لم ترفع عينيها إليه
وهي تقول بخفوت: «أنا موافقة».

قلبه أخذ ينبض بتسارع وهو يتساءل: «موافقة على ماذا؟».

ردت وما زالت لا تنظر إليه: «موافقة على الخطبة».

ثم دفعت الكرسي بهدوء للخلف لتقف على قدميها وهي تمد يدها بورقة صغيرة أخرجتها من جيب سروالها فتضعها أمامه قائلة بارتباك لم تستطع إخفاءه: «هذا رقم هاتفي». أوشكت أن تستدير بجسدها لتغادر هكذا ببساطة، فيقف عمر على قدميه وهو يوقفها بنبرة صوت خاصة: «نسيت أن أخبرك بشيء مهم آخر أحبه فيك».

ترددت بضع لحظات قبل أن تجازف بالنظر إليه وتدفع النظارة وهي تسأل بخدين محمرين: «ما هو؟».

قال وابتسامته تتسع وعيناه تذويان في حمرة خديها: «أحب اسمك يا ضي القمر».

عضت طرف شفرتها قبل أن تستدير مغادرة وهي تتعثر بخطواتها تاركة إياه خلفها.

بعد أيام (الخميس ١٨ تشرين الأول / أكتوبر)

الجامعة / منتصف النهار

خرجت سجي من قاعة المحاضرات وما زالت تبتسم لوجوه طلابها فتقبل

التهاني منهم وتتجاهل ببرود النظرات الوقحة من بعض طلابها الذكور

تتوقف خطواتها في الممر وهي تنظر لشاشة هاتفها الذي كان بوضع الصامت كما تفعل بالعادة عندما تكون في محاضرة

ارتجف قلبها وتقطعت أنفاسها وهي تقرأ اسم علي متكرراً في أربع مكالمات فائتة، تتساءل بأمل سخي: «ترا هل تذكر؟!».

ثم تعود لتوخي نفسها فلا معنى لأي تفكير في هذا، أخذت عدة أنفاس وهي تتحرك عبر الممر لتغادر القسم كله إلى الباحة الخارجية، بينما تضغط بإصبعها اتصال بعلي فيأتيها صوته معاتباً بعد رنتين: «أين كنت بالله عليك؟! أنا أتصل منذ ساعة».

ارتبكت وتوردت وهي ترد عليه بما تقدر عليه من الهدوء: «آسفة علي كانت لدي محاضرة وعادة أحول هاتفي للوضع صامت».

بدا متحمساً بشكل مثير وهو يتساءل: «هل لديك فراغ الآن؟».

ترفع يدها الحرة لعنقها في ارتباك وتوتر وهي ترد بصدق: «أجل لساعة تقريباً أو أقل بقليل».

أغلقت عينيها وهي تدعو الله ألا يطلب منها الخروج معاً، علي بات خطراً محدقاً بها بقلبها بروحها بأمانها واستقرارها بعلاقتها بخالتها، ليقع قلبها في الفخ وعلي يقول لها: «إذن تعالي أنتظرك عند البوابة الرئيسية». كادت أن ترفض عندما أضاف: «لن أؤخرك هو أمر مستعجل وسأرحل

بعدها، فلدي عمل كثير ينتظرني بالمحل».

تنفست الراحة مع الخيبة! تحركت قدماها بالحذاء البني الأنيق وكعبه العالي يطرق الأسفلت في ثقة وهي تقول له بسيطرة تامة على النفس: «حاضر أنا قادمة دقائق وأكون عندك».

قميص أحمر طويل الكمين وينسدل طويلاً حتى يكاد يصل مستوى ركبتيها، تحته سروال بني غامق بلون حذائها، حزام من قماش القميص ولونه يلتف مشدوداً حول خصرها مبرزاً بشكل متوارٍ انحناءات أنوثتها الوهاجة، شعرها الحالك ترفعه عالية في تسريحة أنيقة كذيل حصان والقرطان الدائريان الذهبيان متدليان من أذنيها يجذبان شمس الظهيرة لتوقدهما سحراً، تسير في الممر الأسفلتي باتجاهه وتكاد تصل إليه وهو يحدق فيها هكذا مفصلاً فيها دون أن يقدر على إشاحة عينيه بعيداً، تمر بعدة أشخاص في طريقها يسلمون عليها وهي توزع ابتسامة محددة للجميع دون تخصيص، شعر بالحرارة ترتفع فجأة فيرفع يده الحرة عفواً إلى ياقة قميصه يمسكها من الطرف ويحركها ليمرر إلى جسده بغض الهواء يخفف من حرارته، بذل كل ما يستطيع ليسيطر على تأثيره بها كرجل، غض البصر بشق الأنف بينما أصابع يده التي تمسك الهدية تتقلص حول حافتها وهو يستعيز بالله من الشيطان الرجيم

حتى شعر بها تقف أمامه وهي تقول بصوتها الرخيم: «مرحباً».

كان يجب أن ينظر الآن ويجيد التصرف وفيما بعد يجب أن يحاسب نفسه
بصرامة على ما يحدث له اللحظة، نظر إليها أخيراً فيقاوم تشنج جسده
التلقائي وقد بدأ يشعر بالعرق يتصبب من كل أنحاء جسده، بينما يبتسم
لوجهها وهو يرد التحية بابتسامة مرتعشة: «مرحباً».

نظرات سجي هبطت إلى ما يحمله ويسنده بيده للأرض ثم سألت بلطف:
«ما هذا الذي معك؟!».

تلاهى عن التأثر بها وهو يرفع الهدية ويمزق جزءاً من الغلاف الأسمر
الذي يلفها فيكشف عن الجزء العلوي منها وهو يقول بابتسامة عريضة:
«عيد ميلاد سعيد».

كانت تحديق بانبهار فيما ظهر جزء من اللوحة المرسومة وقد عرفت أنها
الصورة نفسها من اللوحات البغدادية المرسومة على إحدى وسادات الأرائك
في بيتها، لوحة المرأة ذات العينين الواسعتين والشعر الأسود الطويل
المموج وتحمل بين كفيها الحجر الأزرق، زادت حالته سوءاً وعيناه رغماً
عنها تتعلقان بها يسمعها تقول بخجل: «لكن لقد كلف:..».

يقاطعها بصوت خافت وأنفاس يشعرها تخرج من فمه حارة للغاية:
«إنها تشبهك».

ثم تشل قدرته لحظياً على التفكير وهي ترفع عينيها الواسعتين إليه وقد
بدت بريئة للغاية بريئة مرتبكة متوترة، لا شعورياً جسده يقترب منها وتوتره

يفوق توترها دون أن يواجه الأسباب فيقول متمماً جملته بالنبرة نفسها: «لا أرى فيها ليلي العطار لا أرى فيها إلا أنت إنها تشبهك أنت فقط وكلما نظرت إليها اعلمي أنك تنظرين لنفسك».

شحنات كهربائية مخيفة تنتقل بينهما وهو ينكرها تتمم: «شكراً».

وهي تطرق بنظراتها للأرض فيشعر هو بثورة غريبة داخله لماذا هو غاضب هكذا، يحدق في قميصها الأحمر وهو يسأل ببعض الخشونة: «أين سيارتك؟ اللوحة ثقيلة».

تتمم: «في موقف الأساتذة».

ثم تقدمته تسبقه الخطوات وكأنها تهرب منه، يغض بصره وهو يحمل اللوحة بيد ويحرك ياقة قميصه مجدداً ليبرد جسده عابس وهو يفكر: «ماذا جرى لك يا علي؟! هل أنت مراهق ليحصل لك كل هذا؟! استغفر ربك يا رجل».

عندما وصلا لسيارتها فتحت الباب الخلفي وهي تقول بنبرة غامضة: «هلا وضعتها هنا من فضلك».

كلاهما كان متوتراً وقد تحولت هدية عيد الميلاد لحمل ثقيل عليهما معاً بطريقة ما كان علي يلتقط منها الكثير فتنفجر منه شحنات بالمقابل، وضع اللوحة على المقعد الخلفي بصعوبة نظرا لكبر حجمها وبينما يتحرك للخلف كانت هي تتقدم لتدفع باب السيارة بعيداً عنه فتلامسا للحظة وتنافرا فوراً،

للتحرك سجد خلف الباب كأنها تحتمي بها فتكهرب الجو بينهما من جديد وبطريقة ما وجد علي نفسه يغلق الباب بخشونة ويحاصرها في الفراغ بين سيارتها والسيارة المجاورة وهو يحدق بقميصها ويقول بغضب منفلت: «هل تلبسين هكذا دوماً في الجامعة؟».

كان يرى ارتجاف جسدها بألم عينيها لكنها تقاوم لتقول له بهدوء: «إنه يوم عيد ميلادي الثلاثين وأحببت أن أحتفل به على طريقتي أنا أحب كل ما يخص الأزياء والأناقة».

وكأنه ثور لا يفهم بل يغضبه اللون الأحمر زيادة فيتساءل بتوبيخ صريح: «ألا ترين أن اللون غير مناسب للجامعة؟».

التوتر بينهما تصاعد وأصبح مختلطاً بمشاعر كثيرة مشوشة لكن مستعرة ليطفو الغضب على السطح فتقول له بعينيها الواسعتين الواثقتين: «ألا ترى أنه أمر شخصي للغاية؟».

كان ما يحصل عجباً وهو يفرض عليها انتقاده وغضبه من اختيارها ليرد عليها بحمائية تخصها هي وحدها ولا يعلم من أين نبعت وتفجرت بتدفق هكذا: «هذا لا يمنع أنني محق! لو كنت تخصيني وملزمة مني لمنعتك مغادرة عتبة باب الدار بهذا القميص بل عتبة باب غرفة نومك».

هذه المرة علم أنه تمادى للغاية وهو يرى الصدمة في عينيها المعبرتين، ابتعد بخشونة قبل أن يتمتم: «عيد ميلاد سعيد مرة أخرى أرجو أن تعجبك

هديتي أراك غداً سيحضر معي والدائي».

ثم خطا مبتعداً وهو يغلي غلياناً حتى غادر بوابة الجامعة ومنها إلى حيث يركن سيارته على جانب الطريق، حالما شغل سيارته وانطلق بها قام بتشغيل مبرد الهواء على آخر درجة برودة رغم اعتدال الجو الخريفي ليوجه منظم الهواء مباشرة إليه لعله يطفئ هذا الجحيم الذي يشتعل في جسده؛ لكن النار لا تنطفئ بل تتجدد وتتأجج كلما فكر أنها ما زالت هناك بين الرجال بقميصها الأحمر وحلقتي نار مغوية معلقة بأذنيها، أخذ يشتم وهو يقول: «ماذا جرى لك يا علي ما هذا الذي تشعره؟! لقد كدت تفقد صوابك أمامها لولا ستر ربك».

شعر فجأة بالاختناق وفي الوقت ذاته جسده ما زال ينبض بالانجذاب ينبض بالحاجة ينبض بالغضب والغيرة.

ظهراً

خرجت حرير من المدرسة وهي تستنشق هواء الخريف بعمق، الحمد لله حرارة الصيف اللاهبة ولت، وها هو الخريف الرقيق بنسماته يساوم الصيف كي يرحل فقد انتهى وقت زيارته، تعود للبيت سيراً على الأقدام ورغم التعب لقلة النوم فإنها مسترخية، كان أسبوعاً جيداً بالعموم ولم تتأثر بأي سلبات مكررة مرت بها سواء في البيت أو في عملها في المدرسة، والبتها

يكلّمهم على مضض وبعتكف في غرفته معظم الوقت؛ لكنه يحرص عند الساعة التاسعة والنصف على إقفال باب البيت بنفسه ليوصل رسالة واضحة إلى خلدون عن موعد عودته الاقصى وإلا سيببى في الشارع، خلدون من جانبه انشغل بدراسته ولم يبد أي ردة فعل أو حتى جملة اعتراض، أما سدير فإنها تتفتح كوردة زاهية خجول وقد باتت كل ليلة تأتي إليها لتحكي لها كيف كان يومها في الجامعة؛ لكن ما زال الدرب أمامها طويلاً كي تقوى وتثبت وتقارع مصاعب الحياة.

تأخذ حرير الدروب من هنا إلى هناك في الحي وهي غارقة بأفكارها هذه تهمس في سرها بحديث نفس: «إذن لماذا لا تستطيعين النوم ليلاً يا حرير؟! الأمور ولو ظاهرياً مستقرة في البيت وقد كان الأيام الماضية هادئة للغاية معك فما الذي يقلق منامك و...».

هذه المرة همستها بصوت مسموع: «عامر».

تلقائياً طاقة دبّت فيها وهي تراه يترجل من سيارته المركونة على جانب الرصيف الذي تسير عليه يبتسم ونظارتها الشمسية تخفي عينيه، بينما يلتف إلى الناحية الأخرى لسيارته المحاذية للرصيف ويتكئ بظهره هناك ليقف مستكيناً ويحمل بيده اليمنى ظرفاً كبيراً أسمرالقد كان يقف بانتظارها!

تبتلع ريقها وقلبها يخفق ب.. هل هو توتر.. أم انتشاء ما يجعل قلبها

يخفق هكذا؟!!

أم هل هو خوف وكأن عامر ينصب لها فخاً لا تراه حتى اللحظة، أطرقت بنظراتها للأرض وهي تكاد تصل إليه ثم توترت أكثر وهي تشعر بتأهبه لتعقد حاجبيها تلقائياً عندما شعرت بجسده يتحرك ليقاطع طريق خطواتها، رفعت نظراتها إليه وهي ما زالت عاقدة الحاجبين فتتسع ابتسامته وهو يقول بخفوت: «هذا لك».

نظرت بتوجس للظرف الكبير في يده وعيناها مباشرة وقعتا على جملة مكتوبة بخط اليد فوق الظرف «إلى أم أطفالي» احمرت بقوة، وحدجته بنظرة غاضبة لجرأته، بينما هو تتسع ابتسامته ليضيف: «خذي حريراً لأرحل لا أريد أن يرانا أحد ونحن نقف هكذا في الشارع أو الأسوأ أن يظن أنني أتحرش بك».

أخذت الظرف وهي تدور بنظراتها فيما حولهما في توتر خوفاً أن يراها أحد بالفعل، وعندما أوشكت أن تتحرك لتتركه قال لها بنبرة خافتة لكن جدية: «اتصلي بي عندما تصلين البيت».

منحته نظرة مترددة وأصابها تتوتر حول الظرف حتى اللحظة لم تنطق بكلمة، هذه المرة كانت شفتاه ترتعشان وهو يبتسم قائلاً بصوت مبحوح يفيض توسلاً رقيقاً لا يقاوم: «أرجوك اتصلي لو سمحت لو تكرمت وتعطفتي، حفظ لك الله أطفالاً لن أنجبهم إلا منك».

شعت عيناها غضباً ووجهها يزداد احمراراً من وقاحة جملته الأخيرة

فوجدت لسانها ينطلق وهي تقول بحلق: «قليل الأدب لا فائدة منك لن تتغير، ستظل دوماً هكذا».

ثم تركته ومضت وضحكته الخافتة تصلها فتتلاعب بقلبها أكثر من محتوى الظرف العجيب الذي تحمله.

بعد عشر دقائق بالضبط كانت في غرفتها جالسة على حافة سريرها تحديق بعينين دامعتين في الأوراق التي بعثرتها أمامها بعد أن أخرجتها من الظرف الأسمر، عيناها تقرأن فحوى الأوراق، وغصة بكاء تكاد تخنقها، لم تحتج لقراءة الكثير وقد أدركت الخلاصة، لقد فعلها المجنون وأجرى كل الفحوص ليتأكد من قدرته على الإنجاب، مدت يدها للحقيبة الجلدية التي تحملها للمدرسة كل يوم وقد رمتها جوارها على السرير حالما دخلت وانشغلت بمعرفة محتوى الظرف الأسمر، اتصلت به وقلبها يتوجع في صدرها ودموعها تكاد تسيل على خديها ولا تعرف لماذا، أتاها صوته عذباً وجدياً في الوقت ذاته وقد بدا واضحاً أنه كان بانتظار مكالمتها: «هل اطمأنت يا أم أطفالي».

همست بحشجة: «لا تقل أم أطفالي بالله عليك».

فيرد بهدوء: «لكني لن أنجب إلا منك».

هطلت دموعها ولم تعد تبالي، كشف بكاءها وتأثرها أمامه بينما تسأله

بالجاح: «فقط قل لي عامر هل كنت تظن لو وافقت على الزواج منك أنني سأتركك فيما لو اكتشفنا أنك عقيماً لا سمح الله؟ أريد أن أعرف».

رد بالنبرة الهادئة الواثقة نفسها وكأنه يحتويها بين ذراعي تفهمه: «أعلم أنك لن تفعلي وتتركيني لسبب كهذا! لكني لا أريدك أن تفعلي وتبقين معي محرومة، لا أريدك أن تظلمي مرتين».

أخذت تبكي بتأثر شديد ويدها تلامس بطنها، إنها لا تبكي فقط تأثراً بما فعل بل بما قال كلمة (محرومة) التي استيقظت فيها حالما انفصلت عن نوفل، تؤرقها هذه الكلمة يأتيها صوته خافتاً: «حرير أنا أحبك لا ليس حباً هياماً عشقاً ذوباناً جنوناً اشتياقاً».

كان يهزها بكلماته لم يكن اعتراف حب متجدد لا يموت من ناحيته بل عطاء لا ينضب يخيفها أكثر أن تنهل منه ولن تستطيع التخلي عنه بعدها، لا تريد أن تتألم لا تريد، همست بتشوش: «كفى عامر بالله عليك».

فيواجه خوفها بقوة مشاعره وثباتها: «بالله عليك أنت دعيني أقولها على الأقل أنا حتى اللحظة لا أصدق أنك حرة لتختاري أن تكوني لي أنا لم أكن حياً لست سنوات يا حرير».

يقشعر جسدها بأكمله وهي تغمض عينيها بينما تعترف له ولنفسها أيضاً: «ما زلت خائفة».

يحثها بالقول يستفز شجاعتها وقوتها: «أنا لا أعرف سبب خوفك لكني

سأقول لك واجهي ما تخافين أنت أقوى من هذا بكثير».

كان قلبها يخفق بقوة وعيناها متسعتان وهي تصارحه أكثر بما تكتشفه معه في نفسها: «الأمر أسهل عندما تجهل هوية خوفك فتجهل حتى وجوده مختبئاً داخلك؛ لكن حالما تتعرف على ملامحه وتبين صورته فإنه يلاحقك يطاردك وعلناً».

أجفلت بعنف وباب غرفتها يفتح على حين غرة حتى أوقعت الهاتف من يدها ووالدها بعينين تقدحان شراً يسألها بنظرة اتهام صريح: «مع من تتكلمين يا حبيب».

تتمتم وتفكيرها شلّ للحظة: «أبي».

تقدم منها وهو يهدر فيها: «رددي ولا تكذبي علي كنت تكلمين رجلاً أليس كذلك؟».

كانت مجمدة مكانها في جلوسها المتوتر على حافة السرير ثم ترى والدها ينحني ليقرب في الأوراق المبعثرة وعيناه تتسعان بغضب مهول وهو يسأل: «ما هذه الأوراق والفحوص؟!».

الفصل السادس عشر

«ردي ولا تكذبي علي كنت تكلمين رجلاً، أليس كذلك؟».

كانت مجمدة مكانها في جلوسها المتوتر على حافة السرير ثم ترى والدها ينحني ليقرب في الأوراق المبعثرة وعيناه تتسعان بغضب مهول وهو يسأل: «ما هذه الأوراق والفحوص؟!».

يرفع نظراته من الأوراق إلى ابنته بوجهها الممتقع ليتمتم بشفتين أبيضتا من شدة الغضب: «عامر القماش مجدداً!».

ودون شعوره رفع كفه ولطمها على خدها فتنتلق منها ال آه، تلك ال آه أخرجتها من حالة الشلل والخوف الغريزي من الموقف المباغت إحساس مهانة أوجع كرامتها سرعان ما نفضته؛ لكنه كان كافياً ليشعل فيها فتيل الثورة ثورة لمقارعة الماضي والحاضر، طنين أذنها اليسرى من أثر الصفعة الأولى التي تلقتها في حياتها لم يمنع سماعها لصراخ أبيها الهادر وهو يرميها ببشاعة كلماته: «أتواعدين عامر من وراء ظهري؟! كنت أعرف أنك أفلت عيارك منذ طلاقك؛ لكنني لم أتصور أن تنحدري لهذه الدرجة ولا تنكري علاقتك بهذا الماجن، لم يكن سيتجرأ على إرسال هذه الفحوص الفحوص القدرة إليك لو لم يكن بينكما علاقة صريحة».

يرمي الأوراق التي كانت بيده ليصفع بها خدها مجدداً وهو يضيف بصرامة مصدراً أوامره: «منذ اليوم لن تغادري البيت ولن تذهبي لعملك

وهاتفك سأخذه منك ستبقين هنا بين أربعة جدران أو تعودى لزوجك هل
تسمعين يا حرير، إما أن تدفني هنا أو تعودى لنو...».

قاطعته وعيناها تشعان بالقوة والثبات: «لن أسمح لك بكسري مجدداً
لمجرد أن تثبت أنك على حق».

تقف على قدميها صامدة مواجهة للموقف بشجاعة، بينما الأب يزداد
تخبطاً في مشاعره الداخلية وما زال يتشبث بسوط السيطرة الكذابة يحاول
أن يجلد ابنته به كي يجبرها الطاعة: «واكسر رأسك أيضاً أنت ابنة عاقّة ولا
أستغرب لماذا طلقك نوفل وأنت بهذه الوقاحة، بدأت أشك أنه تزوج عليك
ليس لأجل الأطفال إنما لسوء خلقك فلم تكوني نعم الزوجة له».

لم تؤثر فيها كلماته الجارحة قدر ما أثرت فيها محاولاته لكسرها فقط
كي يثبت لنفسه أمراً، نظرت إليه إلى عجزه وشيئته وضعف حاله، رأت في
عينيه عناده الكافر الذي لم يفقده راحة التفكير وحسب وإنما جعله ينجر
إلى منطقة الأنانية فيه كإنسان ورغبته المسيطرة كي يثبت أنه على حق! إنه
لم يخطئ، ورغم خيط الإشفاق لكن ثورتها كانت حتمية الاندلاع وقد كان
قدرها أن تكون هي من تدفع والدها ليواجه نفسه أيضاً، كلماتها كانت
صريحة واضحة وانفجارها المكبوت من سنوات قد آن أوانه لتبدأ من
الحاضر وتعود به للماضي: «منذ طلاقى وأنت تتحين الفرص لإثبات ذلك
أليس كذلك أبي، شعور الذنب يقتلك، وبدلاً من أن تعترف أنك ارتكبت
خطأً بإجباري على الزواج من نوفل كما ارتكبته أنا بموافقتي عليه بدلاً من

أن تحاول دعمي وتعويضي عن ضياع أجمل سنوات شبابي التي خسرتها في زواج فاشل فاتر مبتور، انتهى بقلّة أصل نوفل وأهله معي، بدلاً من أن تحاول سؤالي كيف عشت ست سنوات محرومة من نعمة الأطفال، فلم تسألني يوماً كيف شعرت وكيف صبرت وسكت بدلاً من كل هذا، فكل ما تريده أن ترفع عن نفسك ثقل الإحساس بالذنب».

بدا والدها مشدوهاً وذبّه مرسوماً على وجهه الذابل، بينما تتغرغر عينا حريز بالدموع وشعور الحرمان يؤذيها من جديد فيصل والدها كسهم يصيب قلبه بالوجع، تكمل حريز وهي ترفض البكاء اللحظة: «وما أسهل أن تخلي مسؤوليتك وأنت تتهمني بهذه البشاعة وتوهم نفسك أنك قادر على إجباري العودة لنوفل كزوجة ثانية أو حتى الثالثة، فمن يدري ربما سيسعى نوفل لأرملة هذه المرة ومعها أربعة أطفال يسدون نقصه أكثر، وأنت ستغض الطرف مجدداً لتدعي أمام نفسك (حريز راضية) (حريز بخير) (حريز سعيدة)».

لم تشعر حريز بوقوف أمها عند باب الغرفة، والعجز والحزن يغطيان محياها وإلى جوارها يقف خلدون يزم شفّتيه في قهر وعقله الذي لا يحمل الخبرة والمعرفة لا يسعفه كي يتصرف ويرفع الظلم عن أخته الكبرى، تمتم أسعد الجنابي بحشجة: «أتحملين كل هذا لي؟!».

انحنت حريز لتمسك ببعض الأوراق المتناثرة على سريرها قائلة: «هل تعرف ما هذه يا أبي؟! إنها فحوص أبوة أجراها عامر دون حتى أن أطلبها

منه، هذا الرجل الغريب عني تماماً أدرك أنني حرمت الأمومة لست سنوات في زواجي الأول ورغم رغبته القوية أن يتزوجني حتى بعد كل ما حصل، إلا أنه لم يكن أنانياً، لقد أرادني سعيدة بحق، وكل هذا يفعله وأنا حتى اللحظة لم أقل له (نعم) ! فهل رأيت في حياتك كلها رجلاً مثله أبي؟».

تمسك بالأوراق لترفعها أمام وجه أبيها، وهذه المرة انحدرت دموعها على خديها في مشهد يدمي قلب أي أب وهي تقول له بتأثر رهيب: «لم أشكُ له كما لم أشكُ لغيره، كنت أبتلع ألمي في جوفي وأنا أتحسس بطني كل ليلة يعذبني شوق عارم للأمومة».

شهقة بكاء أفلتت منها وهي تكمل أنينها الموجه: «احتملت زواجي من نوفل وتصبرت حتى ذبلت روحي في جسدي كنت الأصيلة لآخر لحظة، رضيت بحياتي الباهتة وعشت مغيبة عن طعم السعادة، أما قليل الأصل فهو من تخلى عن ابنتك لإرضاء نفسه، بينما أنت تمتدحه الآن لإرضاء نفسك أيضاً كله على حسابي أنا».

مسحت دموعها بخشونة وهي تلتفت لسريرها منحنية لتلملم كل أوراق الفحوص معاً وبعناية شديدة، جسدها يرتجف وهي تفعل هذا وتضيف أخيراً: «عامر ما زال ينتظر ردي على طلب الزواج قبل أن يتقدم رسمياً، وكنت سأخذ مهلة أطول للتفكير أو ربما الاستعداد نفسياً لتجربة جديدة».

وضعت الأوراق داخل الظرف الأسمر المعنون بخط يد عامر (إلى أم

أطفالي) لتضم الظرف إلى صدرها وهي تقول لأبيها بإعلان صريح تختتم به ثورتها: «لكن بعد ما قلته لي قبل قليل أبلغك قبل أن أبلغه أنا موافقة».

لاهث الأنفاس يقف عامر عند بوابة البيت منذ دقيقتين وداخله طاقة انفعال هائلة قادرة على دفعه، كي يحطم هذه البوابة ويدخل عنوة إلى بيت أسعد الجنبابي كي يحمي حرير من أذى أبيها؛ لكن رغم احتياج مشاعره فإن بقية عقل تحكمه ليس لأجله إنما لأجلها هي لن يخذلها مجدداً لن يرتكب حماقة كهذه تؤذيها بل يحاول جهده إيجاد طريقة لإصلاح الموقف بطريقة عقلانية مرضية لأبيها، كان قد خرج للشارع العام في طريقه للمحل وهو يكلم حرير يبوح لها بعشقه عندما سمع فجأة صوت أسعد الجنبابي يقطع عليهما الحوار وهو يسألها بنبرة اتهامية واضحة مع من تتكلم، فلم يشعر عامر بنفسه إلا وهو يغير اتجاه سيارته ليعود إدراجه بمناورات خطيرة وسط الزحام وهو يستمع لذاك الحوار الرهيب ويده تضرب بقوة على المقود.

أوشكت يد عامر أن تضغط على زر جرس الباب والهاتف ما زال على أذنه يسمع كلام حرير الموجه؛ لكن يده تجمدت عندما سمعها تتكلم عنه والفحوص التي أجراها لأجلها لتختتمها بالقول («لكن بعد ما قلته لي قبل قليل أبلغك قبل أن أبلغه أنا موافقة»).

أصابعه عند جرس الباب ترتعش وقلبه سينفجر في صدره، ترنح وهو يرفع

وجهه للطابق العلوي من البيت كأنه يبحث عن ظل لها يكلمه، همس ولم يعد هناك صوت إلا صوت ضربات قلبه: «حزيرتي أنا هنا وأسمعك».

فجأة انقطع الخط وهو يقف على باب أسعد الجنابي لا يعرف ماذا يفعل.

عاد لسيارته التي ركنها قرب الرصيف ليجلس فيها وهو لا يقو على المغادرة، خفقان القلب الهادر لا يتوقف وأصابعه ترتفع لترت على صدره؛ لكن عقله يفرض نفسه لبحث عن بداية خيط لمسار صحيح، حرير وافقت لكن ليس لديه أدنى فكرة عن ردة فعل أبيها بعد الحوار الرهيب الذي دار بينهما، رسالة نصية وصلت هاتفه فيفتحها عامر بتلهف (لا أعلم كم سمعت وأخجل مما سمعت! لكن وعد الحر دين عليه وأقولها إن كنت لم تسمعها بوضوح في حوار مع أبي أنا موافقة عامر).

على كرسية المنجد القديم يجلس أسعد ساهماً عابس المحيا باهت النظرات، انطفأت جذوة الغضب الذي يذهب بالعقل ليبقى رماد الندم كلما حاول نفضه تناثر من حوله في عميه عن الرؤية ويخنق أنفاسه، نظر ليدته التي صفعت ابنته ويحاول أن يعرف لماذا صفعها حقاً! هل يخدع نفسه أنه (أب غاضب) أمسك ابنته بوضع تلبس، أم يحاول أن يبرر بشاعة الاتهامات التي رمى بها فلذة كبده حرير أغلى وأنقى ما أنجب لهذه الدنيا، هل كان يبحث عما يعيد إليه سطوته على أولاده ليحكم البيت من جديد دون ثورات

تمرد أم أنه كما وصفته حرير يبحث عن منفذ لشعور الذنب، هل كبر وضعف لهذه الدرجة فيتخذ الذرائع ليستعيد مقاليد السيطرة أم أن حرير تحديداً من كبرت عليه ولم يعد بالإمكان حكمها كما الماضي همس جارح يتردد صداه في نفسه: «بل هو ذنبك يا أسعد ما يكبر كل يوم وكلما كبر يضعفك».

انحنى ظهر أسعد في جلسته وهو يغمض عينيه، كلمات حرير اليوم آذته ربما هي محقة بإحساسه بالذنب نحوها؛ لكن كلامها عن حرمانها من الأطفال وأنه لم يهتم يوماً بسؤالها آذاه في الصميم، تشبثها بذاك الظرف الأسمر وقد جمعت فيه أوراق فحوص عامر كأنها تجمع قطعاً نفسية من روحها أخرسه، جعله يطأطئ هامته ويغادر غرفتها أمام أعينهم جميعاً، يتساءل والعناد يحضره مجدداً: «ما الذي أخطأت فيه؟! أنا لم أرد لها إلا الأفضل أردتها أن تبتعد عن عامر سيئ السمعة وقد بدأت تتأثر به لتتزوج رجلاً صالحاً كنوفل يرعاها، وما أدراني أن نوفل سيكون عقيماً؟! إنه قضاء الله وقدره وهي ليست أول امرأة تحتمله».

ثم يهون على نفسه باعتراف خجول غايته التبرير: «ربما ضغطت عليها ربما أجبرتها ربما لم أسألها عن حالها لسنوات خوفاً من مواجهة حقيقة تعاستها التي كنت أراها تطل من عينيها؛ لكنني أردت لها الخير لم أرد إلا الخير أنا لم أخطئ لم أخطئ إنه النصيب فقط نصيبها هكذا من الدنيا فهل ستكفر وتحملني مسؤولية أقدار الله وكأنني أتحكم بها؟! أستغفر الله العظيم أستغفر الله العظيم».

يميل أكثر بظهره للأمام ليضع رأسه بين كفيه ولا يعلم كيف سيتصرف،
ربما هو أخطأ باختيار نوفل لها قبل ست سنوات وكما قالت لم يكن رجلاً
أصيلاً لكنه لم يخطئ برفض عامر القماش ومرور ست سنوات لن يغير شيئاً
من حقيقة هذا الشاب الماجن! بل يبدو أنه زاد خبرة، فما زال عامر يجيد
الحوم حول صغيرته ويؤثر فيها لينال غرضه منها، إنها بريئة ولا تعرف
أمثاله رجال مغرورون لا يتقبلون أن ترفضهم فتاة ويسعون بكل جهدهم كي
ينالوا ما يرضي غرورهم ويعيد كرامتهم، إنه هو السافل الحقيير الذي
يحرصها لتثور في وجه أبيها بل ويحرصها كي تدفع أخويها ليفعلوا المثل
ويتمردوا كلهم على أبيهم، بهذه الأفكار التي سيطرت عليه كان أسعد يشعر
أنه محاصر أكثر! ماذا سيفعل ليمنع حرير من ارتكاب الخطأ الشنيع
والارتباط برجل أسوأ من نوفل على الأقل نوفل لم يهدر كرامتها بالخيانة،
وعامر لن يتوانى عن فعلها حالما ينال مبتغاه من ابنته، يجب أن ينقذها من
عامر.. يجب أن ينقذها من نفسها، حرير ستجني على نفسها وهي تتمرد
هكذا عليه ثم ستجني على سدير وخلدون وهما يتبعان خطواتها.. عائلته في
خطر.

أغلق سليم الخط مع ولده علي ليضع الهاتف أمامه على المنضدة وقد بدا
ساهماً بتفكير وحيرة سأل شاكراً الذي يجلس على كرسي جواره وقد
استغرب وجومه: «هل علي بخير يا سليم؟».

رد سليم حائراً: «لا أعلم يا شاكر بدا لي غريباً لاهث الأنفاس مضطرب رغم محاولته الادعاء عكس هذا أنه بحال غريبة منذ أيام كأنه مشغول البال بموضوع يشوش عليه وفي الوقت ذاته تشعر وكأن مشاعره حاضرة بقوة».

قال شاكر ما كان متردداً بقوله منذ مدة: «شجعه كي يتزوج يا سليم إنه رجل في الحادية والثلاثين وقد سبق له أن جرب حياة الزواج وسيكون صعباً عليه البقاء دون امرأة أكثر من هذا، بل إنني أستغرب بقاءه هكذا لست سنوات وهو رجل في زهوة شبابه ورجولته، يجب أن يعصم نفسه يا سليم لن يحتمل أكثر».

يشير سليم لأحد العاملين بالمحل كي يتابع زبونة بعباءة سوداء محلية دخلت للتو بينما يرد على صديق عمره بالقول: «هل تظن أنني لا أفكر في هذا يا أبا سمر؟ لكنه طوال ست سنوات لم يكن بوضع طبيعي وأنت كنت تشهد حالته معي علي كان مغيباً في عالم آخر إحساسه بالذنب نحو هيام كان طاغياً ويحطمه ببطء لم يكن منطقياً أن أشجعه كي يتزوج مرة أخرى وأظلم بنتاً معه، ما لا أرضاه لبنت لي لا أرضاه لبنات الناس».

ثم يضيف بعد لحظة تفكير: «أعترف منذ اعتزال علي الأخير مع جده تغير تفاعلت خيراً بعودته لبعض من روحه القديمة». فيعلق شاكر «لكنه يفتقد امرأة في حياته يا سليم علي رجل عاطفي أكثر من باقي أولادك ويجب أن يأخذ هذه الخطوة قبل أن يقع في الحرام الأرمل ليس كالعازب».

يتلاعب سليم بالهاتف النقال وهو يقول بحيرة أعمق: «نورجان قلقة عليه أيضاً قلب الأم يخبرها بوجود تغيير فيه».

عندها قال شاكر ليحث صديقه: «أسأله سليم لماذا لا تسأله».

رد سليم بما يعكس فكره وأسلوبه مع أولاده: «أنت تعرفني شاكر ربيت أولادي كي يكون لهم خصوصية وقرار إذا لم يطأبوها مني فلا أتدخل من نفسي إلا عند الضرورة الملحة وحتى هذه لا أفعلها على الدوام أحياناً يجب أن يمروا بتجارب الفشل كي تقويهم وتبني خبراتهم وتصنع منهم رجالاً أشداء أمام المصاعب».

بحيادية رد شاكر: «رغم اختلافي البسيط معك في أسلوبك مع أولادك لكنني أظن أن كلامك مع علي الآن رجلاً لرجل بات ضرورة ملحة تستدعي قيامك بها».

يهز سليم رأسه وهو يشعر بحدسه أن شاكر محق لكنه مع هذا قال: «سأنتظر حتى مساء الغد لأقرر».

يتساءل شاكر ببعض الدهشة: «لماذا حتى مساء الغد؟».

رد سليم بتعابير متفكرة: «سنذهب إلى بيت عائلة هيام رحمها الله أنا ونورجان وعلي هذه زيارتنا الأولى لهم منذ الحادث أنت تعرف أن علي يزورهم أسبوعياً تقريباً منذ عودته من بيت جده أي منذ أسابيع لكن حان الوقت لنذهب أنا ونورجان أيضاً».

لم يفهم شاكر مرمى سليم من الكلام عن هذه الزيارة ليحاول التخمين بالقول: «هل تعني أنك تريد أن ترى بنفسك مدى شفائه من إحساس الذنب وتختبره هناك؟».

صمت سليم للحظات قبل أن يصارح شاكر بما لم يصارح به زوجته: «بل في بالي موضوع آخر، قبل أيام ومن خلال حوار عادي مع علي عن أهل هيام وزياراته لهم شعرت كأنه يحمل اهتماماً ما بسجى هل تذكرها؟ ابنة خالة هيام التي تربت معها في البيت نفسه إنها كأخت لها».

ارتفع حاجبا شاكر واتسعت عيناه قليلاً وهو يقول: «أجل أذكرها لكن هل أنت متأكد؟».

رد سليم وهو يتذكر ردة فعل ولده: «لا أدري لكن علي توتر بوضوح وأنا أسأله بعفوية أن كانت قد تزوجت أو مرتبطة بدا لي رافضاً للفكرة ومشوشاً بالوقت نفسه».

علق شاكر بردة فعل توحى بصعوبة الأمر: «ألم يجد إلا ابنة خالة هيام؟ يا إلهي إن كان حقاً ما تخمنه سيكون ارتباطاً شائكاً لعدة أسباب».

ينظر سليم لهاتفه النقال وهو يقول: «سأرى في الغد إن كان ما استشعرت منه حقيقة ام الموضوع أبسط من هذا بكثير».

تغلق سجى على نفسها بالمفتاح باب الغرفة الصغيرة المخصصة لها

كأستاذة في القسم لا تعلم كيف استطاعت قدماها حملها من موقف السيارات إلى هنا، كلها يرتجف وهي تجلس على كرسيها خلف طاولة المكتب الرمادية الصغيرة تغمر وجهها الذي يشع حرارة بين كفيها وتكاد لا تستطيع التنفس بانتظام حتى اللحظة، كلماته الأخيرة رياه ماذا تعني وكيف قالها: («هذا لا يمنع أنني محق، لو كنت تخصيني وملزمة مني لمنعتك مغادرة عتبة باب الدار بهذا القميص بل عتبة باب غرفة نومك»).

نظراته غضبه ذاك الشحن الفظيع بينهما، رعدة تمر بكل جسدها تشابه تلك الرعدة عندما تلامس جسدهما للحظة عند موقف السيارات، ما حصل اليوم بينهما رهيب لا تفهمه بشكل واضح محدد بل تشعر بالغباء والتشوش وتكذب كل التفسيرات التي تتدفق في ذهنه ألا يمكن مستحيل لا يجب أن يحصل بينها وبين علي أي تجاذب، رياه! هل فكرت بال(تجاذب)؟!!

فجأة وجدت نفسها تبكي.. ترتجف من الداخل والخارج وهي تجهش بالبكاء لا تعلم لماذا تبكي لكنها خائفة بل مرعوبة.. لم تكن مرعوبة مما حصل وحسب بل مرعوبة من نفسها أيضاً، ذاك الحب الذي كتمته في قلبها وظنت أنها تغلبت على سطوته بمرور السنوات بل وأقنعت نفسها أنها لن تتزوج حتى تحصل على فرصة حب أجمل مع الشخص المناسب، كل هذا يتلاشى من يدها وتجد نفسها الآن تعيش تجربة مخيفة تعذب قلبها، إنها حتى لا تعرف ماذا يريد منها علي أو ماذا يشعر نحوها بالضبط لا تعرف معنى رغبته بالكلام معها التي تبدو في ظاهرها حاجة لصداقة وتقارب

متفهم بريء لا تعرف هذا الشجن الصادم بينهما اليوم بينهما ما مصدره
وإلى أين سيقود همست وهي تعاود البكاء: «سيقود إلى كارثة يا سجي
كارثة بكل المقاييس».

مساء

تركت رونا هي الهاتف يرن لتضعه جانباً على الطاولة وتنظر لصحن
عشائها البائس الذي أعدته أمها لها وقد هددتها بترك البيت إذا تجرأت
وأكلت شيئاً آخر عدا هذا الصحن، أربع قطع من جبن أبيض وزيتون وبعض
الطماطم والخيار، تفكر رونا هي بغيظ أن أمها تعرف جيداً أنها لا تستسيغ
الزيتون على الإطلاق لكنها تفرضه عليها، أجفلت وأمها تهدر فيها: «هلا
أخبرتني لماذا لا تردين على خطيبك؟».

التفتت رونا هي عابسة وهي ترد: «أمي أرجوك أنت نلتِ ما تريد
ورضيت بعمر والخطبة الرسمية آخر الشهر فدعيني في حالي».

التقطت خياراً من صحنها لتقضم فيه في حنق بينما أمها تقترب منها
وتقول ناصحة: «يا ابنتي الرجل يحب من تهتم به حتى لو كنت تتدللين عليه
و...».

قاطعتها رونا هي بملل: «أنا لا أتدل كفي أرجوك عن تكرار
الجملة نفسها».

تجلس الأم على الكرسي جوار كرسي ابنتها لتسألها بصبر: «لماذا إذن لا تكلميه لا تردين على مكالماته منذ ساعتين وهو يرن». نظرت إليها رونا هي وهي تعقد حاجبيها وتتساءل: «وكيف عرفت أنت؟!». «

ترد الأم بوجه متورد: «فقط بعض من فضول الأم وقلقها جعلني أنظر في هاتفك لأعرف من هذا المسكين الذي يتصل ولا تردين عليه».

تأففت رونا هي وهي تبرر: «إنه مشغول بعمله سيفتتحون محل الستائر بعد التجديد الأسبوع المقبل ولا أريده أن ينشغل معي».

تبدو الأم على وشك ارتكاب جناية بينما تقول لابنتها: «بالله عليك أهذا الكلام يقنع عاقلاً! يفترض الأمر معاكساً أن يكون هو منشغل عنك وأنت من تشتكين».

تهز كتفيها بلا مبالاة مغيظة وهي تلتقط قطعة جبن تضعها في فمها على مضض وهي تقول: «أنا هكذا أسير بالاتجاه المعاكس على الدوام وإن لم يعجبه فل».

تقاطعها الأم مرتاعة كأنه فأل سيئ سيصيب ابنتها: «بالله عليك لا تقوليها سيعجبه أمره لله الواحد القهار وسيعجبه».

تنهدت رونا هي وهي تنظر لوجه أمها الحبيب كم تحبها وهي تعرف بالمقابل محبة أمها لها ولأختها بسمة هذه الأم الجميلة التي لم يكن لها هم في الدنيا إلا تربية بنتيها والاطمئنان عليهما تذكرت كلماتها تلك الليلة

فقلت رونا هي بحنو: «أمي لا تخافي هكذا أنا وافقت بسرعة هكذا لأجلك أنت كي يطمئن بالك». تنظر إليها أمها بذاك الحب الفياض لتقول بشجن: «رحم الله والدك هو من كان يفهمك أكثر مني دوماً قال لي (دعيها كما هي إنها مختلفة) كم كان متيماً بك».

تبتسم رونا هي وهي تلتقط قطعة زيتون تتجرع طعمه المنفر لحاسة تذوقها؛ لكنها تفعله لأجل رضا المرأة المكافحة وفي داخلها ترد على كلام أمها بالقول: «وأنا أريد عمر متيماً بي ربما يراني كما كان أبي يراني (مختلفة) لكنه ليس بمتيم وهو يجب أن يعرف أن لقلبي كرامة».

آخر الليل

يتقلب عمر في سريره وهو يعض شفته السفلى يكاد يمنع ضحكته، يقسم بالله لولا العمل المضني اليوم وغياب أخيه عامر لساعات لكان ذهب إلى خطيبته المجنونة الشقراء في عملها فقط كي ينتقم بسرقة نظارتها ويجعلها تقضي باقي نهارها تائهة كما جعلته تائهاً، زفر بقوة ثم أفلتت ضحكة قصيرة عفوية من فمه ليدفع عنه الغطاء ويغادر سريره لا يعرف إلى أين.

تفاجأ عمر وهو يرى أخاه عامر يجلس على الأرض في الممر شبه المظلم جوار باب الحمام وظهره مستند للحائط، يبتسم عمر وهو يتقدم ليصل إلى أخيه وينحني للأرض فيشاركه الجلسة وهو يتساءل: «هل تريد دخول الحمام

أم أنك تهت ولم تعرف طريق الرجوع لغرفتك».

يرفع عامر سبابته عاليا مشيراً بها لباب الحمام جواره قائلاً بفكاهة: «بل أنتظر علي ينهي حمامه منذ ربع ساعة ورشاش الماء مفتوح هكذا دون توقف».

يضحك عمر بينما يلتفت إليه عامر ويسأله بفضول: «لماذا أنت مستيقظ حتى الساعة؟ ظننتك ستكون غارقاً بالنوم بعد تعب اليوم».

رد عمر وهو يرخي رأسه للخلف مستنداً للحائط: «روناهي ترفض أن ترد على مكالمتي لم أكلمها إلا صباحاً وقد تعطفت علي بالرد ويا ليتها لم ترد».

يتساءل عامر بمرح تلقائي وهو يستند برأسه للحائط كما يفعل عمر: «لماذا؟!».

كلاهما يحدقان بالحائط المقابل بينما يرد عمر وابتسامته تتسع في ثرثرة حيوية: «تشير جنوني هذه الفتاة! كانت مكالمة عجيبة وقد اتصلت لأصبح عليها كأني خطيبين يهتمان ببعض فتدفعني بكلماتها العجيبة (اذهب لعملك يا عمر ودعني في حالي) فأسألها (وماذا به حالك؟) ترد علي بحق لذيد (أمي تفرض علي نظام التجويع حتى موعد الخطبة كي يدخل الفستان الأصفر بي، ومن قال لها سألبس الأصفر؟! حسن ستنصدم وأنا ألبس الكحلي تمرداً على سياسة الاضطهاد والتمييز العنصري التي تتبعها معي)

هل لك أن تتخيل يا أخي حواراً كهذا مع خطيبتك عند الصباح؟! ثم أنهت
المكالمة وهي تطردني حرفياً وأنا أكاد أتوسل بها كي لا تفعل والمصيبة أنني
طوال اليوم لم أتوقف عن تذكر المكالمة والضحك كمعتوه فأحاول معاودة
الاتصال بها وهي لا ترد».

ينفجر عامر ضاحكاً ثم يقول مشاغباً: «ألا يمكنني أن أستعيرها منك
لأيام؟! أقسم بالله رونا هي هذه تطيل العمر».

يلتفت عمر لأخيه متسائلاً ببعض الحيرة: «وأنت ما بك؟ عدت نهاية
الظهيرة للمحل وكنت بحال غريب مشحون جعلت العمال يقفون على أطراف
أصابعهم من التوتر حتى وترتني أنا معك».

دون مقدمات قالها عامر: «حرير وافقت».

يعقد عمر حاجبيه متسائلاً: «وافقت على ماذا؟».

ليرد عامر بالنبرة نفسها: «أن نتزوج».

تراخت تعابير عمر بل ارتفع حاجباه قليلاً بدهشة وهو يتساءل بحيرة
مرحة: «إذن لماذا أنت متوتر هكذا؟! ألا يفترض أن أراك تسير بانتشاء على
حافة سور السطح الليلة؟!».

وجه عامر بدا جدياً للغاية وقد كان يحتاج لشخص يثق به كي يفرغ ما
يعتمل في نفسه لعله يركز أكثر ويصل لحل فقال مفصلاً عما جرى: «حصل
شجار عنيف بينها وبين أبيها».

سأل عمر بهدوء: «هل رفض؟».

رد عامر ببعض الغموض ولم يشأ كشف أمور خاصة ببيت أسعد الجنابي
أطلع عليها بالصدفة عبر تلك المكالمات: «شيء من هذا القبيل».

حاول عمر التخفيف عنه بالقول: «لا بأس المهم هذه المرة أنها
موافقة وتريدك».

يعقد عامر حاجبيه وعيناه تشردان وهو يقول لعمر: «ليس هذا
ما يوترني».

فيتساءل عمر بكلمة مختصرة: «إذن؟».

يتجههم وجه عامر مستذكراً كل الحوار الذي يتكرر في رأسه منذ ساعات
ليقول أخيراً وكأنه يكلم نفسه: «اليوم علمت أشياء عن حياة حرير لم أكن
أدركها».

يصمت لحظة ثم يضيف وهو يضيق عينيه: «أشياء كثيرة تغضبني لأجلها
لم أكن أظن أن والدها آذاها في الماضي ويؤذيها في الحاضر لهذه الدرجة،
لم أكن أتصور وأنا أتعذب لست سنوات بعد خسارتي لها إنها كانت تعاني
ما هو أشد وأقسى لم أظن أن زواجها كان يسلبها روحها بهذه الطريقة».

فجأة تذكر جملة قالتها له عندما انفجرت به في اتصالها الهاتفي الأول
معه («هل تظنني ما زلت نفسها حرير؟ أم أنك تريد الانتقام لأنني آلمت

قلبك يوماً؟ حسن يا عامر أنا لست نفسي (حرير) وانتقامك أخذته وزيادة
أؤكد لك!«).

توقع عامر وخاف في الوقت ذاته ليس لديه شك أن جوهر حرير ثابت كما
يعرفه لكن التغيير موجود بالفعل.

أخرجه من شروده كلام عمر المؤازر: «بإذن الله ستعوضان بعضكما أنا لم
تمر علي حكاية مثل. حكايتكما ربما ما مررتما به سيجعل زواجكما أقوى
وأمتن».

فجأة جاءهما صوت نونة قادماً من الجانب الآخر للممر وهي تقترب
وتقول: «عليك أن تكون حذراً بالتعامل معها يا عامر فربما حرير التي
عرفتها وأحببتها قد غيرتها التجربة أسأل (المرأة) عن شعور (المرأة)».

بدا جلياً أنها سمعت الجزء الأخير من كلام عامر؛ لكنه لم يشأ أن يتناقش
الآن مع أمه حول حالة حرير ليس رفضاً لكلامها لكنه يجب أن يقترب من
صاحبة الشأن ذاتها ويسمع منها ويفهمها، أشار عامر بيده وهو يبتسم
بفكاهة ليغير مجرى الحوار: «تعالى نونة وشاركينا جلسة انتظار ولدك
البكر المبجل».

يفسحان لها لتجلس بينهما وهي تسألهما بخفة نشاركهما الفكاهة:
«وأنتما ماذا تفعلان بجلوسكما على الأرض هكذا؟!«.

يرد عامر أولاً: «أنا أريد أن آخذ حماماً، نمت حال عودتي من المحل من

شدة الإرهاق ولم أغتسل».

ثم يرد عمر ثانياً: «وأنا أشد أزره وهو ينتظر».

فيعلق عامر بنظرة خبث مرح: «في الواقع نشد أزرب بعض».

بقلق خفي تتساءل نونة: «كم مضى على علي بالحمام؟».

رد عامر وهو يرفع سبابتها عالياً كما فعل مع عمر قبلها: «مضت ثلث ساعة حتى الآن ورشاش الماء مستمر».

تميل نونة لتقبل خد عامر وهي تعرض عليه بحنان: «يمكنك استخدام حمامي يا روح نونة سليم نائم ولن يضايقه الصوت».

يبتسم عامر وهو يرخي رأسه ويغلق عينيه قائلاً: «لا أظن الحاج سليم سيكون سعيداً باقتحامي لعرينه بعد منتصف الليل لا بأس نونة سأنتظر (العريس) الذي بالداخل ينهي حمامه».

همست نونة من قلبها وكلمة (العريس) تمس قلبها: «فليسمعها منك الله».

يمازحها عمر قائلاً: «هل تظنين أنني فتحت شهية أخوي يا نونة؟!».

فجأة فتح عامر عينيه وهو يقول: «لقد توقف صوت رشاش الماء».

أنصت الثلاثة معاً صامتين بشكل طفولي مضحك حتى فتح باب الحمام وأطل علي بجسده المبلل وهو يلف المنشفة حول وسطه ودون أن ينظر إليهم

قال بهدوء مغيظ: «مساء الخير».

ثم مضى ناحية غرفته وثلاثة أزواج من العيون تتابعه بدهشة!

تمتم عمر: «هل قال مساء الخير؟!».

فرد عامر: «أجل وتركنا ومضى، وكأن جلوسنا هكذا على الأرض كمتسولين عند باب الحمام بعد منتصف الليل أمر طبيعي يحصل في بيتنا كل يوم».

يضحك عمر وعامر بينما نونة عيناها لا تفارقان الاتجاه الذي اختفى فيه علي، يتنبه لها عامر ويشعر بقلقها ويجب أن يعترف أنه بدأ يشاركها قلقاً مماثلاً فيسألها كأنه يسأل نفسه: «ما به علي؟».

تتمتم نونة في حيرة: «لا أدري.. حقاً لا أدري».

في غرفته يتمدد علي على ظهره ويغلق عينيه، لم يلبس إلا سرواله القطني الخفيف، فالبرودة التي يشعر بها اللحظة من أثر الحمام البارد الطويل سرعان ما ستتبخّر مع لهيب جسده الذي لا ينطفئ؛ لكنه سيحاول النوم قبل أن تفارقه تلك البرودة (المنشودة) لن يفكر في قميص أحمر ولا عينيّن واسعتين كوسع الأفق، لن يفكر برعدة جسده من تماس عفوي مع جسدها لن يفكر في صوتها الرخيم واهتمامها الدافئ لا لن يفكر في أي شيء يشعل فيه اللهب مجدداً، أخذ يكلم نفسه: «إنها حالة عارضة يا علي

فقط استرخي واهداً، غداً صباحاً ستكون بخير، بل ستضحك على حالتك
وتستغفر الله من نزع الشيطان ثم عندما سترها مساء ستأكد أن حالتك
اللعينة اليوم عارضة مئة بالمئة».

اليوم التالي الجمعة عصرًا

عينا خلدون تطرفان ناحية أصدقائه وهم يدعونه لمشاركتهم لعبة كرة
القدم، بينما يشير لهم أن يصبروا قليلًا بينما يقول لحرير بتردد: «دعيني
أعيدك للبيت على الأقل».

لكن حرير تشجعه بالقول الممازح: «هل تظني طفلة يا فتى؟! أم لأنني
أحب صحبتك وأنا أذهب للسوق فتتخيل أنك أصبحت وصياً علي؟! قبل
سنوات قليلة كنت أغير لك حفاظك».

يتورد خلدون بحرج وهو يقول عابساً بصوت خافت: «لا تبالغي أختي».
تمنع يدها أن ترتفع لوجهه كي تقرض خده لا تريد إحراجه بالطبع أمام
أقرانه فابتسمت وهي تقول له تطمئنه: «أذهب حبيبي واستمتع لا تقلق عشر
دقائق وسأكون في البيت».

بدا واضحاً أن أسباب قلقه أبعد من أنها لوحدها فيعبر عن ذلك بالقول
المتوتر: «أبي سيغضب منك يا حرير وسيغضب مني أيضاً لأنني تركتك
تعودين بمفردك».

كتمت تنهيدة من أعماقها فيكفها ما نالت من أبيها بالأمس وكعاداته الجديدة مؤخراً قضى باقي اليوم معتكفاً في غرفته، أما عن نفسها فهي تشعر اليوم أنها أفضل وأكثر ثقة في كونها فعلت الصحيح كما تحاول أن لا تفكر بذاك الركن المخيف الذي تتجاهله في داخلها المهم أنها تشعر بالثقة، الثقة بعامر بنفسها رغم كل الارتباك والتوجس من الناحية العاطفية، قالت لأخيها الأصغر تذكره: «أنت من يبالغ الآن يا خلدون هل نسيت أنني أسلك هذا الطريق كل يوم بمفردي ذهاباً وإياباً للمدرسة؟!». «

عاد أصحابه لمناداته وقد بدأوا يشعرون بالتململ من انتظاره فيلتفت إليهم للحظة يشير لهم مجدداً بيده كي يصبروا ثم يعود بوجهه لأخته يسألها بشوق واضح أن يذهب إلى أقرانه ليشاركهم اللعب: «هل أنت واثقة أن لا مشكلة ستحصل؟». «

تؤكد له: «كل الثقة اذهب قلت لك أصدقاءك ينتظرون وسيزعجونك ظناً منهم الأمر معكوس وأنا التي ترفض ذهابك للعب لا أنت». «

وكانها ذكرت نقطة غاية في الأهمية فتتلبس ملامحه الجدية وهو يتنحى ثم يقول بصوت فيه خشونة رجولية متعمدة: «حسن حرير عودي وانتبهي لنفسك». «

تكاد تضحك من أسلوبه وهو يظهر نفسه كرجل مسؤول غيور على أخته فتكتفي بهز رأسها لكنها تقول له بنظرة تحذير جدية وبنبرة خافتة: «فقط لا

تتأخر التاسعة والنصف لا تنس».

هز رأسه ثم لوح بيده ليهزول إلى أصحابه.

أطالت حرير الطريق عن عمد وهي تسلك أكثر الدروب هدوءً وتكاد تخلو من المارة من سكان الحي، بينما تكلم وفاء عبر الهاتف النقال لتحكي لها كل ما حصل لتختتمها بالقول الهادئ: «هل تعرفين يا وفاء الصفحة التي تلقيتها من أبي بالأمس ربما أشعرتني بالإهانة؛ لكن للحظات فقط بعدها أمدتني بقوة لأدافع عن نفسي عن حياتي، قضيت الليل أفكر أن ليتني تلقيت عشرات الصفحات من كف أبي قبل ست سنوات أهون عليّ من انكساري في شعوري، أنني أجبرت على الزواج من نوفل مهما وصفت لك لن أستطيع إيصال شعوري ذاك».

علقت وفاء: «الماضي هو الماضي يا حرير لا تفكري فيه وكأنك تستطيعين تغييره لقد حصل الخطأ وانتهى سواء من والدك أو منك أو حتى من عامر المهم هو هذا الحاضر الذي نعيشه فبالله عليك اتخذني خطوة أقوى لتقنعي أباك بتمسكك بعامر».

توردت حرير قليلاً وهي تقول بخفوت: «أنا لا أصدق أن هذا المجنون فعلها وأجرى تلك الفحوص لم تتحرك مشاعري نحوه يوماً كما تحركت بالأمس وأنا أقرأ فحوى الظرف». سألتها وفاء بغيظ واضح: «إذن لماذا لم تكلميه حتى الآن لتطمئنيه؟ مؤكداً هو الآن حائر لا يعرف كيف يتصرف دون

أن يتسبب لك بمشكلة جديدة مع والدك».

ردت حرير بصدق: «لا أعرف لماذا لم أتصل فقط شعرت أنني كنت غير مستعدة، كما أنني أخجل الاتصال به يا وفاء».

بدت وفاء أشد غيظاً وهي ترد على صديقتها: «لكن الاتصال مهم يجب أن تفهميه الوضع بوضوح يا حرير، إنه في حكم خطيبك الآن وقد أبلغته موافقتك».

ثم صمتت للحظة قبل أن تقول بابتهاج: «أكاد لا أصدق حتى اللحظة، أظن المسكين لم ينم ليلته سبحانه الله بعد كل هذه السنوات تدور الأيام لتكوني من نصيبه».

يحمر وجه حرير وللحظة شعرت أن وفاء لا تقدر فعلاً ما تمر به وترى الأمور من منظور مبسط للغاية، ردت حرير بخفوت خجول وهي تسير على مهل فوق الرصيف: «لست في حكم خطيبته أنا وافقت لكن لم يتم شيء خاصة في هذا الوضع المعقد الذي نحن فيه».

ثم شعرت حرير بطنين من الهاتف فقالت لصديقتها: «لحظة».

أبعدت الهاتف لتنظر إلى اتصال آخر قادم من عامر، همست دون أن تشعر: «إنه هو يتصل».

لكن إذن وفاء التقطت الهمس وقد خمنت المقصود لتقول بحماسة: «إذن ردي عليه.. سلام».

ثم سارعت صديقتها المتحمسة لتغلق الخط وتضع حرير بمواجهة الموقف
أخذت نفساً عميقاً قبل أن تفتح الخط معه فتلقي التحية وهي تشعر باقتراب
سيارة منها من الخلف: «مرحباً عامر».

أجفلت وصوت عامر يصلها قريباً من جهتين، من جهة الهاتف على أذنها
اليسرى ومن جهة جانبها الأيمن حيث الشارع: «ماذا تفعلين بالشارع
الموازي خلف شارعنا؟». التفتت يميناً فتراه في سيارته التي أوقفها إلى
جانب الرصيف، حيث تقف وبدت محرجة للغاية، بينما تلمح يده تربت على
موضع قلبه وهو يقول بصوت مبحوح وعيناه تبشان مشاعر متدفقة: «لا بد
أنها ساعة استجابة من يوم الجمعة ليتني كل يوم أنسى مفاتيح المخزن كي
أعود للدار فأجدك في طريقي».

تراخت يدها بالهاتف إلى جانبها وتسارعت دقات قلبها وللمرة الأولى
تشعر بإحساس قوي للغاية يجتاحها ناحية عامر ما فعله بالأمس كأنه حطم
أشد أسوارها مناعة، تلك الفحوص التي لا يفعلها الرجال إلا ربما كارهين
بينما هو فعلها عاشقاً، كان صوته يرتعش الآن وعيناه تتسعان بذهول
عاطفي: «ما هذه النظرة الحلوة في العينين الناعستين أهى لي حقاً أم سهاد
الليل أصابني بالهلاوس؟!».

غلبها خجلها فتدير عينيها بعيداً وقد بدأت تشعر بالقلق العاطفي فيسألها
بالنبزة نفسها: «هل قلبك حن على قلبي أخيراً يا حرير؟».

أخذت تتلاهى عنه بإرجاع هاتفها في حقيبتها ثم تتلاعب بكيس البقالة وهي تقول بحرج كبير: «أرجوك نحن في الشارع ارحل».

يرد بصوت خافت: «الشارع ملك للجميع قلبي فقط من هو ملكك تمنعين عنه من تشائين».

هتفت بهمس حانق وهي لا تنظر إليه: «توقف عامر ارحل قلت لك ولا تتبعني».

أخذ هاتفها يرن مجدداً فتخرجه بقلق وهي تتوقع اتصالاً من والدها فتعبس وهي ترى اسم عامر فتتأمل إليه بحنق لبيتسم في وجهها لكن عيناه الفائضتان بالشوق كانتا جديتين وهو يقول: «أنت أكملتي طريقك للبيت ولا تخافي لن أتبعك سأظل مكاني هنا لا أبرحه فقط واصلي الكلام معي».

استدارت بحركة سريعة حادة بعض الشيء كي تتركه مكانه وتسير للأمام، بينما تكلمه عبر الهاتف وهي تقول بتوتر الخجل والارتباك من الموقف: «ماذا تريد؟».

يتنهد وهو يرد عليها: «قولي شيئاً لعامر بالله عليك منذ البارحة وأنا لا أعرف ما هو التصرف المناسب الذي لن يؤذيك، لقد امتنعت حتى عن الرد على الرسالة التي أرسلتها لي حتى لا أتسبب لك بمشاكل إضافية مع والدك لم أعرف هل سأزيد الأمور تعقيداً عليك إذا تقدمت لوالدك مباشرة أم ربما الانتظار هو الأفضل حتى يهدأ ثم أكلمه لاثبت له حسن نيتي».

شعرت بثقة أكبر كي ترد عليه دون أن تشعر بذاك الخجل منه عندما ينظر إليها فقالت بما تعتقده حقيقة راسخة: «لن تثبت حسن النية من هذه الناحية مهما فعلت وانتظرت».

ثم تبتلع ريقها وهي تشعر بحياؤها يغلبها بينما تضيف: «لذلك أقول لك يمكنك إعادة طلبك القديم دون انتظار إن كنت ما زلت».

قاطعها بنبرة حارة: «ما زلت حتى زوال الدنيا».

يدوي قلبها في صدرها بينما تحاول السيطرة على ارتباكها العاطفي غير المسبوق معه: «حسن أنتظر مني رسالة فقط عندما أرى أبي بوضع أفضل كي تتصل به أنت أو والدك».

تساءل بالحاح: «لا أريد الضغط لكن فقط قل لي كم سأنتظر؟».

ردت وهي تدخل الفرع المؤدي لبيتهم: «ربما يومان أو ثلاث».

سألها بعذوبة تمس أي أنثى: «ألا أستطيع مراسلتك على الأقل؟ سأكون مؤدباً محترماً أعدك».

كانت تشعر بالاحمرار يغزو وجهها وهي ترد عليه: «فقط اصبر».

يتنهد ثم يقول بصوت الخافت وأسلوبه الشقي الفكاهي: «صابر أقسم بالله وأفكر جدياً بتغيير اسمي في الهوية من عامر إلى صابر».

لم تشعر بنفسها إلا وهي تضحك من قلبها ضحكة لم تمر بثغرها من

قبل، جاء صوته أشد خفوتاً وأكثر تأثيراً: «أنار الله لك الدنيا كما أنرتها لي اللحظة».

تعض شفتها وتشعر بالذنب ولا تعرف لماذا؟! ربما هي تربيتها التي تمنعها التبسط مع رجل حتى لو كان هذا الرجل عامربكل ما حدث ويحدث بينهما، ناداها وقد طال صمتها: «حرير».

ردت بخفوت وهي عند البوابة: «نعم».

فقال مغاللاً بلوعة: «أنعم الله على قلبك بمحبة عامر القماش وأذابه بعشق عامر القماش وأن تكوني كلك مع قلبك حلال عامر القماش قولي آمين لعلها ساعة استجابة أخرى».

ابتسمت بخفر وقلبها في غفلة منها يشاركه الفكاهة في همسة جريئة: «آمين».

فيداريها اللسان في همسة ارتباك تنهي بها الاتصال دون أن تفضح القلب: «سلام عامر».

مساء بيت عائلة هيام

شعرت نورجان بالتوتر يسيطر عليها وهي تجلس على الأريكة في غرفة الضيوف مبتسمة في رد مجاملة لمضيفتها والدة هيام، لقاءها مع نبراس

بعد هذه السنوات كانت غريباً للغاية رغم أنهما ذرفت الدموع معاً بصمت دون أسباب محددة إلا أنها شعرت بوضوح أن نبراس منكشمة غريبة الأطوار وتخص علي بنظرات أغرب، تستمع نورجان لكلمات نبراس المرحبة التي حملت شيئاً من التكلف المحسوس بينما يشدها حالة ولدها علي أكثر من نبراس، عيناه تبحثان تنتظران تراقبان الباب بتوتر، للحظة التقت عينا نورجان بعيني زوجها الذي كان يرد علي كلام رياض بجملة عادية؛ لكن تلك النظرة بين نورجان وسليم كأنه اتفاق ضمني على صحة وجود هذا التوتر في الأجواء الذي يحاول رب البيت (رياض) التغطية عليه.

«مبارك خطبة عمر... تم الله له بالخير».

التفتت نورجان لنبراس ترد بلطف وعفوية: «شكراً نبراس نفرح بخطبة وزواج سجي قريباً بإذن الله».

تعالى مستوى التوتر وعلي يلتفت بحدة وشعت عيناه بالغضب الواضح بينما ترد نبراس ببرود ثلجي منفرد: «قريباً جداً إن شاء الله».

ثم تتسع ابتسامة نبراس بشكل غريب مع رفع نبرة صوتها كأنها تجذب اهتمام الجالسين بالقول: «رجل شاب يكبرها بخمسة أعوام من معارف رياض منذ أن رآها أعجب بها، في البداية كانت سجي معارضة فهي لا تريد تركنا لكننا أقنعناها، خاصة والشاب يعجبها أيضاً ويلائم تطلعاتها العلمية، لإنه معاون رئيس قسم في جامعة أهلية».

فجأة سأل علي بتوتر أشد: «أين سجي؟». التفتت نبراس إليه لتزد بالبرود نفسه: «ستنزل حالاً تشعر ببعض التوعك.. حساسية الخريف».

في هذه اللحظة دخلت سجي عبر الباب وهي تلبس رداءً محتشماً بلون رمادي وتربط شعرها للخلف بوشاح أصفر باهت، كانت بسيطة للغاية أبسط مما ترتديه في العادة؛ لكن ابتسامتها الهادئة الواثقة شعت بسيطرة وهي توجه التحية: «مساء الخير».

تقدمت لتصافح سليم أولاً ترحب به ثم سلمت على نورجان وهي تقبلها على الخدين وأخيراً وصلت لعلي، لم تفت نورجان كف علي المتلهف في خشونة ليصل كف سجي يختويه بالكامل، وقد بدا غاضباً على نحو لا يعرفه إلا هي، هي أمه التي ربه وتعرف خلجاته كما تعرف خلجات شقيقه، قال علي كلمة واحدة بصوت يبدو عادياً لكن فاض بالشحنات: «تأخرت».

سحبت سجي يدها من يده وهي تتمتم: «أسفة أنا متوعكة قليلاً».

فجأة جاء صوت نبراس بخيط رفيع من الحدة: «البارحة كان عيد ميلاد سجي الثلاثون، صديقتها اشترت لها لوحة رائعة كهدية، إنها هذه اللوحة البغدادية على الوسادة، سجي تحبهم للغاية».

نظرة نارية من علي وجَّهها لسجي فردت له النظرة كأنها تطلب سماحه على هذه الكذبة، يزم شفثيه ويطرق بنظراته صامتاً بينما والده يراقبه عن

كتب ولم يعد لديه أدنى شك أن هناك أمراً جدياً يجري بين علي وسجى؛ لكنه تغاضى عما يحدث وهو يبارك لسجى عيد ميلادها، ثم تتبعه نورجان بالمباركة دون أن يفعل علي المثل.

مضت السهرة ثقيلة رغم محاولات رياض وسليم تخفيفها؛ لكن نبراس بدت متحفزة للغاية ولم تدع سجى تهناً بالجلوس لخمس دقائق مع الضيوف؛ كان الأمر جلياً لنورجان بينما علي يستأذن ليدخن سيجارة في الحديقة، شعرت نورجان بضيق شديد وهي تضغط على نفسها كي تحاول مداراة الوضع الغريب لمضيفتها، وتعرف أنها تنفست الصعداء عندما دعته سجى للطعام أخيراً، علي طوال الوقت صامت للغاية لم يشارك إلا بحديث مقتضب مع أبيه والعم رياض، بينما سجى كمنحلة مجتهدة متماسكة الأعصاب أمام تصرفات خالتها الغريبة.

بعد العشاء غابت سجى في المطبخ لتعد الشاي والقهوة للضيوف، وفجأة وقفت نبراس لتستأذن بإحضار هدية لعللي، بدا علي شارداً عن تصرفات حماته السابقة وتركيزه فقط مع سجى التي غابت معظم السهرة عن الجلوس والتحدث معهم.

بعد دقائق عادت نبراس بوجه ذابل وعينين غائرتين، بينما ترتجف شفتاها وهما تحاولان الابتسام وبين كفيها ألبوم صور كبير قديم الطراز سليم ونورجان لم يفهما الأمر، بينما علي ينظر للألبوم بنظرة ارتياح واضح، كان مصدوماً وقد انسحب الدم تماماً من وجهه، عم الصمت الذي قطعه رياض

بالقول المتوتر: «لماذا أحضرت هذا الألبوم يا نبراس؟!».

كان الرجل مصدوماً كصدمة علي أو ربما أكثر؛ لكنه بدا وكأنه أكثر سيطرة بطريقة ما وكأنه كان يتوقع أمراً كهذا من زوجته.

دخلت سجي في هذه الأثناء تحمل الصينية بابتسامتها الثابتة طوال السهرة؛ لكن سرعان ما ارتجفت الصينية في يدها وذبلت ابتسامتها وهي تنظر لما تحمله خالتها بين كفيها.

اقتربت نبراس من علي ونظراتها مسلطة عليه وحده وهي تقول له: «انظر يا علي هذا الألبوم القديم تذكره أليس كذلك؟».

لم يرد علي وهو يحدق بذاك الألبوم كأنه لهيب من الجحيم يكاد يحرقه، حاولت نورجان التدخل وقد أصبح الوضع أغرب من السكوت عليه: «ما هذا الألبوم يا نبراس تعالي واجلسي قربي وأريني إياه».

لكن نبراس ردت بتشبت: «لأ هذا الألبوم لعلي فقط هو يعرفه بل يحفظه فيه كل صور هيام منذ ولادتها، كما تفرجا عليه معاً وضحكا سوية».

ثم تقترب أكثر من علي لتجلس جواره بينما هو يعيش حالة تجمد ونبراس تفتح الألبوم كأنها فتحت أبواب الجحيم في وجهه وهي تقول بارتجاف واضح: «مؤكد أنت تشتاق لها كما نشتاق نحن أليست حب حياتك».

وقف رياض ولم يعد يستطيع الصمت ليهتف في زوجته: «نبراس ما الذي تفعلينه؟!».

يد نبراس تـقلب في الألبوم وعينا علي تمران بالصـور فيشعر بعـذابه عاد
من جديد ليغزو روحه، وقفت نورجان هي الأخرى ولم تحتمل هذا الضغط
فكيف بابنها علي لتقول بنبرة باردة حازمة: «لا أظن الأمر مناسباً يا نبراس
وأنت تعرفين ما مر به علي بعد وفاة المرحومة أنا مقدرة لإحساس الأم فيك
لكنك تعذبين ولدي بفتح جزوـحه من جديد، ألا يكفي ما مر به لست
سنوات؟!». .

سجى استعادت قدرتها علي حسن التصرف لتقترب من علي وهي تضع
الصينية جانباً تقول له: «علي هل أنت بخير؟ هل أحضر لك عصيراً
بارداً؟». .

رفع علي نظراته لسجى وللحظات طويلة هزها هذا الجحيم من العذاب
الذي تراه في عينيه، ومع هذا كان صامداً مواجهاً لقدره وهو يرد عليها:
«أشعر ببعض التعب، يجب أن أغادر». .

يقف سليم بينما تقترب منه نورجان يبديان استعداداً للمغادرة، بينما
رياض يشعر بالخزي والخل من الموقف برمته رغم إشفاقه علي حالة
زوجته التي تحرق في اليوم الصور بنظرات زائغة، تمسد علي وجه ابنتها
وهي تغرق في عالمها الخاص قال رياض: «لكن لم نتناول الشاي». .

فيرد سليم بكل أدب واحترام: «عذراً منك يا رياض في مرة أخرى بإذن
الله.. شكراً لكم لحسن الضيافة». .

يقف علي على قدميه وما زال جامد المحيا ثم يميل ليلثم رأس حماته
نبراس متمتماً لها بالسلام لكنها لا ترد عليه، وقفت سجي أمامه وبدت
وكأنها الوحيدة التي تشعر بما يواجهه فنظر إليها مطولاً بذاك الجمود الذي
سيطر عليه قبل أن يقول لها بخفوت: «شكراً لتعبك اليوم».

أرادت أن ترد بأي كلمة مجاملة تقال في حوارات كهذه؛ لكنها لم تستطع
وقد شعرت بنيرانه تطالها وتحترق بعذابه كأنه عذابها.

ما إن غادر الضيوف حتى عاد رياض لزوجته وكله يغلي من الغضب
ليهدف بزوجته وهو يراها تضع الألبوم على المنضدة الوسطية كأنه تحفة
فنية: «لماذا فعلتِ هذا؟!».

حاولت سجي أن تمسك بذراع عمها لتهدئه وهي تقول له بخفوت: «عمي
لم يحصل شيء».

بينما ترد نبراس بوجهها الشاحب: «ماذا فعلت؟!».

هدر رياض وهو يشير للألبوم: «لماذا جعلته يرى هذا الألبوم؟! لقد
أوجعته أيما وجع وفتحت جروحاً في روحه يجب أن تندمل».

ردت نبراس بنبرة قد تبدو قاسية: «جروح فقد هيام لن تندمل أبداً وأنظر
إليه كيف انهار حالما رأى الألبوم لتعلم أنه لن ينساها لآخر عمره».

تتسع عينا رياض وسجى ما زالت تتشبث بذراعه ليرد على زوجته: «لقد جنت يا نبراس».

عينا نبراس تركزتا على سجى هذه المرة وهي تقول بمعانٍ مبطنة: «بل المجنون من يظن أن علي سينسى هيام إنه قد يستبدلها بأي امرأة أخرى مهما كانت».

لم يفطن رياض وسط ما يواجهه مع زوجته لتلك المعاني في كلماتها، بينما سجى فهمتها وعرزت خنجراً في قلبها، واصل رياض كلامه الغاضب: «من أنت لتحكمي بهذا لقد آذيت وأسأت لمن دخلوا بيتك زائرين بعد طول افتراق ظننتك تقبلت الأمر أخيراً». تساءلت نبراس: «ما الذي أتقبله؟».

فواجهها رياض بالقول وهو يتقدم منها وقد أفلتت سجى ذراعه والوجع يتمكن منها: «أن هيام رحلت والباقون يمضون في حياتهم». ردت نبراس ووجيعة الأم فيها تصرخ: «وهل أنا وأنت نمضي في حياتنا يا رياض؟! هل تخذع نفسك أو تحاول خداعي».

فما كان من رياض إلا أن يواجهها بالحقيقة التي تتجاهلها فيقولها لها: «أجل لم نمض في حياتنا أنا وأنت لأننا والداها من أنجبناها لهذه الدنيا وربيناها بطريقة خاطئة وكنا مسؤولين عم آل إليه وضعها النفسي ولم نملك شجاعة إنقاذها بل كنا ضعيفين لنعترف بعلتها ورمينا الحمل على الذي لم يكن يعرفها كما نعرفها نحن، لم يكن له خبرة حياة كما نملكها

نحن كنا ضعفاء أنانيون يا نبراس وقتلنا ابنتنا بأيدينا».

صرخت نبراس في رفض: «لا تقل هذا مجدداً أبداً لا تقله».

ثم استدارت بعنف لتخطو مبتعدة وتغادر غرفة الضيوف تاركة زوجها يضرب كفاً بكف وهو يهمس: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

أما سبجى فعيناها على الألبوم القديم وهي تعلم كل الصور فيه التي تخص هيام فقط، خنجر من ربتها يتوسط قلبها وجحيم علي وعذاباته التي تفتقت الليلة سترافقها للأبد، لقد انتهى الأمر بعد ما حصل اليوم لن يأتي علي مجدداً كما عاد لحياتها صدفة خرج فجأة! ربما هذا أفضل ما يحصل لمنع الكارثة ليعود كل شيء إلى ما كان عليه، هي ستنساه مجدداً كما نسيته خلال السنوات الست الماضية.

طريق العودة كان علي يقود بصمت وعيناه غارقتان بالجمود، بينما نورجان تشعر بشديد القلق عليه، سليم التزم الصمت هو الآخر بل بإشارة من عينيه لزوجته وهما يركبان السيارة استعداداً للمغادرة من أمام بيت عائلة هيام أوصل لها رسالة ألا تكلم علي وهو يقود، عندما أوقف سيارته في المرأب المستعرض للدار وأطفأ المحرك أمسكه والده من ذراعه ليقول له: «علي كلمنا بُني منحتك وقتاً كي تستجمع أفكارك».

التفت علي بينما نورجان التي تجلس في المقعد الخلفي تقترب بجسدها

لتكون أقرب للفراغ بين المقعدين الأماميين رد علي وهو ينظر لوجهي والديه: «أنا بخير أبي لا تقلقا علي مجرد تعب وإرهاق، كان ضغط العمل هائلاً هذا الأسبوع».

سارعت نورجان لتسأل بقلق لا تستطيع التحكم فيه: «هل ستخرج؟».

رد وهو يفتح باب السيارة مترجلاً منها: «لا بل سأنام.. سأنام حتى الصباح».

ترجل سليم أيضاً وتبعته نورجان ليقول سليم بنبرة استغراب وهو يتطلع لساعة يده: «تنام منذ الآن؟! إنها التاسعة والربع».

أغلقوا الأبواب على التوالي وعلي بالهدوء والجمود نفسه يرد: «أنا مرهق وحقاً أحتاج للنوم باكراً.. تصبحان على خير».

سليم ونورجان يتبعان خطوات علي وهو يسبقهما الدخول للبيت، بينما نورجان تعرض عليه بقلب الأم المتوجس من حالة ولدها: «هل تريدني أن أكون معك حتى تغفو؟».

يكاد يصل الدرج وهو يقول بوجهه الشاحب: «لا شكراً نونة أريد أن أكون وحدي».

ثم تسلق درجتين قبل أن يتوقف ليلتفت لأبيه ويقول بهدوء: «لا أريدك أن تقلق سأدبر أمري وإن احتجتك سأكلمك».

ثم عاد لارتقاء الدرجات وعينا والديه تتبعانه بقلق.

التفتت نورجان لزوجها لتنفجر وهي تحرص على خفض صوتها: «لا أصدق ما فعلته نبراس! لقد جنت المرأة.. لقد بذلت كل طاقتي حتى أسيطر على انفعالي وأنا أراها تعذب ولدي بذاك الألبوم، لا أصدق حتى اللحظة ما حصل هناك، ظننت على الأقل أنها تجاوزت الأسوأ من وفاة ابنتها لكن يبدو جلياً أنها لم تفعل».

علق سليم وهو يعقد حاجبيه بتفكير: «ليس وفاة هيام بالضبط ما جعلها تتصرف بهذا الشكل الليلة، بل أمر آخر أثار ويشير جنونها».

تبادل الزوجان النظرات لتطرح نورجان تساؤلاً تتشارك إجابته مع رفيق دربها: «هل تفكر بما أفكر فيه؟».

كلمة واحدة قالها سليم كان فيها الرد: «سجى».

تساءلت نورجان بقلق: «وماذا عن علي؟». رد سليم باقتناع: «أظن علي سيعيش وقتاً عصيباً قبل أن يحدد ما يريد».

يتزايد قلق نورجان وهي تتساءل: «هل تظنه سينتكس ويعود لسابق عهده؟».

طمأنها قول زوجها: «لا لن يعود، لقد توازن بما يكفي كي لا يعود؛ لكنه يعيش صراعاً جديداً، فليكن الله في عونته ويهديه للطريق الأصوب».

التمعت عينا نورجان بفكرة فهمها سليم قبل تنطقها وحالما بدأت:
«لكن سجي...».

قاطعها بالقول: «لا تبدأي نورجان، الأمر لا يحتمل تكهنات وتدخلات
وأمنياتك كأم نحو ولدك دعي علي يقرر ولكل حدث حديث».

ثم أضاف بتشدد وهو يتوجه ناحية غرفة الجدة: «ولا تخبري أخويه عما
حصل الليلة، دعيه هو يقرر متى يتكلم ومع من دون ضغوط ومحاصرة منا
سأطمئن على (أم سليم)».

تلامس حرير بطنها وهي تقف أمام المرأة، ثم تغمض عينيها وهي ترفع
يدها لموضع قلبها تربت هناك كما يفعل عامر، تشعر بدفع مجنون لا
يمكن توصيفه وتحديده بمسمى آخر دفء مجنون يذيب جليداً تراكم في
روحها التي أثلجت لسنوات يبعث الرعشات كشحنات كهربائية تجعل قلبها
يدق بنبض غريب جديد عليها، ثم فجأة تنكمش مشاعرها بحركة دفاعية
فتفتح عينيها وصورتها المنعكسة في المرأة تظهرها مضطربة خائفة رغم
التورد في خديها، نقر على الباب أخرجها من حالتها تلك لتدخل أختها سدير
بوجه شاحب فتسألها بقلق: «ماذا هناك يا سدير؟!».

ردت سدير وتوترها يشتد: «أبي أقفل باب البيت بالمفتاح وخلدون لم
يعد للبيت».

عقدت حرير حاجبيها لتقترب من هاتفها النقال الموضوع على المنضدة فتقرأ الساعة وتقول باستغراب: «إنها ما زالت التاسعة وعشرين دقيقة».

أخذت سدير تقرض أظافرها بين أسنانها وهي تتساءل بعجز وخوف حقيقي: «ماذا سنفعل؟! هل سيبيت خلدون في الشارع؟! أبي لن يفتح له أنا واثقة، فهو منذ عودته من صلاة الجمعة اليوم وهو غاضب حائق وبخني وويخ أمي كثيراً».

مدت حرير يدها لتمنع أختها من قرض أظافرها أكثر وهي تقول لها بهدوء تحاول بث أختها الدعم والثبات: «لا تفعلي هذه الحركة مرة أخرى اهدئي وخذّي الأمور ببساطة أكثر، اذهبي لغرفتك واشغلي نفسك بأي شي ممتع وتجنبي الاحتكاك مع أبينا عندما ترينه بهذه الحالة».

تساءلت سدير بنعومتها ورقة قلبها: «ماذا عن خلدون؟ لن أهدأ حتى أطمئن أنه سيكون بخير».

بثتها حرير مزيداً من الثقة وهي تقول بحنان: «سيكون بخير. أنا سأصرف حبيبتي لا تقلقي فقط نفذي ما طلبته منك».

حالما غادرت سدير غرفتها خلعت حرير قناع الثقة والطمأنينة ليبرز قلقها الشديد على محياها، أجرت اتصالاً بأخيها خلدون فيأتيها الرد الآلي أن الهاتف مغلق أو خارج نطاق الخدمة، زاد توترها وهي ترجح أن شحن بطارية هاتف أخيها قد نفذ غالباً، مضت نصف ساعة وجرس الباب رن أكثر من مرة

ولم تستطع حرير حتى محاولة إقناع أبيها بفتح الباب، وقد رآته في حالة عصبية شديدة يصرخ في أمها التي كانت تتوسل إليه ادخال خلدون للدار، لم يكن أمامها إلا خيار واحد لقد تجاوزت العاشرة ولن تترك أخاها في الشارع، دخلت غرفتها وأغلقت الباب بالمفتاح ثم أجرت اتصالاً بعامر وحالما جاءها صوته قالت بارتعاش القلق والخوف ودون مقدمات: «عامر انجدني».

تساءل بقلق وتوتر: «ماذا حصل؟ هل أنت بخير؟».

ردت بصوت خافت خوفاً أن يكون والدها يتنصت: «لا أستطيع التكلّم كثيراً لكن أبي أقفل باب البيت وخلدون في الخارج، لن يسمح له بالدخول الليلة».

رد عامر بنبرة عملية مطمئنة: «اهدئي لا تقلقي أنا سأبحث عنه وأجده أنا في طريق العودة للبيت وأوشك أن أصل الحي». فتساءلت بقلق: «لكن أين...».

قاطعها بالنبرة نفسها: «سيبيت عندنا في دار القماش لا تخافي». دمعت عيناها وهي تفكر بأخيها وكيف سيتصرف بهذا الموقف الصعب لتهمس باختناق: «لكنه سيُخرج وربما يرفض».

لكن عامر وعدها بنبرة قاطعة عازمة: «سأقنعه لن أتركه حتى يرافقني».

لم تنم حرير حتى اطمأنت وكلمت خلدون بنفسها من هاتف عامر وقد وافق على المبيت في دار القماش، لقد شعرت بحرجه وخزيه بل حتى كسرتة؛ لأنها ببساطة تشعر مثله لكن لا يهم، فالمهم كان أن تطمئن لوجوده في مكان آمن، وبعد أن طمأنت أمها وأختها (سراً) أن خلدون بخير وببيت عند (صديق). صلت ركعتي شكر لله ثم خلدت أخيراً للنوم وهي تدعو لعامر بكل الخير لمساعدته لهم.

استيقظت على صلاة الفجر فأدتها ثم أوت للفراش مرة أخرى وهي تشعر بالتعب وبداية أعراض نزلة برد، لم تعرف كم مر من الوقت عندما شعرت بمن يوقظها بهزة خفيفة لكتفها وصوت أبيها يخترق نومها: «حرير حرير استيقظي يا ابنتي».

رفعت حرير رأسها عن الوسادة وتفتح عينيها مرة واحدة تتساءل بقلق فوري وهي تنظر لوجه أبيها المجهد، وهو يجلس على حافة سريرها ومن ورائه أولى إشراق الصباح يتسلل من خلف الستائر: «أبي؟! ماذا هناك؟ هل أنت بخير؟!».

رد بنظرات ذابلة تقطع لها قلبها: «تعالى نخرج سوياً للبحث عن أخيك أنا لم أستطع النوم طوال الليل ويدي ترتعش لن أستطيع القيادة بنفسى».

شعرت لحظتها برغبة عارمة أن تضم أباهما لصدرها وتطمئنه؛ لكنها لن تجرح مشاعره بتصرف كهذا يهز هيئته، يكفي ما يعانيه حتى وإن كانت

معاناته من صنع يديه فاكتفت بأن قالت له: «إنه بخير لا تخف».

فتساءل الأب ملئعاً: «هل اتصل؟ متى؟ أنا أتصل به وهاتفه مغلق».

ردت حريز بمزيد من الإشفاق: «لقد اتصل بي ليلة الأمس هو في بيت صديق له».

عاد التشكك ليتسلل لنظراته ويصبغ كلماته: «هل أنت متأكدة؟ ربما يكذب عليك».

تنهدت حريز وهي ترد على أبيها تخفي حنقها من أفكاره لتكلمه بما تستطيع من اللين والترفق: «خلدون لا يكذب أبي ثق به ليمنحك ثقته».

ثم وضعت كفها فوق كفه مضيئة برجاء خاص: «ثق بنا جميعاً».

دون أن يقصد جرحها قال بضعف: «لو كان لديك أطفال لكنت فهمت خوفي عليكم ورغبتني لحمايتكم حتى من أنفسكم».

ثم وقف على قدميه ليتحرك نحو باب الغرفة وهو يتمتم كأنه يكلم نفسه: «أنت لا تشعرين لا تدركين مهما كبرت لا تعرفين الشر في الدنيا لأنك نقية.. نقية جداً يا ابنتي».

ترك أسعد غرفة ابنته ليسير مجهود الخطى في الممر متوجهاً للسلم كي ينزل للطابق الأرضي، بعد أن اطمأن على ولده غرق في قلقه على ابنته الكبرى وحالها الذي يوجعه، عاد إليه الحنق وهو يتذكر ما حصل في صلاة

الجمعة يوم أمس لقد سأل عن عامر هنا وهناك وكلهم أجمعوا على مدحه واستقامته السنوات الماضية، أخذ ينزل الدرجات وهو عابس المحيا يتمتم لنفسه بعناد: «لن يخدعني بزيف الادعاء أنه بات صالحاً لن أصدق كلام أناس من الحي يجاملون وينافقون».

وحالما وصل آخر السلم كانت أفكاره تتمحور حول أمر واحد يفعله إذا تم كما يريد هو واثق أنه قادر عل إقناع حرير به، هي امرأة مجروحة من زوجها وعامر استغل هذا ليقنعها بالزواج كي ترد اعتبارها، إنها مغيبة وعقل المرأة وأحكامها العاطفية تسيطر عليها.

لم تمض ساعة بعدها إلا وكان خلدون في الدار يلجأ لغرفته ووجهه بمحياه الثائر يحمل خزي رجولة وليدة وارتباك طفولة مسيطرة، دخلت حرير غرفته وأغلقت الباب خلفها وهي تحمد الله أن والدها قرر عدم الخروج من غرفته ليواجه ابنه المراهق، أشفت حرير على أخيها وهي تراه بملابس الرياضة المتسخة منذ الأمس جالساً على حافة سريريه كي يفك رباط حذاء الرياضة بحركات عصبية متوترة، سألته وهي تقترب منه لتجلس جواره: «هل أنت بخير يا خلدون؟». رد وهو لا ينظر إليها بينما كان منحنيّاً ليفك رباط الفردة الأخرى: «أرجوك حرير دعيني بمفردي».

رفعت يدها لتمسد فوق شعره المشعث المتلبد وهي تسأله برفق وصبر: «هل ارتحت في بيت عائلة عامر؟».

كأنها ضغطت على زر انفجاره ليهب واقبأ على قدميه فينفض الحذاء بعنف من قدمه وهو يقول بانفعال شديد: «لن أنس أبداً ما فعله بي أبي لن أنسى وقوفي في ظلمة الشارع وأنا.. وأنا..».

لم يكمل جملته بل ركل بقدمه الأخرى ليرمي الفرقة الأخرى بعيداً وترتطم بإحدى الجدران، سألته حرير وهي ما زالت جالسة: «وأنت ماذا يا خلدون؟ أخبرني».

التفت إليها ليهدر بانفعال أشد وعيناه تدمعان بقهر الاعتراف: «وأنا خائف كنت خائفاً مهزوزاً كطفل».

قالت حرير وهي تحاول احتواءه: «الخوف لا يعني أننا أطفال بل يعني (نظن) أننا لا نملك كفاية ما يحميننا».

تتقبض يده إلى جانبيه وهو يحني رأسه ليعترف بالمزيد: «لقد نزلت دموعي يا حرير ولم أستطع منعها حال رؤيتي لعامر، كم أخجل من نفسي، دون كلمات صعدت لسيارته وكم كنت ممتناً أنه لم يسأل».

رفع ظاهر كفه ومسح بخشونة دمعة فرت من عينه اللحظة، بينما حرير تقاوم رغبتها الاقتراب منه لتدعه يعبر عن نفسه ويفرغ داخله ليضيف خلدون وكأنه لا يصدق ما مر به ليلة الأمس مع أناس غرباء في موقف مهين له: «أخذني لبيته التقيت بأمه فقط والغريب هي الأخرى لم تسأل! فقط أعدت لي فراشاً في غرفة استقبال الضيوف وكانت لطيفة للغاية وكأننا

شعرت بجرح كرامته وكأنه جرح كرامتها هي عزة نفسه كبرياءه، يكمل خلدون وهو في وقفته المنكسرة تلك وسط الغرفة: «عرضت علي العشاء لكنني رفضت تماماً ومن شدة شعوري بالخزي والخجل نمت من فوري دون أن أكلم أحداً منهم، وحالما بزغت الشمس تسللت من الفراش وبينما أبحث عن مفتاح البيت لأغادر قبل أن يصحو أحد منهم وجدت عامر أمامي». سألته بحنان: «هل تكلمت معه؟».

زفر خلدون بقوة وهو يقول: «أجل أعد لي إفطاراً بسيطاً وكلمني عن أبي».

انتابها الفضول لتعرف ما قاله عامر وربما بعض التوجس أيضاً فسألت أخاها: «ماذا قال؟».

رفع خلدون وجهه وقد بدى متأثراً بعامر أكثر من كلماته وهو يرد بالقول: «قال لي الرجل الحقيقي من يتفهم والده مهما قسا عليه وأن يراعيه في شيبته أضعاف مراعاته في قوته، حقاً لم أتوقع منه هذا ظننته يكره أبي».

تبخر توجسها في لحظة لتبتسم لشقيقها وهي تقف على قدميها وتقرب منه قائلة: «اتركنا من عامر الآن المهم هو أنت لا أريدك أن تشعر بالضالة أبداً، كثير ما يحدث في البيوت أن يغضب أب على ابنه».

حاوطت كتفيه بذراعها بينما يعود خلدون لبعض انفعاله: «وهل يطرد كل

الآباء أبناءهم للشارع لأنهم لم يعودوا للبيت عند التاسعة والنصف؟!». .

رفعت ذراعها الآخر لتلامس بأصابع كفها ذقن أخيها وقالت بتذكير رقيق:

«تذكر ما قاله لك عامر يا خلدون».

يمط خلدون شفتيه بشعلة تمرد تكاد تذوي وهو يتمتم: «ربما فعلاً ما

زلت طفلاً لأستوعب هذا».

فأوضحت له حرير: «بل أنت شاب مراهق تتعلم الحياة وتمر بظروف ربما

صعبة بعض الشيء؛ لكن صدقني خلدون أبي يحبنا للغاية وهو طيب

القلب، هناك آباء يؤذون أبناءهم دون وجود حب.. هم فقط أشخاص

سيئون».

لم يبدُ على خلدون الاقتناع ثم قال فجأة: «ليت أبي كعامر لماذا لا يتكلم

معي هكذا؟!».

أخذت حرير تحاول استرضاءه وقد غفل كلاهما عمن يتنصت من

خلف الباب.

تحرك أسعد بخطوات حريصة دون إصدار صوت بينما يتجههم وجهه وهو

يفكر: «إذن عامر يريد احتلال مكاني حتى مع ولدي الوحيد».

ثم هبط الدرج كما فعل قبل ساعة من الزمن وهو كله عزم لبدء ما

نوى عليه.

بعد يومين التاسعة صباحاً

تعاني حرير شبه انسداد بأنفها وحرقة شديدة في بلعومها مع توهج حمى في جبينها وصداع خف قليلاً، بعد أخذها لحبتي دواء مسكن بينما تسمع عامر يسأل وسط ضوضاء الشارع من حوله حيث يقف اللحظة: «كيف تشعرين اليوم؟».

ردت وهي تمسح أنفها بمنديل ورقي: «ألم أتفق معك ألا تتصل؟! قلنا رسائل فقط».

بحق تملكي قال عامر: «ردى علي حرير ولا تشيري جنوني اللحظة بتحفظاتك، حرارتك البارحة كانت تسعة وثلاثين وعقلي مشتت بسببك منذ الأمس نهاية الأسبوع سيكون الافتتاح ويجب أن أركز بالله عليك».

تعدل من استلقائها على السرير وهي تعانده بالقول: «سأرد بشرط أنك لن تتصل مجدداً وتلتزم باتفاقنا».

تمتم بغیظ: «أعدك».

تبتسم وهي تغمض عينيها وتقول: «حسن الحرارة خفت عن الأمس والحمد لله ولا داعٍ لتقلق إنها نزلة برد عادية حالياً أنا بالفراش ومتدثرة بغطائي، وقد بدأ مفعول الدواء ليخف صداعي ولا ينقصني إلا كوب شاي ساخن».

عرض بصوت مبحوح: «يمكنني أن أكون أحياناً كوب شاي ساخن من أجود الأنواع فقط أو مري وسيكون عندك».

تفتح عينيها وهي تعقد حاجبيها وتوبخه بالقول: «عامر تأدب وإلا أغلقت الاتصال في وجهك».

يضحك وهي تعاود إغلاق عينيها تشعر بالإرهاق وتفكر بأخذ إجازة من المدرسة ليوم غد أيضاً حتى قال لها عامر بنبرة رقيقة: «لا أريد أن أبدو أنانياً وأنت مريضة هكذا لكن ألم ينتهي اليومان؟».

تنهدت وهي تفتح عينيها مجدداً وترد عليه: «أنا قلت يومان ثلاث».

فيحاول حصرها بالموعد قائلاً: «إذن غداً؟ حتى أكلم الحاج سليم».

دون شعورها سرحت بحال أبيها ليسألها عامر: «لماذا تصمتين؟».

ردت عليه بصدق: «أبي يبدو غريباً ليس غاضباً أو حانقاً لكنه غريب فقط ولا أستطيع فهم ما يدور في رأسه، فبعد أن كان عصبياً للغاية طيلة يوم الجمعة جاء السبت وبعد عودة خلدون ليبدو أبي صامتاً غامضاً مشوش النظرات، حتى إنه تعامل مع خلدون وكأن شيئاً لم يحدث!».

وقبل أن يرد عامر جاءتها صوت طرقات فتقول لعامر بخفوت وهي تشعر بالخرج من هذا الموقف: «هناك من يطرق علي باب الغرفة سأكتب لك رسالة لاحقاً ولا تتصل مجدداً أرجوك».

أغلقت الخط مع عامر وهو يعدها الالتزام وأنه بانتظار الرسالة بينما تدخل أمها وعلى وجهها أمارات القلق وربما بعض الفرح! كان خليطاً عجيباً تراه وتشعره حرير من أمها ولا تفهمه، اعتدلت حرير بجذعها جالسة باستقامة في السرير وهي تتساءل: «ماذا هناك أُمي؟».

ردت الأم وهي تفرك كفيها ببعض: «والدك يريدك أن تغيري ملابسك وتنزلي إلى غرفة الضيوف».

بدهشة تتساءل حرير: «غرفة الضيوف؟! لكن لماذا؟».

فترد الأم وهي تواجه ابنتها بالمحتوم: «نوفل حضر لزيارتنا».

كان هذا آخر ما خطر ببال حرير فتمتم بعجب: «نوفل؟! الآن؟!».

ردت الأم وهي تحث ابنتها: «أجل يا ابنتي أرجوك أسرعي بارتداء ثياب مناسبة والدك ينتظر».

غرفة الضيوف

دخلت حرير وقد ارتدت ملابس بسيطة وربطت شعرها كذيل حصان، كان وجهها شاحباً مجهداً بسبب المرض وأرنبتي أنفها محمرتين؛ لكنها لم تهتم وهي تنظر لمن كان زوجها لست سنوات مسروقة من حياتها ألقت التحية بحيادية: «صباح الخير».

وقف نوفل على قدميه وقد بدا مرتبكاً بوضوح وهو يرد: «مرحباً حرير».

والدها ما زال جالساً بينما يلوح بيده في تعابير بشوشة للغاية: «تعالى يا ابنتى تعالى نوفل جاء ليراك».

اقتربت لتجلس على أول كرسي فيجلس نوفل بعدها وهو يشرح ويفسر بإسهاب غير ضروري: «العم أسعد اتصل بي ليلة الأمس وأخبرني أنك لست على ما يرام، قال إن جالتك مقلقة وحرارتك عالية».

بدا لها مثيراً للشفقة والضحك معاً ولا تعرف لماذا بالضبط ربما لأنه يبدو كأرنب وقع في الفخ، ردت وهي ترخي كفيها في حجرها وتنظر إليه مباشرة: «مجرد زكام موسمي عادي اليوم أنا أفضل بكثير الحمد لله».

كانت تتصرف بتلقائية وتنتظر القادم.

تعابير أبيها تشي بوجود شيء أكبر بينما نوفل يغرق بحرجه أكثر وهو ينقل نظراته بينها وبين أبيها قائلاً: «أنا آسف ظننت الأمر أسوأ».

عندها قال الأب ما قرع النواقيس كلها في عقل حرير: «لا تخجل بني حرير ستظل دوماً زوجتك أتخجل أن تقول لها أنك اشتقت لرؤيتها واتخذت حجة توعكها ذريعة».

شعرت حرير بحرارة إضافية تتوهج من خديها، لم تعرف أهو الحرج أو الصدمة أم الغضب؟!

انعقد لسانها للحظات وقد انعكست صدمتها وخرجها على وجه نوفل وما زال أسعد غارقاً مع نفسه ليواصل السير في درب يفرضه عليهما معاً دون اعتبار لأيٍّ منهما، فيقول كأنه يرأب صدعاً بسيطاً في جدار متين: «نوفل رجل طيب يا ابنتي يشعر بالذنب نحوك ألم تقل لي هذا بالأمس يا ولدي».

هذه المرة توهج خدا نوفل وهو يتمتم بحرج فظيع: «نعم قلت؛ لكن...».

قاطعهُ أسعد لينغمس أكثر في تلك الخيالات: «إنها من أعمال الشيطان الذي فرق بينكم، لعنة الله عليه، لكن لا يصح إلا الصحيح».

بدا نوفل وكأنه يود الفرار اللحظة بينما حرير تبتلع إحساسها بالمهانة وقلة القيمة وهي تقول لأبيها: «أنا لا أفهم ما يجري يا أبي!».

يفسر الأب ما يظن أنه واقع حال وهو يظهر الدهشة أن ابنته لا تفهم المقصد: «نوفل يريد أن يعيدك زوجة له يا ابنتي وماذا غير هذا سيعيد لك اعتبارك أمام كل الناس».

قبل أن ترد حرير كان نوفل يسبقها وكأنه يسارع لدفع (تهمة) عنه: «أنا لم أقل هذا».

يتوتر الجو وحرير تزم شفيتها وهي تستعيز بالله من الشيطان الرجيم كي تفكر بعقل وتخرج نفسها من هذا الموقف دون أن تسيء لصورة أبيها، تلاشت البشاشة من وجه أسعد وعم التشوش على محياه وفي نظرات عينيه وبدا اللحظة أنه هو من وقع في الفخ لا نوفل، قال أخيراً رداً على كلام

نوفل: «كيف لم تقل؟! البارحة قلت لي إنها كانت نعمة الزوجة لك وإنك تشعر بالذنب والخسارة».

فحاول نوفل أن يواجه الموقف: «لكني لم أقل إنني أريد أن...».

تقطعت كلماته وهو ينظر ناحية حرير ليضيف وكأنه يعتذر منها: «إيناس لن توافق أنا آسف يا حرير».

لقد حان وقت إنهاء هذه المهزلة المهينة لكل الأطراف فليجد نوفل لنفسه منفذاً، أما هي فلم يكن أمامها إلا إنقاذ كرامتها وكرامة أبيها فقالت أخيراً وبهدوء أعصاب تحسد عليه في موقف عصيب كهذا: «هناك لبس بالموضوع يا نوفل».

نظرت في عيني مطلقاً فرأت سنوات شبابها الضائعة عندما رضيت بحياتها مع رجل فاتر ضعيف الإرادة والشخصية مثله، يبدو أن إيناس أحكمت سيطرتها عليه، كل هذا لا يهم ما يهمها اللحظة أن تكمل التمثيلية لآخرها، بابتسامة مدروسة لا تعرف كيف استطاعت رسمها أضافت وهي تنظر لأبيها التائه المشوش بحنان: «أبي يفكر بي أكثر مما يجب كل ما في الأمر أن هناك رجلاً محترماً تقدم لخطبتي ووافقت عليه لكن أبي أرادني أن أتأكد من رغبتني هذه وأني لست مشوشة بسبب طلاقك منك يا نوفل».

فتنظر في عيني أبيها تشجعه وهي تقول له تحته على الإيجاب: «أليس كذلك أبي؟». وكأنها رمت له القشة التي يتمسك بها ليخرج من هذا الفخ

فيقول وهو يخفي انكساره: «نعم نعم».

بدا نوفل الآن مصدوماً وبقية غيرة تجلت في نظراته وهو يتمتم:

«ستزوجين؟! بهذه السرعة؟!».

حولت نظراتها لنوفل وقد أغضبتهما جملته الأخيرة (بهذه السرعة) وكأنه لا يصدق أن هناك رجلاً سيرغب بها وهي (المطلقة)! نوفل حاله كحال أبيها وأمها كحال مجتمع بأكمله ينظر إليها ك(بضاعة) فقدت من قيمتها ما تراه من أفكار نوفل هو ذاته ما تراه من الناس ولو بردود أفعال ومشاعر متنوعة ما بين إشفاق وانتقاص ومطامع وخشية! ومصدرها واحد أنها (امرأة مطلقة) قالت أخيراً بالابتسامة المدروسة نفسها: «نعم إن شاء الله ليس قريباً جداً فما زال أبي يسأل عن عامر وعائلته أنت تعرف أبي حريص دوماً كما يريدني أن آخذ كل وقتي كي أكون واثقة من قبولي برجل أصيل وأني لم أخطأ الخيار مجدداً».

وكانها صفعته بجملتها فوقف على قدميه وقال منسحباً: «وفقك الله

يا حرير».

وقف أسعد وتبعته حرير ليتصافح الرجلان وهما لا ينظران لبعض ثم نظر

نوفل لحرير نظرة أخيرة قبل أن ينسحب نهائياً من الصورة: «عن إذنكم عليّ

العودة للبلدة».

استأذنت سجي من زميلتها وقد كانتا تجلسان معاً علي إحدى المصاطب
في الساحة تتناولان وجبة خفيفة كإفطار متأخر عندما رن هاتفها، ليتوهج
اسم علي في قلبها قبل أن يتوهج على الشاشة، ابتعدت مسافة كافية
وقلبها يكاد ينفجر في صدرها، ابتلعت ريقها وهي تفتح الخط لتقول بنبرة
حاولت جعلها عادية: «صباح الخير».

لكن محاولتها ماتت في مهدها وصوت علي يأتيها أمراً بنبرة هجومية
مباغته: «أريد أن أراك الآن في الحال».

ابتلعت ريقها مجدداً والنبض المتفجر بات يجري جرياناً في شرايينها
وهي تقدر حالته أنها لا تحتمل المراوغة أو الاعتذار بالانشغال، سألت
باختصار وهي تغمض عينيها: «أين أنت؟».

رد بالنبرة نفسها: «الفرع المقابل لبوابة الجامعة حيث مطعم (...)»
في الركن».

قالت وهي تتحرك بالفعل: «قادمة، لدي ساعة قبل محاضرتي القادمة».
بعد أقل من عشر دقائق كانت تقف جوار شباكه المفتوح ودخان السجائر
يخرج بكثافة وهو يسرح بنظراته بعيداً نادته ليتنبه لوجودها: «علي».

التفت إليها وسرق منها (كلها) بتلك النظرة التي شملتها من شعرها
الطويل المفروود بأناقة على كتفيها، مروراً بقميصها بلون الزهر فوق تنورة
رمادية، عيناه الخضراوان تشتعلان وهو يقول بل يأمر باختصار: «اصعدي

وأياك الرفض».

كانت حالته مزرية لم يكن هناك أي مجال لمعارضته، اللحظة إحساس عظيم بالذنب نحوه وكأنها شاركت بطريقة ما في مأساته ولا تعرف كيف.

تحركت حول السيارة وفتحت الباب لتجلس على المقعد المجاور وحالما فعلت وأغلقت بابها كان علي يتحرك بسيارته، تنحنحت وهي تتساءل: «إلى أين تأخذني؟».

رد وعيناه تميلان بالنظر جانباً إليها: «إلى أي مكان لا أعرف».

تركته يقود السيارة في شوارع العاصمة ولا تعرف أين سيجد ما يريده، لاحظت أن ملابسه مُتربة وشعره مشعث وجهه لم يكن شاحباً؛ لكن يحمل تعابير أخافتها ثم تنبّهت أنه يرتجف! جسده تمر به رعشات متتالية خفية! سألته وقد استبد بها الخوف والقلق: «ماذا هناك؟! أنت ترتجف يا علي! هل أنت مريض؟».

لم يرد وهو يقود سيارته إلى طريق عام شبه خارجي ثم تنبّهت أنه طريق بساتين النخيل، حيث وقع الحادث المشؤوم، هذه المرة كانت مرتعبة لا تدري ما يجول في رأسه؛ لكن بدا وكأنه انفجر وخرج عن سيطرة الصمت، وعلى غفلة حاد بالسيارة جانباً إلى فسحة ترابية ويدخل في عمقها بعيداً عن مسار السيارات، تتشبث سجي بمقعدها من الجانبين وهي لا تعرف ما سيحصل لاحقاً، منذ يومين وهي تعاني خالتها نبراس غاضبة طوال الوقت

وتصب جام غضبها عليها وعلى العم رياض وكلاهما صابر على حالها ومقدر لوضعها، حتى إن العم رياض يفكر باستشارة طبيب مختص ورغم الضغط والمعاناة مع خالتها لكن مع علي الأمر أصعب بكثير، علي بالنسبة إليها بات خطراً محدقاً لا تملك خبرة كفاية للتعامل معه، أخيراً ضغط علي المكابح لتتوقف السيارة في مكان خالٍ غير مأهول وهو يرمي عقب سيجارته من الشباك، صمتت وهي ما زالت متشنجة في كرسيها تنتظره أن يتكلم حتى فجعها بالقول: «كنت عند قبر هيام اليوم».

قالها بطريقة موجهة للغاية عززت إحساسها بالذنب ولامت نفسها لأنها لم تقف بوجه زيارته لبيتهم، كان يجب أن تعرف أن الأمر لن ينجح مع خالتها على المدى البعيد، فحبها لابنتها يفوق قدرتها على الإحساس بآلام الآخرين، بقلبها الموجوع عليه ترى سجي ارتعاشات جسده بوضوح أكبر فتسأله: «لماذا فعلت هذا يا علي؟».

التفت إليها وقال بعينين تفيضان بالعذاب الذي تأجج مجدداً ولو علي نحو مختلف عما رآته سابقاً: «لأواجه ذنوبي منذ يومين هيام تلاحقني تأتي إليّ في الأحلام تلومني تحملني مسؤولية موتها».

حاولت سجي مساعدته وهي تقول بصدق: «إنه عقلك الباطن فقط يا علي لأنك رأيت ألبوم صورها فتذكرت الحادث مجدداً، فتأجج داخلك شعور طبيعي بالذنب رغم أنك لا ذنب لك».

أخذ يضرب بقبضتيه الاثنتين على المقود وهو يقول بحرقة وهياج: «لقد كانت في ريعان الشباب أربعة وعشرون عاماً حياتها كلها أمامها».

لم يكن يسمعها وبالوقت نفسه كأنه يستنجد بها كي تجعله يسمعها بينما يضيف المزيد وهو بتلك الحالة من الانفعال والارتجاف: «كيف فعلت بها هذا يا سجي؟! كيف أخذتها بالسيارة وأنا أعرف حالتها العصبية؟! أي غباء هذا لأواجهها بموضوع (نور علي) والمنشور البائس ونحن بذاك الوضع على طريق عام، لقد عرضتها للخطر بيدي هاتين! أي غباء هذا أي غباء؟! وما ذنبها أني غبي هكذا».

أخذ يضرب قبضتيه بالمقود بعنف أكبر فلم تستطع سجي تركه يؤذي نفسه أكثر وهي تستوعب بالوقت نفسه ما يكتبه ويعانيه، مدت كفيها وأمسكت بكفيه تحاول تثبيتهما وهي تقول له محاولة الصمود أمام ضعفها: «كلنا نتصرف بغباء يا علي إنه قدرها وحياتها بمشيئة الله وحده لا مشيئة أحد غيره».

نظر إليها وما زالت كفاها تثبتان كفيه فقال وجسده ينتفض: «منذ يومين وأنا أحاول ادعاء الأمور طبيعية أمام عائلتي وأمام نفسي. أحاول أن لا أفكر بطريقة سلبية حول ما جرى؛ لكن أحلامي استنزفت طاقتي حتى وجدت نفسي أمام قبرها منذ الصباح الباكر أتوسل إليها أن تغفر لي ذنبي».

كانت تشعر بارتجاف جسده ورائحة السجائر تفوح منه وكأنها تحكي

احتراقه، لديه قدرة عجيبة على جعل الآخرين يشعرون به ربما عاطفته
القوية المشعة هي السبب ألم يقع قلبها في هوى الشاب الذي يجالس
بأريحية عاملة النظافة في الجامعة؟! لم تشعر سجي إلا ودموعها تهطل
على خديها لا تحتمل رؤيته هكذا، اقتربت دون إدراكها لتقول له بنبرة
صوت فضحت مشاعرها أكثر نحوه: «لم يكن ذنبك ثق بي أنه ليس ذنبك
أنت من أفضل الناس الذين عرفتهم في حياتي يا علي فبالله عليك لا تقسُ
هكذا على نفسك قلبي يتقطع لأجلك».

عم الصمت وسجي تبكي هكذا وعلي ينظر لوجهها عن قرب فتجتاحه
مشاعر هادرة جرفت كل شيء آخر، عداها مشاعر تراوده منذ أسابيع ولا
يفهمها أو ربما لا يريد أن يفهمها، لكن الانفجار كان حتمياً ليصل مع سجي
لهذه النقطة حيث لا رجوع بعدها ولا إنكار، فقال بأنفاس متسارعة كأنه
يتشبث بطوق نجاة ليواجه به ذاك الطوفان وما يحدث له: «قلبك يا سجي
يتقطع لأجلي؟! ليتني إذن أرى تقطعه بألم عيني لعلي أصدق ما يحدث لي
ولك! لا يمكن كل هذا الجنون من خيالاتي».

في تلك اللحظة العجيبة أدركت سجي في أي وضع هما فسحبت كفيها
ووجهها يحمر بشدة لتراجع للخلف لكن بعد فوات الأوان!

يميل علي نحوها مهاجماً مشاعرها بكل قوته وهو يمسكها من ذراعيها
ويهزها هزاً وهو يقول معاتباً بشقاء عاطفي مذهل لا يعلم من أين تفجر:
«لماذا لم تتصلي بي؟ كنت تعرفين كيف ستكون حالتي لكنك تركتني

تخلّيت عني».

كانت تذوب حرفياً وقد جاء دورها لتبحث عن طوق نجاة في وجه الطوفان بينما تتمم بارتجاف حياء من إمساكه لها بهذا الشكل الحميمي: «علي أنا».

يعاود هزها وهو يهدر بانفعال: «أنت ماذا؟ قولي لي».

حاولت مجدداً أن تجد مخرجاً فأثرت أن تجد عذراً مقنعاً لعلها تهدئه وتعيد إليه صوابه إليهما معاً! فقالت وهي تنظر في عينيه: «خجلت مما حصل من خالتي نبراس وظننت تركك بمفردك أفضل».

وجهه قريب بشكل مخيف لحواسها خاصة مع تلك النظرة من عينيه فوق وجهها ليختمها بالهمس الخشن: «أنت كاذبة».

صدمتها الكلمة فهمست اسمه باعتراض على اتهامه: «علي».

لكنه لم يأبه وقد خرج عن حدود المنطق والعقل لتسود العواطف المكبوتة المشوشة تريد أن تجد لها مسمى وواقعاً يفرض نفسه: «أجل كاذبة تكذبين علي وتكذبين على خالتك وأنت تخبرينها أن اللوحة من صديقة وليس مني بل وتكذبين على نفسك كل هذه الشحنات اللعينة المشتعلة بيننا تنكرينها».

كان ارتجافها رهيباً ويغلب كل قدرتها على إيقافه، براءتها حكمت ولم تستطع التصدي لهجومه هذا توسلت إليه وهي ترتجف تحاول تخليص

ذراعيها من تشبث كفيه: «من فضلك اترك ذراعيّ أعدني للجامعة».

كل إشعارات الخطر رفعت الرايات الحمراء عندما قال بهمس حار وهو يقترب أكثر بفمه نحو فمها: «لا أريد أن أفعل بل أريد المزيد معك.. معك أنت».

غريزة الدفاع عن النفس هبّت للإنقاذ في آخر لحظة، فرفعت سجي كفها وصفعته على وجهه بكل قوتها ثم هدرت به بأنفاس لاهثة غاضبة منه ومن نفسها: «أفق علي ماذا تفعل؟! ابتعد عني حالاً كان خطئي أن جئت معك». وقد نجحت.. أفاق في تلك اللحظة الفاصلة، تراجع للخلف ثم فتح باب السيارة بعنف وغادر تاركاً سجي بمفردها تختض وهي تحاوط نفسها بذراعيها، تركته يهدأ ويتماسك وهي تسمعه يشتم ثم أخذ يلعن الشيطان ويستعيذ بالله منه، تجلّدت وهي تراقبه بعينين مفتوحتين وقد بدا هو ذاته الطوفان الذي يجرفهما معاً! همست بصمود: «دعه يتماسك يا رب وقوني أنا أيضاً كي نخرج من هذا على خير».

فجأة نظر إليها، نظراته المشعة جعلت أنفاسها ترتجف في صدرها ثم تقدم عائداً للسيارة ليجلس في مقعده ثم يسأل بنبرة لا تقبل الرفض بل لا تحتمله كإجابة: «أتزوجيني سجي؟».

الفصل السابع عشر

فجأة نظر إليها، نظراته المشعة جعلت أنفاسها ترتجف في صدرها، ثم تقدم عائداً للسيارة ليجلس في مقعده ثم يسأل بنبرة لا تقبل الرفض بل لا تحتمله كإجابة: «أتزوجيني سجي؟».

كان يحافظ على تلك المسافة القصيرة الفاصلة بينهما وكأنه يحافظ على خيط رفيع يخشى أن ينقطع، ينظر إليها ولا يستوعب هو شخصياً هذا اليقين من رغبته المحمومة فيها كزوجة، بل كأكثر من زوجة، عيناها الواسعتان تتسعان أكثر وأكثر في صدمة؛ لكن لمعة شديدة الوهج في عمق سوادهما تفضح براءة صاحبتهم وتأثرها به فتزيد جنونه وعمق تشبثه بها، يدها تحركت بعشوائية على الباب لتفتحه وهي تقول بارتجاف: «أنت لست بوعيك».

ترجلت من السيارة وهي تكاد تترنح أمام ناظريه ليترجل هو الآخر ويتحركان ليلتفا معاً دون شعورهما حول السيارة فيلتقيان. عند مقدمتها بمواجهة بعض، كانت ترتجف أمامه وهو يرزح تحت وطأة ضغط فظيع كي يمنع نفسه من التجاوز، يشعر بأنفاسه حارة تكاد تحرق شفثيه وهو يقول بصوت مبحوح وكلمات صادقة نبعت من ذاك اليقين الذي تملكه أمام مواجهتها اللحظة: «لماذا لست بوعيي؟! لا تقولي لي إنك بمثابة أخت لي لأنني أبداً لا أشعرك هكذا».

تغيرت نظرة عينيها وبدأت للحظة غاضبة مهاجمة وهي تقول له: «أجل أنا لست أختك بل أخت هيام! أليس هذا شعورك؟».

عقد حاجبيه وهو يتساءل بحيرة: «ماذا تعنين بهذا؟».

كانت ترتجف حرفياً وهو يراها غاضبة للمرة الأولى: «أنت قل لي ماذا يعني هذا! عائد من قبرها لتطلب الزواج من أختها، فهل تريد استعادة إحساسك بهيام من خلالي أنا؟!».

عندما فهم المقصد تشنج كله وأطرق للحظة يتذكر كل ما قاله لهيام صباح اليوم عند قبرها، لقد توسل إليها أن تغفر له، أن تعتق روحه من عذاب الضمير فلا تلاحقه، أخبرها أنه لم يعد يستطيع التحمل.

أغمض عينيه للحظات قبل أن يفتحهما وهو يقول بحسرة: «ليت الأمر كان كذلك ليتني أحببتها إلى هذا الحد».

للمرة بدت سجي غير مستوعبة للمعنى أو ربما مصدومة بالمعنى إلى حد عدم استيعابه، أزاح علي نظراته بعيداً يحدق في بساتين النخيل القريبة يتذكر ذاك الحوار بينه وبين عامر ليلاً على سطح بيتهم قبل بضعة أشهر، ابتلع علي ريقه بصعوبة ثم قال بخفوت يشابه خفوت حفيف أوراق أشجار الحمضيات محتمية بأشجار النخيل كأنها تخبئ أسرارها في ظلال السعف: «قبل أشهر قلت لأخي عامر إنني مستعد أن أدفع عمري كله مقابل أن تكون هيام حية حتى ولو باتت ملكاً لرجل آخر غيري فلن أبالي، فقال لي (إن

رددت عليك فلن يعجبك ردي) وعندها هربت وأنا آمره ألا يفعل
ألا يقولها».

شعر بتوتر مألوف خانق يهاجمه فأخذ يبحث عفوياً عن علبة سجائره،
وعندما لم يجدها عاد لسيارته فالتقط سيجارة من العلبة وأشعلها قبل أن
يعود لسجى المتسمة مكانها تحقق فيه، أخذ نفساً عميقاً من السيجارة
قبل أن ينفث الدخان بعيداً عن وجهها ثم نظر لعينيها فشعر مجدداً كأنها
تحتويه كله في عمق تلك العينين المنصبتين، خفق قلبه بقوة وارتبكت
حواسه في شوق لاهب للاقتراب فأبعد وجهه عنوة ليدخن بصمت وهو ينظر
للنخيل ثم قال بالخفوت نفسه: «هل تعلمين ما رد به عامر ساعتها يا
سجى؟ قال (المهم أنك تدركه في قرارة نفسك يا علي) وقد صدق أنا
أدركه منذ أكثر من ست سنوات يعذبني الإدراك».

سأله أخيراً بنبرة جعلت جلده يقشعر: «قل لي ما تدركه يا علي؟».

يده ارتجفت فأوقع السيجارة أرضاً فحرك قدمه بعصبية ليدعسها وهو
يشرح بهمس خشن: «أنا عائد من قبر من كانت يوماً زوجتي وحببتي من
ملك قلب من النظرة الأولى وأنا بعمر الثانية والعشرين، عشت معها
عامين لا أعرف علقتها ورغم هذا ظننت حبي لها راسخاً لن يضمحل، لكن
ما لا تعرفينه يا سجى أن قلبي نأى عنها قبل أن تموت بأشهر فأضيفي هذا
لقائمة ذنوبي».

أخذ يمرر يده بخصل شعره وحمى العذاب التي يقاومها منذ يومين
تداهمه فأضاف بانفعال عاطفي يكشف مدى إحساسه العميق بالذنب: «لم
يكن بيدي لم يكن بيدي أن أجعل هذا القلب يحبها حتى النهاية».

أخذ يضرب بقبضته على مكان قلبه وعينا سجي تلمعان بالدموع وهي
تراقب حركته تلك ويضيف المزيد بانفعال أشد: «لا بد أنها شعرت، لا بد أن
هذا زاد حالتها سوءاً، لقد حاولت جهدي أن لا أجعلها تشعر، كنت أمثل
عليها وأمثل على نفسي أيضاً حتى بيني وبين نفسي رفضت التفكير بالأمر
وكذبتُ وصدقْتُ الكذبة».

رأها كيف تعض شفيتها كأنها تقاوم البكاء اللامع بآثاره في عينيها ثم
قالت بحشجة: «إن كانت كذبة فقد صدقتها هيام أؤكد لك ربما كانت
خائفة أن تفقدك خائفة بهوس أن تسرقك أحداهن؛ لكنها في قرارة نفسها
كانت تصدق حبك لها حتى النهاية».

ينظر في عينيها ويصدقها لا يمكن لهاتين العينين أن تكذبا عليه، تنهيدة
خرجت من أعماقه كأن أحد ذنوبه للتو مُحيت، اقترب من سجي أكثر
فابتعدت عفواً خطوة للخلف وقد بدت في لحظة مرتبكة ومتوترة كعادتها
كلما اقترب من شخصها، داهمته حمى من نوع آخر وهو يمرر نظراته على
قميصها الحلو وأناقته الأثوية بالفطرة، كل شيء في سجي يحركه يفقده
تحكمه بنفسه، همس مُعترفاً يصارحها بما اكتشفه: «أنا لم أرك يوماً
امتداداً لهيام، بل لم أرك يوماً على الإطلاق طوال حياتها القصيرة معي،

كنت دائماً محجوبة خفية عن بصري. وبصيرتي لا أعلم السبب ومن المسؤول
عن هذا، هل هو أنت بتباعدك أم هيام بإقصائك! لكن الآن وبعد أن عرفتك
عن قرب فأقول لك إنها هي من كانت امتداداً لك لا العكس، أنت مثلها
الأعلى والقدوة في كل شيء».

كان أغرب حوار منطقي يشعره، حقيقي واقعي بمفهوم واضح لا
يقبل اللبس.

أطرقت سجي فتتعلق عينا علي بخصل شعرها الداكن المتموج بإغراء
على كتفها، فيشعر بالحر مجدداً عندما أوقف خيالاته التي تسيطر عليه
صوت سجي وهي تسأله: «لماذا تريد أن تتزوجني يا علي؟».

ارتفعت حرارته أكثر وود لو يسحبها اللحظة من كفها ويعقد قرانه عليها
دون تأخير لتكون حلاله، سيطر بصعوبة على تأثيره المشتعل منذ أيام ثم رد
بصوت أجش وحديث صادق صريح: «كسبب أساسي وأول لأنني أرتاح معك،
مضى زمن طويل لم أشعر راحة كهذه مع إنسان أنا لا أعلم حتى كيف
تفعلينها، ليست راحة بالضبط إنما إحساس أعمق يربطني بك كل يوم،
يجعلني أشتاق لوجودك معي طوال الوقت».

رفعت عينيها إليه وقالت بتردد: «نستطيع أن نكون أصدقاء».

فورة غضب اجتاحتها وهو يسأل بحاجبين معقودين: «هل لديك
أصدقاء رجال؟».

توردها أرضاه وهي ترد عليه كمن يدفع تهمة: «مؤكد لا! لكن أنت..».

قاطعها راضياً: «هذا جيد فأنا لا أعترف بصداقة بين رجل وامرأة».

ثم اقترب في غفلة منها وهو ينظر في عينيها مسلوب الإرادة قائلاً بهمس

حار: «وإن وجدتُ فمؤكد لن يكون فيها كيمياء قوية كالتي بيننا».

احمرت وهي تتلفت بوجهها يميناً وشمالاً: «أي كيمياء!».

يحاصرها وجسده يتحرك مع حركات وجهها إلى الجانبين وهو يهمس

بابتسامة دافئة: «أفضلين نكرانها أم تخجلين منها؟». هتفت به وهي تنظر

لعينيها بخدين محمرين: «علي».

تغيرت سرعة أنفاسه وهو ينظر لشفتيها فيقول همساً بالحمى نفسها:

«اسمعيني سجي أنا لست برجل يرتكب المعاصي أو يحلو له تجاوز الحدود

مع فتاة، خاصة مثلك أنت؛ لكن طرقنا التقت وحكمت ليس هناك شيء آخر

نفعله إلا أن نكون لبعض في الحلال ما أشعره نحوك حقيقي جداً وقوي

لللغاية».

خفق قلبه بعنف وهو يراها تستعد للرد عليه وخمن أن الرد لن يعجبه، في

لحظة أدرك مقاومتها العنيفة ورفضها الأكيد فسارع لقطع الطريق عليها

متسائلاً بعبوس وغيره تفتك به: «الخالة نبراس كانت تكذب صحيح؟».

أربكها وشوشها وهي تتساءل: «أي كذبة؟!». تذكر أنها لم تكن موجودة

عندما نوهت الخالة نبراس عن ذاك العريس، فوضع لها بنبرة خشنة: «قالت

إن هناك رجل عريس مناسب وأنت ستوافقين عليه».

ارتفع حاجبا سجي عالياً وهي تتمتم بذهول: «هي قالت هذا؟! متى؟!».

تنفس الصعداء وعاد له دفء القرب منها وحرارة التواصل معها وحمى الرغبة أن تكون له ومعه، تبسم في وجهها وهو يقول بصوت خافت: «لا يهم ما قالته لقد حصلت على الجواب للتو منك».

ارتبكت مجدداً وقد أدرك أنها لا تجاربه قدرة الكلام وهو لم يعد يصبر فقالها صريحة وبقرار محتم عليهما معاً: «سأطلبك من عمي رياض الليلة.. بل الآن».

كان يعلم أن كلامه جنونيا متهوراً لكنه سيفعلها، وحق عزة جلال وجه الله سيفعلها اليوم، صوتها كان ضعيفاً رغم جديته: «لا تفعل علي ستؤلمه وستؤلم خالتي نبراس أنا لا أستطيع الزواج منك، هذا لن يكون لأسباب عدة لن يكون».

أمسك ذراعها وهو يطالبها بإصرار: «انظري في عيني وقولي لي إنك لا تريدني هذا هو السبب الوحيد الذي يهمني وقسماً بالله لو قلتها سأبتعد ولن تري وجهي مجدداً».

تحاول تخليص ذراعها منه وهي تأبى النظر إليه بينما تحاول منح كلماتها القوة اللازمة وهي تقولها بارتباك يفوق قدرتها على إخفائه: «علي لا أريد».

تشهق وهو يسحب بقوة من ساعدها فيجبرها على رفع عينيها إليه وهو يقول بعاصفة مشاعر مذهلة: «ليس هكذا بل انظري في عيني وقوليها صريحة دون مراوغة، اذكرني اسمي فيها لأصدق إنها موجهة إليّ قوليها هكذا (لا أريدك علي)».

العاصفة كانت تهدر في صدره الآن وقد انكشفت مشاعرها رغماً عنها وهي تحذق فيه بضعف ولوعة أنثوية يفقدانه رشده، شفتاها تتحركان تريدان قول ما طلب كدليل صريح أنها لا تحمل له المشاعر لكنها لم تستطع، ثم بدت كزهرة رقيقة تتلون وريقاتها بكل درجات الحمرة بينما تلتجأ إليه مفصحة بسرها وعيناها كبتلات تتفتح لتكشف عمق ما تخبئه، صدره يعلو ويهبط وهو يتساءل بخفوت خشن يعبر عن هول اكتشافه: «منذ متى؟! أخبريني سجي منذ متى؟!».

عذابها أطل من عينيها قبل أن ترخي أجفانها وهي تهمس بالأنثوي الرقيق: «أعدني للجامعة من فضلك وإلا سأسير حتى الشارع العام وأوقف أي سيارة لتعيدني».

ما زالت أصابعه تمسك ذراعها يتلمس قماش قميصها الكتاني، بينما ترتعش ابتسامة تملكية على شفتيه وهو يهمس: «أنت متفائلة للغاية».

رفعت نظراتها إليه مجدداً وقد شعت بمواجهة دفاعية ليضيف هو: «لا تعرفيني كما يبدو المرأة التي تخصني لن أكون حياً عندما أدعها تسير

بمفردها كي توقف سيارة تقلها من على قارعة الطريق».

شرارة كهربائية عنيفة جعلتها تنفض ذراعها من إمساك أصابعه بينما يهمس معتذراً وهو يتذكر ما كاد أن يحصل في السيارة: «أنا آسف لتجاوزي الحدود معك في السيارة قبل قليل، كان خطأ لا يغتفر مني لكنني سأحرص أنه لن يتكرر».

تمتت وهي في حالة انفعال يشوشها بوضوح: «كل ما حصل ويحصل خطأ». فيعاندها بالإصرار: «إلا عندما يصبح صحيحاً صحيحاً حلالاً طيباً».

تركته ومضت تسير عائدة إلى مقعدها في السيارة دون أن ترد بكلمة، لحق بها ليجلس على مقعده ويقود سيارته بهدوء ليخرج بها إلى الطريق العام، لم يكلمها مجدداً وهو يعود بها للجامعة؛ لكنها شعرت بجديته وأن هذا اليوم لن ينقضي قبل أن يفعلها، تدير وجهها للناحية الأخرى تحديق في الشارع تتجنب النظر إليه بينما تهمس في سرها: «لن ينفع يا علي، كيف أقولها لك دون أن تضغط على قلبي المتلهف إليك رغماً عن إرادتي».

أحرق دمة عينيها وهي تفكر بخالتها نبراس أمها بالرضاعة ومن ربتها وتكفلت بها كيف ستواجهها؟ ماذا ستقول لها؟ لن تغفر لها.

«أرجوك يا علي أعد التفكير أنا لن أوافق أبداً الأمر مستحيل».

لا تعرف كيف خرجت الجملة من فمها وهي تلتفت لعللي ليلتفت نحوها

هو الآخر وهو يقول بنظرة إصرار مشع من عينيه الخضراوين: «أعدك عندما تصبحين زوجتي سأذكرك بهذه الجملة».

يرتعد قلبها في صدرها وهي تزبح نظراتها بعيداً عنه لتحقق في الشارع ولا تصدق حتى اللحظة إلى أين وصلت مع علي بعد كل هذه السنوات تجلس جواره في سيارته وهو يعدها بإصرار أنها ستكون زوجته!

رفعت عينيهما للسماء وهي تهمس: «ماذا أفعل يا رب؟ كيف سأوقفه؟ بل كيف سأوقف نفسي! أنا مشوشة للغاية».

يجلس في غرفته منذ مغادرة نوفل المخزية.. مخزية لهما معاً، ولم تكن إلا ابنته حرير مرفوعة الرأس صامدة في شموخ، شعر بالتعب يزحف لجسده ويمتص طاقته فلجأ لفراشه يتدثر بغطائه وهو نصف مستلقي وظهره مستكين بوضع مائل على الوسائد خلفه، يحدق في كرسيه المنجد القريب وأكوام الجرائد على الطاولة الصغيرة جوار الكرسي جرائد قديمة تكاد تكون بالية يعيد قراءتها دون ملل، حتى بعد حصوله على الأعداد الجديدة منها فإنه يعود لقراءة القديم، لماذا يتشبث بالقديم هكذا لا يعرف ربما لأنه يجد نفسه هناك في تلك الأعداد التي مرت السنون على الأحداث المكتوبة فيها، يتمتم وهو يشعر بضيق النفس مع ضيق الروح بهذه الدنيا: «ماذا جرى لك يا أسعد؟! هل فقدت التمييز لهذه الدرجة؟! أم رغبتك بتحقيق الهدف

أعمت بصيرتك».

جاءه فجأة صوت زوجته وهي تقول له: «يا أبا خلدون دعها تتزوج عامر».

التفت لزوجته عابساً ودمه يغلي فيويخها بطريقته الجافة: «ماذا تقولين يا امرأة؟! أجننت؟!». .

فرأى في عيني زوجته ما لم يره طوال تسع وعشرين عاماً، رأى جملة (طفع الكيل منك) مكتوبة هناك، تكاد تصرخ بها وهي تعض شفتيها بتوتر يمنعها الخوف إنه التمرد الذي يطال جميع من حوله في هذا الدار، ثم تصدمه زوجته أكثر وهي تتقدم قريباً من السرير لتقول له بتمرد أوضح وصوت أعلى: «لا! لم أجن بل ما أقوله هو عين الصواب!». اتسعت عينا أسعد وعيناه تجحطان من جرأة زوجته عليه فيهتف بها: «أتردين علي بوقاحة هكذا وترفعين صوتك».

لم يوقفها هتافه الغاضب بل ترد بحق مكبوت: «ألا تفهم يا أسعد! نوفل لن يصلح الأمور كما كنت تأمل وجعلتني أرضخ لآمالك معك، ابنتك الآن مطلقة مطلقة، وليس هذا فحسب بل هناك من يشيع عنها سمعة أنها عاقر فماذا تريد لها بالضبط؟! ما فرصها؟! في المقابل لو لففت البلد من أقصاه إلى أدناه لن تجد رجلاً بمواصفات عامر يريد لها زوجة بهذا الإصرار».

يصرخ أسعد منفعلاً: «أجل يريد لها بإصرار ذاك المغرور فقط ليثبت أن لا

فتاة ترفضه، إنه.. إنه زير نساء وقح».

نظرت إليه زوجته نظرة ذات معنى وهي تقول له بتردد: «لكنك سألت عنه والناس أجمعوا وأخبروك أنه استقام وتاب».

بدا أسعد مذهولاً وهو يتساءل: «كيف عرفت؟! من أخبرك أنني سألت».

ردت ونظراتها تنكسر للأرض: «أنت أحياناً تكلم نفسك بصوت مسموع يا أبا خلدون، حتى في نومك تتكلم ولا تشعر».

ارتجفت شفاه أسعد وتجمد محياه وهو يشعر أنه بات أقرب لفاقد الأهلية، دخلت عندها حرير الغرفة وبدا واضحاً أنها سمعت كل شيء فتقول برباطة الجأش نفسها التي كلمت بها نوفل: «إذن فقد سألت عنه وتأكدت من استقامته أبي؛ لكنك مع هذا ترفض التصديق رغم أنه استقام وتاب لنفسه فلم يكن له أمل بالزواج مني كي يدعي ما ليس فيه».

ينظر أسعد لابنته بانكسار وهو يتذكر الموقف المخزي مع نوفل بينما غاب طيف زوجته التي لملت آثار ثورتها الصغيرة ثم رحلت تاركة الغرفة لزوجها وابنتها، كان هذا أقصى ما استطاعت فعله وهي لم تعد تستطيع الصمت وابنتها تفقد فرصة كهذه تؤمن الأم أنها لن تتكرر.

تقدمت حرير من سرير أبيها لتقف في الموضع نفسه الذي كانت تقف فيه أمها وتواجه ضعفه دون أن تهاجمه وهي تقول له بهدوء الحقيقة المجردة: «قبل ست سنوات وجدت نوفل بسهولة لتقنع نفسك أنه (طوق النجاة) لي

من شاب عابث اليوم لم تستطع أن تجد نوفلاً جديداً يرضى بي وقد بت كما
وصفتني أمي مطلقة وبسمة عاقر، فلم يكن أمامك إلا نوفل ذاته لتعيد
المأساة وللمرة الثانية لا تهتم بشيء إلا إثبات أنك لم تخطئ، تريد أن تعيد
الأمور إلى نصابها الأول، وتدعي أمام نفسك أن الأمور (جيدة) ولم يحصل
شيء، فقدت منطقك أبي وتشوش فكرك فلم تراع حتى التقاليد والأعراف
ووضعتني ووضعت نفسك في هذا الموقف الذي يهين كرامتنا معاً».

يتألم الأب والخزي يخرسه بينما تجلس حرير جواره على حافة السرير
تحاول مقاومة أثر الحمى والصداع الذي عاودها، بينما تقول لأبيها بوجهها
الشاحب: «نوفل رفض عرضك أبي حتى قبل أن أرفضه أنا».

وجد أسعد القوة كي يحاول الدفاع عن نفسه بأسلوب هجومي باهت لا
مفعول له: «وأنت أخرجتني وقد قلتها أمام نوفل إنك ستتزوجين عامرومؤكد
سيصل الخبر لكل أقاربي في البلدة».

بادلته النظر بصمت للحظات فتفتت الهجوم وحل الانكسار مجدداً على
محياء المجهد فقالت حرير بصبر وهي تتحامل على آلام الماضي: «سيصل
خبر أنني سأتزوج رجلاً شاباً من عائلة معروفة بالأخلاق والسمعة الطيبة،
مؤكد سيكون أفضل بكثير من نظراتهم إلى عندما زوجتني نوفل وكأنك
رميتني إليهم بثمان زهيد قبل سنوات، وقد قالوها صراحة وسمعتها بأذني».

اتسعت عينا أسعد في ذهول وهو يقول بنبرة دفاعية: «ماذا؟! أنا لم أرمك

لهم ربما أخطأت التصرف اليوم وقد حصل سوء فهم بعد مكالمتي لنوفل بالأمس وظننته يريد إعادتك عندما قال إنه يشعر بالذنب والندم؛ لكن قبل ست سنوات أنيس وزوجته هما من أراداكِ زوجة لولدهما ونوفل كان مرحباً وراغباً».

كانت تعرف أنه يراوغ ليدافع عن نفسه فأثرت أن تكشف كل الأمور فلم يعد هناك خيار الصمت فقالت وهي تكشف انكسارها: «صحيح هم أرادوا؛ لكنك تعجلت الموافقة واشترطت عليهم سرعة الزواج دون سبب وجيه مُعلن كأنك تداري بي عيباً مخفياً قبل أن ينكشف».

ترتعش شفته السفلى وبدا في أضعف حالاته، ظهر الندم وشعور الذنب جلياً على محياه لكنه يحاول لآخر رمق الدفاع وإن كان هذه البمرة يصف حقيقة شعوره ومخاوفه قبل ست سنوات فيقول بحشجة: «خفت عليك، رأيت في عينيك تأثراً بذاك المنحل».

لم تستطع حرير الصبر وهي تهب واقفة على قدميها تدافع عن عامر وعن نفسها بالقول: «عامر ليس منحلاً أبى وحتى لو كان كذلك وخفت علي من الافتتان به كنت تستطيع مناقشتي، إفهامي، الشرح لي، لا أن ترميني لزواج كانت نفسي غير مستعدة له لا أن تكسرني وتحطم كرامتي وعزة نفسي».

دمعت عيناها وهي تتذكر أيامها السوداء بانتظار يوم الزفاف وكيف كانت حبيسة غرفتها كمنبوذة لا تخرج إلا للذهاب للجامعة كي تؤدي الامتحانات.

حتى أهل نوفل كانوا يتعجبون من عدم مشاركتها بالإعداد للعرس وشراء حاجيات العروس؛ لكن أمها بررت انشغالها بالامتحانات وأنها سنة التخرج.

همست حرير بألم كأنها عادت ابنة الثانية والعشرين تتخط بالآلم والانكسار: «كنت تستطيع الصبر علي، منحي فرصة لأجد تقبلاً لنوفل على الأقل هذه أبسط حقوقي التي منحها الشرع والقانون ليحق القبول».

رفعت قبضتها بتوتر وهي تعاتبه بألم مستفيض تنظر في عيني أبيها وتذكره: «أنا كنت تحت طاعتك وأأتمر برضاك علي حتى لو تعلقت بنعامر ووقعت في هواه لم أكن أبداً سأزوجه ضد رغبتك».

استسلم أسعد وسلم أسلحته، ألم ابنته الذي صنعه بيديه أقوى من أي سلاح، كان يريد منع الألم عنها، تصور أن ألم كسره لها سيضمحل ويزول حالما تتآلف مع زوجها الطيب الذي يناسبها لكن من منا يضمن المستقبل؟! إنها محقة ليته كلمها عن تجربته، ليته أخبرها أكثر عن ألم العمر، أغمض عينيهِ وصارحها وهو يغرق بالتشوش بين الماضي والحاضر: «لم أكن أريدك أن تتألّمي كثيراً كما أتألم، قلت في نفسي شهر أو شهران. وستعتادين زوجك وتحبينه وتنسين كسري لك».

لم يتنبه كلاهما أنه قال (أتألم) بصيغة الحاضر، بينما ترد حرير تصف زواجها الفاشل بنوفل ومعاناتها مع الفتور الروحي والحرمان من الألفة والمحبة التي تجمع القلوب: «والآن اكتشفت يا أبي أنني لم أستطع فعل

هذا، لستِ سنوات لم أستطع لم أحب نوفل ولم أكرهه، حاجز بنيته أنت بيديك أبي بيني وبينه إرادتي التي كنت أستعين بها دوماً أنت من كسرهما فلم أجد ما أستعين به».

فتح أسعد عينيه فيرى في عيني ابنته اللوم والقهر وهي تصارحه بالمزيد بما كان وما زال يخز في نفسها: «وبدلاً من أن تسندني تركتني وتباعدت عني منعت أُمي حتى من التدخل».

حاول أن يبرر موقفه: «لكنك كنتِ قد أصبحتِ في عهدة رجل في عرفنا عندما تصبح المرأة في ذمة زوجها فيجب أن تصبر معه دون تدخل أهلها».

اhtاجت ثورتها وهي ترد على أبيها بالقول: «هذا عرف مهترئ تملؤه العيوب كالثقوب التي لا يمكن إصلاحها، كثوب بالٍ ممزق لا يستر روح ابنة معرأة بالاحتياج للدعم من أبيها، لتدخله عندما تحتاج إليه أن يتدخل».

يحاول بجزع الدفاع أكثر وهو يشعر بضعف حجته أكثر وأكثر: «لكنك تدخلت لو أهانك أو أذاك لكنه عاملك بالحسنى».

ضجت عيناها باللوم وهي ترفع سبابتها لتقولها له: «بل آذاني بأمور عدة أخجل أن أحكيها لك وكان يفترض أن أجد أُمي جوارى لأحكيها لها فترشدني للتصرف الصحيح؛ لكنك منعتها عني».

غارت عينا أسعد وهو يعترف بصمت أنه فعل هذا ومنع زوجته بصرامة أن تسأل ابنتهما عن أي شيء، بينما تضيف حرير وقد انفجرت جروحها قيحاً:

«أجل آذاني أبي فالأذى لا يقتصر على الإهانة المباشرة أو الضرب، نوفل آذاني يوم لم يهتم بي وبمشاعري كامرأة، آذاني يوم جازى صبري بأن يتزوج علي من أخرى كي يرضي نفسه وأنت ماذا فعلت لترد الأذى عني؟! لا شيء بل تأتي به اليوم وتعرضني عليه رخيصة كي أعود إليه مجدداً وأتشارك به مع ضرة، ولا أعلم كيف طاعك قلبك لتخطط وتفعل هذا، أصبحت عباً عليك لهذه الدرجة أم تراني بعيون الغرباء مجرد امرأة مطلقة يجب أن ترضى بأي فتات أم أنك لم تكن تراني من الأساس وكل ما تراه هو أنت! كل ما يهملك منع عامر عني حتى لو دفعت أنا ما تبقى من حياتي ثمناً كي ترتاح أنت».

استنزفه الذنب وضعف حجته ونفاد حلوله، لم يعد يستطيع إلا الاعتراف فتعترف نظرة عينيه المنكسرة، بينما ينطق لسانه بسؤالها عما يرفع عن كاهله هذا العبء: «ماذا أفعل لأمحو هذه النظرة اللائمة في عينيك يا ابنتي؟».

أرخت سبابتها اللائمة لتأخذ نفساً قوياً ثم تطلقه على مهل، لقد استنزفتها هذه المواجهة ولم يكن لديها سند إلا اسم (عامر) الذي ارتبط قدرها به بطريقة عجيبة، قالت بثبات: «امنحني الفرصة لاختار أبي».

ما زال في داخله يرفضه فيسأل وهو كاره للسؤال: «تريدين الزواج من عامر؟».

يرتعش نبضها وتُسرق من نبضاته فتُهدى طوعاً إلى عامر، تخجل لا شعورياً من تلك النبضات بينما شعور خوف خبيث يزاحم لهفة النبض المسروق؛ لكنها ستواجه كل شيء مع عامر إنها تثق به كما تثق في نفسها، هزت رأسها مؤكدة بتلك الثقة: «وسأثبت لك أنك أخطأت في حقه كما أخطأت في حقي».

أوجعها ان تشعر بأييها مجبراً للرضوخ للمرة الأولى، شعرت بضعفه وانتهزاه فلم ترضها له اقتربت منه ووضعت كفها فوق كفه لتقول له منصفة حاله وحالها وحال عامر معهما: «لا أطلب منك إلا ما طلبه عامر قبل سنوات أن تمنحه فرصة كي يثبت لك أنه يستحقني وسيحافظ علي ويكرمني وأنا سأمنحك ما لم تمنحني إياه أن تتقبله كزوج لابنتك ولن أتم هذا الزواج حتى تقتنع وترضى».

في محل القماش / الفرع الثاني

أعلى السلم المتحرك يقف عامر وهو يواجه العامل الذي يقف على سلم متحرك آخر بموازاته كي يثبتا معاً أحد ستائر العرض عندما شعر بطنين هاتفه في جيبه، مضت بضعة دقائق حتى أنهى التثبيت لينزل عن السلم ويخرج هاتفه من جيبه الخلفي فيبتسم تلقائياً ويخفق قلبه وهو يقرأ رسالتها (سأكلّمك مساء إن سمح وقتك).

يتحرك مبتعداً عن العمال وعيناه تبحثان عن أخيه عمر فيراه يخرج عابساً للشارع دون أن يفهم السبب، ليعود عامر إلى هاتفه فيفتحه ويراسل حرير رداً على جملتها (لماذا ليس الآن؟! ماذا يفترض أن أفعل حتى يحين المساء بالله عليك؟!) فيأتيه الرد (أن تنتظر حلوله.. فلديك عمل الآن).

يدخل المخزن مختلياً بنفسه فيرفع هاتفه ليلثمه بقبلة وهو يقول ساخراً من نفسه: «هذه نهاية صبرك يا صابر أن تقبل شاشة هاتف».

تتسع ابتسامته الشقية وهو يكتب لها (ألن تخبريني؟) فترد عليه (عم أخبرك؟!).

فيكتب وهو يتذكرها يوم الجمعة الفائت

(عن النظرة في عينيك ساعة الاستجابة، هل كانت لي أم لرجل سأقتله كان يمر صدفة في الشارع؟) يخفق قلبه بعنف فيرفع يده مربتاً هناك وهو يهمس: «كفاك لا ينقصني اللحظة إلا إياك».

وكانها تتحالف ضده وهي تكتب له بتوبيخ واضح (غامر اذهب لعملك).

يتنهد وهو يطيل هذا التواصل اليتيم معها (سؤال أخير) فترد (نعم) فيبتسم بعث وهو يكتب (ألم تحددني إن كنت تريدني أم لا؟).

تكتب متسائلة ببراءتها التي يعرفها (أريد ماذا؟) فيكتب بمزيد من العبث (كوب الشاي بأجود الأنواع) كان يضحك عندما أتاه الرد (سأضعك في قائمة المحظورين).

ينفجر ضاحكاً ثم تشع عيناه عشقاً وشوقاً ولوعة قبل أن يكتب لها (بل ضعيني في قائمة المفقودين وعندما تجديني هنا أو هناك اعلميني لو سمحتِ ابحتي بالدرج العلوي من قلبك فربما حشرت نفسي هناك ونسيت).

على الجانب الآخر تضحك حرير بينما عيناها تترقرقان بالدموع ويدها ترتعش وهي ترفعها لمكان قلبها تلامس خفقاته وكأنها تبحث عن مكان عامر فيه تتورد وتضحك وتنزل دمعات التأثير العاطفي رغماً عنها، لقد بات عامر هو دليلها في رحلة إلى قلبها تستكشفه للمرة الأولى تكاد تتبع خطواته وتتلمس الخوف في داخلها دون أن تهاب ذاك الشعور القابض، تأتيها رسالة جديدة من عامر (أتخيل صوت ضحكاتك الساخرة مني الآن ولن أنسى كل ما تجعليني أعانيه سيكون حسابي طويلاً معك في وقت ما حريرتي عجل الله يوم الحساب).

تحمر أكثر من كلمة (حريرتي) التي يوجهها لها للمرة الأولى وسرت قشعريرة غريبة في أوصالها جعلها ترتعش استجابة لتدليله، توترت عفويّاً وأختها سدير تدخل عليها الغرفة فتسارع لكتابة (سنرى ما يفعله الله في المساء) تبسمت لوجه أختها التي يبدو أنها قد عادت للتو من الجامعة؛ لكن حرير استغربت قليلاً تعابير سدير القلقة فتسألها: «ما بك حبيبتي؟».

وقبل أن ترد أختها كانت رسالة تصل إليها من ذاك المجنون وقد كتب لها (حشرنى الله في درج صغير في زاوية مهملة في غرفتك أنا راضٍ).

تنفجر ضاحكة دون شعورها بينما تتطلع إليها أختها سدير بدهشة
فتسألها: «أنت تضحكين؟! ظننت أنني سأراك مستاءة وغازية بل حتى
باكية».

تضع حريز الهاتف جانباً وهي تتساءل بعجب: «ولماذا أكون هكذا؟!». ردت سدير بتوتر: «أمي أخبرتني عما جرى صباح اليوم هل حقاً أبي أرادك أن أن تعودى لنوفل؟! هل أحضره إلى هنا وأخرجك؟!».

ضحكت حريز ضحكة صغيرة ساخرة وهي تتراجع للخلف كي تجلس على حافة سريرها وتقول: «فاتك أن ترى وجه نوفل وهو يبدو كمن وقع في فخ». بدا التألم جلياً على وجه سدير عندما دخل خلدون في اللحظة نفسها وقد ظهر غاضباً ثائراً كحالته المتكررة وهو يهدر: «كيف يرخصك أبي هكذا؟!».

فترد سدير وهي تنفض تعابير القلق لتقول بعاطفة المؤازرة: «أنت لست رخيصة أبداً أختي حتى لو يكن عامر يريدك هكذا فألف رجل يتمنى فتاة مثلك».

تبسمت حريز عند كلمة (فتاة) إنها لم تعد (فتاة) لا جسداً ولا روحاً، إنها امرأة ولا يوجد ألف من الرجال يتمنونها، تغاضت عن كلمة (فتاة) بينما تصحح مفهوماً مهماً لأختها الصغرى فتقول: «وحتى لم يكن عامر يريدني فأنا أعرف قيمة نفسي دون حاجة لتقييم أحد».

تنظر لوجهي أخويها فيتدفق الحنان منها نحوهما وكم تشعر بالسعادة أنها ترى تغييراً إيجابياً ملموساً فيهما، ربما حكايتها هذه ستكون ملهمة لهما كي يتعلما منها كما تعلمت هي من مأساة وفاة أختها، تبتسم ل كليهما ثم تقول: «لا تبتئسا هكذا فما حصل اليوم جعل أبي في النهاية يوافق على منح عامر فرصة».

تشرق سدير بابتسامة حلوة وهي تتساءل بأمل: «إذن حقاً ما قالته أُمي؟! بدت وكأنها لم تكن متأكدة».

كانت حرير سترد عندما سبقها خلدون وهو يقول بعبوس: «لا أصدق أن أبي رضي أخيراً بزواجك من عامر، أظنه سيختلق المشاكل والصعاب لعرقلة إتمامه».

رغم أن حرير تشارك خلدون مخاوفه وتشارك سدير فرحتها البريئة فإنها كانت فخورة بهما وهما يتناقشان معها بحرية هكذا ويشاركانها الأفكار، تبسمت لهما وأخفت مخاوفها كما أخفت فرحتها لتكتفي بالواقع قائلة: «سنعقد خطبة أولاً ونرى ما يكتبه الله لنا بعدها».

قالتها وفي بالها كلام كثير يجب أن تقوله الليلة لعامر فهل سيستجيب؟ هل سيتفهم؟ تظنه سيفعل.

دخل عمر لمحل الملابس المشهور في شارع المنصور فيجد (خطيبته

العتيدة) تقف إلى الجانب مستندة بظهرها للجدار عابسة الوجه يلوح الإصرار والعناد على محياها، تطرق بنظراتها للأرض وفي يدها جزيرة طويلة تقضم فيها كأنها تنتقم منها، تقدم نحوها وهو ينظر بتقييم عابس إلى تنورتها السوداء الضيقة نوعاً ما وقميصها الأزرق الزاهي بقماشه الحريري الرقيق ملابسها أظهرت امتلاء مغرياً فيها مع تركيز على مفاتن الأنثى فيها حسن إنه يبالغ، ناداها ببعض الحدة التي أفلتت منه: «روناهي».

عندها فقط رفعت نظراتها للأعلى وهي تدفع نظارتها الطبية للخلف فتعبس أكثر وهي ترى عمر يتقدم إليها حتى وصل قبالتها ليسألها بخفوت والحنق يشع منه: «أخبريني ما سبب هذا النزاع مع صاحب المحل؟».

تنظر إليه وبدت متمردة للغاية فأوشك عمر من غيظه أن يجرها من شعرها الأشقر هذا وقد تركته حراً طليقاً اليوم يداعب خديها من الجانبين، همس من بين أسنانه: «تكلمي روناهي قبل أن أفقد صبري».

ترد على همسه الحانق بهمس مماثل وهي تقترب من وجهه بعفوية كأنها تناطحه: «لم أطلب منك المجيء كنت سأصرف بمفردي أنت الذي تتصل دائماً بأوقات عصيبة أمر بها».

ثم رفعت الجزيرة لفمها مجدداً فتقضم منها وكأنها تقتلع رأس أحدهم من فوق عنقه، للحظة أوشك أن ينفجر ضاحكاً من هذه القطة الشقراء الممتلئة إغراء؛ لكنه تمالك نفسه وهو يلتفت للخلف لحظة فيرى صاحب المحل

مشغول مع زبونتين قبل أن يعود لروناهي متسائلاً بصبر: «فقط أخبريني المشكلة صاحب المحل أعرفه وسيرضييني».

هتفت باعتراض منفعِل: «ولماذا لا يرضيني أنا؟! أم يجب دوماً أن يظهر رجل في الصورة لنحظى بالمراعاة».

لم يرد أن يقول لها إن النساء يحظين في العادة بمراعاة مضاعفة فاكتفى بالقول ليختصر الحوار، وقد بدأ من في المحل يتنبهون لوضعهما محشورين هكذا في الجدار: «روناهي لقد تركت عامر بمفرده مع العمال والافتتاح بعد يومين».

عاودت القضم من جزرتها التي لا تنتهي وهي تستجيب ببساطة أذهلته: «صاحبك أو صاحب المحل يرفض إعادة الثوب الذي اشتريته منه قبل شهر وقد أخبرته أن المقاس لم يعد يناسبني ولم ألبسه قط يتحجج بسياسة المحل في التراجع وأنا لا سياسة أتحملها في الوقت الراهن ألا يكفي سياسة التجويع التي تمارسها أُمِّي ضدي؟!».

كانت سترفع الجزيرة مجدداً تنتقم منها عندما مد عمر يده ليحاوط كفها يمنعها من أكل الجزر مرغمة كما يبدو فيقول لها بنبرة خلوة عذبة: «دعك من الجزر سأدعوك في أي مطعم تحبينه».

تحمر وهي تنظر إليه ببلاهة بينما تحاول نزع يدها منه وهي تقول بارتباك: «أُمِّي ستغضب وأنا لا أريدها أن...».

قاطعها عمر بالقول الرقيق: «أعتقد أنا الشخص الوحيد المعني بهذا الأمر تحديداً».

عبست في وجهه بخديها الأحمرين وهي تتساءل: «أي أمر؟!».

فيرد بصوت أجش وقلبه يخفق سعادة للمسمة يدها واحمرار وجنتيها: «أنت تعجبيني هكذا رونا هي لا يهمني أن تلبسي الفستان الأصفر يوم الجمعة أنا أريد أن أراك أنت يا ضي القمر، أريد أن أنظر في عينيك وأراك سعيدة وأنت تلبسين خاتم الخطبة».

ابتلعت ريقها وهي تحيد بنظراتها بعيداً وتنجح أخيراً بتحرير يدها وهي تقول بتلعثم: «فقط ساعدني لأعيد الفستان أُمي قالت لي لا تعود للبيت وهو معك».

ثم تمت وكأنها تكلم نفسها في توبيخ: «أنا السبب عاندت لأشتره بـ شمن باهظ ولم يلائمني غبية عنيدة أنت يا رونا هي وتستحقين عشر جزرات».

يضحك عمر بخفوت وهو ينحني ليلتقط الكيس من الأرض وقد خمن أنه كيس الفستان الذي تريد ترجيعه ثم يعدها بالقول: «الفستان سيعود لصاحبه لا تقلقي والغداء الذي وعدتك به سأحرص ألا تجدي فيه جزرة واحدة».

شعرت بالخرج وهي تقول له بخفوت: «لن أستطيع الغداء معك ثم إن الوقت مبكر وأنت قلت يجب أن تعود لأخيك وأنا.. أنا يجب أن أعود للبنك فقد

استأذنت لنصف ساعة لا أكثر».

نظر إليها مطولاً ثم قال بصوته المؤثر الكاظمي: «إعادة الفستان مقابل أن تأخذي إجازة عارضة لبقية اليوم نتغدى سوية ما تشتهيّن ثم أعيدك بنفسى للبيت».

عقدت حاجبيها بتفكير للحظات طالت بينما تلمح عينيها نظرات صاحب المحل إليهما كأنه بالانتظار لتقرر قائلة: «بل أنا من ستعيد نفسى للبيت».

وبكل كبرياء أدخلت جزرتها في كيس داخل حقيبتها ثم دفعت نظارتها للخلف وهي تشمخ بذقنها قبل أن تتقدم عمر وهي تضيف: «سأصل بالبنك لأطلب الإجازة».

تطلع سليم بنظرة طويلة أخيرة للبيتين الحديشين الصغيرين المتماثلين والملتصقين ببعض، ثم فتح باب سيارته ليجلس في مقعد السائق بينما صديقه شاكر يجلس في المقعد المجاور، لوحا بكفيهما في سلام أخير لصاحب هذا العقار المزدوج قبل أن يتحرك سليم بسيارته مغادراً هذا الحي السكني، سأله شاكر: «هل أعجباك؟».

رد سليم وهو يركز بنظرته على الطريق: «كثيراً سيناسب عمر وأما الآخر فسيكون لعامر أو علي إن شاء الله».

ثم تبسم مضيفاً: «ولنر أيهما سيسبق الآخر». علق شاكر: «لكنهما

غاليين يا أبا علي وأنت قد أنفقت الكثير من المال في محل المنصور
لتحويله إلى محل ستائر».

رد سليم وهو يلتفت للحظات إلى صديقه يصارح صديقه بأريحية: «لقد
بعت الأرض الزراعية في منطقة اليوسفية لولا هذا لما فكرت بالشراء
الآن».

هتف شاكر عابساً: «بعت المزرعة؟! لكنك تحبها وتجنني منها».

فحرك سليم كتفيه وهو يقول ببساطة: «لم يكن أمامي حل آخر».

صمت شاكر لبضع لحظات قبل أن يقول بجدية: «أقترح أن نؤجل مشروع
مصنع الألبسة الجاهزة».

لكن سليم رد عليه بإصرار: «لا لن نؤجل يا شاكر وستكون أنت مدير
المصنع والمشرف عليه كما اتفقنا».

حاول شاكر أن يثنيه بالقول القلق: «أنت تجاوزت بالكثير».

فقال سليم: «ثق بي شاكر، كله محسوب والتوفيق من الله وحتى لو
أخطأت التقدير لا سمح الله فأولادي رجال أشداء وبنني معاً من جديد».

وضع شاكر كفه فوق ذراع صديقه ليقول بجدية: «أثق أو لا أثق أنا لدي
مساحة دوئمين معزولين من أرض زراعية في البلدة سأبيعها لابن عمي
ومالها سيكون لمشروع المصنع».

يعقد سليم حاجبيه وهو يلتفت للحظة إلى صديقه ليرفض العرض بالقول:
«شاكر لا تفعل هذا قلت لك أنا أستطيع التصرف».

لكن شاكر أصر هو الآخر قائلاً بعناد مرح: «آسف يا ابن الجنوب البيع
أعتبره قد تم والمال في جيبك اليمين».

أراد سليم الرفض مجدداً فمنعه شاكر بالقول الصارم: «كلمة رفض جديدة
منك وسأجعلك توقف. سيارتك وأنزل منها وأنت من طريق وأنا من طريق».

يتبسم سليم وهو يهز رأسه ثم يرفع كفه ليضعها فوق رأسه في حركة
امتنان محلية ثم قال بابتسامته المشرقة: «ونعم الأخوة والنخوة من أهل
الغريبة».

فيرد شاكر مديح الامتنان بمديح التواضع والإكرام: «تعلمناها في بيوت
كرمكم يا جنوبي».

أخذ كلاهما يثرثر بينما سليم يقول: «نورجان ستفرح بالبيتين التوأمين
هذا الحي جميل وجديد والأهم قريب من حيننا».

رد شاكر بمحبة: «جعل الله أيامكم فرح».

ثم أضاف شاكر بعد لحظات: «ما أخبار عامر؟ هل ما زال يريد الزواج من
الفتاة نفسها؟».

رد سليم: «أنا بانتظار اللحظة التي يقولها أراها في عينيه وإتركه يخبئها

يظهر شاكر العجب من حال الدنيا وهو يقول: «سبحان الله من كان يصدق بعد ست سنوات الفتاة تتطلق من زوجها؟! وأن يكون عامر ما زال يريدّها بالقوة نفسها».

علق سليم: «إنه متيم بها يا شاكر وقد كانت حرير درسه الصعب في الحياة ليتعقل ويراقب تصرفاته أتمنى فقط أن لا تظهر عراقيل جديدة».

فتساءل شاكر: «وماذا عن علي؟ هل صارحك بشيء؟».

رد سليم وهو يهز رأسه نفيًا: «لم يقل كلمة منذ تلك الجلسة المريعة في دار أهل هيام قبل يومين وأنا أشعر به بوضع غير طبيعي، حتى لا أعرف كيف أصفه لأنني لا أفهم مشاعره وأظنه هو نفسه لا يفهمها».

ثم شردت نظراته قليلاً وهو يضيف بتفكير: «لكنني واثق من شيء واحد أن سجي بالفعل تؤثر فيه بقوة ولا أعلم كيف سنتصرف في موضوع شائك صعب بهذا الشكل».

حاول شاكر طمأننته بالقول: «عند النصيب تخرس الأكسن يا أبا علي اتركها على الله».

تمتم سليم: «ونعم بالله».

ابتسم شاكر وهو يقول: «صبا تقدم لها عريس ونحمد الله أنها

التفت سليم لصديقه وهو يقف عند إشارة المرور الحمراء مهلاً: «ما شاء الله تمم الله لها بألف خير».

ثم يغمزه ويضيف مناصراً: «جمال وشهادة وعائلة مثقفة مرموقة وأصل طيب يحق لابنتنا صبا التدلل كما تشاء».

فيعبس شاكر قائلاً بتشكي: «ليس لهذا الحد يا سليم لقد أتعبتني هذه الفتاة حتى رضيت أخيراً بأحدهم».

للحظة تردد سليم في قولها لكن طول العشرة وعمق الصداقة الحقيقية جعلته ينطقها بعينه قبل لسانه فيقول: «كنت أتمنى».

وتكمل عيناه بقية الجملة فيفهمها شاكر ويشاركه الأمنية قائلاً: «وأنا أيضاً كنت أتمنى لم أكن لأجد لبناتي أفضل من أولادك؛ لكنها القسمة والنصيب أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد».

تتغير الإشارة للأخضر فينطلق سليم بالسيارة وهو يقول من قلبه: «فليتم الله لهم جميعاً بألف خير».

أنهى علي مكالمته مع أحد العمال الذي يعتمد عليه في المحل يوصيه الاهتمام بالمحل؛ لأنه قد يتأخر لساعات أخرى، تنهد وهو ينظر للساعة البتي

قاربت الواحدة ظهراً بينما هو هنا في باحة دارهم يجلس في سيارته لا يبارحها منذ وصوله، لقد أتى ليرى نونة أحتاج أن يراها وكأنه عائد من مشوار طويل منك متعب ويحتاج إليها كي يخبرها عما مر به، يرخي رأسه للخلف وهو يغمض عينيه وكأنه يوشك على النوم يومه كان طويلاً وغريباً رغم أنه ما زال منتصف الظهيرة؛ لكنه يشعر بهذه الساعات وكأنها عدة أيام بل ربما كشهر طويل، كان ينتظر انقضاءه بفارغ الصبر، تجلّى له شاهد قبر هيام الذي جالسه في الصباح الباكر يكلمها يطلب سماحها يطلب غفرانها ويطلب أن تتركه يعيش، ألبوم الصور الذي عرضته عليه الخالة نبراس يوم الجمعة فتح صفحات الماضي كلها ليومين كاملين بعدها، وتلك الصفحات تتقلب أمامه لكنه للمرة الأولى منذ وفاة هيام لا يهرب منها بل واجهها بمفرده مفتوح العينين يصلب طوله حتى وهو يرزح تحت هذا الضغط المهول، الألم كان مريعاً لكن تحمله بتجلد حتى وجد نفسه صباح اليوم عند نهاية الألبوم وصورة لم تضاف إليه صورة قبرها، وعند صورة النهاية قالها لهيام وداعاً لكن كلمة الوداع لم تكتمل إلا وهو مع سجي.

سجي تبسم ثغره ونبض قلبه بعنف مع اسمها

تفور دماؤه بالتملك ويحترق بدنه بالشوق وتصرخ مشاعره بالكلمة فيُفك أسر روحه المعذبة كي ينعم أخيراً بالجنة، شعر بفتح بابه فجأة فيفتح عينيه ليرى وجه أمه القلق وهي تقول له بدهشة وكلمات قلقة متدفقة: «ماذا تفعل هنا يا علي؟! لماذا تجلس هكذا في سيارتك؟! ألا يفترض أن تكون في

محل الكرامة؟ هل أنت بخير بُني؟».

اتسعت ابتسامته وهو يمد كفه للمقعد جواره يربت عليه وهو يدعوها بنظرة جذلي: «تعالى نونة واجلسي جواري جئت لأجلك خصيصاً».

نظرت إليه للحظات وكأنها تقيّم وضعه فيرتاح محياها وهي تدقق النظر فيه قائلة: «وجهك مشرق رغم آثار التعب وعيناك تلمعان رغم النعاس الذي يداعب جفنيك».

تمد يدها لتربت على لحيته وتضيف بلمحة ذكية: «لقد وعدتني أن أكون أول من تعرف».

يهز رأسه بـ (نعم) وقد اتسعت ابتسامته وشع وجهه ومشاعره تنطق أخيراً بصريح الكلام: «أظن أنني غارق بالغرام نونة».

ثم يغمض عينيه مجدداً فتملأ مخيلته صورة سجي أفق عينيها وضاف شفيتها ليضيف همساً: «غارق بين الأفق والضاف».

ينبض قلبه بقوة هادرة فلم يشعر بتحريك أمه وهي تسحب يدها من خده لتغلق بابه وتلتف حول السيارة إلى الجهة الأخرى وتجلس في المقعد المجاور، كان كله ينبض عندما سمع صوت أمه تنطق باسمها في يقين: «سجي».

فتح عينيه ولف رأسه المسترخي جانباً ناحيتها ليقولها بتأكيد صارخ: «أجل هي ولا يمكن أن يكون غيرها».

تبتسم نورجان وعيناها تلتصعان بدموع الفرح والحماسة وهي تأمره بالقول:
«احكي لي احكي لي كل ما جرى».

فتمتم متبسماً: «سأحكي نونة لقد جئتك خصيصاً كي أحكي».

مرت الدقائق وهو يحكي لها زيارته لقبر هيام ثم ذهابه إلى سجي وإجباره
لها أن تأتي معه، حكي لها الكثير وأهمل بخجل من نفسه تلك التفاصيل
كيف فقد السيطرة أو أوشك أن يفقد وختم كلامه بالقول: «طوال رحلة
العودة لم تنطق بحرف وعندما وصلنا لمكان قريب من الجامعة طلبت مني
التوقف لتكمل الطريق مشياً على الأقدام فطاوعتها حتى لا أخرجها أو أسيء
لسمعتها إذا رأنا أحد وحالما ركنت السيارة جانباً ترجلت مكتفية بوداع
خافت كأنها تريد الإفلات من بين يدي دون أن أشعر».

سألته نونة بتركيز: «لماذا لا تقلها لها؟! إنك مغرم بها هل أنت مشوش
المشاعر أم...».

قاطعها بتأكيد: «لست مشوشاً اليوم تحديداً انقشع كل التشوش ربما
كنت في الأشهر الماضية؛ لكن ليس اليوم كل ما في الأمر أن شعوري
مختلف عما شعرته سابقاً مع هيام لا أعلم كيف؛ لكنه مختلف حتى نبض
قلبي بالغرام مختلف».

فكرت نورجان أن ولدها ربما لم يعد مشوش المشاعر؛ لكنه بالتأكيد يمر
بتجربة جديدة ويستغرب ما يحدث لها وكما وصفه يستغرب الاختلاف بين

التجربتين، شعرت بحاجتها لسليم في هذه اللحظات فربما هو يفهم إحساس علي كرجل بشكل أفضل منها لكنها ستتبع حدسها كأم وتساعد ابنها بما تستطيع، قالت له رداً على كلامه: «لأنك أنضج وإحساسك كرجل بات مختلفاً ما تحتاجه من شريكة مشاعرك قد تغير يا علي».

تعمقت نظرات علي وكأنه يبحث عن مدى صدى كلامها في نفسه، أكملت نـورجان وهي تتذكر المرة الأولى التي صارحها علي بحبه لزميلته بالجامعة لتقول وكأنها تستكشف مع ولدها: «أنت أحببت هيام بالفعل ولو أطل الله بعمرها واستمرت معاً لكنت احتجت منها هذا التغيير بالحب ليناسب عمريكما ونضجوكما».

قالت هذا وتفكيرها ينقلها لعلاقتها بسليم كيف ابتدأت بحب جارف من النظرة الأولى؛ لكن بعد الزواج أمور تتغير ربما جذوة الحب باقية لكن التغيير بالتفاصيل حاصل تلك التغييرات المهمة بين الزوجين ليتناسبا أكثر ويرتبطان بروابط شتى لا تقتصر على جذوة الحب الأولى فقط، وجدت نفسها تقول بعفوية ما تشعر به مع سليم: «الحب يستمر بمرور سنوات الزواج بين الرجل والمرأة عندما تتغير منحنيات عواطفهما بتناسب لبعض فالتغيير من هنا يقابله تغيير يناسبه من هناك حتى يتعشق الطرفان ببعض أكثر وأكثر ثم يصلان في النهاية إلى مرحلة التمازج العاطفي فلا يعودان يأبهان بتلك الحدود الفاصلة بينهما، لأنهما باتا بوطن واحد لا فواصل نافرة تجزئه».

صمت بليغ طال وعيني علي الخضراوين تلمعان صفاء وإدراكاً فعبر عن أفكاره بأسلوبه العاطفي الذي يطغى على شخصيته: «أنا أحببت هيام من النظرة الأولى وظل شعور النظرة الأولى يلazمني طوال الوقت معها حتى إنني كنت أذكر نفسي به وأذكرها معي كأنه قشة نجاتنا».

ثم يبتلع ريقه وتتلون نبرات صوته بعاطفة مذهلة وهو يضيف: «لكن مع سجي لم أشعر أنني أحبها إلا وأنا غارق في النظر إليها وجودها في حياتي ذاته هو القشة التي تنقذنا معاً».

ثم اشتد لمعان عينيه وهو يهمس بصوت أجش: «أنا أحبها نونة.. أحبها وأريدها».

ثم تهدجت أنفاسه وهو يكمل: «إنها تحبني أيضاً لا أعلم منذ متى لكنها تحبني».

تكتفي نورجان بالابتسام وقوة مشاعره تصلها فتكاد تزغرد فرحاً لأجله، رأتها كالطفل وهو يكتشف أمراً مذهلاً للغاية ويصفه لها بارتباك: «وددت لو كتبت كل ما رأيت في عينيها اليوم على ورقة لأعيد قراءته ألف مرة، نظراتها كقماش الدانتيل صادمة بصريح الفتنة وهي تتحصن بالخجل واضحة كالشمس ثم تتوارى عني تحاول جهداً التستر؛ لكنها تعجز عن إخفاء كل شيء محيرة وهي مفهومة، ومفهومة في حيرتها».

شجعته نورجان بحماسة مجنونة: «تزوجها بني سجي هي المرأة التي

أتمناها لك زوجة دوماً».

رد بارتعاش وهو يتطلع لأمه: «أقسمت أمامها أن أكلم عمي رياض اليوم».

فتزيد من جنون حماسه وهي ترد عليه: «إذن كلمه اتصل به الآن وأخبره أنك تريد مكالمته على انفراد».

للحظة بعض التعقل غير المرغوب يتسلل إليه فيتساءل بشك: «أتظنين خالتي نبراس...».

قاطعته نورجان بحزم: «لا تستبق الأمور كلم رياض يا علي، اطرق الحديد وهو لا يزال ساخناً».

بابتسامة واسعة يميل لأمه فيقبل خدها ويهمس لها بحلاوة شقية: «كنت أعرف أنك أفضل من أكلمه اللحظة، رفيقتي التي تشاركني لحظاتي المجنونة».

دخل رياض المطبخ وهو يحرك خرزات مسبحته ويتطلع لزوجته الصامته بمحياها الجامد منذ أيام وهي تعد الطعام، دون أن تنظر ناحيته قالت وهي تغطي القدر على الموقد: «الغداء سيكون جاهزاً خلال ساعة». ثم تحركت تريد تجاوزه كي تغادر المطبخ عندما أوقفها زوجها بالقول الهادئ: «ألن تتكلمي معي يا نبراس؟ منذ أيام وأنت تقاطعينني بل تصومين عن الكلام

وإن أفطرتِ كان النذر اليسير».

نظرت إليه بجمودها وهي تسأله: «ماذا تريد يا رياض؟ قل ما عندك».

رد بصبر: «أفهميني فقط لماذا تصرفت بهذا الشكل مع علي؟!».

اشتعلت نار عذاب في عينيها ثم فجأة رن هاتفه الذي يضعه في جيب جلبابه الأبيض

أخرج الهاتف ليوقف صوت رنينه فقط؛ لكن عيناه اتسعتا وهو يرى اسم المتصل فيقول بدهشة من الصدفة: «إنه علي يتصل سبحانه الله».

دون تردد فتح الخط دون أن يفتحه الشحوب الشديد الذي غزا محيا زوجته فيرد على علي وعيناه لا تفارقان وجه نبراس، أما نبراس فتشعر برعب يجمد أوصالها وحدثها يعذبها بالقادم تسمع زوجها يرد: «مرحباً بني كيف حالك أعذر عن...».

يتوقف لحظة ثم يقول ببعض الدهشة: «نعم مؤكداً تفضل الآن البيت بيتك أنت محظوظ لأن الغداء شبه جاهز لتشاركنا به».

لكن تغيرت تعابيره من الترحيب إلى التوجس وهو يرد: «حسن كما تشاء بني سأكون بانتظارك عند باب البيت».

أنهى رياض المكالمة معه ونبراس تسأل بقلب واجف: «ما به علي؟!».

رد رياض وهو يتحرك مغادراً المطبخ ناحية غرفة النوم في الطابق

الأرضي كي يغير جلباب البيت: «لا أدري يريد إن يكلمني بموضوع مهم لكنه أصر أن أرافقه بالسيارة، قال سيكون عندي خلال ربع ساعة».

في غرفة النوم لا يعلم رياض لماذا اختار دون تفكير أن يرتدي من ملابسه القديمة سروال كحلي وقميص رمادي بسيط؛ لكنه احتفظ بطاقيته البيضاء فوق رأسه وعندما التفت ليغلق الخزانة رأى زوجته وسط الغرفة وقد زاد شحوبها بشكل مخيف فيسألها وهو يتقدم ناحيتها بقلق: «ما بك نبراس وجهك شحب للغاية».

أخذت دموعها تتجمع حتى هطلت مدراراً أمام نظرات زوجها المصدومة وهي تقول بوجيعة: «لا أحتمل رياض قلبي يوجعني يتمزق وجعاً».

أمسكها من كتفيها يسألها بحيرة: «لماذا كل هذا؟! لا أفهمك كنت سعيدة بزيارات علي لنا».

أخذت تهز رأسها والدموع تتقاطر هنا وهناك وصوتها يتمزق بالقول الخافت: «علي يريد الزواج».

يرخي رياض كفيه عنها ليقول بحزم وهو يلجم وجيعة قلبه كأب مكلوم: «فليتزوج يا نبراس نفرح له».

هتفت نبراس وعيناها تتسعان بقسوة الرفض: «لا لا أفرح له حتى الممات، أتريدني أن أفرح وحبيب ابنتي هيام يتزوج بأخرى؟!».

أخذ رياض نفساً عميقاً وزفره بإحباط وهو يتمتم: «لا حول ولا قوة

إلا بالله».

بينما نبراس تلطم على صدرها وتهدر: «هيام فلذة كبدي تحت التراب وامرأة أخرى تسرق زوجها.. تستأثر بقلبه وحبه تنجب أطفاله وتعيش معه لآخر عمره».

هتف رياض وقد شعر أن حان الوقت لإيقاف ما يجري مع زوجته: «يكفي نبراس يكفي أنت تفقدين عقلك».

تألم قلبه وهو يراها تنكش على نفسها تلملم بنظرات عينيها الزائغتين وجيعة قلبها وروحها فيحنو قلبه عليها ويعاود إمساكها من كتفيها ليضمها لصدره وهو يقول بخفوت: «اهدئي نبراس لا أعرف من أين أتتك فكرة زواجه بأخرى إنها...».

لكنها قاطعته بعنف وهي تنفض جسدها عنه قائلة بهستيرية باكية: «إنها الحقيقة وسيخبرك هو بنفسه سيطلبها منك».

للحظة تاه رياض ولم يعرف مقصد زوجته ليحاول أن يكلمها بالعقل والأمر الواقع قائلاً: «نبراس نحن لسنا لنا سلطة على علي ليطلب منا الإذن كي يتزوج إنه حر شئنا أم أبينا إن لم يتزوج اليوم سيتزوج غداً».

أخذت نبراس تهز رأسها وعيناها تغوران لتهمس بيقين: «أنت لا تفهم لم تر ما رأيت علي يريد سجي يا رياض».

اتسعت عينا رياض ولوهلة أحس بغبائه كي يستوعب ما قالت نبراس

للتوا! أوشك أن يتكلم ليرد على يقينها عندما أخذت الدلائل تتجمع في رأسه فأخبرته، بينما نبراس تولول: «يا وجع قلبي عليك يا ابنتي يا حسرة قلبي على شبابك الذي ضاع وبيتك الذي تهدم وعذابك في قبرك وأنت ترين أختك تحظى بزواجك».

بعد نصف ساعة كان رياض مع علي على جانب كورنيش الأعظمية الشهير المحاذي لنهر دجلة، رائحة السمك المسقوف تصله من المطاعم المتفرقة المتناثرة على طول الشارع فتذكره بأيام قديمة عندما كان يصطحب ابنتيه إلى هنا كي تختاران السمكة التي سيسقفها الطاهي، هيام وسجى ابتاه ولم يشعر كم هما ابتاه إلا بعد وفاة هيام الوجيعه على الأولى أيقظت أبوته أكثر نحو الثانية، يا له من قدر إن صح تخمين نبراس فما هما البنتان تختاران الرجل نفسه وكأن مصيرهما دوماً سيرتبط ببعض استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وهو يطلب العون من الله وهداية البصيرة ليقرر الصحيح ويفعله، ولم تمض لحظات حتى أفصح علي بتوتر واضح ويقين أوضح عن رغبته التي تنبأت بها نبراس فيقولها صريحة دون مقدمات: «عمي رياض أنا أريد الزواج بسجى».

المسبحة في يده يحرك خرزاتها ويطلب القوة من الله، سيكون من حجر إن لم يشعر بألم نبراس بل حتى أكثر؛ لكنه أب أب لابنتين وعليها التحمل لأجلهما معاً، تساءل أخيراً وعيناه على الخرزات السوداء: «قبل أن أرد

عليك بشيء أريد رداً على سؤال لماذا سجي تحديداً يا علي؟».

فاجأته صراحة علي وهو يقول: «إن قلت لك أحبها هل سيكفي لتوافق؟».

رفع رياض وجهه لمن كان زوج ابنته الأولى ويسعى ليكون زوج الثانية فيتطلع لجدية تعابيره بتدقيق ثم يرد بكلمة واحدة: «لا».

يعترف رياض أنه صدم باحتياج نظرات علي ونظرة شقاء عاطفي أطلت ليقول راغباً بدعم حخته: «وإن قلت لك إنها تحبني».

إن كان صدمه احتياج علي فقد صعقه أن يعرف بمشاعر سجي! ما زال عقله يحاول استيعاب الكثير مما فاتته ملاحظته في الفترة الماضية وقد كان كثير عليه استيعاب هذه المعلومة الآن، تمتم رياض معبراً عن صدمته: «سجي تحبك؟!».

أكدها علي بيقين لا يحتمل الشك: «إن لم تصدقني تستطيع سؤالها».

رد رياض وهو يلهم الخرزات مجموعة في باطن كفه: «سأسألها بالطبع لكنني أريد السماع منك أولاً لماذا تريد ابنتي زوجة؟».

يعقد علي حاجبيه وهو يتساءل بدوره: «أترفض الفكرة لأجل هيام؟!».

رد رياض بهدوء متجاوزاً الصدمات المتتالية لهذا اليوم قائلاً: «أنا لم أرفض حتى اللحظة وسبب سؤالي ليس لأجل هيام بل لأجل سجي أريد أن

أعرف لماذا تختار أخت هيام تحديداً زوجة لك».

فرد علي مصححاً بعفوية تعبر عن إحساسه الحقيقي ورده على السؤال في الوقت ذاته: «أنا اخترت سجي وليس أخت هيام».

سأل رياض وهو يمعن النظر في علي أكثر ليتأكد: «هل أنت واثق أنك مدرك للفرق بين المعنيين بني؟».

فقال علي يؤكد بما لا يقبل الشك: «كما أدرك وجودك معي اللحظة في سيارتي حقيقة ثابتة كحقيقة رغبتني بسجي هي بشخصها دون غيرها من النساء».

ثم أطرق علي قليلاً وهو يضيف بحشركة: «لست سنوات كنت ميتاً ميتاً حاسب نفسه بقسوة على ذنوب عدة تحملها بطيب خاطر ثم نفى روحه إلى الجحيم ولم يستطع أحد إخراجه مما أنا فيه إلا سجي».

ثم رفع وجهه فجأة ليكمل بحمائية: «فأرجوك لا تقلل من قيمتها ولا أن تشك أنني أسعى إليها لأنها أخت هيام»..

توشحت نظراته بالآلم للحظة وهو يصارح حماه بالقول: «أريد أن أعيش حياة طبيعية أنا في الحادية والثلاثين عماء ولا أريد إلا امرأة أفهمها وتفهمني أحبها وتحبني أن ننجب الأولاد والبنات ولم أشعر برغبة كهذه مع امرأة أخرى منذ وفاة هيام حتى اقتربت من سجي وعرفت أنها كما لم أعرفها من قبل».

ما زال رياض صامتاً يسمعه وعلي يغبر أكثر بصدق: «أنا أعلم صعوبة الأمر عليكما أنت والخالة نبراس أعرف صعوبة حتى على سجي لأنها حساسة للغاية وتشعر بالذنب؛ لكن أقسم لك دون قصد مني تعلقت بها هي تحديداً إنها فتاة مميزة خاصة للغاية».

تمتم رياض وهو يحني وجهه: «أجل مميزة كتومة صبورة، طفلي الصغيرة المسكينة».

قبل أن يعلق علي بشيء أنهى رياض الحوار بالقول: «أمهلني حتى الأسبوع المقبل وسأرد عليك».

ثم أضاف: «أعدني للبيت بني».

دخل رياض إلى بيته صامتاً في تفكير عميق وتعابير جدية لا تفصح الكثير، استقبلته زوجته بوجهها الشاحب وهستيرية توشك أن تندلع في أقصاها: «ماذا قال لك؟ ها؟! ماذا قال؟ يريد سجي أليس كذلك؟».

نظر إليها زوجها مطولاً ثم قال باقتضاب شديد: «أرادني في أمر خاص».

ثم تحرك خطوتين لتتشبث به نبراس وهي تشده من ذراعه وتطالبه بالقول: «لا تكذب علي رياض لا تكذب علي».

بحزم خشن غريب عن طباعه الرقيقة أبعد يدها المتشبثة ليقول بعبوس

صارم: «قلت لك أرادني في أمر خاص أنا ذاهب لآخذ قيلولة فوق في غرفة الصلاة أشعر بالتعب الشديد». نظرت إليه نبراس وبدت تائهة مشوشة وهي تنادي اسمه كأنها تترجاه: «رياض».

لكنه أبعد ناظريه عنها ومضى بخطواته ناحية السلم وهو يقول: «لا توقظيني للغداء سأكل عندما تعود سجي من عملها أنا مجهد».

في المطعم

يتلذذ بسعادة لا وصف لها وهو يراقب سعادتها بأكل طبقها المفضل الفلافل مع طبق الفول المدمس نسي المحل ونسي شقيقه عامر الذي يحتاجه والافتتاح والعمل وكل شيء ولا يجد في نفسه القوة ليبارح حتى مقعده، يراقب يدها البيضاء وهي ترفع حبة فلافل لتغمسها بتلذذ في صحن الفول المدمس ثم ترفعها إلى فمها وبين أسنانها تقضمها بتلذذ طفولي تأكل وتتحدث بانفتاح وانطلاق عجيب تشع سعادة طبيعية معدية، شفتاها تلوثتا ببعض الفول المدمس فيمنع نفسه التهور كي يمسحها بأصابعه فقط لأجل أن يلامس تلكما الشفتين، تعبس في وجهه فجأة وهي تسأله: «أنا لم أتوقف عن الكلام وأنت صامت! هل تستمع؟».

يرد عليها بنظرات مداعبة ثم يقول: «أنا أستمع».

تحمر أكثر حتى وعبوسها يزداد، ترخي أجفانها من خلف نظارتها الطبية

وهي تمد يدها لتأخذ منديلاً ورقياً لتمسح كفيها بصمت، لم يقل كلمة وهو يستمتع حرفياً بالنظر لوجهها، فيها شيء مستفز جذاب للغاية هذا الوجه بتعابير الصريحة الجريئة الفكاهية يخلب لبه ويشير شوقه للمزيد، قال فجأة بنبرة خافتة: «اخلعي نظارتك».

رفعت عينيها إليه وهي تدفع نظارتها للخلف وتتساءل بنبرة دفاعية: «لماذا؟!».

رد ببساطة: «أريد أن أرى عينيك».

ارتبكت للغاية وشعر بالضيق لأجلها وهي تحاول التبرير: «هذه (أنا) فيجب أن تتعود على...».

قاطعها قائلاً بلهفة عاطفية: «لا أطلب أكثر من النظر لعينيك دون حاجز».

حدقت فيه للحظات ثم عضت طارف شفرتها الملطخة ببعض الفول المدمس لتقول بجدية وهي تنفض عنها إحساس الإحراج: «عمر أنا لا أرى تقريباً دون نظارة».

رد بصدق: «المهم أنني أراك واللحظة كل ما أطلبه رؤية عينيك دون حاجز».

عاودها الاحمرار وهي تتلاعب بالمنديل الورقي في يدها لتقول بخجل: «عيناى عاديتان».

هذه المرة تطلع إليها طويلاً قبل أن يقول بنبرة خافتة مؤثرة: «بل حلوتان صريحتان شافتان مرأتان لروحك ولا أطلب منك إلا رؤيتهما ونحن جالسان هكذا».

ابتلعت ريقها وهي تستسلم بارتباك قائلة بخفوت: «حسن لدقيقة واحدة لا غير لأنني سأصاب بصداع دونها».

رفعت يدها وخلعت نظارتها ثم وضعتها على الطاولة وهي تنظر نحوه وقد اختفت ملامح وجهه وتبخرت تعابيره، لقد بذلت جهداً نفسياً كبيراً لتتقبل هذا، وفي الوقت ذاته كان قلبها يقرع بقوة وألم صغير ينبض فيه تتمنى لو ترى بوضوح اللحظة كيف ينظر إليها عمر، فجأة شعرت بيد تمسك يدها فوق الطاولة فحاولت سحبها عفوياً لكن يد (عمر) تشبثت فقالت وهي تعقد حاجبيها: «اترك يدي كوني لا أراك تقريباً لا يعني أنني لا أشعر بيدك تمسك بكفي، فاحترم نفسك ودون...».

يقاطعها بالقول الرقيق: «أي فستان ستلبسين يوم الجمعة؟».

ما زالت تحاول سحب يدها وهي ترد: «الأصفر بعد كل هذه التضحيات الجسام وخسارتي لكيلوين وربع لن يكون ألا الأصفر».

ثم تجمدت يدها في يده وهو يسألها بجرأة: «هل يحق لي ساعتها بقبلة؟».

عندها سحبت يدها بخشونة وهي تمد يدها الأخرى لتستعيد نظارتها

فتنظر إلى وجهه الذي استعاد وضوحه من خلف عدسة النظارات فتراه كيف ينظر إليها بجدية وعيناه على شفتيها، فتتهف به من بين أسنانها وقرع قلبها يصل عنان السماء: «قسماً بالله حاول أن تفعلها وسترى الوجه الحقيقي لمن تقبع تحت الفستان الأصفر».

ضحك برقة وبدأ متسلماً منتعشاً بشكل مغيظ نادى على النادل ليطلب الحساب بينما ينظر لساعته ويقول: «عليا العودة لعامر لقد تأخرت بما فيه الكفاية».

بعدها أخرج من جيبه حفنة نقود قدمها لها وهو يقول: «هذا ثمن الثوب الذي أعدته لك إلى صاحب المحل».

ثم أضاف بجدية قائلاً: «مرة أخرى اتصلي بي في مواقف مشابهة لا يعجبني أن تمر زوجتي بمواقف مشابهة وأعرفها بالصدفة».

تراخت ملامحه الوسيمة بل تبسم محياه وهو يراها تعبس، بينما تخطف المال من يده ثم تقف على قدميها وهي تدفع كرسيها للخلف قائلة بتمرد: «حتى اللحظة لست زوجتك».

ثم تتمم مع نفسها: «ما حكاية الرجال مع الاستبداد والاضطهاد إنه يسري في عروقهم بدل الدماء».

وقف عمر هو الآخر وضحكته تملأ وجهه ثم يعطي النادل ثمن الوجبة قبل أن يلحق بالمجنونة اللذيذة التي فتحت شهيته حتى آخرها، وبينما يغادر

الأثنان المطعم راقبتهما عينان لامرأة تجلس في الزاوية مع ابنتها تخفت عن أنظار عمر تحديداً؛ لكنها تخفت وهي تراقبه خلسة مع الفتاة الشقراء (السمينة)، فيشتعل في قلبها القهر والغيرة والحسرة والغضب لنفسها.

قراءة العصر

تتمدد سجي أخيراً على سريرها بعد غداء منهك للأعصاب، غلب عليه صمت مطبق من جانب عمها رياض وتوتر شديد من جانب خالتها نبراس، جعلها توقع صحنين أرضاً وتكسرهما ورفضت أي مساعدة عرضتها سجي بشراسة وعدائية، أغمضت سجي عينيها تترك لقلبها حرية الخفقان هذه وحدتها خلوتها الخاصة مع قلبها يبثها ما يبثها منذ سنوات، دمعت عيناها وأحرقت أجفانها المطبقة بعد هذه السنوات يحدث ما لم تتخيل أنه قد يحدث على الإطلاق علي يريدها والأسوأ أنه علم بمشاعرها نحوه.

قضت الساعات بعد عودتها من ذاك المشوار الرهيب معه وهي تستعيد كل ما قالاه لبعض فيرتجف جسدها في رعب، كيف ستعيد تنظيم نفسها لترفض؟ كيف ستواجه عمها وخالتها عندما يعرفان؟ ووسط كل هذا ماذا عنها هي؟! إنها تتألم ولا أحد يشعر بها حتى علي لا يعرف كم تعذبت منذ أن أحب هيام واختارها وسجي تتعذب.

نقر على الباب أخرجها من أفكارها وقطع عليها خلوة القلب لتستقيم

بجذعها وتأخذ وضع الجلوس بتوتر على حافة سريرها وهي تقول بصوت متوتر: «تفضل».

دخل عمها رياض يتبسم لكن ابتسامته المفتعلة مكشوفة، غار قلبها بعيداً عنها كأن الرعب جعله يبحث عن أعرق ملجأ كي لا يكشف أسرارها، حاولت سجي أن تجد صوتها وهي تسأل عمها بنبرة مهتمة: «هل تحتاج لشيء عماه؟».

أغلق العم رياض باب الغرفة خلفه وتقدم ناحية سجي ليجلس جوارها وهو يقول بصوت منخفض: «أخيراً نبراس أخذت قيلولتها، هناك أمر أحتاج أن أتناقش به معك قبل أن نخبر به خالتك».

شعرت سجي بالدوار وكأن الدماء تنسحب منها حتى دب البرود الثلجي في أطرافها، بينما تهمس بخفوت: «تفضل عماه».

نظر إليها رياض طويلاً قبل أن يقولها دفعة واحدة دون تمهيد: «علي طلبك للزواج».

تباطأت خفقات قلبها وشعرت كأنها على وشك الإغماء، أنفاسها تذوي وجسدها يرتجف رغم كل محاولاتها للصمود لكنها لم تحتمل الموقف ولم تشعر بسوء حالتها إلا عندما حاوطها العم رياض حانياً متأثراً للعمق بما يراه منها: «اهدئي اهدئي يا ابنتي لماذا ترتجفين هكذا؟! لا إله إلا الله».

كانت تشهق وهي لا تبكي! فقط شهقات تخرج من حنجرتها وهي تهمس

بتقطع وحشرجة: «أنا لم أقسم بالله لم...».

لم يعنها لسانها على هول الموقف الذي تواجهه فيضمها العم رياض لصدره أكثر يحاوطها بذراعه وتدمع عيناه وهو يدلك كتفها وذراعها ليبث جسدها البارد المرتجف بعض الحرارة، بينما يحاول طمأننتها بالكلمات الحانية: «اهدئي طفلتي لا ترتعبي هكذا أنت لم تفعلي سوءاً».

أسندت وجهها لصدره تغمره بحثاً عن حنان أب حقيقي التجأت إليه كما لم تفعل من قبل حتى عندما كانت طفلة، إنها تحب عمها رياض كما تحب خالتها نبراس؛ لكنهما دوماً كانا (العم والخالة) وليس (الأب والأم) ولم يعد مهماً الآن هل السبب مراعاتهما لغيرة ابنتها الوحيدة هيام أم أنهما ببساطة لم يشعرا نحوها بعاطفة الأبوة والأمومة.

لثم العم رياض أعلى رأسها ثم سألها بخفوت: «قولي يا ابنتي ما شعورك؟ وانسي أي شيء آخر انسي الماضي وفكري بعلي كرجل في الحاضر وأنا واثق برجاحة عقلك وحسن حكمك حتى لو كان للمشاعر شأنها الخاص».

لم تجد ما تقول ولم تجد ما تفعل إلا البكاء وهي على صدر (أبيها) قبل سنوات بكت كثيراً لوجع قلبها عندما لم تحظَ بقلب من تحب، قبل سنوات راقبت أختها هيام تحظى بعلي فتقبلت قدرها ولم تحقد عليها حتى على العكس حاولت جاهدة أن تصلح بينهما، حتى وقلبها يتمزق بالغيرة رغماً

عنها حتى وقلبها ينتفض كلما رأت علي لكنها كانت قوية لتواجه وتخفي
عن الجميع ببراعة، لقد تعايشت مع كل هذا وحدها وتغلبت على مشاعرها
بفضل مجهودها ولجوتها إلى الله وحده، تطلب عونه وستر ما يجيش في
القلب رغماً عنها، تبكي على صدر العم رياض الآن ولا تعلم أن في بكائها
كان الرد الناجع على سؤاله.

أخذ يمسد على شعرها وهو يقول بهدوء: «إن كان البكاء يريحك فابكي
طفلتي كما تشائين أنا معك في كل شيء».

رفعت وجهها الباكي إليه تطبق شفيتها بقوة وعيناها تنطقان فيتبسم العم
رياض قائلاً: «سأفترض أن ما أراه في عينيك قبولاً».

لكن سجي تهز رأسها سلباً وهي تنطق أخيراً: «صعب عماه
بل مستحيل».

كانت تعاستها الواضحة شرارة ألهمت (أبوته) أكثر ليقول بثبات: «لا
صعب في الحلال بنيتي إنه قدر الله وحكمته والقلب لا سلطان عليه».

حاولت الكلام مجدداً وهي تهمس: «عمي». لكنه قاطعها بالقول الثابت:
«بل أباك وما لم أستطع فعله مع هيام سأفعله معك سأنقذك من تعاستك
كما كان يجب أن أنقذها».

الألم شع من عينيه وهو يذكر فقيدته ليضيف بعدها متماسكاً: «وأنا بعون
الله سأكون لك الأب الذي تستندين عليه فلا تخافي ولا تحزني إن كنت

تريدين علياً كما يريدك هو فأنا سأقف معكما».

كانت مضطربة لأبعد حد وهي تنظر لعمها بدهشة واستغراب طغيا على مشاعرها الأخرى تكاد لا تصدق ما قاله عمها رياض بل لا تفهم كيف يأخذ الأمور بهذه البساطة، يقرأ ما يدور في رأسها وجلّي في غيبتها فتملأ عيناه نظرات قلق حقيقي مع حنان فياض مضيئاً: «أنا وخالتك نبراس لن نعيش لك للأبد أقصى ما يمكن أن نتركه لك كحماية هو هذا البيت لكنك وحيدة في هذه الدنيا يا ابنتي وتحتاجين للعزوة والسند».

هتفت متوجعة: «أطال الله بعمركما عماه أتوسل إليك قلبي لا يتحمل المزيد من الألم».

رد عليها بجدية: «دعي عنك هذا الكلام واسمعي مني يا سنجى علي رجل أصيل وسيحفظك ويصونك سيكون سندك في الحياة كما ستكونين سنده وسكنه ومُستقره».

شابت نظراته الألم وهو يضيف: «لقد تحمل ما تحمل وعانى ما عانى ولم نعينه أنا ونبراس بضعفنا وسلبيتنا بل حملناه فوق طاقته؛ لكن الله شاء أن يجد فيك بداية جديدة وإن أكرمته سيكرمك وسأكون مطمئناً عليك معه ويسند عائلته».

عيناهما تتسعان والرعب يعود إليهما وهو يعرف مصدر هذا الرعب ليربت على خدها ويقول بتوصية مشددة: «اكتمي الأمر الآن ودعيني أفتح خالتك

مساء

وقف سليم وسط غرفة المعيشة عاقد الحاجبين وهو يواجه ولده البكر بالقول المعاتب: «كان يجب أن تخبرني علي قبل أن تفتح الموضوع مع رياض».

تجلس نورجان على الأريكة ويدها هاتفها النقال تقلب في صفحات الفيسبوك والواقع كانت تبحث عن صفحة سجي، بينما تسمع ولدها علي يزد على أبيه: «لقد عودتنا أن نأخذ قراراتنا بأنفسنا أبي منذ كنا مراهقين فكيف الآن وقد غدونا رجالاً».

ترفع نورجان عينيها للحظة فتلتقي بعيني زوجها فتتهرب منه مبتسمة بخفية وهي تركز في شاشة الهاتف حتى اتسعت ابتسامتها عندما وجدت سجي أخيراً، كانت تضغط على طلب الإضافة عندما سمعت سليم يقول بهدوء: «الزواج ليس قراراً فردياً بني خاصة قرار بهذه الحساسية ولا خاب من استشار». فرد علي بصدق: «لم أخطط للأمر لكنه حدث».

ليتساءل سليم وكأنه ينفذ زوجته: «ونونة من شجعتك أليس كذلك؟».

رفعت نورجان رأسها لتقول بتحذير أنثوي وعيناها تلمعان بالرضا لما يحصل: «لا تُقحم نونة بالأمر ولدك الجنوبي جاءني يغلي كمرجل ولم يكن

سيهدأ حتى لو رميته وسط نهر دجلة».

تتلاقى عينيها بعيني زوجها لتضيف بنظرة وعد عنيد: «مع التنويه أن (نونة) على أهبة الاستعداد والتحضر لتفجير كل ما يقف في وجه ولدها ويمنعه عن المرأة التي أغرم بها ويريدها زوجة».

يضحك علي رغماً عنه بينما يتبسم سليم وهو يقترب من زوجته ليسأل بابتسامة خاصة: «أين عامر يا أم الأولاد المغرمين؟».

ردت بغیظ: «ابنك عاد باكراً للبيت تاركاً عمر بمفرده في المحل ينهي ما تبقى من عمل ومنذ عودته أغلق على نفسه في غرفته مع تحذير شديد اللهجة أن لا نزعج خلوته».

تمتم علي: «أنا ذاهب للجدة».

بعبوس غيرة علقت نورجان: «لم تطق حتى تذهب إليها بنفسك وترمي في حجرها أسرارك كأخويك».

يضحك علي تاركاً أمه الغيورة تزمجر بينما يمد سليم كفه ليلامس خدها؛ لكن نورجان تنفض وجهها بعيداً عنه بتمرد أنثوي فيقرص خدها بين إصبعيه ببعض الخشونة ويجبرها النظر إليه عالياً وعندما تلاقى نظراتهما قال لها بصوت خافت: «مزاجك الناري الليلة يحتاج بعض الإصلاح لكنني سأندبر الأمر لاحقاً».

كان متوتراً رغم سكرة السعادة التي تسري في أوصاله وصوتها الخجول يصله به (كثير) من الجدية المتعمدة عبر الهاتف، يغمض عينيه وهو يتمدد على ظهره فوق السرير ويستمع إليها قائلة: «يجب أن تعرف أن ما سأقوله مهم جداً عندي فأرجو أن تتفهم أهميته أنا أحتاج منك كثيراً من التفهم في أشياء عدة وإن شعرت بيوم أنك غير مرتاح أو أضغط عليك فلن أجبرك على...».

فتح عينيه وهو يقاطعها: «حرير أظن هذه المقدمات والافتراضات تجاوزناها وأي رجوع للخلف غير وارد».

ثم صمت للحظة قبل أن يضيف بصوت مبحوح: «بالله عليك أنا سأموت لأحقق خطوة واحدة للأمام معك وصابر كل هذا ثم تأتين الآن وتقول (لن أجبرك)».

تلعثمت وهي تقول: «أنا أطلب الكثير لذلك...».

قاطعها مجدداً قائلاً بحرارة: «وأنا أحبك وأطلب أكثر بكثير من أي شيء ستطلبينه الآن».

سمع تنهيدتها قبل أن تبدأ الكلام بتوتر أقل: «أول شيء يجب أن تعرفه أن اليوم صباحاً كان لدينا زائر.. زائر غير مرغوب».

تصلبت ملامح عامر وهو يعتدل بجسده ليجلس قائلاً بتركيز: «احكي لي كل شيء».

خلال الدقائق اللاحقة كانت يد عامر التي تمسك الهاتف مشنجة ونظرات عينية تذفشان النيران، بينما يكاد لا يصدق إلى أي درجة تطرف (أسعد الجنابي) في رفضه!

أيهين ابنته حرير لهذه الدرجة بعرضها على مطلقها الذي تزوج عليها فقط ليعود عنها عامراً؟! للمرة الثانية يفعلها، قد يتفهمها عامر في المرة الأولى لكن الثانية لماذا؟! سؤال ظل يدور في رأس عامر ولا يستوعبه لماذا يعاديه والد حرير بهذا الشكل الغريب؟!

تحرك تاركاً سريرده ولم يعد يطيق الركون للجلوس، بينما يسمع تمة الحكاية من حرير واتفاقها مع أبيها فشعر ببعض غضبه يخفت؛ لكن مع خفوت الغضب تأجج القلق وظلت فرحته بالقبول كطفل يتيم يمنونه بهدايا العيد فيشعر ببعد العيد حتى يحظى بهداياه.

أخذت حرير نفساً عميقاً قبل أن تحدد له ما تريده منه: «ولأجل كل هذا ولأجل عائلتي التي تحتاجني قريباً أريدك أن تقبل».

سألها بهدوء: «أقبل بماذا حدي حرير».

ردت بحرج واضح: «أولاً سنقيم خطبة فقط في أي وقت تشاء، تستطيع منذ الغد أن تطلبني رسمياً لكن لن نتم الزواج حتى يطمئن أبي ويرضى مهما طال الأمر مهما جعل أبي الأمر صعباً سنصبر عليه معاً حتى يرضى».

صمتت وكأنها تستشف ردة فعله بينما عامر يزن الأمور في رأسه من

جوانب أخرى وبينما هو يفكر كان يحثها لشكمل: «وثانياً؟». ردت بخجل واضح جعله يتبسم ذائباً: «بعد أن يتم زواجنا إن شاء الله أنا أريد البقاء قريباً من عائلتي لذلك كل ما أريده أن نسكن في بيت عائلتك لأنه الأقرب ولن أطلب أي شيء، أقصد غرفة نوم فقط تكفيني».

قال بصوت مبحوح يناغشها: «تقصدين تكفيننا نحن الاثنين فأنا لن أرتضي النوم في الممر بينما أنت تحتلين غرفتي وفراشي».

ويخته بحنق: «عامر كف عن مزاحك هذا».

فرد بالنبرة نفسها: «أنا لا أمزح أريدك أن تشمليني دوماً بخططك وأفكارك».

تهربت من مناغشته العاطفية لتقول بخفوت وهي تزداد حرجاً: «ثالثاً.. ثالثاً».

أمام تلكؤها تساءل مداعباً: «ما به ثالثاً؟ لعنة الله عليه كيف يربكك هكذا».

ففاجأته وهي تقولها دفعة واحدة: «أريد أن أحبك أن أحبك جداً».

من هول الجملة عليه أوقع الهاتف من يده أرضاً! ثم بلهفة مجنون انحنى كي يلتقطه وهو يشعر بحرق داهمه على حين غرة، فيبتلع ريقه الذي جف بينما يسألها بهمس خشن: «ماذا قلت حبيبتي؟! ما به ثالثاً لو سمحت؟!».

ارتعش صوتها وهي تصارحه بهمس حمل كل شجاعته وما تملكه من
الجرأة لتسكنها أن تقولها: «لا أعرف لماذا أطلبها منك لكنني أريد ولا
أعرف كيف أشرحها لك فربما تظن أنني لا أحبك ولا أعرف كيف هو
شعوري بالضبط نحوك لكنني لن أحب رجلاً غيرك هل فهمت شيئاً من
هذري؟! أظن أنني عقدتها عليك أليس كذلك عامر؟!».

كان صدره يعلو ويهبط بجنون وهو يقول بخشونة عاطفية: «إن انتهت
شروطك فلي شرط واحد مقابل موافقتي عليها».

تساءلت بقلق: «أنا انتهيت فما شرطك؟».

رد بالخشونة نفسها وهو يرفع يده يربت على موضع نابضه: «أريدك أن
ترتدي فستان عرس أبيض في زفافنا فستان من حرير».

همست بصوت يفيض خجلاً وارتباكاً: «عامر!».

لكنه كان يغمض عينيه وأصابعه على صدره ترتجف كنبض القلب تحتها،
فيضيف بشقاوة عاطفية جريئة يذكرها بما قاله لها يوماً قبل ست سنوات:
«كل ما ستلبسينه في ليلة زفافنا سأجعله من حرير حتى أصغر قطعة».

الفصل الثامن عشر

«كل ما ستلبسينه في ليلة زفافنا سأجعله من حرير حتى أصغر قطعة».

أغمضت حرير عينيها والحرارة تشع من خديها، قبل سنوات عندما قال لها هذه الجملة كانت ردة فعلها أنها صفعته، الآن تسمعها ولا تشعرها وقاحة وقلة حياء منه بل رعشة صوته وهو يقولها تجعلها تشعر بها كحلم يسرق الأنفاس يخطف النبضات حلم سلب منه قبل أن يحققه كما سلب منها قبل أن تستوعبه، الحب ليس مجرد كلمات عاطفية يهمسها بطل الحكاية في أذن بطلته داخل صفحات رواية خيالية الشخوص نقرأها وتتفاعل معها متنهدين بسذاجة الأطفال، الحب يعني وصال الروح الذي لا يعترف بقطيعة السنوات، يعني أنه يحتفظ بالأمانى والأحلام في قلوب المحبين فيتحننون الفرص لوصال أقوى ووثاق أمتن فرب القلوب وخالق النبض شرع للحب المواثيق والسبل لتحل البركة وتعلو البشرية بإنجاب صالح الذرية، فتحت حرير عينيها ببطء وهي تسمع همسة عامر التالية: «ليتنى أقتطع من بعض نبض قلبي نبضاً لقلبك فتعيشي معي الحلم».

ترتفع يدها تلامس نبض قلبها المتسارع بجنون السعادة وزهوة الاكتمال، كانت ترحب بذاك الجنون والزهو بل يجف ريقها لتجربة المزيد، أن كان ما تشعره اللحظة ليس بالحب بعد فكيف سيكون حالها عندما تحبه بالفعل، سألته همساً وهي تخطو أكثر في درب يحطم قيود خجل ويمحو آثار ارتباك:

«أبعد كل هذه السنوات! أما زلت تفكر بالحلم نفسه».

فيرد هادراً بما يهز قلبها بين أضلعها: «وبعد عشرين سنة لن يكون لي حُلماً آخر غيره».

غيمة سوداء مرت فوق قلبها اعتصرته، انكمشت والنبض يضيع منها وهي تتذكر ليلة عرسها على نوفل اختنقت وشعرت بالغثيان فأغمضت عينيها هذه المرة ليس من رقة الهوى؛ لكن من قسوة المكتوب صوت نوفل ليلة زفافهما يرن في أذنيها (أمي تنتظر) بينما تسأل عامر بحشجة الاختناق: «أما زلت تراني الفتاة فتاة بفستان عرس أبيض حريري؟».

لم يتأخر عليها بالرد وهو يقول واصفاً إحساسه الحقيقي: «بل أراك حبراً نقياً أصيلاً حلمت بنعمة لمسه في الحلال منذ ست سنوات ليتجدد اليوم مانحاً إياي الفرصة ليت حرير فستان العرس الأبيض يضاهي ولو النذر اليسير من حريرك».

قد تنقش الغيمة لكن أثرها ما زال حاضراً في القلب فتسأله بإصرار والدموع تتجمع في عينيها: «ألا تهتم أن غيرك سبق ولمسه؟».

صمت للحظات طوال وتدحرجت الدموع على خديها فتسمحها حرير بعنفوان وهي تنتظر الإجابة؛ لكن عامر بدلاً من أن يرد اختار أن يتساءل بنبرة هادئة: «لماذا تسألين هذا الآن يا حرير؟».

عادت دموعها للتساقط فتعاود مسحها وهي ترفض أن تستكين للهروب

من الموقف فتصر بالقول وهي تكرر السؤال: «رد علي أرجوك هل حقاً لا تهتم؟».

شعرت ببعض حمى المرض تعود إليها مع أوجاع خفيفة في الجسد؛ لكن هذا لا يضاهي الوجع الصارخ في روحها اللحظة كأنها تتصدى لكل من يحاول إذلالها بفكرة أنها (مطلقة).

صمت عامر طال وكأنه يتفكر ثم قال أخيراً بصدق: «لو سألتني قبل سنوات لقلت لك نعم اهتم اهتم كالجحيم... فلا أحتمل».

همست ببعض الانفعال: «لأنني لم أعد بنتاً أليس كذلك؟! لأن...».

قاطعها بالصدق نفسه: «بل غيرة عليك فلا أحتمل أن يمتلكك غيري».

ما زالت تموج بدواخلها وهي تسأله بتشكك: «ما الذي اختلف اليوم؟ ألم تعد تغار؟!».

رد بصوت أجش وبكلمات خاصة لها كأنه يللم أوجاعها ومخاوفها بين كفيه: «بل أغار لكن أنت أنت حيرتي وكفى، لا شيء على الإطلاق يضاهي رغبتني بك ربما ألم فقدانك هذبني وربما نضج أفكاري غيرني وربما الاثنان معاً؛ لكن كما أنت تغيرت فأنا تغيرت».

تتنهد بصوت مسموع بينما يقول هو ببوح العاشقين: «حقيقة واحدة راسخة لم تتغير رغم هذه التغيرات التي طرأت علينا معاً أنني أحبك، حرير ببساطة شديدة أحبك، أعشقت بكليتك، أحب شخصك وروحك، أحبك في

ضعفك وقوتك، أحب نعومتك ونقاءك وسلامك وطيب طباعك».

تنهد وهو يضيف بصوت مبحوح: «أحب نظرات عينيك الناعستين، وابتسامة شفئك الممثلتين كأنك حورية من الجنة تناديني». ردت بهمس خجول ورعشة استجابة: «كفى عامر كما أنك تبالغ بوصفي، ما أنا إلا فتاة عادية».

فيأتيها صوته مبحوحاً بمزاح شقي: «دعينا من أوصاف تخصني وحدي وردني علي الحورية نادت وقالت (عامر أريد أن أحبك جداً) نرجو التصحيح في حالة ورود النداء بكلمات مغايرة ونفضل لو تكررناها لو سمحت من باب تأكيد الطلب والشفافية بالتعامل».

بارتجاف تضحك ثم تمسح دمعة تعلقت برموشها وهي ترد عليه بخفر: «لن أكررها أنا لا أعرف كيف قلتها لك من الأساس».

يرد عامر بمزيد من المزاح العابث: «الجدة دعت لي في ليلة القدر (فليحب الله بك خلقه) ليته فقط كانت أكثر تحديداً بالدعاء هذا ما كنت أتحدث عنه قبل لحظات الشفافية وتأكيد الطلب».

هذه المرة انفجرت حير ضاحكة ولا تعلم أن عامر على الجهة الأخرى كان يلثم هاتفه تقبيلاً لضحكاتها ثم يهمس وهو يضرب رأسه بالحائط: «أعني يا رب».

سألها بهمس رقيق: «هل ستحضرين خطبة عمر وروناهي يوم الجمعة؟».

ردت ببعض الحرج والحيرة: «تلقيت دعوة لكن لا أعتقد سأحضر، فلست على صلة قوية بعائلة بسمه كما هي صلة وفاء بهم».

نبرة صوته تغيرت لرجاء خشن تداعب أنوثتها: «تعالى حرير تعالى». ثم يضيف بالوعود: «لن أضايقك لن أكلّمك لو شئت أن لا أفعل لكن فقط تعالى».

تمددت على السرير وهي تشعر بالتعب لكنها في الوقت ذاته تشعر بالسعادة فقط سعادة لم تذق لها طعماً منذ كانت طفلة وتفرح بملابس العيد، يواصل عامر إلحاحه بأسلوبه الخاص: «راعي حرمانى منك أقسم بالله أصبحت أحفظ شوارع الحي أكثر من بيتنا! كلما وجدت فراغاً أهيم على وجهي أبحث عن ساعة استجابة أراك فيها».

تغمض عينيها وتنام على جانبها وهي تضحك بخفوت ليداعب نعاسها سؤاله اللحوق: «ستحضرين؟».

همست قبل أن تغلق الهاتف: «سأحضر تصبح على خير عامر».

تقف سجدى أمام اللوحة البغدادية المعلقة في غرفتها لا ترى نفسها فيها بل ترى عيني علي تحدقان فيها عبر اللوحة، ترفع أصابع مرتعشة لسلسلة ذهبية معلقة بصدرها هي من مقتنيات والدتها رحمها الله آية الكرسي معلقة بسلسال ذهبي، تحاول تذكر تفاصيل وجه أمها ووجه أبيها وجهي

أختها ميس وأخيها الصغير أيمن الوجوه بمرور السنوات تفقد الذاكرة ملامحها ولا يبقى إلا ملامح الصور لتجدد ما يمكن تجديده، تحركت إلى اليمين قليلاً لتحقق في صورة مستطيلة متوسطة الحجم صورة بألوان باهتة بعض الشيء عمرها أربعة وعشرون عاماً، تحمل بصمة مصور محترف كان الأشهر في العاصمة في ذلك الوقت، مرت سجي أصابعها فوق الإطار القديم وكم من مرة عرض عليها عمها رياض تبديله بإطار أحدث لكنها رفضت، إنه الإطار الذي اختاره والدها بنفسه فكيف تستبدله؟!

نظرت في الوجوه الخمسة الباسمة، والدها يجلس على الكرسي. وفي حجره أيمن ذو العامين وعن يمينه ابنتيه سجي بعمر السادسة وميس بعمر الخامسة، وعن يساره تقف بشموخ جذاب ونظرة واثقة والدتها، ظلت سجي تحقق في كف أمها على كتف أبيها فتنتابها رغبة ملحة أن تلمس تلك الكف وتشعر بحنانها ولو لبضع لحظات.

ابتعدت سجي خطوة للخلف فتنقل نظراتها بين اللوحة العائلية القديمة وبين اللوحة البغدادية التي أهداها لها علي في عيد ميلادها الثلاثين، همست بحشرة وهي تنظر لأمها بالتحديد: «من أين أسمع نصيحتك دليني أُمي لم أعد أعرف أين الصواب وأين الخطأ».

ترقرقت عيناها وهي تقترب من اللوحة البغدادية فتهمس بلوعة الغرام: «لماذا الآن يا علي؟! لماذا الآن وليس قبل تسع سنوات لماذا لم تراني إلا بعد كل ما حدث؟! لماذا كان يجب أن تختار أختي لتمر معها بهذه التجربة

المؤلمة لكما معاً ثم تختفي وأوشك أن أنساك لتعود وتظهر في حياتي غفلة! تفتح أسواري التي تحفظ أسراري كلها، تكشفها كلها وأنت تجدد ملكيتك لقلبي كأنك ترفض أن ينساك».

غمرت وجهها بين كفيها وهي تهمس بألم واضطراب شديد: «ما الحكمة من كل هذا؟! ليتني فقط أفهم إن كان علي مغرم بي الآن فلماذا الآن؟! لماذا لم يحدث هذا من قبل؟!».

بعد منتصف الليل غرفة عامر

يتمدد عامر على سريره وإلى جواره يتمدد علي، بينما يستلقي عمر بوضع متعامد معهما متخذاً من أرجلهما فراشاً، الثلاثة يحدقون في السقف في صمت عامر بدا أكثر انغماساً وعمقاً بأفكار جادة حول خطبته لحريز، وقد اتفق مع والده الليلة أن يتصل بوالد حريز صباح الغد وتحديد يوم للزيارة وقد أطلع أبيه على أمور عدة مهمة وأخذ عامر أذنه بمنحه حرية التصرف في القادم، بينما علي يدخن السيجارة ببطء شديد يحاول أن يجد طريقة تجعله أكثر صبراً وأقل توتراً وأهدأ اندفاعاً بمشاعره الثائرة، إنه لا يطيق الانتظار لأسبوع كامل كي يعرف الإجابة، كما لا يطيق التفكير أن الخالة نبراس قد تؤثر في سجي وتجعلها تتراجع، أخذ نفساً عميقاً من السيجارة ويده ترتعشانه لا يطيق البقاء بعيداً عن سجي لا يطيق أنه لا يستطيع أخذها في

حضنه، يعلم أن أفكاره المتهورة هذه قد تزيد الأمور سوءاً لكن ليس بيده، كل شيء في داخله بات ثائراً مجنوناً لا يلجمه إلا الأصول والأخلاق والخطوط الحمراء التي تربي وتعلم أن لا يتجاوزها، أما الثالث عمر فكان أكثرهم روقاناً وجه رونا هي اقتحم عليه ساعات يومه فلا يكف عن استذكار كل حركاتها العفوية وهي تتكلم بانطلاق وهي تأكل بشهية معدية وهي تغضب وهي تعبس وهي تضحك وهي تتصرف بشقاوة طفلة وفي كل ذكرى يضحك دون أن يشعر، حتى خفة ظلها خاصة فهناك من يتمتع بالأسلوب وسرعة البديهة ليلقي نكتة وهو يتوقع الضحكات وهناك من يتصرف بعفوية فكاهية دون انتظار لشيء، إنها فقط شخصيته وطبيعته فيشعر من يرافقه أن يعيش حالة ضحك حتى وهو لا يضحك، وهذا هو نوع رونا هي.

تسارعت نبضات قلبه وهو يرخي أجنانه ويتبسم ثغره يتذكر عينيها اليوم بعد أن خلعت النظارة لأجله كانت مرتبكة للغاية ربما هو لم يجرب شعور قصر البصر الشديد؛ لكن ارتباكها جعله عفويّاً يمد يده ليحتضن كفها فجأة انفجر عمر ضاحكاً وهو يتذكر ردها عليه («أترك يدي كوني لا أراك تقريباً لا يعني أنني لا أشعر بيدك تمسك بكفي») لم يشعر بتحريك أخويه إلا عندما سمع صوت عامر وهو يقول لعلي: «أظن الصغير يمرح من خلف ظهورنا أقصد من فوق أرجلنا وأظنه بحاجة كي يعود إلى (أرض) الواقع».

وقبل أن يفتح عمر عينيّه كان علي وعامر يتشاركان دفعه بخشونة لإيقاعه عن السرير أرضاً، يضحك عمر وهو يتأوه من أثر الوقوع، بينما يعود

علي وعامر للاستلقاء وكأن شيئاً لم يحصل ليقف عمر بعد لحظات وينظر إليهما معاً ثم يغيظهما بالقول وهو يتحرك نحو الباب: «أظنها الغيرة فقط لأنني سأتزوج قبلكما».

بنظرات عابسة شريرة حدق كل من عامر وعلي في شقيقتهما الأصغر وخلال لحظات كان علي يرمي ما تبقى من سيجارته وهو يعاون عامر لإمساك عمر وتلقينه درس.

اليوم التالي صباحاً

رياح خفيفة تهب فتضع سجي كفيها فوق تنورتها الطويلة المستعرضة بلون الحناء الخفيفي تمنع تطايرها، شعرت برعشة خفيفة فتمنت لو لبست قميصاً أثقل بنسيجه من هذا القميص الخفيف؛ لكن لم يكن لديها قميص آخر غيره يليق بالتنورة ولا تعلم لماذا تشبثت بارتدائها اليوم دوماً تحب أن تلبس لوناً ما يلائم مزاجها وكل يوم لها مزاج مختلف واليوم شعرت بالخريف يتسلل إليها ربما شعور الوحدة ربما شعورها بالحاجة للاختباء من كل شيء وأخذ هدنة كهدنة الخريف بين الصيف والشتاء، أكملت سجي طريقها عبر الساحة المفتوحة وسط الجامعة وشعرها المحلول يتطاير مع تنورتها فتشعر بمزيد من الضيق ما بالها اليوم وهي تختار ما لا يناسب الجو على الإطلاق.

زمت شفتيها وهي تتذكر صورة أمها الشامخة في الصورة ولا شعورياً
تلتجأ لشموخها ذاك فترفع ذقنها وهي تحت نفسها على مواجهة أوائل ربح
الخريف العاصفة، وقد نجحت كفاية وهي تمر بين تجمعات الطلبة المتناثرة
هنا وهناك فترد السلام لمن يلقونه، بينما تتابع طريقها وتشد أزر نفسها
بنفسها لقد خرجت باكراً حتى لا تحتك بخالتها نبراس، يكفي ما عانته من
عدائيتها بالأمس فلا قبل لها بتحمل المزيد من نظرات تدينها حتى قبل أن
تعرف خالتها ما يحصل، بل ما حصل، خالتها لا تعرف ما حصل منذ تسع
سنوات ولا تهتم أن تعرف معاناة سجي بين مرافق هذه الجامعة تحديداً
حيث كانت طالبة جامعية وقعت حد اليأس في هوى زميل لها لا يراها،
همست وعيناها تتسعان: «علي!».

توقفت خطواتها حين رآته حقيقة واقعة أمامها يقف جوار شجرة ضخمة
عمرها من عمر الجامعة شجرة كانت ترى علي يقف مع أصدقائه تحتها
يتضحكون ويتسلون حتى موعد المحاضرة اليوم يقف علي وحيداً لا لم يكن
وحيداً لقد كان بانتظارها، ابتلعت ريقها وهي تشد على حقيبتها الجلدية
بينما تواجه الموقف فتتقدم نحوه حتى وصلت إليه تسأله بتوتر: «ماذا تفعل
هنا؟».

إن هي إلا نظرة واحدة من عمق عينيه الخضراوين جعلت ركبتها ترتعشان
أسفل تنورتها ما زالت تقاوم تأثيره بينما عيناه تمران عليها وهو يسحب نفساً
من سيجارته لتلكاً نظرتة مطولاً عند سلسلتها الظاهرة من فتحة القميص

وقد برزت ميدالية (آية الكرسي) فيبتسم وهو ينفث الدخان: «أنت تلبسين آية الكرسي مثلي لكن مؤكد السلسال يناسب رقبتك أكثر».

رفعت يدها عفويًا إلى عنقها تتحسس السلسال ثم قالت بارتباك: «إنها من مقتنيات أُمي رحمها الله».

ينظر إليها مطولاً بطريقة أثارت المواجه ولا تعرف كيف فأزاحت وجهها جانباً بعيداً عنه فيأتيها صوته خافتاً: «قلقت عليك».

ردت وهي ما زالت تنظر بعيداً عنه: «كان بوسعك الاتصال لتطمئن لم يكن هناك داعٍ لحضورك».

كانت تدفعه هذا هو الفعل الوحيد الذي يبدو لها منطقياً اللحظة حتى وهو مستحيل التحقيق مع علي! ضحك بخفة وهو يقترب جداً منها قائلاً: «خمنت أنك لن تردي علي، كما أعترف أنني احتجت رؤيتك لم أنم ليلة الأمس».

تعبس وهي تحمر ارتباكاً وتبعثر نظراتها في كل اتجاه لا تعرف كيف ترد عليه النبض المتسارع في عنقها خلب لبّه فيبتلع ريقه ورغماً عنه يتخيل شعوره وهو يقيس النبض بشفتيه، شعر بالحر مجدداً فيرمي الباقي من سيجارته أرضاً يدعسها تحت قدمه بينما يطلب بغباء: «هلا نخرج قليلاً إلى مكان ما مُبرد الحر شديد».

فاجأته وهي تهتف: «لا».

لم تهرب بنظراتها منه هذه المرة بل كانت تقولها في وجهه كأنها تصفحه ليفيق من الحمى دون أن تعلم عن (الحمى) شيئاً أم ربما حدس الأثنى فيها يعلم فتحاول جاهدة إطفاءه؟! هواء الخريف يضرب وجهه كأنها صفة ثانية تذكره أن الجو ليس بحارٍ على الإطلاق.

تنهد وهو يفكر أن في كل الأحوال هي محقة حالته مخزية ويجب أن يجد طريقة للتعامل معها دون مزيد من الأفكار والمشاعر غير المنضبطة، يرفع يده يمرر أصابعه في شعره وهو يغمض عينيه للحظات معترفاً: «لك الحق أن ترفضني أنا بت لا أؤتمن أليس كذلك؟».

زفر بقوة قبل أن يفتح عينيه لينظر إليها باهتمام مختلف بدت مرهقة رغم جاذبيتها اللعينة بعض الهالات السود أسفل عينيها نظراتها قلقة أكثر منها خجولة، سألها باختصار وقلبه ينقبض طوعاً: «هل علمت الخالة نبراس؟».

أصاب الهدف وهو يرى ارتجاف شفيتها كأنها توشك على البكاء، ثم التمعت عيناها بدموع خفيفة قبل أن تضم شفيتها بقوة تمنع نفسها الاستسلام للبكاء الآن، فاكتفت بالقول بصوت خافت: «لا لكنها.. لكنها..».

فأكمل لها ما أرادت قوله: «تشعر؟».

فتهز رأسها بـ(نعم) بينما تسرح بنظراتها الحزينة الغامضة بعيداً، يعقد علي حاجبيه ثم يسأل بحمائية: «هل تعاملك بشكل سيء؟». ردت بصوت

مرتجف وهي تنظر في عينيه لتقول بإدانة مجحفة لنفسها: «يجب أن تعاملني بشكل سيء! ألا ترى ما أفعله؟!». رد علي بصلافة: «حتى اللحظة أنت لم تفعلي شيئاً أنا وحدي من أفعل فليس ذنبك».

ما زالت تنظر في عينيه وهو يغرق في أفق عينيها مضيئاً بعاطفة: «أنا من طلبتك للزواج و أنا متشبث بك حتى الممات».

تنكمش حياء وهي تهمس بشعور ذنب: «هذا لا يمكن يا ربي لا يمكن».

يعبس مجدداً وهو يرد عليها: «بل ربنا جلّ جلاله يبيح زواجنا فهل ستعترضين على شرعه».

بدت حائرة مستنزفة التفكير بينما يضيف علي بعاطفة هادرة: «أنا مغرم بك مُغرق فيك تائق إليك فأني اعتراض يمنع حلالاً كهذا؟!».

يحمر خذاها وابتعدت خطوة للخلف كأنها ستهرب منه بينما تتمتم بعجز: «علي أنت.. أنت..».

قاطع تلعثمها وهو يقول بتدلل مفاجئ: «أنا جائع».

كان يبتسم لعينيها وبذكاء يحيد بالحوار بعيداً عما يوترها ويحدثه هو أصبح يعرف ما الذي يجعلها تتعامل معه بأرباحية واهتمام أنثوي أكبر وها هي نظراتها تعبر عن ذاك الاهتمام الحلو كأنها تفكر أو تتساءل عما أكله هذا الصباح فيرد على تساؤلها المفترض بالقول الرقيق: «لم يدخل معدتي شيء حتى كوب الشاي الصباحي لم أشرب».

عقدت حاجبيها بطريقة خاصة، بينما تنظر للحظة إلى عقب السيجارة على الأرض قبل أن ترفع عينيها إليه وتقول بتوبيخ: «أتدخن على معدة فارغة أيضاً؟! ألا يكفي تلك السموم التي تُدخلها جسمك».

عاود الاقتراب ليتدلل عليها مجدداً وهو ينظر إليها بدفء قائلاً: «أطعميني بدلاً من أن توبخيني».

بعفوية فتحت حقيبتها وهي تقول: «لدي شطيرة لحم بارد وجبن خذا».

أخرجت شطيرة منظرها شهى ملفوفة بغلاف بلاستيكي شفاف فتقدمها له بطيب خاطر وهي تحثه بالقول: «يجب أن تأكل علي وتتوقف عن التدخين ولو فترة الصباح».

نظر ليدها الممدودة بالشطيرة المغلفة فيشعر بالذنب قائلاً: «لكنه غداؤك».

فترد بابتسامة عفوية: «لا تقلق سأدبر أمري».

رد بإصرار: «لا سنتشارك بها».

انحسرت ابتسامتها وهي ترى مجموعة طلبة يمرون وينظرون نحوهما بابتسام فضولي متسائل فتشعر بالحرج وعدم الارتياح وهي تحث علي بخفوت: «أرجوك خذ الشطيرة وارجل الطلبة ينظرون إلينا لم يسبق أن رأوني أقف مع رجل بهذا الشكل».

التفت علي ليحدج أولئك الطلبة بنظرات تهديد صريح جعلتهم يغضون
البصر، بينما يقول علي بجدية وهو يلجم غضبه: «يبدو أنك تنسين أنني
تقدمت رسمياً لخطبتك ومن الطبيعي أن آتي لأراك في مكان عملك وأمام
كل الناس لذلك كوني قوية وتعودي على الرد لكل من يتساءل عن سبب
وقوفك معي وأخبريه أنني خطيبك أو على الأقل رجل طلب يدك بالأصول».

أخذ الشطيرة من يدها بثقة ثم بإصرار أشد التمع في عينيه أضاف: «عن
نفسي سأفعل هذا وسأتي كلما استطعت».

بصوت رخيم طلبت منه وفي عينيه رجاؤه ألا يضغط عليها: «دعنا ننتظر
ما سيفعله العم رياض يا علي، لنكن واقعيين أن وضعنا ليس بعادي، إنها
ليست خطبة عادية على الإطلاق وأنت تعرف هذا».

نظر إليها مطولاً قبل أن يقول بصوت مبحوح: «ال(نا) التي جمعتني بك
في كلماتك كافية لي حالياً وسأحقق رغبتك ولن ترينني أو تسمعين صوتي
حتى يكلمني العم رياض الأسبوع المقبل».

ثم عبس كطفل متمرّد ليضيف بحشجة عاطفية: «سأشتاق الأفق
حتى الضفاف».

تمت بحيرة وهي لا تفهم: «ماذا؟!».

تحرك مبتعداً وهو يتمتم بوعد: «في يوم قريب جداً سأخبرك بهذه
التفاصيل الصغيرة التي تجهلينها وتحيرك في أمان الله».

المدرسة الثانوية

خرجت حريز من الحصة الأولى وهي تشعر ببعض التوعك الفتيات اليوم كن مشاغبات بعض الشيء، فشعرت أنها تود لو تهرب عائدة للبيت لقد كان قراراً خاطئاً أن تأتي للمدرسة ولا تأخذ إجازة لهذا اليوم أيضاً، اقتربت من أماكن شرب المياه فتخرج حبة دواء وتبتلعها مع حفنة ماء تجمعها في كفها حمدت الله أن لديها استراحة حصة كاملة قبل موعد حصتها الجديدة، تحركت نحو غرفة المعلمات وهي تدلك جانب رأسها لتخفيف الصداع لم تكن تريد أكثر من كوب شاي والجلوس بهدوء في الغرفة، دعت الله ألا يكون هناك معلمات كثيرات في استراحة مثلها تريد الهدوء فقط حتى تخف الأعراض؛ لكن عند وصولها إلى باب الغرفة الموارب سمعت اسم (عامر) يتردد على لسان إحدى المعلمات التي عرضت على حريز أن تزوجها (أخاها الأرمل) وهي تتكلم بأسلوب النميمة: «هل سمعتن آخر الأخبار؟! عامر القماش سيخطب حريز».

شهقت معلمة أخرى باستنكار: «حريز؟! لا لا يمكن مستحيل إنها مجرد إشاعة».

لكن الأولى تؤكد لها بغل وغيرة واضحتين: «أقول لك أمها بنفسها أخبرت أمي ليلة أمس».

استندت حرير بكفها على الحائط وصداها يتضاعف، بينما تزم شفيتها وهي تصر على الاستماع لأقوالهن، بينما تشاركهن الثالثة: «ألا تعرفن أنه كان يريد لها قبل أن تتزوج زوجها السابق؟».

لم تكن حرير تستطيع تبين الوجوه بينما أصواتهن معبرة أكثر بكثير فتد الأولى شاهقة: «حقاً؟! لم أسمع بهذا من قبل، كيف علمت؟».

ردت الثالثة: «أعرف القصة لأنني من سكان الحي وبيتي يبعد بيتين عن بيت القماش، لقد خطبها عامر مراراً منذ ست سنوات؛ لكن والدها رفضه لسمعته ولم يترك عامر ولا والده وساطة واحدة دون اللجوء إليها لإقناع والد حرير؛ لكنه رفض وزوجها لابن قريبه».

علقت الثانية بمزيد من الاستهجان: «لكن وضع حرير اليوم غيره عن وضعها قبل ست سنوات إنها مطلقة! ورجل شاب كعامر كيف سيرغب بمطلقة؟! أظن الأمر كذبة مفضوحة من أمها».

عندها قالت الأولى بخبث: «أو أن في الأمور أمور.. وبعض الأمور تُحيل القردة غزلاً».

تمتت الثالثة: «تقصدين أنها...».

فأكدت الأولى: «مؤكد إنها أعمال الشعوذة والسحر وربط الحبيب».

لتضيف وهي تلفق الأكاذيب وقد أعجبها الخوض في هذا، وربما رد ما اعتبرته إهانة من حرير عندما رفضت أخاها الأرملة فتؤلف القصص لتدعم

الفكرة الخبيثة التي تروج لها: «هناك من رآها هي وأمها تزور إحدى النساء الدجالات المعروفات في حي (...)».

استندت حرير بكل ظهرها للحائط وأغمضت عينيها بإنهاك... لم يكن ينقصها إلا هذه الأقوال والأكاذيب الحقيرة لتسمعها.

علقت الثالثة (جارية بيت القماش) بتشكيك واضح: «لكنه يحبها بالفعل منذ سنوات حتى إنه استقام ولم يتقدم حتى لخطبة إحداهن بعدها أظنه ما زال يحبها ولم ينسها».

تورد خدا حرير ونبض قلبها فترفع يدها موضع قلبها تفعل أفعال عامر المجنونة، تربت هناك كأنها تحثه لينبض أكثر وتشجعه للاعتراف بهذا النبض دون خوف أو تردد؛ لكن أفسد عليها صوت الأولى وهي تصر بالقول الحاقد: «بل كان يحب الفتاة ابنة الثانية والعشرين؛ لكنها حالما تطلقت لجأت للسحارة كي تحيي الحب في قلبه من جديد».

لتؤيدها الثانية بالقول: «في الواقع هذا يبدو لي معقولاً أكثر من أن عامر القماش قد يرغب في أي امرأة مطلقة خاصة فتاة عادية باردة كحرير».

ثم أضافت توجه كلامها للأولى: «لذلك ترينها تعالت عليك عندما لمحت لها عن أخيك الأرمل».

فتتمادى الأولى وقد لقيت التشجيع فترمي حرير بالمزيد من التهم الأكثر قبحاً وشناعة بين كل التهم فتقول لاهثة بوسوسة الشيطان: «أجل فهي

كانت تحضر الأعمال لأجل سمكة أكبر بكثير شاب وسيم وابن عائلة معروفة ميسورة ولم يسبق له الزواج ومن يدري ربما كانت على تواصل معه طوال سنوات زواجها وهي على ذمة رجل مغفل غافل».

أوشكت حرير أن تتقيأ! أحنت جذعها للأمام وقطرات العرق تتجمع على جبينها تقاوم موجة الغثيان عيناها تقدحان بالشرر وتقسم بالله ستلقن هذه الحقيرة درساً فقط تستجمع قواها؛ لكن لم تمر لحظات حتى سمعت صوتاً رابعاً المعلمة مريم تلك المرأة الثلاثينية الحلوة المحجبة معلمة الرياضيات العبقريّة كما يسمونها، هتفت بهن وهي تقول: «أستغفر الله العظيم! أستغفر الله العظيم! أقسم بالله حاولت جهدي أن لا أتدخل وأنشغل بتصليح كراريس الفتيات؛ لكن لم أعد أحتمل الصمت على هذا الحديث المقرف بدأتموها بالحسد والغيرة ثم مررتن باتهامها بالسحر والشعوذة لتنتهوا برجمها في عرضها وشرفها؟! ألا تتقين الله فيما تقلن؟! أترمين محصنة بالباطل؟! أتعلمن جزاء رمي محصنة دون دليل؟! اتقين الله في أعراض الناس ليحفظ أعراضكن وأعراض أهل بيوتكن».

علقت الثالثة بتوتر: «أنا لم أرمها بشيء يا مريم على العكس أنا قلت ما أعرفه وهو في صالحها وبشهاد الله لم أر عليها سوءاً».

بينما تعلق الثانية محاولة التبرير: «معاذ الله أن نرمي امرأة في عرضها لم نقصد هذا كانت مجرد ثرثرة غير جدية».

ردت مريم بأسلوب بارد فيه تهديد صريح: «بل ثثرة أعراض وسأبلغ المديرية بنفسى أن سمعتكن تخضن فى عرض وشرف أحد، خاصة فتاة حظها عاثر كحرير وربما شاء الله أن يعوضها بما هو أفضل فهل تستكثرن نعم الله إذا شاء وأنعم بها على من يشاء؟!». تلاشى الغثيان من حرير فمسحت جبينها وهي تستقيم بجذعها لتتحرك من وقفاتها وتدخل عبر الباب بوجهها الشاحب. المتعب تنظر إليهن، وكم كانت سعيدة بشحوبهن وأفكارهن مكشوفة يتساءلن بصمت عما سمعته، فردت لهن التساؤل: «هل انتهت ثثرة الأعراض والشعوذة أم هناك المزيد لتصفنه للقائمة؟!».

وقفت الثالثة على قدميها وهي تشعر كأنها تورطت بأمر لم تسع إليه من الأساس فقالت محاولة إخراج نفسها والاعتراف بالذنب فى الوقت ذاته: «إن كنت سمعت الحوار كله فمؤكد علمت أنى لم أذكرك بسوء على الإطلاق وأنا أعتذر منك لأنى كنت ضمن حديث شائن كهذا، كان يجب أن أنسحب على الأقل إن لم أكن بقادرة على الرد كمرير عن إذنكن سأخرج للساحة أتمشى قليلاً».

ثم تحركت لتغادر الغرفة بينما حرير تنظر ببرود جليدى لكل من الأولى والثانية، بدت الأولى حاقدة أكثر رغم عجزها عن النطق وأما الثانية فمحرجة للغاية بينما تحاول تخفيف وطأة الأمر: «نعتذر منك حرير ربما تمادينا قليلاً بحوار ليس من شأننا، ولم يكن يحق لنا أن...».

قاطعتها حرير بنبرة صارمة: «مؤكد لم يكن يحق لكن! والدنيا سلف ودين

وما رميتنني به مردود عليك في أعراضكن وبناتكن».

امتقع وجه الثانية وابتلعت ريقها بصعوبة بينما الأولى تزم شفثيها ويحمر وجهها نقمة وحنقاً، استدارت حرير لتذهب نحو مريم تجالسها فاستقبلتها مريم بابتسامة حانية وبذكاء أخذت تفتح مواضيع أخرى متفرقة دون أن تسألها حتى عن حقيقة ما أشيع حول خطبتها وزواجها المرتقب من عامر القماش.

بعد بضعة أيام الجمعة قرابة الغروب

كانت والدة حرير تشطف المواعين عندما أجفلها صوت زوجها من الخلف وهو يتساءل بشيء من الدهشة والاستهجان: «أين السيارة؟! هل خرجت حرير؟!». .

التفتت إليه وعلى وجهها أمارات العجب فتقول له: «هل نسيت؟! لقد خرجت قبل قليل وأخذت معها سدير استأذنتك أمامي كي تذهب إلى حفل خطبة...». .

قاطعها أسعد وقد بدا متوتراً ساخطاً على غفلة ليقول بكلمات غير ثابتة: «أجل أجل صديقتها وفاء».

زادت دهشتها وهي توضح لزوجها: «لا ليس وفاء إنها...». .

عاود المقاطعة وبنبرة أكثر حدة وسخطاً قال: «أجل بسمه وليس وفاء أخطأت الاسم فهل كفرت لتنظري إليّ هكذا؟».

كان ماء الحنفية يسيل والزوجة تحديق في زوجها وقد ظهر عليها القلق جلياً فترك حوض غسل المواقين لتقترب من والد أبنائها تكلمه بحذر وخوف من ردة فعله: «يا أبا خلدون هل نسيت أن وفاء وبسمه متزوجتان منذ سنوات ولهما أطفال أيضاً». للحظة بدا أسعد مصدوماً وهو يحديق في وجه زوجته ثم بدا مشوشاً بعض الشيء وهو يتساءل: «إذن خطبة من اليوم؟».

ردت الزوجة وهي تتجنب ذكر التفاصيل كما اتفقت مع ابنتها: «إنها رونا هي أخت بسمه الصغرى».

أخذ أسعد يهز رأسه وبدا شارداً تائهاً للحظات بينما يتمتم: «أجل تذكرت تذكرت».

سأله زوجته وقد استبد بها القلق لحالته الغريبة: «هل أنت بخير؟».

رد بعناد: «مؤكد بخير! فقط بالي مشغول بالغد ولم أركز بكلام حبيب الحاج سليم أكد علي الموعود اليوم أيضاً».

استغلت الزوجة فرصتها لتحاول جهداً إقناع زوجها قائلة: «أستحلفك بالله يا أبا خلدون دع الأمر يتم بأسرع وقت فلا ندري ربما يغير الشاب رأيه».

هتف بها أسعد عابساً وهو يقول بنفور شديد: «كفي عن كلامك هذا ليته

يغير رأيه ذاك المغرور ويخلصنا من إلحاحه».

عندها لم تحتمل الزوجة لتظهر حالة تمرد جديد على زوجها وهي تقول له بحق: «يا أسعد إن عرقلت هذا الزواج فأنت تظلم ابنتك وتكسر بختها وحظها للمرة الثانية».

هذه المرة انكمش أسعد على نفسه وانسحب مطأطأ الرأس يتمتم مع نفسه بكلمات غير مفهومة.

بيت عائلة رونا هي

وسط المدعوين المحدودين في حديقة الدار تعلو الزغاريد بانتظار ظهور العروس، تراقب عفاف النظرات السرية المتبادلة بين عامر الذي يقف جوار أخيه عمر وبين حرير التي دخلت مع أختها الصغرى قبل قليل، الشحنات بينهما دافئة تشعرها مرتعشة تتطاير في الجو في تواصل لا ينقطع، تكاد تراه وتلمسه بل وتسمعه! في داخلها تشعر عفاف بالاستغراب من قصص كهذه حتى في عمرها ونسوجها هذا، لطالما كانت امرأة مقدامة خطواتها دوماً للأمام ولا تلتفت للخلف لكنها كلاسيكية بالوقت نفسه تحب أن تسير الأمور وفق منظور مقبول دون تعقيدات اجتماعية وأسرية، ذكرتها حكاية عامر وحرير بحكاية قريب لها أصيب بالإحباط بعد خسارته لزميلته في الجامعة التي أحبها وأرادها زوجة فلم يكن لهما نصيب للتزوج غيره ثم شاء

الله أن تترمل بعد ثلاث سنوات وتعود لبيت أهلها وعلى ذراعها طفل صغير فيعود الود القديم مع زميل الدراسة ويطلبها للزواج مرة أخرى ويحصل النصيب، تميل عفاف لأذن صديقة عمرها وتقول لها مداعبة: «قولي لعامر أن يلحق بأخيه الجمعة المقبلة فيبدو فاقد الصبر ويربك حرير بنظراته الصريحة».

ردت نورجان بأسلوبها العصبي: «لا تذكريني يا عفاف أود أن أذهب لمنزل ذاك الرجل التعس أسعد الجنابي لأضربه على رأسه حتى يفيق من غفلته وهو يحرم ولدي من حبيبة عمره لا أفهم ما الذي يبتغيه أكثر من شاب كعامر متيم بها واستقام عارفاً غلطه».

ثم زفرت بضع أنفاس متحسرة وهي ترى بقلب الأم شوق الذي يشع من نظرات ولدها عامر وهو يتابع دخول حرير مع باقي البنات ليحضر العروس من الداخل، قالت بتوتر هذه المرة: «بصراحة لست متفائلة بزيارة الغد إلى بيت أسعد الجنابي يا عفاف حتى سليم غير مرتاح للوضع الحمد لله أنني لست مضطرة للحضور فلن أحتمل تعجره يكفيني أبي».

أخذت نورجان تراقب بوابة الدار المفتوحة للمدعوين وقد بدت قلقه فجأة لتسألها عفاف: «ما بك نورجان؟! تبدين قلقه بعض الشيء».

ردت نورجان وهي تنظر لساعة يدها: «لقد تأخر علي».

ردت عفاف بفطنة: «ما زالت الساعة السادسة لا أظنك قلقه من التأخر

بل قلقة من والدك أليس كذلك؟».

ردت نورجان بمزاجها الناري المتفجر: «ما زال يشعرني كأني طفلة ومنذ زواجي أضيئي عليها (طفلة مذنبه) كلما التقينا أشعرني بهذا لم أعد أحتمل كما السابق يا عفاف لقد كبرت وهذه الهورمونات التعسة تزيدني جنوناً».

حاولت عفاف تهدئتها بلطف: «استرخي نورجان سليم ينظر إليك ويشعر بتوترك وهذا سيوتره أيضاً مع أبيك».

التقت عينا نورجان بعيني زوجها للحظة ثم انشغل بحوار مع خال رونا هي لتقول نورجان بإحباط: «إنه متوتر من الأصل دون حاجة مني لأوتره معي لقد ألع على أبي كي يبيت عندنا الليلة لكنه رفض! أتصدقين يا عفاف عناده هذا؟!».

علقت عفاف تؤيد صديقتها: «سبحان الله طباعه الصعبة لم تتغير! لكن ماذا نفعل يا نورجان نتقبل آباءنا كما هم لكن أين سيبيت؟!».

ردت نورجان وهي تتلاعب بقلادتها بضيق: «لن يبيت في العاصمة من الأصل لقد اتفق مع علي أن يعيده للبلدة بعد الحفل ويبيت عنده ثم يعود غداً صباحاً».

فحاولت عفاف امتصاص نغمتها بالقول: «هذا ترتيب جيد دعي الأمور تسير بسلاسة يا نورجان اعتبري والدك لا يرتاح إلا في بيته وهذا يحدث مع كثير منا».

علت زغاريد من الداخل ليظهر طارف الفستان الأصفر للعروس وحولها
الفتيات يزغردن ووالدة رونا هي تتقدمهن بالزغاريد فقالت عفاف ببشاشة
عفوية: «ها قد أتت العروس».

لكن عينا نورجان كانتا في الاتجاه الآخر حيث دخل للتو عبر البوابة ذاك
الرجل المهيب كالجبل في الشمال فملأها الحنين لبلدتها كأنها تراها فيه
لتقول بفرحة عمّت قلبها لمجيئه: «ووصل أبي أيضاً».

ارتفعت زغاريد عفاف بينما تتحرك نورجان نحو أبيها بلهفة (طفلة)
وزغاريدها تعلو أيضاً حتى استقرت بحضن والدها زيدون الوندي تضمه
بسعادة حضوره لخطبة حفيده عمر.

تتقدم نحوه وهو مشدوه متسمر مكانه، أياً كان ما توقعه فمؤكد لا تصل
لربع هذه النتيجة، فستانها الأصفر بفتحة دائرية واسعة بعض الشيء تشع
من خلالها بشرتها البيضاء وينسدل الفستان طويلاً حتى الكاحلين محدداً
ثنايا جسدها الممتلئ تحديداً ليستعرض في النهاية عند منتصف الساقين
كذيل سمكة، بدت بدت كمارلين مونرو! أو ربما هند رستم ما باله يعود
لرموز الإغراء بالأبيض والأسود؟! قلبه يخفق بجنون اللحظة وهو ينظر إليها
بوجهها المضيء كفانوس وشعرها الأشقر القصير بدى أكثر قصراً بخصله
الملتوية، إنها لا تلبس نظارتها! كيف تسير بثقة هكذا نحوه دون نظارتها،

عفوياً مد كفه إليها وبعفوية سحرته كانت تستجيب وهي تضع كفها في راحة كفه ليشعر بسعادة لا توصف سرت في جنده، لم يكن يسمع ما حوله وهو يبتسم لها بغباء حتى اقتربت أكثر تستند إليه كلياً وقبل أن يفهم كانت تخبره وسط الزغاريد: «اسندني! هذا الكعب العالي يوشك أن يطرحني أرضاً حسبي الله ونعم الوكيل في كل من أفتى بلبس الكعب العالي في الحفلات».

كانت كضربة قبضة طفلة أعلى رأس عمر لتجعله يصحو فلا ينسى ما خلف هذا السحر الذي جمع الطفولة بالإغراء، بينما أخوه عامر يدير رأسه بعيداً يحاول مداراة ضحكاته المجلجلة التي لم يستطع كتمانها، أما عمر فكان أكثر سيطرة وهو يكتُم ضحكته فيسندها لتجلس على الأريكة الأنيقة الصغيرة المخصصة لهما ثم يجلس جوارها والابتسامة لا تفارق فمه سألها وهو يتطلع لعينيها بكحلها الأسود والتظليل الذهبي: «أين النظارة؟».

ردت بعبوس الخجل والارتباك: «ألبس العدسات منذ يومين ألبسها في البيت لتعتاد عليها عيناى يجب أن تكافئني لكل المجهود الذي بذلته لأسابيع من أجل هذه الليلة تجويع وحصار وتدريب على لبس العدسات المزعجة، كأني كنت في معسكر حربي أتحضر لمواجهة غزو المغول والتتار».

ما زالت يدها في يده وكأنها نسيتهأ ليميل إليها عمر يكاد وجهه الضاحك يلامس خدها ليقول بهمس: «قطعة سعادة وسط القلب أنت يا ضي القمر».

رعدة مرت بجسدها جعلتها تسحب يدها وتبتعد عنه كملسوعة بينما
يتضرع خذاها بالحمرة القانية.

تساعد حرير في تحضير المائدة الطويلة المنسقة في الباحة جوار الحديقة
يذاها ترتعشان وابتسامتها لا تفارق ثغرها، لقد كانت تشعر بنظرات عامر
مصوبة نحوها عن بعد وهو يثرثر ظاهرياً مع زوج وفاء، للحظة أرخت جفنيها
وهي تهمس لنفسها بتشجيع: «انظري إليه أنت تريدين النظر اعترفي أنك
بت تشتاقين له تحبين نظراته إليك وتحبين النظر إليه تتلهفين لكل الكلام
الذي يقوله بكل حواسه وتودين قول الكثير له حتى وأنت لا تعرفين ماذا
تقولين».

أخذت نفساً عميقاً وتسلحت بالجرأة المعدية منه فرفعت وجهها باتجاهه
لتتبعثر نبضاتها المجنونة في كل حذب وصوب، تتسارع أنفاسها وهي
عاجزة عن إبعاد عينيها عنه وكيف تبعدها وهو ينظر إليها هكذا!
تتمتم في سرها وهي مأخوذة به: «يا لها من روح قوية تملكها يا عامر
لتوصل إلى بنظرة واحدة كل هذا!».

باحمرار دافئ في وجنتيها تجد نفسها تنظر إليه كرجل وسيم أيضاً أنوثتها
أحبته بالبدلة الكحلي الليلة، للمرة الأولى تتساءل كم طوله؟! ثم تتماهى
لتفكر أن ملامحه تبدو أكثر وسامة عن قرب ولون شعره البني أجمل في

وضح النهار، ثم يخفق قلبها بعنف وهي تفكر هل شعره ناعم أم خشن؟ ابتلعت ريقها وذاك العبث الرقيق في عينيه جعلها تغرق بالحرص وكأنه كشف سريرتها، أزاحت نظراتها بعيداً وأخذت تعيد ترتيب المائدة وهي تويخ نفسها لتمامه ألم يسبق لها أن فكرت برجل هكذا؟! حتى نوفل الذي عاشت معه كزوجين لست سنوات لم تستطع النظر إليه بتدقيق أنثى في رجلها، شعرت بإحساس غريب ومحير ومربك كأن جزءاً من أنوثتها متوارٍ بخجل؛ لكنه يتوق بشدة ليعرف عامر كرجل كزوج.

«تبدين حائرة هل تحتاجين مساعدة؟ أنا بالخدمة».

ارتبكت أكثر ولم تكن بحاجة للنظر إليه كي تعرف أنه عامر وقد اقترب منها ليجاورها بل يمد يده ليحرك معها الأشياء، وكأنهما يلعبان لعبة فوق المائدة ردت باضطراب وهي لا ترفع عينيه عن المائدة: «شكراً لا أحتاج فقط كنت مترددة في وضع آنية الزهور وسط المائدة أم آخرها».

علق بصوت مبحوح: «أحب شعرك هكذا دعيه حراً دائماً ولا تقصيه أبداً أستحلفك بالله أريده طويلاً مرسلًا هكذا عندما ألمسه».

يدها ارتفعت عفويًا لتلامس خصل شعرها كأنها تكتشفه للتو، بينما عيناها تنظران إليه أخيراً وأنفاسها تعود لتسارعها المجنون وهي تراه عن قرب شديد فتشعر بقلبها ينتفض.

يده فوق المائدة جعدت الغطاء الأنيق وهو يهمس بخفوت: «لا تنظري

إليَّ هكذا يا حبيب ليس الآن بالله عليك».

لم تستطع استمرار النظر إليه فأطرقت لتهمس بقلبها المضطرب: «عد
لزوج وفاء رجاء أنا...».

قاطعها بهمسات حلوة مغموسة بلذة العشق العذبة: «روحي فداء لـ (أنا)
ليت كل الناس من حولي (أنا) ربي هب لي من لدنك ذرية (أنا) حرائر لا
يفوقهن نعومة إلا نعومة (أنا) رياه! أهذا قلبي تجسد كله أمام ناظري
في (أنا)؟!».

ما زالت مطرقة وهي تهمس بارتجاف شديد تقاوم برودة فعل تلقائية:
«عامر لم نتفق على هذا أتذكر؟».

رد يذكرها بهمس خشن: «بل أنت لا تذكرين طلبك يا حريرة عامر لقد
قلت (أريد أن أحبك عامر) وأتبعتها بـ (جداً)».

ثم أضاف بمزحة شقية: «أنا أؤدي المهمة المطلوبة فقط ولدي سمعة
أحافظ عليها الشفافية في التعامل والدقة في التنفيذ».

تجرات يده لتتحرك فوق شرشف المائدة وللحظة خاطفة كانت المرة
الثانية في حياته التي يلمس بها كفها، وللمرة الثانية تسحبها حبيبها بالسرعة
نفسها التي فعلتها قبل ست سنوات وكأن الزمن يعيد نفسه؛ لكن كم هو
شعور مختلف اليوم وكأنها بداية أخرى للحكاية نفسها همست بخجل رهيب
وهي تنظر إليه وتوبخه باضطراب: «لا تفعل هذا مجدداً».

ينظر لعينيها الناعستين وبدا كالمخدر المترنح في نشوى وهو يبتسم
بجذل لم يرد بشيء بل رفع أنامله التي لامست يدها قبل لحظات إلى فمه ثم
يهبط بها لموضع قلبه يربت هناك هامساً: «ليت (أنا) تحبني بقدر نصف ما
أحبها أنا».

ما زال يربت وهي تنظر لعذاب رقيق يشع في عينيه كأنه يحكي حكايته
هو منذ ست سنوات حكايته مع لمس الحرير الذي خلب لبه وأودع الله
عشقها في قلبها دون سبب أو ميعاد، أرخى يده جانباً ثم قال بحلاوة: «أراك
غداً عسى أن أنال الرضا بلمس الحرير بعد كل هذا الحرمان والعذاب».

ابتعد وهي تكاد تتوسل إليه أن لا يفعل! لقد مد الوصال الذي لا ينقطع
فشعرت وكأن الدموع تحرق عينيها من فرط سعادة لا تفقه مصدرها وتأثر
لا تستطيع وصفه، كل ما فعلته أن تحركت بخطوات مرتبكة لتدخل البيت
وسط ضجيج النسوة في المطبخ، ثم توجهت نحو الحمام لتغلق عليها الباب
وهناك معزولة عن جميع البشر كانت تغمض عينيها وترفع يدها دون تفكير
لترت على موضع قلبها تتلمس بعض الهدوء والتعقل لنبضه المجنون.

عمر يلبس عروسه حلقة الخطبة الذهبية في بنصرها لتتبعها هي بالباسه
حلقة الفضة فترين بنصره الأيمن وسط زغاريد أمها التي علت فوق كل
الزغاريد، في الواقع كانت تبكي وتزغرد في الوقت ذاته وهي تفتقد زوجها

في مثل هذا اليوم تهمس وكأنها توصل لروحه الرسالة (صغيرتك وحلوتك
ضي القمر خطبتها الليلة.. انظر لعريسها يا محمد يبهج القلب الحزين شاب
ولا كل الشباب).

تشعر رونا هي كمن يغرق دون مياه تغمره! تمنع نفسها التشبث به وهو
مصدر الغرق ولا طوق نجاة اللحظة، ينحني عمر برأسه ليلبسها العقد
الذهبي حول رقبتها تشعر بأطراف أنامله خلف رقبتها وقد تلكأت بغلق
القفل الصغير، خده يلامس خدها عفويًا ولا تعرف كيف تبتعد وهو يطوقها
بغرقه بهذا الشكل غير المنصف، تحاول أن تبدو قوية ومسيطرة وغير متأثرة
بطريقة حمقاء؛ لكن جسدها اللعين لا يستجيب لها بل يرتعش كعصفور بين
يديه اللتين بالكاد تلامسان بشرتها، حسن ربما بالغت بوصف نفسها
بعصفور! فالأولى أن تقول (بطة محلية) مرتعدة ولا ينقصها إلا أن تهتف
رعباً (واق واق واق)

«لا ترتجفي هكذا! أنت تشتتينني معك».

همسته الضاحكة في أذنها جعلتها تتصلب في عناد وكبرياء، بينما
ضحكة خافتة منه جعلت قلبها يقع منها في مكان ما.

«أخيراً انتهينا».

هكذا تمتم عمر وهو يبتعد والزغاريد ترتفع أكثر، بينما تهمس رونا هي في
سرّها: «أخيراً انتهى العذاب».

ليخدر أطرافها لحظياً قبلة عابرة من عمر فوق جبينها وهو يهمس لها بصوته الكاظمي: «هذه لا تحتسب قبلة».

بعد التهاني والتبريكات والقبلات والأحضان من العائلتين والأقارب والأصدقاء عاودت رونا هي الجلوس وهي تتأكد تلقائياً أنها تبتسم، فعقلها مبرمج على توصيات مشددة من أمها بهذا الصدد عندما كانت تساعد في لبس الفستان في الغرفة (ابتسمي.. ابتسمي) وعليها أن تعترف الآن أنها لم تبذل مجهوداً يذكر لتجبر نفسها على الابتسام بل إن الابتسامة الهبلاء التصقت كالغراء على شفثيها، منذ أن خرجت للحديقة ورأت عمر بانتظارها وتلك النظرة المضيفة التي وجهها نحوها ثم الجملة التي قالها لها وهي بهذه الحالة القسرية من السعادة (قطعة سعادة وسط القلب أنت يا ضي القمر).

اقشعرت وهي تشعر بيده تمسك يدها فتأبى النظر نحوه إنها مغتظة منه لأنه يؤثر فيها بهذا الشكل فتوبخ نفسها (يا غبية ولماذا أنت مغتظة؟! هل هناك فتاة حمقاء مثلك؟!).

لكنها لا تعرف لماذا تشعر بهذا الغيظ منه هل هو وسيلتها التلقائية للدفاع عن نفسها؟! أم ربما حتى اللحظة لا تصدق أن عمر القماش يرغبها وقلبه يريد لها؟! أم ربما تشكو من علة ما في عقلها، سرحت بعيداً قبل ست سنوات إلى المرة الأولى التي رآته فيها وهي بعمر السادسة عشرة في حياتها كلها لم يكلمها أبداً أي شاب بهذه الطريقة الرقيقة المراعية حتى عندما كبرت وأصبحت شابة واثقة أكثر من نفسها، وفي الواقع لم يكن

يهمها أن تسمع كلاماً معسولاً من أحد، ربما لهذا أمها كانت قلقة عليها
أنها قد لا تتزوج فلم تكن رونا هي تهتم حقاً لكن إلا عمر.. عمر القماش.

منذ اللحظة الأولى المحرجة بينهما عندما أوقعت شطيرة الفلافل من
يدها وقد علمت في قرارة نفسها أنه يعجبها؛ لكنها لم تحلم حتى أنها
ستلفت انتباهه همست في سرها تحدث نفسها وهي تشعر بيده تحتضن يدها
بتملك وثقة أجراً: «بالله عليك يا رونا هي اعترفي أنك تحببته وكفي عن
العناد مع قلبك». احمرت بشدة بينما تشعر به يميل بوجهه إليها ليهمس
قرب أذنها: «بماذا تفكرين بعيداً عني؟!».

فهمت على عجالي دون تفكير: «بشطيرة فلافل».

لم يتمالك عمر نفسه لينفجر ضاحكاً فيجعل قلبها يقرع في صدرها وهي
لا تصدق أن هذا الشاب المميز بات خطيبها رسمياً وزوجها قريباً.

وسط الزغاريد وأخوه عمر يلبس عروسه (الشبكة) كانت غينا عامر على
حرير وكأنه يشكو إليها صبره الطويل وهو يحلم بيوم مشابه يلبسها بيديه
(شبكتها) وما أثار لوعته حتى يوشك أن يفقد عقله أنها تبادله النظر وأي
نظر؟! يبتلع ريقه ومشاعرها نحوه مفضوحة تطل من عينيها حتى وهي
ليست واثقة منها أو مدركة لعمقها قلبها بريء الإحساس كطفل يحبو يتعلم
المشي للتو وهو يستقبل بذراعين مفتوحين أولى الخطوات، يتنهّد وهو

يخشى إزاحة عينيه عنها للحظة فلا يجدها بعدها الليلة كان أطول مدة
قضاها قريباً منها قريباً جداً لكن الساعات تنقضي وسترحل قريباً عائدة إلى
بيتها، قلق عاوده مجدداً من لقاء الغد فرغم أن حرير معه هذه المرة قلباً
وقالباً ووعدته أنها لن تكون لغيره فإنه يخشى ما هو غير متوقع من أبيها أن
يفسد الأمور وقد باتت للتو في نصابها الصحيح.

بعد ساعة

بينما انشغل الجميع بتناول طعام العشاء انزوى علي بعيداً يراقب
بابتسامة سارحة كيف يحوم عامر حول حرير طوال السهرة، إنه متيم بها
بطريقة متفردة، اقترب سليم من ولده البكر ليقف جواره ويقول: «شكراً بني
لتكفلك بإحضار جدك وإعادته لا بد أنك مرهق وقد قضيت النهار في العمل
أيضاً». تلقائياً تحولت نظرات علي لأمه وهي تتعلق بذراع أبيها تبالغ
برعايته واسترضائه كما لم يرها يوماً تفعل مع أحد، رد علي بحنان عاطفي:
«المهم أن نونة سعيدة».

علق سليم وهو يدس كفه في جيب سرواله الأنيق: «سيظل الأب له مكانة
أخرى مكانة لا يشغلها أحد».

عبس علي وهو يفكر بسجى للمرة الأولى يفكر أنها يتيمة فقدان والديها
بل وكل عائلتها بيوم واحد ربما لهذا السبب هي قوية هكذا تعطي ما

تفتقده! وكأنها تعوض من حولها النقص الذي لديها، مقولة (فاقد الشيء لا يعطيه) أثبتت خطأها أمام سجي، وقد عرف معها وجهاً مناقضاً لتلك المقولة (فاقد الشيء أكثر من يقدر أهمية المفقود أكثر بكثير من الذي يملكه).

تساءل سليم: «أنت قلق من رد عمك رياض أليس كذلك؟».

رد علي بتوتر وهو يشعر بحاجة ماسة للتدخين: «قلق من تأثير الخالة نبراس».

يربت سليم على كتف ولده وهو يقول له بتشجيع: «إن كانت سجي نصيبك فلن يمنع النصيب أحد».

زفر علي نفساً بقوة من فمه ثم قال بحمائية: «أقسم بالله أني أتفهم إحساس الخالة نبراس لكن سجي ماذا عنها هي؟!».

ارتفع حاجبا سليم قليلاً ليقول مداعباً ببعض الدهشة: «من الجيد أنك تفكر فيها كما تفكر في نفسك، ظننت أنك مندفع بمشاعرك وحدك».

رد علي بجدية: «بالطبع أفكر فيها لولا أني تأكدت أنها تريدني كما أريدها لما تقدمت لخطبتها لما جعلتها بهذا الموقف الصعب الذي يحرجه ويؤذيها».

ثم أضاف بصدق: «أنا أحبها أبي، كنت مشوشاً الفترة الماضية، لاكتشف هذا أو ربما مشاعري لم تصل لهذا الحد إلا مؤخراً ولا أدري كيف

سأصرف إذا رفض العم رياض طلب الزواج لكنني لن أياس».

عينا سليم حادثا نحو ولده الأوسط عامر وهو يودع عن بعد حرير وأختها الصغرى قبل مغادرتهما، لم يره يقترب منها طوال السهرة إلا مرة واحدة عند المائدة؛ لكنه طوال الوقت في وصال بالنظرات معها، قال سليم وهو يلتفت لعللي مرة أخرى: «لنرى نصيب أخيك عامر غداً وبعدها نتفرغ لموضوعك لا أخفيك سرّاً يا ولدي أنني قلق ولا أدري كيف ستكون الجلسة مع أسعد الجنابي».

عرض علي بجدية واهتمام «هل تريدني أن أحضر معكما؟».

فرد والده: «لا بني أشعر أن هذه الجلسة لا تحتل حضور المزيد منا حالياً».

السبت قرابة الغروب

بجلسة متوترة جوار أمها تنظر حرير للساعة الجدارية المعلقة أمامها على الحائط في غرفة الضيوف التي تشير للسابعة إلا ربعاً، ما زالت صامدة في الموقف المحرج الذي تواجهه اللحظة، والدها خرج على غفلة منذ الساعة الخامسة عصراً مدعياً أنه سيذهب لسوق الحي ولن يتأخر لكنه لم يعد حتى الآن هاتفه مغلق ولا أحد يعلم إلى أين ذهب، خلدون خرج للبحث عنه وسأل عنه أصحاب المحلات في السوق لكنهم نفوا رؤيتهم لوالده هذا اليوم،

فطلب من أصدقائه مساعدته في البحث عن أبيه في أطراف الحي وخارجه، وحتى اللحظة لم يجدوا أثراً، لم تكن حرير تتصور أن أباهما سيضعها بموقف مهين وعصيب كهذا أمام عامر ووالده، الحرج وعدم الارتياح شغ على الوجوه وقد كان الموعد المتفق عليه هو في تمام السادسة، دخلت سدير تحمل صينية لتقدم العصير للضيوف مجدداً وبنظرة متسائلة من حرير تردها سدير بحركة نفي برأسها لتفهم حرير أن لا خبر جديد عن والدهما، حاولت والدة حرير الثثرة بمواضيع شتى لكن لم تنجح في تحسين الموقف على الإطلاق، نظرت حرير لعامر نظرة اعتذار فردها لها بنظرة تفهم وابتسامة رقيقة ورغم هذا شعرت بغضبه الذي يكبته، الموقف كان صعباً للغاية وقد حان الوقت لتواجهه حرير على حقيقته وتستعد لأسوأ المواقف التي مرت بها على الإطلاق حتى موقف نوفل عندما أحضره والدها للصالح المزعوم لم يكن مهيناً لها بهذا الشكل، بل استطاعت الرد بما يحفظ كرامتها وكرامة أبيها؛ لكن الآن عاجزة عن إيجاد ما يقال للتفسير ورفع الحرج والإهانة قالت بشجاعة وهي تنظر للعم سليم الذي التزم الصمت التام منذ ربع ساعة: «أنا آسفة عمي سليم حقاً أعذر لتأخر أبي».

عندها رد سليم بهدوء: «لا بأس يا ابنتي المهم أن نطمئن أنه بخير ليس مهماً أن نتكلم اليوم بموضوع الخطبة».

وكأنه ضغط على زر (الهلع) لوالدة حرير فسارعت لتقول: «حاولي الاتصال به مجدداً يا ابنتي لا بد أن السيارة تعطلت وسيجد مكاناً يشحن

فيه هاتفه».

التقطت حرير هاتفها لتتصل مجدداً ثم عصّت طارف شفتها بتوتر وهي تعيد الهاتف مكانه وتقول بمزيد من القهر والارتباك: «الهاتف ما زال مغلقاً».

صمت الجميع ولم يعد هناك ما يقال بينما حرير تطأطئ رأسها وتهمس في سرها: «لن أسامحك أبداً أبي إن كنت تتعمد فعل هذا لإحراجي».

ثم ينقبض قلبها قلقاً لتدعو من قلبها أن يكون والدها بخير ولم يصبه أي مكروه.

بابتسامة عريضة بشوشة قال الشرطي خالد وهو يركن السيارة أمام بوابة بيت أسعد الجنابي: «وصلنا يا عم أسعد».

يتمتم أسعد وهو يحدق ببوابة بيته في تشوش سيطر عليه منذ أكثر من ساعة: «شكراً يا ولدي أنا لا أعرف كيف تهت هكذا».

حاول خالد تهوين الأمر عليه بالقول: «ليس بالأمر المهم يا عم أنا في الرابعة والثلاثين وأقسم لك الأسبوع الماضي تهت في شارع الرشيد هل تتخيل شرطي مرور ويتوه في شارع قديم عريق معروف بهذا الشكل وسط العاصمة؟!».

ينظر خالد عبر المرأة الأمامية لسيارة الشرطة التي ركنت خلفه ويانتظاره،
بينما يعلق أسعد وكأنه يتخبط بين عدة أفكار: «لقد تأخرت اليوم، اليوم
خطبة ابنتي».

يبارك خالد بمحبة وهو يربت على كف العم أسعد الذي يعرفه منذ سنوات
ثم يترجل من مقعد السائق الذي شغله في السيارة بعد رأى الرجل العجوز
ليس بقادر على القيادة، يشير خالد لزميله في سيارة الشرطة لانتظاره
قليلاً، ثم يلتف حول السيارة كي يساعد العم أسعد بالنزول وقد بدا له ككهل
مرهق.

دخل معه عبر البوابة وهو يحاول الثثرة ببشاشة وفي منتصف باحة الدار
فُتح الباب الداخلي وهرعت نحوهما ابنة الكبرى للعم أسعد وقد ساعدها
مؤخراً لتجديد إجازة السوق وفي إثرها كانت أمها التي تكاد لا تحملها
خطواتها من فزعها على زوجها لتتوقف عند الباب وهي تتمتم: «استريا
رب».

هتفت حريز بهلع: «خالد! ماذا هناك؟! ماذا حصل؟».

ثم تقدمت لوالدها تسنده بنفسها وتسأله بقلق رهيب: «هل أنت
بخير أبي؟!».

فجأة وبكل خشونة دفع الأب يد ابنته التي تسنده ليقول ساخطاً: «أنا
لست مشلولاً لتسنديني دعيني أدخل فقد تأخرت على ضيوفي».

ثم تركها ومضى نحو الباب حيث تقف زوجته، بينما حرير تحقق في ظهره فاعرة الفم مشدوهة التعابير! والدتها همّت نحوه تهمس إليه وكأنها تود إسناده لكنه صرخ بها أيضاً وزمجر بغضب مبهم الأسباب فتركته لشأنه كي يدخل الدار وهي تلحق به، قال الشرطي خالد بإشفاق وهو يحاول طمأنة حرير بما يستطيع: «لا تقلقي أخت حرير العم أسعد فقط تاه في الشوارع».

التفتت إليه تحاول تجاوز صدمتها وهي تسأله بقلق على أبيها أكبر من قلقها عليه وهو غائب: «وكيف وصل إليك؟ أو كيف وصلت إليه؟!».

رد خالد ببعض الحرج وهو يشرح لها: «رأيت في دوار ساحة (...)» حيث موقع عملي كما تعلمين رأيت يلف ويدور أكثر من مرة ویدی لي كأنه تائه يتلفت ولا يجد طريقه فأوقفته وتكلمت معه ووجدته حقاً لا يعرف طريق العودة للبيت».

تجمدت نظرات حرير وهي تهمس: «دوار ساحة (...)؟! إنه آخر الشارع العام لا يبعد إلا خمس دقائق عن هنا!».

تكلم الشرطي بجدية موصياً إياها: «أخت حرير لا تدعوا الحاج أسعد يخرج بمفرده مرة أخرى هو مشوش بعض الشيء».

تتماسك حرير لتخرج من صدمتها وتشكره بالقول: «شكراً لك يا خالد أتعبناك معنا».

يتبسم لها ويرفع كفه الأسمر بتحية سلام قبل أن يعود باتجاه البوابة

ليغادر الدار تاركاً الرجل العجوز في رعاية عائلته.

إن كان ما مرت به حرير قبل عودة والدها محرّجاً فالوضع الآن عصيباً، بدا والدها عابساً خشناً وهو يجالس ضيوفه ويعتذر عن تأخره بنوع من الترفع؛ لكن عامر ووالده أدركا أن الرجل ليس بوضع طبيعي خاصة مع الجلبة التي صاحبت عودته للبيت ورغم أنهما لم يفهما تفاصيل الموضوع لكن يكفي أن يعرفا أن والد حرير قد عاد من غيبته الغامضة برفقة شرطي مرور، حاول سليم أن يسحب نفسه مع ولده ويؤجل الموعد؛ لكن أسعد كان مصراً بطريقة غريبة أقرب لطفولية، الإحراج يتضاعف ووجه حرير يشع بالاحمرار ولا تعرف كيف تتصرف، رأسها مطأطأ بينما تسمع هذر والدها عن كثرة الازدحام في شوارع العاصمة حتى بات يتوه فيها، لم يحتمل عامر ما تعانيه فحاول أن يكلمها بأي حجة كي يجعلها تنظر إليه فيطلب منها: «هل لي بكوب ماء لو سمحت؟».

رفعت وجهها أخيراً فمنحها دعمه الصامت بما يستطيع بنظرته الواثقة وابتسامته المميزة المشرقة فتبتلع ريقها وهي تهز رأسها قبل أن تترك غرفة الضيوف لتحضر طلبه، عندما عادت كان والدها يراقب بانفعال يتوهج في عينيه كيف تقدم ابنته كأس الماء لعامر، وزاد انفعاله وهو يرى الابتسامة المتبادلة بينهما وكأنهما يتكلمان سرياً بل شعر حقيقة أنهما يتكلمان من وراء ظهره ويستغفلانه، هتف فجأة دون مقدمات: «أنا لست موافقاً على

عقد خطبة طويلة وخطيب ابنتي يدخل لداري ويخرج منها كما يشاء ومتى ما شاء».

تجمد الجميع بينما تلتفت حرير لأبيها وهي ما زالت واقفة جوار الكرسي الذي يجلس عليه عامر لتقول بخفوت: «لكن أبي لقد اتفقنا هل تذكر؟!».

رد أسعد بانفعال وسليم يتابع ما يحصل بتوتر: «مؤكد أذكر كفي عن محاولتك للتقليل مني والغائي أنا أعرف ما أقول هذا التلاعب لن يجدي نفعاً معي سوء السمعة سيطالك وسيطالني معك».

أصبح الوضع كله لا يُحتمل، وقف سليم على قدميه ليقف معه عامر بينما والدة حرير التي تجلس جوار زوجها تنظر للضيف بعينيها اللامعتين بالدموع وتقول كأنها تترجاه: «لماذا وقفت يا أبا علي أرجوك تفضل بالجلوس».

قال سليم وهو ينظر لأسعد الجنابي الذي لم يكلف نفسه عناء الوقوف احتراماً له: «أظن الوقت غير مناسب للتحديث في الخطبة يا أم خلدون الحاج أسعد متعب بشكل واضح ليستريح اليوم ونلتقي في وقت آخر».

النبرة الساخطة في صوت أسعد كان صادمة للجميع وهو يقول: «أي وقت آخر؟! أبعد أن قلنا للأقارب إن ولدك سيخطب ابنتي تريد الخروج الآن؟! هذا لن يحدث أبداً».

شعر سليم أن حالة أسعد الجنابي جدية للغاية، نظر ناحية ولده فيراه كيف يقف جوار حرير وهو يغلي بغضب مكتوم، كان عليه التصرف لأن الوضع

برمته يحتاج لشخص عاقل مدرك يعيد إصلاحه، عاود سليم الجلوس بهدوء وهو يشير لعامر أن يجلس أيضاً فيهز عامر رأسه بينما يطلب بخفوت من حرير الجلوس هي الأخرى، بصبر وحكمة ساير سليم حالة أسعد مستعيناً بعقله كتاجر الذي تعود على التعامل مع أصناف البشر فيقوده ليحل الأمور بروية، قال سليم أخيراً: «أوامرك يا أبا خلدون أخبرنا بما يريحك وعامر لن يقصر في شيء».

رد أسعد بالتعجرف نفسه ونظراته تبدو لامعة بطريقة غريبة: «ابنتي أقنعتني بمنح ولدك فرصة؛ لكن لن يكون هناك خطبة طويلة دون رباط شرعي».

بمزيد من الصبر قال سليم: «وأنا قلت أوامرك يا أبا خلدون إن كنت تريد عقد قران مع الخطبة مباشرة فهذا حقك».

عندها وضع أسعد ساقاً فوق ساق وهو يملي شروطه: «أجل عقد قران ويكتب المهر (...) والمؤخر (...) ولها حق المطالبة به حتى لو لم يتم الزواج».

ودّت حرير أن تنشق الأرض وتبتلعها! الأرقام التي اقترحها والدها كانت تتجاوز كل الحدود المتعارف عليها حتى لعلية القوم من الأثرياء، أما شرط المطالبة بالمقدم والمؤخر دون إتمام زواج فلم يحصل أن سمعت بشيء مشابه في الأعراف المتبعة، كانت تتجرع المهانة وهي تحاول لملمة

الموقف ففتحت فمها لتقول لأبيها: «أبي أظن أن...».

لكن عامر قاطعها وهو يقول بهدوء عجيب ينافي حالته الغاضبة المكبوتة: «أنا موافق».

فقال أسعد وهو ينظر لعامر بتحدٍ: «و...» كيلو غراماً من الذهب كشبكة عروس وأيضاً لا يحق لك المطالبة بها على الإطلاق إذا لم يتمم هذا الزواج وكله سيتم تدوينه في العقد الموثق في المحكمة».

هذه المرة هتفت حرير: «أبي ما تقوله غير معقول بل وهمي!».

لكن عامر رد بالهدوء نفسه: «وأنا موافق».

أخذت أنفاس أسعد تتسارع في احتياج ليتطرف أكثر بطلباته قائلاً بصوت حاد: «البيت يسجل باسم حرير».

عندها تدخل سليم ليتساءل بصبر: «أي بيت تقصد؟».

كان التوتر والشحن في أقصاه بينما يرد أسعد بتفكير غير متزن: «بيت العائلة طبعاً».

صمت الجميع ووالدة حرير تضع يدها على فمها كأنها تكتم شهقة، بينما تشحب حرير تماماً وهي تشعر بالإعياء والعجز عن التصرف، عامر تبادل النظرات مع أبيه ليقول سليم قاطعاً الصمت المشحون: «سبحان الله أنت اسميته (بيت العائلة) هل من الأصول التي تربينا عليها أن نسجل بيت

العائلة باسم إحدى زوجات الأولاد؟ هل هذا ما ستفعله مع ولدك خلدون عندما يكبر ويطلب فتاة للزواج؟ حدث العاقل بما يُعقل يا أبا خلدون وأذكرك مجدداً بالأصول والأعراف التي تسري بها هذه الأمور».

تلاشى الاهتمام ليعود التشوش إلى عيني أسعد الجنابي وبدأ بحالة غير مستقرة لكن أكثر تعقلاً ليقول محاولاً التبرير: «أنا أحاول ضمان حق ابنتي».

بصبر رد سليم: «رغم أن الضمانة الحقيقية في أخلاق الرجل وأصالته لا ما يقدم من ماديّات؛ لكن ما دام هذا مهماً لك فالضمانة المادية التي تطلبها تكون من صاحب الشأن يا أبا خلدون وليس مني، بيت العائلة هو بيتي وبيت زوجتي وبيت الحاجة والدتي قبلنا وأمّا أولادي فلهم حق الإرث في البيت حسب الشرع بعد وفاتي لا غير».

كانت حريص في وضع صعب للغاية وهي ترفع عينيها للعم سليم وتقول له: «أنا آسفة.. آسفة من صميم قلبي».

يبتسم سليم لها ابتسامة أبوية يحاول التخفيف من حرجها وخزيها ثم يكمل كلامه مع أبيها مضيفاً بالنبرة الهادئة الصبورة نفسها: «أولادي يا أبا خلدون لا أنفق عليهم منذ كانوا مراهقين هم يكذّون ويتعبون ليحصلوا بأنفسهم ومن عرق جبينهم على مصروفهم بل إنهم لم يحصلوا على كل مستحقّاتهم مني حتى الآن ولأجل ذلك بعت أرضاً زراعية لي مؤخراً وقريباً جداً بإذن الله

سيكون لكل واحد منهم بيت صغير هو ما يعادل جهودهم معي خلال خمسة عشرة عاماً وأكثر من العمل الدؤوب، ولعامر حرية التصرف ببيته عندها ولا أظنه سييخل على ابنتنا حرير بشيء». وأخيراً أضاف بنظرة فخورة: «أنا صنعت منهم بأمر الله رجالاً أشداء يُعتمد عليهم فأخبرني إن كنت ترتضي لابنتك ولدي عامر وقد تعهد لك بتنفيذ كل شروطك المادية».

رفع أسعد كفيه ليلا مس جانبي وجهه بطريقة غريبة وهو يقول بتشوش كامل: «أنا.. أنا..».

تحركت حرير من جلستها لتقترب من أبيها تسأله بوصت مخنوق وقلب موجوع: «هل أنت بخير أبي؟ أرجوك قلت لك يجب أن ترتاح».

رفع نظراته لابنته فتمزق قلبها لنظرة التيه في عينيه بينما يقول لها بخفوت: «فقط دخت قليلاً لكني بخير الآن».

ترتجف ابتسامة بائسة على شفثيها تمنحها له، لم تعد تدري كيف تتصرف بل لم يعد يهمها فاجأها العم سليم بالقول: «أنتظر ردك يا أبا خلدون لقد طلبت ونحن أجبنا شروطك وبما أن العروس موافقة فهل نقول على بركة الله؟».

التفتت حرير تنظر ببعض الدهشة للعم سليم وقد توقعت أن يقدر حالة أبيها أكثر لكن تلك النظرة في عيني من يفترض سيكون حماها وكأنه يقول لها (ثقي بي ودعيني أتصرف) جعلتها تصمت وتترك له الأمر للنهاية، ظل

أسعد لفترة ينظر إلى سليم كأنه لا يجد ما يرد به عليه! ليتمتم أخيراً بنظرة غير ثابتة: «على بركة الله».

قالها وكأنه لا يعيها بينما تتعثر زغرودة والدة حرير بغصة القلب فتخنقها العبرة وتند الزغرودة في منتصفها وعيناها تمتلآن بالدموع.

يقف أسعد الجنابي وهو يستند على كف ابنته ويقول باعتذار مفاجئ: «آسف يا أبا علي أظن أنني بحاجة للنوم لقد كان يوماً متعباً للغاية».

ودون أن يستغرب تصرفه أحد انسحب أسعد الجنابي من الجلسة برفقة ابنته وهو منهك مستنزف تماماً.

في باحة الدار وبعد عشر دقائق كانت حرير تقف مع عامر ووالده الحاج سليم، بينما أمها ظلت برفقة أبيها في غرفته تراعيه، قال سليم وهو ينظر إلى وجه حرير الشاحب وقد بدت كمن يحمل هموماً ثقال: «هوني عليك يا ابنتي لم يحصل شيء».

ردت حرير وهي تنظر للعم سليم تبحث عن كلمات اعتذار تنجدها: «أنا آسفة عماه، ما حصل اليوم أتحمل مسؤوليته لكني لأقسم لك لم أكن أعرف أن والذي.. والذي..».

خنقتها العبرة وهي تقاوم الانهيار بالبكاء فيطيب سليم خاطرها بالقول: «يا ابنتي أنا مقدر ولا تحملي همي هذا الشيب في رأس عمك سليم هو كله

من دروس تعلمتها في فهم البشر».

تعض شفتيها وهي تهز رأسها تهمس كلمات الامتنان، بينما يضيف سليم بجدية وعقلانية: «خطبتكما أنت وعامر يجب أن تتم بأقرب وقت ومعها عقد قران فإن كان هناك أمر صحيح قاله أبوك اليوم فهو وجوب وجود رابط شرعي بينكما حتى يكون عامر قادراً على الوجود معكم دون حرج أو إثارة للقليل والقال».

لم ينطق عامر بحرف وعيناه لا تفارقان وجه حرير، إحساسه بالعجز عن مساعدتها اللحظة يؤذيه طوال الجلسة وهم ينتظرون عودة أسعد الجنبابي كان عامر يشعر بالغضب لأجل أبيه وما شعره من إهانة بحقه ولأجل حرير وما شعره من أذى وقع عليها؛ لكن بعد عودة أبيها الوضع تغير تماماً، الرجل لم يكن متوازناً على الإطلاق، لقد جعله يتذكر أمراً من الماضي البعيد عندما كان في التاسعة عشرة.

أخذ سليم يودع حرير بكلمات مشجعة قبل المغادرة عندما قال عامر فجأة: «أبي عذراً منك هلا تنتظرني في السيارة».

نظر سليم إليه معارضاً وهو يقول: «عامر لا الوقت ولا المكان مناسبان».

أطرقت حرير ولم تعد تدري ما تقول أو حتى تشعر كانت مشوشة وتائهة وكأن ما أصاب أبوها اليوم انتقل لآترانها ليضعضه التفت عامر لأبيه وهو يقول بخفوت: «لا يمكنني تركها هكذا سأكلمها هنا في الباحة ولن أتأخر».

ما زال سليم لا يبدي اقتناعاً ليلح عامر بالطلب: «أرجوك أبي يجب أن أكلمها وجهاً لوجه لن ينفع الهاتف إنها تحتاجني».

تنهد سليم وهو يقول قبل أن يتحرك: «كما تشاء لكن عشر دقائق فقط لا يصح أن تطيل وقوفك هنا معها في هذه الظروف».

ما إن ابتعد سليم حتى تمتت حرير برأسها المطرق: «ماذا جرى لأبي يا عامر؟!». اقترب منها عامر وقلبه يتمزع ألماً لأجلها فيقول بفيض من حنان رجولته: «ستكون الأمور بخير لا تخافي سنحل الأمور كلها مهما بدت لك الآن معقدة».

تعاود هز رأسها وهي تهمس إليه بنبرة كأنها تستنجد به دون أن تشعر: «أنا لا أعرف ما أقول عامر أشعر كأني لا أعرف حتى وصف ما أشعر أنا قلقاً وخائفة.. خائفة جداً».

قال لها بحزم رقيق: «حريرتي انظري إليّ». رفعت وجهها إليه وشففتها ترتعشان اضطراباً؛ لكن ما أوجعه رؤية الانكسار في عينيها. فعقد حاجبيه ليتكلم بجدية: «إن كان والدك يعاني اضطراباً وقتياً فعلاج مناسب سيتكفل بحل المشكلة إن شاء الله».

تجمعت الدموع في عينيها وهي تهمس بخوف عظيم: «هل يمكن أن الجلطات التي تعرض لها أثرت عليه بطريقة ما؟! لقد سمعت أشياء مشابهة تحصل للدماغ تسبب تشوشاً وفقدان ذاكرة يا إلهي!».

برباطة جأش قال عامر: «سنعرضه على الطبيب المختص ونجري اللازم
لنعرف الإجابة ومهما كان سنتعامل معه ونتقبل حصوله».

رفعت كفيها تحاوط رأسها من الجانبين وهي تغمض عينيها بقوة فتعصر
دموعها الحبيسة مع انعصار قلبها وهي تردد بهمس: «أنا مشوشة..
مشوشة للغاية يا عامر لا أصدق ما حصل اليوم كأنه كابوس» .

تتقبض يدها ولا يعرف ما يفعل لا يريد إلا أخذها في حضنه حتى تهدأ
وتطمئن قليلاً ويمحو التشوش والخوف والانكسار الذي يسيطر عليها
اللحظة، يقترب منها للغاية حتى يكاد يلمسها وهو يقول بحشجة تأثر:
«ليتني أستطيع البقاء معك حتى تهدأي تماماً».

فجأة أنزلت كفيها وهي ترفع عينيها إليه لتسيل أولى الدمعات على
خديها وهي تهمس بضعف شديد حطمه: «لا تتركني عامر لا أقصد الآن
أقصد.. أقصد..».

لم تتم جملتها وقد غلبها خجلها وإدراكها المتأخر لما تطلبه ليرتفع صدى
نبضات قلبه حتى يكاد يخرج من صدره صارخاً بعشقها فيرد بهمس خشن
وهو يبتلع ريقه بصعوبة: «للممات معك هل تسمعين يا حرير لاأخر نفس في
صدري سأعطيه لك وأموت راضياً».

ما إن قال كلامه هذا حتى أجهشت بالبكاء وهي تغمر وجهها بين كفيها .
يده تخذله فترتفع إليها قليلاً ثم يثبت وهو يعيدها إلى جانب جسده

هامساً: «لا تبكي بالله عليك لا تبكي أنت تقتلينني بحالتك هذه». أخذت تمسح وجهها وهي تتمتم بحرج وخجل: «أنا آسفة لكن أنت محق يجب أن أتمالك نفسي يجب أن أتقبل الواقع وأحسن التصرف مهما كانت صعوبته». يتسم لوجهها وهي تمحو بشجاعة آثار ضعفها ليقول لها بجدية ونبرة عملية: «سنتكلم الليلة أنا وأنت يجب أن نرتب الأمور، زواجنا بات حتمياً يا حرير».

سارعت حرير لتعارض عفواً وهي تقول: «لا عامر أرجوك ربما أبي غداً سيتحسن ويتراجع عن كل كلامه يجب أن ننتظر». بالجدية نفسها ينظر في عينيها ويقول: «في كل الأحوال يجب أن يكون لي صفة رسمية في حياتك ووالدك أظنه لن ينسى كلامنا الليلة وقد وافق على عقد القران بل اشترطه وهو لن يتراجع عن كلمته».

احمر خذاها خزيًا وهي تقول له بخفوت واعتذار ضمنى: «إنه لم يكن بوعيه الكامل يا عامر، أرجوك انس كل الكلام عن المهر والذهب والشروط لا تعرف كيف شعرت وهو يتكلم هكذا؛ لكنه لم يكن يقصد حقاً ما طلبه».

رد عامر بهدوء وفطنة: «كان يقصد يا حرير فلا تتوهمي عكس هذا في داخله أراد فرض شروط تعجيزية لعرقلة الزواج؛ لكنه كان مشوشاً ففرضها بطريقة بدت غريبة وغير منطقية، كموضوع تسجيل بيت العائلة باسمك».

أخذت حرير تهز رأسها باقتناع ثم تلوم ذاتها وهي تقول بإحساس الذنب

لغفلتها: «كان يجب أن أتنبه لغرابته تصرفاته الأخيرة منذ أن أحضر نوفل إلى هنا وهو يتكلم عن إعادتنا لبعض! لكنني بكل غياب لم أفكر إلا أنه تطرف وأساء فهم كلام نوفل ليظن أنه...».

توقفت عن الكلام وهي ترى نار الغيرة تشتعل في عيني عامر بينما يكتمها فمه فهمست باحمرار أشد: «آسفة لم أقصد أن...». قاطعها عامر وهو يقول ببعض الخشونة: «سأكملك الليلة يجب أن نتفق على التفاصيل». قالت بتردد ونبرة اعتراض: «لكن عامر...». قاطعها مجدداً وهذه المرة كان مصمماً: «لم يعد هناك شيء اسمه (لكن عامر) يجب أن أدخل حياتك حرير اليوم قبل الغد، لن أظل مكبلاً هكذا وأنا عاجز عن مساعدتك».

ثم نظر في عينيها ليضيف بنبرة قوية مؤثرة جعلت نبض قلبها يعزف هادراً مع كلماته: «لله مشيئته أنك لم تكوني نصيبي منذ البداية؛ لكنك ستكونين لي بقوة الله حتى النهاية».

أغلق عامر بوابة دار أسعد الجنابي وهو يلوح بذراعه نحو حرير قبل دخولها البيت، لقد ارتاح بعض الشيء لاسترخائها والأهم أنه اطمأن لاستعادتها رابطة جأشها وثقتها بنفسها وبه أيضاً، وجد والده ينتظره في السيارة منشغلاً بهاتفه النقال لكن حالما رأى عامر قال له: «تأخرت».

رد عامر باعتذار وهو يرفع كفه: «آسف أبي».

وعندما أراد الالتفاف حول السيارة ليجلس في مقعد السائق لمح في الظلمة على بعد بضعة أمتار من بوابة دار الجنابي هيئة يعرفها، عقد حاجبيه بتركيز ليميز خلدون بمفرده مستنداً بظهره على حائط سور الجيران وهو يدخن سيجارة، أشار عامر لأبيه بالانتظار قليلاً ثم خطا قاطعاً تلك الأمتار القليلة نحو المراهق خلدون، بنظرة تمرد أخذ خلدون ينفث الدخان من فمه وهو يجاهر بفعله كأنه يتحدى كل شيء حوله؛ لكن عامر لم ينظر حتى للسيجارة بل سأله بنبرة عادية: «لماذا تقف هنا يا خلدون؟».

رد خلدون بسخط: «لا أطيق الدخول لا أريد أن أراه».

عرف عامر من يقصد خلدون بكلامه فسأله بهدوء: «لماذا؟».

عندها أخذ خلدون يلوح بكفه التي تحمل السيجارة في عنف وهو يهدر بغضب: «يكفي أنه كسر حرير أمامك وأمام والدك لا أعرف كيف صبرتما على كلامه ولم تتركا الجلسة، أنا وسدير كنا نستمع عبر الباب لكلامه وقد ملأنا الخزي والعار من أقواله وأفعاله». صمت عامر ولم يعلق بشيء بينما خلدون يضع السيجارة في فمها ليسحب نفساً عميقاً ثم يضيف وهو ينفث الدخان: «أنا شخصياً لم أحتمل فغادرت البيت مع طلبه السخيف التعجيزي بتسجيل بيت عائلتك باسم حرير».

كان عامر ينظر إليه ويرى فيه كم التخبط الذي يعيشه الفتى لا يعرف كيف يفرغ غضبه واحتياجه للاهتمام فيلجأ للتمرد والثورة العلنية لعله

يكسب بعض الانتباه.

يهذر خلدون بمزيد من التخبط والحيرة: «لا أفهمه! لماذا يفعل هذا؟! لماذا يكرهنا ولا يريد لنا إلا التعاسة؟! ألا يكفي أنه تسبب بتعاستها في المرة الأولى وزوجها لذاك (الإمعة) نوفل؟!».

ثم ينظر لعامر قائلاً بعاطفة (الأخ) العفوية وأفكاره التي لم تنضج بعد: «خذها يا عامر خلصها من كآبة هذا البيت، أبي يريد دفنها حية هنا».

أخيراً تكلم عامر وهو يسأل: «وأنت ماذا ستفعل بعد أن آخذ حريي؟».

هتف خلدون بتشوش وغضب: «لا أعلم لا أعلم أفكر أن أهاجر حين أبلغ سنّ الرشد، حتى لو اضطررت للسفر بطريقة التهريب سباحة عبر البحر، سأقضي السنوات المقبلة أتدرب وأقوي عضلاتي لأكون جاهزاً».

فسأل عامر بالنبرة الهادئة نفسها: «وماذا عن أمك وأختك سدير؟! ألا يفترض أن تتدرب لتكون رجلاً يتحمل مسؤوليتهما؟!».

نظر خلدون إليه ببعض الارتباك لكنه سرعان ما أشاح بوجهه بعيداً ليعود لسحب الأنفاس من سيجارته، بينما يضيف عامر بنبرة جدية متأنية: «والدك قد يكون بحاجة لعلاج يا خلدون».

فيلتفت إليه خلدون متسائلاً ببعض القلق: «عن أي علاج تتكلم؟! تقصد مرض القلب؟». فيواجهه عامر بالحقيقة قائلاً: «لا والدك يعاني تشوشاً يؤثر على أفعاله نتمنى أن يكون الأمر طارئاً وعابراً، لكنني أظن حالته جدية

ويجب أن نفكر بأسوأ الاحتمالات».

عندها ثارت ثائرة خلدون بشكل رهيب وهو يهذر: «أهذه لعبته الجديدة ليبرر أفعاله المخزية؟! إنه يكذب يكذب يدعي المرض العقلي هذه المرة لاستدرار عطفنا يبتزنا كالعادة ليجبرنا أن نفعل ما يشاء بعد أن فقد قدرته علينا».

حاول عامر احتواء حالة الفتى وشكوكه بأبيه ليقول له: «حتى لو كان ما تقوله صحيحاً فهذا يعني أن والدك يعاني شيئاً خاطئاً لا أحد يدعي هكذا أمور ويكون بوضع طبيعي».

بدا خلدون أكثر تشوشاً وحيرة وتخبطاً، بينما يضيف عامر وهو يضع كفه على كتف الفتى يحاول امتصاص ثورته ما استطاع وتوجيهه ليجد هدفاً وطريقاً ليثبت نفسه ويبني شخصيته بشكل صحيح: «الرجل الحقيقي يا خلدون لا يترك أهل بيته وهم بحاجة، إن كنت لا تهتم حقاً بوالدك (وهذا أشك فيه) فيجب أن تهتم على الأقل بأمك وأختيك، أن تكون سنداً لهن».

يزم خلدون شفتيه وما زالت شعلة التمرد تتقد كالجمر في عينيه فيبعد عامر كفه وهو يقول أخيراً: «إثبات رجولتك ليست في التدخين يا خلدون ولا في تحدي والدك الضعيف، ومؤكد ليست في الهرب سباحة تاركاً وراءك عائلتك التي تحتاجك، الرجولة تعني تحملك للمسؤولية وصلابتك في المواقف الصعبة وأصالتك مع أهل بيتك ورحمك».

قالها عامر وترك خلدون ليتفكر ثم تحرك عائداً للسيارة وقد أطل انتظار أبيه كثيراً وهو يودع خلدون: «في أمان الله».

عندما عاد عامر للسيارة وشغل المحرك سأله والده بهدوء: «هل تذكر الحاج عبد المنعم الكبيسي رحمه الله؟ جارنا القديم في سوق الأقمشة صديق جدك رحمهما الله معاً».

بنظرة خاصة وجهها عامر لأبيه رد وهو يحرك السيارة: «اليوم ذكرني به العم أسعد».

ثم ساد الصمت للحظات وعامر يتذكر العم عبد المنعم الذي أصيب بمرض الخرف المبكر أو ما يسمى (ألزهايمر) وكم ذكرته نظرات العم أسعد به الليلة، تتمم سليم: «لندعو الله أن حالة والد حرير ليست بهذا السوء».

منذ الظهيرة وهي تحبس نفسها في غرفتها تدعي الانشغال بالعمل على الحاسوب؛ لكنها في الواقع كانت تضع السماعات الموصولة لهاتفها النقال في أذنيها وتعيد سماع رسالة علي الصوتية (أنا في طريق العودة من الشمال لبيتك كنت معي هناك أوصلت جدي زيدون ليلة الأمس بعد حفل خطبة صغيرنا المستفز عمر، في الواقع أنا غيور من أصغر أولاد القماش وكيف لا أكون وهو يتبجح أمامنا إنه سيتزوج قبلي وقبل عامر، هل يرضيك هذا؟! أتعلمين اليوم فقط تذكرت أنني لم أتناقش معك الشطيرة بل أخذتها

كلها لنفسى؟! آسف شهيتي معك مفتوحة بعدة اتجاهات وأفقد السيطرة تماماً (تنهيدة طويلة) سجي أنا مغرم ومتعب ومشتاق وأعترف لست بصبور أنا فاشل بالصبر معك على نحو مخزٍ (تنهيدة ثانية أطول من الأولى) أخبريني هل هناك جديد من عمي رياض؟ إن كان الجواب نفيًا فلا تردي بشيء لأنني سأصاب بالإحباط وربما سأتهور بشكل خاطئ).

ولم ترد لأن العم رياض لم يتكلم حتى اللحظة، ربما ينتظر تحسن مزاج الخالة نبراس؛ لكن مزاجها لا يتحسن بل يزداد سوءاً وسط صمتٍ بطيء قاتل، أبعدت سجي الساعات عن أذنيها ثم أخذت تنظر للصورة العائلية المعلقة وهي تهمس بارتعاش لوجه أمها: «منذ ساعات لا أستطيع منع نفسي من تكرار سماع صوته لا أريد إلا الشعور بتأثير صوته ودغدغة كلماته والغرق في تنهيداته أنا أحبه أُمي أحب علي من كل قلبي لم أستطع أن أحب غيره وهو بعيد المنال فماذا أفعل الآن وهو يريدني بهذه القوة؟!».

فجأة أجفلت سجي وصوت خطوات هادرة متسارعة على الدرج ومعها يختلط صوت عمها رياض وصوت خالتها نبراس دون أن تميز سجي ما يقولانه؛ لكن ليس هناك أي مجال للشك أن الحوار كان على وتيرة منفعة للغاية، انقبض قلب سجي فهمست بارتجاف وهي تخمن القادم: «يا رب كن معي».

بعاصفة انفعالية عاتية اقتحمت خالتها غرفتها وهي تفتح الباب بعنف دون استئذان، أخذت أنفاس سجي تتسارع وهي تنظر لحالة خالتها الرهيبة،

كان العم رياض خلف خالتها يحاول إمساك كتفيها وتهديتها بالقول: «بالله عليك قلت لك دعينا نتكلم بتعقل».

لكن الخالة نبراس بتعابيرها المهتاجة ونظراتها المُدِينَة لابنة أختها كانت تصرخ في زوجها وهي تحاول تخليص كتفيها من إمساك كفيه: «دعني رياض قلت لك دعني». تحاول التقدم من سجي المتسمة مكانها وهي تقول باتهام بشع المعنى: «تريدين سرقة علي؟!».

شعرت سجي بجدران الغرفة تدور بها، بينما تسمع عمها رياض يهتف: «نبراس اتقي الله استغفريه واستعيذي به من الشيطان الرجيم».

صرخت نبراس بهستيرية وهي تنظر لسجي بكرة لحظي وكأنها نسيت من تكون بالنسبة إليها: «أنا لن أسمح أبداً بهذا الزواج أبداً أسمعني يا سجي؟! علي لن يتزوج بعد هيام سأفعل المستحيل كي لا يفعل لا أنت ولا غيرك من نساء العالمين».

رغم جرحها النازف حاولت سجي الكلام فخرج صوتها ضعيفاً من شدة الألم: «خالتي أنا...».

لكن خالتها تمكنت من تحرير كتفيها لتتقدم نحو سجي تقاطعها بمزيد من الاتهامات الشنيعة: «تريدين خطف زوج هيام؟ تريدين سرقة!».

ثم شهقت سجي وخالتها تمسك بتلابيب قميص نومها القطني لتهزها وهي تضيف بالصراخ نفسه، وقد بدأت عيناها تذرفان الدموع: «أنت أختها

أرضعتك من صدري وربيتك على حجري وآويتك في بيتي كيف تفعلين بها
هذا؟! كيف تؤلمينها في قبرها؟! كيف يا جاحدة يا ناكرة الجميل والمعروف
يا يا يا خائنة.. أنت خائنة حقيرة، اخرجي من بيتي لا أريدك هنا بعد
اليوم».

الفصل التاسع عشر

«أنت أختها أرضعتك من صدري وريبتك على حجري وأويتك في بيتي كيف تفعلين بها هذا؟! كيف تؤلمينها في قبرها؟! كيف يا جاحدة يا ناكرة الجميل والمعروف؟! يا.. يا.. يا خائنة.. أنت خائنة حقيرة، اخرجي من بيتي لا أريدك هنا بعد اليوم».

تحجرت الدموع في عيني سجي من هول الصدمة! تحديق في وجه خالتها الباكي ولا تصدق أنها نطقت بتلك الكلمات القاتلة، هذا الجرح لن تنساه لآخر لحظة في حياتها، كانت اللحظة التي شعرت بها بيئتها بل أكثر لحظة شجرت بها بموت عائلتها وكأنها فقدتهم للتو وليس قبل ثلاثة وعشرين عاماً، كانت تقريباً تترنح أو جسدها يترنح منها وهي لا تشعر به، بينما يهب أمام ناظريها العم رياض ليتحرك من خلف خالتها ويقف بينهما وهو يهدر في زوجته: «لقد تماديت يا نبراس! كفى أنت لم تعودتي مدركة لما تقولين».

نصف سجي محبوب خلف ظهر من رباها وعرفته بمقام الأب طوال حياتها، وكم ودّت سجي أن تميل إليه لتغمر وجهها مخبئاً في ظهره؛ لكنها لم تفعل بل تصمت كحجارة صماء وخالتها ترميها بالمزيد من (القتل): «بل مدركة وأشعر بفلذة كبدي حتى وهي تحت الثرى، إنها ستتألم من أي امرأة تأخذ مكانها في قلب حبيبها علي وستتألم ضعفاً عندما تكون هذه المرأة أختها سجي».

عندها فقط شَعَّت عينا سجي بكل ما تخفيه ونأت بروحها عن الشكوى
فتقولها أخيراً وهي تتحرك من خلف ظهر عمها رياض: «ليتك قلت الجملة
نفسها لهيام».

ثم ترددت ثانيتين والجرح يصرخ بالآلم وهي تهمسها: «أمي!».

ساد صمت مطبق وعينا نبراس جاحظتان والدموع ما زالت تسح منهما،
بينما تحديق في وجه سجي لتواجه تأثير اعترافها ببنوتها بعد هذه السنوات
الطوال وأي اعتراف! وأي توقيت! لقد كان الاعتراف بنوة موصومة بتهمة
الخيانة ممهورة بإذلال التمتن عندها الدموع تجمعت في عيني سجي
لتضيف: «ليتك قلت لها إني أختها إني ابنتك».

لم يحتمل رياض ألم سجي ليقول بصلافة وهو يعنيها بالحرف: «وابنتي أنا
وقسماً بالله إن لم ترتجعي يا نبراس وتعودي لعقلك اللحظة فأنا الذي
سيترك الدار الليلة وسأخذ معي سجي».

كان موقفاً مروعاً وقد بدت نبراس في حالة صراع عجيب وهي تقف هذه
الوقفة أمامهما، ورغم اهتزازها حتى النخاع رغم ذاك الألم في عيني سجي
الذي يمس موضعاً من قلبها فإن ولاءها لابنتها وحيدتها هيام يفوق ولاءها
لأي بشر حتى لو كان ذاك البشر ابنة أختها وابنتها بالرضاعة، بل حتى لو
كانت سجي ابنتها من رحمها فسيظل لهيام مكانة أعلى، انتصر ذاك الولاء
المرضي وهي تتراجع خطوة للخلف بعيداً عنهما لترد باتهام عنيف وهي

تشير بسبابتها المرتجفة: «أنتما.. أنتما الاثنان تخونان هيام تطعنانها في الظهر».

تقدم رياض من زوجته وهو يصرخ فيها: «كفى نبراس لم أعد أحتمل عدم تقبلك لقضاء الله وقدره! هيام ماتت ماتت ولم تعد تشعر كما يشعر الأحياء».

انكملت سجي من شدة الألم بينما تحول الحوار بين خالتها وعمها ليتبادلا الصراخ معاً فترد خالتها نبراس بالقول وهي تضرب على صدرها: «أجل هي ماتت وارتاحت لكن أنا أنا من أورثتني ألمها حتى ألحق بها في قبر مجاور لقبرها».

أمسكها رياض من كتفيها يضغط بأصابعه وهو يحاول بكل طاقته: «أفيقي يا نبراس فكري أن الله سبحانه ترأف بنا وقد كتب علينا تذوق مرارة فقد ابنتنا من صلبنا، فأعطانا وأكرمنا بهدية لتكون سجي ابنتنا بالرضاعة، كبرت أمامنا وفي حضننا كما كبرت هيام».

لكن كلمات رياض لم تزلها إلا ثورة وهي تبعد كفيه عنها وتعود لنبرة الاتهام ملوحة بيدها في عنف نحو سجي وهي تصرخ: «أجل كبرت في حضننا! والآن تريد أخذ علي لنفسها، تريد قتلي في كل مرة أراها معه».

تتباعد أكثر وهي تتهمهما معاً: «أنتما.. أنتما تريدان موتي ليتني أموت أريد ابنتي.. أريد ابنتي».

ثم أخذت تلطم على الخدين وتولول على ابنتها هيام لتخرج من الغرفة وهي ما زالت على أفعالها تلك.

أطرق رياض برأسه في يأس بينما يتمتم: «لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله».

ثم استدار لسجى فيجدها منكمشة هناك تغمض عينيها بقوة وتتجلد لتقاوم ألم المواجهة، تقدم منها وقلبه يتوجع لأجلها فيضمها إليه وهو يهمس بحنان: «تعالى يا ابنتى فى حضىنى تعالى».

تستند برأسها على صدره فتتحرر دموعها أخيراً ويدها تشبثان بجلبابه الأبيض يمسد فوق شعرها وهو يحاول طمأنتها: «ستكون الأمور بخير يا ابنتى اصبرى وصابرى والعاقبة خير بإذن الله».

ردت سجى بشعورها الحالي: «لم أعذ أريد الزواج من علي».

فبعددها عمها رياض عن صدره لينظر إليها عابساً وهو يويخها بحنان الأب: «لا تتفوهى بالحماقات كنا نتوقع هذه الثورة من خالتك وأنت ذكية كفاية لتعرفى أنها سترفض بهذا العنف».

ردت سجى وهي تمسح دموعها وتقول بحشجة: «إنها الحقيقة عمى خالتي مخقة.. الأمر لن يستقيم».

تمسح الدموع وتسيل أخرى فيبتسم رياض وهو يمد يده ليمسح تلك الدموع التي لا تتوقف قائلاً بلطف: «وهذه الدموع التي تذرفينها؟».

تبتعد وجهها جانباً لتهمس بوجع ينبض مع كل نبضة قلب في صدرها:
«ستجف وسأ.. سأنسى».

فعلق العم رياض بثقة: «إن نسيت أنتِ فعلي لن ينسى أنا أعرفه
كما أعرفك».

يزداد نبض الوجع وهي تهز رأسها برفض قائلة بخفوت: «لم يعد يهم أريد
فقط أن.. أن أغادر البيت سأبحث عن أقارب أبي».

عقد رياض حاجبيه وهو يقول بنبرة ممازحة كأنه لا يأخذ كلامها على
محمل الجد: «هل جنت؟! أي أقارب لأبيك؟! إن سمعتك تكررين هذا
سأحبسك في غرفتك».

ابتلعت سجي ريقها بصعوبة فقالت وهي تحاول إقناعه بجدية وكرامتها
توجعها كوجع القلب: «عمي أتوسل إليك لا أستطيع البقاء بعدما قالته
خالتي».

فرد بنبرة قاطعة لا تقبل النقاش: «لا يهمني ما قالته خالتك بلحظة
انفعال، ما يهمني أنك ابنتي، وابنتي لا تغادر بيتي إلا إلى بيت زوجها».

لم تعرف بماذا ترد! إنها لا تعرف حتى كيف ستتعامل مع خالتها لتقول
بحشرجة: «خالتي لن تنسى لقد كرهتني لن أستطيع تحمل كرهها لي».

عندها قال العم رياض بهدوء: «دعيني أتصرف فقط أريدك أن تتحاشينها

الفترة المقبلة وبإذن الله القادم كله خير».

صباح اليوم التالي

دخلت حرير إلى غرفة أبيها على أطراف أصابعها وقد أخبرتها أمها أنه ما زال نائماً، ورغم أن أمها طمأنتها أنه بخير لكنها لم تستطع الذهاب لعملها في المدرسة قبل أن تتأكد بنفسها، خاصة وهو معتاد على الاستيقاظ باكراً فلم يكن يتأخر بالنوم حتى الوقت الذي تخرج فيه هي، رآته يغفو كطفل! أوجع قلبها بسكينته، مالت إليه وقبلت جبينه ثم تحركت عائدة نحو باب الغرفة كي تغادرها.

طوال طريق ذهابها للمدرسة كانت تفكر بمكالمتها القصيرة المختصرة مع عامر، طلبت منه أن يؤجلا الحديث لليوم التالي لأنها مشوشة ومرهقة وتحتاج أن ترتب أفكارها لتتصرف بشكل صحيح وهو لم يلح عليها لكنه ثبت موقفاً معها بأن الخطبة يجب أن تتم دون تأخير، قلبها منقبض وهي تشعر أن عامر قلق على حالة والدها وأنه يرجح أمراً ما لا يكشفه لها، تهب رياح الخريف فتلملم نفسها وهي تشعر بالبرد وقلبها المنقبض يوجعها همست تكلم ربها ونظراتها للسماء: «لا تؤلمني في أبي يا رب لا تكسر فرحتي مع عامر وأنا للتو أذوق معنى الفرح».

دمعت عينها لكنها منعت نفسها من الاستسلام للبكاء، اليوم يجب أن

تكون بكامل قوتها وثباتها لتتكلم مع أبيها أولاً يجب أن تعرف مدى إدراكه
لجلسة الأمس وأيضاً يجب أن تجد طريقة لإقناعه بزيارة الطبيب لأنها واثقة
من رفضه للفكرة جملة وتفصيلاً، وسيعتقد أنها تحاول التشكيك بقراراته
وأفعاله.

مرت ساعات النهار وانتصفت الظهيرة وبينما تخرج حرير من حصتها
الرابعة الأخيرة لهذا اليوم وجدت ثلاث مكالمات فائتة من عامر، انشغل
بالحا لأن هذا يعني أمراً مهماً للغاية جعله يتصل بها بتكرار هكذا؛ لكنها
انتظرت حتى خروجها من المدرسة كي تكلمه بحرية، وقد كان عامر
بانتظارها ليرد من الرنة الثانية وهو يقول بهدوء مقلق: «مرحباً حرير».

ردت وهي تتساءل بالوقت نفسه: «مرحباً.. هل حصل شيء يا عامر؟
أقلقنتي مكالماتك».

رد عامر بسؤال: «أين أنت الآن؟».

ف قالت وهي تنظر حولها: «أنا غادرت المدرسة قبل دقيقة وفي
طريقي للبيت».

قال عامر عندها: «إذن دعينا نتكلم بالمهم قبل أن تصلي».

صمت لحظة قبل أن يضيف: «هل تكلمت مع والدك البارحة أو اليوم؟».

داهمها خوف رهيب فتتساءل بصوت مرتجف: «هل أبي بخير؟!».

تنفست الصعداء وعامر يرد: «مؤكد بخير لماذا خفتِ هكذا؟!».

فتشرح له والقلق يعاودها على صحة أبيها: «ليلة أمس خلد إلى فراشه مبكراً ولم أكمله، وفي الصباح كان ما زال نائماً عندما غادرت لعملي؛ لكن أُمِّي طمأننتني برسالة فيما بعد أنه استيقظ هادئاً وطلب الإفطار».

عندها قال عامر: «والدك اتصل بأبي». اتسعت عينا حرير دهشة وهي تقول: «اتصل بعمي سليم؟! متى؟».

فرد عامر: «قبل ساعة، وقد اتفق معه على كل شيء».

توقفت قدما حرير وسط الطريق وهي تقول باضطراب: «ماذا تعني كل شيء؟!».

فوضح عامر: «أخبره أنه البارحة كان مرهقاً ومزاج سيء بعض الشيء وأنه ربما بالغ بشروطه».

دمعت عينا حرير تأثراً وهي تهمس: «هل فعل هذا حقاً؟! الحمد لله ألف حمد وشكر، هذا يعني قد عاد لطبيعته إنه بخير».

لم يعلق عامر بشيء على صحة أبيها بل قال بالتركيز والهدوء نفسه: «والدك تنازل عن شرط كمية الذهب وترك لك اختيار ما يعجبك للشبكة؛ لكنه مصر على المقدم والمؤخر وأن أكتب لك صكاً بالمبلغ تستلمينه مني يوم العقد ويثبت أمام القاضي، كما يريد مني تعهداً بتسجيل أي دار سأشتريها مستقبلاً مناصفة بيني وبينك».

وضعت حرير يدها الحرة على فمها ولم تستطع التعليق بشيء، وعندما طال صمتها ناداها عامر بترفق: «حرير هل أنت بخير؟». ردت وشعور الخزي يعاودها: «لا عامر لست بخير، لا يمكن أن يفرض شروطاً كهذه حتى بعد تخفيفها».

قال عامر: «أنت تعرفين أباك أكثر مني وتعرفين أنه لم يكن سيتنازل عما طلبه وقد قلت لك هذا بالأمس إنه مدرك لما يطلب سواء أكان يحاول دفعي للتراجع عن إتمام زواجنا أو كان يضمن حقك كما يراه مناسباً، وفي كل الأحوال أنا وافقت حتى على شروطه السابقة وقد كنت مدركاً لما وافقت عليه وجاد بدفع كل مدخراتي لأجل ما طلب».

أوجعها قلبها وهو يقول (دفع كل مدخراتي) لكنها عاودت السير وهي تحاول التكلم بجدية لثنيه عن القبول بشروط أبيها: «اسمعي عامر لن تدفع أي شيء من مدخراتك، كل هذا ال...».

قاطعها عامر بالقول: «كل هذا انسيه الآن يا حرير، المهم أن الاتفاق تم سأنفذ له شروطه والجمعة المقبلة سيكون المشاية (جلسة الرجال) والاثنين عقد القران في المحكمة مع تثبيت الحقوق لك».

تضرج خدا حرير بالحمرة القانية من شدة خزيها وشعورها بالاضطراب وهي تتمتم: «يوم الاثنين؟! بهذه السرعة؟!».

فرد عامر: «أجل هذا مطلبه أيضاً هو من حدد اليومين وقال بعد عقد

القران يمكن لوالدتي ووالدتك الاتفاق على يوم لشراء الشبكة ويوم آخر لحفل بسيط في داركم». صمتت مجدداً وهي عاجزة عن قول شيء لا تريد إلا الوصول للبيت والتكلم مع أبيها ربما هو خفف من وطأة موقفه ليلة الأمس؛ لكن ما فعله اليوم لم يعد هناك تراجع عنه وهذا يشعرها حقاً بالغضب وكأن عامر أدرك ما يحمله صمتها ليقول لها بصوت خافت: «لا تهتمي لهذه الأمور أبداً فكري فقط أن ثمانية أيام تفصلنا وتكونين زوجتي».

رغم رعشة التأثير لكلماته ومعانيها فإنها عضت شفتها السفلى قهراً. وهي تهمس بمشاعر مختلطة: «لا أعرف كيف أشعر صدقاً يا عامر، أبي بات صعباً للغاية وغير متوقع على الإطلاق؛ كما أنني قلقة على صحته وأريد إقناعه بزيارة طبيبه».

رد عامر بنبرة غامضة هذه المرة: «ولأجل هذا وغيره من الأسباب وكما أخبرتك ليلة الأمس زواجنا يجب أن يتم سريعاً وقسماً بالله هذا ليس لأجلي فحسب».

قال كلماته الأخيرة بنبرة حلوة خافتة فاحمرت هذه المرة خجلاً وهي تدرك ما يرمي إليه، قالت بخفوت ترد عليه بحيرة حقيقية: «أنا لا أعرف كيف أتصرف! لا أعرف كيف أتخذ القرار بما يناسب الظروف، حقاً لا أعرف يا عامر».

فرد بسلاسة حلوة دافئة: «إذن دعيني أساعدك لتتصرف معاً ولن أفعل ما يسبب الإساءة لك أو لوالدك، ثقي بي أثنفين كفاية يا حبيب؟».

قالها بإلحاح خاص وكأن ردها سيحدد أموراً أكثر أهمية بينهما، وقد شعرت اللحظة أن ثقتها الكاملة بعامر قد أينعت ثمارها ليستحقها عن جدارة منحه إياها راضية ممتلئة بالسكينة أخيراً: «لم أثق بإنسان في حياتي كما أثق بك أنت».

تنهيدة أتها من الجانب الآخر وهو يغمم اسمها بنبرة عاطفية حارة: «حبيب يا حبيب ليتني أراك اللحظة؛ لكن لا بأس حقي فيك سأخذه قريباً كالأملاً دون نقصان».

دفع تورد في خديها فسارعت لإنهاء المكالمة معه وخطواتها تتعثر حياء وهي تصل بوابة البيت ورغم هذا فقلبها ينبض مع الفرح قلقاً غامضاً من القادم.

على الجانب الآخر كان عامر يرخي أجفانه والهاتف النقال ما زال في يده، دخل عليه المخزن أخوه عمر فيجده على هذه الوقفة المحيرة فيسأله: «هل الأمور سارت بخير؟».

فرد عامر وهو يعيد الهاتف لجيب سرواله الخلفي قائلاً: «أظنها تسير بخير».

فيعقد عمر حاجبيه قليلاً وهو يتساءل: «إذن لماذا أراك بوجه غريب

هكذا! ظننتك ستشير الزوابع احتفالاً وأنت ستعقد قرانك قبلي!»،

تبسم عامر لكنه لم يرد، ليتقدم أخاه مغادراً المخزن وباله مشغول أنه يفكر بالحالة الصحية لمن سيكون قريباً حماه، ربما حرير غافلة ولو بشكل جزئي عن حالة أبيها ومدى جديتها، أو أنها تفسر ما حدث ليلة الأمس مجرد مبالغة من والدها بوضع عراقيل لتعطيل الزواج، خاصة بعد تحسينه للموقف اليوم مما طمأنها أنه بوعيه وإدراكه؛ لكن ذكرى الحاج عبد المنعم الكبيسي رحمه الله تلح على عامر منذ البارحة حتى إنه تذكر تفاصيل كثيرة منها عقود بيع أجراها لبعض ممتلكاته ثم نسي لمن باع وكيف ومتى! تذكر عامر أيضاً عندما كان في التاسعة عشرة ورأى يوماً ذاك الرجل المهيب الطيب تائهاً في سوق الأقمشة لا يعرف كيف يصل محله! محله الذي يملكه أباً عن جد! وعندما أوصله عامر إلى هناك شكره العم عبد المنعم وهو يناديه باسم (سليم)! لن ينسى عامر نظراته أبداً وقد أعادت نظرات أسعد الجنابي بالأمس كل تلك الذكريات.

تعتكف سجي في غرفتها، الحاسوب على حجرها وهي نصف مستلقية على سريرها لقد طلبت إجازة طارئة لنهاية الأسبوع وربما تمدها أكثر، كان بقاؤها في البيت مع الخالة نبراس أهون من احتمالية لقاء علي في الجامعة وقد كانت مرهقة بالفعل، قضت ليلة من أسوأ لياليها للمرة الأولى منذ سنوات تحلم بالحادث المروع الذي أودى بحياة عائلتها، لقد استيقظت وهي

تهتز بعنف وتتلفت حولها تبحث عنهم والعرق يتصبب ويختلط على وجهها مع دموعها كان حلماً بشعاً.. بشعاً، أغمضت عينيها بتعب وهي تتذكر حالتها فجر اليوم حتى أُنْتها طرقات على الباب أجفلتها ثم صوت عمها رياض يمنحها الطمأنينة وهو يستأذن للدخول: «هل أنت مستيقظة يا ابنتي؟».

فترد سجي وهي تبعد الحاسوب عن حجرها وتتحرك لتغادر السرير: «نعم عماه.. تفضل».

دخل العم رياض ورغم ابتسامته شعرت أنه يحمل لها أخباراً، جف فمها وهي تسأل بتوتر: «هل حصل شيء عمي؟».

رد العم رياض وهو يقترب من منها ليقول بخفوت: «لقد استغلّيت خروجي للتبضع من الأسواق في الحي واتصلت بعلي».

بصلابة واجهت الموقف وهي تسأل: «وهل أخبرته؟».

فرد العم رياض وهو يهز رأسه: «أخبرته أن نبراس رفضت كما توقعنا ورغم أنه توتر من ردي؛ لكنه سألني عن رأيي أنا فأخبرته أنني موافق لكنني طلبت منه الصبر لأقنع نبراس». بتأثر شديد همست سجي: «عماه لم يكن يجب عليك قول هذا لعلي أرجوك لا تدعي أنك موافق بينما في داخلك تتألم كما تتألم الخالة نبراس أرجوك ساعدني لأنهي الأمر».

نظر رياض مطولاً إليها قبل أن يقول: «أوان التراجع قد فات يا سجي لا

أريدك أن تظلي مدفونة معنا هنا، نبراس إن لم تتقبل اليوم ستتقبل غداً وإن لم يكن غداً فبعد غد أو بعد شهر».

ردت سجي وفي داخلها تشعر بهذا: «أنت تعرف أنها لن تتقبل أبداً».

فعلق العم رياض: «إن أبت التقبل فهذا شأنها وليس شأنك».

ثم تركها ومضى وسجي تنظر حولها وتشعر بوحدتها أشد وأقسى.

بعد دقائق رن هاتفها ولم يكن لديها أدنى شك أنه علي وقد كان هو بالفعل؛ لكنها لم ترد بل رفضت قبول الاتصال ثم أخذت تكتب له رسالة نصية (أرجوك علي لا تتصل عمي رياض أخبرني للتو عن مكالمته معك أنا مرهقة و...)، قبل أن تتم كتابة الرسالة عاود علي الاتصال فأخذت نفساً عميقاً وأطلقت ببطء كي تهدأ، رفضت قبول الاتصال مجدداً لتكمل كتابة الرسالة (أنا مرهقة ومستنزفة وأحتاج حقاً للاختلاء بنفسي، دعني لبضعة أيام أرجوك) أرسلت الرسالة وهي تميل بظهرها للخلف تستند لوسائدها والهاتف ملقى جوارها، أتاها الرد سريعاً منه برسالة نصية (وأنا لن أتوقف عن الاتصال حتى تردي)، وما إن قرأتها حتى عاود الاتصال للمرة الثالثة، لم يكن امامها إلا أن ترد هذه المرة، فتحت الخط وهي ترد بخفوت: «ماذا تريد يا علي؟».

أنتها دفعة من أنفاسه المتوترة عبر الهاتف قبل أن يقول لها بصوت أشد خفوتاً: «أنا أحبك».

خنقتها العبرة تأثراً وشعرت بروحها كلها تنتفض لأجل تلك الكلمة التي صدرت من فمه أضاف بالخفوت نفسه: «إياك أن تفكري بالبعد عني أتسمعينني سجي؟ هذا لن يحصل».

لم ترد، التزمت الصمت فهذا ما تعلمت إجادته، حياتها بأكملها تشكلت في دائرة صمتها الخاصة طفولتها ألعابها رغباتها تقلبات مراهقتها احتياجاتها طموحاتها أحزانها إحساس الفقد لعائلتها آلامها حبها لعللي، كلها ضمن تلك الدائرة التي لا يدخلها أحد.

«سجي» صوته ينطق باسمها أتى كطريقة رقيقة يبدد صمت تلك الحلقة ولو للحظة، فردت وهي تكاد تستغرب سماع صوتها: «نعم».

رد بعاطفة جياشة: «لا أريدك أن تشعرني بالذنب».

أوجعتها الكلمة وقد أثقلت كاهلها بالمزيد فتهمس: «صعب أن لا أشعر هكذا».

قال بحمائية: «ليس لك ذنب أني أحبتك أنت لم تفعلي شيئاً هو ذنبي وحدي إن شئت خالتي نبراس اعتباره ذنباً».

تجمعت الدموع في عينيها وهي تتذكر كلمات خالتها بالأمس، تتذكر نظراتها ودموعها تتذكر حسرتها على ابنتها ومن يلومها؟! دون شعورها كانت تعترف: «بل ذنبي لأنني أحبتك قبلها كان يجب أن أنساك منذ أن اختار قلبك هيام وارتبطت بها».

قالت الكلمات دون تفكير! لكن حالما صدرت منها شعرت بهول الاعتراف! أغمضت عينيها بقوة كأنها تبحث عن ظلمة اختباء تستر مشاعرها لتسارع بالهمس: «أرجوك علي أريد أن أنهي ال...».

قاطعها بنبرة خشنة: «كيف لم أرك؟! كيف عيناى لم تبصرانك فى تلك الفترة؟! لقد كنت أمامى طوال الوقت!».

شعرت سجدى أنها ستتهار فتتوسل إليه: «أرجوك علي».

ينادىها بلهفة مجنونة: «سجدى أريد رؤيتك الآن».

يرتجف صوتها وتعاود التوسل: «لا أرجوك هذا مستحيل وأنت تعرف، ولا تتصل مجدداً بالله عليك فقط امنحني هذه المساحة من العزلة أرجوك علي لم أعد أحتمل أنا أتألم هل تفهمنى؟! أتألم».

مرت لحظات ولا تسمع إلا صوت أنفاس علي الهادرة ليتنهد أخيراً وهو يقول بنبرة رجولية: «العم رياض أخبرنى أنك فى إجازة».

فتمتت بحيرة: «نعم».

ليقول علي عندها: «ليس سهلاً على الإطلاق لكنى سأفعله لأجلك، سأعتبر هذه الأيام بعيداً عني كافية لك وأنتظر حتى الأسبوع المقبل لأراك».

ترسم ابتسامة على وجهها وهي تدخل غرفة أبيها تحييه بتوجس:
«مرحباً أبي».

وجدته كالمعتاد على كرسي المنجد يلبس نظارته ويقرأ في جريدة محلية يتابعها دوماً، أبعد والدها الجريدة وأشعرها ببعض الارتياح وهو يبتسم بالمقابل؛ لكنه سرعان ما أظهر الدهشة وهو يرد عليها ويتساءل: «مرحباً يا ابنتي عدت باكراً! هل أنت بخير؟!».

تبتلع ريقها وهي تقترب منه وتخبره ببعض التوجس: «أربع حصص فقط اليوم».

فعلق بسلاسة وكأنه يستدرك بشكل طبيعي للغاية: «أجل صحيح إنه الأحد، وجدولك أربع حصص لا غير».

تنفست الصعداء وهي تشعر ببعض الاطمئنان والدها يحفظ جدولها الأسبوعي ويعلم بالضبط كل يوم كم حصة لديها ومتى يفترض أن تكون في البيت، ورغم أن تركيزه في هذا الموضوع كان يغيظها ويغضبها سابقاً وهو يشعرها وكأنها تحت المراقبة بسبب وضعها كـ(مطلقة) إلا أنها اليوم ممتنة للغاية لهذا التركيز منه كي تطمئن أنه بخير، وكأنه شعر أو أدرك ما تفكر فيه ليقول متفاخراً: «أرأيت كيف أتذكر كل شيء؟ ما زالت ذاكرتي قوية وتركيزي في أفضل حالاته والحمد لله».

تمتت حرير: «الحمد لله».

ثم تتساءل لتطمئن أكثر: «إذن تشعر أنك أفضل اليوم أليس كذلك؟».

يعقد حاجبيه وهو يقول بنزق من إلحاحها: «قلت لك إني بخير بألف خير كما إني اتصلت بالحاج سليم واتفقت معه كل شيء». جلست حرير على حافة السرير المزدوج لوالديها وهي تحاول أن تبدو هادئة بينما تسأله: «ماذا اتفقت معه؟».

خلع أسعد نظارته الطبية وبدا لحرير وهي تتفحصه أنه بكامل إدراكه وهو يقول: «أنا فكرت كثيراً الخطبة وحدها في حالتك على وجه الخصوص ليست مناسبة».

ثم يرفع سبابته يشير بها لرأسه وهو يضيف: «عقل أبيك ما زال يعمل بنشاط وأفعل كل هذا لمصلحتك».

استرخت حرير وقد اطمأنت إلى حد كبير أن والدها قادر على التمييز وأن مخاوفها ليلة الأمس ربما كانت مبالغ فيها، ركزت مع حديث أبيها فترد عليه بهدوء: «أم تفعله لأجل أن تبعد عامر؟».

لم ينف ولم يؤكد بل قال ببعض العدائية: «وإن يكن هذا سببي فليثبت نفسه وحسن نيته بالارتباط بك وإلا فليذهب في حال سبيله ويتركنا في حالنا».

تساءلت حرير وهي تستنكر ضمناً أسلوب والدها: «أثبتتها بالمال أبي؟!».

فيرد الأب بإصرار: «بكل شيء بكل شيء، فليبريني عامر القماش إن كان لديه الصبر والإصرار ليتم هذا الزواج».

زمت حريز شفتيها وهي تسأل: «إذن أنت مصر على رأيك وشروطك؟».

فرد الأب: «أجل ولن أراجع عن كلمة مما اتفقت به مع الحاج سليم اليوم».

ثم أخذ يخبرها بالاتفاق الجديد الذي سبق وعرفته قبل قليل من عامر؛ لكنها لم تنطق بأي تعليق بل تفكر أن أباه قد يكون له الكلمة الأخيرة؛ لكنها ستتصرف بطريقتها وبما تراه عادلاً.

تقف نورجان خلف كرسي الجدة وفي يدها منشفة تجفف بها شعر الجدة الطويل الأبيض كانت تدعك الخصل البيضاء وهي سارحة بتفكير يجعلها تعبس وعندما اكتفت من تجفيفه أخذت تسرحه بالمشط ثم تجدله وهي ما زالت صامته وعلى غير طبيعتها، استرخت الجدة في كرسيها وقد ارتاحت بعد هذا الحمام الحار الذي ساعدتها به كنتها، قالت الجدة بامتنان ونورجان تلف من خلف كرسيها لتواجهها: «رضي الله عنك يا نورجان لم أكن أستطيع أن أستحم هكذا دونك».

تميل نورجان إليها وتقبل جبينها عفواً ثم تسأل بهدوء: «هل أعد القهوة؟».

نظرت الجدة ببعض الاستغراب إليها لتسألها: «ما بك يا ابنتي؟ وجهك لا يعجبني! هل سليم أزعجك؟».

تهز نورجان رأسها بنفي وهي تقول: «لا ليس سليم».

ثم تنحني فجأة لتجلس على الأرض جوار ساقى الجدة فتتظر لعينيها الطيبتين وتطلب منها بالراح: «اقرئي لي الفنجان يا جدة سأعد القهوة واقرئي فنجاني».

لكن الجدة رفضت بشكل قاطع وهي تقول: «قلت لك ألف مرة إني لم أعد أفعلها فلا تحمليني الإثم».

زفرت نورجان بقوة وهي تمد يدها للخلف لتفك عقدة شعرها تحرره بحركات عصبية متوترة من أصابعها سألتها الجدة وهي محتارة في أمرها: «يا ابنتي ماذا يقلقك؟!». تنهدت نورجان وهي تصارح حماتها بما يأبى زوجها الاستماع له: «أفكر بعامر أخشى أنه لن يكون سعيداً مع حرير».

ردت الجدة ببعض الاستغراب والتوجس: «لكني رأيته سعيداً للغاية لوجود حرير ليلة خطبة، عمر هل أنت قلقة من شيء يا ابنتي ولا تخبريني عنه؟ هل السبب في والدها؟ لكن سليم قال الأمور كلها حلت مع ذاك الرجل».

ردت نورجان ببعض العصبية: «والدها سبب إضافي لا أعرف كيف سأتعامل معه وقد كسر قلب ولدي قبل ست سنوات، لا أستطيع أن أنسى

هذا له».

فردت الجدة وهي تنصح كنتها برفق: «يجب أن تنسي يا نورجان لأجل عامر، الفتاة ليس لها ذنب في طباع أبيها الصعبة».

لم يكن أمام نورجان إلا مصارحة الجدة بما يعتمل في نفسها فهي لم تستطع البوح به حتى لصديقتها عفاف حفظاً لمكانة ولدها، إنها تعرف أن عفاف تملك تقريباً أفكاراً مشابهة لأفكارها في هذه الأمور ومن السخريّة أنها لا تستطيع البوح للشخص الوحيد الذي سيؤيدها ويتفهمها!

لكنها لا تستطيع فعلها لأجل عامر، تشعر وكأنها تخون ولدها إذا أفصحت عن رأيها بزواجه من حرير أمام عفاف.

نظرت نورجان في عيني حماتها فترى فيهما عيني عامر فيطمأن قلبها وهي تصارح الجدة بما يقض مضجعها: «حرير نفسها مصدر قلقي يا جدة، والأمر ليس له علاقة بوالدها». تتساءل الجدة بدهشة: «هل ترفضين الفتاة؟! أيعقل بعد كل ما جرى لست مقتنعة بها؟!». تمتمت نورجان بشعور عدم الارتياح والتوتر: «ليس رفضاً لكن...».

قاطعتها الجدة بنبرة الملهوف الذي ينخى أهل المروءة نجدته: «لا تفعلوها يا نورجان إياك أن تظهرها أمام ولدك لا تقتلي فرحته وهو للتو يذوقها، لهف قلب جدته عليه إنه نصيبه معها فدعيه راضياً بذلك النصيب». لقد فهمتها الجدة، وللحظة شعرت نورجان بشعور كربه أنها

(إنسانة ظالمة) فضايقتها هذا وهي تشعر أنها بين نارين، مجدداً نظرت في عيني الجدة تلتمس منها تفهماً ومساعدة فتشرح لها: «يا جدة أنا أحب حرير صدقيني ليس لدي أي شيء ضدها ربما لست معجبة بها؛ لكني لا أريد ظلمها بما حدث في الماضي وقد عاملتها جيداً وسلمت عليها في حفل خطبة عمر وروناهي».

نظرات الجدة حملت تشككاً فعبست نورجان لتقول ببعض الانفعال: «لا تنظري إليّ هكذا يا جدة أنت وسليم لا تتفهمان وجهة نظري». ردت الجدة وكأنها تحاججها: «في قربتي النسوة يتزوجن أكثر من مرة دون حرج بل لا يقعدن دون زواج».

شعرت نورجان أن انفعالها يشوش عليه وهي ترد على كلام الجدة: «المجتمع هنا مختلف عن القرية، وشخصية حرير محافظة زيادة عن اللزوم لا أقصد الاحتشام ولا أقصد أيضاً أنها منطوية، لا أدري كيف أشرح؟! مثلها صعب أن ترتبط مرتين في حياتها».

صمتت للحظة تأخذ أنفاسها وقد اشتد انفعالها وسط الكلام ثم تنهدت لتضيف بتركيز أفضل وانفعال أقل: «بصراحة يا جدة لا أدري كيف ستتعامل مع عامر كرجل ثان في حياتها، هل تفهميني؟ لا أنفك أتساءل هل ربما ستخطئ وتنادي عامر باسم زوجها الأول؟ والأسوأ هل ستفعلها في لحظاتها الحميمة؟! هل ستقارن بين تعامل الأول والثاني فيشعر عامر بالضغط من هذه المقارنة؟! هل ستحبه كما يحبها أم أن زوجها الأول جعلها

تكره العواطف وولدي المحروم من سيدفع الثمن؟! وفي كل مرة تردني هذه
الخواطر والهواجس أشعر بالنار تشب بي».

تمتت الجدة وكأنها تواجهها بأصل المشكلة: «أنت أم
متعصبة لأولادك».

تهز نورجان رأسها وهي تؤكد لها دون تردد: «أجل أعترف بهذا ولا
أستطيع تغييره».

ثم تضيف وهي تشير إليها بانفعال متجدد: «وأنت أسوأ مني معهم فلا
تحاولي ادعاء العكس».

اعترفت الجدة بدورها: «أجل أنا متحيزة لهم إنهم نور عيني فكيف لا
أكون هكذا؟! لكنني أختلف عنك يا نورجان لأنني أعينهم على الصعب بدلاً
من أن أحميهم منه، الحياة صعبة والخيارات ليست دائماً متاحة لنا».

حاولت نورجان مقاطعتها: «لكن يا جدة:». لتمنعها الجدة من المقاطعة
وهي تقول لها: «اسمعيني يا ابنتي أنا. أتفهمك ولو كان ولذلك علي بهذا
الموقف لقلت ربما معك حق فعلي عاطفي أكثر ومنذفع بمشاعره حفظه
المولى من كل شر وعوضه بمن تقدره وتشبع عاطفيته، أما عامر فأنت أدري
الناس به اسم الله الرحمن يحميه، عقله الواعي ينبض مع قلبه الذهب
الصافي اللهم صل على محمد وآل محمد، فلا تخافي عليه سيعرف كيف
يتصرف معها».

تصلي نورجان على الرسول ثم تتمتم: «إنه ولدي يا جدة قطعة مني لو أصابه خدش أتوجع كأنه طعنة خنجر».

ثم تنظر بلهفة شديدة في عينيها وهي تضيف بعاطفة أمومية قوية: «أنا.. أنا مجنونة بحب أولادي أريدهم سعداء».

مدت الجدة كفها وربتت على كتف نورجان قائلة: «ما رأيك أن نأخذ خيرة من القرآن أليس هذا أفضل من قراءة فنجان التي لا تجلب إلا الذنوب؟».

فتهز نورجان رأسها برضا وتتحرك من جلستها على الأرض لتحضر القرآن الذي تقرأ به الجدة يومياً، فوجدت في خيرة الجدة اطمئناناً يرضيها.

الاثنين صباحاً

(زوجتك نفسي) جملة حرير الخجول تتردد في أذنيه فتطغى على ما حوله أفتصبح كل الكلمات الأخرى غريبة باهتة لا وزن ولا معنى ولا حتى تفسير لها في معجم اللغة، (زوجتك نفسي) قالتها أمامه وأمام القاضي وأمام أبيها وأبيه أمام أمها وأمه أمام شقيقه، قالتها وهي تعنيها وهي تنظر في عينيه وتهب نفسها إليه كما وهبها هو نفسه، (زوجتك نفسي) وتم وتمت معها كلمة النهاية لعذابه وانتظاره وشقاء قلبه، كان يبذل مجهوداً غير عادي ليحافظ على انتظام أنفاسه واتزان عقله وثبات نبضه؛ لكنه يشك بالنجاح في فعل أيٍّ من هؤلاء، تزغرد نونة وتحتضنه بل تعتصره، يعانقه والده

وببارك له، يمر بين أحضان شقيقه وهو لا يشعر بشيء، عيناه فقط معها وأما تزغرد لها ووالدها يلثم جبينها وعيناه تلمعان بالدموع، كان يجب أن يلمسها، كان يجب أن يفعل اللحظة وإلا سيجن.

«مبارك لي حريرتي».

قالها وهو واع لمراقبة أبيها الصارمة؛ لكن لم يعد يهم وتمتمة الخجل من فمها تفقده صبره: «مبارك».

يمد كفه في دعوة لكفها فكانت (القبلة الأولى) بينهما باللمس! لمس حقيقي للحرير.. رعدة مرت بجسده رغماً عنه وأطراف أصابعه تتسابق في تسلل سري لراحة كفها تستكشف نعومة الحرير الحلال في عطش عمره، ست سنوات حتى كاد ينسى معنى الارتواء حلال مصفى يزيع العسل من حلاوة مكانه.

«أين الصك؟!».

جملة باردة قالها أسعد الجنابي جعلت وصال اللمس ينقطع، لتسحب حرير يدها بانكماش وهي تلتفت لأبيها وتقول بخفوت الخزي: «إنه معي هل نسيت أن عامر سلمه لي أمام القاضي؟».

يهز أسعد الجنابي رأسه وعيناه في عيني (زوج ابنته) ليقول له عامر بهدوء: «أنا أوفي بكلمتي عمّا».

لم يرد أسعد بشيء لكن عيناه يتطاير منهما الشرر! يمتلاً عامر بالدهشة

لهذه العدائية منه هل يغار على ابنته؟! لكنه زوجها من قبل. تداركت والدة
حرير الموقف وهي تدعوه للغداء وسط نظرات زوجها المستهجنة، اكتفى
عامر بالابتسام وهو يقبل الدعوة.

تبتسم سجي ابتسامة باردة وهي تحيي الطلاب في خروجها من القاعة،
كان تشعر بنظراتهم التي تستغريها، المحاضرات كانت هادئة للغاية أهدأ من
المعتاد وقد شعرت أن حالتها انعكست على طلابها بطريقة ما فكانوا
صامتين منصتين، تسير في رواق القسم الرئيسي وهي تشعر بالثقل الغريب
الذي يتأرجح خلف ظهرها، لقد جمعت شعرها اليوم للخلف في ضفيرة طويلة
لم تضفرها منذ سنوات طويلة، وكأنها تريد الاختباء والعودة للوراء إلى
مرحلة عمرية أكثر براءة وأخف حملاً، ليس اختباء خوف إنما هو اختباء
استراحة ويحث عن (مأوى)، حتى ألوان ملابسها حيادية للغاية، بلوزة
خريفية بيضاء كالحليب بحياكة ناعمة وأزرار ذهبية صغيرة منمنمة عند
نهاية الكمين، فوق تنورة سوداء طويلة حتى الكاحلين، حذاءها اختارته
بكعب متوسط مريح هذا اليوم، لقد كانت متعبة وتعبر عن هذا التعب
بأسلوبها الخاص ملابسها وهيئتها التي تعبر عن هويتها.

لم تستطع التغيب اليوم أيضاً ليس فقط لأجل التزامها مع الجامعة إنما
لأنها اكتفت العزلة في غرفتها ولم تكن تستطيع الاختلاط بخالتها في البيت
ففضلت مغادرته اليوم لتعود لعملها بعد انقطاع، حاول عمها رياض كثيراً

دفع الأمور نحو الصلح بينهما؛ لكن لا الخالة نبراس تساهلت ولا سجي وجدت في نفسها القدرة على المسامحة، يظن المرء أحياناً أنه يستطيع إقناع نفسه أن الكلام الانفعالي المؤذي الذي يصدر عن الناس الذين نحبه لا يخرج من القلب؛ لكن كل المحاولات تنتهي بالفشل ويتحول (الكلام الانفعالي) إلى جروح كلما تذكرها كأنه ينثر الملح فوقها فيحتاج الأكم من جديد.

دخلت سجي ناحية اليمين حيث الممر الخاص لغرف الأساتذة لتكمل طريقها وحدها وهي تكاد تبكي؛ تماسكت وهي تلف مع استدارة الممر الدائري فلن يتبق الكثير لتدخل غرفتها تعتكف هناك ربما لساعة أو ساعتين قبل أن تقرر العودة للبيت، تباطأت خطواتها وهي تراه من مسافة بضعة أمتار إنه علي؛ لقد كان يقف قبالة باب غرفتها المغلق يستند بظهره للحائط وهو ينفث دخان السيجارة من فمه، لم تشعر أنها ترنحت إلا عندما ارتفعت كفها لتستند إلى الجدار، وفي اللحظة ذاتها التفت إليها وجه علي، فتراه ويراه وتعم الدنيا من حولهما بضجيج الاشتياق، مرت لحظات طوال وهما هكذا حتى رمى علي السيجارة على الأرض يدعسها بحذائه ثم يتقدم نحوها وأصابع يدها تتشنج فوق ملمس الجدار، استند بكتفه الأيسر على الجدار وهو يقف قبالتها وقريباً منها ليهمس بخشونة: «مرحباً».

تمتت وهي تنظر إليه عن قرب شديد: «علي؟!».

يبتلع ريقه وتمر ابتسامة مرهقة على شفثيه وهو يرد بالخشونة نفسها:

«أجل علي».

نظراته تؤذيها حقاً، هذا الاشتياق الحارق يؤذيها لا تحتمله لأنها غير قادرة على التعامل معه همست وهي تشعر بوجهها يشع حرارة تحرق خديها: «ماذا تفعل هنا؟!».

رد وهو يزحف بكتفه المستند للجدار حتى لامس أصابعها المتشنجة: «كنت أنتظر كتنهين محاضرتك الأخيرة».

سحبت يدها بعيداً وأخذت تتلفت حولها وهي تبتعد خطوة وتقول بتوتر شديد: «أرجوك لا يصح وجودك هنا».

تجاهل تماماً ما قالت له ليبار بالقول الهامس وعيناه تمران فوق صفحة وجهها: «عامر عقد قرانه».

عقدت حاجبيها قليلاً وهي تتساءل: «عامر؟! تقصد عمر أليس كذلك؟».

فرد وهو يتابع حركة شفتيها: «لا بل هو عامر فعلاً».

تعلق عفويًا والدهشة تلامس محياها: «لم أكن أدري أن عامر خطب أيضاً».

فرد موضحاً باختصار: «كانت خطبة سريعة ووالد العروس أصر على عقد قران مع الخطبة إنها فتاة يحبها منذ سنوات وحصلت ظروف سأحكي لك عنها لاحقاً منعت زواجهما؛ لكن مشيئة الله أعادتهما لبعض».

قال الكلمة الأخيرة بنعمة خاصة جعلتها تنكمش مجدداً وهي تتنحج وتقول: «مبارك له سعيدة من أجله».

نظرة كالبرق سطعت من عينيه وهو يقول بصوت مبحوح: «والصغير عمر سيعقد قرانه بعد أسبوعين».

تحاول إيجاد نقطة تنظر إليها بعيداً عن وجهه وهي تقول بنبرة مجاملة: «مبارك له أيضاً».

هتف فجأة بعاصفة عاطفية: «يا له من حوار بارد».

لم تستطع عدم النظر إليه أكثر من هذا فتغرق في خضرة مشتعلة في عينيه جعلت قلبها يختنق من شدة المقاومة وهي تهمس اسمه بضعف: «علي».

ما زالت عاصفته قائمة وصوت هديرها ينطلق من فمه: «تعالى لنخرج من هنا».

بمزيد من الضعف تناضل مع قلبها المخنوق: «لا أستطيع الخروج بصحبتك يكفي أنك..». قاطعها وقد فقد صبره: «أني ماذا؟! أتيتك إلى هنا وكلني يغلي شوقاً؟! كما هذا الشوق الذي أراه في عينيك ويل وبشع من كل جسدك».

تدير وجهها بعيداً وأنفاسها تتسارع، بينما همسه الخشن يعذبها: «هل تعرفين كم يوم مضى ولم أرك فيه؟!».

تحني رأسها للأسفل ولم تعد تستطيع الرد بينما علي يواصل هجومه:
«اليوم كنت أردد مع عامر الجمل وأتخيلك أمامي أقولها لك أنت».

رفعت وجهها إليه بينما هو يقولها وكأنه يعنيها اللحظة: «زوجتك نفسي
يا سجي فمتى تزوجيني نفسك».

تجمعت الدموع في عينيها ولم تستطع النطق بينما هو لا يبالي بشيء بل
يميل إليها هامساً باهتمام عفوي: «تبدين مرهقة حزينة للغاية بهذه الضفيرة
ليتني أستطيع فعل أي شيء لأمحو ما يؤذيك».

تهز رأسها نفياً وكأنها تؤكد له بصمت أنه لا يستطيع اللحظة فعل شيء؛
لكنه ألق عليها وهو يسألها بهمس: «هل تؤذيك الخالة نبراس صارحيني
سجي».

أوشكت أن تفقد اتزانها وتشهق بالبكاء هنا أمام علي، لتخبره عن كل ما
قالته لها الخالة نبراس قبل أسبوع؛ لكنها لم تستطع هو بالذات لا تستطيع
إخباره، اكتفت بالقول الهامس: «ليس مهماً يا علي».

قال بخشونة: «كل شيء يخصك مهم فقط لو تنفتحين معي أكثر
ولا تتقيدين».

ردت باضطراب: «دع العم رياض يتصرف».

ثم نظرت لعينيها وقالت بضعف أنثوي: «ويوماً ما ربما سأخبرك بالكثير

مما لا يساعدني لساني للبوح به الآن فقط اصبر». زفر أنفاسه بقوة ثم تحرك بانفعال قائلاً: «أشعر أن صبري سيطول لأسابيع يا سجي هو مجرد حدس».

لا تجرؤ سجي على قول (وربما لأشهر!) فتصمت، بينما علي يتحرك مبتعداً وهو يقول بنبرة تملكية: «اليوم تبدين متعبة لذلك لن ألح عليك؛ لكن غداً سأنتظرك عند مطعم (...) لنفطر سوياً أنت خطيبتي وبموافقة ولي أمرك ولست بغريب حتى تتحفظي بلقائي في مكان عام».

حاولت الاعتراض لكنها لم يمنحها الفرصة وهو يخطو قائلاً: «الساعة الثامنة سجي».

ثم لوح بيده وهو يبتعد ويأخذ معها كل ضجيج الاشتياق، ليتركها لصمت الوحدة الباردة المقيتة.

نزل رياض درجات السلم وقد أنهى الصلاة للتو يبحث عن زوجته التي تتهرب من التكلم معه منذ أول النهار، نبراس كان لديها أسلوبها بالتهرب دون أن تهرب، فتكتفي أن تتحول لمجرد حجارة صماء لا تستجيب لما تسمعه، وجدها في غرفة الجلوس بنظراتها الجامدة تطوي الملابس التي جمعتها من على الحبل، توكل على الله واقترب ليجلس قريباً منها وفي يده المسبحة يحرك خرزاتها وهو يستغفر، نظر للساعة الجدارية وهو يفكر

بموعد عودة سجي لم يتبق له الكثير من الوقت، يريد أن يتكلم مع زوجته قبل عودة الفتاة، وما زالت نبراس تطوي الملابس بذاك الجمود الخالي من أي إحساس، مع آخر حبة استغفار جمع المسبحة في يده وهو يتمتم بالصلاة على الرسول، ابتداءً كلامه بالقول المباشر دون مقدمات لن تجدي نفعاً: «لقد تركتك لأسبوع كامل كي تهدي وتستعيدي توازنك وتعيدي تقييم الأمور بشكل عقلائي وعادل».

توقفت يدها عما تفعل؛ لكن الجمود في نظراتها كما هو بينما يكمل رياض: «أنت ترفضين قضاء الله وقدره يا نبراس».

التفتت إليه بحدة وهي تدافع عن نفسها بانفعال: «كيف تحكم علي بهذا؟!».

فيرد عليها بهدوء: «لو كنت مؤمنة بقضاء الله لما كان..».

فقاطعته لتقول بحرقة قلب: «لو لم أكن مؤمنة لكنت لكنت قتلت نفسي بعد هيام». قالتها وهي تشهق بالآلم لتضرب بعدها وسط صدرها وهي تضيف: «لكنت غرزت سكيناً في قلبي بيدي قبل أن أرى وحيدتي تُوارى الثرى».

زمت شفيتها وعيناها لم تجدا دموعاً تذرفانها لتواسيها قبل أن تقول أخيراً: «لكنك تراني ها هنا أكل وأشرب أطبخ وأنظف أغسل الملابس وأطويها وكأنني ما زلت حية».

فقال رياض عندها: «بل وكأن هيام ما زالت حية!».

ارتجف جسدها ألماً امامه وهي تنظر إليه بينما يكمل: «أنت تدعين الرضا بقبول القدر لكن داخلك يرفضه، تعاملين هيام كأنها ما زالت بيننا بل وربما تقنعين نفسك أنها في غرفتها الآن وستنزل لتطلب طعام الغداء في أية اللحظة، تعيشين بالوهم الذي يسكن ألمك».

ما زالت ترتجف وهي ترد بحشجة: «حتى لو كنت أفعل هذا ما الضرر منه؟! هل تريدني أن أنسى ابنتي؟!».

ثم قدحت عيناها بالشرر وهي تضيف بانفعال: «الأجل أن يتزوج علي علي هيام تفعل هذا؟!».

لم تدرك كم أن قولها غير عقلاني حتى قالها زوجها وهو مصدوم بجملتها: «يتزوج علي هيام؟! نبراس! ماذا جرى لك؟! هل تسمعين نفسك وتدرकिन قولك؟! لم يعد هناك شيء اسمه (يتزوج علي هيام) لأن علاقته بها كزوجين انتهت بموتها، علي ليس بزواج لأحد اللحظة».

كان جسدها يرتعد هذه المرة ثم هبت واقفة على قدميها لتنثر الملابس المطوية من على حجرها وهي تقول بنبرة ساخطة: «اعتبرني مجنونة لكن زواج علي من سجي لن يتم».

ثم نظرت لزوجها نظرة أقلقته لتضيف: «أنت لا تعرف سجي مثلي لن تتزوج بعلي دون رضاي أنا، لن تقدم علي هذه الخطوة أبداً». يحدق بها

رياض بينما تخطو مبتعدة وهي تجسم الأمر: «وأنا لن أرضى مهما قلت
وفعلت يا رياض».

ثم تركته وحيداً في غرفة المعيشة ومضت لشأنها تاركة الملابس متناثرة
كأشلاء بشر!

ينظر رياض لتلك الملابس الخالية من الحياة وهو يردد بتكرار: «أستغفر
الله العظيم».

ثم يصمت ويتدبر ويدعو الله أن يقويه، يعاود تحريك خرزات مسبحته
وعيناه شاردتان بتفكير جاد للغاية.

هتفت وفاء عبر الهاتف وهي تشارك حرير وبسمة مكالمة ثلاثية: «هل
أنت جادة يا حرير؟! عامر يقول لك انتظرك وأنت تقولين له لا أستطيع؟!».

خدا حرير يتوهجان وهي تقفل على نفسها باب غرفتها وتبتعد لأقصى
الغرفة في شعور غريب جديد مبهج تجزئه للمرة الأولى بينما تقول بخفوت
والارتجاف في صوتها يفضح حالتها: «ماذا سأقول لأبي يا وفاء؟ أنت لم
تريه في المحكمة لقد أوشك أن يصرخ في أمي لأنها دعت عامر للغداء ثم
أخذنا وعدنا للبيت وهو يغلي غيظاً والحمد لله لم يتحول الأمر لشجار مع
أمي».

اقترحت بسمة: «قولي له إنك ذاهبة لتشتري بعض الحاجيات من السوق

طلبتها والدتك».

قلب حرير يقرع إثارة لم تشعرها حتى في مراهقتها! لا تصدق أنها بهذا العمر وهذا الوضع المعقد الذي مرت به وتحاول إيجاد وسيلة مع صديقتها للخروج ومقابلة عامر على انفراد، كما يطلب منها بالحاح منذ ساعة، ردت حرير على اقتراح بسمه بالخفوت نفسه وعيناها على باب الغرفة: «سيقول لي أنا أذهب لشرائها».

فاقترحت وفاء بجرأة: «إذن قولي له سأشتري الفوط النسائية».

تحمر حرير بينما تعلق بسمه بتوييخك «هل جنت يا وفاء؟! تقول لأبيها (فوطاً نسائية)؟!». «

ثم توجه كلامها لحرير تصحح لصديقتها الأسلوب: «قولي سأشتري أموراً خاصة بالنساء يا أبي ولوني وجهك ببعض حمرة الخجل».

تكنم حرير ضحكتها بشق الأنفس عندما أتها رسالة جديدة فتقول لصديقتها: «لحظة».

ثم تبعد الهاتف عن أذنها لتنظر لرسالة جديدة من عامر (بقي خمس دقائق إن لم تأت أنت أتيت أنا). تنهذت وهي تهمس: «المجنون يقول سأتي أنا!».

هتفت وفاء بحماسة وتشجيع: «اذهبي إليه بالله عليك».

بارتباك يقطع أنفاسها قالت حرير: «لكن لا أعرف إلى أين سيأخذني قال

فتشاكسها وفاء بمزحة جريئة: «هل قبلة عامر تأخذ نصف ساعة؟!». .

لترد بسمة تشاركها جرأتها: «هذه القبلة الأولى إنهما مستجدان».

ثم تفرق الاثنتان بالضحك وحرير توبخهما بوجه محمر: «قسماً بالله سأغلق الهاتف بوجهيكما».

لتستمر وفاء بمشاكستها قائلة: «أنت تهدرين وقتك وطاقتك وعامر يحتاج حالياً للاثنتين معاً».

فتعلق بسمة ضاحكة: «أظن الطاقة أهم من الوقت مع عامر».

فتعاودان الضحك وحرير تهمس بحنق: «ألن تكفا؟!». .

ترد عليها بسمة بتشجيع ضمني: «تخلصي منا واذهي إليه».

تواصلان الضحك بينما حرير تتنهد بحيرة وتردد حتى خفت الضحكات وساد الصمت لتقول وفاء بجدية: «حرير عيشي حياتك عوضي كل ما حرمت منه، انطلقني فهذه أيامك الحلوة التي ستتذكرينها دوماً».

ثم تضيف بمداعبة شقية: «أهم شيء تذكري أنه بات زوجك فلا تثيري فضيحة إذا لمسك».

تضحك بسمة بخفة بينما تعترف حرير بشعورها اللحظي: «أنا خائفة».

فتعلق وفاء بالقول: «لكنك سعيدة، أستطيع أن أشعر كيف تشعين

أخذت حرير نفساً عميقاً ثم أطلقتها تنظر ليدها اليمنى التي صافحها عامر اليوم وما زالت تشعر حتى اللحظة بأثر وجوده ملتصقاً هناك يدغدغها يداعبها يناديهها همساً سرياً وهو يعدها التحرر والسعادة، همست أخيراً: «سأذهب إليه».

فقالت بسمه بابتهاج أشبه بابتهاج المراهقات: «أحكي لنا التفاصيل عند عودتك».

وتضيف وفاء بالابتهاج نفسه: «نريد وصفاً ثلاثي الأبعاد».

انفجرتا بالضحك بينما توبخهما حرير قبل أن تغلق الخط معهما: «قليلتا الحياء أنتما الاثنان».

سارعت حرير لتغير فستانها البسيط الذي ارتدته اليوم في المحكمة لتستبدله بسروال جينز وبلوزة عادية طويلة، تمتعت مع نفسها ولا تصدق أنها تفعل هذا: «يجب أن لا أثير ريبة أبي ليصدق أنني ذاهبة للسوق حقاً اشترى أشياء نسائية».

لم تنس أخذ الصك الذي أعطاه لها عامر اليوم لتحشره في جيب سروالها ثم وقفت أمام مرآتها ترتعش وهي ترفع ذراعيها للأعلى كي تربط شعرها؛ لكن غيرت رأيها لتتركه طليقاً عامر يحبه هكذا!

كانت والدته حريص تنظر لابنتها وهي تغادر باحة الدار ثم تعبر البوابة فتقرأ لها المعوذات وتدعو من قلبها أن يتم زواجها على ألف خير، بفطرة الأم ورغبتها الأفضل لابنتها تعترف أنها مدركة لكذبة ابنتها في سبب خروجها اللحظة، ومع هذا ساندتها أمام الأب وهي توصيها بعض الأغراض الأخرى، بل حتى حثتها لتذهب مشياً على الأقدام وأن تأخذ وقتها فليست متعجلة، فما زال الوقت باكراً للغداء، قد يغفل الأب عن شعور ابنته وتنطلي عليه الأعذار الواهية لكنها ستظل (الأم) الأم التي تعرف الحيلة من النظرة وفي الواقع لم تكن تحتاج لنظرة (الأم) لأن (الأشياء النسائية) التي قالت حريص إنها بحاجتها موجودة في الخزانة الخاصة بها في المخزن.

«أشواق! أين وضعت ال...».

أجفلت وهي تستدير لزوجها وهي تتمتم بصدمة: «أشواق؟!».

شعرت بألم مباغت في قلبها وهي تنظر لوجه زوجها الذاهل وهو يبادلها النظر مصدوماً أكثر من صدمتها! حتى إنه لم يتم جملته وقد أدرك خطأ الاسم على المسماة، ابتلعت ريقها وهي تتقدم منه تحاول جهداً التصرف بشكل طبيعي فتقول له: «ما بك يا أبا خلدون هل نسيت اسمي؟!».

تلاشت صدمته وتبخر ذهوله ليلجأ للعبوس وهو يقول: «مؤكد لم أنسه يا نهلة فقط... فقط».

صمت وبدا للحظة محتاراً تائهاً أشفقت عليه كما أشفقت على نفسها،

رئما للمرة الأولى يفعلها ويناديها باسم زوجته الأولى ؛ لكنها دوماً شعرت أن أسعد لم ينس المرأة الأولى في حياته، لم يعد يهتم، ستتجاهل وتتغافل كالعادة وهو سيبقى كما هو، يجيد قلب الأدوار لبقى هو المتحكم والكلمة العليا له فقال حانقاً: «أنا بكامل وعيي وتركيزي، أعدي لي قهوة ثقيلة رأسي يوجعني ويجب أن أتحمل وجود زوج ابنتك على الغداء».

قالها ثم استدار مغادراً المطبخ ليعود إلى غرفته وهو يدلك وجهه من الجانبين، أغلق باب غرفته خلفه وهو يفكر كيف نادى زوجته نهلة باسم زوجته السابقة أشواق؟!

ثم تاهت نظراته واستبد به الخوف والقلق والريبة وهو يحاول جهده التذكر عم كان سيسألها؟! رياه لقد نسي تماماً.

يرخي عامر رأسه للخلف على مسند مقعد السائق وهو يجلس بانتظارها، يده التي لامستها صباح اليوم ترتجف وقلبه جن جنونه في صدره لا يصبر على الانتظار أكثر، كان واثقاً أنها ستأتي لا يعرف كيف لكنه واثق أنها معه حتى وهي ليست معه، أغمض عينيه وهو يتمتم: «اهدأ يا عامر لا ترعبها».

ثم يضحك بارتعاش ساخراً وهو يهمس: «أنت ترعب نفسك لا أكثر يا ابن القماشين».

جدس غريب أنبأه أنها قريبة ففتح عينيه ليراها عبر مرآة السيارة الأمامية

تخطو نحو سيارته من الخلف، يبتلع ريقه بصعوبة ودوي قلبه بات كالقنابل في صدره، بدت مرتبكة خائفة تتلفت حولها وشعرها يتناثر يميناً وشمالاً معها، لحظات أخرى وكانت تفتح باب سيارته من الجهة الأخرى لتجلس في المقعد المجاور له تنظر إليه وهي تطلب منه بصوت منخفض: «تحرك أرجوك! قبل أن يرانا أحد».

كانت ترتجف ونظراتها غير مستقرة فتتحرك هنا وهناك بحرج بالغ وخوف غريزي طبيعي، حتى اللحظة لم يقل شيئاً بل يترك لعينيه المرور بحرية فوق شفتيها وخط فكها، انحناءة عنقها النحيل فتتهافت به بارتباك: «عامر تحرك أرجوك».

دون أن يرد قبض على كفها بكليته ولم يبال بالمقاومة الضعيفة منها وهي تحاول سحب يدها غريزياً، ثم يميل بفمه ليلثم باطن كفها فيشعرها ذابت بارتجاف كامل ليهمس بارتجاف ذائب هو الآخر: «لمس الحرائر».

كل طاقته اللحظة وجهها ليسيطر على نفسه كي لا يتمادى هنا والمكان غير مناسب وهما على أطراف الحي؛ لكنه رفع كفها ليضعه فوق جانب صدره الأيسر ويضغط بخشونة فتشعر بنبض قلبه المجنون قال لعينيها الناعستين المصدومتين: «هذا هو حال قلبي منذ ست سنوات يا حبيب».

ولم يمهلهما لترد بل ينطلق بسيارته معها ويدها ما زالت فوق قلبه.

لم تكن تعي أين يأخذها فكلها ينبض كنبضه المدوي تحت راحة كفها
كأنه تيار كهربائي يسري من قلبه لقلبها، ثم لم تعرف كيف باتا فجأة تحت
ظل جسرا في مكان خال منعزل جف فمها وطبيعتها الأولى المحافظة
تهمس في رفض: «أعدني للبيت من فضلك لست مرتاحة هنا المكان مقفر
و...».

شهقت وهو يلف ذراعيه حولها كأنه يخطفها خطفاً، فتحاول مقاومتها
غريزياً وأبعاده وهي تلهث خوفاً، حرفياً كانت خائفة مصدومة مشوشة حتى
أتاها صوته: «انظري إليّ حيرتي».

كانت أنفاسها متسارعة بانفعال وهي تنظر لوجهه القريب ولا تصدق أنها
في حضن عامر في سيارته وبمفردهما في هذا المكان المريب قريباً من
النهر، عيناها تتابعان حركة شفثيه البطيئة والخوف ما زال يسيطر عليها:
«أنت زوجتي لا تفعلين شيئاً خاطئاً.. اهدئي حير استرخي».

تهداً أنفاسها قليلاً لكن لم تستطع الاسترخاء تماماً، بينما تتلفت حولهما
وهي تهمس بانفعال: «أين نحن؟».

خوفها كان القشة التي يتعلق بها عامر كي يسيطر على نفسه لا يمكنه
أن يصف لمخلوق ما يشعره اللحظة وحير بين ذراعيه كأنه قاب قوسين من
هلوسة حلم فينفذ مخيلته ليثبت أنه واقع، فقالها لها بهمس خافت: «نحن
مع بعض ولا يهم المكان».

يميل بحذر كي لا يجعلها تخاف أكثر. فيشتم أطراف شعرها وهو يرتجف ثم يلثم تلك الخصل بفمه قائلاً بصوت مبحوح: «وددت لو كنت أكثر صبراً يا حبيب! لكنها ست سنين من العذاب الخالص بالله عليك ساعديني».

أصابعه أخذت تتحرك بجرأة أكبر فوق ظهرها وهي تغمض عينيها وترتجف استجابة ويتصاعد خوفها مع استجابتها لتهمس إليه بتوسل: «ليس بهذه السرعة.. السرعة أرجوك».

لكنها تأوهت وهي تشعر بفمه عند أسفل عنقها يقبل بشرتها هناك وهو يطلق تأوهاً أعلى وأخشن، بينما أصابعه تحاول التسلل تحت بلوزتها فتفتح حبيب عينيها تكاد تشعر بالدمع في أطراف رموشها وهي تناديه بحسرة: «عامر فقط أمهلني قليلاً كي أستعد».

رفع وجهه ينظر إليها بلمعة لم تستوعبها وهو يرد ببساطة: «نعم مؤكداً».

ثم أخذ يعد بهمس: «واحد اثنان».

عيناه في عينيها في وصال مجنون بينما ذراعاه تشتدان حولها بالتطويق فيلصقها ب صدره ببطء غير محسوس وهو يكمل العد: «ثلاثة أربعة».

باتت (كلها) معجونة في (كله) بينما تنغمس بذهول في طريقته بالعد: «خمسة».

تنحدر نظراتها لشفتيه وهو يكمل بخفوت: «ستة».

قلبها يدق الطبول وكأنها في انتظار يخطف الأنفاس: «سبعة ثمانية».

لا لم تعد تريد الانتظار: «تسعة عشر».

أمر جنوني لقاء الشفاه عندما تكون مستعداً له بل ترغب فيه لقد فقدت السيطرة وهي تبادله القبل!

لم تعد هي أو ربما هي ولم تعرف نفسها إلا الآن، ف(هي) الفتاة الخجول حد الانطوائية أحياناً في تصرفاتها لكن جسدها هو جسد امرأة.. امرأة مع الرجل الصحيح زوجها الذي يعرف كيف يملأ رغباتها بالرضا والانفتاح للمزيد، لا! لا ليس بعد، ربما تبدد خوفها بالتسليم له لكن خوفاً فجائياً سيطر عليها اللحظة، لقد تبادت وهي تبادله القبل بهذا الجموح والانفلات بل عامر ذاته يتمادى أكثر وقد بات كفاه تحت بلوزته يلامسها بجنون لا يشبع، هتفت برعب من نفسها وهي تبعد فمها عنه بخشونة: «يكفي عامر.. يكفي إن كنت تحبني يكفي لقد تمادينا كثيراً».

تجمد جسده كله ومرت لحظات طويلة وهو يطوقها هكذا دون أن ينظر إليها، كان يستعيد سيطرته وهي مدركة لهذا، وإدراكها هذا بطريقة ما جعلها تشعر بالخجل من نفسها لا تدري كيف تشعر اللحظة! لكنه شعور غير محبب لنفسها وكأنها تفعل أمراً خاطئاً تفعل ما يُعيب! كيف قبلته هكذا؟! كيف تفاعلت أنوثتها بهذا الجوع؟! ارتبكت اضطربت وخجلت من نفسها، ابتعد أخيراً عنها وعاد ليستقر في كرسيه وهو يغمض عينيه، تشعر

بالبرودة في أوصالها وثقتها بنفسها اهتزت. فجأة فتح عينيه والتفت بوجهه إليها، تشع نظراته بسؤال جارف لتنطقه شفتاه: «هل تحبينني حرير؟».

الفصل العشرون

فجأة فتح عينيه والتفت بوجهه إليها تشع نظراته بسؤال جارف لتنطقه شفتاه: «هل تحبينني حرير؟».

اتسعت عيناها للحظة أو اثنتين وهما تحدقان فيه باضطراب شديد وكأنها تستوعب السؤال ثم تستوعب صدى الرد المدوي في داخلها قبل أن تجد نفسها تهز رأسها بـ(نعم)، قلبها يقرع بعنف وتستطيع أن ترى قلبه يقرع في صدره مثلها وأكثر ثم يطالبها بالحاح خشن: «قولها».

فتعض شفتيها قبل أن تهمسها بصعوبة: «نـ.. نعم».

فلا ترضيه ولا تكفيه ليطلبها بخشونة أشد وهو صامد ثابت مكانه: «قولي الكلمة يا حرير ليس (نعم) فقط».

عينا عامر لا تفارقان تلكما الشفتين ويكاد يجن من طعم مذاقهما في فمه لكنه يأبى الاقتراب قبل أن يسمعها منها صريحة، لم يكن سيطلبها لو لم يكن واثقاً منها وقد طلبها اللحظة لتستوعبها حرير وتتعامل معها، أما هي فإحساس لا يضاهي ينتابها وهي تنظر إليه يعاني معاناتها! كلاهما يعاني هو كي يسمعها وهي كي تقولها أنفاسها متسارعة وتريد بكل كيائها أن تعيش الكلمة، تحررت الحروف من قلبها لتتناثر سعادة على شفتيها: «أحبك».

للحظة جسده تحرك ثم عاود الثبات وهو يسأل بخشونة: «متأكدة؟».

وفي تلك اللحظة نفسها كانت حريز تضيف برعشة: «جداً».

فاختلطت الكلمتين معاً وكلاهما ذاهل!

ابتلع ريقه بصعوبة وهو يعاني الأمرين ليسأل: «هل (جداً) تتبع كلمة (أحبك) أم رداً على سؤالي (متأكدة)؟».

جسدها النحيل الرقيق يرتعش أمامه وعيناها تدمعان وهي تهمس له بشجاعة رغم خجلها الشديد: «الاثنتان معاً».

لم يستطع المقاومة أكثر من هذا فيقترب منها بحركة سريعة ليحتويها في حضنه يعجنها بروحه وأنفاسه مجدداً وهو يهمس لها بخشونة: «هذا كل ما يهمني فثبتي هذا في رأسك فكوني كما تشائين معي دون حرج كوني معي كما تشعرين كما تحبين وترغبين».

كان جسدها يذوب استجابة لكنها تتمنع عليه بشفتيها وتتأرجح بين الذوبان والتشنج وكأنها ترفض استجابتها له غريزياً ومحتارة مما يجب أن تفعله، رغم تمنعها واضطرابها كان يضمها باحتضان أشد وأعمق وهو يكاد يجن سعادة، يودّ لو هناك طريقة في الدنيا ليخترق أضلعها كي يصل إلى قلبها الخافق المرتجف النبضات فيشبعه بالقبل، ما زالت مضطربة بينما يتأنى بملامسة خدها بشفتيه فصبر نفسه وهو يحاول تفهم ما يجري معها، إنها متحفظة للغاية ويكاد يشعر بسبب اضطرابها، تحتاج أن تعتاد هذا الوضع الجديد وتتقبله، هي تحبه لهف قلبه على هذا الحب الذي انتظره

سنوات؛ لكنها تحتاج الاستعداد لتقبل التبعات العاطفية الطبيعية لهذا الحب شيء واحد يجهله حتى اللحظة لماذا كانت تخاف حبه من قبل؟!!

أصابه عاودت ملامسة ظهرها فشعر بها تتشنج فقرر أن يكلمها قليلاً كي تسترخي دون أن يفصلا هذا الوصال الحميمي بينهما فأخذ يلامس بشفتيه أذنها اليسرى هامساً بعذوبة: «أقسم بالله نعومتك هذه تثير جنوني، كأني غارق بين طيات من لفائف الحرير، أنت أكثر نعومة من شهودة ابنة وفاء، هل أنت بهذه النعومة منذ الولادة؟ ألهذا أسمىك حرير؟». ترد عليه تحاول مجاراته رغم تشنجه «ليس من البداية، فقد أسمىني عبير... ثم» ما زالت مضطربة ويشعر بحيرتها أين تضع كفيها فابتعد بوجهه قليلاً وهو يحرك ذراعه الأيسر كي يمسك بكفها الأيمن ثم يضعه فوق قلبه؛ يحشره حشراً هناك، وعندها تعود ذراعه لاحتضانها كما كان وهو يقول بصوت خافت يشع بشمالة السعادة «ثم ماذا؟ استرخي حريرتي وكلميني... لدينا الكثير لنخبر به بعض» تنهدت قليلاً وكأنها تعافر لالتقاط تركيزها ثم قالت وهي تنظر أخيراً لوجهه القريب جداً من وجهها «أمي أخبرتني أنها كانت ترتعب من شدة نعومة جلدي فلا أثبت بين ذراعيها خاصة عندما تحممني، وأوشكت أن أتزلق منها أكثر من مرة، لذلك جدتي رحمها الله هي من اقترحت أن يغيروا اسمي إلى حرير»

كانت ألد قصة يمكن أن يسمعها عنها، يبتسم ابتسامته الخلابة فيراها تحمر وهي تحديقاً بعجاب عفوي أنثوي صريح في فمه ليحرك ذراعه مجدداً

وهذه البقرة كانت يده اليسرى ترتفع لوجهها ليمر أطراف أنامله فوق بشرة وجهها وهو يقول بصوت أجش: «لهم الحق بتبديل اسمك، اسم على مسمى، لكن ماذا عن باقي أخوتك؟».

تبتسم بخجل وهي تتنهد بابتسامة مسترخية قائلة: «من بعدي اختاروا على الوزن نفسه اسمي شقيقتي هدير وسدير».

ما زالت أنامله تلامس بشرة وجهها وهو غارق بهذا السحر الحريري؛ لكن عقله ما زال حاضراً ليواصل الكلام معها: «هل تعلمين للمرة الأولى أنتبه أنك الكبرى، ظننت أن هدير رحمها الله هي الكبرى».

لمحة وجع مرت على محياها فسأل برقة: «هل يؤلمك تذكرها؟».

ردت وعيناها تلمعان بالشجن: «لقد اعتدت رحيلها أتذكر طفولتنا بسعادة وأحاول دوماً ألا أتذكر أيام مرضها رحمها الله كانت رقيقة للغاية أرق من سدير حتى كأنها طير من الجنة».

تمتم عامر وأنامله المسحورة تصل شفتيها ترسم حدوذهما وتلامس رحيقهما فلا يستطيع المقاومة أكثر ليذوقهما من جديد وهو يهمس: «الجنة».

كانت قبلة مختلفة شاعرية حالمة يبت فيها القلب غرامه، ورغم أنها تبادلته القبلة فإنه كان يشعر بها تقاوم في الوقت ذاته فيبتعد بشفتيه وهي تهمس باسمه كأنها تعاتبه: «عامر».

لكنها كانت مسترخية كفاية ليسألها بخفوت: «هل أنت خجولة لأنك تجاوزت معي بهذه الحرارة لا أقصد الآن أقصد قبلها».

تسبل أهدابها وهي ترد بهمس مرتبك: «لقد تمادينا كثيراً».

يحاول جعلها فكاهة ليخفف وطأة الأمور عليها فيقول مازحاً بعث: «أتسمين ما حصل تمادياً؟! بالله عليك كنت للتو ألمسك».

ثم يقبل خدها المخمر ضاحكاً بينما بدت هي مضطربة ومحتارة وهي تشرح له: «أنا آسفة لكني أقصد لا أعرف كيف تصرفت هكذا شعرت أنني لست أنا أنني أفعل خطأ، شعرت بالخجل لما أفعله وتماديت فيه معك، الخجل أمامك وأمام نفسي وفي الوقت ذاته كنت أريده بقوة وأشعره صحيحاً للغاية».

حقاً لقد كان هذا أشجع ما قالت له حتى أشجع من نطقها بكلمة (أحبك) وقد أكد أن أحساسه بها صحيح، حاوط خدها بكفه فرفعت نظراتها الخجول إليه لتتأمل في عينيه وهو يقول لها بخفوت شديد مؤثر: «حسن لن (نتمادي) مرة أخرى هل يريحك هذا؟». تنهيدة راحة خرجت منها بعفوية وهي تهز رأسها بـ (نعم) ثم يبتسم لها مضيئاً: «لكن بعض القبل البريئة جداً لن تحتسب (تمادياً) أليس كذلك؟».

تضحك بارتعاش وهي تهز رأسها مجدداً ذائبة باطمئنان بين ذراعيه، لم تكن تعرف ما تفعله به ربما وربما تعرف وسعيدة من داخلها دون أن

تتعرف، فرغم التحفظ الذي تربت عليه ستظل حواء التي يرضيها تأثيرها على رَجُلها، يشعر بكفها يضغط بعفوية على موضع قلبه وكأن جسدها يريد الانطلاق في حبه ولمس قلبه فيعاود ملازمة خدها وهو يقول بصوت مبحوح: «لا تستفزني لأنقض اتفاقاً ما زال خبره لم يجف».

تضحك برعشة ثم تقول: «أعدني للبيت أرجوك لقد تأخرت».

فيتنهد بلوعة وهو يقول: «سأفعل وعزائي الوحيد أنني على الأقل سأراك بعد ساعتين، رغم أنني لن أستطيع لمسك».

تمتت بامتنان لتفهمه: «شكراً».

يميل لشفتيها في قبلة خاطفة أخيرة قبل أن يغادرا قائلاً بحرارة: «شكراً لمن خلقك وأرسلك في طريقي».

في إحدى الزوايا بالبنك تدير رونا هي ظهرها بينما تستمع لكلام عمر عبر الهاتف وهو يحاول إقناعها بصوته الكاظمي الساحر: «بما أن حماتي دعنتني للغداء اليوم لماذا لا آخذك من عملك ونذهب سوياً؟».

يكاد سحر صوته ونبرة إلحاحه تخدرانها فتتنفض رأسها وخداها يتوردان بينما ترد عليه بصمود: «لأنني ببساطة أعود للبيت بالحافلة الخاصة لموظفي البنك».

يخفق قلبها وهو يرد بنبرة رجاء عاطفي: «وأنا حافلتني خاصة بك وحدك فقط قولي نعم».

تنهدت وهي ترد باختصار: «لا أستطيع عمر».

سألها بخفوت: «لماذا؟ المسافة قصيرة للغاية خمس دقائق بين البنك وبيتكم».

ردت بنبرة الأمر الواقع: «توصيات أُمي المشددة (ليس قبل عقد القراءة)».

يترقق صوته أكثر وهو يعدها: «أقسم بالله سألتزم بكل الحدود».

بعفوية لا تخلو من الثقة بالنفس ردت عليه: «لا تحتاج للقسم أنا أجد الدفاع عن نفسي أعرف بعض الحركات القتالية».

انفجر عمر ضاحكاً بينما رونا هي تستمع لضحكاته وتتخيل وجهه الوسيم بتأثر عاطفي، همست في سرها (فليُعني الله عليك يا ابن تاج الدين أنت خطر كبير على قلبي حتى لو كنت أحمل الحزام الأسود في الجودو)، كانت غافلة تماماً عمن تقف خلفها وتستمتع للحوار وهي تدعي الانشغال بهاتفها، تعتصر نهاوند هاتفها بين أصابعها المشدودة الغيرة والغضب تتفاعلان داخلها في خليط خطير، تسترق النظرات الحاقدة لتلك الفتاة (السمينة) ولم يفتها الحلقة الذهبية الأنيقة الباهظة حول خنصرها الأيمن.

ما زالت رونا هي غافلة تماماً عن وجود نهاوند القريب جداً بينما تركيزها

مع عمر الذي قال لها بنبرة حلوة بل تفيض حلاوة: «ما دمتِ مقاتلة (نينجا) فلماذا لا تخبرين والدتك بهذا لعل وعسى ترضى».

ردت رونا هي وهي تتذكر وجه أمها العابس: «لن ترضى انس عمر».

تنهد برقة ثم قال: «حسن أسبوعان وتحل هذه المشكلة».

ليضيف بخفوت: «بدأت أشعر بالغيرة من عامركيف سبقني بعقد القران؟!».

تلقائياً داهم رونا هي شعور البهجة البريئة وهي تقول بسعادة عفوية: «أما أنا فطوال اليوم أشعر أنني سعيدة بطريقة مضحكة أنا لست رومانسية على الإطلاق ولم أكن أتصور أنني سأتأثر بهما هكذا؛ لكن هذا ما حصل! بمجرد ما يرد بخاطري أن عامر وحرير عقدا القران صباح اليوم يجعلني أضحك، حتى أخذت زميلاتي بالبنك ينظرن إليّ بتوجس ويبتعدن عن طريقي كأنني تعاطيت حبوب هلوسة ويخشين أن أفعل ما لا يليق ويحرجهن معي لكني لم أبال بهن».

رد بنبرة دغدغت مشاعرها: «أنا عكسهن أود الاقتراب لأتعاطى مباشرة مع طريقتك المضحكة بالسعادة».

اقشعر جلدها وشعرت أنه يغازلها بطريقة ما! احمرت وهي تدافع عن (أنوثتها) بأسلوبها التلقائي: «لا تسخر مني يا ابن تاج الدين ولا تفسد سعادتي».

ضحك بخفة وهو يقول: «لن أفسد شيئاً (نينجا) أراك وقت الغداء».

ثم أنها المكالمة وابتسامة عريضة هبلاء على وجه رونا هي وهي تستدير لتتفاجأ وهي ما زالت على الابتسامة نفسها بوجود امرأة شابة (مصدومة النظرات) لكن جميلة المحيا تقف قريباً منها، لم تفهم معنى النظرات المصدومة ولا أسبابها لكن حالما تنبعت لتحديق رونا هي بها تلاشت الصدمة ليحل مكانها تعابير هادئة، فكرت أنها ليست جميلة فقط بل أنيقة الملبس راقية النظرة في غرور، ربما عبت رونا هي من نظرة المرأة لها نظرة غامضة لم تفهمها فكرت هل تعرفها؟! إنها تكبرها سناً بكل تأكيد ربما من عمر أختها بسمة أو أصغر من بسمة. فجأة ابتسمت لرونا هي وهي تقول لها ببشاشة حلوة مصطنعة بعض الشيء: «مرحباً أنت أخت بسمة أليس كذلك؟».

ردت رونا هي الابتسامة بلطف وهي تقول: «أجل أنا أختها».

فشمخت الشابة بغرور عفوي منفر لرونا هي وهي تدّعي اللطف وتقول: «وأنا نهاوند صديقة بسمة أيام الجامعة».

قالت لها نهاوند بذاك اللطف وهي تعاني الأمرين في داخلها ألا يكفي أن تواجه هذه الكريهة البدينة التي خطفت حبيبها عمر لتعلم أيضاً أن عامر عقد قرانه على حرير! هل يعقل؟! عامر القماش يصوم عن الزواج وعن كل الفتيات لسنوات وحالما تتطلق حرير يسارع للزواج منها؟! ماذا فيها حرير

لستحق عامر؟! وهي نهاوند بكل جمالها وحسبها ونسبها تعيش مطلقة
منبوذة مع طفلتها!

استجاب لتوسلاتها أن لا يوصلها حتى باب البيت، بينما يتنهد عامر
وعيناه تلاحقان شفتيها وتورد خديها فيهمس مستسلماً: «لن أضغط عليك
أكثر رغم أننا كنا نستطيع القول أمام والدك إنني رأيتك في الحي تعودين
مشياً على الأقدام ومن الطبيعي أن أوصلك». أمسكت ذراعه عفويًا وهي
تطلب منه: «هنا يا عامر قف هنا رجاء والشارع خال».

اكتفى بتنهيذة أخرى وهو يركن السيارة إلى جانب الرصيف، سحبت يدها
من فوق ذراعه ثم بدت محرجة فجأة وهي تدس يدها في جيب سروالها
الجينز وتقول ببعض التلعثم: «هناك أمر أخير أنا.. أنا..».

يميل سريعاً ليخطف قبلة من جانب فمها قائلاً بلوعة: «يا (أنا) عامر».
كانت تناضل لتخرج ما في جيبها فلم تبد اعتراضاً على قبلته تلك وهما
على أطراف الحي، فأثارت بعض خيرته وهو يراقب محاولاتها لإخراج ما في
جيبها حتى نجحت أخيراً لتخرج ورقة صغيرة مطوية يعقد حاجبيه بتساؤل
وهو ينظر للورقة وفي اللحظة التي أدرك فيها عقله أنه (الصك) الذي
أعطاه لها صباح اليوم في المحكمة كانت حرير تمزقه، كان يحدق في قطع
الورقة الممزقة وهي تضعهم مجموعين على الجزء الفاصل بين المقعدين،

نظر إليها وقال بجديّة: «لم يكن يجب أن تفعلني هذا لقد كانت كلمتي لوالدك وأنا وافقت هذا حقك».

فردت بصلافة: «أنت تعرف يا عامر السائد من أعرافنا في هذه الأمور لا تتم بهذا الشكل، لا أحد يحرق صكاً بالمقدم والمؤخر نحن نثبتها بعقد الزواج فقط ورغم هذا أنا نفذت لأبي ما أراد وأخذت منك الصك أما بعدها فأنا حرة لأفعل به ما أشاء».

رد معترضاً: «حرير لكن».

قاطعت اعتراضه بالقول: «أنا لا يهمني المقدم والمؤخر كما لا أريد عقاراً وطوباً لا تشارك ملكيته معك».

ثم شعت عيناها الناعستان بعاطفة أقوى مما يستطيع قلبه تحمله لتمد يدها وتضع راحة كفها فوق مكان قلبه وتقول بنبرة خافتة: «أنا أريد بيتاً يا عامر.. بيتاً دافئاً يجمعنا سوياً يشبه قلبك حتى لو كان هذا (البيت) مجرد غرفة نوم في دار عائلتك».

يرفع يده ليضعها فوق يدها يضغطها بخشونة فوق نبض قلب المجنون وهو عاجز عن الرد، كان يرخي رأسه للخلف وعيناه تنظران إليها ولا يعرف ماذا يقول لها، وقد قالت كل شيء، رغم أنه لن يوافقها بما فعلت لكنها أثبتت له اللحظة كم كان محقاً باختياره لها، لقد عرف معدنها وكانت تستحق كل لحظة عذاب مرت به حتى أصبحت له، تلفتت حولها ببعض

القلق فعلم أن الوقت قد حان فتركها تسحب يدها وهو يتألم حرفياً، بينما
تضيف حرير ببعض الخجل: «وقد وعدتني أننا سنعيش قريباً من عائلتي
أليس كذلك؟». رد بخفوت: «وعد الحر دين حريرتي».

ابتسامة رضا ملأت وجهها وعيناها تفضحان تألمها لفراقه اللحظة فتقول
قبل أن تترجل وكأنها تواسيه وتواسي نفسها: «أراك بعد ساعتين».

أمسكها من ذراعها وهي تفتح باب السيارة فالتفتت إليه بنظرات متسائلة
ليقول لها بجدية: «يعني لي الكثير ما فعلته الآن لكن مبلغ المقدم والمؤخر
سأضعه في حسابك بالبنك». حاولت أن تعترض فمنعها بالقول: «إنه حقك
والأصول التي تربينا عليها ومهما قلت لن أغير رأيي وهذه كلمتي مع والدك
يا حرير لن أخالفها من وراء ظهره».

نظرت إليه مطولاً ثم قالت بنبرة رجاء كي يتفهمها: «إذن ما دمت تريد
فعل الأصول فالمقدم والمؤخر يكونان بالأصول والمعقول أيضاً دون مبالغة
تسيء إليّ بدل أن ترفع قيمتي كما يظن أبي».

نظراته لم تعبر عن شيء بينما تضيف حرير: «أرجوك عامر ساعدني
لأصحح صورة خاطئة عن أبي لا أريد أن نبدو كطامعين أمام أهلك هذا
يجرحني ويمس كرامتي وكرامة أبي».

قال بعبوس: «لا أحد يراكم طامعين حرير والداي متفهمان لأسلوب والدك
وسبب طلباته الحاج سليم يفهم البشر جيداً ولم يفته المغزى من طلبات

أبيك».

لكنها ردت عليه وهي تطلب تفهمه لأهمية الأمر عندها: «فقط أرخني بالله عليك».

تبسم لها قائلاً: «سأريحك يا (أنا) عامر وبالأصول».

ثم أرخى يده لتنساب حرير بنعومتها من بين أصابعه.

دخلت سجي البيت وهي تشعر بالإرهاق.. إرهاق نفسي يستنزف طاقتها
تفاجأت بوجود العم رياض بمفرده في المطبخ وهي تلقي السلام فيلتفت
إليها بوجه باسم يرد لها سلامها لتتفاجأ سجي أكثر وهي تراه يقطع
الباذنجان!

وضعت حقيبتها جانباً وهي تتقدم منه وتتساءل: «ماذا تفعل عماه؟!».

رد ببشاشة مصطنعة: «أطبخ لنا الغداء». توترت ثم قلقت وهي تتلفت
عفوياً وتتساءل باضطراب: «أين خالتي؟ أليست موجودة في الدار؟!».

ترك رياض ما يفعل ليرد عليها بجدية: «لا ترتعبي هكذا إنها موجودة؛
لكنها لم تكن بمزاج جيد لتطبخ».

انعصر قلبها عسراً وقد شعرت أنها السبب تنظر في عيني عمها رياض
ولا تعرف ماذا تقول ليقول لها بنبرة هادئة حلوة: «أذهبي وبدلي ملابسك

وتعالي أنقذيني من الكارثة التي أفعليها».

تهز سجي رأسها والهم يملأ قلبها بينما تتحرك لتغادر المطبخ وهي تفكر
أذهب لخالتي أم الأفضل تجنبها ليأتيها الرد من عمها دون أن تبوح
بالسؤال: «لا تذهبي لخالتيك الآن دعيها ترتاح إنها تحتاج لهذه الوحدة مع
النفس».

أخفت أجفانها دموعها وهي تنسحب تلتقط حقيبتها مجدداً وتتحرك
مغادرة المطبخ نحو الدرج فتصعد السلالم ببطء وعيناها ترنوان لباب غرفة
نوم خالتيها نبراس والعم رياض في الطابق الأرضي لقد كان مغلقاً أصفاً لا
يسمع عذابها وأخرساً لا يجيب احتياجها، تتمتم بهمس مخنوق: «ماذا أفعل
يا رب؟! لقد تعبت تعبتي».

بعد ساعات بيت أسعد الجنابي

لا تعرف حرير ماذا تصف هذه الجلسة، والدها تقريباً لم يتكلم مع عامر
إلا بضع كلمات مقتضبة باردة ولم يفتح معه أي حوار حقيقي، حتى نظراته
الباهتة كانت أكثر استفزازاً من صمته، والدتها بذلت المستحيل لسد هذا
النقص وعليها أن تعترف أن عامر نفسه كان يساعد بانضباطه وثباته
الانفعالي، كانت تشعر به كم يحاول أن يكون لطيفاً مع الجميع لكن بحدود
حتى معها هي وضع حدوداً كي لا يزعج أباه بأي طريقة فقط بضع نظرات

منفلتة منه نحوها وهو يركز على شفيتها ويرفع يده خفية يربت على قلبه في حركة لا تلفت انتباه أحد غيرها، تعترف حرير رغم رغبتها العاطفية أن يبقى أطول فترة ممكنة معها لكن توترها كان يفرض نفسه خاصة مع نظرات أبيها التي بدأت تأخذ طابع عدائية أكثر منها لا مبالاة مستفزة بخطيب ابنته، بينما يحتسي عامر الشاي بعد الغداء قال لحماته بابتسامة دافئة: «سلمت يداك يا خالة الغداء كان شهياً للغاية يذكرني بطعام جدتي».

بابتسامة عريضة ترد والدة حرير: «سلم الله جدتك وأطال عمرها وسلمك من كل شر يا ولدي؛ لكن هذا من صنع يدي حرير».

توردت حرير من مبالغة أمها لتقول بصدق عفوي: «أمي ليس صحيحاً أنا ساعدتك فقط أنا لا أجيد الطبخ مثلك».

ابتسامة خاصة للغاية من عامر لها جعلها تشعر وكأنه يهمس في أذنها: «لا أبالي إن كنت لا تجيدين الطبخ».

سدير كانت مبتهجة للغاية وهي تنظر إلى عامر بعينين لامعتين كأنه بطل الأبطال، بينما خلدون أظهر عبوساً وهو يراقب تصرفات أبيه بضيق يظهره ولا يخفيه بل شعرت حرير أنه يستفز أباهما وهو يتكلم مع عامر بمرح مبالغ فيه كأنهما صديقان مقربان. أحضرت سدير الصينية لتحمل أقذاح الشاي الخاصة (الاستكانات) الفارغة وبينما عامر يضع قدحه ابتسم لها وقال: «سلمت يداك». فقالت بتلك البهجة التي طفحت منها اليوم: «أنا من أعددت له هل أعجبك؟».

رد برقة: «ألذ ما شربت من شاي في حياتي».

اتسعت ابتسامتها وشعت سعادة بريئة وكأنها ترى في عامر بداية حياة أجمل لهم جميعاً وليس لحريير فقط.

فجأة جاء صوت أسعد الجنابي خشناً قاسياً صارماً وهو يزجر ابنته ضمناً: «سدير يكفي إضاعة للوقت اذهبي لتدرسي ألا يكفي أنك أضعت محاضرات اليوم لتساعدني أمك في الطبخ والتنظيف؟!».

احمرت سدير حرجاً وهي تتمتم: «ح.. حاضر».

تعود لجمع أقداح الشاي بينما توترت الأجواء بشكل ملحوظ ليوجه الأب كلامه إلى ولده هذه المرة وهو يأمره بالقول الساخط: «وأنت أيضاً يا خلدون اذهب لغرفتك وكفاك ثثرة فارغة».

زَمَّ خلدون فمه وهو يقارع أباه النظرة بالنظرة ثم أظهر تمرده وهو يرد على أبيه باستفزاز وتحدي: «لا».

راقب عامر ما يحدث بينهما دون أن يتدخل بينما يرى (حماه) يرد على ولده بخشونة أشد: «ماذا تعني لا يا ولد؟!».

تصاعدت شرارات التوتر وبات متفجراً عندما رد خلدون بوقاحة: «أنا لست ولداً وأعني (لا) لن أذهب لأدرس بل سأبقى هنا مع عامر».

هَبَّ الأب ليقف على قدميه فوقف عامر معه احتراماً له في حركة تلقائية،

بينما يرعد أسعد متوعداً ولده الذي ظل جالساً مكانه يواصل تحديه لأبيه:
«قسماً بالله إن لم تفعل ما أمرك به فسوف تندم أشد الندم».

هَبْ خلدون وأوشك أن يرد بعنف ليسارع عامر كي يحتوي الموقف قبل أن
يتطور أكثر فيقول: «أنا سأغادر الآن لا داع لبقائك معي يا خلدون والدك
معه حق».

يغتاض أسعد وهو يرى ولده خلدون يلتزم الصمت بعد كلام عامر رغم
الثورة والتمرد في عينيه فيقول الأب لعامر بخشونة: «مؤكد معي حق! لا
انتظرك لتخبرني بهذا ولدي لا يحتاج توجيهاتك».

التزم عامر الصمت وهو ينظر لحماه بهدوء بينما تلطم الأم على خدها
بكفها دون إصدار صوت، حرير تحديق بأنفاس متسارعة من شدة الارتباك
والقلق، سدير شحب وجهها وتبدو على وشك البكاء بينما خلدون يغلي في
سكوته وعيناه تنطقان بالغضب، لم ينه الموقف إلا كلام عامر الذي قال
برحابة صدر: «أنت محق عماه أعتذر منك».

ثم وجه ابتسامة جماعية لهم وهو يضيف: «شكراً للضيافة لقد أطلت
البقاء ويجب أن أعود للمحل».

كان أسعد ينظر بعجز للموقف الذي صنعه بيديه وخرج عن سيطرته بينما
يكمل عامر وهو يكلم حماته: «غداً صباحاً سأمر بك خالتي أنت وحرير
لنذهب سوياً إلى سوق الذهب ووالدتي ستكون معنا بالطبع».

ما زال أسعد يعافر ليقاوم وجود عامر في حياة أسرته ويكافح ليمسك زمام الأمور بفرض رأيه ليقول بتعنت: «بل حرير تذهب مع والدتها ويلتحقان بكما أنت ووالدتك هناك لديها السيارة ولا تحتاج لتأخذها أنت».

شعرت حرير أن فرحتها اليوم تكاد تتلاشى من بين يديها حاولت الكلام إلا أن عامر كان أكثر هدوء منها وإقناعاً باللين مع أبيها: «الازدحام شديد هناك كما تعرف عماه وسيكون عبئاً على حرير إيجاد مكان لسيارتها لا أحب لها أن تكون بموقف كهذا».

هذه المرة والدة حرير فاجأت عائلتها وهي تحسم الأمر لتقول متجاوزة زوجها في سابقة لم تحصل من قبل: «سلمك الله من كل سوء سننتظرك بني عند العاشرة كما اتفقنا».

كان أسعد يحدق بجرأة زوجته ولا يصدقها! ثم شعر بالضعف فجأة ليس الضعف فقط بل التشوش ينظر إليها وتختلط السنوات عليه ومعها تختلط الوجوه والأسماء في تضليل ضبابي مربك فيناديها وكأنه يعاتبها على شيء تاه عنه من الأساس: «أشواق!».

كلمة واحدة اسم واحد جعل الجميع يتجمد فقط عامر بدا حائراً وهو يحدق في الوجوه الجامدة والأدهى تلك الصدمة التي ارتسمت على وجه والد حرير وكأنه لا يصدق ما فعله! حتى اللحظة لم يفهم عامر ما حصلما الذي جعلهم بهذه الحالة؟! ثم لفت انتباهه أن والدته حرير كانت أول من خرج من صدمتها

لتركن تعابيرها إلى الأكم، نكس والد حرير رأسه فجأة كأنه يهرب منهم ثم تتم بإنهاك: «أنا ذاهب لأنام إنه موعد قيلولتي».

شعر عامر بوجوب انسحابه الفوري ففعل وهو يلقي السلام بينما الوجوه تكاد لا تتواجه! لا معه ولا مع بعضهم البعض. يسير عامر برفقة حرير في صمت وهو يغادر الدار وفي منتصف الباحة الأمامية سألها عامر بقلق من حالة الصدمة التي سرقت تورد وجهها اليوم لتحيله إلى الشحوب: «ماذا حصل قبل قليل يا حرير؟! هناك أمر فائني ولا أفهمه ما الذي أثر بكم لهذه الدرجة عندما هتف والدك باسم والدتك وكأنه أهانها! أو أوجعها».

عند بوابة الدار وقفا وعامر ينتظر ردها بقلق همست حرير أخيراً: «لأنه ليس اسمها».

يعقد عامر حاجبيه وهو يتمتم بحيرة أكبر: «ليس اسمها؟! إذن اسم من؟!».

عينها تحملان ثقل الهموم وهي تخبره: «أظنك لا تعرف كما كثير من الناس لا يعرفون فالموضوع قديم جداً».

فتساءل عامر: «ما هذا الموضوع؟». سرحت عينا حرير في الماضي تتذكر كل مرة كان والدها يتكلم عن زواجه الأول لتحكيها لعامر قائلة: «والدي كان متزوجاً قبل أُمي زواجاً افتقد التوافق والانسجام بالشخصيات والطباع فلم يعمر ذاك الزواج وانتهى سريعاً دون أطفال ثم تزوج أبي بعد

بضع سنوات من والدتي».

الكلمات تدور في رأس عامر وأخذت تملأ فراغات مهمة في عقله ليقول بهدوء كأمر بديهي: «إذن أشواق هو اسم زوجته الأولى». تهز حنجر رأسها وهي تطرق بنظراتها لأرضية الباحة وتقول بنبرة قلقة: «أجل وللمرة الأولى اسمعه ينادي أمي باسمها!». ينظر إليها عامر ويشعر بما تشعر بينما تحرك كفيها في توتر لتهمس كأنها تكلم نفسها: «كلما شعرت بالاطمئنان أن أبي لا يعاني مشكلة جدية ولا يعدو الأمر إلا تعب وضغط عصبي يفاجئني بما يجعلني أعود للقلق عليه».

يمد يده ليمسك يدها المتوترة فيلامسها بدفء يخفف عنها ثم يقول بجدية كي تواجه الموقف: «لا أريدك أن تقلقي لكن يجب أن يرى طبيبه». تنظر إليه وتسأله بحيرة: «هل أحجز له أم يجب أن أخبره أولاً؟».

رد عامر: «يجب أن تقنعيه أولاً يا حبيب اصبري عليه أسبوعاً حتى لا يشعر أنك تضغطين عليه بسبب ارتباطنا والمواقف التي حصلت».

أطلقت تنهيدة وهي تهز رأسها بـ(نعم) فيسأل عامر فجأة: «هل كان يحبها؟».

للحظة لم تفهم سؤاله فتتساءل: «ماذا؟! من تقصد؟».

بتركيز خاص وضع لها مقصده: «أشواق زوجته الأولى هل كان يحبها؟».

النظرة في عينيها كانت تكفيه ليعرف الإجابة لكن ردها كأن أبلغ وأكثر تأثيراً: «وقضى كل حياته معنا يحذرنا من عاقبة الحب والزواج الخاطئ من الشخص الخطأ».

بعد ربع ساعة دخلت حرير غرفة الضيوف لتجد سدير تحتضن أمها بقوة كأنها تواسيها بينما يقف خلدون مزمووم الفم متخصراً في تحفز، تقدمت حرير لتجلس جوارها من الجهة الأخرى وهي تسألها بلطف: «أنت بخير أمي؟».

للمرة الأولى ترى أمها بمنظار آخر بعيد عن الضعف والاستسلام والتخاذل، رأتها مجرد امرأة مجروحة؛ لكنها أبت إظهار جرحها أمام أولادها فترد عليها بابتسامة واهية: «بخير بنيتي بألف خير».

عندها هتف خلدون: «لا لست بخير إنه يؤذيك كما يؤذينا جميعاً إنه...».

هتفت به حرير بنبرة قوية وكلمات صارمة لم تستخدمها معه من قبل: «أنت ستخرس وتغلق فمك أتفهم يا خلدون؟!».

بعينين مصدومتين بعض الشيء كان خلدون يحدق في أخته الكبرى بينما تضيف حرير بنفس النبرة القوية: «حان الوقت لتتصرف كرجل بدلا من تصرفات الأطفال الحانقين المتدمرين!».

بدا مشوشاً بين تأثيره بتوبيخها له وبين ثورته لتكمل حرير ونظراتها تدينه وتدين تصرفاته: «حان الوقت لتراجع نفسك وأنت تتحدى والدك بطريقة

مخزية تسيء إليك قبل أن تسيء إليه».

بحركة عنيفة خشنة يدير خلدون رأسه جانباً وهو ما زال على وقفته المتحفزة بينما تلتفت حرير لأختها الصغرى التي ما زالت تعانق أمها لتقول لها بحزم: «وأنت أيضاً يا سدير حان الوقت لتكوني قوية بدلا من اهتزازك هذا وشحوبك عند كل موقف».

تطرق سدير بنظراتها في خجل من هذا التوبيخ بينما تميل حرير لتقبل خد أمها ثم تقف على قدميها وهي تقول لها بثبات: «سأذهب لأرى أبي وأعود إليك حبيبتى لنتفق على يوم الغد».

سألها أمها: «هل أخذت إجازة ليوم غد أيضاً؟».

ردت حرير: «أجل أُمي لا تقلقي منذ البداية طلبت من المدير إجازة ليومين».

ثم تحركت لتغادر غرفة الضيوف نحو غرفة نوم أبيها وجدته نائما في سريرها والأصح يدعي النوم! لكنها لم تزعجه ولم تخرجه بل سحبت كرسيًا وجلست جوار سريرته ثم اكتفت بأن تمد يدها لتمسك بيده في صمت.

كان عمر يتحاور مع زوج بسملة وهما يشربان الشاي بعد الغداء؛ لكن عيناه كانت تطرفان بين الفينة والأخرى نحو رونا هي، بدت له شاردة وتعقد حاجبيها وكأنها تحاول التركيز فيما تفكر فيه، ما أزعجه هو شعوره أنها

بعيدة عنه ليس انزعاجاً وحسب بل شعور بالافتقاد وبود لو يفعل أي شيء
ليجعلها قريبة منه تشاركه كل أفكارها الحالية

لم يظن أنه متعلق بها لهذه الدرجة، ولدا بسمة كانا يثيران الضجة بينما
الصغير الرضيع أخذته جدته لتغير له حفاظه بدت رونا هي غافلة عن كل هذه
الضجة ولا ترد على كلام أختها بسمة إلا بالندر اليسير، زوج بسمة استأذن
ليأخذ ولديه ويصعدون لبيتهم في الطابق العلوي كي يساعدهم بالواجبات
المدرسية، بينما بسمة تخبره أنها ستلحق به مع الرضيع بعد قليل، عندها
هدأ المكان فجأة فسألت رونا هي شقيقتها بصوت مرتفع لم تكن تتقصد
ارتفاعه بل جاء كأنه صدى عالٍ لأفكارها التي تشغلها اليوم: «هل تعرفين
نهاد؟ كانت معك بالجامعة».

تسمرت نظرات عمر بينما بسمة عفواً تنظر إليه مباشرة فتعبس رونا هي
وهي تنقل نظراتها بين الاثنين وتتساءل بأسلوبها الصريح: «لماذا تنظرين
لعمر هكذا؟ هل يعرفها هو الآخر؟».

مرت بضع لحظات صمت قبل أن يسأل عمر بغموض: «أين
التقيتِ بها؟».

ردت رونا هي عليه وبسمة تتابع الحوار بقلق: «في البنك أتت اليوم لتفتح
حساب توفير لطفلتها».

صمتت لحظة ثم سألته: «هل تعرفها يا عمر؟».

تبادل عمر وبسمة النظرات فتعبس رونا هي مجدداً وهي تتساءل بعجب:
«ما بكما أنتما الاثنان؟!».

لتقف بسمة على قدميها وهي تقول بهدوء: «نهاوند كانت معي بالمدرسة
الثانوية ثم في نفس الجامعة لكن في قسم آخر ولم تكن صديقة لي على
الإطلاق بل أستطيع القول إنها كانت تعتبر معرفتها بي تقلل من شأنها
العالي الراقي».

يزداد عبوس رونا هي بينما تضيف بسمة: «أنا ذاهبة لأساعد أُمي».

ثم تنسحب تاركة غرفة المعيشة لعمر ورونا هي يتكلمان بحرية وحالما
غادرت بسمة رد عمر على السؤال الذي يخصه بهدوء غريب: «أنا
أعرفها».

فسألت رونا هي وهي ترى في عينيه نظرة لم تفهمها: «وكيف تعرفها؟
كانت في قسمك أنت؟».

بالهدوء نفسه بالنظرة نفسها رد: «أجل معي أنا تكبرني بعام واحد».

لا تعلم رونا هي لماذا فضولها يتزايد مع إحساس غير مريح وغامض
لتقول: «غريب أن تدّعي صداقة بسمة! بل ذكرت حرير أيضاً وسألت عنها».

فاجأها عمر وهو يفقد هدوءه ليقف على قدميه قائلاً باستهجان غاضب:
«هذا أسلوبها القذر! أخبريني عما سألتك بالضبط؟ هل سألت عني؟ عن
عامر؟ وربما عن علي لا أستبعد هذا! أخبريني رونا هي بكل ما قالت».

إليه ويتفاعل داخلها أكثر من حدس، نعم تعترف أنها لم ترتح نهائياً لنهاوند، وكانت إحدى الأفكار التي مرت عليها أنها ربما صديقة قديمة لعامر، لكن شيء ما كان يخبرها أن نهاوند مهتمة بها هي شخصياً أكثر من حرير؛ لكن الآن بدت الأمور أكثر تعقيداً بكثير، نظرت لعمر وهي ترد على انفعاله بصلاية: «لم تقل الكثير ولم تذكر اسمك حتى لقد سألتني عن حرير وعامر فقط كما أخبرتك لسبب ما ادعت أنها صديقة قديمة لبسمة وحرير».

رد بالانفعال نفسه: «هذا الكذب ليس بغريب عنها لقد كانت تسخر منهما وتعتبرهما أقل مستوى منها».

ثم فجأة تبدلت تعابير وجهه ل يبدو أكثر قسوة وجدية وهو يسألها: «هل أخبرتها عن عقد قران عامر وحرير اليوم؟».

فردت رونا هي: «بدت وكأنها تعرف، ربما سمعتني عندما كنت أكلمك فقد كانت تقف خلفي».

بلهجة لم تعجبها على الإطلاق قال عمر بتحذير: «لا أريد أن تخبري أي شخص عن أي شيء يخص عائلتي هل تفهمين يا رونا هي؟».

عندها وقفت رونا هي على قدميها لتواجهه بالقول: «أنا لم أخبر أحداً بشيء، قلت لك هي سألتني، وبدا جلياً أنها سمعت حوارني معك اليوم».

ثم أضافت وهي تعقد حاجبيها بتحذير مضاد: «ولا أسمح لأي إنسان حتى أنت يا عمر أن يشكك بمصداقيتي؛ لست من النوع الثرثار، ولا أهتم

لسخافات الإناث التافهة، وأنت تعرفني جيداً».

بدا نادماً بعض الشيء لخشونته فحاول أن يخفف من حدته معها وهو يقول: «لم أقصد هذا».

لكن لم تتراجع وهي ترفع سبابتها اليمنى وتشير ناحية وجهه قائلة: «بل قصدته ورأيت في عينيك وارتسم على محياك الغضب». خاتم خطبتها في بنصر يدها المرفوعة جذب عينيها فأضافت وكأنها تكلم نفسها: «الآن فقط فهمت نظرتها لخاتم الخطبة في يدي».

لا تعرف كيف قالت هذا لتعيد نظراتها من الخاتم إلى وجه من منحها هذا الخاتم فتحدق في تعابير عمر التي استعادت هدوءها ودون أن يعلق على جملتها قال: «نهاوند هذه لا تكلمها مرة أخرى».

أنزلت يدها وهي تتساءل بإصرار: «ولماذا؟ هل كان بينكما شيء؟ أطالبك بالصراحة معي كما أنا صريحة معك».

مرت لحظات طويلة وهو صامت وهي لم تتنازل حتى تعرف ما يجري أو الأصح ما جرى!

قال أخيراً وهو ينظر في عينيها: «أجل كنت سأخطبها».

جملته صدمتها ولا تعرف لماذا يصدمها الأمر لهذه الدرجة رفعت يدها لتدفع نظراتها للخلف بحركة عفوية فتذكرت أنها تلبس العدسات اللاصقة! أنزلت يدها ورغم انكماش قلبها سألتها: «ولماذا لم تفعل؟».

رد والقسوة تطل من عينيه: «لأنها خدعتني بواجهتها البراقة وعندما اكتشفت زيفها قطعت علاقتي بها».

بلهاث التقطت الكلمة فتسأله: «إذن كانت هناك علاقة؟».

رد باقتضاب: «أجل كانت».

فتواصل أسألتها دون أن تستطيع منع نفسها وكم كرهت نفسها أنها لم تستطع: «إلى أي حد كانت علاقتك بها؟».

رد ببعض النفور: «ما هذا السؤال؟! كنا متفقين على الزواج بعد التخرج لماذا تبحثين عن هذه التفاصيل؟!».

لكنها تواصل وعينيها في عينيه لتسأل بصوت خافت: «هل أحببتها؟».

تنهد بقوة وهو يرد عليها: «إن قلت نعم فماذا سيؤثر؟! هل ستحاسبيني على مشاعري وأنا بعمر العشرين؟! نهاوند كانت تجربة عاطفية سيئة مررت بها وكنا جادين بالارتباط لولا...».

تردد لحظة قبل أن يضيف: «لولا أنها كشفت نفسها بطريقة بشعة».

وقبل أن تقول رونا هي شيئاً تحرك عمر وهو عابس الوجه نافر التعابير ليقول: «يجب أن أعود للمحل أراك لاحقاً».

لم تقل كلمة وهي تراه يبتعد لكنه أضاف وهو يصل باب غرفة المعيشة: «والدتك قالت ستذهبان للسوق غداً من أجل شراء باقي تجهيزات العروس

أخبريني إذا احتجتم لأي شيء».

ثم أضاف بنظرة عادية: «وبعد غد سأخذكما بنفسي لمحل أثاث ممتاز ولنا تعاملات معه». لم تقل شيئاً وما زالاً ينظران لبعض ثم انسحب مغمماً بالسلام، فيما كانت تضطجع في سريرها على جنبها حين دخلت عليها شقيقتها بسمّة، أغمضت روناها عينيها لتخفي آثار دموع ساخنة ذرفت بها بغباء منذ رحيل عمر وهي تشتم نفسها لهذا الغباء الأنثوي طوال الوقت.

شعرت بجلوس بسمّة جوارها على حافة السرير ثم شعرت بيد شقيقتها تمسد فوق شعرها وهي تقول لها بحنان: «لا تدعيها تسمم فرحتك نهاوند تغار منك ليس لأجل عمر بل لأجل نفسها، إنها كتلة من الحقد ولا تريد لأحد أن يأخذ أكثر منها لقد كنا نستغرب دوماً كيف شاب كعمر متعلق بها ويرغب بالارتباط بها ولحسن الحظ انفصل عنها قبل أن يتورط أكثر».

كان قلب روناها يوجعها ومن الغباء (مجدداً) إنها تتوجع وهي تعرف أن كلام أختها حقيقي ومع هذا لم تستطع تجاوز الأمر على الأقل الآن فاكتفت بالقول بحشجة: «أنا متعبة وأريد النوم من فضلك».

مالت بسمّة لتقبل خد أختها قبل أن تتركها لشأنها وحالما سمعت روناها صوت باب غرفتها يُغلق فتحت عينيها وشعت الشراسة منهما وهي تتمتم: «اقتربي مني مجدداً وحاولي إفساد فرحتي وسترين كل الفنون القتالية أجربها فيك».

صباح اليوم التالي

الساعة تقارب السابعة صباحاً عندما مرت سجي بغرفة الصلاة وهي تسمع صوت عمها رياض يقرأ القرآن فاستمرت خطواتها لتنزل إلى الطابق السفلي كي تطمئن على خالتها نبراس، شعور الذنب فتك بها طيلة الليل لأنها نفذت طلب العم رياض ولم تدخل لترى خالتها التي اعتكفت في غرفتها ولم تخرج على الإطلاق، نزلت درجات السلم على مهل خشية أن يسمعها عمها رياض ويمنعها مجدداً، وقفت أخيراً أمام باب غرفة النوم وأخذت نفساً عميقاً لتهدأ قبل أن ترفع يدها وتنقر الباب تستأذن قبل فتحها، وفي اللحظة التي فتحت بها الباب كانت تصرخ دون وعيها بجزع: «خالتي خالتي».

قدمهاها تكادان لا تحملانها وهي تهول ناحية جسد خالتها على الأرض وهي تصرخ بعلو صوتها ودموعها تجري على خديها: «عمي رياض أنجدني عما».

بعد أقل من ساعة كانت سجي تقف جانباً في الغرفة بينما الطبيب يكلم العم رياض وأمام خالتها نبراس المستلقية على سريرها تغمض عينيها، قال الطبيب ببشاشة: «إنها بخير لا تقلقا عليها هكذا فقط انخفض بالضغط

بسبب قلة الطعام كما يبدو».

ثم أوصى العم رياض بعمل فحوص لزوجته للاطمئنان عليها أكثر، بينما سجدى متسمة مكانها ودموعها عادت لتجري على خديها، أخذت خالتها نبراس تهمس: «لا لست بخير ولن أكون حتى أموت ليت يحصل بأقرب وقت قبل أن أشهد المزيد من الأذى».

يصمت الطبيب بينما يراقب رياض هلع سجدى ولوعة قلبها على من تعتبرها أمها وهي تقترب منها وتقول بتوسل: «لا تقولي هذا بالله عليك ستكونين بخير بألف خير».

لكن الخالة نبراس أخذت تبكي وتقول كمن يأس من الحياة: «دعيني بمفردي يا سجدى ليس لي أي رغبة في العيش».

يرافق رياض الطبيب للخارج وهو يشكره ثم يعود لغرفة نومه فيرى زوجته نبراس تتوسد صدر سجدى وتبكي بحرقة تنادي (هيام) وتلك المسكينة سجدى تحتضنها بقوة تحاول التخفيف عنها وهي تشاركها الألم والبكاء، تنهد رياض وهو يقول في سره: «بعد كل ما جرى يا نبراس حتى اللحظة لا تفطيني أنا أنا وأنت السبب فيه، ما الذي سيوقظك من غفوتك وغفلتك؟!».

في المطعم يجلس علي وحيداً والسيجارة في فمه دون أن يشعلها للمرة

الأولى لا يشعر برغبة ملحة لإشعال سيجارة رغم إحساسه العالي بالتوتر، يرفع هاتفه وينظر مجدداً للساعة التي تشير إلى الساعة الثامنة وعشر دقائق دون أي خبر من سجي، وعد نفسه سينتظر لعشر دقائق آخر وبعدها سيتصل يقلب بعلة السجائر بيده بينما السيجارة ما زالت معلقة بين شففيه حتى سمع صوت رنة رسالة نصية جعلت قلبه ينبض، وقد كان قلبه محقاً في انقباضه وهو يقرأ فحوى الرسالة من سجي (أنا آسفة خالتي متعبة وأحضرنا لها الطبيب يجب أن ألزمها لن أستطيع الإفطار معك).

رفع يده ليسحب السيجارة من فمه وذاكرته تعود به للوراء، كم مرة ادّعت فيها هيام المرض فقط كي تكسب تعاطفه بعد شجار عنيف بينهما، لم يشعر علي أن السيجارة تكسرت بين أصابعه متناثرة على الطاولة وهو يسحقها بغضب مكتوم.

وكانها للمرة الأولى تختار (شبكتها) وقد كانت بالفعل الأولى، ففي المرة السابقة لم تحضر من الأساس وتركت لأُمها لأن تختار لها، اليوم هي (عروس) حقيقية إحساسها إحساس عروس خجلة مرتبكة سعيدة، يدها ترتعش إثارة وهي تحاول تجربة الخواتم، والدتها تبتسم ودموع الفرح في عينيها بينما والددة عامر كانت تساعد وتقترح عليها دون أن تفرض ذوقها، أما عامر فيكتفي بالوقوف قريباً يتكفف وهو يراقبها بعينين تكادان لا ترمشان وكأنه لا يصدق حتى اللحظة أن حرير تختار الشبكة التي سيشتريها

لها، قلبها يقرع بنبض السعادة وهي تخبر الصائغ بما رست عليه من الاختيارات فزغردت أمها وشاركتها حماتها الزغاريد، حالما تم الاتفاق قال عامر للصائغ على عجل وهو يمد كفه لحرير في دعوة كي تقف: «ما دامت اختارت سأترك لوالدتي تنمة الشراء».

تساءلت والددة حرير وهي ترى ابنتها تقف عفويًا مستندة على كف خطيبها: «إلى أين؟». بدت حرير محتارة متوردة بينما عامر لا يفلت يدها وهو يرد على (حماته): «لدي أمر مهم أفعله مع حرير».

احتارت والددة حرير أكثر من ابنتها وهي لا تعرف كيف تتصرف فتتأمل لحرير وقالت بنبرة اعتراض: «لكن...».

قاطعها عامر وهو يميل ليلثم رأسها قائلاً: «أعدك خالتي لن نتأخر هو أمر عاجل ويجب أن أقضيه مع حرير اليوم»..

ترتبك نظرات الأم وهي تنظر لعيني ابنتها التي ملأتهما الفرحه فتقول نورجان مشجعة إياها لترضى: «دعيهما يا أم خلدون سنلف بالسوق بعد أن نكمل هنا حتى يعودا».

أخيراً تشجعت الأم لتبتسم برضا وهي تقول لابنتها: «أذهبي يا ابنتي مع خطيبك لكن لا تتأخرا».

هزت حرير رأسها بـ(نعم) بينما تلمح نظرة خاصة وحلوة للغاية في عيني حماتها نورجان، حدسها أنبأها أن والددة عامر قد علمت أنها مزقت الصك

وكم هذا الحدس أراح حرير، لم تمض إلا ثلث ساعة وسط زحام المارة حين وجدت حرير نفسها مقابل أحد البنوك في وسط العاصمة، التفتت لعامر الذي يمسك بيدها طوال الوقت: «لماذا أحضرتني للبنك؟».

فرد على سؤالها بسؤال جدي: «هل لديك حساب فيه؟».

أجابت بحيرة وهي تقاوم سحبه لها: «لا لدي حساب فقط في مصرف الـ (..) في المنصور».

يواصل السير معها وحثها على مجارة خطواته وهو يقول: «لا بأس سنفتح لك حساباً هنا».

سألته بخفوت وهما يدخلان بوابة البنك وقد فهمت مقصده من إحضارها إلى هنا: «لماذا أنت متعجل على وضع المقدم والمؤخر في حساب لي؟!».

لم يرد بينما تضيف هي باستدراك: «لأجل هذا طلبت مني إحضار أوراقتي الثبوتية؟ ظننتك تحتاجها في معاملة حكومية».

هذه المرة انشغل عنها وهو يكلم أحد الموظفين.

عندما غادرا البنك كانت حرير متضايقة للغاية فتعاطبه بقوة: «لماذا فعلت هذا؟ لقد اتفقنا يا عامر لقد وعدتني أنك ستنفذ مطلبي».

رد بهدوء وهو يعيد إليها أوراقها الثبوتية: «وعدتك سأربحك وراحتنا معا أن تقتنعي بوجوب فعلي لهذا لن أرضاها لنفسي ولا لك ولا لوالدك ما دام

حصل اتفاق فيجب أن يتم». سارا مسافة وهي تلتزم الصمت والعبوس حتى وصلا إلى سيارته وعندما استقرا كل على مقعده وقبل أن يشغل المحرك قال عامر بنبرة حلوة رقيقة: «والداي علما بتمزيقك للصك ورغم أنهما يقدران كثيراً ما فعلت إلا إن أبي أيديني فيما أريد فعله وهو أن أضع المبلغ كما هو كاملاً كما اتفقنا مع العم أسعد».

بدت وكأنها تقاوم قدرته للتأثير فيها وإقناعها فتدير وجهها جانباً ليمد عامر يده ويمسك بذقنها ويعيد نظراتها إليه ليهمس بابتسامته الخلابيّة: «والدتي تأثرت للغاية حتى إنها ذرفت الدموع تأثراً».

إبهامه تحرك ليلا مس ثغرها وهو يضيف: «لكن لا تصدقي تأثرها لهذا الحد هذه ليست شخصيتها، إنها الهورمونات فقط من تجعل دموعها قريبة».

قالها وهو يبعد يده عن وجهها مُكرهاً فقد كانا وسط زحام الناس بينما حرير تتمتم وهي مصدومة: «الهورمونات؟!».

شغل محرك السيارة ثم يدير المقود وهو يضغط دواسة البنزين على مهل كي يلتحق بركب السير في الشارع المزدحم، بينما يرد عليها بعفوية: «أجل أنت تعرفين أن نونة في سن انقطاع ال...».

تنبه لصدمتها المتزايدة التي تطورت لاحمرار شديد في خديها فانفجر عامر ضاحكاً ثم قال: «أنت تحمرين وتبهدين مصدومة كطفلة مذعورة!».

بدت أكثر حرجاً وهي تتنحى وتقول: «هل والدتك تتكلم معكم عن أقصد
عن هذه الأمور؟!».

عيناه تنتقلان بينها وبين الطريق وهو يسألها بابتسامته الحلوة الشقية:
«هل هذا ما صدمك؟!».

ثم مد يده ليمسك يدها مجدداً وهو يشرح لها بأريحية: «نونة تتكلم معنا
في كل شيء إنها أمانة التي نخاف عقابها كأننا ما زلنا أطفالاً، وأختنا التي
تشاركنا أسوأ أفعالنا وأسرارنا وفي المقابل نغرقها تدليلاً، وطفلتنا التي
نتحمل مزاجها العصبي بحلم الآباء».

تنهيدة صغيرة منها عبرت عن ارتباكها وهي تتمتم: «إنها امرأة خاصة».
يرفع يدها خطفاً ليقبلها في الظاهر والباطن فترتعب عفوياً بينما يضيف
عامر بجدية: «لا أريدك متضايقة أبداً اعتبري هذا المال الذي حولته لك من
حسابي هو إيداع لنا معاً للمستقبل فأنا مسرف للغاية».

تهز رأسها بينما يضيف عامر بنبرة أكثر جدية: «لا تفرطي في حقك أبداً
يا حبيب حتى لو كان لأجلي أنا».

يتكلم علي بأمور المحل مع والده عبر الهاتف، بينما سليم ينصت إليه
وهو يلتقط مزاجه العصبي بوضوح سألته فجأة وبسط الكلام: «ما بالك يا
علي؟ صوتك لا يعجبني». صمت علي للحظات قبل أن يقول: «أنا بخير يا

حاج».

ثم أخذ علي فجأة ينادي علي أحد العمال وهو يوبخه بعصبية بينما سليم يسأل: «هل حصل أمر جديد بخصوص سجي؟».

زفر علي بقوة ليرد علي أبيه مفصلاً عن سبب حالته بطريقة انفعالية: «أنا بانتظار تصرف العم رياض لكنني لست مرتاحاً علي الإطلاق الخالة نبراس أظنها بل أكاد. أجزم أنها تبتز عواطف سجي وتعمق إحساسها بشعور ذنب لم تقتطفه من الأساس أقسم بالله لولا العيب واحترامي لعمي رياض لكنت...». قاطعه سليم قائلاً بهدوء: «استمع لرياض يا علي يجب أن تهدأ وتجنح للتعقل وحكمة التصرف تذكر دوماً أن تلجم طبعك العصبي لأنه سيجعلك تخسر الكثير».

عندما تنهد علي ليصارح أباه بإحباط: «أعترف لك أنني خائف أبي خائف أن تتراجع سجي».

فعلق سليم باختصار: «سنرى بوقتها ما نفعل بني إن حصل هذا بالفعل» عاود علي التنهد فأضاف سليم «وفي النهاية الزواج قسمة ونصيب»

على الطرف الآخر كان علي يستمع لأبيه ويزن كلماته نعم هو يعلم عن يقين أن كلام والده هو الصحيح وهو ما يجب أن يتبعه لكن هل يمكن أن يسلم ببساطة أن قسمته ونصيبه ليست مع سجي؟! عاوده شعور الغضب وهو يتذكر تخلفها عن الحضور للقاء اليوم يعترف أنه غاضب حتى منها

لأنها تسمح للخالة نبراس بخداعها والتحايل على مشاعرها. فجأة أخذ يستغفر ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وهو يوبخ نفسه لأنه يفكر بحمق! ما الذي يؤكد بالفعل أن الخالة نبراس تتمارض وتخدع سجي؟! ربما مجرد أوهام برأسه وحتى لو كانت حقيقة على سجي أن تتخذ القرار الجاد عندما تقف على مفترق الطرق ويشعر أن هذا المفترق سيصلان إليه في توقيت قريب حدسه ينبئه بهذا وهذا ما يخيفه فرغم ثقته أن قلب سجي معه بالكامل؛ لكن من مثلها تطوع قلبها ليرتضي الحرمان.

بعد إلحاح شديد من نورجان وافقت والدّة حرير أن تلبّي دعوة حماة ابنتها لشرب الشاي مع الجدة وتناول بعض الحلويات في دار القماش، انسجمت النسوة في الحديث وهن يحتسين الشاي في غرفة الضيوف، بينما حرير تصنت إليهن بابتسامة رائقة وقلبها يرتعش بالنبضات كلما وقعت عيناها على الحلقة والخاتم في بنصرها الأيمن لقد أصر عامر أن تلبسهما اليوم وباقي الشبكة في حفل يوم الجمعة، حتى إنه لبس حلقة الفضية أيضا في خنصره الأيمن والشوق الذي فيه هو نفسه الذي فيها كلاهما يتوقان لإحساس التملك والانتماء للآخر، إنها تشعره لكنها أكثر خجلاً وانغلاقاً لتعبر عنه كما يعبر عنه عامر بحرية مطلقة، كم تود لو تصبح مثله! تعبر بحرية تنطلق دون حواجز وكأن مشاعرها كانت في سجن كبير وللتو خرجت منه لتعيش صدمة التحرر الأول.

رانت نظرات حرير نحو باب غرفة الضيوف المفتوح وقد خرج عامر قبل مدة ليكلم شقيقه عمر: «لقد تأخر عامر هل تريدان أن أناديه؟».

التفتت حرير لحمايتها نورجان أو نونة كما يحلو لأولادها مناداتها تدليلاً، فتوردت وهي تحاول تبرير نظراتها للباب: «كنت أريد غسل يدي خالتي».

اتسعت ابتسامة نورجان لتقول مجارية إياها في العذر الذي اختارته: «أذهبي حبيبتى الحمام من جهة اليسار آخر الرواق، تصرفي وكأنك في بيتك وهو بالفعل بيتك».

زاد توردها وهي تستأذن لتغادر غرفة الضيوف دون حاجة فعلية للحمام؛ لكنها كانت تغطي بخجل شديد على لهفتها لعودة عامر كي يكون قريباً فقط قريباً منها، عامر يلح على شقيقه عمر عبر الهاتف في المطبخ بأسلوبه الفكاهي الخاص: «وبعد أن انتهينا من حديث العمل هلا تكرم وتعطفت وتخبرني ما الذي يزعجك هكذا منذ الأمس؟!».

يرد عمر بالرد نفسه: «لا شيء قلت لك هذا الجواب خمسة عشرة مرة تقريباً حتى الآن».

لكن عامر لا ييأس ليوصل إلحاحه: «قل لي ولا تتعب قلبي أكثر! أفصح عما يكدرك يا قلب أخيك».

قال عمر وهو يوبخ أخاه: «أذهب لخطيبتك يا عامر وكف عن لعب دور الجدة لأنه لا يليق بك أنا مشغول بالمحل ولا أملك وقتاً حتى لحك رأسي

خاصة وأنت تترك كل شيء علي هذه الأيام».

يرد عامر عابثاً مشاكساً: «نخدمك في يوم عرسك القريب جداً يا محظوظ، اللهم إني حاسد وحاقد».

ضحك عمر رغماً عن ضيقه وهو يرد: «أقسم بالله أنت مجنون وأنا حقاً ليس لدي وقت لهذا».

فاجأه عامر بالقول الساخر: «لا أصدق أن خصاماً صغيراً مع القبيلة روناهي يفعل بك هذا!!».

فيتساءل عمر بحيرة وقد وقع بفخ أخيه: «من أخبرك؟!».

بابتسامة خبيثة رد عامر: «أنت من أخبرني للتو».

أخذ عمر يشتمه وعامر يضحك من قلبه عندما لمح طيف حرير وهي تتجه للناحية الأخرى حيث الحمام فسارع عامر للقول وهو يتحرك كي يلحق بها: «سنتكلم لاحقاً وستخبرني ماذا فعلت بك القبيلة».

أنهى المكالمة وهو يخطو خطوات واسعة دون أن يصدر صوتاً ليمر قريباً من غرفة الضيوف ويبتسم تلقائياً وهو يستمع لنقاش والدته مع الجدة ووالدة حرير، وجد حرير تغسل يديها وهي محمرة الوجه فتنظر إليه حال وقوفه عند باب الحمام وتقول وهي تعض شفتيها: «كنت أريد غسل يدي».

تتسع ابتسامته الخلافة وهو يرمي لها قبلة في الهواء هامساً بشقاوة:

«يسعدني هذا هل تحتاجين لمساعدة؟».

هتفت به بحرج: «لا».

يضحك وهو يستند بكتفه لإطار الباب بينما توقع حرير الصابونة من يدها في المغسلة لتعيد الإمساك بها وهي ترتبك أكثر من مراقبته فتهمس بتوبيخ: «هل ستظل واقفاً طويلاً هكذا تراقبني؟».

يرفع يده اليمنى لينفخ بين أطراف أصابعه قائلاً بعث: «وكأنني هواء غير موجود». انتهت من غسل يديها وهما بهذه الحالة هي مرتبكة في سعادة داخلية وهو يفصلها تفصيلاً بنظراته الجريئة.

لقد خلعت سترتها الخريفية الزرقاء لتبقى فقط بالقميص الذي يظهر نحافتها الرقيقة ومفاتها المخفية، أخذت تبحث عن المنشفة فلا تراها فجأة شعرت بثورة في مشاعرها تجعل جسدها يرتعش في توق، أشار لها بيده قائلاً بهمس مبحوح وكأنه يعاني هو الآخر ثورة مشابهة بل حتى أشد: «المنشفة هناك معلقة». نظرت للاتجاه الذي يشير إليه فرأت المنشفة معلقة بترتيب فهمست وهي تشعر بغبائها: «شكراً».

جفت كفيها بارتباك واضح ثم أعادت تعليق المنشفة وهي تتحرك كي تغادر الحمام؛ لكن عامر لم يفسح لها فتنظر إليه بصمود عاطفي ومقاومة غريزية وهي تقول له: «أفسح لي الطريق عامر».

همس بنبرة حارة وهو يحدق في شفتيها: «هل تحتاجين لشيء آخر عدا

المنشفة؟». رفعت يدها لتحرك شعرها للخلف وهي ترد بتلعثم:
«لا شكراً».

قال بخفوت وهو يتقدم ليدفعها داخل الحمام: «لكن أنا أحتاج...».

كفه اليمنى التفت بتطلب حول عنقها وشفته تميل لشفتيها لتعود وتكمل مسيرة القبل التي ابتدأها معاً بالأمس، أرادها قبلة عاطفية فقط وقد حاول جهده أن يسيطر على اندفاعه؛ لكن ذراعه الأيسر التف حولها ليلصقها به في عنف عاطفي أشد وهي تتخبط من جديد بين انفلات عواطفها كامرأة عاشقة وبين تحفظها والخواجز التي وضعتها طوال حياتها كجزء لا يتجزأ من تكوينها ك(فتاة).

أصوات ضحكات بعيدة هو ما أيقظها لتبعد فمها عن فمه وهي تتوسل إليه بهمس خائف: «بالله عليك كفى عامر ماذا لو رأونا أمي أمك أرجوك».

كانت شفته تقبلان عنقها الآن ويده تعبت بأزرار قميصها وهو يرد بهمس: «لقد مررت بهن أمي والجدة ووالدتك كلهن منشغلات بحديث عميق وجدي عن خلطة الحشو الأذ ل(الدولمة) ونوعية الرز المستخدم حبة طويلة أم قصيرة».

رفعت يدها لتمسك أصابعه التي حاولت فتح الزر الأول، ورفع وجهه لينظرا في عيني بعض وقد كانت تكافح كي تصمد كانت ترتجف وقد اختلطت مشاعرها مجدداً وإن كانت اللهفة تسبق الخوف أشواطاً قال عامر

وهو يكاد يجن لهفة أشد فيحاول منع نفسه من التماذي أمام هذه العاطفة الجارفة بينهما فيتساءل بصوت أجش وكلمات عابثة شقية: «وأنت ماذا تقولين؟ طويلة أم قصيرة؟ هذا نقاش جدي بيني وبينك حتى إن فكرة ملحة تراودني اللحظة بهذا الخصوص».

كان قلبها يقرع بجنون وهي تسأله بجرأة معدية: «ما هي؟».

رد بالنبرة العابثة نفسها: «لو وأقول لو فقط لو أخذتك الآن لترى غرفتي فلن يشعرن بغيابنا ونواصل هناك المناقشة بهدوء وموضوعية دون آراء خارجية تؤثر في المصادقية، أنت تعرفين أهمية مصداقيتي عندي».

أبعدت أصابعه عن قميصها وهي تقول له بعث لم تظن موجوداً فيها من قبل: «أنا سأشعر بغيابنا وبهذا أفقد مصداقيتي».

ينظران لبعض بينما تضيف حرير بثقة أكبر في أنوثتها: «أظن وقت المغادرة حان واجتماع حشوة (الدولمة) يجب أن ينفذ».

تنهد عامر وهو ينظر إليها بعذاب حلو ثم لا تعرف حرير كيف انجذبت كفها دون إرادة منها لترتفع إلى موضع قلبه وتربت هناك فوق الخفقات كأنها تجد نفسها وسط ذاك الصخب العاطفي الذي يتوجها كملكة، كانت غارقة بالإحساس بذاك النبض الذي أوقعها في عشقه ليأتيها همس عامر: «أنت تستمتعين بهذا تحبين التلاعب بي تدفعينني في الوقت المناسب وتمسكين نبضي بين أصابعك لتتأكدي من ملكيتك».

أبعدت يدها فوراً لتدافع عن نفسها عفويًا: «لا أقسم لك أنا
كنت فقط...».

قاطعها وهو ينظر إليها بعمق وجدية: «حرير لا تبرري دعي حدس الأنثى
فيك يتحرر من مخاوفه ليقودك بالاتجاه الصحيح دعيه يكسر حدوده وقيوده
وينطلق معي».

ثم تبسم لها مضيئاً كأنه يطمئنها بأسلوبه الخاص: «تدلي علي تلاعبي
بي كأنثى كما تشاءين أنا في وضع الاستعداد دائماً لأجواب».
أصبحت تفهمه كما يفهمها فتعترف له: «أنا أتوتر بعض الشيء».
فصحح لها: «أنت تخجلين (كثير) الشيء».

لم يكن يقصد خجل الأنثى وهي تفهم مقصده أنها لم تتحرر تماماً من
خجلها من مشاعرها، مشاعرها التي تخافها وتضعها في خانة (العيب)
الأمر ليس جسدي على الإطلاق لأن جسدها يستجيب الأمر نفسي بحت وقد
توضحت كل الصورة لعامر بالأمس، فمنذ البارحة وهو لا يكف عن التفكير
بوالدها وحكايته مع زوجته الأولى أشواق، وأكثر ما شغله التفكير فيه هو
جملة حرير بالأمس عن أبيها (وقضى كل حياته معنا يحذرنا من عاقبة
الحب والزواج الخاطئ من الشخص الخطأ)، عندما قالتها وكأنها فرقة
سحرية من أصابع المعرفة لتثير في عقله كل مبهم وغير مفهوم حول حرير،
فهم توجسها منه منذ البداية هو الذي يبدو في الظاهر مخالفاً لطباعها في

كل شيء لا يناسبها في أي شيء! هو الذي تقوده مشاعر الحب والحب في قاموسها موصوف بل موصوم بكلمتين (مخيف ومحظور!) حتى لو كان في الحلال

يعترف أن سيرته الأولى في العبث مع الفتيات كان عاملاً حقيقياً ليتعمق هذا المفهوم داخلها ولن يلومها وقد دفع الثمن غالياً غالياً جداً.

ابتسم لها ثم أمسكها من كفها ليقودها في طريق العودة إلى غرفة الضيوف وهو يثرثر معها برقة: «لقد اخترت لك فستان حفل الجمعة وبالله عليك لا تعترضي عليه منذ رأيت في واجهة محل (...) لفساتين الحفلات وأنا أحلم أن أراك فيه إياك ثم إياك أن تخبري حلمي».

تهز رأسها توافقه بينما تحاول تخليص يدها من يده وهي تطلب بهمس محرّج: «أرجوك لا تمسك بيدي أمامهن هكذا يكفي أنني غادرتهم بمفردي وعدت بصحبتك وكأنني ذهبت للبحث عنك، ما هذا الإحراج يا ربي!».

حرّر عامر يدها كارهاً وهو يضحك بخفة ثم قال بهمس مشاغب: «لماذا لا تعترفين أنك غادرتهم للبحث عني فعلاً أنا لا أقاوم». هتفت باسمه في توبيخ ووجهها يحمر اعترافاً، بينما تجلجل ضحكة عامر وهو يدخل معها غرفة الضيوف.

يقلب عمر في صفحات الفيسبوك وهو يقنع نفسه أنه يفعل هذا

للاسترخاء قليلاً، بينما يشرب الشاي وقت استراحته في المقهى رغم أنه منذ أشهر بات الفيسبوك والانستغرام وكل وسائل التواصل الاجتماعي تشعره بالملل والفتور حتى النفور أحياناً حسن ليقولها ويعترف بها، لقد دخل الفيسبوك اليوم خصيصاً لأجل الوصول إلى صفحة رونا هي وليعترف أيضاً أنه يجد نفسه عاجزاً عن الإتيان بأي فكرة لمصالحة خطيبته لو كانت أي فتاة أخرى لما شعر بهذا العجز! لكنها مختلفة مختلفة للغاية ورغم إحساسه الحلو بتفرد وبساطة شخصيتها المنعشة فإنها تربكه أحياناً كمراهق يتعرف للتو على صنف الإناث، إنها خاصة لهذه الدرجة وأكثر.

تنهد بحيرة وسبابته تتحرك على شاشة هاتفه ليمر فوق منشوراتها، هذه الفتاة المربكة التي ستغدو زوجته وعروسه في غضون ثلاثة أسابيع لا تضع صورة واحدة تجمعهما معاً؛ لكن للأمانة مع النفس هي لا تضع أي صور شخصية لها أو لعائلتها لها فلسفتها الخاصة في هذا الموضوع فهي لا ترى بالفيسبوك إلا منصة للتعامل مع العامة، وإن وضع تصنيفاً لمنشوراتها فكلها تدور حول أمرين لا ثالث لهما السياسة والفكاهة، وكأنها تجمع بين الجد والهزل في تركيبة ساخرة متفردة تجعلك تضحك وأنت تتفكر فيما يحصل حولك من أمور جدية، ابتسامته اتسعت تلقائياً وهو يقرأ لها منشور اليوم كان نقداً لا ذعاً للوضع السياسي الراهن.

لقد كانت تدعو إلى ثورة.. ثورة فكرية وجدانية تدعو فيها الشرفاء والأمناء الحريصين على مصلحة البلد لتجديد آراءهم بما يتناسب مع

مستوى التغيرات المهولة الحاصلة بأفكار الشباب خاصة تبعاً للانفتاح غير المشروط الذي يشهده العالم برمته، فسطل الرأس (العقل) بات ممتلئاً بالكثير من الشوائب ونحتاج جميعنا لسكب ما فيه وإعادة ملئه على إسس صحيحة أكثر وضوحاً ونضجاً.

كلماتها قوية في قالب فكاهي ساخر وقد ختمت المنشور مستشهدة بإحدى المقولات الساخرة للراحل المفكر الباحث الاجتماعي العراقي المعروف الدكتور علي الوردي (الأفكار كالأسلحة تتبدل بتبدل الأيام، الذي يريد أن يبقى على رأيه هو كمن يريد أن يحارب سلاح ناري بسلاح عنتر بن شداد).

رغم إعجابه الشديد بما كتبت وفخره الضمني لعقليتها هذه فإنه شعر برغبة شديدة لمشاكستها بل وجد طريقته ليستفزها كي تتكلم معه، كتب لها تعليقاً وهو يبتسم (سكب كل ما في (السطل) إهدار الأولى أن تقولي غريبتك ثم منذ متى تقرئين للدكتور علي الوردي يا عبلة؟!!).

انتظر دقيقة دقيقتين خمس دقائق ثم أختفى تعليقه فجأة، وقبل أن يفكر بمشاكسة جديدة كانت تكتب له في الرسائل الخاصة للفيس بوك لترسل كلمات تشع تهديداً لذيذاً (هذه المرة حذفت التعليق المرة القادمة سأحظرك).

تبخر كل إحساسه بالضيق لهذا اليوم ودبت سعادة ضاحكة في شرايينه

وهو يرد عليها بمزيد من الاستفزاز (أنت لا تتقبلين الرأي المخالف لك!) فترد عليه وقد وقعت في فخه (عمر لا تستفزني أكثر وإلا سأحظرك بالفعل) كتب لها وهو يشعر بالشوق لرؤيتها اللحظة (حاضر نينجا آسف) فانفجر ضاحكاً وهي ترسل له صورة من إحدى مجاميع الصور الفكاهية للفيس بوك تمثل شخصية (نينجا) وهو يغمض عينيه متكتفاً وبدير وجهه للناحية الأخرى كأنه زعلان ويرفض الصلح أو ربما يتدلل لطلب المزيد.

تذكر أغنية ياس خضر التي تحبها جدته وهو يغني عن دلال المحبوب وكيف يليق به مؤكداً من كتب كلمات الأغنية لم ير صورة (نينجا) هذه!

دون تفكير وجد نفسه يتصل بها وحالما فتحت الخط قال لها بنبرة حلوة تفيض تدليلاً وطلباً للمسامحة: «وآسف ثانية لأنني ضايقتك بكلامي بالأمس يا ضي القمر».

صمتت لحظة واحدة قبل أن ترد بأسلوبها الفكاهي الذي تتخفي به عن إحساسها الرقيق بالتأثر به: «أسفك مقبول لكن استقر على تسمية واحدة باليوم! عيلة أم نينجا أم ضي القمر! سأؤوه منك وأنسى حتى اسمي».

ضحك من قلبه ثم قال لها بصوت خافت: «أنت كلهن وأنا...».

انعقد لسانه قبل أن ينطقها ولا يعرف لماذا! لقد أوشك أن يقول: «وأنا أحبك فيهن».

شعر بقلبه يدوي ولم يكن يعلم أن إحساسه ظاهر على وجهه بينما هناك

من (تراقبه) عن بعد وهي تغلي غيظاً وصدمة.

لقد دخلت نهاوند المقهى مع ابنتها قبل قليل بحثاً عن فرصة للقاء
تحديداً ما زال على عاداته القديمة نفسها التي تعرفها استراحة من العمل
في ساعة محددة ظهراً، كانت تعلم أنها تجازف بالاقتراب منه أو ربما لقاء
عامر معه وهذا أسوأ، من جهة لا تريد رؤية عامر بالطبع ومن جهة ثانية
تحتاج عمر وحده الوقت لن يمهلها طويلاً قبل أن يرتبط (حبيبها) بتلك
(السمينة)، غافل عمر عن مراقبة نهاوند في الزاوية التي ركنت إليها في
المقهى تتحين فرصتها معه بينما هو يسمع رونا هي تتساءل عبر الهاتف
بحق بريء: «لماذا سكت؟ لا تقل لي إنك تفكر باختراع مجموعة جديدة
من التسميات المبهرة لي». تنح عمر ثم أضاف برعشة خاصة كأنه
يستوعب مشاعره: «لن أخبرك بما أفكر حتى تتأسفي لي بالمقابل».

سألته بحق أشد: «ولماذا أتأسف أنا؟!». كلاهما كانا يتجنبان الكلام عن
(نهاوند) بشكل صريح وكأن ما حصل بالأمس لا يستحق إعطاء تلك المرأة
فرصة ذكر اسمها بينهما مرة أخرى، فرد عمر بنبرة مازحة رقيقة: «من باب
المجاملة».

فردت بعفويتها المنعشة: «أنا لا أجمال أحداً وأنت تعرف هذا عني».

فيترقق صوته أكثر وهو يناغشها بالقول: «حسن افعليها من باب العطف
والمحبة في الله ألا تحبينني قليلاً في الله».

مرت لحظات صمت وهو يسمع أنفاسها قبل أن تقول بارتباك: «يجب أن أذهب المدير يقترب سلام».

رد ضاحكاً وعيناه تلمعان شوقاً: «سلام يا ضي القمر سأسمح لك بالهرب هذه المرة».

وضع الهاتف على الطاولة أمامه، بينما يلتفت لينادي النادل وهو ما زال مبتسماً لكن ابتسامته الرائقة تجمدت وهو يرى أمامه نهاوند!

الفصل الحادي والعشرون

وضع الهاتف على الطاولة أمامه، بينما يلتفت لينادي النادل وهو ما زال مبتسماً لكن ابتسامته الرائقة تجمدت وهو يرى أمامه نهاوند!

آخر مرة رآها كان قبل ثلاث سنوات وصدفة كان يبحث عن هدية لنونة في عيد ميلادها الخمسين عندما دخل أحد المحلات الخاصة ببيع الساعات الثمينة فرأى نهاوند أمامه وهي تدفع عربة أطفال لم ينظر حتى للطفلة النائمة داخل العربة وهو يتجاهل أمها تماماً كأنه لا يراها، تصرف بكل هدوء وبرود بينما نهاوند تنسحب تماماً من المحل.

تلاشت ابتسامة عمر تماماً وهو ينظر للأعلى إلى وجه نهاوند المبتسم وهي تلقي التحية بألفة وحنين واضح: «مرحباً».

لم يرد التحية بل أوشك أن يدفع الكرسي للخلف كي يغادر عندما سارعت نهاوند لتقطع عليه الطريق وهي تقول برقة مصطنعة: «هذه سوزي ابنتي».

وفي اللحظة نفسها التي نظر فيها عمر للطفلة التي توازي أمها جمالاً وأناقَة (مُكلفة ومُتكلّفة) كانت نهاوند تسحب كرسيّاً في نية الجلوس فعقد عمر حاجبيه وهو يقول بقسوة: «لم أسمح لك أن تجلّ..».

قاطعته نهاوند بالبرقة نفسها وهي تجلس بالفعل وتسحب كرسيّاً آخر لابنتها: «هل ستكسر بخاطر طفلة؟».

وجد عمر نفسه أمام وجه الطفلة البريء وهي تنظر إليه ببعض الارتباك والقلق ثم تنتقل عيناها الجميلتان لأمها كأنها تتساءل عما يجب أن تفعله؟!

انتاب عمر الغضب لأن نهاوند تستغل صغيرتها بشكل واضح لتفرض نفسها عليه تخرجه بالطفلة وكأنها تراهن على مروءته؛ لكنه أخفى ما يجول داخله ليحاول جهده رسم ابتسامة يوجهها للطفلة فلم يفلح كثيراً بإقناعها أنه سعيد لهذا اللقاء فتضاعف غضبه وسخطه ليوجه نظراته للأم وهو يسألها بصوت منخفض: «ماذا تريدان يا نهاوند؟».

أخرجت نهاوند هاتفها الأنيق لتعطيه لابتنتها كي تنشغل به ثم عادت لعمر فتدرد عليه وعيناها تدمعان فجأة وتشع حنيئاً حقيقياً: «منذ مدة وأنا أفكر برؤيتك، كم مرة مررت أمام محلك ووددت لو لدي الشجاعة كي أدخل لكنني خفت أن تصدني».

فتهكم بسخرية لاذعة: «أم خفت أن تلتقي بعامر؟!».

تصورت أو أرادت أن تتصور أن مصدر كلماته المتهكمة هو مشاعر قديمة حملها لها يوماً وهو بسن العشرين فقالت وهي تمد يدها عبر الطاولة تحاول لمس يده: «أما زالت تلك الحكاية القديمة السخيفة تؤثر بك؟! لقد كان تصرفاً أرعناً مني».

لمح حركة يدها فأبعد يده قبل أن تلمسه ليقول بمزيد من التهكم والبرود:

«تؤثر بي؟! يا له من تعبير».

أطلقت تنهيدة وهي تسحب يدها وتطلب بمحايلة مكشوفة: «عمر أرجوك على الأقل دعنا نكون أصدقاء كما السابق».

كان يستطيع صدها بخشونة ولم تكن طفلتها الصغيرة لتمنعه لكن شيء ما جعله يستمر بهذه المحادثة الكريهة لنفسه فتركها تفصح أكثر وهي تضيف بهمس أنثوي مغوٍ يفيض عذوبة: «أنا بحاجة إليك وأعلم أنني لا أستحق منك صداقتك لكنني.. لكنني منذ طلاق من زوجي الحقيير وأنا اشعر بالوحدة».

يعبس من شتمها لزوجها أمام ابنتها فتتحرك عيناه تلقائياً نحو الطفلة ليجدها منغمسة تماماً بكل حواسها مع تطبيق التوك توك وهي تضحك وتراقص! للحظة تساءل كم عمرها لتسمح لها أمها بهذا!

أما نهاوند فقد حاولت جذب تركيزه مجدداً فأظهرت الشكوى وتصنعت خيبة الأمل وهي تدّعي براءتها مضيفة: «صديقاتي ابتعدوا عني كلهن حقيرات يعاملنني وكأنني سأسعى لسرقة زوج إحداهن».

يضيق عمر عينيه وهو يتساءل بهدوء وكلمات مهينة بمقصدها: «أولست كذلك؟». هتفت بنبرة العتب الرقيق وهي تتعامل مع الإهانة بمنظور أقل وطأة على كرامتها: «لا تكن قاسياً هكذا يا عمر لا تدع غلطتي السابقة تنسيك من أنا».

ثم أضافت وهي تلوح بكفيها الجذابين مشيرة لنفسها في محاولة ذكية

لجذب اهتمامه كرجل: «انظر إلي أنا اجتذب اهتمام الرجال في كل مكان دون أن أسعى لهذا فما ذنبي في جمالي وتميزي و...».

قاطعها عمر ليسأل ابنتها بابتسامة هادئة: «أي كيكة تحبين سوزي؟».

رفعت الطفلة رأسها عن الهاتف مباشرة وهذا فاجأه لأنها كانت منغمسة بالفعل! بدت وكأنها مدربة جيداً كي تلتزم الصمت بإشارة من أمها؛ لكن حالما يتم توجيه الكلام إليها تبدي استعداداً سريعاً للطاعة، قالت أخيراً وهي تنظر لأمها لتختار دون تعيين وكأنها لا تجرؤ على تحديد الاختيار خوفاً من وقوعها في خطأ ما: «أحبهم كلهم».

لقد كانت صغيرة على كل هذا لا يظنها تتجاوز الخامسة بل ربما أقل! يغلي بالغضب لكنه يهدأ نفسه وهو يشير للصغيرة ناحية الحلوى المعروضة نهاية المقهى ليقول لها: «إذن اذهبي إلى هناك واختاري ما تشتهين لهذا اليوم واطلبي أيضاً عصيراً لنفسك هل ستعرفين فعل كل هذا؟».

مجدداً تنظر لأمها كأنها تنتظر الضوء الأخضر بحذر وحالما منحتها أمها نظرة رضا ردت الطفلة على عمر وهي تتحمس لتغادر كرسيها: «نعم أعرف».

تمتم عمر: «فتاة ذكية».

ثم أشار للعامل هناك كي يهتم بالطفلة فتهرول سوزي في سعادة طفولية كي تختار، ما إن ابتعدت الصغيرة حتى تغيرت تعابير عمر ليظهر الاشمئزاز

دون تحفظ وهو يقول: «محاولاتك هذه لـ (وصل الود القديم) تثير غثياني وتعكر مزاجي وربما تثير بعض شفقتي نحو حالتك البائسة اليائسة التي وصلت إليها؛ لكن الحوار كله بات ماسخاً ولا طعم له».

ابتلعت مر الإهانة ولم تياس وهي تحاول من جديد: «عمر أعطني فرصة لا أطلب أكثر من فرصة».

فواجهها بصريح الكلمات دون لف أو دوران: «أنسي أفكارك حولي ما يدور بخلدك وغيترك لأنني اخترت رونا هي زوجة لن يجدي نفعاً لا تظني أنني لا أفهمك يا نهاوند أو أن زيارتك (اللطيفة) بالأمس للبنك الذي تعمل فيه خطيبتني لم تكن مكشوفة».

أصاب الهدف بضربة مباشرة فتوترت وتفاقم غيظها لتقول والحق يطفح من عينيها: «الأنني مطلقة؟! لكن عامر أيضاً سيتزوج خبير وهي مطلقة».

قست عيناه بشكل مخيف ليقول بصوت خافت مُهدد: «قسماً بالله يا نهاوند تدخلني بشؤون عائلتي وستواجهيني أنا، اقتربي مجدداً من رونا هي وسأمسح بكرامتك الأرض أمام العامة والخاصة سأجعلك حديث العاصمة ومجتمعك الراقي البغيض لأشهر وأظن مطلقة مثلك يجب أن تحفظ سمعتها أكثر كي تحظى بزواج جديد».

امتقع وجهها وهي تهمس باضطراب: «تهددني يا عمر؟! تستغل طلاقني لتسيء إلى سمعتي أمام الناس؟!».

ينظر إليها اللحظة وكأنه لم يرها من قبل! أقلقتهما نظراته هذه وهي تشعر بالندم للمرة الأولى لأنها اقتربت منه من جديد ليقول عمر أخيراً بهدوء غريب: «هل تعلمين لماذا استمررت بهذا الحوار معك وكنت أستطيع تركك والرحيل؟ استمررت فقط لأعرف ما الذي رأيته فيك قبل سنوات وخدعني في حقيقتك؟! هل هو صغر سني وقتها أم مهارتك بالخداع والزيف؟!».

ثم يكشف ستر تفاصيل الماضي بينهما ليس أمامها فحسب بل أمام نفسه وهو يتذكر تلميحات عامر له في تلك الفترة وقد أبى بغباء الالتفات إليها: «لقد كانت غلطتي أنا يوم تجاهلت إحكام العقل وأطعت رغبة القلب وربما غرائز جسد غرائز أنت حركتها عن خبرة وأنا من كنت جاهلاً!».

احمرت نهاوند خزيًا بينما عمر يكشف المزيد ويعريه بشكل صادم أكثر فيضيف بنبرة مشمئة مستذكراً كل الماضي بينهما قبل ست سنوات: «هل تذكرين يا نهاوند كنت تشجعين تلك الغرائز في كل لمسة وتطلبينها بعينيك وحركة شفتيك وأنا أفسر هذا التشجيع منك ضعف أنثى كنتِ ترغبين بالمزيد من القبلات والأحضان وربما أكثر وأنا أفسر أن الرغبة منك دلالة حب واشتياق عشق بريء، كنت تتمسحين بجسدي بطريقة مقصودة وأنا أفسر أنها عرضية بريئة فتجعليني أشعر بالذنب نحوك وأفكر كيف أصونك كل تفسير مني كان خطأ وليس في موضعه ولمن لا تستحقه هل تعلمين لماذا كنت أفسر خطأ؟ لأنني كنت أريدك عفيفة في نظري وهذا ما خدعني بالفعل! خدعت نفسي بنفسني وفرضت تصديق وجود عفة فيك كنت قد بعته قبل

لقائي بك ربما بسنوات! أنت وضيعة نهاوند بل في الدرك الأسفل من
الوضاعة وأنا واثق لو بحثت في تاريخك قبل الجامعة لوجدته مليئاً
بالتفاسير».

عادت سوزي في تلك اللحظة العصبية وصحبته النادل الذي يحمل لها
ما طلبت من كيكة الشكولاتة وعصير العنب في صينية، كانت نهاوند تطرق
برأسها تتجرع بصمت مرير هذا الحمل الثقيل من الإهانة والخزي والهزيمة،
بينما عمر يدفع الحساب ليتحرك مغادراً وهو يودع الصغيرة.

خرج من المقهى فيأخذ نفساً عميقاً من الهواء النقي وهو يشعر براحة
عجيبة نظر لساعته ويفكر بأسف أن وقته ضيق ولن يستطع الذهاب لرؤية
روناهي الآن كم اشتاق لها ثم يبتسم عائداً للمحل وهو يفكر أنه سيفاجأ
حماته بزيارة لبيتها اليوم أيضاً ويتناول الغداء مع (عبلته) لا بل (ضي
القمر).

مساء

هتفت وفاء عبر الهاتف بغیظ: «لا فائدة منك يا حرير مهما نضجت
وتعرضت لتجارب قاسية وغيّرت بك الدنيا ما زال جزء منك مثالياً وسيبقى
معك هذا الجزء دوماً قد يضمحل ويتقوّل بالتجارب لكنه موجود». ردت
، حرير وهي تجلس على حافة سريرها: «أنا لم أفعله لأجل عامر فقط يا وفاء

أفهميني لقد شعرت بالخزي ولم أكن أستطيع مواجهة والديه ورأسي مرفوعة
لو لم أعد إليه الصك».

من خلف باب الغرفة يتنصت الأب على كلام ابنته مع صديقتها وهو يعقد
حاجبيه ويزم شفتيه لا يعرف إن كان يفترض أن يغضب لأنها أعادت الصك
أم يشعر بالضيق لأنه يخذل ابنته بطريقة ما وللمرة الثانية، بينما حرير غافلة
عن وجود أبيها خلف الباب وتستمع لرد وفاء: «أنا أتفهمك لكن عليك أن لا
تبالغى لقد فعلت ما يربحك ولحسن الحظ أن عامر ابن أصول وصاحب
كلمة ليفعل الصواب وكما قال لك اعتبريه إدخاراً لكما معاً».

تنهدت حرير وهي تقول: «لم أستطع إقناعه اليوم حتى بتقليل المبلغ
بالحد المعقول وقد أصر على وضعه باسمي بالكامل كما اتفق مع والدي».

ارتفع حاجبا أسعد الجنابي وفاضت عيناه بالدهشة وهو يسمع هذه
الكلمات! لم يتوقع على الإطلاق أن عامر سيتصرف بهذا الشكل! لقد ظن
أنه سيفرح برد المال له، تحركت قدماه على مهل ليترك وقفته خلف باب
غرفة ابنته وهو يشعر بالتعب والإحباط وكثير الكثير الكثير من التشوش
الذي يسيطر على أفكاره هل هو على صواب أم على خطأ؟!

ينزل درجات السلم وهو عابس حائق لتتزامن أفكار أخرى في رأسه فيتوه
من نفسه، قالت وفاء أخيراً في توصية مشددة لصديقتها: «لا تفرطى بحقك
أبدأ يا حرير ولا حتى لأجل عامر».

تمتت حرير ببعض العجب: «سبحان الله عامر قال لي الجملة نفسها اليوم».

تنهدت وفاء بطريقة عاطفية فكاهية وهي تقول: «ألم أقل لك إنه ابن أصول صبرت ونلت يا عامر يا ابن نورجان».

تضحك حرير وخداها يشعان بحمرة العاطفة قلبها يضحك وروحها تضحك وكل حياتها تنير بالضحكات فتشعر بالغرابة كأنها لم تعد هي أو ربما الأصح أن تقول لم تكن هي من قبل حتى ذقت الحب مع عامر لتتعرف على نفسها في تجربة تخطف نبضاتها رغم أنها ما زالت تتعثر بالخجل والخوف من تلك التجربة.

آخر المساء

يشعر سليم بالإرهاق وبعض الصداق في رأسه وهو يدخل غرفته ليتفاجأ بمنظر لم يره منذ سنوات سنوات طويلة، اقترب من زوجته وهي منغمسة تماماً برسم لوحة مثبتة فوق مسندها الخشبي الثلاثي القديم فيقول لها بعجب حقيقي أنساه لحظياً بعض تعب وإرهاقه: «أنت ترسمين؟! لم أرك تفعلينها ربما منذ عشرين عاماً».

التفتت برأسها إليه وهو يقف جوارها يتطلع لرسمتها بتدقيق فيقول مضيفاً: «لا أفهم كثيراً بهذه الرسومات لكنني أظنك ترسمين وجوهاً».

ردت وهي تحقق في الخطوط العريضة لرسمتها التي بدأت فيها الليلة:
«مزاجي أصبح غريباً هذه الأيام وأتذكر أشياء أغرب فاحذرنى ربما أفاجئك
بالكثير».

تنهد وهو يبتعد ويخلع سترته قائلاً بخفوت ونبرة تظهر حالته: «أنا متعب
فاعفيني الليلة من تحذيراتك ومفاجأتك».

تحركت نحوه والفرشاة في يدها وهي تتساءل بجدية: «أنت لا تتعب من
العمل أراك مجهد الفكر فهل حصل شيء محدد يقلقك؟!». رد وهو يعلق
سترته في الخزانة: «أشياء كثيرة تجمعت في فترة واحدة، زواج الأولاد
الذي يبدو أنه يحصل في وقت واحد بعد سنوات من عزوفهم عنه بالإضافة
إلى التغييرات الأخيرة في فرع المنصور التي كلفتنا الكثير وما زلنا لم
نعوض ومشروع معمل الألبسة الجاهزة المتعثر بسبب السيولة عدا شراء
البيتين بالطبع».

قال كل هذا وهو يخلع ملابسه ويرتدي جلبابه البيتي المريح ثم يتحرك
مباشرة ناحية السرير فتسأله نورا: «ألن تصلي؟».

يرد وهو يستلقي على ظهره: «الحمد لله صليت مع شاكر في المسجد».

أغلق عينيه ثم أضاف: «أنا أحتاج لبعض النوم لكن ذهني يحتاج للتصفية
قبلها فالقادم كثير ما بين تجهيزات عرس عمر وتحضير جناح هنا لعامر
وحرير أشعر أنه سيتزوجان قريباً جداً ولن يطول الأمر».

جلست نورجان على حافة السرير جواره تداعب بيدها الحرة لحيته الكثيفة
الفضية وهي تسأله: «هل تم شراء البيتين على خير؟».

فتح عينيه فينظر إلى وجهها الجميل قائلاً ببعض الاسترخاء: «الحمد لله
سنسجل خلال أيام بيتاً باسم عمر والآخر باسم علي هذا ما اتفقت عليه مع
الأولاد».

بابتسامة صغيرة راضية قالت نورجان: «علي متعجل».

يهز سليم رأسه قليلاً مُعلّقاً: «جداً وهذا أمر إضافي أقلق بشأنه».

ما زالت تلامس لحيته وهي تقول بتفكير: «دع قلقك على علي الآن وقل
لي؛ ماذا عن عامر؟ في يوم ما سيحتاج لبيته الخاص كأخويه».

وضّح سليم متنهداً: «في الواقع لم يعد لدي سيولة لأعطيه حقه كعلي
وعمر يتصرف هو به كما أنني قد أحتاج لتقديم قرض من أجل المصنع».

تعقد نورجان حاجبيها قليلاً وهي تتساءل بدهشة: «لكن شاكر سبيع
قطعة الأرض التي يملكها فلماذا القرض؟!».

رد سليم بانزعاج وعيناه تشخصان للسقف: «لا أظن سيكفي وهذا أكثر ما
يضايقني لأنني سأتأخر على عامر في تسليمه حقه».

حاوطت نورجان خد زوجها بكفها وجذبت اهتمام عينيه لينظر إليها وهي
تقول له بعبوس: «سليم لا أحد يريد منك تحقيق كل شيء دفعة واحدة،

أمور الحياة تحتاج للتدرج أليس هذا كلامك؟».

رد بخفوت وكأنه الأمر ثقيل عليه: «إنه حق الأولاد يا نورجان أنا لا أغبن حق الغرباء فكيف بهم؟! إنهم سندي وشركائي في كل ما حققناه».

تأثرت جداً لكلماته لتدمع عيناها كما يتكرر معها كثيراً بالفترة الأخيرة حتى توشك على الإجهاش بالبكاء؛ لكن سليم كان مشغولاً عن حالتها هذه فيتكلم معها كأنه يكلم نفسه بتفكير داخلي: «علي كلمني قبل قليل ونحن ندخل البيت، إنه مصر على تحويل ما في حسابه من ثمن بيته القديم إلى حسابي أو حساب عامر مباشرة».

مسحت نورجان دمعة أوشكت أن تسيل على خدها بينما تركز مع زوجها أكثر وهو يضيف: «في الواقع كنت قد نسيت أمر ذاك البيت ولم أعرف حتى كيف تصرف علي بثمانه منذ أن كلف عامر ببيعه قبل أربع سنوات».

قالت نورجان تشجعه: «لكنها فكرة ممتازة يا سليم وبهذا ستعدل بينهم والكل يأخذ حقه وتتفرغ أنت للمصنع».

يهز رأسه بشبه اقتناع قائلاً: «بإذن الله خير فقط أريد لهم الاستقرار والبدء بتكوين عوائلهم».

عادت لتلامس لحيته وهي تخفف عنه بالقول المرح: «عمر مستقر مع رونا هي وزواجهم يسير بسلاسة الحمد لله هذا الفتى الكتوم الرائق المزاج واقع بغرامها وهو لا يدري! أحبه وهو ثقيل كتوم هكذا».

ثم عبست فجأة وعيناها تلمعان بالغيرة الأمومية: «أما عامر فأخيراً حقق
مُناه وبكاد يلتصق كالغراء بحريته اليوم أوشكت من شدة غيظي أن أعضه
من ذراعه ثم أعضها هي الأخرى لأنها تحظى بدلاله أمام ناظري».

يضحك سليم ثم يلثم باطن كفها ويقول: «أيتها الأم الغيور دعيه يشعر
بالسعادة بعد كل ما عاناه».

ثم شردت نظراته ليضيف معبراً عن مصدر قلقه بين أولاده الثلاثة قائلاً:
«علي فقط من يقلقني عليه له موال آخر».

تمتتم نورجان بنظرات لامعة لا تحمل أي قلق: «نعم موال وأي موال يا
سليم إنه موال أهل الجنوب».

يتبسم سليم ويتبدد بعض قلقه بل حتى تعبته ونعاسه وهو ينظر بجذل
لزوجته التي أضافت باللمعة نفسها: «سجى تعجبني للغاية يا سليم منذ أول
مرة رأيته فيها عندما ذهبنا لخطبة هيام وهي تعجبني كنت أتمناها دوماً
لعامر سبحانه الله لفت الدنيا بنا وها نحن نخطبها لعلي!».

لم يعلق بكلمة وتركها تقول كل ما يدور برأسها فقالت تخبره المزيد:
«عندما أرى صورها على حسابها على الفيسبوك تشع ثقة أنوثة».

تعكر مزاجه قليلاً فمئذ حكاية هيام وقد بات نافراً من كل وسائل
التواصل، القليل الذي عرفه عن تأثير الفيسبوك على زوجة ولده الراحلة
كان كافياً ليسيطر عليه هذا النفور، وليُعن الله علماً على ما يعرفه ويكتمه

وجعله لسنوات يعاني شعور الذنب، قال سليم بصوت خافت: «لا أحب الفيسبوك هذا».

لكن نورجان لم تقف كثيراً على تمتته تلك لتقول بحماسة: «هل تعلم أنها تهتم بالفن التشكيلي مثلي؟ كنت أعرف أنها في داخلها فنانة من أناقتها الخاصة التي ترسم بها شخصيتها فيبرز حضورها وكأن الملابس التي تختارها صنعت خصيصاً لأجلها بطلب شخصي لتفاصيلها».

عقد سليم حاجبيه قليلاً وهو يتساءل: «هل تضع صوراً شخصية كثيرة على حسابها؟». ردت نورجان: «لا ليس كثيراً أحياناً تضع صورها مع زميلاتهن وطلابها في الجامعة وأحياناً أخرى تضع صورها مع صديقاتها في العموم لا توجد بكثرة وهذا يعجبني فيها أيضاً ليست متحفظة أكثر مما يجب لكنها لا تعطي من خصوصيتها ألا وهي تزنه بالثقيل».

قال سليم معلقاً: «أنت تحبينها حقاً أقصد تحبين تركيبتها وشخصيتها».

ردت نورجان مؤكدة: «جداً إنها صورة حية للأثنى العصرية القوية دون أن تتبرج أو تستعرض بمغالاة».

ثم تشرد نظراتها قليلاً وتدمع عيناها مجدداً تضيف بحشجة: «لديها قوة مع لمحة شجن مؤثر صلابة مع احتياج موجه تجيد إخفاءه وحدة مع عاطفة جياشة مكبوتة تنتظر من يفجرها كله أراه في عينيها».

رفع سليم كفه ليمسك منتصف ذراعها ويسحبها بخشونة لصدره وهو

يبتسم ابتسامة خلابة لوجهها ثم همس: «مزاجك حقاً غريب الليلة؛ لكن حلو جداً خال من أي شحنات سلبية مجنونة يبدو أنك في هدنة مع هورموناتك أطال الله أمدها».

تنظر لوجهه القريب وعيناها في عينيه لتهمس له بابتسامة عابثة: «ظننتك متعب وتريد النوم!».

يضحك بخفة هامساً: «مزاجك هذا أيقظني». بينما تمتد أصابعه ليتخلل خصلات شعرها من الخلف أضاف بهمس عاطفي: «ارمي فرشاتك لن أنزل للحاجة أم سليم وجلبابي ملوث بألوان لوحاتك».

تضحك نورجان وهي توقع فرشاتها أرضاً.

وضع علي سيجارته في فمه بينما يبحث عن قداحته، أخذ يشتم وهو يقلب في جيوب قمصانه وسراويله حتى وجدها وعندما حاول إشعال السيجارة لم تعمل تأفف بقوة ورمى القداحة في سلة المهملات في غرفته ثم غادر متوجهاً إلى غرفة عامر، دخل عليه دون حتى أن يدق الباب فوجده مستلقياً على سريره وفي عالم آخر تماماً وهو يتكلم بهمس خافت عبر هاتفه لم يكن علي يحتاج لذكاء خارق كي يخمن أن شقيقه الولهان يكلم خطيبته حرير حسن ليست خطيبته بل زوجته شرعاً فيزداد غيظ علي ليهتف بأخيه: «هل لديك قداحة؟!»،

التفت عامر نحوه أخيراً ونظر إليه مطولاً كأنه لا يستوعب دخول علي للتو فقط وعندما استوعب اكتفي بالتلويح بيده وكأنه يصرفه ويقول له (اخرج بالله عليك واتركني لحالي) كز علي على أسنانه ثم غادر غرفة عامر وهو يغلق الباب خلفه بخشونة، توجه إلى غرفة شقيقه الأصغر والسيجارة بين إصبعيه تنتظر قداحة تشعلها وهناك استقبلته ضحكات عمر المجلجلة ليدخل عليه غرفته ويراه يتحرك في أرجاء الغرفة وسמاعة البلوتوث في أذنه وقد كان أقل هياماً من أخيه عامر فالتفت إليه عمر وعيناها تشعان بالسعادة والضحك فيهتف علي كأنه ثور مهتاج ينفث اللهب: «أعطني قداحة».

تتسع عينا عمر ببراءة مغيظة وهو يرد على شقيقه الأكبر: «أنا لا أدخن».

ثم يزيد غيظ علي وهو يسأل عبر سماعة البلوتوث: «هل أنا أدخن يا روناهاي؟».

ليعاود النظر إلى علي ويقول: «أرأيت؟ روناهاي أيضاً تعرف أنني لا أفعلها».

تقبضت يد علي وهو يرفعها بتحفز الغيظ فينفجر عمر ضاحكاً ثم يقول له وهو ما زال يضحك: «روناهاي تقرؤك السلام وتوصيك بترك التدخين لأن رائحتك لن تكون لطيفة ولن تجد أنثى تقبل بالاقتراب منها».

أوشك علي أن يلکم أخاه بينما عمر يرفع يديه باستسلام وهو يقول ضاحكاً: «على رسلكما أنتما الاثنين أنت توشك أن تضربني وروناهاي

ستحظرنني من الحياة كلها، حسن هي لم تقل إن رائحتك لن تكون محببة
للإناث بل قالت فقط إنها تضر بصحتك».

توعده علي وهو يلوح بيده الأخرى التي تحمل السيجارة: «سأردها لك يا
ابن والدي».

ثم استدار مغادراً غرفة عمر عائداً إلى غرفته وعيناه تشعان بينما يتمتم:
«سترون يا أنذا لئ أكون علي تاج الدين القماش إن لم أفعلها».

يوم الجمعة عصراً

جالساً يسبح في حديقة الدار بعد خروج سجي لزيارة صديقتها، أفكار
تدور برأس رياض خاصة بعد مكالمة علي الطويلة ليلة الأمس، هذا الشاب
ذكي وأدرك أن مدخله لسجي أصبح أصعب وقد تأكد رياض بعد هذه
المكالمة أن سجي تمتنع عن قبول أي تواصل مع علي إرضاء ووفاء
لخالتها، لقد استمع لكل كلام علي بتركيز وفي النهاية طلب منه مهلة أخيرة
ولقاء سيحدده، ترك رياض الحديقة وقرر استغلال خروج سجي كي يتحدث
مع نبراس بحرية توجه لغرفة النوم التي باتت نبراس لا تفارقها تقريباً تستدر
التعاطف وتشيع إحساس الذنب في قلب سجي تحديداً ما يقلقه ليس أن
تصدق سجي هذا التمثيلية السخيفة من نبراس لأنه واثق بعقلها، ما يقلقه
، ويخيفه أن سجي ستعتبر التمثيلية بحد ذاتها انعكاساً لألم خالتها كي تلجأ

للتأثير عليها وتغيير رأيها بزواجها من علي، بينما كانت خطوات رياض الهادئة تقترب من باب الغرفة سمع صوت زوجته يأتيه واضحاً مشرقاً على غير ما تعود سماعه طوال الأيام الماضية وقد بدت أنها تتكلم عبر الهاتف: «أسعدك الله يا أم بسام وأكرمك سجي ستفرح كثيراً بزيارتك».

تسمرت قدما رياض وعقد حاجبيه بينما يسمع زوجته تضيف بعد لحظات صمت: «ننتظركم الجمعة المقبلة بعد عودتكم من السفر أهلاً وسهلاً بكم تشرفوننا بالزيارة وتحل البركة علينا».

ثم أنهت نبراس المكالمة ورياض يقف عند باب الغرفة ينظر إليها حتى تنبتهت لوجوده

للحظة ارتبكت في جلستها على حافة السرير ثم سرعان ما استعادت ثباتها وهي تبادل زوجها النظرات وتتساءل: «متى قالت سجي ستعود؟».

تقدم رياض وسط الغرفة ليتجاهل سؤالها المراوغ عن عودة سجي فيقول: «مضت سنوات لم تكلمي أم بسام».

صمت للحظة ثم أضاف بنبرة ذات معنى: «منذ أن طلبت يد سجي لولدها بسام فتخاصمت معك لأنها رفضته».

تهز نبراس كتفيها وهي تقول بمراوغة مغيظة: «أنا أصالحها هل في ذلك عيب أم حرام؟! ثم إن سجي كانت صغيرة وقتها ولم تنه دراستها الجامعية، وبسام حتى اللحظة لم يتزوج وواضح أنه ما زال يرغب».

احتدت تعابير رياض وهو يسأل: «ما الذي تنوين فعله يا نبراس؟ ما الذي تخططين له الآن؟!».

ردت وهي تفقد بعض هدوئها الظاهري: «ألا تسعى لتزويج سجي؟! أنت تقلق عليها لأنها عبرت حاجز الثلاثين وربما هي أيضاً يقلقها السن لذلك أنا أحل مشاكلنا جميعاً».

يعلو صوت رياض منفعلًا: «أنت لم تتعلمي الدرس».

تزم شفيتها وهي تفهم مقصده لكنها تعاند وهي تدعي الجهل: «أي درس؟! أنا لا أفهمك».

رفع يده التي تحمل المسبحة ليوجه سبابته نحوها قائلاً باتهام صريح: «ما زلت بتحقيق رغبات ابنتك، ما زالت بعقلية الأم التي تفسد طفلتها بتحقيق كل أمنياتها حتى لو كانت خطأ حتى لو كانت ضد مصلحتها هي شخصياً».

تبعد نبراس نظراتها عن زوجها لتحقق في الحائط قبالتها وهي تقول بالتجاهل العنيد نفسه: «لا أعلم ما تعني؟!».

هتف بها وهو يتقدم ليقف قبالتها: «بل تعلمين! أنت تبعدين سجي وأنت تظنين أنك تسعدين هيام في قبرها».

رفعت نبراس نظراتها لوجه زوجها كانت نظراتها تشع بالاعتراف! يهز رياض رأسه ثم يحاول تكرار المواجهة معها لعلها تفيق فيقول: «الأوهام

تملاً رأسك يا نبراس تظنين أن هيام تريد منك أن تفعلي هذا، لقد بات الأمر هوساً مريضاً وتحتاجين لعلاج».

توقع أن تغضب أو تصرخ في وجهه رفضاً لكن فاجأته وهي ترد بصلافة وقناعة راسخة: «لست مريضة وليست أوهاماً إنها الحقيقة لا تستطيع أن تجزم أن روح ابنتي لا تشعر بما يحصل في الدنيا لا تستطيع أن تقسم بالله أنها لا تتألم في قبرها وهي ترى حبيبها علي يسعى لغيرها، هل نسيت يا رياض كم كانت تحبه وتغار عليه؟! هل نسيت أنها فقدت صوابها بسبب هذا الحب؟!».

كانت الدموع تتجمع في عينيها رغم صلابه تعابيرها فيرد رياض يجادلها في كلامها: «بل أنت من نسيت أو تتناسين حقيقة أن ابنتنا كانت تشكو من علة منذ صغرها، نسيت وتتناسين أن ما حصل لها كان تدرجاً طبيعياً لسوء تربيتنا لها وانعدام تقويمنا لعيوبها وضعفنا المخزي فلم نعرضها على طبيب متخصص في مرحلة مبكرة من تطور حالتها».

كان ينهت انفعالاً بينما تنفعل نبراس هي الأخرى لترد عليه بصراخ: «ابنتي لم تكن مجنونة».

تتسع عينا رياض وهو يهتف مذهولاً بلا تصديق: «بعد كل ما جرى يا نبراس ما زلت بالتفكير العقيم نفسه؟! المرض النفسي ليس جنوناً ليس جنوناً! وحتى إن كانت ابنتنا أصيبت بالجنون فليس عيباً».

أخذت دموعه تتجمع هو الآخر وهو يضيف بقهر وألم لا يموت: «كان يجب أن نساعدتها.. كان يجب أن نعينها».

ثم سألت دموعه رغماً عنه فيمسحها وهو يتمتم بغصّة: «لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله».

دموع نبراس أخذت تنسكب هي الأخرى لكن محياها لم يتغير فيقول رياض بحشرجة: «إن كانت هيام تشعر وتتألم في قبرها فمَنْك أنت ومما تفعلينه بنفسك وبنا وبعلي هذا هو ما يمكن أن يجعلها تعاني أشد الآلام».

تمسح نبراس دموعها لتقول بالنبرة العنيدة نفسها: «كل ما تقوله لن يغير شيئاً ما دمت أشعر أن روح هيام تتألم وأنها لو عادت حية لمنعت زواج علي بكل قوتها فأنا هنا مكانها أفعله لها ولا أخجل من قولها».

عيناها في عيني شريك حياتها منذ أكثر من ثلاثين عاماً لتقولها صريحة لا تراجع فيها: «إن لم أستطع منع علي من الزواج على الأقل سأنجح في منع ارتباطه بسجى».

يحدقان ببعض وكأنهما يقفان على جانبي حاجز يفصلهما وغير قابل للزوال، حاجز شفاف يريان بعض من خلاله؛ لكنه يقف شاخصاً عالياً حائلاً أمام السمع والإحساس حاجز فصم وحدة العشرة والشراكة ليقفا هكذا على طرفي نقيض، قالت له أخيراً وهي تميل بجسدها لتستلقي على فراشها: «أنا أريد النوم إذا عادت سجى أخبرها أنني متعبة فلا توقظني للعشاء تستطيعان

ثم أغمضت عينيها ليرتفع الحاجز أكثر ويزداد سمكاً وشوائب.

مساء بيت أسعد الجنابي

تنظر لنفسها في المرأة وهي ترتعش من شدة التأثر، لم تر نفسها يوماً جميلة هكذا الثوب جعل لون بشرتها يزهو، فستان حريري بلون الكريم طويل حتى الكاحلين، مشدود بإحكام حول خصرها ومكشوف قليلاً عند الصدر والكتفين؛ لكن أخفى كتفيها وجزءاً كبيراً من أعلى ذراعيها وشاح بطبقتين من الشيفون بلون الفستان نفسه فبدت وكأنها تحلق وسط غيمة، إنها لا تطيق صبراً لرؤية عامر الليلة اشتاقت له، لا تعرف ما هذا الجوع من الاشتياق الذي يشيره فيها، ترفع يدها إلى قلبها تربت هناك، بينما تسمع صديقتها وفاء تقول من خلفها: «تبدين مذهلة».

اقشعرت وهي تنتظر أن ترى بعينيها رأي عامر فيها فتستدير لتواجه صديقتها اللتين ساعدتاها كثيراً اليوم في كل شيء لتسأل بقلق العروس: «حقاً؟ ألسن نحيفة زيادة؟!». فردت بسمة بابتسامة واسعة: «بل رقيقة كأميرات ديزني يا غبية! تحديداً سندريلا بالنسخة الحديثة وخصرها النحيف المستفز وأميرها يراقصها بخفة وكأنهما يمارسان رياضة الطيران الحر في الهواء».

تضحك حرير بارتجاف وتعاود الاستدارة لتواجه المرأة فتدقق هذه المرة بالتبرج الذي اختارته وفاء لوجهها وتسريحة شعرها البسيطة وهي ترفع جزءاً منه، اقتربت وفاء لتقف جوارها وتحقق معها في انعكاس صورتها في المرأة: «لون الكريم يلائمك بشكل لا يوصف تبدين كلؤلؤة وهاجة».

تهز حرير رأسها بفرح وهي تقول بدفء: «إنه اختيار عامر».

تقترب بسمة لتقف جوار حرير من الجهة الأخرى فترقص حاجبيها وتتساءل بخبث: «ووشاح الشيفون أيضاً من اختيار عامر؟ أراهن أنه أحضره بنفسه إليك».

ارتبكت حرير وهي تتمتم: «نعم».

بينما تتذكر شقاوة عامر في محل الفساتين وقد تفاجأت بحضوره دون اتفاق مسبق، بينما كانت تجرب الفستان بصحبة والدتها، لقد أصر أن يراه بنفسه كيف يبدو عليها ثم غافل وتحايل على أمها في غرفة القياس لينفرد بها وينال كثيراً من القبلات المسروقة لشفتيها وذراعيها وكتفيها متعللاً مستعظفاً أنه لن يستطيع فعل هذا أمام الجميع في الحفل، ولم يأت للمحل فارغ اليدين بل أحضر معه وشاح الشيفون مشدداً عليها أن تطويه بطبقتين حول كتفيها، تساءلت حرير وهي تنظر لأحمر الشفاه الذهبي: «هل تبرجي ما زال ثابتاً أم ربما يجب أن أجدد أحمر الشفاه؟».

ردت وفاء ضاحكة: «أسألي عامر».

بينما بسمه تضيف بمزاح وقح: «أو دعيه يجرب مدى مقاومته للشبات».

هتفت حرير بهما وطبعها المتحفظ يغلب: «توقفا عن هذا المزاح لم تكونا هكذا قبل الزواج ماذا جرى لكما؟!».

فترد وفاء ضاحكة: «عشرة الرجال تفسد يا صديقتي ليس كل النساء لديهن المناعة الذاتية التي تملكينها».

تنفجر بسمه ضاحكة ثم تقول بمزید من المزاح الجريء: «دعك منها، عامر سيفسدها قريباً لدينا الليلة ما هو أهم لنفعله كيف سنشغل العم أسعد حتى يستطيع العريس اختبار تبرز العروس؟!».

تشاركها وفاء الضحك بينما تصمت حرير ويشوب سعادة وجهها بعض الحزن والقلق، تنبهت وفاء وبسمه لحالتها تلك فتعذر بسمه بجدية: «أنا آسفة إن ضايقتك بكلامي».

ردت حرير: «ليس كلامك يا بسمه بل قلقي على أبي الذي ينغص علي، إنه ليس هو حالته تربكني ويجب علي الانتظار لأسابيع قبل أن أطمئن عليه، لقد أخذنا له موعداً بعد ثلاثة أسابيع لم نجد موعداً أقرب، إنه الطبيب الأشهر في العاصمة ولولا معارف العم سليم لما حصلنا على هذا الموعد».

تبسمت وفاء وهي تحاول طمأنتها: «لا تقلقي سيكون أمراً بسيطاً بإذن الله، سترين أنه مجرد نقص فيتامينات وحالما يتناولها ستعتدل ذاكرته».

قالت حرير وفكرها القلق يطغى على تفاؤل صديقتها: «إنها ليست ذاكرته

فحسب يا وفاء، أشعر أن هناك أموراً تحدث معه ولا يخبرنا عنها، البارحة كأنه كأنه لم يكن واثقاً من اتجاه القبلة للصلاة!». «

أوقفت بسمه مسار القلق لتقول بجدية ممزوجة بالمزاح المرح: «حرير الليلة ليلتك أعلم أن مكانة والدك عندك كبيرة؛ لكن الليلة لن تستطيعي فعل شيء بخصوص حالته العارضة، لذلك ركزي مع عامر بالله عليك وخذي بعضاً من إشعاعاته الحارقة كمصدر طبيعي لتوليد الطاقات الكهربائية أقصد الإيجابية».

ضحكة رقيقة خرجت من فم حرير رغماً عن قلقها بينما تقول وفاء غامزة: «البارحة كنت سعيدة للغاية وأنا أكسر قلوب بعض النسوة التقيتهن في جلسة (مولود) عندما أخبرتهن أن صديقتي هي عروس عامر القماش». ارتفع حاجبا حرير بدهشة وهي تتمتم: «كسرت قلوبهن؟! كم عددهن بالضبط؟!».

ردت وفاء وضحكتها تعلو: «أووّه كثيرات ونظراً لأن الخطبة وعقد القران تمّا بشكل سريع فالخبر لم ينتشر بعد؛ لكنني تولّيت مهمة النشر والإعلان بكل فخر».

تتمتم حرير بدهشة وقد علقت معها الكلمة: «كثيرات!».

فتناغشها وفاء قائلة: «واضح من دهشتك وصدمتك أنك تعيشين في عالم آخر هل تعلمين كم أن عامر القماش (لُقطة)؟! هل تعلمين كم عين

تلاحقه وتتمناه؟ هناك نسوة كن يشترين القماش منه دون حاجة فعلية». تضحك بسمة وهي تقول بشقاوة: «ثم تغير نشاطهن في الآونة الأخيرة نحو تبديل ستائر البيت».

بغته شعرت حرير بالغيرة! غيرة شديدة وهي تتخيل كل النساء الطامعات فيه كان إحساساً لم تجربيه أبداً من قبل شعرت بالحرارة الغاضبة تدب في كل جسدها ودفاعات أنثوية تلقائية تتحفز! هتفت بسمة مازحة: «انظري لوجهها يا وفاء إنها تغار!». فردت حرير بتوبيخ ووجهها يحمر حرجاً من أمر جديد عليها: «كفى بسمة».

ثم فجأة انفجرن هن الثلاثة في ضحكات من القلب صوت الزغاريد علا فتوقفت الضحكات وخفق قلب حرير عنيماً وقد علمت أن (عريسها) وصل، أخذت نفساً عميقاً وأطلقت به ببطء قبل أن تنظر لصديقتها وتقول بامتنان عميق: «أريد أن أقول لكما شكراً لولاكما لما كنت أستطيع أن أعيش كل هذا، ما زلت مرتبكة وخائفة وكأنني أتزوج للمرة الأولى، وفي الوقت ذاته هي ليست الأولى! لكنكما جعلتما الأمر سلساً طبيعياً كي أتعامل معه وأسعد بكل لحظة فيه».

قالت وفاء بجدية: «صدقيني حرير هذه هي التجربة الحقيقية بالزواج، أن تعيش تفاصيلها منذ البداية عن اقتناع ورضا ما مررت به سابقاً لم يكن زواجاً فلا تفكري كثيراً ودعي إحساسك بالسعادة مع عامر هو إلهامك».

تهز حرير رأسها بينما بسملة تبتسم لها بتشجيع لتقول حرير أخيراً: «ليس سعادتي مع عامر فقط بل أنتما أيضاً كلما رأيتم وجهي كما قريباً مني أشعر بالدعم والقوة». احتضنتها هما الاثنتان ووفاء تقول لها بروحها الإيجابية: «ستكونين سعيدة بإذن الله ستكونين أسعد النساء وكل الماضي سيتلاشى تأثيره، سترين وستذكرين كلامي».

همست حرير وكأنها تدعو من قلبها: «يا رب يا رب».

دخلت سجي غرفة (الصلاة) فوجدت العم رياض ما زال يقرأ القرآن، ابتسمت تحاول إخفاء إحساسها المقيت بالقلق وعدم الارتياح ثم تقترب لتجلس على السجاد الوثير جوار عمها فتنتظره يتمم (صدق الله العظيم) قبل أن تسأله بحنو ابنة حقيقية: «منذ أذان المغرب وأنت تعتكف هنا عماه».

التفت ونظر إليها بغموض يجعلها تقلق أكثر، وضعت كفها فوق ذراعه وهي تضيف: «أخبرني عماه عما حصل في غيابي حتى خالتي لا أعرف ما بها اليوم كانت أفضل بالأمس».

ثم تنهدت لتختم كلامها: «ليتني لم أترككما وأذهب لبيت صديقتي».

ما زالت نظرات العم رياض غريبة ولم تجد ما تقوله أكثر مما قالت، ثم صعقها سؤاله المباغت: «منذ متى تحبين علي يا سجي؟». فورة حرارة

اكتسحت جسدها وصدمة شلت تفكيرها ليتعثر لسانها وهي تهمس مثقلة
الأنفاس: «عماه أنا...».

لم تستطع لم تجرؤ حتى على النظر في عينيه فأخففت عينيها وقلبها
يدوي في خوف فرفع العم رياض يده كي يربت على خدها ويقول بتفهم
خاص: «أنا والدك وأعلم أن الآباء لا يتكلمون بهذه الأمور بأريحية يشعرون
بالتحفظ والحرص من مشاعر بناتهم حتى لو لم يفعلن ما يعيب لكني لن
أكون منغلقاً معك يا ابنتي».

شدت عزميتها وقررت أن تنهي هذا الأمر الصعب فترفع نظراتها للعم
رياض وهي تقول له بقناعة الألم: «أرجوك عماه هذا الكلام ليس له أهمية،
لقد وصلت لقناعة بعد ما حصل لخالتي مهما كان لن أجعل مشاعري في
كفة ميزان يتأرجح مع كفة مشاعرك أنت والخاله نبراس».

لكنه استفزها بالسؤال: «هل أحببته بعد زواجه بهيام؟».

تلقائياً كانت تنكر (التهمة) وهي تقول بتمزق: «لا أقسم لك. كان قبل أن
يلتقيا بعض بأشهر لكنه...».

خنقتها العبرة ليتساءل العم رياض بتأن: «لم يبادلك المشاعر؟».

دمعت عينا سجي رغباً عنها وهي تهمس برعشة: «لم يرني من الأساس
يا عماه».

أطرقت برأسها وهي تضيف بمرارة الحقيقة وصعوبة الواقع الذي تعيشه

الآن: «الوضع كله صعب وسط هذه الذكريات المشتركة خالتي نبراس محقة الوضع مستحيل».

أرعى العم رياض كفه عن خدّها وهو يتفكر بينما رفعت سجي وجهها لتقول بعزم وقرار: «لقد قررت أن آخذ إجازة دون راتب حتى منتصف العام الدراسي».

سألها العم رياض بهدوء: «تهربين من لقاءه كما تتهربين من مكالماته والرد عليه؟». فردت وهي تنظر في عيني من رباها تعترف له: «بل أعينه لينساني».

تجعدت ملامح العم رياض وهو يتساءل بعبوس: «وماذا عنك أنت يا ابنتي؟!».

ردت بحشجة وهي تبوح لعمها ببعض أسرارها الصغيرة العميقة: «لقد أوشكت أن أفعلها مرة وأنساه وسأحاول مجدداً وأنجح هذه المرة».

انفرد العبوس ليسود الاستدراك الحزين على وجه العم رياض: «لهذا كنت ترفضين الزواج طوال سنوات».

ما زالت تظهر القوة وهي ترد عليه بصدق: «رفضت الزواج لسببين الأول لأجلكما أنت والخالة نبراس وإحساسي أنكما تحتاجان وجودي أكثر بعد وفاة هيام والثاني..». احمرت وهي تتلأأ للحظة ثم تجد قوتها مجدداً لتضيف بمزيد من الصدق والصراحة: «أشعر بالخجل يقيدني لكني أريد أن

أجد شجاعتني لأصارك كما تفعل ابنة مع أبيها، السبب الثاني لأنني أردت أن أن أعيش قصتي مع رجل يحبني وأحبه، قلت في نفسي إنني راضية بالبقاء دون زواج معكما وسعيدة باكتفاء لنجاحي المهني لذلك لن أتزوج لمجرد الزواج وإنجاب الأطفال بل سأتزوج بمن أحب فقط».

غامت عينا العم رياض تأثراً لتترقق عيناها بدموع اليتيم والكلمات تتسرب من فمها بحنان يأسر القلب: «أنا وحيدة عماه ليس لي غيركما وما يجمعني بكما ليس صلة دم ولا بنوة بالرضاعة فقط ما يجمعني بكما هو الحب حتى لو كان حبي لكما ليس كافياً لتبادلاني نفس المحبة».

صدمته وحاجباه يرتفعان وهو يهمس باسمها: «سجى!».

بتفهم رقيق همست له بابتسامة رضا: «لا بأس عماه أنا لا أريد إلا أن أوصل إليك بأنني أحتاج إلى هذه العاطفة ولن أرتبط دونها مع أي غريب لأكمل معه حياتي».

هتف العم رياض: «لكن علي..».

قاطعته سجى وشفتاها ترتعشان كرعشة كلماتها: «علي هو الرجل الصحيح في الوقت الخطأ وكأنه محطة فائتني ولا سبيل للرجوع للخلف، قطارات العمر لا تعود عكس الاتجاه عماه طريقها دوماً للأمام».

تتفاعل المشاعر على وجه رياض لكنه يخفيها وهو يطرق ب رأسه ليحدث في القرآن المفتوح أمامه وأول آية وقعت عيناه عليها: (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ

عَلَى اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ آل عمران

ظل يردد الآية في سره حتى قطعت عليه سجي بنبرتها الحلوة المتفائلة:
«هيا عماه سأحضر بعض الفشار لتتفرج على فيلم توم هانكس الذي تحبه».

كانت تستعد للوقوف عندما أمسك ذراعها وقال بجدية: «لحظة سجي».

عاودت الجلوس وهو يضيف: «أريد كل أوراقك الشبوتية».

عقدت حاجبيها بدهشة وهي تسأله: «لماذا عماه؟».

صمت للحظات قبل أن يقول: «سأسجل نصف هذا البيت باسمك».

هتفت سجي وهي ترفض تلقائياً: «لا عماه أرجوك لا».

لكن العم رياض شدد عليها قائلاً برجاء عاطفي: «أريحي أباك يا ابنتي
حملي ثقيل ليتك تعلمين».

تنظر في عينيه بتأثر بينما يضيف العم رياض وهو يبدي أمارات الإجهاد:
«لا تتعبيني أكثر مما أنا متعب هذا البيت هو كل ما لدي لقد كسبت كثيراً
من المال في هذه الدنيا وأنفقت أكثر عليها! أنا ونبراس مسرفان للغاية
لذلك دعيني أشعر أنني منحتك بعض الأمان من غدر الدنيا وأنا ما زلت على
قيد الحياة».

نزلت دمعته لتنحدر حتى لحيته وهو يحثها أكثر: «أرجوك يا ابنتي
احضري لي ما طلبت الآن وليس غداً».

رفعت سجي يدها ومسحت دمعته وهي تقول بغصة: «حاضر عماه حالاً
سأحضرها لك».

وسط الزغاريد كانت حرير ذائبة تماماً ولا تشعر بمن حولها إلا إياه! هو
عامر وحده من تشعر بقوة وجوده فتشع قوة وجودها معه، يمسك يدها وهو
يلبسها الأسورة ثم ينحني ليلثم بشفتيه معصمها دون أن يبالي بأحد، ثم يلف
العقد الذهبي حول عنقها وتشعر بأنامله تتسرب منه كي تتسلل لبشرتها
تحت الوشاح من الخلف وهو يتأوه بهمس يعلو صداه في قلبها فوق كل
الزغاريد: «ذاك الحرير الذي لا يلمسه سواي».

ثم يفاجئها وهو يلف ذراعيه حولها في احتضان شديد سيؤرقها الليلة
الشوق إليه، أغمضت عينيها تستسلم بخدر لشم عطره ودفء ملمس قماش
سترته، تركت نفسها تغرق في حضنه والإحساس باعتصار ذراعيه لها كأنه
لا يقو على فكرة تحريرها، وكم ودّت أن تحضنه بالمقابل لكنها خجلت من
نفسها قبل أن تخجل من وجود الناس حولهما، أبعدا مكرهاً وفارقتة
مُكرهة كلاهما لا يطيقان الافتراق يبتلع ريقه بوضوح وهو يمسك يدها
ليجلسها على الأريكة.

مرت الدقائق وسط الاحتفال والتبريكات ويده لا تفارق يدها ثم مال إليها
فجأة ليهمس في أذنها بإحساس حارق: «أنت تبدين عروساً كاملة الأوصاف

حريرتي ليتنا نكملها الليلة وأخذك معي وليذهب كل الماضي إلى الجحيم
كأنه لم يكن وكأنك يا حبيب كنت لي وحدي مُدّ خلقك ربي».

نظرت إليه وقلبها يقرع بجنون فتري في عينيه رغبة رجل عاشق متملك
غيور مُتألم!

الجملة الأخيرة التي قالها أقلقته! (وليذهب كل الماضي إلى الجحيم
كأنه لم يكن وكأنك يا حبيب كنت لي وحدي مُدّ خلقك ربي).

هل يعني أنه يحاول نسيان حقيقة أنها كانت متزوجة؟! لكنه قال لها مرة
إنه لا يهتم لا يهتم أن رجلاً آخر لمسها قبله، في الوقت ذاته حتى اللحظة
عامر لم يسألها عن زواجها السابق بنوفل كيف كان لم يتطرق للأمر على
الإطلاق، الآن وهي تشعر بكفه تضغط على يدها بتطلب خشن ينتابها
الارتباك، تطلعت حولها وترى الجميع يضحك ويهلل صديقتها بسمة ووفاء
تغمران إليها، أمها وأختها سدير تزغردان، والدها بعيد يجالس العم سليم
والجد زيدون الذي انسجم معه للغاية، أخوها خلدون لاهٍ بأكل الحلويات
خفية قبل العشاء، (حماتها) نورجان مبهجة مع الجدة وروناهي تتكلم
بحماسة مع عمر وعلي اللذان لم يتوقفا عن الضحك، كل الموجودين الليلة
مشغولون ولا تجد وجهاً واحداً يلهمها لا تعرف من تسأل في هذا الموضوع
وتأخذ نصيحته، أطرقت وقلبها ما زال يخفق ويد عامر باتت تعتصر يدها
عصراً فترفع وجهها إليه وترى في عينيه انعكاس كلماته، فتركت نفسها
تنحدر على سجيته لتميل نحوه دون تفكير وتهمس في أذنه: «أنا أحبك

جداً».

شفتاها لامستا خده وشعرت برعشته ثم ابتعدت وهي تبتلع ريقها وترى العذاب في عينيه إنه عذاب الشوق وبأ له من عذاب مخيف.

في ظلام الليل يقود علي سيارته على الطريق الخارجي للعاصمة باتجاه الشمال، جده زيدون جالساً جواره بنظراته الثاقبة الشامخة بشكل طبيعي كجزء من هيئته الخاصة الراسخة، كم يذكره بهيبة ملوك بابل وآشور هذه القوة والسكون والعناد المتوارث رآها في لوحات تصويرية كثيرة لأولئك الملوك العظام حيث أولى حضارات البشرية بدءاً، يعقد علي حاجبيه فجأة وهو يفكر بشكل غامض مبهم إن وصف (ملك آشوري) قد مر به في حوار ما لكن بطريقة مختلفة، حاول علي أن يعتصر ذاكرته أين سمعها؟ ومن من؟ وكان وصفاً لمن؟! شعر بالغيظ وهي يتوه في دهاليز الذاكرة لكن عناداً كعناد جده جعله يصر على البحث.

مضت ساعة من الطريق حين اتسعت عيناه أخيراً وهو يتمتم في سره: «أم لؤي».

تلك المرأة القروية التي كانت تعمل في الجامعة كعاملة نظافة، امرأة لا تقرأ ولا تكتب لكن لديها ثقافة بتاريخ أرضها كما لا يملكها أصحاب الشهادات العليا، كانت مستمعة مبهرة وعقلها لَمَّاح حاد وقد جاورها

بالسكن أستاذ تاريخ مغمور لا أحد يعرفه؛ لكنه كان موسوعة وقد حفظت أم
لؤي منه الكثير عن تاريخ هذه الأرض المغرمة بها ابتداءً من حضارة وادي
الرافدين التي عاصرها الأنبياء حتى العصور الإسلامية وتاريخ الخلافة وما
تلاها من غزوات لأرض العراق واستعمار قديم وحديث ما زالت تبعاتها حتى
الآن.

أخذ قلبه يدوي وهو يفكر أنها هي من قالتها همس علي وريقه يجف:
«رياه».

عاد لعشر سنوات للخلف وفي إحدى جلساته على الأرض بصحبة تلك
المرأة المميزة، كان وقتاً ما بعد الظهر وهو يشرب الشاي بصحبتها بينما
أم لؤي تعيد لف وشاحها القروي الأسود حول رأسها وتثبت بدبوس ذهبي
كبير الحجم قديم الطراز على شكل نصف دائرة معرج الحواف ومحفور
بالنقوش، دوماً أعجبه هذا الدبوس فجذته تملك شبيهاً له، فجأة قالت أم
لؤي بنبرة مناغشة وعينان سوداوان تلمع فيهما شقاوة الفلاحات البريئة:
«هناك ملكة آشورية لا ينقصها إلا تاج الملكة سميراميس، عيناها
الواسعتان تلاحقانك يا علي».

كان للتو قد وقع في هوى هيام من النظرة الأولى وغارقاً في أفكاره
العاطفية حولها وهو شاب في الثانية والعشرين يتذوق الحب للمرة الأولى
لذلك رد عليها بلهفة وهو يضع قدح الشاي جانباً: «هل شعرها مجعد
مجنون يا أم لؤي؟».

فشردت نظرتها اللامعة وهي تقول بنبرة تخيل حالم: «بل كأمواج الفرات
في ليل بهيم».

ما زال علي يذكر تنهيدته المحبطة لأن الوصف لم ينطبق عمن شغلت
قلبه وكيف تتم وهو يلتقط قدح الشاي مجدداً: «إذن ليست هي وأنا لا
يهمني ما عداها».

ف قالت أم لؤي في إحباط يوازي إحباطه وخيبة أمله: «خسارة».

تعالى صوت دوي قلبه وهو يفكر أنها هي سجي لقد رأتها أم لؤي
وعرفتها لا يمكن أن يفكر بأي فتاة غيرها تنطبق عليه الصفات.

التفت للجد ولم يطق الصمت اللحظة فقالت متعجلاً: «جدي أريد
إخبارك بأمر».

التفت إليه الدكتور زيدون وبالنظرة الثابتة نفسها قال: «وأنا كنت بانتظار
أن تخبرني».

بعد عشرة أيام الاثنين

تهبط سجي درجات السلم وهي تسمع خطوات قادمة من المطبخ، تلقائياً
توترت ظناً أنها ستكون خالتها لكن في اللحظة التي اكتشفت فيها أن القادم
هو العم رياض كانت المفاجأة تثبت قدميها منتصف الدرج وهي تتطلع إليه

وتقول: «عماه! لقد حلقت لحيتك». ابتسم لها العم رياض وقد بدى منتهى الأناقة والوسامة وكأنه صغر سنوات وسنوات، أكملت سجي نزول الدرج وهي تنظر إليه من فوق إلى تحت بإعجاب لا يخلو من الدهشة لتقول بالعجب نفسه: «وتلبس بدلة رائعة لم أرها عليك من قبل هل اشتريتها حديثاً؟!». يضحك العم رياض فأوجع قلبها للحظة وهو يبدو كما الماضي، بدلته الرمادية كانت عصرية وتليق بنحافته وجهه بدا مشرقاً رغم أنها كانت تحب لحيته الوقورة لكن دوماً رأتها دلالة حزن عميق يأبى مفارقتها، عند نهاية الدرج تطلعت إليه بعينين فخورتين بينما يرد عليها ممزحاً بروح خفيفة: «أجل أردت العودة قليلاً لهيئتي السابقة لكن لا تخافي لن أتطرف وأصبغ شعري كما كنت أفعل قبل سنوات».

تعقد سجي حاجبيها قليلاً لتقول بمرح: «ظننت أننا ذاهبان لدائرة التقاعد وليس إلى حفل الأوسكار».

عاود الضحك بخفة ثم رفع كفه ليقرص خدها ويقول مبرراً: «لا تسخري مني يا فتاة كل ما في الأمر سألتقي بأصدقاء قدامى ولا أريدكم أن يروني كعجوز كئيب فاقتبست بعضاً من أناقتي الشبابية من عهد مضى». تنهدت براحة وهي تهمس له بعينين لامعتين فخراً: «دوماً كنت مثلي الأعلى في الأناقة».

يلثم جبينها وللحظة شعرت كأن العبرة خنقته لكنه سارع للقول وهو يتطلع لما تلبسه: «بل تفوقيني أناقة انظري لنفسك اليوم تبدين مُنْعِشَة ومُنْبَعِشَة

محظوظ من سيسرقك من أباك».

نظرت سجي عفوباً لما اختارت لبسه اليوم سروال جينز عصري بموديل مستعرض، سترة قصيرة بلون كاكي وتحتها قميص أبيض وشاح بلون الحناء تعقده كربطة حول عنقها وأخيراً لامست شعرها الطويل الكثيف الذي ترفعه في تسريحة ذيل حصان أنيقة قائلة: «لا أحد سيسرقني منك أبداً».

اكتفى العم رياض بالابتسام بينما يربت على الحقيبة السوداء الصغيرة التي يحملها قائلاً: «هيا بنا سنتأخر أنا جاهز كل أوراقي معي».

هزت سجي رأسها ثم تلتفت جانباً نحو باب الغرفة المغلق لتتساءل بغصة: «أين خالتي؟». رد العم رياض وهو يسحبها من ذراعها: «تدعي النوم».

سارت معه وهي تقول بإحساس ذنب ثقيل: «آسفة لأنها تخاصمك بسببي».

خرجا معا للباحة الأمامية وهو يرد عليها بجدية: «بل أنا آسف لأنك تعانين بسببنا هكذا».

ثم نظر إليها مطولاً قبل أن يضيف: «دوماً حملتِ همنا ولم تحملينا يوماً همك لكن الله سيعوضك قريباً وسترين».

ابتسمت بصمت وهو تفتح قفل السيارة فقال لها وهو يأخذ منها المفتاح: «افتحي البوابة يا ابنتي أنا من سيقود».

تفاجأت سجي فقالت: «ظننتك أردت مني إيصالك لأنك لم تعد تحب القيادة».

فرد ببساطة: «بل أردت رفقتك يا ابنتي كما أنني يجب أن أعود للحياة الطبيعية كفى حزناً».

تحركت سجي لتفتح البوابة وهي تشعر بالفرح للعم رياض، ليت الخالة نبراس تحذو حذوه عندها سيعيشون هم الثلاثة براحة بال.

انشغلت سجي طوال الطريق بحوارات كثيرة مع العم رياض حتى انتبهت إلى الشوارع من حولها فتساءلت بحيرة واستغربت: «إلى أين تأخذنا عماه؟! هذا ليس طريق دائرة التقاعد».

رد العم رياض بغموض: «ستكتشفين عندما نصل».

تعقد حاجبيها قليلاً ثم خمنت سريعاً فقالت في اضطراب مباغت: «هل نحن ذاهبان لدائرة التسجيل العقاري؟ أهذا هو الأمر الذي طلبت مني مرافقتك فيه؟! أرجوك عماه أما زلت على رأيك بتسجيل نصف البيت باسمي».

لم يرد عليها هذه المرة بينما تواصل رجاءها: «لا تفعلها أرجوك خالتي نبراس..». قاطعها بالقول الجدي: «خالتك نبراس يجب أن تصحو من

أوهامها وسأجبرها أن تفعل». حاولت إقناعه بالقول العقلاني: «إن كنت منزعجاً للمشادة التي حصلت بيني وبينها حول موضوع بسام فأنا حقاً لست منزعجة، صدقني عماه أنا أجيد التعامل مع خالتي ولست بضعيفة كي تجبرني على الزواج خاصة وأنا بهذا العمر والمكانة العملية والعلمية».

التفت إليها للحظة ثم عاود التركيز على الطريق قائلاً: «مؤكد لن تستطيع؛ لكن إن كان هناك من سيجبرك فهو أنا».

للحظة لم تفهم فتتساءل عن المعنى وهي غافلة عن مكانهما وعن سر نظراته الباحثة حولهما: «ماذا تعني عماه؟».

لم يرد حتى دخل فسحة ترابية خاصة كموقف خاص للسيارات فتعامل مع الصبي المسؤول هناك ليتفق معه على الأجرة، بينما سجدى تزداد حيرتها ولا تعلم لماذا يقفان هنا؟! لا يوجد أي دائرة عقار قريبة حسب ما تعرف لا يوجد إلا المحكمة.

بعد أن ركن العم رياض السيارة وقبل أن تسأل رأتها يتبسم وهو ينظر في اتجاه معين ثم قال وهو يشير لها: «لقد وصلنا في الوقت المحدد بالضبط انظري هناك الكل بانتظارنا».

كانت سجدى مشوشة وهي تتبع الاتجاه الذي يشير إليه عماه فاتسعت عيناها صدمة وهي ترى علي على بعد مترين، أنيقاً ببذلة كحلية دون رباط أزرار قميصه العليا مفتوحة والهواء يتلاعب بشعره الكثيف وأطراف ياقته،

يقف بوضع الاستعداد والتحفز كفه الأيمن فوق الأيسر، عيناها لم تر إلا إياه
رغم وجود أبيه وأمه معه، بل حتى شقيقاه عامر وعمر كانوا جميعاً بصحبته
يقفون على مسافة أبعد؛ لكن صورته ملأت نظرها.

أخذت سجي ترتجف دون أن تشعر عيناها مسلطان نحوها وقد ماجتا
بعواصف الاشتياق والتهديد.

الفصل الثاني والعشرون

تنظر إلى علي بعينيها المجفلتين وهو يقف عن بعد هناك يطالعها بذاك
الاشتياق السافر والتهديد الصريح تنظر إليه وكأنها في حلم بعيد حلم يراود
يقظتها، حلم آمنت أنه (لا) يتحقق! حلم مرّ في خاطرها عشرات المرات
وجلد قلبها تعذيباً عشرات المرات وأُخِيّ عشراً ومات عشراً وبكت على
موته سنوات؛ لكنه ظل حلماً حلماً (لا ولن) يتحقق! إذن ما هذا الذي تراه!
ترتجف وهي تستنجد غريباً ولا تعرف ممّ تستنجد بالضبط؛ لكنها
أمسكت ساعد عمها رياض الأيمن بتشنج حتى أوجعتها أصابعها وهي
تهمس بذاك الاستنجد: «عماه».

حدسها كان يعلم ما يعنيه كل هذا دون شروح وتفاصيل مملة؛ قلبها كان
يقرأ ما يراه وعلي يقف على بعد مترين على أهبة الاستعداد كأنه يتحداها
أن تقول (لا).

يد العم رياض اليسرى تحركت لتغطي يدها المتشنجة فوق ذراعه الأيمن
يحتويها دفئاً وتفهماً ودعماً وحثاً في الوقت ذاته وهو يقول بنبرة أبوية حازمة
حانية: «تزوجيه بنيتي وافرحي قلب عمك وأبيك رياض».

اهتزت كلها وهي تلتفت إليه مصعوقة كأنها تواجه حقيقة ما يحصل
اللحظة دون أي مجال للشك أو التراجع فيتبسم العم رياض في وجهها ليقول
المزيد في حوار صريح منتهى الأهمية والصدق: «أنا لا أفعل هذا لأجلك

أنت وعلي فحسب بل أفعله لأجل نفسي».

نظراتها جامدة وما زالت تتشبث به كأنها تخاف الوقوع؛ بينما يكمل العم رياض بصوت مرتجف وهو يشدد من احتضان كفها: «أنا أفعل هذا لأعوض بك ما لم أفعله مع هيام كنت جباناً وأنا أربيها مع نبراس بشكل خاطئ فلم أواجه مشكلتها ثم أكملت جبني وأنا أرمي الحمل كله على زوجها الشاب الذي لم يتعد منتصف العشرين ولم يملك لا المعرفة بحالتها ولا الخبرة ليتعامل معها، تركناه يخوض في دهاليز مظلمة مع مشاكل ابنتنا النفسية، كم أشعر بالعار.. كم أشعر بالعار!».

هطلت دمعة من عينه اليمنى جعلت الدموع تتجمع في عيني سجي، بينما يطرق العم رياض كأنه يخجل من نفسه وهو يهمس بوجع حقيقي: «أنا مدين لعلي بالكثير يا ابنتي مدين لسنين شبابه التي ضاعت مع ابنتي لكل الألم الذي تحمله وحمله دون شكوى أو اتهام لنا أننا تخلينا عن مسؤوليتنا إننا خدعناه».

باختناق تهمس: «عمي أنت تتألم».

رفع وجهه والدموع تتجمد في عينيه وهو يقول لها: «الألم لن يذهب يا ابنتي حتى الممات لكن بيدك أنت وحدك أن تخفيفه دعيني أعوض عليك عما حمّلته لأنني لم أكن رجلاً قوياً كما يجب دعيني أعوضك أنت عما عانيته لأنني لم أكن لك أباً كما يجب دعيني أعوض نفسي لأنني لم أكن أباً لهيام

كما يجب».

أزاحت سجي نظراتها بعيداً عن عمها وقلبها ينبض بالألم لكل ما مر عليها في حياتها، عاد كل الماضي متجسداً لكن بحلة جديدة هي جزء أساسي منها بعد أن كانت في الظل، ما زال علي يقف هناك لا يتزحزح بينما عمها رياض يضيف: «أنا أحتاج لهذا يا سجي أحتاجه كرجل وكأب لا أريد أن أكون سلبياً وضعيفاً مرة أخرى لقد سبق وكنت كذلك وشاركت بها نبراس ولا أريد أن أكررها». كانت سجي تهز رأسها سلباً فبدت وكأنها تترنح من ثقل ما ترفضه وهي لا تجد كلمات تسعفها لتعبر؛ لكن العم رياض قال رداً على حركتها المرهقة هذه: «أنت لا تساعديني أنا فقط، بل تساعدني خالتك نبراس أيضاً».

عندها نطقت سجي أخيراً وهي تنظر لعمها وتتساءل بحسرة وحيرة: «كيف أساعدها أنا سأقتلها ألماً».

رد وهو يعقد حاجبيه: «بل أنت ستنقذينيها من حمل ذنبك كما تحمل معي ذنب هيام».

ثم توسلت عيناه قبل شفثيه مضيفاً: «هذا قدرك يا سجي منذ ولدت اليوم فقط أدركت ماذا ادخر الله لنا كسند وتعويض كي يعيننا في فجيعتنا التي قضاهنا علينا بحكمته وينقذنا من إحساس الذنب والحسرة دونك لَكُنَّا ضعفاً أنا ونبراس أكثر في فقداننا الأليم وكأننا ربيناك لأجل يوم كهذا لتمدي لنا

طوق نجاة لتكوني الصخرة التي نستند عليها ونبدأ معك وبك من جديد،
لنكون كلنا من نعتمد عليك كي نخطو هذه الخطوة الصعبة».

هذه المرة دموعه جرت على خديه كدموعها وهو يضيف بهمس باكٍ:
«أريد أن أرى أحفادي ولن يكونوا إلا منك أريد أن أراك سعيدة، أريد أن
أموت وأنا مطمئن عليك مع زوج أصيل كعلي يفديك بروحه ويحملك فوق
رأسه معززة مُكرمة حتى الممات».

رمت رأسها على صدر (أبيها) فيبكيان في حضن بعض، بينما رياض
يهمس بفرحة مخلوطة بالبكاء: «مبارك يا ابنتي تَمَّ الله لك سعادتك
وأكرمك بالذرية الصالحة».

امتد وقت لا ينتهي ويدها في يد عمها رياض لا تتركه! علي يحاوطها من
كل جانب دون أن يوجه لها صريح الكلام؛ لكنها تشعر به حتى في عيني
أبيه اللتين تبشان الثقة، وابتسامة الفرح على شفتي أمه التي تمنحان الفخر،
ونظرات التشجيع والدعم من شقيقه عامر وعمر كأن علي اليوم متحالفٌ
حتى مع الهواء حولها ليحمل عطره الرجولي كي تدمنه أنوثتها وعاطفته كي
تستعمر قلبها وذبذبات مزاجه الناري المُهدِّد يحذرهما أن لا رجوع اليوم لم
تهداً هذه الذبذبات حتى تم عقد القران رسمياً وهي تحديق في الوجوه كأنها
لا تصدق أن الأمر تم فعلاً!

ما زالت يدها في يد رياض تأبى تركه والإجراءات تمت كلها في سلاسة،
لقد انتقلوا من غرفة لغرفة من موظف لآخر من المأذون الشرعي للقاضي
والأوراق تنقلت معهم من هنا إلى هناك وعقلها يحاول ملاحقة الانتقالات
في وجل، لم تكن تهاب الموقف لنفسها فقط بل لأجل من تمسك بيده أيضاً
وكانها كانت تستند عليه وتسندة! تفعل هذا دون تفكير أو نية مسبقة تفعله
بحدسها على سجيتها بفطرتها وإحساس المسؤولية الذي ولدت به وحملت
الحمل راضية.

كلمات عمها ترن في أذنيها (وكأننا ربيناك لأجل يوم كهذا، لتمدي لنا
طوق نجاة لتكوني الصخرة التي نستند عليها ونبدأ معك وبك من جديد،
لنكون كلنا من نعتمد عليك كي نخطو هذه الخطوة الصعبة).

عندما خرجوا جميعاً من المحكمة صوت زغرودة الخالة نورجان أجفلتها
فتلفت بحدة نحو وجه عمها الذي يحاول سحب يده من يدها فتتنظر إليه
شاحبة وهو يقول لها بتأنٍ وعيناه تلمعان بدموع الفرح والراحة: «مبارك يا
ابنتي أسعدك الله طوال حياتك كما أسعدت أباك اليوم».

همست بحشجة: «لا تتركني عماه».

كانت تشعر بها فتقولها بشفافية حدسها ليرد عليها عمها همساً خافتاً في
حوار خاص بينهما: «أذهبي مع زوجك».

اتسعت عينها لكنها أبت النظر لمن يقف خلفها منتظراً يتلظى بالانتظار

فتهمس في ارتعاب وهي حتى اللحظة لا تدري المخطط الذي اتفق عليه الجميع من دون علمها: «ماذا! ماذا تقصد أذهب معه؟!». .

رفع يده اليمنى بعد أن نجح في تحريرها من يدها ليربت على خدها ويقول باسمًا: «لا ترتعبي هكذا فالزفاف يوم الخميس لديك ثلاثة أيام كاملة كي تستعدي وتستوعبي». .

شعرت بالدوار فجأة وخسف قلبها وكأنها للتو أدركت هول ما أقدمت عليه وفعلته فتهمس: «لا بد أنني فقدت عقلي!». .

تلاشت ابتسامته ليقول بحزم: «بل لا عقل إلا في هذا أنت الآن زوجة علي شرعاً وقانوناً، ولقد فعلنا المستحيل لتجهيز الحاجيات الضرورية للبيت والباقي أنت وزوجك تشتريانه على مهلكما». .

يزداد شحوبها لكن العم رياض يصر على أن تواجه ما حصل دون حسابات أخرى يعرف جيداً تملأ عقلها اللحظة: «يوم الخميس بعد صلاة المغرب بإذن الله ستخرجين من بيتي عروساً في زفة تلف شوارع العاصمة». . يقترب ليلثم جبينها أخيراً وهو يهمس: «أذهبي مع زوجك بنيتي سيعيدك مساء إن شاء الله هذا ما اتفقنا عليه». .

فجأة فرض صوت علي نفسه في هذا الحوار الخاص كأنه يُفعل استيعابها للأمر الواقع وهو يقول بثقة: «مؤكد عماه سنعود قبل منتصف الليل إن شاء الله جدي زبدون بانتظارنا». .

أغمضت سجي عينيها وهي تلف ذراعيها حول عمها في احتضان شديد
بينما يلف عمها ذراعه حولها وهو يلتفت لسليم قائلاً بتشديد: «مبارك يا
حاج سليم ولا تنس توصيتي».

فرد سليم: «في عيوننا نحفظ سجي».

يتبادل الرجلان النظرات وكلاهما يجددان العهد الذي تبادلاه قبل تسعة
أيام عندما عقدا لقاء شاركهما فيه علي، لقد كان لقاء الرجال الثلاثة عملياً
صريحاً بعيداً عن كل الشكليات في أعراف الزواج المتبعة، لقد واجهوا
المسألة وعشرة السنوات منحت الأطراف الثقة ببعض، فكان الاتفاق
والترتيب يجري منذ تلك اللحظة لإتمام هذا الزواج، ببطء وحرص أبعد
رياض سجي عنه ثم قبل جبينها مجدداً وقال بنبرة فخورة: «لقد أعطيتكم
دُرّتي وذخيرتي في الحياة وأنا واثق أنكم ستقدرون ما أعطيت».

الاضطراب سيطر عليها وتتصرف بشكل إلى خاصة بعد مغادرة الجميع
ولم يتبق إلا هي وعلي، في الموقف الخاص للسيارات كان علي يتمم لها
كي تسير أمامه حتى سيارته فتتبع توجيه كلماته وهي تتكثف بحركة دفاعية
غير مقصودة منها، عند باب المقعد المجاور للسائق وقفت وهي تشعر
باضطرابها الداخلي ينبض في عروقها، أحست بوقوف علي جوارها دون أن
تنظر إليه.

«تماسكي سجي» صوته كان به رعشة أم أنها تتخيل! وسواءً أكان خيالاً أم حقيقة فالنتيجة واحدة أنها أخذت ترتجف بقوة، تنهيدة خرجت من الأعماق صدرت منه وهو يفتح لها باب السيارة قائلاً بخفوت: «اصعدي حارس الموقف يتفرج علينا منذ دقائق».

أطاعت لتتحرك كي تصعد فتلامس كتفها صدره عفويًا دون أن تدرك ثم تجلس على الكرسي فيغلق علي الباب بخشونة وحرارته ترتفع فجأة، يبتلع ريقه وهو يتحرك ليلف حول السيارة والأوراق في يده تكاد تتجعد وهواء الخريف يصفع جسده الساخن يفتح بابه ليجلس في مقعده ثم ينحني عفويًا وهو يمد يده كي يفتح الحافظة الأمامية قبالة مقعد سجي، فتتكمش هي على نفسها ملتصقة بالباب، بينما علي يضع الأوراق بخشونة هناك ثم يرفع نظراته إليها وهو يغلق الحافظة بعنف قائلاً بخفوت خشن: «منذ تسعة أيام وأنا مثل الثور في ساقية ما بين العمل وتجهيز بيتنا».

تتمتم وعيناها تتسعان: «ببيتنا؟!».

يكمل وهو يغلي أكثر ويشعر بالحرارة تشع من جسده إشعاعاً: «ومنذ خمسة أيام لم أدخن ولا حتى نصف سيجارة».

بكل غباء عيناها انحدرتا نحو شفيتها ليكمل بالخفوت الخطير نفسه: «ومنذ ليلتين لم أنم».

رغم إدراك علي لحالتها وهي تعاني صدمة المفاجأة المباغته مع كل ما

حصل اليوم؛ لكن حالته العاطفية بدت في وادٍ ثانٍ بعيداً عن حسابات التفهم والمراعاة لمشاعرها اللحظية، وكل توصيات أبيه وعمه رياض إليه أن يصبر عليها حتى تستوعب أخذت تتبخر، أضاف أخيراً وبات شعوره بالحر كأنه حر صيف لاهب: «فحاولي مساعدتي قليلاً لأنني مرهق للغاية».

نظر لعينيها مكرراً آخر كلمتين: «مرهق للغاية».

ظلت منكشمة للحظات آخر وهي تحقق فيه بعينيها الواسعتين اللتين تشيعان الفوضى فيه أكثر اعتدلت في جلستها وهي تدير عينيها بعيداً لجهة الشباك ثم قالت بصلافة مهزوزة: «هلا تحركنا من فضلك أظنك قلت إن جدك بانتظارنا».

عيناه استقرتا على جانب عنقها المكشوف فوق حافة وشاح الحناء الذي تلقه حول رقبتها، النبض المفضوح هناك يناديه فتاقت شفتاه لتلبيا النداء، تسارعت أنفاسه ودوى نبض قلبه واشتدت عواصف الاشتياق فيرتد بجسده للخلف بحركة خشنة مستقراً وسط مقعده ثم تمتم وهو يفتح بابه مجدداً: «الحر فظيع اليوم».

نزل من السيارة وخلع سترته بنزق ثم فتح الباب الخلفي ورمها على المقعد هناك ليعود إلى مقعده وهو ينظر إلى سجي فيجدها لا تزال تنظر بعيداً عبر شباكها فلا يرى منها إلا جزءاً من جانب وجهها وشعرها المعقود كذيل حصان، تقلصت أصابعه فوق مقود السيارة ثم بعزيمة ودعاء للصبر

شغل سيارته بصمت مغادراً الموقف وسجى ساكنة جواره لتبدأ الرحلة وهما يتشاركان هدنة صمت.

أوقف عامر السيارة على جانب الطريق وأمام محل القماش فرع الستائر ليترجل أخوه عمر يلوح له مودعاً فيعاود عامر تكرار السؤال: «هل أنت متأكد أنك لن تحتاجني اليوم؟».

رد عمر وهو ينحني بجسده: «قلت لك سأتدبر الأمر مع الطلبية محل علي أوجب أن توجد فيه اليوم كي تسد مكانه».

هز عامر رأسه بينما يغلق عمر الباب ليذهب كل في اتجاه؛ لكن كلاهما أخرج هاتفه النقال ليكلم خطيبته، رنة واحدة انتظرها عمر ليتفاجأ بصوت رونا هي وهي تهتف بحنق: «قسماً بالله يا أمي إن كلمتني مجدداً عن قميص نوم جديد سأقف فوق الطاولة أمامي وأرمي منها نفسي».

انفجر عمر ضاحكاً وهو يكاد يصل إلى باب المحل ثم قال بشقاوة وضحكاته تهدأ: «وأنا سأرمي نفسي أمام عربة بائع اللبلي (الحمص المسلوق) إن لم تخبريني بالتفصيل عن قمصان النوم كلها قطعة قطعة».

رغم حرج صوتها فإنها لم تتركه ينتصر لتقول وكأنها تكلم نفسها: «لم يكن ينقصني إلا أنت يا شهریار زمانك! ألن ينتهي شراء جهاز العروس يا ربي! ما هذا؟! وكأنني أختار فساتين لألف ليلة وليلة».

يواصل عمر ضحكاته وهو يدخل المحل فيلقي التحية للعمال بينما يباركون بمناسبة عقد قران علي فقالت رونا هي مستدركة: «مبارك عقد القران لعللي وسجى لقد نسيت أن خطتكم تنفذ اليوم».

يضحك مجدداً وبشعر بسعادة لذيذة أصبح مدمناً عليها منذ أيام يجد نفسه يتصل بها أكثر من مرة في اليوم لا يعرف كيف يجد الهاتف في يده ليتصل بها متعللاً بأي حجة فقط كي يشعر بخفقة قلب خاصة جداً معها، قال لها أخيراً بصوت خافت: «وقريباً جداً ننفذ خطتنا الخاصة يا ضي القمر».

أصابع عامر تتقلص بتشنج حول مقود السيارة، بينما صوته لا يظهر إلا الهدوء وهو يقول لحريز عبر الهاتف: «الحمد لله تم عقد القران دون مشاكل».

ردت عليه وصوتها يشعر به غريباً بعيداً عنه: «مبارك لعللي وسجى فليتم لهما الله الزواج بألف خير».

يطبق عامر فكيه قبل أن يقرر مصارحتها بما صبر عليه ليقول بما يستطيع من الهدوء وضبط النفس: «ماذا يحصل حريز؟ منذ حفل عقد القران وأنت لست طبيعية أنا حتى لم أرك بشكل حقيقي لم ألمسك!».

جاء صوتها مرتبكاً وهي تهمس بتبرير غير مقنع: «آسفة انشغلت عنك

أنت تعرف المدرسة والطلاب».

رد بانفعال أفلت منه: «المدرسة والطلاب؟! وما علاقة المدرسة والطلاب بمنعك لي الدخول مساء الأمس إلى بيتكم؟!».

فقالت بنبرة غامضة مبهمة خافتة كأنها تتوارى عنه: «أسفة لأنني البارحة لم أستطع إدخالك ولا إخبارك عن السبب الحقيقي، الواقع لم أكن متعبة لكن أبي كان بمزاج سيئ».

يعقد عامر حاجبيه وهو يشعر أنها تخفي عنه أموراً ثم قال وهو يقود على مهل وسط الزحام: «للمرة الثانية أسألك صارحيني ماذا يحصل معك؟».

فترد بشكل مبهم: «لا شيء فقط كما أخبرتك انشغلت بالعمل ومراعاة أبي».

لقد طفح الكيل ولم يعد يحتمل خاصة وهي ترفض الإفصاح والتكلم ليقول بغضب مكتوم: «لم أمنعك من مراعاة أبيك ولا الاهتمام بعملك؛ لكن أن لا أراك إلا مرتين خلال عشرة أيام فهو أمر غير طبيعي، وفي كلتا المراتين لم أرك حقيقة الأولى في دعوة العشاء في بيتنا ولم تبارحي مكانك في غرفة الضيوف كأنك تلميذة مدرسة مُعاقبة بعدم مغادرة الصف! والثانية حين رأيته صدفه عائدة من المدرسة وأردت إيصالك ورفضت بشكل قطعي كما رفضت إدخالك بيتكم بالأمس!».

ردت تحاول التبرير مجدداً «قلت لك أبي أصبح يخرج لشوارع الحي وقت

عودتي ولا أريد أن أثيره أكثر».

رد بانفعال متزايد: «أنا زوجك حرير ولست...».

قاطعت بهمس يفيض توسلاً رقيقاً كي يتفهم ما لا يفهمه: «أنا أعلم لكن أرجوك اصبر قليلاً أبي متوتر من يوم حفل عقد القران والبيت كله في حالة سيئة».

حاول أن يهدأ جهذه بينما يقول لها بأسلوب عقلاني مقنع: «والدك لن تتغير حالته راعيه لكن لا تؤثر علينا أنا لا أطلب الكثير حرير على الأقل مرة واحدة بالأسبوع نخرج معاً بمفردنا نتعشى نتسلى بأي مكان ما دام وجودي في بيتكم يتسبب بتوتره».

حاولت تهدئته بمنحه الوعود: «بعد موعد أبي مع الطبيب أرجوك عشرة أيام آخر».

أكثر ما يغضبه أنها أصبحت منغلقة معه من جديد ويشعر وكأنها تخفي عنها كثيراً مما يدور معهم، حتى مكالمة الهاتف باتت قصيرة ويشعرها متوترة طوال الوقت، صارحها بما يجول في نفسه منذ أيام: «أشعر أنك تخبئين أموراً عني».

حاولت إقناعه بكلمات واهية: «لا عامر فقط أنا مشغولة البال على أبي فقط».

رد بعد لحظات تفكر: «ربما أنت قلقة لكنك لا تقولين كل الحقيقة هناك

ما تخفين ولا تخبريني عنه، منذ أيام وأنا لا أكف عن سؤالك عما يحصل وأنت تتهرين».

تمتت بما أشعل غضبه أكثر: «آسفة». صمت للحظات يريد منحها الفرصة كي تخبره؛ لكن ظلت صامتة فانفجر بها بقسوة: «عندما تشعرين أن لك رجلاً تعتمدين عليه كلميني».

ثم أغلق الهاتف دون وداع ورماه بعنف ليسقط على أرضية السيارة وصدره يعلو ويهبط في انفعال ويكاد يجن من أفعال حرير غير المفهومة.

على الجانب الآخر كانت دموع حرير تجري على خديها والهاتف ما زال في يدها، تقدمت نحو مرآتها لترى وجهها الباهت المتعب، رفعت يدها كي تبعد بعض خصل شعرها عن خدها لترى الأثر المزرق الخفيف هناك، أخفضت رأسها وهي تجهش بالبكاء ماذا تقول لعامر؟! أقول له إن والدها بات يقتحم عليها الغرفة بنظرات عدائية وصراخ مستمر، وهو يتصور أنه سيجد عامر معها في السرير! يقولها صراحة ويتعابير وجهه لم ترها على وجه أبيها طوال حياتها وكأن روحاً أخرى سكنته، أما صفعاته العنيفة لسدير قبل أيام وهو يتهمها بمكالمة شاب وعندما تأكد أنها كانت تكلم صديقتها انسحب مطأطأ الرأس.

مسحت حرير دموعها ثم تأوهت وهي تتحرك عائدة للسرير ويدها على ظهرها ما زال يؤلمها الألم الشديد نفسه منذ الأمس وهي شبه واثقة ودون

حاجة لتراه أن الزرقة تغطي منه مساحة ليست بالقليلة، البارحة كان يوماً مريعاً ووالدها منذ عودتها من العمل في المدرسة وهو يستفز الجميع لإثارة مشكلة جديدة كما بات يحصل بشكل يومي منذ حفل عقد القران، وطوال هذه الأيام حاولت حرير احتواء الأمور لكن خلدون المراهق الثائر صعب احتواءه كسدير المسالمة، حتى حلت صلاة المغرب لينفجر أبوها فيهم جميعاً يتهم خلدون أنه لا يصلي وينعته بالكفر والإلحاد ثم أتهمها هي بطريقة شنيعة وهو يقول لها (هناك وساخة تحصل في بيتي وكلما دخلت غرفتك شممت رائحتها)، كانت مصدومة بينما خلدون فقد رشده فلم يحتمل كلمات أبيهم ليتشابك بالأيدي معه، كانت معركة رهيبة بين جسدي (رجلين) وهي مع أمها تحاولان الفكك بينهما وهما تصرخان، بينما سدير تبكي بحرقة وجامدة مكانها من هول الموقف الذي يحدث للمرة الأولى ولم يفض العراك بين الأب وابنه إلا بعد أن ارتطمت حرير بظهرها في الباب فصرخت بقوة من شدة الألم، ليحطم خلدون إحدى الزهريات ويغادر البيت وموجات الغضب تفرقه.

تمددت حرير على جانبها فوق السرير وهي تنكمش على نفسها في إرهاق لم تخبر عامر أيضاً أنها تغيب اليوم عن العمل رغم امتعاض المديرية من كثرة التغيب وتوجيهها تنبيه بذلك؛ لكنها لم تستطع ترك أمها لوحدها مع أبيها ولا تأمين عودة خلدون للشجار، رغم أن أباه اليوم يتصرف بهدوء عجيب وكأن ما حصل بالأمس كان مجرد حلم مريع، أخذت تسيل دموعها

الحارة وهي تتحسس مكان الازرقاق في جانب خدها الذي لا تعرف من أين
تحصلت عليه وكيف؟!

همست بحرقة: «سامحني عامر لم أستطع إخبارك لساني انعقد وقلبي
توجع أنا خائفة عامر خائفة وأحتاج حضنك يطمئنني».

ثم أخذت تدعو وتقول بحرقة قلب: «أرجوك يا رب عافِ والدي من داء لا
أعرف ماهيته أهو نفسي أو عضوي! يا رب إنه لم يعد هو».

ثم تحاول طمأنة نفسها رغم انقباض قلبها هامسة: «سيكون بخير بإذن
الله سيكون بخير، الطبيب سيطمئننا وسيعطيه علاجاً ربما يعاني الكآبة
مؤكد هي الكآبة تجعله عصبياً هكذا».

كانت تقولها حتى وهي غير مقتنعة بها! لكنها لم تستطع فعل شيء آخر
لتقوي نفسها.

أغمضت عينيها ويدها تربت على موضع قلبها هامسة برعشة: «لا
تغضب مني عامر رياه كم أريد أن أذهب إليك وأصالحك».

تدور نبراس في أرجاء البيت وكلما مرت بالساعة الجدارية نظرت
إليها بقلق

تشعر بثقل في قلبها كأن نذير سوء يترصدها. وهي تنتظر عودة رياض

وسجى تمتت وهي تنظر للساعة مجدداً: «لماذا تأخر؟! لقد انتصف النهار».

ودّت لو تستطيع الاتصال برياض وسؤاله لكنها أبت التنازل عما عقدت العزم عليه، ستظل تضغط على سجي حتى ترضى بالزواج من بسام وكم أسعدها أن ترى بسام مهتماً حتى الآن بسجي فلم يستطع رفع عينيه عنها طوال الجلسة يوم الجمعة، تشابكت أصابع كفي نبراس في توتر إنها تعرف ابنة أختها وريبتها جيداً، قد تستطيع الضغط عليها عاطفياً لتمنعها الزواج من علي لكن لن تستطيع ممارسة الضغط نفسه كي تدفعها إلى الزواج من رجل لا تريده.

ازداد الثقل وصاحبه الانقباض ثم أخذت تتمم بأفكارها التي تشغلها منذ أيام: «لن أستطيع أن أطمئن إلا إذا تزوجت من رجل آخر؛ لكن كيف؟! كيف أقنعها يجب أن أغير طريقتي يجب أن أقنعها بالعقل واللين بسام رجل ممتاز و...».

توقفت نبراس عن الكلام وهي تسمع صوت باب البيت يفتح، كانت في غرفة المعيشة تتسمع للخطوات وقلبها يخفق توتراً إنها لا تسمع صوت خطوات سجي! كعبها العالي ذو الترنيمة الخاصة لا يطرق على الأرضية، لم تعد تحتمل لتتحرك من غرفة المعيشة نحو المطبخ وهناك واجهت زوجها بمفرده، القلب يتلوى بالخفقان البطيء في صدرها ولم تشغلها هيئة زوجها الجديدة التي لم ترها صباحاً عندما تجاهلت النظر إليه بل شغلها أمر واحد

فقط اللحظة لتسأل بحسرة: «أين سجي؟!».

بتعابير هادئة لكن مرهقة بوضوح قال رياض دون مقدمات: «سجي مع خطيبها وزوجها».

للحظات صامتة كانت نبراس تستوعب ما قاله زوجها للتو ثم مرت لحظات أخر حتى تمت شفتاها: «ماذا قلت؟!».

فرد رياض مجدداً بتحديد أدق: «قلت إن سجي مع زوجها علي لقد تم عقد القران قبل نصف ساعة».

اهتياج جنوني جعل نبراس تهتم ناحية زوجها وأخذت تضربه على صدره وهي تصرخ بحرقة: «زوجتها علي زوجتها علي يا رياض كيف فعلت هذا؟! كيف فعلت هذا؟!».

أمسكها من معصمها يحاول احتواء هياجها وثورتها ويتكلم بتعقل: «لأن هذا هو الصحيح لأن علي وسجي يريدان بعض لأن هذا حقهما لأن هذا أقل ما أفعله لإسعاد ابنتنا سجي».

دموع نبراس تجري وعيناها تشعان بوميض الغضب السافر وهي تصرخ: «لا ليست ابنتا هيام فقط ابنتنا سجي لن تدخل بيتي هذا مجدداً لن تدخل بيتي تلك الخائنة فلتذهب ولا تعود لا أريد رؤية وجهها».

ما زال يمسك بمعصمها ليقول بريادة جأش وقد كان مستعداً لثورتها تماماً: «بل ستعود مساءً كما اتفقت مع علي وبعد ثلاثة أيام ستزف إليه

عروساً بالفستان الأبيض وستخرج من هذا البيت تحديداً وأمام مرأى ومسمع كل الناس».

جحظت عينا نبراس والدموع لم تتوقف عن الهطول على خديها ثم قالت أخيراً وهي تنزع معصميهما من بين أصابع زوجها: «أخرج رياض ارحل لا أريدكما أنتما الاثنين كلاكما خائنان».

كان صدرها يعلو ويهبط والانفعال الهادر يثثه جسدها كطاقات رهيبة من حولها غامت عينا رياض وبدا كعجوز منهك فجأة! قال بحزم رغم إنهاك نبرة صوته: «لا نبراس لن أتخلي عنك ولن أتركك».

وقبل أن ترد عليه اقترب منها والدموع تتجمع في عينيه قائلاً بحشجة: «ليس لأنك تحتاجيني فقط بل لأنني احتاجك أيضاً».

بدت نبراس جامدة رغم الدموع التي غسلت وجهها لتتحدرد دموع رياض وهو يختنق بالكلمات بين شهقات بكاء داهمته: «هل تظنين أنني من حجر؟! هل تظنين أنني لا أشعر؟!».

رفع قبضته ويضرب بها على صدره قائلاً بحرقة أب مفعجوع: «اليوم فؤادي تلظى بالنار وقلبي تمزق إرباً وإرباً وأنا أزوج سجي لعلي».

همسة أوجع من صرخة انطلقت من فم نبراس وهي تتساءل: «إذن لماذا؟! لماذا؟!». رد بانفعال ومواجهة: «قلت لك لماذا! لكن ما لا تفهمينه أن ألمي اليوم ليس لأجل أن هيام تتألم كما تتوهمين».

تهتز نبراس امامه وهو يكمل بالدموع نفسها بالحرقة نفسها بالانفعال
الغاضب نفسه، بالإحساس المفجوع وهو يضرب على صدره مجدداً: «بل
لأجل فقدي لفلذة كبدي، تذكرتها عروساً أزوجها لعلي تذكرت فرحتها
تذكرت».

لم يستطع إتمام كلماته ليغمر وجهه بين كفيه وبجهش بالبكاء المرير
ونبراس تقف أمامه لا تفعل شيئاً إلا الجمود أمام هذا الألم العاصف.

عندما هدأ رياض قليلاً أخذ يستغفر ويحوقل ثم توجه نحو صنوبر الماء
وغسل وجهه، شعر ببعض الراحة واستعاد ثباته ليلتقط المنشفة يجفف
وجهه وهو ينظر لوقفه زوجته الجامدة المصدومة.

أخذ نفساً عميقاً ثم أطلقه ليقرب منها ويقول باقتناع تام: «هيام في عالم
البرزخ لو كانت تشعر الآن فستشعر بالارتياح بالسعادة لأجل علي لأنها في
عالم الدنيا ظلمته معها كما ظلمناها نحن بتخاذلنا».

شاخت تعابير نبراس فجأة! ثم تراجعت للخلف والوجع يرسم محياها
لتقول: «لم يعد للكلام معنى لم يعد للحياة معنى الحياة كلها انتهت أمام
ناظري».

ناداها: «نبراس».

فتراجع أكثر وهي تقول بصوت لا حياة فيه: «لقد ماتت ابنتنا يا رياض
ماتت ولم تعد الحياة بعدها حياة سنكملها بالطول والعرض حتى يحين الأجل

لكنها أبداً لن تكون حياة».

ثم انسحبت تماماً لتغادر المطبخ ورياض يطلب القوة من الله ليعينه.

«أعني يا الله لأجل ابنتي اليتيمة التي حملت مسؤوليتها في عنقي».

على الطريق الخارجي بين العاصمة والشمال كان علي يشعر بتوترها يشتد بدل أن يهدأ العم رياض أوصاه أن يترك لها مساحة مع نفسها فهذه طريقته لتعيد ترتيب الأفكار وتستعيد سيطرتها ورباطة جأشها كي تواجه الموقف وتتعامل معه كأمر واقع؛ لكن ما يحصل الآن هو العكس إنها تزداد اضطراباً وهي تتحاشى النظر نحوه لم تنطق بحرف! لم يعد يطيق صبراً وهو يغلي منذ غادرا الموقف معاً، يريدان أن تشعر به أن تشعر معه بأهمية ما حصل اليوم لهم لا يمكنه الاستمرار بهذا الصمت وكأن شيئاً لم يحدث رياه! لقد تزوجا زفافهما بعد ثلاث ليال ستكون امرأته وحيبته خلال بضعة أيام!

في حركة رعناء أدار المقود إلى اليمين ليخرج عن الطريق ويوقف السيارة جانباً بينما سجد تشهق مجفلة، التفتت إليه وهي ترتجف وتقول: «ماذا هناك؟!».

كان صدره يعلو ويهبط وأنفاسه تثير ضجة في الهدوء الذي عم بعد إطفائه المحرك هدوء لا يقطعه إلا صوت مرور السيارات المسرعة على الطريق العام، كان عاقد الحاجبين ينظر إليها وكأنها معضلة، إنها معضلة

لمشاعره كلها، اليوم أوشك أن يتصرف بحمق عندما طال حوارها مع العم رياض في موقف السيارات كان مستعداً لفعل أي شيء كي يدفعها لتتم عقد القران، لحسن الحظ العم رياض تمكن من إقناعها بطريقة ما، أغمض عينيه للحظات يحاول التركيز ثم فتحهما وهو ما زال عابساً ورغم إرهاقه سيطر على انفعاله واقترب منها عفويّاً كي يبدأ الكلام بعقلانية، فتراجعت للخلف بخوف غريزي وهي تشهر كفها في وجهه كأنها تصد هجوماً قائلة باضطراب شديد: «لا تقترب مني لا تلمسني يا علي أقسم بالله إن لمستني اللحظة سأصرخ دون شعوري وأثير فضيحة».

فجأة انفرد عبوسه وأخذ يضحك! تراخت يدها المتوترة وهي تتساءل باضطراب وتوجس: «لماذا تضحك هكذا؟! أنا جادة». أخذ يهز رأسه يميناً وشمالاً كأنه يتعجب وهو ما زال يضحك فأغضبها ضحكه هذه المرة لتهتف به بتوبيخ: «كُف عن الضحك أنا لم أقل نكتة، ثم..».

شهقت قبل أن تتم الجملة عندما فاجأها علي بلف ذراعه بخشونة حول خصرها ليجذبها إلى صدره بخشونة أشد، فكاد قلبها يتوقف من قوة النبض، وجهه مقابل وجهها لا يبعد إلا بضع سنتيمترات وعيناه تتوهجان بخضرتهما وهو ينظر لعينيها كأنه يتخذها بوابة فيعبر منها إلى عمق روحها وقلبها فاتحاً وأسيراً، قال بصوت مبحوح: «انتهى الأمر وبِتّ حلالي.. وهناك ورقة في الحافظة أمامك تذكرك بهذا ربما كانت مفاجأة كبيرة لك اليوم لأنك لم تعلمي بالاتفاق ربما تمادينا ونحن نجهز لكل هذا من خلف

ظهرك؛ لكن لا تدّعي الصدمة يا سجي وكأن ما حصل ضد رغبتك لأنك ببساطة ترغبين ترغبين جداً كـرغبتـي أنا وقسمأ بالله هذا أقصى ما أستطيع من الصبر على النار التي أـحترق فيها الآن».

جسدها كله ينكمش في فورة حياء بين ذراعيه ورفضاً بريئاً غريباً للمسـة أولى من رجل غريب، بينما بقايا عزيمة تدفعها كي تقاوم إحساس أنثى عاشقة يهمس لها بالاستسلام شعر علي وكأنه دائخ محموم لم يتخيل أبداً أن ردة فعلها ستكون مسكرة وتذهب بالعقل هكذا، أخذت تتلوى أكثر وهي تحاول دفعه بعيداً وجسدها كله يرتعد، بينما تهمس بأنفاس لاهثة: «اتركني علي رجاء رجاء لم أعد أتحمـل هذا الضغط».

يبتلع ريقه وتوصيات العم رياض تعود لترن كالناقوس في أذنيه فتوقظ عقله وتمسك بلجام مشاعره لكن بدلاً من أن يفلتها شدد من إمساكها ليحتوي مقاومتها بسهولة ثم اتخذ مساراً مختلفاً للحوار فقال بنبرة جدية حازمة يحثها على التركيز معه: «اهدئي وانظري إليّ سجي انظري إليّ».

كانت وقفة رهيبة بينهما وكأنهما انعزلا عن كل شيء حتى مشاعرهما الثائرة اللحظة كل شيء سكن وهما يحدقان ببعض، قال علي أخيراً: «واجهي الأمر وأنت امرأة قوية خلقت للمواجهة لا الهروب لقد خطوت الخطوة لأنك تعملين أنها الصح ليس لأجلي ولا لأجلك فقط بل لأجلنا جميعاً أنت إنسانة لا تفعل إلا ما تؤمن إنه صحيح قد تكونين تحت ضغط عاطفي كبير يشوشك وكلنا جزء من هذا الضغط وأنا آسف حقاً لما تواجهين

لكن عقلك يقظ ومدرك».

ترتعش شفتاها وهي تهمس بألم: «لكن الخالة نبراس لا تستحق مني هذا لم يكن يجب أن أن أخونها».

اتسعت عيناه ذهولا من وصفها ثم فارت الدماء في عروقه وهو يرد بحاجبين معقودين: «أي خيانة؟! لقد ارتبطنا بحلال الله وبرضاك التام ورضا العم رياض ما تظنينه وفاء لمن ربتك ومراعاة لمشاعرها هو في الواقع تشجيع لها على التماذي في أفعال خاطئة تؤذيها هي قبلك أن تؤذي من حولها، أنت تساعدينها لتعيش باقي حياتها في محراب حزن لا يرتضيه حتى رب العالمين».

أطرقت ودموعها تنسكب بينما تحرك كفيها لتدفع بارتجاف ذراعيه المتشبثين بخصرها وهي تقول بخفوت حزين: «رغم كل كلام المنطق والصحيح والمفروض إلا أنني لا أستطيع منع نفسي من شعور الذنب لألمها». لم يفلتها بل يشدد بخشونة من إمساكها حتى جعلها تتأوه توجعاً رقيقاً، أجبرها أن ترفع وجهها إليه فيقول لها ثائراً: «إذن فأنت تتبعين نفس طريقتها مع هيام! تضعفين أمامها وتسايرينها في الخطأ لأنك لا تحتملين أن تؤلميها حتى لو كان ألمها هذا فيه مصلحتها، ففكري جيداً يا سجي. فيما تفعلين مع خالتك». أخذت الدموع تتجمع في عينيها وهي تنظر إليه وتهمس بـ(صرخة) وجع: «إنها أمي أمي بالرضاعة».

للحظة تجمد علي وهو يتساءل متفاجئاً: «ماذا؟!».

ثم عقد حاجبيه وهو يضيف: «من أين لك هذا الكلام؟! أنا لم أسمع بهذا من قبل!». «من قبل!..».

تهز رأسها وهي تؤكد له بغصة: «عمي رياض أخبرني مؤخراً أنا أيضاً لم يذكره أمامي».

عقد حاجبيه أكثر وذكرى ضبابية غير واضحة أمامه، تصرفات غير محسوسة من هيام كان يستغريها أحياناً، عندما تأتي سيرة طفولتها مع سجي كانت تتعثر أحياناً بالكلمات وعيناها تزوغان هنا وهناك فسأل بعفوية دون وعيه: «هل هيام كانت تعرف؟». تصلبت بين ذراعيه لتحاول التملص من جديد وقلبها ينقبض بقوة وهي تقول باختناق وغضب مكتوم: «أظنها كانت تعرف وتنكرها في نفسها لقد أنكروها علي لأجلها هي لأنها لم تتقبلني كأخت أشاركها في محبة والديها». ثم تزداد حركات جسدها انفعالاً وأنفاسها ضيقاً في صدرها وهي تتمتم كأنها تكلم نفسها: «لا أصدق أننا نتكلم بهذه السلاسة عن هيام! هل تعرف كم مرة ورد اسمها بيننا؟! لا أصدق أننا تزوجنا ورمينا كل شيء وراءنا بهذه الاستهانة الحمقاء إنه كابوس!». «من قبل!..».

وكانها صفعته! ليحرك كفيه وتلتف أصابعه حول ذراعيها عند المرفقين ليهزها هزة خشنة وهو يقول لها بعينين تتأججان غضباً: «لن أسمع لك

بوضع هيام كشبح فزاعة بيننا!».

ردت عليه بعنف مقابل: «إنها ليست شبهاً بل كانت زوجتك وابنة خالتي وأختي بالرضاعة».

صوته علا وقد جن جنون غضبه: «لا تطالبيني بمحو الماضي لكنك توقنين أن هيام أصبحت بالنسبة لي مجرد ذكرى ذكرى شهدتها أنت من البداية للنهاية أولها فقط كان حلواً وما تلاه حتى نهايته كان مرأً حنظلاً وانتهى مفجعاً وأنت الوحيدة من ساعدني لأتعامل مع هذه الذكرى وأتجاوزها».

كلاهما كان ينبض بالانفعال كلاهما يقفان على أول الطريق الذي جمعهما رغماً عن كل الظروف الغريبة والصعاب شبه المستحيلة ليجدا نفسيهما متشابكي الأقدار، قال علي وهو يعود بها لمفصل الموضوع: «هيام ليست محل نقاش لإثبات شيء بيننا ولن أسمح أن تكون سواء أكانت الخالة نبراس أمك بالرضاعة أم لا فهذا لن يغير الحقائق حول خطأ أسلوب مهادنتك لها فتشجعينها لتتمادى».

أصابعه تتقلص أكثر حول ذراعيها لكن بانفعال مختلف ليقولها حاسمة عاطفية تتفجر بالمعاني: «أنا زوجك حبيبك ويشهد الله أنك لي هكذا وأكثر رغم كل غضبي منك الأسبوعين الماضيين وأنت لا ترددين على مكالماتي وتتجاهلين رسائلي لكن حالما رأيتك اليوم لم أفكر إلا أنني متيم بك».

أفلتها فجأة وابتعد قائلاً بهمس انفعالي: «لولا أننا أمام مرأى الناس الآن
لكنت تسببت لك بصدمة حقيقية توقظك من كل شعور بالذنب».

ثم دون كلمة أخرى شغل محرك السيارة وتحرك بها ليعود للطريق وسجى
إلى جواره تحاوط جسدها المرتجف وقلبها النابض، بينما عقلها يعيد
التفكير بكل كلمة قالها علي.

كان غارقاً في أريكة جده الوثيرة وهو يفرد ذراعيه إلى الجانبين وينصف
أجفان مغلقة تنساب نظراته على جلسة سجي الأنيقة وقد دعاها الجد
لتشغل كرسي (الجدة باكية)، منذ وصولهما واستقبال الجد لهما وعلي
يلتزم الصمت ويكتفي بالاستماع، بحدس قوي نحوها يشعر أن توترها
موجود؛ لكن منظرها الجذاب الواثق ونظراتها القوية المباشرة تشوش على
حدس أي إنسان فتخفي دواخلها بطريقة طبيعية للغاية دون أن تشعر،
تُحرك طارف شعرها المجموع في ذيل حصان للخلف لتضعه فوق كتفها
بحركة عفوية لكن تقطر أنوثة لا يعلم علي من أين أتاه كل هذا الصبر دون
أن تفلت مشاعره المتأججة نحوها، تعلقت عيناه بشفتيها وهي تبتسم لجدّه
فابتلع ريقه وأغمض جفنيه وهو يتمتم في سره: «الصبر من عندك يا رب».

موجات الحر عادت لتضرب جسده وهو يوبخ نفسه ويتمنى لو يستسلم
لتعب بدنه وفكره بدلاً من أفكاره المحنومة حول (زوجته)، ابتسم بارتعاش

وترك لخياله يسبح في كل اتجاه وصوت سجي الرخيم في أذنيه وهي تتحدث مع الجد عن عملها في الجامعة، قال الجد وهو يستند بكفه وذقنه على قمة عصاه: «علي أخبرني أن كل أفراد عائلتك قضوا في حادث سيارة».

ردت سجي بخفوت يحمل بين أوتاره الرقيقة بعض الشجن: «نعم دكتور زيدون هذا صحيح فقدتهم جميعاً أمي وأبي أختي وأخي».

صَحَّح لها بصوته القوي: «نادني جدي». فتبسمت وهي تحرك يدها وتقول: «حاضر جدي».

بعينه الخضراوين كعيني علي أخذ يحدق فيها بنظرة عميقة غريبة بعض الشيء لم تكن المرة الأولى يفعلها بل تكررت خلال كلامها معه مرتين أو ثلاث وكأنه يستكشف شيئاً لا تفهمه، سألها بنبرة عادية: «ماذا كان يعمل والدك؟».

ردت سجي: «طبيباً وأستاذاً جامعياً».

فيضيق الدكتور زيدون عينيه وهو يسأل: «ما اسمه؟».

للحظة شعرت سجي بالغرابة دون سبب محدد لكنها ردت بلطف: «الدكتور جميل عبد الواحد».

ردة فعله فاجأتها وهو يقف فجأة مستنداً على عصاه لتقف سجي معه احتراماً ليقول لها وهو يحرك سبابته: «اجلسي وانتظريني». اكتفت بأن

هزت رأسها بصمت وعيناها تنتقلان ناحية علي فتراه يغط بالنوم العميق على الأريكة وهو نصف مستلقي ظهره مستند للوسائد الصغيرة وساقاه ممتدتان أمامه، عاودت الجلوس وهي ترى الجد يقف عند الزاوية حيث إحدى مكتباته ويبدأ البحث عن كتاب هناك، دقيقة واحدة وعاد إليها وهو يحمل الكتاب في يده ثم ناوله لها ليعاود الجلوس في كرسيه قائلاً: «افتحي الصفحة السادسة والأربعين ستجدين مجموعة صور انظري للصورة الثانية جهة اليمين».

كان الكتاب يتحدث عن تاريخ جامعة الطب التي تخرج فيها أبوها ثم عمل فيها أستاذاً جامعياً، الملفت أن الكتاب كان من تأليف الجد (الدكتور زيدون الوندي) فتحت الكتاب على الصفحة التي أشار إليها الجد وقلبها ينبض بترقب لشيء يخص والدها وبالفعل كان تخمينها صحيحاً أنها صورة أبيها مع زملاء له ووسطهم يقف الدكتور زيدون لم تتغير ملامحه كثيراً كي لا تتعرف عليه، نظراتها تعلقت بوجه أبيها، كان يبتسم بدفء وعيناها تشعان بالطموح والآمال، رفعت وجهها للجد وعيناها تلمعان بدموع التأثر لتقول بحنين: «إنه أبي».

رد الجد بملامحه الصارمة: «لقد كان تلميذي أنت تشبهينه ليس بالشكل إنما بحركات اليد وتعابير الوجه والجسد، الهدوء والثقة الطموح والإرادة الإيجابية العالية».

تهز رأسها والعبرة تخنقها وهي تعاود النظر لصورة أبيها تبحث عن ذاك

الشبه في صورة لا تخبرها الكثير، أضاف الجد بالنبرة الهادئة نفسها التي قد توحى بقساوة غير حقيقية: «الكتاب لك إن أحببت هناك فصل عن طلابي المميزين ومنهم والدك أصف فيه مميزاتهم وكيف استفاد كل منهم من الإمكانيات المتاحة ثم أفاد غيره في المقابل».

همست سجي بالشكر والعرفان وهي تحتضن الكتاب دون شعورها فعاود الدكتور زيدون الوقوف وهذه المرة وضح وجهته قائلاً: «هناك هدية لك هي غالية جداً علي لم أعطيها لابنتي في زواجها لكني سأعطيها لك أنت عروس علي».

غاب هذه المرة خارج الغرفة لبضع دقائق بينما سجي تقلب في الكتاب تقرأ فيه وعندما عاد كان يحمل صندوقاً خشبياً كبير الحجم رائحته ونقوشه تشي بقدمه، اقترب منها وهو يقدمه لها ويقول: «هذا فستان عرس باكية خاطته بنفسها بمساعدة أمها كانت تعترض به جداً».

أخذت سجي الصندوق ببعض الرهبة كأنها تأخذ من الجد شيئاً عزيزاً للغاية يصعب عليه مفارقتة؛ لكن الجد يطمئنها بالقول: «كنت أنتظر علي متى سيتزوج مرة أخرى لأهدي عروسه هذا الفستان الحمد لله فعلها وأنا ما زلت حياً أرزق».

فتحت سجي الصندوق لتفوح روائح عطرية خاصة بمواد حافظة للقماش ووجدت الفستان ملفوفاً بعناية بعدة طبقات من غلاف للحماية، وحالما أخرجت جزأه العلوي وقعت في غرامه، لقد خافت أن يكون فستاناً معقداً

بتطريزات وفصوص كثيرة لكنه كان أبسط من هذا بكثير، كان من قماش الدانتيل الأبيض نقوشه شديدة الرقة والتميز، ويمتد القماش للكمين الطويلين أما النصف السفلي من الفستان فكان من عدة طبقات بسيطة من قماش الأورجانزا، عيناها تلمعان وهي تقلب الفستان بنظرة محترفة والجد يراقب برضا، إنها هي من ستحافظ على قيمة الفستان وهو متأكد اللحظة من هذا، لمساتها الدقيقة المتأنية للقماش وهي تستكشفه تخبره أنها ستجيد الاعتناء بفستان الغالية باكية.

مشعث الشعر قميصه مجعد في فوضى حافي القدمين وهو يبحث عنها في أرجاء بيت جده لقد رفض جده بمشاكسة غريبة عن طباعه الجادة أن يخبره أين هي! بل اكتفى بالقول (ابحث عنها بنفسك أنا ذاهب لأخذ قيلولتي التي تأخرت).

ولم يطل علي البحث كثيراً حتى وجدها في المطبخ لم تشعر بدخوله وهي توليه ظهرها، تسمرت قدماه عند باب المطبخ وهو يراها بقلب متوله بالاشتياق تقف جوار الموقد وهي تفتح تسريحة شعرها لتحله حراً طليقاً، تقدم وعيناها لا تفارقان ذاك (الليل) المسدل وهو يعيد كلمات أم. لؤي همساً: «أمواج الفرات في ليل بهيم».

في اللحظة التي همسها كان قريباً كفاية ليميل بأنفه كي يشم تلك

الخصل الساحرة الأمواج متنهداً بلوعة، أجفلت وهي تستدير إليه بوجل قائلة بعفوية: «أفزعني! لم أشعر بخطواتك متى استيقظت؟!». «

رد وهو يحصرها بالموقد: «للتو».

تتقلص بانكماش كي لا تلامس جسده وهي تسأل أول ما خطر ببالها: «ماذا كنت تقول وأنت تدخل؟».

لم يُرحها ويمنحها مسافة فاصلة كي تسترخي ولماذا تسترخي هي بينما هو يكاد ينفجر عن عمد يوترها أكثر وهو يحصرها بمزيد من الاقتراب والمحاصرة وما زالت أحلامه وهو شبه غافٍ على الأريكة تتلاعب برأسه فيسأل بابتسامة خاصة صغيرة على شفتيه: «هل تذكرين أم لؤي؟».

ابتلعت ريقها وعيناه تتبعان عنقها لقد خلعت الوشاح كما خلعت السترة ومع هذا تبدو في قمة الأناقة والجاذبية، هل هي كذلك فعلاً أم أن الكيمياء اللعينة بينهما تتخط بعناصر التفاعل الكثيرة التي تجمعهما قالت ترد عليه وهي تحاول زحزحة جسدها جانباً: «أجل بالتأكيد كنتُ أجلس معها كثيراً».

ثم أضافت وهي تحاول التخفيف من حرارة الموقف نحو حوار آمن: «منظركما معاً كان دافئاً للغاية كأنكما تعرفان بعض كصديقين مقربين».

كانت غبية ومحاولتها لن تنطلي على علي خاصة وهو يبدو بشكله الفوضوي هذا خطيراً جداً قال بصوت مبحوح: «وأنت كنت تراقبينني بعينيك الواسعتين هاتين».

أخذ قلبها يدوي وهي تنظر إليه بضغف لتحاول مجدداً إيقاف ذاك التهور
في عينيه فتقول بما تستطيع من الجدية والحزم: «يجب أن أعد القهوة
لجدي إنه بانتظاري لنشرها سوية».

ينظر من فوق كتفها فيرى دلة القهوة هناك في الزاوية البعيدة على عين
الموقد الصغيرة فيقول بلؤم خبيث: «جذك نام».

اتسعت عيناها وارتفع حاجباها وهي تتمتم: «نام؟!».

رد وهو يمد كفه ليستند إلى حافة الموقد خلفها قائلاً: «موعد قيلولته
مقدس للغاية في تمام الثالثة ولقد أخره لأجل عينيك فقط كي لا يتركك
وحيدة وأنا أغط في النوم على الأريكة».

تشمخ بذقنها في محاولة لذيذة لإيقاف هجومه المبطن ثم تقول بلؤم
يعادل لؤمه: «خسارة! سأشرب قهوتي بمفردي وأنا أنتظر الجد يصحو فأنت
لا تحب القهوة العربية».

التمعت عيناها بقوة وهو يسألها بصوت مبحوح متفاجئ: «كيف تعرفين
أني لا أحب القهوة العربية؟!».

ارتبكت للحظة ثم تماكنت نفسها لترد بنبرة عادية: «أعرف فقط».

احمرار وجهها فضحها من يحب أحداً يعرف ببساطة ما يحب وما لا يحب
كانت حالة قلبه لا توصف وجسده يتفاعل على نحو تعذبي، صدمها وهو
يلصق جسده بجسدها فتشبهق مرتعدة من هجومه، بينما هو يقترب بوجهه

منها قائلاً بهمس حار ودعوة صريحة: «ما رأيك أن نأخذ قيلولة نجن أيضاً؟
لي غرفتي هنا سريرها واسع وسيكفينا نحن الاثنين معاً».

نبض قلبها يكاد يصرم أذنيها وهي ترفع كفيها لتصدّه، بينما تدير وجهها
جانبا قائلة بارتجاف: «توقف علي ابتعد من فضلك». يضحك برعشة ثم
يهمس ببراءة مصطنعة: «إنها فقط قيلولة.. لا تفهميني».

توقف قليلاً وهو يقترب بفمه من جانب فمها مكملًا جملته بعث:
«صح».

هذه المرة كانت تدفعه بقوة في صدره وتنظر إليه مباشرة في تحد أن
يتجاوز معها: «يبدو أنك تحتاج لقهوة جدك المرة كي تصحو أم ربما يجب
أن أناديه هو شخصياً كي يصفعك على وجهك ويوقظك».

ينفجر علي ضاحكاً لكنه لا يبتعد عنها رغم محاولاتها المستمرة لدفعه
ليقول أخيراً بصدق: «أنا سعيد بانسجامك مع جدي لا أحد ينسجم معه أو
يفهمه بسهولة؛ لكن يبدو أن لديك قدرة لتليين الجبال».

ردت بصدق هي الأخرى: «بل هو حقاً رجل مميز مثقف وصاحب
نظرة ثاقبة».

رد يشغلها بالكلام وهو يرفع كفه خفية كي يلامس خصرها: «سعيد
للصدفة التي جعلته على صلة مع والدك».

وقد استطاع شغلها بالفعل ليشعر بجسدها الأنثوي يسترخي وهي ترد

عليه: «وأنا أيضاً شعرت وكأنني أشم رائحة أبي».

سألها وحرارته ترتفع: «هل أعجبك ثوب عرس جدتي باكية؟».

عقدت حاجبيها باستغراب وهي تتساءل: «إذن لم تكن نائماً وكنت تسمع كل كلامنا؟!». رد وعينه تشاغبان بالنظرات كصبي شقي: «لنقل كنت على وشك الاستسلام للنوم».

تتسع ابتسامته وهي تفكر بالفستان قائلة: «إنه فستان رائع وموضته ملائمة الآن يحتاج لتضييظ بسيط وسيكون مذهلاً».

سألها بجدية وكفه تتحرك بارتعاش على طول خصرها: «هل أنت متأكدة؟ لست مجبرة لارتدائه كنت اتفقت مع عمي رياض أن تشتري فستاناً غداً».

قالت بحماسة: «لا لن ألبس إلا فستان الجدة باكية سترى ما سأفعله خلال يومين، فقط إنه يحتاج بالبداية لتنظيف خاص ثم سألغي ال...». كان الصبر مستحيلاً وشفثاها تتحركان هكذا! كل كلماتها ضاعت في قبلته كل مقاومتها ذابت في احتضانه العاطفي. العنيف، كان مهاجماً عاطفياً من الدرجة الأولى وجوع رهيب يسعى لنيل ما يسده.

لم تعد سجي تشعر بما حولها وهي وسط هذه العاصفة الصادمة بريئة للغاية تكاد لا تستجيب لشفتيه وفي الوقت ذاته ذائبة منهارة أمام ما يحصل لها القهوة فارت واطفأت النار وعلي يكاد يحترق في أتون ما يشعره اللحظة معها، هي لحظة فاصلة في حياة أي إنسان عندما يصل لمرحلة

نضوج خاص بعد تجارب تشبعه ألماً، لتأتي قطرة مطر فتكون كشلال هادر يغسله من الداخل ويشير فيه أحاسيس جديدة غير مسبقة، عندما ابتعد كان يلهث بجنون ليقول بخشونة بين لهائه: «أنت من سترين ما سأفعله بك (بعد) يومين».

ترتجف ولا تعرف ما تقول أمام كلماته الجريئة، كانت للتو فقط استطاعت أن تتوازن بعد حديثها الطويل مع الجد زيدون، شعرت خلالها أن ما فعلته اليوم هو الصحيح وكأن والدها أرسل لها رسالة ليبارك خطواتها وما أقدمت عليه؛ لكن علي يصددها بمشاعره ولا تعرف كيف تتعامل معه، يميل بفمه نحو عنقها وأنفاسه المتسارعة تسبقه حتى لمست شفتاه عرقها النابض فتسري رعدة ثائرة جائعة في جسده ليهمس بزمجرة عاطفية: «دعينا نذهب لغرفتي أريد الانفراد بك أعدك بشرفي لن أفعل ما ترفضينه».

تهز رأسها رفضاً وهي لا تستطيع النظر إليه فقط تهمس: «لا علي».

يحاول مجدداً وهو يوشك أن يفقد سيطرته تماماً: «أعدك لن أتجاوز».

لكنها رفضت وهي ترتجف بقوة: «لا لهذا لن يكون».

زفر بقوة ثم أبعد نفسه بعنف عنها وهو يقول بخشونة أشد: «إذن حضري القهوة المرة ريثما أغتسل وأصلي».

كانت ما زالت ترتجف وهو يبتعد بحالته الفوضوية نحو باب المطبخ، بينما تهمس هي بغباء: «لكنك لا تحب القهوة».

فينظر نحوها مغتاضاً ثم قال بالخشونة نفسها: «مضطر لتحمل مرارتها كي أصحو!».

ثم تحرك شبه مترنح وهو يضيف أخيراً كأنه يكلم نفسه: «سنخرج بعدها لسوق المدينة جدي لن يصحو قبل ساعة ويقائي معك لوحدا بين أربعة جدران لا يطاق».

قراية الحادية عشرة كان علي يركن سيارته قريباً من بوابة دار العم رياض، أطفأ المحرك وهو يرخي رأسه للخلف ينظر إلى سجي التي تحتضن صندوق جدته في حجرها بينما تتطلع للدار بنظرة عميقة، يمد يده ليقبض على بعض الخصل من شعرها ويميل ليلثمه يتشمم فيه وهو يسألها: «هل أنت مستعدة؟».

ردت دون أن تلتفت إليه ولم تشعر حتى بما يفعله: «أجل مستعدة».

ترك شعرها ينساب من بين أصابعه. وهو يراها ما زالت تحديق بالنظرة نفسها فيقول بجدية يعنيها: «لو كان نزولي معك س...». قاطعته وهي تلتفت إليه أخيراً: «لا علي إن رأتك سيزداد الوضع سوءاً».

نظرا لبعض مطولاً فشعر بالغضب لأنها تواجه هذا وحدها ولا يستطيع فعل شيء قال بضيق: «ليتك بقيت مع جدي حتى موعد الزفاف».

ردت وهي تطرق تنظر للصندوق: «أنت تعرف أن هذا غير ممكن. وغير

لائق أيضاً كما أنني لن أخذل عمي رياض لقد تحمل الجزء الأصعب ويجب أن أتحمّل معه أيضاً».

يمد يده ليحاطط كفها فوق الصندوق مشدداً عليها: «كلميني أرجوك قبل أن تنامي».

تمت: «حاضر».

ثم حركت يدها كي تفتح الباب لتتوقف لحظة وتلتفت إليه قائلة بصدق رقيق وامتنان صادر من القلب: «أريد أن أقول لك شكراً لما فعلته لأجلي اليوم».

يرفع يده إلى خدها فتتكلمش حياء عفويّاً للمسته لكنه لم يبعد يده بل ظل يلامس خدها حتى لامس إبهامه شفيتها ليهمس بحرقة: «وأنا أقول شكراً لما فعلته بي اليوم!».

تبتسم بارتعاش والخجل يغمرها ليضيف علي المزيد واللهفة تقتله: «سأمت لتقبيل شفتيك اللحظة».

ابتعدت سريعاً وهي تراه يتهور مقترباً منها لتفتح الباب وتهرب منه وهو يتنهد لوعة.

بعد لحظات ساعدها لتحمل أكياسها بنفسها ورفضت أن يحملها عنها حتى البوابة، ودعته وهي تظهر الشجاعة والصمود، بينما يقف علي مكانه يراقب عن بعد اختفائها خلف البوابة بعجز يغضبه تتم وهو يعود لمقعد

السائق: «ثلاثة أيام بل يومان فقط يا سجي اصمدي وبعدها لن أسمح لمخلوق أن يمسك».

من البوابة وعبر الباحة الأمامية وحتى باب المطبخ كانت تسير سجي بخطوات ثابتة، ربما في داخلها تشعر بهيبة الموقف وما ينتظرها لكنها وبعد هذا اليوم الطويل الذي قضته مع علي وجده شعرت بالقدرة على التعامل مع أي موقف، عمها رياض بالمقابل اتصل بها عصباً وكان صوته مريحاً وعندما حاولت سؤاله عن حالة الخالة نبراس أخبرها ألا تفكر في أي شيء إلا زفافها المرتقب وحياتها الجديدة، دعمه يعني لها الكثير ومنحها الكثير، لقد أشعرها معنى أن يكون لها أب يسندها، ابتسمت عفواً وهي تصل إلى باب المطبخ لترى أمامها العم رياض يفتحها لها وهو يهمس بابتسامة متآمرة: «كنت بانتظارك بنيتي تعالي ادخلي بهدوء».

كان يرتدي جلبابه لكن شكله ما زال مختلفاً بعد أن حلق لحيته وابتسامة التآمر تليق بهيئته الجديدة، أخذ منها الأكياس وعينا سجي تدوران في المكان الهادئ بتوجس فيشير لها العم رياض قائلاً بخفوت: «هيا نصعد كي نتكلم قليلاً في غرفة الصلاة».

لحقت به واتبعت خطواته الحذرة لتفعل مثله وهي تكاد تضحك، تسلقا درجات السلم بالحذر نفسه فلم يصدر صوتاً حتى الطابق العلوي حيث

رافقها لغرفتها كي تضع أغراضها هناك ثم أشار لها كي تتبعه إلى
غرفة الصلاة.

في الطابق السفلي في غرفتها ترقد نبراس ودموعها تنسكب بصمت لقد
شعرت بعودة سجي شعرت بانتظار رياض لها، لقد انتهى الأمر وسجي
سرقته علي، تمتعت لنفسها وهي تغلق عينيها بالدموع المناسبة: «سرقته
أم لم تسرقه ما الذي سيفرق الآن؟! إن لم تكن سجي ستكون غيرها وماذا
يهم؟! هيام ماتت يا نبراس ماتت وواراها التراب مات شبابها ونبضها... آه يا
ابنتي آه يا قطعة من روحي».

قال لها وهي تطوي ساقها: تحتها لتجلس أمامه قريباً من سجادة الصلاة:
«لقد عدت وأنت تحملين الكثير».

ردت وهي تتورد رغباً عنها: «علي اشترى الكثير ولم يستمع إلي أن لا
داع لكل هذا».

ثم أضافت بفرحة خاصة وحماسة مختلفة: «الجد زيدون كان أستاذ أبي
في الجامعة هل تصدق المصادفة؟».

ظهرت الدهشة على وجه العم رياض وهو يتمتم: «سبحان الله نحن لم
نلتق إلا مرتين بالجد دوماً كان منقطعاً في بلدته بالشمال».

علقت سجي بمزيد من الفرح: «لقد منحني ثوب زفاف الجدة زوجته
باكية رحمها الله».

لم يكن رياض يظن أنها ستعود بهذه الفرحة التي تطل من عينيها، للمرة
الأولى يراها كفتاة مجرد فتاة شابة تستعد لزواجها انعصر قلبه لأجلها فهي
ترضى بالقليل وتسعد نفسها بأقل من القليل لا تحمل أحداً همها، غيرها من
الفتيات لكانت بكت ليل نهار لأنها لا تحظى بعرس ولا بجهاز عروس ولا
استمتعت بأي من هذه التفاصيل التي ستبقى معها لآخر حياتها، استغفر الله
في سره متمتماً: «نحمدك يا رب وشاكرين فضلك المهم أن يكتمل الأمر
على خير».

قال أخيراً رداً على كلامها: «إنه رجل طيب لكن هل أعجبك الفستان
حقيقة أم خجلت من رفضه؟».

ردت بحماسة: «لا على العكس إنه رائع ومميز ويناسب موضحة العصر
الآن، سأجري عليه بعض التعديلات وسيكون رائعاً».

يبتسم لها قائلاً بحنان: «سعيد لحماستك هذه يا ابنتي وسعيد أكثر لأنك
ستشغلين الأيام القليلة المقبلة».

قال جملته الأخيرة بنبرة خاصة فاضمحت ابتسامتها لتعود إلى هيئة
(سجي) التي يعرفها سجي، التي تحمل المسؤوليات وهي تظهر القوة
والقدرة وكثير من الصبر قالت بهدوء وواقعية: «ألن تخبرني عن خالتي؟».

رد بتخفيف للأمر: «لم تفعل شيئاً غير المتوقع صرخت وغضبت وثار
وكالت الاتهامات ثم سكنت وخاصمتني».

صمتت سجي ولم تعرف ما تقول ليوصيها العم رياض بالقول: «أريدك أن
تظلي بغرفتك وأنا لن أتركك بمفردك معها خلال هذين اليومين حتى يحل
يوم زفافك على خير إن شاء الله».

ما زالت صامته بينما العم يضيف بتشديد: «اشغلي نفسك بتعديل ثوب
العرس ولملمي ملابسك وحاجياتك ورتبي أغراضك في صناديق ويوم
الخميس صباحاً سننقل كل شيء بهدوء إلى بيتك».

لم ترد بكلمة بينما تسرح نظراتها بعيداً فنادها رياض قائلاً بحزم: «سجي
أريدك قوية أريدك أن تمسكي بسعادتك بين يديك بقوة ولا تفرطي بها أنا
والدك وأقول لك افعلي هذا واجعليني فخوراً».

ثم مد كفه ليمسك وجهها ويجر رأسها إليه كي يقبل جبينها قائلاً
بحشجة: «ستكونين أجمل عروس وأسعد البنات عديني بهذا يا ابنتي إنه
الشيء الوحيد الذي أطلبه منك أن تكوني سعيدة وترمي الماضي خلف
ظهرك». تمتت سجي وهي تميل برأسها إلى صدره: «أعدك».

اليوم التالي السابعة صباحاً

سارع عمر لإغلاق باب المطبخ عندما تفاقت حالة نونة وأخذت تبكي

بصوت مسموع في حضن عامر، يقبل عامر رأسها وهو يدللها بالقول الخافت: «لا تبكي هكذا بالله عليك فذاك ألف فستان».

لكن نورجان تقول بين شهقات البكاء: «أنا لست غيورة ولا حقودة».

يقترّب عمر وهو يقول بخفوت أيضاً: «مؤكد لست غيورة ولا حقودة! أنت فقط حزّ في نفسك ما فعله جدي مع سجي ولم يفعله معك».

ما إن قالها حتى تغالى نحيب نونة وولداها يشعران بالعجز أمام انهيارها العاطفي هذا،

كانا يحاولان جاهدين لاحتواء حالتها العاطفية ولحسن الحظ أن علي غارق بالنوم فلم يشعر بما يجري في الطابق السفلي، فجأة فتح الباب ليدخل سليم بملابس البيت كولديه فيرى المشهد أمامه ويستعجب متسائلاً: «ماذا حصل؟!».

فرد عمر وهو يغمز لأبيه خفية: «نونة فقط منزعة من تصرف جدي لكنها ستهدأ الآن حالما أعد لها شراب الأعشاب».

زفر سليم نفساً وهو يقول: «بالله عليك سيطري على نفسك يا نورجان وعلى هورموناتك لدينا شهر مزدحم ويحتاج لكثير من الطاقة ثم إنه مجرد فستان!».

هتفت به نورجان بعصية وهي تدفع عامر عنها: «إنه فستان عرس أمي وليس أي فستان! واذهب لأمك يا سليم ودعني مع أولادي وهورموناتني».

يهز سليم رأسه ثم يقول قبل أن يترك المطبخ: «فقط فكري بفرحة علي وسترين عندها أن الفستان لا قيمة له».

وبدلاً من أن يجعلها هذا تتماسك انهارت في بكاء انفعالي جديد في حضن عامر، بينما عمر يحث الخطى لإحدى الخزانات كي يبحث عن شراب الأعشاب الذي تتناوله والدته مؤخراً لتخفيف حدة التغيرات الحاصلة في الهورمونات، بينما غادر سليم تاركاً المهمة لولديه مغلقاً باب المطبخ خلفه. أخذ عامر يمسد على رأس أمه وهو يقول بحنان: «اهدئي نونة فكري بالأمر أن الجد يحاول منح الفستان إليك بطريقة غير مباشرة».

فأيده عمر قائلاً: «بالضبط، جدي لم يكن راضياً عند زواجك بأبي أليس كذلك؟ الآن أصبحت علاقتنا أفضل به ولذلك يريد تعويضك».

أخذت نورجان تهذاً قليلاً ويخفت بكاؤها ليقول عامر هذه المرة وكأنه هو وعمر يكملان أفكار بعض: «ونحن للأسف ليس لدينا أخوات بنات ولذلك منح الفستان لعروس ولدك الأكبر».

استرخت على صدر عامر بينما كان عمر يحضر الكوب لها، لفت ذراعيها حول رقبة ولدها وهي تهمس: «كان يجب أن يعرض الأمر عليكم جميعاً فأنت وعمر خطبتما قبل أن يفعلها علي».

رد عامر مداعباً: «بالنسبة لي (لا شكراً) فستان حرير تخصصي أنا وحدي كل ما ستلبسه في ليلة عرسنا أنا أختاره هذا شرطي معها».

فجأة حركت كفها في قبضة لتضرب على صدر عامر وتقول له بغيط
أمومي غيور: «توقف عن إظهار تعلقك بحريز بهذا الشكل أمامي».

يضحك عامر وهو ينحني ليقبل خدها بينما تعاود نونة الانهيار في البكاء
من جديد لأسباب جديدة: «يا إلهي كلكم ستتركوني دفعة واحدة!».

تقدم عمر وهو يحمل الكوب بينما يشعر هو وعامر بالإشفاق على حالة
أمهما قال عامر بتعاطف كامل: «لم أكن أظن أن النساء يعانين كل هذا
الضغط في أمور خارجة عن سيطرتهم».

احتضنها وأخوه عمر يقف جوارهما حاملاً الكوب بانتظار أن تهدأ نونة
قليلاً حتى تستطيع الشرب ثم فجأة لمح عمر من شباك المطبخ بمن يقف
على البوابة قبل أن يرن الجرس، رفع عامر نظراته مستغرباً من القادم في
هذه الساعة المبكرة ليقول عمر: «هذه حريز يا عامر».

أغلق عامر باب غرفة الضيوف بعد أن أدخل حريز إليها ليتكلما على
انفراد، رغم شوقه الجارف إليها فإنه صمد أمام هذا الشوق ليلتزم الصمت
وهو يقف قبالتها على بعد متر واحد بانتظار أن تتكلم هي، عيناه تنظران
إليها بتمهل وتدقيق فيرى ارتباكها وهي تقف وسط غرفة الضيوف أمامه
تبعثر نظراتها في عدة اتجاهات يدها ترتفع بين لحظة وأخرى تلامس خصل
شعرها المحلول وكأنها تتأكد منه! (بداية قلق) أخذت تتسلل إليه وتدخل

صموده أمامها كان يجب أن يصمد، ليس فقط لأنه يريد أن تشرکه فيما يحصل مع عائلتها وأن تعطيه دوره كـ(زوج) لكن لأنه حقاً غاضب منها قلبه العاشق يخاصمها ويعتبر نأيها عنه قسوة وجفوة، تكتف وهو ينتظر فتدحذت ثم سألت: «هل خالتي بخير؟ بدت وكأنها كانت منزعة أو باكية».

رد ببرود متعمد: «مجرد هورمونات وغيره نسائية لا شيء مهم أو جاد». أوشك أن يصرخ فيها كي تتكلم بدلاً من التأرجح والسؤال عن أمور جانبية، ما زالت نظراتها لا تستقر وهي تتمتم: «آسفة لأنني حضرت باكراً كنت مارة من هنا و...». قاطعها بحزم وهو يتقدم خطوة نحوها: «حرير لماذا أتيت إلي؟».

عندها فقط نظرت إليه مباشرة وبعينها الناعستين المتوسلتين الرقيقتين كانت تحطم جدار صموده وهي تهمس: «سامحني عامر أنا». تقدم خطوة أخرى حتى تماس جسداهما ليطلب بهمسة خشنة غاضبة: «صالحيني». همست وهي تنظر إليه بحيرة: «ماذا؟!».

قالها بقوة هذه المرة وعيناه تطالبان بها: «صالحيني لأنك أتيت لأجل هذا ولا تعرفين كيف تفعليها! صالحيني كما علمتك تصالحين خلدون هل تذكرين؟ وبعدها سنتكلم في أمور أخرى أكثر أهمية وجدية».

هذه المرة توترت وبدت مترددة وكأنها لم تحضن أحداً من قبل! ابتلعت

ريقها وبجسدها المتوتر مالت إليه وهي ترفع ذراعيها ببطء وتشنّج فتحاوّل
جذعه للحظة واحدة قبل أن تبتعد ووجهها يحمر خجلاً، ينظر إليها ولا
يصدق إلى أي درجة هي خائفة وغير واثقة مما يجب أن تعطيه له، ورغماً
عنه يتساءل عما كانت عليه طبيعة علاقتها بـ(زوجها السابق)!

يؤلمه التفكير في هذا كأنه يلقي بنفسه في أتون نار مشتعلة؛ لكنه لا
يستطيع تجاهل الأمر ذاكرته تعيده إلى ذاك اليوم عندما أعطّاها فحوص
الآبوة وكلمته عبر الهاتف ودخل عليها أبوها ثائراً في وجهها، أجل يتذكر
كلمات حرير بوضوح كل ما قالت له لأبيها وهو تواجهه

(«منذ طلاقنا وأنت تتحين الفرص لإثبات ذلك أليس كذلك أبي شعور
الذنب يقتلك وبدلاً من أن تعترف أنك ارتكبت خطأً بإجباري على الزواج من
نوفل كما ارتكبته أنا بموافقتي عليه بدلاً من أن تحاول دعمي وتعويضي
عن ضياع أجمل سنوات شبابي التي خسرتها في زواج فاشل فاتر مبتور
انتهى بقلة أصل نوفل وأهله معي، بدلاً من أن تحاول سؤالي كيف عشت
ست سنوات محرومة من نعمة الأطفال فلم تسألني يوماً كيف شعرت وكيف
صبرت وسكت بدلاً من كل هذا فكل ما تريده أن ترفع عن نفسك ثقل
الإحساس بالذنب!«).

جملة علقت معه أكثر من غيرها فأخذ يرددها في سره وهو ينظر
لاضطرابها المتفاقم أمامه الآن (زواج فاشل فاتر مبتور)، دوماً والده مدح
فيه قوة أعصابه، كان يقول له إن علياً يفقد نفسه في الغضب ويحتاج

مجهوداً ليجيد إحكام السيطرة، أما هو عامر فكان يغضب بمزاجه ربما يتشاجر بعنف وتهور لكن عقله حاضر وواع لما يحصل.

رفع يده إلى خدها فتغمض حرير عينيها وهي تتنهد براحة كأنه رفع عن كاهلها همّاً كبيراً قال بصوت هادئ ثابت: «إن كان خلدون رضي بهذا (الصلح) الفاتر فهو أحمق أو ربما تظنين أنا الأحمق لأصدق».

فتحت عينيها لتطل منهما شعلة صغيرة من الثقة فيبثها عامر المزيد وهو يشجعها بصوت مبحوح: «كوني أمينة وصالحيني كما صالحته أنا واثق من وجود تفاصيل دافئة أخرى حجبته عني».

كانت شاحبة قليلاً عند دخولها الآن بدت بشرتها متوردة قليلاً أو ربما متوهجة بالعاطفة، خفق قلبه وهو ينتظر لتهمس له: «أعطني أذنك».

ترتعش ابتسامته وهو يتساءل: «هل ستبوحين إليّ بسر؟».

لم ترد وهي تنظر إليه تناشده بصمت أن يعينها فيميل إليها وهو يدير وجهه ليعطيها أذنه اليسرى فعلاً ثم نبض قلبه عندما شعر بشفتيها تلامسان أذنه في دغدغة حلوة ثم تهمس إليه: «كنت أوقظه وهو طفل بملامسة أذنه وهو نائم هكذا ففعلتها في ذلك اليوم معه وأنا أزعج نومه».

رفعت كفيها لتستندا على كتفيه وهو يدير وجهه إليها بانتظار المزيد منها لتقول بهمس أنشوي أكثر ثقة: «وحالما فتح عينيهِ ورآني ضممته إليّ هكذا».

هذه المرة كانت تحضنه بكليتها وتزيد في احتضانه في ثقة ورغبة وحرارة تتصاعد، ارتجف جسده بأكمله وهو يشعر بفمها تدسه في عنقه تقبل بشرته هناك ثم تهمس بنعومة الحبر: «أنا آسفة».

همس بعنف وهو يلف ذراعيه حول جسدها النحيل: «نصر الله من علمك المصالحة هكذا».

ذراعاه ضمتها بعنف عاطفي كما اعتاد أن يفعل دوماً معها عندما تفاجأ بـ(آهة) متوجعة بشكل مبالغ فيه صدرت منها، تجمدت ذراعاه وهو يشعر بجسدها النحيل منكش في توتر شديد كأنها تتألم!

همس اسمها بقلق «حبر ما بك؟!».

مضت لحظات وهي تغمر وجهها في عنقه حتى شعر ببعض البلب هناك!

أبعدها عنه ولم تستطع حبر تفادي الأمر لقد كانت تتوجع، بدا عامر متفاجئاً للغاية وهو ينظر لشحوب الألم وبعض الدموع التي سالت على خديها دون إرادة منها سألها قلقاً محتاراً: «هل تتوجعين من شيء؟!».

كفاه ضغطتا ظهرها بعفوية فأطلقت صرخة وجع مكتوم فأتسعت عينا عامر ليقول بالحيرة نفسها: «هل ظهرك يؤلمك؟! دعيني أراه و..».

برفض غريزي قالت حبر بوجل: «لا».

يعقد حاجبيه وهو ينظر إليها بضع حبات عرق بدأت تتجمع على جبينها

لكنها عادت لتتجنب النظر إليه، عندها قال بقرار صارم: «ارفعي بلوزتك من الخلف حرير أريد رؤية ظهرك».

حاولت أن تبعد ذراعيه وهي تقول بتهرب واضح: «لا عامر لا داعٍ إنه إنه وجع ظهر عادي».

لكنه أصر بعناد: «أنت تكذبين علي وسأعرف ما أريد فاختاري إما أن تريني ظهرك بنفسك أو أنني سأفعلها بنفسي».

يحدقان ببعض لتهمس حرير بصدق هذه المرة: «إنها مجرد كدمة».

يهز رأسه رفضاً وهو يعاود الإصرار: «أنا قلت أريني ظهرك لا أن تصفي لي، دعيني أقرر».

عضت شفتيها ثم أطرقت وهي تستدير لتوليه ظهرها ودون شرح كان هو من يرفع طارف بلوزتها ويرى حجم الكدمة الرهيبة ليتمتم بشحنة غضب مستعر: «ربااه!».

الفصل الثالث والعشرون

يده التي تمسك طarf البلوزة البيضاء ترتجف غضباً وعيناه تقدحان شرراً وهما تحدقان بظهرها الذي يوازي بياض بلوزتها وقد تشوه صفاء الناصع برقعة ازرقاق واسعة في المنتصف، أفاق من حمم الغضب على ارتجاف جسدها فيرفع عينيه إلى رأسها ينظر لشعرها المحلول ويسأل بخفوت متشنج: «من فعل بك هذا؟!». .

همست وهي ما زالت تحاول المراوغة بالإجابة وإخفاء الأمور: «لا أحد مجرد حادث عرضي». .

أدارها بثبات لينظر مباشرة إلى وجهها ويسأل بتصلب: «هل هو والدك أم خلدون؟ من تهجم عليك وتسبب لك بهذا؟! قولي حريـر». .

نظرت إلى عينيه فأدركت أن عليها التوضيح قبل أن يسيء فهم الموقف لتهمس بجزع وتعب: «ليس كما تظن لم يتهجم علي أحد لقد.. لقد..». .

تعثرت كلماتها وهو ما زال ينتظر لتسيطر على نفسها وتكمل بصدق والدموع تتجمع في عينيها متذكرة ما حصل بالأمس: «لقد تشاجرا بشكل عنيف أقصد أبي وخلدون بينما كنت أنا وأمي نحاول الفكك بينهما تشاجرا رجلاً لرجل، ندأ لند». .

قالتها وهي تشهق بالبكاء وترمي نفسها على صدره كأنها تحتتمي به من شعور الألم لما يحصل لعائلتها، أما عامر فقد بدا مذهولاً فلم يتصور أن

يصل الأمر لهذه الدرجة يدس أصابع يده بخشونة بين خصل شعرها ليضم رأسها أكثر إلى صدره وهو يتمتم: «يا الله لكن لماذا؟! كيف وصلا لهذه المرحلة؟!». «

لم تعد تريد أو تستطيع كتم الأمور عنه أكثر فأخرجت كل ما في صدرها قائلة بحرقة: «خلدون لم يحتمل ما قاله أبي عني جن جنونه وقد كان شديد التوتر مثلنا جميعا في البيت منذ أيام». «

رفعت وجهها إليه وقد بدت مشتتة مرهقة من حملها ومحتارة تائهة في الوقت ذاته لتضيف وعيناها الناعستان تطلبان منه التفهم والمسامحة: «لهذا لم أكن أريدك أن تأتي ولم أكن أستطع الخروج معك وأترك عائلتي بهذا الوضع، سدير وخلدون لا يجيدان التصرف وأمي أبسط من أن تتعامل مع الموقف الذي نحن فيه». «

أصابع يده اليمنى ما زالت بين طيات شعرها ليرفع يده اليسرى ويمسح دموعها يستمع إليها ويتفكر إما حرير وكأنها وجدت متنفساً أخيراً لتبوح بكل شيء ولو بجمال غير مترابطة تماماً فتقول لعامر بأسى: «أذهب للمدرسة وأنا أتصل بأمي بين الحصة لتأكد أنها بخير، أعود للبيت أكاد أهرول بين طرقات الحي كي أصل وعندما أدخل يكون قلبي مقبوضاً بانتظار الأسوأ لم أعد أحتمل عامر البارحة وسط الشجار العنيف بين أبي وخلدون شعرت وكأنني سأصاب بنوبة قلبية كان عراكاً رهيباً رهيباً». «

قالتها وهي تعاود البكاء فوق صدره ليتحرك بها عامر ويجلسها على الأريكة، بينما حرير تعتصر جفنيها في توجع وهي تضع يدها على ظهرها قال لها وهو يميل لشفتيها في قبلة خاطفة: «سأعود إليك دقائق فقط أجلب لك مرهماً يريحك وبعدها سنتكلم أكثر في كل شيء».

لكنها أخذت تمسح دموعها وتقول: «لا أستطيع المكوث أكثر لقد تأخرت على المدرسة والمديرة لن تتسامح معي وقد تغيبت بالأمس».

تغاضى عن كتمانها أمر تغييبها بالأمس دون أن تخبره ليقول وهو يتحرك ناحية باب غرفة الضيوف: «انسي المديرة.. أنا سأصرف». نادته وهي ما زالت تضع يدها على ظهرها: «عامر صدقني لا ينفع تغيبي اليوم».

قبل أن يفتح الباب قال بحزم: «لن تذهبي للمدرسة وأنت بهذه الحالة ليس ظهرك وحسب بل وجهك محمر بشدة وأثار البكاء واضحة على جفنيك المتورمين».

عفواً رفعت يدها لعينيها فتهمس بحيرة: «ماذا أفعل يا ربي!».

لم يرد عليها وهو يفتح الباب متمتماً: «سأعود حالاً».

نادته توصيه بحشجة خجل: «عامر لا تخبر عائلتك أرجوك لا أريد تشويه صورة أبي أمامهم ولا عائلتي».

هز رأسه مطمئناً إياها بالقول: «لا تفكري في هذا أنا أقول فقط ما هو ضروري، حاولي أن تسترخي ربثما أعود».

ثم خرج وأغلق الباب خلفه.

بعد دقائق كما وعد عاد عامر إليها وهو يحمل المرهم الذي تحدث عنه وفي يده الأخرى كوب شراب ساخن، كانت لا تزال على جلستها المتوترة على الأريكة وهو يتقدم منها بابتسامته الخلافة ليجلس جوارها وهو يضع الكوب على الطاولة القريبة ثم يميل ليرفع يده ويبعد بضع خصل من شعرها للوراء فانكملت برفض غريزي، حركتها هذه جعلته ينظر مباشرة إلى جانب وجهها الذي كان مخفياً بشعرها فرأى الأثر الخفيف هناك ليبتلع غضبه التلقائي وهو يهمس: «هل هذا من أثر الشجار أيضاً؟».

اكتفت حريز بأن هزت رأسها بـ(نعم) قال بثبات انفعالي: «لا بأس سنتصرف في هذا لاحقاً الآن دعيني أعطني بك».

ثم أضاف ببساطة: «أديري ظهرك إليّ وأنا سأرفع بلوزتك فقط أريدك أن تمسكيها من فوق كتفك كي لا تتلوث وأنا أدهن المنطقة».

فعلت ما طلب وهي تشعر بالخزي من الموقف برمته وكأنه شعر بما ينتابها فأرادها أن تتجاوزه وحالما رفع بلوزتها وأمسكتها هي من فوق كتفها مال إليه بفمه وبلهفة عشق حقيقية كان يطبع قبلات عاطفية متفرقة وهو يهمس بحرارة: «سلم لي هذا البياض الحلو الحريري».

همست بتأثر فوري: «عامراً».

ثم أغمضت عينيها وهي تشعر بأصابعه تمر على طول ظهرها قائلاً
بصوت مبحوح: «دعي عامر في حاله اللحظة».

ثم يميل لأذنها من الخلف هامساً بمداعبة جريئة: «دوماً أحببت أن أمرغ
وجهي بالحرير منذ طفولتي وأنا مهووس به وموعد بك».

التفتت إليه بوجه محمر ما بين إثارة وخجل لتهمس بتوبيخ: «إن لم تضع
المرهم الآن وتتوقف عن هذا الكلام سأغادر».

يقبل خدها ضاحكاً بينما تشعر ببعض الاسترخاء يدب في جسدها
لتستسلم لاسترخاء أكبر ويد عامر تدهن ظهرها برفق ولطف شديد، عندما
انتهى طبع قبله أخيرة فوق أعلى ظهرها ثم أنزل بلوزتها وهو يضع المرهم
جانباً ويقول: «اشربي الشاي بينما أغسل يدي من أثر المرهم وعندما
تستريحين قليلاً سنخرج لنفطر في مطعم ما سنقضي النهار معاً».

وقف على قدميه وحرير تقول له ببعض التوتر: «لكن لا أستطيع الغياب
عن عائلتي». نظر إليها ليقول بهدوء ومنطقية: «لكنك كنت ذاهبة للعمل
وكنت ستغيبين طيلة النهار». ردت وشعور الذنب يتجلى على محياها وتعبر
عنه كلماتها صراحة: «الأمر مختلف أشعر بالذنب إذا استمتعت أنا وتركت
أمي و...».

قاطعها وهو يمد يده ليمسك ذقنها بين أصابعه قائلاً بأسلوب مقنع
عملي: «حرير لا تحرمي نفسك من أي لحظة سعادة أنت تحتاجين للطاقة

وإلا لن تستطيعي الصمود». ينظران لبعض فيبتسم في وجهها مضيفاً بصوت مبحوح عابث مداعب: «اعتبريني مصدر طاقتك الذي لا ينضب وعلى أهبة الاستعداد لإمدادك بالكثير جربي ولن تندمي خدماتنا متواصلة طوال أيام الأسبوع أربع وعشرون ساعة باليوم ولدينا خدمة التوصيل للمنازل حتى سرير غرفتك».

على الرغم من أنها كانت مزحة شقية فإنها ردت باعتراف عاطفي جدي: «دوماً كنت لي هكذا مصدر طاقة حتى وأنا أدفعك وأرفضك كان وجودك يمدني بإحساس أجهله كأنك تبعث بي الحياة كما لم أحيها مع أحد من قبل».

ابتلع ريقه وهو ينظر لعينيها ثم أفلت ذقنها وهو يتمتم: «سأغسل يدي وأعود إليك كي نتكلم».

عندما عاد ثانية وجدها ترتشف من الكوب وحالما رآته ابتسمت قائلة بامتنان: «أنا أشعر ببعض التحسن في ظهري شكراً لك».

تقدم ليجلس جوارها ويأخذ كوب الشاي من يدها يضعه على الطاولة وهو يفتح ذراعيه قائلاً بدعوة: «إذن أستطيع أن أحضن الآن».

ضحكت وهي تميل إليه وتغمض عينيها وهي تتوسد صدره وذراعيه تحتضنانها براحة أكثر، صمتا للحظات ثم شعرت بحاجة أكبر إليه فترفع وجهها عن صدره لتنظر إليه ودعوة شفيتها عفوية تطلبه فيلبها دون إبطاء

وقد تذكر الآن فقط أنه لم يرها (حقاً) منذ أحد عشر يوماً!

تنحدر دموعها الناعمة وهي تتبادل معه قبلة عاطفية بطيئة حارة بلا قيود
فتمتزج روحها في روحه، طالت القبلة واشتدت حرارة وذراعا عامر
متصلبتان يحاول جهده أن يسيطر عليهما كي لا تؤذيانهما، ابتعدا عن بعض
لاهثين فيسندان جبينهما لبعض وعامر يهمس: «أخبريني أكثر عن والدك
صارحيني بكل شيء كي أكون معك وأعينك أنت لست زوجتي وحببتي
فقط أنت حريرتي قطعة مني جزء من نفسي فكيف تخجلين من البوح
أمامي؟!». .

كان يقول همساته وكفاه ترتفعان إلى وجهها تمسحان خديها من دموعها
العاطفية التي انحدرت ناعمة من أثر القبلة، مغمضة العينين وهي تأخذ
نفساً عميقاً ثم تطلقه لتفتح عينيها تتكلم بجدية بينما تتعلق بكتفيه: «لا
أعلم ما جرى له يا عامر! ساعة يبدو كطفل تائه يجول في أنحاء البيت يدمي
قلبك شفقة عليه وساعة يبدو كطبيعته التي نعرفها يجلس على كرسيه في
غرفته يقرأ الجريدة». .

تلف ذراعيها حول رقبة عامر مضيفة بمزيد من المصارحة المؤلمة لها:
«وساعة تتبدل ملامح وجهه فيظهر مهتاجاً دون سبب، عدائياً غاضباً مرتاباً
كأن هناك من يتآمر عليه! يقتحم علينا غرفنا يرمي في وجوهنا كلمات
مسمومة تجعل جلدك يقشعر نفوراً». ارتعدت أوصالها وهي تتذكر تلك
الكلمات البشعة لتضيف بحشرة والحيرة والشكوك تعصف بها: «لا أعلم

هل يمثل علينا كي يجذب اهتمامنا حوله أم أنه يعاقبنا لذنوب لم نرتكبها؟!
أما أننا نظلمه وهو يعاني خطباً جدياً؟!».

فقال عامر بترفق: «والدك مريض يا حرير سواء أكان يمثل أو الأمر خارج
عن إرادته فكلما السببين يدلان أن لديه مشكلة ويحتاج مساعدة لتحديد ما ثم
حلها، لذلك كلما شعرت بالسوء من حالته واستغربت تصرفاته أو كلماته
فتذكرني أنه مريض وذكري نفسك وأخويك بكل أفعاله الجيدة رغم طباعه
الصعبة أنا واثق أنه يحبكم لما كنت اهتممت به هكذا لو لم يمنحك حبه».

تحرك رأسها ويانسجام روعي جسدي تلقائي تلتصق به أكثر تطلب دعمه
تطلق تنهيدة ارتياح عميقة وعامر يميل ليطلع القبلات على عنقها ويده
تتسلل تحت بلوزتها يمسد فوق بشرة ظهرها برقة متناهية كي تسترخي أكثر
متجنباً المنطقة المصابة، تغمض عينيها وهي تستكين إليه هكذا بينما
تصارحه بما يجول في رأسها منذ أيام: «أتمنى أن يكون الأمر نفسياً فقط
أظن أبي يشعر بالكبر وأنه لم يعد يسيطر على حياتنا كما يرغب هو أن
يكون حجم سيطرته».

همس بنبرة تبعث الطمأنينة وشفته باتتا تلامسان أذنها: «سنعرف كل
شيء من الطبيب استرخي فقط كل الأمور ستكون بخير واليوم عصراً
سأتكلم مع خلدون وسدير أيضاً يجب أن ينضجا ويتحكما بنفسيهما ليعيناك
في هذا الوقت الصعب إنه والدهما كما هو والدك العم أسعد مسؤوليتنا
جميعاً». هزت رأسها مؤيدة، فيضيف عامر بتأنيب رقيق: «لن تكرري

الابتعاد عني وعزلي عن مشاكلك مرة أخرى لا مكان للإخفاء بيننا خاصة في أمور جدية كهذه».

تهز رأسها مجدداً ثم رفعت وجهها إليه وبطلب عاطفي جديد صامت كان لقاء الشفاه العذب وكلاهما يشتااق المزيد من الالتحام بالآخر التحام يحتاج لمزيد من الصبر والانتظار حتى يتم.

دخل رياض إلى غرفة سجي وهو يحمل صينية إفطار فيجدها جالسة على ركبتها فوق مشمع أبيض شبه شفاف تفترشه فوق جزء من أرضية غرفتها وتفرد فستان العرس عليه ومن حولها عدة الخياطة قال لها ببشاشة: «صباح الخير يا عروس أحضرت لك الفطور».

كانت مشغولة بوضع دبابيس في قماش مشرق أبيض وهي ترفع رأسها تنظر إليه في ابتسامة امتنان قائلة: «صباح الخير عماه لكن لماذا أتعبت نفسك كنت سأنزل لأكل أي شيء».

رد وهو يتقدم من السرير ليضع الصينية فوقه: «أنا شعرت بك مستيقظة منذ صلاة الفجر».

ردت بابتسامة لم يرها على وجهها من قبل: «متحمسة للفستان جداً».

ليس شفتاها وحسب من حملتا ابتسامة غير مسبوقة بل عيناها أيضاً تشعان بالابتسام انعصر قلبه وهو يفكر أنها (ابتسامة السعادة) ابتسامة لم

يرها على وجه سجي أبدأ من قبل سعادة حقيقية من القلب تفضحها العيون وترسمها تعابير الوجه المشرقة، اقترب منها ليقف قريباً وهو يسألها: «هل تحتاجين لمواد خياطة أو ما شابه؟».

ردت وهي تنظر لقطعة القماش في يدها: «لا شكراً عماه لقد اشتريت كل ما أحتاج البارحة مع علي».

سألها: «ألا توجد لك صديقات يساعدنك؟ لا أقصد الخياطة فقط بل كل شيء، من يرتب معك الأغراض وينصحك بالمفيد وهذه الأمور التي لا تفهمها إلا النساء».

قالت بنبرة هادئة وهي ترفع وجهها تتطلع إليه برضا بالمقسوم: «صديقاتي الحقيقيات سافرن خارج البلد وكل واحدة شغلتهن حياتهن الجديدة، أما من اتواصل معهن هنا فلهن مقربات مني سأتصل بهن لاحقاً أعلمهن أنني سأتزوج يوم الخميس بحفل زفاف عائلي بسيط وأكتفي بالتنويه أن خالتي ليست راضية تماماً لذلك لم أقم عرساً أو حفلاً كبيراً».

ثم أطرقت ويدها تتلاعب بالمقص مضيفة بواقعية: «لن أجازف بإحراج نفسي بإحضار إحداهن إلى هنا وربما تقابل خالتي، كما أنني لا أريد استفزاز الخالة نبراس أو إيلامها أكثر».

يمد يده يربت على كتفها قائلاً: «كمّلك الله بزينة العقل يا ابنتي».

ثم يضيف بالتوصية المشددة نفسها: «تحملني اليوم وغداً فقط لا تغادري

غرفتكَ وأنا سأتولى أمر الطعام نطلبه من إحدى المطاعم التي
توصل للبيت».

تهز رأسها وهي تتمتم: «حاضر عماه».

ثم ترفع وجهها إليه لتسأل بحشركة: «كيف هي خالتي؟».

رد وعيناه تشردان قليلاً: «صامتة؛ لكنها نامت البارحة وقد قرأت عليها
القرآن كثيراً دون أن تشعر بي».

ثم ابتسم وهو يعود بتركيزه إلى سجي قائلاً بمرح زائف: «حضرت لها
إفطاراً لذيذاً ووضعته في الغرفة وسأنزل الآن لأرى إن كانت أكلت شيئاً أو
ستضطرنني لأحشو اللقم في فمها رغماً عنها».

علقت سجي بشعور الذنب الذي ينغص عليها فرحة قرارها الزواج من
علي: «أنت تتحمل الكثير».

رد العم رياض عابساً: «لا تقولي هذا يا أبتني أنا سعيد لأنني ألعب دوراً
إيجابياً بعد سنوات من التقاعس والتراخي».

ثم يضيف بقوة: «القبول بالقدر ليس فقط أن أتوجه بالعبادات أكثر إلى
رب العالمين بل يجب أن أقرنها بأفعال دنيوية، أن أعيش الحياة بشكل
صحيح وأحفظ بيتي وأسرتي».

أمسكت سجي بكفه التي على كتفها لتلثم ظاهرها هامسة: «حفظك الله

دخل رياض على زوجته ليراها جالسة على حافة السرير، كفاها مرتحيان في حجرها ونظراتها جامدة تحديق في الجدار أمامها، بدت وكأنها في عالم آخر، أغلق الباب خلفه وعيناه تحيدان نحو صينية الإفطار التي وضعها لها على المنضدة الصغيرة قبل ربع ساعة وكما توقع لم تلمسها قط، كتم تنهيدته وهو يتقدم منها ليجلس جوارها دون أن يقول كلمة، شعر بحاجته لفعل هذا إنه يحتاج نبراس اليوم أكثر من أي وقت مضى في حياته يحتاج وجودها ليجد القوة كي يعين نفسه ويعينها على تحمل الألم، فاجأته نبراس بالقول بصوت خافت: «لا أريد البقاء هنا». نظر إليها جانباً فالتفتت إليه وأطل العذاب من عينيها ليكسر الجمود بينما تضيف نبراس بألم مبرح: «لا أحتمل أن أرى الوجوه المألوفة ولا أجد بينها وجه ابنتي هيام».

ابتلع رياض غصته ونبراس ترفع يدها لتضعها على صدره وتهمس بحشرجة: «لقد كرهت العاصمة كرهت البلد كله لا أريد البقاء فيه».

هطلت دمعة من عينيها وهي تتوسل: «أخرجنا من هنا لم يعد لدينا ما نبقى لأجله دعنا نعيش الباقي من العمر في مكان جديد لا نجد فيها ذكرى لابنتنا توجعنا وتمزق أحشاءنا».

نظر إليها رياض مطولاً قبل أن يقول بهدوء: «ما دام سيربحك فأعدك أنني

سأحاول كل جهدي لتحقيقه؛ لكن أولاً».

أشار بيده ناحية الصينية وأضاف: «نأكل الإفطار معاً».

ظلت تنظر إليه والدموع تتجمع أكثر في عينيها وترتجف شفتاها فتضمهما لبعض كأنها تمنع نشيج بكاء ثم هزت رأسها بـ(نعم) قبل أن تعود لجمودها ثم استسلمت تماماً بعدها ليد زوجها التي تطعمها في فمها.

قراءة الغروب بيت أسعد الجنابي

في غرفة الضيوف كان عامر يوجه كلامه لخلدون وسدير اللذين يجلسان جواره على الأريكة بنبرة جمعت بين الحزم والثقة بهما وهو يقول لهما: «عليكما أن تكونا سنداً لحريز إنه أبوكما كما هو أبوها، ليس لدي شك أنكما ذكيان كفاية لتدركا أن والدكما ليس بخير، وسنبذل كل جهدنا لمساعدته كما ليس لدي شك أنكما تحملان أصالة حريز نفسها». ثم حدد نظراته لخلدون مضيفاً: «والأصيل يتحمل من والده كل شيء ومهما كان، لم ينجبونا للحياة ويربونا حتى غدونا أشداء كي نتجاوز عليهم في كبرهم وضعفهم».

احمر خلدون قليلاً، بينما تقول والدته حريز بحشوجة: «سلم لسانك يا أصيل يا ابن الأصلاء».

تمتم خلدون بشعور اختلط فيه الخزي بالحنق من أبيه: «عامر أنا لم

أقصد ما حصل قبل يومين، لكن أفلتت أعصابي، لم أحتمل ما قاله لأختي، خاصة حرير لقد عانت كثيراً بسببه هو ورغم هذا أنها أكثر من تراعيه فينا». دمعت عينا حرير وهي تنظر لخلدون؛ إنها تعرف صدقه فيما قال، نظرت إلى عامر وهو يرد على شقيقها باختصار: «نحن في وضع لا ينفع معه فقد الأعصاب، كن رجلاً وتحمل المسؤولية وما حدث يا خلدون لن يتكرر، أنا واثق أنك لن تجعله يتكرر».

ثم أضاف بكلمات رجل لرجل: «من يرفع يداً على أمه وأبيه كسرهما الله له وإن كنت تعلمت شيئاً من التجارة والسوق فهو أن الدنيا سلف ودين يا خلدون، تدور السنوات بلمح البصر، وتجد ولدك يفعل بك أشد مما فعلته مع أبيك».

تأثرت الأم وأخذت تبكي، بينما حرير تلف ذراعها حول كتفي أمها تشد أزرها، خلدون يطرق برأسه، وسدير تشارك أمها البكاء وهي تقول بخوف حقيقي: «كيف سنتصرف مع أبي، أنا لا أعرف كيف يفترض أن نتصرف، لا أريده أن يتأذى، ولا أريده أن يؤذينا». نظر إليها عامر ثم قال برقة: «لا تخافي هكذا كلنا في هذا سنشد أزر بعض ونقوي بعض». تشابكت أصابع خلدون ثم رفع رأسه ليسأل عامر: «هل أنت واثق أن أبي مريض حقاً؟». لم يكن تشكيكاً منه بل بدا الفتى المراهق وهو يحاول استيعاب وضع جديد عليه ليرد عامر بعد أن تبادل النظرات مع حرير قائلاً: «سواء أكان مريضاً أم لا سيظل أباكم وعندي مقامه من مقام أبي ومنذ ارتباطي بحرير أنا معكم

في رعايته».

في هذه اللحظة دخل أسعد الجنابي إلى غرفة الضيوف يرتدي مبدلاً شتوياً قديماً مخططاً لم يرتده منذ سنوات، عاقد الحاجبين لامع النظرات بشكل غريب كأنه غاضب وشفته مزمومتان، تعابيرها كلها حادة نافرة متجهمة وهو ينقل نظراته بينهم جميعاً توتر الكل وعامر يقف احتراماً لتقف حير معه قائلة: «هل تريد بعض الشاي والبسكويت الذي تحبه أبي؟ لقد اشتريت لك منه اليوم».

لم يرد عليها بينما يركز نظراته على عامر بعدائية سافرة فيبادر عامر ليبتسم بهدوء قائلاً: «مرحباً عماه».

لكن أسعد لم يرد التحية بل هتف به في انفعال: «ماذا تفعل هنا؟».

يقف خلدون متوتراً بينما عامر يرد بالهدوء نفسه: «جئت لزيارتكم».

فيصرخ به أسعد ساخطاً: «ارحل تأخر الوقت أليس لديك بيت تأوي إليه آخر الليل بدلاً من التسكع في بيوت الناس؟».

تصاعد توتر خلدون في أقصاه وتحرك بجسده كأنه يهيم نحو أبيه ليمسكه عامر بخشونة من كتفه يوقفه مكانه هامساً: «اهدأ خلدون».

ثم التفت عامر لحماه قائلاً: «حاضر عماه معك كل الحق سأُنهي الشاي وأرحل».

ما زال أسعد يحدق بالعبوس نفسه والتعابير ثم تنفس الجميع الصعداء
عندما استدار مغادراً غرفة الضيوف دون كلمة أخرى، تمتعت حرير:
«آسفة».

فرد لها عامر: «ولماذا تتأسفين؟!».

ثم نظر إليهم جميعاً وأضاف: «لا أسف في هذا الموضوع على الإطلاق
وسنتحمل القادم معاً مهما كان».

بعد ساعتين وفي ظلمة الليل في الحي كانت حرير تجلس مع عامر في
سيارته أمام بوابة البيت لتقول له بامتنان حقيقي: «شكراً لمجيئك وكلامك
مع عائلتي سدير تشعر بالثقة لوجودك معنا وخذون سيتعلم منك كيف
يضبط أعصابه وينضج».

يمد يده يحاوط خدها وهو يبتسم قائلاً: «رؤية وجهك الآن مرتاحاً هكذا
عندي بالدنيا وما فيها».

ثم يمرر إبهامه فوق شفيتها مضيفاً بصوت مبحوح: «كان نهائياً رائعاً
قضيته معك اليوم خاصة جزأه الأول وذكريات الطفولة اللذيذة مع لمس
الحرير».

تضحك حرير وهي تتورد هامسة: «كان يجب أن أصالحك».

رد بلمحة ذكية: «كان يجب أن تثقي بي أنا لم أخذك يوماً».

أطرقت وشعر أنها متوترة بعض الشيء وكأنها تريد فتح موضوع محرجة منه طوال النهار الذي قضياه يلفان العاصمة شرقاً وغرباً يستمتعان بكل دقيقة معاً كانت منفتحة معه تماماً؛ لكنها الآن تبدو قلقة من الكلام قال يشجعها: «لا تصمتي هكذا يا حبيب لقد اتفقنا أن لا صمت بيننا».

رفعت عينيها إليه وقالت بتوجس: «أريد إخبارك بعض الأمور من الماضي لكن أخاف ألا تتقبل مني الكلام فيها».

أرعى يده عن خدّها وهو يخمن هذه (الأمور) أو على الأقل يخمن بمن تتعلق هذه المرة كان هادئاً وهو يطلب منها المصارحة: «وأنا أعدك أنني سأبذل كل جهدي كي أتقبل».

ابتلعت ريقها بتوتر واضح ثم قالت: «ربما من الأسباب التي جعلتني أخفي عنك ما يحصل مع عائلتي منذ عشرة أيام أنني خشيت أن تذكره أمامي يوماً ما بطريقة تؤذيني». ظل صامتاً وهي تكمل بارتباك: «سواء تذكره أنت أو عائلتك أعترف لك».

قال عامراً أخيراً بضبط نفس: «أنت تريدين الكلام عن أمور أخرى تتعلق بهذا لكن من الماضي أليس كذلك؟».

ردت وهي تهز رأسها ويدها ترتفع بحركة متوترة لتعيد بعض خصل شعرها للخلف وهي تتشجع لتبوح له بارتباك وتعثر: «أريد أن أخبرك أن عائلة نوفل

كانت تعيرني».

عقد عامر حاجبيه وهو يتساءل: «تعيرك بماذا؟!». .

ردت وهي لا تستطيع النظر في وجهه: «عيروني أن أبي زوجني لولدهم بطريقة متعجلة للغاية بدت وكأنه يريد التخلص مني مع تلميحات أخرى تسيء إليّ».

اتسعت عينا عامر بينما تكمل حرير بمزيد من التوتر: «لا ألومهم!».

ثم رفعت وجهها إليه تنظر في عينيه لتصارحه بتلك الفترة العصبية: «منذ يوم حفل العرس الذي تشاجرت فيه لأجلي وأنا كنت حبيسة الدار، أبي جن جنونه عندما علم بوجودك في ذاك الحفل وشك أنني تواعدت معك لنتقي أجبرني على الرضوخ لإرادته وأبلغ أقاربه أنه موافق على تزويجي لابنهم شرط أن يتم حالي انتهائي من الامتحانات النهائية في غضون بضعة أسابيع».

رغماً عنها دمعت عيناها لتلك الذكرى فتضيف باختناق وهي تتذكر تفاصيلها: «لم أكن أغادر البيت وأمي من تولت كل التفاصيل مع عائلة نوفل لم اختر شيئاً لا شبكتي ولا فستان زفافي ولا أي شيء! كنت سجينه منبوذة كأني ارتكبت جرمًا أعاقب عليه وتم عقد القران في يوم زفافي وقد كانت المرة الأولى التي أرى فيها عريسي وكنا لم نلتقي كأقارب منذ سنوات».

حجر.. حجر كبير ثقيل شعر به عامر في حنجرته وهو يبتلعه صامتاً،
بينما يفكر للمرة الأولى بهذا العمق بدوره هو فيما تعرضت له حرير قال
بحشوجة والألم يشق قلبه متذكراً تلك الليلة العصيبة: «أنا آسف أنا السبب
لو أنني لم أسيء التصرف في تلك الحفلة لما أجبرك على الزواج بهذا
الشكل».

رأها ترفع يدها كي تمسح دموعها وهي تتمتم: «ليت الأمر اقتصر على
هذا، ست سنوات ضاعت من عمري وأنا كالمغيبة وكأني وأدت نفسي تحت
تراب الواقع المفروض علي لقد خنقوني جميعاً قتلوا روحي فصرت باهتة
مستسلمة لمرور الأيام ببطء».

عاودت عامر ذكرى الكلمات السابقة نفسها التي سنعها من جرير غير
الهاث فتلك الكلمات التي واجهت بها أباه، سألها بحذر وهو يتحامل على
نفسه: «هل كان يؤذيك؟ هل آذاك هو أو عائلته؟».

لا يعرف كيف استطاع أن يسألها؛ لكنه فجأة أراد أن يعرف وقسماً بالله
إن كان يؤذيها ذلك البغل فسيذهب إليه في عقر داره يشبعه ضرباً.

نظرت إليه بعينين سكنهما البرد القارص لتعكس ذاك البرد كلماتها عن
(زوجها الأول): «لا أعرف كيف تصنف الأذى الذي وقع علي نوفل كان
فاتر المشاعر باهت الشخصية ضعيف الإرادة أمام والدته سلبي في كل
الأفعال محدود الطاقة والإحساس يعيش على هامش الحياة وينتظر أمه

تختار له الطرق».

سرحت نظراتها في الماضي وهي تكمل دون قيود كأنها تجد خلاصها من تلك الذكريات: «الأذى الجسدي الوحيد كان ليلة الزفاف كلماتي ترن في أذني حتى الآن وأنا أتوسل إليه أن يتركني ولو لليلة واحدة فقط كي أعتاد الوضع فكان رده (أمي تنتظر) ! وقد نال ما انتظرتة أمه وأنا لم أخلع حتى طرحة الزفاف ليذهب إليها مباشرة حاملاً البشري».

كان صدر عامر يعلو ويهبط طوال الوقت وهي تتكلم وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما، لم يحتمل أكثر ليجرها إليه يضمها بقوة غير مراعاة لألم ظهرها وهو يهتف بحرقة: «كفى حرير كفى أستحلفك بالله كفى».

كانت تتوجع من ظهرها لكن ألم قلبها أوجع فتحاوطه بذراعيها تغرق في حضنه وتنعجن بروحه فتجد فيه ما يطبب كل جرح ويوقف كل وجع، همست وهي تقبل رقبته ووجهه بلهفة: «أنا آسفة.. آسفة لأنني آذيتك بكلامي.. آسفة أحبك عامر أحبك».

يبادلها القبلات العشوائية نفسها حتى تنثر شعرها الناعم وهو يرد عليها: «بل أنا آسف آسف حبيبتي آسف أنا السبب أنا».

يوم الخميس صباحاً

في باحة البيت عينا رياض لم تبارحاً باب المطبخ خوفاً من خروج نبراس

بينما يحث سجي على الإسراع وهو يحشر معها آخر صندوق من حاجياتها على المقعد الخلفي للسيارة قائلاً: «هيا يا ابنتي حماتك تنتظرك ولا يصح تركها ترتب بيتك بمفردها».

تهز سجي رأسها وهي تغلق باب السيارة قائلة بتوتر: «أجل عماه».

يوصيها بالقول وهي تتحرك إلى مقعد السائق: «إن لم تستطيعي الوصول للعنوان اتصل بي بعلي».

جلست في مقعدها ليغلق عمها الباب لها فتنزل الشباك وترد عليه تطمئنه: «لا تقلق عماه سأتدبر أمري».

نظرا لبعض كلاهما يعلم لما هو يتعجلها المغادرة، لقد كانا يومين صعبين للغاية رغم عدم حصول شيء بينها وبين خالتها بل لم ترها من الأساس؛ لكن التوتر البغيض شاع في المكان وكان يخنق الأنفاس للجميع ورغم كل هذا كانت سجي تتحمل مسؤولية القرار وتمضي به قدماً.

شغلت محرك السيارة عندما قال لها العم رياض فجأة: «آسف يا ابنتي كنت أريد أن أحضر معك؛ لكن لا أستطيع ترك نبراس بمفردها أشعر بالضيق لأنني أتركك وحيدة في وقت كهذا».

تبتسم بشجن وهي تقول في سرها: «لا تقلق عماه أنا اعتدت مواجهة أقداري وحيدة». واكتفت بالرد عليه قائلة بصدق الجانب المشرق مما حصل: «لا تقل هذا أبداً لولاك لما استطعت فعل شيء».

ابتلعت ريقها ليحن قلبها وهي تنظر ناحية باب المطبخ فتهمس: «هل تتكلم عني؟ هل تكرهني؟».

رد العم رياض بحزم: «لم تتكلم عنك وقطعاً لن تكرهك يكفي سجي اذهبي يا ابنتي في رعاية الله».

هزت رأسها وهي تلوح مودعة لعمها كي تغادر بسيارتها ورياض يشيعها بنظراته ودعواته أن تكتمل الليلة على ألف خير وبطمأن عليها.

ترجلت سجي من سيارتها وعيناها تتطلعان للبيتين العصريين التوأم أمامها ليأخذا رقمين متتالين رقم أربعة ورقم خمسة، وخمسة تحديداً هو رقم بيتها هي وعلي، رعشة قوية امتدت على طول جسدها تقف وريح الخريف تعصف بمشاعرها لتتجمع داخلها رهبة العروس نحو حياتها الجديدة مع إحساس غربة ووحشة لأنها حضرت وحيدة؛ لكن الأمر لم يطل كثيراً عندما فُتحت البوابة الأنيقة الفضية ليظهر وجه حماتها بابتسامة عريضة ودودة ثم تلتها بزغرودة حلوة خففت من شعور الوحشة داخل سجي بدت حماتها رشيقة جميلة بسرwal الجينز والبلوزة القطنية الفضفاضة.

أغلقت سجي باب السيارة لتتقدم إلى حماتها التي أخذتها بالأحضان وهي تقودها للداخل وتثرثر بحماسة، شع التورد على وجه سجي حالما دخلت لبيتها الجديد عندما استقبلتها مزيداً من الزغازيد، الخالة عفاف وبناتها

الثلاث حاوطنها بتلك الزغاريد وهن يباركن لها، تذوب الوحشة وسط مشاركة دفء المحبة، تستسلم سجي تماماً لحمايتها وهي تربيها غرفة الضيوف الصغيرة التي تم إعدادها مع غرفة الجلوس لحفل العرس العائلي الضيق، نظرت سجي للآثاث وأحبت لونه الأزرق السماوي وتأثرت جداً بالوسائد المربعة الصغيرة للوحات بغدادية قالت بتأثر: «هل علي من اختارها؟».

ردت نورجان بحماسة: «لقد أصر عليها قال إنك تعشقينها وتليق بك».

توردت أكثر بينما تسحبها نورجان من يدها إلى أحد الأركان لتتسع عيناها انبهاراً بجمال خمسة سلال من الخيزران مزينة بالشرائط الزرقاء وأحجار السبع عيون الفيروزية وأخرى زرقاء غامقة وفي داخلها تبدو ملابس حريرية وحاجيات أخرى كعطور وكريمات ومقتنيات نسائية مميزة فتقول لها حماتها: «هذا جهاز العروس هدية من عفاف وبناتها منذ أيام وهن يحضرنها لك».

التفتت سجي إليهن وهي تهمس بحشركة: «أنا عاجزة عن الشكر».

ويدت وكأن سجي تعاني كي تسيطر على ردة فعلها فتحاول نورجان الثثرة: «كما أنهن ساعدنني في ترتيب البيت لقد أتت روناها بالطبع أيضاً وحرير كانت...».

توقفت نورجان عن الكلام عندما لم تستطع سجي السيطرة على انفعالها العاطفي لتهطل دموعها فتمسح خديها بحرج وهي تزبح وجهها جانباً تهمس

بالاعتذار لهن: «آسفة أنا فقط تأثرت لما فعلتن لأجلي وربما أفتقد أُمي».

احتضنتها نورجان بقوة وهي تقول برعشة بكاء وشيك: «لا تبكي سجي بالله عليك لأنني مؤكد سأبكي معك وأنا لا أريد فعل هذا اليوم تحديداً خاصة بوجود عفاف التي ستؤنّبني وقد قضيت اليومين الأخيرين في حالة بكاء مستمر وذرفت دموعاً تكفي لملاً خزان بغداد الرئيسي للمياه».

ضحكت سجي بارتعاش بينما تنظر إليها عفاف بتعاطف في داخلها تعترف للفتاة بالقوة وهي تواجه موقفاً كهذا شعرت بابتها الصغرى صبا تقترب من أذنها لتهمس: «هل ستأتي خالتها؟».

فزجرتها عفاف بنظرة صارمة كي تصمت فتتذمر صبا بالقول الخافت: «ماذا قلت أنا؟!».

بعد نصف ساعة كانت سجي في غرفة نومها الجديدة ترتب ملابسها، لقد غادرت الخالة عفاف مع بناتها ليستعدين لحفل الزفاف، بينما حماتها نورجان كانت تبخر الدار بناء على توصيات مشددة من الجدة، غرفة النوم كانت لطيفة من الخشب الباهت وقد أعجبتها للغاية فرشاة السرير الفيروزية الخاصة بالعروس وكانت هدية من الخالة عفاف أيضاً، تمتمت في سرها أن الغرفة مع قليل من اللمسات سيبرز جمال لون الخشب أكثر، فتحت إحدى الخزانات لتعلق ملابسها فوجدت ملابس علي معلقة وبدلاً من أن تفتح

الخزانة الأخرى وجدت يدها تلامس ملابسه فترتجف بلا تصديق أنها تفعل هذا، قطعت عليها حماتها وهي تدخل الغرفة فجأة فتغلق سجي الخزانة متوردة قائلة ببعض تورد الخجل: «كنت أبحث عن خزانتي فوجدت علي يحتل كل الخزانات».

ردت نورجان ضاحكة: «إنها معلقة هنا منذ أيام قبل حتى يوم عقد قرانكما لقد طاردنا الأيام الماضية بلا هواة كي ننهي المطلوب والضروريات».

زاد احمرار سجي بينما تقول: «أنا آسفة لأنني لم أستطع المساعدة معكم».

وقفت نورجان قبالتها لتقول لها بصدق: «لا تأسفي سجي أنا فخورة بك لكل ما تواجهين بشجاعة».

لم تعرف سجي بما ترد فتضيف نورجان متسائلة: «هل ما زالت نبراس تقاطعك؟! علي أخبرني أنها لم تكلمك منذ يومين». شعرت بالضيق من الكلام في الموضوع لكنها ردت: «أجل».

ثم أضافت وهي تنظر لعيني حماتها: «أشعر بالذنب نحوها لكن...». قاطعتها نورجان قائلة بهدوء: «لكن أحياناً نشعر بالذنب نحو أمور ليس لنا فيها ذنب». تهز سجي رأسها وهي تتمتم: «هذا هو بالضبط».

عندها قالت نورجان: «سيكون أمراً سخيلاً مني وغير واقعي لو قلت لك

اعتبريني أمًا لك المشاعر القوية كهذه لا تأتي عند الطلب أنا امرأة صريحة وأقول ما أشعر به لذلك أقول لك ما أنا واثقة منه وأعدك به وهو أنني سأكون دومًا سنداً لك وفي ظهرك كما أفعل مع كل فرد من عائلتي».

فردت سجي: «وأنا شاكرة لك هذا الصدق وبكفيني دعمك».

تبسمت نورجان وهي تقول بدفء تصارحها المزيد: «أنا معجبة بك للغاية كامرأة وكإنسانة ليس الآن لكن منذ سنوات منذ رايتك للمرة الأولى حتى إنني فكرت...».

توقفت نورجان وقد أوشكت أن تخبرها عن رغبتها القديمة بتزويجها لعامر فتساءلت سجي: «فكرت بماذا؟».

ردت نورجان ضاحكة بخفة: «لا عليك مجرد تخطيطات (أمومية) بلهاء».

ثم أمسكت يد سجي لتقول لها بمزاح حمل بعض الجدية: «دعينا في هذا اليوم ودوري فيه كحماة يحتم علي أن أخبرك المزيد عن بكرى علي تاج الدين القماش».

توردت سجي بينما تنصت لحماتها التي أضافت بفخر واضح: «علي يا سجي أكثر أولادي عاطفية سيغدق عليك لكن يريد المثل وأكثر دلييه كطفلك الأول واعشقيه كرجلك الأوحد حاسبيه أن أخطأ لكن ثقي به في الوقت نفسه عندما يغضب تجاهليه واصمتي ستجدينه يعود إليك من نفسه

معتذراً طالباً الصفح والرضا».

هزت سجي رأسها باحترام: «حاضر خالتي».

ثم التمعت عينا حماتها بلمعة غريبة لم تفهمها سجي جيداً وهي تسألها: «هل فستان عرس أمي بات جاهزاً؟ علي قال لي ستعدلين فيه».

لم تكن تعرف أن حماتها تبذل كل طاقتها كي لا تظهر غيرتها فتزد سجي بعفوية: «لم أغير شيئاً فقط أبدلت البطانة الداخلية وضيقّت منطقة الجذع وسألبس شريطاً من الحرير ألفه حول الخصر».

تمتّت نورجان بابتسامة: «ستكونين مذهلة الليلة أنا متأكدة».

فترد سجي: «شكراً».

لتسألها نورجان في اهتمام حقيقي: «هل أحضر معك إلى مزينة الشعر؟».

وضحت سجي: «أنا سأزين نفسي وأسرح شعري».

ارتفع حاجبا نورجان ببعض الدهشة ثم سألتها: «هل أنت واثقة؟».

فردت سجي: «كل الثقة خالتي لا تقلقي أنا بارعة في هذه الأمور».

فجأة أطل وجه علي من باب الغرفة وهو يتساءل بنظرات يحيط بها سجي

فقط: «أي أمور بالضبط التي تبرعين فيها؟».

تبادل معه النظرات وقلبها يقرع بشدة تتقدم منه أمه تسأله بعبوس: «ما

الذي أتى بك الآن يا ولد».

لا تزال عيناه لا تفارقان عروسه وهو يدقق النظر في فستانها الحلو العنابي قائلاً: «جئت لأرى عروسي لم أرها منذ ثلاثة أيام».

دفعته نورجان في كتفه لتزيحه من طريقها بينما تقول لها: «لديك ربع ساعة فقط كي تراها ثم تعود لعملك أنا سأذهب لأصنع القهوة وستشربها حتى وأنت لا تحبها». تغادرهما وعلي يرفع صوته بالطلب وهو يقترب من سجي: «الكثير منها نونة حضري الكثير».

ثم دون مقدمات كان يلف ذراعه حول عروسه التي تمنعت عليه لكنه يميل لشفتيها هامساً: «فسهرتي اليوم طوبلة».

كانت ترتعش بين ذراعيه ولا تستطيع مجاراة في هذا الاستعمار الغوغائي كل ما تستطيع فعله أن تدفعه في كتفيه تحاول مقاومته، بينما هو يهمس: «ماذا سترتدين الليلة؟».

نجحت في إبعاده قليلاً رغم تشبث ذراعه بها لتسأله بأنفاس متسارعة: «ماذا تعني؟! فستان عرس الجدة باكية بالطبع».

يميل ليقبل أسفل عنقها النابض وهو يهمس بحرارة مشعة: «لا أقصد بعد فستان العرس عندما يرحل الجميع ويعتقوني لوجه الله مع عروسي لوحدنا».

ردت بوجه محمر: «اخرج من فضلك ودعني أكمل ترتيب حاجياتي».

يضحك بخفة وهو يقول: «ما أرق أدبك وأنت تقولين (اخرج من فضلك)».

فتحاول دفعه بينما يمد ذراعه الأخرى ليحاول فتح الخزانة الوسطية وهو يقول بعبث: «لماذا لا تدعيني أختار لك هل وضعت قمصان النوم هنا؟».

منعته من فتح الخزانة لتقول بحزم وهي تعبس في وجهه: «أنا من أختار ملابسي بنفسي».

يرفع حاجبيه ويقول بتسلط ذكوري: «أريده أحمر».

ردت عليه وهي تتصنع عبوس الحزم بينما تعاني الأمرين من جراءة كلامه: «ليس لدي أحمر وتوقف عن قول هذه الأمور».

رد وهو يهز كتفه: «لا يهم غداً منذ الصباح الباكر سنخرج خضياً لشراء الأحمر لأنني أحبه عليك».

توهجت خضرة عينيه وهو ينظر لشفتيها مجدداً وقبل أن يعاود تقبيلهما هتفت به بلهات: «ابتعد وإلا ناديت الخالة نرجان». تذمر علي وعيناه المتوهجتان بالعاطفة تضحكان: «ساعة تهددني بجدي وساعة تهددني بأمي! وأنا لست بمن يوقفه التهديد، على العكس تأثيره علي كتهديد قميص النوم الأحمر الذي سنشتريه».

دفعته بقوة أكبر في كتفيه وهي تقول بارتباك شديد من اندفاعه: «أنت

مدلل مغرور».

أخذ يضحك وهي تتملص منه لتتحرك مبتعدة عنه ففتعثر بإحدى صناديقها وقد أطلت صورة عائلتها من أعلاه.

تنبه علي لنظرتها تلك إلى الصورة وقبل أن يقول شيئاً قالت له برجاء رقيق: «هل تمنع إن علقت صورة عائلتي في غرفة المعيشة أو ربما الضيوف».

اقترب منها وأمسكها من كتفيها لتواجهه ثم قال لها وهو يعقد حاجبيه باستنكار: «سجى هذا بيتك أتطلبين الإذن مني في بيتك؟! لا تسأليني مجدداً سؤالاً كهذا».

ما زالت تقاوم شعور الارتباك من وضعها الجديد، بينما علي يخفف عنها بالقول: «وسأحضر من نونة صورة لعائلتي أيضاً فأنا غيور غيور لدرجة لا يمكنك تصورها إن كنت ستحضرين عائلتك سأحضر أنا أيضاً عائلتي وربما كل عشيرتي».

تضحك ويتراجع ارتباكها بينما يسألها علي باهتمام: «هل أعجبك الأثاث الذي اخترناه؟ ما زال ينقصنا الكثير وسأترك لك الباقي كي تشتري كل ما يعجبك».

ردت بعينين سعيدتين: «إنه أكثر من رائع ولم أكن سأختار أجمل منه».

فجأة أخذت نورجان تنادي: «علي تعال واشرب قهوتك وغادرنَا

أنت تؤخرنا».

رد علي على نداء أمه مغتاضاً: «حالاااضر». ثم تمتم بعبث وهو يسرق قبلة من فم سجي: «ألا يستطيع المرء الانفراد بامرأته في هذا البيت؟!». ثم غادر الغرفة وهو يتذمر بينما سجي تأخذ أنفاساً عميقة لتعود إلى ترتيب أغراضها وهي تشجع نفسها بالقول: «ستكون الأمور بخير كلها بخير بإذن الله اصمدي سجي».

قراءة الغروب

نظرت لنفسها في المرأة وقلبها يخفق بقوة، إنها تقدم على خطوة كبيرة في حياتها؛ لكنها جاهزة جاهزة من الداخل والخارج؛ فستان العرس يقطر جمالاً والشريط الحريري الذي لفته حول الخصر في عقدة رقيقة زاده ألقاً ونعومة، تبرجت كأجمل عروس وجمعت شعرها كله للخلف في تسريحة فنية وقد حاكته في خصل رفيعة كحصيرة من خوص النخيل ومن الأمام وضعت تاجاً لامعاً متوسط الحجم منح وجهها بهاء وأنوثة، منذ ساعتين كاملتين وهي تفعل كل هذا بمفردها في صمت البيت وصخب المشاعر المكتومة؛ لكنها فعلتها ونجحت فوضعت اللمسة الأخيرة بثبيت الطرحة الطويلة ثم غادرت غرفتها تودعها ربما للمرة الأخيرة.

هبطت درجات السلم والعم رياض ببدلته الأنيقة ينتظرها بابتسامة متوترة

نظراته المرتبكة تتوزع بين رؤيتها تنزل بفستان العرس وبين مراقبة باب الغرفة المغلق في الطابق الارضي، حيث تعتكف نبراس تقرأ القرآن بصوت مسموع منذ العصر، برباطة جأش وضعت سجي يدها في يد عمها الممدودة عندما وصلت للدرجة الأخيرة، قال لها بخفوت: «وضعتُ أغراضك المتبقية في صندوق السيارة الخلفي هيا يا ابنتي علي ينتظرنا بالخارج وأنا أريد العودة سريعاً لأجل خالتك».

لم يعلق بشيء على هيئتها كعروس وقد أنهكه القلق والتوتر من ردة فعل غير محسوبة للخالة نبراس، ابتلعت سجي تلك الغصة الصغيرة خاصة والهدوء يعم كل شيء حولها إلا صوت قراءة الخالة نبراس للقران، لم يكن هناك أي إشارة أن من داخل هذا البيت ستخرج عروس، فاجأت العم رياض وهي تقول له بتصميم: «لن أخرج حتى أسلم على خالتي».

اتسعت عيناه وهو يقول باعتراض: «لا يا ابنتي بالله عليك دعيها تقرأ القرآن كي لا تشعر بما يحدث».

ردت سجي: «لكنها تشعر عماه ولهذا تقرأ القرآن بصوت مرتفع».

تمتم رياض: «لكن...».

قاطعته بالقول اللين: «إنها تعرفني كما أعرفها وتتوقع مني هذا ولن أخذلها فيه».

حاول العم رياض إقناعها: «سجي لا أريدك أن تتألمي ربما ستقول لك ما

يفسد عليك فرحتك».

ابتسمت بشجن وهي تهمس: «عدم وجودها معي الليلة يفسد علي فرحتي عماه؛ لكن لا تقلق أنا لن أنهار ولن أبكي ولن أندب حظي أنا فقط سأودعها».

لم يعد هناك ما يقوله فترك لها فعل ما تريد وهي تتقدم نحو باب الغرفة مستندة لكفه، عند الباب رفعت سجي يدها لتطرق استئذاناً أولاً ثم تلقائياً أنزلتها لتمسك عتلة الباب كي تفتحها فخابت آمالها وهي تجد الباب مقفلاً بالمفتاح، تنهدت والعم رياض يهمس: «ألم أقل لك دعيها بنيتي هداك الله».

لم تستطع سجي التحرك ووجهها قبالة الباب المغلق فتحرك كفها لتضعها على السطح الأملس الجامد الذي يفصلها عن خالتها ثم تنادي بصوت مسموع: «خالة نبراس».

للحظة تلكأ صوت نبراس وهي تقرأ الآيات ثم استمرت بالقراءة بصوت أعلى، لم تياس سجي أو ربما لم يوقفها هذا لتقول ما تريد: «خالة نبراس أريد أن أخبرك أنني أحبك وأعلم أنني خذلتك سامحيني لأنني لم أستطع إرضاءك».

ما زال صوت نبراس يرتفع أكثر بقراءة القران بينما تضيف سجي بحشجة: «كم تمنيت أن تكوني معي اليوم تلبسيني طرحتي وتزغردين في

زفافي؛ لكني لن أجرو حتى على معاتبتك ستظلين خالتي التي ربتني وأمي
التي أرضعتني وفضلك لن أنساه حتى الممات».

عاودت يدها ملامسة الباب لتقول أخيراً: «اعتني بنفسك خالتي واهتمي
بالعم رياض كثيراً إنه يحتاجك».

تفرغرت عينا رياض بالدموع فأطرق يمسحها بظارف إصبعه، بينما سجي
تنهي كلماتها بالقول الرقيق: «في أمان الله خالتي». شاب صوت الخالة
نبراس وهي تقرأ القرآن ما يشبه حشرة بكاء فابتلعت سجي ريقها وهي
تلقت إلى عمها رياض وتقول بثبات: «هيا عماه لا أريدك أن تتأخر بالعودة
إليها».

فتحركاً معاً وصوت خطواتهما يبتعد عن الباب المقفل، باب لم تجد
صاحبه القوة كي تفتحه لم تجد العزيمة حتى أن تحاول مواربته، بعض
الآلام لا تعرف المهادنة لا تعرف الالتجاء للصبر، دموع نبراس تجري
مدراراً حتى بللت صفحة المصحف المفتوح؛ لكنها ما زالت تقرأ إنها ختمة
قرآن بدأت بها منذ البارحة تهديها لروح ابنتها، فصغيرتها لم تعد تتقبل
هدايا أخرى منها.

عندما خرجت سجي للباحة الأمامية تتهاذى بفستانها وجدت علي
بانتظارها يقف متأهباً خارج السيارة السوداء الفاخرة المزينة بالورود

والشرائط كوقفته يوم عقد القران عندما كان ينتظرها في الموقف العام وعيناه تحملان رسالات الاشتياق والتهديد، أما اليوم فخضرة عينيه التي سلبت قلبها منها قبل عشر سنوات ترسلان إليها ما هو أكبر من الاشتياق وأقوى تأثيراً من التهديد إنه الوعد وعد أن تكون له ويكون لها، وأنه سيقضي باقي العمر معها، تقاوم الدموع التي تتجمع وهي تتذكر اليوم الأول الذي رآته فيه، شاب يافع أسمر حار الطباع دافئ المعشر منفتح للحياة، اليوم تراه رجلاً عاشقاً وقد منح النضوج لمشاعره مزيداً من القوة والثبات، تشتت للحظة وتوتر إحساسها عندما رأت العم رياض يسبقها الخطوات ليكلم عمر الذي شغل مقعد السائق وتسمع همس توصياته المتلطفة لشقيق علي أن لا يضغط بوق السيارة احتفالاً إلا عند خروجهم من الحي؛ لكن علي تقدم إليها ليعيد تركيزها معه وهو يمد كفه هامساً بعينين تشتعلان: «ملكتي سميراميس».

يدها امتدت لتعانق يده وقلبها يخفق بقوة، بينما يسحبها علي ببعض الخشونة لطبع قبله دافئة قرب فمها هامساً: «قسماً بالله لو كل الملكات الآشوريات كنّ هكذا لتمنيت أن أولد في زمن الملك سنحاريب أو آشور بانيبال».

تحمر وهي تنظر لعينيه الخضراوين وترى فيهما نزقاً عاطفياً من الانتظار فيعبر عنه بحرارة وهو يقودها لتصعد السيارة: «كم ساعة بقيت لنكون وحدنا يا ملكة».

أخيراً وصلوا للبيت الذي عمّه الفرح وظهرت بهجة عرس حقيقي جعل سجي تطلق دون إرادتها تنهيدة استرخاء، يميل علي لأذنها فيقول همساً: «سعيد أن وصولنا لبيتنا يبعث في نفسك هذا الاسترخاء بعد طول توتر».

التفتت إليه تنظر في عمق عينيه هامسة باعتذار: «آسفة».

وهي تنتبه للمرة الأولى منذ مغادرتها بيت عمها رياض أن كفاها طوال الطريق كانا يتشبهان بكفي علي في تشنج شديد، يرفع علي يدها اليمنى لفمه يقبل باطنها ثم يمنحها ابتسامة عريضة قبل أن يفتح الباب لينزل ويدور حول السيارة ويفتح لها بابها، قلبها يقرع بشدة وسط الزغاريد التي حاوطتها تبحث عن وجه عمها رياض الذي ضاع بين الوجوه (الغريبة) فتنتظرانها عيناه لتبعث فيها الطمأنينة المرجوة ثم تراه يعانق العم سليم وهو يبكي تأثراً؛ لكنه لم يطل البقاء فغادر بعد ربع ساعة وهو يحتضن سجي بقوة ويهمس لها بتوصية: «كوني سعيدة بنيتي كوني سعيدة، رزقك الله بالذرية الصالحة وقرّ عيناى برؤيتهم وسماعهم ينادونني (جدي)». كانت تلك اللحظة الوحيدة التي خانت فيها عهدا مع نفسها فنزلت بضع دموع حبيسة لم تصمد أكثر، ثم داهمها شعور الاغتراب وعمها يرحل بصحبة عمر الذي أعاده للبيت لتبقى سجي بمفردها بين أفراد عائلة علي ومن حضر معهم من المقربين؛ لكن شخصاً واحداً جعلها تشعر بالطمأنينة بعد رحيل عمها إنه الجد زيدون، هرعت إليه دون شعورها والتجأت لحضنه كأنها تبحث فيه عن

ذكرى لأبيها عالقة فيه، يراقب الجميع المشهد بعضهم باستغراب والبعض الآخر بذهول فلم يعتادوا على رؤية الجد يظهر عاطفة كهذه لأحد، ضم سجي بين ذراعيه وقبّل جبينها ثم قال بتأثر: «بارك لك الله لو كانت باكية معنا لشعرت بالفخر بك وأنت تلبسين ثوبها».

تأوه سليم متوجعاً عندما قرصته نورجان في ذراعه غيظاً من أبيها وغيره من كلماته لكننتها الجديدة، يلتفت إلى زوجته ويحاول تهدئة انفعالها بالقول الخافت: «إنه يجاملها ويهدئ روعها فقط يا نونة».

لكن نورجان كانت تغلي وهي ترد عليه بغیظ مستعر تعاني في كبحة: «إنه يتعمد فعل هذا، يتعمد إسماعي إياه كأنه يقول لي إن أمي لم تكن فخورة بي لتعطيني فستانها».

تنهد سليم وهو يحاول التبريت على كفها الممسك بذراعه قائلاً: «بالله عليك نونة سيطري على نفسك لا تتماذي بانفعالك ولا تدعي طبعك العصبي ينفلت الآن الدكتور زيدون وافق لبيت عندنا الليلة في بادرة لم يفعلها طوال حياته منذ زواجنا، ألا يعني لك هذا أنه يحاول إرضاءك؟!».

ما زالت تركز على أسنانها غيظاً وتفسير زوجها لم يقنعها، تنظر لأبيها وتكاد تصرخ في وجهه باكية: «لماذا تفعل هذا معي؟!».

لكن ولاءها لأولادها غلب في النهاية ويكفي أن ترى سعادة علي الطافحة على وجهه ونظراته المشتاقة الولهانة بعروسه لتنطفئ كل حمم

غضبها وغيظها وغيرتها.

بعد ساعات ومغادرة الجميع مباركين دخلت العروس إلى غرفتها، بينما العريس يقف عند باب البيت مع شقيقه اللذين يأبيان المغادرة كالبقية فيغيظانه بإطالة البقاء قال عمر وهو يحاول الدخول للبيت ثانية: «أظن أنني نسيت علبة سجائري بالداخل».

رفع علي كفيه ليدفع صدر شقيقه الأصغر يمنعه قائلاً بنظرات محذرة من التماذي: «أنت لا تدخن يا عمر».

فيتحرك عامر ليقول بالادعاء الخبيث نفسه بالبراءة وهو يتمايل بجسده يميناً وشمالاً ونظراته للداخل كأنه يبحث عن شيء ما قائلاً: «أظن أنني نسيت حبر بالداخل».

هذه المرة كانت دفعة علي أقوى لعامر ثم أمسك حافة الباب استعداداً لغلقه في وجهي أخويه قائلاً: «إن لم تختفيا اللحظة من أمامي سأنسيكما شكل وجيهكما حتى نونة لن تعود بقادرة على تمييز عامر من عمر».

انفجر كلاهما ضاحكاً وعلي يسد الباب وعيناه تتوعدانهما الأسوأ إن طرقاه مجدداً.

عم الهدوء وقد خلا البيت تماماً، علي يتطلع أمامه وهو يسند ظهره للباب وخفقات قلبه تتعالى يتقدم بخطوات مترنحة اشتياقاً ولهفة يتمتم بينما يفك

ربطة عنقه: «الوعد وعد يا ملكة».

رمى ربطة عنقه أرضاً في طريقه نحو غرفة النوم وحالما وصل الباب المغلق كان قرع قلبه يصم أذنيه ودون تفكير كانت يده على مقبض الباب ليفتحه دون استئذان ليتفاجأ أن الباب مقفل من الداخل!

يهز رأسه وهو يضحك ثم يكلم عروسه من خلف الباب: «متى ستفتحين الباب».

جاء ردها هادئاً بشكل أغاظه: «عندما أكون مستعدة، أحتاج أن أغير ملابسى وأزيل تبرجي».

قال باتهام: «لم أظن أبداً أنك مخادعة».

ردت بتساؤل منطقي: «وأين الخديعة في إقفال الباب لأجظى ببعض الخصوصية؟ وقد كنت واثقة أنك حتى لن تهتم بطرق الباب قبل أن تقتحم الغرفة علي».

تلتمع عيناه بتوعد فيرد وهو يخلع سترته: «إن كنت تظنين الباب يمنع اقتحاماً فأنت واهمة».

ألقى سترته أرضاً بينما يفتح زريّ كميّ قميصه مضيفاً: «والخديعة يا عروسي عندما سألتني ببراءة عينيك الواسعتين أين مفاتيح غرف البيت وأنا الأبله أرشدتك إليها».

ردت بالهدوء نفسه الذي يزيد غيظه ويشعل توعده: «أنت تفترض الأشياء حولي عامة قربت أن أنتهي بضع دقائق أخرى».

شرارة تقدح في عينيه بينما ترتفع يداه ليفتح أزرار قميصه ثم يسحبه خارج طوق السروال الأنيق قائلاً بخفوت: «واحدة بواحدة يا سجي».

برزت السلسلة الفضية لآية الكرسي على صدره وهو يرتكز بكفيه على الباب محني الرأس والظهر قليلاً في وضع تأهب وانتظار، دقيقة أخرى حتى سمع صوت القفل ليبعد كفيه عن الباب وتفتح عروسه له المحراب، اشتعلت مشاعره في أقصاها وهو يراها تتلألاً أمامه بعباءة حريرية بيضاء وقد تدفق شعرها كجداول نهريّة صغيرة في أمواج ساحرة، تمتم وهو يتقدم ليدخل وعيناه تمران بجوع فوقها من الأعلى للأسفل: «اللهم صل على محمد وآل محمد».

احمر وجهها المميز التفاصيل وتهربت عينها الواسعتان من النظر نحوه ثم رفعت يدها لتحكم عفويّاً إغلاق عباءتها وهي تتمتم ببراءة خجول: «لقد خلعت.. خلعت سترتك».

أوشك أن يضحك لكن الشوق المجنون الذي يعتريه اللحظة محا ما عداه من المشاعر والرغبات ليغلق الباب خلفه ثم أقفله بالمفتاح فتتساءل سجي بصوت مرتعش: «لماذا قفلت الباب؟!».

لم يكن هناك لمحة واحدة تعبر عن قدرة الانتظار، بينما يخلع قميصه

وهو يرد بنبرة انتقامية عاطفية: «ألم تقفليه أنت لتمنعيني الدخول؟ أنا أيضاً أقفله أمنعك الخروج».

تقدم يصل إليها وهي تتمتم تناشده بعجز رقيق: «علي من فضلك أنا...». يداه سبقتاه إليها لينزع عنها عباءتها عنوة فلا يوقفه اعتراضها الواهن ليكشف قميص نومها الأبيض القصير وهي تغمض عينيها بقوة، كان كله يرتعد يشتعل وهو يلفها ويحملها لاهتاً بالشوق مقتحماً لا يعترف بالصبر محطماً كل أسوار خجلها دون إعطاء مهلة، هادراً بحقيقة واحدة يؤمن بها: «لم أر ولن أرى امرأة مثلك مخلوقة أسطورية أنت يا سجي».

ما زالت تغلق عينيها خجلاً وهي لا تعرف مجاراته ولا تجرؤ على مقاومته تستسلم وهي ترتجف، تذوب وهي تتأوه ولم تشعر إلا وهي تهمس اسمه عشقاً: «علي».

ودموعها تسيل عذوبة.

على ضفاف نهر الفرات والشمس تسطع كانت تجلس بجلباب ناصع البياض وتلف حول رأسها وشاحاً أخضر، تنظر للمياه الجارية وقلبها ينبض بسعادة لها مذاق غير مألوف لم تعرف كيف علمت أنه الفرات وليس دجلة الذي يشق بغداد نصفين، ترا أين هي ولماذا تجلس وحدها هنا؟ فجأة شعرت بالعطش فنظرت للنهر هذه المرة تطلب السقيا منه دون أن تستطيع

مد يدها إليه.

«سأسقيك حتى ترتوي».

التفتت لمصدر الصوت المؤلف فتجد علياً جوارها ضاحك الوجه وسيم
المحيا سمرته تعانق الشمس وعيناه تبرقان بخضرة السعادة ووهج العشق،
كان يلبس جلباباً رجالياً ببياض جلبابها، مال قليلاً للنهر وكفاه انغمرا فيه
ليغرف غرفة من الماء الصافي ثم يرفعه إليها حتى وصل لفمها، شربت من
كفه وقلبها يرتوي سعادة ورضا مع ارتواء ريقها، كان ماء عذباً فراتاً لم تذق
له مثيلاً من قبل نظرت لعلّي تشكره بتورد: «شكراً».

اتسعت ابتسامته وهو يقترب بجلسته أكثر منها وفمه يميل لخدّها يقبله
باشتياق، أما يده التي ما زالت مبللة بنهر الفرات فيمدها نحو موضع بطنها
يلامسها بشغف هامساً بحرارة: «على الرحب والسعة يا أم حسين».

شهقت عفويّاً لتفتح عينيها وتصحو من حلمها فتجد أمامها مباشرة وجه
من رافقها الحلم كان جوارها على السرير يلف ذراعه حول خصرها وهو يرفع
جذعه العاري كي يحدق فيها بابتسامة حارة ونظرة حملت الكثير من الشغف
شعره مبعثر بفوضى جذابة عيناه ناعستان وفمه احمر دون إرادتها وهي
تحدق بفمه الذي مال إليها في قبلة متطلبة تحكي شوقاً لا يشبع ثم يهمس
بحرارة: «صباح مبارك يا أبهى عروس آشورية».

تحركت كفه لتلامسها عندما أوقفته بالقول المضطرب: «لقد حلمت بك

أقصد بنا».

رد وهو يزيح الغطاء عنها بخشونة: «أخبريني عن حلمك فيما بعد، الآن دعيني آخذك لحلمي أنا».

يغمرها بجسده الدافئ فتتكمش قليلاً بردة فعل عفوية ثم تغمض عينيها وشفثاها ترتعشان همساً بالاعتراف الصريح: «أحبك علي». ليطلق علي آهة عشق ويرد بعاطفة جامحة: «يا ملكة علي لو تعملين ماذا فعلت بقلب علي».

بعد أسبوع الخميس مساءً

حالما أوقف عامر السيارة أمام بوابة البيت ترجلت حرير من المقعد الخلفي تتبعها أمها التي كانت تجلس جوارها لتسارع كلتاها لفتح باب المقعد الأمامي المجاور للسائق حيث يجلس أسعد، كان مستاء ساخطاً وهو يترجل متمماً بحنق: «لماذا أخذتموني لذاك الرجل البغيض؟!».

تحاول حرير بكل ما تستطيع أن لا تبكي اللحظة، بينما ترد على والدها بلطف شديد وقلبها يقطر دماً: «لن يزعجك أحد أبداً مرة أخرى هيا أبي استند إلي».

هتف بها وهو يحاول التملص من إمساك يدها: «اتركيني أنت أشواق هي من ستدخلني البيت».

تجمدت حرير وتراخت يدها عن ذراع أبيها ثم بدهشة حزينة رأت أمها تبادر لإسناد زوجها الذي ناداها مجدداً باسم زوجته الأولى بل وتراعيه بالقول الطيب: «أنا معك يا أبا خلدون استند إليّ».

تراقب حرير دخول أبيها مستنداً لأمها وقد بدا عليه التعب والعجز رغم السخط، شعرت بعامر أخيراً يقف جوارها وقد ترجل من مقعده قائلاً بخفوت: «تعالى لنجلس في الحديقة».

أخذت دموعها تجري بهستيرية وعامر يقودها ليدخلا معاً عبر البوابة ثم يساراً لظلمة الحديقة وعلى صدره انهارت حرير تماماً وهي تشهق ببكاء يقطع نياط قلبه، يميل بفمه يقبل رأسها وهو يشدد احتضانها ويهمس بمواساة ودعم: «حرير تماسكي».

شهقات البكاء تتقطع مع كلماتها الخافتة المخنوقة: «ألزهايمر! أبي لديه الزهايمر؟!». .

لم يكن بيده إلا أن يحاول تخفيف الأمر لحظياً عليها حتى تستوعبه على دفعات فيراوغ قائلاً دون أن يكذب عليها: «ما زال أمامنا فحوص نجرىها لوالدك اليوم كان تشخيصاً أولياً من الطبيب تبعاً لما سمعه وعرفه من الأعراض».

تمسح وجهها ودموعها ما زالت تجري فتتنظر لعامر قائلة بألم واضطراب: «لكنه كان واثقاً يا عامر، الفحوص فقط ليتأكد من المرحلة التي وصل

إليها رباح كل هذا العنف منه ظننته يمثل علينا، لم أكن أعرف حتى أن مريض الزهايمر يمكن أن يتصرف بعدائية».

يعترف عامر في سره أنه هو الآخر تحير مع حالة حماه لم يظن أن بعض مريض الزهايمر قد تظهر لديهم أعراض ثورة واحتياج، فصديق جده الحاج عبد المنعم كان مسالماً لآخر يوم في حياته وقد تاه تماماً عن كل أفراد عائلته ولم يعد يعرف إلا زوجته، قال عامر أخيراً وهو يضم حرير بقوة إلى صدره: «حرير إنه أمر الله كلما استوعبته وتقبلته كلما أجدت التعامل معه».

ثم أضاف بعقلانية وحسن تفكير: «سدير وخلدون وحتى والدتك يحتاجون منك أن تكوني قوية ليتقوا بك الأشهر المقبلة ربما ستكون أصعب وكلنا يجب أن نتحلى بالقوة وضبط النفس كي نراعي والدك مهما كان مرضه».

أخذت حرير تتمتم وهي تعاود البكاء: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

بعد أيام الاثنين عقد قران عمر وروناهي

جلست جواره في السيارة بعد أن ترجلت أمها وأختها وهما تزغردان وقد دفعتهما بسمة كي تجلس جوار (عربسها)، ومنذ دقيقتين وروناهي تجلس متخسبة في مقعدها ونظراتها للأمام لا تحيد يميناً ولا شمالاً، لم يبدُ على عمر تعجلاً وهو يمرر نظراته البطيئة من خدها الأيسر الريان الأبيض وقد

ناغشته شقرة شعرها القصير ثم تنحدر نظراته بجرأة إلى جانب عنقها المتلألئ تحت ضياء شمس الظهيرة، مروراً بفتحة ثوبها الأصفر البهي وخصرها الملفوف حتى أسفل الفستان وما ظهر من ساقها المتوترين الملتفين حول بعض، كانت حلوة حلوة بطعم السكر ويعترف أن ريقه جاف يود تذوق تلك الخلاوة الربانية، لا يعرف من أين له هذا الصبر ليظهر الهدوء والسيطرة أمامها ربما لأنه ما زال يراها صغيرة، الفتاة الصغيرة ذات السادسة عشرة وشطيرة الفلافل في يدها؛ لكنه يتمتم في سره وهو ينظر لشفتيها: «أي صغيرة يا ابن تاج الدين منذ أيام وأنت تعاني مانعاً نفسك بالقوة من النظر لشفتيها». ابتلع ريقه لتخرجه رونا هي من أفكاره العاطفية قائلة بعبوس دون أن تلتفت إليه: «هل ستظل تنظر إليّ هكذا طويلاً؟ لعلمك أمي قالت ساعتان فقط وتجدها الآن قد وقّعت المنبه».

ضحك عالياً ثم قال بصوته الكاظمي المدغدغ لمشاعرها على الدوام: «مبارك يا عروس». أخيراً التفتت إليه لتقول باضطراب واضح تحاول مداراته بشجاعة حلوة منعشة: «مبارك عليك أقصد مبارك لك أقصد لنا معاً بالطبع».

شغل محرك السيارة وهو يقول ضاحكاً من قلبه: «حتى تنتهي من اختيار التعبير الصحيح نكون وصلنا لوجهتنا».

سألته بتوجس وكأنها تحقق في جريمة قتل: «إلى أين ستأخذني؟».

رد يغيظها على جديتها: «أنا حر آخذك حيث أشاء».

هتفت به: «عمر لا تكن لئيماً».

فجأة مال سريعاً ليخطف قبلة من خدها فتجمدت مكانها واتسعت عيناها وهي تهمس: «عمر!».

رد وعيناها تشع منهما المشاغبة والجرأة: «ماذا؟ اعترضني على الحلال أيضاً!».

استعادت رباطة جأشها سريعاً لتقول له بعبوس وهي تمسح خدها حيث موضع قبلته: «الحلال تأخذه في بيتك فقط يا أخ عمر».

رد بلا مبالاة ظاهرة: «مسحك لخدك لن يمحو القبلة يا أخت رونا هي».

ثم يضيف كي يستفزها: «لكن أعجبني اقتراحك حول مكان أخذ (الحلال) فهل نتوجه مباشرة لبيتنا؟».

يضحك مجدداً وهو يرى الحمرة القانية تلون خديها لتهتف به مغتظة: «أنت أنت تضيع من وقتك بهذا الهذر، أتمنى أن تتصل أُمِّي الآن وتطلب منك إعادتي للبيت لبيت أبي، كم سأفرح بكسر غرورك عندها».

يمد يده ليمسك يدها لكنها تدفع كفه ليقول بابتسامة عريضة: «سنتغدى أولاً حتى يبهجك الطعام قليلاً ثم نرى مسألة البيت هذه».

كان يفتح لها الباب بعد أن ركن السيارة قريباً من أحد أشهر مطاعم

العاصمة، وبينما تمد جسدها في الفتحة بين الكرسيين للمقعد الخلفي حيث حقيبتها، انجذبت عينا عمر إلى ساقيهما المغربيتين أسفل الفستان وعندما التفتت رونا هي ورأته كيف يحدق احمرت فوراً وهي تسأل بخشونة: «لماذا تنظر إلى ساقِي؟».

ثم دفعته في بطنه وهي تترجل لتقف على الرصيف أمامه عابسة محمرة الوجنتين بينما عمر يرد بخفوت: «تعجباني».

زادت حمرة خديها مع عبوس وجهها فتشد فستانها وهي تقول بارتباك حائق: «لكن أنا لا يعجبني أن تنظر هكذا».

يميل برأسه مبتسماً وهو يغلق الباب بعد نزولها ثم قال برقة متناهية وهو ينظر لشفتيها: «أنت حرة وأنا أيضاً حر أفعل مع زوجتي ما أشاء أنظر المس وأفعل كل ما يحلو لي».

تصل خفقات قلبها عنان السماء وهي ما زالت تصر على العبوس في وجهه ثم أوشكت أن ترد عليه عندما أتى نداء طفولي مباغت نحوهما مباشرة: «عمو عمر، عمو عمر».

التفت الاثنان ليتفاجأ عمر بسوزي ابنة نهاوند ترمي نفسها عليه وتحتضنه بألفة عجيبة!

انطفاً الموقف بينهما وتطايرت الخفقات المتسارعة في الهواء! رونا هي لا تستوعب وعمر يمسك بذراعي الطفلة اللتين تحاوطانه ولا يفهم ما يجري،

أما الطفلة ذاتها فكانت ثابتة تماماً وهي ترفع وجهها إليه دون أن تفلته لتقول بنبرة منظمة كأنها تلقي محفوظة تدرت عليها طوال الليل: «اشتقت إليك كثيراً عمو وأريد أن أشكرك للكيكة التي طلبتها لي آخر مرة هل ستدعونا مجدداً أنا وأمي؟».

في تلك اللحظة بالذات ظهرت نهاوند من العدم وظهر تمثيلها فاشلاً تماماً وهي تبدي الدهشة وبعض الحرج وكأنها تؤنب صغيرتها بالقول الناعم الرقيق: «سوزي! كيف خرجت من المطعم دون إذني».

ولم تحاول حتى سحب طفلتها التي ما زالت ملتصقة بساقي عمر بل رفعت وجهها عن ابنتها نحوهما قائلة: «آسفة عمر، آسفة رونا».

تمت رونا هي من بين أسنانها المطبقة: «اسمي رونا هي».

حاول عمر إبعاد الطفلة عنه بألف ما يستطيع بينما داخله يغلي يتمتم في سره: «ما هذه الصدفة السخيفة؟! وقد استغللتها الحقيبة بشكل واضح بل كانت تنتظرها».

استطاع عمر إبعاد سوزي أخيراً إلا أنها لم تتركه لتكمل ما بداؤه وتدرت عليه بشكل واضح لتوجه كلامها لرونا هي هذه المرة فتقول ببراءة طفلة تشوّهت باكراً بتعليمها الكذب والتمثيل: «هل أنت صديقة قديمة لعمو عمر مثل أمي؟».

لم يفت عمر تلك النظرة السعيدة التي تشرق في عيني نهاوند وهي تراقب

ابنتها وتكاد شفتها تتحركان بالكلمات نفسها، للمرة الأولى يكتشف أمراً جديداً عن نهاوند إنها غبية! ردت رونا هي بابتسامة مستفزة وهي تنقل نظراتها من الطفلة إلى أمها قائلة: «لا أنا صديقة جديدة سحرتني الساحرة الشريرة لأكون بطة أقصد عروس (عمك) عمر اليوم عقدنا القران و...».

بعيداً عن صدمة نهاوند بالخبر كان عمر مذهولاً من (رونا هي) الآن ثم كيف لفت ذراعها حول ذراعه لتكمل ببشاشة أكثر استفزازاً: «وعرسنا بعد عشرة أيام كنت سأدعوكم لحضوره لكن لحسن الحظ لا مكان للصديقات القديمات».

ساد صمت مطبق وقد أحكمت رونا هي سيطرتها على الموقف لتضع نهاوند في موقف مهين، ثم أعادت نظراتها للطفلة المرتبكة التي تحقق بأمها المصدومة دون أن تفهم أبعاد الموقف الذي اقحمت فيه لتضيف رونا هي: «أعتذر سوزي أنا وزوجي سنعود للبيت الآن! سعيدة بلقائك وأتمنى أن تشتري لك والدتك الكيكة بنفسها مستقبلاً».

قالتها وهي تشمخ بنظراتها نحو نهاوند؛ لكن قلبها الصغير كان يتوجع بالخفاء.

الفصل الرابع والعشرون والأخير

كانت ترتجف غضباً وهي تجلس جوار عمر في السيارة لينطلق بها يقودها ببعض الرعونة، لقد كان غاضباً هو الآخر لكنها لا تهتم بغضبه اللحظة لقد شعرت بالأذى بالخيانة! متى خرج برفقة نهاوند وابنتها؟! ولماذا لم يخبرها؟! وكم مرة خرج معهما بالضبط لتكون الطفلة بهذه الألفة والتودد معه؟! لم تكن تدري أين هما بالضبط لقد تاه تركيزها وتشابكت تفسيراتها وهي تعيد كلمات الطفلة سوزي مراراً في رأسها، فجأة أوقف عمر السيارة بعد أن دخل بها مقدمة بيت، تطلعت إليه بدهشة وهو يترجل من السيارة ليفتح البوابة، إنها بوابة بيتهما المستقبلي عشرة أيام فقط لحفل الزفاف وستأتي كي تعيش مع عمر هنا، عقدت حاجبيها وعمر يعود ليركب السيارة ويدخل بها إلى عمق الباحة الصغيرة للدار فتسأله برغبة بكاء مكتومة: «لماذا أتيت بي إلى هنا؟! أنا أريد العودة للبيت لبيتي أنا».

أطفاً المحرك وهو يقول بصوت خافت غاضب: «أخربي رونا هي وانزلي».

تكتف في رفض عابس وهي تعقد حاجبيها بتمرد لكن عمر كان في غضب أشد وهو يلتف حول السيارة ليفتح الباب بوجه متشنج وفكين مطبقين ينتظرها تنزل دون المزيد منه، مرت لحظات طوال ورونا هي تعاند ثم فجأة هتفت: «حسن سأنزل».

لتنزل من السيارة وتتوجه بخطوات نارية نحو الباب الداخلي وعمر في إثرها، ما إن فتح عمر الباب بالمفتاح حتى أمسكها من ذراعها بخشونة ليدفعها كي تدخل أمامه وهي تهدر فيه: «دع ذراعي أنت تؤلمني».

لكنه لم يستجب وقد كانت أعصابه تغلي من الموقف السخيف برمته، أخذها إلى غرفة المعيشة التي فرشها بذوقهما معاً لكن كلاهما اللحظة لم يباليا بالنظر لما اختاراه بل ترك ذراعها ومباشرة واجهها بصوت غاضب متفجر ودون مقدمات تمهيدية: «كنت جالساً في المقهى وقت استراحتي المعتاد فأتت إلى نهاوند تفرض نفسها مع طفلتها، جلستا دون رضاي وأخرجتني بالطفلة أرسلت ابنتها لتختار كيكاً حتى أستطيع أن أقول لأمها الكلام الذي تستحقه ولم أرها بعدها قط ولم أرد نهائياً أن أذكرها أمامك لأنها لا تستحق الذكر».

كان يقترب منها مع كل كلمة وروناهي تتراجع للخلف حتى التصقت بالجدار، بينما عمر دون شعوره كان يحصرها تماماً وروناهي تنكمش مبتعدة وهو يضيف بالغضب نفسه: «ليس ذنبي أنها حقيرة وتجيد استخدام براءة طفلتها المسكينة، أظنك من الذكاء لتدركي أنها مسرحية غبية للغاية».

كان وجهه قريباً جداً من وجهها وهي تفرد كفيها على الحائط كأنها تتعلق به وتلتجأ إليه فتقول بصوت مبحوح وهدوء البيت أقلق قلبها: «تستطيع أن تشرح لي دون أن تكون قريباً هكذا رثائي تسطححتا والآنفاس لا تجد مخرجاً».

تراخت تعابيره وهو ينظر إليها ورغماً عنه تبسم لأسلوبها الفكاهي الخاص بالكلام فيقول بجدية وإحباط: «لا أعلم أي حظ سيئ جعلنا نراها اليوم تحديداً».

رفع يده ليلمس خدها للمرة الأولى فتلتصق عفويًا بالجدار أكثر، برقت عيناه بالعاطفة ونبض قلبه سريعاً سريعاً جداً وهو يهمس لها بخفوت مؤثر: «عاهدت نفسي أنني سأقولها في يوم عقد القران أنا..».

صمت للحظة واحدة قبل أن يكملها: «أنا أحبك يا ضي القمر».

ثم يميل ببطء وشفته تكدان تصلان شفتيها فيلامسهما بصبر يحكم نفسه بجهد كبير، لأنه ما زال يراها صغيرة وبريئة للغاية، لم يفعل أكثر من ملاسة الشفتين فكادت أن تسيح أمامه وهي تتشبث بالحائط أكثر هامسة بارتجاف: «لا تكرر هذا».

سأل بهمس: «لماذا؟ أعطني سبباً وجيهاً واحداً».

ردت وصدرها ينتفض بقوة أمام ناظرية: «لأنني سأقع منك أرضاً وصدقني ستتورط وأنت تحاول حملي أظنه سبباً وجيهاً كفاية». كان قلبه وروحه تضحكان بسعادة ولا ألد من بهجة مع هذه الفتاة غير العادية في كل شيء لم يكن هناك تراجع ليلتصق بها هذه المرة وفمه يهمس قريباً جداً من فمها: «إن كانت هذه المشكلة فلا تقلقي لأننا عندها سنقع معاً أرضاً وسأكون أنا الممنون».

وقد أوشكت أن تقع حقاً وهي تذوب تماماً ويسيطر عليها دوار شتت قواها، وكيف لا يحدث هذا وعمر القماش حلم مراهقتها وأول خفقة في قلبها، بل الخفقة الوحيدة وهي على أبواب الثالثة والعشرين ها هو (قليل الأدب والحياء) يقبلها ويحتضن جسدها كله ملهوفاً بشكل صاعق لها أما هي فقد كانت مجرد خرقة بلهاء لا تقاومه وكل ما استطاعت فعله أنها أخذت تهمس في سرها: «حسبي الله ونعم الوكيل».

بعد أسبوع مساءً

كان أسعد في احتياج شديد بينما يصرخ بعنف في أحد أقاربه العم أديب الذي أتاه للزيارة من بلدة أخرى خارج العاصمة.

«لقد.. لقد أهانني اتصل بي بالهاتف وسبني وشتمني ثم يأتي لبيتي!».

يتصبب جبين حرير عرقاً وهي تنظر للعم أديب المسكين الذي شحب تماماً ويعدل نظارته الطبية ويقول مدافعاً مرة جديدة عن نفسه: «قسماً بالله لم أفعل يا أبا خلدون بالله عليك أنا حتى لا أعرف رقمكم الجديد ولا رقم هاتفك النقال لذلك أتيتك زائراً دون ميعاد».

تقترب حرير من العم أديب تعتذر منه: «أرجوك عماه لا تأخذ على خاطرك أبي متعب قليلاً».

يهتاج أسعد أكثر وهو يصرخ بمزيد من التهم اللاعقلانية: «هل تريد سرقة

ملا بسي؟! ألا يكفي ما سرقته مني من قبل؟!». .

تشهق والدة حرير بشعور الخزي بينما يرد العم أديب بشعور الإهانة: «أنا أسرق ملا بسك؟! ماذا جرى لك يا أسعد؟! أجننت؟». .

يهم أسعد بمهاجمة قريبه فيتقدم خلدون نحو أبيه يحاول منعه لكن أسعد فاجأه وهو يدفعه بعنف شديد وقوة جسدية غير مسبوقه حتى أوقعه أرضاً والكل ينظر بإنشده حتى خلدون نفسه الذي ظل على الأرض لا يصدق كيف استطاع والده دفعه بهذه الشراسة والقوة.

في تلك اللحظة دخل عامر غرفة الضيوف وقد أدخلته سدير إلى البيت للتو وتقف خلفه كأنها تحتمي بوجوده ويلمحة سريعة منه للمشاهد وقد كان لديه خلفية عما يحصل بعد اتصال حرير به تدخل عامر وهو يبتسم بهدوء وضبط أعصاب: «مرحباً بالعم أديب أعرفك بنفسي أنا زوج حرير شرفتنا بزيارتك». .

قالها وهو يمد يده ليصافح الرجل المرتبك الغاضب، بينما لسبب ما سيظل مجهولاً صمت أسعد الجنابي دون أن تختفي تعابير الالتهياج والسخط من على وجهه، أشارت حرير لشقيقها خلدون كي يقف فامتثل إليها ليقف على قدميه يحاول تمرين نفسه على تقبل حقيقة مرض أبيهم وأن ردود أفعاله العدائية جزء من هذا المرض، ما يراه من حرير وعامر يحثه بقوة كي يفعل مثلهما، خاصة أن أخته سدير تعاني حالة عصبية تجعلها تبكي

بالليل، يشعر أن حرير مرهقة وليس لديها سواه، صحيح أن عامر موجود ويسندها لكنه لا يوجد معهم بالبيت على الدوام، صمت خلدون تاركاً لعامر مراضاة العم أديب واكتفى بالوقوف قريباً من أبيه المتحفز تحسباً لأي حركة غير متوقعة منه، حاول العم أديب المغادرة لكن عامر أصر عليه بالبقاء وتناول العشاء.

عندها وضع أسعد يديه في جيبي مبدله القديم ثم قال بتعابير العابسة: «أنا ذاهب لأنام».

ثم تركهم ومضى والعم أديب يحدق فيه وكأنه يرى العجب العجائب.

بعد مغادرة أسعد إلى غرفته، لم يستطع عامر إقناع العم أديب بالبقاء لأكثر من شرب الشاي وتناول بعض الحلويات؛ لكن عامر راضاه وشرح له دون تفاصيل أن العم أسعد أعصابه متعبة ويأخذ بعض الأدوية، ودّع عامر وخلدون الرجل العجوز حتى بوابة البيت وحالما غادر بسيارته القديمة عائداً للبلدة قال خلدون وهو يطرق برأسه: «لم يعد مناسباً أن نستقبل أي زوار، أبي حالته تتفاقم سريعاً».

رد عامر: «المهم أنك بدأت تدرك هذا سريعاً أيضاً، وأنا كنت واثقاً بك أنك ستكون عند حسن ظن عائلتك».

يكتفي خلدون بهز رأسه، بينما عامر يشعر بالشفقة عليه، فما زال صغيراً للغاية ليحمل هذا الهم، ستكون تجربة صعبة جداً عليه.

خرجت حرير للباحة وبعض نسمات الخريف بدت باردة فتلف ذراعيها حول
جسدها، نظرت للسماء الصافية بتعب الشتاء قادم.

عادت لتنظر إلى وقفة عامر مع شقيقها عند البوابة فتتقدم نحوهما
وحالما وصلت احتضنت شقيقها الذي بات يفوقها طولاً بقليل لتقول له
بامتنان حقيقي: «شكراً لأنك ضبطت أعصابك».

بدا خلدون خجلاً بعض الشيء وهو يرد: «ما زلت أغضب منه، أغضب
بشدة، ما زلت في داخلي أقول لنفسي إنه هكذا بالأصل، إنما مرضه زاد
طباعه سوءاً».

هتفت به حرير بتوبيخ: «لا تقل هكذا عن أبينا يا خلدون، لا تكسر
احترامه داخلك».

بغير اقتناع يمسح خلدون شفتيه جانباً، بينما يتركهما ويمضي عائداً داخل
البيت، قال عامر وهو ينظر إليها تعاود لف ذراعيها حولها: «سيتعلم شيئاً
فشيئاً، سترينه قد نضج».

قالت بتعب: «لن أشتكى، على الأقل لم يعد يفقد أعصابه، ربما حالة
سدير وبكاؤها آخر الليل جعله يلتزم جانب الصبر والهدوء».

مد عامر كفيه ليدلك ذراعيها وهو يشدها لصدره في الوقت ذاته قائلاً:
«هل تشعرين بالبرد؟ ربما يجب أن ترتدي ملابس أسماك وإلا ستمرضين».

ردت وهي ترخي رأسها على صدره هامسة: «ما دمت في حضنك

لن أبالي».

تنهد وهو يعتصرها أكثر إليه فتثير حواسه كرجل وهي تبادله الاعتصار وهو ليس أي رجل، إنه رجل يموت فيها عشقاً منذ سنوات، وعندما نال الرضا من قلبها بعد كل هذا العذاب يجد نفسه واقفاً على الحافة يمنع نفسه من الغرق في سعادة امتلاكها الكامل، أغمض عينيه وهو يطلب من الله الصبر، فالرؤية ليست واضحة أمامه حول تحديد موعد الزفاف، فوالدها في وضع سيئ والطبيب قالها صراحة إن معدل تدهور حالته سريع، حاول أن يفكر بأمر آخر فهمس لها بأول ما ورد في خاطره: «هل أنت مستعدة لعرس عمر؟».

ردت وهي ترفع وجهها إليه باسمته: «أجل! وسألبس الفستان الذي اشتريته لي في حفل عقد قراننا».

لم يستطع منع نفسه فيجرها إلى بقعة مظلمة من الحديقة وينال بعض عذاب العشق وهو يقبل شفتيها بحاجة متزايدة إليها يتمم وشفته تبيان الابتعاد عن شفتيها: «أنا أشتاقك حرير، أشتاق حتى عذاب تقبيلك».

ليلة عرس عمر وروناهي / بيت علي

دخل علي الغرفة وهو ينظر لساعة يده قائلاً: «تأخرنا حبيبتني هل أنت جاهة..».

كان يرفع وجهه عن ساعته عندما توقفت كلماته وعيناه تحدقان في زوجته
وقد تألقت بفستان رائع التصميم بلون أحمر فاقع! لم يبهره التصميم بل شغّت
خضرة عينيه بوهج حاد بينما سجي تبتسم ببعض الحيرة: «ألم يعجبك
الفستان؟!». «

ظل متسماً مكانه وقد تجمعت شحنات غضب واضح حوله وهو يحدق
بالفستان ليرد بنبرة تعبر عن انفعال مكبوت: «إنه أحمر».

تقدمت سجي منه وفستانها يصدر خشخشة ناعمة وقد تألقت فيه مع
تسريحة رائعة لشعرها الطويل المموج، وضعت يدها على صدره لتسأله
بهدوء: «وهل هناك مشكلة لكونه أحمر؟».

رد بخشونة حادة وغضبه يفلت منه: «مؤكد مشكلة ولن تخرجي به».

كانت عيناه ترعدان وسجي تنظر إليه بذهول بينما قلبها يقرع بقوة وهي
ترد بتماسك وعقلانية: «اهداً علي ظننتك ستحبّه إنه محتشم و...».

صرخ بها وقد انفجرت غيرته المهولة وأصابع كفه تلتف حول ذراعها:
«لن تخرجي به».

رغماً عنها أخذت بعض الدموع تتجمع في عينيها قهراً منه لكنها ثابتة
وهي تكلمه بهدوء لا يخلو من العنفوان: «ألا يمكنك أن تتكلم معي بشكل
أفضل؟».

كانت عيناه الخضراوان بلون لامع مختلف لم ترهما من قبل هكذا وهو

عليها بالانفعال نفسه: «أنا لم أخطئ بالكلام قلت لك ببساطة إنك لن تخرجي بهذا الفستان».

تزم شفيتها وهي تشرح له بما تبقى فيها من قدرة على الهدوء: «علي أنا عمري ثلاثون عاماً وقد اعتدت اختيار ملابسي بنفسني طوال حياتي».

لكنه كان يهز رأسه رفضاً وقد فقد قدرته على ضبط نفسه ليقول هادراً بغضب: «لن تخرجي به ولا تعاندي معي اللحظة لأنني دمي يغلي في عروقي».

لم تعد تستطيع تحمل الحوار بهذا الشكل فأحنت رأسها ويدها ترتفع لتفك أصابعه عن ذراعها الأخرى وهي تقول بخفوت مجروح: «أنا لا أعاند صدق أو لا تصدق».

ثم تركته وغادرت الغرفة وهي تسمعه يشتم بخفوت، توجهت بجسد مرتعش نحو غرفة المعيشة وهي تقاوم دموعها لآخر لحظة كانت أول مرة تتشاجر مع علي وأكثر ما أوجعها إنه كلمها بهذا الشكل، كان يستطيع أن يطلب منها تبديل الفستان إذا لم يره مناسباً؛ لكن.. لكن غمرت وجهها بين كفيها وهي تجلس على الأريكة تقاوم البكاء ليس لأنها لا تريده بل لأن الليلة عرس عمر وروناهي ولا تريد التسبب بالإزعاج لأحد، شعرت بعلي يخطو قريباً منها ثم بتهيدة يجلس جوارها وهو يناديها همساً: «سجى».

لم تستطع الاستجابة لندائه الرقيق بل زاد من رغبتها في البكاء، أحست

بذراعيه تحاوطانها فقاومته عفويًا لكنه أصر بخشونة على احتضانها ثم يغمر وجهه في خصل شعرها هامساً بصدق وتأنيب للذات: «أنا آسف آسف حبييتي».

بضع دمعات رغماً عنها انحدرتا على خديها وهي تغرق في حضن علي، تنهدت أخيراً فحرك علي يده اليمنى نحو وجهها يحاوط خدها وهو يرفع رأسها لينظر في عينيها الرطبتين فيبتلع ريقه وتذوب خضرتهما بحنان غامر يجعل قلبها يرتجف استجابة رغماً عنها، همس لها والغيرة تمتزج بالحنان في عينيه: «أنا غيور جداً بطبعي وقد نبهتك لهذا منذ البداية ومعك تحديداً غيرتي كجهنم ولا تسأليني لماذا لأنني لا أعرف».

ردت عليه بهمس كهمسه وهي تحاول التكلم بعقلانية مجدداً: «علي أنا أستاذة جامعية و..».

قاطعها وهو يقول بعاطفة قوية: «أستاذة جامعية أم وزيرة ستظلين امرأة تشعين جاذبية رهيبة لا يمكنني حتى وصفها لك».

ثم باكتساح كامل كان يمحو أحمر شفاهها بفمه، كأنه يمحوه عن عمد وقد أحرقتة الغيرة من تلك الحمرة حتى في شفتيها، ابتعد هو يهمس قرب فمها لاهثاً: «أنت امرأتي أنا ملكتي أنا».

عابتة وهي تنظر إليه بعينيها الواسعتين: «وهل تكلم امرأتك وملككتك كما كلمتني قبل قليل؟!».

زفر أنفاسه بقوة ثم اعترف قائلاً: «في هذا معك حق أنا آسف».

رفعت يدها لتمسح شفثيه من أثر أحمر الشفاه وهي تقول له بنبرة تشي بأهمية ما تطلب: «من فضلك لا تكلمني مرة أخرى بهذا الأسلوب من فضلك غلي».

رد وهو ينظر لعينيها بوعده: «حاضر أنا آسف لأنني كلمتك بطريقة سخيفة وسأحسن من أسلوبني عندما لا يعجبني شيء تفعلينه انظري».

تنحنح ليجلو صوته ثم قال بنبرة لطيفة لا تخلو من غرور ذكوري يكاد يناقض (لطفه المزعوم): «من فضلك لو سمحت لن تخرجي بالفستان الأحمر».

تنهدت محبطة لكنها لم تياس فتصحح له بصبر: «الكلمات الصحيحة هي (لا أحب أن) وليس كلمة (لن)».

يهز كتفيه وكأنه يقول (هذا أقصى ما أستطيع).

ثم يبرر ببساطة صبيانية مغيظة: «مفرداتي دوماً قليلة ومختصرة لا أستطيع تغيير نفسي».

هزت رأسها وهي تسبل أهدابها ثم قالت بخفوت كأنها تكلم نفسها: «يا الله منك! ستتعبني كثيراً معك».

يقف على قدميه ويوقفها معه قائلاً بعينه اللامعتين رضا وتعلقاً شديداً

بها: «هيا أساعدك لتختاري فستاناً آخرونخلع عنك هذا الأحمر».

يمد كفيه إليها فتستجيب بصمت ونظراتها غامضة أنثوية ثم يضيف
بخفوت وهي تقف على قدميها: «الأحمر لي فقط يا ملكة وعندما نعود من
العرس ستلبسين قميص النوم الذي اشتريته لك قماشه أجود أصناف الحرير
ولونه نسميه أحمر دم الغزال».

تتورد وهي ترخي أجفانها في خفر وقلبها يخجل من نبضات شوق إليه
تحاكي نبضات شوقه إليه.

قاعة العرس

والله ومحتاجك يا خي عندي مثل الهوى والمي

دمك دمي وهمك همي بنن عيونك أشوف الضي

محتاجك دوم أنت وياي توقف لو دارت دنياي

غيوني ترخص هاي وهاي من أجلك وأقول شوي

يا قمر ويا نور البيت ياللي وياي أنت تربيت

مهما تغيرت وجافيت ما يغيرني عنك شي

ياقمر ويا نور العين ويا ساكن بين الرمشين

أنت حبيبي وتعرف زين حبك عندي أغلى شي

صدحت أغنية قديمة من أغاني المطرب محمود أنور في أجواء القاعة
بناء على طلب خاص من شاكر، يضحك سليم وصديق عمره شاكر يتقدم
نحوه بدعوة ضاحكة كي يشاركه رقصة (الجوبي) وهو يرفع مسبحة بيده
ويفرها بحركة دورانية، كتف بكتف تعاظدا لتدبك أقدامهما الأرض ثم ينضم
إليهما أولادهما وباقي الشباب في العرس بمن فيهم العريس، اشتعل الحفل
أنساً وعمت الوجوه السعادة وتعانق ضيقا العمر في آخر الرقصة ليبارك
شاكر قائلاً وهو في حضن صديقه: «تمم لك الله الأفراح والمسرات
وأسعدك برؤية أحفادك يا طيب يا ابن الطيبين».

يرد سليم ممتناً: «ولك المثل وأكثر يا ابن الأكرمين أنت أخي وصديقي
وعضيدي يا شاكر».

تحتضن عفاف صديقتها نورجان وهي تبارك لها قائلة: «أسعدك الله
بأولادك يا نورجان ما شاء الله حفظهم الله ورزقهم الذرية الصالحة».

كانت نورجان ترد لها بالشكر والدعوات المماثلة بينما عيناها تمران
بأولادها وهي تقرأ عليهم المعوذتين، علي اطمأنت عليه أخيراً وقد حظي
بامرأة كسجى يبدأ معها حياته من جديد وعمر صغيرها وطفلها ها هو رجل
بأبهى هيئة يجلس جوار عروسه صحيح أن الفتاة تبدو أحيانا نصف مجنونة

لكنها طيبة وصادقة وتحبه كما يحبها، انعصر قلبها فجأة وهي تنظر لعامر الكل لا يشعر به كما تشعر هي يبدو ضاحكاً مشاغباً شقياً كعادته، ملتصقاً بغرامه حرير فيجعل غيره نونه تشتعل؛ لكنه لن يخدعها هو أكثر أولادها صبراً وأثقلهم حملاً، لم يكن ظن سليم في محله، فلا يبدو أن زفاف عامر قريب كما خمن وهذا هو ما يقض مضجع ولدها ويكتمه في قلبه لهف قلب الأم عليه.

آخر الليل

أوقف عامر السيارة أمام بوابة بيت أسعد الجنابي لتترجل سدير أولاً تودع عامر ضاحكة وهي تتشاءب بينما حرير تقول لها: «سألحق بك حبيبتى».

تهز سدير رأسها وقد بدت قمة الانشراح ثم تلوح بيدها قبل أن تفتح البوابة وتدخل وعينا أختها الكبرى تتابعانها بمحبة هامسة: «بدت جميلة جداً اليوم بثوبها الأخضر هناك امرأة من أقارب العروس طلبتها لولدها لكنني قلت لها إنها ما زالت صغيرة».

عامر صامت فقط يبتسم وهو يطفئ محرك السيارة فتلفت إليه حرير وتقول باعتذار رقيق: «آسفة مرة أخرى لأن أمي وخلدون لم يستطيعا الحضور كانا...».

يمد أصابعه يضعه فوق شفيتها ليوقفها عن الكلام قائلاً:

«كفاك اعتذاراً».

إصبعه يلامس شفتها السفلى وحرقة في قلبه يكتمها عنها فيكتفي
بالسؤال وهو يقترب كي يطفئ بعض ما يعتريه هامساً بالحاح عاطفي:
«أخبريني كم تحبينني؟».

فتشير جنونه أكثر وهي تلتصق به وتلف ذراعيها حوله وتهمس قريباً جداً
من شفتيه وقد تلاشت كل الحواجز بينهما: «مجنونة بك».

كانت هي من بادرت لتقبله فتوتر جسده وهو يقاوم رغبات نفسه كرجل
بينما يبعد شفتيه عن فمها ويهمس لاهثاً: «لا أعلم كيف سأنام الليلة
سأموت لتكوني معي في بيت واحد، الغيرة تذبحني من أخوي».

ردت وهي تتعلق به: «سيكون لنا يومنا يوم أتوق إليه مثلك بالضبط».

اكتفى باحتضانها وهو يتحكم بردة فعل جسده؛ لكنه يشعر بالتعب، تعب
لصبر قادم واجب محتم عليه.

أخذ عامر يساعد الجدة كي تعود إلى سريرها بعد أن أدت الصلاة، كان
قد خلع سترته وربطة عنقه فقط لم تكن لديه رغبة تبديل ملابسه ولا حتى
الصعود والنوم في غرفته رغم تعب الجسدي الشديد، كان مخنوقاً بعض
الشيء ولا يشتكي لأحد ربما غياب شقيقه الليلة عن الدار جعل وطأة
الأمر أثقل عليه، يعد ترتيب الوسائد خلف ظهرها بينما هي تسبح سألها

«هل أنت مرتاحة يا جدة؟».

نظرت إليه بحب متدفق وقالت له: «الحمد لله سلمت يا روح جدتك».

شعرت به يود البقاء بصحبته فتحاملت على تعبها من هذه الليلة الطويلة وقالت له تناغشه: «اجلس جواري فيبدو جلياً أنك لا تطيق الصعود للطابق العلوي وشقيقاك ليسا فيه لكني لن أخبرهما حتى لا يشاكسانك».

جلس بالفعل جوارها وهو يضحك، ثم مد ساقيه وفتح زرين من أعلى قميصه متنهداً رغماً عنه، حاوطت الجدة كف حفيدها وقالت: «متى نفرح بك أنت أيضاً أريد حمل أولادكم أنتم الثلاثة قبل أن يسترد الله أمانته».

يرفع عامر يد جدته لفمه فيقبلها بعاطفة قوية وهو يقول بحشجة: «بالله عليك يا جدة لا تقولي هذا خاصة الليلة أطال الله بعمرك ومتعك بالصحة والعافية».

تبسمت لوجهه المتعب قائلة بتعلق شديد: «أكثر ما أسعدني أنك وعروسك لن تغادرانا قلب الجدة لا يحتمل بعدكم كلكم عنها».

شردت نظرات عامر ورفع ذراعه ليطويها فوق جبهته محدقاً بالسقف وهو يطلب بصوت خافت: «ادعي لي يا جدة».

فدعت له من قلبها وهي تقول بحنانها الفياض: «منحك المولى رزقاً طيباً وفيراً مما لك خير فيه».

أبعد ذراعه عن جبهته ليميل برأسه ويتوسد صدرها قائلاً: «ادعي لي بالصبر، أحتاج للصبر أكثر من أي رزق آخر».

رفعت كفها الدافئ لتمسد فوق رأسه وتقول بحكمة: «الرزق ليس مالاً فقط بني فالصحة رزق والذرية الصالحة رزق الصبر رزق وطيب الخلق رزق محبة الناس رزق».

ثم أنزلت كفها تحت ذقنه لترفع وجهه كي تنظر لعينه ثم تناغشه بالقول: «وعشق المحبوب ألد الأرزاق وقد نلتها يا جنوبي».

يضحك عامر ثم يعود ليتوسد صدر الجدة متمتماً: «نلتها بعد طول شقاء وحرمان وعقوبة يا جدة وما زال علي الصبر أكثر».

عاودت الجدة التمسيد على رأسه ثم مالت قليلاً لتلثم شعر حفيدها وتهمس له: «أنت متعب يا عيون جدتك ثم واسترح آخر الصبر فرح وهناء».

ثم أخذت تقرأ عليه القرآن وتصلي على الرسول وآل بيته الكرام حتى غفا في حضنها ولم يشعر إلا مع أذان الفجر..

همست بسمه في أذن أمها: «بالله عليك أُمي كفاك توصية للمسكين، الكل غادر منذ مدة ونحن ملتصقين هنا هل سنبقى لنصلي الفجر معهما؟!».

عبست الأم وهي تقول لابنتها الكبرى: «أذهبى لزوجك وأولادك ودعيني مع زوج أختك».

نظرت بسمه لعمر وهي تهز رأسها وتقول: «إن كان هذا يخفف عنك فقد فعلت المثل ليلة زواجي».

ضحك عمر بينما تغادر أخت (عروسه) لتنتظر أمها في السيارة، قالت الأم وعيناها. اللتان تشعان طيبة تناشدانه مجدداً: «سامحني بني وتحملني هاتان البنتان هما أمانة زوجي لي، وروناهي بالذات كانت حبيبة أبيها أغدق عليها الكثير من الحب ودللها غاية الدلال يا وجع قلبي عليه كأنه كان يعرف برحيله المبكر وأراد أن يمنح ابنتينا ما يدعم افتقادهما له بعد رحيله».

قال عمر وعيناها نحو باب الغرفة المغلق: «رحمه الله وأسكنه فسيح جناته».

لقد كانت حماته محقة روناهي مليئة بالحب، هذا الحب الذي أغدقه عليها أبوها بطريقة صحية سليمة جعلها كما هي الآن قوية متصالحة مع نفسها، قالت الأم وهي تمد قامتها لتقبل خد عريس ابنتها: «بالله عليك اصبر عليها يا ولدي روناهي لسانها كالمبرد أحياناً لكنها طيبة ولا تعرف المداينة والمراوغة كباقي البنات».

رد عمر بصدق: «وأنا أحببتها لأنها هكذا خالتي فلا تقلقي إنها في عيني

الاثنين». ورفع سبابتها ليشير إلى عينيه على التوالي لكن حماته لا تكتفي لتضيف أخيراً وهي تخفض صوتها كأنها تخشى أن تستمع (العروس) لها: «ارخ لها الحبل حتى تشعر بحريتها ولا تفقأ مراتنا بقضايا المرأة؛ لكن بالله عليك لا ترخه كثيراً فتطغى».

يضحك عمر من قلبه وهو يلثم جبين حماته، بينما تعلن أخيراً المغادرة فيوصلها حتى باب البيت وهي ترفض خروجه معها للباحة الخارجية، تدثرت بمعطفها الأنيق من الهواء البارد لليل اقترب بسماته من ليالي الشتاء بينما تتمتم في سرها: «أعانك الله على ما ابتلاك يا ولدي».

طرق عمر طرقتين قبل أن يفتح باب الغرفة، لم ينتظر ردها وقد اكتفى بتنبيهها لدخوله، وجدها عند منضدة الزينة تنظر لنفسها في المرأة وهي عابسة، ثم احمرت عند دخوله لتستدير إليه وهي تنظر إليه بتحفز وتميل قليلاً إلى جانبها تجر جر بيدها طارف قميص نومها اللؤلؤي القصير (جداً)، رغم تحفزها نحوه في وسيلة دفاعية منها فإنه لم يستطع منع نفسه إمعان النظر فيها، تحرك داخله بقوة نحوها شديدة البياض شعرها الأشقر يلتمع عند كتفيها المكشوفين، جسدها الممتلئ كان حلواً في إغراء خاص لقد لاءمها قميص النوم للغاية، وأظهر أجمل ما فيها ساقها البلورتين، ابتسم رغماً عنه وهو يفكر أنه عرف الآن فقط لماذا كانت غاضبة من جهاز العروس الذي تشتريه أمها لها، قالت بانفعال: «مؤكد تضحك! يحق لك

الضحك علي الليلة، هذا ليس قميص نوم إنما فعل فاضح في الطريق العام!».

خلع سترته ببطء ثم وضعها بهدوء على كرسي قريب وهي تراقبه بعينين متسعيتين كيف يفك ربط عنقه أيضاً، ابتلعت ريقها ولم تجد إلا أن تضيف بالانفعال نفسه أو أشد: «إنه كله بسببكم أيها الرجال! لماذا يجب أن أشتري كل هذه القطع الفاضحة كي أعجب... كي أعجب...».

تعثرت كلماتها وهي تتراجع للخلف وعمر يتقدم نحوها ارتطمت بمنضدة الزينة فاهتزت بعض زجاجات العطر لكنها لم تهتم، لتكسر كلها فهي اللحظة في موقف عصيب، دون شعورها وجدت شفتاها تنطقان بأفكارها الغبية: «أنا في موقف عصيب».

لم يضحك هذه المرة بل استمر يتقدم وهي تراجع للحائط هذه المرة عيناه ذكرتها بتلك القبلة الوحيدة بينهما هنا في هذه الدار قبل أيام قبل أن تفر هاربة منه وهي ترتجف ومنذ تلك اللحظة لم يعاود فعلها معها، خاصة وقد انشغلوا جميعاً بترتيبات العرس، حصرها بالحائط كما فعلها من قبل لترفع وجهها إليه وهي تقول بعينين مقاومتين وجسد متخاذل مرتجف: «ماذا؟».

مد يده ليلا مس خصل شعرها الشقراء هامساً: «ماذا أنت».

ثم يميل بفمه فتشهق وهي تلتصق بالجدار مبتعدة وهي تهتف بلهاث:

«ماذا أنت؟!».

يهز رأسه مبتسماً ثم تقدح عيناه بالشقاوة ليباغتها بمد ذراعيه يلفهما حول خصرها قائلاً: «أنا أتبع نصيحة حماتي».

تجمدت بالكامل كتمثال شمع بينما كله يتفاعل مع ليونة جسدها الدافئ وهي تتمتم كخرقة بلهاء (مجدداً): «أمي؟!».

فيرد وكأنه يتكلم بخدية: «أجل قالت لي ارخ لها الحبل».

يباغتها مجدداً وهو يشد جسدها بقوة تلتصق بكل (ليونتها) فيه مضيفاً: «ثم شدّه فجأة».

ينتظرها تخرج من الحمام وهو يتلاعب بعطورها فيفتح هذا يتشمم فيه ثم يغلقه ليفتح الآخر، يتنهد نزقاً وهو ينظر لباب الحمام بغیظ لا يعرف ما هذه الغيرة الجنونية نحوها، ربما تصالحت معه لكنها طوال حفل عرس عمر لم تكن على طبيعتها التي اعتادها منها منذ زواجهما القصير، وهذا يضايقه ويزعجه، اكتشف الليلة أن سجي لديها أسلوبها الخاص لتظهر غضبها قد تظهر هادئة للغاية؛ لكنها تضع عازلاً بينها وبينه ما زال يعتقد أنه لم يخطئ في رفضه للفستان لكن لسانه يحاججه: «أيها الغبي جد طريقة أقل تطرفاً لتظهر رفضك».

للحظة واحدة وكأن شيطاناً لئيماً خبيثاً وسوس في أذنه باسم (هيام)

ليجعل مزاجه أسوأ، تذكر حياتهما كخيال بعيد أو فيلم حزين مرهق، يعترف أن أشهر زواجهما الأولى كانت حلوة للغاية؛ لكنها لم تخلُ من منغصات بسبب شكوك هيام فيه، وقد تجاوزها هو وغروره العشريني يوحى إليه أنها تغار من شدة حبها له وهو أحبها وكان يغار عليها كرجل؛ لكن فيما بعد باتت غيرتها هي مخور علاقتهما ودوره أن يثبت لها على الدوام وفاءه لها، حتى أصبح يشعر بالاختناق والنفور.

يعقد علي حاجبيه وهو يتعجب من برود إحساسه اللحظة لم يعد الأمر ينفره أو يثير اختناقه التفكير فيه بل يشفق على تلك الشابة التي رحلت ولم يفهم علتها أقرب المقربين إليها وهو منهم.

فتح باب الحمام وأطلت سجي بقميص النوم الأحمر وشعرها تدفق حولها زال عبوسه وقد تلاشى كل ما عداها، هذرت روحه وهو يقترب ويقول بخفوت: «أمواج الفرات تجب ما قبلها».

نعم لقد جبت ما قبلها لقد جلت روحه وبات (علي) الذي يعرفه من جديد، همست بابتسامة لم تصل لعينيها: «ماذا قلت؟».

توقفت خطواته فجأة فارتفع حاجباها الأنيقان قليلاً بتساؤل صامت ليقول علي: «أريد أن نخبر بعضنا بكل شيء، لا أريد لهذا الغرام بيننا أن تشوبه شوائب تعكر صفاءه».

ظلت تنظر إليه وهو يضيف: «أريد أن تعرفي أن نصف كلامي ساعة

الغضب لا أعنيه هو طبع سيئ مني أنا أعلم هذا لكن لا تجعله يقف بيننا».

ترققت نظراتها تأثراً وهي تهمس اسمه: «علي».

لكنه يهز رأسه مصراً على قول المزيد: «فقط كوني على ثقة أنني أحببت سجي الأستاذة الجامعية، سجي الملكة الآشورية سجي الجذابة الواثقة الأنيقة بشكل يميزها عن ملايين الفتيات سجي الخجول التي تقطر حياءً رانياً سجي الهادئة الصبورة على جنون حبيبها علي».

ضحكت وعيناها تدمعان من كلماته ليتقدم اللحظة فقط كي يأخذها بين ذراعيه بخشونة مختتماً كلامه العاطفي بالقول: «سجي التي تلبس الأحمر ليلي فقط».

كان يرتجف تأثراً كتأثرها فيها شيء مختلف يا ربي! همس لها: «هل سامحتني من قلبك؟».

تمتت بين قبلاته: «ن.. نعم».

بعد خمسة أشهر منتصف الربيع / يوم جمعة صباحاً

بجلباب فيروزي أنيق للغاية وفضفاض كفاية ليكون مريحاً في (حالتها) كانت سجي تنهي ترتيب المائدة استعداداً لاستقبال حماتها والجدة على إفطار صباحي مبكر، بينما ترد على العم رياض عبر الهاتف فتقول له وهي

تخفي غصة حزن داخلها: «عماه! لقد مضى شهران وأنتما في تركيا».

يأتيها صوت عمها مبرراً بما صدمها وجعل قلبها ينعصر: «خالتك تحسنت نفسيتها هنا وهي تلح علي لا تريد العودة».

توقفت يداها عما تفعله لتتساءل بتوجس: «ماذا تعني لا تريد العودة؟! هل تخططان للاستقرار هناك إلى الأبد؟!».

رد عمها بالقول المحتار: «لا أدري بنيتي ربما أبيع البيت ونشتري شقة سكنية تناسبنا ما زلت غير واثق من القرار».

يدها عفويّاً تحركت لتلامس بطنها التي برزت بوضوح وقد دخلت في الشهر الخامس للحمل بينما تتسأغل بحشرجة: «وأنا عماه؟!». ابتلعت الغصة وهي تتماسك وتضيف متسائلة بخوف غريب: «ألن تأتي وقت ولادتي ألن تكون معي؟! هل ستتركني وحيدة وأنا ألد طفلي الأول؟!».

رد عمها مستنكراً: «كيف تقولين هذا؟! مؤكداً سأتي إنه حفيدي الأول أيضاً وبإذن الله سأكون معك ولن يكبر في أذنيه غيري». أطلقت نفساً مرتاحاً دون أن تشعر بمراقبة زوجها لها وهو يتكئ بكتفه على الحائط خلفها بمسافة مترين، أخذت يدها تتلاعب بالملاعق والأشواك قبل أن تسأل بخفوت: «هل يمكن أن أكلّمها؟».

هذه المرة لم يستطع العم رياض إراحتهما وهو يقول بحنان: «لم يحن الوقت بعد يا ابنتي اصبري فقط على خالتك وبإذن الله خير». أخذت تسجي

تهز رأسها وهي تتمتم: «بإذن الله».

سألته عن صحته وصحة خالتها ثم أنهت المكالمة وهي تؤكد عليه الالتزام بوعده لها الحضور في موعد الولادة.

أغلقت الهاتف ثم أخذت تمرر يدها فوق بطنها وتهمس لطفلها: «جدك سيحضر يا حسين بإذن الله سيحضر ولادتك ويكبر بأذنك».

كانت تبتسم بحنو الأمومة عندما شعرت بخطوات زوجها فلم تلتفت إليه بل تنتظره ليلف ذراعيه حولها ويسحبها للخلف يضم ظهرها لصدره وكفاه تمران فوق بطنها هامساً بمزاج حلو: «ما زال لدينا الوقت لتغيري رأيك وترقصي لي، بطنك ما زالت صغيرة وحسين لن يعارض رغبات أبيه». تضحك وهي تلتف بين ذراعيه لتواجهه ثم ترد عليه: «كم مرة قلت لك أخجل؟! لن أفعلا أبداً».

يعبس في وجهها مدعياً التدلل وهو يقول: «لا أفهم كيف تخجلين مني؟! أنت قلت لي بنفسك إنك تجيدين الرقص إذن ارقصي لي لخمس دقائق فقط».

أخذت تحاول إبعاد ذراعيه وهي تحرك حاجبيها صعوداً ونزولاً علامة الرفض قائلة: «انس يا ابن نونة».

يرفع إحدى ذراعيه فيلامس بأصابعه خصل شعرها قائلاً بنظرات جدية: «هل تعلمين يا سجي ربما يعجبني حقاً أن ترقصي لي لكن حيائك وخجلك

يعجباني أكثر لا أريد أن يتغير بك هذا أبداً».

لم تستغرب كلماته لقد اكتشفت في علي الكثير خلال أكثر من خمسة أشهر هو عمر زواجهما، أصبحت أكثر قدرة لفهم بعض تناقضاته وطباعه وأيضاً للتعامل مع غيرته واندفاع انفعاله وغضبه، يجب أن تعترف أن نصيحة حماتها وهي تكلمها عن علي يوم الزفاف أفادتها بالفعل؛ لكنها نفذتها بطريقة وبحدس المرأة فيها وأهم ما اكتشفته فيه أن علي رجل يحب أن يكون مبادراً مع امرأته كما له مزاج خاص في أوقاتها الخاصة؛ لكنه في الوقت ذاته يريد منها استعداداً اهتماماً تجاوباً يوازي حرارة مشاعره، وعليها أن تعترف أنه رجل لا يصعب عليه الحصول على ما يريد من امرأته خاصة عندما تكون عاشقة له بمعنى الكلمة، ولم يكن هذا في علاقتهما الحميمة وحسب بل في كل تفاصيل حياتهما الزوجية، وكلما استوعبت تفصيلاً جديداً ترن في أذنيها كلمات نونة عنه.

قالت تناغشه رداً على كلامه الأخير وهي ترفع يدها كي تلامس لحيته: «يا أولاد آدم حيرتم بنات حواء بتناقضاتكم».

يعبس متسائلاً: «من أين لك هذا الكلام؟». ردت وهي تحاول إبعاده: «قرأته في منشور على الفيسبوك لكاتب ما».

يمنعها الابتعاد وهو يشدها ببعض الخشونة قائلاً بنظرات جادة: «أعلم أن من حَقك الشعور بوجود طرف من عائلتك معك؛ لكن هل أصبحت تشعرين

بالأمان معي بشكل يكفيك؟ هل تشعرين أنك تعتمدين عليّ؟».

ردت عليه بصدق وعيناها تنطقان كلماتها معها: «إن كان هناك أسباب لعشقي لك يا علي كل هذه السنوات فهو ما تسألني عنه اللحظة أنت بالنسبة إليّ هكذا وأكثر».

ثم أسبلت أهدابها وكأنها تخجل من جرحها الذي وصفته مضيئة: «لكن عمي رياض هو أبي الذي عرفته هل تعلم شعور طفل يبحث عن ذكرى قديمة من أمه وأبيه تطمئنه أن الأمور بخير؟ هذا هو شعوري، خوف طفولي مني ربما لأنني سأكون أمًا للمرة الأولى فأبحث في أبوة مفقودة عن طمأنينة من نوع خاص».

عادت لتنظر إليه وعيناها لامعتان بالدموع الخفيفة فيبتسم تلك الابتسامة الخاصة عندما تلمسه كرجل قائلاً: «رحم الله أمًا وأبًا تشاركنا لإنجابك بهذا التوهج العاطفي».

ثم يرفع سبابته اليمنى ويرسم حدود عينيها بالتراب هامساً: «الأفق».

ثم ينزل بسبابته لحدود شفتيها مضيئة: «الضفاف».

يميل إليها مقبلاً ذاك (الضفاف) متمتماً: «وأنا غارق دوماً بينهما».

كاد أن يتمادى لولا رنين الجرس الذي أفسد عليه وسجى تضحك لاهثة وهي تبتعد عنه.

بيت أسعد الجنابي

كان عامر يعد الشاي لنفسه في المطبخ عندما دخل عليه خلدون يتشاءب ويشعر مشعث، تتمم بالسلام بينما يجلس على أقرب كرسي وهو يتساءل: «أين أمي؟».

رد عامر وهو يضع بعض السكر: «فتحت لي الباب وأدخلتني ثم ذهبت لتطمئن على نوم العم أسعد».

لمحت عينا عامر آثار خطوط حمراء واضحة كشكل الأصابع على خد خلدون الأيسر، لقد كان أبيض البشرة كحرير والآثار بارزة بوضوح، أخرج كوباً جديداً ليعد لشقيق زوجته الشاي وهو يسأله بطريقة فكاهية: «هل أخذت صفقة اليوم؟».

يبتسم خلدون وهو يرد بالطريقة نفسها: «بل صفقة الأمس أذني اليسرى تطن حتى اللحظة».

كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لتخفيف الأمر عليهم جميعاً أن يأخذوها بفكاهة، أن يجعلونها أبسط من التأثير بها، فحالة العم أسعد استاءت للغاية وأصبح عنفه متكرراً ولولا الدواء الذي يأخذه ربما لكان أسوأ، لقد تقاسموا جميعاً العناية ورغم المشقة وألم رؤية إنسان قريب يفقد نفسه شيئاً فشيئاً فإنهم تقبلوا القدر بصمت ورضا.

اقترب عامر حاملاً كوبيّ الشاي ليجلس على كرسي آخر وهو يناول خلدون كوبه، شكره خلدون وهو يرتشف من الكوب ويفضض بالكلام كعادته مع عامر: «كان مهتاجاً للغاية طيلة الليل يغلق ويفتح الأبواب بعنف دون توقف؛ لكنه هدأ مع أذان الفجر ثم نام».

تساءل عامر: «أين حرير؟ هل ما زالت نائمة؟».

رد خلدون وهو يرخي أجفانه ببعض النعاس: «أظنها استيقظت لقد تعبنا أنا وهي وأمي طيلة الليل بسهرنا مع أبي».

فقال عامر: «المهم أن سدير نامت كي تعتني هي به في النهار».

قال خلدون وهو يرتشف من كوب الشاي: «لقد نامت جيداً تضع الموسيقى الهادئة في أذنيها كي تستطيع النوم دون التفكير بالأصوات التي تصدر من أبي، إنها حساسة للغاية».

يهز عامر رأسه مؤيداً بينما يضيف خلدون بنظرات شاردة: «هل تعلم يا عامر أبي لم يعد يستطيع صعود الدرجات، يقف عند مقدمة السلم لكنه لا يعرف كيف يرتقيها؛ البارحة وأنا أنظر لوقفته تلك وهو حانق شعرت وكأنه خائف، إنه غاضب لأنه خائف ولا يشعر بالأمان».

لم يعرف عامر كيف يخفف عن هذا الشاب المراهق وهو يواجه أمراً موجعاً كهذا، يتنحنج خلدون كأنه يدفع إحساسه بالبكاء ليقول وهو يرتشف مزيداً من الشاي: «لاحظت عليه أيضاً البارحة أنه يحك فخذه الأيمن لكنه

يرفض تماماً الاقتراب منه أو ملامسته».

قال عامر: «سأحاول اليوم معه عندما آتي في المساء».

في تلك اللحظة دخلت حرير بسرّوال جينز وبلوزة خفيفة خضراء وهي تلملم شعرها الطويل كذيل حصان قائلة بنبرة ناعسة كعينيتها: «صباح الخير.. آسفة لأنني تأخرت عليك».

لكن عامر يكتفي بالقول وهو يقف على قدميه: «هيا يا كسولة لنغادر وإلا سأتأخر على المحل».

في السيارة سألته وهي لا تستطيع منع نفسها من التثاؤب: «هل أوصلت خالتي نورجان والجدة إلى بيت علي؟».

رد عامر وهو يقود بسلاسة في شوارع الحي حتى يخرج للشارع العام: «نعم وعدت إليك سريعاً كي نفطر معاً».

قالت وهي تنظر إليه بشعور الذنب: «أنت تفطر معي كل يوم وهذا يؤخرك على عملك».

مد يده ليأخذ كفها ويرفعه لفمه يقبله وهو يقول: «أصبح يومي لا يبتدأ إلا بفعل هذا». تبسم له ورغم ابتسامتها رآها متعبة أكثر من أي يوم آخر فأضاف: «أنت مرهقة لا أظن فكرة الإفطار بمطعم مناسبة».

ودون أن ينتظر منها رداً عاد أدراجهِ للحي وهو يقول: «سأخذك لبيتنا لا أحد هناك فأبي خرج باكراً جداً مع العم شاكر ليتفقدا بناء المصنع».

تنهدت براحة وهي تعترف له: «هذا أفضل بكثير، أظن أنني قد أغفو في أية لحظة».

بيت عمر وروناهي

دخل عليها عمر الغرفة فيجدها تمسك بأحد قمصانه جوار منضدة كي الملابس وهي غارقة بالبكاء! تتمم في سره: «يا إلهي ليس ثانية! البارحة ظلت تبكي على الصحن المكسور لساعتين وتقول (كسرت هدية أُمي)».

تقدم منها يسألها بلطف: «ماذا هناك روناهي؟!»..

مدت يداً مرتعشة بالقميص وترد عليه من بين شهقاتها الباكية: «لقد أحرقت قميصك المفضل وأنا أكوي فيه».

أخذ القميص منها ورماه بعيداً ثم قال يحاول تهوين الأمر عليها: «فداك القميص بالله عليك أتبكين لأنك أحرقت قطعة قماش؟!».

هتفت فيه بانفعال متزايد: «أهذا بدل أن تواسيني؟!».

رد بعجب من حالتها المتفاقمة: «أواسيك؟! إنه قميصي أنا وليس هدية من والدتك كما صحن الأمس ثم منذ متى وأنت درامية هكذا؟! دوماً لا

تباين بهذه الأمور».

وكأنه صب الزيت على النار دون أن يشعر لتفاجئه وهي تغادر الغرفة
تقدح شرراً هادرة: «وتصفني أني لا أبالي ودرامية أيضاً؟! لم يتبق إلا أن
تشتمني، لن أبقى دقيقة واحدة في هذا البيت».

لا يصدق عمر ما يحصل لروناهي وهو يلحق بخطواتها التي غادرت البيت
بالفعل، لتتوجه يساراً يناديها وقد بدأ يغضب بالفعل: «توقفي روناهي! لا
تكوني مجنونة هكذا ماذا جرى لك؟!».

تلتفت إليه وتهذر مجدداً: «لن أتوقف، وسأريك المجنونة ماذا تفعل».

حمد الله أنها ترتدي ملابس رياضية لائقة فلم تفضحه بالحي، أمسك
ذراعها أخيراً ليوقفها أمام بوابة بيت أخيه علي ليحاول أن يحتوي غضبه كما
يحتوي حالتها الغريبة المهتاجة وهو يتساءل: «إلى أين تذهبين؟ اعقلي
روناهي ودعينا نعود لبيتنا كي نتكلم والدتك إن رأتك هكذا سيقتلها القلق
عليك».

لكنها رفعت ذراعها وأشارت لبيت علي قائلة بالانفعال نفسه: «أنا لم
أكن ذاهبة لأمي بل إلى أخيك الأكبر أشتكى له ما تفعله معي».

أفلتها وهي تندفع لترن الجرس بتهور وعمر يهز رأسه ثم يرفع وجهه
للسماء متمتماً: «يا رب! أمي وزوجتي بالطباع نفسها؟! كثير هذا علي».

بعد ربع ساعة وسط غرفة المعيشة والكل واقف على قدميه عدا الجدة كانت أربعة وجوه تحدق في رونا هي وهم لا يفهمون منها كلمة وسط ضجيج انفعالها العصبي، بينما يقف عمر جانباً ينتظرها أن تفرغ كل ما في داخلها عسى أن تهدأ، علي يوجه نظراته لأخيه كأنه يسأله (ماذا حصل؟!) فيكتفي عمر بهز كتفيه وكأن الجواب (لا أدري!)، الجدة تمعن النظر في وجه زوجة أصغر أحفادها ونونة عابسة لم يعجبها أسلوب رونا هي أما سجي فكانت محتارة لا تعرف كيف تلتف الجو وتهدئ ضيقتها غير المتوقعة؛ لكنها حاولت وهي ترسم ابتسامة على شفتيها قائلة بلطف: «اهدئي حبيبتى رونا هي لم أرك يوماً بهذه العصبية دوماً أنت فكاهية ومزاجك حلو».

فجأة غمرت رونا هي وجهها بكفيها وأخذت تجهش بالبكاء عندها قالت الجدة: «أظن الفتاة حاملاً».

توقفت رونا هي عن البكاء فجأة كما بدأته فجأة؛ ليعم الصمت وهي ترفع وجهه وتتساءل بصدمة: «ماذا؟!».

وقبل أن يصلها أي رد استدارت بعنف لزوجها تهدر فيه بشبه هستيرية: «كيف فعلتها من وراء ظهري؟! ألم نتفق أن لا حمل الآن أخبرني كيف فعلتها، حسبي الله ونعم الوكيل».

الوضع عاد ليخرج عن السيطرة وقد اهتمجت نورجان هذه المرة فتهدت تزار في وجه كنتها وعلي يمسكها من ذراعيها كي تهدأ: «أتدعين على ولدي

وأمامي؟!». .

عمر من جهته يحاول السيطرة على رونا هي وقد لاحظ أن وضعها فعلاً يشبه وضع أمه عندما تعاني موضوع الهورمونات، وبينما يمسك بذراعيها يحاول أن يجد كلمات لتهدأ من هذه الهستيرية، كانت زوجته ترد على أمه والعرق يتصبب من جبينها: «حتى الشكوى لله تمنعنيها عني خالتي، فوضت أمري لله فوضت أمري لله...» .

ثم رفّت أجفانها وتعثرت كلماتها وتمايل جسدها تتلقفها ذراعا عمر وهي تتمتم بتناقل: «أظن أنني سنيغمي عليّ» .

آخر ما سمعته هتاف عمر القلق قرب أذنها: «رونا هي حبيبتي» .

قبل أن تعم الظلمة.

استيقظت من ظلمتها شاهقة بإحساس بلل ورطوبة فتحت عينيها وللحظة داهمها شعور خوف وهي تتطلع للوجوه حولها باضطراب، كان أقربها وجه الجدة وقد جلست جوارها تتمتم صلواتها على النبي وهي تمسح وجه رونا هي برطوبة ماء، بحثت عن وجه عمر بين الوجوه المحلقة فوقها فلم تره ثم شعرت بمن يضغط كفها لتكتشف أن عمر يجلس على الأرض جوار الأريكة المستلقية عليها، نظرت لعمر والدموع تتجمع برقة في عينيها وهي تشعر بالإرهاك الجسدي والعاطفي فتسأله: «ماذا.. ماذا حصل؟» .

يميل عمر ليقبل جبينها متمتماً بالحمد بينما صوت الجدة يأتيها ضاحكاً:

«أخشى أن أقول لك إنك حامل مرة أخرى يا ابنتي فيغمي عليك من جديد».

ضحك الجميع ونورجان تقول ببعض التأنيب: «لقد فضحتنا بانفعالك الهستيري حتى أنا لم أفعلها».

بالسر تعوج الجدة فمها يميناً وشمالاً وهي تتمتم: «صحيح، وأنا أشهد».

تنظر رونا هي لعمر وبدت خائفة فجأة وهي تسأله بخفوت: «هل أنا حامل حقاً؟!».

رد بالخفوت نفسه والكل يتفرق من حولهما: «سنتأكد حبيبتني فقط اهدئي».

ردت وهي تتذكر كل السخافات التي قالتها لتعتذر منه بحرج فظيع: «آسفة لكل ما قلته لا أدري من أين جاءت تلك الكلمات؟! منذ متى اتفقنا على عدم الإنجاب؟! هل لبستني روح شريرة لأفتري عليك كل هذا؟!».

ضحك عمر من قلبه ثم قال وهو يمد يده ليداعب شعرها قائلاً: «المهم أنك تعترفين بالافتراء علي يا ضي القمر».

أطل شعور الذنب والخزي ثم قالت بخفوت شديد كي لا يسمعها أحد إلا هو: «يمكنني أن أقول بصوت عال الآن إننا اتفقنا فقط أن نترك أمر الحمل يحصل متى ما شاء الله كي تسمعني عائلتك هل تريدني أن أفعل؟».

ثم تعبس مضيفة بالخفوت نفسه: «أم ستجبرني أن أقولها علناً وتعاقبني

بإحراجي أمامهم أكثر مما أنا محرجة؟».

ما زال وجهه ضاحكاً ونظراته حلوة وهو يتطلع إليها ويهمس: «لا تهتمي
إننا أفراد عائلة متعودون على نوبات المجانين».

أخذت تضربه بقبضتها في كتفه وهو يضحك بينما نورجان عن بعد تغلي
وهي تقضم بقطعة خبز وتقول لولدها الأكبر بنبرة مفترسة: «انظر إليه كيف
يدللها بعد كل ما فعلته المجنونة، لقد دعت عليه أمامي سأذهب إليها
اللحظة وأسكب فوق رأسها دلو الماء المثلج».

يكنتم علي ضحكته وهو يحاوط أمه بذراعه يدللها كي تخف غيرتها:
«إنها صغيرة نونة أين قلبك الطيب لتتفهميها وإذا صدق حدس الجدة وكانت
حاملًا فرما هي خائفة سجي ببداية الحمل حتى الآن تشعر بالارتباك
والقلق».

التفتت لتنظر إليه وترى ذاك الألق من راحة البال في عينيه لتقول له وقد
نسيت غيرتها من كنتها: «أنت مرتاح مع سجي أليس كذلك؟ أقصد
علاقتكما كزوجين بعد مرور هذه الأشهر».

عينا علي تلاحقان زوجته التي تقدم العصير لروناهي الآن ثم انتقلتا
للصورة (البغدادية) المعلقة على الجدار صورة الفتاة التي أهداها هو
لسجي في عيد ميلادها الثلاثين، شعر وكأن عمراً طويلاً مضى وهو يعرف
سجي وكأنها كانت معه في حياة ما كان ينظر للصورة ويتطلع للعينين

الواسعتين والشفيتين الممتلئتين قائلاً: «سجى زوجة وامرأة رائعة نونة
منظمة أحيانا لدرجة تغيظني هادئة للغاية فتجيد احتواء ساعات جنوني
خلابة بالعطاء لكن أشعر بها دوماً تحتاجني وتخجل أن تطلب لكني لا
أخجل أن أعطي كما لا أتنازل عن الأخذ».

ضحك بتأوه عندما قرصته نونة في ذراعه وهي تقول بزمجرة: «كفاك
أنت الآخر ولا تبالغ بمدحها أمامي هكذا أنا أغار عليكم أكثر من غيرتي
على سليم نفسه».

يميل ليقبل خدها وهو يضحك.

على أريكة صغيرة مريحة في المطبخ كانت حريز تضحك من قلبها على
فكاهات عامر وهي تجلس في حجره تلفها ذراعه الأيمن بينما يطعمها بيده
اليسرى شعرت بالشبع وهي تميل متنهدة تحتضنه بقوة وتهمس: «أنت
تخفف عني الكثير ليتك تعلم كم تفعل».

مد يده ليفتح رباط شعرها يحرره قائلاً بشقاوة: «التخفيف عنك هكذا
مصدر إثارة لي».

تحتضنه بكل قوتها وهي تقبل عنقه وتهمس بكل مشاعرها: «أنا احبك
كثيراً لم أظن في حياتي أنني سأحب هكذا!».

شعرت بتجمده فجأة ولم تكن هذه المرة الأولى منذ شهر تقريباً بدأت

تشعر منه بهذا وكلما سألته وجد طريقة ليقنعها برد منطقي؛ لكن هذه المرة شعرت بتوتره أقوى وأشد، أبعدت نفسها قليلاً كي تنظر إليه فهاها هذا المزيج من الرغبة والعشق والعذاب الذي ينضح من عينيه وتعابير وجهه، كانت المرة الأولى التي تراه هكذا فسألته بقلق: «ماذا هناك عامر؟! ليست المرة الأولى التي أشعر فيها أنك تتشنج هكذا معي».

يبتلع ريقه وهو يصارحها بما لم يعد يستطيع إخفائه أكثر: «أنا آسف لكن لم أعد أحتمل حرير».

تبعد شعرها عن وجهها وهي تتساءل بتركيز: «أخبرني عامر لماذا تخفي عني؟!». رد وهو ينظر في عينيها: «أنا أتعذب حرير أتعذب وأنا أ منع نفسي عنك حتى لا تفلت رغبتني فيك وفي ذات الوقت لا أستطيع الابتعاد.. لا أستطيع تجنب لمسك.. لا أستطيع منع نفسي عنك».

سكنت تعابير حرير وهي تستمع إليه بينما يكمل عامر مطرقاً بتوتر: «لكننا وعدنا بعض بليلة الزفاف الثوب الحريري الأبيض ليلتنا الأولى معاً ووعدتك أنني سأنتظر مهما طال الأمر وعدت ولم أكن أعرف كم سأتعذب بهذا الوعد».

مدت يدها لترفع وجهه إليها وتقول له بهدوء وقرار حازم: «سأكلم أُمي سأخبرها أننا سنتمم زواجنا».

بدا عامر كمن وقع بين نارين فيقول ببعض الاعتراض: «لكن عائلتك

تحتاج إليك ووالدك».

قاطعته حرير بالقول العقلاني: «لنكن واقعيين عامر أبي لن تتحسن حاله وهذه حقيقة تقبلناها، خلدون وسدير تغيرا خلال الأشهر الماضية وأصبحا أقوى عزيمة بمحنة أبي أصبح لهما دوراً فاعلاً في البيت الآن ربما خلدون أفضل من سدير في استجابته لكن لا بأس سدير ستقوى وتنضج».

لم يستطع قول شيء فتضيف هي ما ينتظره ولم يستطع قوله قبل الآن: «كل الأمور جاهزة لنتم زواجنا، فستان الزفاف الذي اخترته أنت بنفسك في دولابي وبيتنا في الطابق العلوي هنا انتهى العمل فيه منذ شهر واشترينا الأثاث الذي يناسبه إجازتي المفتوحة من عملي مستمرة ولو اضطررت للاستقالة سأستقيل لأتفرغ لعائتي ولك».

كان كلامها منظماً للغاية رغم شحوب التعب على وجهها وهذا أشعره بالذنب وكأنه يتصرف بأنانية فيقول بتردد: «لا أريد أن...». قاطعته بحزم: «بل تريد هذه ليست أنانية منك بل ربما أنا من كنت أنانية معك وأهملت حقك علي».

علق بحنو وهو يمد يده لعنقها يلامس نعومتها الحريريّة: «أنت تعتنين بعائلتك حرير وهذه ليست أنانية».

ردت بحب جارف: «وأنت أيضاً عائلي».

ثم رفعت كفه التي تلامس عنقها لتلمسها بفمها هامسة: «أنا أحبك عامر

فوق ما يمكنني أن أصفه وأريد إسعادك لكل السعادة التي تمنحني إياها».

أخذها بين ذراعيه بقوة وهو يهمس بعهد على نفسه: «قسماً بالله لن أفتح فمي باعتراض واحد متى ما شئت ووقت ما تريدن اذهبي لبيت عائلتك وأنا سأكون معكم دائماً».

ردت وهي تبادلته الاحتضان بالقوة واللهفة نفسها: «أنت دوما كنت معنا كل ما فعلته لأجل أبي ولأجل عائلتي».

أخذ يقبل بجنون كل جزء من وجهها ورقبتها فتغمض عينيها وقلبها يقرع هادراً بينما هو يهمس لاهثاً: «زفاف بالفستان الحريري الأبيض».

فتكمل هي بارتعاش: «وبكل قطعة صغيرة حريرية سأرتديها تحته لأجلك».

مساء

تستلقي على سريرها وهي تكلم صديقتها بسمة ووفاء عبر الهاتف وتخبرهما بقرارها فتضحك حرير وكلتاها تزرعدان ثم تقول وفاء بحماسة: «إذن ستكلمين والدتك الليلة؟». ردت حرير وهي تنقلب على جانبها: «ربما الليلة أو غدا صباحاً أبي اليوم كان هادئاً طيلة النهار والحمد لله».

صارحتها وفاء بالقول: «منذ شهرين أنا وبسمة لم نعرف كيف نكلمك

بالأمر الحمد لله أن جاءت منك».

وضحت حرير بهدوء: «منذ شهرين لم أكن أستطع ترك أخوي وأمي وحدهم يراعون أبي لم أكن أثق بسدير وخلدون كفاية، اليوم تغيرت الأمور في بيتنا وانتظمت وأصبحت مهمة مراعاة أبي موزعة بيننا بثقة».

تنهدت وفاء ثم قالت مازحة: «أقسم بالله أنا متحمسة أكثر منك».

لتشاركها بسمة المزحة قائلة: «وأنا متحمسة أكثر منكما أنتما الاثنتين لقد شاب شعر رأسنا بانتظار ليلة الزفاف الكبرى».

انفجرت ضاحكات عندما تجمدت ضحكة حرير على صوت صرخات أمها من الطابق السفلي: «حرير انجديني يا حرير».

دون شعورها رمت الهاتف دون أن تودع صديقتها وهي تهرول مغادرة غرفتها وجسدها يرتجف، كانت سدير تهرول في إثرها وتسألها ماذا هناك لكن حرير لم ترد بل تركض فقط وهي تنزل درجات السلم.

في الطابق السفلي وفي غرفة والديها دخلت حرير أولاً وفي ظهرها سدير وجدت أباهما جالسا على كرسيه المنجد تائه النظرات كطفل ووالدتها قبالته تجلس على الأرض وهي تبكي وتضرب بكفها على فخذهما، بينما لمحت حرير على الأرض أيضاً جوار أمها السروال الكتاني الطويل الداخلي الأبيض الذي يلبسه والدها على الدوام أسفل جلبابه للتدفئة، تمتعت وهي تتقدم من أمها بوجل: «ماذا حصل أماه؟».

البكاء يخنق كلمات الأم وهي ترفع طارف جلباب زوجها قائلة: «منذ أيام وهو يرفض تبديل جلبابه منذ ساعة وجدته هادئاً فاستغللت الفرصة انظري يا حبيب انظري ماذا وجدت وأنا أخلع عنه سرواله الداخلي».

صرخت سدير قبلها بينما تتسع عينا حبيب بصدمة وهي ترى أثر الحرق الرهيب في فخذ والدها الأيمن كان حرقاً متفاقماً ويبدو جلياً أن والدها لم يعد يشعر بالألم الدموع تتجمع طوعاً في عينيها وهي تتمتم بإحساس الصدمة: «ما هذا الحرق!».

عادت أمها لتبكي وتولول: «لا أعلم لا أعلم بنيتي متى حرق نفسه هكذا».

نظرت حبيب في عيني والدها وهي تسأل دون شعورها: «كيف حرقت فخذك هكذا أبي».

لكن كل ما قاله أن نطق باسمها: «حبيب». ارتجفت بخوف رهيب منذ شهر كامل لم ينطق اسمها ولا اسم أحد منهم فقط يكرر اسم (أشواق) فتهرع أمها إليه في رضا يشق القلب، حشرات البكاء تجمعت في صدرها وهي تصرخ في أختها: «اتصلي بخلدون قولي له أن يعود للبيت واتصلي بعامر كي يحضر أي طبيب».

بعد ساعتين

خرج عامر من غرفة حمويه بصحبة طبيب شاب يعرفه من الحي بينما

يقف خلدون جامداً عند باب الغرفة وإلى جواره أخته سدير الشاحبة، أما الأم فجلست على حافة السرير عند قدمي زوجها وهي تنظر بدموع منسكبة لفخذه الملفوف برباط طبي. وقد عالجه الطبيب للتو بما يستطيع، وحدها حرير كانت تبتسم لوجه أبيها وهي تحمل إليه علبة البسكويت وتجلس جواره على السرير قائلة: «أحضرت لك البسكويت الذي تحبه».

بهذوء كان يأخذ منها البسكويت ويقضم منه دون أن يقول كلمة، ما زالت تبتسم وهي تناوله قطعة جديدة حالما أنهى الأولى، كان عامر قد عاد ليقف جوار خلدون يراقب المشهد أمامه وقلبه يتوجع لأجل حرير دون أن يملك فعل شيء، استمر أسعد بأكل البسكويت ثم فجأة مد يده ليأخذ بضع حبات من العلبة ويضعها في جيب جلبابه العلوي تساءلت حرير عفوياً باستغراب: «لماذا تضعه في جيبك؟!».

فاجأها هذه المرة كما فاجأ الجميع من حوله وهو يقول جملة كاملة مترابطة دون تلكؤ: «أحفظه لخلدون عندما يعود من الروضة إنه يحبها».

ساد الصمت التام، كانت إحدى الصحوات النادرآت مؤخراً لأبيها ليتكلم بشكل واضح حتى وهو يتكلم بالماضي وكأنه الحاضر، لقد ذكر اسم خلدون أيضاً، ابتلعت ريقها وهي تنظر في عيني أبيها بلهفة موجهة لتقول بابتسامة مرتعشة وهي تنحني لتقبل ظاهر يده: «نعم خلدون يحبها».

لم تستطع إزاحة عينيها عن عينيهِ بينما يسألها بارتباك وقلق:

ردت وهي تشير ناحية الباب: «إنها هناك عند الباب انظر إليها».

يعبس أسعد وهو يقول بتوبيخ: «ما بالك يا ابنتي هذه ليست سدير، نادها بالله عليك ربما خرجت للشارع تلعب».

كانت كلها ترتعد إنه يتكلم بحوار كامل، أخذت تهز رأسها بـ(نعم) بينما يضيف هو بالقلق نفسه الذي تعرفه فيه منذ سنوات: «انتبهي لها إنها ضعيفة كم أخشى عليها من هذه الدنيا».

شهقة بكاء صدرت عن سدير لكن حرير لم تلتفت إليها، لم تستطع أن تفكر بأحد اللحظة وهي تسمع أباهما يتكلم هكذا منذ مدة طويلة لم يتكلما معاً لم تشعر كم اشتاقت لكلامه حتى عاد للكلام اللحظة، أمسكت كفه تتشبث بها بينما يواصل هو كلامه المتدفق على حين غرة: «لكني قلق أكثر على هدير ماذا سنفعل؟! سأكلم الطبيب مجدداً كي يعيد الفحوص ويتأكد كيف אני والدها وكليتي لا تنفعها؟!».

دموعها تنحدر على خديها كزخات المطر قلبها كان يخبرها وهو أخبر قلبها يتمتم والدها وعيناه تدمعان: «اشتقت لهدير.. اشتقت كثيراً».

لم تستطع الصمود أكثر وهي تحتضن أباهما بقوة هامسة بخوف رهيب: «أبي بالله عليك لا توجع قلبي أكثر».

شعرت بيده على شعرها يربت بحنو لم تلمسه منه من قبل وهو يقول لها

الخاتمة

بعد ٤٥ يوماً نهاية الربيع

تجلس حرير على السرير العريض جوار الجدة هي تقرأ القرآن ودموعها تنسكب والجدة تسبح بخفوت، أنهت الجزء الأخير من القرآن وأهدت ثوابه لأبيها ووجهها غارق بالدموع، مسحت وجهها ثم قبّلت المصحف لتضعه على المنضدة المجاورة السرير ثم أخذت تخلع حجابها الأبيض والجدة تقول لها بحنو: «هل ختمت يا ابنتي؟».

ردت حرير وهي تنظر إليها بتعلق: «أجل يا جدة الحمد لله وأهديتها». تبسمت الجدة بطيبة وهي تمد كفها وتربت على خد حرير قائلة: «تقبل الله منك بنيتي وجعل الأجر والثواب واصلًا لأبيك نور قرآني في قبره».

ترتعث شفتا حرير وحجابها الأبيض تدعكه بين يديها في خنقة بكاء، إنها لا تجد ملاذاً لروحها ونفسها إلا هنا قرب الجدة، لأسبوعين كاملين بعد وفاة أبيها كانت لا تشعر بمن حولها، تهيم روحها بعيداً عنهم جميعاً بينما جسدها يتحرك ويؤدي كل الواجبات، حتى أخذها عامر من يدها يوماً وأحضرها إلى بيتهم وتركها بين يديّ الجدة الحانيتين المترفقتين، فكانت خير من جعلها تعود إلى أرض الواقع وتذكر معنى جملة (الموت حق) وها قد مر شهر وحرير تداوم على الحضور بنفسها إلى هنا كل يوم دون أن تنتظر عامر، تقضي أحياناً الساعات بصحبة هذه المرأة الطيبة دون أن تشعر وقد

علمتها الكثير كي تخرج من بوتقة الحزن، سألتها الجدة لتخرجها من أفكارها: «هل ستجهزون طعام الثواب ليوم الخميس القادم؟».

بدأت حرير متعبة مرهقة وهي تهز رأسها إيجاباً وتقول: «نعم يا جدة أُمي قالت سنكمل كل خميس حتى موعد سنوية أبي إن شاء الله».

انشرح وجه الجدة وهي ترد: «بارك الله بكم وجعل الثواب واصلاً لوالدك رحمه الله».

تميل حرير برأسها مرهقة حتى كف الجدة تلثم ظاهرها ثم تتوسد حجرها هامسة: «شكراً يا جدة لأنك من أرشدنا لهذا أُمي لا تعرف كثيراً بهذه الأمور».

أخذت الجدة تمسد فوق رأس حرير وهي تحل شعرها الطويل الناعم من رباطه بينما تضيف حرير بتأثر: «كل خميس أشعر بالراحة ونحن نوزع الطعام وأسمع دعوات كل جائع يأكل من طعام ثواب لروح أبي».

قالت الجدة بصوتها الذي يمنح راحة للنفس: «كلما وجدنا وسيلة لنعبر عن حزننا يا ابنتي صغر في أعيننا وأفضل الوسائل هو التواصل مع الأحباب عبر ثواب ودعاء ورضا بالقدر».

تنهيدة مرتعشة خرجت من فم حرير وهي تستسلم للاسترخاء الروحي الذي تبثه فيها الجدة قالت لها فجأة: «حان الوقت لتخلعي السواد يا حرير».

أمسكت حرير بطارف قميصها الأسود ثم رفعت رأسها كي تنظر لوجه

الجدة وتقول: «لقد فكرت بالتخفيف، حجابي دوماً أبيض وأظن أنني سأبدأ بلبس الأزرق الغامق، سدير مخنوقة أيضاً ولا تطيق الأسود لأنه.. لأنه يذكرها بليلة وفاة أبي».

تجمعت الدموع في عيني حرير وهي تتذكر تلك الليلة بينما الجدة ترد عليها بحكمة: «أخلعي سواد الحزن من داخلك يا ابنتي هذا أهم من قطعة قماش تلبسينها فوق بدنك».

عادت حرير تتوسد حجر الجدة وهي تقول بغصة: «ليت الأمر بهذه السهولة، ليت الحزن سواد أخلعه كسهولة خلعي لهذا القميص الأسود».

عادت الجدة لتمسد فوق شعر حرير وهي تقول لها: «تذكرني أياماً حلوة، أغمضي عينيك وفكري فيها دوماً فعلت أنا هذا فأترك الذكريات القديمة تفتح باب روعي لتدخل إليها، فأعود طفلة بصفيرتين طويلتين أركض بين الحقول وأرى من بعيد جدتي رحمها الله وهي تضرب الفأس بالأرض، لم أشعر في حياتي أنني سعيدة وآمنة كتلك اللحظات الهائلة وكم هونت علي الحياة يا حرير كم أبهجت أحزانها ولونت سوادها».

ثم أخذت الجدة تحكي لها المزيد عن ذكريات طفولتها فتاهت حرير في حلم منسوج من كلمات الجدة، حلم شاركتها فيه أختها هدير وهما تركضان وتلعبان في الحديقة الخلفية لبيتهن القديم، ثم شعرت أنها وحدها تركض بسعادة وصوت عامر في أذنها وأصابعه تمتد لتلامس خصلات شعرها

الطوبل الناعم، صوته أجش عميق وهو يهمس في أذنها بشقاوة عشق: «أتودين معرفة سر عائلة القماش؟ إنه هنا في راحة الكف موهبة أو خبرة لتكون كاشفة باللمس! لو لمستُ "قماش" امرأة سأميز إن كانت عفيفة حرة كما أميز قطعة الحريرة والنفس لا تتوق إلا للمس الحرائر».

شعرت بالسعادة ترفرف مع نبضات القلب ويد عامر الحانية كيد جدته، تلامس خديها وشفتيها مضيئاً بهمس مختلف: «ليت كل الابتسامات في النوم كجمال هذه الابتسامة».

ثم شعرت بشفتيه تقبلان شفتيها فأخذ قلبها ينبض بجنون وشوقها النائم منذ وفاة أبيها استيقظ كله فجأة فتفتح عينيها لترى وجه عامر قريباً جداً من وجهها، لم تستوعب صحوها من منامها حتى قال لها عامر مداعباً: «هل أصبحت تنامين في فراش الجدة أيضاً؟».

ما زال قلبها ينبض بقوة وهي تنظر إلى وجهه الحبيب الشوق استعر وشعرت كأنها لم تراه منذ أشهر طويلة.. طويلة للغاية فأوجعها هذا الفراق الروحي لتدمع عيناها وهي تهمس له: «لقد اشتقت إليك».

اتسعت عيناها للحظة وكأنه لا يصدق ثم همس بخشونة عاطفية: «أخيراً يا حبيب! وأنا ذبحني الشوق ذبحاً».

مال إليها يحتضن جسدها أسفل جسده وهما يمتزجان ببعض في شوق عارم قتلها معاً، كان يلهث وهو يبتعد قليلاً ويقبل عنقها هامساً بعذاب:

«لقد كنت أموت حرفياً وأنت بعيدة عني بروحك ومشاعرك».

أخذ يفتح أزرار قميصها وهي ترتجف لكنها تمالكت نفسها وعقلها يصحو
لتحدق بالسقف وتذكر أين هي، أوقفته وهي تتساءل بارتباك: «عامر أين
الجدة؟!». .

رد وهو ما زال يحاول فك أزرار القميص: «تستحم وأمي معها، لدينا
ساعة كاملة لنكون بمفردنا هنا».

منعته مما يحاول فعله وهي تناديه وتنظر إليه: «عامر توقف».

لم يستجب فعادت الطلب بحزم رقيق: «حبيبي توقف ليس الآن
ليس هكذا».

تجمد وتشنج ثم زفر أنفاساً قوية وهو يرخي جبينه فوق كتفها هامساً
بعذاب: «الأسابيع الماضية كانت الأسوأ، أن أحرم منك وأنت معي».

ثم رفع وجهه وأبقاه قريباً جداً فوق مستوى وجهها مضيقاً: «هل تعلمين
أني لم ألمسك ولم أقبلك منذ وفاة أبيك؟!».

دمعت عيناها وهي تنظر إليه ثم همست باعتذار: «أنا آسفة احتجت
لوقت كي أتوازن بعد فقدي له».

ثم أضافت بعد لحظة صمت: «لولا الجدة لربما كانت حالتي أسوأ أنت لا
تعرف مكانة أبي عندي بل حتى أنا لم أكن أعرف مكانته إلا بعد فقده».

مال ليقبل خديها ثم قال: «الحمد لله أن الجدة خفت عنك بطريقتها، كنت أعرف أنها ستفعل».

احتضنا بعض بقوة وشوق الأرواح أكثر عذوبة وجمالاً من شوق الأجساد، تتمم قرب أذنهما: «أدخلك الله الجنة يا علي، هو من طلب مني العودة للبيت الساعة كي أحضر بعض الأغراض له».

ما زالت تحتضنه وشوقها إليه لا يرتوي فيقول لها مداعباً: «هذه المرة الأولى التي نجتمع فيها على سرير! ويكفي أنه سرير الجدة فأل خير ونقول يا الله ثم تسأل ببراءة متى سننتقل للسرير في الطابق العلوي؟». تضحك للمرة الأولى تضحك منذ وفاة أبيها فتغمر وجهها في عنقه وتهمس له: «أول يوم في العطلة الصيفية لم يتبق إلا ثلاثة أسابيع».

رفع رأسه بحركة سريعة وهو يتساءل بصوت مبحوح: «هل أنت جادة؟ هل سنتم الزواج؟».

ردت وهي تلف ذراعيها حول رقبتة: «نعم لن ننتظر أكثر من هذا».

عاد لينهل من جنون القبلات ونبض قلبه يرتد صداه في نبض قلبها، تركته يقبلها حتى يُشبع بعضاً من شوقه بعد طول حرمان وقد منحته مفتاحاً للصبر استحققه وأهدت نفسها مفتاحاً للفرح استحقته، تريد أن تفرح تريد أن تفرح وتمنح عامر كل الفرح في الدنيا، دموعها عادت لتسرح وعامر يللمها بشفتيه هامساً: «حريرتي فاقت نعومتك كل الحرائر».

مساءً بيت أسعد الجنابي

قالت الأم وهي تؤيد كلام ابنتها الكبرى براحة: «خيراً فعلتِ يا ابنتي خيراً فعلتِ».

خلدون يجلس جوار أمه صامتاً بينما سدير واقفة جوار حرير بعينين متسعتين ونظرات مرثكة خائفة بل هلعة! ثم همست بحشجة تسأل حرير: «ستركيننا؟!».

عقدت حرير حاجبيها وهي ترد على شقيقتها الصغرى: «هذا لن يحدث أبداً حتى يوم مماتي».

أخذت دموع سدير تجري وهي تغمر وجهها بين كفيها وتهمس بحزن: «أنا أفقد أبي، لا أعرف كيف لكني حقاً أفقدته وكأن الحياة كلها توقفت من بعده».

اقتربت منها حرير وضمتها بين ذراعيها قائلة: «لهذا يجب أن نكون أقوياء ونواجه الواقع حياتنا يجب أن تمضي قدماً، أبونا مات لكننا لن نظل عالقين في الحزن بل سنعيش سعداء كما تمنى لنا دوماً حتى لو لم يعرف كيف يحقق لنا ما تمناه».

علق خلدون الذي لم ينطق بكلمة منذ جمعته حرير لتبلغهم بقرار إتمامها لزواجها من عامر: «لكن أُمي لم تنتهِ عدتها».

التفتت إليه حريـر وهي ما زالت تحتضن سدير قائلة: «لن نقيم أي حفل إنه مجرد زفاف لإعلان إتمام الزواج الذي طال». فأيدتها الأم بالقول: «نعم يا ابنتي لم يعد مناسباً هذا الوضع العالق لكما وعامر صبر كثيراً علينا».

تعقد حريـر حاجبـيها قليلاً لتقول: «لا تقولي هذا أُمي عامر معنا في هذا، يصبر معنا وليس علينا».

لم تقتنع الأم كثيراً وهي تقول: «يا ابنتي هذا كلام غير واقعي عامر ابن أصول وفعل الكثير لأجلنا ووقف جوارنا في محنة مرض أبيك ثم وفاته؛ لكنه سيظل رجلاً غريباً ليس مجبراً على تحمل وضعنا أكثر من هذا هل جاء ليتزوج أم لبيتلي بنا؟!».

أخفت حريـر انزعاجها من منطق أمها بينما تنهي الحوار بالقول الهادئ: «لدينا ثلاثة أسابيع حتى تنتهي الامتحانات النهائية لسدير وخذون ويعدها سنقيم الزفاف».

تمتت الأم والدموع تتجمع في عينيها: «تمم لك بالخير يا ابنتي لقد تعبتي كثيراً ووالدك كان يحمل همك».

مالت حريـر لتقبل جبين شقيقتها الصغرى وتقول: «لقد حمل همنا جميعاً».

وقف خلدون فجأة على قدميه بينما يطرق برأسه وهو يقول بحشـرجة: «سأذهب لأدرس مبارك أختي».

غادر غرفة المعيشة ونظرات حرير تلاحقه، إنه صامت للغاية، لا تزال
حرير تذكر شحوب وجهه وهو يتطلع إلى جسد أبيهم وقد فارقت الحياة،
ومنذ تلك اللحظة وهو صامت هكذا.

حالما دخل خلدون غرفته وجد حرير في إثره

تفاجأ بها ولم يشعر بصعودها الدرج خلفه سألها ببعض الحيرة: «هل
هناك شيء؟».

أغلقت حرير الباب خلفها ثم قالت: «ربما حان الوقت لتخبرني أنت إن
كان هناك شيء».

سأل بدهشة حقيقية: «ماذا تقصدين؟».

ردت تفسر وهي تقترب منه لتقف قبالة وهي تنظر في عينيه: «أخبرني
عن شعورك حيال وفاة أبي».

أشفقت عليه وهي ترى الألم واضحاً على محياه المراهق الذي يعاني
الرجولة، أشفقت عليه وكأنه ينتظر السؤال من أحد لكن يأبى الاعتراف
بحاجته لإعطاء الجواب، ثم بدا مشتتاً كأنه لا يعرف كيف يعبر فيتمتم
بصدق: «لا أعلم».

بصبر حاولت حرير أن تساعد: «حاول يا خلدون قل إي كلمة تخطر ببالك

وأقرب لإحساسك أنا لن أخرج من هنا حتى تخبرني».

صمت للحظات طويلة وبدى وكأنه يعاني حتى وجد طارف الخيط فقال
بخفوت: «أول ما يخطر ببالي أنني أشعر بالذنب».

ارتفع حاجبا حبر قليلا ولم تتوقع هذا منه كبداية ففتساءل: «الذنب؟!
الذنب حيال مرضه؟!».

حاد بنظراته بعيداً كأنه لا يجرؤ على النظر في عيني شقيقته وهو يرد
عليها بتوتر: «لا ليس مرضه بل لأنني أسأت إليه أسأت كثيراً الذنب
يقتلني».

ثم يتضاعف توتره وهو يبوح له بالمزيد: «حلم يتكرر منذ وفاته أنني
سأدخل جهنم». قاومت حرير رغبة احتضانه بقوة وطمأنته، قاومت وقد
شعرت أنه يحتاج لمساحته بالتعبير عن نفسه كشاب دون أن تشعره كأنه
طفل خائف فاكثفت بالصمت وقد صدق حدسها وهو ينطلق بالتعبير أكثر:
«ليلة وفاته عندما تكلم معنا هكذا رباه كلماته أتذكرها كل ليلة يقتلني
إحساس الذنب نحوه يقتلني أنني تعديت عليه يوماً وظننت عن يقين أنه
يكرهنا».

بحنو قالت حرير ما يعكس شعورها وتجربتها هي شخصياً مع أبيها:
«الآباء دوماً يتوقعون الأفضل من الآباء يا خلدون! لكن عندما نكبر
نكتشف ببساطة أن الآباء والأمهات مجرد بشر يخطئون ويصيبون».

ثم اقتربت منه تلامسه بكفها وتضيف بمزيد من الحنان والتفهم: «تجاوز شعورك بالذنب يا خلدون واستغفر كثيراً المهم أنك استدركت الخطأ ثم راعيت والدنا في مرضه أكثر منا جميعاً كنت تحممه مع أمي وأحياناً بمفردك، كنت تسهر الليل معه عندما تنتابه نوبة احتياج لتكون برفقته تحاول منعه من أذية نفسه ثم تذهب في الصباح لمدرستك وأنت تكاد تغفو على نفسك من قلة النوم».

يتهرب بعينه منها وهي تلمح الدموع في عينيه هامساً بحشجة مخنوقة: «أنا خائف». تساءلت حريز: «مما تخاف؟!».

رد والخنقة في صوته توجع قلبها عليه أكثر: «خائف أن يعاقبني الله وبصيبني بمرضه نفسه؟».

عندها لم تستطع التحمل أكثر فتأخذه في حضنها كأنه طفلها تضمه بقوة وهي تقول له: «اسم الله الرحمن يحميك لا تقل هذا أبداً أبداً هل تسمعني».

أوجعها أن يميل لجانبه الطفولي وهو يحتمي في حضنها فتقبل جانب رأسه وتهمس له: «أنت فتى رائع وستكون رجلاً أروع».

ثم ابتعدت قليلاً لتحتوي وجهه بين كفيها وترى دموعه تنسكب بخجل على خديه لتقوي نفسها وتتحامل على وجع قلبها ثم تقول بثبات وإيمان راسخ: «وإذا قدر الله عليك هذا المصاب فستجد أبناءك يراعونك كما

نظر بعينيه الرطبين لعيني أخته وهو يهمس بخجل: «هل أنت واثقة؟!».

تقاوم رغبة البكاء لترد عليه بنبرة بعثت الطمأنينة في قلبه الفتى: «مؤكد واثقة؛ لكن يجب أن تربي أبناءك بشكل صحيح وأن تتعلم من أخطاء أبينا».

ثم ذابت نظراتها حناناً وهي تتخيل يوماً أن تحمل أطفال خلدون بين ذراعيها لتضيف برقة: «حدث أبناءك عنه يا خلدون برّه بوصل ذكره لأحفاد لم يرههم، أذكر حسناته وكيف كان أباً محباً أحبنا جداً حتى وهو لا يعرف كيف يعاملنا بشكل صحيح علمهم أن يترحموا عليه ويذكروه بدعائهم».

أخذ خلدون يهز رأسه بينما تعاود حرير احتضانه وهي تدعو له الله سرأ ولسدير أيضاً أن ينعم عليهما دائماً بالصحة والعافية.

بعد أسبوعين قرابة الغروب

أمام المرأة الطولية تأخذ سجي قياسات رونا هي كي تعدل لها مقاس الفستان الذي ستلبسه في زفاف عامر وحرير بعد أن أكملت سجي أخذ كل القياسات وقفت إلى جوار رونا هي تنظران لانعكاس صورتيهما في المرأة وهي تقول لها: «بإذن الله سيكون جاهزاً منتصف الأسبوع».

عبست رونا هي وهي تنظر بضيق لجسدها الممتلئ ثم قالت: «هذا ليس

عدلاً أبدو أنا وكأني في الشهر السابع من الحمل لا أنت».

تضحك سجي عاليا وهي تنظر لبطنها الكبيرة وتربت عليها برقة قائلة:
«هذا ليس صحيحاً».

التفتت رونا هي لوجه سجي قائلة بإحباط: «ماذا سألبس في زفاف عامر
وحرير إذا لم يناسبني الفستان حتى بعد التعديل؟!».

ثم عادت لتنظر لنفسها في المرآة وتقول بمزيد من الإحباط:
«أبدو مريعة».

حاولت سجي التخفيف عنها قائلة بسلاسة منطقية: «لا تبدين مريعة على
الإطلاق أنت حامل حالك كحال ملايين النساء».

ثم تحركت لتلملم عدة الخياطة وهي تقول: «لقد انتهى عملي هنا تعالي
عندي عصر الغد سأكون قد أنجزت شيئاً في الفستان».

خرجت سجي من الغرفة فتلحق بها رونا هي وهي تسألها بعبوس: «إلى
أين ستذهبين؟ ما زال الوقت باكراً».

التفتت إليها سجي وقد بدت أنيقة للغاية بجلبابها الأسود الواسع المميز
بنقوش بدوية من خيوط حمراء فتقول لها: «يجب أن أستعد قبل عودة
علي».

تخصرت رونا هي وهي تقول بتمرد: «إلا أفهم معنى أن تستعدي!».

ضحكت سجي ثم قالت بعاطفية خاصة: «علي يحب أن يجدني بانتظاره».

ثم تحركت ناحية الباب وهي تظن أن رونا هي ستكتفي بهذا التفسير، لكن كانت مخطئة ورونا هي تلاحقها مجدداً وهي تتساءل بفضول عفوي: «وهل الانتظار يحتاج لاستعداد؟!».

بصبر شرحت لها سجي وهي تقف عند الباب: «يحب أن يراني مستعدة بالاعتناء بنفسه بتحضير ما يحب، منحه الاهتمام باختيار فيلم أو مسلسل نحبه معاً لنتفرج عليه».

لم تكن مضطرة لقول كل هذا، لكنها استغلت الحوار لتمرر لها نصائح غير مباشرة، فما لا تعرفه رونا هي أن والدتها قد طلبت من سجي العناية بابنتها وتوجيهها لتتعلم منها كيف تتصرف بذكاء مع زوجها وتفهم شخصيته، كيف تعتني به وتدله وتراعيه، تعقد رونا هي حاجيها وهي تتساءل بحمائية لجنس الإناث: «ولماذا لا يستعد هو أيضاً لك؟!».

ردت سجي وهي تضم علبة الخياطة لصدرها: «من قال إنه لا يستعد؟!».

بدت رونا هي محتارة قليلة عندما وضحت لها سجي المقصد بالقول: «هو يستعد لهفة منه إليّ، ورغبة بالمجالسة، وتدليلاً لي، واستماعاً لكلامي كما استمع لكلامه، رغم كل تعب طوال النهار إلا أنه يحب أن يعرف كل

لم تستطع سجي قول المزيد وقد شعرت أنها خصوصيتها مع علي لم تخبرها أنه يحب توسد حجرها عندما يتفرجان التلفاز معاً، يحب أن تزرر له قميصه وتختار له سترته، تفاصيل صغيرة يحبها منها للغاية دون أن يطلبها، تدركها هي بحدسها وإحساسها به، وكلما أعطته أعطاها هو أكثر، وملاً أنوثتها وروحها بالرضا والاكتمال، فتتغاضى عن أي عيوب تزعجها فيه، وفي كل أحواله هي تعشقه.

قطعت رونا هي عليها استرسالها بالخيال وقد بدت هي الأخرى غارقة بأفكارها عن زوجها لتعبر بعفويتها وأسلوبها الصريح: «لا أعلم أنا لا أفكر مع عمر ولا أخطط هكذا مثلك أنا أتكلم طوال الوقت وهو لا يكف عن الضحك الأمور بينما تسير على سجييتها».

تبسمت سجي وهي تقول لها: «رونا هي كل رجل له طباعه وأسلوبه وما دمت سعيدة وهو سعيد إذن لا مشكلة، هذا يعني ببساطة أنه مرتاح معك كما أنت».

قالت رونا هي عندها وهي تصف عمر: «هو هادئ حنون وصبور؛ لكن عندما يغضب يصبح مريعاً! وأنا لا أسكت في المقابل لكني أعترف أنني أكون خائفة منه كأنه أبي من غضب وليس زوجي!».

تضحك سجي من قلبها بينما تضيف رونا هي: «أمي تتهمني أنني طويلة

اللسان ودوما تقول لي (عمر ابتلي بك!)».

غمزتها سجي قائلة: «إذن لا تختبري صبره كثيراً».

فتحت سجي الباب بينما رونا هي تضيف أخيراً بابتسامة حلوة متحمسة:
«أنا سعيدة لأجل عامر وحرير وأتمنى هذه المرة أن يتم الزفاف دون منغصات
ومن سيعرقله سأواجهه بنفسي قسماً بالله».

تعاود سجي الضحك وهي تميل لتقبل خد رونا هي ثم تودعها قائلة: «بإذن
الله خير أراك غدا».

يوم زفاف عامر وحرير الصباح الباكر

انقلبت حرير على جانبها وهي تغمض عينيها بتراخٍ من أثر نوم بينما تضع
الهاتف على أذنها وهي تسمع صوته المبحوح الشقي: «صباح الحرير».

ردت وهي تبتسم بجذل: «صباح الخير». يسألها برقة: «كيف حال
سريرك هذا الصباح؟».

تفتح عينيها قليلاً لتركز عفويًا وهي تتساءل: «أتسأل عن سريري؟! ما
باله سريري؟».

رد بعث: «أتستهينين بمفارقته؟! ليلة الأمس كانت آخر مرة يضم نعومة
جسدك لا تستبعدي أن يمر بمرحلة اكتئاب».

ضحكت من قلبها للمرة الأولى تضحك هكذا منذ وفاة أبيها ما زال وجهها ضاحكاً وهي تشاكسه فتميل بفمها لتقبل وسادتها وتهمس: «حسن سأحاول مراضاته ببعض القبل قبلة هنا».

ثم قبلت الوسادة مرة أخرى مضيئة: «وقبلة هناك».

ثم تنهدت أخيراً لتقول بدلال أنثوي: «أظنه رضي الآن».

قال بصوت أجش: «أنت تغيظني أليس كذلك؟».

ردت بهمس ضاحك: «نعم».

ثم انفجرت ضاحكة بينما عامر يرد هامساً: «سنرى غداً صباحاً مراضاتك لي كيف ستكون».

مع الغروب

فستان الحرير بلون اللؤلؤ الأبيض يظهر نحافة جذعها وذراعيها، ثم عند الخصر يتسع تدريجياً حتى غطي الكاحلين بغيمة لؤلؤية أزرار ناعمة من جهة الظهر أضفت مزيداً من البرقة على هيئة العروس النحيلة، وأخيراً غطاء الرأس الحريري والطرحة الطويلة فبدت كحورية من الجنة، الزفة لفت شوارع العاصمة في إعلان ابتهاج حتى عادت بالعروسين إلى دار القماش، زغاريد وابتهاج وأحضان كثيرة من الأحبة والأصدقاء والأهل والجيران؛ لكن

عينا عامر لم تبتعدا عن عيني حرير، حتى عندما رفعاه شقيقاه فوق كتفيهما مهللين له لم تتفارق النظرات منذ مكالمة الصباح لم يعد للكلام بينهما جدوى! كلاهما كان يتوق للانفراد يتوق لكلام آخر لا يسمعه غيرهما.

تباعدت أصوات المحبين والمهنتين وخفتت زغاريد الأفواه أقفل الباب على العروسين في بيتهما الصغير كشقة خاصة بالطابق العلوي من بيت سليم القماش، نسمة غرام مرت بالطرحة الملقاة على أرضية الممر بعد خطوة واحدة من الباب المغلق ثم مسافة بضع خطوات آخر مرت النسمة بالوشاح الحريري الذي كان يغطي شعر العروس كحجاب، في غرفة النوم مع فتح آخر زر في الفستان الحريري كان عامر يزيحه عن كتفي حرير بيدين مرتعشتين حتى تكوم الفستان عند قدميها بهسيس نهجة كأنه صوت نسمة الغرام قد مرت بهما وهي تضحك لهما، حرقه آه خرجت من فمه فتغمض حرير عينيها تحترق بالآهات وهو يلمسها بكلتي كفيه، لمساته وحرقه آهاته مع كل لمسة كانت شكوى عشق ضاق بأسره وجوع شوق طال صيامه، امتزجا ببعض لاهئين خداهما تشاركا دمعة لم تعرف حرير أكانت منها أم منه، إن كان للقبل عدة معانٍ فلقبل عامر كل المعاني بل أضاف لها المزيد! كم آهة من فمه قالت لها أحبك كم نبضة من قلبه قالت لها أحبك، كم لمسة من راحة كفيه قالت لها أحبك.

صباح اليوم التالي

استيقظت على صوت قرع باب، رفعت رأسها عن صدر عامر وشعرها مشعث مبعثر بجنون نظرت لوجهه فرأته نائماً، شعرت بالارتباك والقرع مستمر وهي عاجزة عن التحرك وقد طوقها عامر بذراعه بإحكام، همست وهي تقترب بوجهها من وجهه: «عامر.. عامر هناك من يطرق الباب».

لكن لم يرد، ظلت تتطلع إليه وللحظات نسيت من يقف بباب شقتيها ينتظر جف ريقها وهي تنظر لفمه بشوق فلم تقاوم لتميل إليه تقبله بحرارة تتدفق من كل جسدها وقلبها ينبض بجنون في شوق لأن تمنح عامر الحب لعل هذا القلب يرضى عنها ويكف عن ضجيج نبضاته في صدرها، عاد القرع ليشوش عليها بالارتباك فترفع شفتيها عن شفتي عامر وهي تلتفت جانباً نحو باب الغرفة هامسة: «الحمد لله باب الشقة بعيد عن باب غرفتنا».

ثم تلتفت مجدداً لزوجها هامسة اسمه: «عامر استيقظ».

قالتها قبل أن تتنبه لعينه المفتوحتين، تلك النظرة! لا يمكن أن تراها وتشعر بما يحصل في العالم لحظتها لم يعد قرع الباب مسموعاً وهي ترى نظرتة إليها، عيناه البنيتان غارقتان في سعادة مسكرة سعادة معدية سعادة مجنونة ينظر إليها بصمت تاركاً لعينه أن تأخذها بعيداً عما حولهما.

يمرر نظراته كرجل عاشق عليها بكل التفاصيل التي تظهرها كعاشقة

منحته طوال الليل من ذهول السعادة فوق قدرته على النطق، صامتاً لا يتكلم حتى شعرت بكفه فوق مكان قلبها يلمس نبض ذاك القلب المقيم فيه، وبذاك الصمت ضمها إليه ليغرقا معاً في ذهول السعادة مرة أخرى.

عبست نورجان لأن لا أحد فتح لها الباب، تأففت وهي تستدير لتبتعد عن باب شقة عامر فتري زوجها أمامها عند باب غرفتهما ينظر إليها بتوبيخ صامت فزاد عبوسها وهي ترد على نظرتة بالقول: «ماذا؟! ألا يجب أن أطمئن عليهما؟».

هز سليم رأسه يميناً وشمالاً وهو يعاود الدخول للغرفة ليكمل ارتداء ملابسه، بينما تلحقه نونة وهي تبرر بالقول: «أردت أن أرى وجه عامر لا أكثر، أردت أن..».

قاطعها سليم بالقول وهو يزور قميصه الصيفي: «أردت أن تتأكدي أنه لم يشعر بالضيق لأنه لم يكن الأول كرجل في حياة عروسه».

تنهدت نورجان وهي تجلس على حافة السرير وتعترف بالقول: «حسن ربما أنت محق، خفت أن يكون الحب خدعه بقدرته على التقبل وساعة الحقيقة تتغير الأمور».

يقترب سليم منها ليميل إليها مقبلاً خدّها قائلاً: «ليس كل الرجال سواسية يا نورجان، وولدك عامر خير رجل يقدر قيمة المرأة التي يعشق في

روحها وليس في جسدها».

ببعض شعور الذنب ترد نورجان وسليم يبتعد كي يلتقط هاتفه وحزمة مفاتيحه: «أنا أعرف هذا؛ لكنني أم.. أم مج...».

يقاطعها سليم مبتسماً ابتسامته الخلافة الشبيهة بابتسامة عامر ليكمل لها جملتها المأثورة: «أم مجنونة بحب أولادها أعانهم المولى على هذا الحب».

فزمجرت نورجان غاضبة لتمسك بالوسادة ترميها نحوه وهو يغادر ضاحكاً.

بعد أكثر من شهرين / عصراً محل القماش للمستائر

ينظر عامر إلى شاشة هاتفه بتململ يحاول إخفاءه ثم يضع الهاتف في جيب سرواله الخلفي وهو يرد على الزبونة بالقول الهادئ والابتسامة الباردة التي يمنحها لمن (تستحقها) قائلاً بصبر يحسد عليه: «أختي هلا حددت لي أكثر طلبك منذ نصف ساعة وأنا أحاول أن أفهم لكن عقلي كما يبدو لا يسعفني».

ردت الشابة الفاتنة وعيناها الواسعتان الزرقاوان تشعان جاذبية بينما تقول له بدلال: «الكل يقول عنك إنك تقدم أفضل تعامل مع الزبونات؛ لكنك تبدو غير مرتاح بالتعامل معي هل أوترك؟».

قالت آخر كلمتين بخفوت خاص وعيناها تتحديانه الإنكار! استعاذ بالله من الشيطان الرجيم كي لا يفقد ما تبقى من صبره ويتصرف بخشونة معها شابك كفيه فتبرز حلقة (الزواج) في بنصره الأيسر والعينان الزرقاوان تلمحان الحلقة الفضية، بينما عامر يرد على كلامها الأخير بالتجاهل التام للمعاني الواضحة وبإدعاء كامل للغباء جاءت كلماته باردة ورسمية: «ما زلت أنتظر تحديد طلبك».

زرقة عينيها تعكسان صورة الحلقة الفضية في بنصره لتقول بجرأة وتحد: «هل طلبي صعب فهمه لهذه الدرجة؟».

ثم رفعت عينيها لفمه وبمزيد من الجرأة أضافت وهي تمد يدها تلامس بسبابتها بنصره الأيسر: «إن كانت حلقة الزواج تصعب عليك الفهم فأنا لا تؤثر بي على الإطلاق».

أبعد عامر يده عن ملامسة إصبعها وقد فاض كيله من جرأتها وعروضها ومزاجه حلو اليوم لا يريد تعكيره بأمثالها، وما زاد ضيقه من هذه الزبونة أن حرير على وشك الوصول يتوقعها منذ ربع ساعة لأنها خرجت للسوق القريب من المحل برفقة وفاء لتشتري هدية لمولود شقيقه علي الذي ولد صباح اليوم حسين علي سليم تاج الدين القماش أول الأحفاد، لا يطيق عامر صبراً ليراه وكم يتوق ليرزق بصبي هو الآخر وسيسميه محمد علي اسم جده، حسن لا يهم صبي أم بنت فقط يريد أن يرزق بطفل من حرير، لقد ابتأست قليلاً

عندما أُنْتَهَى الدَّوْرَةُ الشَّهْرِيَّةُ بَعْدَ زَوَاجِهِمَا بِأَسْبُوعٍ؛ لَكِنْ هَذِهِ الْمَرَّةُ فَكَلَاهُمَا
يَأْمَلُ بِحَصُولِ حَمَلٍ.

«يَبْدُو أَنَّكَ مَشْغُولُ الْبَالِ».

الْمَلَلُ! حَقًّا هُوَ الْمَلَلُ، حَادٍ عَامِرٍ بِنَظَرَاتِهِ عَنِ صَاحِبَةِ الْعَيْنَيْنِ الزَّرْقَاوِينِ
لِيُشِيرَ إِلَى أَحَدِ الْعَامِلِينَ قَائِلًا: «فَارُوقُ تَعَالَى وَكَلِمُ الْأَخْتِ يَبْدُو أَنَّ فَهْمِي
بِطِيءٍ الْيَوْمَ».

وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي قَالَهَا لِمَحِ حَرِيرٍ وَهِيَ تَقِفُ عِنْدَ بَوَابَةِ الْمَحَلِّ تَنْظُرُ نَحْوَهُ
بِتَعَابِيرٍ لَمْ يَشْهَدْهَا مِنْهَا مِنْ قَبْلُ، اسْتَأْذَنَ وَهُوَ يَتَجَاوَزُ تِلْكَ الشَّابَةَ الْفَاتِنَةَ
لِيَقُولَ بِنَبْرَةٍ بَارِدَةٍ: «أَعْتَذِرُ مِنْكَ فَزَوْجَتِي حَضَرَتْ وَبِانتِظَارِي».

شَمَخَتْ الشَّابَةُ بِذَقْنِهَا وَدُونُ أَنْ تَنْتَظِرَ مَجِيءَ الْعَامِلِ فَارُوقِ كَانَتْ تَتَحَرَّكُ
لِتَغَادِرَ الْمَحَلَّ وَخَطَوَاتُهَا تَكَادُ تَوَازِي خَطَوَاتَ عَامِرٍ وَهُوَ يَتَجَهَّزُ لَزَوْجَتِهِ.

أَمْسَكَ حَرِيرٌ مِنْ ذِرَاعِهَا وَهُوَ يَبْتَسِمُ بَعَبْثَ شَقِيٍّ لَوَجْهَهَا الْخَالِي مِنْ أَيْ
تَبَرُّجٍ؛ لَكِنَّهَا بَدَتْ فِي عَيْنَيْهِ أَجْمَلَ الْوُجُوهِ وَأَحْلَى الْبَشَرِ، مَرَّتِ الشَّابَةُ مِنْ
جَنْبِهِمَا وَهِيَ تَرْمُقُ حَرِيرَ بَتَرَفَعٍ بَيْنَمَا عَامِرٌ يَسْحَبُ حَرِيرَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَهْمِسُ
لَهَا: «هِيََا لِنَغَادِرْ».

بَعْدَ عَشْرِ دَقَائِقَ كَانَتْ مَعَهُ بِالسَّيَّارَةِ وَعَامِرٌ يَنْطَلِقُ بَيْنَ شَوَارِعِ الْعَاصِمَةِ
بِتَجَاهِ الْمُسْتَشْفَى، يَغِيظُهَا وَهُوَ يَدْنِدُنُ بِأَغْنِيَةٍ غَيْرِ مِبَالٍ بِصَمْتِهَا، لَمْ تَسْتَطِعْ
كُتْمَ غَيْرَتِهَا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَتَنَحَنَحَتْ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَ بِنَبْرَةٍ هَادِئَةٍ: «هَلْ كَانَتْ

تلك الفتاة تحاول إغراءك؟!». .

يحرك رأسه قليلاً لينظر إليها جانباً وهو يرد ببساطة مغيظة وصراحة مباشرة: «نعم».

ابتلعت ريقها وقلبها ينبض بعنف في صدرها تشعر أن كلها يغلي وتود لو تصرخ فيه اللحظة! أخذت تعدل من حجابها المورد بينما تحاول التحكم بغيرتها وهي تتساءل: «هل تفعل نساء كثيرات هذا معك؟». مفضوحة للغاية أمامه دون أن تدري فيرد مجدداً وبالطريقة نفسه: «نعم».

أطبقت فكها وهي تسأل بحدة: «والكثيرات كم عددن بالضبط؟». رد بإسهاب هذه المرة دون أن يحاول المراوغة أو تخفيف الأمر عليها: «لم أعد أحسب العدد منذ كنت في التاسعة عشرة؛ لكنني أذكر ساعتها أنني وصلت للرقم سبعة وأربعين».

أفلتت أعصابها وهي تهتف به: «أنت أنت قليل الأدب ولا تطاق». بيتسم لها ابتسامته الخلافة ويمد يده ليمسك ذراعها يحاول جرّها نحوه وهي تقاوم بينما يناغشها بالقول الشقي: «أموت شهيداً لهذه الحلوة الغيور».

أخذت تتملص منه وهي تشعر بالحرارة تشع من جسدها حنقاً وغيرة وهي

تهتف به بانفعال عاطفي: «ابتعد قلت لك ابتعد ولا تلمسني».

ما زال يمسكها بيد بينما يده الأخرى تسيطر على المقود وعيناه تنتقلان بينها وبين مراقبة الطريق وهو يضحك بأنفاس لاهثة عشقاً ثم يقول: «أتغارين؟ قولي إنك تغارين إنها المرة الأولى أرى فيها هذه التعابير المشعة بالشراسة على وجهك».

هتفت به وهي تحمر لكشفه غيرتها: «كفى عامر».

لكنه كان أكثر اصراراً وهو يواصل سحبها إليه عنوة قائلاً بتهديد صريح: «اعترفي وإلا قسماً بالله سأقبلك الآن وسط الشارع ومن فمك الحلو هذا».

كان يميل لينفذ تهديده فسارعت حرير كي توقف تهوره قائلة: «أجل غيورة.. غيورة». لكنه خدعها ليخطف قبلة من خدها وهو يهمس يشير غيرتها أكثر: «لقد كان العدد أربعة وخمسين في الواقع».

ضربته في كتفه وهو يضحك منها، ثم قال وعيناه تشعان عشقاً: «ما رأيك أن تجري فحص الحمل اليوم؟ ما دمنا ذاهبين للمستشفى».

ترقق قلبه وهو يرى ارتباكها وترددتها قبل أن تهمس له: «أخشى أن تفسد فرحتنا بولادة ابن علي وسجى لو ظهرت النتيجة سلبية». أمسك كفها ورفعها إلى فمه يلثمه قائلاً: «لن تفسد بإذن الله ستجربين الفحص أنا أشعر أنك حاملاً فعلاً».

فردت بفرحة مكبلة: «وأنا أيضاً أشعر».

تساءلت وكفها ما زالت في كفه: «هل عمر وروناهي ما زالا هناك أيضاً؟».

رد عامر: «بل أعادها للبيت وهو في طريقه للمحل لا نحب ترك المحل دون وجود أحد منا فيه».

المستشفى

قبلت نورجان جبين كنتها النفساء بعد أن سلمت أول الأحفاد لجده الثاني رياض همست لها: «سأعود بعد ساعة بصحبة الجدة هل تحتاجين لشيء آخر عدا ما طلبته؟».

ردت سجي شاكرة: «شكراً خالتي ليس هناك المزيد فقط ما أخبرتك عنه».

هزت نورجان رأسها بابتسامة حانية وبنظرات مشجعة فهمتها سجي ورغم فهمها وتفهمها فإن قلبها موجوع، خالتها نبراس لم تحضر، كان هذا أملها الأخير لتسامحها، لترضى أن تراها، عاودت نورجان تقبيل جبينها وهي تهمس لها سراً: «أنت قوية تذكري هذا».

ثم غادرت وهي تحيي رياض الذي ما زال مشدوهاً بالنظر لحفيده، دخل علي الغرفة وكان قد التقى حماه سابقاً فرغم أن العم رياض لم يستطع

حضور الولادة لعجزهم عن تبليغه عندما فاجأ سجي الطلق فجر اليوم، فإنه حضر حالما وصله الخبر وقد كان ملهوفاً كأنه هو من رزق بطفل لا ابنته بالرضاعة وربييته، اقترب علي من سجي ليجلس قربها على حافة السرير بينما العم رياض انهار بالبكاء فجأة بعد دقائق الذهول وهو يحمل حفيده حسين، بكاؤه كان يقطع نياط القلب فأوجع سجي وهي تتوسل إليه همساً: «عماه لا تبكي هكذا بالله عليك».

لكنه لم يستطع تمالك نفسه بل اقترب ودموعه جارية على خديه يتوسل إليها بما لم يخطر ببالها: «نادني أبي أريد أن يعرف حسين عندما يكبر أنني أباك وجده أريده أن يذكرني دائماً هكذا أرجوك يا ابنتي».

تجمعت الدموع في عينيها وهي تمسك بكف علي عفواً هامسة بغصة قلب: «حاضر أبي».

أخذ يضحك وهو يمسح دموعه بينما يشعر علي بكفها تتقلص في يده وهي تسأله بنبرة هادئة في ظاهرها: «كيف حال خالتي نبراس؟».

تهرب العم رياض بنظراته منها وهو يشغل نفسه بملامسة الرضيع النائم: «أفضل بكثير الحمد لله إنها في البيت».

لم تستطع سجي منع نفسها من القول: «إنها لم تنس لن تسامحني ستظل غاضبة مني للنهائية».

طرقات على الباب فسمح علي بالدخول لتطل الممرضة بوجه بشوش

تطلب المولود لإعادته إلى غرفة الرضع، بعد أن غادرت الممرضة قال العم رياض وقد استعاد هدوءه: «إنها لم تعد غاضبة منك ولا من علي حتى». قالها وعيناه تنتقلان بالنظر لعلي الذي التزم الصمت ولم يتفوه بكلمة، بينما العم رياض يضيف بشجن: «إنها حتى لم تعد غاضبة بل حزينة أشد أنواع الحزن الذي يختبره بشر لذلك لا تريد البقاء هنا، منذ عودتنا قبل أسبوعين وهي تلح لنسافر من جديد».

تعض سجي شفيتها تكتم بكاء يوشك أن يفلت فيقترب العم رياض منها قائلاً بتلطف: «أنت عقلك كبير يا سجي ومتفهمة اتركي الأمور بيد الله المستقبل لا أحد يعلمه وربما في يوم ما ستجدين خالتك عند باب بيتك تبسم لك وتطلب القهوة من يديك».

لم تستطع سجي قول شيء لقد أحبطت كل تأملاتها في مصالحة خالتها وكانت ولادة طفلها آخرها، لم تعد تؤمن أن هناك أمل لتجد فسحة مسامحة، اقترب العم رياض وقد طال الصمت ليكتفي بتوديع سجي وهو ينظر لساعته قائلاً: «يجب أن أعود».

لم تعلق سجي بشيء بينما رافقه علي حتى باب المستشفى الخارجي وحالما عاد للغرفة وجد سجي تنتظره وما إن التقت نظراتهما حتى همست: «علي».

لم تقل إلا اسمه ليغلق الباب بالمفتاح ثم اقترب من سريرها بصمت خلع

حذاءه وانضم إليها مستلقياً جوارها فتلتجئ لحضنه ترتجف أنفاسها ويتجمع
في صدرها البكاء لتأتي همسته: «ليتني أستطيع منحك كل أنواع المشاعر
حتى لا تشعرني بافتقاد أحد، انفجرت بالبكاء في حضنه وهو يضمها بقوة
ويقبل وجهها المتعب مضيفاً بحمائية غاضبة: «لا تحتاجين لمسامحة من
أحد أنا وحسين وكل ما سيرزقنا الله من أولاد نكفيك وزيادة». تتشبث
بعلي أكثر ودموعها تسيل.

في المقبرة

تجلس نبراس جوار قبر ابنتها تلامس شاهد القبر الرخامي الأبيض بكفها
وهي تكلمها بقلب احتله الحزن ويأبى الرحيل عنه: «بارد الرخام يا هيام
واسمك الغالي عليه أشد برودة».

تسيل دموعها وتتعثر كلماتها بالغصة هامة: «أختك أنجبت ولداً ولداً
انتظرناه أنا وأبوك منك أنت».

يتمزق قلبها بشديد الوجد وهي تميل لتلامس بخدها جمود الرخام لتشكو
علتها: «ليتني أجد طريقة لأنسى هذا الألم لكنني حتى المحاولة تشعرني
كأنني أخونك».

«أنت تؤلمينها بكلامك هذا يا نبراس».

التفتت نبراس لزوجها وقد حضر أخيراً هي من طلبت منه إحضارها إلى

هنا بينما هو ذاهب لرؤية مولود سجي وعلي، نظرت إليه ورأته كيف يحدق
بشاهد القبر مضيفاً: «رحم الله روحها الشابة التي عادت إليه».

ثم حول نظراته إلى زوجته مضيفاً: «أنا واثق أنك في يوم ما سترين
العوض الذي لا ترينه الآن، رحمة الله كبيرة يا نبراس، تحتاجين فقط للنظر
جيداً فما نالنا من فقد قد ناله غيرنا من البشر أضعافاً ولم ينل عوضاً في
الدنيا كعوضنا نحن».

عادت دموع نبراس تجري وكفها يمسد فوق الشاهد قائلة بارتجاف:
«ليتنى مثلك يا رياض ليتني مثلك».

مد كفها إليها وهو يكتفي بالقول الصابر المحتسب: «رب العباد كريم
بعطائه لهم رحيم بهم فعال لما يريد إن أراد شيئاً قال له كن فيكون فقط
قولي يا الله».

وضعت كفها في كف زوجها ليساعدها على النهوض وهي تقول من
صميم وجع القلب: «يا الله».

بعد ساعات

أمام شباك غرفة المولودين حديثاً وقفت حريز وهي تعانق بطنها بكل
كفها، جسدها يرتجف ودموعها تنسكب وهي تنظر بضباية للمولودين وفمها
يردد الحمد: «الحمد لله يا رب الحمد لله ألف حمد وشكر لك يا رب».

«حريرتي».

لم تهتم أنها في الممر وسط المستشفى وهي تلتفت لنداء عامر لترمي نفسها على صدره تحتضنه بكل ما تملك في روحها من عشق له، همسها يشقُّ بكاء الفرح: «إيجابي.. إيجابي! الممرضة أخبرتني للتو.. أنا حامل عامر.. حامل بطفلك».

يتحرك بها بعيداً قليلاً عن مرأى البارة في ممر المستشفى رغم قلتهم وكفاه تضمانها بقوة إليه، أصابعه تكاد تغور في لحم ظهرها من شدة سعادته دون شعوره عاد لتلك اللحظة الأولى بينهما للمسمة الحرير الأولى التي خطت قدره، رعدة تأثر مرت في جسده بالكامل وهو يشدد احتضانها فيتذكر دعاء جدّه محمد (اللهم بارك لنا فيما أعطيت) فوجد لسانه يلهج بذاك الدعاء الطيب من قلب مؤمن بالفطرة.

في المطعم عيد الأضحى

على مائدة طويلة جلست عائلة القماش بانتظار حضور كبيرها سليم القماش كي يطلبوا الطعام تعبس نورجان وهي تقول للجدّة بخفوت: «أرأيت ابنك المصون؟! حتى في العيد يذهب للمصنع يتفقده».

غمزت الجدّة بعينيها كأنها تحايلها ثم تهادنها بالقول المتلطف: «قلق على عمله يا ابنتي لقد بذل مالاً وجهداً كبيراً منذ أشهر هو وشاكر». تأففت

نورجان وهي ترد بغیظ: «أنت تلزمین صفه على طول الخط».

فتحدق الجدة في السقف ونظراتها تبوح بما لم يقله لسانها كأنها تحاكي السماء وتقول شاكية (ألن تعطيها بعض الهدوء والتعقل يا رب سألقى وجهك الكريم وهي كما هي!).

إلى جوار الجدة جلست الكنات الثلاث تحتضن حرير الصغير حسين وهي تلاعبه بحنو وتسأل سجي: «متى سيبلغ شهره الثالث؟».

ردت سجي بابتسامة واسعة: «ما زال باكراً ثلاثة أسابيع».

تضمه حرير لصدرها ولا تكف عن تقبيل عنقه وشم رائحته وقلبها يرفرف في شوق لتحمل طفلها وتدله هكذا، تمط رونا هي شفيتها وقد جلست في آخر المائدة جوار سجي ثم تنظر لبطنها الكبيرة قائلة لرفيقتها: «أنا أظن ببطني الكبيرة هذه، سألد طفلي مباشرة بعمر الثلاثة أشهر».

تنفجر سجي وحرير ضاحكتين، بينما تدفع رونا هي الكرسي للخلف لتقف على مهلها وهي تقول بتذمر: «اضحكا أنتما واطركاني لصاحب المطعم الذي سيطلبني بدفع المال لقاء استخدامي الحمام للمرة العاشرة».

ثم نظرت للسقف على طريقة الجدة وتمتعت: «متى ينتهي الشهر الأخير من الحمل يا ربي».

عرضت حرير عليها: «هل آتي معك؟». ردت رونا هي وهي ترفع كفها باعتراض: «لا داع.. يكفيني رفع راية الإخراج لوحدي، وقد حفظتني

الوجه في المطعم ذهاباً وإياباً».

غادرت رونا هي وستان الحمل الفضفاض الأصفر يرفرف حولها، بينما عينا عمر تتابعانها بإشفاق ينصت لحديث شقيقه عن المصنع الجديد للألبسة وباله مشغول برونا هي إنها تأخذ الأمور بفكاهة لكن حقاً تبدو مختنقة بحملها الثقيل، جدته تنبأت أنها حامل بينت وقد كانت بالفعل حسب فحص السونار تبسم وهو يفكر رغماً عنه أنه يحب طراوة جسدها وليونته حتى وهي ممتلئة هكذا تبدو لذيذة، خرجت رونا هي من الحمام فتمر بأربعة شباب جالسين على طاولة واحدة آخر المطعم كانوا في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات وصوت ضحكاتهم عال في المكان لم تكن تدري أن أحدهم كان يتابعها بنظرات وقحة وقد تراهن مع أصدقائه على فعلة سمجة متهورة، حالما مرت رونا هي بتلك الطاولة لم تشعر إلا بلمسة (كف) أحدهم حطت على أسفل ظهرها! في اللحظة ذاتها وكردة فعل فورية عفوية تلقائية كانت تستدير إليه لتوجه له لكمة قوية بقبضتها وسط وجهه، يعتقد علي حاجبيه وهو يرفع رأسه باتجاه الأصوات القادمة من نهاية المطعم بينما يتساءل عامر: «ما هذا؟! شجار؟!».

وقبل أن يرد علي تعالت الضيحات والصراخ ومن بينها صياح أنثى ثائرة ليهب عمر فجأة دافعاً كرسيه بقوة للخلف وهو يقول: «إنه صوت رونا هي».

في لحظات كان الأشقاء الثلاث هناك؛ في مقدمتهم عمر الذي جن جنونه وهو يرى رونا هي تصرخ في رجل يمسك أنفه والرجل يرد لها الصراخ، لم

يشعر إلا وهو يهجم عليه ليمسك بخناقه، بينما علي وعامر يحاولان تهدئته ليفهموا ما جرى؛ لكن رونا هي كانت تتصبب عرقاً وهي تهدر: «هذا البغل لمسني من الخلف».

جملة واحدة فقط لتشقق رونا هي بعدها وهي تشعر بمن يسحبها للخلف وقبل أن تدرك أن حماتها من جرتها كانت عيناها تتسعان وهما تشهدان عراقاً منقطع النظير ابتدأه عمر بنطح الرجل في جبهته، فكانت تلك النطحة كصافرة البداية لنزال حامي الوطيس بين رجال القماش والرجال الأربعة الذين تحرشوا برونا هي، وفي وسط الشجار الرهيب كانت سجي وحرير تمسكان نونة لمنعها من مشاركة أولادها في ذاك العراك الشرس.

بعد نصف ساعة بات المطعم شبه خالٍ وصاحبه يضرب كفاً بكف تضربت بعض الكراسي والطاولات بينما نونة تصرخ في النادل ليحضر بعض الثلج، تمسح حرير الدم عن خد عامر وهي تويخه همساً: «كنت أظنك أعقل من شقيقك».

يرد لها بابتسامة واسعة شقية فتهاز حرير رأسها إحباطاً، عمر يجلس زوجته على كرسي وهو يقول لها: «تنفسي تنفسي بعمق واسترخي».

تفعل رونا هي ما يقول وهي تنظر لجبهته وتقول: «لقد نطحته! بالله عليك كيف فعلتها؟!».

فيضحك عمر دون أن يرد أما علي فقد أخذ يصرخ في صاحب المحل وهو

يلومه على استقبال رجال من هذه النوعية في مطعم عائلي محترم، حاولت سجي تهدئة زوجها كما حاول صاحب المطعم استرضاءهم جميعاً وتهذئة الأمور، خاصة وقد طرد الرجال الأربعة من المطعم بعد فعلتهم المسيئة، في تلك اللحظة دخل سليم القماش ففتتسع عيناه وهو ينظر إلى هذا الوضع العجيب! كانت أمه الأقرب إليه وهي تحمل حفيده الباكي وتحاول إسكاته ليقترّب منها أولاً ويأخذ الصغير يضعه على كتفه ويريت على ظهره كي يهدأ كما كان يفعل مع أبيه وهو رضيع بينما يسأل: «ماذا حصل يا أم سليم؟!». ردت الجدة وهي تعوج فمها يميناً وشمالاً: «نونة وأولادها وما أدراك ما هم عندما يجتمعون!».

بعد ساعة بيت سليم القماش

كان الجميع غارقاً بالضحك وروناهي تحكي لحميها تفاصيل الشجار في المطعم، بينما غابت نونة منذ دقائق بعد أن تهاست مع الجدة سرّاً، لم يطل غياب نونة لتعود وخداها متوردان وهي تحمل حملاً ثقيلاً! لتعلن بصوت مرتفع: «هذه مفاجأتي لكم في العيد مستعدون؟».

صمت الجميع وهم ينظرون إليها تحمل لوحاً مربعاً كبير الحجم ومغطى بقطعة قماش خفيف، بفضول أخذوا يتطلعون إليها بينما تبادل نورة نورا النظرات مع الجدة لتشجعها بابتسامة قبل أن تكشف نونة عن المفاجأة

وهي تزيج الغطاء الخفيف، صمتت الوجوه والعيون تحديق باللوحة التي أسندتها نونة إلى أحد الجدران لينظروا إليها بتمعن واندھاش، تمتم سليم وهو يقف على قدميه ويتحرك صوب اللوحة قائلاً: «هل هي اللوحة التي كنت ترسمينها؟ لكنك قلت إنك تركتها».

ردت عليه وهي تتورد أكثر كأنها عادت طفلة: «هذا سرنا أنا والجدة كانت تحفظها لي وأرسم فيها خلال النهار وأنتم غائبون».

عمّ الصمت وسليم يمد يده ليلامس المرسوم على اللوحة في قمة الجزء العلوي من الصورة أطل وجه سليم العميق النظرات وجواره وجه نورجان المُعتد، وإلى اليمين والداه بسماتهما الجنوبية وإلى اليسار والداهما بسماتهما الشمالية، أما الجزء السفلي فكان من نصيب الأولاد الثلاث علي وعامر وعمر، علي بعينين خضراوين وسمرة أهل الجنوب الحارة، وعامر الشقي ذو الابتسامة الخلابة، ثم عمر بوسامته وطيب نظراته ورقة ابتسامته وإلى جانب كل منهم زوجته، سجي بنظرة واثقة هادئة وحرير بنظرة أبيّة منتصرة، وروناهي بنظرة صافية صريحة.

وما بين الجزئين العلوي والسفلي من اللوحة في قلب الوسط تحديداً التمع تاج ذهبي مدهش.

أخذ سليم يمرر أصابعه فوقه بنظرات شديدة التركيز فشرحت نورجان وقلبها يخفق بقوة انتظاراً لآرائهم: «لقد رسمته من صورة لأحد الملوك

وتحت التاج البابلي مكتوب وبخط مهيب (تاج الدين) ثم أسفله مكتوب كلمة (القماش) لكن بخط رقيق ناعس وقد انبعثت من نقاط حرف (الشين) أقمشة حريرية بيضاء متموجة لترفل حول أفراد عائلة القماش.

تتوتر نورجان والغطاء الأبيض ما زال في يدها تعتصره وهي تطالبهم بالقول: «قولوا شيئاً لماذا تصمتون هكذا؟!».

كانت سجي أول المستجيبين لتقول بنظرة فنية: «عن نفسي أنا منبهرة حد العجز عن التعبير، إنها مذهلة مذهلة خالتي أنت رسامة بالفطرة، الوجوه ودقة تعابيرها تناسق الألوان التاج ودلالته».

هتفت نورجان وهي تتنفس براحة بعض الشيء: «حقاً سجي؟ كنت أنتظر رأيك تحديداً».

فكان دور حرير لتقول لها بإعجاب شديد: «إنها رائعة وحية للغاية جداً خالتي ألا تفكرين بامتهان الرسم؟ أنت موهوبة وتستطيعين إقامة معارض».

فتساءلت نورجان بتردد: «هل تظنين؟». ردت حرير: «مؤكد يجب أن تأخذي الأمر على محمل الجد: «ردت نونة».

في الواقع هو خطر لي وسأفكر فيه جيداً أنا لم أشعر بالسعادة قدر سعادتي وأنا أعود للرسم».

تجمع أولادها الثلاثة حولها وهم يشجعونها منبهرين باللوحة ومنبهرين
أكثر كيف استطاعت إخفاء الأمر عنهم طوال هذه الأشهر، اقتربت رونا هي
ببطنها الكبيرة من اللوحة لتقول وهي تركز في صورة وجهها المرسومة:
«هل أبدو حولاء؟!».

فيقرصها عمر وهو يهمس: «ششش».

فتهز كتفيها وهي تعود لتنظر إلى صورتها بتمعن وتكاد تقسم أن حماتها
رسمتها حولاء، حتى اللحظة لم يقل سليم ولا حرف واحد وقد انتظرته
نورجان طويلاً حتى لم تنطق أكثر، فاقتربت لتقف جواره ثم سأله مباشرة:
«ما رأيك سليم؟ قل لي الحقيقة رأيك يهمني أكثر منهم جميعاً».

قال سليم وأصابعه تمر برعشة خاصة فوق وجه أبيه هامساً بحشجة تأثر:
«لم تنسي أبي».

فردت بتأثر مماثل وهي تنظر لوجه أمها هامسة: «وأمي».

ما زالت أصابع سليم فوق وجه أبيه حتى سألت دموعه دون إرادته هامساً:
«اشتقت إليه.. اشتقت كثيراً».

رفعت كفها نحو كتفه لترت هناك والدموع تتجمع في عينيها هي الأخرى
هامسة: «سليم أنت تبكي؟!».

رفع سليم كفه ليمسح دموعه ثم تبسم قائلاً بعينين لامعتين: «لقد أبدعت
نونة وكأنك جعلتني أرى أبي حياً من جديد أي صور أخرى لا تنطق هكذا

كما جعلتها أنت، إنها لوحة حكاية».

ردت وهي تميل برأسها على كتفه وأولادهما يتجمعون حولهما لتقول نونة بفخر: «إن كان جدك الأكبر تاج الدين فأنت تاج القماشين». همس متورداً بطيبة من مديحها: «نونة». فقالت بفخر أشد: «وتاج رأس نونة».

علا صغير الأولاد ورنّت في الأجواء الضحكات والجدّة تصلي على النبي: «اللهم صل على محمد وعلى آله وصحبه وسلم».

*** تمت ***

٢٠/١٠/٢٠٢٠

(1) «يوم الشربت* (أو يوم المشاية) هو من التقاليد العراقية في الزواج، ويعتبر الخطوة الأولى لإتمام الموافقة رسمياً، في هذا اليوم يتجمع أصدقاء العريس وأقرباؤه (من الرجال فقط) في بيت العريس، ثم يذهبون معاً لبيت العروس، ويستقبلهم والد العروس وأقرباؤها من الرجال، وذلك استعداداً لطلب يد العروس رسمياً، وطلب يدها يكون بوساطة رجل كبير في العمر من أهل العريس، وعند إعلان موافقة أهل العروس، فإن والدها يقول لأهل العريس (نتشرف بكم)، وذلك يعني أن الموافقة على عملية الزواج تمت، وبعد ذلك تُقدّم الشربات والعصائر، وفي نهاية اليوم يحدد أهل العريس وأهل العروس موعداً للخروج وشراء الذهب، إذ تخرج العروس والعريس لشراء جميع مستلزمات العرس والذهب، كما يتم تحديد المهر في هذا اليوم من أهل العريس وأهل العروس.